السَّيِّد رَشِيد رِضَا رحمه الله

أو

إخَاءُ أَرْبَعِينَ سَنَةً



تأليف

الأمير شكيب أرسلان

أمير البيان

عضو المجمع العلمي العربي

قرأه وعلّق عليه

د/ مدحت يوسف السبع

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة







السيد رشيد رضا

أو

إخاء أربعين سنة

تأليف

الأمير شكيب أرسلان
أمير البيان
عضو المجمع العلمي العربي

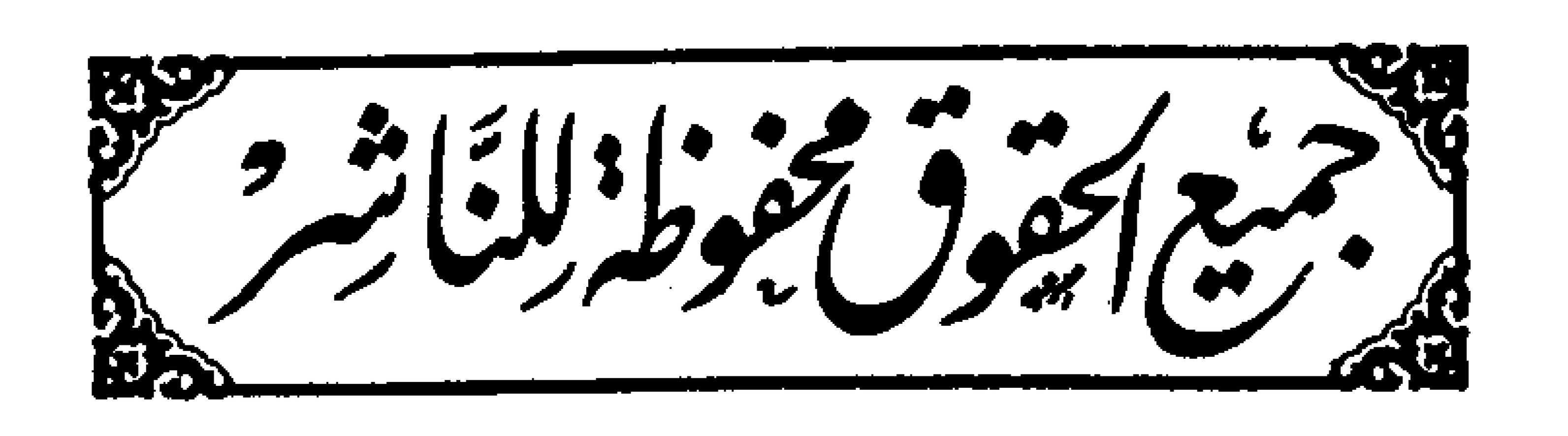
قرأه وعلق عليه

د/ مدحت يوسف السبع
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الفضيلة

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة . ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦



بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

هذا الكتاب :

يضم ترجمة لصاحب (المنار) العلامة السيد **محمد رشيد رضا** ومكاتبات منه إلى نجيّه الأمير **شكيب أرسلان** . وهذه الترجمة يزينها - أولاً - أنها بقلم الشيخ رشيد نفسه وبتعليق **الأمير شكيب أرسلان** ؛ إذ إنه صديق العمر ورفيق الجهاد .

وهذه المكاتبات على جانب من الأهمية كبير ؛ إذ إنها نجىّ أخ مع أخيه ، يبوح فيها بمكنون صدره ، ولا يترقب أن تقع عين عليها ، ومن ثم يرد كلامه على سجيته ، دونما تكلُّف ، وترد آراؤه صريحة دونما تحوّط . فإذا عرفنا - إلى جانب ما سبق - أن آراء صاحبها شملت أمورًا سياسية واجتماعية واقتصادية ذات بالٍ - أنزلنا هذه المكاتبات منزلها الحق .

وقد قال عنها **الأمير شكيب** نفسه : « هذه المكتوبات الرشيدية - بحسب نظرى - أحسن ما كتب **السيد رشيد** فى حياته ، وإن كان كلام السيد كالغيث لا يُدرى أأوّلُه خير أم آخره »[1] .

فترة هذه المكاتبات :

لقد غطت هذه المراسلات مدة خمسة عشر عامًا ، حيث بدأت من سنة 1921م التى اجتمع فيها **السيد محمد رشيد رضا بالأمير شكيب أرسلان** فى جنيف بسويسرا أثناء عقد المؤتمر السورىّ الفلسطينىّ ، وانتهت سنة 1935م ، وهى السنة التى لقى فيها السيد الشيخ محمد رشيد رضا ربه ؛ حيث كان آخر خطاب فى غرة جمادى الأولى سنة 1354هـ الموافق 31 يوليو 1935م ، وكانت الوفاة فى 23 جمادى الأولى سنة 1354هـ الموافق 22 أغسطس 1935م ، أى إن هذه المكاتبات استمرت إلى قبيل وفاة السيد **الشيخ محمد رشيد رضا** ، وشملت سنوات العمر الأخيرة التى يكون فيها النضج ، وتظهر فيها ثمرة العمر أبهى ما تكون . وقد زاد عدد هذه المراسلات عن مائتى رسالة ، وقد كانت أول مكاتبة تخصّ الحرب التركية السورية وموقف كبار رجالات الفكر والسياسة منها .

وكانت آخر مكاتبة تخصُّ سفر **الأمير سعود بن عبد العزيز آل سعود** ووفد معه إلى باريس ومنها إلى سويسرا .

---

(1) **انظر** : ص 242 .

صفات مكتوبات الشيخ محمد رشيد رضا :

نلاحظ من قراءة مكاتبات الشيخ **محمد رشيد رضا** أن لها سمات واضحة ، تكاد لا تتخلف ، وأهم السمات :

1- **يؤرخ رسائله** بالتاريخ الهجرى يتبعه الميلادى ، ويكون التاريخ فى أعلى الصفحة ، وكان حريصًا على أن يذكر اليوم والشهر والسنة ، وقد يذكر اسم اليوم فيقول فى يوم : السبت الموافق كذا . وقد يكتب اسم الشهر مختصرًا ، هكذا : (ت 2) ، ويقصد به شهر تشرين الثانى .

2- **يبدأ** رسالته بذكر بعض نعوت **للأمير شكيب** ، فيقول : الأخ الكريم والولىّ الحميم ، أو سيدى الأخ الأمير . . . إلخ . وقد يتبع هذه النعوت بجملة دعائية من مثل : سيدى الأخ الأمير ، حياه اللَّه تعالى . . . إلخ .

3- قد يختصر بعض الجمل ، هكذا : (ر . ح .) ويعنى بها : رحمه اللَّه .

4- يختم رسالته بالسلام ، ثم يعقب بأنها : (من أخيك رشيد) ، أو يذكر اسمه فحسب ، هكذا: (رشيد) .

5- قد يضع - أحيانًا - بعض الحواشى فى نهاية الرسالة بعد التوقيع عليها بكلمة (رشيد) .

من ورد ذكرهم فى هذه المراسلات :

قد ورد ذكر كثير من رجالات السياسة والعلم والأدب فى هذه المراسلات ، ومنهم : **الخديوى عباس حلمى ، الملك عبد العزيز آل سعود ، مصطفى كمال أتاتورك ، السنوسى ، الإمام يحيى صاحب اليمن ، الملك فيصل ، الأستاذ الإمام محمد عبده ، الشيخ محمد أمين الحسينى ، شكرى القوتلى ، رياض الصلح ، عبد السلام بنونة ، هاشم الأتاسى ، الشيخ الدجوى ، الشيخ الظواهرى .**

العلامة الشيخ محمد رشيد رضا :

ولد **السيد محمد رشيد رضا** سنة 1282هـ / 1865م فى قرية القلمون على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان ، وهى تبعد عن مدينة طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال . وعاش حياة ملأها سعيًا وحديثًا وكتابة ، إلى أن تُوفى بعد ظهر الخميس يوم 22 أغسطس 1935م أثناء عودته من السويس إلى القاهرة حيث كان يودّع **ولىّ العهد السعودي سعود بن عبد العزيز آل سعود** ، وقد جاءت بياناته فى آخر جواز سفر له هكذا :

جواز مصرى للسفر باسم **الشيخ محمد رشيد رضا** ، مصرى بالتبعية ، تاريخه : 4 يوليو 1930م ، ينتهى العمل بالجواز فى : 3 يولية 1935م[1] . **المهنة** : صحفى ، **مكان الميلاد** : القلمون - طرابلس - سورية 1865م ، **الإقامة** : القاهرة ، **الطول** : 165 سم ، **لون العيون** : سوداء ، **لون الشعر** : أسود .

وقد كان العلامة **الشيخ رشيد رضا** - طيب الله ثراه - صاحب جهد كبير ، وترك مؤلفات كثيرة ذات تأثير ، وشارك فى معترك الحياة السياسية بنشاط واضح ، ومن ثم يحسن أن نعرف نمط حياته الذى ساعده على تقديم هذا الرصيد الضخم من المؤلفات العلمية والمشاركات السياسية .

نمط حياة الشيخ محمد رشيد رضا أو سلوكه اليومى :

كان - رحمه الله - يستيقظ قبل الفجر للصلاة وقراءة القرآن ، وبعد الصلاة يجلس إلى مكتبه حتى الصباح ، ثم يخرج للمشى ، وكان يقرأ القرآن أثناءه ، وقد يصطحب بعض أبنائه أو زوجه ، ثم يعود ليتناول الفطور ، ثم يستغرق فى عمله إلى الظهر ، ثم يعود فيتناول الغداء ، وينام قليلاً ، ثم ينهض ، ويصلى الظهر مع الأسرة جماعة ، ويجلسون أمامه يعلمهم القرآن أو مبادئ الدِّين حتى العصر ، فيصلُّون ، ثم ينصرف إلى أعماله حتى وقت متأخر من الليل ، وكان عشاؤه خفيفًا[2] .

قيل عن العلامة الشيخ محمد رشيد رضا :

عُرف عن **السيد محمد رشيد رضا** نبوغ منذ حداثة أظفاره ، شهد له به خلصاء أهل العلم فى عصره .

يقول عنه العلاَّمة **الشيخ حسين الجسر** : « أنت أهل علم ، وصاحب حجة »[3] .

وقال عنه **الأستاذ الإمام محمد عبده** :

ولست أبالى أن يقال : محمد ... أبلّ ، أم اكتظَّت عليه المآتمُ
ولكنه دين أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضى عليه العمائم
وللناس آمال يرجون نيلها ... إذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيا ربّ إنْ قدرت رُجعى قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدًا ... رشيدًا يضىء النهج والليل قاتم
يماثلنى نطقًا وعلمًا وحكمة ... ويشبه منّى السيف ، والسيف صارم
ويخرج وحى الله للناس عاريا ... عن الرأى والتأويل يهدى ويلهم

(1) لاحظ أنه توفى بعد انتهاء جواز السفر بقليل ؛ حيث توفى فى 22 أغسطس 1935م .

(2) **انظر** : رشيد رضا : ص207 .

(3) المنار والأزهر : 173 .

وقال عنه الأمير شكيب أرسلان ضمن قصيدة طويلة :

أين الذى كان إنْ أجرى يراعته ... فى أىّ فنّ أتانا بالأعاجيب

وقال عنه العلامة أحمد محمد شاكر : « نشأ عابدًا متعبدًا زاهدًا متنسكا ، يذهب إلى المسجد فى السحر ولا يعود إلا بعد ارتفاع الشمس . . . كمّل تربية نفسه بكثير من العلوم العصرية . . . وكان من دعاة فكرة الجامعة الإسلامية . . . »[1] .

سنوات فى تاريخ السيد العلاَّمة الشيخ محمد رشيد رضا

1282هـ / 1865م	ولد بقرية قلمون جنوب طرابلس الشام .
1298هـ / 1881م	التحق بالمدرسة الرشيدية الابتدائية بطرابلس .
1299هـ / 1882م	التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية .
1313هـ / 1895م	لقى الأمير شكيب أول مرة فى بيروت .
1314هـ / 1896م	نال الإجازة من المدرسة الوطنية الإسلامية .
1314هـ / 1896م	أول لقاء مع الأستاذ الإمام محمد عبده فى الشام .
1315هـ / 1897م	نزل إلى الإسكندرية ، ومنها إلى القاهرة .
1315هـ / 1897م	أول لقاء مع الأستاذ الإمام محمد عبده فى مصر .
1315هـ / 1898م	صدور أول عدد من (المنار) .
1327هـ / 1909م	شارك فى إنشاء جمعية الجامعة العربية .
1327هـ / 1909م	محاولته التوفيق بين العرب والترك .
1330هـ / 1911م	شارك فى افتتاح معهد الدعوة والإرشاد.
1335هـ / 1916م	أُغلق معهد الدعوة والإرشاد .
1338هـ / 1919م	عُيّن رئيسًا للمؤتمر السورىّ العام .
1344هـ / 1925م	شارك فى المؤتمر السورىّ الفلسطينيّ فى جنيف بسويسرا .
1344هـ / 1925م	شارك فى مؤتمر إسلامىّ بالحجاز للبحث فى شئون الحكم الإسلامى .
1350هـ / 1931م	شارك فى المؤتمر الإسلامى فى القدس بفلسطين .
1352هـ / 1933م	أخرج كتابه (الأزهر والمنار) .
1354هـ / 1935م	وفاة السيد محمد رشيد رضا فى طريق عودته من السويس إلى القاهرة .

(3) الأعلام الشرقية : 3/ 1076 ، 1077 .

الأمير شكيب أرسلان :

هو شكيب بن حمود بن حسن بن يونس ، ويمتد نسبه حتى يصل إلى الأمير أرسلان الذى مات سنة إحدى وسبعين ومئة هجرية (171هـ) ، وينتهى نسبه إلى المنذر بن ماء السماء اللخمىّ .

ولد فى 25 ديسمبر سنة 1869م ، وتوفى 9 ديسمبر سنة 1946م ، ودرس بالمدرسة الأمريكية بالشويفات ، ثم دخل مدرسة الحكمة ببيروت سنة 1879م ، وبها كانت أول مقابلة مع **الشيخ محمد عبده** ، حيث لفت نظره ، وأثنى عليه .

ثم دخل المدرسة السلطانية ببيروت سنة 1887م ، ودرس على يد **الأستاذ الإمام محمد عبده** ، وسافر إلى مصر سنة 1890م ، ولقى فيها **الشيخ محمد عبده** ، ورحل إلى الآستانة ، ولقى فيها **الشيخ جمال الدين الأفغانى** ، وسمع منه ، وتأثر به .

والتقى **السيدَ محمد رشيد رضا** أول مرة فى بيروت سنة 1313هـ / 1895م .

وكان من ناتج هذه العلاقة الوطيدة هذه المراسلات التى حفظت على المسلمين والعرب تاريخًا لم يدوّن فى مؤلفات المؤرخين إضافة إلى ما بها من مباحثات ومطارحات لغوية وشرعية .

وقد كان يطوى ذكر بعض الأسماء أو الفقرات لمحذور سياسىّ أو اجتماعىّ أو لاجتناب مراء أو لتفادى عتاب أو لعدم فائدة من نشره .

وقد كتب **الأمير شكيب أرسلان** مؤلَّفا عن **أمير الشعراء أحمد شوقى** ، عنوانه : « شوقى أو صداقة أربعين سنة » ، وقد أخرجته مطبعة عيسى البابى الحلبى سنة 1355هـ / 1936م . وأعادت طبعه **دار الفضيلة** بالقاهرة عام 2003م . والملاحظ أن الفرق بين العنوانين هو أنه استخدم مع **أمير الشعراء** كلمة (صداقة) فى حين استخدم مع **السيد محمد رشيد رضا** كلمة (إخاء) .

وله مؤلفات أخرى ذائعة الصيت ، منها : **لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟** ، وقد ترجم إلى عدد من اللغات ، **تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط** . وله مخطوطات ، منها : **اختلاف العلم والدين** ، ما لم يرد فى متون اللغة وغيرها .

عَمَلى فى الكِتاب

لقد جاء عملى فى هذا الكتاب قراءةً وتعليقًا ، وقد اقتضت القراءة أمورًا ، هى :

- شكل الألفاظ الملبسة بنية أو إعرابًا أو هما معًا .
- ذكر معانى ما غمض من ألفاظ وتعابير ؛ إذ إنَّ الفترة الفاصلة بين الطبعة الأولى لهذا الكتاب وهذه الطبعة طويلة ، فقد صدرت طبعة هذا الكتاب الأولى عن دار ابن زيدون بدمشق سنة 1356هـ/ 1937م . وقد اتسعت الهُوَّة بين استعمال اللغة وقتها واستعمالها الآنىّ اتساعًا واضحًا ، فضلاً عن أن هذه المراسلات كانت متبادلة بين شيخين من شيوخ اللغة والأدب كبيرين ، وهى نجىّ روح إلى روح ، وفى هذا من الانتقاء فى استخدام اللغة ما فيه .
- وضع علامات ترقيم دقيقة تساعد على فهم النص ؛ فقد جاء الكتاب – تقريبًا – خلوًّا من علامات الترقيم إلا يسيرًا ؛ إذ إن فى هذه الفترة المبكرة لم يكن الاهتمام بمثل هذه الأمور قد نضج .

وقد اقتضى التعليق أمورًا أخرى ، هى :

- تخريج ما ورد من آيات وأحاديث وأقوال مأثورة وأمثال وغيرها ؛ إذ إن فى هذه الفترة المبكرة لم تكن هذه السمة من سمات المنهج العلمىّ فى التأليف معروفة ، فضلاً عن أن بعض ما ورد فى هذا المؤلَّف كتابة خاصة بين علمين . وقد فرَّقنا بين تعليقنا وتعليق **الأمير شكيب أرسلان** بأن وضعنا علامة (★) أمام كل تعليق له . وما وجد من تعليقات **الشيخ العلامة محمد رشيد رضا** كنا نضع عليه العلامة نفسها ونكتب بعده : (حاشية بالأصل) .
- استخلاص التواريخ المهمة ، وذكر ما حدث بها مما يتعلق بحياة الإمام العلامة **الشيخ محمد رشيد رضا** . وذكر صفات مكتوبات العلامة **الشيخ محمد رشيد رضا** .
- ترجمة الأعلام الوارد ذكرها فى نصوص هذا الكتاب ، وهى كثيرة جدًا .
- التعليق على القضايا ذات الشأن الواردة فى هذا المؤلَّف متى رأينا موضعًا لقلم .

د/ سرحت يوسف السبيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : 105]

مقدمة

لقد قَضَت العقولُ وأيّدتْ حُكْمَها التَّجَارِبُ التى قد تكون العقولُ نتيجةَ تكرارِها – أنَّ الإنسانَ فى هذه الحياة الدنيا لا يُلاتُ[1] شيئًا من أعماله ، وأنَّ هذه لن تَخفى على الناس مهما حِيلَ بينها وبينهَم ، وأنَّه لن يَطمسها طامسٌ ، ولن يَقْدِرَ أنْ يَغْمِطَ[2] من حقِّها غامط ، مهما حاوَل المحاولون ، وكابر المكابرون . وهذا فى هذه الحياة الدنيا التى أَكْثَرُ ما فيها الظلمُ ، وأَفشى ما فيها الباطلُ ، فكيف تكونُ الحالُ فى الآخرة التى هى بحبوحةُ الحقِّ ، ودارُ الجزاء ، والتى لا يُظلم فيها أحدٌ فَتيلاً ، قال اللّه تعالى : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود : 15] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأحقاف : 19] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر : 70] ، إلى ما لا يكاد يُحصى من الآى العِظام التى تَشهد بأنَّ اللّه لن يَتِر[3] أحدًا من خلقه عملَه .

وما أَحْرى عبادَ اللّه بأنْ يتأدَّبوا بأدب اللّه فيتعوّدوا إنصافَ بعضِهم بعضًا ، ويَذكروا كلَّ إنسان بعمله غيرَ منقوص ، ويُؤدُّوا إليه حقَّه غيرَ مبخوس ، حتى يرغبَ الفاضلُ فى الأُحدوثةِ الحسنة فيستكثرُ من الخير ، ويعلمَ الفاجرُ أنَّ عليه من ألسنة الخلق حسيبًا ، ومن أعينِهم رقيبًا ، فيتنكَّب[4] طريقَ الشَّرِّ . وقد أشار اللّه أيضًا إلى وُجوب القسط وجعله من العزائم المفروضة ، فقال : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [هود : 85] ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء : 58] .

---

(1) **لات فلانا حقَّه** : نقصه إياه .
(2) **غمِط الحقَّ** : أنكره وهو يعلمه .
(3) **وتر فلانا حقَّه** : نقصه إياه .
(4) **تنكَّب الطريق المعوج** : تجنَّبه .

وقد سار أولو الخُلق من الخَلق على هذه الخُطة الرشيدة ، وأخذوا بهذه السُّنة القويمة منذُ تأسس المجتمع الإنسانى على وجه الأرض ، فَزكُّوا مَن تَزكَّى ، وَأَثنوْا على المحسن بما أحسن ، وذكروا المسيءَ أو المسرفَ بما يستحقُّه من الوصفِ ، وإنْ استنكفوا عن القدحِ فيه عَلنًا من باب التعفُّف ، فإنَّ فى ذلك السكوتِ الهائلِ الذى يسكتونه عن تزكيته حيًّا وفى ذلك الصمتِ الناطقِ عن الشهادة له والتَّرحُّمِ عليه مَيتًا ما فيه من العبرةِ لمن اعتبر ، ومن الموعظة البالغة لمن عَقَلَ . ولو لم يكن للمرء غيرُ تلكِ الساعةِ الرهيبةِ التى هى ساعةُ السؤالِ عنه قبلَ دفنه ، وانتظارِ جواب الناس عنه - لكان ذلك كافيًا فى الزجر عن المعاصى وفى الحثِّ على الفضائل . اللهمَّ وفقْنا إلى العمل الذى يُرضيك ولا تُخزِنا فى مثل تلك الساعةِ التى هى العمرُ كلُّه .

وبعدَ هذا فلا شك فى أنه إذا وزن عمل كلٍّ من أعيان هذا العصر بل من أعيان كلِّ عصر[1] كان السيدُ الإمام محمد رشيد رضا من أرجحهم ميزانًا ، وأوفاهم قِسطًا ، لا يَجحدُ ذلك إلا مَن رانت عليه الضلالةُ ، أو أعماه الغرضُ . وإنى لأجدُ نَشْرَ مناقبه والتنويه بقدْره والإشادةَ بحسناته الكثيرة والإنارَة لبراهينه الساطعة من عزائمِ اللَّه المُوجَبَةِ وفرائضِه المُبرَمَةِ عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الشعراء : 182] . هذا مضافًا إلى ما كان بيننا من الإخاء القديم ، والذِّمام[2] المتين ، والرمى عن قوس واحدة والاقتداءِ بإمام واحد . لا جرمَ أنى أرى ترجمتى له دَينًا علَيَّ لا يجوز أنْ ألوى[3] به ما دامت لى أنامل تُمسك القلمَ .

وُلد محمد رشيد رضا فى 27 جمادى الأولى سنة 1282هـ فى قرية القلمون على شاطىء البحر المتوسط من عَمَلِ[4] طرابلس الشام ، وهو فرعُ دَوْحَةِ شرفٍ وأصالةٍ ، ونَبْلُ كِنانةِ

---

(1) أعتقد أن هذا جائز باستثناء القرون الأولى التى شهد لها النبى ﷺ عدة شهادات ترفعها عما سواها ، وتقرر عدم إمكان أحد نزولَ منازلها العالية . روى مسلم بسنده عن عبد اللَّه قال سئل رسول اللَّه ﷺ أىُّ الناس خير ، **قال** : « قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . . . » صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة .

(2) **الذمام** : العهد .

(3) **ألوى بحقِّه** : جحده .

(4) **عمل وجمعها أعمال** : المركز وغيره فى التقسيم الإدارى .

كرمٍ ونَبالةٍ ، وسليلُ بيتٍ أُسِّس على التقوى ، فكان الرشيدَ اسمًا وفعلاً ، وَرَغِبَ منذُ حداثته فى الجِدّ ، وأعرض عن اللهو ، ولم يعرف غُرورَ الشباب ، وطلَبَ العلمَ طلبًا حثيثًا ، وحصَّله تحصيلاً تامًّا ، ولم يقنعْ من العلم إلا بدرجة التحقيق ، ولا رضى مِن فنٍّ من الفنون إلا باللباب ، وفاق أشياخَه فى العلم ، وهو بعدُ فى شَرْخِ[1] الشباب ، وراقب نفسَه فى سِيرته الشخصية ، فاتَّسم بالصلاحِ ، وتحلَّى بحَلْى الفضيلة ، وعزف مِن صغره عن الصغائر ، وتعلَّق بمعالى الأمور ، وكأنه توسَّم فى نفسه الرئاسةَ الدينيةَ ، وتفرَّس أنه يكون صدرًا فى الشريعة ، فَهدى هَذَىَ مَن يكونُ إمامًا وقدوةً . وصادف زمنُه دورَ انهيار العالم الإسلامى مِن كلِّ جهة بغفلة أهله عن الجِدِّ فى سبيل الفلاح والدَّأب فيما يقوِّم المَناد[2] ، وبتغلُّب الجهالة والأُميَّة على السَّواد الأعظم من هذه الأمة وما يتبعُ الجهلَ من فساد الأخلاق ، وانحلال القواعد ، والسعى فى مراضى الأَجانب الذين يتربَّصون بالمسلمين الدوائرَ ، فأدركَ بصدقِ فِراسته وبُعدِ نَظره أنَّ العصرَ الذى يَستقبلُه إنَّما هو عصرُ إصلاح ودور إيقاظ ، وأنَّ الإسلام فى حاجة مِلحاح إلى مَن يُمَثِّلُ فيه هذا الدورَ بأسرع ما يمكن ، استبقاءً لذَّماء[3] يتردَّد بين الحياة والموت ، وانتباشًا لحشاشة تَحْشرِجُ بينَ السَّحَر والنَّحر . وكان يعلمُ أنَّ فارِسَى هذا المضمار وإمامَى هذا المحرابِ فى أوائل هذه المائة الرابعة عشرة من حياة الإسلام إنما هما السيدُ جمال الدين الحسينى الأفغانى وتلميذُه الشيخُ محمدُ عبده المصرى تغمَّدهما اللّه برحمته ، فَسَمَتْ نفسُه إلى اقتفاء أثرِهما ، وعوَّل على ترسُّم خُطاهما ، فجعل سيرتَهما موضعَ ائتمامه ، وآراءَهما نار اعتشائه[4] ، وَدَرَسَ أنحاءَهما دَرْسَ مَن عضَّ عليها بالنواجذ ، وشمَّر قاصدًا إلى مصرَ ليتصل بأستاذنا الشيخ « محمد عبده خير اللَّه » الذى كان الشيخُ رشيدٌ أولَ مَن أطلق عليه لقب « الأستاذ الإمام » إذ كان اتخذَه إمامًا ، وعاشرَه لِزَامًا ، وأنشأ مجلة « المنار » لبثِّ أفكارِه فى الإصلاح الدينىّ والاجتماعىّ والإيقاظ العلمىّ والسياسىّ ، فبلغَ المنارُ فى مُدّة

---

(1) **شرخ الشباب** : أوله ونضارتُه .

(2) **التَّمائل** ، وفعله (ناد) ، يُقال ناد الرجل نُوادًا : تمايل من النعاس .

(3) **الذَّماء** : بقية الرُّوح فى المذبوح .

(4) **اعتشى النارَ** : رآها ليلاً ، فقصدها مستضيئًا بها .

غيرِ مديدة من نفوس المسلمين المَدَى الذى أمَّله من التقويم والإصلاح ، وكان له أبلغَ التأثير فيما حَصَلَ فى هذه الأمة من الانتباه والانتهاض ، وصار المنارُ هو المَجَلةَ الشرعيّةَ الأولى فى العالم الإسلامى ، يُحتجّ بها ويرجع إليها ، وأصبح موئل الفتيا فى التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة ، وسارت فتاويه فى الآفاق ، وطبَّقت الشرقَ والغربَ ، وعدَّ الناسُ المنارَ حتى فى أوروبا معلمةً إسلاميةً منقطعةَ النظير ، وما زال السيدُ رشيدٌ يُزْهِرُ[1] هذا المنارَ من سنة 1315هـ إلى سنة 1354هـ أىْ ما يقرُب من أربعين حولاً بلا ملل ولا ضَعفٍ ولا فُتورٍ ، ومنارُه يَزداد تألُّقا ، ويَبهر تفوُّقا ، ويُنير الطريقَ للسالكين ، ويَهدى مَن عَسعس[2] عليهم ليل المشكلات فَلَبِثُوا حيارى إلى أنْ قبضَ اللَّه هذا السيدَ السَّندَ إلى رحمته . وقد كتب فى إفادة هذه الأمة وإرشادها ما ندَر أنْ يكونَ قد وُفِّقَ إلى مثله غيرُه من فحول علمائها سواء فى الكمية أو الكيفية . وإليك إحصاءَ تآليفه :

(1) **تفسيرُ القرآن الكريم** الشهير بتفسير (المنار) ، فسَّر به 12 جزءًا من الذكر الحكيم فى 12 مجلدًا ، وآخرُ ما وصل إليه فى التفسير من الجزء الثالث عشر الآية الكريمة المرقومة بمائة وواحد من سورة يوسف عليه السلام : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ الآية .

(2) **التفسير المختصر المفيد** : أراد ، رحمه اللَّه ، أنْ يجعلَه كالمتن لتفسير المنار ، وطبع منه مختصر الأجزاء 1 ، 2 ، 11 ، 12 ، وبعض 13 ، ثم لما صحت نيتُهُ على كتابة هذا التفسير كان بادئًا بكتابة تفسير الجزء 11 من تفسير المنار ، وفى أثنائها طبع الجزء الأول من التفسير المذكور الذى كان أَخَّر طبعَه وأعادَ طبعَ الجزء الثانى منه . ولذلك يُوجد جزءان من أول التفسير وجزءان من آخر ما وصل إليه السيد قد اختُصرتْ وطُبعتْ . وكان قد وصل فى الاختصار فى التفسير إلى الجزء الخامس ، وحمد اللَّه على التيسير لصعوبة اختصار ذلك لأنه كان قد كُتب بأسلوب خطابى على طريقة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأسلوبه . وفيه ملخَّص ما قاله رحمه اللَّه من التفسير فى الدرس .

---

(1) **أزهرَ النارَ وغيرها** : أضاءها .

(2) **عسعس الليل** : أقبل بظلامه .

(3) **مجلة المنار** : صدر المجلدُ الأَولُ منها سنة 1315هـ وكان آخرَ ما طُبع منها أكثرُ الجزء الثانى من المجلد الخامس والثلاثين فى 29 ربيع الثانى سنة 1354هـ ، ووزع الجزءُ الثانى بعدَ وفاة السيد تغمَّده اللَّه برحمته .

(4) **تاريخُ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده** وما جرى بمصر فى عصره ثلاثة أجزاء ، وكان سَيُكمِلُه بجزء رابع لى فيه أنا الفقير إلى ربه فصلٌ فى آراء الأستاذ الإمام ، أعدَّه للنشر فى هذا الجزء كما كان لى فى الجزء الأول 14 صفحة من 399 إلى 412 عن تاريخ وجود الشيخ محمد عبده فى بيروتَ[1] .

(5) **نداءٌ للجنس اللطيف** (حقوق النساء فى الإسلام) : وقد تُرجم إلى بعض اللغات .

(6) **الوحىُ المحمدى** : وقد تُرجم أيضًا إلى لغات ، ولى فصل بآخره .

(7) **المنار والأزهر** : وفيه ترجمةُ السيدِ نفسَه بقلمه ، ونحن ناقلوها بحروفها فى كتابنا هذا ، وقد علَّقنا عليها حواشىَ وافيةً فى تاريخ عَلاقتنا معه .

(8) **ترجمةُ القرآن وما فيها من المفاسد** .

(9) **ذكرى المولد النبوى** .

(10) **مختصَر ذكرى المولد النبوى** : وكان يُقرأ فى حفلة الذكرى التى يحضُرها ملكُ مصرَ أو نائبُه .

(11) **الوَحدةُ الإسلامية** : طُبع أكثرُها من قبلُ باسم « محاورات المصلح والمقلد » .

(12) **يُسْرُ الإسلام وأصولُ التشريع العام** .

(13) **الخلافة أو الإمامة العظمى** .

(14) **الوهَّابيون والحجاز** .

(15) **السُّنةُ والشيعةُ** : ظهر منه الجزء الأول ، ووعد بإكماله بجزء ثان .

(16) **خطابٌ عامّ** فيما يَجب على المسلمين لبيت اللَّه الحرام وحرم رسوله عليه الصلاة والسلام .

(17) **مناسكُ الحجّ** : أحكامُه وحِكَمُه .

---

(1) أعادت دار الفضيلة طبع تاريخ الإمام عام 2003 م فى أربعة مجلدات .

(18) **المسلمون والقبط**[1] .

(19) **تفسيرُ الفاتحة والكوثـر والكافرون والإخلاص والمعوِّذتين** فى مجموعة فيها تفسير سورة العصر وإشارات للأستاذ الإمام .

(20) **رسالةٌ فى الصَّلْبِ والفداء** .

(21) **مكتوباته الخصوصية** رحمه اللّه إلى أخيه هذا ، وهى تَزيد على 200 مكتوب اخترنا إلحاقَها بهذا التأليف لأنها من أعلى ما كتب ، وفيها فوائد من كلِّ نوعٍ ، وقد طوينا منها بعض جُمل اقتضت السياسةُ وقربُ العهد طيَّها ، ولكننا تجنبنا أنْ نتصرفَ فيها بجملة واحدة .

فهذا إحصاء الكتب المطبوعة[2] . وأما التآليف التى لم تُطبع أو طُبع بعضُها ولم تُنشرْ فهى هذه :

(1) **حقيقةُ الربا** : وتنقص فى هذه الرسالة المقدمة والخاتمة التى أَراد السيد أنْ يدوّنَ فهمَه وفتواه بها . طُبع منها 96 صفحة .

(2) **مساواةُ المرأة بالرجل** : وأَصلُها مناظرة مع الدكتور محمود عزمى فى الجامعة المصرية والمطبوع منها 64 صفحة .

(3) **رسالة فى حجة الإسلام الغزالى** : طبع منها من 28 سنة 48 صفحة .

(4) **المقصورةُ الرشيديّةُ** : عارض بها المقصورة الدّريديّة ، وذكر فيها بعض أغراضه ومقاصده الإصلاحية . وكان ينتظر فرصة يُحِلُّ فيها غريبَ المقصورة ويطبعُها .

(5) **رسالةٌ فى التوحيد** : على طريقة السؤال والجواب . كتبها باقتراح الأستاذ الإمام وحسن باشا عاصم لمدارس الجمعية الخيرية الإسلامية .

---

(1) شاع أن كلمة (القبط) تعنى النصارى ، ولكنها أوسع دلالة من هذا ، فهى تعنى المصرىّ . « لسان العرب : ق . ب . ط » ؛ ولذلك أطلق على مارية التى أهديت من المقوقس إلى النبى ﷺ مارية القبطية .

(2) للشيخ محمد رشيد رضا – طيب الله ثراه – مؤلفات أخرى لم يُشر إليها هنا الأمير شكيب، منها : كليات الدين ، وشبهات النصارى ، وحجج الإسلام ، ويسر الإسلام فى النهى عن السؤال .
وحقق عددًا من الكتب والرسائل ، منها : الهدية السنية والتحفة الوهابية لابن سحمان ، والمغنى لابن قدامة ، والفروع لابن مفلح ، (**انظر** : محمد رشيد رضا : 39) تأليف : خالد بن فوزى عبد الحميد ، دار قرطبة .

(6) **الحِكمةُ الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية** : وهى أول مؤلفات السيد رشيد ، ألفها فى أثناء طلبه للعلم ، وكان مرادُه الردَّ على السيد أبى الهدى الصيادى فيما تعرَّض به للشيخ الصوفى السيد عبد القادر الجيلانى وما نَشر من الدعاية لنفسه ، وقد انتهى من ذلك إلى تحقيق مسائل فى الإصلاح الإسلامى ، وقد نَشر بعضها فى المنار . ونال المؤلف أذى بسبب هذه الرسالةِ من جماعة السيد أبى الهدى فى أيام السلطان عبد الحميد .

ثم إنَّ الأستاذ الجليلَ الشيخَ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية وغيره مِن أصحاب السيد أرادوه على جمع فتاويه وطبعها على حِدة ، فكلَّف أحدَ الإخوان أنْ يجمَعها مِن مجلَّدات المنار ، وعمل لها فهرسًا زاد على كرَّاستين لكن لم يتيَّسر طبعُها(★) .

هذه هى مؤلفات هذا الرجل الذى لم يُضِعْ ساعةً واحدة من حياته بلا عمل مفيد للإنسانية عمومًا وللإسلام خصوصًا ، ولو لم يكن له سوى هذه المجلدات الخمسة والثلاثين المَوْسُوْمَةِ بالمنار لكان ذلك له كافيًا ليكونَ نورًا يَسعى بين يديه فى الدنيا والآخرة ، نسألُ اللّه أنْ يتغمَّدَه برحمته ورضوانه وأنْ يُحييه بروحه وريحانه . وآخرُ دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين ، وصلى اللّه على محمد الأمين وعلى آله وصحبه آمين .

جنيف 20 محرم 1356هـ

شكيب أرسلان

(★) طبعت فيما بعد فى بيروت بعناية وإعداد د. صلاح الدين المنجد

ما قلتُه عن السيد رشيد فى حياته

من طبيعة البشر أنَّهم لا يُنصفون الإنسانَ إلاَّ من بعدِ موته ، ولا يُحبّونه إلا فى قبره ، وأنه ما دام حيًّا يجدون فى صدورهم حرجًا من إيتائه تمامَ قِسْطِه[1] من الثناء ، حتى إذا مضى إلى ربه ظهرت لهم محاسنُه وتوارت عن أعينهم عيوبُه بما يكون قد حجز بينها وبين أعينهم من التراب الذى ضمَّه ، وبما يكون الموتُ قد أشعرَهم من رقَّة القلب وخشوعِ الضمير وذَهابِ الحقد وارتفاعِ أسباب الحسد ، ولذلك قيل إنَّ المعاصرة حجاب ، وقال بعضهم :

تَرَى الفتى يُنْكِرُ فضلَ الفتى   فى عصرِه حتَّى إذا ما ذَهَب

جَدّ به الحرصُ على نُكتةٍ   يَكتُبها عنه بماءِ الذّهَب

أما أنا فلم أقل رأيى فى السيدِ رشيد رضا بعدَ وفاته ولا شاب إعجابى بفضله شيءٌ من رقة العواطف التى تصحَب الحُكْمَ فى حقِّ الأموات ، بل قد أَبديتُ عظيمَ رأيى فيه يوم كان ملآنَ حياةً وقوةً ، وإليك ما قلتُه فى « حاضر العالم الإسلامى »[2] من صفحة 283 إلى صفحة 286 من المجلد الأول .

ذكرتُ أولاً أستاذَنا الإمامَ الشيخ محمد عبده فى ترجمة مختصرة ثم أردفتُها بقولى :

ومن حسناته الكبرى وأياديه التى ملأ بها طباقَ العالم الإسلامىّ بِرًّا أخذُه بيد الأستاذ العلاَّمة السيد رشيد رضا فى نشر مَجلة (المنار) التى هى لسانُ حال ذلك المُصْلِح العظيمِ وترجمان أفكاره . فهى ، والحقّ يُقال ، أحسنُ مجلةٍ ظهرت فى باب الإصلاحِ الدينىّ وتطهيرِ الإسلام من شوائب البدع وإعادته سيرتَه الأولى فى عهد السَّلف وتأليفه مع المدنية الحاضرة ، كما أنَّ الأستاذَ السيدَ رشيدًا المشارَ إليه هو الأَوْلى بأنْ يَخْلُفَ الأستاذَ الإمامَ الشيخَ محمد عبده فى مشروعه ، وفَّقه اللَّهَ وسدَّد خُطاه .

ويطول العهدُ بعدَ الأستاذ الأكبر السيد رشيد فسَّح اللَّهُ فى أجله حتى يقومَ فى العالم

---

(1) حقه .

(2) هو كتاب للأمير شكيب أرسلان .

الإسلاميّ مَن يَسُدُّ مَسَدَّه فى الإحاطة والرَّجاحة وسعة الفكر وسعة الرواية معًا ، والجمعُ بين المعقول والمنقول والفُتيا الصحيحة الطَّالِعَةُ كفَلَقِ الصُّبح فى النوازل العصرية والتطبيقُ بين الشرع والأوضاعِ المحدَثة مما لا شكَّ فى أنَّ الأستاذَ الأكبر هو فيه نسيجُ وَحْدِهِ[1] انتهت إليه الرئاسةُ لا يُدانيه فيه مُدَانٍ مع الرسوخِ العظيم فى اللغة والطبع الريَّان من العربية والقلم السيّال بالفوائد فى مثل نسق الفرائد والخبرة بطبائع العمران وأحوال المجتمعِ الإنسانيّ ومناهج المدنية وأساليبها وأنواع الثقافات وضروبها إلى المنطق السديد الذى لم يُقارعْ به خَصمًا مهما علا كعبُه إلا أفحمَه وألزمَه ، ولا نَازَل قِرْنًا[2] كان يَستطيل على الأقران إلا رماه بسُكاتِه وألجمه . وأجدرُ بمجموعة (المنار) أنْ تكونَ المَعْلَمَةَ[3] الإسلاميةَ الكبرى التى لا يَستغنى مسلم فى هذا العصر عن اقتنائها ، كما أنَّ التفسير الذى وفَّقه اللَّه به لكشف أسرار كتابه العزيز هو من آياته الباهرة التى خلَّدت اسمَه فى هذه الأمةِ وقرَنته بكبار الأئمة ، وله من المواقف الشريفة فى النضال الدينيّ عن الإسلام ، والمراماةِ[4] عن عقيدته الصافية ، ومن الكتب الجدلية فى ردِّ شبهات أعدائه من أبناءِ الملل الأخرى ومن المُلحِدَةِ والمُعَطِّلَةِ ما لا يَقدرُ أحدٌ فى عصرنا هذا أنْ يدركَ فيه شأوَه[5] ، ولا يستطيعُ جهبذٌ[6] من جهابذة الإسلام أنْ يَبلغَ فيه مُدّه ولا نصيفه[7] . إنّه الرجلُ الذى لو دعا كلُّ مسلم بإطالة حياته حبًّا بخدمة الإسلام والمسلمين لكان بذلك جديرًا . وليس فى كلامنا هذا شىء من الإطراء ، ولا ثمةَ ما يَدعونا إليه ، وإنما أُمِرْنا بأن لا نبخسَ الناسَ أشياءَهم وهو أمر إلهى صريح[8] ، كما أنَّنا لسنا ممن يرى المعاصرةَ

---

(1) **نسيجُ وَحْدِهِ** : أى فريدٌ ، لا نظير له ولا مثيل .

(2) **قِرْنُ الإنسان** : مثله فى الصفة ، وهو مما يستوى فى المذكَّر والمؤنث يقال هو قِرنٌ ، وهى قِرْنٌ .

(3) معلم ومعلمة والجمع (معالم) ، ومعلم المكان ما يستدل به عليه .

(4) **راماه مُرَاماة ورماءً** : رمى كل منهما صاحبه ، وفى المثل : (قبل الرِّماء تُملأ الكنائنُ) . « جمهرة الأمثال 2/ 122 » . **الرِّماء** : رمى السهام ، الكنائن جمع الكنانة : الجعبة ، **والمعنى** : تؤخذ أُهبة الأمر قبل وقوعه .

(5) غايته .

(6) **جَهبَذٌ والجمع جَهَابِذَةٌ** : المَبرِّز فى مجاله وتخصّصه .

(7) **أى** : لا يُدانيه أحد .

(8) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ [هود : 85] .

حجابًا عن تقدير الفضائل قدرَها ، بل نرى أنَّ المُنصف يجب أنْ يَزِنَ أقدارَ الناس فى الحياة **وبعدَ** المَمات بميزان واحد . وإنْ كان من ضرائب البشرية أنْ تَقسو على الأحياء وأن تَحنو **على** الأموات ، وأن لا تُعطى لإنسان حقَّه غيرَ منقوص إلا إذا مات .

ولقد حرَّر السيدُ رشيدٌ تاريخَ أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده رحمه اللَّه فى مجلدين كبيرين يزيدان على أَلْفَى صفحةٍ ، وسيعززهما بمجلد ثالث(★) فيكون من الفضول أنْ نقولَ إنه لا تاريخَ للشيخ محمد عبده غيرُ هذا التاريخ ، وهو الذى فيه ترجمةُ حالِه بتفاصيلها ، وحياتُه من المهدِ إلى اللحد ، مع ذكر منازِعه بدقائقها وعقائدِه بحقائقها ومنشآتِه بنصوصها وأخبارِ الحوادث التى خاضها والمسائل التى راضها[1] ، وقد دخل فى هذا الكتاب تاريخُ السيد جمال الدين الأفغانى ، وسِيَرُ أعلامٍ آخرِين ، وتلخيصُ الحوادث العربية فى مصر ، ورواياتٌ كثيرة عن الخديوى السابق ، ووثائقُ تاريخيةٌ لا توجد فى كتاب آخَر ، ومباحث عقلية وشرعية وسياسية وأدبية ولغوية لا يَعْثُرُ القارئُ على مثلِها فى غير هذا الكتاب . وللفقير إليه تعالى راقم[2] هذه الأسطر فى الجزء الأولِ مِن هذا السفر الجليل فصلٌ عن حياة الأستاذ الإمام أيامَ كان فى بيروتَ ، وكنَّا متصلَين به ، وهو نحو من 14 صفحةً ، ولهذا الفصلِ تتمةٌ وعدَ الأستاذُ رشيدٌ بنشرها فى الجزء الذى لم يَظهر بعدُ .

ولما كان الأستاذ السيدُ رشيدٌ من كبار المحدِّثين ، وله فى هذا الفنِّ من الطَوْل ما ليس خافيًا على أحدِ ، فقد امتزجَ خُلُقُ التمحيص بدمِه ولحمِه ، وأصبح لا ينشرحُ صدرُه إلى الخبر إلا إذا وَثِقَ بأسانيدِه وآمنَ بأمانة رجالِه . وقد يسوقُ الروايةَ من جملة طرق إلى أنْ يَثْلُجَ[3] بها الصدرُ ، ويطمئنَ لها الفكرُ . وهذه طريقةُ السلف عندنا ، لا يَرْوُونَ شيئًا لا من الأحاديث النبوية وأخبار الصحابة ، بل لا يَرْوُونَ شيئًا من الأشعار والآداب وسِير البشر والحكايات – إلا عَنْعَنُوه[4] مُسَلسلاً ، وربما أشاروا إلى درجة رجاله ، فقوّوا وليَّنوا كما لا يَخفى على مَنْ

(★) وقد صدر المجلد الثالث الذى ذكرناه .

(1) ناقشها وأظهر الرأى فيها .

(2) رَقَمَ الكتاب وعليه وفيه : كَتَبَهُ .

(3) ثَلَجَ صدرُه يَثْلُج بالشىء : سُرَّ واطمأنَّ .

(4) أى رَوَوْه عن فلان عن فلان . . . إلخ .

طالعَ كُتُبَهم ، وكانت له أُلفةٌ بطريقتهم . وهذه الطريقةُ هى اليومَ طريقةُ الأوروبيين أيضًا : لا يَرْوُونَ خبرًا ولا يَنقلون جُملةً ولا أثرًا إلا وضعوا فى الحاشية مَأْخَذَهَا والكتابَ الذى أخذوها عنه مع ذكر الصفحة وذكر طبعة الكتاب وتَعْيِينِ المطبعة أحيانًا . وكلُّ ذلك توثيقًا للنقل ونصحًا بالتبليغ وتمهيدًا للحكم الصحيح الذى لا يتهيأ للقارئ إلا بعدَ مقدّمات صحيحة وَبينات رَجيحة .

ومن نفائس تآليفهِ السِّفْرُ الذى أخرجه مؤخَّرًا تحتَ عُنوان « نداء للجنس اللطيف »[1] فيه بيانُ حقوق النساء فى الإسلام ، وتحقيقُ مسائل اجتماعية تَدورُ أكثرَ من كلِّ المسائل فى هذا العصر ، مثل تَعَدُّدِ الزوجات والتسرّى[2] والحجاب والسفور والطلاقِ وما يتعلّقُ بأزواج النبى ﷺ من الأحكام والحِكَم وتكريم النساء وبرِّ الوالدين وتربية البنات وغير ذلك . قد جاء الأستاذ فى هذا الكتاب بالآيات البيّنات على حِكمة الشرع الإسلامى وغفلة المعترضين عليه جهلاً أو تجاهلاً . ولا يَسعُنى إلا توصيةُ الخلق بمطالعة هذا الكتاب إذ ذاك أحسنُ ما يُمكن وصفُه به . فإنّ الجواد عينه فُرَارُه . ولكنّى أُوردُ شذرةً واحدةً من هذا الكتاب من قَبيل التمثيل لِيَقِيسَ القارئ عليه : قال فى باب التَّسَرِّى الصحيح فى الإسلام :

« كلُّ ما كانت عليه الأمم القديمة وكلُّ ما عليه الأمم الحاضرة من التسرِى واتخاذ الأخدان فهو فى شرع الإسلام من الزنا المحرَّم قطعًا ، الذى يَستحقُّ فاعلُه أشدَّ العقاب ، وكلُّ مَن يستبيحُ هذا الفجورَ الخفىَّ وما هو شرٌّ منه مِن السفاح الجلىِّ فهو برىء من دين الإسلام »[3] .

وأما التّسرّى الشرعىُّ المباح فى الإسلام فهو خاصٌّ بسبايا الحرب الشرعية إذا أمر إمامُ المسلمين الأعظمُ خليفةُ الرسول ﷺ باسترقاقهن ، وإنما يكون له أنْ يأمرَ بذلك إذا ثبت عنده بمشاورة أهل الحل والعقد أنَّ المصلحةَ فيه أرجحُ مِن المَنِّ عليهن بالعتق ومن افتداء

---

(1) أصل هذا الكتاب مقال كُتب تلبية لدعوة من لجنة تتولى تنظيم مؤتمر سنوى يُعقد فى الهند يوم 12 ربيع الأول ، تلقى فيه كلمات من كبار علماء العالم الإسلامى حول قضية معينة ، ثم تترجم هذه المقالات إلى أشهر اللغات الحية وتُنشر .

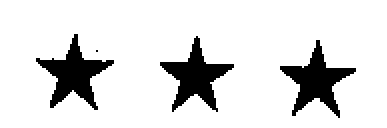
(2) تسرَّى بنتَ فلان : تزوجها لكثرة ماله وقلة مالها ، وهى كريمة وهو لئيم .

(3) **انظر** : نداء للجنس اللطيف : ص 93 .

أسرى المسلمين وسباياهم بهنَّ ، إنْ وُجد عند الأعداء سبايا وأسرى منا . فليس الاسترقاقُ واجبًا فى الإسلام ، لكنَّه يُباحُ إذا كان فيه المصلحةُ التى لا يُعارضها مفسدةٌ راجحةٌ . ولكلِّ حُكومة إسلاميةٍ أنْ تمنعَه ، بل منعُه من مقاصدِ الإسلام العامة ، والاسترقاقُ المعهودُ فى هذا العصرِ للسود والبيض كلُّه باطلٌ فى الإسلام ، فالتسرى بالنساء اللاتى يَخْتَطِفُهنَّ النخَّاسون أو يَبيعُهن الآباءُ والأقربون ، أو يُغريهن التجارُ والقوّادون ، كلُّه عِصيان للّه ولرسوله ﷺ .

فمن مطالعة هذا المثال تعلمُ أنَّ ما يَفهمُه السيدُ رشيدُ رضا من أسرار الشرع لا يفهمُه غيرُه . ولو كان أحد الفقهاء الجامدين وسُئل عن هذا الأمرِ لأجاب بلا تأمّل : إن الاسترقاقَ مباحٌ ، لا بل حرامٌ منعُه ، وإنّ سبىَ نساء الكفار جائز بلا نِزاع وحرامٌ منعُه . وهكذا جاء الإسلامُ والأمورُ الشرعية لا تُعلَّلُ ، بل يجب أنْ نقبلَها على عِلاتها . فإنْ قلتَ له : إنَّ هذه الطرقَ غيرُ مألوفة فى هذا العصرِ ، وإنَّ الاستمرارَ عليها مُضرٌّ بالأمة الإسلامية ، ومما يُجرُّ لها المقتَ والعداوة ، قال لك قولاً واحدًا : هذا هو دينُنا ، ولا نعلمُ غيرَ هذا ، ولم يُفكّر فيما وراء هذه الأحكام بهذا العصرِ من الضرّر بالإسلام والخطر عليه .

أما الأستاذُ السيدُ فإنَّه يُصرِّح لك بما يحفظُ من النص ، ويَفهم من رُوح الشرع بأنَّ الاسترقاقَ مباحٌ إلا إذا عارض ذلك مفسدةٌ راجحةٌ ، وأنَّ لكلِّ حكومة إسلامية أنْ تمنعَه ؛ لأنَّ منعَه هو من مقاصد الإسلام العامة ؛ ثم يُفتيك بأنَّ السبىَ فى الإسلام لا يجوز إلا بإذن السلطان ، وهذا الإذن من السلطان لا يصحّ له بمجرد رأيه ، بل يجب أنْ يؤخذَ فيه رأى عقلاء الأمة . . . إلخ .



السّيدُ رشيدُ رضا كما تَرْجَمَ نَفْسَهُ

فكَّرتُ كثيرًا قبلَ أنْ أبدأَ هذه الترجمةَ فى الطريق الذى يجبُ أنْ أَسلكَه فيها ، فرأيتُ بعد التروِّى أنَّ أَقصدَ الطرق فيها هو نقلُ ما كتبه السيدُ رشيدٌ نفسُه عن نفسه . فقد كان أعلمَ بنفسه وبنشأته وببيته وبيئته ، وأدرى بأعماله وآثاره من أىِّ إنسان آخرَ . وغيرُ معقول أننا نعدِل عن رواياته فى ترجمة حاله إلى روايات الآخرين ، الذين مهما بلغَ بهم العلمُ بأحوال السيد رشيد ، رحمه اللَّه ، فلن يَعلموها كما يَعلمها هو بذاته ، ولقد كان الناس يتخذونه حجةً فى الرواية عن الآخرين ، ويعترفون بِمَشْرَبِه فى زيادة التحرّى وَمْنزِعِهِ البعيد فى التمحيص الذى صار له دَيْدَنًا . فكيف لا نَتّخذه حجةً فى تاريخ بيته وتحرير سِيرته الشخصية .

بقى علينا أنَّهُ قد يَرِدُ على هذا الرأى اعتراضُ المعترضين بأنَّ السيدَ رشيدًا ، وإنْ بلغ الغايةَ فى التحرّى ، واستولى على الأمد الأقصى فى التثبت ، فلن يقولَ عن نفسه ولا عن محتده[1] ولا عن عِترته[2] إلا ما تطيبُ أُحدوثتُه بين الناس ، وأنَّ الإنسانَ مهما كان عَدْلاً لا بُدَّ من أنْ يُتَّهمَ بالميل مع هواه ، وأنْ يُرمى بحبّ تبرئة نفسه من الإثم بباطل أو بحقّ . وقد يرى القارئ فى ترجمة الأستاذ لنفسه كثيرًا من المواضع التى تُحمل على تزكية النفس ، وهو ما نهى اللَّه عنه فى كتابه العزيز . قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : 32] . وقال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : 49] .

ولما كان مثلُ هذا الاعتراضِ جديرًا بالنظر ومجالاً للأخذ والرد ، لم نحبّ أنْ نتركَ هذه المسألةَ دون جواب مُقنع ، ينشرحُ له الصدرُ ، ويقرُّ المنصفُ بأنّه غيرُ ناكب عن جادة الحقِّ .

أولًا – إنَّ الشيخَ رشيدَ رضا كان رجلاً شهيرًا ، قلَّما وُجد فى هذا العصرِ رجلٌ عَرَفَ

---

(1) **المَحْتِدُ** : الأصل ، يقال : إنه كريم المحتد .

(2) **العترة** : نسل الرجل ورهطه وعشيرته .

الناسَ وعرَفه الناسُ أكثرُ منه ، وقد أجمع جميعُ عارفيه ، ولا سيما من كانت لهم معه مخالطة دائمة ، على أنَّه كان صدوقًا لا يقول إلا ما يعتقدُ . وقد يجوز فى الأحايين أنْ يكونَ مخطئًا ، ولكنه لا يجوزُ فى عُرف عارفيه أنْ يكونَ كاذبًا ، بل كان السيدُ رشيدٌ مُفْرِطًا فى حرية الفكر ، يبلغُ به تَوَخِّى الصدق أنْ يَروىَ أحيانًا روايات عن نفسه لا تكون لها ضرورة ، وربّما انتقدَه الناسُ فى استقصائه إلى حدِّها هذا ، فإذا مرَّ القارئُ من ترجمة السيد رشيد لحاله بأقوال يَراها من باب التمدُّح ، فَلْيَعْلَمْ أنَّ السيدَ رحمه اللّه كان أجلَّ من أن يَخْرِق الكذبَ لأجل نفسه ، وأنه ما كان يقولُ إلا الذى يعتقدُه حقًّا . ويجوز أنْ يكونَ للناس فى هذا الموضوع مذاهبُ أخرى ، وأنْ يكونَ بعضُهم ممن يتحرّج عن ذكر نفسه ولو صادقًا ، ومَن يُؤْثرُ أنْ يطوىَ محاسنَه تواضعًا أو خشيةَ أنْ يُنسَبَ إليه مجرّدُ التبجح ، ولكنَّ وجودَ هذا الخُلُقِ عند كثير مِن الناس لا يَجِبُ أنْ يكونَ قاعدةً كليةً مَن زاغ عنها فقد طغى . وكم وكم فى الإسلام بل فى العالم بأجمعه مِن علماءَ أعلامٍ ترجموا أنفسَهم بأقلامهم ، ولم يَتورَّعُوا عن ذكر مآثرَ أَتَوْهَا ومواقفَ شريفةٍ وَقَفُوها ، ولم يَعُدّ العلماءُ ذلك منهم أمرًا نُكْرًا .

ثانيًا – لا ينبغى أنْ نَنْسَى أنَّ السيدَ رشيدًا قضى حياتَه منذُ بداية نشأته إلى سنة وفاته فى مُقارعة الخصوم ومكافحة الأعداء من طبقات مختلفة وأقوام شتَّى ، وكان عفا اللّه عنه لا يَمشى الضرَّاءَ ولا يَعرفُ المداجاة[1] ، فإذا نبذَ نَبَذَ على سواء ، وإذا خاصم خاصم صَرْحَةً بَرْحَةً[2] لا يُورِّى ولا يُوارى ، ولا يكتفى بالإشارات ، وقَلَّما يلوذُ بالمعاريض[★] ، وكثيرًا ما كنتُ أَعْذِلُه[3] على إفراطه فى الصراحة ، وأقول له : إنك فى هذا تَقْطَعُ على نفسِك خطَّ الرجعة ، وقد يتبينُ لك فى ما بعد أنك أخطأتَ أو بالغتَ أو

---

(1) **داجاه** : ساتره بالعداوة ولم يُبْدها له .

(2) واضحةً بلا خفاء .

(★) مِن أكثرِ ما كنتُ أراجعُه به التخفيف من حملاته على إخواننا الشيعة ، ولكنَّه كان قد صدق فيه المثلُ المعروفُ عند عرب البادية : (خيّال الرحمن لا راحم ولا مرحوم) . لم أعثر عليه فى مجمع الأمثال للميدانى ، ولا فى كتاب جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى ، ولا فى كتاب الأمثال للأصمعى ، ولا فى قاموس الأمثال العربية .

(3) ألومه .

عمَّمتَ من حيثُ يجبُ أنْ تخصّص ، فتقع فى الندم ، وتُضْطَرّ إلى نَقْضِ ما قلتَ أولاً .
وكان لا ينجع فيه هذا النصح فى كثير من الأحيان ، لما غلب عليه من شدة اقتناعه برأيه ، فكان ذلك سببًا لتكاثر أعدائه ، ولجاجهم فى مشاحته بحيث لم يُوجد فى عصرنا عالمٌ شهير تعرّض للمهاجمات ، واسْتُهْدِفَ لسهام الوقيعة بقدر مَا اسْتُهْدِفَ له الشيخُ رشيدٌ فى أيامِه كلِّها . وبديهى أنَّ أولئك الأعداء لم يكونوا ليرحموه ، بل لم يكونوا ليُنْصِفُوه ، بل قد كانت تحملُهم شدّةُ الإِحْنَةِ[1] على أنْ يقولوا فيه ما يَعتقدون وما لا يَعتقدون . واستمرَّ الشيخُ رشيدٌ فى نضاله عن مباديه وقِرَاعه لأعاديه طَوالَ الأربعينَ سنة ، التى هى مدّةُ حياتِه العلميّةِ ، لم يَعرفْ فيها الهدنَة ولا المتاركةَ ، فلا عجبَ أن اضْطُرَّ إلى الدفاع عن نفسه بما يُشبه أنْ يكونَ تَمَدُّحًا ، وهو لم يَقصد فى ذلك إلا تبديدَ الشبهات التى أثارها أعداؤه فى حقِّه . ومثلُ هذا الدفاع لا ينطبقُ عليه النَّهىُ الإلهىُّ القائلُ بعدم تزكية المرءِ نفسَه ، ولكنَّه مما يندمجُ تحتَ قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : 41] .

ولنبدأ الآن بنقلِ ما حدَّث السيدُ رشيدٌ به عن نفسِه فى كتابِ عنوانه « المنار والأزهر » المطبوع فى سنة 1353هـ ، وقد جاء فيه ما يلى تحت عُنوان :

فصل فى خُلاصة مِن تاريخ صاحب المنار

بيئتى وبيتى :

ولدتُ ونشأتُ فى قرية تُسمّى القلمون على شاطئ البحر المتوسط من جبل لُبنان ، تبعُد عن مدينة طرابلس الشام زُهاءَ ثلاثةِ أميال ، وكان جميعُ أهل هذه القرية من السادة الأشراف المتواتِرى النَّسبِ ، إلا أنه خالَطهم فى القرن الماضى عددٌ قليلٌ من مسلمِى لُبنان . ولم يُعْنَ أحدٌ بالتزييل[★] والتمييز بينهم لفقر أكثرهم وخمولهم وعدم وجود أوقافٍ لهم يَضبطون مواليدَهم لحفظ استحقاقهم فيها ، وعهدى بالشيوخ منهم أنَّهم

---

(1) **الإِحْنَة** : الحقد والضِّغن .

(★) **التزييل** : التفريق والتمييز ، جاء فى التنزيل ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس 28] .

يعرفون جميعَ الدخلاء ، وكان أخى المرحومُ السيدُ صالح يَعرفُهم أيضًا ، وقد اشتهروا بالشرف وحُسن السيرة ، قلَّما يُعرف عنهم منكرٌ من الكبائر إلا قليلاً من سرقة الفواكه(★) أو التضارب بالعصى فى بعض المشاجرات ، وما يقرُب من ذلك .

وأهل بيتنا ممتازون[1] فيهم بأنَّهم أهلُ العلم والإرشاد والرياسة ، ويُلَقبَّون بالمشايخ للتمييز ، وجدّى الثالث هو الذى بنى لهم المسجدَ المعروف الآن بجانب بيتنا القديم الذى وُلدت فيه ، وكان لهم مسجدٌ قديمٌ هُدِمَ وتقاسموا حجارته لغلبة الجهل عليهم ، فأحيا جدُّنا الدينَ ببناء المسجد وإقامة الشعائر فيه من إمامة وخطابة وتدريس ، وكان عالمًا صالحًا مشهورًا بالكرامات ، وقد أنعم عليه السلطانُ العثمانى ببراءة سلطانية حبس عليه فيها سبعة قراريط من 24 قيراطًا من أموال الدولة الأميرية ، وببراءات أخرى بالإمامة والخطابة فى المسجد ، وقد تسلسلت هذه البراءاتُ من السلاطين فى ذُريته حتى آلت إلىَّ ، فكانت آخرُ براءَة وُجّهت علىَّ أو إلىَّ من السلطان محمد وحيد الدين قبلَ الحرب العامة .

وكانت والدتى من أسلم النساء فطرة وأكرمِهن أخلاقًا وأوفاهن لزوجٍ ، وأَحْنَاهُن على ولد ، وكانَ والدى من أعزِّ الرجال نفسًا(★★) وأجرأهم جنانًا وأسخاهم يَدًا ، وقد بيَّنتُ فى ترجمتهما من المنار ما وَرِثْتُه من أخلاقِهما . وكنت أنا وإخوتى نَهابُ والدَنا أشدَّ المهابة ، لا يرفعُ أحدُنا فى حضرته صوتًا ولا يجلسُ متكئًا ، ولكنّه كان يُمازح البناتِ مِن دُونِنا .

وكان بيتُنا وما زال بفضل اللّه تعالى بيتَ كرم وضيافة كما كتب على لوح الرخام الذى على الباب الكبير للدار التى بناها جدّى الثانى ، يَقبلُ الضيوفَ من جميع الملل ، ويُؤوى أبناءَ السبيل من جميع الأقطار ، وعهدى بأكبر علماء طرابلس وحكامها وُوجهائها يغشون دارَنا فى أيام الصيف ، ويُقيمون فيها أيامًا للتمتع بهوائها اللطيف ومياه ينابيعها

(★) **انظر** : إلى عادته رحمه اللّه فى التدقيق ، وتأمَّل كيف أنه لم يُفلت حتى هذه .

(1) **امتاز الشىء** : بدا فضله على مثله .

(★★) قد عَرَفت والدَ الشيخ رشيدٍ مُنْصَرَفَهُ من مصرَ بعدَ أن زارَ ابنَه فيها ، وذلك منذُ أربعينَ سنةً أو نحوِها ، وكان سيِّدًا باديَ السراَوة (الشَّرَف) ، ولم يكن ظهر الشيبُ فيه حينَ عرَفته رحمه اللّه .

النقية وأصناف الطعام الفاخر عندنا(★) وكنتُ من أول سنِّ التمييز أميلَ إلى العلماء منهم دُونَ الحكام وُوجهاء الدنيا .

وكان والدى من بعدِ جدِّى الذى مات وأنا طفل هو سيدَ الأسرة والبلد المِضياف ، وكان عمه « السيد الشيخ أحمد » كبير الأسرة سنًّا منقطعًا للعبادة ، لا يُقابل من ضيوفنا إلا العلماءَ والأصدقاءَ ، يجلسُ إليهم فى وقت معين بين صلاتى العصر والمغرب ، وكان مجلِسُه مجلسَ أدب ووقار لا لغوَ فيه ولا دُعابةَ ولا إغرابَ فى الضحك . وأذْكرُ أنه كان فى طرابلسَ رئيسٌ لعسكرية الدولة جبّارٌ متكبِّر مَهيبُ الطلعة عظيمُ الجثة جاء القلمون صباحًا ليزورَ الشيخَ ، ولم يكن يُعهدُ منه تكريمُ العلماء والصالحين فى طرابلسَ ، فاستؤذن عليه فلم يَأْذَن . فسأل كيف يَتسنَّى له أنْ يراه ؟ فقيل له : إنه ينزل إلى المسجد للصلاة فيمكنُك أنْ تراه عند نزوله أو عودته ، فانتظره ساعة أو أكثرَ ، حتى نزلَ لصلاة الضحى فسلَّم عليه وَاقفًا ، وأنشدَه الشيخُ أبياتًا فى بيان حالِه ، وأنَّ إعراضَه عنه ليس لذاته ، وقال لمن معه من العرب : تَرْجِمْهَا له وانصرف . وإننى أذكرُها ، وقد نسيتُ أولَ الثانى منها على أنها مشهورة :

أَنِسْتُ بوحدتى وَلَزِمْتُ بيتى ... وطاب الأُنْسُ لى وصفا السرورُ
.... فلا أُزارُ ولا أَزُورُ
ولستُ بسائلٍ ما عشتُ يومًا ... أَسارَ الجندُ أم رَكِبَ الأميرُ

فكانت هذه الحادثةُ من أكبر ما عظّم شأنَ بيتنا فى نفسى ، فوقر فيها أنَّ شرفَ النسب إذا زَانَته التقوى والاستقامةُ يكونُ صاحبُه أكرمَ الناسِ عندَ اللَّه وعندَ الناس .

وقد اتفق له فى شَرْخ[1] شبابه ما هو أغربُ من هذه الحادثة فى عزّة النفس والشجاعة ، وهو أن بعضَ الضباط المصريين جاءوا دارَنا فى عهد احتلال إبراهيم باشا لسورية يطلبون بعض الحاج[2] لهم ، وكان هو الذى قابلهم جالسًا على دِكّةٍ فى

(★) لم يحدث السيد رشيد هنا بشىء لا يعرفه كل أهل طرابلس الشام .
(1) **شرخ الشباب** : أولُه ونضارتُه .
(2) حاجة جمعها حاجاتٌ وحَاجٌ .

الساباط[1] أمام المنزول « أى الدوار أو المندرة » ويأمر بعض الخدم بإحضار ما يطلبون . فقال له الضابط : أنت قاعدٌ تأمرُ وتنهى هنا زى أفندينا ؟ أوم (أى قم) شيل على دماغك . وأقبلَ عليه يُريد جذبه بيدِه ، فرفَسه الشيخُ برجله فى صدره ، فوقع على ظهره ثم دخل الدار وأوصدَ بابَيها وراءه ، وحدَثتْ معركةٌ بين الجند وأهل القرية .

استطراد تاريخى : إبراهيم باشا المصرى

وأقولُ على سبيل الاستطراد التاريخىِّ إن تلك الدكّة فى ذلك الساباط قد نام عليها إبراهيمُ باشا الكبيرُ نفسُه ، فقد حدَّثنا عمُّ والدى هذا أنّ الباشا كان جائيًا من لُبنان إلى طرابلسَ فتعبَ فى الطريق ، فلَّما بلغ بلدَنا القلمونَ ألم بدارنا ليستريحَ ، فدخلَ من الساباط إلى صحن الدار راكبًا جوادَه ، ومدَّ يَده إلى شجرة نارنج يقطف من ثمرها ظانًّا أنها برتقالة ، فرأتْه سيدةُ الدار من أعلاها فصاحت بصوت سمعَه مِن حيثُ لا يَراها : نحن ما صدقنا أننا خلصنا من ظلم عبد اللّه باشا (تعنى الحاكم التركى) ، وقالوا لنا إنَّ حكمَ إبراهيم باشا حكمُ العدل والأمان ، فكيفَ يَدخل عسكرُه علينا هكذا ؟ فخجِل الباشا من فِعله وفرِح بما سمع مِن مَدحِه وذمِّ الحُكْمِ التركىّ ، وخرج . وكان معه مُرافِقٌ (كاخية) من قبل الأمير بَشير يُعرفه بأمور البلاد وأهلها ، فصعد السُّلَّم ، وكلَّم السيدةَ من وراء الباب قائلاً : هذا هو أفندينا إبراهيم باشا تعبان[*] يُريد أنْ ينامَ هنا ساعة . فأرسلوا له حشيةً ومخدّتين ، ونزل وُوضعت الحشيَّةُ والمخدتان له على دكة الساباط ، فنام إلى أنْ استيقظ من نفسه ، فركب جوادَه وسار بحاشيته ، وقد نسى ساعتَه تحتَ الوسادة ، فاتَّبعه خادمٌ أعطاه إياها . قال محدِّثنا : فواللّه إننا عَجِبْنا أنه لم يُعطِه بخشيشًا[**] .

---

(1) **الساباط** : سقيفة بين حائطين تحتها ممر نافذ .

(★) روى الأستاذ هنا لفظة (تعبان) على الحكاية وإلا ففى الفصيح لا يُقال : تعبان ، بل هو تعِب ومتعَب على وزن كتِف ومُكرَم .

(★★) **البخشيش** : لفظة تركية هى مصدر « بخش ايشمك » أى أعطى ، ومقابلها فى العربى (الحلوان) أو ما يعطى للخادم (النُحْلُ) و (النُحلان) بالضم ، وتأمّل هنا أيضًا مَشْرَبَ الشيخ رشيد رحمه اللّه فى نَقْلِ الأخبار على عِلّاتها .

لم تقُل جَدَّتُنا تلك الكلمةَ فى ظُلم الحكم التركى إلا لأنَّ الدولةَ كانت قد صادرت(★) بيتَها مرَّتين بعدَ وفاة زوجها ، وأولادُها قاصرون دُونَ البلوغ حتى باعوا أثاثَ الدار .

استطراد تاريخى آخر : مصطفى آغا بربر(★★)

مصطفى آغا بربر حاكمُ لواء طرابلس الدكتاتور الذى والى الحكومةَ المصريةَ على الترك ، خطب على جَدِّ والدى ابنةَ أخيه ، فأبى . وما زَالَ يرسل إليه الخاطبين عنه من

(★) جاء فى لسان العرب : ومن كلام كتّاب الدواوين أنْ يقالَ : صودر فلان العامل على مال يُؤديه أىْ فورق على مال ضمنه . وهكذا نقل ذلك صاحبُ (أقرب الموارد) بلفظ « فورق » ولكنَّ هذه العبارة نفسَها منقولة فى التاج بلفظ « قورق » بالقاف أولاً ، وهى فى التاج غلط طبع أو نسخ إذ لا معنى (لقورق) هنا ، وأما (فورِقَ) فهو للمجهول من فارقه من حسابه على كذا إذا قطع الأمر بينه وبينه على أمر وقع عليه اتفاقُهما ، ومثلُه صادره على كذا . وكلُّه مولَّد ليس من كلام العرب الأولى . وقد جاء فى (تاريخ الوزراء) تأليف أبى الحسن الهلال المحسن بن إبراهيم الصابى الكاتب المتوفَّى السنةَ الثامنة والأربعين بعدَ الأربعمائة قولُه فى ترجمة أبى الحسن على بن محمد بن موسى بن الفرات « وصودر على مائة وعشرين ألف دينار وصحّ منها ستون فجىء به من محبسه . . . إلخ » وقوله عن لسان الخليفة المعتضد فى ابن الفرات أبى الحسن وأخيه أبى العباس : أسأنا إليهما وصادرناهما . وقوله فى موضع آخر : وسلم إليه علىّ بن عيسى ومحمد بن عبدون فاعتقلهما فى دار بدر اللانى ، وقرر عليهما مصادرةً خفّفها عن على بن عيسى وثقَّلها على محمد بن عبدون لعداوة كانت بينَهما . وهكذا هذه اللفظة تدور كثيرًا فى أخبار ديوان الخلافة[1] .

(★★) رجل عامى من قرية إيعال من قُرى طرابلس ، كان جاهلاً متغشمرًا (غضب وتنمّر) ، ولكنه كانت فيه رجولية تسمو به إلى معالى الأمور ، فدخل فى خدمة الدولة ، وما زال يترقَّى حتى صار متسلِّمًا لطرابلس ، وقد رأيتُ فى تاريخ الأعيان فى جبل لُبنان ذكرَه مرارًا ، وأنه فى سنة 1804هـ كان بربر متوليًا تلك المدينة . وذكرَ صاحبُ أخبار الأعيان أنه فى سنة 1810م ولى سليمان باشا والى الشام مصطفى بربر متسلِّمًا لطرابلس دون القلعة لأنه كان قد حدث شغب بسببها . وذكر أنَّه فى سنة 1819م كان بربر لا يزالُ متوليًا طرابلس ، ولكنه يذكر فى حوادث سنة 1821م أن مصطفى بربر توجَّه من منزله فى إيعال إلى جبَّة بشرّى خوفًا من على بك المرعب إذ بلغه أنه حضر له أمرٌ من عبد اللّه باشا والى عكا وسواحل سورية بأنْ يقبضَ عليه . وكتب بربر إلى عبد اللّه باشا كتابًا يستعطفُه ، وأرسله ضمن كتاب إلى الأمير بشير الشهابى والى لُبنان ليشفعَ به . فكتب الأمير بشير إلى عبد اللّه باشا يلتمس العفو عن بربر ، فجاء العفو عنه ، وذهب بربر ليشكرَ الأميرَ على شفاعته به . فأرسله الأمير إلى الوالى ، وسأله أن يطيب قلبه ويرفع الشماتةَ عنه . فعزل الوالى على بك المرعب عن طرابلس وأعاد بربر متسلمًا عليها كما كان ، فعاد بربر إلى طرابلس وعليه خِلعة الولاية ، واسترجع كلَّ ما أُخذ منه . ثم حصلَت حوادث اضُطّر بسببها أنْ يلجأ إلى الأرسلانيين وينزلَ عندهم فى الشويفات ، وبقى فيها مدةً ، ولما حصلَت الفتنةُ بين الأمير بشير الشهابى والشيخ بشير جنبلاط سنة 1823م وكان الأمراء الأرسلانيون فى الصف المقاوم =

---

(1) وقد أجاز المجمع اللغوى القاهرى هذا الاستخدام ، **قال** : وصادرت الدولة الأموال : استولت عليها عقوبة لمالكها . « الوسيط : ص . د . ر » .

كبراء طرابلس إلى أنْ أسمعه أحدُهم أنَّ الشيخَ امتنع البتةَ ، وعلل ذلك باحتقاره الآغا (إذ كان قبل ذلك من حاشيته) فأرسلَ إليه مرَّتين من حاول قتلَه ، ثم استرضاه فرضى وزوجَّه بها . وقد حدثتنا عمةُ والدى عنها ، وهى ابنةُ عمِّها ، أنهم كانوا يأْبَوْنَ أَخذَ أىِّ شىء منها من هدية وغيرها ولو للبناتِ الصغار - وهى سيدةُ البلاد - ولكنَّهم لم يكونوا يفخرون بهذه السيادة فى حياة زوجها الحاكم المستبدِّ ولا بعدَه . على أنه كان مستبدًّا عادِلاً فى اعتقاده ووجدانه . وأذكر عنه فكاهةً روتها عمةُ والدى عنها ما كان يعرفها كما هى غيرُها . قالت : كان الآغا واقفًا فى صحن الدار للوضوء فاستأذن عليه كاتبُه نعمةُ - وكان نصرانيًا - فأذِن له ، فإذا هو يحمل إعلامًا شرعيًّا فى قضية جنائية ، فسأله : ما يقول القاضى فى المتهم بالقتل . فقرأَه له فإذا هو حُكْمٌ بالبراءة على خِلاف رأيه - وذكرتْ عبارتَه - فقال : والسيدة واقفة فى الشباك تسمع وترى ، « ضربة تشمط رقبته من بين القضاة ما بيعرف شىء خذوه (أىْ المتهم) اشنقوه ، نَوَيْتُ فرائضَ الوضوء » وشرَع فى وضوئه .

وجملةُ القول أنَّنى نشأتُ فى بيت شرف وكرامة وكرم ودين وتقوى وعزة نفس ، يَعتقد الناسُ تسلسلَ الولاية فيه ، ويتبرَّكون بكبار رجاله ، وفى سلسلة نسبِنا عدةُ رجال كانوا يُلَقَّبون (بالصوفى) ، وكان عندنا خِزانة كتب موروثة فيها عِدّة كتب نادرة فى جميع العلوم حتى علم الفلك ، وقد سُرق أكثرُها فى زمن الثورة المصرية . فبهذا يُعْلَمُ أنَّ لى عِرقًا وراثيًّا فى حُبِّ العلمِ والإرشاد والاستعدادِ لهما .

استعدادى الشخصىّ :

كنتُ من الصغر قليلَ الرغبة فى اللعب ، شديدَ الحياء ، ولهذا امتنعتُ من أوائل سنِّ

= للأمير بشير كان بربر من حزب الأمير المشار إليه ، ولما دارت الدائرةُ على الشيخ بشير جنبلاط ومن كان معه من الأمراء الشهابيين والأرسلانيين بسبب إرسال الدولة عسكرًا لنجدة الأمير بشير رجع جدى أبو والدى الأمير حسن أرسلان وابُن عمِّه الأمير قاسم أرسلان إلى الشويفات حيث كان مصطفى بربر مقيمًا فيها ، فَالتَمَسَا منه أنْ يشفعَ لهما لدى الأمير بشير ، ويَظهر أنه لم يَقبل الأميرُ شفاعةَ بربر لهما لأنه حسَب ما يقول صاحبُ تاريخ الأعيان قد أصرَّ على تغريم الأمير حسن والأمير قاسم الأرسلانيين بخمسة وعشرين ألف غرش (يقال : قرش أو غرش ، وهو جزء من المائة من الجنيه أو الليرة) . ثم وَرَدَ ذِكْرُ بربر فى حوادث سنةِ 1832م ، وأنه كان واليًا على طرابلسَ .

التمييز من السباحة مع الأولاد فى البحر ، ودارُنا القديمة على شاطئه ، نَرى السمك فيه من نوافذها عند سكونه فى الصيف ، وتتكسَّر أمواجُه على صخرة أمام الدار الثانية عند هياجه فى أيام الشتاء ، فكنتُ أنزع ثيابى وراءَ صخرة تَستُرنى ، وأسبحُ دائمًا أو فى الغالب منفردًا مُؤْتزرًا ، ولهذا لم أُتقن السباحةَ لأن سببَ إتقانها هو المباراةُ فى الإبعاد فى البحر وفى السرعة .

نفعنى الحياء من ناحية الأدب وصيانة العرض واللسان ، فلم أنطقْ بشىء من كلام المجون والفُحش ، ولم أجهرْ بقراءة شىء مما فى الكتب منه ، ولم أسمحْ لأحد أنْ يتكلّم معى بشىء مما يتسامحُ به الأدباء من ذلك ، وأضرَّنى هو وحبُّ العزلة بما جعلانى كثيرَ النسيان لأسماء الناس لعدم عنايتى بمعرفتِهم . وقد عشتُ بضعَ سنين بين جماعة من طلبة العلم ، ولم أعرف أسماءَهم كلِّهم ، ومن أعلم زملائى فى طلب العلم بذلك الأستاذ العالم الأديب الشهير الشيخُ عبد القادر المغربى(★) عضو المجمع العلمى فى دمشق ، وهو من أعلمِهم بمبالغتى فى التزام الصدق ، فإننى تحدّيتُه بأنه إذا حفظ علىَّ كذبة واحدة كان له حكُمه علىَّ فيها . وإنما كان هذا التحدِّى لأجعلَه رقيبًا علىَّ فى تربيتى لنفسى ، وكنتُ ، وما زلتُ ، أكلِّف كلَّ من أُعاشره أنْ يكاشفَنى بما ينتقدُه على أخلاقى وآرائى ، كما أطالبُ قُرّاءَ المنار فى كلِّ عام بانتقاده .

وكنتُ أُوصف بالذكاء النادر(★★) وأسمع العلماء والوُجهاء يَحُثُّون والدى على العناية

(★) أخونا الأستاذ العلاّمة الكاتبُ البليغُ الشيخُ عبد القادر المغربى من آل المغربى فى طرابلس الشام ومن سرواتها « جمع أَسْرياء وَسَراة وهما بدورهما جمع : سَرى ، أىْ شريف » التى تتباهى بهم طرابلسُ بل البلادُ الشامية بأسْرها ، وقد انتخب عضوًا عاملاً فى المجمع العلمى فى دمشق ، ثم من سنتين أو ثلاث على أثر استعفاء رئيس المجمع الأخ العلامة محمد الكرد على عُهِدَ إليه برئاسة المجمع ، وبقى فيها إلى هذه الأيام الأخيرة سنة 1355هـ ، ثم استقال من الرئاسة وبقى عضوًا فى المجمع ، كما أنَّه من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكى المصرى . وهو مع علمه وفضله وسَعة اطّلاعه وسلاسة إنشائه من أزكى مَنْ عرَفتُ أخلاقًا وأكثرِ مَن عرَفت تصاونًا وتواضعًا وأحسنِهم عهدًا وأعفِّهم لسانًا وقلمًا ، وهو لا يُبارى فى المواضيع الاجتماعية الدينية ، وقد كان هو والسيدُ رشيد رضا عَشِيرَىْ صبا ، ورفيقَى طلب ، وكلٌّ منهما يعرف الآخرَ أتمَّ معرفة . والمقصورة الرشيدية التى نظمها السيدُ رشيد ، وطالما أنشدَ منها ونوّه بها أصلها تهنئة لأخيه الأستاذ المغربى بزفافه وسنثبتها فى هذه السيرة فى فصل خاصّ . (**انظر** : الأعلام : 4 / 47) .

(★★) ما زاد الأستاذ هنا على حكاية الواقع ، ولعمرى لم يختلف اثنان فى ندور ذكائه ، وأنه ما بلغ تلك الدرجةَ القُصوى من العلوم إلا وهو مِن سلاطين الأذكياء .

بتعليمى ، ويُبشّرونه بما يَرجون لى من النجاح والنبوغ فى العلم . وكنتُ أستغربُ هذه المبالغَة لأننى أرانى غيرَ سريع الحفظ ، إذ كان الحفظُ هو معيارَ الذكاء عندى ، وكان أخى السيدُ صالحٌ أسرعَ منى فى الحفظ ، وقلما حفظتُ أكثرَ من بيت واحد من الشعر من سماعه مرةً واحدة ، ولما شرَعتُ فى طلب العلم كان الطلبةُ يكتبون تعريفات لكلِّ علم يحفظونها بحروفها لأجل الامتحان ، ولم أكن أُعنى معهم بذلك ، وإنما كنت أُعنى بفهمِها حقَّ الفهم ، وبالقدرة على التعبير عما أفهمُه وافقَ اللفظَ المكتوبَ أو خالفَه إلا ما لا بُدَّ من حفظه بلفظه بأمر المدرسة : كالألفية ومتنِ السلَّم فى المنطق وجوهرةِ التوحيد وبعض مقامات الحريرى . كنتُ أجلسُ فى درس النحو عن يمين الأستاذ ، وأبدأُ بإسماعه أبيات الألفية المفروضَ حفظُها كلَّ يوم ، فإذا جاء الدرسُ ولم أكن حفظتُها لقلة الاهتمام به أتأخَّرُ عن الدخول إلى أنْ يبدأ الطلبةُ بالإسماع فأحفظُ منهم ، وإنما كنتُ سريعَ الفهم حتى أننى كنتُ أتألَّمُ ويضيقُ صدرى من إعادة الأستاذ للمسألة التى يُقرِّرُها ، وكنتُ قوىَ الذاكرة والاستحضار لما أقرأُ وأسمعُ ، ولا أزالُ كذلك وللّه الحمد ، ولكنَّنى ضعيفُ الاستعداد لحفظ الجزئيات كالأعلام والأرقام والحوادث التى لا تضبطها قاعدةٌ كلية أو غرضٌ عام . وكذلك حوادث التاريخ الجزئية ، وإنما أُعنى بفلسفتها وأسبابها ونتائجها العامة ، وزادنى ضعفًا على ضعفى فى هذه قلةُ العناية بمعرفة الناس وكلُّ ما أعتقد أنْ ليس لى فيه فائدةٌ علمية أو دينية .

ولذلك لم أُعنَ باللغة التركية ولا الفرنسية ، وإنْ حفظت كلَّ ما فُرض علَّى من دُروسهما فى المدرسة الوطنية ، ثم نَدْمِتُ على الثانية بعدَ أنْ علمتُ أن لها فوائد كثيرة فى خدمة الإسلام .

فجملةُ القول فى استعدادى للعلم أنَّنى كنتُ سريعَ الفهم قوىَ الحفظ للمعانى والمعقولات وما له ترتيب معقول ، فكان علم المنطق أسهلَ العلوم علَّى إلا التمثيلَ فى أبواب القضايا والقياس له بحروف المعجم ولا سيما نقائضُ القضايا الموجَّهات وعكوسها . زار طرابلسَ مرةً طالبُ علم مصرى اسمهُ الشيخُ مرعى ، كان لطيفَ

المعاشرة والمُذاكرةِ ، رأيتُه مع إخواننا الطلبة يتكلَّمون فى مسئلة من المنطق غيرَ واقفين عليها ، فذكرتُ لهم ما أفهمُه . فقال الشيخ مرعى متعجِّبًا : اللّه ! إنه يحفظُ (حاشية الحفنى على شرح السُّلَّم) باللفظ والمعنى ! على أنّنى لم أحفظْ حروفَ الجرِّ فى غير الألفية[1] إلا بتكرارِها مِرارًا كثيرة .

ومثلُها أوائلُ سورة التكوير لأننى لم أَفهم لنسق الشرطيات فيها ترتيبًا معقولاً ، وعُنيتُ بحفظ القرآن وحدى أىْ بدون[★] أستاذ أعيد عليه ما حفظتُ ، فحفظتُ البقرةَ وآل عمران والنساء والمائدة ، ثم شغلت عن إتمام حفظه بطلب العلم ، وحفظتُ المُفَصلَ كلَّه لأجل قراءةِ طواله فى صلاة الفجر وسائره فى سائر الصلوات ، ورأيتُنى أحفظُ بعضَ السور كالكهف ومريم وطه ويوسف من غير تَعمُّد لحفظها .

نشأتى العلمية :

تعلَّمتُ فى كُتَّابِ قريتنا (القلمون) قراءةَ القرآن والخطَّ وقواعدَ الحساب الأربع ، ثم أُدخلتُ فى المدرسة الرشدية فى مدينتنا (طرابلس الشام) ، وهى مدرسة ابتدائية للدولة يُدَرَّسُ فيها الصرفُ والنحوُ والحسابُ ومبادئ الجغرافية وعلمُ الحال « العقائد والعبادات » واللغةُ التركية واللغةُ العربية ، ولكنَّ جميعَ التدريس فيها باللغة التركية . فأقمتُ فيها سنةً ثم لم أعدْ إليها لأننى لم أحبّ أنْ أَخْدُمَ الحكومةَ .

ثم دخلتُ المدرسةَ الوطنيةَ الإسلاميةَ ، وهى أرقى من المدرسة الرشدية ، وجميعُ التعليم فيها باللغة العربية إلا اللغتين التركية والفرنسية ، وتُدَرَّسُ فيها العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية ، وكان أستاذنا العلاَّمة الشيخُ حسين

---

(1) يقصد ألفية ابن مالك ، وهى أرجوزة فى النحو الصرف ، تتكون من (1002) ، نشرتها دار الفضيلة ، بعد أن خدمتها خدمة علمية كبيرة ، تشكيل ألفاظ ، وفكَّ لبس ، وإيضاح غامض .

(★) أخذ علىَّ أحدُ الإخوان إدخالى الباء على « دون » وقال إنَّ الأصحَّ فيها أنْ تأتى مجرَّدة من الباء أو بإدخال « مِن » فيقال « من دون » ، وأجبتُه بأنَّ هذا قد قيل واشتهر ولكنه فيه نظر فإن « دون » تأتى اسمًا وتأتى ظرفًا وما على الاسم أن يُجرّ بالباء . وقد أجاز ذلك الأخفش ، ومكانةُ فى النحو مكانهُ . وأنت ترى هنا أنَّ السيدَ رشيدًا كان يقولها . ومن نحاة هذا العصر الراسخين الشابّ العلاّمة السيد مصطفى جواد العراقى يُجيز أيضًا هذا الاستعمالَ ويَستحسنُه .

الجسر الأزهرى(★) هو المديرَ لها بعد أنْ كان هو الذى سعى لتأسيسها ، لأن رأيه أنَّ الأمةَ الإسلاميةَ لا تصلح وترقى إلا بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الأوروبية مع التربية الإسلامية الوطنية تجاهَ التربية الأجنبية فى مدارس الدول الأوروبية والأمريكية ، ولكنَّ الحكومة العثمانية لم تقبل أنْ تَعُدَّها من المدارس الدينية التى يُعفى طلابُها من الخدمة العسكرية ، فكان ذلك سببًا لإلغائها ، فَحُرِمتْ مدينةُ طرابلس وملحقاتها من فوائدها بجهل الدولة وغباوتها . وتفرَّق طَلَبَتُها ، فذهب بعضُهم إلى مدارسِ بيروتَ المختلفةِ ، وانقطعَ بعضُهم للطلب فى المدارس الدينية فى طرابلسَ وأنا منهم .

ولم يرضَ لى والدى بالإقامة فى المدينة لطلب العلم إلا بعد بلوغى سنَّ الرُّشد وثقته بدينى وأخلاقى ؛ لأنه كان يخاف علَّى من معاشرة أهل المدينة « البندر » .

وكنتُ اجتنبتُ معاشرةَ الناس فيها إلا أفرادًا قليلين جدًّا من أصدقائنا . ومن أمثلة اجتنابى للريبة أنَّنى كنتُ أشترى شيئًا من تاجر تكرَّر تساهلُه معى فى المساومة ، فقال لى : وحياةِ عينيك . فنفرتُ منه ، ورَمَيْتُ ما كان بيدى ، وما عدتُ أقفُ عليه ، ولا أنظرُ إليه ، ولا أمرُّ أمامَ دكانه فى يوم من أيام عمرى .

وكنتُ من قبل طلب العلم شديدَ العناية بمطالعة كتبِ الأدب وكتب التصّوف ، وكان أعجبُ كتب التصوف إلَّى (إحياء علوم الدين)[1] لحجّة الإسلام أبى حامد الغزالى ، فهو الذى طالعتُه كلَّه ، وكنت أُكثرُ مراجعتَه وقراءةَ بعض أبوابه عَوْدًا على بَدء ، ثم صِرْتُ أقرؤه للناس ، وكان له أكبرُ التأثير فى دينى وأخلاقى وعلمى

(★) عرفتُه – رحمه اللَّه – ولى معه مجالسُ كثيرةٌ ، وقرأتُ مِن نظمه ونثره وتَرَسُّلِهِ ، وكان من أفذاذ الأمة الإسلامية عِلْمًا وورعًا ووقارًا وجلالاً وجمالاً ، وكان أستاذنا الشيخ محمد عبده لا يرى مثله فى علماء سورية العاملين ومرشديها الكاملين ، وهو صاحبُ « الرسالة الحميدية » الشهيرة فى إثبات النبوة المحمدية وإظهار فضائل الشريعة الإسلامية وردِّ مزاعم الملاحدة وأعداء الدين .

(1) هذا الكتاب غرضه إنماء الناحية الرُّوحية فى الفرائض الشرعية ، وإيصال النفس إلى ذرى محبة اللَّه تعالى . ومؤلف الإحياء هو أبو حامد محمد بن محمد (ت 505 هـ / 1111 م) فيلسوف إشراقى وفقيه ، لقب بحجة الإسلام ، ولد بالقرب من طوس ، وتنقل بين بغداد ودمشق والقدس والقاهرة ومكة والمدينة . من أهم كتبه : (إحياء علوم الدين) ، و (تهافت الفلاسفة) ، و (المنقذ من الضلال) .

وعملى ، وإنه لتأثيرٌ صالح نافع فى أكثرِهِ ضارّ فى أقلّه ، وقد عالجتُ الضارَّ منه بعدَ العلم به ، فما كان فيه من خطإٍ علمىّ فقد رجعتُ عنه بالتدريج بعدَ اشتغالى بعلم الحديث(★) ولا سيما عقيدةُ الجبر والتأويلات الأشعرية والصوفية ، والغلو فى الزهد وبعض العبادات المبتدعة . وأما تأثيره الوجدانى فى الزهدِ واحتقار الدنيا والمتكالبين عليها ووظائف الحكومة ، فلم أستطعْ الاعتدال فيه فضلاً عن التقصى منه ، ومنه الزهدُ فى الشهرة والمدح ، فكم مُدحت بقصائدَ لم أقرأْ منها إلا أبياتًا قليلةً ، ولم أنشرْ منها شيئًا . ولم تجنح نفسى قطُّ إلى تبليغ الجرائد شيئًا عنّى بالحقّ لتنشرَه حتى ما له شأنٌ تاريخىّ ، ومنه ما لقيتُ من حفاوة الصدر الأعظم وكبار الوزراء والعظماء وجمعية الاتحاد والترقى فى الآستانة ، وما هو أعظمُ من ذلك من حفاوة العلماء والكبراء بى فى الهند . ولو عُنيتُ بإيصال ذلك إلى الجرائد فى مصر وسورية فى وقته لَنَشَرَتْهُ لأنَّ أكثرَ أصحابِهِا ومُحرريها من أصحابى .

وكان يُعجبنى من كتب الشعرانى اليواقيتُ والجواهرُ لقلّة الخرافات فيه وكثرتِها فى سائر كتبه ولا سيما الطبقاتُ . وكان يُعجبنى من الميزان مسائلُ الإجماع فى الأحكام فيه وجعلُ الخلاف دائرًا على العزيمة والرخصة . ولم يكن لى مُرْشِدٌ فى ذلك إلا الاستعدادَ الفطرىَّ ، فكنتُ من أول النشأة صوفيًا عبادةً وتخلُّقًا مع ميل شديد إلى الأدب ، فطالعتُ بعضَ كتبه ، وحفظتُ كثيرًا من الشعر بغير تعمُّد ولا قَصْدٍ ، ومنه قصيدة الشهرزورى فى التصوف ، ونونية ابن زيدون فى الغزل . وأكثرُ ما كتبتُ بخطى من مختاره فى الإلهيات والزهد والرقائق ومدح النبى ﷺ .

ونظمتُ الشعر قبل قراءة العلوم العربية ، وكدتُ أشتهرُ به منذُ السنة الأولى من دخول المدرسة الوطنية ، وقد عَرف الميَّالون من طلبتها إلى الشعر ما كان من ذوقى فيه

(★) يُقال إنَّ الإمام الغزالى - رضي الله عنه - كان يَستشهد حتى بالضعاف من الأحاديث لأجل تأييد نظرياته ، فالأستاذ السيدُ رشيدٌ عرَف هذا بعدَ أنْ تَبَحَّرَ فى علم الحديث وصار من أئمته . وكذلك بعدَ أنْ تبحَّر فى علم الحديث نزع إلى مَشرب ابن تيمية - رحمه اللّه - وتركَ أقوال الصوفية ، ورجع عن كثير من نظريات الغزالى العلمية[1] .

---

(1) وقد خرَّج العلاّمة زين الدين أبى الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى (725 - 806 هـ) أحاديث الإحياء فى كتاب سمّاه : (المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار) ، وقد أثنى العلماء على تخريجه ، وأعلى شأن الإحياء على علوّه .

وحفظى للجيد منه وتمييزى بالسليقة بين الموزون وغيره منه ، فأقبلوا علىَّ ، وكان بعضهم يكلِّفنى وزنَ ما يَنظمُه وتصحيحَه . وممن يعرف هذا من الأحياء منهم إلى اليوم الأستاذ « المغربى » الذى تقدَّم ذكرُه والأستاذ الشيخُ عبد الكريم عويضة من أشهر علماء طرابلس المدرسين فيها ، أطال اللّه عمرَهما ونَفْعَهما .

وكنتُ أراجعُ ما لا أفهمُه من اللغة فى (المصباح المنير)[1] وأنا لا أعلم من علم الصرف شيئًا . ثم عُرفت بسعة الاطلاع فى اللغة ، فكان أستاذُنا الجسرُ يسألنى عن بعض الغريب فى بعض مجالسه الخاصة ، حيث لا توجد معاجمُ يُراجعها ، واتفق أنه لا يَسألنى عن شيء إلا وكنتُ عالمًا به . وإنما أذكرُ هذا فى هذه الترجمة للترغيب فيه ، فالاطلاع على اللغة ضروريٌّ وسبيلُه المراجعةُ عند الحاجة .

وكان لى من سليقة اللغة أنَّنى قلَّما كنتُ ألحَنَ فى قراءتها . اجتمعتُ أنا وسعيدُ كرامة وعبد الغنى الأدهمى فى حجرة الأستاذ العلامة الشيخ توفيق الأيوبى فى حجرته بالمدرسة الوطنية ، وكان مِن أساتذتها ، فاستقرأ كلامَنا فصلاً من كتاب غرر الخصائص ، فشهد لى بأنَّنى أصَحُّ منهما قراءة ، وكانا يَعرفان النحوَ منذُ سنينَ ، ولم أكن تلقيتُ منه إلا بعضَ رسالة العوامل فى تلك السنة نفسِها . وقال لى صاحبى الأستاذُ الشيخ عبد الكريم عويضة عندما سمع منى أولَ لحنة أو شكًّا فى إعراب كلمة - بعد تلقِّى الكثير من النحو : إنَّنى أرى أنَّ النحوَ يُفسد عليك سليقتك .

وتخرجتُ فى العلوم العربية والشرعية العقلية على الشيخ حسين الجسر[2] . وكان له إلمام واسع بالعلوم العصرية كما يُعْلَمُ من كتابه (الرسالة الحميدية) ، وكان كاتبًا وشاعرًا عصريًا ، يكتب ويَنظم فى كل موضوع بعبارة سهلة ، وكان له أُسلوبٌ خاصّ فى التعليم غير أسلوب الأزهر يتحرَّى فيه السهولةَ فى البيان ، ويتجنبُ المناقشاتِ اللفظيةَ واستطراداتِ الحواشى ، فلم يكن يَذْكُرُ منها إلا ما لا يتمُّ تحريرُ المسألة العلمية بدونه ، فكان يفضّل شرحَ ابن عقيل للألفية وحاشيةَ الخضرى على شرح الأشمونى وحاشية

---

(1) هو معجم (المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير) لأحمد بن محمد بن على الفيومى .

(2) هو حسين بن محمد بن مصطفى الجسر (1261 - 1327هـ / 1845 - 1909م) دخل الأزهر سنة 1279هـ ، واستمر إلى سنة 1284هـ . (الأعلام : 2 / 258) .

الصبان . وهو لم يقم فى الأزهر إلا بضع سنين ، لقى فى أثنائها الشيخ حُسينًا المرصفى[1] الأديبَ الشهيرَ ، وكان معجَبًا بأدبه وأفكارِه .

وأخذت الحديثَ وَفِقْهَ الشافعية عن شيخ الشيوخ العلاّمة الشيخ محمود نشّابه[2] ، وكان قد أقام فى الأزهر متعلِّمًا ومعلِّمًا ثلاثينَ سنةً ، وحمل شهاداتهِ بثمانية عشر علمًا ، منها الجبر والمقابلة . وتلقّى كتبَ الحديث المشهورة كلِّها ، وكان من مشايخه الباجورى والمبلط ومن إخوانه الإنبابى والأشمونى .

وأولُ شىء أخذتُه عنه الأحاديث الأربعون النووية[3] ، قرأتُها وضبطتُها عليه قبلَ طلبى للعلِم ، وأجازنى بها كتابة .

وحضرتُ على العلاَّمة الشيخ عبد الغنى الرافعى[★] قليلاً من كتاب (نيل الأوطار)

---

(1) هو حسين بن أحمد بن حسين المرصفى (ت 1307هـ / 1889م) أديب محاضر أزهرى ضرير ، تولى التدريس فى الأزهر وفى دار العلوم ، وتعلم الفرنسية ، وله مؤلفات كثيرة . (الأعلام : 2 / 232) .

(2) هو محمد بن محمد بن عبد الدائم ، الشهير بنشابة (1228 – 1308 هـ / 1813 – 1890 م) عالم مشارك فى علم الحديث ومصطلحه والفقه والمنطق والنحو وغيرها ، ولد بطرابلس الشام ، ودرس بالجامع المنصورى الكبير ، وتوفى بطرابلس الشام ، **من أهم كتبه** : شرح البيقونية فى مصطلح الحديث ، حاشية على همزية البوصيرى . (**انظر** : تراجم علماء طرابلس : 94 ، 95) .

(3) هى أحاديث أربعون ، جمعها النووى فى كتاب ، يرى أن عليها مدار الديانة ، واقتدى به فى هذا الجمع آخرون ، وصاحبها هو يحيى بن شرف النووى (631 – 677 هـ) وله تصانيف كثيرة مشهورة . (تذكرة الحفاظ للذهبى : 4/ 250 – 254) .

(★) الأستاذ الشيخ عبد الغنى الرافعى هو أحدُ أعلام الأسرة الرافعية الكريمة المشهورة بكثرة نوابغها ونجبائها ، وكان – رحمه اللّه – من مشاهير علماء القُطر الشامى فى عصره ، وقد أخذ عنه الكثيرون ، ومن جُملة تلاميذه العلاَّمة الشهير والأديب الكبير الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسى الذى أقام فيما بعدُ بمدينة بيروت ، وكان فيها مرجعًا للخاصّ والعام . وقد اطلعتُ على إجازة من الشيخ إبراهيم الأحدب لأحد الأدباء يقول فيها نظمًا :

وقد أجزته كما أجازنى ... شيخى إمام الفضلا عبد الغنى

كما أنّنى اطلعتُ على تقريظ من نظم الشيخ عبد الغنى الرافعى لديوان الشيخ إبراهيم الأحدب المسمى « بالنفح المسكى » أتذكر منه هذا البيت :

أنا أصل أقام فى مركز العجـــز ولكنّ فرعَه فى السماء

يُشير بذلك إلى ما كان من أخذ الأحدب عنه . ولقد أسعدنى الحظ بمعرفة الشيخ الرافعى شخصيًا إذ كان قُدم من طرابلس إلى بيروت إحدى المرار ، فذهب أستاذنا الشيخ محمد عبد السلام عليه ، وذهبتُ أنا معه فرأيتُ فيه شيخًا جليلاً وقورًا على جانب عظيم من الدعة والتواضع ، وصادف أنى أنشدتُ فى حضرته :

لو كنتُ مِن مازن لم تَستبحْ إبلى ... بنو اللقيطةِ مِن ذُهل بن شيبانا

فلحظ أنّنى أنشدتُهُ بدون لحن ، وكنتُ فتى فى السادسة عشرة من عمرى ، فهتفَ – رحمه اللّه – قائلاً : =

للقاضى الشوكانى ، ولكنّنى استفدت كثيرًا من معاشرتِه فى العلم والأدب والتصوف ، وكان يعشقُ (الإحياء) للغزالى من قبلى ، ويُكثر مطالعة مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلانى . وتلقيتُ عن العالِم المحدِّث العابد الشهير الشيخ محمد القاوقجى(★) الكبير كتابه فى الأحاديث المسلسلة وبعض كتابه المعجم الوجيز ، وإنما فتح لى باب الاشتغال بعلوم الحديث شرحُ الإحياء الذى اقتنيتُه لما فيه من تخريج أحاديث الكتاب ، فصرتُ بعد الاطلاع عليه لا أحتج بحديث ولا أكتبه إلا مع بيانِ تخريجه . ثم لم أَعُدْ أكتفى بتصحيح أىِّ كتاب للحديث الذى فيه شبهة عندى حتى أراجعَ سندَه وما قاله علماءُ الجرح والتعديل فيه . وكنتُ أولَ من استحضر كتاب (ميزان الاعتدال)[1] من الهند إلى طرابلس . وقد فتح لى الاشتغالُ بالحديث روايةً ودرايةً بابَ الانتقاد على كتب الوعظ والفقه والأدب ودواوين الخطب ، فأنتقدُ ما فيها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ولكنْ أخصُّ بهذا بعضَ زملائى ، ومن الأحياء منهم الشيخ عبدُ القادر المغربى الذى كان يُلقِّبنى بفولتير المسلمين لو لا ما يعلم من قوة اعتصامى بالدين ، وقد سمَّى لى « ميزان الاعتدال فى نقد الرجال » بالمِعْوَل الذهبىّ ، يعنى أنّنى أعتمدُ عليه فى هدم كلِّ ما لا يصحُّ دليلهُ من كتب الدين . وكنتُ أطالع معه كتابَ « النقش فى الحجر » فى مبادئ العلوم العصرية للدكتور فانديك .

= ما شاءَ اللَّه ما شاءَ اللَّه سعادة البيك ! أرويها كما قالها اقتداءً بالمترجَمِ صاحبِ هذه السيرة الذى كان يَروى ما يسمعُ بدون زيادة ولا نُقصان[1] .

(★) كان الشيخُ القاوقجى المشارُ إليه مَظَنَّة ولاية كما يُقال لشدة ورعه ، ومما يجب أَنْ لا ننساه أنه - رحمه اللَّه - كبيرُ أسرة أخينا البطل المشهور فوزى بك القاوقجى الذى كان له فى الثورة السورية سنة 1925م وفى الثورة الفلسطينية سنة 1936م المنصرمة المواقفُ التى خلَّدت له اسمًا كبيرًا فى التاريخ وجعلته من مفاخر الأمة العربية ، وهو مع العلم والفضل والمهارة فى الفنون العسكرية والبسالة النادرة فى الحروب من أعذب الناس خُلقًا وأحلاهم فكاهةً . ولما كنتُ فى الحجاز سنة 1347هـ ، واعتللتُ فى مكة ، وصعدتُ إلى الطائف للاستشفاء لازمنى فوزى بك - حفظه اللَّه - محضَ مُروءة وكرمَ أخلاق منه ، ولم يفارقنى مدةَ خمسة أشهر قضيتُها فى الطائف ، وما زال معى إلى أن وَدَّعتُه فى ميناء جُدَّة ، حرسه اللَّه ، ووفَّقه لخدمة الأمة العربية .

(1) هو كتاب عنوانه الكامل هو (ميزان الاعتدال فى نقد الرجال) ، مؤلِّفه هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ((ت 748 هـ) ، وقد حققه الأستاذ على محمد البجاوى وفتحية على البجاوى ، وقد اعتمدا على مطبوعة الهند التى يتكلم عنها الشيخ رشيد رضا مع نسخ مخطوطات أخرى .

---

(1) هو عبد الغنى بن أحمد بن عبد القادر الرافعى البيسارى الفاروقى (1236 - 1308 هـ) تنقل بين طرابلس الشام ودمشق ومكة ومصر واليمن والقسطنطينية . وتولى الإفتاء بطرابلس ثم عين رئيسًا لمحكمة الاستئناف بصنعاء اليمن ، وتوفى بمكة ، وله تعليقات على حاشية ابن عابدين ، ورسالة فى مائة سؤال . (تراجم علماء طرابلس 83 - 87) .

ولم أرَ أحدًا من علماء بلدنا يسلُك طريقةَ الأزهر فى التدقيق والتحليل والمناقشة فى عبارات الكتب إلا صديقى الأستاذ محمد الحسينى عقب رجوعه من المجاورة ، ثم تركها .

وكنتُ أجلسُ إلى هذا الأستاذ فى مجالس مطالعته مع صديقنا الأول الشيخ محمد كامل الرافعى أصدقِ عُشاق العلوم العالية والتصوف ، وكانا يُطالعان معًا أعلى كتب الأصول والمنطق كسلم العلوم ومسلم الثبوت وشرح التحرير . وكنتُ أسمعُ تحاورَهما فى أدقِّ المسائل[1] ، وأنا مبتدئ فى النحو والفقه وحواشى الجوهرة والسنوسية فى العقائد . وكنتُ ربما أدلى برأيى فيما يتناقشان فيه قبلَ القطع بشىء منهما . فيقولان لى بعدَ تمحيصه : إنَّ رأيك هو الصواب فمن أين جئت به ؟ فأقول هكذا حدثتنى نفسى ، ولم تقبل فطرتى أو عقلى إلا هذا . وكان مثلُ هذا مبدأ إعجاب الرافعى بالفقير ، واتخاذِ المنار أستاذًا له بعدَ ذلك . والأستاذُ الحسينى حى ما أراه نسى هذا ، وكان مبدأ[2] صادقتنا وتصوفنا معًا كما سيأتى .

وللإمام الغزالى - قدّس اللّه رُوحه - فضلٌ علَّى فى هذا ، فإنه كان قد عَلَقَ بنفسى من كلامه فى شرح عجائب القلب ما ضربه من المثل للفرق بين العلم الذى يصلُ إلى القلب أو النفس من طريق الحواس والعلم الذى يتفجَّر منه بتطهيرِه من الصفات المذمومة والأفكار الرديئة ، حتى يكون كالمرآة الصقيلة - بأنَّ مثلَ الأول كالماء الذى يجرى من السواقى المحفورة إلى حُفرة أو بئر ، يجتمع فيه مع ما يحملُه فى طريقِه من الغُثاء والوحل ، ومثلَ الثانى كماء الينبوع الذى يتفجّر من الصخر النظيف . فقد كنتُ أتحرَّى أنْ يكونَ قلبى طاهرًا ونفسى زكيةً لأكون مستعدًّا للعلم الإلهامى ولتكونَ مرآةُ نفسى صقيلةً ينطبعُ فيها ما تتوجّه إليه من المعلومات الكَسبية على اختلاف أنواعها . وقد سمعتُ مِن أعرفِ الناس بى أنَّنى أوتيتُ نصيبًا من ذلك .

قال العلّامةُ الناسكُ الزاهد السائحُ الشيخُ عبدُ الباقى الأفغانى : إنَّ السيدَ رشيدًا علمُه لدُنِّى[*] إنَّنى أغيب عنه سنةً فأجدُ عنده من العلم ما لا يُمكن اكتسابُه إلا فى السنين

---

(1) هذا من تأثر الشيخ رشيد - طيب الله ثراه - بالقرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ [المجادلة : 1] .

(2) بداية .

(*) أى مِن لدن اللّه تعالى ، قال الليث : لدن فى معنى من عند . وجاء فى (تاج العروس) العلمُ اللدنىّ ما يحصل للعبد بغير واسطة بل بإلهام من اللّه تعالى .

الطّوال . وكان هذا الرجلُ الغريبُ كغربة الإسلام فى هذا الزمانِ بكلِّ ما فى هذه الغربةِ من معانٍ يَحُجُّ فى كلِّ سنة ماشيًا ، ثم يعودُ إلى سورية فيقيمُ عندنا فى القلمون أيامًا ، وفى طرابلسَ أيامًا ، وفى حمص مثلَها أو أكثر ، ثم يعودُ إلى الحجاز . وكان من أكبر علماء الأفغان ، حصَّل العلوم فى بلاده ثم جاء الهند للتوسع فى المعقولات ، فَبَيْنا كان مجدًّا فى الفلسفة رأى فى الرؤيا قائلاً يقول له : أتدرى ما تصنعُ يا عبدَ الباقى ؟ إنك تأخذُ خشبةً تُحرّك بها ما فى الكنيف ؛ فترك الفلسفة وانقطع للعبادة والسياحة .

وقد ترجمتُه فى المنار ، فَتُرَاجَعُ ترجمتُه الغريبةُ فيه . ومن أغربها أنَّنى شاورتُه فى الهجرة إلى مصر فنهانى عنها مُعلِّلاً نهيَه بما فى هذه البلاد من الفسق وبما كنتُ عليه فى بلادى من الانقطاع للعلم والعبادة والتعليم والإرشاد ، وقال إنَّنى دخلتُ الأزهر مرةً واحدة فإذا هو قَذِر(★) كطلاب العلم فيه ، فهم يأكلون فيه الخبائث من الثوم والبصل والكرات ، وصلاتُهم فيه مخالفة للسُّنة من كلِّ وجه ؛ ولذلك تبتُ إلى اللّه تعالى من العودة إليه !! قلتُ له : إنى أرجو أنْ أنفعَ هنالك أكثرَ مما أنفعُ هنا بكثرة من أعلّمهم وأنصح لهم من أهل مصر ومن سائر الأقطار . وأظنُّ أنْ عمِّى – حفظه اللّه تعالى – يذكر أقوالَ الشيخ عبد الباقى فىَّ ولى ، فقد كان أعلم بها منى .

وقال أستاذى الشيخُ حسين الجسر للسيد على أفندى السمين نقيب أشراف بلادنا : إن فلانًا(★★) جاءنى لطلب العلم ، فساوى فى السنة الأولى أذكياءَ الطلبة الذين كانوا فى السنة السابعة ، وذلك أننى دخلتُ مدرستَه بعدَ عودته من بيروتَ ، ولم أكن حضرتُ من النحو إلا رسالةَ العوامل الصغيرة غيرَ تامة فى المدرسة الوطنية ، فصرتُ أحضر دروسَ ابن عقيل والإظهار فالكافية . وكان زميلى الأستاذ الشيخُ عبدُ المجيد أفندى المغربى أحد هؤلاء السابقين إلى طلب العلم يقرأُ متنَ إيساغوجى فى المنطق لبعض المبتدئين فى المدرسة الرجبية لشيخنا الجسر بعد انتهاء الدروس مساء ، فجلستُ إليهم لأسمع شيئًا من مسائل هذا العلم ، فاستشكلتُ ما يقوله لهم الأستاذ فيقبلونه منه ،

(★) هذا النقلُ إنَّما هو من شدة ولوع المترجَم بإعادة ما يسمعُه على عِلاّته ، وإلا فطلابُ الأزهر هم أجلُّ من أنْ يقالَ فيهم كلامٌ كهذا .

(★★) أى المترجَم .

فأجابنى فجادلتُه فى الجواب ، فسمع أستاذُنا ما نقول ، وكان فى غرفته من المدرسة ، فأطل من نافذتها المُشرفة على المدرسة ، وقال : يا شيخُ عبد المجيد اتركْ هذا ، إنه لا يَقدر أحدٌ أنْ يقرأَ له غيرى .

ثم اتفق بعدَ أربع سنين أنْ كان الأستاذ يقرأُ لنا شرحَ القطب على الشمسية فى تلك الغرفةِ ، فناقشتُه فى بعض المسائل حتى قال لى : لا تسألْنى فى الدرس عن شىء ، فإنَّ كلَّ ما أعرفُه أقولُه ، ولا يبقى عندى غيره ، وأظنُّ أنَّ مَن بقى من زملائنا فى ذلك الدرس يَذكرونُ هذا الجوابَ لأنه كان غريبًا جدًّا عندهم ، ومنهم المغربى الذى ذكرتُه آنفًا ، وابنُ عمِّه الذى تقدَّم ذكره مرارًا ، والأستاذ الشيخ محمد رحيم وكان فى مقدمة إخواننا فى المدرسة فى كلِّ علم .

وبلغَ مِن رضاه عن فهمى أنْ سألنى عَن رأيى فى كتابه المشهور (الرسالة الحميدية) بعد أنْ أهداه إلَّى بزمن قائلاً : إنه يُعجبنى مِن بين أولادى فهمُك ورأيك ، فكيف رأيتَ الرسالةَ الحميديةَ ؟ قلت : إن الحاجةَ إليها لشديدة ، ولم يَسبقْ مولانا أحدٌ إلى مثلها فى الدفاع عن الإسلام ، ولكنْ لى عليها أنكم تُوردون المسألةَ القطعيةَ فى العلم ككُرَوية الأرض ودَورانها بعبارة فرضية تدلُّ على شككم فيها . قال : أنت تعلمُ تعصبَ الجاهلين بهذه العلوم فى بلادنا ، فلا نتركُ لهم مجالاً للقيل والقال .

قلتُ : إذا كان مثلُكم فى ثقة الأمة بدينه وعلمه لا يُجَرِّؤُنا على التصريح بالحقائق فَمِمن نَرجو هذا ؟ وكنتُ أودّ لو جعلتُم لكلِّ مسألة أو موضوع فى الرسالة عُنوانًا ، فهى كمقالة واحدة لا أبوابَ فيها ولا فصولَ ولا عناوين(★) تُسَهِّلُ المطالعةَ والمراجعةَ . قال : هذا كما قيل فى الكلام المنسجم إنه كالماء الجارى ، وإنه آخذٌ بعضُه برقاب بعض .

قلت : إذًا لماذا جعل اللّه القرآنَ سُورًا مفصلةً منفصلةً ، ولم يجعلْه جملةً واحدة ؟ هكذا تربيتُ أفيكثر علَّى أنْ أنتقدَ من دون أستاذى علمًا وحقًّا علَّى ؟

وكانت طريقتى فى طلب العلم أن لا أقبلَ شيئًا بالتسليم من غير فهم واقتناع ، وإذا لم

(★) هذا هو أيضًا مما كنتُ آخذُه على « الرسالة الحميدية » .

أسمع من الأستاذ ما يُقنعنى فى مسألةٍ ما ، ولا سيما المسائلُ الدينية ، فإنَّنى أُراجعُها فى جميع ما أعرف من الكتب إلى أنْ يستقرَ فهمى فيها على ما يَطمئنّ به قلبى .

مثال ذلك مذهبُ الأشاعرة فى مسألة تقسيم كلام اللّه عزَّ وجلَّ إلى نفسى ولفظى وما قالوه فى كلٍّ منهما وفى القرآن . لم يُقنعنى ما قاله الباجورى فيه من حاشيته على جوهرة التوحيد ، ولا تقريبُ أستاذنا الجسر له . فراجعتُ المسألةَ فى سائر كتب الكلام وكتب التفسير ولا سيما تفسيرُ الرازى لأنه إمامُ متكلمى الأشاعرة والمِدْرَه[1] المدافع عنها ، ثم كنتُ أُعنى بإقناع غيرى بما اقتنعتُ به دونَ غيره فى المذاكرات والمناظرات مع أهلها ، وفى الدروس التى أقرؤها للعوام حتى نجحتُ فى أساليب الإقناع بما يراه قُرّاءُ المنار فيه .

★ ★ ★

تألهى[★] ونسكى وتصوفى :

نشأتُ فى حجر العبادة فَأَلِفَها وجدانى ، ونشطتْ فيها أعضائى من الصغر فخفَّت علىَّ فى الكبر ؛ كنتُ من سنِّ المراهقة أذهب إلى المسجد فى السَّحَر ، ولا أعودُ إلى البيت إلا بعد ارتفاع الشمس ، حتى كانت والدتى - رحمها اللّه تعالى - تقول : إننى منذُ كَبِرَ رشيد ما رأيتُه نائمًا ، فإنه ينام بعدَنا ويقوم قبلَنا . وقد اتخذتُ لنفسى حجرةً خاصة من غُرفتين فى أعلى ركنى مسجدنا البحريين للمطالعة والعبادة ، وهذه الغرفةُ كان يخلو فيها جدُّنا السيد على الكبير الذى بنى المسجد قدَّس اللّه رُوحَه . والغرفة الأخرى كانت لخادمه المسمَّى بالأعرج ، وكان أهلُ القرية يعتقدون أنه من الجنِّ ، ويتناقلون فى ذلك حكاياتٍ غريبةً . وكانت هذه الغرفةُ ملتقى العلماء والأدباء الذين يَزوروننا فى القلمون يُطالعون ويُراجعون فيها ويَتحاورون ، وكان شيخُنا الجسر يَستقرئنى فيها : إما بعضَ فصول (الفتوحات المكيّة)[2] ، وإما بعضَ فصول كتاب (الفارياق)[3] .

---

(1) المِدْرَهُ : زعيم القوم ، وخطيبهم المدافع عنهم .

(★) تألّه : تعبّد وتنسّك .

(2) هو كتاب لمحمد بن على بن محمد الطائى المعروف بابن عربى (محيى الدين) (560 - 638 هـ) ، وهو أشهر كتبه وعنوانه كاملا (الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والملكية) ، وعليه كثير من المآخذ .

(3) الفارياق : هو كتاب لأحمد فارس الشدياق .

وكانت تَلَذّ لى صلاةُ التهجد تحت الأشجار فى بساتيننا الخالية ، وأُفكِّر فى صدق من قال : أهلُ الليل فى ليلهم أنعمُ من أهل اللهو فى لهوهم ، وقول آخر : لو يعلمُ الملوكُ ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف . نعم إنَّ للبكاء من خشيةِ اللّه وتدبر كتابه فى صلاة الليل حيثُ يعلم المصلِّى أنه لا يَسمع صوتَه أحدٌ إلا اللّه - لذةً رُوحيةً تعلو كلَّ لذات الضحك واللهو على اختلاف أسبابها .

وكان كبيرُ أُسرتنا الشيخُ السيد أحمد أبو الكمال الذى تقدَّم ذكُره يُدارس أولادَ الأسرة القرآن فى رمضان لأجل تجويده ، فكنّا نقرأُ معه كلَّ يوم نصفَ ختمة : خمسة أجزاء من بعد شروق الشمس إلى صلاة الضحى ، وخمسة أجزاء بعد صلاة الضحى إلى الظهر ، وخمسة أجزاء من بعد صلاة الظهر إلى العصر ، كلُّ واحد يقرأ ثُمْنَ جزء ويَسمع الآخرون . وكان يحضرُ هذه المدارسةَ معنا عنده السيدةُ زُلفى(★) ابنةُ بنته ، وكانت صبية ، ولم يكن أحدٌ فينا بالغًا غير ابنه السيد محمد كمال وهو خالها ، وكان يقرأ فى غير رمضان عشرة أجزاء كلَّ يوم .

والسيدةُ زُلفى هذه كانت تكتب إنْ شاءت وتطالعُ الكتب ، وهى أم السيد عبد

(★) يجوزُ أنْ يكونَ هذا الاسمُ بالزاى وأنْ تُسمَّى المرأة (زُلفى) بضم أوله ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ : 37] أو هى « زلفة » بمعنى الرتبة أو الدرجة ، أو هى بمعنى القريب جدًا ، أو هى مفرد الزُلف كغُرَف ، وهى ساعات الليل الآخذةُ من النهار وساعاتُ النهار الآخذة من الليل . ولكن الأرجحَ عندى أنَّ هذا الاسمَ الذى تُسَمَّى به النساء ، وهو شائع فى بلادنا ، إنما هو بالذال لا بالزاى ، ومنه قول القائل :

إنَّما الذَّلْفَاءُ يَاقُوتَةٌ ... أُخرِجَتْ مِنْ كِيْسِ دِهْقَانِ(1)

ومن قول الآخر :

يا ليتنى كنتُ صبيًّا مرضَعَا ... تَحمِلُنى الذلْفَاءُ حَوْلاً أكْتَعَا
إذا بَكَيْتُ قَبَّلَتْنى أرْبَعَا ... إذًا ظَلِلْتُ الدهرَ أبْكى أجْمَعَا(2)

وهو من شواهد ابن عقيل والشعر لأعرابى رأى امرأة حسناء تُسمَّى بالذلفاء تقبِّل صبيًّا كلَّما بكَى ، قال الشيخ الجرجاوى فى شرح شواهد ابن عقيل : وهى هنا اسم امرأة كما فى القاموس لأنه قال : والذلفاء من أسمائهن ، وتطلق على المرأة الحسناء ، كما أنَّ الرجلَ إذا كان حسنًا يُقال له أذْلَف ، وجمعه ذُلْفٌ كأحمر وحُمْرٍ اهـ . وأصلُ الذَلَف محركةً صِغَرُ الأنف واستواءُ الأرنبة كما فى (الصحاح) أو صِغَرُهُ فى دِقَّة كما قال ابنُ دريد ، أو غِلَظٌ واستواءٌ فى طرفه كما قاله الليث ، ويُقَالُ أنفٌ أذْلَفُ ورجلٌ أذْلَفُ وهى ذَلْفاءُ . وبالجملة فأنا أرجِّحُ أنْ يكونَ هذا الاسمُ هو « ذلفا » مقصور ذَلْفاء ، وأنها بالذال المعجمة لا بالزاى ، ولكنَّ العامةَ لفظتْه بالزاى كما تفعل فى كثير من الألفاظ .

---

(1) **انظر** : لسان العرب : (ذلف) .

(2) الرجز لأعرابى فى (خزانة الأدب) : 5 / 168 ، ولسان العرب : كتع .

الرحمن عاصم تلميذى ووكيل المنار ، وهو ابنُ عمّى السيد محمد كامل وزوجُ شقيقتى ، ويعيشان معى . وأما عمّى والدُه فهو على قدمِ عمه فى الانقطاع للعبادة والنسك ، ويقوم بوظائفِ الإمامة والخطابة والتدريس فى مسجدِنا ، وقد عُنى بكتاب إحياء العلوم كما عُنيت به . وكا يعاشرُنى معاشرة الصديق ، ويُفيدنى فى كثير من مسائل العربية والدين ، ثم فقتُه فى ذلك حتى كان يحضرُ درسى لتواضعه ، أطال اللّه بقاءه .

وكنتُ أقرأُ وِرْدَ السحر فى غير رمضان وحدى وفى رمضان مع جماعة ، وكنت إذا بلغتُ قوله فى الجيمية :

وَدُمُوعُ العَيْنِ تُسابِقُنى ... مِنْ خَوْفِكَ تَجْرى كَاللُّجَجِ

ولم يكن حضرَنى البكاءُ أسْكُتُ فلا أَقرأُ البيتَ حياءً من اللّه تعالى أنْ أكذب عليه .

ولما اشتغلتُ بالسُّنة ، وعلمْتُ أنَّ قراءةَ هذا الوردِ وأمثاله من البدع التى جُعلتْ من قبيلِ الشعائر والشرائع التى شرعها اللّه تعالى على ما فيه من الأمور والأقسام المنتقدة شرعًا تركتُ قراءتَه واستبدلتُ بها قراءةَ القرآن .

وكنتُ أواظبُ على قراءة دلائل الخيرات ، وتلقيتُ الإجازة بها عن الأستاذ العابدِ العالمِ الشيخِ أبى المحاسن القاوقجى بسنده إلى مؤلِّفها ثم تركتُها بعد اشتغالى بكتب السُّنة ، كما تركتُ وردَ السَّحر ، واستبدلتُ بها وردًا آخرَ فى الصلاة على النبى ﷺ ليس فيه شبهةُ بدعةٍ من توقيتٍ وجهرٍ وصيغٍ منكرَة ومضاهاة للشعائر الموهمة للمأثور عن الشارع .

وقد حَبَّبَ إلَىَّ التصوفَ كتابُ (إحياء العلوم) لحجّة الإسلام أبى حامد الغزالى ، فكنتُ أجاهدُ نفسى على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام ، اكتفاءً بقليل من الزعتر مع الملح والسماق وبالنوم على الأرض وغير ذلك ، حتى إنه لم يَشقَّ علَىَّ تركُ أطيب الطعام الحاضر عمدًا ، ولكنّنى حاولتُ أنْ أتعوَّد احتمالَ الوسخ فى البدن والثياب ، وهو غير مشروع ، فلم أستطعْ . وقد ذكرتُ هذا وذاك للأستاذ الإمام بمناسبةٍ عَرَضَتْ ، فقال لى : وأنا كذلك . وقال مثلَ هذا فى غيره مما اتفقَ وتشابه من نشأتى ونشأته .

وقد طلبتُ من أعبدِ عبّاد شيوخ الطريق فى عصرنا الشيخ أبى المحاسن محمد القاوقجى

أنْ يسلكنى الطريقَ على أصولهم فى الرياضة والخلوة والترقّى فى منازل المعرفة ، وصرّحتُ له بأنه لا يُعجبنى أنْ أسلك طريقةَ الشاذلية الصورية بقراءة أورادها وحضور اجتماع أذكارها ، وكنتُ حضرتُ هذا عنده مِرارًا أو حفظتُ حزبَ البر بقراءته معهم – فاعتذر ، وقال لى يا بنىَّ إننى لستُ أهلاً لما تطلبُ ، فهذا بساطٌ قد طُوى ، وانقرض أهلُه ، فرحمه اللّه رحمة واسعة .

ثم أخبرنى صديقى الأستاذُ العلاّمة الشيخُ محمد الحسينى أنّه قد ظَفَرَ بصوفىّ خفىّ من النقشبندية يرى هو أنه وصل إلى رُتبة المرشِد الكامل ، فسلكتُ هذه الطريقةَ معه ، وقطعتُ مراتبَ اللطائف كلَّها ، ورأيتُ فى أثناءِ ذلك كثيرًا من الأمور الرُّوحية الخارقة للعادة ، كنتُ أتأوَّلُ الكثيرَ منها ، وعجَزتُ عن تأويل بعضها ، إلا أنَّها من خصائص الرُّوح التى تُظهرها الرياضةُ وكثرةُ الذِّكر والفِكر . ولكنَّ هذه الثمراتِ الذوقيةَ غيرَ الطبيعية لا تدلُّ على أنَّ جميعَ وسائلها مشروعةٌ أو تُبيح ما كان منها بدعةً كما حققتُ ذلك بعدُ .

كان الوِردُ اليومىُّ لى فى هذه الطريقة ذكرُ اسم الجلالة (اللّه) بالقلب دون اللسان خمسةَ آلاف مرّة مع تغميضِ العينين وحبسِ النَفَسِ بقدرِ الطاقة وملاحظةِ ربط قلبى بقلب الشيخ . وهذا النوعُ من الذكر غيرُ مشروع ، بل هو مخالفٌ لجميع ما ورد فى الذكر المأثور . وهذه الرابطة مَحلّ إنكار خاصٍّ عند علماء الشرع ، وهى مقرَّرة فى غير هذ الطريقة ، وقد تكون بصفة مُخِلَّةٍ بالعقيدة إذا عُدَّتْ عبادةً شرعيةً ، فإنَّ مقتضى التوحيد أنْ يتوجَّه العبدُ فى كلِّ عبادة إلى اللّه وحدَه حنيفًا مسلمًا مخلصًا له الدينَ ، فالتوجُّه فيها إلى الشيخ قد يكونُ من الشرك الخفىّ ، وإن لم يُقصد به عبادتُه . وإنَّما يُمكن تفسيرُها بأنها ضربٌ من التربية الروحية الصناعية المجرَّبة فى إظهار ما أودعه اللّه فى النفس من الأسرار والسُّنن الإلهية المخالفة للسُّنن المودَعة فى المادة ، وبأنَّ الرابطة فيها كالرابطة بين المقتدى وإمامِ الصلاة لا يُقْصَدُ بها شىء ، من إشراكه فى عبادة الذكر ، ولا تعظيمه بنوع من تعظيم عبادة الربّ ، ولا تتضمنُ الاعتقادَ بأنه قادر على شىء من النفع أو الضُّر من غير طرق الأسباب المشتركة بين الخلقِ ، وإنما هى عندهم وسيلة سببية فى ربط الأرواح

بعضِها ببعض ، من المريد إلى الشيخ فَمَنْ فوقَه من شيوخ السلسلة إلى النبى ﷺ . فمن عدَّها عبادةً شرعيةً فهو مبتدِعٌ بلا شك ، وهذا التوجيه لها قلَّما يخطر ببالِ أحد مِن سالكيها .

وجملةُ القول أنَّنى كنتُ أعتقدُ أنَّ سلوكَ طريقة المعرفة وتهذيبَ النفس والوقوفَ على أسرارها جائزٌ شرعًا لا خطرَ فيه ، وأنه نافع يُرجى به مِن معرفة اللّه ما لا يُوْصَلُ إليه بدونه ، ولكنَّنى لم أعتقد قطُّ أنَّ الشيخَ الذى أرتبطُ به قادرٌ على شىء مما تقدَّم ، ولم أكنْ أستحضرُه ولا أتصورُه فى أثناء الذِّكر ، وإنما أتصوَّر عندَ البَدء به أنَّنى ربطتُ قلبى بسلسلة من القلوب المخلصة للّه تعالى هو طرفها الأدنى ، فزدتُ فيها حلقةً جديدة ، وأنَّ هذه الرابطةَ لها تأثير فى الإمداد الرُّوحى كما تصل مصباحًا كهربائيًا بالسلك الممتدِّ إلى مولِّد التيار الشامل لمصابيح الدارِ كلِّها أو البلدِ كلِّه .

ومن الغريب أنَّ الإنسانَ بعدَ طول الإكثار من هذا الذكر ، يصيرُ يسمعُ للقلب صَوتًا ، وأغربُ منه أنْ يسمعَ غيرَ صوت قلبه . أخبرتنى والدتى - تغمَّدها اللّه ووالدى برحمته ورضوانِه - أنَّها وضعت أذنها مرة على صدر عمِّها السيد الشريف الصالح عبد الرزاق حبلص فسمعتْ منه تَردادَ اسم الجلالة : اللّه ، اللّه ، اللّه . وقد أدركتُ أنا عمَّها هذا وأنا صغير ، ولم أكنْ أعلمُ من أمر هذه الطريقة شيئًا . ولقد لقننى الأستاذ بعد الانتقال من اللطائف كلِّها أو عند لطيفة السرّ الذكرَ بكلمة التوحيد باللسان (نَسيتُ الآن)[1] .

هذا ما أقولُ فى الورد الشخصىّ والرابطة ؛ وللطريقة النقشبندية وِردٌ آخرُ مشترك يُسمَّى الختم ، وهو عبارةٌ عن اجتماع مَنْ كان حاضرًا من أبناء الطريقة على ذكر وقراءة لبعض سور القرآن والتوجهِ إلى استحضار بعض أرواح سلسلة الطريقة مع تغميض العينين . واستحضارُ الرُّوح لا يتضمنُ شيئًا من عبادتها بدعاء ولا تعظيم تعبُّدى . والاستمدادُ الرُّوحىّ ليس عبادةً بالفعل ولا بالقصدِ إلا أنْ يكونَ من جاهل بالشرع شيخُه أجهلُ منه وأضلُّ سبيلا ، وإنَّما هو مِن قَبيل ما يُحكى عن الإفرنج من ذلك ، وقد سبقهم إليه الصوفيةُ ، وسأذكرُ بعضَ ما حَققتُه فيه ، ولكنَّه لا يخلو من مثار فِتَن دينية

(1) هذه الجملة فى الأصل ، وأثبتناها لأنها تدل على دقة الشيخ رشيد ، طيب الله ثراه .

وخوفِ اختلال فى القوى العقلية بما يعرض للجادّ المجدّ فيه من العوارض غيرِ الطبيعية ، ولذلك اتفق الصوفيةُ العارفون على أنه لا يجوزُ سلوكُ طريقة الرياضة عندهم إلا بإرشاد شيخ عارف .

قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَا لِيُخْبِرَ القومَ بما استَفادَا

ما يَعْرِضُ لسالك الطريق مِن الأمور الرُّوحية الغريبة

أولُ ما عرَض لنا من ذلك أنْ كانت تتمثلُ لنا ، ونحن فى الختم مغمضو الأعين ، صورةُ مَن يَذْكُرُ الشيخُ اسمه من رجال السلسلة لعقد الرابطة به ، وأعلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه وفوقه النبى ﷺ ، وإنما كان هذا بعدَ تَكرار . وكنتُ أعتقدُ أنه خيالٌ يُثيره التخيُّلُ ، ويدَّعى الشيخُ أنَّ الرُّوحَ نفسَها تحضرُ الختمَ وتتجلَّى للمستعدِّ . وكان شيوخُ الطرق يَدَّعون هذا ، ويَزعمون أنَّ رُوحَ النبى ﷺ تحضرُ مجالسَهم ، فمنهم الكاذبون الدَّجالون ومنهم المتخيِّلون الممثلون ، وقد أطلتُ فى تحقيق هذه المسألة فى بحثى الفياض فى الكرامات الذى كتبتُه فى كتابى (الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية) الذى ألفتُه وأنا تلميذ ، ثم عدتُ إليه فى المجلد الثانى من المنار ، ثم فى المجلد السادس منه ، ثم أَلْمَمْتُ به فى مجلدات أخرى .

ثم عرض لى ولغيرى فى أثناء استحضار هذه الأرواح بالتخيّل أنْ نميِّزَ بينها باختلاف صورها ، ونَشَمَّ للرُّوح رائحةً عطريّة منعشة لا نظيرَ لها فيما نعرِف من الأعطار . فكنتُ فى أولِ العهد بها أظنُّ أنَّ الشيخ يحفظ فى جيبه قارورةً أو حُقًّا فيه هذا النوع من العطر فيفتحُها فى أثناء الختم ، ولا يراه منا أحدٌ ، وهذا من خواطر السوء فى الشيخ لا تُبيحه آدابُ الطريقة بل هو من عوائق السلوك ، ولكنَّ الرائحةَ لم تكن تستمرّ ، ثم صارت تعرض لى فى أثناء وردى الخاص فأظنُّ أنَّها ذِكْرَى فى النفْسِ تَعدّى أثرُها إلى الأنف بالوهم ، وبعدَ التَّكرار اعتقدتُ أنَّ ما يقولُه كبار الصوفية من أنَّ للأرواح الشريفةِ الزكية العالية رائحةً طيبةً زكيةً صحيحٌ ، وأنَّ تجلّى الأرواح صحيحٌ فى الجملة .

ومما كنتُ قرأتُه فى (الفتوحات المكية) للشيخ محيى الدين بن عربى ، وهو من أكابر الصوفية الرُّوحانيين على ما عرض له من الاختلال فى معلوماته الدينية والكشفية ، أنَّ

الشيخ عبد القادر الجيلى كان يعرف مقاماتِ الرجال العارفين بالشَّم ، وأنَّه شَمَّ محمد بن قائد فقال له : لا أعرفك ، وكان ابنُ قائد يرى لنفسه مقامًا عاليًا ، فعرف من إنكار عبد القادر له قصورَه فَعَلَتْ هِمَّتُهُ حتى صار من الأفراد[1] .

ويُذكر فى رحلة الشيخ عبد الغنى النابلسى الصوفى الفقيه المشهور أنَّه لما جاء طرابلسَ ترجَّل قبلَ أنْ يبلغَ مقبرتَها فى المكان المعروف بباب الرّمل ، فترجَّلَ مَن معه ، وسألوه عن السبب فقال : إنّنا قَرُبْنَا من مكان فيه بعضُ قبور الرُّوحانيين .

ومما أخبرنى به صديقى الأستاذُ الصدوق الشيخ محمد كامل الرافعى أنْ والده الشيخ عبد الغنى كان يُشَمُّ لبدنه ولثيابه رائحةٌ مسكية فى أثناء خلوته وانقطاعه فيها لذكر اللّه تعالى . ومما يتناقلُه أهلُ القلمون أنه لما نبش قبر السيد أحمد أخى جدِّ والدى الذى تقدَّم ذكرُه وأنَّ مصطفى آغا بربر تزوج ابنته - كانت رائحةُ ترابه ذكيةً كالمسك ، حتى أنَّ بعض الناس أخذوا منها فى جيوبهم ما يحفظونه فى بُيوتهم .

وأخبار الشيخ على العمرى الطرابلسى[★] المعاصر لنا فى الرائحة كثيرة ووقائعه فيها مشهورةٌ فى طرابلسَ والآستانةِ ومصرَ ، وكانوا يُسمُّونه شيخَ المسك إذ كان ينفخُ على الشىء كمنقوع الشاى والقهوة وعلب التبغ ، فتصيرُ رائحتُها مسكيَّةً .

---

(1) أى من المبرَّزين المميزين .

(★) الذى وقع أمامى من خوارق أعمال الشيخ على العمرى أمران ، أولُهما إلى الآن لم أفهمْ سرَّه : وهو أنَّ الشيخ كان يَستدعى أحدَ الحاضرين أيًا كان ويقول له : ليقطع ورقة من عنده فإذا قطعها أخذها الشيخُ من يده وتفل فيها ، وقال له : ادنُ منى فيدنو منه فيمسحُ بها عَيْنَىْ ذلك الرجلِ ، فلا تمضى لحظةٌ حتى يشعرَ هذا كأنه قد وُضع البارودُ فى عينيه ، وتنهمر منهما الدموعُ كالماء الجارى ، ويبقى على هذه الحالة دقيقتين أو ثلاثًا ، ثم تعودُ عيناه إلى حالهما المعتادة . وقد فعل الشيخُ ذلك مع أُناسٍ كثيرين أمامى ، وكلُّهم حصل لهم ذلك ، وكنتُ ممن أجرى له الشيخُ هذه العملية ، وشعرتُ بما شعر به غيرى حتى أنى فى البداية خِفتُ على عيونى ، فحدثت بذلك نجيبَ سرسق من وُجهاءِ المسيحيين فى بيروت ، فقال لى : قمْ بنا لنزورَ هذا الشيخَ ، وكان مُرادُه أنْ يختبر ذلك بنفسه ، فلما ذهبنا شعرَ الشيخُ فيما يَظهر أنَّ هذا الرجلَ يُريد أنْ يختبره ، فأجرى هذا العملَ لعدّةِ أشخاص أمامَه ومنهم الدكتور عبد الرحمن الإنسى البيروتى ، وجربتُ أنا ذلك مرةً ثانيةً فحصل لى كما حصل فى المرة الأولى . ومما أتذكَّره أنه لما كان الدكتور الإنسى يمسحُ عينيه بعدَ فيض دموعهما ، قلتُ له : يا دكتورُ ! أين العلم من هذا ؟ فقال لى : هذا فوقَ العلم . ثم دعا الشيخُ نجيب سرسق ليأتيه بورقة ، ويتفلُ له عليها ، ويمسحُ بها عينيه ، فاعتذر نجيبٌ ، وتوقف كأنه خاف على عينيه .

أما الأمرُ الثانى فقد وَقَعَ لى مع الشيخ على العمرى لأول مرَّة عرَفته بها ، وذلك أنَّ سيدتى الوالدةَ مرضت مرضًا شديدًا قال الأطباء إنه السّلُّ ، وإنَّ الأمل ضعيفٌ فى شفائها ، وكنا حينئذ فى الجبل فنزلتُ إلى بيروتَ =

وقد أخبرنى المشيرُ العثمانى أحمد مختار باشا الغازى[1] عنه ببعض ما وقع له فى أثناء زيارته لمصر وإقامته فى قصر القبة ضيفًا عند الخديوى محمد توفيق باشا الذى استحضره من طرابلس لأجل استشفاء بنتٍ له مريضةٍ برقيته وبركته بعدَ أنْ عجز عن مداواتها الأطباءُ فَشُفِيَتْ . والمسألة مشهورةٌ فى طرابلس الشام وعند الخواصّ فى مصر .

قال لى مختار باشا إن الشيخَ العمرى كان يَزورنى بعدَ العصر فى كلِّ يوم ، فيشربُ الشاى معى ثم نخرجُ إلى التنزُّه فى الجزيرة ، ونعود عند الغروب ، فيذهبُ هو إلى قصر القبة ، وأجيء أنا إلى قصر الإسماعيلية (حيث حدثنى) .

قال : فكان إذا أُحضر الشاى ينفخُ على الإبريق والفناجين فنجدُ للشاى رائحة المسكِ ، فقال لى شوقى باشا (هو زوجُ بنت الغازى ووالد وزير الجمهورية المفوَّض بمصر اليوم) فى إحدى الليالى : إنَّ المسكَ طَيبٌ شرقىّ أو عربىّ معروف ، ويُمكن للشيخ أنْ يَرُشّ شيئًا من مسحوقه فى الشاى بخفة لا نشعرُ بها ، فإذا كان هذا التعريف

= لا أعى من شدّة الهمّ ، وكان مقصدى أنْ نعقدَ لوالدتى جمعيةَ أطباء ، وإذ ذاك رآنى الشيخُ يوسف النبهانى فسألنى عن سبب ما أنا فيه من الهمّ العظيم فأخبرته بالخبر ، فقال : تعالَ معى لزيارة الشيخ على العمرى لعلَّه يَجرى على يده شفاءُ والدتك ، فذهبنا إلى الشيخ ، والغريقُ يتعلق بحبال الهواء ، كما يقال ، وكان نزيلَ الحاجّ إبراهيم الطيارة ، فلما أخبره النبهانى بالخبر أجابه : نعم والدته فى غاية الضّعف ، وحالتُها أربعةُ قراريط سلامة وعشرون قيراطًا خطرٌ ، ولكنَّ الأربعةَ ستغلِبُ العشرين بإذن اللّه . ثم أخذَ ورقةً ووضع عليها بقلمه خطوطًا متعرِّجةً لا معنى لها ، وقال لى : ضعوا هذه الورقة بماء الورد وَلْتَشْرَبْ والدتُك من هذا الماءِ بعدَ ذلك مرَّتين أو ثلاثًا فتبرأ بإذن اللّه . فرجعتُ إلى الجبل ، واكتفيت بالأطباء الذين كانوا يعالجونها ، وعملت كما قال الشيخُ ، وما مضى ثلاثةُ أيام حتى قال الأطباء لنا : إنه قد زال الخطرُ عنها ، فقضيتُ العجبَ من أنه لم يكن بين قولهم : إنَّ الخطرَ أرجحُ من السلامة وقولهم : الآن قد زال الخطرُ والسل كان على بدايته – أكثرُ من أربعة أو خمسة أيام . ومما أتذكره جيدًا أنَّ الشيخَ عليًا – رحمه اللّه – قال للنبهانى عندما أخبره بمرض والدتى ، نعم وهى امرأة صالحة ، فتعجَّب النبهانى ، وتعجبتُ أنا لمعرفته ذلك ، وهو لا يعرفُنى ولا يعرف والدتى ولا يعرف عنَّا شيئًا ، وهو من طرابلسَ بعيدٌ عنا ، وقد عرَف بمجرد سماعه القصة أنها امرأة صالحة مما هو معروف متواتر فى بلادنا . ولا تزال والدتى فى الحياة ، وقد مضى على هذه القصة 48 سنة .

أما ما سمعتُه من كرامات العمرى وخوارق أفعاله ومن أفواه أُناسٍ ثقاتٍ لا يمكن اتفاقُهم على الكذب فشيء كثيرٌ ومن أنواع شتَّى . ولكنّى حصرتُ الحديثَ فيما شاهدتُه بعينى ، واختبرته بنفسى . ومما أرويه عنه أيضًا أنه نفخ مرة على نارجيلة كان يُدَخِّنُ بها قاض تركى كان قاضيًا فى ملطية ، وكان ذلك فى مجلس أنا فيه ، فسمعتُ هذا القاضى يقول : فاح مسكُ الشيخ . وللّه فى خَلْقِهِ أسرارٌ .

(1) هو من كبار قادة الترك (1253 – 1337هـ / 1837 – 1919م) ، لقب بالغازى لحسن بلائه فى الحرب التركية الروسية ، عين فى مجلس الأعيان (1908م) وصدرًا أعظم (1913م) ، وتوفى بالآستانة . (الأعلام : 1 / 55) .

« **التطييب** » للشاى أمرًا رُوحانيًا أىْ يحدثُ بالتوجّه الرُّوحى المعروفِ عند الصوفية **فلماذا لا يُطيبه لنا بعطر كذا الإفرنجى** (وذكر لى الباشا اسمَ عطر إفرنجى لم **أحفظه**) .

قال : فلما كان اليومُ التالى ، وجاءنا الشيخُ على العمرى ، وأُحضر الشاى نفخ عليه أو فيه فإذا رائحتُه هى رائحةَ الطيب الذى ذكره شوقى باشا ليلاً ، ولم يكن معنا أحد .

أقولُ وقد كنت بعد ذلك أشَمُّ أحيانًا هذه الرائحةَ فى الدار وغيرها ، ثم تذهب من نفسها بسرعة ، وقد يكون بعدَ السؤال منى لمن فى الدار : هل تَشمُّونَ رائحةَ طيب ؟ فيقال : لا . وقد عرض لى فى رمضان شىء من هذا القبيل لا أذكرُه ، وكان قبل سلوك الطريق ، ولكن كنتُ ربما أقرأُ فى النهار منه ختمة كاملة فى حقل لنا .

تحقيق مسألة رؤية الأرواح :

وجملةُ القول أنَّنى ما زلتُ أعالج هذا الأمرَ حتى أمكننى أنْ أعرفَ الفرقَ بين استحضار الصوفية للأرواح ورؤيتها وما يحكيه الإفرنج من ذلك ، والفرقُ بين التخيُّل المحضِ والكشف الصحيح وما يكون فى يقظة تامة ، وهو لا يعدو اللمحاتِ القصيرةَ ، وما يكونُ مع غَيبة عن الحسّ ، وهو ما يُسمّونه بين النوم واليقظة ، كما قال بعضهم :

وَمَن يدّعى فى هذهِ الدارِ أنَّه ... يَرى المصطفى جَهرًا فَقَدْ فَاه مُشْتَطَّا

ولكنّ بينَ النومِ واليقْظةِ للذى ... يُحاولُ هذا الأمرَ مرتبةً وسطى

وعلمتُ أنَّ الفرقَ بين ما أعتقدُ أنه أصحُّ مما نقلَه ابنُ المبارك[1] عن شيخِه عبد العزيز الدباغ ومنه ما وقع لشيخِنا الأستاذ الإمام وأن ما يسمعه الرائى من الأرواح فى هذه الغيبة هو مثلُ الذى يَرونه ويَسمعونه فى الرؤى المنامية ، لا يُوثق بصحته ولا بضبطه بدليلِ أنَّ كلَّ ما نُقِلَ عن أشهر الرُّوحانيين منهم متعارِضٌ يدلُّ على أنه كان على قدر معارفهم ومعلوماتهم وما يناسبها من مداركهم ، كما أشرت إليه فى جواب مَن سألنى عن دعوى

---

(1) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى (118 - 181 هـ) صوفى شهير ، له تآليف مشهورة منها : كتاب الزهد ، كتاب الجهاد . (كنوز الأولياء : 2/ 84 - 88) .

شيخ التيجانية[1] وتحريفه ، ونشرتُه فى فتاوى المجلد الثلاثين من المنار ، فسأل عنه بعضُ أتباعه مجلةَ الأزهر فردَّت على ما لا تعقلُه من علم الصوفية ولا من علم الشرع ، فالحقُّ ما قاله علماءُ الشرع من أنَّ الرؤى والكشفَ لا يُعتدُّ بهما شرعًا ، ولا يُحْتَجُّ بما يُرى ولا بما يُسمع فيهما .

ويُعجبنى ما نقلَه الشعرانىُّ[2] عن شيخِه علىّ الخوّاص[3] فى كتابه « الدرر والجواهر » أنه سأله : لماذا يُؤول العلماءُ ما يُشكل من كلام الأنبياء دون ما يُشْكِلُ من كشف الأولياء فيردُّونه ؟ فقال : لأنَّ النبى معصومٌ فلا بُدَّ من حمل كلماته على الصحة ، والولىَ غيرُ معصوم فَيَحْتَمِلُ كلامُه الخطأَ . اهـ بالمعنى . ولكنَّ الباجورى نقلَ عنه فى حاشيته للسنوسية ضدَّه ، وإذا حَكَّمْنا الشرعَ حَكَمَ لنقله الأولِ ، وهو الحقُّ .



---

(1) **التيجانية** : إحدى الطرق الصوفية ، تعتقد إمكانية مقابلة النبى ﷺ فى الدنيا واللقاء به بعد موته ، وتزعم أنه ﷺ خصهم بصلاة (الفاتح لما أغلق) . (**انظر** : الموسوعة الميسرة : 1/ 285 - 289) .

(2) هو عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن محمد بن موسى الشعرانى (898 - 973 هـ) ، صوفى شهير ، له تآليف كثيرة ، من أشهرها الطبقات ، ولد بقلقشندة بمصر ، ونشأ بساقية أبى شعره من قرى محافظة المنوفية ، وتوفى بالقاهرة .

(3) على الخواص هو أحد أكابر العارفين من الصوفية ، وهو شيخ الشعرانى الصوفي صاحب (الطبقات) ، كان يزعن له ولكلامه جماعة من أجلاء علماء مصر كاللقانى وابن السبكى ، توفى سنة 939، ودفن بزاوية الشيخ بركات خارج باب الفتوح . (**انظر** : جامع كرامات الأولياء : 2 / 371 ، والكواكب السائرة : 2 / 218) .

الرُّوحانيةُ والتجدّدُ وخطابُ أرواح البشر والشياطين

كان مما وقفتُ عليه من أسرارِ النفس غيرِ ما تقدَّم من تجلِّى الأرواح مسألة التجرّد وغلبةُ الرُّوح على الجسد التى تنتهى إلى ما ينقُلونه فى بحث الكرامات من المشى على الماء والطيران فى الهواء ، ومن دون ذلك قطع المسافات فى زمن قليل ؛ ذلك أنَّنى كنتُ فى أثناء شهر رمضان لا أذكرُ من أىّ سنة أتحنَّثُ[1] وأطالع الربعَ الرابعَ من إحياء علوم الدين ، فلما كان آخرُ يوم منه بلغتُ كتاب (التوحيد والتوكل) ، وقد أحييتُ معظمَ ليلة عيد الفطر بالتكبير مع جماعات من أهل بلدنا الذين يَبيتون فى المسجد كيلا تفوتهم صلاةُ العيد ، وكان منهم شيخٌ كبيرُ السن عاش فى صباه وكهولته عزيزًا مُنَعَّمًا ، وافتقر وذَلَّ فى شيخوخته ، فكان لرفع صوته الأجش بالتكبير مع شيبته التامة ضراعةُ خشوعٍ مؤثِّرةٌ ، حتى إذا كان السحر صَلّيتُ صلاةَ الليل والوَتر إحدى عشرة ركعةً وفاقًا للسُّنَّة الصحيحة كالعادة ، وعدتُ بعد صلاة الفجر إلى التكبير مع الناس فى المسجد إلى وقت صلاة العيد ، وبعد أدائها صعدتُ إلى غُرفة خَلوتى ، وأتممتُ قراءةَ ما بلغتُه من الإحياء وفيه ذلك البحثُ البليغُ العظيمُ التأثيرِ فى الفناء فى التوحيد ، فما أتممتُه إلا وشعَرتُ بأنَّنى فى عالمٍ آخرَ من اللذة الرُّوحية ، وأنه لم يَبقَ لى وزنٌ ، فكأنِّى رُوح بغير جسم ، ثم عدتُ أرجعُ إلى حِسِّى ، فذكرتُ ما علىّ من الذهاب إلى تهنئة والدى بالعيد ، وكان يَزورُ قبرَ والده وأجدادِه بعدَ الصلاة ، ويقرأُ سورة يس ، ثم يُمَدّ له سِمَاطٌ[2] فيفطر مع مَن يُوجد من الفقراء ومن شاء من غيرهم ، فنزلتُ من الغرفة وكأنَّنى ريشةُ طائر ، وشعَرتُ بأنَّنى لو أَلقيتُ بنفسى من النافذة إلى الأرض لا أكونُ إلا كما تَقَعُ الريشةُ ، وأنه يُمكننى المشىُ على الماء دون الطيران فى الهواء ، واعتقدتُ بل أعتقد حتى اليوم أنّنى لو تركتُ الطعام زمنًا طويلاً مع ملازمة مثل تلك الحالِ من الذِّكر والعلم الإلهى الأعلى لَقَوِيَتْ معى تلك الرُّوحانية ووصلتُ إلى غايةِ ما يُذكرُ عن الرُّوحانيين ، ولن يكونَ ذلك لو كان إلا كشفًا

---

(1) **تحنث** : تعبَّد .

(2) **السِّمَاط** : ما يُمَدّ ليوضع عليه الطعام فى المآدب ونحوها .

لشيء من استعدادِ الأرواح قد يُفْقِدُ صاحبه مِيزانَ بشرّيته التى هى جسدٌ ورُوح ، فما تعلَّقْتُ ذلك ولا تكلَّفتُه ، وما كنتُ متكلِّفًا فى شيء من أمرى ، ولِلَّهِ الحمدُ .

ولم أكنْ أذكرُ مثلَ هذه الأحوالِ لأحد كما هو شأنُ الصادقين المخلصين الذى قرَّره الغزالى وغيره ، ومنه كتمانُ كلِّ ما هو غيرُ معتاد ، والصوفيةُ الصادقون متّفقون على هذا ، وعلى أنَّ مبادئَ هذه البوارقِ واللوائح والأذواقِ مَشوِّقاتٌ مُنَشِّطَاتٌ للسالك ، وأنَّ الذى يغترُّ بها ينقطعُ وإلاَّ فقلْ هو هالكٌ . وقد نفعنى ما كنتُ قرأتُ فى كتاب الغرور من (الإحياء) ولا سيما غرورُ الصوفية قبل ذلك . ثم رأيتُ شيخَنا الأستاذَ الإمامَ عليه كان يقول إنَّ هذه أحوالٌ غيرُ طبيعية لا يجوزُ التحدثُ عنها إلا مع أهلها لأنها تكونُ لغيرهم فتنةً ، وإن الشيخ محيى الدين قد أفسد التصوف بإطلاق العنان لقلمه بشرح كلِّ ما يَعْرِضُ له ، وإنه انقطعت معه سلسلةُ التوازن فخلطَ الحقَّ بالباطل .

وهذا الذى كان يَراه شيخُنا هو الحقُّ ، فإنَّ الذين أوغلوا فى الرُّوحانيات قد فَتنوا أنفسَهم وفَتنوا كثيرًا من الناس ، واختلَّ مِيزانُ عقلهم فيما يَتصوَّرون وفيما يُصدقون وفيما يَقولون ويكتبون ، كما تراه فى كتب الشعرانى من الخرافات والخيالات التى لا يُمَيِّزُ فيها بين معقول ولا مشروع . وفى مقدمة صحيح مسلم عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه « ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغُه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة »[1] .

ومما افتتن به الجماهيرُ من الناس بهؤلاء الرُّوحانيين ظنُّهم أنَّ كل من يصدر عنه أمر خارق للعادة يكون وليًّا معصومًا وإن ضلَّ وغوى وخرف وهَذَى ، وإنَّ له عند اللَّه ما يشاءُ فى الدنيا . والحقُّ الذى عرَفناه بوزن الكشف بميزان الشرع والعقل أنَّ الذى تَعْرِضُ له بعضُ المزايا الرُّوحانية من عملية أو علمية ، هو كالباحث الذى تُكْشَفُ له بعضُ الحقائق الكونية والاختراعاتُ الصناعية كلٌّ منهما بَشرٌ يُخطىء ويُصيب فى كلِّ علم وحال وعمل ، وتَحكُمُ عليه الشهواتُ والخرافات والأهواء فى غير ما أصاب فيه . وما تَسمعه من الجاهلين بالقرآن مِن زعمهم أنَّ قولَه تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ﴾ [الزمر : 34] . يُراد به هؤلاء الذين تَصدُرُ عنهم بعضُ الغرائب الرُّوحانية من صحيحة

(1) وهو قول ابن مسعود . **انظر** : مقدمة صحيح مسلم (1/ 191) .

أو وَهْمِيّة ، فراجعْ هذه الآية وما فى معناها من سور النحل والفرقان والزمر والشورى وق تجدْها كلَّها فى أهل الجنة وما لهم فيها من نعيم ، وهم المؤمنون المتقون . فاغتنمْ هذه الحقيقةَ العليا فإنَّك ربّما لا تجدُها فى كتاب ، واعتبر بما أذكرُه بعدَها .

وأما ما قاله شيخُنا فى الرُّوحانى الكبير الشيخ محيى الدين بن عربى فهو موافقٌ لما نقلَه لى على بك شوقى وزيرُ الترك المفوَّض فى مصر عن والدِه شوقى باشا الذى سبق ذكرُه قريبًا .

زارنى هذا الوزيرُ إثْرَ قُدومِهِ إلى مصر فى هذا العهدِ لعلمه بما كان بينى وبينَ والده وجدِّه لأمه أحمد مختار باشا من الصداقة ، فذكرتُ له أنَّ والده كان يُحدِّثنى بمناجاتِه للأرواح وحديثِه مع السيدةِ مريم العذراءِ عن حملِها بالسيد عيسى المسيح عليهما السلامُ وغير ذلك ، وأنَّه كان يكتبُ ذلك ، فهل وجدتم فى تركته ما كتبه فى هذه الشئون ؟ قال نعم !

وأخبرنى أنَّ مما قرأه فيه من مناجاة والده لرُوح الشيخ محيى الدين بن عربى أنه سأله عن منزلتهِ فى عالَم البرزخ ، فقال له : إنَّ منزلتَه دون مقامه من معرفة اللّه تعالى ، وإنَّ سببَ ذلك أنه اختلط عليه الأمرُ فى عالَم المثال ، فكتب ما ضلَّ به كثيرٌ من الناس ، فصاروا خصومًا له عند اللّه تعالى ، وكان من عقابه على ذلك أنَّه حُبس عن الارتقاء إلى المنزلة التى هى لمن كان له مثلُ معرفته ، وأنه هو توسَّلَ إلى خصومه لِيعفوا عنه ، فلم يقبلوا ، وأنَّه يرجو أنْ يَعفوا عنه فى موقف الحساب فيعفو اللّه عنه اهـ .

هذا ما فهمتُه من السفير مما قرأه فيما كتبه والدُه ، وسأبدى رأيى فيه وفى أمثاله عندما أجدُ فرصةً واسعةً لكتابة بحثٍ طويل فى مسألة الأرواح التى تشغلُ العالَمَ المدنى فى هذا العصرِ . وأقتصرُ هنا على كلمة وجيزة اقتضتها الضرورةُ .



استحضارُ أرواح الموتى وتلبيسُ الشياطين فيه :

لا شكَّ أنَّ قليلاً من الناس يَرون بعضَ الأرواح فى حالات مخصوصة واستعداد خاصّ ، وأنَّ تربيةَ الإرادة بالرياضة عند الصوفية أقوى وسائل هذه الرؤية ، وأنَّ منها ما يَستعين عليه الإفرنج بما يُسمّونه الوسيطَ من أُولى الاستعدادِ الفطرىّ . وفائدةُ الرياضةِ والعملِ الكسبىّ فى ذلك صرفُ الإرادة عن الأشياء الكثيرة المفرِّقة لقوة إدراك النفس وتوجيهها إلى شىء واحد ، والراجحُ عندى أنَّ أكثرَ هذه الأرواح التى يَرونها هى أَرواحُ الشياطين مِن قُرناء أُولئك الميّتينَ لا الميتينَ أنفسِهم ، وأنَّ بعضَ الصوفية الذين كانوا يَغيبون عن حِسِّهم وعقلِهم فى رياضاتهم كانت تَستهويهم الشياطينُ وتُوحى إليهم ما يَظنون أنه حقائق كوشفوا بها من اللّه مباشرةً أو مِن تلقين أرواح شيوخِهم المعتقدين ، فكلُّ ما خالفَ الشريعةَ من كشفهم فهو من الشيطان . ومنه ما يَحكيه الشعرانى عن السيد البدوى أنه كان يجمعُ أرواحَ الميتين من البلاد المختلفة ويَسوقهم إلى حضور مولدِه الذى هو مجمعُ البدع والفِسق والخرافات والضَّلال ، ومنه ما يحكيه الشيخ محيى الدين بن عربىّ من كشفه الذى تخيَّل به أنَّ فرعونَ موسى كان من أكابر العارفين باللّه وأوليائه المقرَّبين عنده ، وإذا كان التيجانىُّ من أصحاب الرياضات والأحوال فكلُّ ما خالف الشريعة من كلامه ، وهو كثير ، فهو من وَحْى الشيطان ، وإن لم يكن منه فهو كذب واختلاقٌ لكسب الشهرة والمال ، وإنْ أسندوه إلى رُوح النبى عليه أفضلُ الصلاة والسلامُ .

ولا يُهَوِلَنَّكَ أيُّها المؤمنُ العاقلُ المتَّبعُ هذا القولُ فتستبعدَه على أُناس نُقلت عنهم حِكَمٌ حسنةٌ معقولةٌ وأفهامٌ فى القرآن مقبولة وأعمالٌ أو أحوال رُوحية خارقةٌ للعادة ، فقد قال علماء الكلام إنَّ خوارقَ الكلام قد تقعُ للكفار والفجَّار ، وأنها تختلفُ باختلافِ مَن تقعُ لهم . وقال بعض كبار الصوفية الراسخين المَهْدِيِّين : إذا رأيتمُ الرجل يطيرُ فى الهواء فلا تغترُّوا به أو لا تقتدُوا به حتى تنظروا حالَه عند الأمر والنهى ، وإنما العصمةُ عند أهل السُّنَّة للأنبياء فى التبليغ عن اللّه عزَّ وجلَّ دونَ أمور الدنيا ، وكذا عن معصيته عز وجل[1] .

---

(1) أى الأنبياء معصومون عن ارتكاب المعاصى .

(فإن قيل) : وهل تَتَمثَّلُ الشياطينُ بصورة الأنبياء عليهم السلام ، أو كبار الأولياء ؟

(قلنا) إنّ إغواءَ الشياطين لمن اختلَّ عقلُه بشدَّة الجوع والخَلوة والسهر والتخيّلِ كثيرٌ ، وإن إيهام الشيطان لأحدهم أنّه نبىّ أو ولىّ يُكلّمه أو يكشف له الحقائقَ مع تمثُّله له بصورة نُورانية أو بغير تمثُّل واقعٌ ، ولا يقتضى أنْ يكونَ قد تمثَّل بصورة النبى الحقيقية . وقد نُقل عن الولى الكبير الشهير المتفق عليه الشيخ عبد القادر الجيلانى أنه قال : تراءى لى نُورٌ عظيمٌ ملأ الأفق ، وسمعتُ منه صوتًا يقول لى : يا عبدَ القادر أنت عبدى ، وقد أحللْتُ لك المحرَّمات (قال) فقلتُ له : اخسأ يا لَعينُ ، فتحوَّل ذلك النورُ دُخانًا مظلِمًا ، وقال لى : قد نجوتَ منى بعلمِك بأمر ربك وفقهِك فى أحوال منازلاتك ، وقد أضللتُ بمثل هذه الواقعةِ سبعينَ من أهل الطريق . فقلتُ : للَّه الفضلُ . فقيل له كيف علمتَ أنه شيطان ؟ قال : بقوله قد أحللْتُ لك المحرَّمات .

ومن ليس لهم من العلم بالشريعة مثلُ ما للشيخ عبد القادر يَضلُّون بهذه الأنوار الشيطانية ، وهو لولا تلك الكلمةُ لاعتقد أنَّ ذلك النورَ مِن تَجلِّى الرحمن . وللشيطان مع كبار الصوفية العارفين مناظراتٌ ومجادلات منها قولُه لبعضهم ، وقد غاب اسمُه عنى الآن : ألستُ أنا شيئًا ؟ قال الصوفىُّ : بلى . قال : وإنَّ اللَّه تعالى يقول : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 156] . فهى تَسعُنِى ، قال : فقلتُ له اقرأ ما بعدها يا ملعونُ - يعنى ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 156] - فقال : التقييدُ صفتُك لا صفتَه .

وقد نُقِلَ عن بعضهم أنَّهم قالوا : إنَّ التكاليفَ خاصةٌ بغير الواصلين ، وأما الواصلُ الذى بلغ مرتبةَ اليقين ، فإنَّ التكليفَ يرتفعُ عنه ، ويُباح له كلُّ شىء ، ويتأوّلون لهذا قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر : 99] . وإنما اليقينُ فى الآية الموتُ . وسيّدُ الموقنين وأكملُهم ﷺ قد التزم العبادَةَ إلى أنْ توفَّاه اللَّه ، ورفعَه إلى الرفيق الأعلى .

ومن أولئك المفتونين بوحى الشياطين مَن ظنَّ أنه تجاوزَ درجةَ الأنبياء ، ومنهم ابن سبعين(★) الذى قال : لقد تحجَّر ابنُ آمنةَ واسعًا بقوله : « لا نبىَّ

(★) اختلف الناسُ فى قضية ابن سبعين هذا كما اختلفوا فى قضية محيى الدين بن عربى ، فكلٌ من هذين غلا الناسُ فيه بالمدح والقَدْح ، ومن الغريب أنَّ كلاً منهما من مدينة مرسية التى يُنسب إليها كثير من فحول العلماء وأكابر الأولياء ، ومنها أبو العباس أحمد المرسى دَفينُ الإسكندرية ، ومنها ابنُ سِيده صاحبُ المُخَصَّص وغيرهما . وقد ترجم صاحبُ (نفح الطيب) الفقيهَ الجليلَ العارفَ النبيلَ الحاذقَ الفصيحَ البارعَ – أبا محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر الشهير بابن سبعين العكى المرسى الأندلسى قال : ويُلَقَّبُ من الألقاب المشرقية بقطب الدين . قال الشيخ المؤرِّخ ابن عبد الملك : دَرَسَ العربيةَ والآدابَ بالأندلس ، ثم انتقل إلى سبتة ، وانتحل التصوفَ ، وعكفَ بُرْهَةً على مطالعة كتبه والتكلم على معانيها ، فمالت إليه العامّةُ . ثم رحلَ إلى المشرق وحجَّ حِجَجًا ، وشاع ذكرُه وعظم صِيتُه وكثر أشياعُهَ ، وصنّف أوضاعًا كثيرةً تَلَقَّوْهَا منه ونَقَلُوها عنه ، ويَرمى بأمور اللّهُ تعالى أعلمُ بها وبحقيقتِها ، وكان حَسَنَ الأخلاقِ صبورًا على الأذى آيةً فى الإيثار اهـ . وقال غيرُ واحد : إنَّ أغراض الناس فيه متباينةٌ بعيدةٌ عن الاعتدال ، فمنهم المرهِق المكفِّر ومنهم المقلِّد المعظِّم الموقِّر ، وحصَل بهذين الطرفين من الشهرة والاعتقاد والنفرة والانتقاد ما لم يَقع لغيره ، واللّه تعالى أعلم بحقيقة أمره . قال صاحبُ (النفح) نقلاً عن الشريف الغرناطى إنَّ ابنَ سبعينَ كان يوقع « ابن ٥ » يَعنى الدارةَ (ما أحاط بالشىء) التى هى كالصفر ، وهى فى حساب المغاربة سبعون ، ولذلك شُهر بابن دارة ، وضمّن فيه البيت المشهور : محا السيفُ ما قال ابنُ دارةَ أجمعًا[1] .

ونقلَ عن صاحب « دُرَّة الأسلاك » أنه فى سنة 669 تُوفى الشيخُ قطبُ الدين أبو محمد عبد الحق بن سبعين المرسى ، صوفىٌ متفلسِفٌ متزهِّد متقشِّف يتكلم على طريق أصحابه ، ويدخلُ البيتَ ولكن من غيرِ أبوابه ، شاع أمرُه واشتهر ذكرُه ، وله تصانيفُ وأتباعٌ وأقوالٌ يميل إليها بعضُ القلوب وتملُّها بعضُ الأسماع ، وكانت وفاته بمكة المشرفةِ عن نحو خمسينَ سنةً ، تغمَّده اللّه برحمته اهـ .

ثم نقل المِقّرِى عن بعض الأعلام فى حقِّ ابن سبعين ما ملخصُه : أنَّه كان عزيزَ النفس قليلَ التصنع يتولَّى خدمةَ الكثير من الفقراء بنفسه ، ويحفُّون به بالسكك ، ولما توفَّرت دواعى النقد عليه من الفقهاء كثُرَ عليه التأويلُ ، وُوجِّهت لألفاظه المعاريضُ وتعاورته الوحشة ، وجرت بينه وبين الكثير من أعلام المشرق والمغرب خطوبٌ يَطولُ شرحُها ، ثم ذكر رسالةً لبعض تلاميذ ابن سبعين يَظُنُّ اسمَه يحيى بن محمد بن أحمد بن سليمان ، واسم هذه الرسالة « الوراثة المحمدية والفصول الذاتية » جاء فيها : فإنْ قيل ما الدليلُ على أنَّ هذا الرجلَ الذى هو ابنُ سبعين هو الوارثُ المشارُ إليه ، قلنا عدمُ النظير ، واحتياجُ الوقت إليه ، وظهورُ الكلمةِ المشار إليها عليه ، ونصيحتُه لأهل المِلّة ، ورحمتُهُ المطلَقةُ للعالَم المطلق ، ومحبتُه لأعدائه ، وقصدُه لراحتهم مع كونهم يقصِدون أذاه ، وعفوُه عنهم مع قُدرته عليهم ، وجذبُهم إلى الخير مع كونهم يطلبون هلاكَه . وهذه كلُّها من علامات الوراثة والتبعية المحضة التى لا يُمكن أحدًا أنْ يَتَّصِفَ بها إلا بِمَجْدٍ أزلىٍّ وتخصيص إلهى « إلى أنْ يقولَ » إنَّه من أشرف البيوت التى فى بلاد المغرب ، وهو بيت بنى سبعين قرشيًّا هاشميًّا علويًّا ، وأبواه وجُدودُه يشار إليهم ، ويعوَّلُ فى الرئاسة والحسَب والتعيُّن عليهم ، والثانى كونُه من بلاد المغرب والنبى ﷺ قال : لا يَزالُ طائِفة من أهل المغرب ظاهرين إلى قيام الساعة[2] . وما ظهر من بلاد =

(1) قال ابن بَرِّى الشعر للكميت بن معروف ، وقال ابن الأعرابى هو للكميت بن ثعلبة الأكبر ، وصدره : فلا تكثر فيه الضَّجاج فإنه . . . (لسان العرب : دور) .

(2) هذا ليس نص الحديث ، والحديث جاء بألفاظ هى : « لا تزال طائفة من أمتى . . . » ، و« لا تزال عصابة من أمتى . . . » . (**انظر** : البخارى 9/ 125 ، ومسلم ، الإمارة ، رقم 175) ولم يرد مطلقًا : (لا تزال طائفة من أهل المغرب . . .) .

بعدى »[1] ، ومثلُ هذا الكلام هو الذى جَرَّأَ ميرزا غلام القاديانى على ادعاء النبوة .

وقد نقلَ النصارى ما هو أعظمُ من ذلك عمَّن هو أعظمُ من أولئك وهو النبى المعصوم عندنا الذى أعاذه اللّه وأمَّه من الشيطان فى اعتقادنا ، وقد اتخذوه ربًّا وإلهًا لهم ؛ إذ ذكروا فى أناجيلهم أنَّ الشيطانَ قد جرَّب السيدَ المسيحَ ، وهو إمامُ الرُّوحانيين عليه السلامُ ، فقد حملتْ به أُمه بنفخةٍ من رُوح اللّه جبريل عليه السلام ، وكانت آياتُه كلُّها رُوحانيةً .

ففى الرابع من إنجيلى متى ولوقا أنَّه صام أربعينَ يومًا فجاعَ فأخذَه الشيطان فى تلك المدة وجرَّبه عدةَ تَجاربَ منها أنه أصعَده إلى جبلٍ عالٍ وأراه جميعَ ممالكِ المسكونة فى لحظة من الزمن ، وطلبَ منه أنْ يسجدَ له لِيُعطيَه ذلك كلَّه ، فأجابه يَسوعُ : اذهبْ يا شيطانُ إنه مكتوب « للرب إلهِك تَسْجُدُ ، وإياه وحدَه تعبدُ » .

= المغرب رجلٌ أظهرُ منه ، فهو المشار إليه بالحديث (إلى أنْ يقولَ) : ثم انظرْ فى بدايته ، وحفظِ اللّه سبحانه له فى صغره وضبطِه له من اللهو واللعب وإخراجِه من اللّذة الطبيعية التى هى فى جبلّة البشرية وتركهِ للرئاسة العرضية المعوَّل عليها عند العالَم ، مع كونِه وَجَدَهَا فى آبائه ، وهى الآنَ فى إخوته (إلى أنْ يقولَ) : ثم انظرْ فى تأيُّدِه وفتحِه من الصغر وتأليفِ كتاب « بدء العارف » وهو ابنُ خمس عشرة سنة ، وفى جلالة هذا الكتاب وكونه يحتوى على جميع الصنائع العلمية والعملية وجميع الأمور السنيّة والسُّنية ، تجدْه خارقًا للعادة ، وفى نشأته فى بلاد الأندلس وظهوره فيها بالعلوم التى لم تُسمع قطُّ تعلم أنَّه خارقٌ للعادة وفى تواليفِه واشتمالِها على العلوم كلِّها ثم انفرادِها وغرابتها وخصوصيتِها بالتحقيق الشاذِّ عن أفهام الخَلْق تعلمْ أنه مؤيَّد برُوح القدس ، انتهى ملخصًا نقلاً عن (نفح الطيب : ص 188 – 212) . ويظهرُ أنَّ صاحبَ هذه الرسالة هو من تلاميذِ ابن سبعين بل من أشدِّ تلاميذه إعجابًا به . وروى شهاب الدين بن أبى حجلة التلمسانى الأديب الشهير نقلاً عن الشيخ الصالح أبى الحسن بن برغوش التلمسانى شيخ المجاورين بمكة أن ابن سبعين كان إذا قرُب من باب من أبواب مسجد المدينة – على ساكنها الصلاة والسلام – يهراق منه دم كدم الحيض ، واللّه تعالى أعلمُ بحقيقة أمره . وقال غيرُه : نعم زَارَ النبىَّ ﷺ مستخفيًا على طريق المشاة ، حدَّث بذلك أصهارُه بمكةَ . انتهى . وقال لسانُ الدين ابنُ الخطيب : أما شُهرةُ ابنِ سبعين ومَحَلُّه من الإدراكِ والآراءِ والأوضاع والأسماءِ والوقوفِ على الأقوال والتعمُّق فى الفلسفة والقيام على مذاهب المتكلمين فما يُقضى منه بالعجبِ . وقال الشيخُ أبو البركات بنُ الحاجِّ البلفيقى حدثنى بعضُ أشياخنا من أهل المشرق أنَّ الأمير أبا عبد اللّه بن هود سالمَ طاغيةَ النصارى فنكث به ، فاضطرَّه ذلك إلى مخاطبة القسِّ الأعظم برُوميَّة (أىْ البابا) ، فوكل أبا طالب بن سبعين أخا أبى محمد عبد الحق بن سبعين بهذه الرسالة إلى رُومية فلما بلغَ أبو طالب بن سبعين رومية ودخل على البابا قال البابا لمن حوله : إن أخا هذا ليس للمسلمين اليومَ أعلمُ باللّه منه . انتهى . ومن المشهور أنَّه قد كان النصارى ألقوا مسألة على المسلمين ، وانبرى للجواب عليها ابنُ سبعين فاشتُهر بذلك . وَروى ابنُ خلدون فى تاريخه الكبير فى ترجمة السلطان أبى عبد اللّه بن السلطان زكريا الحفصى أنَّ أهلَ مكةَ بايعوا السلطانَ المذكور ، وخطبوا له بعرفةَ ، وأرسلوا إليه بيعتَهم ، وهى مِن إنشاء ابن سبعين ، وسردَها ابنُ خلدون بجُملتها . قال المِقرِّى وفيها من البلاغة والتلاعبِ بأطراف الكلام ما لا مَطْمَحَ وراءَه ، تُوفى سنة 669هـ .

(1) رواه مسلم فى كتاب الإمارة رقم (1842) .

الرُّؤى الصالحةُ وشهادة النبى ﷺ لى فى الرؤيا ورؤية كلٍّ منّا فى صورة الآخر

إنَّ الرؤى الصالحةَ التى رأيتُها والتى رآها الناس لى كثيرةٌ فى جميع أطوار عمرى ، ومنها ما كان يَقَعُ فى اليقظة كما رأيتُه فى النوم بعينه ، وما كان تأويلُه ظاهرًا لا يَحتملُ المراءَ ؛ والعبّادُ وأهلُ الصلاح يهتمُّون بأمر هذه الرؤى ولا سيما رؤيا النبى ﷺ والمشهورين من الصالحين ، ومنهم الذين يتيهون بها غرورًا ، وأحسنُ ما قيل فيها الحكمةُ المأثورةُ ولا أذْكُرُ قائلها : الرؤيا تَسَرُّ ولا تَغُرّ ، ومن أحسن ما سرَّنى من رؤيا النبى ﷺ القديمة أنه سمعتُه يقولُ لى : « اثبتْ على ما أنتَ عليه » ، وقد رأيتُه فى هذا العام وندِمتُ أن لم أكتب هذه الرؤيا ولا أمثالَها لأوريها بنصِّها .

وإنَّنى أذكرُ أَحْدَثَ ما رآنى فيه أو رآه لى بعضُ الأحياء مع النبى ﷺ بنصِّه ، فمنه ما رواه لى ابنُ عمِّى السيدُ عبد الرحمن عاصم عن رَجُلٍ حدَّثه فى طرابلس الشام أنه رأى النبى ﷺ فى الرؤيا فشكا له سوءَ حال أُمته وما فشا فيها من البِدع والمعاصى وعدم تصدِّى أحدٍ من العلماء ولا من غيرهم للإنكار على أهلها وإرشادهم ، قال حتى إنَّ السيدَ محمدَ رشيد رضا مُقَصِّرٌ أو كلمة بهذا المعنى .

فقال له النبى ﷺ : إنَّ محمدَ رشيدٍ يَفعل فى كلِّ وقت ما يَرى أنّه الواجبُ .

وروى لى فى السنة الماضية (سنة 1350هـ) عن الفاضل الأديب الصالحِ الأستاذِ عمرِ الرافعىّ أحدِ أنجال علاّمةِ العصر وفقيههِ وصوفيِّه الشيخ عبد الغنى الرافعى رحمه اللّه أنه رآنى فى الرؤيا بهيئة جميلة نورانية تَمَثَّلتُ له فيها بصورة النبى ﷺ ، قال للسيدِ عاصم : رأيتُ أنَّ الناسَ فى بلادِ الشام فى هَرْجٍ ومَرْجٍ ينتظرون حضورَ السيد « إياى يعنى » ليخطبَ فيهم خطبةً تكونُ فيصلاً فى موقفهم . ثم حضر السيدُ فسألتُه هل كتب الخطبةَ التى يُريد إلقاءَها ؟ فقال : إنّنى أخطب ارتجالاً ، وليس من عادتى كتابةُ الخطب . قلتُ : إنَّ هذه خطبةٌ سيترتب عليها عملٌ عظيم ، فينبغى كتابتُها ، وأَلْحَفْتُ[1] عليه فى

(1) **ألحف السائل** : ألحّ فى السؤال .

الرجاء بأنْ يُملى علينا خطبتَه لِنَكْتُبَها فاستجاب لنا ، وطفِقَ يُملى وأنا أكتبُ ، فإذا تعبتُ ساعدتنى (الخطاب للسيد عاصم) ولما أتم السيدُ إملاءه أُعجبتُ بالخطبة جدَّ الإعجاب ، وطفقِتُ أنظرُ إليه نظرَ الإجلال والإكبار ، والسيد يزداد فى نظرى جمالاً ولطافةً ونورانيةً حتى قلتُ له : أنت السيد رشيدٌ أم النبىُّ ﷺ اهـ . ثم نظمها ، وأرسل إلى ما نصه :

« عمرُ الرافعى يُقدم لمعاليكم واجبَ التبريك بشهر رمضان المبارك ، ويَرجو اللَّه أنْ يُديمَكم منارَ حقٍّ وهُدى لهذه الأمة ويُلهمكم الدعاءَ له فى خَلوة من خَلواتكم مع اللَّه ، ثم يَقُصُّ على سيادتكم رؤياه التى رآها لكم حديثًا ، وهى كما يأتى :

أعلاَّمةَ الدنيا لك اللَّهُ مُرشِدًا ... بعلمِك أهلَ الحقِّ فى الغربِ والشرقِ

تمثلتَ لى مولاى (رؤيا) كقادم ... علينا خطيبًا جاءَ يَصْدَعُ بالحقِّ

وما زلتَ تصفُو فى جمالِك مُشرقًا ... صفاءَ منارِ الحقِّ فى مَفْرِقِ الطرقِ

فأدهشنى هذا الجمالُ الذى أَرَى ... ولم أَرَهُ واللَّهِ فى سائرِ الخَلقِ

فقلتُ بنفسى ذا رشيدٌ مصدقًا ... أم المصطفى ؟ واللَّهُ أعلمُ بالحقِّ

عن طرابلس الشام 25 شعبان سنة 1351هـ

ولقيتُ فى أواخر شهر ذى القعدة من تلك السنة رجلاً يُريدُ الحجَّ ولم أكنْ أعرفُه بالرؤية ولا بالسماع ، فأخبرَنى أنه رآنى فى رؤيا فقصَّها على العلاّمة الشَّريف الأستاذِ السيد عبد الرحيم عنبر ، فقال له : إنَّ هذه رؤيا صادقةٌ ويحتمل أنْ يكونَ الذى رأيتَه هو النبى ﷺ فإننى أنا رأيتُ النبى ﷺ فى صورة السيدِ محمد رشيد رضا . . . إلخ . وبعدَ أشهر زُرْتُ الأستاذَ السيد عبد الرحيم عنبر ، وسألتُه عن هذه الرؤيا فذكرَها ، وقال لى : إنّنى كثيرًا ما رأيتُ النبى ﷺ ، وقد رأيتُه مرّةً فى صورتك ، وهى أبهى وأجملُ مما أنتَ عليه ، ولكنَّها صورتك .

وبعدَ كتابة ما تقدَّم بشهر وقبلَ طبعِه قَصَّ علَّى الأديبُ محمودُ أفندى منصور الإسكندرى رؤيا ثم كتبها لى ، وهى : رأيتُ فيما يرى النائمُ رسولَ اللَّه ﷺ جالسًا فى صدر مجلس وأنت بجانبه ، فتحدثتَ إلى صديق كان بجانبى عن جماله ﷺ قائلاً له : انظرْ يا أخى هذا هو النبى ﷺ ألا ترى أنَّ أصدقَ من وصف جمالَه الخَلْقِىَّ تلك المرأةُ

القائلةُ إنَّ جماله لا يُطمعُ الناظرَ فيه كما أنَّ جلالَه لا يُفزعُ الناظرَ منه ؟ أو لا ترى أنَّ النسبَ له دَخْلٌ كبير فى الشبه ، فهذا السيدُ رشيدٌ أقربُ الناسِ شبهًا به ؟ (ثم قال) : ولقد أوَّلتُ هذه الرؤيا بصدقِ دعوتكم وقيامكم بالعمل بمقتضى كتاب اللّه وسُنَّة رسوله ﷺ ، ثُمَّ قصصتُها على نفر من إخوانى فأوَّلها بتأويلى هذا . اهـ(★) .

المكاشفات :

مما أثمرته لى العبادةُ والمراقبةُ قبلَ سلوكِ الطريق وبعدَه المكاشفاتُ بقسمَيها : الصورىّ والمعنوىّ أو الظّلمانىّ والنُّورَانىّ كما يقول الصوفية ، والمرادُ بالثانى المعرفةُ والحقائقُ ، وقد سبقت الإشارةُ إليه فى الكلام على الاستعدادِ النفسىّ وتحصيل العلم - وبالأول الشئون الدنيويّة ، وكانت كثيرةً جدًّا بحيث يتعذَّر كتمانُها كلها ، وكنتُ أكتُمُ ما لا يَعلمُه الناسُ ، وأما ما يقعُ لى معهم ، فقد كنتُ أسمِّى بعضَه مصادفةً وبعضَه رأيًا أو خاطرًا ، وإنْ كان فى موضوع طويل الأمد كثيرِ الحوادث ، ومنه ما كنتُ أرجِّح أنه كذلك وأُوكِّده ، فيقبله بعضُ الناس دون بعض .

(★) إنَّ الرؤى الصالحةَ تقعُ لكثير من الناس ، ومنهم مَن لا يكونُ صالحًا فى نفسه ، ولكنّه يَرى أمثالَ هذه الرؤى ويتفاءل بها خيرًا ويتبرّك بها ويقصُّها على الناس ويُفَسّرونها له ، وربّما تحقّقت أو ربما تحقّقَ منها شىء ؛ وهى مع ذلك لا يُبنى عليها شىء شرعى ، ولا يُؤخذ بها حجّةً كما لا يَخفى . ولكنْ مِن الرؤى ما يتحقق بتمامِه ، وأعجبُها ما يَرى الإنسان فيه حوادثَ حقيقيةً تقعُ على بُعد فى نفس الوقتِ الذى يَراها فيه ، ويستيقظُ فيعلمُ خبرَها ويعلمُ أنَّ تلك الحادثةَ وقعت فى أثناء رُؤياه لها ، والحالُ أنه لم يكن يتوقَّعُها ولا عرَف من أمرها قليلاً ولا كثيرًا ، ولم يكنْ مِن سبيلٍ مادىّ لاطلاعه عليها . والإفرنج يقولون لهذا النوعِ من الرؤى « تيليباتى Telepathie » ومن الناس مَن يستدلُّ بذلك على صلة الأرواح فى الغيب بعضِها ببعضٍ ومنهم مَن يَرى فيه انتقالَ الخبر بواسطة تَمُوجات الأثير كما يتّصل التلغرافُ اللاسلكىُ والنورُ والحرارةُ ، فلا يَرى هناك إلا عملاً ماديًا بحتًا .

وقد وقع لمُحَرِّرِ هذه السطورِ من هذه الرؤى التى تحقّقت بحذافيرها بعدَ اليقظة شىءٌ كثيرٌ ، وسمعَ مثلَها من غيره . وكذلك رأى النبى ﷺ ، وقد فرغ من صلاته وجلس يتلو ويدعو محرِّكًا شَفتيه ، وكان جلوسُه على أرض حمراءَ محروثةٍ ، وكان عليه الصلاة والسلامُ يَنظر إلىّ وهو يَبتسم ؛ وَحَلِيَّتُه حَسْبَما رأيتُه فى المنام عريضُ المِنْكَبين ، موثقُ الخلقِ ، قوىٌّ جدًا ، مستديرُ الوجه ظاهرُ اللون ، قد بدا الشيبُ فى لحيته الشريفة ، ووجهه الكريم أبيض مُوَرَّدٌ إلا أنه غلب عليه تأثير الشمس ؛ رأيتُ هذه الرؤيا منذُ ثلاثين سنةً ، وقصصتُها ثانى يوم على العلّامة السيد أبى طالب الحسنى الجزائرى ابن أخى الأمير عبد القادر ، وكان جارَنا فى حى رأس النبْع من أحياء بيروتَ حيثُ كنتُ ساكنًا وحيثُ رأيتُ هذه الرؤيا ، وكان عندَه ساعةَ قصصتُها عليه صديقُنا الأستاذ الكبيرُ العلّامةُ الشهير الشيخُ طاهر الجزائرى ، فقالا لى : هذه بُشرى . هذه بُشرى ، تَكرارًا . ثُمَّ بعدَ ذلك طالعتُ فى كتاب تفسير المنامات للشيخ عبد الغنى النابلسى ، فأحببتُ أنْ أعرفَ تفسيرَ منام مَنْ يرى النبىَّ ﷺ يصلّى ، فوجدتُه يقولُ : ومن رآه ﷺ يُصلّى فإنَّ اللّه يَجمعُ على يدِه ما تفرّق مِن أمرِ المسلمين .

من هذا أنَّنى كنتُ فى دار آل الرافعى بطرابلسَ فى أثناء زيارتى للبلاد عقبَ إعلان الدستور العثمانى سنةَ 1326هـ فى فصل شتاء سنة 1908م فقلتُ اللَّه أعلم سينزلُ من السماء ثلجٌ الآن ، فنزلَ الثلجُ بعدَ دقائقَ قليلةٍ . ونُزولُ الثلجِ فى بلادنا الساحلية نادرٌ ، وإنَّما يَكثرُ نزولُ البَردِ ، فقال ريِّس[1] صيد بحرى من القلمون كان حاضرًا : من أين علمتَ ؟ قلتُ : إنه ليس بعلم ، وإنما هو شعور من بَرْدِ الهواء أو لَذْعِهِ . قَال : ايش شغلنا نحن ؟ يَعنى أنَّ الملاحين أعلمُ منا بأحوال الجوّ والطقس ، ثم انقطع الثلجُ مدةً ، وأرادَ هذا الرجلُ وغيرُه الانصرافَ فقلتُ غيرَ مالكٍ للسانى : اللَّه أعْلَمُ أنَّ الثلج سيعودُ ، فلم يَلْبَثْ أنْ عادَ. فقالَ الريس : وهذه ؟ قلتُ كتلك . فلمعت الدموعُ فى عَينيه .

والحقُّ أنَّ مثلَ هذا ليس له قيمةُ المكاشفات التى سببُها توجُّه الإرادة ، ولكنَّ الرجلَ كان من المتشبعين بحسن الاعتقاد من قبل هجرتى إلى مصر ، ويحفظُ عنى أمورًا غريبةً عنده منها : أنه استشارنى فى تربية ابنه وتعليمه ، فذكرتُ له ما سيكون من أمرِه فى مستقبله بتفصيلٍ حَفِظَهُ فوقع كلُّه ، وهذا ليس بغريب أنْ يقعَ بصحةِ الرأى ، ولو لم يكنْ سامعُه يعتقدُ صلاحَ قائله وَولايته لما كان يَعُدُّهُ كرامةً له . وقد كان الشيخُ يوسُف النبهانى يبحثُ عن أمثال هذه الأخبار عمَّن اشتهروا بالصلاحِ لِيُدوِّنَها فيما يجمعُ من كرامات أهل عصره ، ويَعُدُّنى أنا والأستاذَ الإمامَ والسيدَ الأفغانىَّ من أعداء الصالحين لأنَّنا أعداءُ الخرافات التى هى بُرهان الولاية فى رأيه الأفين[2](★) ولا يَزال يقعُ لى مثلُه كثيرًا فى الدار ، فتقولُ أمُّ الأولاد إنك تُكاشَف علينا ، فَأَبتسمُ .

وأذكرُ عن ولد هذا الريّس (رحمه اللَّه) ، وهو حىٌّ يُرزق ، أنه دَخَلَ علَّى مرةً فى غُرفتى فوقعَ فى قلبى أنه كان يُغازل امرأةً فذكرتُ له الأثر المروىَّ عن الخليفة الثالث عثمانَ بن عفان رضي الله عنه ، وهو أنه دخل عليه رجلٌ فقال : له أيدخلُ أحدكم علَّى وأثر الزنا

---

(1) **يقال** : رئيس ، وقد تسهل الهمزة فيقال : ريِّس ، وفى شعر الكميت : تُهدى الرعية ما استقام الريِّسُ (المعجم الوسيط : ر . أ . س) .

(2) **الأفين** : الناقص الضعيف .

(★) كان الشيخ يوسف النبهانى – رحمه اللَّه – من الأتقياء البرَرة الذين لا تَشُوبُهم شائبة ، وكان على جانب من العلم والفضل وكرم النفس وصدق اللهجة ، وكان من رُءوس الأدباء ومن الشعراء المُفْلِقين ، وله القصائدُ =

ظاهرٌ على عينيه ؟ فقال الرجلُ أوَحْيٌ بعدَ رسول اللّه ﷺ ؟ قال : لا . ولكنها فراسة المؤمن اه . ذكرتُه له بلهجة الإنكار فَفِهِمَ واعترفَ خَجِلاً .

= الطنّانة التى يحفظُ الناسُ كثيرًا منها . إلا أنه كان شديدَ الوَسواس عظيمَ الاعتقاد بالأولياء والصالحين قائلاً بخوارق العادات والكرامات إلى حد الغُلوِّ ، فكان يَكره كلَّ مَن يشكّ في شيء منها . وقد بدا له أنَّ السيدَ جمال الدين الأفغانى والشيخَ محمد عبده والسيدَ رشيد رضا هم ممن يَتَشَكَّكُون فى هذه الأمور ، فكان يحمل لهم تحتَ كَشْحِه ضغنًا شديدًا ، ويعتقدُ ضررَهم بالملة الإسلامية . ومرةً اجتمع الشيخُ محمد عبده والشيخ يوسف النبهانى عندى فى الجبل ، وكنتُ مُصطافًا فى قرية عين عنوب من بلادنا وذلك منذ 48 سنة ، فكان الجدالُ يَطول بينهما . وكان الشيخ محمد عبده إذا أنحى باللائمة على علماء المسلمين فيما قصَّروا فيه من إيقاظ هذه الأمة الموكول إليهم إرشادُها والنصحُ لها ، يأخذ الشيخُ يوسف بالإنكار عليه ، ويقولُ له : لماذا سوءُ الظن بالعلماء ؟ إلى غير ذلك مما يُعارضه به ، وكنتُ أعلم شيئًا من سوء ظن النبهانى بالأفغانى وبأستاذنا الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ، ويؤسفنى هذا الأمرُ إلا أنى لم أكنْ أظنُّ أنَّ سوءَ الظنِّ يَبْلُغُ بالنبهانى ذلك الحدَّ البعيدَ فى حقِّهم حتى خرج به عن الاعتدال خروجًا لا يَليقُ بمثله ، فقد قرأتُ له قصيدة رائيةً مطبوعةً ويا للأسفِ رماهم فيها بهاجرات ، وقذف بهم قذفًا فظيعًا مُنْكَرًا ، حملَه عليه مجرَّدُ سوءِ الظنِّ ، وتَجَسُّمُ الخيال فى نفسه مما يؤاخذه اللّه عليه ، عفا اللّه عنه . وقد كان هو يلوم الشيخ محمدَ عبده على سوء الظنِّ فى العلماء مما لا يُعَدُّ كحبة الخردلة فى جانب ما ظهر من سوء ظنّه هو ، فكيف وقع فيما كان يَنهى عنه ، وقذف مثلَ هؤلاء العلماءِ بـدون بيِّنةٍ ولا دليلٍ ، وغَفَل – مع تقواه – عن قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : 12] . وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات : 6] . إنّنا سألنا اللّه له المغفرةَ لما قرأناه له من تلك القصيدة الشاذة بل الشنيعة ، ولكنْ مَن ذا الذى ما ساءَ قطُّ ؟

وكان النبهانى كما تقدَّم مشهورًا بالشعر ، وكنتُ أستحسنُ كثيرًا من شعره ، ولا سيما قولُه من قصيدةٍ امتدَح بها السيد أبا الهدى الصيادى :

وَيَمَّمْتُ دارَ الملكِ أحْسَبُ أنّها	إلى اليوم لم تَبرحْ إلى المجدِ سُلَّما
فألفيتُها قد أقفرَتْ مِن كِرامِها	ولم يَبْقَ فِيها الفضلُ إلا تَوهُّمَا
وألفَيْتُ مِثلى أُمَّةً عَربيةً	يَرى القومُ منها أمةَ الزّنجِ أكرَما
وما نَقَمُوا منّا بنى العُربِ خُلَّةً	سوى أنَّ خيرَ الخَلْقِ لم يَكُ أعْجَما

وله يتائمُ أقوالٍ سائرةٌ فى الآفاق غير هذه ، فأحببتُ ، وأنا إذ ذاك فى ريعان صبايَ ، أنْ أُساجِلَه فى الشعر لعلّى أظفرُ منه بشيءٍ يُؤثر فنظمتُ له أبياتًا لم أحفظْ صورتَها عندى ، ولا بقى منها فى خاطرى إلا بيتٌ أو بيتان فأجابنى عنها بهذه الأبيات :

رَاقَنى يا شكيبُ منك قصيدٌ	باتّفاق هو البليغُ الفصيحُ
قيلَ دُر وقيلَ زُهرٌ وبعضٌ	قال سِحرٌ والكلُّ قولٌ صحيحُ
نَظَمَتْهُ أفكارُك الغُرُّ عِقدًا	أيَّ عِقدٍ لو ثَمَّ جيدٌ مليحُ
مِن نسيبٍ كصِنوك الماجدِ اسمًا	وسُموًّا فهو النسيبُ الصريحُ
ومديحٍ لو كنتَ أنتَ مُرادًا	فيه عَنّى لقلتَ جل المديحُ
لستُ أُجْزيكَ حقَّ طَولِكَ فى الشّعرِ وفِكرى كما عَلِمْتَ طَليحُ	
وَسَأُجْزيكَ عن وِدادِكَ وُدًّا	أنا فيه على كثيرٍ شحيحُ

وجاءنى السيد على عبد القادر يُريد أنْ يسألَ عن شىء فقلتُ له قبلَ السؤال إنّك تُريد أنْ تعلمَ ما وردَ فيما يُقرأ بعدَ الفاتحة فى راتبة الفجرِ ، وورد أنه كان ﷺ يقرأُ فيها سورةَ الكافرون[1] والإخلاص ، وَوَرَدَ بسورة الانشراح والفيل ولا يصح ، وَوَرَدَ فى الركعة الأولى آيةَ ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ إلى ﴿ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة : 136] وآية ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ إلى ﴿ مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 64] فقال من أينَ علمتَ ؟ وقد يكونُ لمثل هذا أو بعضِه ما يُشْعَرُ به عند الذى يُحاسِب نفسَه دقيقًا على طريقة الغزالى ، وإنَّ منه لوقائعَ لا يُمكن أنْ تخطر بالبال ، ومنه ما هو نتيجةُ التوجُّهِ المعروف عند الصوفية ، وهاك حادثةً منه :

كنتُ أتركُ غُرفتى فى أعلى المسجد مفتوحةً وأنام فى الدار لعلمى بأنه لا يَعقل أنْ يَسرقنى أحدٌ من أهل القلمون شيئًا ، وكان فى الغرفة صندوقٌ صغير أضعُ فيه بعضَ الأوراق وما عندى من السُّبَحِ ، وهى كثيرة كانت تهدى إلَّى ، وأحيانًا أضعُ فيه الدراهمَ ومع هذا أتركُ مِفتاحَه فيه لئلا أحمله فيسقطَ منى ، وأحتاجُ إلى كسر الصندوق . وقد رأيتُ الصندوقَ فى صبيحة بعض الأيام مبعثرَ الورق والكيسُ الذى فيه السُّبَحُ مسروقًا . فطلبتُ من ساعتى أنْ تُشَدَّ لى الفرسُ فَشُدَّتْ ، فركبتُها وذهبتُ إلى طرابلس ، ولم أنزل حيث كنتُ أربطها عادةً عند مدخل المدينة بل قطعت الأسواقَ راكبًا إلى أنْ وصلتُ إلى دُكان عند الجسر الشمالى ، فنزلتُ أمامَه وقلتُ لصاحبه : أين السُّبَحُ التى اشتريتَها اليومَ ؟ فأخرجَ لى الكيسَ فأخذتُه ودفعتُ له ما اشتراها به ، وهو قليل . وكان السارقُ خادمًا لصديقِنا الشيخِ عبد الفتاح الزعبى الجيلانى الشهير ، وكان مُصطافًا فى القلمون كعادته ، والخادم وهو من قرية المينا لا من القلمون ولا من طرابلس ، وقد علم بأنَّنى عَثَرْتُ على سَرِقَتِهِ فلم يَعُدْ إلى خدمة سيدِه ، ثم إنَّنى عدُت إلى عادتى فى ترك مِفتاح الصندوق فيه ومِفتاح الغرفة فى بابها ثقةً منى بأهل بلدى .

---

(1) مرفوعة على الحكاية .

الانتقامُ فى الدّنيا مِن كلِّ مَن آذانا

تذكرتُ بهذه الحادثةِ أنّه كان مشهورًا عندَ أهلِ بلدِنا فوقَ احترامِهم لشخصى أنَّه لا يَعتدى أحدٌ علينا إلا وينتقمُ اللّه منه فى الدنيا قبلَ الآخرة : حَدَّث بعضُهم عن نفسه أنَّه ذهبَ يحتطبُ مرةً من شجر الزيتون فانتهى إلى كرم لعمٍّ والدى الذى سَبَقَ ذكرُه فى هذه الترجمة ، فصعدَ شجرةَ زيتونٍ ليقطعَ منها ، (قال) وقلتُ فى نفسى : يقولُ الناسُ هؤلاء أولادُ جَدٍّ (أىْ جَدُّهم وَلِّىٌ) لا يَعتدى أحدٌ عليهم إلا أُصيبَ « أنا رايح شوف أيش يصير لى » ولم أكدْ أَشْرَعُ بقطع فرعٍ من الزيتونة إلا وسقطتُ منها على الأرض سقطةً مُؤلمةً ، فَتُبْتُ .

وهذه مسألةٌ مما يَعدُّها الكثيرون من كرامات المعتقدين ، فإنْ كان ما يَذكرون فى بلدِنا من انتقام اللّه مِن كلِّ مَن آذانا من الحُكَّام وغيرهم حقًّا فأنا ما أظنُّ أنّه استقراءٌ تام ، على أنَّنى لم أعلم أنَّ أحدًا آذانا ولم يلقَ جزاءه فى الدنيا . وقد آذانا رجلٌ من أهلِنا إيذاءً ماليًّا كان جلُّه خاصًّا بى ، ثم كان عاقبتُه أنْ اضطرَّ إلى السفر إلى مصرَ لطلب الرزق ، وأنْ صار يَطلبُ منى الإحسانَ إليه المرَّة بعدَ المرّةِ فأفعل ، ولا أزال أُعنى بولده وأهله بعدَ موته ، وللّه الحمد .

وكان آخرَ المعتدين علىَّ بالطعن وقولِ الزور رجلٌ معدودٌ من كبار العلماء المشهورين فى مصر ، فسلَّطَ اللّه عليه من العلماء والكُتَّاب من شَهَّرَهُ أنواعًا من التشهير فى علمه وأخلاقه وأمانته المالية والعلميّة . . . ومع هذا أُصَرِّحُ بأنَّنى لا أغتر فأقولَ إنَّ لى خصوصيةً عند اللّه تعالى ، وأنَّه انتقامٌ لى خاصٌّ ، وإنما هو جارٍ بأسبابه الظاهرة ، وقد يدخل فى معنى ما ذكرتُه فى تفسير قوله تعالى فى البُغاة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ ﴾ [يونس : 23] الآية . ولكنَّ جمهورَ الناسِ يَعُدُّون مثلَه من كرامات الأحياء والميتين ، ويذكرُ الشعرانى وأمثاله من ناشرى الخُرافات فى كرامات السيد البدوى وغيره وقوعَ البلاءِ والمصائبِ على المعترضين عليهم أو على موالدِهم بحقٍّ ، فذكرتُه عبرةً لهؤلاء ولغيرِهم[1] .

---

(1) انظر : (الطبقات للشعرانى : 1 / 158) .

استجابةُ الدعاءِ

أحمد اللّه تعالى ، ولا أُحصى ثناء عليه أنه استجاب دعائى له بالإيمان والإخلاص والتوجّه الصادق فى أمورٍ كثيرة جدًّا لا أُحصيها . منها ما ظهر لى ، بالتدقيق فى السُّنن والنواميس التى تَربط الأسبابَ بالمسبِّبات ، أنَّه من توفيق الأقدار للأقدار وعلم ما لم أكن أعلم وتسخير ما لا يَصل إليه كسبى من الأشياء والأشخاص ، ومنها ما لم تظهرْ لى فيه الأسبابُ حتى صحّ أنّه يُعَدُّ من خوارق العادات .

ثم أحمدُه عودًا على بدء ، ودَوامًا أسأله الثباتَ عليه إلى آخِر العمر ، أنْ ظهر لى فيما لم يستجبْه لى بعينِه أنْ استجابه بالمعنى المقصود منه ، وفيما لم يستجبْه بعينه ولا بالمعنى المقصود منه ، أنْ كان الخيرُ لى فى عدم استجابته كلِّه ، وأذكر منه دعائى وتَضرُّعى إليه عزَّ وجَلَّ أن يُسخِّرَ لى رجالَ الدولة العثمانية فيما طلبتُه منهم ، ومكثتُ عندَهم سنةً كاملة أسعى له عندَهم ، وهو إنشاءُ جمعية ومدرسة للدعوة والإرشاد أو للعلم والإرشاد فى عهد ظهور العصبيةِ الطُّورانيةِ ونجوم قُرون الإلحاد ، فقد تمَّ إنشاءُ الجمعية رسميًّا ، وتم صدور الأمر من مجلس الوزراء بتخصيص المال اللازم للمدرسة ، ولكنْ لم يتمّ تأسيسُها بالفعل المقتضِى لإقامتى فى الآستانة . وكان الخيرُ لى أنْ عدتُ إلى مصر فأسست الجمعيةَ والمدرسةَ فيها ، ثم ظهر لى أنَّ عدم السُّكنى فى الآستانة كان خيرًا لى بما كان فى أثناء الحرب الكبرى من بغى الترك على العرب وتقتيل زعمائهم(★) وطُلابِ ارتقائهم ، وقد كنتُ فى مقدمتِهم وحُكِمَ علَّى بالقتل (الإعدام) مرَّتين أو أكثر . نَعَمْ إنَّ الأجلَ

(★) كأنَّ السيدَ رشيدًا يُريد أنْ يقولَ إنه لم يفعلْ كما فعل صديقُه السيدُ عبد الحميد الزهراوى الذى بعد أنْ خرجَ من مَيدان الخِصام مع الأتراك وبعد أنْ جاء إلى باريس يَرْأسُ المؤتمرَ العربىّ الذى انعقد فيها سنة 1912م عاد فانخدعَ بأقوال بعضهم ، وجاء إلى الآستانة ، وظنَّ أنَّهم نَسوا له ما فات ، ودخل عضوًا فى مجلس الأعيان ، وبقى فى منصبه هذا سنتين ، وهو آمن مطمئنٌ إلى أنْ كانت الحربُ العامة ، وأثار جمالُ باشا مسألة العرب والترك فى سوريا ، وجَنَى بأثارتها على العرب وعلى الترك جناية لن يبرحَ مكانُها من التاريخ ، فمن جُملة مَن استحضرَهم إلى المحاكمة فى الديوان العرفىّ بعاليه السيدُ الزهراوى ، وكان يومَئذ من أعضاء مجلس الأعيان ، فماطل طلعت بك فى تسليمه مدةً إلا أنَّ جمالَ لم يزلْ يفتلُ فى الذَّروة والغارب[1] حتى أرسلوه =

(1) **الغارب** : الكاهل وأعلى كل شىء .

محتومٌ والعمرَ محدودٌ معدودٌ ، ولكنَّه مرتبطٌ بالأسباب فى نظام القَدَرِ المعلومِ ، على أنَّ المُقام فى تلك البلاد فى زمن تلك الحرب كان محفوفًا بالقَهْرِ والفقر والخوف والذُّلِّ ولا

= إليه ، وهناك أراد الزهراوى أنْ يُقنع جمالَ ببراءته ويستلَّ سخيمَةَ[1] صدره ، وذكَّره بما كان بينهما من عهد يوم جاء الزهراوى إلى الآستانة ، وكان جمالٌ أرغبَ الناس وقتئذ فى اجتذاب الزهراوى إلى الدولة وإدخاله عضوًا فى مجلس الأعيان ، فأجابه جمالٌ عندما قبضَ عليه بأنه ليس له مدخلٌ فى الأمر ، وأنه لن يُصيبَه أذى إذا كان الديوانُ العرفىّ يحكم ببراءته . وحقيقةُ الحال أنه كان مِن البداية ينوى البطشَ به ، وقد كنتُ بذلتُ كلَّ ما فى وسعى لأجل إنقاذه ؛ وإنقاذ زعماءِ السوريين الذين ساقهم جمالٌ إلى المشنقة برأيه الأفين[2] لأمر يُريده اللّه ، وَتَكَلَّمْتُ مع أنور عندما زار سورية خِفية عن جمال ، وأغضب ذلك جمالاً ، ولم أبالِ غضبَه ، وَسَعَيْتُ لدى قُنصلِ ألمانيا فى دمشقَ سعيًا حثيثًا بعدَ أن استحلفتُه على كتمان السرِّ حتى يُبرق إلى سفارة ألمانيا فى الآستانة لعلَّها تتوسطُ فى الأمر وتكفى الدولةَ شرَّ الشِّقاق بين العرب والترك فيما إذا نُفِّذَ حُكْمُ القتل بحقِّ الزعماء السوريين ، وكلُّ هذه المساعى وقف جمالٌ فى وجهها وفى وجه مساعٍ أخرى وقعتْ من رجال الدولة أنفسهم ، وأبى إلا القتل ، ولا بُدَّ من أن تكونَ الأوراقُ المحفوظةُ فى سفارة ألمانيا بالآستانة تشتملُ على ما أفضيتُ به إلى قنصلهم بدمشقَ . فلمَّا ساءتْ أحوالُ الحرب وصرفته الدولةُ عن سورية إلى الآستانة نَدِمَ على ما فعل ، ولات حين مندم ، واجتهدَ بواسطة بعض أصحابه أنْ يتقرَّبَ منّى ، وراحت السَّكْرَةُ وجاءت الفِكْرة كما يقال ، وجرتْ بينى وبينَه محادثةٌ أعدتُ له فيها جميعَ ما كنتُ قلتُه له فى دمشقَ ، وذكَّرتُه بقولى له حينئذ : إياك والأمرَ الذى لا يَقبلُ التلافى ، ولفظتُها له بالفرنسية Irreparable ، فإنَّ الحبسَ والنفىَ والعزلَ وجميعَ أنواع النَّكَباتِ قد يَنساها الإنسان ، ويَمسحُها الدهرُ ، ولكنَّ الذى لا يُمكن تلافيه هو القتلُ ، فإياك أنْ تأتى بعمل قد تندَم عليه فيما بعد ، وقد يكونُ الأتراك أنفسُهم أشدَّ الناس تبرؤًا منه مُحِيلِيْنَ بالتبِعةِ فيه عليكَ وحدَك . فكلُّ هذا لم يدخل إذ ذاك فى عقله بما كان من شِدَّة غروره وبأوه (البأو : الكبر والفخر) بل التفت نحوى مُبتسمًا ابتسامَ استهزاء قائلاً : كُنْ مستريحًا من جهتى . فلما وقع ما وقع ولم يَستبن النصحَ إلا بعد سنتين من فعله ، وعاد يحاولُ فى الآستانة استرضاء الذين قد كان أحفظهم (أغضبه وأثار حفيظته) واستحقَّ مقتَهم أعدتُ عليه فى المجلس الذى ذَكَّرتُهُ جميعَ ما كنتُ نبهتُه إليه ونهيتُه عنه فى دمشق ، وكان فى الآستانة مُطرقًا رأسَه نَدَمًا لا يَدرى بماذا يُجيب . وفى ذلك المجلس ضربتُ له من جُملة الأمثال قضيةَ الزهراوى ، وقلتُ له : عندما استَدعيتُم الزهراوى من باريس وجعلتموه فى مجلس الأعيان كنتُ أنا منتقدًا سياستكم هذه . فأما أنْ تُؤمِّنوه وتجعلُوه فى منصب مِن أعلى مناصب الدولة ثم تعودوا فتغدروا به بعدَ سنتين من تأمينه واستدنائه ، فأىُّ إنسان يثِقُ فيكم بعدَ ذلك ؟ فقال جمالُ : إننا لو كنا بطشنا به فى السنة التى خرج بها علينا لكان حصل من جرَّاء ذلك فتنةٌ ربما جرَّت احتلالاً أجنبيًا لسورية ؛ فلذلك اضطرِرْنا أنْ نَسْكُتَ وأنْ نَكظمَ الغيظَ إلى أنْ جاء الوقتُ الذى نقدر أنْ نقتصَّ فيه ولا نخشى احتلالاً أجنبيًا ، فقلتُ له : إنكم أخطأتمْ فى استرضاء الزهراوى عندما كان يستحقُّ العقابَ ، ولكنْ كان أجدرَ بكم أنْ تَستمرُّوا على الخطأ ، وتحفظوا أمانة الدولة مِن أنْ تنقضوا عهدَكم وتغدروا بالرجل بعدَ استسلامه إليكم بعامين . ثم هل أمنتم الآن من الاحتلال الأجنبى ؟ لعمرى إنَّ الحال هى العكسُ !

أما السيدُ رشيدٌ فكان الأتراكُ دَعوهُ إلى التفاهم معهم وأن يتولَّى منصبًا شرعيًا فى الآستانة فخاف أنْ يكونَ ذلك استدراجًا ، وأبى قَبولَ دعوتهم ، ولم يَقَع فى الخطأ الذى وقع فيه الزهراوى ، عفا اللّه عنه .

---

(1) **السخيمة** : الحقد والضغينة .

(2) **الأفيـن** : الناقص المريض .

سيما مثلى من العرب ودعاةِ الدين ورجالِ السياسة ، وأين منه المُقام فى مصرَ ، التى كانت جديرةً بأنْ يحْسُدَها الملوكُ والأمراء فى كلِّ قُطْرِ ، أمانٌ واطمئنانٌ ، وسِعَةٌ فى الرزق وجميعِ مَرافق الحياة ، وأما حالُها بعدَ الحرب فهو شرٌّ علىَّ مما كان فى زمن الحرب .

شفاءُ المَرضى بالرُّقْية ونحوِها

أذكرُ من أمثلة انتفاع المرضى التى لا تُحصى حادثةً مشهورةً فى القلمون ، وهى أنَّ عمرَ قدور الصياد رمى شبكتَه ليلاً فى البحر فسمعَ حيثُ وقَعَتْ صوتًا رُعب منه ، فعاد إلى بيتِه مصروعًا ، واشتَّد عليه الصَّرَعُ ، فكان لا يَعى ، وَيبِسَ جسدُه كأنَّه لوح من الخشب ، ويرى نفرًا من الجن يجتمعون حوله ، وقد ضربه واحدٌ منهم ضربةً صرخَ منها صرخةً مُزعِجةً ، فطلبونى لأراه وأرقيه ، فقلتُ : بل أدعو له ، فعادوا إليه ، فألحَّ فى الطلب ، وكان من أغرب ما قاله أنْ أخبر بالحال الذى كنتُ عليها فى خَلوتى ليلاً ، قال : إنَّه جالس متكئ برأسِه على عصا قصيرة شبه الباكورة (يعنى المحجن)[1] وإنه قال للذى ضربنى : ضربة بضربة فاتركوه . ثم عادوا إلَىَّ وألحوا فى طلب الذهاب معهم ، فذهبتُ فوجدتُه مستلقيًا جامدًا لا يعى ، فوضعتُ يدى على رأسه وتلوتُ قوله تعالى بعد البسملة ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : 137] فأفاق فى الحال ، وقام كأنما نَشِط من عِقال .

وقيل لى مرةً إنَّ محمد زيدان مصاب بصدُاع شديد يَصرخ من شدّته بأعلى صوته ، فكتبتُ له ورقةً وضعوها على رأسه ، فَشَعَرَ بأنَّ رأسَه انشقّ وخرج منه الوجعُ فى الحال ، ثم كانوا يُعِيْرُونَ ذلك الحجابَ لكلِّ مصاب ، ويذكرون أنه يَشفى ، إلى أنْ خطرَ فى بالهم أنْ يَفتحوه لِيَروا ما كُتب فيه ، فرأوا فيه حرفًا واحدًا من حروف المعجم كتب بعدد مخصوص فاحتقروا ذلك ، فلم يَعُدْ يَنفعهم ، كما قيل لى بعد ذلك بسنين . وكنتُ أكتب نشرة للحمَّى فتَشفى بإذن اللّه تعالى .

ومن هذا النوعِ رقيةٌ غريبةٌ فعلتُها من تِلقاء نفسى ، وهى أنَّنى كنتُ جائيًا من طرابلسَ

(1) **المحجن** : كلُّ معوج الرأس كالصولجان .

إلى القلمون ، فوجدتُ بالقرب منها رجلاً من معارفنا من نصارى أنفة (من لبنان) هو إسكندر الخورى ، الذى أظنُّ أنَّه لا يَزال حيًا أو أخوه مالك الخورى - وهو عاصبٌ رأسَه من صُداع شديد فيه ، فسألتُه فأخبرنى ، فقلتُ له : ادْنُ منى ، فدنا . فقلتُ له : إن الإنجيلَ يَروى عن سيدنا المسيح عليه السلام أنه قال : وهذه الآيات تَتْبَعُ المؤمنين يَضعون أيديَهم على المرضى فيبرؤون . ووضعتُ يدى على رأسِه ورسمتُ عليه كلمةً كنتُ مُجازًا بها ، فذهب الوجعُ فى الحال فتعجّبَ وصار يَهُزُّ رأسَه لأجل أنْ يُحرّك الوجعَ ليعودَ فلم يَعُدْ . وكم فعل هذا غيرُه استغرابًا من سُرعة البُرْءِ .

ومِن التأثيرِ فى غير الآدميين أنَّ الوالدةَ - رحمها اللّه - استكتبتنى حِجابًا طلبه منها بعضُ نساء الأعراب لوضعه على غنمِهم لأنَّ الموتَ فشا فيها ، وبعد سنة أو أكثر جاءنى بدوى من مشايخ قبيلة أخرى ، فشكا إلَىَّ وقوعَ الموت فى غنمِه ، وطلب منى حجابًا ليضعه على رأس أكبر كبش فيها لمنع الموت ، فقلتُ له إنَّ الحجابَ لا يمنعُ وقوعَ الموتِ فى الغنم ، ولا بدَّ أنْ تكونَ غنمُكم قد أكلتْ زَهْرَ الدفلى وورقها أو نباتًا آخرَ ضارًا ، فاسألْ عن طبيبٍ بيطرىّ وأخبرْه بما تعلمُ من حال الغنم فيرشدَكَ إلى ما ينفعُ فيها ، قال : بل الحجاب هو الذى ينفعُ . قلتُ : أنا أعتقدُ أنه لا ينفعُ . قال : وكيف نفعَ غنمَ بنى عليوه ؟ وأنا لم أكنْ أذكرُ مسألة هؤلاء ولكنَّ الوالدةَ ذكَّرتنى بها ، فاعتقدتُ أنَّ ذلك من قبيل المصادفات التى كبَّرتْها الأوهام ، ثم تركتُ هذه الحجبَ والنشرات للمرضى والمعقودين عن النساء وكذا الرُّقى إلا نادرًا لحديثٍ فى صحيح مسلم : « من استطاع أن ينفعَ أخاه فَلْيَنْفَعْهُ »[1] واجتنبتُ فتح هذا الباب علىَّ بعد هجرتى لمصرَ لأن الفتنةَ فيها بهذه الأمورِ أكبرُ ، إلا لأهلِ الدارِ قليلاً .

ولما كنتُ مسافرًا من البصرة إلى بغدادَ فى إحدى بواخر الدِّجلة سنةَ 1330هـ انتقلت من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثالثة فى مقدِّمة الباخرة لأرى حركتَها . وكان هنالك كثير من الفقراء فوجدتُ بينَهم فتاةً مريضةً مضطجِعةً ، فقيل لى إنها يتيمةٌ فقيرةٌ ، وقد اشتَّدتْ عليها الحمىّ ، فَرَثيْتُ لها ورقيتُها ، فقامت فى الحال كأنَّما نَشِطَتْ من عِقال ، وشكت

(1) أخرجه مسلم رقم (2199) .

الجوعَ ، فأمرتُ أحدَ الخدم بأنْ يأتيَها بصحن حِساء من مطبخ الباخرة ويُقَيِّدَ ثمنَه فى حسابى ، ففعل ، فأكلَتْ ، واشتدَّ عجبُ الفقراء الذين كانوا معها من نساء ورجال .

ولكن هذه الحمَّى (وهى الملاريا) كانت أصابتنى فى البصرة ككل مَن كان يدخلها ، ثم عادت إلَّى فى الباخرة ، ولم أرقِ نفسى ولم يَرْقنى أحدٌ ، ورقيةُ الإنسان لنفسه مشروعة ، وأما استرقاؤه فينافى كمالَ التوكُّل ، وقد حققتُ الموضوعَ فى المنار[1] .

اعتقادُ الناس بنا الولايةَ والكراماتِ وحفظ اللَّه لنا من الفتون[2] والافتتان

تلك خلاصةٌ من ذِكرى ما مَنَّ اللَّه تعالى به علىَّ من النِّعم والكَرامة والتوفيق لو شئتُ أنْ أكتبها بالأسلوب الذى أعهدُه فى كتابة المناقب والكرامات لكان وقعُها وتأثيرُها أعظمَ فى نظر أكثر الناس ، وما كان هذا من شأنى فى وقت من الأوقات ، بل أحمدُ اللَّه تعالى أنْ حفظنى من الغرور والتغرير ومن الفتون والافتتان ، وإن هى إلا أَثارةٌ من التاريخ فيها عبرة للعقلاء حدثتْ لى نيةٌ صالحة فى تَدوينها فى هذا الكتابِ ، فأسأُله تعالى دوامَ التوفيق وكمالَ الإخلاص .

من المشهور أنَّ مذهبَ أهل السُّنَّة يثبت الكراماتِ للأولياء إلا مَن شذَّ مِن نُظَّار الأشاعرة كالأستاذ أبى إسحاق الإسفراينى والحليمى ، فإنهما وافقا المعتزلةَ فى إنكارها . وقد بَيَّنْتُ الحقَّ فى هذه المسألِة فى مقالاتٍ كثيرة فى المنار ، بدأتُ بها فى المجلَّد الثانى من المنار سنةَ 1316هـ ، ثم عُدتُ إلى إتمامِها فى المجلد السادس سنةَ 1321هـ ، وذكرتُ خلاصةً مفيدةً منها فى مباحث (الوحى المحمدى) ، وهى مسألة فتحت للدجَّالين بابًا واسعًا من أبوابِ الخرافاتِ وأكلِ أموالِ الناس بالباطل ، وتعدَّى ذلك إلى الاعتداءِ على أعراض النساء ، وقد كان كشفُنا لهذه الخرافاتِ والأباطيل من أسباب طعن الدجَّالين علينا كالنبهانى من السوريين والدِّجوى من المصريين .

---

(1) **انظر** : (تفسير المنار : الرقية وحكمها : 9 / 422) .

(2) الفتون مصدر فتن بمعنى : اختبر . قال تعالى : ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه : 40] .

ألا وإنَّ الكراماتِ التى يتناقلُها هؤلاء ومَن هُم فوقَهم علمًا وصدقًا ودينًا قد مَنَّ اللَّه تعالى علينا بكثير منها ، ووفَّقنا فيها لما وَفَّقَ له أهلَ الإخلاص ممن قبلَنا ، فلم نفتتنْ بها ولم نَفتن أحدًا ، بل كنّا نكتُم ما لم يعلمْه الناسُ ، ونتأوَّلُ لهم ما علِموه بأنه من الاتفاق والمصادفة أو مِن الأمور المعتادة التى جهلوا أسبابَها كما تقدَّم .

أما عدمُ افتتاننا بها فى نفسنا فالفضل الأول علينا بعدَ فضل اللَّه الذى هو فوقَ كلِّ شىء للإمام أبى حامد الغزالى ، فقد كنتُ قبلَ عُروض هذه الأشياء لى قد قرأتُ - فيما قرأتُ من « إحيائه »[★] - كتابَ الغرور وأصناف المغرورين من الصوفية وغيرهم وكتابَ محاسبة النفس وكتابَ النية والإخلاص فانتفعتُ بها فى هذه الأحوال .

وأما اجتهادى فى منع افتتان الناس بى فسببُه فضلُ اللَّه تعالى وحده علىَّ بالإخلاص له فى عملى لنفسى وفى إرشادِ الناسِ .

من المعتاد أنْ يُحسنَ الناسُ الظنَّ فى دِين مَن يعلمون أنَّه مُتَّق اللَّه دائبٌ فى عبادته بما هو أكثرُ من أداء الفرائض ورواتبها وتركِ كبائر الإثم والفواحش . ومِن فضل اللَّه تعالى علىَّ أنْ كان أحسنَهم اعتقادًا وظنًّا بى أقربُهم إلَىَّ وأدناهم منى : الوالدان والإخوة والأخوات والأعمام والعمات والخادمون والخادمات فأهلُ قريتنا كافةً رجالاً ونساءً ، وقد تقدَّم شىء من ذلك .

أما الوالدة - قدَّس اللَّه رُوحها - فكانت إلى آخِر حياتها تأمُرنى أنْ أَرقيها وأدعو لها كلَّما شكتْ شيئًا . وأخى السيد صالح رحمه اللَّه تعالى كان بعدَ أنْ كبر وتعلَّم يقولُ : كنتُ أعتقدُ أنَّ أخى الكبيرَ رشيدًا نبىٌّ ، فلمّا علمتُ أنَّ نبينا محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين صرتُ أعتقد أنَّه من الأولياء ، وتعسَّرتْ على شقيقتى الكبرى (السيدة زينب) الولادةُ مرَّةً فكانت تقول : اطلبوا أخى رشيدًا ليحضرَ هنا ، عسى اللَّه أنْ يُفرِّجَ عنى ويُسَهِّلَ علَىَّ بحضوره ، وكان خوادمُ بيتنا يَحْرِصْنَ على فضل ما أكلتُ من طعام وغيره للتبرك به ، وكنتُ إذا مررتُ بشـوارعِ القرية يخرج مَن فى البيوت من النساء والأولاد يَنظرون

(★) يعنى كتاب (إحياء علوم الدين) أشهرَ تآليف الإمام الغزالى .

إلَّ ، ويذكرون اللّه ، ويصلُّون على نبيه صلوات اللّه وسلامه عليه وآله(★) . أليس هذا من دواعى افتتان شابٌ ناشىءٍ فى نفسِه ودِينه ؟ بلى . ولكنَّ اللّه سلم ، وله الفضلُ والمنةُ .

إنّها لفتنةٌ تتلوها فِتنٌ كَقِطع الليل المظلم : شابٌ جميل الصورةِ مُعْتَقِدُ[1] الأُسْرَةِ ، يَشْتَهِرُ بالوَلاية والتأييد بالكرامة ، قد يُخبر الناسُ ببعض ما يكتمون ويُسِرّون ، ويُشرف عليهم بالأمر والنهى فيما يَعملون ، ويَضعُ يدَه على رءوس المرضى فَيُشْفَوْنَ وَيبرؤون ، وتَتبَرَّكُ به الحِسانُ ، ويُلْثَمُ[2] منه البنان ، فهو عُرضةٌ للغُرور بصلاحه فى نفسه والافتتانِ باعتقاد الناس وتعظيمهم له ، وعُرضةٌ أيضًا لما يَتَسَنَّى له من سَلب المال والتمتعِ بالجمال الذى يُفضى إلى شرِّ المآل ، وكم فَسد به مِن الرجال .

أما الغرورُ فقد بيَّنتُ كيف نجَّانى اللّه منه ومن الافتتان باعتقاد الناس ، وأما المالُ فلم أكنْ أستحلُّ أخذَ شىء مِن مال مَن يَعتقدون أنَّهم انتفعوا منى ومَن يَطلبون الانتفاعَ ، ثُمَّ قطعتُ وسائلَ هذا الانتفاع ، وأما فتنةُ النساء فقد اتَّقيتُها بالامتناع من السماح لهنَّ بتقبيلِ اليدِ أو الخَلوة والانفرادِ أو الرُّقية لأية امرأة إلا أنْ تَتوسَّلَ لذلك بسيدتى الوالدةِ ، فتأمُرنى بحضرتها أنْ أرقيَها ، فحينئذ أرقيها بالعصا أو السواك أضعه على رأسها المقنَّع . وقد اجتنبتُ حضورَ مجالس الأدباء والوُجهاء من نصارى طرابلس التى يجتمع فيها النساءُ مع الرجال ، وأقفلتُ البابَ دونَها بحيلة لطيفة .

وأما مسألة الفرارِ من فتنة النساء الحِسان فأذكرُ منها حادثةً واحدة ، نَظَمْتُ قصتَها فى المقصورة الرشيدية لما فيها من العِبرة .

جاءتنى فتاةٌ بارعةُ الجمال فى مكانٍ خالٍ إلا أنه مكشوف ، وقالت : (يا سيدى صدرى ضَيق حُطْ إيدك المباركة عليه) .

(★) إنَّ الذى يَعْذُرُ المترجَم - رحمه اللّه - فى نقل هذه الأمور عن نفسه أنه لم يكنْ يكذِبُ فيها ، ولا كان يقولُ غيرَ ما يَعتقدُه هو فى نفسه ، فقد كان يَروى كلَّ ما يَعْلَمُهُ بدونِ زيادة ولا نقصان ، ومما لا جدالَ فيه أنَّ اللّه تعالى عصمَه من الشرور والآثام التى يَسقطُ بها الكثيرون ممن نَشأوا نظيرَه فى بُحْبُوحَةِ النِّعَمِ الدنيويّة ، فكان رشيد منذُ صغره على قدم صلاح .

(1) اعتقد ضيعة أو عقارًا : اقتناه و(مُعْتَقِدُ الأُسرةِ) أى أسرته ذات ثراء .

(2) لَثَم : قبَّل .

قلت لها إنَّ اليدَ التى تُوضع على صدر أجنبية مثلك يدٌ نَجِسَةٌ لا مباركةٌ لأن هذه معصيةٌ ، اذهبى وأنا أدعو اللّه أنْ يَشرحَ صدرَك ويُزيلَ ضيقَه . وإنَّنى أذكرُ بعضَ الأبيات التى نظمتُ بها الحادثةَ لما فيها مِن الفكاهة والعبرة ، وهى :

وربَّ ملداءَ خميصة الحشا ... بهنانة تَرْنُو بألحاظِ اللأى[1]

رَقْرَاقة شفّ زجاجُ وجهِها ... عن ذَوب ياقوت وراءه جَرَى

خاشعة اللِّحاظ والصوت أتت ... تلتمس الدعاءَ مِنِّى والرُّقَى

أَوَّاه يا مولاى صَدْرِى ضاق عَنْ ... قَلبى وما يَفيض عنه مِن جَوَى[2]

فَضَعْ عليه يدَكَ التى بما ... باركَ فيها اللّه تُبرئ الضَّنَى[3]

أتتْ فتًى خافَ مَقام ربِّه ... ما زالَ يَنهى نفسَه عن الهوَى

لم يقترفْ فاحشةً قطُّ ولم ... يعزِمْ ولا همَّ بها ولا نَوَى

ثم قال[★] بعدَ وصفِ نفسِه ووصفِ الفتنة :

لكنَّه استعصمَ رَاويًا لها ... ما أمرَ اللّه به ومَا نَهَى

ما كان عِزهاة ولا فؤادُه ... قُدَّ مِن الحديد أَو صمّ الصفا[★★]

ولم يكن بجاحدٍ لما رَأى ... مِن سِحر هاروتِ العيون وَرَوَى

دُعى إلى حبِّ الجمال طائعًا ... أو كارِهًا فَانْقاد طَبعًا وأتَى

ثُمَّ إلى اتخاذِه ربًّا له ... فعاذَ بالرَّحمن منه وأَبَى

---

(1) **مَلْدَاء** : مؤنث أملد وجمعها (مُلْد) ، **وامرأة ملداء** : ناعمة مستوية القامة ، ليس لها بطن كبيرة . **البهنانة** : الخفيفة المرحة فى هدوء ولين (لسان العرب : ب . هـ . ن) . **اللأى** : الشدة والجهد . **والمعنى** : هو قد أتتنى فتاة حسناء ، ممشوقة القوام ، تسير فى خفة ومرح ، فإذا ما نظرت نظرت بجفون فاترة حياء وسحرًا .

(2) **الجوى** : شدة الوجد من العشق .

(3) **الضنى** : المرض .

(★) هو الناظمُ السيدُ رشيدٌ تارةً يَروى عن نفسِه بصيغة الغائب وتارةً بصيغة المتكلم .

(★★) **العزهاة** بالكسر الذى يَرغبُ عن اللهو والنساء فلا يَصبو إليهن . قال الفرزدق :

إذا كنتَ عِزهاةً عن اللهو والصِّبا ... فكنْ حَجرًا من يابسِ الصخرِ جَلْمَدا

قَدْ وَقفَ الدِّينُ به حيثُ الهوى — لَحْظٌ وشِعْرٌ وشُعورٌ ومُنى

وظاهرُ الدِّين عزيمةٌ له — تضاءلت مِن دونِ عَزمها القُوَى

ورُبّما كان التماسُها الشّفَا — برقْيةِ الصّدرِ هو الداءَ الدَّوَى[★1]

بما يثيرُ من رُقاد فتنةٍ — بينَ بياضِ النَّحْرِ منها والثّدا[★2]

ترجُفُ أعصابى بكهربائه — إنْ لَمَسَ الضميرُ منه ما اكْتَمَى[★3]

فهلْ أشبُّها بأقوى مُوَصِّل — لسالب التقوى بموجَب الرّدَى[★4]

وهنا وصفتُ هذا الصدرَ وما عليه وافتتان الناس بهما وعبادةَ الجمال ، ثم قلتُ :

فذاك ما كنتُ له مُستهدفا — فى ريِّقِ السِّنِّ ومَيْعَةِ الصّبا[★5]

أُبيحَ باسم الدِّين لى وهو حِمَى — فكان ما أباح منه ما حمى[★6]

وَمَا أبرّى النفسَ بعدُ من هوى — أمّارة بالسوء إلا ما هَدَى

مَن لَمَ يزَعهُ الدِّينُ عن جهلِ الصّبا — فما له مِن عاصمٍ مِن الرَّدَى

لا تخدعنك رغبةُ الحِسانِ عن — زِىِّ أولى العلمِ وسَمْتِ ذِى التُّقى

فَكَمْ نوارٍ لم يَلِنْ مِعْطَفُها — لِفَرْهَدٍ حزورٍ يَحكى الرَّشَا[★7]

(★1) **الدوى**: كالهوى بالقصر مصدر دَوِىَ (كتعب) يُوصف به المرض والمريض ذكرًا أو أنثى منفردًا ومثنى وجمعًا ، ومعناه الداءُ المِلازمُ .

(★2) **الثدا** : لغة فى الثدى .

(★3) اكْتَمَى : احتجب واستتر .

(★4) شبَّه حرارةَ الشوق إلى لمس ذلك الصدر باشتعال الكهرباء ، وإنما تَشتعل باتصال الموجب منها بالسالب ، فهو يقولُ إنَّ أعصابى ترجُف وتضطربُ إذا تصوَّر ضميرى لمسَ ما استتر فوق ذلك الصدر ، وهو الثدى ، تصوُّرًا هو فى حرارتِه كالكهرباء فى استعدادِها للاشتعال ، فهل أوقدها بلمسها بيدى الذى هو كالجمع بين موجبها وسالبها بما يَسلبُ من التقوى ويوجب من الهلاك بمعصية اللّٰه تعالى .

والموَصِّلُ بين نوعَى الكهرباء عند علمائها نوعان : قوى وضعيف ، فشبَّه اللمسَ بأقواهما .

(★5) أىْ أولَ سنِّ الشبابِ وأنْشَطَهُ .

(★6) أعنى أنَّ لمسَ صدرِ تلك العذراء الخَفِرَةِ قد أُبيح لى من ناحيتها بباعث الدين لاعتقادها أنَّ لمسى له يَشفيها ، وإن الذى حمانى من لمسه هو الدين الذى أباحه لاعتقادى أنَّ لمسَه لا يُبيحه الدينُ لى .

(★7) **النوار** : ذاتُ الحياء والصون ، **والفرهد** الغلامُ الحسنُ الممتلىء صحةً وشبابًا ، والحَزوَّر (بالفتح وتشديد الواو) الذى اشتدّ وقوِى .

يـشـبـهـهـا تـورّنًـا(★) وزيـنـةً ... إلى غِنى لَه يرقّ ما قَسَا
أسْـلَـسَـهـا وراضَـهـا لـنـفـسِـه ... بجاذب الدِّين وطَلْسم الرُّقى
ذُو نُسُكٍ يَلبس أخلاقَ التُّقى ... مجرَّدًا مِن كلِّ أخلاق التُّقى(★★)
قد تَخِذَ النسكَ له أحبولةً ... لصيد نافر الظِّباءِ والمَهَا(★★★)
وجـعـل الـديـنَ لـه تـجـارةً ... فما اشترى إلا الضلالَ بالهُدَى

قولى : لا تخدعنك إلخ هو المقصودُ من العبرة فى هذه الحادثةِ ، وهو أنَّ كثيرًا من الناس يَسمحون لنسائهم بزيارة رجال الدين الذين يُظنُّ فيهم الصلاحُ لظنِّهم أنَّ النساءَ لا تَميلُ إليهم ميلَ شهوة وأنَّ صلاحَهم هُم يَزَعُهُمْ عن تصبّيهن[1] والفتنة بهنَّ ، وقد يكون إظهارُهم الصلاحَ أحبولةً لاصطياد المِلاح ، ولهذا شواهدُ ووقائعُ معروفةٌ .

بل أقولُ إنَّ كثيرًا مِن رجال الدِّين حتى النُّساك من جميع الأمم قد افْتُتِنُوا بخضوع الحسانِ لهم ، فَفَسدوا وأفْسَدوا ، وذلك أنَّ العبادةَ الصورية لا يَقْوَى بها الإيمانُ باللّه والمراقبةُ له ، وإنما هى تقاليدُ بدنيةٌ لا تُزكِّى النفسَ ولا تُربِّى الإرادةَ فتحَكمُ على الهوى كما تفعلُ الرياضةُ الصوفيةُ الشرعيةُ . وقد مَنَّ اللّه تعالى علَّى بما استفدتُ من « إحياء العلوم » أنْ كنتُ أحاسبُ نفسى وأراقب ربىّ حتى أننى لأعاتبُ نفسى على الغفلة وأعاقبُها على الهفْوة . وكنتُ قد تعوَّدتُ قبلَ ذلك إنشادَ الشعر فى الخَلوة وأوقات الفُسحة ، فاستبدلتُ به ذكرَ اللّه تعالى غالبًا ، وقد تغلُبنى العادةُ فأتذكَّرُ ، وقد أنشدتُ نصفَ البيتِ فلا أتمه ، فكانت هذه النشأةُ فى الصبا ذُخرًا لما بعدَها ، وما أبرئ نفسى من اللمم[2] ، ولا أقولُ كما قال بعضُ الشيوخ الكرام فى شأن صحته فى كبره : حفظناها فى الصغر فحفظها اللّه فى الكبر ، بل أقول : إنَّ اللّه تعالى هو الذى حفِظها فى الصغر والكبر ، وله الحمد أولاً وآخرًا .

(★) المبالغة فى التنعم .

(★★) أخلاق الأولى جمع خَلَق بفتحتين وهو الثوب البالى ، والثانية جمع خُلُق بضمتين .

(★★★) المراد بالظباء الغلمان وبالمها النساء الحسان .

(1) استمالتهنّ .

(2) **اللمم** : صغائر الذنوب ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم : 32] .

التعليمُ والإرشادُ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إنّنى طلبتُ العلم بوازع من نفسى لتكميلها بالمعرفة والعملِ لا لأجل الانتفاع به فى تحصيل مال أو جاه ، وقد عرَض علىَّ الدخولَ فى خدمة الحكومة أكبرُ أصحاب النفوذ فيها من أصدقاء والدى فأبيتُ . بدأتُ بمطالعة بعض الكتب التى أراها عندنا ، وكنتُ كلّما أفدتُ(★) شيئًا فى نفسى أجدُ ارتياحًا فيها أنْ أفيدَه غيرى .

رأيتُ بعضَ من عاشرتُ من طلبة العلم فى طرابلس يُحب الأثرةَ فيه والبخلَ بما يُصيبه من شواردِه وأوابدِه(★★) أن يجودَ بها ، فعجبتُ من حالهم لمخالفته لِطَبْعِى ولما كنتُ قرأتُه فى كتب الدِّين والأدب من مدح بذلِ العلمِ وكونهِ يزكو على الإنفاق ، وكونِ كتمان علم الدِّين حرامًا وبذلِه واجبًا ، وكونِ إرشادِ الناسِ به أفضلَ القُرُبات عند اللّٰه تعالى ، فكنتُ أعملُ بما أعلم وأعلِّم مَن دونى ، وأُذَكِّرُ مَن هُم فى طبقتى ، وأطلبُ المزيدَ ممن فوقى .

وكنتُ بعدَ قراءة كتاب (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) فى كتاب (الإحياء) آمر وأنهى لا أخافُ لومةَ لائم ، وأذكر فى هذا أولَ حادثة لى فى طرابلس صدعتُ فيها بالنهى عن المنكر فى محفلٍ عامّ كثُر فيها حديثُ الناسِ ولومُ بعضِهم وتحبيذُ بعض .

أول حادثة لى فى الإنكار العَلَنىّ على أهلِ الطريق

قيل لى : ألا تتفرَّجَ على مقابلة المولوية فى تَكِيَّتِهم التى تُشبه جنةَ الآخِرة فى مكانها مِن ضَفَّةِ نهر أبى على ؟ قلتُ نعم فذهبتُ بعدَ صلاة الجمعة مع الذاهبين ، وكان أولُ افتتاحِ

(★) أفاد تأتى بمعنى استفاد كما تأتى بمقام أفاد غيرَه .

(★★) مما أتذكَّره من هذا الباب ، وهو حبّ الانفراد بالعلم ، أنّى كنتُ فى ريعانِ الصبا أطالعُ أحدَ الكتب الأدبية مكبًّا عليه ، وكان لى معرفةٌ بأحد كبار الأدباء ممن بَلغ الدرجةَ العليا من هذا الأمر ، فكان يَزورنى ويجدُنى عاكفًا على هذا الكتاب ، فقال لى مرّةً إنه ليس بكتاب ذى طائل ، وإن الأولى بى أن لا أضيعَ الوقتَ فى قراءته . فلم أجبْه بشىء لأنى لم أقتنعْ بكلامه ، ولم أردْ أنْ أدخلَ معه فى جدال . فجاء مرَّةً ثانية فوجدَنى مكبًّا على هذا الكتاب نفسِه لأنه عدةُ مجلّدات . ثم جاء مرة ثالثة فوجدنى أيضًا على ما كنتُ عليه من الرغبة فى ذلك الكتابِ ، فعندها صرَّح بما فى نفسه ، وقال لى : إننى ما أردتُ فى تزهيدى إياك بمطالعة هذا السفرِ غيرَ امتحانِك ، والحقُّ أنه أحسنُ تأليف فى الأدب . وحقيقةُ الحال أنَّ ذلك الأديبَ الكبيرَ لم تكن أخلاقُه على مقدار أدبه ، وكان من الحسد والبغض لجميع الناس على جانب عظيم ، فلما رآنى سالكًا طريقَ الرُّشد سعى فى أنْ يُضلّنى ، فلما رآنى مما لا يلتبسُ عليهم الصحيحُ من الفاسد عاد فزعمَ أنه إنما كان يُريد امتحانى .

مَوسم هذه المقابلاتِ من فصل الربيع ، فجلستُ فى إيوان النَّظَّارة (المتفرجين) نُمتّع البصرَ برؤية جَنات البرتقال والشمِّ بعبير زَهرها والسَّمْعِ بخرير ماء النهر مِن تحتنا حتى إذا ما آن وقتُ المقابلة تَراءى أمامنا دراويشُ المولوية قد اجتمعوا فى مَجلسِهم تجاهَ إيوان النّظارة وفى صدره شيخُهم الرسمىّ ، وإذا بغلمانٍ منهم مُرْدٍ حِسانِ الوُجوه يَلبسون غلائلَ بِيضًا ناصعةً كجلابيب العرائس ، يَرقصون بها على نغمات الناى المُشجية ، يدورون دَوَرَانا فنيًا سريعًا ، تَنفرجُ به غلائلهم[1] ، فتكوِّنُ دوائرَ متقاربةً على أبعاد متناسبة لا يَبغى بعضُها على بعض ، ويَمُدُّون سواعدَهم ويُميلون أعناقَهم ، ويَمرون واحدًا بعد آخرَ أمام شيخِهم فيركعون له . قلتُ ما هذا ؟ قيل هذا ذِكْرُ طريقة مولانا جلال الدِّين الرومىّ صاحبِ المَثْنَوِىّ الشّريفِ[2] .

لم أملِك نفسى أنْ وقفتُ فى بُهْرَةِ[3] النَّظارة وصحتُ بأعلى صوتى بما معناه : أيها الناس أو المسلمون ! إنَّ هذا منكرٌ لا يجوز النظرُ إليه ولا السكوتُ عليه لأنه إقرار له ، وإنه يصدق على مقترفيه قولُ اللّه تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ [المائدة : 57] . وإنّنى قد أديتُ الواجبَ علىَّ فاخرجوا رحمكم اللّه ، وخرجتُ من المكان راجعًا أدراجى إلى المدينة مُسرعًا ، وفى أثناء المسير التفتّ فوجدتُ ورائى عددًا قليلاً قد رَجعوا ، وبقى الأكثرون لم يُنكروا علىَّ ولا على القوم بقولٍ ولا عملٍ . ثم كانت هذه الحادثةُ الغريبةُ حديثَ الناسِ وموضوعَ سمرهم مدةً طويلة ، فمِن عاذلٍ وعاذرٍ .

سيرتى مع أستاذى العلامة الجسر فى الإنكار

اتفق فى تلك الأيام أنّ دعانى رجلٌ وجيهٌ من معارف والدى إلى سيران[*] فى بستانه مع شيخنا الأستاذ الشيخ حُسين الجسر والشيخ عبد اللّه البركة واثنين آخَرين من العلماء ،

---

(1) **غلائل** مفردها غِلالة وهى ثوب رقيق يلبس تحت الدِّثار (لسان العرب : د . ث . ر) .

(2) هو شاعر صوفى (1207 – 1273م) ولد فى بلخ ، وقُبر فى قونية ، سافر إلى بغداد ومكة ودمشق وملطية ولاوندا ، وحط فى قونية معلِّما ، وأسس الطريقة المولوية . (المنجد : 2 / 49) .

(3) **البُهرة** : وسط الشىء .

(★) السيران فى عُرف بلادنا الخروجُ للتنزه والطعام فى البساتين والضواحى اهـ . قلتُ أنا المُحشِّى على كلام السيد : إنه يقال للنزهة فى التركية (سير إيتمك) وأظنُّها منها .

وهنالك سألنى شيخُنا عن الحادثة ، ولم يسألنى عنها فى المدرسة ، فذكرتُها له بالاختصار . قال : إنى أنصحُ لك أنْ تَكُفَّ عن أهل الطريق . قلتُ : هل لأهل الطريق أحكام شرعية غيرُ الأحكام العامة لجميع المسلمين ؟ قال : لا ، ولكنْ لهؤلاء فى سماعهم نيةٌ غيرُ نية سائر الناس ووُجهة إلى اللّه غيرُ وُجهتهم ، وما لك تخصُّهم بالإنكار عليهم ، وإنَّ من أهل اللهو مَن يسمعون الأصواتَ والأوتارَ فى ملاهيهم ، بل بلغنى أنَّ بعضَهم يُقامرون ليلاً فى (قهوة العيونى) .

قلتُ إنَّ أهلَ الطريق ذَنْبُهم أكبر من أهل اللهو لأنهم جعلوا السماعَ المنكرَ وَرَقْصَ حِسان الغلمان عبادةً مشروعةً ، فشرَّعوا لأنفسهم من الدين ما لم يأذنْ به اللّه . على أنى لم أرَ منكرًا آخرَ ولم أُنْكِرْهُ . وأنا غير مكلَّفٍ أنْ أذهَب فى آخرِ الليل إلى قهوة (العيونى) فأستفتِحُها لأرى ما فيها وأنكِرَ عليه . فلما أَعْيَيْتُهُ قال : إن مذهبَنا (يعنى الحنفى) أشدُّ من مذهبكم (الشافعى) فى تحريم السماع ، ولكنَّنى أنصحُ لك أن لا تعترضَ على أهل الطريق . وسكتَ وسكتُّ .

والشيخُ - رحمه اللّه تعالى - كان خليفةً لوالده الشيخِ محمد الجسر المشهور المعتقد فى طريقتهم (الخلوتية) ، وكان يُقيم ذِكْرًا فى دارِه كلَّ ليلةِ جمعة ، وكان يكونُ فى مجلس الذكر عنده إنشادٌ لشىء من أشعار الصوفية أو أدوار فى الإلهيات والمدائح النبوية .

ولما جئتُ مصرَ ورأيتُ فيها من بدع أهل الطريق أضعافَ ما فى بلادنا ، وأنشأتُ المقالاتِ الضافيةَ فى المنار فى منكراتهم فى الموالد وغيرها - كان أولَ كتابٍ رَجَعَهُ إلَّى الشيخُ عفا اللّه عنه ضمَّنه الإنكارَ علَّى بمثل نصيحته فى بستان السيران بطرابلسَ . وقد افتتح كتابَه هذا بقوله : « ظهر المنارُ بأنوار غريبة إلا أنَّ أشعتَه مؤلَّفةٌ من خيوط قويّة كادت تذهبُ بالأبصار » . وكانت حجتُه أنّنى أُبَيِّنُ عيوبَ المسلمين للإفرنج وغيرِهم .

فكتبتُ إليه رَجْعَ كتابه فى 11 صفحة قلتُ فيه إنَّنى لا أزالُ أَعُدُّ نفسى تلميذًا لك ، وإنْ كنتَ أعطيتنى شهادةَ العالمية وأجزتنى بالتدريس ، وأنت تعلم يا مولاى أنَّنى من أول طلبى للعلم لم أكن أقبلُ شيئًا لا أعقلُه ولا أقتنعُ به ، وحُجَّتى على ما كتبتُ فى المنار كذا وكذا . . . فإنْ كتبتَ إلَّى ما يُقْنِعُنى بأنَّه خطأ رجعتُ عنه وأعلنتُ ذلك فى المنار ،

فلم يُرْجِعْ إلَّى قولاً . وقد نسخَ صورةَ ذلك الكتابِ صديقى الشيخُ عبد القادر المغربى ، ولعلَّها محفوظةٌ عنده .

ثم أنْكَرَ علَّى كتابةً فى جريدة طرابلسَ بقلمه ولكن بدون إمضائه ، ورددتُ على كتابته ، وتجافينا حتى إذا ما زارَ القاهرة فى طريقهِ إلى الحجاز ، ونزل ضيفًا فى دار الأستاذ الشيخ عبد القادر الرافعى الكبير كنتُ أزورُه كلَّ مساء ، فأقَبِّلُ يدَه ، وأجلسُ عنده ما جلس للناس . فلما كان يومُ سفره خلونا ساعةً ، وسألتُه النصيحةَ ، فأعاد علَّى إنكاره ذاك ، ومسائلَ أخرى أنكرتُها على بعض ما فى الكتب المألوفة ، وقال : إنَّنى أحب لك ما أحبّ لنفسى . . . قلتُ : ولكنْ هل اللَّه تعالى يُحاسِبُنى يومَ القيامة بما أعتقدُ وأعْلَمُ ؟ أم بما تعتقدُ أنتَ وتَعْلَمُ ؟ أقنعْنى بما تقولُ بالدليل ليصيرَ عقيدةً لى أرجعْ إلى قولك .

قال : أنتَ أهلُ علم وصاحبُ حُجّة ، وليس عندى لك غيرُ ما قلتُه . فذكرتُ فى نفسى قولَ اللَّه عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : 84] .

فمن عرَف سيرتى هذه مع أستاذى الأول ، ولا أعرفُ له فى الأزهر مثلاً فى علمِه وعملِه وسيرتِه ، لا يَستغربْ إنكارى على علماء الأزهر ، بل يَعلم أنَّ لى فيه قدمَ صدقٍ وموقفَ حقٍّ ، أجرى فيه على عرق ، وأدينُ اللَّهَ تعالى به ، ولا أهابُ أحدًا ، ولا أخافُ لومةَ لائم .

إنكارى على رجال الدولة والحكّام

ولقد كنتُ أُنكرُ على رجال الحكومة فى بلادنا كلَّ ما أراه مِن مُنْكَرٍ ، ولى فى ذلك حوادثُ ووقائعُ مشهورةٌ ، منها : أنّنى أنكرتُ على والى ولايتنا (بيروت) نصوحى بك الشهير إساءةَ صلاتِه فى مُصلى سراى الحكومة بطرابلس ، فَقَبِلَ كلامى شاكرًا ولكنَّ أهلَ التملُّقِ والنفاق والأذلاء عابوه علَّى حتى إذا ما رآنى فى بيروتَ مرةً قال لى ما سمعتُه من الشيخ النبهانى : إنك أنكرتَ علَّى تركَ الطمأنينة فى صلاتى بطرابلسَ ، وأنا أنكرُ

عليك الآن تخفيفَ لحيتك ، فهذا لا يَليقُ بأهل العلم ، قلتُ صدقتَ ، ولكنَّ فى شعر وجهى ضعفًا فهو يسقط بأدنى تحريك له ، وقد عرضتُه على بعضِ الأطباء هنا ، فقال إنَّ سببَه كثرةُ المادة الدُّهنية ، فهى تُضْعِفُ بُصيلات الشَّعرِ ، وَوَصَفَ لى علاجًا . . . إلخ (وأقولُ الآنَ إنَّ شعرَ وَجْنَتِى[1] لا يزالُ ضعيفَ النمو ومحتاجًا إلى العلاج) .

وقد كان أولُ خطاب ألقيتُه فى طرابلسَ مثارًا للإنكار من أُناس والعجبِ من آخرين عَدُّوه من الإفراط فى الحرّية والشجاعة الأدبية ، ذلك أنَّه كان بين الأستاذَين الشيخ على رشيد الميقاتى والشيخِ السيد عبد الفتاح الزعبى[★] من أكبر وُجهاء العلماء شىء من التقاطع ، فسعى المتصرِّفُ التركىُّ ، وهو الحاكم الإدارى العام ، للصُّلح بينَهما ، وأشار على الأول أن يبدأ به ، فدعا خِصمَه إلى حفلة تكريم دعا إليها معه سائرَ العلماء وجميعَ رؤساء الحكومة وكبارَ الوُجهاء إلى العشاء ، وكلَّفنى أنْ أكتبَ خِطابا يُناسب المقامَ وأُلقيَه على الملأ ، ففعلتُ ، ولم يكن فى الحفل شابٌّ من طلبة العلم غيرى إلا أبناءَ الداعى ، ومنهم صاحبُ الفضيلة الأستاذ الشيخ رشيد الميقاتى مفتى طرابلس لهذا العهد .

شبّهتُ فى ذلك الخطابِ الشعبَ أو الأمةَ بالفردِ منها والجماعاتِ العاملةَ للمصالح العامة فيها ومنهم رجال الحكومة والدولة - بأعضاء الفرد من رئيسيَّة كالدماغ والقلب ومشاعر وآلات ، وقلتُ إنهم يجبُ أنْ يكونوا سواء فى الحقوق العامة والاحترام وإن كانوا يَتفاضلون فى العُرف والاعتبار ، وشبَّهتُ العاطلين الذين لا يعملون لأمتهم عملاً نافعًا من السَّرَاة[2] وأصحابِ الثراءِ الموروثِ وغيرهم ، ويحتقرون الطبقاتِ الدنيا من العاملين بقولى : « ولا التفاتَ إلى سُفهاء الأحلامِ المتكبِّرينَ بالأوهام الذين يَحتقرون الزُّرَّاعَ والصُّناعَ ، فإنَّما مثلُ الفريقين كالأعمى والأصمِّ ، والسميعِ والبصيرِ ، والنسبةُ بينهما كالنسبة بين الأيدى والأرجل فى البنية ، وبين زوائدِ الأظافر والشعورِ لو كانوا يَعقلون » .

---

(1) **الوجنةُ** : ما ارتفع من الخدين .

(★) كان الشيخُ على رشيد الميقاتى من وُجهاء طرابلس ، وكان فصيحَ اللهجة ، وكان الشيخُ عبد الفتاح الزعبى نقيبَ أشراف تلك البلدة ، وكان محبوبًا عند الناس دمث الأخلاق ، وقد عرفتُ كلاً منهما رحمهما اللّه .

(2) **السَّراة** جمع (سَرِىّ) أى شريف .

ولقد خشىَ أستاذى الجسر عند سماع هذا الخطابِ أنْ يُحفِظَ[1] علىَّ قلبَ المتصرِّفِ ، وكاشفنى بذلك سِرًّا فى الجلسة لأتلافى الأمر بكلمة فى فضل الدولة ورجالها ، ولكنَّ ذلك المتصرِّفَ كان من كبارِ أحرارِ التركِ أُولى التربية العالية (وهو حسن باشا ابن سامى باشا شيخ وزراء الدولة فى عصره[★] وقد أعقبنى ثناء علىَّ ، فقال : إنى أفتخرُ اليومَ بأنْ أعدَّ نفسى طرابلسيًّا لهذه الحِكمة التى سمعتُها من هذا الشابِّ ، وقال كلمة حكيمةً فى مَقام رجالِ الدولة . ولما علم بهذا الخطاب أدباءُ النصارى عجِبوا لجُرأتى ، وأذكرُ أنَّ الأديبَ المؤلِّفَ الشهير جُرجى أفندى[★★] ينى قال لى يومئذٍ وقد علم بالخطاب : من أين جئتَ بهذه الحريّةِ المتطرفةِ فى هذه البلاد المستعبَدة ؟ وجُرجى أفندى لا يَزال حيًّا ، يذكرُ هذا ، وهو صاحبُ مجلة المباحث .

وكان هذا المتصرِّفُ بعد ذلك يُحبُّ المذاكرةَ معى فى شئون سياسة الدولة والإصلاح ، فإذا زُرتُه فى دار الحكومة لا يَأذنُ لأحد أنَّ يَدخلَ علينا فيها لأنَّنا نتكلّمُ بغاية الحرية فى عُيوب الدولة ، وجعلنى بعد ذلك عُضوًا فخريًّا فى لجنة إصلاح المعارف ، ثم لما صار واليًا لأزمير بعدَ هجرتى إلى مصر كنتُ أرسلُ إليه المنارَ بالبريد الأجنبى ، إذ مُنع المنارُ من بلاد الدولة بإرادة السلطان .

وكان يُكثرُ زيارتَنا فى القلمون قبلهُ متصرِّفُ طرابلسَ مصطفى ذهنى باشا بابان[★★★] ، وكان سبق له اشتغالٌ واسعٌ بعلوم الشرع ، وهو شافعيُّ المذهبِ مثلُنا كقومه الأكراد ، فكان يُكثر مذاكرةَ العلماء فى الفقه والتوحيدِ وغيرِهما ، وكانت

---

(1) **أَحفَظَهُ** : أغضبه .

(★) **سامى باشا** هو أبو صبحى باشا الذى تولَّى ولايةَ الشام فى إحدى المرّات ، وإلى هذا البيت يَنتسب حمدُ اللّه بك صبحى المعدودُ اليومَ من كبار أدباء الترك .

(★★) **جرجى أفندى** ينى أحد وُجهاء طرابلس الشام وفضلائها الذين خدموا العلم طولَ حياتهم ، وله باعٌ طويل فى التاريخ وتآليفُ ممتعة .

(★★★) **مصطفى ذهنى باشا** من آل بابان ، قال لى ابنه نعيم بك : إنهم وإن كانوا رؤساء الأكراد فى السليمانية فنسبهم عربى صريح يرجع إلى أبى عبيدة بن الجراح ﷺ ، وكان مصطفى ذهنى باشا قد تولى أيضًا ولاية الحجاز ، وقد عرَفتُه بعدَ إحالته على التقاعد وذلك فى أثناء الحرب العامة ، وهو والد نعيم بك أحد أعضاء مجلس الأعيان فى الدولة العثمانية ، وكان من الفضلاء ، ووالد إسماعيل حقى بك أحد أركان جمعية الاتحاد والترقىّ ، وقد مات فى حياة والده ، وكان يتولَّى نظارةَ المعارف .

تُعجبه أجوبتى وأنا طالب مبتدئ ، فُيلقى علَّ أسئلةً كثيرة (منها) أنه قال لى مرَّةً بدارنا : إن دولتنا مخطئةٌ فى إعفاء طلاب العلوم الدينية والعلماء من الخدمة العسكرية ، فإنّها خدمة دينية والعلماءُ أحقُّ الناس بالقيام بها . قلتُ له على البداهة : إنَّ لهذا الإعفاءِ أصلاً فى كتاب اللَّه تعالى ، قال متعجِّبًا : فى كتاب اللَّه تعالى !! قلتُ : نعم ، وهو قوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : 122] فدُهِشَ ، وأثنى علَّ ، ودعا لى دعاءً صالحًا من قلبه .

وتحدَّثنا مرّة ونحن على مائدة الطعام بدارِنا فى شئون الدولة ، فقلت : إنَّ الذى أضعفَ الدولةَ هو جهلُ العلماء بالسياسة وجهل الحكَّام بالدين ، فظهرَ على وجهه تجهّمُ الاستياء وجحظت عينا والدِى وحدجنى[1] بنظره ، وقال المتصرِّفُ : وهل رجالُ الدولة جاهلون بالدِّين ؟ قلتُ لو كانوا كلُّهم أو أكثرُهم مثلَ سعادتِكم لما كنّا نقولُ هذا ، فَسُرِّىَ[2] عنه . ثم كان لكلامى هذا دوىٌّ عظيمٌ بينَ الناس .

ثم لما زرتُ الآستانة سنة (1327هـ – 1909م) عقبَ الدستور زارنى فيها وآدَبَ[3] لى مَأْدُبَةً فاخرةً دعا إليها بعضَ العلماء والوُجهاء ، وحدَّثهم بما علِمه من خبر حداثتى ، وكان واليًا ليانية ، وإنما جاء الآستانة زائرًا ، وكان أحدُ أنجاله وزيرًا للمعارف[★] فيها وآخرُ عضوًا فى مجلس المعارف الأعلى[★★] .

وزار القلمون مرّةً رئيسُ المحكمة العدلية والمدِّعى العمومى (رئيس النيابة) وكانا ضيفَين عند الوجيه حسين آغا ياسين ، فطلبا منه أنْ يَدْعُونى ليَسمعا كلامى . . . فقال

---

(1) **حَدَجَهُ ببصره** : أحدَّ النظر إليه وَحدَّق ، وفى حديث ابن مسعود : « حدّث الناس ما حَدَجُوك بأبصارهم » ، (المعجم الوسيط : حدج) .

(2) **سَرِّى عن فلان** : زال ما به من همّ .

(3) **آدَبَ إيدابا** : صنع مأدُبةً .

(★) يُشيرُ إلى إسماعيل حقى بك المتقدِّم الذكر من أبناء مصطفى ذهنى باشا ، فإنَّه تولى نِظارة المعارفِ كما قلنا .

(★★) يَعنى به نعيم بك الذى كان مِن أعضاء مجلس المعارف ، وفى الآخِر صار من أعضاء مجلس الأعيان ، وقد تُوفى من عهد قريب .

لهما عليكما إذًا أنْ تخبِّئا أنواطَ ساعاتكما الذهبية لأنه لا يسكتُ عن الإنكار عليها ، وكان قولُه صادقًا ، فقد أنكرتُ عليهما ووعظتُهما بما يجبُ عليهما من العدل . . .

سيرتى فى تعليم العوَامّ ووعظِهم

إنَّ سِيرَتى فى نصيحة العوَامّ وتعليمِهم فى القلمون مشهورةٌ . كنتُ أقرأُ للرجال دُروسًا فى مسجدنا ، وأذهبُ إلى مَقهى لهم يَجلسون فيه لشرب القهوة والنارجيلة « الشيشة » فأجمعُهم ، وكان فيهم أفرادٌ تاركون للصلاة فَاسْتَتَبْتُهم وألزمتُهم بما لى من النفوذ الدينىّ والوراثى أنْ يُحافظوا على الصلوات . ولما حضرتُ دُروسَ السنوسية الصغرى فى المدرسة ، واعتقدتُ أنه يجبُ على كلِّ مسلم أنْ يَعتقدَ ما هو مُقرَّرٌ فيها من الصفات العشرين وغيرها تعبتُ تعبًا شديدًا فى محاولة إفهام العوام فلسفةَ السنوسى الأشعرية ، فتعذَّر علَّى ذلك حتى كان بعضُهم يَبكى إذا لم يفهمْ ما أُقرِّره ويَخشى أنْ يكون كافرًا بعدم فهمها ، ثم مَنَّ اللّه علَّى بالعلم بأنه لا يجبُ على مسلمٍ التقّيدُ بها وأنَّ فيها خطأ وأنَّ الناسَ مغرورون بها . فكتبتُ لهم عقيدةً سهلةَ الفهمِ والعبارةِ ، لا يَزال يحفظُها الكثيرون منهم . وكنتُ أقرأُ لهم فى الفقه قسمَ العبادات من نهاية المحتاج فى شرح منهاج النووى للشمس الرملى ، وكلُّهم شافعية فصار كثيرٌ منهم أفقه من طَلَبة العلم الرسميين .

ولم أخصَّ الرجالَ دونَ النساء بل أرسلتُ إلى نساء القرية مَن يدعوهنّ إلى دَرس خاصّ بهنّ فى دارنا القديمة ، فكنتُ أُلقى إليهن القولَ فى العقائد وأحكام الطهارة والعبادات بعبارة عامية سهلة بدون كتاب ، وأُلزمهنَّ تغييرَ زيّهن فى اللباس بما هو أستر وأطهر بحيث تكونُ المرأة فى الشارع كما تكون فى حال أداء الصلاة ، وكان أكثرُ نساء القلمون تاركاتٍ للصلاة فصرنَ يُصلِّينَ ، وحسُنت حالُهن فى النظافة وفى معاشرة أزواجِهن .

وأما نساءُ أهل بيتنا (بيت المشايخ) فكنَّ كلُّهن يُصلينَ ويَعرفن أكثرَ واجباتِ الدِّين وسنتهِ ، وزِيُّهن فى الدار وفى الخروج كزىِّ المحتجبات من أهل المدن على تفوقٍ فى التَّديُّن والأدب . وكان فيهنَّ المتعلمات بقدر ما يَسمح به ذلك الزمانُ ، فقد أدركتُ عمةَ

والدى تَقرأ القرآن ، وسبق ذكرُها وذكرُ غيرها . ثم كثُرنَ فى عهدنا بما لا حاجةَ إلى بيانه . على أنَّنى كنتُ أقرأُ لهنَّ بعضَ كتب الأدب أو التاريخ أو الوعظ فى ليالى الشتاء .

ولا أنسى ليلةً كنتُ أَقرأُ فيها خبرَ مقتل سيدنا وجدِّنا الإمام الحسينِ السِّبْطِ[1] عليه السلامُ[2] وعلى قاتليه اللعنةُ ولهم سوء الدار ، فكنتُ أبكى وتَبكى عمَّتى الكبرى ، وتقولُ لى : تجلَّد فإنَّ القارئ لا يَنبغى له البكاء . . .

وأما المواعظُ التى كنتُ ألقيها فى المسجد فكنتُ أعتمدُ فيها على القرآن ، وقد وُفِّقتُ لاستحضار الآياتِ الكثيرةِ فى الموضوع الواحدِ من ذلك العهدِ ، ثم على كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر « للشيخ أحمد بن حجر الهيثمى » الفقيه الشافعى فكتابُه هذا خيرُ كتبه ، ومنه عرفتُ بدعَ البناء على القبور وتشريفِها ووضعِ السُّرُج عليها أنَّها بِدَعُ ضلالة لَعَنَ النبىُّ ﷺ فاعليها ، وقد نَقَلَ فيها عن بعض الفقهاء وجوبَ هدم القباب التى تُبنى على قبور الصالحين وأُقرّه . وقد كان أهلُ قريتنا يَتبرّكون بقبر السيد محمد القصيباتى المشهور بالولاية . وهو الذى قال لى شيخُنا أبو المحاسن القاوقجى عند تَلقينه إيانا المُسَلْسَلَ بالأشراف أنّه مِن ذُريته وأنَّ أصلَهم منا ، وهذا مذكور فى سلسلة نَسبه الذى تراه فى مقدمة كتابه « اللؤلؤ المرصوع » ، وقد كان لقبر القصيباتى المبنىّ فى مقبرته مشكاتان كان النساء يضعن فيهما الشمعَ ، ويُوْقِدْنَهُ ليلاً فمنعتُهنَّ منه .

وكن يُوقدنَ الشمعَ أو السُّرُجَ فى عُلّيقة على شاطئ البحر ، ويَربطنَ عليها خِرَقًا من طالبات الاستشفاء أو غير ذلك لأنه اشتُهر أن هنالك وليًّا اسمه محمد زكًّا ، هو جدُّ أهل بيت يُسمَّى بيتَ زكّا ، فمنعتُ هذا أيضًا .

وكان فى أرض القرية على بُعد بِضع دقائقَ مجرى ماء للمطر يُسمَّى وادى الولية ، وفيه شجرة زيتون كبيرة تُسمَّى زيتونةَ الولية ، كان كثير من المارة يتبّركُ بها لما اشتُهر مِن أنَّ هناك وليَّة مدفونةً وبجانبها شجرة آس كبِرت وارتفعت ، ولم يرتفعْ غيرُها من الآس فى

---

(1) **السِّبط** : ولد الابن أو الابنة ، وسمى سِبطًا لأنه ابن فاطمة - رضى اللّه عنها - بنت النبى محمد ﷺ .
(2) جائزة ما دام لم يُقرن باسم النبى ﷺ ، فلو ذكر اسم النبى ﷺ معه قيل : رضي الله عنه للصحابى .

تلك الأرض على كثرتِه لأنهم يقلعونه دائمًا للوقود ، فأمرت رجلاً ممن كانوا يحضرون دَرسى فقلعها ليلاً ، ولم يُصَبْ بشىء كما كانوا يَتَوَهَّمونَ .

كلُّ هذا قد كان منى وأنا طالب للعلم ، ولم أكنْ رأيتُ شيئًا من كتب الإمام المجدِّد شيخ الإسلام ابن تيمية ولا من كتب تلميذه المحقِّق ابن القيم ، بل كنتُ رأيتُ طعنَ ابن حجر هذا عليه فى كتابه « الفتاوى الحديثية » ، وكنتُ أُصدِّقُ ما فيها ثم رأيتُ فى طرابلسَ كتاب « جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين » للعلامة خير الدين الألوسى البغدادى[1] ابن الشهاب محمود الآلوسى المفتى المفسِّر فعلمتُ منه أنَّ طبقة ابن تيمية أعلى من طبقة ابن حجر الهيثمى ومن فوقه من العلماء بمراحل . ثم ظهر لى أنَّ الهيثمى هذا طعنَ على شيخ الإسلام ولم يكن رأى شيئًا من كتبه ، وإنما بَلَغَهُ عنه مبالغتُه فى الإنكار على تأويلات المتكلمين لآيات الصفات وأحاديثها وطعنُه على الشيخ محيى الدين بن عربى وابن الفارض وابن سبعين والعفيف التلمسانى والرُّومى القائلين بوحدة الوجود ، وكان الهيثمى هذا مفتونًا بالصوفية حتى غلاتِهم كمحيى الدين[2] (وقد سبق تحقيقُ القولِ فيه) .

وكان أشعريًا مقلِّدًا يدِيْنُ بتأويلات المتكلمين لآيات الصفات وأحاديثها بما يخالف مذاهبَ السَّلف والمحدِّثين لأنه كان قليلَ العلم بالأحاديث وآثار السَّلف . وقد أنصف الألوسى فيما كتبه من تاريخهما ، فَلْيَرْجِعْ إليه مَن شاء .

وأما الوهابية[3] فلم أكنْ أَعْرِفُ عنهم شيئًا ، وإنما كنتُ أسمعُ من الناس أنَّهم مبتدعة ربطوا خُيولهم فى مسجد النبى ﷺ ، وأولُ كلمة حقٍّ وقفتُ عليها فى شأنهم لعلماء سورية كلمةُ مفتى بيروتَ العلّامة الشيخ عبد الباسط الفاخورى[4] فى كتاب « تُحفة الأنام مختصر تاريخ الإسلام » ، وإنما عَرَفْتُ تاريخَهم بالتفصيل فى مصر بعدَ هجرتى إليها .

---

(1) هو **نعمان بن محمود بن عبد الله الآلوسى** (1252 - 1317 هـ) ، ولد ببغداد ، وتنقل إلى مصر وسوريا وبلاد الأناضول والقسطنطينية ، وتوفى ببغداد (**انظر** : أعلام العراق : 57 - 67) .

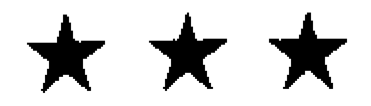
(2) يقصد **محيى الدين بن عربى** صاحب (الفتوحات المكية) ، وقد سبقت ترجمته .

(3) هم أتباع محمد بن عبد الوهاب ، وسيأتى الحديث عنهم .

(4) هو **عبد الباسط بن على الفاخورى** (ت : 1324 هـ) تولى الإفتاء ببيروت .

على أنَّ هذا التاريخَ طُبع بعد هجرتى أيْضًا . وقد كان مِن جُرأة مؤلِّفه نشرُ نَصِّ دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب إلى التوحيد ، وقوله فيها إنها عين ما دعا إليه الأنبياءُ والمرسلون ، وكان ذلك فى زمن السلطان عبد الحميد إذ كان يَعُدُّ الوهابيين أعداءً له غيرَ خاضعين لسلطانه .

هذه خُلاصة تاريخ نشأتى العلمية والدينية ، وأكثرُ ما دَوَّنْتُهُ فيه ، إنْ لم يكنْ كُلَّه ، معروفٌ لبعض الأحياء فى وطنى من أترابى[1] وممن هم أسنُّ أو أصغر منى ، وكان فى جملته إعدادًا من اللَّه تعالى للمستقبل الذى أقامنى فيه بفضله وكرمه .



(1) التِّرب : المماثل فى السنّ ، والجمع أتراب .

الآثار القَلَمِيَّةُ مِن نَظْمٍ ونَثْرٍ وَتَصْنِيْفٍ

نَظْمُ الشِّعْر :

ذكرتُ فى فَصْلِ استعدَادىّ ما كان من اشتغالى بمطالعة بعضِ كُتبِ الأدبِ والتصوفِ مِن قَبْلِ طلبِ العلم ، وأنه كان بمحض الميل الفطرىّ واللّذة العقليةِ بدون إرشادٍ ولا تكليفٍ مِن أحدٍ ولا بقصدٍ منى إلى غايةٍ ولا منفعةٍ مستقبَلةٍ ، وإنما رأيتُنى بعدَ تَعَلُّمِ مبادئ القراءة والخطِّ فى القرية غيرَ مطالب بعملٍ دنيوىّ فى بيت فيه كُتب ، وميلى لِلَّعِبِ مع الصِّبيان قليلٌ ، فليس أمامى شىء إلا هذه الكتبَ ، أتلذَّذ بمطالعتِها ، وكان والدى يُرجئ ويُسَوِّفُ فى وضعى فى بعض مدارس المدينة (طرابلس) خوفًا على أخلاقى وآدابى أنْ تَفسدَ بمعاشرة أهل المدن كما تقدَّم ، فينتظرُ أنْ يَرى مِن رُشدى ما يَطمئنُّ به علَّى ، وكان عمِّى السيد محمد كامل (والد السيد عبد الرحمن عاصم) يُمكنُه أنْ يقرأَ لى شيئًا من النحو والصرف إذ كانت صلتى به أقوى من صلتى بكلِّ أحد ، ولكنَّه لم يفعلْ . وكان الشيخُ محمود النصرى زوجُ عمَّتى (وهو جد السيد عاصم لأُمه) يُمكنه ذلك ولكنه عُيِّنَ قاضيًا فى محكمة الكورة العدلية ، وعهدى به يَقرأُ النحو لعمِّى هذا ولابن عمه السيد محمد كمال ، فلَّما جاء دورى أنا ومَن فى سنِّى من الأسرة شُغل بالقضاء .

أوَّلُ ما ظَهر من تأثير كُتب الأدب وحفظ الشعر فى نفسى نَظْمُ الشعر فى حالات تعرِض لى ، وكان منها قصيدةٌ فى دعوةٍ خادعة إلى أَكْلَةِ حلوى ، وصفتُ بها الدَّاعىَ ومساوئَ دارِه ، وقد كتبتُها خِلافًا لما كانَ يعرِض لى من مفردات ومقطوعات ، وظلَّتْ عندى فى مُسَوَّدَتها إلى أنْ تعلّمتُ فرأيتُها صحيحةَ الوزنِ والإعرابِ . ولم أكنْ أذكرُ ذلك إلا للأتراب من أمثالى . وكان أولَ مَنْ سَمِعَ نَظْمى من أهل العلم الأستاذُ الشيخُ أحمد عبد الجواد القاياتى (والد المرحوم الأستاذ الشيخ مصطفى القاياتى أحد خطباء الوفد المصرى) إذ كان هو وشقيقُه الأستاذُ الشيخُ محمدُ القاياتى ممن زارونا بالقلمون من أفاضل المصريين الذين نُفُوا إلى سوريا عقبَ الثورة العرابية . واتَّفقَ أنْ صار يُكلِّمنى ويبحثُ معى فأسمعتُه أبياتًا كنتُ نَظمتُها ، فقال لى : « بدايتُك نهايةُ غيرِك » ولا شكَّ

أنه قصد بهذه الكلمةِ الترغيبَ والتنشيط ، وأنَّه مع ذلك استكثر ذلك النظم الصحيح المعنى واللفظ المستقيم الوزن ممن لم يقرأْ شيئًا من الصرف ولا من النحو فضلاً عن العروض وقَرْضِ الشعر .

ذكرتُ فى الكلامِ على نشأتى العلميَّة أنَّنى كِدتُ أشتهرُ بالشعر فى السنة الأُولى من دخولى المدرسةَ الوطنيةَ (وهى سنة 1299) وذلك أنَّنى بُلِّغتُ وأنا فى المدرسة أنَّ نَسيبَنا[1] الأستاذَ الشيخَ محمودَ النصرى الذى ذكرتُه آنفًا قد تُوفِّى فذهبتُ فى المساء إلى القلمون ، وفى اليوم الثانى جاش فى صدرى أنْ أَرْثِيَهُ فنظمتُ مَرْثيةً طويلةً قُرِئتْ بعدَ ظُهْرِ اليومِ الثالث فى حفلةِ التأبين بمسجدِنا ، وقد حضرَها كبارُ علماء طرابلس وُوجهائها ؛ إذ جاؤوا لتعزية والدى وسائرِ الأسرة . وكان قارِئها حسنَ الصوتِ والإلقاءِ ، وهو السيد محمد العشى مِن أشراف القلمون ، فلَّما خلوتُ بأستاذنا الشيخ حسين الجسر بعدَ الحفلة قال لى : هلِ المَرْثيةُ التى أُنْشِدَتْ فى المسجد لأستاذِنا الشيخ عبدِ الغنى الرافعى ؟ قلتُ : لا . قال : لِمَنْ هى إذًا ؟ فَخَجِلْتُ أنْ أقول إنَّها لى بعدَ أنْ ظَنَّ أنَّها بِحُسن إنشادِها لأديب العلماء العلاَّمة الرافعى ، وقد تقدَّم ذكرُه . فَفَطَنَ مِمّا ظهرَ علَّى من الخجلِ والسكوتِ أنَّها لى ، وقال : أتقولُ إنها لك ؟ إذًا أمتحنُك . ثم طلبها منى مخطوطةً ، وكان يقرؤها فى كلِّ مجالسه الأدبية ، ويقول إنها لفلان الذى دخل المدرسة فى هذه السنةِ . فَشَهَّرنى تشهيرًا أخجلَنى من الناس الذين كانوا يَذكرون لى تَبجُّحَهُ بى . وإنَّنى أذكرُ منها ما يُعلم به أنها كبيرةٌ علَّى فى ذلك العهدِ صغيرةٌ فى نفسِها ، وهو :

هو المنونُ فقصّر دونه الأملا	لا حولَ للخلق منه بالخلاص ولا
ولا تغرنَّك الدّنيا بزُخْرُفِها	فإنَّها كَخَيَالٍ عندَ مَن عَقلا
أو كَالْهَشِيمِ إذَا ما الذَّارياتُ أتتْ	تَذْرُوهُ قد ضربَ الرَّحمنُ ذا مَثَلا

---

(1) كلمة نسيب فى المعجم لها ثلاثة معانٍ ، هى : المناسب وجمعها نسباء وأنسباء ، ورجل نسيب أى شريف معروف حسبه وأصوله ، وفى الشعر الرقيق منه المتغزّل فى النساء . وليس المقصود فى استعمال الشيخ رشيد واحدًا من هذه المعانى ، بل يقصد من تروج قريبةً له .

ومنها :

يا نائمًا وصروفُ الدَّهر تُوقِظُهُ إنْ كنتَ فى غفلةٍ فاللّه ما غَفَلا

وأنتَ يا ذَاهلاً عمَّا يُراد به مُؤَذِّنُ الموتِ نادَى الناسَ : حيَّ على

فهذا أسلوبُ وعظِها، ويُشْبِهُهُ أُسلوبُ مدح الفقيد . وأمَّا معانيها فهى تقليدٌ للمألوف فى المَراثى من المبالغة فى المدح بما يُقصد به حُسن اللفظ ومناسبتُه لصنف الممدوح ومركزه الاجتماعى دونَ مطابقتِه للواقع أو عدمِها .

ثم إنَّنى فى أثناء طلب العلم رَثَيْتُ من تُوفِّىَ مِن كبار علمائنا وأصدقاء والدى بل أصدقاء بيتنا بما هو أرقى أُسلوبًا وأقوى مناسبةً وأصحُّ معنًى ، وفى مقدِّمتهم شيخُ الشيوخ الشيخُ محمود نشابه والأستاذُ الأكبرُ الشيخُ عبدُ الغنى الرافعى والمرشدُ الأكبرُ الشيخُ أبو المحاسن محمد القاوقجى ، وقد تَقدَّمَ ذِكرُهم فى هذه الترجمةِ ، وكذا العالِمَ المرشدَ الشيخَ عبدَ الرزاق الرافعى والشيخَ عبدَ القادر الميقاتى إمامَ الجامعِ الكبير فى طرابلسَ ، ومَرْثِيَةُ هذا نُظمتْ فى ساعةٍ ، وقُرِئتْ عقبَ دفنهِ ، وسائرُ تلك المراثى أنشدتُها فى حفلات التأبين فى الجامع الكبير فى اليوم الثالث للوفاة أو للعلم بها ، فإنَّ الشيخ عبد الغنى والشيخ القاوقجى تُوفِّيا فى الحجاز ودُفنا فى مكة المكرمة .

ولم أرثِ من وُجهاء الدنيا إلا الأميرَ أحمدَ حسان الأيوبى(★) من سَرَوَاتِ الكورة (فى جبل لبنان) ، رَثَيْتُهُ بأمر والدى : قال لى عندما جاءه نعيُه سنة 1309هـ : يا بُنَىَّ هذا أكبرُ وُجهاء الكورة ، وسيحضرُ حفلةَ اليوم الثالثِ والسابع له كبراءُ البلادِ من المسلمين والنصارى ، ويُؤَبِّنُونَهُ ، وعلاقةُ أسرتِنا بأسرتِه قديمةٌ وقَوِيَّةٌ فيجبُ أنْ تَنْظِمَ له مَرْثِيَةً تُنْشَدُ وتكونُ بها . . .فنظمتُ المرثية الداليَّة التى اشْتُهِرَتْ حتى كادت تُذْكَرُ مع مَرْثية المعرِّى الداليّة فى فلسفتها ومَرْثية الشريف الرضىّ الدالية فى تعظيم قدر المَرْثِىّ بها . وقد قلتُ فى مَطْلَعِها :

(★) الأمراء بنو الأيوبى فى الكورة من جبل لبنان على مقربة من طرابلس متواتر أنهم من ذريَّة صلاح الدين الأيوبى رحمه اللّه .

إنَّ المنيّةَ غايةُ الميلادِ والنَّعشُ مِثْلُ المَهْدِ للأَوْلادِ
واللَّهُ قد بَرَأَ الخلائقَ لِلْبَقَا بَعْدَ الفنا وزيارةِ الألحاد[1]
والموتُ بابُ النشأةِ الأُخرى لنا وبِها كمالُ الخَلْقِ والإِيجادِ

ثم قلتُ بعدَ أبيات فى وجوب السُّرور بالموت واستنكارِ الحُزنِ والحِدادِ ومضارِّهما وقبحِ عاداتِهما :

أَطبيعةٌ ذَا الحزنُ ليسَ يَشِذُّ عَن نـامـوسِـه فـردٌ مِـن الأَفـرادِ
أمْ ذَاكَ مما أوجبتْه شَرائعُ الأ ديانِ مِن هَدْى لنا وَرَشَادِ ؟
أم ذلكَ العقلُ السليمُ قَضَى على كلِّ الشعوبِ بهذهِ الأَصفادِ
كَلاَّ فليسَ الأمرُ ضَرْبَةَ لازبٍ لـكنَّه ضَـرْبٌ مِـنَ الـمُعـتـادِ
فَاخْلَعْ سَرابيلَ العوائدِ إنْ تكُنْ ليستْ بنهجِ العقلِ ذاتَ سَدَادِ
وَتَقَلَّد الحزمَ الشّريفَ كصارمٍ كيما تُنافحُ جيشَها بجهادِ
فَانْظُرْ لموتِ الناس بالعين التى تَـرنُـو بـهـا لـولادةِ الأولادِ(★)
هـاتـيـكَ مَبْدَؤُنا وهـذا تـمـنُّـا طَـرفـانِ مُـسـتـويـانِ لـلـنُّـقـادِ
بل آخرُ الطرفين خيرُهما فَخُذ بـالاعـتـبـارِ بـه والاسـتـعـدادِ

ومنها فى وَصف الأمير ووصفِ جِنازته :

قَدْ جَاءهُ هذا الحِمامُ فلم يكنْ إلا كبعضِ الضيفِ والقُصَّادِ(★★)

---

(1) بَرَأَ : خَلَقَ ، الفنا : أى الفناء ، بقصر الممدود ، وهو جائز ، الألحاد جمع لحد ، وهو جمع قلة ، والأولى (اللحود) لأنه جمع كثرة ، ولكنَّ الوزنَ اضطرّه إليه .

(★) ما قرأتُ هذا الشعرَ إلا تذكرتُ النكتةَ التى رواها ابنُ خَلدون فى مقدّمته[1] وهو أنه أنشدَ أبو القاسم بنُ رِضوان مرَّةً هذا البيتَ لابن النحوى أمامَ أبى العباس بن شعيب ، وهو :

لـم أدرِ حـيـنَ وقـفـتُ بـالأطـلالِ مـا الـفـرقُ بـيـنَ جـديـدِهـا والـبـالـى

فقال ابنُ شعيب هذا شعر فقيه . فقيل له : ومِن أين عرَفت ذلك ؟ قال : من قوله : ما الفرق . فإن هذا من أساليب الفقهاء لا مِن أساليب الشعراء . وأنا أقول مَن قرأ هذه المَرْثِيَةَ علمَ أنَّها شعرُ حكيمٍ متصوِّفٍ ، وهى من نمط شعر المعرى كما قال ناظمُها .

(★★) كان فى دار ضيافة الأمير أحمد حسان فى عهد عِزّه مائةُ فراش ومائة لحاف و100 أو 200 مِخدَّة (هذه الحاشية فى الأصل) .

---

(1) المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون ص641 ، دار الجيل ، بيروت .

لم يَرْضَ إلا نفسَه مِنْهُ قِرى فَسَخا بِها فَاعْجَبْ لذى الإرْفَادِ
وَقضَى الأميرُ وما قَضَى إحسانُه بل ظلَّ كالأطْوَاقِ فى الأجيادِ[1]
حَفَّتْ به زُمرٌ وسارَ كشأنِهِ بمواكب الأعراس والأعيادِ
دِلْفًا على الأعناقِ لا عَنَقًا كما قد كان إذ يَعْلُو مُتُونَ جِيادِ[2]
وَسَريرُه المرفوعُ أَفْصَحَ مُنْشِدًا (أعلمتَ مَن حُمِلوا عَلى الأعوادِ)
ما ذاكَ إلا البدرُ أمسى آفِلاً (أرأيتَ كيف خَبا ضياءُ النَّادِى)

وكنتُ أكرهُ المدائحَ والتهانى الشعريّةَ ولكنّنى لاشتهارى بالشعر كنتُ مُضطرا إلى إرضاء بعض خواصّ الأصدقاء بشىءٍ منها : فمنها الموشَّحُ الذى هنَّأتُ به صديقَنا عبدَ الحميد بك الرافعى أشعرَ شعراءِ طرابلس بزِفَافِه ، وكان ذلك فى حياة والِدِه الأستاذ الأكبر الشيخِ عبد الغنى الرافعى ، ونَشرتُ نُموذجًا منها فى المجلد 30 من المنار فى الكلامِ على العيد الذهبىّ[3] لعبد الحميد المهنَّأ[★] .

(1) **قَضَى فلانٌ** : مات ، **قضى إحسانُه** : ما انتهى إحسانه .
(2) **الدِّلفُ** : الشجاع ، **العَنَق** : ضَرْبٌ من سير الإبل والخيل سريع .
(3) **العيد الفضى** يكون بعد مرور 25 عامًا . على حادث له أهمية ، **والعيد الذهبى** يكون بعد مرور 50 عامًا ، **والعيد الماسى** يكون بعد مرور 100 عام .
(★) السيد **عبد الحميد الرافعى** كان كما قال الأستاذ أشعرَ شعراء طرابلس الشام ومن أشعر شعراء العرب فى هذا العصر ، وقد احتفلتْ طرابلسُ بعيده الخمسينىّ وذلك من ثمانى سَنوات ، ودُعيتُ إلى إرسال شىء إلى تلك الحفلةِ فقلتُ :

إياكَ فى الشرقِ أنْ تَعدو طرابلسا إنْ كنتَ تَبغى كِرامَ الإنس والأنسا
وَحُجَّ منها لقُصَّادِ الهُدى حَرَمًا أَمِنًا وجاور لأربابِ النُّهى قُدُسا
مدينةٌ جادَها البارى برحمتِه من الخصائص ما عنْ غيرِها حَبَسا
لِمْ يَكْفِها بحرُها العجَّاجُ بل جَمَعَتْ مِن أهلها أبْحُرًا فى شطِّه جُلسا
أَكارمٌ بهم باتت طرابلسُ مصرًا يُقصِّر عنها كلُّ ما يَبِسا

إشارةٌ إلى قول المتنبى :

(أكارمٌ حسدَ الأرضَ السماءُ بهم وقصَّرت كلُّ مصرٍ عن طرابلسَ)

ثم أقولُ :

نَاهِيكَ بالرافِعيِّينَ الذين لهم مِن المآثرِ ما يَستَنطِقُ الخُرُسَا
الرافعينَ من الأعلام أرْفَعَها والخافضينَ من الأعداءِ ما رَأَسَا
لقدْ رَعَوا تَلعاتِ المجدِ أجمعَها وجَدَّدُوا مِن دُروس العلم ما دَرَسَا =

ثم إنني بعدَ الاطلاع على شئون الاجتماع وسياسةِ العصر بتأثير مجالس المرحوم الوالد مع أصدقائه وقراءة الجرائد التى كانت تأتيه (وعنده وجدتُ بعضَ أعداد جريدة العُروة الوثقى) ثم بتأثيرِ صُحبةِ أستاذِنا العلاّمةِ الشيخِ حُسينِ الجسر ومطالعةِ المجلات العلمية كالمقتطف والطبيب - مالت نفسى لإدخال المعانى العصريةِ فى الشعرِ ، فكان مما نظمتُه فى ذلك القصيدةُ التى سُميتْ (قصيدة الجاذبية) ، وقد نَشرتُ أبياتًا منها فى المجلَّد الأول من المنار ، والقصيدةُ الجماليةُ التى خاطبتُ بها السيدَ جمال الدين الأفغانى فى السنة التى جاء بها الآستانة ، ثم نشرتُها فى المجلَّد الثانى من المنار ، والقصيدةُ الشرقيةُ التى عاتبتُ بها الشرقَ على تأخُّرِه عن الغرب .

وكان آخرُ ما نظمتُه من الشعر (المقصورة الرشيديّة) التى عارضتُ بها مقصورة ابن دُريد ، وكان سببُ نظمها اقتراحَ صِنوى وزميلى فى طلب العلم ومذاكرات الأدب الشيخ عبد القادر المغربى أنْ أَنظم مقصورةً أهنئُه فيها بزفافه فنظمتُ مائة بيت ونيِّفًا(★) ، ثم بدا

= وآثَرُوا من أيادى الفضلِ ما قَرُبتْ ... ثمارُه ومن العَلياء ما قَعَسَا
ساروا على إثر الفاروق جدِّهم ... ولن يَضلَّ الذى مِن نوره اقتبسَا
مِثلُ السيوفِ المواضى فى ضرائبها ... صفًا أُقيمت لشرع المصطفى حرَسَا
وكلُّ ذى أدبٍ يَبغى الكمالَ فَمِن ... عبدِ الحميد يَروم الإذنَ مُلْتَمِسَا
الشّاعرُ الفذُّ لو جاءت قريحتُه ... تُعارضُ العَارِضَ الهطَّالَ ما انْبَجَسَا
تَغدُو عَذارَى المعانى قيدَ خَاطرِهِ ... وطَالما امتنعتْ عن غيرِه شُمُسَا
مِن معدنٍ كُلُّه صافٍ ولا عجبٌ ... مِن تِلْكُم النَّفسِ نَلْقَى ذلك النَّفَسَا
إنّى أقولُ وخيرُ القولِ مُجْمَلُهُ ... لو جاءَ فى عصرِه الكِندىُّ ما نَبَسَا
هَذى طرابلسُ الفيحاءُ حافلةٌ ... تختالُ فى حُلَلٍ مِن عيدِه وكُسَا
عيدٌ لخمسينَ حَوْلاً قد تنَجَّزها ... فى خدمة اللغة الفُصحى صباحَ مَسَا
وقد أبَتْ غُربتى أنّى أرى وطنى ... وأنْ أُشاهِدَ فيه ذلك الغُرُسَا

وقد أرسلَ إلىّ السيد عبد الحميد الرافعى - رحمه اللّه - كتابَ شُكر أطال فيه من أجل هذه الأبياتِ ، وتُوفِّى بعدَ عيده المذكورِ بسنتين أو ثلاث - رحمه اللّه تعالى - وهو مِن أنجال الشيخِ العلاّمة الأستاذ عبد الغنى الرافعى الذى سبق ذكرُه .

(★) كتب إلىّ الأخُ العلاّمةُ الأستاذُ الشيخُ عبدُ القادر المغربى الذى أَصْلُ نَظْم هذه المقصورة كان فى موضوعِ تهنئتِهِ بزفافه يقولُ : إنِّى مرسلٌ إليك صورتَها عن النسخة التى عندى بخطِّ السَّيد رحمهُ اللّه ، وهى 129 بيتًا قرأها بنفسِه ليلةَ الزفاف فى طرابلس الشام فى ملأ من الناس فيهم شيخُنا العلاّمة حُسين الجسر ، وذلك سنة 1315هـ فى شهر ربيع الثانى ، وسافر هو إلى مصر فى شهر رجب من تلك السنة ، وقد وصف حكايةَ نظمِه لتلك المقصورة فى كتابه « المنار والأزهر » صفحة 184 .

لى أنْ أُتمَّها فى معارضة الدُّرَيْدِيةِ بإيداعها معانىَ كثيرةً من فلسفة هذا العصرِ وفُنونِ الأدب والاجتماع المناسبة له ولاِ سيما الإصلاحُ الإسلاميُ الذى وقفتُ كلَّ حياتى على السعى له ، ثم هاجرتُ إلى مصر لأجله فزادت على أربعمائة بيتٍ ، وقد ذكرتُ شواهدَ منها فى حواشى أسرار البلاغة فى طبعته الأولى سنة 1317هـ ، فلَّما قرأها محمودُ سامى باشا البارودى كبيرُ شعراء العصر أُعجبَ بها وسألنى عنَها فأنشدتُه بعضَها ، ففضَّلها على الدُّرَيْدِيَّةِ ، وطالبنى بطبعِها أو نَسْخِها له . ثم ذكرتُ شواهدَ أُخرى منها فى طبعتِه الثانية ، ونَشرتُ فى الجزء الأول من تاريخ الأستاذِ الإمام ما زِدْتُهُ فيها بعد وفاته من خُطَّتِه الإصلاحية فى الأزهر وما تمّ له منه (وهو فى ص567 و 568) ، ثم نَشرتُ فى ص978 إلى 982 ما قلتُه فى دعوة السيد جمال إلى الإصلاح وَوَصْفِ أعمالِه فى مصر . وتقدَّم فى الفصل الذى قبلَ هذا بعضُ القصة الغَرامية التى فيها .

وقد أنشدتُ محمدَ حافظ بك إبراهيم هذه القصةَ كلَّها وأبياتًا أخرى ، فقال : إنَّ القافية تساعدُك على هذا التطويل مع المتانة ، ولو أنك تَظْهَرُ بنظم الشعر لما كان لنا إلا أنْ نعكفَ على كُتب الفقه نشتغلُ بها . وعسى أنْ أَجدَ فرصةً أَشرحُ فيها غريبَ هذه المقصورة وأطبعُها . ولا أحبّ أنْ يُؤْثَر عنى من الشعر غيرُها إلا أنْ أجدَ مُسَوَّدَةَ القصيدةِ الشرقية وأنَقِّحُها والقصيدةَ الميميةَ التى مدحتُ بها السيدَ جمال الدين الأفغانى فى حياته ، وهى لا تَستغنى عن التنقيح وإنْ كانت منشورةً فى المجلد الثانى من المنار ، وكذلك مَراثى العلماء رحمهم اللّه تعالى ، على أنها كلَّها باكورةُ تلميذٍ ، لا مقصّدات خنذيذ[1] .

وأَذكرُ من صفة ذَوقى للشّعر أَنَّنى كنتُ أكره منه المتكلِّف والمجون وما يَقْرُبُ منه من وَصْفِ الشهوات وما هو صريحٌ فى التذكير بها حتى إنَّنى نَشرتُ فى المنار قصيدةَ الأستاذ الكبير الشيخ محمد محمود الشنقيطى البائية ، فاستبدلتُ منها بكلمة (المخلخل) كلمة (الرَّوادف) فعاتبنى عتابًا شديدًا ولم يقبلْ عُذرى بذوقى ووجدانى ، ولكنَّ الأستاذَ

(1) **المقصَّدات** : جمع مقصَّد ، وهو الوسَط المعتدل من حيث الشكل ، **خنذيد** : الشاعر المجيد المُنقِّح .

الإمامَ عَذرنى فى هذا ، وكان أكثر ما فى خِزانة الأدب لابن حُجَّة الحموى من الشواهد على أنواع البديع مما يَمُجُّهُ ذَوقى خلافًا لأدباء بلدِنا كلِّهم(★) .

قِسمُ المنثورِ مِن الخُطب والمقالاتِ والرسائلِ الشخصيةِ :

إنَّنى لم أكتبْ شيئًا بقَصْدِ المرون[1] على الكتابة وَتَكَلُّفِ الإنشاء ، ولم يُكَلِّفْنا أستاذُنا الجسرُ فى المدرسة الرجبية شيئًا من ذلك إلا مرَّةً واحدةً كتبَ كلُّ واحد من المحصِّلين خُطبةً فى الموضوعِ الذى اختاره ، فأنشأتُ خُطبةً وعظيَّةً مُسْجَعَةً لم أحفظ صورتها لأنَّنى تكلَّفتُ فيها السجعَ ، وهو مما يَكرُهه ذَوقى(★★) .

وكنتُ أنتقدُ خُطبَ الجمعة المدوَّنة ، ولما عرض لى أنْ أَخطبَ فى مسجدِنا أنشأتُ عدةَ خُطب سمّيتُ الأولى منها الخطبةَ الحديثية ، وأذكرُ أنَّنى بدأتُها بعدَ الحمدلة والشهادتين والصلاة على الرسول ﷺ وآله بما حاصلُه : أنَّنا - معشرَ المسلمين - نفتخرُ دائمًا بأننا أمة محمد خاتم النبيين ﷺ فأمَّا أمةُ دعوته فهم جميعُ البشر ، وإنَّما يَحِقُّ الفخرُ لأمة الإجابة منهم . ثم طَفِقْتُ أقولُ : هل تدّعى إجابةَ دعوتِه يا تاركَ الصلاةِ ، وقد لَعَنَ تاركَها

(★) الأستاذ المترجَم مصيبٌ إلى الغايةَ فى استهجانه التصريحَ بالسَّوْءات والألفاظ التى تَنبو عنها الأسماعُ وما إلى ذلك من التخيُّلاتِ الشعرية المخالفة للآدابِ الاجتماعيةِ ، وهو مذهبٌ شَريفٌ لم نجد ذا ذوقٍ سليم وعقلٍ قويم يُنازِع فيه ، وإنَّما حاد عنه كثيرٌ من أدباء العرب وشعرائهم ، وأورثوا الأدبَ العربى موضعَ ضعفٍ ومجالَ انتقادٍ بحقٍّ بحيث إنَّنا نقرأ كثيرًا فى كتب الأجانب من تقبيح هذا الأسلوب المَمْجُوج الذى يكثُر فى كتب العرب ، ولا نَقْدِرُ إلا أنْ نوافقَ على هذا . ومن غريبِ الأمور أنَّ الإفرنج والعرب فى هذا الموضوع على طَرَفَىْ نقيضٍ ، فالإفرنجُ يَتَحاشَوْنَ القولَ ويُجيزون العملَ ، والعربُ يتحاشَون العملَ ويُجيزون القولَ ، ولقد سبقتْ لى كِتابةٌ فى جريدة الشورى فى هذا الموضوع ذكرتُ فيها أنَّ الأفرنجى مثلاً لا يُمكنه أنْ يَذكرَ فى مجلس أو يكتبَ فى كتاب أو جريدة لفظةً بارزة عن ظلِّ الأدب ، حتى إنهم فى المجالس التى تكونُ فيها السيداتُ يَتحاشَونَ ذكرَ أىِّ شىء من أعضاء البدن المستورة فضلاً عن السَّوْءات والعوراتِ ، ولكنَّهم بمقابلة ذلك يَستخفُّون بعقد المآزر فى الحمامات ، ولا يَتَسَتَّرُونَ التَّسترَ الكافى عند الاغتسال ، وهذا بخلاف العرب الذين يَحتاط كلُّ إنسان منهم أشدَّ الاحتياط فى ستر ما يجبُ سترُه من بدنه ولو كان منفردًا ، فكأنَّه يخجلُ من نفسه إن لم يكن غرباءُ يخجلُ منهم ، ولكنَّه من جِهة ثانية قد تجدُه يتلفظ بالأسماء والأفعال التى إذا احتاج الأوروبى إلى التلفظِ بها لاذ فيها بالمعاريض وعدل إلى التورية ، وهو مذهبٌ يجب أنْ يكونَ عامًّا . وقد كنتُ أسمعُ أستاذنا الشيخَ محمد عبده ينتقدُ بشدّة استخفافَ بعضِ الناس بالأدب اللفظى فى مجالسهم وكتاباتهم ، والسيدُ المترجَم هو فى هذا على مَشْرَبِ أستاذه .

(1) **مرن الشىء** : لانت صلابته .

(★★) كان السيد المترجَم يَكره تكلُّفَ السجعِ ، ولكنَّه كثيرًا ما يَستعمل السجعَ إذا جاء عفوًا بدون تكلُّفٍ .

مِرارًا ، وقال « من ترك الصلاة فقد كفر جهارًا »[1] . هل تدَّعى إجابةَ دعوته يا مانعَ الزكاةِ ، وقد قال كيت وكيت ؟ هل تدّعى إجابة دعوته يا تارك كذا من الواجبات ويا فاعلَ كذا من المعاصى إلخ ؟ .

ولما أُنْشِئَتْ جريدةُ طرابلس برأى شيخنا الجسر وَنَظَرِهِ ، وكان هو رئيسَ تحريرها غيرَ الرسمىّ رَغَّبَنَا بأنْ نُنشىءَ مقالات يَنْشُرُها لنا فيها نتمرَّن بها على الإنشاء العصرىّ ، وخصّنى بالذكر فكتبتُ مقالاً فى فلسفة الأخلاق نشرَه فى أعداد متفرِّقة ، ولقبنى عند ذكر اسمى فى عُنوانه « بالأديب الأَريبِ » ولكنْ كان مِن تأثيرِ المقالِ أنْ فضَّله الناسُ على كلِّ ما يُنشر فى الجريدة لغةً وموضوعًا ، وانتقدوا عليه تفريقَ المقالِ وعدمَ إعطائى لقبَ (عالِم) على كونه كان يَشهد لى هو وغيرُهُ وقتئذٍ بأنّنى صرتُ عالِمًا حتى إنه ذكر لى هذا الانتقادَ عليه ، وأنه أجاب عنه بأنهُ خشى أنْ يُعَدَّ هذا منه فخرًا وتبجُّحًا بأولادِه !! وكان أغربَ ما سمعتُ بأُذنى فى شأن هذا المقالِ أنْ كنّا فى (متنَّزه التَّلِّ) مع جماعة من العلماء والأدباء ، فذكروا من الانتقاد على الأستاذ أنه فرَّقه فى أعدادٍ غيرِ متّصلَة على ما كان من استحسان الناسِ له والرغبةِ فى قراءته متصِلاً . فقال الأستاذ الشيخُ صالح الرافعى وهو تلميذ أستاذنا الشيخ حسين الجسر وابنُ أختهِ معتذِرًا عنه : إنَّ رشيدَ أفندى كتب هذه المقالةَ بقلمٍ أعلى مِن قلم الجريدة ، والشيخُ (يَعنى خالَه) يتحرَّى فى مقالاتِه العبارةَ البسيطَة القَريبةَ من أفهام العوام ، ففرَّق المقالةَ حتى لا يَظهرَ عُلوُّ قلمِها على قلم الجريدة . فعجبتُ وعجب الحاضرون من جواب الشيخ صالح وحرّيته الغريبة فيه ، وهو الذى قال فيه أستاذى وأستاذُه المذكور : إنه لم يأخذْ أحدٌ من أولادى أفكارى السياسية إلا صالح ورشيد . وقد نَشرتُ هذا المقالَ فى العددِ الرابع من سَنَةِ المنار الأولى فَلْيَقْرَأْهُ مَن شاء .

وكتبتُ قبلَه مقالةً موضوعها « الشرفُ » لم أنشرْها ، واتَّفق أنْ اجتمعتُ فى طرابلس بالخواجه إسكندر بك كاستفليس زعيم النصارى ووجيههم فيها – وكان قُنصلاً لدولتَىّ روسية وألمانيا معًا – فاتّفقَ أنْ ذكرَ معنى فى الشرفِ عَدَّهُ عاليًا أو طريفًا ، وكان مما تضمَّنته

---

(1) **انظر** : مواردِ الظمآن للهيثمى ، السلفية : 256 ، والترغيب والترهيب : (1/ 385) .

مقالتى ، فذكرتُ له ذلك ، وأخرجتُ المقالَة من جَيبى ، وقرأتُها له لئلا يَتّهِمَنى ، فأحبَّ أنْ يَسمعَ المقالَة كلَّها فقرأتُها له . فقال لى : كيف تكتبُ مثل هذا وتخفيه ؟ أعطنى هذه المقالَةَ لأرسلَها إلى بيروتَ وأنشرَها لك فى جريدة لسان الحال . فاعتذرتُ له بأنها تحتاجُ إلى تنقيحٍ ، فقال : إنّنا لما كنا فى سِنّك كنّا نضحى بأنفسِنا لأجل الشُّهرة والظهور فيما هو دونَ هذا .

وإنَّما امتنعتُ لأنَّ موضوعَ المقالة كان فى بيانِ آراءِ الناس فى الشّرفِ وغلطِ كلِّ فريقٍ منهم والحكمِ بعد ذلك بأنَّ الشرفَ الصحيحَ أو الرفيعَ هو ما بيَّنه الدِّينُ من التقوى والفضيلة . ذكرتُ هذا مجملاً ، ورأيتُ أنَّ الكلامَ لا يكونُ ناقصًا لتلك الأغلاطِ التى حكمتُ بها على اللائذين بالشرف الوهمىّ إلاَّ إذا كان مفصَّلاً بعضَ التفصيل ببيان كُلِّيات الشرفِ الرفيعِ ، فأخَّرتُه لأدرسَ هذه الكُلِّياتِ ، ولم يُتَحْ لى ذلك فى تلك الأيامِ كما كنتُ أريدُ .

وأما المكتوباتُ(★) الشخصيةُ فلا أذكرُ أنَّنى حَفِظْتُ صورةً مما كتبتُه منها قبلَ هجرتى

(★) كان الأستاذ المترجَم يجمعُ مكتوبًا على مكتوبات بِحُجّة أنَّ مفعولاً لا يُجمعُ على مفاعيلَ إلا فى ألفاظٍ معدودة . ولقد خالف هذه القاعدةَ كثيرون من كتاب العرب ، وتسامحوا فى هذا الجمع ، ولا تزال المسألةُ تحتَ البحث ، وقد سألتُ بعض مَن أثقُ بعلمِهم فى العربية عن آرائهم فى هذه المسألة فأجابنى منهم السيدُ تقىُّ الدِّين الهلالى المغربى بما يلى : الوصفُ المضاهِى لمكتوب فى الوزن إن كان لعاقل وجب جمْعه على مفعولين قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ [الصافات : 172] . وقال تعالى : ﴿ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ ﴾ [النازعات : 10] . وهو فى القرآن كثير . فإن كان لما لا يَعقلُ جمع بالألف والتاء كقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [البقرة : 203] . وقال تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ [البقرة :197] . وعلى هذا يتبيَّنُ أنَّ الصوابَ ما قاله السيدُ رشيدٌ مِن جمع المكتوب على مكتوبات ، وأصابَ الشنقيطى فى اعتراضه على مَن جمع مشهورًا على مشاهير . ولكنَّ العربَ قد جمعت مشؤومًا على مشائيم ، ووردت أُلَيفَاظ أخرى مثله ، وذلك نادر لا يُقاس عليه اهـ .

وأما السيدُ مصطفى جواد العراقى فأجاب بما يأتى : جمعُ مفعول على مفاعيل لما لا يعقل جائز مطلقًا - كما ذكرتم حفظكم الله - وجائزٌ عندى للكل من غير استثناء . وما انتحله المانعون له لا أصلَ له ولا عِلَّةَ فإنْ كان صورة الجمع هى المانعَ فلماذا قالوا للإنسان : « مساميح ومحاويج ومذاييع ومساعير ومساكير » ؟ وأذكرُ أنَّ بعضَهم كان إذا احتجَّ لمنعه ذكرَ كلامَ الشيخ إبراهيم اليازجى فى مَجلته من أن « مفاعيل » جمع تكسير وجمع التكسير لا يعملُ بل العمل لجمع التصحيح . وهذا من أوهام الشيخِ فإنَّ جمع التكسير يعملُ كالجمع الصحيح أبدًا ، ومنه قول الجاهلى :

وُقُوفًا بها صَحْبى علىَّ مَطِيَّهُمْ يَقولون لا تَهلِكْ أَسىً وتجمَّلِ

فإن « وقوفًا » جمعُ « واقف » اسم فاعل من « وقفه يقفه » و« مطىّ » مفعول به له . وقد نصَّ على إعمال =

إلى مصر ، وهو قليل ، إلا كتابى التاريخى الذى أرسلته من طرابلسَ إلى حكيمنا السيد جمال الدين الأفغانى فى أثر مجيئه إلى الآستانة ، وما زالت صورةُ مُسَوَّدَتهِ معى إلى أنْ نَشرتُها فى المنار ثم فى ترجمة السيد جمال الدين وعلاقتى به من تاريخ الأستاذ الإمام (راجع الجزء الأول من صفحة 84) وفيه ذكرُ ما كان له مِن الوقْعِ الحسَنِ عنَده ، وكتابًا آخرَ أرسلتُه من طرابلسَ إلى الشيخ سعيد أياس فى بيروتَ عقبَ تلاقينا فيها ، ذكرتُ فيه وصفَ الصديق ومَن يَستحقُّ هذا اللقبَ ، وشكوتُ إليه فيه أمَرَّ الشكوى من افتتان المسلمين بالألقابِ الرسميَّةِ أو العُرفية الخادعة والفخفخةِ الباطلة وإعراضهم عن الكمالِ الحقيقىِّ بخدمةِ الأمة . وأذكرُ أنَّنى نَشرتُه أو ذكرتُه فى المنار .

شُهد لى بالإجادة فى الكِتابة :

على أنَّنى على قلَّةِ ما اطّلعَ عليه الناسُ من آثارى القلمِّية قد اشتهرتُ فى وطنى بأنَّنى كاتبٌ مجيدٌ . ولما زار الأستاذ الإمامُ طرابلسَ سنة 1312هـ على ما أُرجِّحُ قال الأستاذُ الشيخُ خيرُ الدِّين الميقاتى لرفيقه أحمد فتحى زغلول إنَّ السيدَ رشيد أفندى أبلغُ كاتب عندنا ، ولا يَعْدِلُهُ أستاذٌ فى الإنشاء إلا فضيلةُ الأستاذ الشيخ محمد عبده أفندى . فقال له فتحى : كذلك الكُتَّابُ المجيدون عندنا فى مصر يَعترفون بأنَّه لا أُستاذَ لهم فى الإنشاء إلا الأستاذ أو السيد جمال الدين (راجع ص996 من تاريخ الأستاذ الإمام) وقد أخذ الشيخُ خيرُ الدين قولَه هذا من كثرة تنويهى بالأستاذ الإمام وبأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى حكيم الإسلام ، ولكنِّى لم أكنْ أفكِّرُ فى أنَّنى كاتبٌ مجيد ولا فى أنَّ لى أستاذًا فى الإنشاء .

والحقُّ أنَّ الرُّوحَ[1] الذى نفختْه (العُروة الوثقى) فى نَفْسِى كان له أقوى تأثير فى أسلوب كتابتى فى موضوعات العُروة وغيرِها . ولم يكن لمقامات الحريرى أدنى تأثيرٍ فى

= جمع التكسير الزمخشرى فى المفصل والشواهد على ذلك كثيرة . ولم يَتَصَدَّ أحدٌ لليازجى ويأخذُ عليه هذه الغلطةَ الكبيرة – فيما أعلم – حتى بقى النقّاد حتى يومِنا هذا يُعيدون كلامَه تمزُّنًا (اقتداء) به . وكلُّ إنسانٍ يَخطأُ . اهـ . وعلى هذا يكونُ جمع مكتوب على مكاتيب جائزًا .

(1) الرُّوح يذكَّر ويُؤنث .

ذلك ، وإنْ كان أُستاذُنا الجسرُ كلَّفنا حفظَها ، وكان يَقرؤُها دَرْسًا لنا لأجل ذلك ، وقد حَفِظْتُ خمسًا منها ، وأذكرُ أنَّنى كلَّمتُه مرةً فى ذلك بل ناقشته فيه(★) :

قلتُ له إنَّ أسلوبَ المقامات ليس أسلوبًا عربيًّا فى التعبير عن المقاصد ، وإنَّما هو أُسلوبٌ مصنوعٌ جُلُّ فائدتِهِ حفظُ الكثير من مفردات اللغة ، فَمِثْلُها كمثلِ مَن يَبنى دارًا فيجعلُ فوقَ بابِها نَقْشًا جميلاً يُعْجِبُ الناظرينَ بدقّة صناعته فى نقشه وألوانِه ، ولا يُمكن ولا يَليقُ أنْ يجعلَ جميعَ حُجُرات الدار ومرافِقها بهذه الصفةِ ، وإنه لخير لنا أنْ تَقرأَ لنا فى مكان المقامات الجزءَ الثالثَ من إحياء العلوم ، فأُسلوبُه بليغٌ فى النثر المرسَل ، ومباحثه العلمية والدينية أهمُّ وأنفعُ من مباحثِ مقامات الحريرىّ ، فلم يَقْبَلْ رأيى هذا ، فقلتَ له : وإنَّنى أرى مقاماتِ البديع(★★) أنفعَ لنا فى الاستعانة على مَلَكَةِ الإنشاءِ العربىّ من مقامات الحريرىّ لأنه أُسلوب عربىّ لا تكلُّفَ فيه ، فلم يَقبل هذا منى أيضًا . ثم إنَّنى فى أثناء المذاكرة مع الأستاذ الإمام فى الأدب والكتابة بمصرَ ذكرتُ له ما دار بينى وبين أستاذِى الشيخ محمد الجسر ، وسألتُه عن رأيه فيه فقال : « إنك أنتَ المصيبَ وإنَّ رأيى فى الحريرى أنه هو الرجلُ الذى أتقنَ التكلُّف » .

(★) لَسْنا على رأَى الأستاذ المترجَم فى هذه المسألة ، بل نحن فيها على رأى أستاذه الشيخ الجسر ، فإنَّ حفظَ النثر كحفظِ الشعر ضرورىٌّ لمن يُعانى صناعةَ الأدب ، وإنَّه لا يعرفُ الطالبُ مفرداتِ اللغة إلا من محفوظة ، وكلما حفظَ عن ظهر القلب من النظم والنثر اتسعت لغتُه وانفسحتْ طرقُ التعبير أمامه ، وقد يتردَّدُ الأديبُ فى صحة لفظة فيريدُ أنْ يُراجعَ كتبَ اللغة ليبحثَ عنها ، فإذا تذكَّرها فى ما يحفظُه من كلام الثِّقات استغنى عن المراجعة . ومقامات الحريرى هى مِن المنثور الذى حِفْظُهُ يُساعدُ الأديبَ كثيرًا على حفظ مفردات اللغة[1] .

(★★) لا جدالَ فى أنَّ البديعَ الهمذانى أعلى درجةً فى الإنشاء من الحريرىّ على فحولة هذا وكونه من أئمة النثر العربى . وَمزيَّةُ بديع الزمان على الحريرى هى عدمُ التكلُّفِ ، وإنَّ الفرق بين الاثنين هو كالفرقِ بين الكُحل والتَّكَحُّل . وإنى أرى مفيدًا جدًّا تحفيظُ طلبة الأدب من مقامات البديع ورسائله ، وقد كنتُ مِن عَهد حداثتى كثيرَ المطالعة لرسائل بديع الزمان الهمذانى وأبى بكر الخوارزمىّ ، أتلو تلك الرسائل المرَّةَ بعدَ المرة إلى أنْ استظهرتُ كثيرًا منها .

---

(1) لم يقصد الشيخ رشيد أن حفظ النثر عامة ليس مفيدًا ، ما لأحدٍ مثله أن يقول هذا ، وإنما موقفه هنا متجه إلى أن مقامات الحريرى لا تستحق هذا الجهد ، فأسلوبها فيه تصنُّع ، وموضوعها أقلُّ شأنًا من غيرها ، بدليل أنه اقترح بديلاً عنها تدريس الجزء الثالث من (الإحياء) لبلاغة أسلوبه ولفائدة مباحثه العلمية أو تدريس مقامات بديع الزمان لأسلوبها العربى غير المتكلف . ولعل أوضح دليل على صحة هذا الفهم لموقف الشيخ رشيد هو قوله للأمير شكيب نفسه : (ومزية بديع الزمان على الحريرى هى عدم التكلف) .

وجملةُ القول أنّنى كنتُ بعدَ التقدُّم فى طلب العلم أعلمُ أنَّ جودَةَ المقروء والمحفوظ تُفيدُ فى طَبع مَلكة الإنشاء إذ طالعتُ فى تلك الأثناءِ أكثرَ مقدّمة ابن خلدون ، ولكنَّنى لم أقرأ شيئًا ولم أكتبْ شيئًا بقصدِ أنْ أكونَ كاتبًا كما أنَّنى لم أقرأْ شيئًا مِن الشعر لأجل أنْ أكونَ شاعرًا ولا شيئًا من العلم لأجلِ أنْ أسمَّى عالمًا ، وإنما قرأتُ كلَّ ما قرأتُ بإلهام اللَّه تعالى وما فَطَرنى عليه من حُبّ الأدب والعلم لذاتهما أو لما فيهما من الجمال المعنوىّ ، فالكمالُ النفسىُّ والعقلىُّ ، فالاستعدادُ للقائه تعالى ومثوبته فى الدار الآخرة ، وهذا هو الذى غلَب علىَّ بعدَ قراءة (الإحياء) حتى إنَّنى لم أكنْ أحفظُ مع الطلبة ما يحفظونه عند الاستعدادِ للامتحان السنوىّ الرّسمىّ لأنَّنى كنتُ أَعُدُّهُ من طلبِ العلم لغير اللَّه تعالى كما قلتُ من قبلُ ، وإنَّما هذه وسوسةٌ لا يَنبغى لأحد أنْ يَتَّبِعَنى فيها . وأما استعدادى لتحرير المنار فَيُعلم مما يلى :

كتابُ : الحِكْمَةِ الشَّرْعِيَّةِ فى محاكمة القادرية والرفاعية

عَرَضَ لى فى أثناء طلبى للعلم باعثٌ قوى وحافزٌ وجدانىّ لتأليفِ كتابٍ كبير فى كثير من المباحث الدينية والاجتماعية ذاتِ الشأن العظيم فى الإصلاح الإسلامى ، فكتبتُه فى أوقات الفراغ بسرعة غريبة ، فكان هو التمرُّن القلمىَّ الوحيدَ الذى أعدَّنى للاضطلاع بإنشاء المنار من حيثُ لم أقْصِدْ به التمرُّنَ ولا الاستعدادَ لشىء ، بل بيانَ ما أعتقدُ أنَّه الحقُّ الذى يجبُ أنْ يُعْلَمَ .

ذلك أنَّ الشيخَ محمدًا أبا الهدى أفندى الصيادى[1] المشهورَ طَبَعَ كُتبًا كثيرةً فى الآستانة ومصرَ وبيروتَ بثّ فيها دِعاية واسعةَ النطاقِ لنفسه وأهل بيته وللشيخ أحمد الرفاعىّ الصوفىّ الشهير والمنتمين إليه نسبًا وطريقةً تَتَضَمَّنُ تفضيلَه على الشيخ عبد القادر الجيلانى وغيرِه من الأولياء لمباراة كيلانية بغداد وحَماة فى الجاه ؛ إذ نالوا بالانتساب إلى الشيخ عبد القادر مقامًا رفيعًا وجاهًا عَريضًا فى العالم الإسلامى كلِّه .

---

(1) هو **محمد بن حسن وادى بن على بن خزام الصيادى** (1266 – 1328 هـ) ، ولد فى خان شيخون من أعمال حلب ، رحل إلى القسطنطينية واتصل بالسلطان عبد الحميد فقلَّده مشيخة المشايخ ، ولما عزل السلطان عبد الحميد نُفى المترجم إلى جزيرة الأمراء فى رينكيبو ، وتوفى بها . (معجم المؤلفين : 3/ 241) .

وقد رأيتُ فى هذه الكتبِ كثيرًا من الأباطيل فى الدين والتصوف والتاريخ ، فكتبتُ فى الردِّ عليها مصنَّفًا كبيرًا أسميتُه بما ذكرتُ فى العُنوان ، واستطردتُ فيه إلى تحقيقِ مسائلَ كثيرةٍ من الإصلاح .

(منها) أصلُ التصوف ، وأطوارُه وما انتهى إليه عندَ أهل الطرائق التى تَدَّعيه فى هذا العصر ، وتقاليدُهم وعاداتُهم وأزياؤهم ، وما يُخالف الشرعَ منها .

(ومنها) مسألةُ الزِّىِّ فى الإسلام ، ما يَحِلُّ منه وما يَحْرُمُ وما يُكْرَهُ وما يُباح وما يَفْضُلُ غيرَه بمنافِعِه أو زينتِه ، وما ينبغى للمسلمين فى الاجتماع والسياسة من كونِهم قدوةً متبوعينَ لا مقلِّدين تابعينَ .

(ومنها) مسألة تَشَبُّهُ المسلمين بغير المسلمين فى الأمورِ الدينيّة وغيرها من العادات والماعون والأثاث وآلات الحرب وسلاحه ما فيه مِن مضارٍّ ومنافعَ .

(ومنها) مسألة المهدى المنتظر وما حدث بسبب اعتقاده من الفتن والحروب ، وما كان ينبغى للمصلحين أنْ يَتوسَّلوا به إلى الإصلاح والقوةِ بدلاً من الاتكال على ما ينتظرونه منه .

(ومنها) مسألة الخطابة التى شُرِعَتْ فى الإسلام للإصلاح العام فى السياسة والأخلاق والآداب ، وما يختلفُ منها باختلاف الأحوال والأحداث والأطوار ، فجعلها الخطباءُ الرسميُّون تقليدًا صُوريًا كالعادات حتى فَقَدَتْ مَلَكَتَها ، واكتفى أهلُها بأداء الواجب فى الجمعة بخطب مدَّونة يَحفظُونها حفظًا أو يَقرأونها فى القراطيس قراءةً غير مؤثِّرة ، ولا تكادُ تتجاوزُ موضوعاتُها مدح الشهورِ والمواسم الشرعيّة والبدعية والتذكيرَ بالموت والتزهيد فى الدنيا بدعوى أنَّها منافيةٌ للدِّين أو مضادَّة له ، وبيَّنتُ ما ينبغى من الاستعداد للخطابة الارتجالية وجعل الخُطَبِ بحسب الحاجة إلى إصلاح الأمور العامة كلِّها فى الأمة والدولة .

(ومنها) مسألة الكرامات ، حقيقتُها والخلافُ فى جوازِها ، ووقوعُها ، وأنواعُها والحقيقىُّ والصورىُّ منها ، وما دخل من بابها على الأمة من الخرافات والفتن ، وقد

استغرق هذا البحثُ عِدَّة كراريسَ كانت مادتَنا فيما نَشرناه فى مجلَّدات المنار من مباحثِها وتأويلها .

فهذا الكتابُ الذى يَزيد على مجلَّدٍ كبيرٍ من مجلَّدات المنار كان خيرَ استعداد غير مقصود لتوجُّه الفكرِ بعدَه إلى إنشاء صحيفة للإصلاح الدّينىّ ، وقد نشرتُ بعضَ مباحثه فى المنار منذُ السنة الأولى ، ومنها مقدِّمتُه التى وصفَ الأستاذُ الإمامُ رحمه اللَّه إنشاءَها لَمَّا قرأها بقوله « أسلوبٌ رفيعٌ » على ما عُلِمَ من عادته فى التعبير عمَّا يَستحسنه مِن مقالات الجرائد بكلمتِه العرفية المصرية « موش بَطَّال » وكانت هذه الكلمةُ منه تَغيظُ الكاتبَ البليغ إبراهيمَ بك المويلحىّ عندما يُطلقها على بعض مقالاته الأنيقة ، ولكنَّه كان إذا بلغَ منه الإعجابُ مبلَغَه الأقصى من مقالة قال فيها « طيبة » .

وأذكرُ أنَّنى قرأتُ هذه المقدمةَ فى بيروتَ قبلَ هجرتى إلى مصرَ للعالِمِ التقى الحرِّ الشيخ مرتضى الجزائرى(★) فبالغَ فى إطرائها والدعاءِ لى ، وقال إنَّ هذا ليس فى استطاعتِك ، وإنما استعمَلك اللَّه بقدرته (أو إلهامه) واستشهد بحديث : « **إذا أحبَّ اللَّه عبدًا استعملَه** »[1] .

ومُسَوَّدَةُ هذا الكتاب محفوظةٌ عندى ، وقلَّما يُوجد فيها ترميجٌ (شطب) فى منثور أو منظوم لأنَّنى اعتدتُ من أولِ أمرى أن لا أخطَّ الجملةَ أو البيتَ من الشعر إلا بعدَ تمامِ التصوُّر الذى أراه صحيحَ اللفظ والمعنى . ولما اطَّلَعَ قُرَّاءُ المنار على مقدمتِه وغيرِها مما نشرتُه منه كبحث الأزياء والكرامات اقترح علىَّ كثير منهم طبعَه ، وعرَضوا علىَّ الاشتراكَ فيه ، فامتنعتُ لأنَّ فيه كثيرًا من المسائل الجدليّة فى الردِّ على الرفاعية وعبارات الكتب التى نشرَها الشيخ أبو الهدى أفندى مما لا تُوازى فائدتُه الدائمةُ إضاعةَ الوقت

(★) السيدُ **مرتَضى الحسنى الجزائرى** هو ابنُ أخى الأمير عبد القادر الجزائرى كان عالمًا مترسِّلاً كاتبًا لَبثَ مُدةً فى بيروتَ ، وكانت جريدة « بيروت » لعبد القادر أفندى الدنا تَنْشُرُ من مقالاته ، وكان صالحًا مُتصاونًا قانعًا محبًا للعزلة ، وكنتُ أزورُه فى الأحايين ، وصادف أنَّه سكن فى بيت يُقال له بيتُ الغول ، ثم أراد تغييرَ سكنه منتقلا إلى رأس بيروتَ ليُشاهدَ دائمًا البحر ، فوجدوا له بيتَ مُرْعِبِ ، فَضَحَكَ وأنشدَ :

مـا زِلـتُ فـى بـيروتَ أَنقُـلُ غُـربَتِـى ... مـا بـيـنَ مَـنـزلِ غـولِـهـا والـمُـرْعِـب

(1) أخرجه الترمذى رقم (2142) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

بتنقيحِه ونشرِه . وقد رجعتُ عن رأيى فى بعضِ مسائله على أنّنى كنتُ أُطْلِعُ بعضَ ثقات العلماء فى طرابلسَ عليها فَتلاقَى من ثنائهم وإعجابهم ماتَلاقَى ، إلا أنَّ شيخَنا الجسرَ قال لى فى بعضِها إنها خَلاَّبةٌ قَلَمِيَّةٌ يُوشك أنْ يوجدَ عندَ الخصم مِن تمكُّنه قوة القلم من الرد عليها بمثلها .

وقد كان صديقُنا الشيخُ السيدُ عبدُ الفتاح الزعبى أخبر الزعيمين الكبيرين مِن آله(★) السيدَ سلمان الكيلانى نقيبَ بغدادَ وأخاه السيدَ عبدَ الرحمن المحض - خبرَ هذا الكتابِ قبلَ هجرتى إلى مصرَ فَطلَبه الثانى لطبعِه فى الهند فلمْ أسمحْ بإرسالِه إليه لِيطبعَ حيثُ لا أُصحِحُه رحمهم اللّه تعالى . اهـ .

هِجرتى إلى مصرَ

تلكَ خُلاصةُ تَرجمتى وما انتهيتُ إليه فى وطنى من تربيةٍ صوفيةٍ وتعليم استقلالىٍّ وآثارٍ قَلَمِيَّة وشهرة علميّة وأدبيّة أَشعرتْنى بأنَّنى مستعدٌّ لاستزادة من العلم والاختبار لا أجدُهما فى وطنى ، وأنَّنى قادرٌ على خدمة دينى وأُمتى بما لا تُبيحه سياسةُ الحكومة فى بلادى ، فَعَزَمْتُ على الاتصالِ بالسيدِ جمالِ الدين لتكميل نفسى بالحكمة والجهاد فى خِدمة المِلّة كما صرحتُ به فى الكتابِ الذى أرسلتُه إليه وهو فى الآستانة ، فلمَّا توفَّاه اللّه تعالى إليه ، وَاشْتُهرَ أنَّ السياسةَ الحميديةَ هى التى قَضَتْ عليه(★★) ، ضاقت علىّ المملكةُ العثمانيةُ بما

(★) الشيخُ السيدُ **عبدُ الفتاح الزعبى** نقيبُ أشراف طرابلس الشام فى وقته ، وهو من فروع الشجرة الكيلانية التى فُروعها كثيرةٌ فى القطر الشامى ، ومنها بنو الزعبى الكيلانى فى طرابلس الشام وبنو الزعبى الكيلانى فى حُورَان ، وهم هناك عشيرةٌ كبيرة تبلغُ بضعةَ عشَر ألفَ نسمةٍ ، ومن الكيلانية جماعة فى نابلس ، كان منهم السيد وجيه الكيلانى الذى أرسلَتْهُ الدولةُ العثمانية بناءً على طلب حكومة أمريكا مُرْشِدًا لمسلمى جزائر الفيليبين ، ثمَّ أصابتْه عِلَّةٌ تُوفِّى بها بعدَ رجوعِهِ من تلك الدِّيار ، وكان صديقًا لى رحمه اللّه ، وطالما حدَّثنى عن مسلمى الفيليبين وعمَّا هُم فيه من الجهلِ والافتقار إلى الإرشاد . وأمَّا السادةُ الكيلانيةُ فى حماة فإنَّ بيتهم الكريمَ أشهرُ من أنْ يُذكرَ ، ولا يزَال فيهم رُؤساءُ تزدانُ بهم مدينةُ حَماة من قديم الزمان ، وواسطةُ عِقدهم اليومَ هو السيدُ عبدُ القادر حسنى الكيلانى صديقى ورفيقى فى مجلس النّواب العثمانى ومن أماثل (خيار) الرجال المعدودين فى سورية كلِّها .

(★★) قد تَرجمنا السيدَ **جمال الدين الحسينى الأفغانى** ترجمةً وافية فى (حاضر العالم الإسلامى) وفيها كيفيةُ مَرضه وموته - رحمه اللّه - وعَوَّلنا فى خبرِه على أوثق المصادر وعلى ترجمتِه بقلم كبير تلاميذه الشيخ محمد عبده وعلى ما عرَفناه نحن منه شخصيًا . فمن شاء فَلْيُرَاجِعْ تلك الترجمة فى (حاضر العالم الإسلامى) ، أو فَلْيُرَاجِعْ ترجمةَ الشيخ محمد عبده للأفغانى المصدرة بها رسالةُ السيد جمال الدين فى الردِّ على الدهريينَ .

رَحُبَتْ ، وَعَزَمْتُ على الهجرة إلى مصرَ لما فيها مِن حريّة العملِ واللسانِ والقلمِ ، ومِن مَناهِلِ العلم العذبةِ المواردِ ، ومِن طرقِ النَّشر الكثيرةِ المصادرِ . وكان أعظمُ ما أرجوه من الاستفادة فى مصرَ الوقوفَ على ما استفاده الشيخُ محمد عبده من الحكمة والخبرة وخُطة الإصلاح التى استفادها من صحبة السيد جمال الدين ، وأنْ أعملَ معَه وبإرشاده فى هذا الجوِّ الحُرِّ .

ولما يَسَّرَ اللَّه لى أسبابَ السفر ، وَرَضِى لى به الوالدانِ - رحَمهما اللَّه تعالى ورضِى عنهما - كتمتُ الخبرَ حتى لا يبلغَ رجالَ الحكومة فى طرابلسَ ، فأعطيتُ كلَّ ما أُريدُ حملَه مِن متاعٍ لفرح أفندى أنطون الأديبِ المشهورِ فى طرابلس[1] للاتفاقِ على أنْ نُسافرَ معًا فى باخرةٍ واحدةٍ ، ومنه شهاداتُ العلماءِ لى بالعالمية والإذن بالتدريس التى تُعفينى من الخدمة العسكرية مع شهاداتِ الامتحاناتِ الرسميّة . وذهبتُ إلى بيروتَ منفردًا فأخذتُ منها جوازَ السفر إذ كان (ناظرَ النفوس) فيها صديقى الأستاذُ الشيخُ صالحُ الرافعى ، وهو رئيسُ هذه المصلحةِ ، ولم أُكاشفْ بهذا السفرِ فى بيروتَ غيرَه إلا الأميرَ شكيبَ أرسلان وعبدَ القادر أفندى القبانى[2] الشهيرَ صاحبَ جريدةِ (ثمرات الفنون) أقدم الجرائدِ الإسلامية فى سورية ، وكان صديقَ الأستاذِ الإمامِ منذُ كان منفيًّا فى بيروتَ ، وكانت جريدتُه (ثمرات الفنون) هى التى تنشرُ آراءَه وأفكارَه ومقالاتِه كما بينتُه فى الجزء الأول والثانى من (تاريخ الأستاذ الإمام) . وقد اتفق الثلاثةُ على أنَّ والى بيروتَ إذا علم بأنّنى أريدُ السفرَ إلى مصرَ فإنه يَمنعنى منه ، فأوصانى كلُّ واحد منهم أنْ أكتمَ الخبرَ .

وعرَض علَّ عبدُ القادر أفندى القبانى أنْ أُقيمَ فى بيروتَ وأَتَوَلَّى رئاسةَ التحرير

---

(1) هو **فرح بن أنطون بن إلياس أنطون** (1291 - 1340 هـ) ولد فى طرابلس الشام وانتقل إلى الإسكندرية 1897م ، وسافر إلى أمريكا 1907م ثم عاد إلى مصر ، وتوفى بالقاهرة . من أشهر أعماله (مجلة الجامعة) ست مجلدات . (**انظر** : تراجم علماء طرابلس : 277) .

(2) هو **عبد القادر بن مصطفى بن عبد الغنى القبانى** ، صحافى ، من أعيان بيروت (1264 - 1354هـ) مولده ووفاته بها ، أصدر جريدة (ثمرات الفنون) أسبوعية مدة 33 عامًا ، وهو من مؤسسى جمعية (المقاصد الخيرية الإسلامية) الشهيرة . (الأعلام : 4/ 46) .

لجريدته إذ أخبرتُه بعزمى على إنشاء صحيفة إصلاحية فى مصرَ ، فقلت له إنَّ الحريةَ التى فى بيروتَ لا تَسعنى ، فقال : أَوَ تُريدُ أنْ تَنتقدَ جلالةَ السلطانِ عبدِ الحميد أو تَخُوْضَ فى سياسته ؟ قلتُ إنَّما أريدُ إصلاحَ الأخلاقِ والاجتماعِ والتربيةِ والتعليمِ ، قال : إنَّ لك أوسعَ الحريّة فى هذا ، قلتُ : إذا أردتُ أنْ أكتبَ فى فَضيلة الصدقِ ومضارِّ الكذبِ ومفاسدِه فأبينُ أنَّ أكبرَ أسبابَ فُشُوِّ الكذبِ فى الأمم الحكمُ الاستبداديُّ أَتنشرُ لى ذلك جريدتكم ؟ قال : لا . لا . عجِّلْ بالذّهابِ إلى مصرَ ولا تُخبرْ أحدًا . وهذا الرجلُ لا يَزالُ حيًّا . وكان هذا فى أوائل رجبَ سنة 1315هـ الموافقِ سنة 1897م .

ولما حضرت الباخرةُ التى نزَل فيها رفيقى فرحُ أفندى مِن مِيناء طرابلسَ إلى بيروتَ نزلتُ إليها فى زَورقٍ مع الأستاذِ الشيخِ صالحِ الرافعى ناظرِ النفوس ، وليس شىءٌ معنا يدلُّ على إرادتى السفرَ . وقد تساءل رجالُ الشِّحْنَةِ (البوليس) الذين يُفَتِّشونَ المسافرينَ عنِّى ، فقيلَ لهم هذا ضيفٌ طرابلسى عند ناظر النفوس . ولما استقرتْ قَدمى فى الباخرة تَنَفَّسْتُ الصُّعدَاءَ ، وحمدتُ اللَّه تعالى أنْ منَّ علىَّ بالخروجِ من تلك البلادِ وأنجانى من ذلك الوباءِ . وقد اتصلتُ بالأستاذِ الإمامِ من أولِ يومٍ طلعتْ علىَّ فيه شمسُ القاهرة ، وكان من أمرنا فى التعاون على إصلاحِ الأزهرِ ما أجملتُه فى مقدِّمة هذا الكتابِ ، وفصَّلتُه فى تاريخه[1] تفصيلاً .

فَعلِمَ مما تقدَّم أنَّى جئتُ مصرَ مستعدًّا لهذا الإصلاح ، كأنَّنى خُلقتُ وتَعلمتُ ورُبيتُ لأجله ، وكان أولَ ما علَق[2] بذهنى من تقصير علماء الدين وحاجتهم إلى الإصلاح ما قرأتُه فى كتاب (الإحياء) للغزالى من التفرقة بين علماءِ الدنيا ، الذين يُلَقِّبُهم بعلماء السُّوء ، وعلماءِ الآخِرة ، وشرُّهم الذين يتقرّبون إلى الملوك والأمراء ، وبينَ العلوم المحمودة والعلوم المذمومة ، ثم ما استفدتُه من شيخِنا الجسر من حاجة علماء الدِّين إلى معرفة علوم العصر ، وعدمِ إمكان الدفاع عن عقائد الإسلام وشريعته بدون ذلك ، ثم ما استفدتُه من جريدة (العُروة الوثقى) من تَوَقُّفِ نهضةِ الإسلام ودفعِ

---

(1) يقصد كتابه الذى ترجم فيه الأستاذ الإمام **محمد عبده** (تاريخ الأستاذ الإمام) .
(2) هنا ذكر الشيخ رشيد المصادر الأساسية التى شاركت فى تكوينه العلمى .

دُولِ الاستعمار عن مُلْكِهِ واستعادةِ ما سلبوه منه على نهضةِ علماء المسلمين بالدَّعوة إلى ذلك ، ثم ما استفدتُه من كتبِ التاريخ القديم والحديث ولا سيما الحكيمُ ابن خلدون وتاريخُ جودت باشا الوزير التركى الشهير ، واستفدتُ اختبارًا كثيرًا وعلمًا بحالة هذا العصرِ من مذاكراتى لأدباءِ النصارى الأحرارِ ولدعاةِ الدِّينِ (المبشرين) التابعينَ لجمعية الولايات المتحدة الأمريكية والاطِّلاعِ على كتبهم وجرائدِهم ، ومن مطالعة مجلتَى (المقتطف) و (الطبيب) منذُ طلبِ العلم ، ولا أزالُ أُطالعُ (المقتطف) ما وجدتُ له فراغًا .

ثم كان ما استفدتُه بعدَ ذلك مِن الأستاذ الإمام وغيرِه ومِن معرفة الأزهر بنفسى مادةً عظيمةً لما أَقصِدُهُ من إنشاء المنار ، ولا أزالُ أزدادُ علمًا واختبارًا فى كلِّ يوم أستعين بهما على خدمتى للأزهر وسعيى لإصلاحِه فى كل وقت بما يُناسبه ، وإنِّى لأراهُ فى هذا العهدِ أشدَّ حاجةً إلى الإصلاح منه فى كلِّ وقت .

الحاجةُ إلى هذه الترجمة

هذه خلاصةُ ترجمتى فى نشأتى وتربيتى وتعليمى وتصوُّفى التى أعدَّنى اللّه تعالى بها لإنشاء المنار وللتصدِّى للإصلاح الإسلامىِّ العام حَكَيْتُ بعضَ ما تذكَّرتُه منها حكايةً تاريخية ساذَجةً ، ولم يكن يَخْطِرُ ببالى أنْ أكتبَ شيئًا منها قبلَ الشروع فيها للسبب العارضِ الذى ذكرتُه ولا أنْ أُطيلَ فيها عُشْرَ هذه الإطالة . ثم تذكَّرتُ أنَّها من مادةِ تاريخِ الإصلاح الإسلامىِّ فى هذا العصرِ لأنَّنى - بفضل اللّه - قد صرتُ مِن رجالِه الذين لهم فيهم أثرٌ قد يَذْكُرُهُ مؤرِّخوه ، ويبحثون فى أسبابه من جميع نواحيها ، فلا يجدون فى قرية القلمون حيثُ وُلدتُ ونَشأت ولا فى طرابلس حيثُ تعلَّمتُ أحدًا يَرويها لهم فقد كاد يَنقرضُ الجيلُ الذى يَعرفها فيهما ، وأعلمُ الأحياء بها عمِّى السيد محمد كامل العابدُ الزاهدُ القُدوة ، وهو من شهداء اللّه على خلقِه ، ولم يَكتبْ من تاريخ بيتنا شيئًا ، ولا يَطوف بنفسِه طائفُ الشعور بالحاجة إلى هذه الكتابة . ولو وَجَدَ داعيتَها قبلَ شيخوخته لكان قادِرًا عليها ، وقد ذكرتُ فيما سبقَ أشهرَ أسماءِ مَن بقى من العارفين بها ، وممن

فاتنى ذكرُه منهم صديقى العلاّمةُ الفقيهُ الشاعرُ الأديبُ الشيخُ إسماعيلُ الحافظ[1] ، وقد كان صديقى السيدُ عبدُ الحميد الزهراوى[2] نادرةَ الزمان كتبَ مقالاً فى وصف نشأتى ، ونَشَرَهُ فى بعض الصحف لا أدرى أيُّها : الجريدة أم المؤيد أم الحضارة ؟ وكان من زُهدى المعيب فى نفسى أنّنى لم أحفظْ نُسخةً منها .

وأمّا سيرتى الشخصيةُ والاجتماعيةُ فى مصرَ فيعرفُها مجملةً أو متفرِّقةً كثيرٌ من أصدقائى وتلاميذى ، وإنَّ أعلمَهم بها وبسيرتى السياسية الإسلامية والعربية والمنزلية ابنُ عمىِّ السيد عبد الرحمن عاصم لأنه يعيشُ معى من زُهاء ربع قرن . على أننى كنتُ وما زلتُ أكتم أكثر أعمالى التى يُمكن كتمانُها ، وقد كتبتُ قليلاً من المذكِّرات فضاعَ بعضُها ، ويُمكننى كتابةُ سِفرٍ كبير من أعمالى السياسية وحدَها .

ولكنَّ المذكراتِ والوثائقَ الخاصةَ بجماعة الدّعوةِ والإرشادِ ومدرستِها محفوظةٌ كلُّها ، ما كان منها فى الآستانة وما كان فى مصرَ ، وفى كلٍّ منهما عِبرٌ للمسلمين فى وُزرائهم وأُمرائهم وغيرِهم . وفى مجلَّدات (المنار) و (تاريخ الأستاذ الإمام) مادةٌ غزيرة لهذه الترجمة .

وقد طلبت منى إحدى الجمعيات العلمية فى شيكاغو ترجمةَ حياتى غيرَ مرّةٍ فلم أكتبها لها زَاهِدًا فى الشهرة . وألَّفَ أحدُ علماء الأمريكان المستشرقين اللاهوتيين[★] كتابًا باللغة الإنجليزية موضوعُه « الإسلامُ ورُوحُ العصر بمصرَ » (Islam and modernism in Egypt) جعل فصولَه الأولى فى ترجمة حكيمَينا الإمامَين المصلحَين

---

(1) هو **إسماعيل بن أحمد الأحمدى** (ت 1228هـ) فقيه طرابلس ومحدثها فى عصره ، مولده ووفاته بها ، تعلم فى الأزهر ، وجاور بمكة ، وعاد إلى طرابلس فعكف على التدريس والإفتاء . (**انظر** : علماء طرابلس : 254) .

(2) هو **عبد الحميد بن محمد شاكر بن إبراهيم الزهراوى** (1272 - 1334هـ) ولد بحمص وسافر إلى الآستانة ثم نفى إلى دمشق ثم أعيد إلى الآستانة ثم أعيد إلى حمص ، وفرّ إلى مصر ثم عاد إلى سوريا ، وانتخب مبعوثًا عن (حماة) ، وانتخب رئيسًا للمؤتمر العربى فى باريس ، ثم أقنعه الاتحاديون ، وذهب إلى تركيا وعين عضوًا فى مجلس الأعيان ، ثم حكم عليه بالإعدام شنقًا فى ديوان عاليه العرفى . (مجلة المنار : 19/ 169 - 181) .

(★) هو المستر **تشارلس أدمس** الدكتورُ فى الفلسفة واللاهوت بالإرسالية الأمريكانية (هذا نسب على غير القياس ، وقياسه أمريكى) بالقاهرة . (هذه الحاشية فى الأصل) .

السيدِ جمال الدِّين الأفغانى والشيخِ محمدِ عبده المصرى ، اقتبس أكثرَ مادتِها من مجموعة مجلَّدات (المنار) يَليها فصلان فى ترجمة صاحبِ (المنار) ، وفى خُطة المنار نفسِه تُرْجِمَ لى بعضُها بالعربية فرأيتُه يتحرَّى فيه الصدقَ فى التاريخ ، وهو قد قدَّمه إلى مَدرستِه التى تخرَّج فيها ، فنال به شهادةَ علم اللاهوت الذى صار به داعيةً للنصرانية على مذهبِه البروتستانتىّ ، وقلَّما عرَفتُ أحدًا من هؤلاء المبشِّرين يتحرَّى الصدقَ[1] .

أَهَمُّ ما فى هذه الترجمةِ من العِبَرِ

إنَّنى أُذَكِّرُ قارئَ هذه الخلاصةِ من طُلاب العلومِ الدينية والميَّالين إلى الإصلاح الإسلامى بمسائلَ مجملةٍ منها ، عسى أنْ ينتفعَ بها المستعدُّ لها ؛ ولهذا أقتصرُ على الكسبىّ منها دونَ الوراثىّ والوهبىّ ، وإنْ كان بعضُ ما يُكتَسب عادةً بإرشاد المربى والمعلِّم أو بفهم المتعلِّم قد كان عندى أَشبَهَ بالوهبىّ الإلهامىّ إذ لم يُعْنَ والدى ولا غيرُه من أساتذتى بتوجيهى إلى وُجهة معيَّنة فى العلم ولا فى العملِ ولا الاستعدادِ للمستقبل . وقد تذكَّرتُ فى هذه الدقيقةِ كلمةً لمتر متشل إنس الذى كان وكيلاً للمالية بمصرَ ، وكان هو الرجلَ الوحيدَ الذى عاشرتُه وكثُرَ اجتماعى به ومذاكرتى له من الإنجليز فى مصرَ ، وكان الأستاذ الإمام هو الذى عقدَ صلةَ التعارف بينَنا لأسباب ظهرتْ لى بعدُ ، وبينتُ بعضَها فى تاريخ الأستاذ الإمام . وكان هذا الرجلُ من أشدِّ الإنجليزِ بل الناسِ استقلالاً فى فكرِه وحريَّةً فى رأيه ، وهو لا يَزال حيًّا فى بلادِه ، وقد قال كلمتَه هذه بعدَ طول الخبرة والبحث معى فى المسائل السياسية والدينية ، ورأى منّى ما لم يعهدْه فى مصرَ من الحرية والاستقلال والشجاعة وعزَّةِ النفْس ، وهى : يَظهرُ أنَّ والدَك قد عُنى عناية خاصة بتربيتك وتعليمِك فوقَ ما هو معهودٌ ومعروفٌ فى الشرقِ . . . وقد نقلتُ عنه فى المنار أنَّه صارحنى ثلاثَ مرَّات بأنَّه إذا كان الإسلام ما أُمثلُه أنا والشيخُ محمد عبده فهو مسلم .

والحقُّ أنَّنى لا أعرف شيئًا من عناية والدى الخاصة بى إلا ما ذكرتُ من كراهتِه

(1) هذا هو الطابع العام المعروف عن المستشرقين ، وراجع (أباطيل وأسمار) للأستاذ محمود شاكر .

لإقامتى فى طرابلسَ لطلب العلم قبلَ بلوغى سنَّ الرُّشدِ وثقتِه التامةِ من دِيانتى وأخلاقى خشيةَ أنْ تعبثَ بى معاشرةُ أهلِ الهزل والمجون فى المدينة (البَنْدَر)[1] ، وليست هذه المِنةُ بقليلةٍ ، فرحَمه اللَّه تعالى رحمة واسعة .

وهذا ما أُريد الاعتبارَ به مما ذكرتُه فى هذه الترجمةِ تحدُّثًا بالنعمة وتذكيرًا بمواضعِ العبرة :

أَهمُّ الفوائدِ والعِبر لِطُلّاب العلمِ الدينىّ مِن هذه الترجمةِ

1- طولُ المُكْثِ فى المدارسِ ضارٌّ :

كتب لى أستاذُنا العلّامةُ الشيخُ حسينُ الجسر فى شهادة العالِمية أو (إجازة التدريس) أنَّنى طلبتُ العلمَ عنده ثمانىَ سنينَ ، تلقيتُ فيها المنقولَ والمعقولَ إلخ (وكنتُ فى هذه المدةِ أتلقَّى عن غيرِه أيضًا) ، والعبرةُ فى هذا أنَّ طولَ مدةِ التلقِّى والأخذِ عن المعلِّمين لعلوم وفنون قليلة كالعربية والشرعية تُضعفُ فى الطالب مَلَكَةَ الحُكْمِ والاستقلالِ فى العلم ، وتَحصُرُ عِلْمَهُ فيما يسمعُ ويقرأُ حتى لا يكادُ يجدُ غيرَه فيما يُقرِّرُ أو يُملى أو يُصَنِّفُ أو يُفْتى ، ومن كان هذا كلَّ علمِه فلا علمَ له ، وإنَّما هو يَنْقُلُ ما عندَ غيرِه : علمًا كان أو ظنًّا ، حقًّا أو باطلاً ، خطأً أو صوابًا .

وقد قال لى الأستاذُ الإمامُ عند ما عَرَضْتُ عليه أنْ يكونَ الشيخُ عبدُ العزيزِ جاويش[2] من إخوانِنا خَواصِّ مريديه بعدَ عودتِه من أوروبا : أى العلوم حصَّل فى إنجلترا ؟ قلتُ : لَمّا أسأله عن ذلك لقُرب العهد بعودته ، ولكنَّه ذكىٌّ فصيحٌ ذُو همة وغَيرة ، قال : سَلْهُ عن مُدّة إقامتِه فى الأزهر قبلَ دُخولِ مدرسةِ دار العلوم ، فإنْ كانت طويلةً

---

(1) **البَنْدَرُ** : جاء فى المعجم الوسيط : « البندر مرسى السفن فى الميناء (فارسى) ، ويطلق الآن على البلد الكبير ، يتبعه بعض القرى .

(2) هو **عبد العزيز بن خليل جاويش** (1293 - 1347هـ) تونسى الأصل ، ولد بالإسكندرية ، وتعلم فى الأزهر ودار العلوم ، واختير أستاذًا للأدب العربى فى جامعة (كمبردج) ، اتصل بمصطفى كامل ، وتولى تحرير جريدة اللواء 1908م ، فحمل على الاحتلال ، فسيق إلى المحاكمات مرات ، وشارك فى إنشاء (جمعية الشبان المسلمين) ، (الأعلام : 4/ 17) .

تَزيد على بضعِ سنينَ فاعلمْ أنّه قد فَقَدَ قُوَّةَ الاستعدادِ للعلم ، وأنّه لم يُحَصِّلْ شيئًا يُعْتَدُّ به .

2- النيّةُ وصحةُ القصدِ وتَوَجُّهُ الإرادة :

قال نبيُ الرحمةِ ومعَلِّمُ الكتابِ والحكمة : « إنَّما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى »[1] وإنَّ لصحةِ القصدِ وتوجّهِ الإرادة إلى الأمر أعظمَ التأثير فى النجاح والفوزِ ، ولا شيءَ أنفعُ لطالب العلوم الدينية من الإخلاص لِلَّهِ تعالى فيها وقصدِ تزكية نفسه وتثقيفها بمعرفته الصحيحة وعبادتِه المشروعة ثم تعليم الناس وهدايتِهم ، وأنْ يكونَ قدوةً لهم فى الحقّ والخيرِ وتَدَبُّرِ ما علَّمنا اللَّه تعالى من دعائه بقوله : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : 74] وقوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الممتحنة : 5] . وإن بين هذه الفتنة بتنفير الكفار عن الإسلام والإمامة للمتقين فيه لدرجاتٍ بعيدةً فى الإيمان والصلاح ودركاتٍ فى الكفر والضلال .

لما اشتغلتُ بطلب العلم فى طرابلس ، وعرَفتُ الأستاذَ العلامةَ الشيخَ محمدَ إبراهيم الحسينى[2] ، وكان عائدًا من الأزهر ، وصَحبْتُهُ بالتَّبَعِ لصُحبة صديقنِا المرحوم الشيخ محمد كامل الرافعى - كما تقدَّم فى الترجمة - قال لى مرة : إنَّنى بعدَ أنْ أُتمَّ مطالعةَ أعلى كتب الأصول والكلام والبلاغة سأذهبُ إلى الآستانة وأقرأُ درسًا فى جامع السلطان أحمد . وذكَر ما يَتوقَّعُ لهذا الدرس من حُسن التأثير والشهرةِ وما يَعقبُه من الفوائد . فقلتُ له ما معناه :

إنَّه لخير لك أنْ تنوىَ بقراءَة هذه الكتبِ التقرُّبَ إلى اللَّه تعالى والاستعدادَ لخدمة دِينه ونفعِ عبادِه ، وإنَّ منافعَ العلم بالجاه والمال قد تأتى تابعةً لذلك ، ولا يصحُّ أنْ تكونَ متبوعةً له ولا مقصودة لذاتها . ثم رجعَ الأستاذُ عن ذلك الرأى بعد أطوارٍ مرَّت عليه كما تمرُّ على أمثالِه من كبار الأذكياء .

---

(1) صحيح البخارى رقم (1) .

(2) **محمد بن إبراهيم الحسينى** (1270 - 1359هـ) ولد وتُوفى فى طرابلس الشام ، تعلم فى الأزهر بمصر ، وعاد إلى بلده فى لبنان ، أشهر كتبه (تفسير الحسينى) . (تراجم علماء طرابلس : 136) .

إنَّ الذين اشتغلوا بعلوم الدِّين بقصد إصلاح أنفسِهم وإصلاحِ غيرهم فى كلِّ جيل كانت الدُّنيا أشدَّ انقيادًا لهم ممن طلبوها بالدِّين وعلومِه ، ولكنَّ أكثرَ أُولئك قد زَهدوا فيها وآثروا ما عند اللَّه تعالى على جاهِها ومالها . ولقد قال لى شيخُنا الأستاذُ الإمام إنَّنى لولا قصدُ التوسل بدخول الحكومة المصرية إلى التمكن من إصلاح الأزهر لأبَيْتُ قَبولَ أى وظيفة فيها . وقال لى : لو كنتُ أُريدُ أنْ أكونَ غنيًّا لكنتُ من أكبر الأغنياء . فَلْيعتبر طلابُ العلم فى الأزهر وغيرِه ممن يَقصدون الجاهَ أو الثروةَ بتاريخ الأستاذ الإمام وعاقبةِ أمرِه وما رفعَ اللَّه مِن ذكرِه وبغيرِه ممن لا غرضَ لهم من علم الدِّين إلا غرضُ هذا الأدنى ، لِيَرَوْا كيفَ كانَ قدوةً صالحةً فى حياته وبعدَ مماته ، وأنَّهم سيرون ، وسوف يَرونَ ، من سُوء سِيرة تُجَّارِ الدِّين أنَّ بعضَ الفقر خيرٌ من الثراء ، وأنَّ من الخمول والخفاء ما هو أشرفُ من الشُّهْرَةِ والجاه ، وأنَّ العاقبةَ للمتقين والخزىَ والسوءَ على المنافقين ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴾ [سورة ص : 88] .

3- الاستقلالُ والتقليدُ فى طَلَبِ العِلْم :

أَنصحُ لكلِّ طالبِ علمٍ أنْ يَتَوَخَّى الاستقلالَ بفهم ما يُلَقَّنُهُ مِن مسائلِ العلم ثم الاقتناعِ بما يَفهمُه ، وأنْ لا يكتفى بفهم أستاذِه للعبارة دونَ فهمِه هو ، ولا باقتناع أُستاذِه بأنَّ ما فَهِمَهُ هو الحقُّ فى نفسِه إذا لم يقتنعْ هو بذلك ، فالعلمُ بعبارة المعلِّم أو المؤلِّف غيرُ العلم بمعناها ، والعلمُ بصحة المعنى مرتبةٌ فوقَ مرتبةِ فهمِه معنى العبارة ، وفوقَهما مرتبةُ العبرةِ الباعثةِ على العملِ بالعلم والإخلاص فيهما . ولن تكونَ عالمًا بالشىء نفسِه إلا إذا كنتَ مُقتنعًا واثقًا به ، ولا يَحْصُلُ هذا فى غير البديهياتِ إلا بالاستدلالِ ، وقد يقعُ التقليدُ بالدليل كما يقعُ بأصل المطلَب ، فاحذرْ هذا .

وَاعْلَمْ أيها الطالبُ المسلمُ أنَّ ما يُسمَّى بالاجتهادِ فى جميعِ أبوابِ الفقه هو مرتبةٌ عاليةٌ من مراتبِ العلمِ الاستقلالىِّ بالأحكامِ الشرعيةِ ، سواءٌ أُريدَ به الاجتهاد المطلَق أو الاجتهادُ فى مذهبٍ واحد . وما أنصحُ لك به من الاستقلال فى فَهم كلِّ ما تُلَقَّنُهُ والاقتناعِ بصحتِه دونَ ذلك هو أدنى مراتب العلم ، هو ما لا تكونُ ذا علم صحيحٍ فى

أىّ علم من العلوم أو فنّ من الفنون بدونه ، هو ما لا ترتقى عن دَرَكةِ الجهل المطلقِ أو الجهلِ التقليدىّ مع فَقْدِهِ ، فأنتَ محتاجٌ إلى الاستقلال فى كلّ علم تطلبهُ وكلّ مرتبة من مراتبه ، فلا تُقَلِّدْ مَن قالوا إنَّ بعضَ العلوم قد أحاط به العلماء الأوَّلون عِلمًا ، فليس على مَن بعدِهم إلا أنْ يُقلِّدَهم فى كلّ ما دَوَّنوه فيه بغيرِ بحثٍ ولا محاولةِ تمحيصٍ ولا تحقيقٍ .

إنّما الإحاطة بالعلم من صفات اللّه الخاصة به ، وقد أمرَ اللّه رسولَه ﷺ خاتمَ النبيين بطلب المزيد من العلم بقوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : 114] . فكلُّ ما كتبه البشرُ وكلُّ ما يكتبونَه ما كان - ولن يكونَ - إلا ناقصًا قابلاً للكمالِ ، ولا أستثنى من ذلك علومَ الحديث فى الجَرْحِ والتعديلِ ونقدِ الرجال ، وأجهلُ الجهلِ بالشىء ما كان قابلاً للاحتمال .

4- آيةُ العلمِ الصحيحِ النافعِ :

العلمُ الصحيحُ ما كان صفةً للنفس ، والعلمُ النافعُ ما كان باعثًا على العمل الصالحِ ، والعملُ الصالحُ ما صلحتْ به نفسُ العامل ، وكانت قدوةً حسنةً لكلِّ مَن عرَفها ، وآيةُ ذلك كلّه شعورُها بجهلها ونقصِها وبحاجتها إلى الاستزادة من العلم والاستفادة من كلِّ شىء وإلى المزيد من الأدب وتثقيفِ العقل وتزكيةِ النفس ، ولا أحفظُ عن أئمتنا فى هذا المعنى أبلغَ من بيتين للإمام الشافعى رضي الله عنه هما أدلُّ على علمِه وفضلِه من مجلَّدٍ يؤَلَّفُ فى مناقبِه ، وهما عينُ الحقِّ فلا تَحْسَبْ أنَّه قالهما من باب التواضع ، قال[1] :

كُلَّمَا أدَّبَنى الدَّهْـ (م) ـرُ أرانى نقصَ عَقْلِى
وإذا مَا ازْدَدْتُ عِلْمًا زادنى عِلْمًا بِجَهْلِى

5- آياتُ تزكيةِ النفسِ الرُّوحانية :

قال اللّه تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(1) انظر : ديوان الشافعى : ص70 ، طبعة المكتبة الثقافية ، بيروت .

[الذاريات : 20 – 21] . وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر : 22] الآية . وقال تبارك اسمُه : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة : 257] الآية . فمَن لم يرَ فى نفسه شيئًا من آيات ربه ومَن لم يَتَألَّقْ فى قلبه شعاعٌ من نور ربه فإسلامه صوريٌّ وراثىٌّ وإيمانُه تسليمٌ ظَنّىّ أو جَدَلىّ . وهاتان الثمرتان للذّين لا تُؤتيهما شجرةُ الإيمان الطيبةُ الثابتةُ الأصلِ الباسقةُ الفرعِ إلا بمجاهدة النفس ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : 69] ، مع كثرة الذِّكر بالقلب واللسان له . وأجمعُه تَدبُّرُ كتابِه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : 41 – 42] . ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : 43] .

ولكنَّ الذين يَدَّعُونَ هذه الآياتِ فى أنفسِهم كثيرون ، وتراهم فى ظلماتٍ لا يُبصرون يُضلُّون الجاهلينَ بخرافاتهم ، ويَأكلون أموالَهم بالباطل ، ولا يَستفيد أحدٌ منهم علمًا نافعًا ولا هُدًى رافعًا ، وإنما الإسلام علمٌ وهدى ، فلا تغترَّ بدعوى حىّ ولا ميّتٍ ولا بشهرته ولا بخوارق العادات الصُّوريَّة ولا المعنويَّة له ، واعتبرْ بما أفشيتُه لك على خِلاف عادتى من تجاربى واختبارى فى بدايتى ، ومنه أنَّ بعضَ الأمورِ الروحانيةِ التى تُثمرها رياضةُ التصوف قد تكون فتنةً تُعْقِبُ صاحبَها ضلالةً ، وأنَّ بعضَ الأنوار التى تتراءى لبعضهم خيالاتٌ شيطانية ، وأنَّ المكاشفاتِ التى تَحْصُلُ لهم كلَّها خواصُّ نفسيةٌ ، هى كغيرِها مما يَكشفه العلم من السُّننِ الماديّة والأنوار الكهربائية ، فمن لم يَزْدَدْ بها علمًا وعِرْفانًا ، وهُدى وإيمانًا ، كانت ضلالاً له وطُغيانًا . وأعنى بالإيمان اليقينَ بعالم الغيب وبالهدى الاعتصامَ بعُروة الشرع ، فمَن لم يُؤْتَ نصيبًا من ذلك كان عُرضةً : إما للشكِّ المادىّ ، وإما للتقليدِ الخرافىّ ، فَلا تُنْكِر الخواصَّ الرُّوحانيةَ اليوم خاضِعًا للأفكار المادية الإفرنجية – وهى من مفاسدِهم بشهادة أعلمِ فلاسفتِهم – ثم تَعودُ غدًا فتقلِّدُهم بإثباتها إذا انتصر المؤمنون بها على جاحديها ، فإنهم قد شرَعوا فى البحث عنها بوسائل العلم العصرى ، وقد آمن الألوفُ منهم بمبادئها ولَمّا يصلوا إلى غايات صوفيتنا فيها ،

ولو طلبوها من طريقِهم لوصلوا إلى ما انتهوا إليه أو لَسبقوهم فيه وَسَيَسْلِكُونَ كلَّ طريقٍ له ، فإنَّهم ما شرعوا فى شىء وتركوه ، وأبعدُ الفروقِ بينَ الفريقينِ أنَّ هؤلاء شاكُّون مجرِّبون ، وأنَّ أُولئك مؤمنون يَطلبون أعلَى مَقام فى العرفان ، وهو معرفةُ الخالقِ بآياتهِ فى الأنفس والآفاق وتجلِّى أنوارِه فيما له مِن الأسماءِ والصفاتِ .

إنِّى لَيَسُوءُنى أنْ يزورَنى بعضُ علمائهم من الشعوب المختلفة لِيُذاكرونى فيما وصل إليه علمى واختبارى منها ، وأنْ يجعلَنى بعضُ جماعاتهم عضوَ شرفٍ[*] فيها ، ثم لا أجدُ أحدًا من المسلمين يَسألنى عن شىء من هذا حتى الذين يَرجعون إلَّى فى التفسيرِ والحديثِ والعقائدِ وحُكْمِ الشريعة ، وقد كان هذا من أسبابِ ما كتبتُه فى المسألة . وأهمُّ منه التمهيدُ لما أُريدُ كتابتَه فى مسألة استحضار الأرواح . وأنتقلُ بعدَ هذه المقدِّماتِ إلى تلخيص الشواهد على خدمتى للأزهر وما كان لها من التأثير :

أَثَارةٌ مِن تاريخ دعوةِ المنارِ إلى إصلاحِ الأزهر

كان المنارُ هو الصحيفةَ الدوريَّةَ الوحيدةَ التى عُنيتْ بالدعوة إلى إصلاحِ الأزهر وتجديدِ العلم وهدايةِ الدِّين فيه وما يحتاجُ إليه فى هذا العصر من العلومِ والفنونِ التى نَهض بها الأستاذ الإمام قولاً وفعلاً ، وأيَّدناه بها كتابةً وحُجّةً[1] ، وكان جمهورُ علمائه يتبرَّم بهذه الدعوةِ لعجزِهم عن القيام بها لا لعدمِ حاجةِ الأزهرِ إليها ، حتى إذا ما اضْطُرُّوا إلى العملِ بكلِّ ما دعوناهم إليه فى هذا العهدِ اضطرارًا وأُكْرِهُوا على الاستعانة بِخرِّيجى المدارسِ الأميرية على ذلك إكراهًا كان ذلك اعترافًا عمليًا بعجزِهم ، ولو أجابوا الدعوة

(★) هى جمعية العلوم الرُّوحانية والأبحاث النفسيَّة بمملكة رومانية العُظمى كما جاء فى خطابها إلىَّ فى أول يناير سنة 1933م . (حاشية فى الأصل) .

(1) يعدُّ الأستاذ **محمود شاكر** هذا « أول صدع فى تراث الأمة العربية الإسلامية ، وأول دعوة لإسقاط تاريخ طويل من التأليف » . ويرى أن دعوة طه حسين نتيجة عنها « الذى هون على الدكتور طه أن يأتى بنظريته فى الطعن فى الشعر الجاهلى وفى علماء الأمة هو ما تأثر به من سماع ما تناقلته ألسنة المحيطين بالشيخ عبده من الطعن فى كتب البلاغة وعلمائها الكبار باستهانة وبلا مبالاة » . ويرى أنها مصدر كل دعوات الاستهانة « وسقطت نظرية الشعر الجاهلى وحسم أمرها ، ولكن الاستهانة ظلَّت سارية الأثر إلى هذا اليوم » .

(**انظر** : مقدمة كتاب أسرار البلاغة : 21 - 25) .

وقَبِلُوا النصيحة أولاً لتخرج فيه بعدَ البَدءِ بها كثيرٌ منهم ، ولتَسَنَّى لهم أنْ يَقوموا بتعليم الكلياتِ الجامعى بأنفسهم ، ولكان ذلك خيرًا لهم وللأزهر والإسلام من هذا التفرنُج الخطرِ الذى نخشاه الآن ، ولما كان جزاء المنار على إرشادهم أنْ سبُّوه وشَتَمُوه فى أولِ صحيفةٍ رسميَّة أُنشئتْ للأزهر ، بل لحمدوه وشكروا له سعيَه ، ولكن كانت هذه العقوبةُ للمنار أمنيَّةً لأشدِّ خريجى الأزهر مقتًا لدعوته الإصلاحية فى الباطن ومدحًا لها فى أولِ عهدِها فى الظاهر ، حتى إذا تولَّى تنفيذَ الدعوة على غيرِ وجهِها شَرَعَ فى عُقوبة الداعى إليها ، فخذله اللَّه عزَّ وجلَّ ونَصَرَ المنارَ عليه نَصْرًا مُبينًا ، كما فصَّلناه فى القسمِ الأوَّلِ من هذا الكتاب تفصيلاً .

تأثيرُ المنارِ فى العالمِ الإسلاميِّ

لقد شَهِدَ أهلُ البَصيرةِ من الإفرنج كما شهدَ خواصّ المسلمين بما كان للمنار من التأثير الإصلاحىّ والانقلابِ العظيم فى العالم الإسلامىّ ، ودوَّنُوها فى بعضِ صُحفهم وتَصانيفهم ، ونُشيرُ إلى ذلك بعد مقدِّمة وجيزة فنقول :

لرجال الانقلاب العام وسيلتان : إمَّا الثورةُ التى تَصِخُّ[1] بصيحتها المسامعَ وتُهَيِّجُ الساكنَ الوادِعَ ، فتكونُ كالريح الصَّرْصَرِ[2] العاتية لا تُخفى من أمرِ دَاعيتها خافيةً ، وهى خُطة حكيمنا الأول السيد جمال الدين ، وإما الدعوةُ الهادئةُ بالحُجج الناهضة ، وهى أَوْلَجُ فى المسامِع وأجولُ فى المجامعِ ، ولكنَّها بطيئةُ السَّيرِ خفيةُ التأثيرِ فى أول الأمر ، وهى خُطة حكيمِنا الثانى الشيخ محمد عبده التى جَرَينا عليها فى المنار ، وقد شرحتُ كُلاًّ منهما فى سيرةِ الحكيمين من « تاريخ الأستاذ الإمام » ، والأمة لا تأخذُ من الخُطتين إلا بقدر استعدادَها الخُلُقىّ والعقلى والاجتماعى ، وقد جمع القرآنُ الحكيمُ والرسولُ الكريمُ ﷺ بينَهما بما أعدَّ اللَّه به الأُمةَ العربيةَ للثورة وسائرَ الأُمم لقَبولِ الدعوة ، كما فصَّلتُ ذلك فى كتاب (الوحى المحمدىّ) .

---

(1) **صَخَّ فلانا** : ضرب أُذنه فأصمها ، **والمراد**: أن الثورة كان لها دوى هائل .

(2) **الريح الصَّرصر** : الريحُ الشديدةُ الصوت والبرد . ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6] .

الثورةُ أسرعُ تأثيرًا وأظهرُ ، وقد يكونُ إثمُها العاجلُ أكبرَ من نفعها الآجلِ إذا كانت الأمة غيرَ مستعدّةٍ للبناء عَقِبَ الهدم . والدعوةُ اللَّينة أسلمُ عاقبةً ، وقد يَخفى أمرُ دُعاتها وتأثيرُها حتى على الذين ينتفعون بدعوتِهم ويَعملون بها ، ولا سيما الذين يَتلقَّونها عن تلاميذهم الذين لا يَرْوُونها عنهم وعمَّن أُشربتْها قلوبُهم بانتشارِها واشتهارِها والاقتناعِ بها مع عدم الشعور بمصدرِها .

قد استفاد من دُروس حكيمَيْنا المصلحَينِ ومجالسِهما خَلْقٌ كثيرٌ ، واقتبسوا من حِكمتِهما ما يَزِيْنُون به خُطبَهم وكتبَهم ، ويَقِلُّ منهم مَن يروى ذلك عنهما أو يَعْزُو معناه إليهما كدأب كثير من المصنِّفين مع مَن قبلهما . وأما صاحبُ المنار فإنه يَروى كلَّ ما سمعَه بلفظِه أو بمعناه وكذا ما فَهِمَه واستنبطه منه ، ولذلك يقولُ الكثيرون ، وكَتَبَ بعضُهم فى الصحف ، إنَّه لولا صاحبُ المنار لضاع أكثرُ علمِ الشيخ محمد عبده وحكمتِه ، وجُهِلَ إصلاحُه وتاريخُه .

ووقع لنا مثلُ هذا بعينه مع الذين استفادوا من المنارِ وتفسيرهِ ما انفردَ به من رواية ورأى وما حقَّقه من حِكمة وحُكم . ومنهم كثيرون من علماءِ الأزهرِ الذين يَعْتَمدُون على تفسيرهِ فى دُروسهم ومُحاضراتهم ورسائلهم ومقالاتهم فى المجلات ، بل منهم مَن يَنْقُلُ منه المباحثَ الطويلةَ بلفظها ولا يَعْزُوها إليه . وقد اعتذرَ عن بعضِ فضلائهم مَن يُحسنون الظنَّ بهم بأنَّهم يخافون انتقامَ الشيخِ الظواهرى[1] رئيسِهم إذا عُرِفوا عنده بذلك .

بيدَ أنَّ ما يَخفى على دَهماءِ الشعوب لا يَخفى على زُعمائها ، وما يَسكتُ عنه الوطنىُّ قد يَنطق به الأجنبىُّ ، فقد علمتُ مِن بعض رجال هولندا من تأثيرِ المنارِ فى جزائرِ الهندِ الشرقيّةِ الخاضعةِ لدولته ما لم أسمعْه مِن أحدٍ من مُسْلِمِى تلك البلادِ الأندونوسيين الأصليين ولا العربِ المستوطنينَ لها ، وقد رأينا عدةَ كتب للإفرنج فى ذلك .

(1) **محمد الأحمدى بن إبراهيم الظواهرى** (1295 - 1363هـ) ولد فى محافظة الشرقية وتُوفى بالقاهرة ، تعلم فى الأزهر ، وأخذ عن الأستاذ محمد عبده وآخرين ، وكان رئيسًا لوفد مصر فى مؤتمر مكة 1345هـ / 1926م ، وعين شيخًا للأزهر سنة 1929م واستقال سنة 1935م ، وله كتاب (العلم والعلماء) ، (الأعلام : 6/ 26) .

وقرأتُ فى هذه الأيامِ فى كتاب (وُجهة الإسلام) الذى كتبه جماعة من مستشرقى الدُّول المستعمِرة شهاداتٍ لهم فى تأثير كثير من رجال الإسلام فى أُمَّتهم تأثيرًا مختلِفًا فى النفع والضُّرِّ كحكيمَيْنا وغيرهما (وسَنُقَرِّظُهُ فى المنار) ومن ذلك تأثيرُ المنار فى العالم الإسلامى كلِّه وفى بلاد شمالىّ إفريقية الفرنسية وأندونيسيا ، منها قولُ كاتبٍ هولندىّ ما نصُّ ترجمتِه العربية :

شهادةُ مستشرقٍ هولندىّ بتأثيرِ المنارِ :

« ولم يُشرقْ (منارُ) القاهرةِ على المصريينَ وحدَهم ، ولكنَّه أشرقَ على العربِ فى بلادِهم وفى خارجها وعلى مُسلمى أرخبيل الملايو الذين دَرَسوا فى الجامعة الأزهرية أو فى مكةَ وعلى الأندونيسى المنعزلِ الذى ظلَّ محافظًا على علاقاتِه بقلبِ العالَمِ الإسلامى بعدَ عودتِه لبلادِه النائية على حدود دار الإسلام : هؤلاء جميعًا رأوا الإسلام على نور جديد لم يَرَوْا فيه مِثالاً للتشدّد والجمودِ ، وَرَأَوهُ لا يَزال الدينَ المختارَ بينَ الأديانِ وحاملَ المُثلِ العُليا لكلِّ زمان مضى والمُثل الجديدةِ لكلِّ زمانٍ آتٍ ، وهو شابٌّ متجدِّدُ الشبابِ حاملٌ لواءَ كلِّ تقدُّمٍ ، شديدٌ فى تسامحٍ ورفقٍ ، وأصبحَ الذين اقتبسوا من نورِ (المنار) فى مصرَ (منارات) صُغرى فى إندونيسية بعدَ أنْ عادوا إليها » اهـ . من الترجمة العربية للأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة .

تاريخُ عَلاقتى مع السّيد رشيدٍ رحمَه اللَّه[1]

الذى أتذَكَّرُهُ أنه فى سنة 1313هـ وَفْقَ سنة 1895 قيل لى فى بيروتَ إنَّ شابًا أديبًا من طرابلس الشام يسألُ عنك ويُهِمُّهُ الاجتماعُ بك ، فلمْ أعلمْ مَن ذلك الشابُّ الأديبُ ، وما مضت أيامٌ حتى جاءنى وكنتُ نازِلاً فى فندقٍ ببيروتَ يُقال له « كوكب الشرق » ، فرأيتُ شابًا سَرِيًا[2] ، ظاهرةٌ عليه سيماءُ النجابة والأصالة ، وضىءَ الطّلعة ، وقورَ

(1) بدأت العلاقة بين كل من **السيد رشيد والأمير شكيب** 1895م واستمرت حتى 1912م ثم انقطعت 9 سنوات أى إلى 1921م ، وبعده بدأت مرة أخرى . **انظر**: ص 128 .

(2) شريفًا كريم الأصل .

المجلس ، غالبًا عليه الأدبُ وحبُ العلم . علمتُ منه أنَّه قصد مُلاقاتى مِن قبلُ ولم يُوَفَّقْ ، وأنه كان مُوْلعًا بقراءة ديوانى المسمى « بالباكورة » الذى نشرتُه عندما كنتُ فى السابعة عشرة من عمرى وذلك سنة 1887م المسيحية[1] ، ورأيتُ هذا الشابَّ يحفظُ كثيرًا من أبيات ديوانى هذا . ولكنْ ظهر لى أنَّ إعجابَهُ بديوانى مع افتتانه به لم يكن شيئًا بالقياسِ إلى إعجابِهِ باتصالى بالشيخ محمد عبده وبالسيد جمال الدين الأفغانى اللذين كان يَقصد لقائى لأجل أنْ أُحدِّثَهُ عنهما ، وأَروى له من أخبارهما . وكنتُ أنظر إلى وَجهه عندما أَبدأ بالكلام عنهما فأراه يُشرق نُورًا ، ويَطْفحُ سُرورًا ، وكأنه يَصير كلُّه آذانًا واعيةً وأسماعًا صاغيةً ، يُريد أنْ يحفظَ عنهما حتى الحرفَ والحركةَ ، ويُفضى إلَىَّ بما فى نفسه من حُبِّ التعرُّفِ إليهما ، وبالجملة فكنتُ أقرأُ على وجه هذا الشابِّ سورة النور ، وأتفرَّسُ فيه مُنتهى الخير ، وأعتقدُ أنه سيكون فى يوم من الأيام عظيمًا ، وكنتُ أرى المَثَلَ الأعلى فى نظره كلاً من الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغانى ، وقد علمتُ أنَّ اسمه هو « محمد رشيد رضا » من قرية القلمون من عمل طرابلس الشام ، وأنه من بيتِ مَجْدٍ وفضل وتقوى ، وأنَّهم هم مشايخُ تلك القرية .

ثم إنّنا تَلاقينا مرَّةً ثانية ثم مرَّةً ثالثةً ، وهى التى جاءنى فيها قاصدًا السفرَ إلى مصرَ ، وذلك كما قال فى أوائل رجب سنة 1315هـ الموافقةَ سنة 1897م ، وفى هذه المرةِ أيضًا كنتُ نازلاً فى فندق (كوكب الشرق) فتناولَ السيدُ رشيدٌ طعامَ الغداء عندى ، ودعوتُ له الأستاذَ الشيخَ سعيدَ الشرتونى[2] صاحبَ « أقرب الموارد » ، وكان من أعزِّ أصدقائى ومن أخلص المخلِصين لى ولعائلتى آل رسلان ، وجلسْنا نتحدثُ ثلاثًا أو أربعَ ساعات من ذلك النهار ، وقرأتُ لهما إحدى مقالاتى فى جريدة الأهرام عن سياحةٍ لى فى صُرُودِ[3] لبنان . وبعدَ أنْ انصرفَ الشرتونى أسرَّ إلَىَّ الشيخُ رشيدٌ قضيةَ سفره إلى

---

(1) **صفة للسَّنَةِ** : ويقصد بها سنة 1887م من ميلاد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

(2) هو **سعيد بن عبد الله بن ميخائيل بن إلياس الشرتونى** (1265 – 1330هـ) ، ولد فى شرتون بلبنان ، وتعلم فى مدرسة (عبية الأمريكية) ، عمل مدرسًا فى مدرسة اليسوعيين ببيروت ، ومن أشهر أعماله (أقرب الموارد ، وذيله) وهو معجم لغوى فى ثلاثة مجلدات . (الأعلام : 3/ 98) .

(3) **صُرُودٌ** : جمعُ (صَرْد) ، ويقصد أنه تجوّل فى جبال لبنان الباردة .

مصرَ ، وأوصانى بكتمان الخبر لأنه يَجوزُ أنَّ الحكومة فى حال معرفتها بالخبر أنْ تمنعَ الشيخَ رشيدًا من السفر ، فقد كنا فى عصر السلطان عبد الحميد لا نَقْدِرُ على السياحة إلى الخارج إلا بإذن ، وكان هذا الإذنُ متعذِّرًا كثيرًا . ولما أُقيم مَعْرِضُ باريس سنة 1900م حاولتُ السفرَ إليه فلم أستطعْ ذلك ، فكان للسيدِ رشيدِ حقٌّ ، وقد أجمعَ الرحلةَ إلى مصرَ ، أنْ يَستَرَ حركتَه هذه إلى أنْ يكونَ قد دخلَ فى الحدود المصرية . وأظنُّ أنَّ الشيخَ رشيدًا أخبرَنى وقتئذٍ بما دار من الحديث بينَه وبين السيد عبد القادر القبّانى صاحبِ جريدة « ثمرات الفنون » ، وهذا الرّجلُ توفَّاه اللَّه بعدَ أنْ ذرّف[1] على التسعين .

وقد سمعتُ أنَّه بقى حتى حين وفاتِه حافِظًا قُواه العقلية متمتعًا بصحة نادرةٍ فيمن بَلَغَ هذا السنَّ ، وقد عرَفتُه منذُ كنتُ فى العاشرة من العُمر . ولما أكملتُ تحصيلى للعلم ، وكنتُ قَدْ بلغتُ السابعة عشرة كنتُ أَسمر فى بيت المرحوم الحاجِّ محيى الدين حمادة فى بيروتَ ، فيكون هناك الشيخُ محمد عبده والسيد عبد القادر القبَّانى وجماعة لا يَتخلَّفون عن السَّمر فى ذلك البيت المشهور بكرم الوفادة ، وكنتُ حَريصًا على سماع أحاديثِ الأستاذ الإمام ، وهكذا عرفتُ السيدَ القبَّانى منذ خمسين سنةً تامّةً ، وعرَفتُ فيه العقلَ والنبالة وعلوَّ الهمّةِ والحزمَ وأصالةَ الرأى والحميَّة الإسلامية ، وأوَّلُ جريدة إسلامية فى سورية هى جريدتُه « ثمرات الفنون » التى كان هو المؤسسَ لها ، وكان يكتبها بمساعدة العلامةِ الشهير الشيخ إبراهيم الأحدبِ .

بعدَ أنْ وصلَ الشيخُ رشيد إلى مصر أصدرَ مجلتَه المنارَ ، وبعث بها إلَىَّ وسَننشر فى مكانٍ آخرَ أوّلَ مقالةٍ له فى مجلة المنار يَعلمُ منها القرَّاء كيف بدأ الشيخُ رشيد جهادَه ، فيكون عمرُ المنار نحوًا من سبعٍ وثلاثين سنة ، وكان السيد رشيد يكتبُ إلَىَّ من مصر من وقت إلى آخرَ ، ويَرى فَىَّ أخًا وفيًّا حفيًّا مشاركًا له فى مباديه وأفكاره ، ولو لم يكنْ بيننا من رابطة سوى كوننا نحن الاثنين من مريدى الأستاذ الإمام لكان ذلك كافيًا . ولا

(1) زاد عليها .

أحفظُ المراسلاتِ التى كانت تَدور بينَنا فى هذا الدور الأول من صداقتنا بما سطا على أوراقى من الضياع ، وإنَّما أحفظُ المراسلات الكثيرةَ التى دارت بيننا بعدَ أنْ أقمتُ بأوروبا ، وسيأتى الأكثر منها فى مَحلِّهِ . ثم إنه لم يمض على المنار إلا مدةٌ وجيزة حتى اشتهر واستجلب النظرَ ، وأخذت مقالاتُه تَرِنُّ فى الآفاق ، وصار مرجِعًا فى الفُتيا ولا سيما فى تطبيق النوازل العصرية والأحداث الجديدة على الشريعة الإسلامية . وكان المنارُ منذُ ظهورِه لسانَ حالِ المُصلح الأكبرِ الشيخِ محمد عبده . وكان الأستاذُ الإمامُ بكثرة شواغله المتعددة والمتنوعة لا يَقْدِرُ أنْ يَتولَّى بنفسه إبرازَ جميع أفكارِه إلى القرّاء ، فكان السيدُ رشيدٌ هو التَرْجُمانَ الأولَ لأفكاره ؛ لا يَسمعُ منه نَغْيَةً[1] إلاَّ أودعَها منارَه ببيان أنيقٍ وأُسلوبٍ رشيق . فكأنَّ السيدَ رشيدًا كان مُتَمِّمًا للشيخ محمد عبده يُكملُ ذاك ما فات هذا ، وكأنَّهما رُوحٌ واحدةٌ . وقد حدَّثنى السيدُ رشيدٌ أن الأستاذَ الشيخ عبد الكريم سلمان[2] الذى كان والشيخُ محمد عبده كالأخوين نَفَس[3] على السيدِ رشيدٍ مكانَه من الشيخ محمد ، فصارَ يترقَّبُ الفرصةَ للوقيعة به وإقصائه عن الشيخ ، فغضبَ الشيخُ محمد عبده ، وبعثَ إلى الشيخ عبد الكريم يقول له : إنى لا أقبلُ منك أنْ تغتاب الشيخَ رشيدَ رضا ، وإنَّك إن لم تكفَّ عنه هجرتُك ولو بعدَ صداقة أربعينَ سنةً[4] . ومن هنا يَعلمُ الإنسانُ مقدارَ حُرمةِ الشيخِ الإمامِ لتلميذه السيد رشيد واعتقادَه بفائدته لهذه الأمة .

هذا ، ولما أُعلِنَ الدستورُ العثمانى سنة 1908م ، وجاء عهدُ الحرية ، جاء السيدُ رشيدٌ لزيارة وطنه ، ورأيتُه فى بيروتَ ، واجتمعتُ معَه طويلاً فى نادى الاتحاد والترقى بتلك البلدة ، وكذلك جاءَ مرَّةً أو مرَّتين فسمرَ عند عمِّى الأميرِ مصطفى أرسلان ، فكنتُ هناك فَجرَتْ بينَنا أحاديثُ ذُكِرَ بعضَها فى المنار ، وذهب من بعدها إلى دمشقَ ،

---

(1) أول ما يُسمع من الخبر قبل التثبت منه .

(2) هو **عبد الكريم بن حسين بن سلمان أغا** (1265 – 1336هـ) مصرى ، تعلم فى الأزهر واتصل بجمال الدين الأفغانى وبمحمد عبده ، ورأس تحرير (الوقائع المصرية) بعد محمد عبده .

(3) **نفس الشىء وبه على فلان** : حسده عليه ولم يره أهلا له .

(4) **انظر** : تاريخ الأستاذ الإمام : (1/ 1018) .

وهناك ألقى درسًا فى الجامع الأُموى يتعلَّق بالعقيدة ، ذهب الشيخُ صالح الشريف التونسى - وكان حاضرًا ذلك الدرس - إلى أنَّ فيه تعرُّضًا للأولياء ، وأنه شىء من الوهابية ! وتكلَّم الشيخُ صالحٌ بحدّة ، فمال الجمهورُ ممن يُقال لهم الحَشْوِيَّةُ إلى كلام الشيخ صالح كما أنَّ أصحابَ النزعةِ الجديدة والدستوريين مالوا إلى كلام الشيخ رشيدٍ ، وحصلتْ ضجّةٌ عظيمة فى الجامع ، واتصلتْ بالحكومةِ ، فاستدعت الشيخَ صالح إلى دائرةِ البُوليس ، واستنطقته بحجّة أنّه اعتدَى على الشيخِ رشيدٍ ، وأنَّه كفَّره ، فشاعَ فى دمشقَ تلك الليلةَ أنَّ الشيخَ صالحًا التونسىَّ اعْتُقِلَ ، وأوجب ذلك هياجَ العامَّة ، فاجتمعُوا ألوفًا وجاؤوا لتخليص الشيخِ صالحِ مِن السجنِ ، والحقيقةُ أنَّه لم يكنْ سُجِنَ ، وإنَّما استنطقُوه بِحُجَّةِ أنَّه هو الذى تَعَرَّضَ للشيخِ رشيدٍ ، فلَّما رأى الوالى هذه الحالةَ ، وخافَ الهَرْجَ والمَرْجَ ، ركبَ العربَة ، وأجلسَ الشيخَ صالحًا بجانبه حتى سكنَ هَيَجَانُ الجمهور ، ولم أحضرْ أنا تلك الواقعةَ ، ولكنَّنى سمعتُ خبرها . ثم علمتُ أنَّ السيدَ رشيدَ رضا ذهب بعد إعلان الدستورِ بمدَّة إلى الآستانة ، وسعى لدى رجال الاتحادِ والترقِّى فى تأسيس مدرسة باسم دارِ الدَّعوةِ والإرشاد ، وهو المشروع الذى قام به فى مصرَ بعدَ أنْ أخفقَ فيه بالآستانة ، فيظهرُ أنَّ الاتحاديين بَذلوا له المواعيدَ فى البداية ولكنْ ماطلوه فى إنجازها حتى قضى فى الآستانة سنةً تامَّةً ، ولم يَفُزْ بشىء ، فضجر وخرجَ من الآستانة عائدًا إلى مصرَ معتقدًا أنَّه لا يُرجى شىءٌ من الخير للعرب من جمعية الاتحاد والترقى ، وصار عَدُوًّا لها ينتقدُ سياستَها فى كلِّ فرصة .

ولما ذهبتُ إلى طرابلس الغرب مجاهدًا سنةَ 1911م مررتُ بمصرَ ، وكنتُ أجتمعُ بالسيد رشيد كثيرًا وأزورُه فى بيتِه ، وصادفتُ عنده ضيفًا كريمًا هو الشريفُ على بن عمر ابـنْ عمِّ الشريفِ حسين أميرِ مكةَ . ومـن ذلك الوقتِ جرت صداقة بينى وبينَ الشريف المشارِ إليه . وكان السيدُ رشيدٌ لعهدِ الأستاذِ الإمامِ قد شَمِلَهُ غضبُ الخديوى عباس حلمى لأجْلِ غضبِ الخديوى على الشيخ محمدِ عبده ، فلما مضى الشيخُ إلى ربِّه عـاد الخديـوى فرضـى على السيدِ رشيدٍ ، وعندما مررتُ أنا بمصرَ كان السيدُ رشيدُ رضـا من المقرَّبينَ عندِ الخديـوى ، كما كـان من المقربين أيضًا عنده الشيخُ على

يوسف[1] صاحبُ جريدة (المؤيَّد) . فبدا للخديوى وقتئذٍ أنْ يُزَهِّدَنى فى الذهاب إلى الجهادِ فى طرابلسَ لأنَّه كان عنده مشروعاتٌ أخرى سياسيّة يَظُنُّ أنَّه يَقْدِرُ أنْ يُدخلَنى فيها ، فاعتذرتُ له عن قَبول أمرِه ، وقلتُ له إنى قاصدٌ إلى الجهاد فى طرابلسَ ، وما خرجتُ من بيتى فى جبلِ لبنان إلا بهذه النيّة ، فلا بدَّ لى من إتمامها بالعمل ، فتكلَّم الخديوى مع كلٍّ من السيدِ رشيدٍ والشيخ على يوسف لعلَّهما يتمكنان من تحويلى عن تلك الفكرةِ ، فتكلَّما معى فوجدا أن لا سبيلَ إلى ذلك ، فعندها قطعَ الخديوى أملَه من استبقائى فى مصرَ ، واستدعانى قبلَ السفرِ حيثُ جلسَ إلَىَّ ساعةً من الزمن ، وتكرَّم فحاول إعطائى مبلغًا من المال بِحُجَّة أنى ذاهبٌ إلى جهادٍ يَحتاج فيه مِثلى إلى الإنفاق ، فاعتذرتُ لسُمُوِّهِ عن قَبول أىِّ شىء منه قائلاً له على سبيل الاعتذار : إنَّنى لستُ فى حاجة إلى شىء ، وإنَّنى متى رأيتُ الحاجةَ ماسةً فإنى لا أتردّدُ طرفةَ عينٍ عن استمدادِ سُمُوِّهِ ، وأبدَى وأعادَ كثيرًا ، فبقيتُ مُصرًّا على الاعتذارِ ، وذلك أمام أحمد بك العريس البيروتى ومحمد بك عثمان المصرى من حاشية الجناب العالى . ثم ذهبتُ إلى برقةَ ، وأقمتُ زُهاءَ ثمانيةِ أشهر فى مُعَسْكَرِ عين منصور فوقَ درنة ثم فى معسكر بنى غازى ، ولما كنتُ فى عين منصور تلاقيتُ مع الشيخِ صالح التونسى - رحمه اللَّه - وكنتُ أقضِى أكثرَ ساعات نهارى فى مجالسته ، وكنتُ أراهُ يَمْقُتُ آراءَ السيدِ رشيدٍ فى الدِّين ، وأَجتهدُ فى تعديل أفكارِه مِن جهته ، فكان مصرًّا على سُوء ظنِّه به وبأستاذهِ الشيخِ محمد عبده . وعلمتُ منه أنَّه لما مَرَّ الشيخُ محمد بتونُس حصلَ بينَهما جِدالٌ شديد . ومِن غريب ما سمعتُ من الشيخِ صالح مما يَدُلُّ على شدّة نُفورهِ من الشيخ رشيدٍ - أنَّنى مرَّةً كنتُ أَقرأُ فى مجلة المنار فظهرَ الغضبُ على وجهِه ، وقال لى إنَّ فيها كثيرًا من الضَّلالات وأحيانًا من الكفر والعياذ باللَّه ! ثم قالَ إنَّه نَسِىَ عددًا من المنار فى خيمتِه ، فكان أنْ طلعت عليه الشمسُ ذلك اليومَ قبلَ أن يُصلى صلاةَ الفجر ، وإنما كان ذلك من شُؤم

---

(1) هو على بن أحمد بن يوسف (1280 - 1331هـ / 1863 - 1913م) ولد فى بلصفورة من نواحى جرجا بمصر ، انتقل إلى القاهرة سنة 1299م ، وتعلم فى الأزهر ، أصدر جريدة المؤيد (1307هـ) ، ولقب بشيخ الصحافة الإسلامية فى عصره . (الأعلام : 4/ 262) .

المنار . فجاءنى الضحكُ الشديدُ عندَ سماعى هذا الكلامَ ، وقلتُ : سبحانَ اللّه لا أرَى عداوةً أشدَّ من عداوة العلماء ، وقطعتُ الأملَ من تعديل أفكار الشيخ صالح بحقِّ الشيخ رشيد . ولما رجعتُ إلى مصرَ رأيتُ الشيخَ رشيدًا يَعْلَمُ أنّى كنتُ كثيرَ المجالسة فى معسكر عين منصور للشيخ صالح التونسى ، وكأنّه يُعاتبنى من أجلِ هذه المُلازمةِ . فأجبتُه بأنَّنا كنّا فى بَرِّيَةٍ لا يُوجد فيها مَن أُجالسهُ أحسنَ من الشيخ صالح ، وأنّى كنتُ دائمًا أُدافعُ عن مباديه وأفكاره أمامَ خصمه . ولما اجتمعتُ مع الشيخِ رشيدٍ فى جنيف حيثُ أنا الآن وذلك سنةَ 1921م أىْ منذُ ست عشرة سنةً سألنى - رحمه اللّه - عن كيفيةِ وفاةِ الشيخِ صالحِ ، فَرَوَيْتُ له الخبرَ ، وكيف مَرِضَ فى دافوس حيث كان يُعَلِّمُ العربيةَ والعقيدةَ أَنجالَ الأمير عمر طوسون . ودافوس بلدةٌ عاليةٌ ارتفاعُها عن البحر 1600 متر . وكان مع الشيخ صالح مَرَضٌ فى القلب لا يُلائمه هذا الارتفاعُ ، فاشتدّتْ به العِلَّةُ ؛ وأشار عليه الأطباءُ بالنزول من دافوس إلى سواحل بحيرة ليمان ، فاخترنا له بلدة مونترو ، وكان فيها فؤاد باشا سليم الحجازى - حفظه اللّه - وحسين بك شيرين - رحمه اللّه - فكانا يتعهّدانه كلَّ يوم ، ثم جئتُ أنا الثالث من (برن) ولازمتُه مدةَ شهر ونصف إلى أنْ فاضت رُوحه ، تغمَّده اللّه برحمته . فلما كنتُ أقصُّ ذلك على المرحومِ السيد رشيدٍ اغرورقتْ عيناهُ بالدموع ، وقال لى : نَعَمْ جاءنا نعيُه ونحن فى الشام ، وتأثّرنا واللّه كثيرًا لفقدِه . لا شكَّ أَنَّ الموتَ يَذهبُ بالأحقادِ كلِّها .

ثم إنّنى بَرِحْتُ[1] برقةَ سنة 1912م قاصدًا إلى الآستانة خوفًا من أنَّ الحربَ البلقانية التى كانت آذنتْ بالنشوبِ تَصْرِفُ نظرَ الدولة عن مساعدة الطرابلسيين ولو سرًّا ، فنشبتْ حربُ البلقان وأنا فى الآستانة ، وكلَّفتنى جمعيةُ الهلال الأحمر المصرى أنْ أكونَ مفتِّشًا على بعثاتها لدى الدولة ، فبقيتُ عدةَ أشهر قائمًا بهذهِ المهمةِ مع المرحومَين محمدِ باشا الشريعى وكاملِ باشا جلال ، ثم استدعانى الخديوى إلى مصرَ ، فلمّا وصلتُ إليها أَرسلَ إلَّى بواسطة السيدِ رشيدٍ أنْ آتى إليه فى سراى القُبة ، فبحثَ السيدُ عنّى فوجدَنى عند مدحت بك سامى الذى كان رفيقى فى بَرْقَةَ ، فجئتُ وقابلتُ الخديوى ، وأشارَ

---

(1) **برح مكانه** : غادره .

ببقائى فى مصرَ بقولِه إنه ربَّما تجدُّ حوادثُ خطيرةٌ تُوجب وجودى مع إخوانى الشيخِ رشيد رضا والشيخِ على يوسف . إلا أنّى أنا لم أكنْ موافِقًا فى تلك الأزمةِ الشديدةِ على مناوأةِ الاتحاديين الذين كان فى أيديهم زمامُ الدولة ، وحصلتْ بينى وبين فريد باشا الأرناؤوطى الصدرِ الأعظم السابقِ فى سراى عابدين مشادَّةٌ شديدةٌ من أجْلِ الاتحاديّين ووجوبِ الحملةِ عليهم فى أثناء الحربِ البلقانيةِ وعدمِه ؛ إذ كنتُ ممن لا يُجيز المُضِىَّ فى الاختلافات الداخلية إلى ذلك الحدِّ الأقصى حينما يكونُ البلقانيُّون على أبواب الآستانةِ عاصمةِ الإسلام . وكنتُ أَرى وجوبَ الهدنةِ بينَ الأحزابِ فى داخلِ السلطنةِ العثمانيةِ رَيْثَما ينعقدُ الصلحُ ويزولُ الخطرُ عن الدولة . وقد كان الجدالُ بينى وبينَ فريد باشا أمامَ جمال الدين أفندى شيخِ الإسلام السابقِ الذى كان يُهدِّئ رَوْعَ[1] كلٍّ منّا . وبلغ الخديوى خبر هذا الجدالِ العنيفِ من أجل الاتحاديّين فأغضَبه علَّى لأنه كان يتربَّصُ بهم الدوائر . ولم يُهمُّنى هذا الأمرُ لأنّنى ما تعوَّدتُ أنْ أُراعى كبيرًا ولا صغيرًا عندما أكونُ مقتنعًا بقضية من القضايا . وكان السيدُ رشيدٌ هو أيضًا فى ذلك الوقتِ من أعداء الاتحاديِّين ، وقد جرّد قلمَه فى المنارِ وغيرِه لتعقُّب سقطاتِهم وإظهارِ مساويهم . وكانت هذه الحالةُ معروفةً عندى ، ولم أكنْ أتقاضَى[2] السيدَ الرجوعَ عن رأيه فى قضيةِ الاتحاديِّين لأنه كان مقتنعًا مثلى بصحة مذهبِه السياسىّ . وكانت المودّةُ التى بينَنا غالبةً على ما بينَنا من اختلاف النظر فى هذه المسألةِ . وعلى كلِّ حالٍ لم نصلْ إلى الوحشة . إلا أنَّه فى أثناء الأزمة البلقانية شاع أنَّ تركية ، وقد بلغ بها الجهدُ مبلغَه ، أرادت أنْ تقترضَ من أسواق لندرة مبلغًا من المال لتتمكَّنَ به من متابعة الحربِ صَوْنًا لشرفها الذى انثلم[3] بانهزامها أمامَ ممالكَ كانت إلى عهد قريب من جُملة ولاياتها . فانتهز هذه الفرصةَ بعضُ السوريين المقيمين بمصرَ المناهضين لتركية وللاتحاديين معًا فأبرقوا إلى لندرة يَقطعون الطريقَ على القرض الذى كانت الدولةُ العثمانية تُريدُ عقدَه . فلما بلغنى الخبرُ أنكرتُ هذا الأمرَ وأكبرتُه ، وألقيتُ سؤالاً عن هذا الموضوعِ أقولُ فيه : إنَّ العربَ الذين يُحاولون قطعَ مادة الرِّزقِ

(1) **الرُّوع** (بالضم) القلب ، وبالفتح (الرَّوع) مصدر (راع) بمعنى أفزع .
(2) أطلُبُ منه الرجوع عن رأيه .
(3) **انثلم** شرفُه أو عِرضُه : طُعن فيه .

عن الدولة حينما تكونُ مضطرةً إلى مِيرة عساكرها يَنبغى أنْ يَعلموا أنَّ فى الجيش العثمانى عشرات ألوف من الجنودِ العربِ ، فإن لم تأخذْهم رأفةٌ بالتُّركِ ولا بتركيا حالَ كونِها دولةَ الخلافةِ الإسلامية فَلْتَأْخُذْهم بالأقلِّ رأفةٌ بأبناءِ جِلْدَتِهم . نشرتُ هذا السؤالَ فى جريدة (الشعب) بمصرَ ، وتركتُه غُفلاً من التوقيع حتى لا أكونَ اتُّهمتُ تلك الفئة بغيرِ تَثَبُّتٍ . فانبرى رفيقُ بك العظم[1] رئيسُ تلك الفئةِ للجواب على هذا السؤالِ . وما اكتفى بإنكارِ الخبر حتى شفعَه بقوله إنَّه سؤالٌ يَقصدُ به صاحبُه الذى هو مِن النفعِيِّين التَّزَلُّفَ إلى الأتراك بحقٍّ أو بباطلٍ .

فعندَ ذلك صرَّحتُ عن ذاتِ نفسى ، وأجبتُ رفيقَ بك العظم الذى كان صديقى من قبلُ ، وكنتُ أجتمعُ به وبالسيدِ رشيدٍ لمذاكراتٍ لا يكونُ فيها أحدٌ غيرَنا نحن الثلاثة – فقلتُ له : إنَّنى لا أَتَزَلَّفُ إلى أحدٍ ، وإنَّه سَيُثْبِتُ المستقبلُ حقيقةَ الأمرِ ، ويعلمُ الناسُ مَن هو المتزلِّفُ إلى التُّرك بحقٍّ أو بباطل ، ومَن هم أُولئك الذين يُريدون توطئةَ مناكب البلاد للاحتلال الأجنبى . فهذا الجوابُ غاظَ تلك الفئة ، وجعلَها تنظرُ إلَّى نظرَ المناوئ لمباديها حينما كانت تظنُّ أنَّ الدولة الإنجليزية سَتُعَضِّدُها فى مشروع تأسيس دَوْلة عربية ! وكان المرحومُ المترجَم يَومئذٍ متحيِّزًا إلى الفئة التى نحن فى صددِها ، ولكنَّه لم يكن كغيرِه ممن يَسترسلُ إلى مواعيد الإنجليز ، ويَرى أنَّ انقيادَ العرب لإنجلترا هو عينُ المصلحة كيفما آل الأمرُ بهم . ولبثتُ بعدَ هذه الحادثةِ أجتمعُ معهَ وأُبادِلُه الأفكارَ لكنَّ المودةَ بيننا كادتْ تتزَعْزَعُ بسبب وجودِ كلٍّ منّا فى غير صفِّ الآخرِ . وصادفَ أنَّى يومَ تناقشتُ مع فريد باشا فى سراى عابدين أتيتُ إلى إدارة (المؤيَّد) فوجدتُ الشيخ على يوسف وعنده السيدُ رشيدُ رضا والسيدُ عبدُ الحميد الزهراوى وحنفى بك ناجى ، فبينما نحنُ نتحدَّث إذ وردتْ برقيَّةٌ معناها أنَّ ألمانيا خصَّصتْ ثلاثةَ مليارات لأجل النفقات الحربيّة ، فقال الشيخُ على يوسف : إننى أشَمُّ رائحةَ الحرب . وخرجْنا من هذا البحثِ إلى قضية الجهة التى ينبغى أنْ تكونَ فيها الدولةُ فيما إذا نَشبَت الحربُ ، فقلتُ أنا : إنَّ الدولَ التى

---

(1) هو **رفيق بن محمود بن خليل العظم** (1284 – 1343هـ / 1867 – 1925م) ولد بدمشق ، وسافر إلى مصر 1316هـ ، واستقر بها ، من أهم كتبه (أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة) 4 أجزاء . وتوفى بالقاهرة .

غلبت على العالم الإسلامى وأخنت[1] على استقلال أكثره هنْ الدولُ المعاديات لألمانيا .
فقال الزهراوى : إذًا يجبُ أنْ نكونَ تحت حكم ألمانيا . . . فساءتْنى هذه الكلمةُ التى فيها تعريضٌ بأنّى سائرٌ على مَشْرَبِ الاتحاديِّين الذين كانت سياستُهم اتباعَ ألمانيا . فقلتُ له : بل يجبُ أنْ نكونَ تحتَ حُكْمِ إنكلترا . . . إشارةً إلى أنَّ ذلك الحزبَ من العرب جعلوا هذا قاعدةَ سياستِهم . فوقع حينئذ الجِدالُ ووصل إلى أنَّ الزهراوى عفا اللّه عنه قال : أينَ هى الدولةُ ؟ فقد ذهبتْ . فقلتُ له : إنَّها لم تذهبْ ، وأحدُ رجال إنجلترا نفسِها صرَّح مؤخَّرًا بأنَّ أمامَها مستقبَلاً عظيمًا ، ولكنَّكم أنتم لا تَزالون تَرْجُفُونَ بها ، وتَتَفَاءَلُون بسقوطها ، وتقولون هذا أمامَ الأجانب ، والحالُ أنَّكم تَعلمون أنَّه ليس لنا مائةُ دولة ، وأنَّها إذا سقطت لا نجدُ مَن يَسدُّ مَسَدَّها . فقال الزهراويّ : هَبْنَا كتمْنا هذا القولَ عن الأجانب أفلا يعرفُ هؤلاء الحقيقةَ ؟ ثم أخذَت الحِدَّةُ السيدَ رشيدًا وكان - رحمه اللّه - سريعَ البادرةِ فقال لى : أنت دائمًا تقولُ إنَّنا نرجُف بالدولة وتَفترِى علينا ، وأرادَ أنْ يُكْمِلَ ، فرددتُ تلك الكلمةَ عليه ، وقبلَ أنْ أُكملَ الجملةَ دخلَ الشيخُ على يوسف وحنفى بك ناجى بينَنا ، وسكَّنا كلاً من الفريقين . وهذه هى أول مرةٍ اختلفت فيها مع المترجَم . وقد تعمَّدتُ ذِكْرَ هذه الحادثةِ مع ما تقدَّمها من أسباب تلك الوحشة وذلك حتى لا يقولَ لى قائلٌ : إنَّك تَتكلَّمُ عن إخاء أربعينَ سنةً مع السيد رشيد رضا والحال أنَّ هذا الإخاءَ كان قد طرأ عليه ما طرأ . . . فأَحببْتُ أنْ أذكرَ كلَّ شىء على مذهبِ السيد رشيد نفسِه الذى كان لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً حتى يُسَجِّلَها فى رواياته .
وقد فعلتُ مثلَ هذا يومَ تأبينى للملك فيصل بن الحسين[2] - رحمه اللّه - فإنِّى بعدَ أنْ سردتُ فى سلسلة مقالات كيفيةَ مرضه ووفاته فى مدينة برن ونحن حولَه ، وذكرتُ ما كان بينى وبينه من المودَّة وما كان يَرجعُ فيه إلى رأيى فى المسائلِ العربية وفى قضيةِ الاتفاق بينَه وبينَ الملك ابن سعود وغيرِه ، ونشرتُ كثيرًا من مناقبِه لم أَغْفُلْ عن ذكرِ ما فصلَ بينَنا

---

(1) **أخنى على كذا** : أهلكه وأضاعه .

(2) **هو فيصل بن الحسين بن على الحسنى الهاشمى أبو غازى** ملك العراق (1300 - 1352هـ / 1883 - 1993م) ولد بالطائف ، تولى ملكًا على سورية 1920م ، وسافر إلى أوروبا بعد احتلال الجيش الفرنسى سوريا 1920م ، حضر مؤتمرًا دعت إليه بريطانيا فى القاهرة سنة 1921م ، فرُشح لملك العراق فتولاه سنة 1921م ، وتوفى فى (برن) عاصمة سويسرا ، ودفن بالعراق . (الأعلام : 5 / 165) .

فى أثناء الحرب العامة ، وكيف كان كلٌّ منا فى وادٍ . وإنَّنى مع ذلك كنتُ أعتقدُ إخلاصَه فى مذهبِه السياسىّ ، وكان هو أيضًا يعتقدُ إخلاصى فى مذهبى السياسىّ ، وطالما دافعَ عنى فى هذا الموضوعِ ، وردَّ كلام أعدائى الذين كانوا يَتَّهموننى بأنَّنى قاومتُ الحركةَ العربيةَ تحيُّزًا إلى الأتراك !!

ولما وضعَت الحربُ أوزارَها ، وتبينَّ الرُّشدُ من الغىّ ، وعرَف العربُ أنَّ الإنجليز غَدروا بهم ازدادَ الملكُ فيصلٌ اعتقادًا بى ، وعرَف أنِّى من أولِ الأمر لم أُعارِضْ تلك الحركةَ إلا خوفًا على العرب أنفسِهم وحرصًا على الجامعة الإسلامية .

وكذلك السيدُ رشيدٌ بالرغم مما وقعَ بيننا كان اعتقادى متينًا بإخلاصه ، وأنَّه لا يُمكن أنْ يُواطئَ على الإسلام فى كثير ولا قليل ولا فى المنام ، وأنَّه مع كراهيته للأتراك فى آخِرِ الأمرِ كان يُفَضِّلُهم على الإنجليز من جِهة كونهم مسلمينَ . على أنَّ هذا المجلسَ الذى وقع بيننا عند الشيخ على يوسف سنة 1912م فرّق بيننا مدةَ تسع سنوات ، وإن كان كلٌّ منا فى ذاتِ صدرِه بقى حريصًا على أخيه محبًّا أنْ يَسمعَ عنه الأخبار السارةَ . وفى أثناء الحرب انقطعت العَلاقاتُ بين البلاد العثمانية ومصرَ كما لا يَخفى إلا أنَّه كان يترامى إلينا من وقتٍ إلى آخَرَ أخبارٌ عن مصرَ وما يعملُ الإنجليزُ فيها . فجاءنا فى إحدى المرَّات أنَّ السيدَ رشيدًا هو من المغضوب عليهم عند الإنجليز لأنهم رغبوا إليه فى بثِّ الدِّعاية الإنجليزية ببلاد العرب فلم يستطعْ أنْ يجبَهَهم[1] عَلنًا ، وأظهر شيئًا من الموافقةِ لهم على مقاصدهم على صورةٍ أنْ يَبُثَّ الدعوةَ لفصل العرب عن التُّرك ، فوافقوه على ذلك إلا أنَّهم فيما بعدُ قبضوا على كتبٍ منه تتضمَّنُ التحذيرَ من الإنجليز أنفسِهم فى خبرٍ طويلٍ لا يَسَعُه هذا المقامُ . . . فقبضوا عليه ، وفكَّروا فى نفيه إلى مالطة فى جُملة من نَفَوْهُمْ ، وكادوا يفعلون إلا أنَّهم عادوا ففكَّروا أنَّ نَفْىَ مثلِ الشيخ رشيدٍ قد يُقرِّبُه من الأتراك ، ويَزيدُ الضررَ بسياستهم ، فتركوه فى مصرَ لكنْ تحتَ المراقبة الشديدة ، وسمعنا أيضًا خبرَ مجلسٍ تَداعىَ إليه بعض المشتغلين بالسياسة من السوريّين المقيمين بالقاهرة من مسلمين ونصارى ، فتكلَّموا فى برنامج يجبُ أنْ يُوضع للعلاقات التى ينبغى أنْ تكونَ

---

(1) جَبَهَهُ : قابله بما يكره .

بين العرب وإنجلترا ، فبينما هم فى الأخذ والرَّدِ إذ بدرتْ من بعض الحاضرين كلمةٌ فظيعةٌ بحقِّ الخلافة الإسلامية ، فنفرَ الشيخُ رشيدٌ بمجرَّدِ سماعها ، وخرج مُغاضبًا كما روى لى هو وغيرُه من حُضُورِ[1] ذلك المجلس مما لا نُريد الآن الخوضَ فى خبرِه . . . والخلاصةُ أنَّ السيدَ رشيدًا لَبِثَ إلى نهاية الحرب تحتَ مراقبة الإنجليز ، ولم يكن كغيرِه من أعداء الأتراك مَحَلا لثقة الحكومة الإنجليزية ولا ممن كانوا آلاتٍ فى أيدى الإنجليز يُحرِّكونهم كيف شاءوا . . .

ولما انتهت الحربُ العامة جاء السيدُ رشيدٌ إلى طرابلس الشام ، وزارَ بلدتَه القلمون ، ومنها جاء إلى بيروتَ ، وذهب إلى دمشق ، وفى أثناء تأسيس الحكومة السورية العربية التى كان أميرَها الملكُ فيصلُ بْنُ الحُسين انْتُخِبَ السيدُ رشيدٌ رئيسًا للمؤتمر السوريّ الذى كان هو مجلسَ الأمة السورية . وهذا دليل من أدلّة كثيرة على مكانتِه العظيمة فى نظر أهل بلادِه ، كما أنه كان من جُملة أعضاء المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى مكةَ المكرمة منذُ ثلاث عشرة سنة ، ثم انتخب من جُملةِ أعضاءِ اللجنةِ التنفيذية بأعظمِ مؤتمر إسلاميٍّ انعقد إلى الآن ، وهو مؤتمر القُدسِ الذى التَأَمَ مُذْ ستِّ سنوات .

ولما دخل الجيش الفرنسى إلى دمشقَ ، وقضى على الحكومةِ العربيةِ السورية بعدَ اتفاق انعقد بَين فرنسا وإنجلترا ، نقضت فيه إنجلترا عهدَها مع العرب نقضًا جديدًا ، وأباحت لفرنسا الاستيلاء على سوريا الداخلية بمقابلةِ تَرْكِ فرنسا دَعواها على ولايةِ المَوْصِلِ[2] ، رجع الشيخُ رشيدٌ من الشام إلى مصرَ ، وكان ذلك فى سنة 1920 المسيحية . ثم إنَّنا فكَّرنا – نحن السوريين والفلسطينيين – فى عقد مؤتمر بأوروبا لأجلِ الاحتجاج على احتلال الفرنسيين لسورية والإنجليز لفلسطين ، وتبادْلنا الأفكارَ فى هذا الموضوع إلى أنّ قرَّ رأيُنا على عقد هذا المؤتمر فى مدينةِ جنيف ، وكان للوجيه ميشال بك لطف اللَّه فى هذه القضيةِ خدمةٌ وطنية عظيمة لا تُنكر ، ومأثرةٌ عربية لا تُجحدُ فى هذا المشروعِ . فجاء إلى جنيف ومعه عِدَّةُ أشخاص من رجالات العرب من مسلمين

---

(1) جمعُ حاضرٍ ، أى مَن حضر .

(2) **المَوْصِلُ** : مدينة فى شمالى العراق الآن ، وهى قاعدة محافظة (نينوى) فتحها المسلمون سنة 636م .

ومسيحيين ، وكان السيدُ رشيدٌ فى مقدِّمتِهم ، ووافيناهم[1] يَومئذ من برلين حيث كنَّا مقيمين ، فاجتمْعنا فى جنيف بضعة عشر شخصًا بهم تألَّف المؤتمرُ السوريُّ الفلسطينيُّ ، فانتخبنا ميشال بك لطف اللّه رئيسًا والسيدَ رشيدًا نائبًا أولَ للرئاسة والحاجَّ توفيق حماد من أعيان فلسطين نائبًا ثانيًا ، وانْتُخِبَ هذا الفقيرُ ناموسًا[2] أوَّلاً للمؤتمر والأستاذُ توفيق اليازجى ناموسًا ثانيًا . وأما بقية الأعضاء فكانوا من سورية إحسان بك الجابرى ورياض بك الصلح ونجيب بك شقير وسليمان بك كنعان . ومن فلسطين وهبى أفندى العيسى وشبلى أفندى الجمل وأمين بك التميمى ، ولحق بنا فى الآخِرِ قادمًا من أمريكا الجنوبية طعان بك العماد ، فانعقدَ المؤتمرُ السوريُّ الفلسطينيُّ فى شهر أغسطس سنة 1921م ، ووضع نداءً للدُّول ولجمعية الأمم بعدَ المذاكرات المستمرة والبحث والتدقيق . فكان هذا النداءُ هو حجرَ الزاوية فى استقلال سوريا الذى عاد فتحقق بعدَ ست عشرة سنة من ذلك التاريخ . وسيكونُ أيضًا هو حجرَ الزاوية فى تحرير فلسطين الذى لا بُدَّ أنْ تظفرَ به العروبةُ ظَفَرًا تامًّا مهما قام فى وجهه من العقبات الأجنبية . وقُبيلَ انفضاض المؤتمر السوريِّ الفلسطينيِّ الذى اجتمع مدةَ شهرين انْتُخِبَ هذا العاجزُ وإحسانُ بك الجابرى وسليمان بك كنعان وفدًا يُمثلُه فى أوروبا ولدى جمعية الأمم . فأقمنا من ذلك اليوم فى سويسرا لنكونَ على مَقْرُبَةٍ من هذه العُصبة ، وبقينا ستة عشر عامًا نجاهدُ فى سبيلِ تحرير أوطاننا لدى عُصبة الأمم وفى جميع العواصم الأوروبية ، وبعد ثلاث سنوات من عمل الوفد السوريّ الفلسطينيّ رجع سليمان بك كنعان إلى وطنه لبنان ، فجاء رياضُ الصلح منضمًّا إلينا ، وبقى نحوًا من ثلاث سنوات معنا فى الجهاد . ثم رجع أيضًا إلى سوريا ، وبقيت أنا وإحسان بك الجابرى قائمين بهذه الخدمةِ إلى هذه الساعةِ . وعندما انعقد الاتفاقُ الأخيرُ فى السنة المنصرمة بينَنا وبين فرنسا ، وتألَّفت الحكومةُ الوطنية فى دمشق أردنا جمعَ ما تقدَّم منا فى الست عشرة سنة المذكورة من النداءات والمذكِّرات والاحتجاجات إلى جمعية الأُمم وما وَجَّهناه من المخاطبات إلى رجال الدُّول فوجدنا ذلك

---

(1) **وافى القومَ** : أتاهم .

(2) **النـامـوس** : صاحب السرّ .

يقعُ فى خمسة عشر إلى عشرين مجلدًا مما تتعذَّرُ النفقةُ اللازمةُ لأجل طبعِه . فقرَّرنا إهداءَ هذه الوثائقِ كلِّها إلى نظارة الخارجية السورية .

ثم أعودُ إلى سيرة السيد رشيدٍ وعَلاقاتى الشخصية معَه فأقول : إنه لما ظَهَرَ ما ظهر مِن نكثِ الإنجليز بالعهود التى قَطعوها للعرب فى أيام الحربِ وعَلِمَ هؤلاء أنَّ الذين كانوا يُحَذِّرُونَهم من مكايدِ الإنجليزِ ويُنْذِرُونهم بِسُوء المصير إذا استمعوا لهم ، وفى مقدِّمة هؤلاءِ كاتبُ هذه السطورِ ، لم يكونوا خائنينَ للقضية العربية ولا كان مقصدُهم ممالأة الأتراك على قومهم ، كما كان يزعم بعضُ سماسرة الأجانب ، فأخذَ كثيرون يتذكَّرون كلامى الذى كنت أنادى به بكرةً وأصيلاً قائلاً للعرب : إنَّكم ستندمون على مخالفةِ من وَثِقْتُمْ به . . . وسيطلع الفجرُ على كلِّ ذى عينين ، وصارت تَرِدُ إلَّى الرسائلُ من أناسٍ كثيرين من العرب الذين كانوا يسيئون الظَّنَّ بى ، ويحتجُّون على سياستى ، وقد أذْعَنُوا فيها بأنِّى كنتُ على صراط مستقيم ، وأنِّى كنتُ الوحيدَ الذى تَكَهَّنَ بحقيقة المصير ، وحقَّقَت الأيامُ كلامَه . وكتبتُ أنا بعدَ الحرب مقالات فى الصحف فى هذا الموضوعِ ، كان توقيعى فيها « عربىٌّ صميمٌ لم يَنخدعْ من القديم » ، وكان كثيرٌ من العرب الذين احترقتْ أكبادُهم من نَكْثِ الإنجليز بما عاهدُوا عليه العربَ ، وظهرتْ لهم كالشمس فى رائعةِ النهار سياسةُ إنجلترا الصهيونية - يقولون : إىْ واللَّه ما انخدع هذا الرجلُ من القديم ، وكأنَّه كان يقرأُ فى ظهرِ الغيب . وجاءنى مرَّةً كتابٌ من أحد إخوانى فى دمشقَ يُشير إلى هذا المعنى ، وكان يَخشى المراقبةَ على البريد فلم يَزِدْ على أنْ قال : الجميعُ يتذكَّرونكم ، ويُنشدون قولَكم : سيعلم قومى إلخ . وهذه الجملة لها حكاية .

فقد كان صديقى هذا يشيرُ إلى بيت من الشعر قلتُه من قصيدة فى صلاح الدين الأيوبى ، وكنتُ تلوتُ هذه القصيدةَ فى الآستانة بينَ يَدَى تمثيلِ روايةِ صلاحِ الدين التى قام بتمثيلها شُبَّانُ المنتدى العربىِّ ، فبعد أنْ ذكرتُ زحفَ الغرب على الشرق ، وقيامَ الشرقِ فى وجه الغرب ، وَبَيَّنْتُ أنَّ هذا الاعتداءَ من الغربِ على الشرقِ دَأْبٌ قديمٌ ، وأنَّ الحاضرَ ليس بحادثٍ جديد ، وإنما هو راجعٌ إلى أصل ، ونازعٌ إلى عِرْقٍ - قلتُ الأبياتِ التاليةَ :

فَيَا وَطَنى لا تَتْرك الحزمَ لحظةً   بعصرٍ أُحِيطتْ بالزحامِ مناهلُه

وكُن يَقِظًا لا تَسْتَنِمْ لمكيدةٍ ولا لكلامٍ يُشبهُ الحقَّ باطلُه

تذكَّر قديمَ الأمرِ تَعْلَمْ حَديثَه فكلُّ أخيرٍ قد نَمتهُ أوائلُه

وكيدٍ على الأتراكِ قَبْلَ مُصَوَّبٍ ولكنْ لصيدِ الأمّتين حبائلُه

إذا غالت الجُلّى أخاك فإنه لقد غالك الأمرُ الذى هو غائلُه

فليستْ بغيرِ الاتحادِ وسيلةٌ لمنَ عَاف أنْ تُغْشَى عليه منازلُه

وليس لنا غيرُ الهلالِ مِظَلَّةٌ يَنالُ لديها العزَّ مَنْ هو آملُه

ولو لم يُفْدِنا عِبْرَةَ خَطْبُ غَيرِنا لهان ولكنْ عندنا مَن نُسائلُه

سيعلمُ قومى أنَّنى لا أَغُشُّهم ومهما استطال الليلُ فالصبحُ واصلُه

وقد كان السيدُ رشيدٌ فى طليعةِ مَن تذكَّرنى ، وبدأ وهو فى الشام بتكليف بعض مَن يُراسلنى بإهدائى سلامَه ، فأجبتُ بالمثل ، فعاد وكتبَ إلَّى رأسًا يقولُ لى ما معناه : إنه مَضى الذى مَضى ، وصار علينا أنْ نجتمعَ ونتفقَ لأجل معالجة الحال الحاضرة . وقد كان هذا دَأْبَ كثير من المخلصين الذين قاوموا سياستى قبلَ الحرب وفى أثنائها ، وكانت مقاومتهم عن عقيدة واقتناع . فلما انجلى الغبارُ ، وانكشفت الأسرارُ ، وعرَفوا أنِّى ما تَكَهَّنْتُ إلا بما وقعَ عادوا فوضعوا أيديهم فى يدى ، وعوَّلوا علَّى . ومِن هؤلاء الملكُ فيصلٌ – رحمه اللّه – فإنَّه ما سقط عن عرشه فى دمشقَ حتى أرسلَ إلَّى بمكانى من برلين رسالةً تَدُلُّ على مُنتهى الثقةِ ومزيدِ الاعتقاد بإخلاصى للقضية العربية ، وأفضى إلَّى بأسرارٍ لا يُفضى بها إلى أعزِّ الناس عليه . وبعدَ ذلك بسنواتٍ جاءنى منه كتابٌ هو عندى يقولُ لى فيه : أشهدُ بأنَّك أولُ مَن تكلَّم معى من العربِ فى قضيةِ الوحدة العربية .

فإذا كان هذا مبلغَ ثقةِ فيصلٍ بى بالرغم مما شجرَ بينى وبينَه فى أثناءِ الحربِ فما ظنُّك بالسيدِ رشيدٍ الذى كنتُ أَمُتُّ إليه وكان يَمُتُّ إلَّى بأواصرَ رُوحيةٍ لا تُوجد بينى وبين شخصٍ آخرَ من العرب . فقد كان رُجوعنا إلى الإخاء القديم أمرًا طبيعيًّا ، واستُؤنِفَتْ بيننا المكاتبةُ . وكان أصلُ الفكرة بعقد المؤتمر السوريّ الفلسطينيّ فى أوروبا هو منِّى

ومنه ، ووافقَ ذلك آراءَ إخواننا الآخرين ، وما لبثوا أنْ أقبلوا على جنيف ، ووافيتُهم أنا من برلين . وقد ذكرتُ فى مقالات التأبين التى نشرتها عندَ فَقْدِ السيدِ رشيدٍ قصةَ سياحتِه فى سويسرا وألمانيا وأنا معه مما لا حاجةَ إلى إعادته . ثم إنَّنى بعد إيابه إلى مصر أرسلتُ إليه بمذكِّراتى عن أيام الحرب وما قمتُ به فى سورية من خدمة أبناء وطنى وتلطيفِ ويْلاتهم فى تلك الأيام العصيبةِ . وكنتُ قد رَوَيْتُ للشيخِ رشيدٍ جميعَ ذلك مشافهةً ، وأخبرتُه بخبر جمال باشا ومقاومتى له ومحاولتى ردعَه عمَّا أتاه[1] من الأعمال التى أغضبتْ العربَ ، وأضرّتْ أبلغَ الضررِ بالدولة العثمانية . فأشارَ الشيخُ بنشر ذلك فى المنارِ بقوله إنَّ هناك أعداءً يقولون العكسَ . فبعثتُ إليه بسلسلةِ رسائلَ نشرها كلَّها فى المنار ، وجعل لها مقدمَة أفضَى فيها بكلِّ ما كان عنده من حُسن الظنِّ بى . وقد كانت هذه المذكِّراتُ أولَ ما كتبتُه بعدَ الحرب فى هذا الموضوع ، ثم اقترحَ علَّى أُناسٌ فى أمريكا سنة 1927م ، وأنا يومئذ هناك ، نَشْرَ ما أعرفه من ذلك الموضوع بحجَّة أنَّهم لم يَطَّلعُوا على المنار . فأمليتُ سلسلة مقالاتٍ نَشَرَتْها جريدةُ (مرآة الغرب) فى نيويورك ، وكانت أَوْفى وأتمَّ تفصيلاً مما نُشر فى المنار . ثم كتبتُ هذا التاريخَ مرَّةً ثالثةً فى ضمنِ ترجمة نفسى ، واستودعتُه مكتبَ المؤتمر الإسلامىّ فى القُدس بعدَ الاحتياط له بالتصديق والتسجيل ، وذلك حتى يُنْشَرَ بعدَ وفاتى .

هذا ومن سنة 1921م إلى السنة الفائتة نشرتُ فى المنارِ مقالاتٍ كثيرة لا يَسَعُ هذا الكتابُ إيرادَها كلَّها ، ويجوزُ أنْ أنقلَ بعضَها مما هو بسبيلٍ من كتابنا هذا ، كما أنَّنى سأنشر أكثرَ رسائله الخاصة إلىَّ ، وقد كنتُ أدعوه كلَّ سنة تقريبًا أنْ يأتى إلى سويسرا ويصطافَ عندى تبديلاً للهواء وطلبًا للاستجمام ، فكان يعتذرُ بكثرة شواغله . ولم أكنْ أَرَى فى عصرنا هذا أصبرَ على الكتابة وأَجْلَدَ على الشغل وأسيلَ قلمًا وأسرعَ خاطرًا من الشيخ رشيد : فلو وزَّعنا ما كتبَه بقلمِه وبخطِّ بنانه فى حياته على خمسين كاتبًا لأصاب كلاً منهم قِسْطٌ يُجدرُ بأنْ يجعلَه فى صفِّ المؤلفينَ العاملينَ . وقائل هذا القولِ الآن ليس ممن يأخذُه العجبُ فى هذا الموضوع لأدنى شىء ، بل هو معروفٌ بأنه لا يُضَيِّعُ دقيقةً واحدةً

---

(1) أتى الأمرَ : فعله .

من وقتِه ، وأنَّه يتلقَّى أكثرَ مِن ألفى مكتوب فى دَوْرِ[1] السنة ، فيجيب عليها كلِّها ، ويكتبُ زيادةً عليها مائتين إلى مائتين وخمسين مقالةً فى دَوْرِ السنة ، ويَنشر من التآليفِ بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفًا ، فلستُ إذًا لِأَغْبِطَ أحدًا من الخَلْقِ على شأوٍ بعيد فى الجِدِّ ولا على محصولٍ غزيرٍ من ثمرات الأقلام . ولكنِّى لا أدْعى مباراةَ السيدِ رشيدٍ فى هذا الشأوِ ، فقد كان يكتبُ جميعَ ما يكتبُه بخطِّ أنامله ، ولم أعلم أنه استعملَ كاتبًا يُملى عليه إلا فى ما نَدَر . والحالُ أنَّنى أنا أصغرُ منه ببضع سنوات ، وأنِّى منذُ عشر سنوات تقريبًا أستعينُ بكُتاب أُملى عليهم سواءً الرسائلُ الإخوانيةُ أو المقالاتُ السياسيَّةُ أو العلميَّةُ . ومما أَدهشنى أنَّ كتابَه الأخير إلَّى كان قبلَ وفاته بأيام قلائل ، وكان يَشكو إلَّى فيه المرضَ ، وهو أيضًا بخطِّه .

وفى سنة 1347هـ حَجَجْتُ بيتَ اللَّه الحرام ، وكنتُ أرجو أنْ أمرَّ بمصر القاهرة فمنعتنى السلطةُ من الدخول إلى مصر لأسباب ليس هنا مَحَلُّ ذكرِها ، وكانوا يُريدون أيضًا أنْ يَمنعونى من النزول فى بور سعيد حتى إنَّ شركة (هانزه) الألمانية عرضَت علَّى أنْ أركبَ إحدى بواخرِها على أنْ تسيرَ بى مِن بور سعيد إلى جُدَّةَ ، ولو لم يكن من عادة بواخرِ هذه الشركة المرور بجُدَّة ، إلا أنَّ الحكومَةَ المصرية فى آخرِ الأمر - بسعى السيدِ رشيدٍ وأحمد زكى باشا وغيرِهما من الإخوان - رَضِيَتْ بأنْ أبيتَ ليلةً فى بور سعيد ، ومنها أذهبُ إلى السويس ثانى يوم حيثُ أركبُ البحرَ إلى جُدَّة ، فلما أذِنوا لى فى النزول ببور سعيد أقبل علينا الإخوانُ الجمَّاءَ الغفيرَ[2] ، وفى مقدمتهم الأستاذُ المترجَم ، وبعدَ أن جلسوا عندنا عدةَ ساعات أرادوا الانصرافَ ، ومنهم من كانت تَستدعى أشغالُه سرعةَ الإياب إلى القاهرة ، فلمَّا تحرَّك الأستاذُ للانصراف قلتُ له : لا . من البحرِ الأبيضِ إلى البحر الأحمرِ لا يُفارق أحدُنا الآخرَ . فبقى معى إلى أنْ ركبتُ البحرَ فى السويس ، وكتب عن حِجَّتى هذه فصلاً فى المنار ، ثم إنى فى أَوبتى[3] من الحجاز حصلتُ على رُخصة بالمرور بالسويس لأشاهدَ سيدتى الوالدةَ التى أتت من سورية

(1) أى طوال السَّنة .

(2) أى كثيرين مجتمعين .

(3) أوبتى : عودتى .

لمشاهدتى ومعها ابنُ عمِّى الأميرُ أمينُ مصطفى أرسلان ، فأقبل أيضًا جَمٌّ[1] من إخواننا إلى السويس ، ومنهم مَن أقام يومًا ومنهم مَن أقام يومين ، ولكنَّ السيدَ رشيدًا بَقى ملازمًا لى مُذْ وطئتُ ميناءَ السويس إلى أنْ ركبتُ الباخرةَ من بور سعيد . فأكونُ شاهدتُه مرَّتين بعدَ أنْ رجعَ مِن أوروبا إلى مصرَ ، وشاهدتُه أيضًا مرَّةً ثالثةً ، وهذه سنةَ 1934م عندما قرَّرتْ لجنةُ المؤتمر الإسلامى فى القدُس إرسالَ وفدٍ مؤلَّف من الحاجِّ أمين الحسينى وهاشم بك الإتاسى ومحمد على باشا علوبة وكاتبِ هذه السطور إلى جزيرة العرب للإصلاح بين جلالةِ الملك ابنِ سُعود وجلالة الإمام يَحيى ، وقد أمَّلَ الشيخُ رشيدٌ فى هذه النَوبة أنَّ الحكومَةَ المصريَة تأذنُ لى فى المرورِ بمصرَ ، وشرع فى تهيئةِ دائرةٍ خاصةٍ بى فى منزلِه بشارع الإنشاء ، فخاب هذا الأملُ هذه المرَّةَ أيضًا . وعندما جئتُ بالطيارة من برنديزى إلى الإسكندرية وجدتُ فى استقبالى ماجورًا إنجليزيًا ومعه جماعةٌ من الضباط ، وعلمت أنه لن يُؤْذَنَ لأَحَدٍ بمكالمتى ولا بمواجهتى إلى أنْ أكونَ ركبتُ الباخرةَ من بور سعيد ، فسرنا من الإسكندرية بالقطار الحديدى إلى السويس ، وفى أثناءِ الطريق لا أعلمُ بأيَّةِ مَحطة وجدتُ السيدَ رشيدًا قد صَعَدَ إلى القطار ، وأقبلَ علَّى فى العربة التى أنا جالسٌ فيها . وكان الماجور الإنجليزى يمنع كلَّ إنسانٍ من الاتصال بى ، وكاد يدخل فى صراع مع السيد محمد على الطاهر[2] صاحب جريدة (الشورى) الذى حاول مصافحتى بالرَّغم منه . فلما رأيتُ السيدَ رشيدًا أمامَ بابِ العربة نهضتُ مُسرعًا ، وقلت للماجور الإنجليزى : لا بُدَّ لى من مصافحة هذا الإمام الكبير ، ولك أنْ تفعلَ ما تشاء ، فصافحتُه ورجعتُ إلى مكانى ، ولكنْ لم يقعْ بيننا كلامٌ ، وركب السيدُ فى عربة أُخرى من القطار .

ثم إنَّنا فى الإسماعيلية قَدِمَ علينا إخوانُنا الحاجّ أمين الحسينى ومحمد على باشا علوبة وهاشم بك الإتاسى ، وأرادوا أنْ يَتصلوا بى فأبلَغَهم الماجورُ أنَّ ذلك ممنوع بأمر

---

(1) جم : كثير .
(2) صحفى فلسطينى (1312 - 1394هـ / 1894 - 1974م) ولد بنابلس ، وسافر إلى مصر صغيرًا ، وأصدر جريدة الشورى ، وسجن مرات ، وغادر إلى بيروت بعد ثورة يوليو وتوفى بها . (الأعلام : 6 / 310) .

الحكومة ، فقالوا له : نحن رِفاق هذا الرجلِ فى السَّفر إلى الحجاز ولا نُقاس بغيرنا ، فأجابهم إنه مأمورٌ بمنعِهم هم أيضًا من الاجتماع بى فى أرض مصرَ إلى أنْ نكونَ صِرْنا فى البحر ، فقضى الناس العجب[1] من هذه الفلسفة . . . وكنتُ خرجتُ من القطار لأجل إرسالِ برقيّةٍ من محطةٍ فى الطريق فلمّا وقع علىَّ بصرُ الشيخِ رشيدٍ قال لى هذه الكلمةَ بصوت عالٍ : لا عَجَبَ . وهذه آخرُ كلمة سمعتُها من فمه قدّس اللّه رُوحه . وحاول فى السويس أنْ يُقابلنى فلم يسمحوا له ، وإنما اجتمع برفاقى المشارِ إليهم ، وما زدتُ فى السويس على أنْ شاهدتُه عن بعدٍ ، وكانت هى النظرةَ الأخيرةَ ، وتَفارَقْنا الفِراقَ الذى لا لقاءَ بعدَه بالجسم ، وإنْ كان مستمرًا بالرُّوح . ولم أكنْ أقطعُ الأمل من مشاهدتهِ فى يومٍ من الأيام ، ولكنَّ الآجالَ طالما قضتْ على الآمال ، وليس فى مكارِه هذه الحياةِ أشدُّ على المرء من مفارقة الأحباب لا سيما إذا كان فِرَاقًا أبديًا . فيَا لَهَوْلِ ما لقيتُ عندما جاءنى نعىُ السيدِ رشيدٍ إذ أنا فى جنيف ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللّه العلىِّ العظيم .

علاقةُ السيّدِ رشيدٍ بالشيخِ محمّد عبده

مُلخَّصًا عن الجزءِ الأولِ من (تاريخ الأستاذ الإمام)[2]

قال : لم يكنْ أحدٌ يَجهلُ فى عهدِ الأستاذِ الإمام أنّنى كنتُ معه فى سِنىّ جهادِه الأخير كما كان هو مع السيد جمال الدين فى مصرَ وباريسَ ، وكنتُ معه كما قال هو للأستاذ الشيخ محمد شاكر « تَرْجُمانَ أفكارِه » ، وكنتُ مُستودَعَ أسراره والداعيةَ له والمدافعَ عنه فى كلِّ معركةٍ من معارِك جهادِه ، أكتبُ بشأنِها فى المنار ما يَليق بعلاقتى به وفى الجرائدِ اليوميةِ ما يكتبُه مَن لا يَعنيه إلا إظهارُ الحقِّ والمصلحةِ ، وفوقَ ذلك إنّنا كنّا على اتفاق فى العقيدة والرأى فى جميع ما يَنشُره المنارُ إلا مسائلَ الدولة العثمانية وسلطانِها ، فإنَّها من

(1) أىْ كان العجبُ عظيمًا والذى ورد فى (المعجم الوسيط : ق . ض . ى) : لا أقضى منه العجب (لا يستعمل إلا منفيًا) .

(2) هو كتاب ألَّفه **الشيخ محمد رشيد رضا** عن حياة **الأستاذ الإمام محمد عبده** وفكره .

السياسة التى كان يبغضُها(★) ، وقد مرَّت الشواهدُ على ذلك فى عدّةِ مواضعَ : من أهمِّها سعىُ سُمو الخديو للتفريق بينَنا ومن قولِ الأستاذ أبى شادى بك : إننا رجلٌ واحدٌ . فوجبَ أنْ أَبسطَ فى هذا التاريخ بَدءَ هذه العَلاقةِ وما انتهت إليه ، ووضعتُها ههنا لأنَّ عملى فى الإصلاح والتجديد مُتَمِّمٌ لعملِهِ ، كما كان عملُه مُتَمِّمًا لعملِ السيدِ جمالِ الدِّينِ من الوجهةِ الدينيّةِ والمدنيّةِ ، وكان عملُ سعدِ باشا زغلول فى جمعِ كلمةِ الشَّعبِ المصرىّ مُتَمِّمًا لعملِهما من بعض نواحيها السياسية .

ولقد قال له صديقُه القديمُ محمود سامى باشا البارودىّ[1] فى أَوّلِ تلاقيهما بعدَ عودة الباشا من مَنفاه فى جزيرة سِيلان الهندية : إنَّ السيدَ جمالَ الدينِ قد تركك لنا فقمتَ بالإصلاح بعدَه خيرَ قيام ، وإنِّى لخائفٌ أنْ تنقطعَ السلسلةُ بعدَك ، فَبَشِّرْنى هل عندك أحدٌ ترجو أنْ يَتَّصلَ به سيرُ الإصلاح ؟ قال : نعم عندى شابٌّ سورىٌّ يقومُ بذلك ، وسأرسلُه إليك لتتعارفا . أخبرَنى الأستاذ الإمامُ نفسُه بهذا ، وأرسلَنى إلى الباشا لنتعارَف ، فتعارفْنا وتآلَفنا ، وكان – رحمه اللَّه – أشدَّ الناسِ عِشقًا للمنار حتى كان يَطلبُ ما طُبعِ مِن كلِّ جزء منه قبلَ أنْ يَتِمَّ طبعُه .

ذكرتُ فى ترجمة السيد جمالِ الدين من هذا الكتابِ[2] (ص 84) خبرَ عشقى له وكتابى إليه بالرغبة فى صُحبته لتلقِّى الحكمةِ منه ، وأنَّ سببَ عشقِه وعشقِ الأستاذِ الإمام هو قراءةُ جريدتِهما (العُروة الوثقى) ، وأنَّ ذلك كان سنة 1310هـ إذ كنتُ أطلبُ العلمَ فى طرابلس الشام ، ثم بَيَّنْتُ ما كان من تأثير « العُروة » فى نفسى فى فصلٍ عَقَدْتُهُ للكلام على تأثيرها فى العالمِ الإسلامى (ص 303) ، ثم ذكرتُ لقائى للأستاذ أولَ مرَّةٍ فى

(★) كان الشيخ **محمد عبده** مع معرفتِه بما كان من الخَلل فى إدارة الدولة العثمانية لا يَكره هذه الدولةَ ، بل كان يُحب بقاءَها ، ويهتمُ بإصلاحها ، والشيخُ رشيدٌ نفسُه نقل عنه أنه قال له عن الدولةِ العثمانيةِ إنها سياجٌ فى الجُملة . وقد سمعتُه أنا مرَّةً يقول : يتهمنى بعضُهم بأنّى ضدُّ الدولة العثمانية ، وكيف يُعقلُ أنْ أكونَ ضدّها وأنا أَعلمُ أنّها إذا زالت فى هذا الوقتِ يَبقى المسلمون كالأيتام .

(1) هـو **محـمود سامـى بن حســن حسنــى بن عبـد الله البارودى** نسبة إلى مدينة (إيتاى البارود) (1255 – 1322هـ / 1839 – 1904م) ، تعلم فى المدرسة الحربية ، وشارك فى الثورة العرابية ، ونفى 17 عامًا فى جزيرة (سيلان) ، وكفّ بصره ، عاد إلى مصر سنة 1317هـ / 1899م ، هو رائد الشعر الحديث . (الأعلام : 7/ 171) .

(2) تاريخ الأستاذ الإمام .

طرابلس الشام بعد عودتِه من أوروبا وما كان من إكبارى له وإعجابى بكلامِه (ص 390) ، وما كان ذلك إلا ساعةً أو سويعةً مِن الزّمان .

وقد لقيتُه مرّةً ثانيةً فى طرابلسَ إذ كان جاء سوريةَ مصطافًا ، وكان يَصحبُه أحمدُ فتحى بك زغلول من خواصِّ مُريديه (وكان رئيسَ نيابة الإسكندرية) ، فدعاه كبيرُ عشائر لواء طرابلس محمدُ باشا المحمد المرعبى الشهيرُ إلى ضيافتِه فى مَزارعِه الواسعةِ فى عكار فأجاب ، ورأى من حفاوةِ هذا الأميرِ ما لَم يَرَهُ فى مكان : من ذلك أنَّ الأستاذَ الإمامَ كان فى بعلبك على ما أذكرُ ولم يُعَيِّنْ الطريقَ التى يَسلكها إلى بلد الباشا التى يَنتظرُه فيها من عكار ، فأرسلَ الباشا إلى كلِّ طريق من الطرق الموصِّلة إلى بلدِه (برقايل) كوكبةً من الفرسان ممتطيةً جيادها العربيةَ مُشْرِعَةً رماحَها الخَطِّيَةَ فصادفته إحداها فجاءت فى خِدمته . ثم كانت الأخريات تعودُ تترى[1] كلَّما وصلت واحدةٌ منها قالت : يا سعادةَ الباشا ما وجدْنا للضيف أثرًا . وكان الأستاذ الإمام فى مدّة وجودِه فى عكار متنقِّلاً بينَ مزارع الباشا وقراه يركبُ معه ومع آلِه وعشيرته فَرَسًا مِن هذه الجياد العربية تتوقَّل[2] به الجبال ، وتهبط الأودية ، وتسبحُ فى السهول ، وقد دعا الباشا لأجله أشهرَ علماء طرابلس ليأنَسَ بهم .

وكنتُ فى طرابلسَ أتنسَّمُ أخبارَ عودتِه كلَّ يوم ، فوصل إليها ليلاً ، ونزلَ فى دارِ صديقهِ الأستاذِ عبدِ العزيز أفندى سلطان(★) الذى كان مُدَرِّسًا للقانون فى المدرسة السلطانية ببيروتَ أيامَ كان الأستاذُ مُدَرِّسًا فيها ، ذهبتُ فى الصباح لزيارتِه فقيل لى إنه ذهبَ لحَمَّامِ عز الدين ، فجئتُ الحمامَ ، وانتظرتُ فى مَحَلِّ الجلوسِ الخارجىِّ رَيْثما يخرجُ ، وكان فى انتظارِه بعضُ العلماء ، فخرجَ قبلَه أحمد فتحى بك زغلول فعرّفه بى الأستاذُ الشيخُ خيرُ الدين الميقاتى ، وذكر له حُبىَ للأستاذِ وللسيدِ جمالِ الدِّين

---

(1) **تترى** : تتتابع .

(2) **وقَّل فى الجبل** : صَعَّد فيه .

(★) كان المرحومُ **عبدُ العزيز أفندى سلطان** مِن أعزِّ إخوانى ، وكان من أمثل أُدباءِ سُورية وأشدِّهم ذكاءً ، ولكنْ لم يكنْ حظُّه بقدر عقلِهِ ، وتُوفِّى فى دمشقَ وهو رئيسٌ لمحكمة التِّجارة فيها .

وتَشَيُّعى[1] لهما ، وكان مما قاله إنه أبلغُ كاتبٍ عندنا ، ولا يَعدله أستاذ فى الإنشاءِ إلا الشيخُ محمدُ عبده ، وهو لم يَلقَهُ ، فقال له فتحى بك : كذلك عندنا الكُتَّابُ المجيدون فى مصرَ كلُّهم يَعترفون بأنه لا أُستاذَ لهم فى الإنشاء إلا الأستاذَ أو السيدَ جمالَ الدين . ثم خرجَ الأستاذُ فَسَلَّمْتُ عليه ، وقد تذكَّر تلاقينا تلك السويعةَ منذُ بضع سنين ، وكنتُ ألازمُه مدَّةَ وجودِه فى طرابلسَ من أولِ النهار إلى وقتِ النومِ ، وكان فى مجالس التنزُّه فى حديقة التلّ وفى السمر ليلاً لا تلَقاهُ إلا مسئولاً ، فكان سبعةُ أعشار الحديثِ له أو أكثرُ .

ولكنَّ محمد باشا المحمد اضطرَّه إلى سؤاله والسماع لحديثه فى أيام ضيافته له إذْ ذُكرتْ أنسابُ العرب ، فكان الباشا يَذْكُرُ اتصالَ قبائلِ هذا العصرِ بالقبائل المدَونة فى الكتب كتاريخ ابن خلدون وغيره ، وكان للباشا باعٌ طويل فى ذلك[★] ، فكان الأستاذُ يسألُه التفصيلَ ويُعْجَبُ بأجوبتِه .

وقد أطرى فى بعض مجالسه الشيخ أحمدَ فارس الشدياق[2] فى اللغة والإنشاء ، فقلتُ له : أينَ هو مِن أُسلوبِ (العُروة الوثقى) الرفيع ووضعِكم لفرائد اللغة الطريفة فى مواضعها منها ؟ قال تلك ألفاظٌ نُديرها أما الشيخُ أحمدُ فارس فهو إمامٌ فى اللغة . وأما أُسلوبُه فى الكتابة فغريبٌ قلَّما فَطِنَ له الأدباء : ذلك أنَّه خدم الدولةَ الإنجليزيةَ فى الآستانة عشرين سنةً بما كان يعتقدُ جميعُ قُرَّاءِ جريدتِه « الجوائب » أنَّه خدمةٌ للدولة فقط إذ أَقْنَعَ مسلمى الهند بل العالَمَ الإسلاميَّ كلَّه أنَّ هذه الدولةَ صديقةٌ للسلطان ودولتِهِ ونصيرةٌ لهما . وقد عجِبنا من تفضيلِهِ لأحمد فارس على نفسه فى الإنشاء ، وهو أبلغُ منه .

---

(1) **تَشَيُّعى** : انتمائى .

(★) كان **محمدُ باشا المحمد المرعبى** بقيةَ مَنْ بقى من أمراء سورية الكبار على ما كانوا عليه من عُلوِّ الهمّةِ والنَّبالةِ والكرمِ وحسنِ الضيافة ، وقد عرَفته فى بيروتَ إذ جاءها مرّةً وذلك إذ كنتُ فى ريعان شبَابى ، وكان له ميلٌ إلى التاريخ ، وعلمتُ أنه قرأ كتابى « آخر بنى سراج وخلاصة تاريخ الأندلس » مرَّتين ، وكانت وفاتُه فى الحجاز حاجًّا ، وقد تجاوز سنَّ الثمانين . هذا وبين عائلتنا والعائلةِ المرعبية صداقةٌ قديمة يتذكّرها كلُّ فريق من العائلتين ، وكان محمد باشا المحمد يُحدثنى عنها .

(2) هو **أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق** (1219 – 1304هـ / 1804 – 1887م) ولد بلبنان ، وسافر إلى تونس ، واعتنق الإسلام بها ، تنقل إلى تونس ومصر ومالطة وأوروبا والآستانة ، وبها توفى ، له مؤلفات كثيرة أشهرها (الجاسوس على القاموس) . (أعلام اللبنانيين : 75) .

وكان مما سألتُه عنه إسلام مسلمى ليفربول من بلاد الإنجليز : أهو إسلامٌ صحيحٌ أم سياسىٌ ؟ قال السياسةُ لا تأتى من العامة وهؤلاء من العامة . وقد تعارفْنا فى هذه المرةِ ، وكان كلَّما كتب إلى عبد العزيز سلطان يُسَلِّمُ علىَّ .

وكان مما أَعجبنى من كلامه ، وكلُّه حِكَمٌ كالدُّرَرِ ، أَنَّه لما أرادَ السفرَ من طرابلسَ إلى مصرَ طَفِقَ العلماءُ والوُجهاءُ يُلِحُّونَ عليه رَاجينَ أَنْ يُطيلَ إقامتَه عندَهم أسبوعًا على الأقل ، فقال إذًا نصلُ بعد انتهاء الإجازة بأيام . قلتُ له : وهل فى هذا تبعةٌ أو مسئولية ؟ قال : نعم نحتاجُ إلى الاعتذار إلى ناظر الحقَّانية ، فتذكرتُ حديثَ : « إياك وكلَّ أمرٍ يُعتذر منه »[1] . رواه الضياء المقدسى فى أحاديثه المختارة عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبى ﷺ .

ولما قضى السيدُ جمالُ الدين نحبَه بالآستانة فى شوال سنة 1314هـ (مارس 1896م) أجمعتُ الرأى على الهجرة إلى مصرَ للاتصال بوارث علمِه وحكمتِه الأستاذِ الإمام لِتَلَقِّى الحكمةِ منه والوقوفِ على رأيه ونتائجِ اختباره فى الإصلاح الإسلامى . وكنتُ قد نلتُ من شُيوخى شهادةَ التدريس (العالِمية) ، فَطَفِقْتُ أُمهدُ السبيلَ لإرضاءِ والدى بهذا السفرِ حتى رضى . وأما الوالدةُ فكانت توافقُنى على كلِّ ما أقولُ لها إنَّ فيه فائدةً لى (رضى اللَّه عنهما) .

(إلى أنْ قال) : وسافرتُ مِن طنطا يومَ السبت 23 رجبَ إلى القاهرةِ قبلَ الظهرِ . وفى ضَحوةِ يومِ الأحد ذهبتُ إلى زيارة الأستاذ الإمام بدارِه فى الناصرية ومعى صديقى الأستاذُ الشيخُ إسماعيلُ الحافظ ورفيقى الشيخُ أبو النهى القاوقجى ، فلما بلغناها أرسلتُ إليه بطاقة الزيارة ، فما لَبِثَ أنْ نزلَ وهى بيدهِ ، وطفِقَ بعدَ السلامِ يسألنى عن أصحابِه فى طرابلسَ : الأستاذِ الشيخِ حسينِ الجسر ودُروسِه وجريدةِ طرابلسَ التى ينشرُ فيها مقالاتِه والشيخِ عبدِ اللَّه البركة والشيخِ عبدِ اللَّه المسقاوى وعبدِ العزيز أفندى سلطان ومحمدِ باشا المحمد .

---

(1) انظر : السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (1/ 142) ، (3/ 408) .

ثم قلتُ له إنَّ غرضى الأولَ من الهجرةِ إلى مصرَ تلقِّى الحِكمة عنه ، وإنَّنى أعتقدُ أنَّه بقيةُ رجاء المسلمين ، وأنه موجِّهُ غايته لإصلاح الأزهر . فتكلَّمَ فى مسألةِ الأزهرِ ومسألةِ إلزامِ الخديو توفيق باشا إيَّاه أنْ يكونَ قاضيًا فى المحاكمِ الأهلية بما نشرتُه فى أولِ الكلامِ على عملِه فى إصلاحِ الأزهرِ . ثم تكَلَّم فى مسألة السياسةِ بما نقلتُه عنه فى موضوعِ رأيه فى السياسة . ثمَّ قال إنَّ المسلمينَ فى يأسٍ من كلِّ خيرٍ ونجاحٍ إلا إيَّاى ، فإن لى أملاً كاملاً ، ويُوجد رجلٌ آخرُ فى مصرَ له نصفُ أمل . وقد علمتُ بعدَ ذلك أنَّ هذا الرجلَ هو صديقُه الشيخُ عبدُ الكريم سلمان[1] .

(إلى أنْ قال) : قلتُ له إنَّنى مررتُ بطنطا فرأيتُ فى مسجدِ السيدِ البدوىِّ ما لم أرَ مثلَه مِن الطَّواف بقفصِ القبرِ وطلبِ الحوائجِ منه . . . فذكرَ لى أنَّ أحدَ وُجهاء المصريينَ كان عندَه فى أثناءِ مولدِ السيدةِ زينبَ رضى اللَّه عنها مِن هذا الشهرِ (رجبَ) مع جماعةٍ آخرينَ ، فقام الوجيهُ ، وقال إنه ذاهبٌ لزيارةِ السيدةِ (قال) فقلتُ له : لِمَ خَصَّصْتَ الزيارةَ بهذا اليومِ ؟ قال : لأنه يومُ المولدِ ، وإنَّ هذه الليلةَ هى الليلةُ الكبيرةُ .

«قلت : ما هذا المولِدُ ؟ أنا لا أفهمُ معنى لهذا اللفظِ هل يومُ المولد أو الليلةُ الكبيرةُ مِن لياليه عبارةٌ عن ليلةٍ تخرجُ السيدةُ فيها للقاء الزائرين ؟ قال : ونهيتُه عن الذهابِ فلم ينتهِ وهمَّ بالخروج . فقلتُ له : إنَّنى لستُ مازحًا ، وإنَّما أتكلَّمُ الجِدَّ وأقولُ : إنَّ هذا العملَ من أعمال الوثنيين ، وإنَّ الإسلامَ يأباه . كُلُّ آياتِ القرآن فى التوحيدِ تَنهى عن هذا وتَذُمُّه . إنَّ الفاتحةَ التى تقرؤونها كلَّ يوم فى صلاتِكم مرارًا تنهاكم عن هذا العمل – تخاطبون اللَّه تعالى فيها بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] كذبًا فإنَّكم تَستعينون غيرَه وتعبدون غيرَه ، ثم إنَّ عملَكم هذا متناقضٌ حيث تُهْدُونَ الفاتحةَ إلى مَن تزورونه إذ معناه أنه محتاجٌ إليكم وينتفعُ بفاتحتكم ، ثم تطلبون منه قضاءَ حوائجكم » . . إلخ .

---

(1) سبقت ترجمته ، وقد كان ينقم على الشيخ رشيد مكانته من الأستاذ الإمام محمد عبده .

ثم كنتُ أختلفُ[1] إلى دارِه بإذنه فيقابلنى فى حُجرة النوم والمطالعة والكتابة كما يُقابل بعضَ خواصِّ أصحابه أحيانًا ، وأما سائرُ الناس فكان يقابلُهم فى حُجرة الاستقبال من الدَّوْرِ الأسفل . وقد نشرتُ بعضَ ما دار بينى وبينَه فى بيان آرائه آنفًا . وكان عندَ الانصراف بعدَ كلِّ لقاءٍ يَذْكُرُ لى مواعيدَه فى اليوم التالى والوقتَ الذى يُمكن أنْ يلقانى فيه بالدار ، وهو كلُّ وقت يَكون فيها .

كثُر اجتماعى به قبلَ إصدار (المنار) ، وكنتُ أكتبُ خلاصةَ ما يَدور بيننا من المذاكرة ، وكلُّه فى المسائلِ الإصلاحيةِ التى هاجرتُ لأجلِ الاشتغالِ بها والوقوفِ على مُنتهى علمهِ ورأيه فيها ، ولم نكنْ نختلفُ إلا فى مسائلَ قليلةٍ يَنتهى البحثُ فيها بالاتفاقِ كمسألةِ البابية والبهائية التى شرحتُها فى الكلام على آرائه ، وسيأتى غيرُها .

استشارتى إياه فى إنشاء جريدةٍ :

لئنْ كان الغرضُ الأولُ الباعثُ لى على الهجرة إلى مصرَ هو صحبةَ الأستاذِ الإمامِ كما تقدَّم ، فقد اقترنَ به عندَ إجالةِ قَدْحِ الفِكْرِ فيه باعثٌ آخرُ ، وهو إنشاءُ صحيفةٍ إصلاحيةٍ أستمدُّ من حِكمتهِ واختبارِه فيما أكتبُه فيها إذ آنَ لى أنْ أكونَ مُفيدًا كما أكونُ مستفيدًا . وقد جرَّبتُ نفسى فى الكتابة بتأليف كتاب (الحكمة الشرعية) فكان كلُّ مَن سمع شيئًا منه فى تحقيق المسائل الإصلاحية الدينية والاجتماعية والمدنية من أهل العلم والفهم يبالغُ فى الثناءِ على إنشائه والاستقلال فى تحرير مباحثه .

(إلى أنْ قال) : وجملةُ القولِ أنَّنى كنتُ عزَمتُ على إنشاء الجريدة قبلَ السفر ، وعقدتُ مع رجلٍ آخرَ اتفاقًا عليه ، ورأيتُ أنْ أختبرَ حالَ البلاد وأعرفَ رأىَ الأستاذِ الإمام فيه ، ولم أُكاشفْه بذلك إلى ما بعدَ سياحةٍ قصيرةٍ فى الوجه البَحْرِىِّ قبلَ دخولِ القاهرة وسياحةٍ أقصرَ فى الوجه القِبلى بعدَه . وكان قد ذمَّ جرائدَ مصرَ أمامى ، وقال إنَّها قليلةُ الفائدة لعدمِ وجودِ أحزابٍ تَنطقُ بلسانها ، وتكون هى داعيةً لها .

زُرتُه فى سادس شعبان (سنة 1315هـ) تلك الزيارةَ الطويلةَ التى كان من حديثنا فيها

---

(1) **اختلف إلى المكان** : تردّد عليه .

مسألةُ الصوفية والبهائية التى شرحْناها فى الكلام على آرائه ، فكان أولَ حديثِهِ معى أنَّ زائرًا بَيروتيًا من بيت الأنسى أخبرَه أنَّ جماعة جاءوا من طرابلس الشام لإنشاء جريدة فى مصر ، فقال له : وهل رأوا الجرائدَ هنا قليلةً ؟

حينئذٍ قلتُ له : إنه يعنينى ، وقد جاءنى أنا مِن طرابلسَ أنَّ والِىَ بيروتَ بلَغه أنَّنى جئتُ إلى مصرَ لأنشىء جريدةً للطعن فى رجالِ الدولة ، وأصْلُ الخبر صحيحٌ ، ولكنَّ المقصد أعلى من الكلام فى الشخصيات والحكومات ، وإن رجالَ الدولة قد ذُمُّوا كثيرًا ومُدحوا كثيرًا ، فما نفع المدحُ ولا الذمُّ .

رأيه فى جرائدِ مصرَ وقُرَّائها :

قال الأستاذُ : إنَّ المصريينَ فى حالةٍ جعلتْ أفكارَهم موجَّهةً إلى شىء واحد من الجرائد : وهو أخبارُ الحكومة وما يقال عن الخديو وعن الإنجليز ، ولا يَلتفتون إلى ما وراء هذا ، وقد قامتْ به ثلاثُ جرائدَ : المؤيّد والمقطّم والأهرام . وشرحَ خُطةَ كلِّ جريدة منها ، وَذَكَرَ أنَّه لا يُمكن لى مباراةُ واحدة منهنّ فى خُطتها .

قال : وإذا كتبتَ فى الموضوعاتِ الأدبيةِ كالتربيةِ أو التعليمِ أو آدابِ اللغةِ لا يلتفتُ إلى كلامِك الناسُ ، فإنَّنى لا أعرفُ أحدًا فى الأزهر ولا فى المدارس مشتغلاً باللغة وآدابها إلا أنْ يكونَ فى الزّوايا مَن لم نعرفْ ، وهؤلاء إن وُجدوا لا غَناء[1] فيهم ، وهذا أمرٌ مُهمٌ ومفيدٌ ، ولكنَّه لا يأتى منه ما يَفى بنفقاتهِ ، ولا يَنبغى التعبُ وإنفاقُ المالِ هكذا .

قلتُ : إنَّ صاحب مجلة الهلال أخبرَنى أنَّ له 3500 مشترك ، فاستغرب ، وقال : إنْ كانوا يحسَبون أنَّ كلَّ مَن يكتبون اسمَه فى دفاترِهم مشترِكًا فقد يكونُ عندَه هذا العددُ ، وأما الذين يَدفعون الفلوسَ فلا أعتقدُ أنَّهم يَبلغون الألوفَ .

قلتُ : إنَّ من غرضى الاشتغالَ والتمرُّنَ على الكتابة فى المسائل الإصلاحية المفيدةِ .

قال : يُمكنك أنْ تكتبَ هذه المباحثَ فى كتاب ، فهو أرجى لقراءة الناس له .

---

(1) **الغَناء** : النفع والكفاية .

مُوافقتى على إنشاءِ صحيفةٍ إصلاحيةٍ وشُرُوطُه فيها :

ثم انتقلنا إلى الكلام فى موضوعِ مرضِ الأمة وضعفِها ، وأنَّ أنفعَ الوسائل فى معالجتها التربيةُ والتعليمُ ونشرُ الأفكارِ الصحيحة لمقاومة الجهلِ والأفكارِ الفاسدة التى فَشَتْ فيها كالجَبْرِ والخُرافات . . فقلتُ : إنَّ هذا هو الباعثُ لى على إنشاءِ هذه الجريدةِ ، وإنَّنى أسمحُ أنْ أُنفقَ عليها سنةً أو سنتين من غيرِ أنْ أكسبَ شيئًا .

قال : إنْ كان هكذا فهو حسنٌ ، وهذا أشرفُ الأعمال وأفضلُها . وأنا إذا كنتُ على ثقة مِن مَشْرَبِ هذه الجريدةِ فإنِّى أُساعدُها بكلِّ جَهدى .

قلتُ : إنِّى أُعاهدُكم على أنْ أكونَ معَكم كالمريد مع أستاذِه على نحوٍ مما يقولُ الصوفيةُ ، ولكنِّى أحفظُ لنفسى شيئًا واحدًا أُخالفُهم فيه ، وهو أنْ أسألَ عن حِكمة ما لا أعقلُه ، ولا أقبلُ إلا ما أفهمُه ، ولا أفعلُ إلا ما أعتقدُ فائدتَه .

قال : هذا ضرورىّ لا بدَّ منه . ومن هنا انتقلنا إلى الكلامِ فى الصوفيّة .

ثم زرته فى يوم الأربعاء (12 شعبان) وكان معى الأستاذُ الشيخُ إسماعيلُ الحافظ ، فكلَّمتُه فى مسألةِ الجريدة ، فأشارَ بثلاثةِ أمورٍ :

(1) أن لا نَتحيَّزَ لحزب من الأحزاب « وذكر فى حديثِه صاحبَ المؤيد ومصطفى كامل الشابَّ المتحمِّسَ أو المتهورَ » .

(2) أن لا نَرُدَّ على جريدة من الجرائد التى تتعرَّض لنا بذمٍّ أو انتقادٍ .

(3) أن لا نخدمَ أفكارَ أحد من الكبراء « هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة الذين يُدْعَونَ بها كبراءَ ، إنَّنا قد نستخدمُهم ولكن لا نخدمُهم » .

ثم أشار إلى أنَّ الطبعَ يَنبغى أنْ يكونَ فى المطبعة الأميرية للبعد عن الدسائس وعن اطلاع جماعة المطابع على شئون الجريدة الداخلية « وذكر لى ما يعلمُه من أخلاق أصحاب الجرائد من السوريين والمسلمين » .

ثم تكلَّم عن حُريّة الجرائد ، وقال : أنتم تسمعون أنَّ فى مصر حريةً . . . هذه الحرية ليست للمسلمين ! المسلمون فى أشدِّ المراقبة عليهم وأبعدُ الناس عن الحرية ، لا

حريةَ لهم فيما ينفعُهم أصلاً ، ولكنْ لهم الحريةُ المطلَقة فى كلِّ ما يَضرُّهم (وقد قال فى حديثٍ آخرَ إنَّ الحريةَ التى كانت بمصر كافية للنهوض لإصلاحها ، وإنما كان العائقَ فسادُ الأخلاقِ) .

(إلى أنْ قال) : ثمَّ شاورتُه فى اسم الجريدة ، فذكرتُ له اسمَ (المنار) مع أسماءٍ أُخرى ليختارَ منها أو غيرها ، فاختار اسمَ المنار ، وكان أحبَّها إلَىَّ لفظًا ومعنًى . ثم شرعتُ فى تحريرِه فى الأسبوع الذى صدر فيه فكتبتُ فاتحةَ العدد الأول بقلم الرصاص فى جامع الإسماعيلى المجاور لدارِ الأستاذ بالناصرية ، وذهبتُ بها إلى دارِه فعرضتُها عليه ، فأعجبتْه جَدَّ الإعجابِ كما تقدَّم (ص 713) ولما صدر العددُ الأول[1] قال : كان يَنبغى أنْ تكتبَ فيه مقالةً أخرى فى موضوع من الموضوعات الإصلاحية التى ذكرتَها فى المقدمة . فقلتُ : موعدُنا العددُ الثانى . فلما صدر الثانى مفتتحًا بمقالٍ طويل عُنوانه : (القول الفصل - محاورة فى سعادة الأمة) جئتُ به دارَ الأستاذِ ، وكان عنده الأستاذُ الشيخُ عبد الكريم سلمان ، فقرأه هذا كلَّه والأستاذُ الإمامُ يَسمع ، وبعدَ الفراغِ مِن قراءتِه أثنيا عليه ثناءً جميلاً ، وقال الشيخُ عبدُ الكريم : إنك لم تتركْ فى هذا المقالِ شيئًا يُقال فى الموضوعِ . قلتُ : هذا كلُّه مقتبسٌ من مولانا الأستاذِ . قال الأستاذُ : كَلاَّ ، إنَّنى واللَّه لم أتكلَّمْ معك فى شىء من هذا . قلتُ : وأنا لستُ بالمُتَملِّقِ ، إنَّما أَعنى أنَّنى استفدتُ هذا المذهبَ ورُويتُ من هذا المشربِ من قراءة جريدة (العُروة الوثقى) .

وما ذكرتُ هذه المسألة هنا لأجلِ الثناءِ على نفسِى بل لأُبَيِّنَ كيف تأسَّست الصلةُ بينى وبينَ الاستاذِ الإمامِ فى اتحادِ المذهب والمَشربِ .

(إلى أنْ يقولَ) :

حياتُنا العمليةُ المعنويةُ فى الحياةِ :

وأما حياتُنا المعنويةُ فكنّا كرُوح واحدة فى جسدين : كان يُكاشفنى بجميع أفكاره

---

(1) صدر العدد الأول من (المنار) فى 22 شوال 1315هـ / 15 مارس 1898م .

وأسرارِهِ ، فى عَلاقتِه بالحكومة والخديو واللوردِ كرومرَ ورئيسِ النظارِ ، وفى أعمالِهِ فى الأزهرِ ومجلس الشورى ومجلس الأوقاف الأعلى ، ويَعْهَدُ إلَىَّ بكتابة بعضِ المقالات فى الجرائد لتأييد رأيه وتفنيدِ آراء مخالفيه فى بعض المسائل أو الأعمال ونشر كلٍّ منها فى الجريدة التى تَليقُ بها بإمضاء تناسب الموضوعَ كأزهرىّ أو حقوقّى أو مسلم . . . وكنتُ أَنشرُ بعضَها فى المؤيّد وبعضَها فى المقطَّم وبعضَها فى الأهرام وكذا الرائد المصرى ، وأحيانًا كان يُرْسِلُ إلَىَّ إحدى الجرائدِ وعليها إشارةٌ منه إلى شىء لأجلِ الردِّ عليه ، وقد يَكتبُ بجانبِه أو على ورقةٍ أخرى موضوعَ الردِّ والإيماءَ إلى الرُّوحِ الذى يَبْرُزُ فيه من شدَّةٍ أو لُطْفٍ أو تَهَكُّمٍ أو تجهيل ، ولا يزالُ لدىَّ شىءٌ من هذه الأوراقِ .

وكانَ يَعهدُ إلَىَّ فى بعضِ الأوقاتِ بكتابة المكتوبات الشخصيةِ لأصدقائه سواءٌ أكانت مبتدأةً كتهنئةٍ أو تعزيةٍ أم رَجْعَ كتابٍ منهم أو جوابًا عن سؤالٍ مِن غيرِهم . وقد ذكرتُ نُموذجًا من هذين النوعين فيما تقدَّم . وتارةً كان يَطلبُ منِّى أنْ أكتب له بعضَ النصوصِ أو الأحاديث فى بعضِ المسائلِ ، وسأله بعضُ الناس ، لا أَدرى فى أىِّ البلاد ، أنْ يُرسلَ إليهم برنامجًا لمدرسةٍ إسلامية أُنشئتْ أو يُراد إنشاؤها وطريقةَ التدريس فيها ، فَعَهِدَ إلَىَّ بذلك ، ففعلتُ ، ولا يَزال لدىَّ بعضُ أوراقِ المُسوَّدَةِ التى كتبتُها . وقد مرَّ من الشواهدِ والمُثلِ على هذا فى الفصولِ السابقةِ ما يُغنى عن الإطالةِ فيه هنا .

(إلى أنْ يقولَ) :

ما كان يَنْتَقِدُهُ الأستاذ على المنار :

كان - أحسنَ اللّه إليه - ينتقدُ علَىَّ فى المنار أمورًا يَذْكُرُها لى عند وجودِ ما يُذَكِّرُ بها .

(**أحدُها**) الصراحةُ التامةُ والشِّدةُ فى إظهارِ الحقِّ ، وكان يُعبِّر عن ذلك بقولِه ما معناه : إنَّك كثيرًا ما تُبرزُ الحقَّ عُريانًا ليس عليه حُلَّةٌ ولا حُلِىٌّ يُزَيِّنُهُ للناظرين وَيُهَوِّنُ قبولَه على المُبطِلينَ ، فينبغى أنْ تتذكَّر أنَّ الحقَّ ثقيلٌ ، وقلَّما يكونُ للداعى إليه صديقٌ ، وأنَّه لا بدَّ من مُراعاة شعورِ مَن يُعرضُ عليهم كيلا يَزدادَ إعراضُهم عنه . وكان يُعجبه من مقالاتى ما جعلتُه بأسلوبِ المناظرةِ كمحاوراتِ المُصلِحِ والمقلِّدِ ، فموضوعُها أشَدُّ ما

كُتِبَ وطأةَ على الجَامدين المقلِّدين ، ولم يُسْمَعْ مَن أحدٍ منهم شكوى منها ، ولا قَدْحُ فى كاتبِها .

(**ثانيها**) كان يقولُ لى مِرارًا إنَّ المنار فى موضوعِه ولغتِه لا يَفهم أكثرَ ما فيه إلا الخَواصُّ ، فينبغى أنْ تتحرَّى مِن سُهولة العبارة وقلّةِ غريب اللغة[*] فيها ما يُقرّبه مِن أفهام جميع القارئين حتى العوام ، وقد تحرَّيتُ موافقتَه فى هذا حتى إنَّ قارئى المنار لَيَجِدُونَ من غريبِ اللغةِ فى السَّنة الأولى ما لا يَجِدون فيما بعدَها ، ولكنْ بَقِىَ أكثرُ مباحثِهِ للخواصِّ بالرَّغم من ذلك التحرِّى .

(**ثالثها**) الخواصُّ فى سياسةِ الدولة العثمانية فى بعضِ الأحيانِ ، وهذا مما كنتُ أكرهُه أنا أيضًا ، فيعرضُ لى من الضرورة ما يحملُنى عليه ، وجُلُّ عملى المُهِمِّ منها كان سِرِّيًا ، وقد أشرتُ إلى ذلك فى فاتحة المجلد 12 من المنار سنة 1327هـ بقولى : « سَالَمْنَا السياسةَ فساورت[1] ووثبت ، وأَسْلَسْنَا لها فَجَمَحَتْ وتَقحَّمَتْ[2] ، وكنّا نَهُمُّ بها فى بعضِ الأحيان فيصدفُ بنا عنها الأستاذُ الإمام ، ولم نَنَلْ منها ما نَهواهُ إلا بعدَ أنْ اصطفاه اللَّه » .

وروى فى آخرِ هذا الفصلِ ما يلى :

لما مَرِضَ الأستاذُ الإمامُ مرضَهُ الأخيرَ كنتُ أعودُه بدارِه فى عين شمس كلَّ يوم ، وأقرأُ عليه ما كتبَه الشيخُ عبدُ الكريم مِن رسالة (أعمالُ مجلسِ إدارةِ الأزهرِ) فَيصحّحُ فيها ويَزيدُ أو يَنقص منها ، وقد أملى علىَّ تقريرَه عن امتحانِ مدرسةِ دار العلوم وهو فى سريرِه ، فكتبتُه . ولما سافر إلى الإسكندرية سافرتُ معه ، وكنتُ أقيم عندَه أيامًا وأعود إلى القاهرة ، فأنظرُ فى أعمالِ إدارةِ المنار ، ثم أعودُ إلى الإسكندرية دَوالَيكَ . ولما اشتدَّ عليه المرضُ أُذيعَ ، وأنا فى مصر[3] ، أنّه تُوفى فكدتُ أقضى من الغمِّ ، وبتُّ تلك الليلة بعدَ تكذيبِ الخبر ، ولما استيقظتُ وجدتُ على مِخَدَّتى دَمًا قد خرج مِن فمى وأنا نائم ،

(*) وكان **الأستاذُ الإمام** يَنصَحُ لى أيضًا فى هذا الموضوعِ بما ينصحُ به **للسيدِ رشيدٍ** .

(1) **ساوره مساورة وسوارًا** : واثبه .

(2) **تقحّمت الدابة براكبها** : شردتْ به .

(3) يقصد القاهرة ، وهذا استعمال يشيع كثيرًا فى التعبير عن القاهرة .

وفى الصباح عدتُ إلى الإسكندرية ، فلَّما قابلتُه قال لى :

قد جاش فى نفسى الشِّعرُ فى غيبتِك كأنَّنى لا أقولُ الشِّعْرَ إلا فى الحبسِ أو المرض - يشيرُ إلى القصيدة التى نَظَمَهَا فى السِّجنِ فى عاقبة الحوادثِ العُرابية ، وقد تقدَّمت (ص 150) وأنشدنى هذه الأبيات ، فكتبتُها واحدًا بعد واحدٍ ، وهى :

ولستُ أبالى أنْ يُقالَ محمدٌ	أبلَّ أم اكتظتْ عليه المآتمُ
ولكنَّه دِينٌ أردتُ صَلاحَهُ	أُحاذرُ أنْ تَقضى عليه العَمائمُ
وللناس آمالٌ يَرجونَ نَيلَها	إذا مِتُّ ماتتْ وَاضْمَحَلَّت عزائمُ
فيا ربّ إنْ قدَّرتَ رُجعى قريبةً	إلى عالمِ الأرواحِ وَانْفضَّ خاتمُ
فباركْ على الإسلام وارزقْهُ مُرْشِدًا	رَشيدًا يُضىء النَّهْجَ والليلُ قاتمُ
يُماثلُنى نُطقًا وعِلمًا وحكمةً	ويُشبه منِّى السيفَ والسيفُ صارمُ

ما وَرَدَ فى المنار بقلم السّيد رشيد عن رِحْلَتَيْنَا إلى الحجازِ : الأُولى للحجِّ والثانيةُ للصُّلْحِ

من حيث إنَّه وردَ خبرُ رِحْلَتَيْنَا هاتين إلى جزيرة العرب فى أثناء كلامِنا عن علاقاتِنا مع السيدِ المترجَم فلا بأسَ بنقلِ ما كتبه هو - رحمه اللّه - عن ذلك . قال فى الجزء الثانى من المجلّد الثلاثين المؤرَّخ فى صفر سنة 1348هـ ما يلى :

أَداءُ الأميرِ شكيب لفريضةِ الحجِّ

كان قلبُ الأمير شكيب يَحِنُّ إلى أداء فريضة الحجِّ منذُ سنين كما هو شأنُ كلِّ مُسلم وإنْ كانَ أمثالُ الأميرِ شكيبٍ فى تربيتِهم المدنيةِ والسياسيةِ والاجتماعيةِ صارَ يَقِلُّ فيهم مَن يَحُجُّ كما يَقِلُّ مَن يُصلّى ويصوم إذا لم تُقْرَنْ تلك النشأةُ العصرية بمعارفَ دينيةٍ صَحيحةٍ راسخةٍ كالطَّودِ ، لا تؤثرُ فيها أمواجُ الشُّبهات ، ولا تنالُ منها عواصفُ الشهوات ، ولكنَّ شكيبنا تلقَّى عقيدتَه من الأستاذِ الإمامِ وغذَّاها بالعلم الصحيح والعمل . وقد كان لكبراء الرجالِ السياسيّين من موانعِ الحجِّ فى السنينَ الخالية ما ليس لغيرهم .

عزَم شكيبٌ على الحجِّ فى مَوسم السنة الماضية (1347هـ) ، وكان يُحِبُّ أنْ يُسافرَ مِن أوروبا قبلَ موعدِ الحجِّ فَيُعَرِّجُ على مصرَ فيقيمُ فيها مدةً مع صديقهِ الحميم صاحبِ المنار بدارهِ التى يَعُدُّها بحقٍّ دَاره ، وكتبَ إلَىَّ بذلك وأنه لَقِىَ فى برلين معالى وزيرَ خارجية مصر الدكتور حافظ بك عفيفى - وكان بينَهما صداقةٌ سابقة - فكاشَفه بعزمِه فتبَّرع الوزيرُ بوعدِه بأنْ يُمَهِّدَ سبيلَ الإذن الرسمِّى له بزيارة مصر فى طريقِه لعلمِه بأنه كان ممنوعًا من دخولِها بعدَ الحرب الكبرى ، ومن المعلومِ بالبداهةِ أنَّ المرجعَ الرسمىَّ فى هذا الأمر لوزارةِ الخارجية ، ولكنَّ الوزيرَ نفسَه رأى أن الإذن له به يَحتاج إلى تمهيد وسعى !!

ثم أزمعَ الأميرُ السفرَ ، وخرجَ من دارِه فى لوزان قاصدًا البحرَ من طريق إيطاليا ، وطَفِقَ يُراسلَ وزيرَ الخارجية ، ثم يُراسلُ بعض أصدقائه فى مصرَ سائلاً هل تأذنُ له الحكومةُ المصريةُ بالإلمامِ بمصرَ ولو بميناءى بور سعيد والسويس لينتقلَ من الباخرةِ التى يُسافر فيها إلى باخرة من البواخر التى تَنْقُلُ الحُجَّاجَ ؟ وكانت هذه الرسائلُ برقيةً فعلمنا بعدَ البحث أنَّه لا يَزال ممنوعًا من ذلك ، وبعدَ بَذْلِ السعى من بعض المهتمِّين بالأمر لدى صاحب الدولة رئيسِ الوزارة اقتنع بأنَّ اللائقَ بحكومة مصر بصفتِها الإسلاميةِ الرسميَّةِ أن لا تمنعَ أحدًا من الإلمام ببعضِ ثغورِها بقصدِ السفرِ إلى الحجِّ من غير إقامة تَزيد على مُدّة الانتقالِ مِن باخرةٍ إلى أُخرى ، فأصدرَ أمرَه بالإذن فى آخرِ وقتٍ أدركَ به الأميرُ آخر باخرةٍ تحملُ الحُجَّاجَ فى آخرِ وقت يُمكنُ إدراكُ الحجِّ فيه ، وقد عَلِمْنا أنَّ الأميرَ بذلَ فى أُجور البرقيات أكثرَ من ثلاثين جنيهًا ، وأنَّه لو كان يَعلمُ هذا لَفَضَّلَ أنْ يُسافرَ فى باخرةِ إيطالية إلى مَصُوع أو عَدَنَ ثم يُسافرُ منها إلى جدةَ .

فى أثناءِ هذه المساعى وتَبادُلِ البرقيَّاتِ شاعَ بينَ الناس أنَّ الأميرَ شكيب مسافرٌ إلى الحجاز ، وأنه سينزلُ مِن الباخرة التى تُقلُّهُ مِن أوروبا فى بُور سعيد ، وينتقلُ منها إلى السُّويس ، فعزَم كثيرٌ من أصدقائه وممن يُحبُّون الحُظْوَةَ بمعرفتِه لشُهرتِه الشريفة فى عالم العلم والأدب والسياسة والجهاد الإسلامىّ والوطنىّ على السفر إلى بور سعيد للقائه فيها ، وطفِقوا يَتحدَّثون بتأليف الوفود لذلك فى مصرَ وفلسطين وسورية ، ونُشِرَ ذلك فى الجرائد ، ولكنَّ بعضَها ذكرَ خبرَ منعِه من الإلمام بالثغورِ المصرية . فلم يعلمْ بموعدِ

وصولِه إلى بور سعيد إلا بعضُ أصدقائه فى مصرَ ، فسافر بعضُهم إليها فى ذلك اليومِ وبعضُهم قبلَه بيوم ، وقد نزلتُ مع بعض السابقين فى زَورقٍ بخاريٍّ ، فاستقبلْنا باخرتَه فى البحر عقبَ وقوفِها ، وأَذِنَ طبيبُ المحجرِ بمخالطة ركَّابها للناس ، وسبقنا ابنُ عمِّه الأميرُ أمين فصعد إلى الباخرة مع الطبيب الرسميِّ ، ولما تَلاقَيْنا لم أملكْ دمعَ السرورِ من حيثُ جرى ، ولا تَسَلْ هناك عمَّا قد جَرى . ووصل فى ذلك اليوم إلى بور سعيد الأستاذُ المربِّى المصلحُ والزعيم الوطنى الشهير الشيخُ محمد كامل قصّاب[1] من حَيفا لأجل استقبالِه ، وأخبرَنا أنَّ وفدَ حَيفا ووفدَ القُدس قد انفضَّ جمعُهما إذ نشرتْ جريدةُ الجامعةِ العربيةِ بَرقيةً من مصرَ بعدمِ الإذن له ، وهو إنَّما جاءَ للاحتمال . وقد جاءت الأمير برقياتٌ كثيرةٌ ، وعادَ بعضُ المستقبلين له إلى القاهرة ، وبات بعضُهم فى بور سعيد بعد إلحاحِه على الجميع بالعودة إلى أعمالهم إلا كاتبَ هذه السطورِ ، فقد قال له : أنتَ تَبقى معنا من البحرِ الأبيضِ إلى البحرِ الأحمرِ .

وقد سافرْنا فى اليوم الثانى إلى السويس فوجدْنا بعضَ المستقبلين فى الإسماعيلية مِن طريقِنا وبعضَهم فى محَطة السويس نفسِها ، وممن جاءها بالسيارات الخاصة أحمدُ زكى باشا وعبدُ الحميد بك سعيد . وقد بلغَ الأميرَ فى المحطة أمرُ الحكومة المصرية إياه بالانتقالِ منها إلى باخرةِ الحُجَّاجِ الأخيرة التى تُبحر فى ذلك اليوم 29 ذى القَعْدَةِ إلى جُدةَ ، وأنَّها أمرتْ شركةَ بواخر البوستة الخديوية التابعةَ لها بتخصيصِ مُخْدَعٍ له « قمرة » فى الدرجةِ الأولى منها ، وكان يُريد السفرَ فى باخرة البريد فى 2 ذى الحجّة فركب الأميرُ ومَن كان ثَمَّ من المستقبلين المودِّعين السيارات إلى الباخرة تَوًّا ، وذهبتُ أنا إلى السوقِ فأخذتُ له منه الإحرامَ لأنَّنى علمتُ منه أنه لم يَحملْ من أوروبا شيئًا من ذلك .

الأميرُ شكيبٌ أكبرُ رجال السياسة من زُعماء الأُمة العربية وأشهرُ كُتَّابها الذائدين عن حوضها والمنافحِين عن حقوقِها والعاملين لمصالحها . فالمجاهدونَ المخلصون منهم يُسَرُّونَ

---

(1) هو من زعماء حركة الاستقلال أيام الاحتلالين التركى والفرنسى لسورية ، أصله من حمص وتوفى فى دمشق (1290 - 1373هـ / 1873 - 1954م) أنشأ المدرسة الكاملية ، وهى أول أسباب بعث الروح القومية ، وكان من أعضاء (الجمعية العربية الفتاة) السرية ، وسافر إلى الحجاز ، وولاه عبد العزيز بن سعود إدارة المعارف ، ثم تركها ، واستقر فى حيفا ، وألف مع الشهيد محمد عز الدين القسّام كتاب (النقد والبيان) فى البدع المنهى عنها .

بلقائه لمجدِّدِ مُلْكِ العَرَبِ ومَجْدِ العرب وقبلهِ آمال العرب الملكِ عبد العزيز آل سُعود وتناجيهما فى المصالح العربية السياسية والمدنية ، ويَرجون من ذلك خيرًا كثيرًا .

وللأميرِ شكيبٍ مكانةٌ إسلامية سامية عند طُلّاب الإصلاح الدينىّ المدنىّ الذى يَقتضيه هذا العصرُ من عَرب المسلمين وشعوب عَجمهم الكثيرة ، ولا سيما التركُ والهنودُ لما له مِن خدمة الدولة العثمانية عندما كانت تُمَثِّلُ الزعامَةَ الإسلاميةَ ، ثم ما جَاهدَ به مَلاحدةَ التركِ بعدَ جَهْرِهِمْ بنبذِ الإسلام ومعاداتهِ بالقول والفعل ، ولِما له مِن الدِّفاع عن الإسلام والمسلمين فى مواقعَ أُخرى كثيرة ، قد كان آخرَ ما نُشر منها مقالُه المُمْتِعُ الذى رآه القرّاءُ فى جزء المنار الماضى . ومِن الدلائل على مكانتِهِ الإسلامية إجماعُ أعضاء المؤتمر الإسلامىّ العام مِن جميع الشعوب بمكةَ المكرَّمة فى مَوْسِمِ سنةِ 1344هـ على اختياره لأمانة السرِّ العامة (السكرتيرية) للمؤتمر الدائم ، ولم أكنْ أنا أشدَّ تقريرًا وعنايةً بهذا الاختيار مِن الوفودِ الهندية ، ولا سيما الزعيمين محمّد على وشوكت على المناوئين لِملِكِ الحجازِ ونجدٍ لعدمِ اتباعهِ لهواهما - فأهلُ الرأى من مسلمى الأقطارِ المختلفةِ يُسرُّونَ برحلةِ الأمير شكيبٍ إلى الحجاز لأداءِ فريضةِ الحجِّ ولقائه للإمام المجدِّدِ للإسلام فى رحاب تلك المشاعرِ العِظام لأنَّ شخوصَ زعماء المسلمين السياسيين وعلمائهم العصريين إلى الحجاز مفيدٌ بما فيه من القُدوة والأُسوة الحسنة لأمثالهم المقصِّرين فى أداء هذه الفريضةِ ، ومفيدٌ بما يُرجى من ورائه من التعاوُنِ على المصالح الإسلامية . ومن هذا البابِ أنَّه لما شاعَ فى السنة الماضية أنَّ الإمامَ يحيى حميد الدين سَيَحُجُّ فى مَوسمها تناقلت هذا الخبرَ ألسنةُ المسلمين وصحفُهم ، وتَلَقَّتْهُ بالإكبارِ والإعظام لأمرين : (**أحدهما**) أنَّ ملوكَ المسلمين قد تركوا أداءَ هذه الفريضةِ منذُ قرونٍ عديدةٍ . (**وثانيهما**) حرصُ مسلمِى العالم كلِّه على اعتصامِ إمامَىْ الجزيرةِ العربيةِ ومَلِكَىْ الإسلام المستقلَّين بعُروةِ التحالفِ والاتحاد الوثقى ، ورجاؤهم أنْ يكونَ تلاقيهما فى بيتِ اللّه تعالى مُتمِّمًا لما مهَّدا له السبيلَ من ذلك بالوفود والمكاتبات والهدايا . ومِن فضل اللّه على صاحبِ هذه المجلةِ أنْ كان هو الساعىَ الأولَ إلى ذلك بالمكاتباتِ والوفودِ من قبلِ الحرب الكبرى ومن بعدِها ، ويليه فيه صديقهُ الأميرُ شكيبٌ .

ومِن دلائلِ اهتمامِ أهلِ الرأى والخدمة العامة من مسلمى الشعوبِ المختلفةِ وعَرب المِلل المختلفة بحجِّ الأمير شكيب ورجائهم الخيرَ فيه للملّة وللأُمة أنه ساءَ دعاةَ الإلحاد فى المسلمين ودعاةَ الاستعمار فى العَرب ولا سيما السوريون من الفريقين ؛ فنشرُوا فى بعض الجرائد مقالاتٍ سخيفةً طعنوا فيها على الأمير فى دينهِ وفى سياستهِ وفى غَرضه من أداء الحجِّ . وكان الذى تولَّى كِبْرَ هذه الأراجيفِ ذلك ....(★) ولكنْ بإمضاءِ ألصقِ الناسِ بخدمتِه ، ولم يَصَدَّهُ عن ذلك اشتهارُه هو بالدعوة إلى الإلحادِ ونبذِ الدِّين وَتَهَتُّكِ النساء وغيرِ ذلك ، ومما اتَّهَمَه به أنَّه يسعى بحجِّه إلى جعل الملك عبد العزيز إيّاه سفيرًا له فى أوروبا !! وربَّما كان هذا الملكُ أشدَّ احتقارًا لهذا التشفِّى الدنىء ، فإنه صار من أعرفِ الناس بفضائل الرّجل ورذائلِ حاسِده . وقد احتفى جلالتُه بضيافتِه احتفاءً يُسْعِرُ نارَ الحسد فى كبد الحسود .

استقبلت الحكومةُ السعوديةُ ووُجهاءُ الحجاز الأميرَ شكيب فى جُدَّةَ ثم فى مكةَ أحسنَ استقبالٍ ، فقد خفّ إلى لقائه فى الباخرة الحاكمُ الإدارى (القائمقام) وغيرُه من الموظَّفين والوُجهاء ، وفى مقدمتهم عينُ أعيانِ الحجاز الشيخُ محمد نصيف . ثم قابلَه جلالةُ المِلك فى جُدَّةَ إذ كان فيها ، وبعدَ أنْ تعشَّى مع جلالتِه سار معه فى سيارتِه الملكيَّة إلى مكةَ المكرمةِ ، فكانت هذه أولَ فرصةٍ واسعة للمذاكرة فى المصالح العامة . وقد كتب إلَىَّ جلالتِه عن هذا التلاقى ما نصه :

« وقد أنسنا بلقاء صديقكم وصديقِنا الأمير شكيب أرسلان ، وهو كما وصفتم إخلاصًا وعلمًا وأدبًا » ويَعنى جلالتُه بهذا الوصفِ ما كتبتُه إليه أخيرًا من أنَّنى لم أُثنِ له على أحدٍ وهو فوق ما أثنيتُ ووصفتُ من كلِّ جهة إلا الأميرَ شكيب .

وقد علمتُ علمَ اليقين أنَّ جلالتَه رغبِ إليه أنْ يَبقى لديه فى الحجازِ دائمًا أو ما شاء وطابت له الإقامةُ لِيقومَ بما لا يستطيعُ غيرُه أنْ يقومَ به من أعباء الإصلاح فى حكومتِه ، فاعتذر بأنه لا بدَّ له من البقاء فى أوروبا لأجل القضية السورية ، وبأنه يخدمُ القضيةَ العربيةَ هنالك بما شاء جلالتهُ إلا الوظائف الرسمية ، فإن فكرةَ المناصبِ الرسميةِ قد

(★) حذَفْنا هنا الاسمَ المكنى عنه ، وذلك تفاديًا من القيلِ والقالِ ، وإنْ كانَ الأصلُ فى المنارِ موجودًا .

خرجتْ من فِكره ، فهو لا يقبلُ منصبًا لا فى الحجاز ولا فى أوروبا كالسفارة فى بعض العواصم . بعدَ هذا زار الملكُ جُدَّةَ فذكرَ فى مجلسِه الحافلِ ما نُشر فى (المُقطَّم) مِن اتهامِ الأميرِ شكيبٍ بالسعى إلى نيل سفارة فى أوروبا - وهو ما أشرنا إليه فى هذا المقال - فغضبَ الملكُ ، وقال مَن هذا - يعنى صاحبَ مقالة المقطَّم - وإيش يكون ؟؟ ثُمَّ أثنى على الأمير شكيبٍ ثناءً عظيمًا قال فى سياقِه : واللّه إنَّ السفارةَ التى يُريدها فى أوروبا تكونُ له بشرطِ أنْ يَرضى .

ومن أخبارِ الأمير فى الحجاز التى تَسُرُّ مُحِبِّيه الذين لا يُحصيهم إلا اللّه تعالى أنَّ هواء الطائف قد وافقَ مِزاجَه فزالَ هنالك ما كان أصابه فى أوروبا من مَرض الصدر ، الذى كان فيما يَظهر من أسبابِ ما أنكرتُه عليه من استطالتهِ لعمرِه ونعيه لنفسِه . وَيَسُرُّنا أنَّ ما رأينا عند تلاقينا الأخيرِ فى وجهه من الإشراق والبهجة وفى حديثه من جَرْسِ الصوت وقوة اللهجة وفى مِشيته من النشاط وخِفَّةِ الحركة وفى أكْلَتِهِ من زقم[1] اللَّقَم وجودةِ المضغ فى غيرِ نَهَم لِيُبَشِّرُنا بأنه مستعدٌّ لحياة طيبة طويلة الأجل إذا لم يجنِ عليها بالإفراطِ فى الانكبابِ على العلمِ والعملِ . وَفَّقنا اللّه وإيَّاه للقصدِ والاعتدالِ والتوفيقِ لما يُحبُّ تعالى وَيَرضى من الأقوال والأعمال .



(1) زقم الخبزَ ونحوه زَقْمًا : لَقِمَه وبَلَعَهُ .

وَفْدُ الصُّلْحِ والسَّلامِ

وقال – رحمه اللَّه – فى المجلدِ الرَّابع والثلاثين من (المنار) الجزء الثالث المؤرَّخ فى 30 ربيع الأولِ سنةَ 1353هـ تحْتَ هذا العُنوانِ :

إنَّنا قد وَفَّيْنا حادثَ الحربِ والسِّلم فى جزيرةِ العَرب حقَّه ، وبَيَّنا ما لَنا فيه مِن موعظةٍ وعِبرةٍ ، وشَكَرْنَا لكلٍّ مِن الإمامَين عبدِ العزيز ويَحيى فضلَه ، فلا يَفوتُنا أنْ نختمَ حَديثَه بِشُكرِ وفدِ السَّلام وجهادَه فى سبيل اللَّه بخدمة العرب والإسلام ، فهو الذى انتُدبَ لهذه الخدمةِ بالفعل من غيرِ دعوى ولا إعلان فى الصُّحُفِ ، ولا تَبَجُّحٍ بنشرِ المقالات وإلقاءِ الخُطب ، ولا دعوةٍ إلى جمعِ المال كما فعلَ الذين يَقولون ما لا يَفعلون ويسرُّون غيرَ ما يُعلنونَ ، بل قالَ وفعلَ وجاهدَ بمالِه ونفسِه ولم يَطلبْ مساعدةَ أحدٍ .

أولُ مَن دعا إلى هذا زعيمُ فلسطينَ الأكبرُ ومفتيها ورئيسُ مجلِسها الإسلامىّ الأعلى ومؤسِّسُ المؤتمر الإسلامىّ العام فيها : السيدُ محمد أمين الحسينى دعا نفرًا من أشهرِ رجالات الأقطار العربية الإسلامية ذاتِ الجوار والصِّلة بجزيرة العرب : سورية والعراق ومصر ، فاستجاب له مِن سورية زعيمُها السياسىُّ الأكبرُ هاشم بك الأتاسى[1] رئيسُ الكتلة الوطنية الممثِّلة لسورية كلِّها ، واعتذرَ زعيمُ العراقِ الأكبرُ ياسينُ باشا الهاشمى[2] بمرضٍ عرضَ له .

واستجابَ له مِن مصرَ محمدُ على باشا عَلوبة مِن وُزرائها ونُوَّابها السابقين ووكيلُ المؤتمر الإسلامىّ العام ، وهو الذى سبقَ جميعَ الزعماء المصريين إلى العنايةِ بأمر المؤتمر الإسلامىّ ، وسافر مع رئيسِه إلى الأقطار الإسلامية لِجَمْعِ الإعاناتِ ، وعُنى بخدمة المسألة العربية عِنايةً خاصةً .

---

(1) هو **هاشم بن خالد بن محمد بن عبد الستار الأتاسى** (1292 – 1380هـ / 1875 – 1960م) مولده ووفاته بحمص ، كان رئيسًا للجمهورية السورية ثلاث مرات ، وكان رئيسًا للمؤتمر السورى (1920م) ، وكذلك انتخب رئيسًا لمؤتمر بيروت (1927م) ومؤتمر باريس (1936م) ، وترأس الكتلة الوطنية التى تضم الأحزاب والجماعات السورية . (الأعلام : 8/ 65) .

(2) **ياسين حلمى (باشا) ابن السيد سلمان الهاشمى** (1299 – 1355هـ / 1882 – 1937م) وُلد ببغداد ، وكان صاحب موهبة عسكرية فذة ، وصل إلى درجة رئيس لديوان الشورى الحربى 1918م ، وتقلد رئاسة الوزارة مرتين ، توفى فى بيروت ودفن فى دمشق . (الأعلام : 8/ 129) .

واستجابَ له مِن أوروبا أكبرُ كُتّابِ الأُمة العربية وأميرُ البيان فيها الداعى إلى وَحدتها المحامى عن حقيقتها المدافعُ عن مِلّتِها ورئيسُ الوفدِ السوريّ الفلسطينىّ فى جنيف مَثابَةُ سياسةِ الأُمم كلِّها - الأميرُ شكيبُ أرسلان ، ووافى إخوانَه الثلاثةَ طائرًا مِن أُوروبَا إلى مصرَ على ما فى طيرانِه مِن زيادةِ النَّفقةِ فى هذه العُسرةِ المُرْهِقَةِ ، وعلى ما قَاساه من عَنَتِ الحكومةِ المصرية وإرهاقها إيّاه العُسْرَ السياسيَّ الذى هو أشدُّ على الأحرارِ من العُسْرِ المالىّ فى مُرُورِه بأرضِها مِن الإسكندرية إلى السويسِ ، وقد رأيتُ هذا العنتَ بعينى وذقتُ مَرارتَه بنفسى إذ سافرتُ مِن القاهرةِ إلى بِنْها للقائه فيها والذهابِ معَه إلى السويسِ ، فلم يأذَنْ لنا الجلاوزة[1] المسيطرونَ عليه من قِبَلِ حكومِتنا المصريةِ - وهم مِن الإنجليز - بسلامٍ ولا كلامٍ ، ثم كان المصريُّون منهم أشدَّ مِن هؤلاء الإنجليز وطأةً فى القطارِ بعدَ القطارِ ثم فى السويس ، ولم نرَ أحدًا فَهِمَ لهذا العنتِ معنًى .

ركبتُ أنا ومحمد على باشا عَلوبة فى قطار بور سعيد والسويس الذى يخرجُ مِن مَحطة مصرَ فى نهايةِ الساعةِ السادسة مساءً ، وهو يلتقى فى محطة بِنَها بالقطار الجائى من الإسكندرية إلى مصرَ ، وهنالك نزلَ الأميرُ شكيبٌ مِن قطار الإسكندريةِ ، ورَكِبَ هو والجلاوزة المحافظون عليه فى قطارنا ، وأدخلوه فى المخدعِ المجاورِ لنا ، وأردتُ أنْ أُسلِّمَ عليه وهو يعلمُ أنّه ممنوعٌ من السَّلام علَّى وعلى غيرِى فحالوا بيننا .

ولما نزلنا فى الإسماعيلية ، ونزلَ فيها السيدُ أمينُ الحسينى وهاشم بك الأتاسىّ القادمان مِن فلسطينَ ، وانتقلْنا جميعًا إلى القطارِ الذى يحملُنا إلى السويس فَرّقَ جَلاوزةُ الأمن المصريّون بينَ الأمير شكيب والجائينَ مِن فلسطينَ والجائين مِن مصرَ جميعًا ، فلم يَسمحوا لأحدٍ منهم فى المَحطةِ ولا فى القطارِ أنْ يُكَلِّمَ الفريقَ الآخر ولا أنْ يسلِّمَ عليه ، فكان هذا الحَجْرُ أبعدَ عن العقلِ والفَهْمِ والشرعِ والعُرفِ والقَوانينِ مِن كلِّ ما سبقَه إلا ما يكون من الحَجْرِ الصحىّ فى أوقاتِ الأوبئَةِ والعسكرى فى وقتِ الحربِ . وإنّما يكونُ الأولُ لوقايةِ الأصحّاءِ مِن المصابين بالوباءِ والثانى لحماية الوطنِ وأهلِهِ من فتكِ الأعداء ، وكلُّنا أصحّاءُ أصدقاءُ ولله الحمدُ ، جِنسُنا واحدٌ ودِينُنا واحدٌ وحكومتُنا

(1) جمع الجِلْوْز ، وهو الشرطى .

المصريةُ مُوادَّةٌ لِحُكُومَتَىْ فلسطِينَ وسوريةَ والدولتين المسيطرتين عليهما ولأجلِهما تُحْجَرُ على الأميرِ شكيبِ وتُعْنِتُهُ ، ولا نعرفُ لنا وللآخرين ذنبًا .

بيدَ أنَّنا لما وصلْنا إلى السويسِ نزلْنا كلُّنا فى فندقٍ واحدٍ ، فارتفعَ الحَجْرُ عن كلٍّ منّا إلا الأمير شكيب ، فإنَّ الحكومةَ أمرتْ بنقلِه إلى فندقٍ آخرَ حالت فيه بيَنه وبين كلِّ أحدٍ منّا ومن غيرِنا إلا السيدَ محمد أمين الحسينى ، فقد أذِنوا له أنْ يُكَلِّمَه فى مسألة السفر بأولِ باخرة أو بطيارة . ولما اجتمَعا اتفقَا على الإلحاح علَىّ بالسفرِ مع الوفدِ ، فأَدليتُ بما لدَىّ من الموانعِ المالية وغيرِها ، فَقَبِلُوا عُذرى ، وكاشفْتُهم بما عندى مِن رأيٍ ورِوَايةٍ فى موضوعِ الحرب والصُّلْحِ ، وحَمَّلْتُهم كُتُبًا إلى جلالة ملك العرب السعودى وبعضِ رجال بِطانتِهِ ، أظهرتُ فيه ما بينى وبينهم من التكافلِ والثقة بهم وعذرى فى التخلُّفِ عنهم ، وكلُّ ذلك فى 27 ذى الحِجَّة سنة 1352هـ .

سافرَوا باسم اللَّه إلى الحجاز فكان لهم عند جلالة الملك ما يليقُ بمكانتهم الشخصية والقومية وبسفارة وفدهم الإسلامية العربية من حُسن الضيافة وكرم الوفادة ، وقلَّما اجتمع فى مجلسه وفد كوفدهم فى سعة معارفهم ودقة خبرتهم وصفاء نيتهم واتفاق رأيهم وحسن بيانهم ، فبسطوا له خلاصة ما يعلمونه من آراء العالم الإسلامى والشعور العربى فى بلادهم وغيرها فى مسألة الجزيرة العربية المقدسة ، وما يخشونه من المطامع الأجنبية ، وما وفقوا إليه فى بيئاتهم الأربع من استقلال عقله وبُعد رأيه وحسن نيته وكمال صراحته وحزمه وشجاعته وعدم مبالاته بدسائس المفسدين المحّالين[1] .

وكان من توفيق اللَّه أن نجحت المفاوضاتُ البرقيَّةُ المتصلة بين جلالته وجلالة الملك الإمام يحيى حميد الدين بما يوافق رأيهم ، فقبل الثانى ما اقترحه الأول لإعلان الهدنة ، ووقْفِ رحى الحرب ، ووضْع معاهدةِ الصلح ، وتلاه إرسالُ مندوبه الزعيم الكبيرِ والسياسى النحرير الأستاذ العلامة السيد عبد اللَّه بن الوزير مفوضًا من مقام الإمامة المتوكلية بذلك ، فوجد الوفدُ الإسلامى فى معارف سيادته ، ودقة سياسته ، وصفاء طَوِيَّته ، وصدق صراحته ما كان مَوْضِعَ العَجب والإعجاب والثقة بما يرجون ويرجو العالم الإسلامى والعربى من الاتفاق والاتحاد .

(1) الخصوم المجادلون .

ولما وُضعت المعاهدةُ الإسلامية العربية العظيمة الشأنِ بالاتفاق السِّرىّ العلنىّ من الجانبين التى كانت موضع إعجاب أهل الخافقين[1] ، وحضر أعضاء الوفد توقيعَها فى الحجاز ، ودَّعوا جلالة الملك الإمام عبد العزيز ، وسافروا مع مندوب جلالة الملك الإمام يحيى حميد الدين إلى صنعاء اليمن ليشهدوا توقيعها فيها ، ثم يحْضروا مبادئ تنفيذها . وقد اعتذر محمد على علوبة باشا العضو المصرىّ عن السفر مع إخوانه إلى اليمن لكثرة ما ينتظره من الشواغل فى مصر ، وقد تم الصلح ولله الحمد ، وحملهم كتابًا إلى جلالة الإمام يعتذر فيه عما كان يرجوه من الشرف بالمثول فى حضرته .

سافر الوفد من جُدة إلى الحديدة فاستقبلهما فيها صاحبُ السُّمُوِّ الملكىّ الأمير فَيصل السعودى بالحفاوة والتكريم ، وكان أبهج ما سرهم فيها ما رأوه من حسن التلاقى بين سُموه وسيادة عبد الله بن الوزير ، فقد كان كتلاقى أخوين شقيقَين طال عليهما البعاد ، فطفقا يُطفئان لوعته بالتقبيل والعناق ، ثم ما رأوه من جيوش كلٍّ من الإمامين عند الحدود بين منطقة تهامة المحتلة من قبل الدولة السعودية ومنطقة الجبال التى ترابط بها الجيوش المتوكلية ، وكيف كان تلاقى جماعتهما تلاقىَ الإخوان ، ثم ما هو أعلى من ذلك ، وهو لقاء جلالة الإمام الهمام ، وحفاوته بضيوفه الكرام ، وما سمعوه بآذانهم من ثنائه على أخيه الملك عبد العزيز كما كان هذا يثنى عليه ، ويَشْهد كلٌّ منهما للآخر بحسن النية ، ثم ما شاهَدُوه فى الحديدة من تنفيذ المعاهدة بجلاء الجيوش السعودية عنها ، وتبادل تسليم الرايات وتسلمها فيها بما عليه اتفقا من التكريم والتعظيم العسكرى والوُد الأخوى .

ثم سافروا من الحديدة إلى مصوع ، وسافر منها إلى السويس السيد أمين الحسينى وهاشم بك الأتاسىّ ، فوصلا إليها فى السابع من هذا الشهر الميمون (ربيع الأول) ، واستقبلناهما فيها مع جماهير المستقبلين مهنئين داعين ، وتخلّف الأمير شكيب ليسافر منها إلى أوروبا .

---

(1) أهل المشرق والمغرب ، ومفردها : خافق .

كنا قد وقفنا على أطوار الحرب والصلح من أنبائها الرسمية وغير الرسمية ، العامة منها والخاصة بنا ، وبقى علينا أنْ نَعلم من الوفد ما كان للصلح والمعاهدة من التأثير النفسىّ فى قلوب الفريقين مما لا يُعْلَمُ إلا من رؤية الوجوه المستبشرة أو الباسرة[1] ، ومن سماع جرس الأصوات فى الحديث والتفرقة بين نغماتها السارّة والقارّة والحارّة . ولا يَعْلم هذا وذاك إلا ممن رأى بعينيه ، وسمع بأذنيه ، وشعر بقلبه ، وأخبرنا بما روينا عنه .

هذا ، وإنه قد بلغنا قبل إصدار هذا الجزء أن جلالة الملك عبد العزيز وجلالة الإمام يحيى قد أبرقا إلى جلالة ملك الإنجليز يرجوانه بأنْ يوصى حكومته بالإذن للأمير شكيب بدخول فلسطين للقاء والدته الجليلة فيها ؛ إذ طالت غيبته عنها فتقبَّلَ شفاعتهما فيه ، وأبرق إليه المندوب السامى من فلسطين بالإذن له بذلك ، فنهنئه ونهنىء السيدة الفاضلة بهذا اللقاء الميمون ، فبارك اللّه لهما وعليهما .

بعضُ ما كَتبه السّيد رشيد عنّا فى المنار

بمناسبة بعض الحوادث

آثَرْنا – وقد جعلنا هذا الكتاب لسيرة السيد المترجَم وتاريخ علاقاتنا معه – أن ننْقُلَ ما جاء بقلمه عنا فى (المنار) ، إن لم يكن كلُّه فبعضه .

فمن ذلك هذا الفصل المنشور فى الجزء الثانى المؤرَّخ فى 30 جمادى الآخرة سنة 1340هـ من المجلد الثالث والعشرين :



(1) العابسة المتجهّمة ، قال تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ [القيامة : 24] .

كوارث سورية فى سنوات الحرب من تقتيل وتصليب ومَخْمَصَةٍ[1] ونفى مشاهدات ومجاهدات شاهد عيان هو الأمير شكيب أرسلان

« مقدمة »

قد التقينا فى أوروبا بصديقنا القديم الأمير شكيب أرسلان الشهير بعد افتراق بضع سنين ، وكثر اجتماعنا به فى جنيف (سويسرا) بسبب الاشتراك فى أعمال المؤتمر السورى الفلسطينى ، وفى سياحتنا معه فى سويسرا وألمانيا - وفى هذه الأثناء سمعنا منه أخبارًا تفصيلية لفظائع جمال باشا فى سورية ، وما كان من معارضته له بالحسنى ثم بالمغاضبة ، فتمنينا لو تنشر هذه الوقائع لبيان الحقيقة التاريخية ، فإن معرفة حقيقة تاريخ الأمة هو الوسيلة الأولى للنهوض بها والصعود فى مراقى الحياة بين الأمم ، وضرر الجهل به والكذب فيه كضرر الجهل والكذب فى بيان أحوال المريض وأعراض أمراضه للطبيب الذى يعالجه . وقد كانت الحقائق التى سمعناها منه ومن غيره فى أوروبا مؤيِّدة لرأينا فى جمعية الاتحاد والترقى وفى تأثير سياستها فى الأمة التركية والدولة الألمانية كما سنبينه فى التعليق على هذا المقال بعد - ولرأينا فى الأمير شكيب نفسه أيضًا وهو ما نبينه فى هذه المقدمة :

الأمير شكيب من أشهر كتاب سورية وأدبائها ، بل لا أُبالغ إذا قلت إنه لا يُلزّ به قرين منهم فى مجموع مزاياه كجولان قلمه فى جميع ميادين المنظوم والمنثور والوقوف على دقائق السياسة وشئون الاجتماع والعمران ، وفصاحة اللسان فى الخطابة والمناظرة . وله فى الكتابة السياسية والاجتماعية أسلوب خاص يشبه أسلوب الحكيم ابن خلدون ، وكانت سياسته الوطنية السورية محصورة فى وجوب الإخلاص للدولة العثمانية مهما يكن حالُ سلطانها ورجالها فى إدارتها وسياستها ؛ لاعتقاده أنه إذا زالت سيادة الدولة عن وطنه الخاص (لبنان) وسائر سورية وسقطت تحت سلطة دولة أوروبية فإنه يَذِلُّ وَيَخْزَى .

(1) خَمَصَ البطنُ خَمصا وخُموصًا ومَخمصة : خلا وضمُر .

وكان له خصوم فى سياسته هذه أكثرهم من نصارى الجبل المشايعين لبعض الدول الأوروبية ومبغضون آخرون لا مثير لبغضائهم إلا الحسد أو التعصب الدينىّ أو المذهبىّ . وهو من مريدى أُستاذينا موقظى الشرق الأستاذ الإمام المصرى والسيد جمال الدين الأفغانى ، وله غيرة على دينه الإسلامى ودفاع عنه ، لا يطيق صبرًا على من نال منه بلسانه أو قلمه ، على أنه لطيف التساهل فَكِهُ المعاشرة ، وله أصدقاءٌ كثيرون فى بلاده السورية وفى مصر والآستانة وأوروبا مختلفو الملل والأجناس ، ولكنه حديد المزاج أَلد الخصام : فهو كما قال ابن دريد :

سهل إذا لوينت لَدْنٌ معطفى ... أَلوى إذا خوشنتُ مرهوب الشّذى (*)

ولهذا يبالغ فى وُده أصدقاؤه ويغلو فى عداوته خصماؤه . وإنما شذاه فى نضال الأعداء هو ما يعهد فى مجالدة الأدباء ومجادلة العلماء لا يكاد يعدو كلوم الكلام ، بوخز أسلات الألسنة وأسنة الأقلام . فهو أديب متدين ينفر من الاعتداء على الأنفس والأموال ، وشجاع يترفع عن دنيئة السعاية والإغراء .

وقد كان كثيرون من الناس يزعُمون أنه ليس له مبدأ أو مذهب فى السياسة ثابت ، وإنما يَدّهن للدولة ولكبراء رجالها لأجل المنفعة . وأكثر هؤلاء من حساده أو مخالفيه فى مذهبه السياسى ، وبعضهم ممن كانوا ينكرون عليه مشايعتَه للحميديين فى عهد عبد الحميد الذى كان يُطريه بالنظم والنثر (**) . ثم مشايعتَه للاتحاديين [1] عندما صاروا فى الدولة أصحابَ النهى والأمر ، وأنه لم يكن من طلاب الإصلاح للدولة فى جملتها ولا لبلاده السورية أو العربية فى خاصتها . وعندى أن مثله فى هذا كمثل مسلمى مصر والهند وغيرهما من الأقطار البعيدة ، يريد من مشايعة من بيده زمام الدولة تأييدها على

(*) **الشذى** : هو الأذى .

(**) نظمت فى أيام صباى عدة قصائد فى مديح السلطان عبد الحميد تعظيمًا لمقام الخلافة فى حد ذاته لا تزلفًا إلى السلطان ولا انتجاعًا لبرّه ، وأدلُّ دليل على ذلك أنى كنت أنشر هذه القصائد فى الجرائد ولم أُقدم منها إلى السلطان نفسه قصيدة واحدة ، وقد أشرت إلى هذا فى كتابى « شوقى أو صداقة أربعين سنة » ، ولكن الحساد يحارون كيف يقولون ليجدوا إلى الطعن سبيلاً .

(1) هم مؤسسو جمعية (الاتحاد والترقى) فى تركيا ، ومنهم كمال أتاتورك .

الأجانب لا الرضى بسوء الإدارة أو السياسة(*) وقد كنتُ أنا من هؤلاء المنكرين عليه تشيعَه للاتحاديين ودفاعَه عنهم على علمى بما ذكرتُ من مذهبه السياسى فى تفضيل الدولة على جميع الأجانب وإيثارها عليهم مهما تكن حالُها لأننى كنت على هذا المذهب منذ عَقَلْتُ السياسةَ ولا أزالُ عليه مثله . وقد كان سيىءَ الظن بحزب اللامركزية العثمانى الذى كنتُ أحدَ مؤسسيه ، وطعن فى هذا الحزب حتى نالنى من طعنه بالباطل(**) ما نالنى على ما كان يُحْمَدُ من خدمتى للإسلام وإخلاصى للدولة ؛ حتى إنه أطرانى بمقال نشره فى (المؤيد) بزعمه أنه إذا اختير من العالم الإسلامى مائة ثم من المائة عشرة ثم من العشرة واحد لكنتُ ذلك الواحدَ ! ولم أرد عليه لعلمى بالشبهات التى مكّنت ذلك الظن السيىء فى نفسه .

ولما علِم ما كان من أنباء تنكيل جمال باشا بالسوريين فى أثناء الحرب أُشيع أن الأميرَ شكيب معه ، وأنه مساعد له على سياسته الطورانية فى سورية لشبهات روّجها أعداؤه وحُسَّادُه حتى صدق التهمة غيرهم ، ولما علِمنا منه أخيرًا أنَّ الأمر بضد ما قالوا اقترحنا عليه أنْ يكتب لنا مذكرة بما سمعناه منه أو مقالاً فيه لننشره فى المنار إنصافًا له وللتاريخ وقطعًا لألسنة المتقوّلين[1] ، فأجاب طلبنا معتذرًا عما استلزمه من تزكية المرء لنفسه ،

(*) إن الجرائد المصرية والسورية نشرت لى من المقالات الإصلاحية والانتقادية ما لا يكاد يُحصى من كثرته ، وطالما اغتاظت الدولة من حملاتى هذه على ما كان يقع من سوء إدارتها ، وقد كانوا اقترحوا علىَّ أن آتى إلى الآستانة وأنشر جريدة فيها باسم « الكوكب » ، فاعتذرت عن ذلك فرارًا من أن أقول فى الإدارة ما يخالف وُجدانى ، وهكذا تركت « الكوكب » لأناس آخرين .

(**) لم نُغفل فى الفصل المتعلق بعلاقاتنا مع السيد المترجَم ذكر الوحشة التى وقعت بيننا من أجل انضمامه قبل الحرب الكبرى بسنوات إلى أعداء الدولة العثمانية ، ولكننا صرّحنا باعتقادنا فيه أنه لم يكن يريد زوال تلك الدولة قط ، وإنما كان يريد إسقاط جمعية الاتحاد والترقى وحدها ، ويكره استئثارها بأمور الدولة ، والحال أن كثيرًا من رفاق السيد رشيد كانوا يعملون لهدم الدولة من أساسها ، ويتظاهرون بأنهم إنما يعملون لبناء دولة عربية ! وقد يكون هذا مقصد بعض أولئك الرفاق ، ولكن كثيرًا منهم كانوا يعلمون فى ذوات صدورهم أنَّ إنجلترا هى التى سترث الدولة العثمانية فى الشرق ولا سيما فى البلاد العربية ، وكانوا يعتقدون أن مصلحة العرب والشرقيين هى فى ذلك ، وما أخذوا يتبرأون من هذه السياسة إلا بعد الحرب العامة حينما رأوا ما رأوا من ثورة الأمة العربية على الذين خاسوا[1] بعهودهم معها .

(1) تقوّل عليه : اختلقه كذبًا .

---

(1) خاس العهدَ وبه وفيه : نقضه .

وقد نهى اللّه تعالى عنها ، وقد جاء ما كتبه رسالة طويلة ، فجعلناها عدة فصول وضعنا لها عناوين من عندنا ، واختصرنا قليلاً منها ، ومنه اعتذار الكاتب وهضمه لنفسه فى فاتحتها . ثم نشر السيد سلسلة مقالات لنا عما جرى فى سورية فى أثناء الحرب العامة ، وذلك فى الجزء الثانى والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع من المجلد الثالث والعشرين من (المنار) فمن شاء مراجعتها فليراجعها هناك لئلا نعيدَها فى هذا الكتاب هى بنفسها ، وقد سبق لنا أنْ نشرنا فى موضوعها ما هو أوفى منها ، وذلك فى جريدة « مرآة الغرب » عندما كنا فى أمريكا ؛ حيث ألحَّ علينا فى نشر ذلك كثير من أصحابنا المسيحيين الذين كانوا يريدون تبديدَ الشبهات التى كانت أثارتها أقوال الأعداء والحُسَّاد بحقِّنا . هذا وقد ختم السيدُ رشيدٌ سلسلةَ مقالاتنا فى المنار عن كوارث سورية فى سنوات الحرب بالتعليق الآتى :

الأمير شكيب كاتب سياسىّ بارع ومؤرِّخ محقق ، وقد كتب هذه المقالات للتاريخ فأثبت فيها ما رأى بعينيه وسمع بأذنيه ، وما سعى إليه فأصابه وما سعى إليه ولم يصبه . وليس الأمير بالرجل الظّنون[1] ، وما هو على سياسة الاتحاديين بظنين[2] ، بل كان متهمًا بمشايعتهم لأنّه كان فى السياسة الخارجية من شيعتهم .

كل مَنْ قرأ مقاله بإنصاف يجزم معنا بأنّ الحكومة التركية لم تكن تريد فى تلك السنوات إماتة السوريين بالجوع ولا اللبنانيين منهم ، ولم تُفَضِّلْ المسلمين على النصارى فى التموين ولا فى غيره من المعاملات ، بل كانت وطأتها عليهم أشدَّ ، ولم تُبْطل امتيازَ لبنان كما أبْطَلَتْ الامتيازاتِ كلَّها ، ولكنّ هذه المقالات أيدت الآراء المهمة التى كنا نعتقدها ونصرح بها قولاً وكتابةً ، وإن حَكَمَت المراقبةُ على الصحف بمنعنا من بعض ما كنا نكتب .

1- كنا نعتقد أن جمعية (الاتحاد والترقى) قد افترضت ما أعطتها الحرب من التصرف فى سلطنة آل عثمان بالحكم العرفىّ العسكرىّ للقضاء على الشعب العربىّ فيها وجعل سورية والعراق ولايات تركية ، وأن النهضةَ العلمية والوطنية لما كانت فى سوريا أقوى

---

(1) **الظَّنون** : ما لا يوثق به .
(2) **الظَّنين** : قليل الخير .

منها فى العراق عَجَّل جمال باشا بتتريكها بالقوة القاهرة متوسلاً إلى ذلك بتعريض الضباط والجنود منها للقتل فى المعارك الخطِرة ، وبتقتيل رجال النهضة الفكرّية والقَلَمِيّة ، وبنفى البُيوت ذاتِ الثروة والمُلك الواسع إلى الأناضول لإدغامهم[1] فى الشعب التركىّ هنالك ، ثم بالإتيان ببُيوت تركية تَخْلُفُهم فى بُيوتهم وأملاكهم فى سوريا ، فجمال باشا كان منفِّذًا لقرار جمعيته الاتحادية الطورانية لا مبتكرًا لهذا الفساد .

راجعْ قول جمال باشا للأمير شكيب معاتبًا له على التوسل إليه بطلعت باشا أن يكفَّ عن القتل والصلب : أتظن أننى أفعل ما أفعل بدون مشاورة رفقائى ؟ (آخر ص 130) ثم ما بعدها من خيبة الأمل بالتوصل بأنور باشا . ثم راجعْ كلامه فى (ص202) وما بعدها عن إجلاء السوريين عن وطنهم الذى وضع له اسم (التهجير) . ثم راجع فى (صفحة 292) مسألة محاولة جعل سورية تركية بمشروع قانون وُضع لذلك كانوا يريدون تقريره فى مجلس المبعوثين .

2- كنّا نعتقد أنّ محاكمةَ جمال باشا لمن يريدُ قتلهم محاكمةٌ صوريةٌ لا يُراد بها إحقاقُ الحقِّ لِيُتَّبَعَ ولا تمييزُ ما يشوبه من الباطل لِيُجْتَنَبَ ، وإنما هو رياءُ السياسة العصرية المعهودُ من سائر الدول فى معاملة من يَعُدُّهُ أهلُها عدوًا لهم يحاكمونه لأجل إدانته والحكم عليه ، ولا يَعْدَمون ما يُثبتون به التهمة من الإفك والتأويل ، وليس لأحكامهم معقِّبٌ من استئناف أو نقض وإبرام ، فيفنَد[2] ما يأفكون[3] !

راجعْ قولَ الكاتب عن جمال باشا أنه لما صَمَّمَ على شنق الجماعة استدعى إليه شكرى بك رئيس الديوان العُرفىّ فى (عالية)[4] إلى الشام ، وأعطاه ما علمتُ من شكرى بك نفسه أسماءَ أربعين شخصًا يجب أنْ يُحكم عليهم بالموت ! فراوده شكرى بك كثيرًا ، ودافع كثيرًا ، فتهدده بالقتل . إلخ . (آخر ص131 وأول ص132) .

3- كنا نعتقد أنَّ هذه الخُطةَ خُطةُ جهل وغُرور لأنها تكون سببًا طبيعيًا ليأس العرب من هذه الدولة وحَمْلِهم على الخروج عليها فى الوقت الذى يجبُ فيه من توثيق روابط

---

(1) لمزجهم .
(2) يبطل .
(3) يفترون .
(4) مقرّ الديوان العرفى الذي أعدم كثيرًا من الشرفاء .

الإخاء والولاء ما لا يجب مثله فى غيره لأنه أرجى الأسباب لانتصارها ، ففوته من أعظم الأسباب لانكسارها ، وعندما بلغتنا أنباء فعائله بل فظائعه قلت لبعض إخواننا إننى أتمنى لو أمكننى أن أصل إلى جمال باشا لأُبيِّنَ له خطأه والخطرَ على الدولة منه . فكانوا يقولون لى : إذًا يبدأ بقتلك وصلبك ، ولا يرجع عن ضلاله .

وقد ظهر أن الحق كان معهم فإن الكاتبَ بذل له هذا النصحَ فلم يسمع له بل لولا صداقتُه لأنور وطلعت لفتك به(★) ، فإن هؤلاء المغرورين كانوا يظنون أنّ البلاد العربية التى جندوا منها خمسمائة ألف مقاتل تظلّ خاضعة لهم حتى بعد اليأس من إمكان حفظ لغة شعبها ودينها والأمن على وطنها فى ظل دولتهم ؟ وأن الخضوع بقوة الإرهاب خير من الخضوع بوازع الإخلاص ؟ وكانت الحرب خير الفرص لاستمالة من نفَّرهم الاتحاديّون من الدولة وأيأسوهم من حفظ حقوقهم أو حياتهم معها ، فعند الشدائد تذهب الأحقاد ، ولكنّهم زادوهم نفورًا . وتأملْ كيف كانت إنجلترا تبالغُ فى مدح أهل الهند ومصر ، وفرنسا تبالغ فى مدح أهل تونس والجزائر .

راجع فى (ص203) قول الكاتب فى رئيس « قومسيون التهجير » نورى بك المفسد : إنه كان يكره فى الباطن جمالاً وطلعت وكلَّ رجال جمعية (الاتحاد والترقى) ولكنه كان يغرى جمالاً بالنفى والتغريب انتقامًا منهم لعلمه أنَّ هذه الأعمال ليس وراءها

(★) بعد أن رأيت أنَّ النصيحة بالحسنى لجمال باشا لم تأتِ بفائدة شرعت أُبينُ لرجال الدولة خطر سياسته هذه ، وأُطالبهم بردعه عنها ، فبلغه الأمر وجَرَت بينى وبينه مناقشة فى فندق فكتوريا بدمشق وسفر الجوُّ بينى وبينه مما شرحته فى مذكراتى الخاصة التى استودعتها مكتب المؤتمر الإسلامى فى القدس حتى ينشرها بعد وفاتى ، وقد استوفيته أيضًا فى سلسلة مقالاتى إلى المنار وإلى جريدة (مرآة الغرب) فى أمريكا ، وخلاصة القول أنى غادرت سوريا فى أواخر سنة 1916م قاصدًا الآستانة حيث حملت حملت على جمال لدى رجال الدولة أشدَّ الحملات ، فلما بلغه ذلك من كل جهة طرح مسألتى فى مجلس النظار فى إحدى قدماته[1] إلى الآستانة ، وحاول أخذ قرار من المجلس المشار إليه يأذن له بالبطش بى وبأخى عادل ، فعارضه زملاؤه فى ذلك ، وكان أشدَّهم معارضة أنورُ رحمه اللَّه ، فما قدر على شىء ، فانتهز فرصة أخرى وذلك أنه عندما انتصـر الجيش العثمانى فى واقعة غزة أبرق بالبشرى إلى الباب العالى ، ثم طلب أن يسمحوا له باتخاذ « تدابير شديدة » بحق شكيب أرسلان وأخيه عادل وأشخاص آخرين ، فلم يجيبوا أيضًا طلبه هذا ، وتلفن طلعت باشا الصدر الأعظم إلى المابين الهمايونى بذلك ، فحادثه بالتليفون زميلنا إحسان بك الجابرى الذى كان من أمناء سرّ السلطان ، وعرف منه طلب جمال باشا هذا ، وكتب إحسان بك ذلك فى مذكراته اليومية .

---

(1) مرَّات مجيئه .

إلا الخرابُ وقيامُ الأهالى . وقد نبهنا جمالا إلى هذا الأمر وحذَّرْناه من نورى وأحزابه ومن أقوال الجواسيس . . . إلخ .

4- كنا نعتقد أنّ ثورة الحجاز توقف بغى جمال عند حدٍّ ، وأنه هو الذى جعلها ضربة لازب لا مناص منها ولا مفر ، وذلك أنّ الفارين من بغى جمال باشا هم الذين جرّوا الشريف حسينًا على ما كان يهواه من الثورة ، وهم الذين قاموا مع الضباط العراقيين بأثقل أعبائها .

وقد كان الأمر كذلك كما بينه الأمير شكيب فى فصل خاص من مقاله فراجعه فى (ص207) وما بعدها ، فقد صرّح فى أوّله بأن جمالاً خاف العواقب فعدل عن المخاشنة إلى المحاسنة ، وبأنه استدعاه هو وبعض زعماء العشائر (وسماهم) ، وتكلم معهم فى اتحاد العرب والترك وفى مقاصد الدولة العلية الحقيقية (قال) وأفاض بكلام بعضه صحيح وبعضه سياسة ، والتمس منا السهر على الأمانة للدولة ، وأنا وإن كنت لا أُصدق كلامه فى البراءة من السياسة الطورانية . . . لم أُخالفه فى الطعن بسياسة الشريف من جهة مخالفته لإنجلترا وتصديقه لمعاهداتها . . . إلخ .

ثم ذكر أَنَّ توفيق بك الذى جعله جمال باشا وكيلاً لولاية الشام اجتهد فى إقناعه بوجود مؤامرة على قتله وخلع طاعة الدولة ، وأنه مع ذلك اضطر إلى الاكتفاء بالحبس ، ولم يتجاوزه إلى القتل - أى بعد أن كان يقتل بدون ذنب - وذكر ما قيل من أن الآستانة أنذرته فى هذه الكرة إنذارًا شديدًا بأن يعدل عن خطته المعهودة لأنه قد طفح الكيل . . . إلخ .

وقد كنتُ صرحتُ بما يُرجى من هذا التأثير فى مقالة (المسألة العربية) التاريخية التى نُشرت فى الجزء الأول من المجلد العشرين الذى صدر فى شوال سنة 1335هـ (يوليو سنة 1917م) بعد أنْ حذفت المراقبةُ البريطانيةُ منها ما حذفت ، وكانت كُتِبَتْ فى السنة التى قبلَ هذه السنة ، ثم صرَّحْتُ فى الفصل السابع من الرحلة الحجازية : « بأن الثورة الحجازية قد أدت وظيفتها وأفادت ما رجوناه منها ، (فأنقذت الحجاز ، وأوقفت بغى البغاة » ولكن خاب سعيى فى إيقافها عند هذا الحد حتى لا تكونَ من أسباب انكسار

الدولة فى الحرب كما بينته فى مواضعَ متعددةٍ بالتلميح عند العجز عن التصريح ، ثم بالتصريح عقب زوال المراقبة .

5- كنت أعتقد أنّ المصلَحة العامَّةَ للبشر عامة وللشعوب المستضعفة خاصة أَنْ تنتهى الحربُ الكبرى بهدِّ قوى الحلفين القائمين بها جميعًا وعَوْدِ التوازن بين دولهما فى عهد الضعف إلى ما كان عليه فى عهد القوة ، وإلا فبانتصار الحِلف الذى فيه الدولة العثمانية ، وكان يخالفنى فى هذا بعض من أُكاشفهم به حتى من المسلمين قائلين إن الاتحاديين إذا انتصروا لا يقف بغيهم عند حدٍّ ، فهم سيقضون على الأمة العربية قضاءً مُبْرَمًا ، ويستعبدونها استعبادًا لا يقوم لها بعدها قائمةٌ ، وسيقضُون أيضًا على الدين الإسلامى متممين ما بدأوا به . وكنت أُجيب بأننى أعلم من سوء نية زعماء الاتحاديين فوق ما تعلمون ، ولكننى أعتقد أن الألمان لا يُمكِّنونهم من مثل هذا الإفساد الذى يُضْطَرُّون إلى السكوت لهم عليه فى زمن الحرب اتقاءً للفشل فيها . وأنه لا بد أن يُقَدِّر الألمانُ من قَدْر الأمة العربية ما لا يُقَدِّرُه هؤلاء الاتحاديون المتطرفون ، وأن الشعبَ التركىَّ الذى يغلُب عليه التدين بالإسلام سيكون عونًا لنا وللألمان عليهم .

وقد ذكر الأميرُ شكيب فى مقالته ما يُؤيد هذا الرأىَ ما سبق له فى هذا السبيل من السعى ، وهو ما ذكره فى (ص132) من سعيه لدى قُنصل ألمانيا فى الشام ليتوسل بنفوذ حكومته لدى حَليفتها بمنع فظائع جمال باشا لأن الضرر يعود عليها من ذلك ، وقوله : « إن قتل هؤلاء الجماعة سَيُحدث بين العرب والترك فتنةً لا نهاية لها ، فتكونون زدتم الدول الائتلافية قوةَ أُمة جديدة هى الأمة العربية » ، وقول القنصل بعد إخباره إياه بعجز سفارتهم فى الآستانة عن عمل شىء فى هذا الباب : إن الأتراك سيندمون على هذا العمل . ثم ما ذكره فى (ص133) من سعيه لدى (فون كولمان) الذى كان سفير الدولة الألمانية فى الآستانة لجعل الترك والعرب كالنمسا والمجر ، ثم لدى خلفه (الكونت برنستورف) الذى كان يُصرِّح بأنه على هذا الرأى . . إلخ .

فثبت بهذا أنّ آراءنا كانت صحيحة لأنها مبنية على الرَّوِيَّة والتدقيق فى البحث عن الحقّ ، ولكنّنى لم أكن آمنًا من عاقبة غرور الاتحاديين وتهورهم إذا انتصروا ، ولا يائسًا

من رحمة اللّه بهذه الأمة إذا انكسرت الدولة بسوء تصرُّفهم ، ولا محل لشرح هذا هنا .

هذا ، وإننا سنعود لشيء من هذا البحث فى الرحلة الأوروبية ، ونبين فيها ما كان من شدة نفور السَّوَاد الأعظم من الترك من أعمال الاتحاديين وإضمارهم للثورة عليهم بعد الحرب ، ومن منع الغازى مصطفى كمال باشا لزعمائهم من دخول الأناضول مُدَّةَ الحربِ لكراهة الأمة لهم وحَذَرًا من وقوع الشِّقاق بوجودهم ، وما علمناه مما لَقِيْنا من الاتحاديين أنفسهم من اعترافهم بخطئهم فى المسألتين العربية والإسلامية ، ومن سعيهم الآن لتكوين الجامعة الإسلامية مع عدم الرجوع عن الجنسية الطورانية ، وقد تولّى جمال باشا أفضل عمل يُمكن عملُه للجامعة الإسلامية ، وهو تنظيم الجيش الأفغانى الباسل . ولكنْ وردت الأنباء بأنَّ بعضَ أشقياء الأرمن قد اغتاله فى القوقاس منصرفًا من أوروبا إلى الأفغان . ولا شكَّ أنَّ فقده الآن خسارة كبيرة لأنه كان قائمًا بعمل عظيم ، ولكنّ رجال الثورات قلما يموتون حَتْفَ أُنوفهم .

وللسَّيد فى المنار الجزء السابع من المجلد الثالث والعشرين

تحت عنوان « الرحلة الأوروبية » ما يلى أَحببنا نقله هنا لما فيه من الفوائد السياسية .

حديثنا مع أعضاء جمعية الأمم :

كان مما قرّره أعضاءُ المؤتمر السورى الفلسطينى قبلَ انفضاضه أنْ يسعى بعضُ أعضائه إلى مقابلة بعض أعضاء جمعية الأمم ، الذين يُرجى أنْ يَعْطفوا على قضيتنا إذا عرفوا كُنْهَها ، والذين يُرجى أنْ نستفيدَ من الحديث معهم فائدةً تزيدنا بصيرةً فى أمرنا ، فكتب الأمير شكيبٌ إلى كثير منهم مكتوباتٍ خاصةً يَطْلُبُ فيها تعيينَ وقتٍ لمقابلة وفدٍ من أعضاء مؤتمرنا وأن يخبروه به - من حيث إنه هو (السكرتير) للمؤتمر - فأجاب كثير منهم الطلبَ ، وأبى المندوبان الفرنسيان ، واستكبرا أنْ يجيبا كأنّهما لا يعترفان بأنّ مؤتمرًا عُقد . على أنَّ حكومتَهما قد كانت أشدَّ اهتمامًا بأمر المؤتمر من زميلتها إنجلترا ،

فحملت صنائعها فى سورية على توقيع عرائض[1] يُنكرون فيها أن يكون المؤتمر ممثلاً لهم ومعبرًا عن إرادتهم ، فأجابها إلى ذلك أيهم أشد نفاقًا من المستخدمين وقليل من الجبناء الطامعين(★) . وستُفصل أخبارهم فى هذا مع غيرها فى كتاب المؤتمر الذى سيكون تاريخًا دقيقًا لهذا العمل ، وكذلك مندوب الهند ، وأمره ليس بيده بل بيد سكرتيره الإنجليزى . وإنما مراد إنجلترا من وجوده كثرة أنصارها فى الجمعية .

وكان ممن أجاب الطلب رئيسُ مجلس جمعية الأمم ، وهو مندوب الصين ، ورئيس الجمعية العامة ، وهو مندوب هولندا ، ومن الأعضاء البرنس أرفع الدولة مندوب إيران ، واللورد روبرت سيسل البريطانى الشهير مندوب حكومة الترانسفال ، والمستر فيشر مندوب الدولة البريطانية نفسها ، وكذا مندوبو إيطاليا وأسبانيا والبرازيل والأرجنتين وغيرهم . وكنا نبسط لكل منهم قضيتنا ، وكان أشدَّهم عطفًا عليها وتمنيًا لمساعدتنا مندوبا إيران والصين لما بيننا وبين شعوبها من الجامعة الشرقية ، ويليهما مندوبو البرازيل والأرجنتين فمندوبا أسبانيا وهولندا .

كان بسطنا للقضية لدى هؤلاء متشابهًا ، وكان الأمير ميشيلُ يتكلمُ معهم باللين والاعتدال ، ولا سيما مع الأوروبيين منهم ، وكنتُ أنا والأميرُ شكيبٌ نتكلم بشدّة فى رفض الانتداب وسوء الاعتقاد بالدولتين المتصديتين له ووصف سيرتهما ، وكان سليمانُ بك كنعان يزيدُ علينا بيانًا فى قضية لبنان ، ومثله توفيق بك حماد وشكرى أفندى الجمل فى الشكوى من الوطن القومى لليهود فى فلسطين . ولا فائدة فى استقصاء ما دار بيننا وبينهم كلِّهم فى ذلك ، ولا بد من بيان نموذج منه :

مناقشتنا للورد سيسل :

قابلنا اللورد روبرت سيسل فى عصر يوم الجمعة (30 سبتمبر) ومكثنا معه ساعةً

---

(1) **جمع** : عريضة ، وهى الصحيفة التى يكتب فيها المطلوب .

(★) أخذ الفرنسيس فى ذلك الوقت برقيات استنكار لعمل المؤتمر السورى الفلسطينى من كثير من السوريين ، وبينهم عدد من المشايخ المعممين فى دمشق ، وقد أوردنا هذا الشاهد فى بابه من رسالتنا المشهورة « لماذا تأخر المسلمون ؟ » .

وربعَ ساعة ، وقد أفاض فى الكلام معنا بطلاقة وحرية غريبة ، وهو جالس على كرسى بين الجالس والمستلقى . كما أجلس أنا فى عامة الأوقات إلا أننى أتحامى[1] هذه الجلسة إذا كنتُ مع بعض المتكلِّفين المحافظين على الرسوم ، فأترك راحتى مراعاة لهم ، والظاهر أنّ الرأى العام فى أوروبا لا يَنْتقد مثلَ هذه العادةِ ، ولا يَعُدُّها مُخِلَّةً بآداب المجلس وإلا كان اللورد قليل الاحترام لنا ، وكبراءُ الإنجليز شديدو المحافظة على الآداب العامة على كبريائهم وإعجابهم بأنفسهم .

بسطنا قضيتنا للورد ، وبيَّنَّا له رأى أُمتنا فى الانتداب ، وخصصنا بالذكر مسألتى فلسطين ولبنان ، فقال : إن البلاد السورية لا تزال بحسب القانون الدولى من بلاد العدو المحتلَّة صاحبتها الدولة التركية ، وهى فى حالة حرب مع دول الأحلاف لأنها لم تُصَدِّقْ على معاهدة (سيفر) التى أمضاها مندوبوها ، فلهذا لم ترَ جمعيةُ الأمم أنَّ لها حقًّا فى النظر فى صكوك الانتداب للبلاد المرموز لها بحرف (أ) المقدمة لها من إنجلترا وفرنسا ، وقد اقترحتُ أنا النظرَ فيها فلم يُقْبَلْ اقتراحى .

(هذا نص كلامه ، وقد كانت الجرائدُ ذكرت أنَّ كلاًّ من الدولتين وضعت صكًّا لانتدابها ، ونَشَرَت صكَّ الانتداب للعراق - وهو سيىء جدًّا - ولم يُنْشَرْ صكُّ الانتداب لسورية لأنه أسوأ . والظاهرُ أنهما استرجعتا الصكَّين ثم استبدلتا غيرهما بهما فى هذا العام ، وقد أقرَّهما مجلس عُصبة الأمم ، وإن لم يكن له حق فى ذلك بشهادة اللورد) .

ثم قال اللورد : إن الغرض من الانتداب أنْ تكونَ البلادُ المفروضُ عليها مستقلةً فى إدارتها ، وتساعدها الدولة المنتدبة حتى تستعد للاستقلال التام .

قلنا : نعم هذا ما نصّ فى عهد جمعية الأمم ، ولكنّه خداع كشفته سيرة الدولتين المستوليتين على البلاد قبلَ أنْ يتمَّ لهما أمرُ الانتداب . ومما ذُكر فى عهد الجمعية أن لأهل البلاد الحقَّ الأولَ فى اختيار الدولة المنتدبة ، ونَشرت الدولتان بلاغًا رسميًّا وَعَدَتَا فيه بالعمل برغبة الأهالى ، ثم أخلفتا الوعد ، ولم تعتد برأى الأهالى فى شىء .

قال : نعم ، ولكنَّ الدولتين احتاطتا لذلك فجعلتا الاتفاقَ بينهما حائلاً دون انتفاع

---

(1) **تحاماه** : تجنّبه .

أهل البلاد بهذا النص ، وهو أنْ لا تقبلَ فرنسا الانتدابَ لفلسطين ولا للعراق ، ولا تقبلَ بريطانيا الانتدابَ لسورية كما أنهما لا تُمكنان دولةً أُخرى من التصدى لهذا الانتدابِ .

وقال جوابًا على كلامٍ يتعلق بعدم تمكينهما جمعيةَ الأمم من جعل الانتداب موافقًا لرُوح عهدها ونصوصها : إن للجمعية أنْ تفعل ذلك بأن تطبقَ الانتدابَ على مبدئها ورُوح عهدها فلا تقبل ما يخالف ذلك .

ثم قال إن حكومة العراق الجديدة موافقةٌ لرُوح جمعية الأمم ، وإن انجلترا تنوى مساعدة هذه الحكومة بإخلاص ، وإن سورية تستحق حكومة مثلها – لكنه اعترف بأن مسألة فلسطين مشكلة دقيقة (أى إنها غير متفقة مع نصوص جمعية الأمم ولا مع رُوحها) ، وقال إن إنجلترا مضطرة إلى الوفاء لليهود بوعد بلفور وإلى إرضاء العرب وحفظ حقوقهم ، وهى ستجتهد فى اختراع وسيلة لإرضاء الفريقين مع موافقة رُوح جمعية الأمم فى الانتداب .

هكذا قال اللورد ، ولكنّ صكَّ الانتداب الذى ظهر أخيرًا لم يُرضِ إلا اليهود الصهيونيين وحدَهم ، وقد أَغضب العرب ، وخفر عهود إنجلترا لهم ، وأَخلف الوعود التى مَنَّتهم بها ، ولم يوافق رُوحَ عُصبة الأمم ولا نَصَّ موادها ، فمن نصدق وبمن نثق ؟ إلا أننا لم نُصَدِّقْ قولَ اللورد ، ولكنْ كان يُصَدِّقُ مِثْلَه ومن دونه كثيرٌ من الفلسطينيين حتى أَتاهم اليقين .

ولما صَرَّحْنَا للورد بأننا لا نقبلُ هذا الانتدابَ بحال من الأحوال ، ولا نصدقُ الوعودَ والأقوال نصح لنا بأنْ لا نعرقلَ مسألة الانتداب بل بأن نقبلَه ونطالبَ بجعله موافقًا لرُوح جمعية الأمم فإنه « ضربة لازب » (قال) : ومعاهدة (سيفر) وإن كانت سَتُعَدَّلُ فبلادُ العرب لن تعودَ إلى الحكومة التركية . فليس أمامنا مَنْ نتكلُ عليه لإنصافنا من سوء التصرف فى الانتداب إلا جمعيةُ الأمم نفسُها لأنها هى صاحبةُ الحق فى المراقبة على الدول المنتدبة ومحاسبتها على أعمالها .

قيل هذا جوابًا عما أطال به الأمير ميشيل من سوء التصرف فى البلاد باسم

الانتداب ، فكأن اللورد توهَّم أنه يمكن أنْ نقبلَه إذا حَسُنَ التصرفُ فيه ، وقد صرّحت أنا والأميرُ شكيبٌ بأننا لا يُمكنُ أنْ نقبلَه كما تقدَّم ، وأننا إنما نذكر سوء التصرف فيه لإقامة الحُجّة من الآن على سوء النية لا للانتصاف .

وكان ملخص كلامى له : إنه ليس فى استطاعتنا أن نحج[1] الدولتين ويكون لنا الفلج[2] عليهما فى دائرة قانون هما الواضعتان له والحاكمتان به والمنفذتان له بالقوة ، وإنما نشكو إلى عصبة الأمم مذ الآن هذا الأمر ، ونُبين لها أنه مخالف لمبدئها وغايتها - ولا نخاطبه به بصفته البريطانية بل بكونه من كبراء أعضاء العُصبة الذين تشبعوا برُوحها كما نسمع عنه ، ونرى أنّ مثله ينبغى أنْ يعرفَ الرُّوحَ السائدةَ فى الشرق الآن ولا سيما سوريا وفلسطين وسائر بلاد العرب ، وأن الحربَ الأخيرة قد علَّمتهم أنّ الحياة يجب أنْ تكونَ رخيصة فى سبيل الحرية ، فهم لا يُبالون ببذل دمائهم فى سبيلها - وأنهم قد ثبت عندهم أنَّ هذا الانتداب استعمار واستعباد لا مساعدة لأجل استقلالهم ، ولو كان مساعدة لما قاوموه كلَّ هذه المقاومة . وقد أجاب عن أول هذا الكلام ، ولم يُجبْ عن الجملة الأخيرة ، بل قام على إثْرِها .

كلامى مع المندوب البريطانىّ :

وأذكرُ مما قلته لمستر (فيشر) المندوب البريطانىّ فى أثناء حديثِ وَفْدِنا معه : إن أهل الشرق كانوا يثقون بالبريطانيين ما لا يثقون بغيرهم من الغربيين ولا الشرقيين ، ويضربون المثل بصدقهم ووفائهم . . فإذا أراد أحد أنْ يقول قولاً فصلاً صادقًا لا رجوعَ فيه قال : « كلمة إنجليزية » ، وقد انقلب هذا الاعتقادُ بعد الهدنة من الحرب العامة إلى ضدِّه ، فلم يَعُدْ أحد يثق بقول إنجليزى ولا غيره من الأوروبيين ، بل خسرت أوروبا كُلَّ ما كان من نفوذها الأدبى .

ذلكم بأنكم فى أثناء هذه الحرب قد ألقيتم على جميع الأمم والشعوب فى الشرق

---

(1) حجّ فلانا : غلبه بالحُجّة .

(2) الظفر والفوز .

والغرب درسًا واحدًا كان يتكرر فى كل يوم مدة أربع سنين ، وهو أنَّ الغرض من هذه الحرب بين حلفكم والحلف الجرمانى[1] هو نصر سلطان الحق وحرية الأمم والشعوب على سلطان القوة والاعتداء على الضعفاء وإخضاعهم بالسلاح العسكرى ، ووعدتمونا معشرَ العرب وعودًا خاصة بأننا سنكونُ بانتصاركم أحرارًا مستقلين ، وقد امتزجت هذه الوعودُ بدمائنا وأعصابنا ، كما صَدَّقَتْ الشعوب كلُّها تلك الدروسَ ، التى كانت تُلقيها عليها برقيات روتر وهافاس كُلَّ يوم ، وتشرحُها وتُفَصِّلُها جرائدُكم وجرائدُ أحلافكم .

وما كان إلا أنْ وَضَعَت الحربُ أوزارَها بخضوع أعدائكم لكم ونزولهم على شروطكم فى الهدنة والصلح حتى نُثِلَتْ[2] الكنائنُ وظهرت الدفائن ، فَعُلم أنّكم إنما خشيتم أنْ تشارِكَكم الدولة الألمانية بقوتها فى استعبادكم للشعوب واستعماركم لبلادها ، فأردتم القضاء على قوتها لتنفردوا بذلك . وكان أسوأ الناس خيبة مَنْ اتخذتموهم واتخذوكم أصدقاء من مخدوعى الأمة العربية ، فإنكم انتزعتم منها خير بلادها وأخصبَها ومواطنَ مدنيتها ، وهى سوريا والعراق ، فقسمتموها بينكم وبين حليفتكم فرنسا اقتسامَ الغنائم ، وقهرتموها على الخضوع لحكمكم بالدبابات والطيارات والبنادق والمدافع .

وإننا نرى أنما أسستم إمبراطوريتكم العظيمة بالقوة المعنوية والأدبية كالدهاء والحكمة واللين ، وإنكم ستكونون باستبدال القوة العسكرية الوحشية بها من الخاسرين ، وإننى قد كتبتُ فى إثبات هذه القضية مذكّرة أرسلتها إلى وزيركم الأكبرِ (لويد جورج) فى العام الماضى أثبتُّ فيها أنه يمكن لكم أنْ تربحوا من الشعوب العربية والتركية والفارسية وغيرها من أُمم الشرق بالصداقة وحُسن المعاملة معها إذا تركتم لها استقلالها أضعافَ ما تتصوَّرون من الربح منها باستعبادها واستذلالها ، والخداعُ بالأقوال كتسمية الاستعمار بالانتداب لم يبقَ له رواجٌ عند أحد من الناس .

---

(1) الألمانى .

(2) نَثَلَ الشىء : استخرجه .

وقد انسلَّ المندوب البريطانى من المناقشة فى هذا الموضوع بأنه الآن عضو فى جمعية الأمم لا فى الوزارة البريطانية ، وأن الانتداب مقرَّرٌ فى عهد الجمعية ، وليس موكولاً إلى أعضائها ليقرِّرُوه أو يتركوه ، وإنما يطالبون بجعله مطابقًا للمبادئ والأحكام الموضوعة له .

ومما أضحكنا من كلام المندوب الإيطالى أننى لما غمزتُ الحلفاءَ باقتسام بلادنا باسم الانتداب قال : إننا نحن لم نأخذ شيئًا !!

مندوب الصين :

ومما قلته لمندوب الصين : وهو رئيس مجلس العصبة بالانتخاب ، ويا له من رجل عالم عاقل حليم - لا يغرب عن علم سعادتكم أن الدول الغربية الطامعة تَعُدُّ الشرقَ كلَّه مباحًا لها ، وترى أنه ليس لشعوبها حق فى الحرية القومية واستقلال الحكم إلا مَنْ أثبت ذلك لنفسه بالقوة الحربية القاهرة كاليابان ، وما يمنعُهم من العدوان على شعب شرقى ضعيف فى عُقر داره لسلب حريته واستغلال بلاده بيده - وأيديهم من فوقها - إلا التنازعُ فيما بينهم عليه ، وقد بدأوا بعد هذه الحرب الوحشية باقتسام بلاد الشرق الأدنى ، فإذا فَرَغُوا منها لا يبقى أمامهم إلا الشرقُ الأقصى ، فأنتم بدفاعكم عن قضيتنا تدافعون عن أنفسكم :

مَنْ حُلِقَتْ لِحْيَةُ جارٍ لَهُ فَلْيَسْكُبِ الماءَ عَلَى لِحْيتهِ

فاعترف بصحة هذا القول وبوجوب تكافل الشرقيين وتعاونُهم على جعل آسية للآسيويين ، وقد عُنى بنا أكثرَ مِنْ غيرِه .

مندوب إيران :

ومما قلته لمندوب إيران - البرنس أرفع الدولة - إن خَصْمَ المسلمين الأكبر فى الشرق بل خَصْمَ الشرق كله هو الدولةُ البريطانية ، وهى مع المسلمين اليوم على طرفين متقابلين ، وإن كانا يشتركان فى أنّ كلاً منهما أقوى ما كان وأضعف ما كان فى كلِّ تاريخ حياته .

فأما الدولة البريطانيةُ فقد خرجت من هذه الحرب وهى سيدة أوروبا كلِّها - دع الشرق - فإنها استراحت من خطر الأسطول الألمانى الذى كان يهدد سيادتها البحرية بالزوال ، وأضافت إلى مستعمراتها بلادًا واسعة غنية . . . ودكت صرح الدولة العثمانية ، وجعلت أُختها الدولة الإيرانية تحت حمايتها ، وأحاطت بجزيرة العرب من أطرافها بعد أن أعلنت الحماية على مصر ، واحتلت العراق وفلسطين (الأرض المقدسة) ، وانفردت بالسلطان فى البحر المتوسط ، فصار كلُّ دولة وراءها كالخدم وراء المخدوم ، ولكنَّ هذه العظمة والرِّفعة هى منتهى ما يمكن أنْ تصلَ إليه ، ولا يطيق النوع البشرى احتمالَ عظمةٍ فوقَ هذه . . . فهى قد بلغت القمَّة ، ولما كان الوقوف والسكون فى عالم الأحياء محالاً لم يبقَ إلا أن تنحدرَ وتتدهورَ . وقد بدت آيات الانحدار والسقوط ، فقد ثارت عليها أيرلندا ومصر(★) والعراق ثورات دموية . وثارت فلسطين ثورة سياسية والهند ثورة اجتماعية . ونجم نبت الشِّقاق بينها وبين جارتها وأقوى حليفاتها الدولة الفرنسية ، ورفضت إيران معاهدتها الاستعبادية ، وصارت جارتها أفغانستان دولة مستقلة حربية ، واستعادت الأمة التركية قوتها الحربية . وراء ذلك كله الروسية البلشفية .

كلُّ هذه المعضلات قد فاجأتها وهى فى هذا الأوْجِ من مجدها ، فعجزت عن معالجة أدنى معضلة منها .

وأما المسلمون فقد انتهت هذه الحربُ بالقضاء على ما بَقِيَ من دُوَلهم المستقلة واقتسام ما بقى من بلادهم بين الدول الظافرة ، فبلغوا الحضيضَ الأسفلَ من الذِّلة والمسكنة . ولما كان الوقوفُ والسكونُ مُحالاً لم يبقَ إلا أنْ يصعدوا ويرتقوا . وقد ظهرت طلائع الارتقاء بما أشرنا إليه من ثورات شعوبهم ونهوض حكوماتهم . فإذا كانوا قد اعتبروا بما

(★) بعد أن قال السيد هذا ببضع عشرة سنة تحققت أمانى أيرلندا ثم أمانى مصر فى الاستقلال ، وكان قد سبق استقلال العراق أيضًا . فأنت ترى الحِكَمَ السياسية التى تأتي فى كلام السيد رشيد ويحققها الزمن . وأما مسألة فلسطين فلا تزال فى إبان شدتها . كما أن أهالى الهند أُعطوا قانونًا جديدًا يجعلهم قرباء من ممالك الدومنيون البريطانية ، وهم به غير راضين .

كان من جنايتهم على أنفسهم وتابوا - كما نرجو - من ذنوبهم وتعاونت شعوبهم مع سائر شعوب الشرق على دفع الضَّيم والعُدوان عنهم فلا ريبَ فى نظر اللّه إليهم ونصره إياهم . والمسلم لا ييأس من رَوْحِ اللّه مهما تكن الخطوبُ والكوارثُ التى تساوره[1] لأن اليأس لا يجتمع مع الإيمانِ بقدرة اللّه وعنايته وفضله فى قلب واحد ، وهذه آيات اللّه قد ظهرت للمسلمين بتسخير الأمة الروسية لدولتى الإسلام - العثمانية والإيرانية - تنصرهما ، وتشدُّ أزْرَهما ، وتساعدهما على درء الخطر البريطانى عنهما ، بعدما كانت هى الخطرَ الأكبر عليهما الساعيةَ إلى ثلِّ[2] عروشهما ، وكانت الدولة البريطانية هى التى تقاومها فى هذا لا حبًّا فيهما بل خوفًا أنْ تنازعَها سلطانَها البَحْرِىَّ بالاستيلاء على الآستانة ، وتزحفَ على الهند من طريق إيران ، - أو كما قال المثلُ : لا حبًّا فى علّى ولكنْ بغضًا فى معاوية .

ثم نَوَّهنا بنهضة الغازى مصطفى كمال باشا العسكرية والسياسية ولا سيما عنايته بجمع الكلمة بين الشعوب الإسلامية[★] والشرقية ، فقال البرنس : لولا مصطفى كمال باشا لكان كلُّ مسلم فى الدنيا ذليلاً الآن .

وبهذه المناسبة أذكرُ أننى قلت لأكثر مَنْ تكلَّمت معهم مِنْ أعضاء جمعية الأمم بالاشتراك مع بعض إخوانى من وَفْدِ المؤتمر أو منفردًا ولرئيس الجمعية خاصة - وهو آخرُ من تكلَّمَ معه الوفدُ - ما ملخصه :

بعضُ كلامى لرئيس جمعية الأمم :

إنَّ هذه الجمعيةَ التى اقترح الرئيسُ ويلسون[3] تأليفَها مِن جميع أُمم الحضارة لخير جميع البشر - لا يليقُ بشرفها وشرف أُممها وحكوماتها وشرف المبدإ والغاية الموضوعَين لعلَمها أنْ تكونَ آلةً لدولتين استعماريتين ؛ تَكْفُلُ لهما استعبادَ من استوليتا عليه من الشعوب

---

(1) **ساورته الهموم** : صارعته .

(2) **ثلّ عرشه** : أذهب سلطانه .

(★) هكذا كان فى مبدإ أمره قبلَ أنْ تغلُظَ شوكتُه ، ولكنه فيما بعد قَلَبَ للإسلام ظهرَ المِجَنِّ .

(3) هو توما ويلسون (1856 - 1924) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (1913 - 1921) .

قبلَ الحرب ، ومن تريدان الاستيلاءَ عليهم بعدها باسم الانتداب منها ، ولا سيما بلادنا العربية التى هى قلبُ الأرض ، ومهدُ الأديان الكبرى فى العالم ، وموضوع التنازع فى النفوذ بين الدول الكبرى ، فإنّ هاتينِ الدولتينِ قد قلَبتا الموضوعَ ؛ فحوَّلتا الغايةَ المقصودةَ من الجمعية إلى ضدِّها . وقد عزَّ عليهما أنْ تَحتملا تَبِعَةَ الاستيلاء على البلاد المقدّسة ومهدِ الأديان السماوية الكبرى ، فَجَعَلتا تبعتَه على عاتق هذه الجمعية ، وكلفتاها أنْ تكفُلَ لهما هذه الغنيمةَ وما قبلها من غنائم الاستعمار الذى كان التنازع عليها علةَ هذه الحرب المخرِّبة ، ويخشى أن يفضى إلى حربٍ شرٍّ منها هولاً وشرٍّ مآلاً . ولا يصحّ منها أنْ تُسَفِّهَ نفسها وتُحقرَها بأن تعتذرَ عن هذه الجريمة بأنها مقيدة بقانون وضعه لها هؤلاء الطامعون فإنّ قانونها يجبُ أن يكونَ من وَضْعِها ، وأن يُقرَّرَ بأصوات الأكثرين من أعضاء جمعيتها العامة ، فإما أنْ تَقبل الدُّولُ الطامعة ذلك ، وإما أنْ يُفْتضحَ رياؤُها ، وتُلقى عليها وحدَها تَبِعَةُ ما ستَجْنيه على البشر مطامعُها .

إذا كان البلقان هو مَسعرَ نيران الفتن والحرب فى الغرب فإن سورية وفلسطين وسائر بلاد العرب ستكون مسعر نيران الفتن والحرب فى الغرب والشرق جميعًا . وإذا كانت إنجلترا وفرنسا قد فقدتا فى عاقبة هذه الحرب كلَّ ما كان لهما من النفوذ الأدبى فى الشرق فستكون جمعية الأمم هى القاضيةَ على نفوذ أوروبا الأدبى فى العالم كلِّه إذا رضيت أنْ تكون آلة لهما فيما ذكرنا . وإذا أصبحت أوروبا لا تُبالى بالنفوذ الأدبى لاستحواذ الأفكار المادية عليها – كما قال فيلسوفُها الأكبر هربرت سبنسر – فَلْتعلَمْ أنَّ النفوذَ المادىّ سيتبع النفوذ الأدبى ؛ فَإنَّ الشرق قد استيقظ وعرف نفسه ، ولن يرضى بعد اليوم أنْ تكونَ شعوبه عبيدًا أذلاءَ للطامعين المستعمرين . وَلَتَعْلَمُنَّ نبأه بعدَ حين . اهـ .



تأبينُ السَّيدِ رَشيد لأخى نسيب

رَحِمَ اللَّه الاثنين

عندما انتقل أخى الأكبرُ نسيبٌ إلى رحمة ربه كتب السيد رشيد فى تأبينه فى الجزء العاشر من المجلد الثامن والعشرين الذى تاريخه 30 رجب 1346هـ ما يلى :

(**الأميرُ نسيب أرسلان**) هو من خِيرة أمراء هذا البيت الكريم - أمراء أرسلان - تهذيبًا وعلمًا وأدبًا . كان - رحمه اللَّه تعالى - ركنًا من أركان النهضة العربية الجديدة وشاعرًا من أبلغ شعرائها وخطيبًا من مصاقع[1] خطبائها ، وحسبُك أنه ثالثُ القمرين الأميرين الشهيرين شقيقيه الأميرِ شكيب والأميرِ عادل ، وإن لم يَشْتهر فى مصرَ والبلاد غير العربية كشهرتهما لأنه لم يُتح له من السياحة فى الأرض ما أُتيح لهما ، بل قضت عليه شئون الأسرة النبيلة أنْ يظل فى وطنه كما أشرت إلى ذلك فى تعزيتى عنه لآله وأسرته خطابًا لأخى الكريم ووليّى الحميم الأمير أبى غالب شكيب ، وهذا نصها :

مِنْ محمد رشيد رضا إلى أخيه الأمير شكيب أرسلان :

أطالَ اللَّه تعالى بقاء أمير البيان وعماد بيت أُمراء أرسلان ، وأحسنَ عزاءه وعزاءنا به عن شقيقه الأمير نسيب الكاتب الأديب والشاعر الخطيب والكافل لخدمة أُم الأمراء فى الوطن ، وقد طوَّحت بأخويه طوائحُ الزمن ، وأطال لنا وله بقاء شقيقه الأمير عادل ربّ السيف والقلم[2] ، ورافع الراية والعَلم ، خوّاض الغمرات ، ومتقنص الطيارات[★] ، قائد الكُماة[3] الأباة فى ميادين الجهاد والحماة الرماة فى مواطن الجلاد ، وأبقى اللَّه فيما يطيل من عهده وللأمة فى مستقبلها البعيد من بعده عمر نجله النجيب وغصن دوحته الرطيب (الأمير

(1) **يقال** : خطيب مِصْقَع أى بليغ متفنن فى مذاهب القول .

(2) أى يجيد القتال والكتابة بمالا زيادة بعده لأحد ، وهى من الأوصاف التى شاع إطلاقها على الشاعر الكبير محمود سامى البارودى .

(★) وقع له أن رمى طيارة فأسقطها فى أثناء الثورة السورية .

(3) الكُماة جمع كامٍ ، وهو المتقدم الباسل فى ميدان القتال .

غالب) يحسن تأديبه وتربيته ، ويتم تثقيفه وتنشئته ، فله منهما خير عزاء وَسَلْوَة ، وفيما فقدنا وفقدوا من السلف والخلف أحسنُ أُسوة .

وَلأَنْتَ أيُّها الأميرُ بعلمك وتجاربك وكبر نفسك وعُلوّ همتك وبما يتنشب[1] فى قلبك من حب وطنك وما يَلُوثُ[2] بزعامتك من حقوق أمتك أجدرُ بالصبر عن أخيك من الخنساء[3] بالصبر عن أخيها ، على كونك أحق منها بالتمثل بقولها :

ولولا كثرةُ الباكين حولى   على إخوانهم لَقتلْتُ نفسى
وما يبكونَ مثلَ أخى ولكنْ   أعزّى النفسَ عنه بالتأسِّى[4]

فأطال اللّه بقاءك لأمتك العربية المظلومة ولِملَّتك الإسلامية المهضومة ولوطنك السورى المجتاح ، فكلٌّ منهنّ محتاج إلى علمك وبيانك وإلى قلمك ولسانك ، وأطال اللّه حياتك لأمراء آل رسلان تُجدِّدُ من مجدهم ما لا يخلقه[5] الزمانُ ، وإنما هو طور جديد وأسلوب طريف لفضل تليد جمعت به بين قلم ابن خلدون وَمِقول سحبان ، تُملى بألسنة العرب والترك والفرنسيس والألمان ، أفليس هذا تجديدًا لأدب أجدادك الذين قال فيهم اليازجى[6] الكبير شاعر لبنان :

شُبَّانُهُمْ مِثْلُ الشيوخ نباهةً   وشيوخُهم فى البأسِ كالغِلمانِ
ويُخاطِبُون بكُلِّ فنٍّ أهلَه   فَكَأَنَّ واحدَهم بألف لِسانِ

بلى فهذا هو المجد لا ما يُكَذِّبُ دعيتُه فيه الأبَ والجَدَّ ، وهذه هى الزعامة والإمارة

---

(1) عَلِق فيه .

(2) **لاث** : التف بعضه على بعض ، أىْ ما يحيط بك ويشغلك من حقوق أمتك .

(3) هى تُماضر بنت الحارث (ت : 24هـ) شاعرة مخضرمة ، وفدت مسلمة مع قومها من بنى سليم إلى النبى ﷺ ، وأنشدته شيئًا من شعرها فاستحسنه ، أشهر شعرها ما قالته فى رثاء أخويها صخر ومعاوية اللذين قتلا فى الجاهلية . استشهد أبناؤها الأربعة فى معركة القادسية (16هـ) فتجلدت صابرة ، وقالت : (الحمد للّه الذى شرّفنى بقتلهم) . (الدر المنثور : 109) .

(4) **انظر** : ديوان الخنساء : 68 ، ولكن البيت الثانى من البيتين المذكورين لا يلى الأول مباشرة بل بينهما بيتان آخران .

(5) **أَخْلَقَهُ** : أبلاه .

(6) يقصد ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط (1214 - 1287هـ / 1800 - 1871م) والد الأديب إبراهيم اليازجى . وهو من كبار أدباء عصره ، وله كتب منها (مجمع البحرين) . (**انظر** : أعيان البيان : 60) .

لا الألقاب المزوّرة والمستعارة ، فاصبرْ فإنَّ مصابَك بالجناة على وطنك وأمتك أوجعُ من مُصابك بابن أبيك وأُمك ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 127 ، 128] .

رشيد رضا

وقد أجبتُه عن كتابه هذا بما يلى : وهو منشور فى المنار (الجزء الثالث من المجلد التاسع والعشرين تاريخ 30 ذى الحجة 1346هـ) وذكر الأستاذ أن كلا الكتابين نشره كثير من الجرائد العربية فى مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ، وعَدُّوهُما من الآثار الأدبية فى عبارتهما كما أَنَّهما من آيات الإخلاص فى الأخوة الروحية بين صاحبيهما :

إلى حضرة الأستاذ الأكبر والسراج الأزهر ، القدوة الحُجَّة ، مذكى المنار ، الهادى إلى أقوم مَحَجَّة ، السيدِ رشيد رضا ، أمتعَ اللّه الإسلام بطول حياته ، آمين .

إذا كنت قد فقدت أخى الكبير فما زال لى منك أخ أكبر ، وإذا كان قد انهدّ رُكنى المتينُ فلم يَبْرَحْ لى منك ركنٌ أركن وعماد أمتن ، وليس بمهيض الجناح من أنت جناحه ، ولا بأعزل فى الميدان من رضا السيد من آل الرضى سلاحه . ولقد كان ما تفضَّلْتَ به من التعزية على صفحات الصحف السَّيَّارة خيرَ جابر لخاطرى الكسير ومرقئ[1] لدمعى الغزير ، ولم يكن بأول برهان على خُلُقك العظيم وقلبك الكبير ، وعلى أنَّك تعطف على القليل فإذا به بإكسير[2] نظرك كثير . وكأنَّك علمت بما فتَّ هذا الخطبُ من عَضدى وكوَى من كَبِدى ، فبدرْتَ إلَّى بما يَكُفُّ سَوْرَةَ[3] الخطب ، ويُكَفْكِفُ صوبةَ الدمع ، ويَشْفى حُرقة الصدر ، ويَهيب بى إلى ما أُمرنا به من الصبر .

فأسأل اللّه – واجبَ الوجود[4] – أنْ يمتع الإسلام كله بطول بقائك ، وأنْ يَهدى

---

(1) **رقأ الدمع** : سكن .

(2) مادة مركبة كان الأقدمون يزعمون أنها تحول **المعدن** الرخيص إلى ذهب .

(3) شدته وحدّته .

(4) **واجب الوجود** : هو الذى يكون وجوده من ذاته ، **ولا يحتاج إلى** شيء أصلاً . . معجم التعريفات : ص208 . وهم يطلقونها ، ويقصدون بها الله – عز وجل – **والأولى** وصف اللّه بما ورد عن السلف فحسبُ .

القاصى والدانى بأشعة ضيائك ، وأنْ يبقيك للأمة العربية السَّند الأقوى والجناب الأمنع والبرهان الأسنع[1] والحُجّة القاطعة التى لا تُدفع ، وأنْ يجعلَ البركة فى حياة أنجالك ، وأنْ يُقِرَّ عينك بذريتك وكلالتك[2] وآلك . ولعمرى إنه بسلامتكم يحسن العزاء وبوجودك تهون الأرزاء[3] وبطلعة مُحياك عوض عن كل ما ساء . وما ضرَّ أنْ يُكابر مكابر أو يُعاند معاند ، فالحق شديد المِحال[4] ، والنور لا يختفى بحال ، وما يتعب هؤلاء أنفسهم إلا بالمُحال :

وفى تَعَبٍ مَن يحسدُ الشَّمسَ نُورَها ⁂ وَيجْهَد أنْ يأتى لها بِضَرِيبِ[5]

شكيب أرسلان

ولما نشرَ الأستاذ تأليفَه الممتع المسمَّى (بالوحى المحمدى) كتبتُ له التقريظ الآتى ، الذى نشره الأستاذ فى نفس الكتاب وفى (المنار) الجزء الأول من المجلد الرابع والثلاثين بتاريخ 29 المحرم سنة 1353هـ :

كتابُ الوَحْى المحمَّدِىّ

إنَّ المسلمين على بيّنة من أمرهم لا يحتاجون إلى دعاية ولا إلى التماس الأدلة حتى يعتقدوا بوجود واجب الوجود[6] الذى لا يمكن العقل البشرى أنْ يتصور هذا الكون بدونه ، وكذلك لا يفتقرون إلى الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ بعد أنْ تلقوا خلفًا عن سلف النور الذى أُنزل عليه ، والذى ما زال ينيرهم من العهد المصطفوىّ[7] إلى الآن .

---

(1) **الأسنع** : الأقوى والأوضح .

(2) الأقارب .

(3) **الأرزاء جمع (الرُّزء)** : المصيبة .

(4) **مَحَلَ بالأمر** : رامه بالحيلة ، قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد : 13] ، أى شديد الأخذ بالعقوبة أو القوة .

(5) **الضريب** : الشبيه أو النظير .

(6) يقصد اللّه الخالق سبحانه ، وسبق التنبيه على أن هذا مما شاع إطلاقه على اللّه - عز وجل - من الفلاسفة ومن قلدهم ، والأولى الوقوف على ما ورد عن السلف فحسبُ .

(7) **الصواب** : المصطفىّ ، فألف المقصور الخامسة تحذف ، أما إذا كانت رابعة جاز فيها الحذف أو قلبها واوًا أو زيادة ألف مع القلب ، نقول فى : (طنطا) : طنطىّ وطنطوىّ وطنطاوىّ .

فكتاب (الوحى المحمدى) للأستاذ العلاّمة حُجَّة الإسلام فى هذا العصر السيد محمد رشيد رضا لم يُكتب فى الحقيقة للمسلمين لأنه كتاب يقيم الأدلة على صحة أمر يحيا المسلمون ويموتون عليه ، ويَرَوْنَ جميع براهينه من قِبل البديهيَّات التى لا تحتاج عندهم إلى برهان كما لا يحتاج النهار إلى دليل . وإنما وضع الأستاذ هذا للأوروبيين الذين يريدون أنْ يعلموا ما عند الإسلام من الأدلة على صحة الوحى المحمدىّ ، والذين منهم من إذا أنار لهم الدليل لم يكابروا فيه تعصبًا وعدوانًا وصدودًا عن رؤيته . وقد كتبه أيضًا لكل من نشأ نشأةً أوروبيةً ، أىْ خالية من التربية الإسلامية حتى يكون الناشىء قد ارتضع فيها مبادئ الإسلام مع لبن أُمه ، فيقال إنها رُسِّخت فيه من الصغر . ولما كان جميع من يقرأون العلوم العصرية اليوم ويتعلمون بحسب برامج الحكومات الإسلامية الحاضرة هم فى الحقيقة أشبه بناشئة الأوروبيين من جهة فَقْدِ التربية الإسلامية أو على ما يقرُب من ذلك فلهذا[1] كنا ندعو لقراءة هذا المؤلَّف ليس الأوروبيين فحسبُ بل ناشئةَ المسلمين أيضًا ولا سيما الناشئة التى أبت الحكومات الإسلامية إلا أنْ تَطْبعها بالطابع الأوروبى لأننا فى هذا العصر مغلوبون وأوروبا هى الغالبة ، والمغلوب مولع بتقليد الغالب حتى فى الخطأ كما قال ابن خلدون . فالأستاذ الحُجّة يَسْرُدُ للمرتابين الأسباب التى تحمل المسلم على أنْ لا يرتابَ بصحة الوحى النازل على محمد ﷺ يقول :

« إن محمدًا كان أُميًا لم يقرأ سِفْرًا ولم يكتب سطرًا ، وهذا القرآن العظيم بفصاحته وبلاغته وإشارتـه إلى جميع مناحى الاجتماع بأرشق إشارة وأوجز عبارة لو لم يكن من عند اللّه لا يُعقل أنْ يقومَ به رجلٌ أُمىٌ لم يقرأ ولم يكتب ولم يُحصِّلْ علمًا من قبلُ ، بل قضى طفولته فى البادية عند بنى سعد بن بكر يرعى الغنم مع إخوته فى الرضاع . ثم إنه نشأ يتيمًا ، وكان مع يُتْمه المثلَ الأعلى فى حُسن التربية واستقامة الأخلاق حتى لُقب بالأمين ، ولم يكن أحد يُمارى فى استقـامته ، وكانوا لنزاهته يختارونه ليقومَ بما يختلفون فيه فيما بينهم ، فيستحيل أن يكون رجلاً موصوفًا بالصدق والأمانة إلى هذا الحدّ من أوّل

---

(1) لمّا فى هذا النمط من الاستعمال تقتضى جملة جوابية ، وهذه الجملة إما أن تكون فعلية فعلها ماض أو مضارع ، وإما أن تكون اسمية مقرونة بإذا أو بالفاء ، ومن ثَمَّ فلا موضع لقوله : (فلهذا) ، والجملة الصحيحة هى : (ولما كان جميع من ... كنّا ...) .

نشأته إلى أنْ يبلغَ سنَّ الأربعين ثم يتحول دُفْعَةً واحدةً فيصيرُ كاذبًا مفتريًا ، ويضع من عنده أشياء يدعو الناس إليها ، ويقول إنه سمع صوتًا ولو لم يسمع صوتًا ، وشاهد مَلَكًا ولو لم يشاهد ملكًا . إنَّ هذا من الأمور المستحيلة عُرفًا . ثم إنه لم يكن طالبًا شيئًا من وراء ما قام به من الدعوة لنقول إنه كَذَبَ على الناس لينالَ حظًّا من حظوظ هذه الدنيا . فكلُّ أحد يعلم أنه لم يكنْ يَنْشُدُ مُلْكًا ولا مالاً ولا ثروة ولا جاهًا . فلأى شىء يقوم بدعاية غير صحيحة ، ويضع أشياء من عند نفسه ، ويتحمل عليها الهُزُؤ[1] والسخرية ثم البغضاء والشنآن ثم الاضطهاد والانتقام ، ويتعرض لخطر القتل وهو لا يريد رياسة ولا نفاسة ولا نعمة دنيوّية من جميع هذه النعم ، بل كلُّ ما يريده أنْ يترك قومُه عبادة هذه الأصنام التى ما أنزل اللَّه بها من سلطان ، والرجوع إلى عبادة الواحد الأحد مبدع هذا الكون لا إله إلا هو .

قد كان محمد ﷺ مُؤْثِرًا العزلة ، لا يُخالط أبناء عصره فى مجامعهم ، ولا يُشاركهم فى عباداتهم الوثنية . ونشأ من صِغَرِهِ لا يعبد إلا اللَّه تعالى ، وكان من مزاياه أن لا يقولَ الشعر ولا يخطب فى الأندية ولا يتصدى لشىء من مظاهر الرياسة ولا الشهرة ، فكيف يُمكن أنْ يَنْقَلِبَ دُفَعَةً واحدة فيخالطَ الناس ، ويدعوهم إلى التوحيد وإلى مكارم الأخلاق ، ويقومَ فيهم بشيرًا ونذيرًا ، ويَتَجَشَّمَ من العذاب ما يتجشمُ ، ويتعرَّضَ لآلام أمرَّ مِن العلقم لو لم يكن هناك باعثٌ فوق العادة حافزٌ له على الخروج من عزلته التى بلغ الأربعين وهو عاكف عليها » .

ويقول السيد رشيد : إنه من المقرَّر عند علماء النفس وعلماء الاجتماع أنَّ مَنْ بلغ سنَّ الخامسة والثلاثين ولم ينبغ فى علم أو عمل عالمى عظيم لا يُمكنه بعد ذلك أنْ يقوم بشىء منها أُنُفًا (بضمتين) أى جديدًا لم يُسْبق إليه فضلاً عن الجمع بينهما[2] . والحال أن محمدًا ظهر بهذا الأمر العظيم وبهذا البيان الإلهى الذى لم يَعْهَد العربُ مثلَه وذلك بعد

---

(1) **هزئ بالشىء هُزْوًا وهُزُءًا وهُزْءًا** : أى سخر به .

(2) هذا المقرر عند علماء الاجتماع قد يعارضه الواقع ، فقد ذاع صيت النابغة الذبيانى الشاعر العربى المعروف بعد أن كبرت سنُّه ، وهو شاعر من الطبقة الأولى ، وكان أبو عمرو بن العلاء يفضله على سائر الشعراء . وقد يعارضه أيضًا النص فالنضج لا يكون إلا بعد الأربعين ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف : 15] . ولعل هذا واضح فى كون أعظم الابتكارات لا تكون إلا ممن تعدّى سنَّ الأربعين .

الأربعين ، فلم يكن قبلَ هذا التاريخ استعدَّ له بشيء ، ولا وُجِدَ ما يدلّ عليه من قول ولا فعل ولا علم ولا عمل .

قلت : وقد يقولُ بعضُ الناس إنَّ محمدًا كان يظنُّ فى نَفْسِهِ أنه يوحَى إليه ، فهو لم يتعمد الكذب تعمُّدًا ، وإنما بلغ به التأمل أنه كان يسمع تلك الأصواتَ ويرى تلك الخيالاتِ ، فيظنُّ ما سمعه وحيًا وما رآه مَلكًا . والجواب على ذلك أنْ هذا الوحى كان قولاً ثقيلاً خارقًا للعادة ، وكان يُؤْخَذُ به أخْذًا شديدًا حتى كان يخافُ مِن نفسه[1] ، وطالما خاف أنْ يكون به جنون . وهذا من جملة الأدلة على صدقه وكونه لم يتعمّد النبوةَ تعمدًا ولا استشرف لها بشيء من الأشياء ، وأنه قد فاجأه الوحى مفاجأة ، لم يتقدمه عنده سوى الرؤيا الصادقة ، وأنه جاء وحيًا فيه مِن العلوم العالية – كما يقول السيد رشيد – والأعمال العظيمة ما كان قلبًا للأحوال والأوضاع الدينية والمدنية والاجتماعية ، بل انقلابًا لا يماثله انقلاب معروف فى التاريخ .

ثم إنّ هذا الكلامَ الذى نُفِثَ فى رُوْع[2] محمد ﷺ ليس من نَسَق كلامه الذى يعرف الناسُ له ، فقد تكلم محمد ﷺ قبلَ البَعْثَة وتكلم بعد البِعْثَة ، ولا شك أنّه كان من أفصح البشر وأبلغهم ، وقد نطق بجوامع من الكلم تحار لها العقولُ ، ولكنه لا يزال بين كلامه الخاص وبين القرآن الموحَى إليه بونٌ بعيد ، فلا كلامُه الخاصُّ ولا كلامُ أحد من الأنبياء يُسامِت[3] درجة القرآن فى كثير ولا قليل . وكلّ من تأمل فى القرآن العظيم وكان بصيرًا بالبلاغة وقابله بكلام البشر يُدرك هذا الفرقَ الكبير .

لا جَرَمَ أنَّ القرآن يعلو فى بلاغته وأُسلوبه وشدة تأثيره علوًّا كبيرًا عن جميع كلام العالمين ، وكيف يكون ذلك إنْ لم يكن القرآن وحيًا إلهيًّا ؟ فتقوُّلُ بعضِ الناس أنْ محمدًا ﷺ كانت تَعْرُوه[4] نوبةٌ عصبية فيظنُّ نَفْسَه يوحَى إليه ليس مما يُعلِّل هذا العلوَّ الذى يعلوه القرآنُ الذى أوحى إليه على الكلام الذى كان يقوله من نفسه بدون أنْ يُوحَى إليه ،

(1) **الأنسب** : يخاف منه على نفسه .

(2) **الرُّوع** : القلب أو النفس أو العقل ، والرَّوع (بالفتح) : مصدر (راع) أو الحرب . والمقصود : الكلام الذى أوحى إليه .

(3) يوازى أو يساوى .

(4) تُصيبه .

فإنَّ النوبةَ العصبية التى يَزعمونها ليس من شأنها أنْ تأتىَ بهذا الإعجاز كلِّه ، وأنْ تجعلَ هذا الفرقَ البعيد فى كلام إنسان واحد .

ثم إننا لا نفهم لماذا يَأْبَوْنَ أنْ يعتقدوا بكون تلك الحالة التى كانت تَعْرُو محمدًا ﷺ عند نزول الوحى عليه هى من شدّة وطأة الوحى وكونه قولاً ثقيلاً ؟ ولماذا يَأْبَونَ إلا أنْ يُسَمُّوا هذه الحالةَ التى كانت تعروه نوبة عصبية ناشئة عن مرض من أمراض الجسم ، ولو لم يقم على وجود هذا المرض دليل ؟ فأىُّ استحالة فى كون بارئ الوجود يوحى إلى أحد عِبَاده الذين اصطفى قولاً يُحدث نزولُه عليه نوبة عصبية يضطرب لها ويتفصَّد جسده عرقًا كما كان يَعْترى محمدًا ﷺ ؟ وأيضًا فالنوبة العصبية الناشئة عن علة بدنية تقتضى أنْ يكونَ صاحبها مصابًا بداء الصَّرَع أو بمرض عصبىّ آخرَ تُحْدُثُ منه هذه النوباتُ ، والحال أنّ النبى ﷺ كان سليمَ الجسم ولم يكن مريضًا ، ولم يقلْ أحد من أهل عصرِه - لا من أعدائه ولا من أصحابه - إنه كان يصيبه شىء من أعراض الصَّرَع أو من أعراض مرض آخر مُزْمِنٍ ، والذين ذهبوا إلى ذلك لم يستندوا إلى أدنى دليل ، وإنما هى افتراضات مبنية على غير أساس ، وتَخَرُّصات[1] بغير الواقع وبمجرد التخيل كما هو شأن كثير من الأوروبيين ، أو هى فرار من التسليم أنَّ تلك الحالةَ التى كانت تعرو محمدًا ﷺ عند نزول الوحى عليه هى حالة خاصة بنزول الوحى لم تكنْ لِتَحْدُثَ لولا ذلك . ولكنّ محاولةَ هذا الفرار لا تُغنى هؤلاء الفارّين من الحقيقة شيئًا إذ قد ثبت أنَّ النبى ﷺ كان مِزَاجه عقلاً وبدنًا بغاية الاعتدال حتى إن المستشرق الفرنسىّ ماسينيون نَفْسَهُ برغم صِبغته الكاثوليكية الشديدة يعترف بأنّ مِزَاج محمد ﷺ كان موزونًا لا شائبةَ فيه . إذًا فافتراض النوبة العصبية بغير تأثير الوحى لم يبقَ له مجال إلا التعنُّت .

وقد أشار السيد رشيد إلى هذا الموضوع فقال : إن أَعداء الرسول ﷺ من الإفرنج وتلاميذهم تأوَّلوا هذه الحالة التى كانت تحدث له بأنه كان يعرض له نوبات عصبية وتشنجات هيستيرية ، وما أبعد الفرقَ بين حالته تلك وحالة أُولى الأمراض العصبية فى المِزاج ، فقد كان مِزَاجه ﷺ معتدلاً ولعلّه إلى الدموىّ العضلىّ أقربُ ، فذو النَّوْبَة

---

(1) **تخرصات** : افتراءات وتكهنات .

العصبية يَعْرض له فى أثرها من الضعف والإعياء البدنىّ والعقلىّ ما يَرْثى له العدُو الشامت ، وأما صاحبُ تلك الحالة الرُّوحانية العليا فكان يتلو عَقِبَ فصمها وتسرّيها[1] عنه آيات أو سورة كاملة من القرآن الذى بيّنا فى هذا البحث بعض وجوه إعجازه اللفظى والمعنوى . . . إلخ .

قد اهتمْمنا بهذه النقطة دونَ سواها مِن هذا المعترك لأنه لا يكاد يوجدُ أحد اليوم فى أوروبا من العلماء المحققين إلا وهو معترف بأن محمدً ﷺ لم يتعمّد ادّعاء النبوة تعمُّدًا لينالَ بها رياسة أو مجدًا أو مالاً أو حظًّا من حظوظ الدنيا ، وأنه إنما أراد صلاح عقائد بنى عصره مِن نَقْلِهم عن عبادة الوثن إلى عبادة الحقّ ، فهذا أمر قد اتفقوا عليه تقريبًا . ولكنّه لا يزالُ يصعب عليهم التسليمُ أنه كان نبيًّا يوحَى إليه ، ولما كانوا لا يَقْدِرُون أنْ ينكروا الحالة التى كانت تصيبه قبل أن ينطق بالقرآن ، وأنها حالة لم يكن يتعمدها ، ولم يكن يُمكنه لو أراد أن يتعمدها ويتظاهر بها - لجأ بعضهم لتحليل هذه الحالة إلى قضية النَّوْبَة العصبية ، وذهب آخرون إلى أنه من قَبيل الولَهِ[2] باللّه تعالى الذى يخرج الإنسان عن الطور المعتاد . وعلى كلّ حال قد اجتاز الأوروبيون المرحلة الأولى من مراحل الاعتقاد بصحة دعوة محمد ﷺ، فقد لبثوا طوال القرونِ الوسطى يزعُمون بتأثير كلام رُهبانهم أنَّ محمدًا كان كاذبًا ، فرجعوا الآن عن هذا القول إلى القول بأنه كان صادقًا معتقدًا ما يقوله حقًّا ، وأن هذا القرآن كان ينزل عليه ، وكان يعتقد هو أنه من عند اللّه ، وكان يرى المَلك ماثلا أمامه ، ولكنَّ هذا كان نتيجة المرض بقول بعضهم أو التخيل بقول الآخرين . فادّعاء الكذب على محمد ﷺ قد سقط اليوم فى أكثر بلاد النصرانية ، وقد اجْتِيزَت المرحلةُ الأولى ، فبقيت المرحلة الثانية وهى تصديقُ كونِ محمد ﷺ إنما كانت تَحْدُثُ له هذه الحالةُ غيرُ المعتادة لسبب وحى كان يأتيه من قِبَلِ اللّه تعالى ، لا بمجرد التخيل ولا من قِبَل المرض ، وليس بعجيب أنْ يتأوَّل هذا التأوُّلَ أهلُ عصر مادىّ كهذا العصر ، يصعب عليهم الاعتقاد بالغيب وتعليل الأمور بغير ما يقع تحت الحسِّ . ولكنّهم لو تأمّلوا لوجدوا أنفسَهم عاجزين عجزًا تامًّا بإزاء الأسرار الكونية ، لا يَحُلُّونَ منها مُشْكلاً إلا وصلوا إلى

---

(1) انفصالها وانكشافها . (2) شدة التعلّق .

سدٌّ واقف فى وجوههم لا يقدرون أن يجتازوه إلا بعد التسليم أنْ هناك قوة خارقة للعادة ، وأنّ القول بوجوده أقرب إلى العقل وإلى العلم من هذه التَّمَحُّلات[1] الواهية التى يُحاولون بها تعليلَ الحوادث كلِّها بالأسباب المادية ، ويُلجئهم الأمر فى أكثر الأحيان إلى تلمس الافتراضات المبنية على غير أساس .

إنَّ كتاب « الوحى المحمدى » الذى جاء به الأستاذ السيد رشيد رضا فى هذه الأيام قد أتى عصرَه على قَدَرٍ لأنه زمن صار يجب فيه التعليل حتى فى الأمور التى هى معدودة إلى اليوم من البديهيات . وما دمنا نقفوا[2] الأوروبيين صاعدًا ونازلاً ولا مناص لنا من هذا الاقتداء كان لا بُدَّ لعلماء المسلمين من إعداد الأسلحة العقلية اللازمة لمكافحة الشبهات التى هى من أصل أوروبى . فكتابُ الأستاذ وافٍ بهذا الغرضِ لا يَخْطِرُ فى البال معنى من المعانى التى يقتنع بها القارئ بعلو مزايا الإسلام إلا وقد أشار إليه .

نعم قد فات هذا الكتابَ موضوعٌ جليل ربما كان أدلَّ على إعجاز القرآن وعلى صحة الوحى به وكونه من عند اللَّه حقًّا – من سائر الموضوعات ، وهذا هو ما فى القرآن من الآيات المطابقة للقواعد العلمية التى انتهى إليها تحقيق الأوروبيين فى هذا العصر من جهة التحولات الكونية . فمن المعلوم أنّ محمدًا ﷺ – فضلاً عن كونه كان أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب – قد نشأ فى مكةَ حيثُ لم تكن علومٌ ولا معارفُ ولا جامعاتٌ ولا مدارسُ تقرأ فيها العلوم الكونية ، وذلك فى غير جزيرة العرب كالشام أو كالإسكندرية أو كأثينة أو كرُومية مثلاً ، فإن محمدًا ﷺ كان بعيدًا عن ذلك المحيط العلمىّ كله لا صِلَةَ له به . ثم إنّ العلوم الكونية التى كانت فى ذلك العصر لم تكن فيها هذه النظريات الحديثة كالرأى السديمىّ مثلاً الذى يقتضى أنْ تكونَ الأجرامُ السماوية كلُّها فى الأصل دُخانًا ثم تتجمَّدُ كتلةً واحدة ثم ينفصل بعضُها عن بعض أجرامًا متفرقة . وإنك لَتَجِدُ هذا فى القرآن صريحًا : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء : 30] . فلو لم يكن القرآن وحيًا ما كان يُمْكِنُ محمدًا ﷺ أن يَنْطِقَ بحقيقة علمية لم تتقرر فعلاً إلا فى هذا العصر . وكذلك كونُ مبدأ الحياة فى

(1) تَمحُّل : احتال .

(2) نتّبعهم .

الماء ، قيل إنه قال به بعض فلاسفة اليونان ، ولكنه لم يكن قاعدة علمية كما هى اليوم .
وكذلك كون الزوجية منبثة فى الممالك الثلاث الكونية : الحيوان والنبات والجماد لم يكن ذلك معروفًا فى عصر محمد ﷺ ، وإنما كانوا يعرفونه فى المملكة الحيوانية وشىء من المملكة النباتية المشابهة للحيوانية ، والحال أنَّ القرآن جعل هذا المبدأ عامًّا : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49] . وغير ذلك من الآيات التى جاء فيها مثل ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [سورة ق : 7] . و﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : 10] .
وكذلك حركة الأجرام الفلكيّة ، فقد كان الفلكيون فى القديم يعتقدون بوجود سيارات[1] وثوابت ، ولم يتغير هذا الاعتقاد إلا بحسب علم الهيئة الجديد . والحال أن فى القرآن ما يدل على أنه ليس من جِرْم غير متحرك ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] . وغير ذلك مما أَحصاه المرحوم الغازى أحمد مختار باشا نحوًا من تسعين آية ، فيما أتذكر ، وفسره تفسيرًا علميًّا ، أثبت ما فيه من المطابقة للنظريات العلمية الحديثة . وكان مختار باشا من أفذاذ الدهر فى علم الهيئة والرياضيات والطبيعيات ، فلا يَقْدِرُ أحد أنْ يُنكر ضَلاعَتَهُ فى هذه العلوم . ولقد أشرت على الأستاذ الحُجَّة السيد رشيد بأنْ يُلْحِقَ بكتابه هذا ليكون مستوفيًا جميع شروط الإفادة - خلاصة كتاب مختار باشا الغازى المسمى (سرائر القرآن) لأن الذى يؤثر فى عقول الأوروبيين وعقول النشء الجديد فى الشرق من مطابقة القرآن للنظريات العلمية الحديثة هو أعظم مما تؤثّره البراهين العقلية والأدبية والاجتماعية .

(المنار) كتب أميرُ البيان هذا التقريظ بعد قراءته لكتاب (الوحى المحمدى) ببضعة أشهر ، وكان قد نسى على ما يظهر أن الموضوع الذى قال هنا إنّه قد فاتنا - لم يفتنا . فإننا قد أشرنا إليه فى مواضع ، كان آخرُها ما يراه القارئ فى آخر صفحة من خاتمة الكتاب ، وفيها ذِكْرُ هذه المسائل التى مَثَّلَ بها لما فى القرآن من المسائل العلميّة التى فى القرآن وزيادة عليها ، وقد وَعَدْنَا فى هذه الخاتمة ، كما وعدنا في تصدير هذه الطبعة ، بأننا سنعقد لها فصولاً فى ملحقات الكتاب التى ستكون فى الجزء الثانى منه مع أمثالٍ لها

(1) أى : أجرام وأفلاك كثيرة السير والحركة .

من سُنَن الكون الاجتماعية والأخبار الغيبية والوصايا الصحيَّة .

وفات الأميرَ - حفظه اللَّه تعالى - ما كنا اقترحناه عليه عندما كتب إلينا أنه سيكتب تقريظًا للكتاب بأنْ يجعلَه استدراكًا على كلام له فى كتاب (حاضر العالم الإسلامى) النفيسِ مضمونُه أنَّه لم يوجد فى هذا العصر كتاب يصلح لدعوة الإفرنج إلى الإسلام .

وأما ما ذكره فى أوَّل التقريظ من استغناء المسلمين الصادقين عن هذا الكتاب أو كونه غير موجه إليهم فغرضه خاص بصحة عقيدتهم فى أصل الإسلام ، ولكنَّ السَّوَاد الأعظم منهم عرضة للتشكيك بالشبهات العلمية العصرية أو شبهات دعاة التنصير لأنّهم أسرى التقليد ، وأشرنا إلى حاجتهم إلى براهينه على إعجاز القرآن والنبوة فى مقدمة التصدير لهذه الطبعة .

وقد وصل هذا التقريظُ إلينا فى 2 من ذى الحجة سنة 1352هـ بعد طبع ما اخترناه من التقريظ فجعلناه مِسْكَ الختام .

★ ★ ★

«وللسيد رشيد مقدمة على كتابى (الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاجّ إلى أقدس مطاف) الذى طبع بمطبعة المنار ، وهى هذه بنصِّها :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴾ [الحج : 27 ، 28] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : 46] .

يحجُّ بيتَ اللَّه الحرام ويزورُ مسجدَ رسوله وروضتَه - عليه أفضل الصلاة والسلام - ألوفٌ كثيرة من مسلمى الآفاق أكثرهم من العوام والفقراء وبعضهم من العلماء والأدباء

والكُتّاب والشعراء ، ويقلُّ فى جملتهم من يفقه ما يعمل ومن يعى ما يسمع ومن يعقل ما ينظر ، ويقل فى هؤلاء من يكتب لإخوانه المسلمين ما يفيدهم شيئًا لا يجدونه فى كتب الفقه والتاريخ والرحلات والأدب .

بل نرى من حجاج إخواننا المصريين من يكتبون فى كل عام ما يُغضب اللّه تعالى ، ويَسُوء جيرانَه فى حرمه وجيران رسوله ﷺ فى روضته وخُدَّام قاصدى هذين الحرَمين من المطوِّفين والمزوِّرين وحكامهما الحافظين لأَمْن السُّكان وآمّين البيتَ الحرام وأطباءهما المحافظين على صحة أهلهما وصحة من يتشرف بأداء المناسك والزيارة فيهما ، بل يكتبون ما يُنَفِّرُ المسلمين عن إقامة هذا الركن العظيم من أركان الإسلام ، ويصدهم عن إحياء هذه الجامعة العامة التى امتاز بها على جميع الأديان - فهذا يشكو من شدة الحر ، وذاك يتململ من كثرة النفقة ، وآخر يتبرّم بما يزعم مِن تقصير المطوِّفين وطمعهم .

وأغربُ من كلِّ هذا أنّ منهم من ينتقدون منع البدع والخرافات والطواف بالقبور والاستغاثة بالأموات ، وأن منهم من كتب فى هذا الشهر مشنِّعًا على حكومة الحجاز التقصير فى عمارة مسجد الرسول ﷺ وتجديد فرشه ، وهو يعلم أنَّ حكومة الحجاز الحاضرة - على فقرها - قد فعلت ما لم تفعله حكومة قبلَها من حفظ الأمن وتسهيل السبل وتوفير المياه والإسعافات الصحية للحاجّ ، فإنّ هذا قد صار متواترًا ، ويعلم أيضًا أنَّ حكومته هو قد منعت ما كانت تُرسله إلى الحرمين وأهلهما من الأموال والحقوق المقرَّرة لهما التى كانت ترسلها فى كل عام ، وأن هذه الحقوق هى بعض ما وقفه الملوك والأمراء وأهل البرّ من الأغنياء ، ويعلم أنّ وزارة الأوقاف تُجْبى من أوقاف الحرمين فى كل عام مئات الألوف من الجنيهات وتصرفُها فى غير ما وقفت عليه ، ويعلم أيضًا أنَّ الحكومة التركية قد استحالت حكومة لا دينية ، وضمت أوقاف الحرمين إلى أملاكها ، بل هى تمنع من يريد الحج من شعبها ، وحجتها الظاهرة على هذا المنع أنَّ الترك أحق بأموالهم أنْ تبقى فى بلادهم من أنْ تُصرفَ فى بلاد العرب !!

وخيرٌ من هؤلاء الصادّين عن سبيل اللّه والمنفِّرين عن شعائر اللّه والمؤذين لجيران اللّه مَنْ يؤلِّفون كتبًا فى رحلاتهم الحجازية ينقلون فيها أحكام المناسك الفقهية وبعض الأخبار

التاريخية والأدبية ، وَمَنْ كتبوا فى رحلاتهم وفى الصحف ما أملاه الحقُّ من وصف أمن الحجاز وتوفير أسباب الراحة للحاجّ ، والثناء على الحكومة السعودية ، ورجاء الخير العظيم للإسلام فيها .

بَيْدَ أنَّك قلَّما ترى فيما كتبوا عبرة جديدة أو شيئًا من الاقتراحات المفيدة ، أو ترغيبًا فى البذل لعمارة المسجد الحرام ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو لتسهيل السبيل على الحجَّاج والزائرين وتوفير المياه لهم وللمقيمين اقتداء بما كان من فِعْل السلف الصالحين .

دَعْ ما هو أعلى من ذلك مَنْزعًا ، وأرْوَى مشرعًا ، وأبعد فى الإصلاح غايةً ، وأقوى فى درء الخطر عن الإسلام وقاية ، فقد علم الواقفون على سياسة الاستعمار الأوروبى أنَّ خطرَه قد أحاط بجزيرة العرب ، ونفوذَ بعض دوله تغلغل فى بعض أنحائها ، ثم طفق يوغل فى أحشائها ، وَيَلِغُ فى دمائها ، فإن المستعمرين قد استولوا على سكة الحديد الحجازية التى كان الغرضُ الظاهر القريب من إنشائها تسهيلَ أداء الفريضة ، والباطنُ البعيد حفظَ الجزيرة نفسِها من الاستعمار الأوروبى ومِن قَتْلِ الإسلام فى عُقر داره وإزاحته عن قراره تمهيدًا لمحوه من الأرض كلِّها .

كذلك كان شأنُ المسلمين فى حَجِّهم وزيارتهم ، وكذلك كان ما دوّنوا فى رحلاتهم ومقالاتهم ، إلى أن أذِنَ اللَّه لعبده المجاهد فى سبيله بماله ونفسه ولسانه وقلمه وعلمه وعمله الأمير شكيب أرسلان الذى بحقٍّ لقبتْه أُمته بأمير البيان أنْ يستجيبَ لأذان إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، فيؤدى فريضة الحج ، ويمرض مرضًا يَضْطرُّه بعد أداء المناسك إلى الالتجاء إلى الطائف ، والتوغل فى جبالها وذراها ، والتنقل فى مزارعها وقراها ، والهبوط فى أخيافها وأوديتها ، فينال الشفاء والعافية من مرضه ومن مرض سابق له بما شم من هواء نقى ، وشرب من ماء رِوًى[1] ، وجنى من ثمر شهى ، ويشاهد ما تم من قابلية للعمران لا يكاد يَفْضُلُها مكان فى عصر عمَّ الحجازَ فيه العدلُ

(1) ماءٌ رِوًى : عَذْبٌ .

والأمانُ ، وأنْ يَصفَ ذلك بقلمه السَّيَّال وبيانِه السَّلْسَال الذى يجرى فتكبو فى غاياته جياد الفرسان ، ومن ذا الذى يطمع فى لحاق أمير البيان فى مثل هذا الميدان ؟ ميدان التاريخ وعلم الاجتماع والعمران وما فيه من عبرة السياسة فى هذا الزمان ولا سيما سياسة الأمة العربية الإسلامية .

أحمد اللّه تعالى أنْ وفَّق أخى شكيب لأداء المناسك وشهود ما قرنه بها القرآن من المنافع ، وإنما هى منافع أمته لا منافع شخصه وأسرته ، وأنْ يسّرَ له السير فى تلك الأرض لفقه ما أَرشد إليه عقله وهدى له قلبه ، فيعرفُ بنفسه جبالها ووهادها وأغوارها وأنجادها[1] وسهولها وصفاصِفَها[2] ومجاهلها ومعارفها ، ثم يبعث ما دفن فى بطون الكتب من تاريخ عمرانها وكنوز معادنها مع بيان أماكنها ووسائل استخراجها من مكامنها ، ويُجْلى للعقول ما فيها من العبر البالغة ، ويُقْرِنُ بها وَصْفَ حالتها الحاضرة ، ويستنبطُ منها ما يجب على الأُمة العربية وحكوماتها والشعوب الإسلامية وزعمائها من توجيه أصدق ما أُوتوا من إرادة وعزيمة ، وأفضل ما أُعطوا من علم وثروة ، فى سبيل عِمران الحجاز وصيانته من خطر الاستعمار . وإنّ ذلك لا يتم لهم إلا بعمران جزيرة العرب كلِّها لأنّ انتقاصها من أطرافها يُفضى إلى الإحاطة بسائر أكنافها[3] .

تلك الغاية البعيدة المرمى هى التى وضع لها الأمير رحلته الحجازية التى سمّاها : (الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاجّ إلى أقدس مطاف) . وقد أقام الدلائل على إمكان ما دعا إليه وسهولته من قابلية فى المكان ومواتاة من الزمان ، وأشار إلى ما يعترض به على ذلك من شبهات داحضة ، وكرّ عليها بما يَنْقُضُها من حُجَج ناهضة بما لم يُبْقِ لمعتذر عذرًا مقبولاً ولا لُمقَصِّر قولاً معقولاً .

ثم إنه لم يقفْ فى ارتساماته دون هذا المقصد الأسمى بل أَلَمَّ فيها بكل ما يُهِمُّ المسلمَ من حال الحجاز وأهله وحكومته ، فأفاض القول فى تعظيم شأن المياه فيه وما يرجى من زيادتها بالوسائل العصرية ولا سيما الآبار الارتوازية ، واستشهد التاريخ على ما كان من

---

(1) جمع (نَجد) ، وهو ما ارتفع من الأرض وصلب .

(2) المستوى من الأرض .

(3) **الأكناف** : جمع (كَنَف) ، وهو الجانب .

عناية السلف الصالح بعمرانه وحبس الأوقاف الواسعة عليه ، وعناية الخلف الطالح بتخريب ما عمَّروا وإضاعة أكثر ما وقفوا ، وتمهيدِ حكامهم الفاسقين سبيل ذلك لسالبى مُلكهم من المستعمرين . وضرب لذلك الأمثال بتاريخ أكبر المعمِّرين من الملوك والأمراء والوزراء ، وأسهب فى بيان أحوالِ المطوّفين والمزوّرين[1] وقناعتِهم ، وما يجب من إصلاح حالهم ، ونوَّه فيها بفضلِ الحكومة السعودية الحاضرة وخدمة ملكها للحجاز . وأعظمُها والمقدَّمُ منها تعميم الأُمنة[2] فى بدو البلاد وحَضَرها قريبِها وبعيدها ، وما يرجى بحكمته من سائر أركان الإصلاح فيها .

وقد منَّ علىَّ بأنْ عهد بنشر هذه الارتسامات إلىَّ بأن أطبعها بمطبعة المنار ، وأشرف على تصحيحها بنفسى لتعذُّر إرسال مُثُل الطبع إليه فى أوروبا ليتولى تصحيحها بنفسه ، بل مَنَّ علىَّ بالإذن لى بتعليق بعض الحواشى على بعض المواضع التى أرى التعليق عليها مفيدًا لقارئها ليكون اسمى مقرونًا باسمه فى هذا الأثر الخالد له فى خدمة العرب والإسلام ، كما منّ علىَّ قبله بمثله فى رسالته التى جعل عنوانها : « لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقدم غيرهم » وهى هى الرسالة التى :

سَارتْ بِها الرُّكبانُ تَطْوِى نَفْنَفًا[3] فَنَفْنَفًا وَسَبْسَبًا[4] فَسَبَسَبا

فاضطربت بها بعضُ دُول الاستعمار وزُلزلت زلزلاً شديدًا حتى قيل لنا إنها أَغرت حكومةَ سورية بمنع نشرها فيها ، وهى أحقُّ بها وأهلها ، فانفردت بهذه العداوة للإسلام دونَ من أَغرَوْها بها .

ولقد كان سماح الأمير – حفظه الله – لى بهذا وذاك إعلامًا لقارئى الرسالة والرحلة بما بيننا مِن الأخوة الإسلامية الصادقة ، والاتفاق فى المقاصد الإصلاحية النافعة للأمة العربية والشعوب الإسلامية ، التى نفخ روحها فى كلّ منا شيخنا الأستاذ الإمام (الشيخ محمد عبده) بالتَّبَع لأستاذه موقظِ الشرق وحكيم الإسلام (السيد جمال الدين الأفغانى) ، قدَّسَ اللّه روحهما وأجزل ثوابهما .

---

(1) **زوَّر الزائرَ** : عرَف له حقَّ زيارته فأكرمه .

(2) **الأُمْنة** : الذى يأمنه كل أحد فى كل شىء .

(3) **النفنف** : الصحراء أو المفازة البعيدة .

(4) **السبسب** : الصحراء أو المفازة .

هذا ، وإن الأميرَ - أمتع الله بعلمه وعمله ولسانه وقلمه - قد وضع للرحلة حواشى كثيرة عزوتها إليه فى مواضعها ، وكان يجب أنْ أُشير إلى ذلك فى ديباجتها ، ولكننى ما علمت بها إلا عند بلوغ أول حاشية منها :

وقد كان لى وقفة ونظر فى اقتراحه على الحكومات المختلفة فى الدين والسياسة أنْ تُشَدِّدَ على حُجاج بلادها الفقراء فيما تفرضه من الشروط للسماح لهم بالسفر إلى الحجاز ، لا لأن هذا الاقتراح منكَرٌ فى نفسه بل لأن الحكوماتِ الاستعماريةَ التى تكره للمسلمين المرزوئين[1] بسيطرتها عليهم أنْ يؤدّوا هذه الفريضة - لم تقتصر فى إرهاقهم بالشروط المالية والصحية ، بل أنا أعلمُ علْمَ اليقين أنْ جميعَ الدول الاستعمارية تَمْقُتُ قيام المسلمين بهذه الفريضة ، وتتعاون على صدِّهم عنها بما تستطيع من حول وحيلة . ولولا ما لبواخرها وتجارتها من المنافع من نقل الحجّاج لكان تشديدهم فى الصدّ أكبر ، ولكنّ ما وضعوه من العواثير[2] والعقاب فى سبيل الحج باسم المحافظة على الصحة قد أنالهم بعضَ مُرادهم منه بقلة من يتحمل مشقته من ملوك المسلمين وأمرائهم المترفين وأغنيائهم المحسنين وزعمائهم المفكرين .

وقد كانوا حاولوا أن يقرروا فى مؤتمر طبى عقد بمصر فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى أن الحجاز بيئة وبائية بطبعه يجب جعله تحت سلطة الحجر الدولى دائمًا لذاته ، فجاهد المرحوم سالم باشا سالم كبير أطباء مصر (والطبيب الخاص لسمو الخديو توفيق باشا وأسرته) يومئذ جهادًا كبيرًا دون ذلك حتى دحض كلَّ شبهة تؤيد هذا الاقتراح ، وأثبت بالأدلة الفنية الطبية والتاريخية أن الحجاز ليس بوطن لوباء الهيضة الوبائية (الكوليرة) ولا لغيرها من الأوبئة السارية المعدية . ولكننى لم أضع لهذه المسألة حاشية بل أدعها إلى علم الأمير الواسع ورأيه الناضج لعله يستدرك ما يرى استدراكه ممحصًا لهذا الرأى .

وهأنذا أزُفّ إلى قراء العربية هذه الرحلة النفيسة والارتسامات اللطيفة ، ولا ريب

---

(1) المبتلين .

(2) **العواثير** : جمع العاثور ، وهو العقبة التى يُتعثرُ فيها .

عندى فى أنهم يُقدِّرونها قدرها ، ويُعنون معى بنشرها وبث الدعاية إلى العمل بما فيها من النصيحة الثمينة التي تتوقف عليها حياة هذه الأمة المسكينة ، التى كانت هى الناشرةَ لدعوة الإسلام ، والمفيضةَ لنور هدايته ، والمفجّرة لأنهار حضارته ، وبإحيائها وعمران بلادها يناط بقاؤه ، ويعود رِوَاؤه ، وينضر إهابه ، ويتجدد شبابه .

وأختم هذا التصدير لها بما يؤيِّد قولى هذا من الأحاديث النبوية فى شأن الحجاز ومستقبَله ، وكونِه مأرز[1] الإسلام ومعقلَه وحصنَه وموئلَه عندما يشتدّ على المسلمين البغى والعدوان ، ويركبون المناكير فيناكرهم الزمان ، أو تُستباح بَيْضَتُهم بما أعرضوا عن هداية القرآن .

قال رسول اللَّه ﷺ : « إنّ الإيمان ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرِزُ الحيةُ إلى جحرها »[2] رواه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة .

وأعم منه وأدل على المراد قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ وهو يأرِز بين المسجدين كما تأرِز الحيةُ فى جحرها »[3] رواه مسلم من حديث ابن عمر .

وأعم منه وأظهر قوله ﷺ : « إن الدين ليأرِز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأُرْوية[4] من رأس الجبل . إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من سنتى »[5] .

وأوسع من ذلك كله وأدل على الباعث عليه ما رواه أحمد والبخارى ومسلم من حديث ابن عباس رضى اللَّه عنهما أن النبى ﷺ أوصى عند موته بثلاث أولها : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب »[6] وما رواه أحمد ومسلم والترمذى عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : « لأُخْرِجَنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب

---

(1) **أرز إلى المكان** : لجأ إليه .

(2) أخرجه البخارى (1876) ، ومسلم (147) **ويأرز إلى كذا** : يجتمع وينضم .

(3) أخرجه مسلم (146) .

(4) **الأُروية** : أنثى الوعول ، والوعل تيس الجبل .

(5) أخرجه الترمذى (2630) .

(6) أخرجه البخارى (3168) .

حتى لا أدع فيها إلا مسلمًا »[1] . وما رواه أحمد من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : آخر ما عهد به رسول اللَّه ﷺ أن قال : « لا يُترك بجزيرة العرب دينان »[2] وروى عن أبى عبيدة عامر بن الجراح قال : آخر ما تكلم به رسول اللَّه ﷺ « أخرجوا يهود الحجاز ونصارى نجران من جزيرة العرب »[3] والمراد أنه آخِر ما أوصى به عند موته ، وأما آخر كلمة نطق بها ﷺ فهى : « اللهمَّ الرفيق الأعلى »[4] .

وقد بينت فى مواضع من جزء التفسير العاشر وغيره حكمة هذه الوصايا النبوية ، وهى ما أطلع اللَّه تعالى عليه رسوله ﷺ ، وأخبر به كما فى حديث ثوبان رضي الله عنه وغيره من تداعى الأمم على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها وسلبهم لملكهم واضطهادهم لهم فى دينهم إلى أنْ يُضطروا إلى الالتجاء إلى مهدِ الإسلام الأول ومعقلِه الأعظم ومأرِزِهِ الآمنِ وهو الحجازِ وسياجه من جزيرة العرب ؛ ولذلك أوْصَى بأن يكون هذا المعقل خاصًا بالمسلمين لا يُشاركهم فيه غيرهم ، فهذه الوصية من دلائل نبوته ﷺ قد ظهر سِرُّها فى هذا العصر .

وها نحن أولاء نرى أعداء الإسلام ما زالوا يطاردون المسلمين حتى انتهوا بهم إلى جزيرة العرب ، وطفقوا ينازعونهم فيها ، بل وصلوا إلى الحجاز ، واستولوا بمساعدة بعض أُمرائه على أعظم موقع من معاقله البرية والبحرية (ما بين العقبة ومعان) ، وصاروا باستيلائهم على سكة الحديد الحجازية على مقرُبة من المدينة المنورة التى خصها الرسول ﷺ من هذه الوصايا بالذكر ، وأنشأوا يؤسِّسُون وطنًا لليهود فى جوارها من فلسطين التى يدعون أنها لهم وحدَهم ، وسيطلبون ضمَّ خيبر إليها بأنها كانت لهم وأخرجهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه منها .

فإذا لم تتعاونْ جميعُ الشعوب الإسلامية على مساعدة حكومة الحجاز بالمال والنفوذ الصورى والمعنوى على حفظ الحجاز وعمرانه ، بل إلجائها إلى ذلك واضطرارها إليه ،

---

(1) أخرجه مسلم (1767) .

(2) أخرجه أحمد (6/ 275) ، **وانظر** : مجمع الزوائد (5/ 325) .

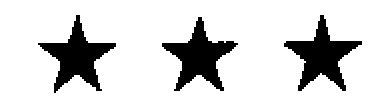
(3) أخرجه البيهقى (9/ 208) ، والحلية (8/ 382) ، **وانظر** : مجمع الزوائد (5/ 325) .

(4) أخرجه البخارى (6509) .

فستقطّع قلوبهم أسفًا وندمًا ، ويَذْرِفون بدلَ الدموع دمًا إذ لات ساعة مندم ولا متأخَّرَ ولا مُتَقَدَّمَ . ولقد كنت فى حَيرة لا أهتدى السبيلَ إلى أقرب الوسائل لهذا العمران حتى وجدته مرسومًا فى هذه الارتسامات داحضةً أمامه جميعُ الشبهات ، فبادِروا إليه أيها المسلمون ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران : 105] .

وكتبه ناشر الارتسامات ومنشئ مجلة المنار

السيد محمد رشيد رضا



« وللسيد رشيد ما نشره فى المنار ج 3 ، م 26 فى المطبوعات الحديثة » ما يلى :

كتابُ (حاضر العالَم الإسلامىّ)

لو كان المسلمونَ يُعْنَوْنَ بمعرفة شئون أنفسهم ويبحثون عن أسباب تغييرهم لما كان بأنفسهم من عقائد وفضائل ومعارف وما أعقبها من تغيير اللّه تعالى ما كان بهم من نعم السيادة والسلطان والعزة والقوة - كما يُعْنَى بذلك علماءُ الإفرنج - لما وصلوا إلى هذه الدركة من الضعف والهوان .

قد أتى على الشعوب الإسلامية قرونٌ متتابعة وهم يتدهورون من قُنَّةٍ[1] إلى هُوّة كما تتدهور الجلاميد[2] من شماريخ[3] الذرى لا تدرى مَنْ حَطّها مِن علٍ إلى أسفل ، وتتحوّل من عِزّة إلى ذِلّة ولا تعلَمُ لِمَ تتحوّلُ ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : 179] . فقد قيض بفضله للمسلمين من يوقظهم من سُباتهم ويرشدهم إلى تغيير ما بأنفسهم الآن من أسباب التردّى على علم وبصيرة كما غيّروا مِن قبل ما كان بأنفسهم من أسباب الترقى عن جهل وغفلة ، ولكنْ طرأت عليهم فى أثناء هذا الإيقاظ فتنةُ التَّفَرْنُج فلبستهم[4] شِيعًا ، وفرَّقتهم طرائقَ

(1) **قُنَّة** : قُنَّةُ كلّ شىء : أعلاه .

(2) **الجلاميد** : جمع جُلْمُود وهو الصخر .

(3) **الشماريخ** : جمع شمروخ ، وهو غصن دقيق ينبت أعلى الغصن الغليظ ، والمقصود بشماريخ الذرى أعلى الجبال .

(4) **فلبستهم شيعا** : خلطهم ببعض ، وهو فى هذا متأثر بقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام : 65] .

قِدَدًا[1] ، فقد أفسد ساسةُ الإفرنج وملاحدتهم جبلاً[2] كثيرًا من أبناء المسلمين كانوا أضرَّ عليهم مِن سائر أعدائهم فى الدنيا والدين ، فهم يُضلون المسلمين ويَخدعونهم عن دينهم ودنياهم من حيث يوجد فى أحرار الإفرنج من يُرشد المسلمين إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم بما يُعْنَوْنَ به من تمحيص الحقائق فى شئونهم لذاتها أو ليستفيدَ أقوامهُم منها .

أمامنا الآن ونحن نكتبُ هذا كتابان يَشْغلان مسلمى مِصرَ ، وسيشغلان سائرَ البلاد الإسلامية التى يَصِلان إليها .

(**أحدهما**) كتاب « الإسلام وأصول الحكم » الذى رأى القراء فى الجزء الماضى ، ويرون فى هذا الجزء ، شيئًا من بيان مفاسده ، وأنه لرجل متخرِّجٍ فى الجامع الأزهر وقاضٍ شرعى فى بعض المحاكم المصرية ، وهو أضرُّ على المسلمين من كل عدّو .

(**والثانى**) كتاب « حاضر العالم الإسلامى » وهو لعالم إفرنجى هو أنفعُ للمسلمين من كثير من أفرادهم الناصحين دَعْ متفرنِجَتهم الملاحدةَ المفرِّقين ألا وهو العلاّمة البّحاثة « مستر لوثروب ستودارد » الأمريكى الذى زاد به شهرة على شهرته ، ألَّفه بلغته الإنجليزية وسماه « العالم الإسلامى الجديد » ، فراج فى أمريكيا وأوروبا رواجًا عظيمًا ، وطبع مِرارًا متعددة ، ونُقل إلى أشهر اللغات الغربية والشرقية ، وقرَّظه كبارُ الكُتَّاب ، وأُعجبوا بدقة بحثه وسعة اطلاع صاحبه .

وقد نقله إلى لغتنا العربية عَجّاج أفندى نويهض أحد أبنائها البررة المجيدين لها وللغة الإنجليزية لِيُطْلِعَ هذه الأمةَ على أصح ما كَتَبَ فى وصف حالها أدقُّ من عُرف فى علماء الفرنجة بحثًا عنها وأعدلهم حكمًا لها وعليها وأصدقُهم قولاً فيها ، وذكر أن المحققين من العلماء الغربيين شهدوا له بهذه الصفات عند تقريظ كتابه هذا .

ترجم الكتابَ وعرض ترجمته على كاتب العصر - كما قال بحقّ - الأمير شكيب أرسلان الشهير ، وطلب منه أنْ يكتب له مقدمة تليق به ، ففعل بل أجاب السائلَ بأكثرَ مما سأَل ؛ وله فى ذلك أسوة حسنة ، ولكنه أربى فى الكرم فوضع على الكتاب حواشى

---

(1) **قِدَدًا** : جمع (قِدّة) أى فرقة ، وهو فى هذا مُقْتَفٍ أثر قوله تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن : 11] .
(2) **جبلًا** : جماعة من الناس ، وهو فى هذا يقتفى أثر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا ﴾ [يس : 62] .

وذيولاً يصح فى وصفها قولُ العرب : على الثمرة مثلُها زَبَدًا ، بل تربو على صحائف الأصل عدًّا ، ولعلَّها مدّت مادته بِضعفَيْها مدًّا . فهى بطولها واستطرادها تضاهئُ الحواشى الأزهرية ، ولا غَرْوَ فَرُوحُ الأمير العلمية والأدبية أغلبُ عليه من رُوحه الاقتصادية والاجتماعية ، فإنه لو جعل هذه الحواشى كتابًا مستقلاً لكان أليق بمقامه وأجدَر بإفادتها من جعله إياها تابعة لغيرها ، ولكان له منها ربح مالىّ يزيد على ربح الكتاب الأصلى ، بل ربما زاد عليه موشًّى وموشحًا بها أيضًا ، فإن أكثرَها موضوعات مستقلة بنفسها ، وما فيها من إيضاح لبعض غوامض الكتاب أَو استدراك عليه هو أقلُّها ، ولكنَّه على ما يظهرُ مِن معرفته لقدر نفسه ، وعلى ما يقول بعضُ حُسّاده أو مُكْبِرى فضله من إعجابه بها كثيرًا ما يَهْضِمُها وَيَضَعُها تواضعُه دون ما رفع اللّه من قَدْرِها ، ومن ذلك ظنُّه أنْ جعل هذه الحقائق الثمينة ذيولاً لترجمة هذا الكتاب أحرى باستمالة الناس إلى مطالعتها ، كأنه لم يشعر بأنه أشهر من صاحب الكتاب لدى قُرّاء العربية ، ولم يستشعر أن الثقةَ به فى شئون الإسلام أقوى من الثقة بذاك عند جميع الشعوب الإسلامية وغيرهم من الشعوب الشرقية وكثير من علماء البلاد الغربية . وإننا نكتفى الآن بذكر عناوين فصول الكتاب وأهم عناوين الحواشى لتعريف قُرّاء (المنار) قيمتها .

أما موضوع الكتاب ومواذُه فهى مُوَدَعَةٌ فى مقدِّمة وتسعة فصول وخاتمة لا يستغنى مسلم يهمه أمر أمته وملته عن الاطلاع عليها :

المقدمة « فى نشوء الإسلام وارتقائه وانحطاطه » ، وقد أنصف فيها الإسلامَ بالثناء عليه وبيان أُصول الإصلاح والهدى الْمُوْدَعَةِ فيه ، فَتَكَلَّمَ فى ذلك كلامَ عليم خبير مُنْصِفِ ، وبَيَّنَ ما أصاب المسلمين بهدايته وما أصابهم بتركها وأسبابَ الارتقاء وأسباب الانحطاط فى الحالين بما تعطيه فلسفة التاريخ وأُصول علم الاجتماع للمطلع على تاريخ الإسلام القديم والحديث والواقف على عقائده وآدابه بالإجمال .

ولكنّ كلامَه فيها لم يَسْلَمْ من الخطأ فى مسائل يتوقف تحقيقُ الحقِّ فيها على علم استقلالىٍّ واسع فى العقائد الإسلامية والفِرَقِ المختلفة فيهم ، فهو على إدراكه لطهارة العقائد والآداب الإسلامية وموافقتِها للفطرة البشرية والعقل السليم ، ولعدالة التشريع

الإسلامى وإصلاحه اللذين جحدهما الشيخ على عبد الرازق ، ولكون العرب كانوا أجدَر الشعوب بفهم تلك المزايا لحريتهم وطباعهم السليمة غير المضطربة بتقاليد الأديان التى قد أفسدها الزمان ، وعلى جعله هذين الأمرين – التعاليم الإسلامية والفطرة العربية – هما الأساس والعلة الأولى لنجاح الإسلام ومدنيته ، وعلى إدراكه أن الأعاجمَ المُتَبَلْبَلَة قلوبُهم وعقولُهم بالتقاليد الموروثة لم يفهموا الإسلام كما فهمه العربُ وأنّ تغلُّبَهم على الخلفاء وسلْبهم لسلطان العرب كان علةَ العلل للانحطاط الذى تلا ذلك الارتقاء – هو على إدراكه لكل ما ذُكر ، قد اختلط عليه الأمر عند المقابلة بين أهل السُّنة ومتبعى النقل والمعتزلة الذين حكَّموا العقل .

عَلِمَ أنَّ الإسلام دين العقل والفطرة فظنَّ أنّ المعتزلة الذين أرجعوا كلَّ شىء فى الدين إلى أصول العقل هم الذين استمسكوا بجوهر الإسلام ولبابه الصحيح ، وأن خصومهم المحافظين الذين ذهبوا إلى أنّ النقلَ والسُّنةَ مقياسُ كل شىء فى الدين هم الذين جهِلوا جوهر الإسلام ، وظَنَّ أنَّ الذين دخلوا فى الإسلام ، وقد أُشربوا فى قلوبهم الدين البزنطى القديم (وأمثالهم من الذين فهموا الإسلام بمرآة أديانهم وتقاليدها ؟) قد كانوا من زمرة أهل السُّنة والنقل لما اعتادوا من التقليد . وإنهم هم الذين أوّلوا القرآن والأحاديث النبوية تأويلات بَعدت بها عن سهولتها وبساطتها قال : « فنتج من ذلك أَنْ أُصيبَ الإسلام بمثل ما أُصيبت به النصرانية فى الأجيال المظلمة من تلبيس الدين عقائدَ غيرَ عقائده ونسبة الآراء الدينية الجافة إليه ، وهو براء منها ، فلا غَرْوَ إذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال عهده بين الذين اعتصموا بالسُّنة والنقل فقاسوا عليهما وبين الذين جعلوا العقل نفسه مقياسًا لكل شىء » .

ثم زعم أن عقيدة السُّنة هى التى غلبت على العقل كما كان متوقعًا ، وأنَّ تاريخ السُّنة والتقاليد إنما هو تاريخ السير نحو أدوار الاستبداد وعواقبه المشئومة .

لم يفرِّقْ المؤلف بين السُّنة والنقل فى الإسلام وبين التقاليد فى الأديان الأخرى ، وهى عبارة عن العقائد والشعائر الموروثة عن الآباء والرؤساء والمعلمين . والحق الواقع أنّ كلَّ ما ذكر من الفساد فى الإسلام إنما كان من بِدع الذين حكّموا عقولهم أىْ آراءهم النظرية

فى الدين ، وأنهم هم الذين حوّلوا الإسلام عن بساطته المعقولة الموافقة للفطرة ، وهم الذين كانو السببَ فى إدخال البدع وضلالات الأديان القديمة وسخافاتها وخرافات الوثنية فى الإسلام بالشبهات النظرية التى سمَّوْها دلائلَ عقليةً ، والأقيسة الشيطانية فيما لا مجال للقياس فيه من عقائد الدين التى لا مأخذ لها إلا الوحى ومن الأحكام الثابتة بالنص .

أهل السُّنة والجماعة هم الذين كانوا يجمعون قداسة الدين وسهولته من تطرق بدع الأديان والآراء الفلسفية والشعرية إليها لتحذير النبى ﷺ أُمَّته منها ، فمنهم من منع القياس فى أمور الدين مطلقًا ، ومنهم من قال : إن القياس جائز فى غير الأمور الاعتقادية والتعبدية ، وقصره بعضهم على الأحكام القضائية والمدنية والسياسية .

وكان من بدع المعتزلة دعوتُهم إلى القول بخلق القرآن وحملُهم بعض خلفاء العباسيين الذين اتبعوا نِحْلَتَهم بحمل المسلمين على ذلك بالقهر والاضطهاد ، وقد آذوا به خلقًا كثيرًا من أهل السُّنة ، من أجلِّهم قدرًا إمام الأئمة أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، فقد ضربوه ضربًا مبرحًا وداسوه بأرجلهم ليقول بقوله فامتنع أن يقول هو مخلوق أو غير مخلوق احتجاجًا بأن النبى ﷺ وأصحابه لم يأمروا بذلك ولم يقولوا به ، فيسعنا ما وَسِعَهم ، ولا نعرف دِينًا إلا عنهم ، ولو أجزنا مجاوزة نصوص الوحى وتفسير السُّنة له بآرائنا العقلية تزول الوحدة ، ونتفرق شِيعًا كما تفرق من حذّرنا اللّه أنْ نكونَ مثلهم[1] .

ومبتدِعةُ الشيعة الفاطميين بل زنادقة الباطنيين كانوا يعتمدون فى ترويج بدعهم على الفلسفة اليونانية ، وهم الذين ابتدعوا فى مصر احتفالات الموالد التى لا تزال مشوِّهةً للإسلام وسبةً للمسلمين ، والإسلام بريءٌ منها ، وملوك الأعاجم وأمراؤهم هم الذين ابتدعوا جعل القبور مساجد ، وكانوا سبب تقديس الجاهليين لها بل عبادتهم إياها ، كما فعل أهل الكتاب قبلنا ، وحذَّرنا نبينا ﷺ فعلهم ؛ إذ قالت السيدة عائشة رضى اللّه عنها فى سبب لعنه ﷺ للذين اتخذوا قبور أَنبيائهم مساجد : يُحَذِّرُ ما

---

(1) بدأت محنة القول بخلق القرآن الكريم التى تعرّض لها الإمام أحمد رضي الله عنه فى عهد الواثق باللّه ، الخليفة العباسى (200 - 232هـ) ، وأنهى اللّه هذه الفتنة على يد المتوكل ، الخليفة العباسى (206 - 247هـ) .

صنعوا - كما فى صحيح البخارى[1] ، ولا يزال المدافعون عن هذه البدع يحتجون لها بنظريات يُسَمُّونها عقلية كوجود الأرواح وجواز قضائها أو حملها الخالق تعالى على قضاء الحاجات ، ولا يوجد دليل عقلى على شىء من هذه البدع والخرافات .

من الأسف أنّ البدع التى يسمُّونها نظريات عقلية هى التى غلبت على السُّنة حتى أفسدت على المسلمين دينَهم ودنياهم خلافًا لما قاله المؤلف ، ولو اتبع الناس الإمام أحمد وأمثاله لما زادوا فى الدين شيئًا ولا نقصوا منه شيئًا ، ولصرفوا ذكاءهم وجهدهم فى العلوم والفنون الكسبية التى تفيدهم وترفع شأنهم ، ولم يخلطوا بالدين ما ليس منه .

ألم ترَ أنَّ مؤلِّفَ الكِتاب يَعُدُّ الدعوة الوهابية إصلاحًا فى الدين على الصراط المستقيم - الكتاب والسُّنة الصحيحة - وردَّ جميع ما ابتدع فيه سواء استحسنته العقول أم لا ؟ وهل للعقول قاعدة أو حَدّ تقف عنده فى هذه الأمور ؟ أليس لعباد الأوثان فلسفة دينية وشبهات نظرية يُسَمُّونها دلائل عقلية ؟ بلى ، ويكفينا هذا فى بيان غلط المؤلف فى هذه المسألة .

وَلْنَعُدْ إلى موضوعات الكتاب فنقول :

الفصل الأول	**فى اليقظة الإسلامية**	وهو فى الجزء الأول
الفصل الثانى	**فى الجامعة الإسلامية**	وهو فى الجزء الأول
الفصل الثالث	**فى سيطرة الغرب على الشرق**	وهو فى الجزء الثانى
الفصل الرابع	**فى التطور السياسى**	وهو فى الجزء الثانى
الفصل الخامس	**فى العصبية الجنسية**	وهو فى الجزء الثانى
الفصل السادس	**فى العصبية الجنسية فى الهند**	وهو فى الجزء الثانى
الفصل السابع	**فى التطور الاقتصادى**	وهو فى الجزء الثانى
الفصل الثامن	**فى التطور الاجتماعى**	وهو فى الجزء الثانى
الفصل التاسع	**مع الخاتمة فى القلق الاجتماعى والبلشفية .**	

(1) أخرجه البخارى : (4441) .

وأما موضوعات حواشى الأمير شكيب فهى فى بيان أحوال مسلمى العصر العامة الحديثة وبعض القديمة ، تكلَّم عن مسلمى الصين وجاوه وما جاورها والهند ومسلمى الروسية فى عهد البلشفية الحاضر وشرقى أفريقية والحبشة وماداغسكر وجزائر القومور وريف المغرب الأقصى والفيلبين . . .

تكلم عن مسلمى هذه البلاد وغيرها بما يهم كل مسلم يهتم بأمر المسلمين أَنْ يعلَمه ولا سيما علاقتهم بأوروبا ومن سيادتها عليهم ومحاولتها لتنصيرهم ، وله فى أذيال الجزء الأول فصول تحت عنوان « الإسلام والجنود السوداء » منها « لمحة على حالة الإسلام الحاضرة » ومنها فصل فى « الإسلام الأسود » وفصل فى « الإسلام عند السنغاليين » ، ويلى ذلك « خلاصة » سياسية لهذه الفصول وما قبلها فى شئون المسلمين وأوروبا ، فيها من الحقائق التاريخية والعِبر السياسية ما يَعِزُّ أنْ يصدر مثلُه عن غير الأمير شكيب .

ويليها فصل فى « الجنس الأسود والإسلامية » ففصل فى « الإسلام فى إفريقية » وما يلاقيه من مهاجمة الاستعمار ودعوة النصرانية ، ففصل فى « الرسالات البروتستانتية فى إفريقية » ، ففصل فى « نهضة الإسلام فى أفريقية وأسبابها ووسائل دعوتها من سنة 1790م – 1900م » .

ويلى ذلك الكلام فى الطرق الصوفية فى إفريقية : القادرية والشاذلية والتيجانية والسنوسية ، وَيَتْبَعُ الكلامَ فى الأخيرة ترجمةٌ بعض كبار شيوخها وجدولٌ فى أسماء أشهر زواياها فى ستّ صفحات بالحرف الصغير (جسم 12) .

ويلى ذلك فصل فى « مجارى الدعوة الإسلامية فى إفريقية » ، ففصل فى « الصراع بين الإسلام والنصرانية وأيها الغالب فى أمر المدنية » ، ويليه خلاصةٌ لما تقدَّم فى هذا الموضوع كله .

ومن موضوعات هذه الحواشى والذيول فصول فى الإصلاح والمصلحين وزعماء الإسلام المجدِّدين ، منها الكلام عن الوهابية وزعيمها العِلمِىّ الشيخ محمد عبد الوهاب وزعمائها الأمراء آل سعود « ومنها ترجمة حكيم الإسلام وموقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغانى وشىء من ترجمة الأستاذ الإمام ، وأشكر له حُسن ظنّه أنْ قَرَنَ اسمى باسم أُستاذنا » ، ومنها ترجمة بطل الإسلام والعرب فى هذا العهد (الأمير محمد عبد

الكريم) وتراجم زعماء جمعية الاتحاد والترقى التركية : أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا . . . إلخ .

وكلام عن بعض الفرق والطرق القديمة والحديثة كالمعتزلة والخوارج والبكطاشية والبابية والبهائية والاشتراكية والبلشفية والأحمدية القاديانية .

وجملة القول أنّ مؤلِّف هذا الكتاب من أعلم كُتّاب الفرنجة بشئون المسلمين ، فَإنْ لم يكن أعلمَهم بها فهو أجدرُهم بتحرى الحقيقة وبيانها ، وأن واضعَ الحواشى والذيول التى هى كتاب آخرُ هو أجدرُ كُتّاب العرب بالجمع بين تاريخ الإسلام والمسلمين وبين علاقة أوروبا بهم وسياستها فيهم ، وأقدرهم على بيان ذلك ، وأحرصهم على النصح فيه . نعم إنه يوجد من يساويه ومن يفوقه فى بعض فروع هذا التاريخ وشُعب هذه المسائل ، ولكنّا لا نعرف أحدًا يضاهئه[1] فى معرفة جُملتها وتفصيلها ولا فى مزية حسن البيان لها ، وقد بلغنا أنه طالع وراجع عند كتابة هذه الحواشى عشرات من الكتب الحديثة التى أُلفت بأشهر اللغات الأوروبية ، ولم يعتمد على حفظه واختباره . فقد اجتمعت فى هذا الكتاب خلاصة معارف الغرب والشرق الخاصة بحال المسلمين السياسية والدينية والاجتماعية الحاضرة والمستقبلة ، فهو يغنى فى بابه عن كثير من الكتب والجرائد والمجلات ، وهى لا تغنى عنه ، وسننقل للقراء بعض النماذج منه .



(1) ضاهأه : شابهه .

ما قِيلَ فى السَّيد رشيد عند وفاته

هذه المقالة لى فى جريدة الجهاد

أنا رجلٌ من أربعمائة مليون مسلم يندُبون اليوم السيدَ رشيد رضا صاحبَ مجلة (المنار) ، ويشعرون بالفراغ الهائل الذى سيتركه فى العالم الإسلامى ، وَمَنْ مِن هؤلاء لم يعرف قَدْرَه رأسًا عرَفه بالسماع من غيره . ومن لم يُقَدِّرّ فضله اجتهادًا فقد قدّره تقليدًا . وكما قلت يوم انتقال السيد الشريف أحمد السنوسى إلى رحمة ربه : إنه لو كان فى زمن الصحابة - رضى اللّه عنهم - لكان من جملتهم ومن أفضلهم ، فإنى أَقول الآن لو كان السيد رشيد رضا فى أيام الأئمة المجتهدين لكان من جُملة الأئمة إن لم يكن هو المجلى كان المصلى[1] . ولا يمنع السيدَ رشيدًا تأَخُّرُهُ فى الزمان أنْ يلز فى الطبقة الأولى من الأوائل . لقد اتهمنى أحد إخوانى بأنى أُبالغ فى قدر من ينطوى من أصحابى ، بأنى أُعطى كثيرًا من الناس فوق حقهم ، ولكنّى لست أرانى مبالغًا إذا قلت إنه منذ أَوحى إلى محمد ﷺ ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : 1] إلى ساعتنا هذه ، ومنذ نشأت الأمة المحمدية وقد نبغ فيها من الأمراء والعلماء والقوّاد والحكماء ورجال السيف ورجال القلم عدد كبير من العبقريين والمشاهير والأقطاب ، فسواء قلَّ هذا العدد أَو كَثُرَ فإن السيدَ رشيدَ رضا من صُيابة[2] المعدودين فى هؤلاء ، ولا يمكنُ أنْ يُكْتَبَ تاريخُ الإسلام على الوجه الصحيح ، ويوفَّر[3] فيه لكل علم من أعلامه الحقّ الذى يستحقه بدون أنْ يكونَ لصاحب المنار فيه مقامٌ كريم وبرهان ساطع ، وليس التأخر فى الزمن بالذى يدعو إلى التأخر فى الرتبة . فكم ترك الأولُ للآخِر ، بل كم رَجَحَ الحاضرُ على الغابر ، والفضل لا يتعلق بزمن الفاضل .

أَخذ السيد رشيد رضا عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وأَخذ الشيخ محمد عبده

(1) **المجلى** : الكاشف ، **والمُصَلّى** : الذى يتلو السَّابق .
(2) **الصيابة** : سيدهم .
(3) **وفر له حقه** : كمله ولم ينقصه .

عن فيلسوف الشرق الأكبر السيد جمال الدين الأفغانى ، فكانت رُوح كلّ من الاثنين من رُوح أستاذه إلا أننا لا نعلم رُوح جمال الدين هل كانت مستَمدَّة من أحد أو كانت رُوحًا لَدُنيَّة ؟ وهى رُوح إصلاحٍ وتجديد فى الإسلام ، وتأليفٍ بين شروط الدين والدنيا ، ونَظْم بين حاشيتى المادة والمعنى ، ورجوعٍ بالشرع إلى نشأته الأولى ، وتطبيقٍ للنوازل الحادثة على القواعد الموضوعةَ ، والتوفيق على ضوء القرآن بين المبادئ الإسلامية والمدنية العصرية ، خطة وسطى بين الجمود القاتل الذى جعل الإسلام كأنه فى عُزلة عن هذه الدنيا الحاضرة وبين التسامح المنكَر المؤدى إلى الانقلاب التام من أوامر الشرع ونواهيه والخروج عن الكتاب والسُّنة بالتأويلات الفارغة ، فهذا المذهب الإصلاحى الجامع بين الرجوع إلى عقيدة السلف وبين الارتياح إلى المتجددات العصرية دونَ أدنى حرج أَخْذًا بما حثَّ اللّه تعَالى عليه من طلب العلم وما ندب إليه من التعمق فى أسرار الكون هو المذهب الذى يعتقد هؤلاء الأقطاب الثلاثة أنه فى الإسلام مذهبُ الأوائل ، وأنه سيكونُ المعوَّلُ عليه فى الزمن الآتى . وهؤلاء المصلحون الثلاثة هم لاتُ هذا الرأى وعُزَّاهُ وَمناتُه[1] والذين بهم سطعت براهينه وبيناته . وقد لَقُوا فى سبيله الأهوال وتعرّضوا لكيد الرجال ، وقيل فيهم ما قيل فى غيرهم من قبلهم ممن أرادوا الإصلاح ما استطاعوا فتناولَهم أهل عصرهم بقوارص[2] الانتقاد ، وسلقوهم بألسنة حداد حتى إذا تعاقبت الأعصار[3] أقرت الأمة بفضلهم ، ورجعت إلى رأيهم ، وحصل لهم من الإقبال والحظ بعد الممات ما لم يحصُل فى هذه الحياة . وسيرى الناس أنَّ السيد رشيد رضا كأستاذه الشيخ محمد عبده كأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى سيكون من الأقطاب الذين هم فى قبورهم أعظمُ جَدًّا[4] مما كانوا فى دُورهم وممن سيلقون من الإقبال من دهرهم ما لم يَلْقَوْهُ فى عصرهم . فهؤلاء هم من الفريق الذى يزداد حياةً بعد الممات ، وقيامًا وهم رفات ،

(1) يقصد أنهم أرباب هذا الرأى ، و (اللات والعزى ومناة) أصنام عُبدت فى الجاهلية .

(2) الانتقادات اللاذعة .

(3) جمع عصر ، وهو مدة طويلة من الزمن تنسب إلى ملك أو دولة أو تغييرات طبيعية أو اجتماعية ، **يقال** : عصر هارون الرشيد ، عصر بنى أمية ، عصر الذَّرة .

(4) حظًا .

وإقبالاً بعد الذهاب ، وعلوًّا بعد المواراة فى التراب . أقول هذا وإنْ كنتُ لا أجهلُ أنَّ جمال الدين فى حياته قد بلغ من عُلو القدر ونبالة الذكر والتأثير فى النفوس والمهابة فى الصدور ما لم يبلغه مسلم فى العصر الأخير حتى أجمعت الأمة على تلقيبه بموقظ الشرق وأن الشيخ محمد عبده ألقيت إليه مقاليد الزعامة الفكرية فى مصر ومن ثمة فى سائر الأقطار العربية قبل وفاته بكثير . وكان قد جرى ذكره بينى وبين جمال الدين سنة 1892م ونحن إذ ذاك فى استانبول ، فقلت له : إن الشيخ عبده ينذُر مثله فى مصر ، فقال لى : بل لا يوجد مثله فى مصر ، وهذا قبل وفاة الشيخ – رحمه اللّه – بخمس عشرة سنة . وكذلك السيد رشيد لم تكن شُهرته فى العالم الإسلامى بأقلَّ من شُهرة أُستاذَيْه . وفى آخر الأمر وقع الإجماع على أنه فى النضال عن الإسلام وفى حلّ المشكلات العصرية وتطبيقها على القواعد الشرعية كان الفذَّ المنقطعَ النظير الذى إذا خلا لا يخلفه أحد إلا فى زمن طويل . ولم تنحصر شُهرته فى العالم الإسلامى بل عَرَفَت الأمم الأخرى مكانه فى الأمة الإسلامية ، وعلمت أنه من المصلحين الكبار والمجددين المشهورين فى الأقطار ، وأنَّ رأيه يُعوَّل عليه ويُؤخذ به وأنه لا ينازعه منازع فى رياسته الشرعية مع زعامته العقلية ، فكان المستشرقون يشيرون دائمًا إليه وَيُنَوِّهُون بآرائه عندما يدور الكلام على الإسلام العصرى ، ويحصل الأخذ والردّ فى منزع التجديد ضمنَ دائرة العقيدة . وكان الذى يُدْهِش فى الشيخ رشيد رسوخَ قدمه فى مختلف العلوم حتى إذا نظرت إليه فى علمٍ ما عَلِمَ منها ، وعلمت مبلغ إحاطته فيه ظننتَه متخصِّصًا فى ذلك العلم وحده كأنه إنما انفرد به . والحال أنَّ له فى سائر العلوم الملكةَ نَفْسَها ، فكان إذا أمسك القلم تدفق نحوًا وصرفًا ولغةً وبيانًا وبديعًا وفقهًا وحديثًا وتفسيرًا وتوحيدًا وفروعًا وأُصولاً ، وكل ذلك فى نسق واحد .

وهو وإن كان لا يُسامى جمال الدين ومحمد عبده فى العلوم العقلية – على قوته فيها – فإنه كان يفوقهما فى العلوم النقلية ومعرفة النصوص والآثار ، فكانت النازلة إذا نزلت أتى عليها جمال الدين أو محمد عبده بدليل عقلى ، وأتى عليها رشيد رضا بدليل عقلى ، وعزَّزه بحديث أو أثر ، ولهذا اتسعت دائرةُ بيانه ، وجال قلمه فى كل موضوع ، وتكلم

فيه بكلام الواضعين . وكان إذا استمد النصوص غرف من بحر ، ووضع الهناء موضع النقب . وأكثرُ ما أمدّه فى خطته هذه قوةُ مَلَكَتِهِ العربية وَفَهْمُهُ من أسرار اللغة ما لا يفهمه غيرُه ، فكلام اللّه وحديث رسوله ﷺ مشرقان عليه إشراقًا تامًا ، يحكم له بذلك كل من رزق ذوقًا سليمًا وبصرًا تامًّا باللغة وبالشريعة معًا .

وقد سبق السيد رضا أُستاذيه العظيمين فى مزِيَّة الكتابة وفيض القلم إذ كانا يؤثران تنبيه العقول وإيقاظ الهمم من طريق الخطابة والمحادثة ، وكانت مجالس جمال الدين لا يمرُّ منها مجلس إلا كان أشبهَ بمحادثة تاريخية تُسجل ألفاظها وتُحفظ جوامع كلمها .

وكانت مجالس محمد عبده يَقْدِرُ السامع أنْ يكتبها بأسرها لا يزيد منها حرفًا من شدة إحكامها ، وكأنما هى فصول مكتوبة يقرأُها قارئ ، وكأنما هى نفثات سحر فى استيلائها على الأفكار ، وطالما خرج السامعون منها نشاوى تترنح أعطافهم .

فأما السيد رشيد فانصرف بكُلِّيته إلى إعمال القلم ، وصار يكتب فى الساعات ما لا يقدر أنْ يسوِّده غيرُه فى الأسابيع ، حتى لو قيل إنَّ محصول قلمه قد يتوزع على عشرة كُتَّاب كبار ، ويصيب كلاً منهم نصيبٌ وافر ، لم يكن فى ذلك أدنى غلوٍّ لأن سهولة الكتابة التى كانت عند صاحب المنار بما أُوتى من اجتماع القوتين الحافظة والحاكمة وانتظام المُنتين[1] المطبوع والمسموع كانت آية باهرة ، لا يتمارى فيها إلا حاسد أو معاند . وتفسير السيد رشيد للقرآن الكريم هو كاف ليخلِّده بين علماء هذه الأمة . وأجوبته على الأسئلة المتعددة المتنوعة التى كان يُستفتى فيها لم يكن فى هذا العصر من يقومُ لمثلها ويجيدُ فيها بعض إجادته ، وكان يأتى باللفظ القليل الذى يدلّ على العِلم الكثير .

ولو شاء الشيخ رشيد أنْ ينشرَ جميع معلوماته وَيزُفَّ إلى القُرَّاء جميع بنات أفكاره لعجَزت الأقلام وما نسقت[2] ، ونضبت[3] المحابر وما سقت . فعقله ينبوع صافٍ متدفق أبدًا لا يقف إلا فى ساعات النوم ، فمتى استيقظ لا ينقطع سيلُه جاريًا إلى يراع[4] إذا سال على الرق أقرّ له الجميع بالرق . وناهيك كتابه فى حقوق النساء المسمّى (بالنداء

---

(1) **مثنى المُنَّة ، والمُنَّة** : القوة .

(2) **نسق الشىء** : نَظَمَهُ .

(3) أى ما روى حبرها ظمأ الورق إلى كلامه .

(4) **اليراع** : جمع يراعة ، وهى القلم يُتخذ من القصب .

إلى الجنس اللطيف) وكتابه الآخر المسمى (بالوحى المحمدى) ، وهما من تآليفه الحديثة التى زادت فى إعلاء قدره وإثبات عبقريته . ولم آتِ بهذه الأسطر المستعجلة لأرسم للسيد رشيد صورة تامة أو أستوفى فيها وصف آثاره والتنبيه إلى ما انفرد به من آراء مبتكرة وأنحاء طريفة ، فإنى تارك هذا إلى تأليف خاص سأجعله باسمه وأسرد فيه مزاياه الكثيرة وبدائع تآليفه الأثيرة . وقد كنتُ وعدت عند وفاة أخي شوقى[1] - رحمه اللّه - بأنْ أكتب فى ترجمة حاله وتحليل شعره وعلاقاتى الأخَوِيَّة معه كتابًا أُسميه : « شوقى أو صداقة أربعين سنة » وقد أنجزت وعدى بعونه تعالى وأهديت إلى روحه العبقرية هذه الريحانة الزكيّة التى رَوَّحت فيها من وجدانى وخففت من بثى . وكذلك سأَزُفُّ إلى رُوْح الأستاذ الأكبر والمصلح الأشهر السيد رشيد رضا كتابًا يتضمن ما أعرفه من مناقبه وما أُوثره من بدائعه وروائعه وأسميه أيضًا : « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » فإنى كنت قد عرفت شوقى قبل السيد رشيد رحمهما اللّه تعالى بسنتين أو أكثر قليلاً ، فالآن مضى على إخائنا ، واحسرتاه ، أربعون سنة كما كان مضى على إخائى لشوقى يوم وفاته أربعون سنة ، وأما علاقاتى الأخوية مع السيد الأستاذ فلا مقايسة بينها وبين علاقاتى مع شوقى لأن شوقيًا كان قليل الكتابة غير حريص على المراسلة بينما الأستاذ يكتُب دائمًا ويكتب طويلاً ، ويعيش فى اتصال دائم مع إخوانه ، إنْ قَرُبوا فبالمشاهدة ، وإنْ بَعُدوا فبالمراسلة . وكان يؤازرهم فى خُطوبهم ويشاركهم فى همومهم ، وإنّ المحفوظ من كتبه عندى فى ظرف خاص قد يربى على المائتى[2] مكتوب ، وفى هذه المكتوبات « كان - رحمه الله - يؤثر جمع مكتوب بالألف والتاء أخذًا بقاعدة أن مفعولاً لا يجمع على مفاعيل إلا فى ألفاظ معلومة » . فوائد عظيمة أدبية وشرعية ولغوية وسياسية يمكن إثبات أكثرها فى الكتاب الذى أستخير اللّه تعالى فى تأليفه عن السيد رشيد وفاء بحقه وقيامًا ببعض الواجب من برّه ، وإن كنت أعرفنى مقصّرًا عن تأدية هذا الواجب كما يليق بقدره .

---

(1) هو **أحمد بن على بن أحمد شوقى** (1285 - 1351هـ / 1868 - 1932م) مولده ووفاته بالقاهرة ، نشأ فى ظلّ القصر فى مصر ، سافر إلى فرنسا سنة (1887م) وعاد سنة (1891م) ، وهو أمير الشعراء ، ورافع لواء العربية فى العصر الحديث . (**انظر** : شوقى أو صداقة أربعين سنة) .

(2) عند تعريف العدد المفرد لا تدخل أداة التعريف على العدد دون المعدود ، بل تدخل عليهما معًا أو تنفرد بالدخول على المعدود ، **أقول** : على المائتى الكتاب ، أو على مائتى الكتاب .

وقبل أنْ أختم هذه العُجالة لا بدَّ لى أنْ أقولَ إنَّ الذى كان يزين علم الشيخ رشيد وأدبه هو ما تحلى به من الأخلاق الكريمة والمنازع العالية ، ولا خيرَ فى علم لم تكن معه أخلاق . فهو فى هذا يتقيل[1] أستاذيه عبده والأفغانى اللذين كانت علومهما تتدفق فى أعمالهما ، فكان من أعظم الناس خُلقًا وأمتنهم عهدًا وأحلمهم طبعًا وأصفاهم قلبًا وأحسنهم وفادة[2] وأصدقهم بشاشة وأكملهم إخلاصًا ، وكانت مجموعةً فيه صفاتُ العلماء والأمراء معًا . وكان مع وداعته وقورًا وفى تواضعه كبيرًا ، وكانت رقّة قلبه فى مواطن الحنان تدل على بلوغ الإنسانية فيه مثلَها الأعلى ، قلما اجتمع العلم والخُلق اجتماعهما فى الشيخ رشيد ، وقلما جرى العقل والقلب شوطًا واحدًا كما جريا فى هذه الفطرة الشريفة . وأما الحَمّية الإسلامية بدون بغضاء للخارجين عن مِلّته ، وأما الصارخة[3] العربية بدون تحامل على المسلمين من غير العرب - فلا أحدث عنهما أحدًا يجهلهما : فلقد عاش الشيخ رشيد فى عالَم الأدب والسياسة رئيسًا وقائدًا عظيمًا مُدّة تزيد على أربعين سنة ، وهو ينافح عن الإسلام فى كل موطن ، ويخدم الإسلام فى الفقه وفى الأدب وفى الاجتماع وفى التاريخ وفى السياسة ، ولم يقع بحقه كُره من غير المسلمين ولا جفاء أحد من أصحابه الكثيرين ممن لا يدينون بالإسلام ، وذلك لما يَعْرِفون من إخلاصه ومن سلامة نيته ، ومن أنّه كان يضع العدل فوق كلِّ شىء ، ومن أنه كان يفهم من معانى الإسلام ما يجعل مودّته لمن يعاشره من غير المسلمين خُلقًا لا تَخَلُّقًا . وكانت إلى جانب نزعته الإسلامية المحضة نزعةٌ عربيةٌ لا تقلّ عنها تَمحُّضًا ، وكان يجمع بينهما دون أدنى تكلُّف لأنه كان يعلم أنّ صدرَ الإسلام يتسع لمودة غير المسلمين وللاتفاق معهم فى الجامعة الوطنية والرابطة القومية ، وفى كل ما يعود إلى المبادئ الإنسانية . ولم يكن فقيدنا اليوم ليبغى على أحد ولا ليضمر لأحد سُوءًا وإن أخذته فى بعض الأحايين حِدَّةٌ لاعتداء يقع عليه . وهى خُلق كلِّ كريم عُرِفَ بصراحة الطبع وسلامة الصدر ، فَسَرْعَان ما

---

(1) **تَقَيّل مَن كان قبله** : أشبهه .

(2) استقبالاً للضيف الوافد .

(3) **الصَّارِخَةُ** : هى صوت الاستغاثة ، ويقصد الكاتب هنا اجتهاد السيد رشيد رضا فى رفع ذكر العرب واللهج بقضاياهم فى مجالسه ولقاءاته .

كانت تذهب تلك الحدّةُ ويحِلّ محَلَّها الصفاء الذى لم يكن يفارق سريرة الشيخ رشيد . وقد كان الفقيد يَعْرِفُ السياسة العالمية والسياسة الشرقية خاصة ، ويدرك أسرارهما . وكان من أطباء الأمراض التى ابتلى بها المجتمع الحاضر سواءً فى السياسة أو فى الأخلاق . وكانت له آراء فى المشكلات السياسية والمعضلات الاجتماعية مقتطعة من معادن الحكمة ، لا يُنازع فيها إلا الذى أعماه اللّه عن الصواب . وقد كان بعض الذين يَأْبون إلا أن يتحذلقوا[1] يعيبون على السيد رشيد اشتغالَه بالسياسة ، ويقولون إنه كان الأولى به أنْ يُقْبِلَ على شأنه فى الاشتغال بالأمور الشرعية والعلوم اللغوية التى قد أحكمها بخلاف السياسة التى ليست من فنّه ! وحقيقة الحال أنّ العقل الكبير يتسع لكل شىء لا سيما إذا كان مستيقظًا ساهرًا يلتقط كلَّ شاردة وواردة ، وإن للسياسة صلةً وثيقة بالعلم وبالشرع وبالمنطق وبالأدب وبالاقتصاد وبغير ذلك مما إذا كان السيد رشيد لم يعرفه تفصيلاً فقد عَرَفَهُ إجمالاً بحدة ذهنه وسعة اطلاعه وكثرة تجاربه . ومن أغرب ما يكون أنّى قد سمعت الانتقاد على الأستاذ فى تدخله بالسياسة ممن إذا قيسوا إليه فى السياسة كانوا بجانبه أطفالاً .

هذا ، والسيد رشيد من سادات القلمون[2] بجوار طرابلس الشام ، والبيت الرِّضَوِىّ هو هناك بيت تقوى ووجاهة وسراوة[3] ومكانة يعرفها جميع أهل سورية ، فهو من أصله غُذّى طهارة صافية ، وسليل نعمة هامية ، وفرع أرومة[4] زاكية ، وقد زُين ذلك الأصل بتربية عالية جاءت فيه نورًا على نور ، فخدم الإسلام والشرق والعروبة خدمة قلَّما وُفِّق إلى مثلها عربى صريح ، فلا غَرْوَ أنْ يهتزَّ العالَمَ العربى لفقده ، وأن يستوحش العالم الإسلامى من بعده ، وليقل من قال إنى غَلَوْتُ فى وصفه ، وأسرفت فى تأبينه ، فليس ذلك بالذى يمنعنى من أنْ أقولَ إن هذه السيرةَ العظيمة وإن هذه الحياةَ الحافلة بجلائل الأعمال المنصرفة إلى الجِدّ من أوّلها إلى آخرها والمشغولةَ بمعالى الأمور عن سفاسفها – لا يمكن أن توصف فى العربية بغير هذه الألفاظ إذا تركنا الحسد جانبًا وسَلِمْنَا من آفة المعاصرة التى قد تحجُب الفضائل أو تنقص منها . وكذلك ليس تأبينى

---

(1) **تحذلق** : ادّعى أكثر من عنده .

(2) بلده التى بها نشأ ، وتلقى بها أوّل تعليمه .

(3) شرف .

(4) **الأرومة** : أصل الشجرة ، واستعمل للحسب .

هذا من قبيل (اذكروا محاسن موتاكم)[1] فقد كان السيد رشيد ملآن حياةً وكنا نقول فيه فى مجالسَ لا تُحصى ما نكتبه الآن على صفحات الجرائد فى ترجمة حاله . وكم سمعت من أفواه العلماء والعقلاء أنه متى مات الأستاذ لا يَسُدُّ مَسَدَّهُ أحدٌ اليوم . فنسألُ اللَّه أنْ يُكرم مثواه فى منقلبه ، ويُعلى درجته فى جواره ، ويجزيه عن الإسلام والعروبة والشرق خير ما يجزى عبدًا أطاعه ، وأنْ يُفْرِغَ علينا الصبر الجميل على هذا المصاب الجليل ، وأنْ يجبر خواطرنا الكسيرة ، ويثبت قلوبنا الحسيرة بالبركة فى أنجاله وأنجال أخيه ، ويجعلهما جميعًا فروعًا جديرة بذلك الأصل الكريم وتلك التركة الأدبية العظيمة .

المقالةُ الثَّانية

ذكرتُ فى مقالة سابقة أنى سأكتب فى مناقب فقيد الإسلام السيد محمد رشيد رضا كتابًا خاصًّا تحت اسم : « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » يكون رسالة من رُوحى التى تأخرت على هذا الشاطئ من الدنيا إلى روحه التى عبرت الجسر إلى الأخرى ، تناجى بذلك إحدى الرُّوحين شقيقتها إلى أنْ يُقدّر اللَّه اجتماعهما ثانية .

ولكنّ الذى بى من بُرَحَاء[2] مصاب الأستاذ لا يتحمل الإنظار والانتظار إلى أنْ يكونَ صدر هذا الكتاب . وما يُسرى عنى شيئًا فى حالتى الحاضرة مثلُ التحدث إلى الناس بمناقب هذا الرجل الراحل الكبير الذى كنتُ من أعرفِ الناس به .

لم يكن السيد رشيد أستاذى بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة لأنى لم أقرأ عليه شيئًا من العلوم ، ولا كان من الفرق بيننا فى السنّ أكثر من بضع سنوات ، ففى سنة 1911م عندما مررت بمصرَ قاصدًا الجهاد فى طرابلس الغرب جرى بيننا حديث العمر ، وكنتُ أنا انتهيت من سنّ الأربعين ، فقلت له : أنت أكبر منى بقليل لعلَّ الفرقَ بيننا سنة ، فقال : وكم عمرك الآن ؟ قلت : أكملت الأربعين ، فقال : بينى وبينك خمس سنوات بالأقل .

---

(1) روى أبو داود عن محمد بن العلاء عن معاوية بن هشام عن عمران بن أنس المكى عن عطاء عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « اذكروا محاسن موتاكم ، وكفوا عن مساويهم » سنن أبى داود ، كتاب الأدب .

(2) **البُرَحاء** : الشدّة ، ومنه بُرَحَاء الحمى : أى شدتها وآلامها .

وإنما كنت أعدُّه أستاذًا لى بما أستفيد من كتبه ورسائله وبما أستفتيه دائمًا فى مشكلاتى من كلّ نوع ، فما استوريت زنده فى فنّ إلا أقبسنى[1] وأزال حيرتى ، وما وردت حوضه المشفوه[2] فى حاديث إلا روانى ونَقَعَ غُلتى .

ولقد روى الأخ الوفىّ الكاتب البارع السيد محمد على الطاهر صاحب « الشورى » أنه رآنى فى بورت سعيد عندما تلاقيت مع السيد رشيد عانقته وعانقنى ، وجرت دموع الاثنين ، ثم أهويت على يده فقبلتُها .

نعم قبلت يد العلم والفضل ، وقبلت اليد التى طالما ناضلت عن الإسلام ، وتناولتْ قلمًا من نوادر الأقلام ، التى كشفت الكُرب عن وجوه المسلمين ، وإن من أعظم حسرات قلبى أنْ أكونَ بعيدًا عن مصر وأن أحرم تقبيل تلك اليد قُبلة الوداع الأخيرة .

عندما دعتنى لجنةُ المؤتمر الإسلامى برقيًا للسفر إلى الحجاز بمهمة الصلح بين الإمامين وودعت العيال قالت لى أُم البنين وأنا على ثنية[3] الوداع : ستكون لك فرصة هذه المرة أنْ ترى الشيخ رشيدًا . لم تذكر سواه من أصحابى لأنها كانت تعلم بأنه أعزُّ علىَّ من الجميع .

ولم أكنْ أنا أعتقدُ أنَّ الحكومة المصرية تبلغ من التضييق علىّ فى أثناء مرورى من الإسكندرية إلى السويس المبلغَ الذى رأيتُه ودَهِشْتُ له ، كما تحير له جميعُ الناس ، فكنت وأنا راكب الطيارة من برنديزى إلى الإسكندرية طائرًا فرحًا بتصورى قرب لقاء الإخوان ولا سيما الشيخ رشيد ، فلما وصلت الإسكندرية ووجدت عند نزولى من الطيارة ذلك الماجور الإنجليزى ماثلاً يقول لى : إنه مأمور بمرافقتى إلى السويس ، وحوله الجنود والضباط ، علمت أن الإذن لى فى التعريج على القاهرة غير مأمول . ولما جاء الدكتور سعيد طليع يُسلم علىّ ، فحال الماجور الإنجليزى بينى وبينه حيلولة لا تدلُّ على شىء من الكياسة ، علمت ما هو أمَرُّ من عدم المرور على القاهرة ، وهو أنى لن أقْدِرَ أنْ أجالسَ

---

(1) أى ما لجأت إليه سائلاً عن شىء إلا أفادنى .
(2) **شَفُه الشىء** : أى كثر طالبوه ، فالحوض المشفوه أى كثير وارده .
(3) بداية الفراق والرحيل .

أصحابى ، وإنى سأحرم التحدث إلى الأستاذ . ولما ركبنا القطار ركب معنا الأخ محمد على الطاهر ، ولكنه - برغم الصراع الذى وقع بينه وبين قائد الألف البريطانى المذكور - لم يتمكن من محادثتى ، وفى أثناء الطريق صَعَدَ الأستاذُ المرحوم وتقدَّم حتى حاذى العربة التى كنت فيها ، وكنت أنا أتحاشى مصافحة أى إنسان خشية أنْ يتجرّأ البينباشى الإنكليزى علىَّ بإبداء ملاحظة بعد أنْ رأيت ما رأيت فيسرع بى التأثرُ إلى أن أواجهه بما يكره . ولكننِى لما بَصُرْتُ بالأستاذ أمام الباب أقامتنى من مكانى قوةٌ فُجائية لم أستطع أن أغالبها ، وذهبت وصافحت السيد ، وقلت للبينباشى : لا بدَّ لى من مصافحة هذا الأستاذ الذى هو عالِم العالَم الإسلامى . فسكتَ وأبْلَسَ[1] ، ولكنْ لم يقع بينى وبين الأخ الفقيد أىُّ حديث ، ولا قَدِرَ أنْ يقول لى إلا هذه الجملة « لا عجب » ، وبقى أملى معلقًا بالاتصال معه فى السويس ، فخاب هذا الأمل أيضًا ؛ لأنهم حالوا بيننا وبينه هناك ، وحالوا أيضًا بينى وبين زملائى فى وفد الصلح : الحاج أمين الحسينى ومحمد على باشا علوبة وهاشم بك الأتاسى بحجة أنّ الكلام معى ممنوع على إطلاقه ما دمت فى أرض مصر ؛ ولذلك بقى الحجز علينا إلى أنْ صرنا على متن الباخرة . أما فى رحلتى الأولى إلى الحجاز فقد كانت الوطأةُ أخفَّ ، وقد كانوا اكتفوا بوضع الأرصاد من حولنا بدون منع الاتصال والاختلاط مع الأصحاب ، فجلسنا فى بورت سعيد نتحدث ، وبللنا من صدى الشوق ما لا أزال أتنعم بمجرد ذكراه . ولما أراد السيد الانصراف فيمن انصرفوا قلت له : لا . أرجو أنْ نَنْعَم بالملازمة من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر ، فلم يفترق عنى من بورت سعيد إلى السويس ، وهناك ذهب بنفسه واشترى لى الإحرام حتى يكون حاضرًا عند محاذاتنا لرابغ حيث يُحرم الحجاج الواردون من الشمال ، وناولنى رسالة له فى مناسك الحج حتى أعمل بها لأنه كان - رحمه الله - يعلم أنى فى الأمور الشرعية لا أُقلد غيره ، وقد كتب مرة عنى فى المنار « إنه لا يَلَذُّ له شىء مثل الصلاة بإمامتنا » ، وهذا واللّه صحيح .

---

(1) أبلس : سكت لحيرة .

وطالما دعوتُه أنْ يأتى فيصطاف فى سويسرا ، ويروّح من عناء نفسه ، وقلت له إننى أقوم بواجب خدمته بحيث يستوفى أوفرَ قسط من الجمام[1] . وكان قصدى بذلك أنْ يخلُص من حرّ مصر فى أيام القيظ ، ويتمتع بأهوية جبال سويسرا حتى يستأنف نشاطه الذى يعوزه لأجل القيام بما كان يعانيه من الأشغال التى لا يقوم بمثلها أحدٌ غيره . وكانت لى أيضًا أثرة[2] خاصة فى ما كنت أكرره عليه كلَّ بداية صيف من الدعوة أنْ يأتى إلى سويسرا ويقبل ضيافتى ، وهى أن أتمتّع بمصاحبته ومناجاته وبث ما عندى له ، وأنْ تطول بيننا المجالس التى يمكننى أن أستفيض فيها بَحْرَ علمه ، نعم إننا فى سنة 1921م عندما عقدنا المؤتمر السورىّ الفلسطينىّ فى جنيف تيسَّر لى أن ألقاه مدة طويلة كانت هى عيونَ أيامى وغُرَرَ أعوامى . ولما انتهى المؤتمر وانصرف أعضاؤه كلٌّ إلى بلده أراد الأستاذ أنْ يعود إلى مصر ، وكنت أنا يومئذ أسكن فى برلين ، فأخذت بتلابيبه[3] قائلاً له : لا بدَّ من أن أُسيحك فى سويسرا وألمانيا حتى تنظر أحسن بلاد أوروبا ، فإنك لم تشاهد منها إلا جنيف وهذا لا يكفى . فقال لى : إنْ كنت أنت عائدًا إلى برلين فإنى أذهب معك إليها ، وإنما أذهب لأجلك . فأما إن كنت غير مُعَجَّل فى الأوبة إلى برلين فدعنى أنصرف إلى مصر مع المنصرفين فإن ورائى من الأشغال ما يستدعى سرعة إيابى . والأشغال هذه كانت هى عذره الدائم فى عدم إمكانه المجىء إلى سويسرا عندما كنتُ أُلحّ عليه فى ذلك . فقلتُ له : لستُ بتاركِكَ حتى أَسير بك شيئًا فى سويسرا وشيئًا فى ألمانيا لأنك إذا ذهبتَ يجوز أنْ لا تعودَ إلى أوروبا فتذهب هذه الفرصة ، وأنا أريد أنْ تتملى اطلاعًا على هذه البلاد . ولما رأى إلحاحى عليه سار معى فبدأنا بالرحلة إلى بلدة مونترو ، وهناك عرفته بسعادة الأخ فؤاد باشا سليم الحجازى ، ولم يكن بينهما تعارف من قبل فَسُرّ الأستاذ بلقاء هذا الرجل الملآن علمًا وأخلاقًا ، وشكر لى هذا التعريفَ ، وبقيت الصحبة بينهما منذ ذلك الوقت إلى أن توفَّاه اللّه إلى رحمته . ومن مونترو ذهبنا إلى برن ، وصعدنا إلى جبل « غرتن كولم » المشرف على برن ، وطَوَّفْنا فى تلك البلدة

---

(1) **الجمام** : الرَّاحة .

(2) تفضيل الإنسان نفسه بخير .

(3) جمع تلبيب ، وهو طوق الثوب .

وضواحيها ، ثم ذهبنا إلى زوريخ أكبر مدينة فى سويسرا ، ومنها انتقلنا إلى لوسرن ، وركبنا الباخرة مطوِّفين فى بُحيرتها البديعة التى لا مثيل لها فى البحيرات كلِّها . وكنا نقيم بكل بلدة ليلتين حتى يتسنى لنا أنْ نشاهدَ محاسنها الطبيعية والصناعية . ومن سويسرا قصدنا ألمانيا ، وقضينا ليلة فى فرنكفورت ، وهناك سرت به إلى إدارة جريدة (فرنكفورتر تسايتونغ) ، وهى من أرقى جرائد العالم ، وكانت لى معرفة بهم فأحسنوا استقبال الأستاذ وهو بزيه العربى الإسلامى الذى لم يكن يفارقُه . وعندما أخذوا بالحديث معه ازداد فى أعينهم لِمَا عَرَفُوا من مكانه من العلم وسعة الأفكار . ثم واصلنا السير إلى برلين فأنزلته عندى وعرّفته بكثير من معارفى وأصحابى ، وأكثر من احتفى به ولازمه فى تلك النوبة من أصحابى البارّون المستشرق صديق المسلمين (ماكس اوبنهايم) والدكتور ميخائيل بيضا التاجر السورى . وبقى فى برلين ستة أيام ، وكانت يومئذ الأسعار فى ألمانيا بغاية الرخص ، فاستبضع الأستاذ كثيرًا من الحوائج البيتية ، واستدعيت له أحد أصدقائى من التجار فكنا نذهب إلى المخازن فيشترى ما يريد بمساعدة ذلك الصاحب ، وأنا أجلس جانبًا إلى أن يكون انتهى لأننى لم أكن قادرًا أن أساعده بنفسى فيما ليس لى به علم . وقال لى إذ ذاك : قد اشتريت بخمسة عشر جنيهًا ما يساوى فى مصر خمسين جنيهًا بالأقل ، وذلك من سعة الفرق فى الأسعار بين ألمانيا ومصر . فقلت له : إلا أن المشكل هو فى إخراج هذه الحوائج من ألمانيا فإن هذا الرخص إنما يمتع به أهل ألمانيا وحدَهم ، ولا يخرج شىء من هذه البضائع إلى الخارج ، والحكومة الألمانية لا تهوّد[1] فى هذا الموضوع أصلاً . وكنا خائفين أنهم على حدود ألمانيا ، وهو مجتاز منها إلى تريستة ، يمنعونه من إخراج تلك الحوائج ولا يبقون له منها إلا الضرورى مما يعود إلى شخصه . ولكنْ لما وصل إلى الحدود ورأوه شيخًا معمّمًا ، وقرأوا فى وجهه النبالة والكرامة اللتين لم تكونا لِتَخْفيا على أحد عاملوه معاملة استثنائية مع أن مأمورى الألمان لا يعرفون الهوادة فى تطبيق الأوامر التى فى أيديهم ، فكتب إلَىَّ من تريستة بأنّ ما كُنّا نحذره لم يقع منه شىء ، وأن رجال المكس على الحدود تركوه يمرُّ بدون تفتيش أصلاً .

---

(1) هوّد : تساهل .

هذا ، ولما كُنَّا فى برلين ذهبت به للسمر فى النادى الشرقى الذى كنتُ رئيسَه والذى كان المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش من أعضاء مجلس إدارته . وكنت أعلم ما بين الأستاذين الكبيرين من الوحشة ، وكان يعِزّ علىَّ هذا التقاطعُ بينهما ، وكلاهما من أعزَّ أحبابى ، وكلاهما من فحول الإسلام ، وكلاهما خادم للغاية التى يخدمها الآخر(★) . فرأيت الفرصة سانحة لإصلاح ذات البين بينهما ، وجئت بالأستاذ جاويش فسلم على الأستاذ رضا ورحَّب به ، وأخذنا نتحدث جميعًا . ثم تلاقينا بعد أيام فى ميونيخ ، فدعا الأستاذ جاويش ورفاقه المصريون الأستاذ رضا إلى طعام مصرى طهاه الشبان المصريون بأيديهم . وقد كنت قرير العين بأنى أصلحت بين أستاذين عظيمين ومجاهدين شهيرين ، كان كل منهما من أعزِّ الناس علىَّ ، وكانا مختلفين كما يختلف المتعاصرون فى كلِّ زمن .

والمناظرات بين العلماء قضية قديمة حتى بين الزهاد منهم . وقد كان الشيخ رشيد

(★) فى المجلد التاسع والعشرين من (المنار) الجزء الصادر فى 30 شعبان سنة 1347هـ ذكر وفاة الأستاذ الكبير الشيخ عبد العزيز جاويش إلى رحمة ربه قال الشيخ رشيد فى هذا المصاب : « إن العالم الإسلامى قد خسر اليوم بفقد الشيخ عبد العزيز جاويش رجلاً من أركان حزب الإصلاح المعتدل الذى هو وسط بين المسلمين الجامدين الخرافيين والمسلمين الجغرافيين الملحدين . لا عزاء بفقده إلا ما رأينا من إكبار الأمة لفقده » .

ثم ذكر فى عرض ترجمته ما يلى : « لماذا كان لموت هذا الرجل هذا الإكبار الذى حزَّن قلوبَ الشعب وأطلق ألسنته بالرثاء وبسط يد حكومته بالعطاء ؟ إنما كان كذلك لأنَّ من فقدوه كان كبيرًا فى نفسه وإن لم يكن كبيرًا فى وظيفته ، عاليًا فى همته وإن لم يكن عاليًا فى ثروته . وكان يوجّه كلَّ ما أوتى من كبر نفس وعُلو همة إلى خدمة الأمة - واللّه - بجرأة جنان وذلاقة لسان وقوة إيمان وقلم سيّال وهمة لا تعرف الكَلال ، وقد أُوتى جميع المواهب التى يكبُر بها التأثيرُ فى أنفس الأفراد والجماعات من حُسن صورة وطلاقة وجه وفصاحة نطق وجرس صوت وحسن أداء وغزارة مادة ، وكان خطيبًا مفوهًا وكاتبًا مِذرها (بليغًا) وداعية مؤثرًا » .

ثم قال من جملة الترجمة : « ثم إنه اتصل من طريق الحزب الوطنى بجمعية الاتحاد والترقى التركية ، وتطوع لخدمة الدولة العثمانية تحت لوائها ، وقاوم مشروع الدعوة والإرشاد بإغرائها ، كما جاهد فى مقاومة الحركة العربية التى حدثت تجاه العصبية الطورانية التركية ، وبهذا صرنا على طرفى نقيض ، وشرح هذا لا يليق هنا . ثم التقينا فى برلين وتصالحنا بسعى صديق الجميع الأمير شكيب أرسلان ، وبعدَ أنْ عاد إلى مصر نشرتُ له فى المنار تلك المقالة التى كتبها فى مفاسد مقاومة الترك الكماليين للدِّين لأنه رجع فيها إلى رأينا فى ملاحدة الترك وعداوتهم للإسلام والعرب » إلى آخر ما قال . وأُضيف أنا إليه ، وكنت من أعلم الناس بسرائر الشيخ جاويش ، أنه ما كان يكره شيئًا أكثر من الحركة الطورانية التركية التى هى ضدُّ الجامعة الإسلامية . وإنما كان إخلاصُه للدولة العثمانية ملجأ المسلمين فى وقتها .

والشيخ عبد العزيز يتشابهان مع اختلافهما فى كثير من الأخلاق ؛ فكان كل منهما من أشدِّ الناس استمساكًا بالكتاب والسُّنة مع كراهية الجمود ومع الارتياح إلى الأخذ بالعلوم العصرية بأجمعها دون حَيْدٍ عن عقيدة الإسلام الصافية . وكان كلٌّ منهما على مشرب الأستاذ الإمام محمد عبده . وقد سمعت الشيخ جاويش مرارًا يثنى على عِلم السيد رشيد وسديد آرائه فى مسائل كثيرة ، وذلك بالرغم مما كان بينهما من الوحشة .

وطول تلك الرحلةِ كنتُ أؤدى أنا النفقات التى ننفقها كلَّ يوم ، فيأتى السيد فيسألنى فى آخر النهار عما أنفقنا ، ويأبى إلا أن يؤدى ما عليه ولا يقبل فى ذلك منى كلامًا . ولما صرنا إلى برلين قلت له : أنت قلت إنك إنما جئت إلى برلين لأجلى فليس من العدل أن تستنكف عن قَبول الضيافة مدة مُقامك فى برلين ، فأصرَّ أيضًا على خطته الأولى ، ولم أكن أتجرأُ على شىء يُزعجه ، فكنت أُطيع أمره ، ولكنّه سها فى الآخِر عن طلب الحساب ، وفارقنى وهو ساهٍ عن ذلك ، ولكنّه ما وصل إلى مصر حتى تنبه من نفسه لهذه البقية ، فبعث إلىَّ بكتاب (صُبح الأعشى) أربعة عشر مُجلدًا ، وهو يساوى أكثر من البقية التى كانت عليه .

ولما قَفَلْتُ من الحجاز فى رحلتى الأولى إليه وجاء - رحمه اللَّه - إلى السويس ولازمنى خمسة أيام إلى أن جاء ميعاد الباخرة التى ركبت فيها أديت إلى الفندق الحساب عنى وعنه بدون علمه ، فلما أطلعه صاحب الفندق على ذلك أمره بأن يرد لى ما كان أخذه منى عنه ، فراجعته فى الأمر ، فأبى إلا أنْ يحاسب عن نفسه من ماله . فقلت له حينئذٍ : إنه لا يزال لك عندى بقية حساب ثمانية الجنيهات فقال : من أىّ جهة ؟ فقلت له : اشتريت من مكتبة المنار كتبًا بلغ ثمنُها ثمانية وأربعين جنيهًا ، فأنا أرسلت لك حوالة بأربعين جنيهًا على أنْ أرسل إليك بالثمانية الجنيهات الباقية فى وقت آخر ، وما زالت هذه البقية فى ذمتى تحت الحساب ، فإن كنتَ تأبى أن أُحاسب أنا عنك من جهة أُجرة الأوتيل فلا يليق بك أنْ تأبى أن أؤدى أنا إليك بقية ثمن الكتب ، فقال لى : أخشى أن تكون ناسيًا ، وأرى الأحسن أنْ تُبقى هذا الحساب المتعلق بالكتب إلى ما بعد وصولك

إلى لوزان – حيث كنت أسكن حينئذٍ – ومتى راجعت فذلكة[1] الحساب وتحققت من بقاء تلك القيمة ، فيمكنك أنْ تبعثَ بها إلىَّ ، فقلت له : إنى غير ناسٍ ، وليس من العدل أن تمنعنى من دفع ما علىَّ لك الآن ، فلما رأى عزمى هذا سكت مكارمة[2] لى .

وفى المدة الأخيرة كان دخلَ عليه حساب من جهة مبلغ أرسلت به إليه لأجل طبع كتاب ، ووجدت ما أرسلت زيادة على كلفة الطبع ، فأراد أنْ يرد لى الزيادة وهى ثمانية جنيهات ، فقلت له فى الجواب : ما يدعوك إلى هذه العجلة ؟ وعلى فرض أنَّ هذه الزيادة بقيت عندك أفليست لك بحق ؟ أفلست مديونًا لك بأكثر منها ، وأنت بالرغم من ضيق وقتك تصحح لى مسوَّدات أربعة كتب لا كتاب واحد ، فبعث إلىَّ بجواب يقول لى فيه : لا تَعُدْ إلى مثل هذه الهفوة ، أفأنا أقبل منك شيئًا عن تصحيح أربعة كتب أو أكثر ؟ لم يتحمل شممه[3] أنْ أترك له شيئًا من الحساب يقابل تعبه مع أنه تَعَبٌ جزيل ومع أنَّ الأزمة المالية نالت منه فى السنوات الأخيرة ما يعلمه جميع أصحابه . وقد ذكر الأخ أبو الحسن محمد على الطاهر من أماثيل[4] سماح الأستاذ ما يقضى بالعجب ، وكم من مشترك بالمنار بقى خمس عشرة سنة وعشرين سنة وربما ثلاثين سنة يتلقّى المنار ولا يؤدى من بدل الاشتراك شيئًا ، والسيد رشيد يسامحه . وهكذا كان شأنه فى جميع أعماله عاملاً بالحديث الشريف : « رحم اللَّه امرءًا سمحًا إذا أخذ سمحًا إذا أعطى سمحًا إذا اشترى سمحًا إذا باع »[5] أو كما قال ، وقد بلغنى من الأستاذ الشيخ يوسف ياسين كاتب سر جلالة الملك عبد العزيز بن سعود – أيَّده اللَّه – أنه كان بقى على السيد رشيد حساب من أصل مبالغ مرسلة من جلالة الملك إليه لأجل طبع كتب يبلغ خمسمائة جنيه ، فنظرًا للعسرة المالية فى هذه السنين صدر أمر الملك بترك هذه البقية للسيد ، فراجع السيد فى ذلك وأصر على إدخالها فى الحساب الجارى ، وهو مع ذلك لم ينكر معاونات الملك

---

(1) فذلك يفذلك فذلكة : أجمل ما فصّله (منحوتة من : فذلك كذا وكذا) .

(2) إكرامًا لى .

(3) شَمَم : ترفع وتكبّر .

(4) أماثيل جمع أُمْثُولَة : ما يُتَمثل به من الأبيات وغيرها .

(5) الذى ورد : « رحم الله امرءًا سهل البيع سهل الشراء » . مجمع الزوائد للهيثمى (4/ 74 ، 9/ 18) .

وألطافه ، وقد أشار إلى ذلك فى المنار . وبالجملة فقد كان المَثَل البعيد فى الشمم وعزة النفس ، وقد ذكرنا هذه النبذة من سيرته ، وله من أمثالها ما لا يُعدّ ولا يُحصى لأنَّ هذه الجزئيات هى التى تمثل حقيقة النفس . وليس كلُّ من يسمع باسم الفقيد يعرف هذه الدقائق من أعماله . ولم يتيسّر لى أنْ أزور فقيدنا فى بيته إلا قبل الحرب العامة ، فأما بعد الحرب العامة فقد حُظر علىَّ دخول مصر ، وكان تأهب السيد عند رحلتى الأولى إلى الحجاز أن ينزلنى عنده ولكنْ حال الجريضُ دون القَريض[1] . وقد أجمع كلُّ من عَرفه أنّه من أسخى الناس يدًا وأكرمهم مهزة وأحسنهم ضيافة وآنقهم طعامًا وأكثرهم رمادًا[2] ، وكان كرمه طبعًا لا تطبعًا وسجّية لا تَصَنُّعًا .

وأما بِرُّه بأصحابه وغَيرته عليهم واهتمامه بكلّ ما يعود إليهم فإنه شىء يُلحق بالنوادر القديمة لا سيما بالنسبة إلى أخلاق هذا العصر . فقد كان يحافظ على صاحبه حاضرًا غائبًا ويدافع عنه ما استطاع إلى الدفاع سبيلاً ، ولا يرضى أنْ يُقال السوء بحقّ صاحبه . وكان يكره الغِيبة ويحتقر النميمة ، ويغطى على السيئات وينشر الحسنات ، ويوفّرها لصاحبها ، ويُزّينها فى أعين الناس .

لما ذهبت إلى حرب طرابلس من طريق مصر ، توقفت فى القاهرة نحوًا من أربعين يومًا ، وصرت أكتب كلَّ يوم مقالة فى (المؤيّد) أستجيش بها العالم الإسلامى ولا سيما مصرُ لإعانة إخواننا الطرابلسيين ، فكان لتلك المقالات اليومية دوىّ عظيم فى القطر ، وأعجب بها كثيرون ممن عافاهم اللَّه من مرض الحسد ، فقال أحدهم للسيد رشيد : ما كنّا نظن صاحب هذه المقالات بهذه الدرجة ، فأجابه السيد : إن هذا من رُوح الشيخ ، يريد بذلك أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده ، فقال له مخاطبه : وهل الأمير شكيب هو ممن أخذ عن الشيخ محمد عبده ؟ فقال له السيد : هو قبلَنا جميعًا ، يشير بذلك إلى

---

(1) **الجريض** : الغصة ، **والقريض** : الشعر ، و« حال الجريض دون القريض » مثل يضرب لأمر يعوق دونه عائق . « أصله أن أبا نهى ابنه عن قول الشعر ، فمرض حتى أشرف على الهلاك ، فأذن له أبوه ، فقال هذا المثل . (مجمع الأمثال : 1/ 341) .

(2) كناية عن الكرم ؛ لأن الرماد ناتج ما يحرق من الوقود ، فإذا كان الرماد كثيرًا دلَّ على أن الوقود كثير أيضًا وكثرة الوقود تدل على كثرة الطهى والإطعام .

معرفتى بالشيخ محمد عبده التى كانت قبل معرفته هو به . وقد كان الفقيد يأتى من طرابلس الشام إلى بيروت عمدًا ليواجهنى ولأتحدث له عن الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغانى من شدّة ولوعه بهما . ولما أجمع على الذهاب إلى مصر قاصدًا التعرف بالأستاذ الإمام مرّ علىَّ وأنا فى بيروت وودّعنى ، واستدعيت له الأستاذ الشرتونى صاحب (أقرب الموارد) الذى كان مولعًا بالأستاذ محمد عبده نظير السيد رشيد ، وكان لنا مجلس طويل . وفارقنى إلى مصر وأُخَمِّن أنَّ هذه هى السنة التاسعة والثلاثون بالحساب الميلادى من ملاقاتنا تلك . وبعد أن وصل إلى مصر كان لا يُغِبّ[1] الكتابة إلىَّ ، وكان يواظب على إرسال (المنار) إلىَّ أينما كنتُ . ثم لَقِيته فى بيروتَ سنة إعلان الدستور العثمانى ، أى منذ ثمان وعشرين سنة ، وكانت لنا مجالس . ولم ألقه بعد ذلك إلا حينما مررت بمصرَ قاصدًا إلى طرابلس للجهاد ، كما أنى لقيته بعد القُفُول من طرابلس . وبعد ذلك لم يُقَدِّر اللّه الاجتماع إلا فى جنيف ، أىْ بعد تسع سنوات من آخِرِ اجتماع بمصر . ثم تلاقينا فى بورت سعيد وأنا ذاهب للحج سنة 1347هـ وتلاقينا فى السويس منصرَفى من الحجاز . وآخِرُ لقاء كان بيننا هو فى رحلتى الصيف الماضى إلى الحجاز بمهمة الصلح ، وهى المقابلة التى صافحته بها برغم البينباشى الإنجليزى الذى أرسلته الحكومة المصرية مانعًا من اتصال الناس بى ، ولكن لم يكلمنى ولم أكلمه ، ولم يزد على تلك الجملة (لا عجبَ) وكانت هى النظرة الأخيرة التى ألقيتها عليه والجملة الأخيرة التى سمعتها منه . وكم من حسرة ترافق إلى التراب .

وأدل دليل على بِرّه ووفائه أنّه بقى طولَ حياته يلهَج بذكر أستاذنا جميعًا الشيخ محمد عبده باللسان وبالقلم ، ولم يكفه كُلُّ ما كان يكتبه عنه فى (المنار) حتى ألَّف فى ترجمة الأستاذ الإمام جزأين كبيرين : الأول منهما صدر من سنتين بألف ومائة وأربع وثلاثين صفحة . ولهذا العاجز بضع عشرة صفحة فى هذا الجزء وكتاب خصوصى فى الجزء الآخَر وذلك بإمضائى ، فما أظن أحدًا بلغ من البرّ بأستاذه أكثر من السيد رشيد ، وكان يُعَظِّم مِن قدر الشيخ محمد عبده التعظيم الذى زاد كثيرًا فى شهرته . وهو الذى أطلق

(1) أى : لا يؤخر .

عليه لقب (الأستاذ الإمام) ومما لا شك فيه أن كان أعلم بعلوم كثيرة من أستاذه . وإنما كان الشيخ محمد عبده أطلق لسانًا وأعلى درجة فى المعقول ، فكلّ منهما يملِك مزايا يَرْجُحُ فيها على الآخَر .

وأما رقّة إحساسه – رحمه اللّه – فقد كانت متناسبة مع رقة طبعه . ولا شك أنَّ بين الكرم والرقة رحِمًا ماسة . وكتبت إليه مرة من مرسين ، وكنت استقدمت إليها عائلتى بعد أنْ غبت عنهم سبعَ سنوات ، فقلت لهم : كنت لا أُصدق عيونى عندما رأيتُهم . فأجابنى – رحمه اللّه – أنه ما قرأ عبارتى هذه إلا هطلت دموعُه على خدوده . وكنت منذ أشهر لا غير كتبت إليه أُوصيه بحسن مقابلة السيد محمد داود من أجلّ أدباء المغرب وأفضل الشبان العاملين فى ذلك القطر ، وقلت له : إنه هو صهر الحاج عبد السلام بنونة الذى كان قطبَ النهضة الوطنية فى المغرب ، ولم يكن مضى على الفجيعة به أكثرُ من شهر . ولم يكن الأستاذ يعرف الحاج عبد السلام شخصيًّا ، ولكنّه كان يسمع بمناقبه ، وكنت أنا أؤكد له مكانه العالى من النبل والحمية والشمم والأريحية[1] ، فلما زاره السيد محمد داود استقبله على عادته من الاحتفاء والترحيب ، ولكنهما لما وصلا إلى ذكر المصاب بوفاة الحاج عبد السلام بنونة غلب على السيد الحزنُ حتى أصبح لا يقدر أنْ يُكلّم صهر الفقيد ، فكانت رقة شعوره من جملة محاسنه الكثيرة التى اجتمعت فيه كالعقد المنظوم ، ولم يكن يحمل على أحد حسيكة[2] فى صدره مهما كان بلغ من أذاه له ، وكما قال السيد محمد على الطاهر : كان لا يعرف الحقد إلى قلبه سبيلاً . ومرارًا رأيته يثور من تحامل بعض الناس عليه ، ثم لا يمضى قليل إلا أراه نسى ذلك بالمرّة وعاد إلى ذكر حسنات ذلك الذى كان يشكو اعتداءه . وكان خلُقه هذا يذكرنى بما قرأته فى سيرة صلاح الدين يوسف الأيوبى ، فقد روى بهاء الدين بن شداد أن الملك الظاهر بن صلاح الدين استأذن والده بعد أنْ تمّ له فتحُ القدس ليرجع إلى حلب التى كان أبوه أقطعه إياها ، فلما أراد وداعه أخلى المكان ، وقال له : أوصيك بتقوى اللّه فإنها رأس كلّ

---

(1) سعة الصدر والكرم .

(2) **الحسيكة** : الحقد .

خير ، وآمرك بما أمر اللَّه به فإنه سبب نجاحك ، وأُحذِّرك من الدماء والدخول فيها والتقلّد بها فإن الدم لا ينام ، وأُوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر بأحوالهم فأنت أمينى وأمين اللَّه عليهم ، وأُوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة فما بلغْتُ ما بلغْتُ إلا بمداراة الناس . ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يُبقى على أحد . واحذر ما بينك وبين الناس لأنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين اللَّه يغفره اللَّه بتوبتك إليه فإنه كريم . قال بهاء الدين بن شداد : وكان ذلك بعد أن مضى جانب من الليل ، وهذا ما أمكننى حكايته وضبطه ولم يزل بين يديه إلى قريب السحر ، ثم أذِن له بالانصراف ، ونهض يُودِّعُه ، فقبَّل وجهه ومسح على رأسه وانصرف فى دعة[1] اللَّه . وقد ترجمت هذا بالحرف إلى الإفرنسية ، ونشرته فى العدد الأخير من مجلتنا « لاناسيون آراب » ، ومرادى أن أُترجم سيرة صلاح الدين بقلم بهاء الدين بن شداد كلها إلى الإفرنسية لأن الإفرنج بأجمعهم معجبون بأخلاق صلاح الدين الأيوبى ولكنهم يجهلون نوادره التى كَسَبَ بها هذه الشهرة .

والخلاصةُ أنَّ السيد رشيد رضا كان لا يحقد على أحد لأن الممات لا يُبقى على أحد . وما أحسن قول الأستاذ أبى الحسن حفظه الله : « وكانت فيه – على وفرة عقله وكثرة تجاريبه – طفولةُ العظماء يصدق كلَّ الناس ويثق بهم » . ولا عجب فإن الذى يكون مفطورًا على الخير لا يرى الناس إلا بمرآة نفسه ، ونَفْسُ الشيخ رشيد لم يكن ينتقش فى لوحها غيرُ الجميل . وبالجملة فقد كان السيد رشيد كبيرًا حقًّا فى جميع أطواره ، وكانت فطرته فطرة سليمة غالبًا عليها الخير من كل جهاتها .

وكان الفقيد من أصدق الناس لهجة وأبعدهم عن الكذب والتدليس ، وقد انطبع ذلك فيه من كثرة قيامه على الحديث الشريف . وعلم الحديث يحتاط فيه أصحابه أشدَّ الاحتياط ، ويحرصون على ضبط الكلمة بل الحرف والحركة ، ويمحصون الروايات تمحيص من يعتقد الكفر فى من زاد فى الحديث أو نقص منه عمدًا ، وقد كان السيد رشيد

(1) فى أمان الله – عزَّ وجلَّ – .

من علماء الحديث وأهل الرواية والدراية معًا ، فكان يَتَثَبَّتُ فى الروايات حتى فى غير الحديث ، فغلبت عليه لهجة الصدق ، وسار لا يقول إلا ما يعلمه ، إلا إذا كان فيما يعلمه ما يدعو إلى الفتنة لو باح به فكان يسكت عن ذلك سكوتًا ولا يقول إلا خيرًا ، وأما الكذب فكان من أبعدِ خَلْقِ اللَّهُ عنه .

وسأعود إلى ذكر مناقبه وأذكر طرفًا من مزاياه قبل أن أَشْرَعَ فى تأليف الكتاب الذى أريد أنْ أُخصصه بترجمة حاله وبعلاقاتى معه . إنه قد سوَّد فى خدمة هذه الأمة عشرات وعشرات ألوف من الصفحات ، فليس بكثير أن نخدُم رُوحه بكتاب خاص . واللَّه يتولاه بواسع رحمته ورضوانه ، ويُسكنه فى أعلى غُرف جنانه ، إنه كريم ، والكريم يحب الكرماء .

قطعةٌ مِن كتاب إلى الأخ السيد محمد على الطَّاهر(1)

أذكرُ له كيف كان علىَّ وقعُ مصاب السيد رشيد

فى 23 أغسطس نهضت صباحًا فى غاية الانزعاج ولا أدرى السبب ، وَحَلَمْتُ أحلامًا كلُّها غمٌّ وكرب ، ولما انجلى الليلُ بالصبح لم يكن الإصباح بأمثل(2) . ولا أعلم هل كان فراقُ فقيدنا للحياة ليلة 23 أغسطس(★) فإنه إنْ كان ذلك فأكون قد شعرت بالمصاب باتصال الأرواح ، وإلا فما الذى أوجب أنْ أقضى ذلك الليل فى أحلام مزعجة ، ويصبح علىَّ الصباح وأنا فى غمّ شديد أشعر به ولا أعلم سببه . وبعد ذلك علمت تفسير هذا المنام لأن الأستاذ إحسان سامى حقى قال لى : بعثنا لك إلى زيوريخ برقية وردتك من

---

(1) **انظر** : النص كاملاً فى : (من أمير البيان : 364) : تأليف نجيب البعينى ، دار المنهل .

(2) أىْ بأفضل من الليل ، وهو فى هذا يتصور حال امرئ القيس عندما قال :

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلى ... بصبحٍ وما إلا صباحُ منك بأمثلِ

(ديوان امرئ القيس : 43) .

(★) علمت فيما بعد أن المرحوم السيد رشيدًا أسلم الروح وهو عائد فى السيارة من السويس إلى مصر ، وذلك فى نواحى الساعة الثانية من مساء الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة 1353هـ الموافق الثانى والعشرين من أغسطس سنة 1935م ، فيكون الحُلْمُ الذى أنا رأيتُه وقع فى مساء يوم وفاته - رحمه اللَّه - أو الليلة المسفرة عن اليوم التالى . وليست هذه بأول واقعة وقعت معى من هذا النوع .

مصر فهل تلقيتها وأنت هناك ؟ قلت : لا . وما عسى أنْ تكونَ تلك البرقية ؟ قال : عظَّم اللَّه أجركم فى الشيخ رشيد . فلما سمعت ذلك طاش عقلى وأصابنى ما أصابنى ساعة بلغنى وفاةُ الشيخ محمد عبده قبل وفاة السيد رشيد بثلاثين سنة ، ثم تحدرت العبرات على عوارضى وأنا أتلو : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : 156] . هذا ، ولما انتهيت من البكاء بعد أخذى للخبر من فم إحسان حقى كتبت برقية باسم المنار جوابًا على النعى ، وضمنتها بعض ما يجب لمقام الفقيد الأكبر أستاذ الأساتيذ وعلامة العلماء وإمام الأئمة ونبراس هذه الأمة .

ووضعت إمضائى وإمضاء أخى إحسان بك الجابرى ، وبقينا ذلك المساء نتحدث - واحرقتاه - عن مناقب هذا الفقيد الفريد ، ونبرد أكبادنا الحرَّى[1] بسرد محاسنه التى لا تُحصى .

وأخذت أتلو له آخِرَ كتبه إلَىَّ ، وكيف كان رضي الله عنه يشتغل بهمة لا تَعْرِفُ الكَلال ولا الملال ، وأنه كان فى هذه المدة الأخيرة يشتغل بترتيب ديوانى وتصحيح طبعه ، وأنه لم يكن أعجبه الترتيبُ الذى وجده ، فقدّم وآخّر فى مواضع القصائد ، والتزم الترتيب الذى رآه ، وحمل نفسه على نسخ كثير من الديوان بخط يده - رحمه اللَّه - مع أن أشغاله لا تحصى .

وذكرتُ أنّ كتابه الأخير إلَىَّ لم يمضِ عليه إلا عشرون يومًا هو بخط يده ، وفيه أثر للشكاية من المرض ، ولكن ليس فيه شيء يدل على ضعف فى النفس ولا على حينونة الأجل .

وقد أجبته قائلاً له : دعْ عنك الآن كلَّ شيء وانظر إلى صحتك . هذا ، ونهار أمس أردت أنْ أكتبَ إليك فما كان يجيئنى الكلام لشدة وقع الصدمة ، فحدثت نفسى بأنْ أبعثَ إليك ببرقية ، وهذا أيضًا ذَهَلْتُ عنه ، وقمت فى هذا النهار وأردت أنْ أبرقَ إليك وأشكو بثى وحزنى ، ومضى النهار وأنا ذاهل إلى أنْ فكرتُ فى أنّه لا بُدَّ لى من أنْ أكتبَ

---

(1) كبد حرَّى : يابسة من الحزن .

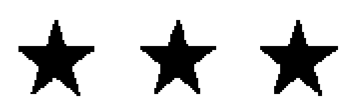
إليك وأُعزيك وأبث ما عندى من هول هذا المصابِ ولوعة هذا الحزن وأقول لك إنّى لو كنتُ جبلاً لتصدّعت ، وإنّى بخلاف سائر أيامى لا أكاد أمسك القلم إلا تكلُّفًا ، ولا أُملى على الكاتب إلا تلكؤًا . ولا يجول فى فكرى سوى السيد رشيد أتذكره وأذكر تعارفى معه من اثنين وأربعين سنة ، وأتأمل فى خلاله الكثيرة الأثيرة من حسن عهد ، وصفاء ودٍّ ، وطيب سريرة ، وشرف نفس ، وعلو همة ، ورقة شعور ، وكرم أخلاق ، ونبالة مبادئ . وهذا عدا العلمَ الذى هو فيه بحر لا تنزحه الدِّلاءُ ، والتحقيقَ الذى قلَّما يصل إلى مثله أحد من العلماء حتى إنه ليندر مثله فى الغابرين فضلاً عن الحاضرين . وقد كنا فى أثناء مذاكراتنا عنه منذ سنين نقول : إنه إذا انطوى لا يخلُفه أحدٌ ، وإنه فى الفن الذى اختص به وهو إيجاد الحلِّ الشرعى للقضايا العصرية لن يقومَ بعده مَن يسدّ مسدّه ، وإن هذا الرجلَ أمةٌ وحده ، وإنه سيتعب من بعده ، وإن شأوه لا يدرك فى مناقبَ كثيرة . والآن بعدَ أنْ فقدناه وواجهنا هذه الحقيقة ازداد علمنا بها ، وخفقت القلوب من هولها ، ورأينا بأعيننا الفقد الذى لا يُعَوَّضُ ، والفراغَ الذى لا يُسَدُّ ، والمنارَ وقد خبا ، وذلك القلمَ الجبار وقد انطوى ، وذلك السراجَ المنير وقد انطفأ ، وأوحشت الدنيا لانطفائه ، وأظلم العالمُ الإسلامى لفقد ضيائه . إنها لمصيبة لا كالمصائب ، وإنها لحياة كانت ملأى بالجِدّ وجلائل الأعمال .

وما انتهت إلا بعد أن امتلأت الآفاق شرقًا وغربًا بذكر رشيد رضا ، فهكذا فليحىَ من أراد أنْ يحيا حيًّا وميتًا ، وهكذا فلينقلبْ إلى ربه مَن أراد أن يلقاه بقلب سليم ونفع لعباده عظيم . ومَن كرشيد رضا فى العلماء العاملين ، ومن كذلك السيد السند فى رجالات المسلمين ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ . اللهم إنه كان رءوفًا رحيمًا فتغمده برحمتك ، وإنه كان برًّا كريمًا فعامله بكرمك ، وأنزله منازل الأبرار الذين أنعمت عليهم ، واجعل علمه خالدًا يُستفاد به فى الأعقاب ، واجعل اسمه رمزًا للعلم والكرم والنبل على طول الأحقاب ، وأورث أنجاله وذريته خلاله الكريمة ومحاسنه الباهرة حتى يبقى هذا البيت منارًا عاليًا ومثالاً صالحًا ، وأفرغ الصبر الجميل عليهم وعلينا جميعًا ؛ فقد جلَّ هذا الخطبُ وفَدَحَ هذا الأمرُ حتى إننا لا نتعزى عنه إلا بذكرى المصاب برسول

اللّه ﷺ وخلفائه الراشدين الذين – رضى الله عنهم – شيّدوا بناء الإسلام . ثم أرجو منك أنْ تخبرنى كل ما تعرف عن كيفية مرضه – قدَّس اللّه روحه – وفى أىِّ يوم وأية ساعة فاضت تلك الروح الطاهرة راجعةً إلى ربها . وإنه لَيُبَرِّدُ من لوعتى الوقوفُ على ذلك ، ولا شك أنه ستتألف لجنة للتأبين نهارَ الأربعين ، وسيكون مشهدًا حافلاً لائقًا بمقام الراحل الكبير فعرِّفنى عن الذين تتألف منهم لجنة التأبين ، وهل يوافق أنْ أبعثَ بالرثاء شعرًا إلى الجرائد قبل الأربعين أم أبعث به إليك وأنت تقدم القصيدة إلى اللجنة ، وسأكتب إلى الصحف عما يحضرنى بشأن الفقيد تباعًا ، وربما كتبتُ كتابًا خاصًا كما كتبت عن صديقى (شوقى)[1] . وللسيد الفقيد عندى أكثر من مائة وخمسين مكتوبًا محفوظة كلُّها فى ظرف خاص فيجوز أنْ آخذ منها ما يوافق نشره لأنّ فيها فوائد كثيرة وأخلاقًا وآدابًا فى كلِّ فنٍّ . وأرانى لا أقدر أنْ أُخفف من حسراتى إلا بنشر مناقبه والتحدث إلى الناس عنه :

وَإِنَّـمـا الـمَـرْءُ حَـدِيـثٌ بَـعْـدَهُ   فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى

واللّه تعالى يُعْظِمُ أَجرَكم ويطيلُ عمرَكم والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته .



(1) يقصد **أحمد شوقى** أمير الشعراء فى العصر الحديث .

حفلاتُ تأبينِ الفقيدِ رَحِمَه اللَّه

وقد أقيمت للسيد رشيد بعد وفاته حفلات تأبين فى كثير من المدن : منها الحفلة التى أقيمت فى مصر بدار جمعية الشبان المسلمين . وقد أبّنه فيها الأساتذة : حبيب الجاماتى ، وعلى سرور الزنكلونى ، ومحمد لطفى جمعة ، ومحمد الهراوى (قصيدة) ، ومحمد العدوى ، وعبد السميع البطل ، وعبد الرحمن شهبندر ، وعبد الله عفيفى (قصيدة) .

والحفلةُ التى أقيمت فى تونس بمسرح قصر الجمعيات الإفرنسية ، وقد أبَّنه فيها الأساتذة : عبد الرحمن الكعَّاك ، وخميس الشامخ ، وصالح النيفر ، وابن عاشور ، ومحمد الغربى ، والشاذلى نيفر (قصيدة) ، وعلى البلهوان ، ومحمد شاكر ، والأمير شكيب أرسلان (وقد قرأ خطابه محمد الغربى) ، ومحب الدين الخطيب (وقد قرأ خطابه المختار بن عثمان) ، والصادق بسيس ، وبلحس بن شعبان (قصيدة) .

والحفلة التى أقيمت فى بغداد فى مركز جمعية الشبان المسلمين . وقد ابَّنه فيها الأساتذة : حسن رضا ، ومحمد بهجة الأثرى ، وعباس العزاوى ، وسلمان أفندى بيات .

والحفلة التى أُقيمت فى دمشق فى مُدرَّج الجامعة السورية أقامها المجمع العلمى العربى إذ كان السيد رشيد – رحمه الله – عضوًا فيه ، وقد افتتح الحفلةَ رئيس المجمع الشيخ عبد القادر المغربى بكلمة ، ثم ألقى كلمةَ شيخ الجامع الأزهر فى الفقيد ، وبعده الدكتور نجيب الأرمنازى ثم الأستاذ شفيق جبرى ، ثم الأستاذ التنوخىّ الذى قرأ قصيدتَنا الآتيةَ فى الفقيد ، كما تلا خطابَ الشيخِ مصطفى الغلايينى (قاضى بيروت) ثم الأستاذ محمد بهجة البيطار ألقى كلمتَه وكلمةَ الشيخ أحمد عمر المحمصانى (بيروت) ثم السيد ظافر القاسمى ألقى كلمتَه وكلمةَ الشيخ بهجة الأثرى (بغداد) .



رِثائى لفقيدِ الإسلامِ فى حفلةِ دِمشقَ

تَحدَّرِى يا دُمُوعى بالميازيبِ وَعَارِضِى السُّحب أُسْكُوبًا بأُسْكُوبِ

وَأَدْرِكى كَبِدًا لجَّ الأُوارُ بِه عَنْ مَارِجٍ فى صَمِيمِ القَلْبِ مَشْبُوبِ

هيهاتَ أىُّ الرَّزَايا بعدُ تَرْمِضُنى وأىُّ داهيةٍ دَهْيَاءَ تَلْوى بِى

وأىُّ خَطْبٍ ملىٌّ أنْ أَقُولَ له يا عمرى انفضَّ أو يا مُهْجَتى ذُوبى

مَضَى الَّذِى كان فيه مُنْتَهى أَملى ومَن نَشَدْتُ لتَعْليمى وتَهْذِيبى

وَمَنْ عَنِ الأخْذِ عَنْهُ شَدُّ راحِلتى ومَنْ لِلُقياهُ إسآدى[1] وتأويبى

شَعَرْتُ أنْ خَلَت الدنيا بِمَصْرَعِهِ لَمْ يَكْفِنى طُولُ تَشْرِيدى وَتَغْرِيبى

فَمَنْ أُناجِيه بعدَ اليوم فى حَزَنى وَمَنْ أرى بثَّه بَثِّى وَتَعْذِيبى

واهًا عَلى حُجَّةِ الإسلامِ حِينَ خَبا ذاك الشِّهابُ بليلاتٍ غَرابِيبِ

واهًا على عَلَمِ الأعلام حِين هَوَى فَلا تُصَادِفُ قَلْبًا غَيْرَ مَنْخُوبِ

هَوَى وكلُّ جِبالِ العِلْم دانيةٌ عَنْ شَأوِه فهى مِنْه كَالأَهَاضِيبِ

أينَ الَّذِى كان إنْ أَجْرَى يَرَاعَتَه فى أىِّ فنٍّ أتانا بالأعَاجِيبِ

هذا المُصابُ الذى كُنَّا نُحاذِرُهُ نَظَلُّ نَلْبِسُ مِنْهُ جِلْدَ مَرْعُوبِ

مِن قبلُ رزْناه فَقْدًا غَيْرَ ذى عِوَضٍ وَكَمْ حَسِبْنَاه صَدْعًا غير مَرْءوبِ

حتى إذا حَلَّ لم تُعْقَدْ مَنَاحتُهُ[2] إلا عَلى حادِثٍ مِنْ قَبْلُ مَرْهُوبِ

قُضِى الإمامُ الَّذى كانتْ مَكَانَتُهُ بينَ الأئمةِ فى أعْلَى الشَّنَاخِيبِ[3]

لو كان أَنْصَفَهُ الإسلامُ يومَ ثَوَى لَبَاتَ يَرْفُلُ فى سُود الجلابِيبِ

كان المُقَدَّمَ فى عِلْمٍ وفى عَمَلٍ والجَمْع مَا بينَ مَنْسُوبٍ وَمَكْسُوبِ

لَهُ شَمَائِلُ أَمْثَالُ النَّسِيم سَرَى تُذْكِيه نَفْحَةُ نَوَّارِ التَّعاشيبِ[4]

---

(1) **أساد** السَّيرَ إسآدًا والاه وأدأبه ، وأكثر ما يكون ذلك فى مشى الليل .

(2) **المناحة** : النساء يجتمعن للحزن .

(3) **الشناخيب** : جمع شنخوب ، وهو أعلى الجبل أو رأسه . (لسان العرب : شنخ) .

(4) **التعاشيب** : القطع المتفرقة من العشب ، ولا واحد لها .

سَمْحُ السَّجِيَّة لا يَلْوى على حَسَكٍ[1] ... ويَكْرهُ العفو أنْ ينأى عن الحُوبِ

لَمْ تَعْرِف الحِقْدَ فى يَوْمٍ سَرِيرَتُهُ ... وَلا وَعَى سِرُّهُ شيئًا سِوى الطيبِ

كَمْ قَدْ تلقَّى أعادِيه وَقَدْ كُشِحُوا[2] ... بِفَضْلِ ذَيْلٍ عَلَى الآثَامِ مَسْحُوْبِ

يَلْقَوْنَهُ حَمَلاً حتَّى إذا عَبِثُوا ... بالدِّينِ أَصْبَحَ كَالْبُزْلِ[3] المَصَاعِيْبِ

هناك لا هُدْنَةً يَدْرِى ولا خَصْمٌ ... إلا سَيَأْخُذُ مِنْهُ بِالتَّلابيبِ

هناك أَعْظِمْ بِفَحْلٍ غيرِ ذِى نَكْلٍ[4] ... لَدَى اللِّقَاءِ وسيفٍ غيرِ مَقْروبِ

يَصولُ صَوْلَ علىٍّ فى وَقَائِعِهِ ... فليسَ يَعْرِفُ قِرْنًا غير مَكْبُوبِ

عَدَا على عَبْقَرَ مَنْ ليس ذا صِلَةٍ ... مَعَها عَلى الرَّغْمِ مِن نعتٍ وتَلْقِيبِ

فَالعَبقَرِيّةُ وصفٌ فى رَشيدِ رضا ... والعَبقرِيّةُ ليستْ بالأكاذِيبِ

قِسْ كلَّ صاحبِ فضلٍ مع رشيدِ رضا ... قيسَ الرُّهام إلى الطّيرِ المَناسيبِ

تَسمو المنابرُ إعجابًا بوطأتهِ ... لها وَتَخْضَعُ أقواسُ المحاريبِ

سبحانَ مَن زادَهُ عِلمًا وألهمَه ... تلك البراهينَ فى أحْلَى الأساليبِ

ربّ الوفاءِ الذى أربَى بشُهرتِه ... حقًّا على مَثَلٍ فى العَهْدِ مَضْروبِ

لم يدر بغيًا على الإخوان فى زَمنٍ ... سادت على الجمّ فيه شيمةُ الذيبِ

له المنارُ الذى كانت تُنارُ به ... سَفائنُ القومِ فى لجّ التجاريبِ

مُقِلَّةٌ من أُصولِ الشرعِ أشرعةً ... تَمشى مع العَقلِ تَسْيَارَ الأصاحيبِ

كانَ المنارَ لحزب الحقِّ مقتصِرًا ... يهديهم بشعاعٍ غيرِ محجوبِ

غَدَتْ بِه مِلَّةُ الإسلام حجَّتَها ... شهباء فى حازبٍ منها ومحزُوبِ

جميعُ أجزائه تأتى على نَسَقٍ ... مِثْلَ اطرادِ العوالى بالأنابيبِ

فيه الفتاوَى التى يَرضى الجميعُ بها ... فلا تَرى حاجةً فى نَفْسِ يَعقوبِ

---

(1) **حسك** : نبات له ثمرة خشنة ، ومنه حسك السّعدان .

(2) **كشح القوم** : طردهم .

(3) **جمع بزول** ، وهو البعير الذى طلع نابه .

(4) قيد .

تَجرى بآذانِ مَن يُصغى لقارِئها ... لَحْنَ السُرَيجِىّ فى سَمْع المطاريبِ
ما بالمنار ضِياءٌ غيرُ مُقْتَبَسٍ ... وليسَ فيه هلالٌ غيرُ مَرْقوبِ
وكمْ كتابٍ له غيرُ المنار غدَا ... فوقَ الكتائبِ فى حَشدٍ وتكتيبِ
فى كلِّ عامٍ تآليفُ يَجودُ بها ... كالغيثِ يُرْسِلُ شُؤْبُوبًا بِشُؤْبُوبِ
مواقفُ لن تَرى مَن يَستقلُّ بِها ... ولنْ تَرى طَامِعًا منها بتقريبِ

★★★

سِرْ نحوَ ربِّكَ مَبْكِيًّا بكلِّ دمٍ ... قانٍ على صفحةِ الخدَّينِ مصبوبِ
وَانْعَمْ لَدَيْهِ بما قَدَّمتْ مِن عَمَلٍ ... وَفُزْ بِقِسْطِكَ مِنْ بِرٍّ وَتَثْوِيْبِ
وَاتْرُكْ ثناءً كنفحِ الطيبِ ليس يَنِى ... يَمْلا البِلاَدَ بِتَشريقٍ وتغريبِ
قَدْ يَغْلُبُ الحزنَ أقوامٌ بصبرِهم ... لكنَّ حزنَك عندى غيرُ مغلوبِ
أَبكيكَ ما دُمتُ فى الدنيا وما بقيتْ ... إلا بقيَةُ عَيشٍ غيرِ محبوبِ
لِىْ مَعكَ عهدٌ فآبى أنْ أخيسَ بِهِ ... حتَّى أصيرَ إلى لحدٍ وتتريبِ

المقصورةُ الرشيديَّةُ(★1)

التى عارضَ المترجَمُ بها مقصورةَ ابنِ دُريد وتفسيرُ بعضِ غريبها بقلمِهِ

تَبارَكَ البارئُ مُبدِعُ الوَرَى ... بحكمَةٍ تَرُوقُ أَربابَ الحِجَى
براهُ منْ حيثُ رَصَاهُ(★2) فانبرى ... مُسْتَحصِفَ المَريرِ مشدُودَ العُرى
أَنشا مِنَ السَّديم(★3) كلَّ صورَةٍ ... فَسَمَكَ السماءَ والأرضَ دَحا
وخَلَقَ الأشياءَ أَزْوَاجًا وقدْ ... قَضَى بناموسٍ تنازع البَقا
ثُمَّتَ أَعطَى كلَّ شىءٍ خَلْقَهُ ... بحسبِ استعدادِهِ ثُمَّ هَدَى

(★1) راجعْ سببَ نظمِ السيد – رحمه اللّه – لهذه المقصورةِ فى ص 32 وص 114 .
(★2) أَحْكَمَهُ وأتقَنَهُ .
(★3) أو الهباء .

فابعثْ رسولَ الطرْف منكَ رَائِدًا   يَجُوبُ أجوازَ[★1] البِحَارِ والفَلاَ
وأسرِ بِهِ للأُفُقِ فى مَراصد[★2]   مِعْرَاجُها يُدنى إلَيكَ مَا نَأى
وَأَرْسِلِ الفكرَ رسولاً ثانيًا   لعالَمِ الأَرْوَاح يَسعى والنُّهى
حتى إذَا جَاسَا خلالَ الدارِ مِنْ   عَوالِم الحسِّ وَعَالَمِ الحِجَى
سَائِلْهما هلْ ثَمَّ مِنْ تفاوُتٍ   أَوْ خللٍ فى الأصلِ كانَ أَو عُرى
أَنى وتَلكَ مظهرُ الحقِّ بِهَا   قَدْ ظهرتْ أَسماهُ جَلَّ وعلاَ

★ ★ ★

مِن جَرْيِ هذا قِيل لا إمكانَ فى   أبْدَعَ مما كانَ قَبْلُ وجَرَى
فَارجِعْ إليها الطَّرْفَ كَرَّتين واستوضحْ دِناجَ[★3] الأمرِ مِنْ ثِنِي القَضا
تَلَقى هُناكَ سُننًا حكيمَةً   لا يَعتريهنَّ العَفاءُ وَالوَهَى
مِنْ ذَاكَ أَنَّ الازدوَاجَ[★4] سُنَّة   قام بها التوليدُ فى هذا الوَرَى
يَظهرُ هَذَا فى المواليدِ التى   تَأَلَّفَتْ منها طبيعةُ الدُّنَا
فاجتلهِ فى الحيوانِ ناطقًا   وَأَعجمًا وفى النباتِ المُجْتَنى
والماءُ والتربةُ إذْ تقارَنا   تولَّدَتْ صُمُّ الصخورِ والحصا
بلْ كُلُّ ذَرَّةٍ لقد تولَّدتْ   بجسم حَيٍّ وبها الجسمُ نَما
خَلِيَّةٌ تُقرَنُ فى غُضونِها   نُويَّتانِ عندَها تَغْدُو زَكا[★5]
وَمَازَجَ الماءُ الحُمَيَّا فانثنتْ   عنْ وَلدٍ يُدْعى الحبَابَ مُذْ حبَا
كَذَا المُقدِّمات لمّا اقترنتْ   تَمخّضتْ عنِ النتاجِ للحَصا[★6]
وَالقَمَرُ المنيرُ لَمَّا قارَنَ الشَّمْس تَولَّدَ الهلالُ فى الدُّجى
وَالكهرُبا زَوْجانِ إمَّا التَقَيا   تَأَلَّقَ البرقُ وَشيكًا وخَفَا[★7]

(★1) أوساط .   (★2) جمعُ مَرْصِدٍ وهو التِّلِسْكوب .   (★3) إحكامه وإتقانه .
(★4) الاقتران .   (★5) أى تغدو زوجًا حتى تتولد منها خلية أُخرى وهكذا .
(★6) للحَصى أى للحِجَى وهو العقل .   (★7) لمعَ وظهرَ .

كالزَّنْدِ والزَّنْدَةِ حينَ التقيا   مزْدوجينِ أَنْتجَا نَار الصِّلَى
وَالْمُعْصِراتُ عندما لَقَّحَها الثَّائبُ[★1] جاءَتْ بوليدِها الحيَا
وَلامسَ[★2] البحارَ فى سكونِها   فاعتلجَ[★3] الآذِيُّ[★4] فيها وَطَمَا
وافترَشَ الأرْضَ الحيَا فانفَتَقَتْ   عَنْ كُلِّ زَوْجٍ يُرْتَعَى ويُجْتَنَى
وَعَنْ رياحينَ ذَكَا شَمِيمُهَا   يفوحُ منها العَرفُ عاطرَ الشَّذا
يُمازِجُ الأَرْواحَ طيبُ رِيحِها   فَتَنْثِني نَشْوى وَلَم تَرْشُفْ طِلا

★ ★ ★

وَرَوْضَةٍ تُجْلى بثوبِ سُنْدُسٍ   رَصَّعها النَّورُ بِأَصْنَافِ الحُلى
ماصَوَّح[★5] البارِحُ[★6] غضَّ نجمِها   وَيَانِعُ الأَفنانِ منها ما ذَوَى
وَالبَاسقاتُ رَفَعَتْ أَكُفَّها   تَستنزلُ الغَيْثَ وتطْلُبُ النَّدَى
تمتِلَجُ[★7] الكُرْبونَ[★8] مِنْ ضَرْعِ الهَوا   إذْ آثرتْنا بالأَزُوتِ[★9] المُنْتَقَى
مَدَّتْ عَلَى الصعيدِ ظِلاًّ وَارِفًا   فَلاذَأَى[★10] العُودُولاالظِلُّ أَزَى[★11]
والشمسُ تبدُو من خِلال دَوْحِها   آونَةً تَخْفى وطَورًا تُجْتَلى
كغادَةٍ وَضَّاحةٍ[★12] قد أَتْلعَتْ[★13]   مِنْ خَلَلِ السجُوفِ[★14] تَرْنُو والكُوى
تُلْقى عَلَى الرَوضِ نَثِيرَ عَسجدٍ   فتحسَبُ الرَّوْضَ عَرُوسًا تُجْتَلى
وَافيتُها[★15] والفجرُ مَدَّ رُمْحَهُ   يَسطُو فلم يُخْطِ مقاتلَ الدُّجى
أَفَلَقٌ ذا أَمْ حُسامُ أدْهم[★16]   أَجْلى فَيَالِقَ« الكَرِيك »[★17] وانْجلَى

(★1) الهواء الذى يتقدَّم المطرَ .
(★2) أى الثائب .
(★3) التطم .
(★4) الموج .
(★5) شقق .
(★6) الريح البارد .
(★7) ترضع .
(★8) غاز سام يمتصه الشجر من الهواء .
(★9) أحسن الأكسجين أو خلاصته .
(★10) ذبل .
(★11) تقلص وانقبض .
(★12) **وضاحة** : مشرقة الوجه .
(★13) **أتلعت** : مَدَّتْ عُنقَها .
(★14) **السجوف** : الأستار .
(★15) أى الروضة .
(★16) أدهم هو القائد التركى الذى هزم اليونان فى الحرب اليونانية العثمانية التى نشبت يومَئذ .
(★17) تعريبُ الإغريق وهم اليونان .

والشمسُ كَرَّتْ إِثْرَهُ وانْتَشَرتْ　　منها سهامُ النُّورِ تملأُ الفَضَا
فانقلبَ النجمُ عَلَى أَعْقَابِهِ　　وَخَنَسَتْ كُنَّسُه مثلَ الظِّبا
كَتائب تَتْبَعُها كتائب　　وجَحْفَلٌ فى إِثرِ جَحْفَلٍ مَضَى
سيّارَةٌ تَعْقُبُها ثوابت　　وأعزل برامحٍ قد استَوى

★ ★ ★

وَصاحِبايَ[★1] (دَفترٌ) فى طَيِّهِ　　مثلَ مَدَبِّ النملِ يَسْعَى فى الرُّبى
فَرْدٌ ولكنْ قد وَعَى إهابُه　　كُلَّ شُعوبِ العالمينَ وَحَوَى
وَقاتِمُ الأَعْماقِ لكنْ كم بَدَا　　فى أُفقِهِ بَدْرٌ وكم نجْمٍ هَوَى
وَجَمَعَ الأَضْدادَ فى غُضونِهِ　　وَأَلَّفَ الأَشْتاتَ مِنْها وَضَوَى[★2]
فالضَّبُّ والنِّينانُ تَرْتَعى معًا　　والشَّاءُ والسِّرْحَانُ يَسرَحْنَ سَوى
لوْ جَالَ طِرْفُ الطَّرْفِ فى ساحاتِهِ　　وطافَ ما بينَ الرَّجا[★3] إلى الرَّجا
عَنَّتْ لهُ عوالمُ الأرضِ كَمَا　　لاَحتْ لَه بها السَّمواتُ العُلى
كم عَيْلمٍ أمواهُ مَدّهِ طَغتْ　　وَعَلمٍ بُركانُ نارهِ الْتَظَى

★ ★ ★

و(أَرْوَعُ)[★4] تَلَقاهُ فى رَيعْانِهِ　　رَيَّانَ مِن ماءِ العَفَافِ والحَيَا
ما خاصرتْ يمينُهُ خَصْرًا وَلا　　غازلَ فى الغرامِ غَزلانَ النَّقا
كلَّا وَلا عانقَ جِيدَ عاتقٍ　　يَضْفُو عَلَى عاتقِها بردُ الصّبا
أَلهاهُ حبُّ الوطنِ العزيزِ عن　　حبٍّ كحيلِ الطرفِ أَغيدِ الطُّلا
فظلَّ والحكمةُ مَرمَى طَرْفه　　وَمُنتحى أفكارِهِ إذا انتحَى
والعلمُ قد أَلقَى لهُ جِلْبابَه　　فائتزرَ الفنونَ مِنه وارتَدَى

(★1) حال من فاعل وافيتها يقول إنَّ صَاحِبَيه اللذين وافى بهما الروضةَ اثنان « دفتر » وأراد به مجلة المقتطف ، ثم قال « وأروع » وأراد به صديقَه الذى يُهَنؤه بالزفاف .
(★2) ضم .　(★3) الجانب .　(★4) بالرفع عطفا على دفتر .

فأسودُ السطورِ فوقَ أبيضِ الطروسِ كالوَشْيِ بأجيادِ الدُّمى

أشهى إليه مِن ضُحَى غُرَّته والليلِ من طرَّتهِ إذا سَجَا

أَدْرَك من هذا الزمانِ كنُهه والدَّهرُ لمّا يَدْرِ كُنْهَ ذا الفتى

حُرُّ الضمير ورَقيقُ الطَّبعِ لا تَحذَرُ منه مَلَقًا ولا أَذَى

تمنطقَ الحزمُ عَلَى أعطافِه واشتملَ الصدقُ عليه واحتَبَى

ليس يجيبُ دَاعَى الغيِّ وإنْ أَوْحَى له الرشادُ لبَّى بالوَحَا

يَرْنو بعينِ الانتقادِ إنْ رَأى صَغْا[★1] وإلاّ فَبِعَينَى الرّضا

إنَّ الذى يُرضيه كلُّ ما يرى منكَ خليقٌ أَنْ يُعدَّ فى العِدا

والخِلُّ مَن يَنتقدُ الخِلاَلَ كىْ يُثنى عَلَى الحُسنى ويُنْكِر الفَغَا[★2]

بلْ هو مرآةٌ يُريكَ نورَها منعكسًا عنك الذى لستَ ترى

مَتَى رأى فضلاً أذاع وَرَوى وإنْ رَأى مَيْلاً أَجَنَّ وطَوى

وإنْ قسا وَدِيدُه لانَ وإنْ يَكْدرْ عليه راقَ وِردًا وصَفَا

لم يُخْشَ منه الطَّيشُ فى شِرَّته والحِلمُ والإغضاءُ منه يُرتَجى

تواضعٌ عن شَمَمٍ ورِفعةٍ وَرِقةٌ مِن غيرِ عجزٍ وَوَنى

ألم تَرَ الهواءَ فى رِقَّتِهِ ولُطفه لديهِ شدَّة القُوى

يُزَاحِمُ النجومَ فى أفلاكِها عُلا وكم يُمسى يُصافحُ الثرى

حُلوُ الأحادِيثِ وَرُبَّ كَلِمٍ دَاوى بنفثِ سِحْرِهِ كَلْمَ الحَشَا

ظلَّ له اليراعُ صَنهاجًا[★3] لذا زَفَّ إليه من إمائهِ الدَّوى[★4]

يَجرى لدى مولاه فى كتابةٍ لو عُرضتْ عليه يومًا لأَبى

إنْ تُليتْ للسمع كانتْ حِليةً وإنْ تلوتَ فهى حَلْوى فى اللُّهى

رُبَّ صريفِ قلمٍ أرْبى عَلَى نَغْمَةِ قانونٍ ووسواسِ حُلى

(★1) عوجًا وميلًا .

(★2) القبيحَ من كل شىء .

(★3) عبدًا عريقًا فى العُبودية .

(★4) جمع الدَّاوة .

سيطتْ بنفسى نفسه فمنْ يَرُم	فضْلا تبدَّل الجنونَ بالحِجَى
ورُكبتْ تركيبَ كيمى فَمَن	حاولَ تحليلاً فقد ضلَّ الصُّوى
قد علِقَتْ بى وبَه سورّيَةٌ	مِن وطنٍ اختيرَ أَبًا فَمَا أَبى
وَوَضَعتْنا توأميْن أَغتذى	بَبَركاتِ أرضِها كما اغتذَى
كان فِصالى وفصالُه معًا	بحَجْرها حيثُ حَبَوتُ وحبَا
ثم تَزعزَعَتْ قُوى نفسى كما	تَرعرعتْ مِن نفسِه تلكَ القُوَى
لم نَختلفْ بمبتَدَا مسأَلةٍ	إلاّ وكان للوِفاقِ المُنتهَى
كَمَنْ عَلَى المُحيط مِن دائرةٍ	أنَّى تَفارقا فبعدُ مُلتقى

وقد تساوَى الوُدُّ إذْ تعادَل الجَذْبُ والانجذابُ فينا واستَوَى

★ ★ ★

قد أَنجبتْهُ أُسرةٌ لقد زَكتْ	أُصوُلها وفرعها قد اعتَلى
قومٌ لقَدْ كانوا مِن البَدْءِ وما	زَالُوا مثَالَ العلم فينا والتُّقى
مابرِحَتْ« تُونس »[★1] فيهم« تونُس »	وفاح فى « الفيحا » لهم عَرفُ الشَّذا
قَدْ رُفعتْ هياكلُ الفضل بهم	وَنُصبتْ لهم تَمَاثيلُ الثَّنا
كَمْ خضعتْ هامُ الورَى لأمرِهم	حيْثُ قَضَوا بما بِهِ اللَّهُ قَضى
وكم سَمَوا مِن المَعالى مِنبرًا	ليس يُسامى فتَعالى مَن بَرَى
سَلِ العُلى والمجدَ عن تاريخِهم	يَقُصُّهُ المجدُ عليكَ والعُلى
ما لى ومَا لعاذِلى فى حبِّهم	فقدْ أَضَلَّ قوَمه وما هدَى
أذْكرُ مِن كمالِهم فيَنثنى	يَشكرُ مَنْ يَحسُنُ منه المُشتكى
ذلك شأنى مع شانيهم إذَا	أَرَيتُهُ البدْرَ يُرينى السُّهى
هيهاتَ ما تساوَيا وإنْ حكتْ	صرْحَ القواريرِ فَواقِعُ الحَجَا[★2]
واختارَهُ (القادرَ) مِن خِيارهم	(عَبْدًا)فكانمُصطفىمِن(مُصطفى)

(★1)آل المغربى فى طرابلس الشام أصلُهم مِن أُسرة ما زالت إلى اليوم مشهورة فى تونس ، و« الفيحاء » لقب طرابلس الشام .
(★2) نُفاخات الماء .

لاَحَ له المجدُ طرِيفًا تَالِدًا فضمَّ قُطْرَيهِ عليه وَكَفَى

جرىَ على آثارِهم مُحْتذِيًا مثلَهم فاعتزَّ مِن حيثُ اعْتَزَى

ثُمَّ تنصَّى السرَواتِ فتلا تِلوأَبيهِ (المصطفى) بما انتصى[★1]

إنْ قلتُ آلُ (علَم الدين) يُقَلْ عَرَّف معروفًا لدينَا فَلغَا

وإنْ ضممْتُ عالمَ الدين لهم يُقالُ : قد راعى النَّظيرَ إذ حَكى

قد جمعَ اللَّهُ الشَّتيتينِ لهم صَلابةُ الدِّين ونَعمةُ الغنى

شُيوخُهم بهمَّةِ الفتيان إذْ فِتيانُهم تَحْكِى الشيوخَ فى الأنا[★2]

يَلمعُ نورُ البشر فى وجوهِهم ما لمعتْ فى جوِّهم نارُ القِرَى

أحْجِ[★3] بأنْ يَنجُلَ منجبًا فتى من غِمْدِ خير ناجلينِ مُنتضى

فَمَنزَعُ الآباء خَيرُ مَنزَعٍ وَمُقتفَى الأَنضادِ[★4] خيرُ مُقتفى

هَلْ يُسْكُنُ الغِيلَ سوى الليثِ وهلْ يصلحُ مِن غيرِ الوَشيجةِ القَنَا

ريا حُسْنَ شمْلٍ جمعتْ أطْرافَه لَيَلَتنا الغرَّاءُ فى هذا الثُّبى[★5]

ثُبى قد انتحاهُ أهلُ الفضلِ ما بينَ ثُباتٍ وفُرادى وثُنا

يَحتفلونَ فى زِفافهِ وَلا بِدْعَ إذا النِّدُّ إلى النِدِّ انضوى

قد احتسَوْا مِن السرورِ راحةً ما ضلَّ مَن يمتاحهُا وَلا غَوَى

يَشْعُرُ منها فى مجارى نفسهِ كأنَّ مجرَى الكهرباءِ قدْ جرَى

لاَ لغوَ فى شرابِها يُخشى وَلا غَوْلَ فيغتالُ الجُسُومَ والنُّهى

تَنازَعوها حيثُ لا تنازُعُ صرفًا بأفواهِ النُّفوسِ تُحْتَسى

دَارَتْ بلا ساقٍ لها وحُسيتْ مِن غيرِ ما كاسٍ فمَا هاتا الطِّلا

يَا أيهذا الوَطنُ الذِى زَها ساكنُهُ بِذَا القِرانِ واحتفى

يَهنيكَ أنَّ نابغى بنِيكَ قدْ أمرعَ وَادِيهِمْ وغرسُهُم نما

(★1) أى انتقى : يَعنى أنه اختار أنْ يتزوجَ من أسرة « علم الدين » فى طرابلس الشام التى تزوَّج منها والدهُ « مصطفى » .
(★2) جمع أناة . (★3) أىْ ما أجدرَه بأنْ ينجب . (★4) الأعمام والأخوال المتقدِّمون فى الشرف .
(★5) المجلس يَحوى أكابر الأشراف .

دَيْنٌ تقاضيتَ به الدَهرَ فيا ... بُشرى لقدْ أنشأَ يَقْضى أَو قَضَا

ما السَّأْو[★1] إلا برجالهِ فإنْ ... سادُوا وإلاَّ سَاءَ حالاً وكَصَا[★2]

ولَنْ تسودَ أُمةٌ إلاَّ إذَا ... كان لها العِلْم غذاءً وَروا[★3]

فإن رأَتْ عيناكَ شَعْبًا عاكفًا ... عَلَى الفنونِ بشَّرنهُ بالمُنى

وإنْ عثرتَ بشعوبٍ نَكبَتْ ... عنهُ فبالرِّقِّ وإلا فالمَنا[★4]

مَنْ يَتوقَّل[★5] وهو يَعْنُو[★6] للعنا ... تَعْنو لهُ الرَّاحة فى أَعَلَى الذّرَى

مَنْ طَلبَ الغايةَ فى المَبدإِ لا ... يئُوب إلاَّ بالقُنوطِ والشَّقَا

وَمَنْ يَسِر سَيْرًا طبيعيًّا لها ... يَبلُغ بالتوفيقِ مِنها المُنتهَى

هذا أصلُ المقصورة الرشيدية ثمَّ أخذَ كلَّما هتفَ به هاتفُ الشِّعر يَزيدُ عليها ، فمن ذلك ما يلى :

كَمْ ليلةٍ أَبيتُها مفكِّرًا ... يَفى لى السُّهدُ وَيُخلِفُ الكَرَى

أَطوِى جناحَىَّ عَلَى جَمْرِ اللَّظَى ... أُرْضِكُ عينىَّ على الماء الرَّوى

خِلتهما رَكيّتين كلَّما ... نَزحتُ هذَا الماءَ فاضَ وطَغَى

وكُلَّ جفنٍ ماتحًا فكُلَّما ... أَهوى بشبهِ الغُمضِ يَملأُ الدِلا

تلكَ ليالٍ خُنْتُ عهدَ الصبر فى ... حِندِسها وكنتُ أَوْفى مَن وَفى

إذْ خانَنى العزمُ الذِى بلوتُهُ ... فى مُبهَم الخَطبِ فما قطُّ نَبا

لو أنَّما أبكى لمحبوبٍ جفا ... أو مالٍ اغتيلَ وذى قُربى قَضَى

وأعوز الصبرُ فقيلَ جازعٌ ... أشبهَ ربّاتِ الحجال فى البُكا

لَراعنى القولُ بصدقهِ وَقَدْ ... يُقصدُ مَن يصدُقُ إنْ قِيل رَمَى

لكنَّما أبكى لمجدِ أُمَّةٍ ... ثُلَّتْ عُرُوشُهُ وحُلّتْ العُرى

وَوَطنٍ ذلَّ فعادَ حوضه ... (مُدَعْثَرَ الأَعضادِ مهدومَ الحبى)

وَمِلَّةٍ حكيمةٍ رَحيمةٍ ... قدْ تُركتْ للجهل كالشىء اللّقا

وَقالَ فيها الآخَرُون إنَّها ... ملةُ هذَا الانحطاط والشقا

(★1) الوطن . — (★2) خسّ بعد رفعة . — (★3) الماء الكثير المروى .

(★4) أى الموت . — (★5) يصعد . — (★6) يخضع للتعب متحملاً له .

فكيفَ كانت علّةَ السعادةِ التى مضتْ لنا وذاكَ الارتقا

بها أصَبْنا الملكَ والحكمَةَ والـ ـعلَم بها ، فَما عدَا مما بَدا

أَلَمْ نوحِّد أُمَمًا تفرَّقتْ واخْتلَفتْ فى الاعتقادِ واللُّغى

فكَيْفَ عُدْتمُ وأنتمُ إخوَةٌ لمَّا ترَكُمتم هَدْيَها مِن العدِى

أما بدتْ فى أُمةٍ أُميةٍ فجعلَتْهمو أئمّةَ الوَرَى

فى كلّ علمٍ للعُقول يُقتنى وعملٍ فى الكائنات يقتَنى

فكيفَ عُدْتمُ بتركِ هدْيها أجهلَ مَنْ دَبَّ عليها ومشى

ألَمْ يكنْ أَسلافُكم بَعدْلها قدْ فتحوا الأَمصارَ قبلُ والقُرى

وعَمَّرُوها فغدَت بفضلْهِم تَفْضُلُ فى الوجودِ كلَّ ما عدَا

زرَاعةً صناعةً تجارةً علمًا وحكمةً وعدْلاً وعُلا

فلمَ أَضعْتم جُلَّ ما تأَثَّلوا وأصبحَ الباقى لكم عَلَى شَفَا

شريعةُ القرآنِ دَانٍ ورْدُها الْعـ ـذبُ وتَهلِكون مِن فَرْطِ الصَّدَى

فإنْ أباهَا الحاكمونَ عنْ عَمى وَصدَّ عنها الجامدُونَ عن هَوى

فربَّما أيّدها عَلَى هُدىً كلُّ صحيحِ الفكرِ مِن أُولى النُّهى

وإنْ يكنْ قد عقَّها أَبناؤها وَبَرَّها مَنْ يُحسبُون فى العِدَا

إلى أنْ يقولَ :

فكيفَ حالُ وطنٍ أبناؤهُ ما فَتئُوا أعقَّ مَن ضبّ الكُدَى

قد عَضَّدَ العاضدُ منهم دَوْحَه وخَضدَ الشوكةَ والعودَ التَحى

وغادَرَ الأرْضَ به موظوبة[★1] وغمرةَ الفرات ضحضاحًا جَوَى

وُلّى أمرهُ إمامٌ جائرٌ قد استبدَّ بالأُمورِ واعتدَى

إذَا استخفَّ قومَهُ فأصبحوا أطوعَ مِن ظِلّ الحذاءِ يُحتذى

يَليه فى الظلم ولاةٌ أبصرُوا بُرُوقهُ تُرجى لِرَىٍّ وحيَا

وَسمعوا رُعودَها تُنذرُ مَن خالف أمرَهُ صواعقَ الرَّدَى

(★1) وُظِبتْ الروضة : أُلحَّ عليها فى الرعى .

فآثروا ما عندَهُ حتى عَلَى الـ أوْطانِ والرَّحمنِ جلَّ وعلا
وجعلوا مالَ العباد دولة فدالت الدولةُ منهم للعدَى
مَن نالَ منهم حاجةً لكرشه وفرشه قال : على الدُنيا العفَا
يُريكَ عزَّةَ الأمين فإذَا لاَحَ لهُ المالُ استكان وضغَا(★1)
والوَطن الذى امترَوا أخلافه أوْشكَ أنْ يقضى وربَّما قَضَى
وَكيفَ لا يُسحتهُ اللَّهُ وهم للسُّحتِ أَكَّالونَ فيه والرُّشا
قد بَشِمَتْ بطونُهم فأصبحوا يَشكُون سوءَ الهضم منها والطسى(★2)
ومُشبِعوها يَشتكون سَغَبًا قد أَكَلوا العِلْهزِ(★3) مِن طُولِ الطَّوى
فأصبْحَوا فى شظفٍ وضَففٍ(★4) وَجَففٍ(★5) وَحَفَفٍ(★6) قد اجْتَوى
وَعالِمٌ مُبتدِعٌ منافقٌ لقدْ أَضلَّ قومه ومَا هدَى
لاَ يَأْمُر الحكَّامَ بالعُرفِ ولاَ يَنهى عن المُنكرِ فيهمُ فشا
وليسَ يوصى الناس بالحقِّ وَلا الصبر سوى عَلَى المكوسِ والأذى
ومُرشدٌ غيرُ رَشيدٍ دأبُه عزْوُ الخُرافاتِ لأَربابِ الولا
والرَّجمُ بالغيوبِ مُستنِدًا إلى أَضغْاثِ أَحلامِ ومكذُوبِ رُؤَى
والرَّقصُ وَالغناءُ فى الذكْرِ الذى قد تخذُوهُ هزُوًا لمن هدَى
أولئكم سادَتُنا الذِّينَ قدْ ضلُّوا السّبيلَ وأضلوا مَنْ قَفَا
والأمة التى استذَلوا بئستْ مِن نفسِها فهى تردَّى فى الردَى
لولا صياحُ منذرٍ أهابَ أنْ هُبّى وعن عينيك فامسحى الكَرى
قدْ طلع الصبحُ فقومى وانظُرى ما فعلَ المستيقظُون فى الوَرَى
قدْ ركبوا البخارَ والبرقَ إلى ما يَنْتَحُونَ ثم طارُوا فى الهوا
وأنتَ بعدَ الخيلِ والجمال والشراع قدْ صرتَ إلى مشى الحفا
تذكّرى فى أَىِّ أرَجٍ كنت مِلْـ ـعزٍّ وأنتِ الآن فى أَىِّ الهُوَى

(★1) استخذى وتذلّل . (★2) التخمة مِن فَرْطِ أكل الدّسم .

(★3) طعام من الدم والوبر كان يُتّخذُ فى المجاعة .

(★4) قلة المال وكثرة العيال . (★5) الذهاب بالمال . (★6) العَوَز وسوء العَيْش .

فتلكَ عُقبى طاعة البغاةِ فى ... معصيةِ اللّهِ وتقليدِ العَمَى

والجهلِ والإعراضِ عن هداية الـ ... ـقرآنِ والكُفرِ بنعمةِ الحجى

لا تيأسى لشدّةِ الضغطِ فقدْ ... يُحدِثُ الانفجارَ تجميعُ القوى

وإنما تلكَ قُواك جُهِلَتْ ... فَعُطِّلتْ دَهرًا فكانتْ كالهبا

وصاحَ بالملوكِ والسادةِ أَنْ ... حَسْبُكم مِن الشقاقِ ما مضَى

قدْ كادَ أنْ يُحاطَ يا قوم بكمْ ... ويُسرع الزَوالُ فيكم وَالفَنا

فبادِرُوا للاتّحادِ بينَكم ... ورأبِ شَعبِ الشعب مِن غيرِ وَنى

لا يرتقى الشعبُ بلا علمٍ وَلا ... حياة للعلوم إلاَّ باللُّغى

والشعبُ إما يجتمعْ وَيَتَّحِدْ ... يخلعْ مَن يظلِمُهُ خلعَ الحذا

أَليسَ باجتماع ذَرَّات الهبا ... كُوِّنتْ الأرضُ وكانت السَّما

أَأَنتم أَشدُّ خلقًا وبِنًى ... أَم السماءُ اللَّهُ سوَّى وبنَى

فقوَّةُ الشعبِ له ذَاتيةٌ ... وقوَّةُ الظالم منهُ تُقْتَنَى

فالجندُ مِن أبنائِه والمالُ مِن ... أَفرادِه : يعرقُهُم عرقَ المُدى

★ ★ ★

ذاكٌ جمالُ الدِين فَيلسوفُنا ... وتِلْكُمُ دَعوتُهُ التى دَعا

والنجْمُ يهتدِى به إذَا هَوَى ... ما ضلَّ فى دَعوتِهِ وما غَوَى

فإنْ يكنْ ذَكَّ للاستبدادِ فى ... فارِس طَوْدًا كان شامخَ الذُّرَى

فإنَّ رُكنَ الظلم فى التركِ أبى ... حكمتهُ وَسعيهُ الذى سعى

وَمن أبَى الكتابَ والميزانَ لاَ ... يقدعهُ إلاَّ الحدِيدُ يمُتهى(★)

أَوْ تُجعلُ النارُ لهُ قذَائفًا ... تُقوِّضُ الصرُوحَ من أعَلَى الذُّرى

أَنْفذُ أَهلِ عصرِهِ بصيرةً ... وَغيرُ أَهلِ عصرِه ممنْ مضَى

إلاَّ مَن اختارَ العليمُ واصطفَى ... فيما لهُ اختارَ الحكيم واصطفَى

يخترقُ الحجبَ شعاعُ رأيِهِ ... وَيشهدُ الغيوبَ كلَّما رَنا

(★) امتهى السكين رَقَّقها .

كأنّما الغيبُ لدَيْه حاضرٌ إذَا ارْتَأَى كان كأَنَّه رأَى

أَلَمْ يُنَبِئ بأهمِّ ما جرى فى فارسٍ ومصرَ قبلَ أنْ جرى

أَصدَقُ من زمانه عزيمةً وعزمُهُ أَمضى نصالاً وظُبى

إنْ فُلَّ صارمُ الزمانِ أَوْ خبا ما فُلَّ عَضْبُ عزمه ولا نَبَا

وإنْ خَبا زَندٌ له مقتدِحًا أَورَى زِنادُ رأَيِهِ ومَا خَبَا

وإنْ خوَتْ نجومُهُ فى نَوئها جاءَكَ نَوْءُهُ بِرىٍّ وحَيا

عنهُ سَلوا مصرَ وذلك الرَّجا تُنبِئْكُم الآثارُ ثَمَّ والصُّوى

بلْ ثم مَن ينبئكم بما رأى بعينِه وما رَوَاه فَوَعَى

إذْ جاءَها الحكيمُ وهى دَنَفٌ أعضلَ دَاؤُها وَأَعوَزَ الدَّوا

يُعَدُّ خيرَ مَن تولّى أَمرَها مَن أَصلَح التُرْبَةَ والماءَ الرَّوَى

وأَفسَدَ الأَنْفُسَ فهى عندَهُ بَهْمٌ تُساسُ بلْ تساقُ بالعصا

أَرْهقها مِنْ أَمرِها العسرَ بما أَفْسدَ مِنْ رُوح الإباءِ والتُّقى

قد أَبسَلَ الظُّلمُ والاستبدَادُ منْ ساكنِها كلَّ مَضِيم مُزدَرى

لا عالم الشَرْقِ بدينهِ ولا مقتبس العلمِ مِن الغربِ هَدى

فَذَا أَجيرٌ للأمير علمُه لهُ ومنهُ وإليهِ يبتغى

وَذَاكَ غافلٌ وَمغرُورٌ بما يَحذِقهُ مِن المِراءِ واللَّخى (★1)

فليسَ فيهمْ كاتبٌ مُؤَثِّرٌ يُدْنى يَراعهُ إليكَ ما نأَى

وَلاَ خطيبٌ فيهمُ مفوَّهٌ يَخْتَلِبُ القَلْبَ ويَبعث الأَسَى

ولا سياسيٌّ يُروِّضُ الصعبَ مِنْ مشاكلِ السَّأْوِ (★2) وَيأْسُو إنْ سأَى (★3)

ولا حكيمٌ يَحملَ الفرقانَ فى غياهبِ الخَطبِ إذا الخَطبُ غَسا

فَتلكُمْ مِصرٌ وذَاكم دَاؤُها إذْ جاءَها الآسِى فَطَبَّ وأَسَى

(★1) كثرةُ الكلام فى الباطل .

(★2) الوطن .

(★3) **سأى الثوب** : مدّه فانشقّ ، أو سأى هنا مقلوب (ساء) .

وأَشرَعَ الطريقَ للإصلاحِ مِن ... علم وحُكْمِ ولسانٍ وحجَا
بما أَفاضَ مِنْ هوامى حكمةٍ ... قدْ زَانَها فصلُ الخطابِ ونَثَا(★)
فى خُطَبٍ يُحيى القلوبَ صدْعُها ... وتكشفُ الخطبَ وتبعثُ الرَّجا
وَفى دُرُوسٍ كُتبٍ أحيا بها ... مِن دارِسِ العُلُومِ ما كان عَفَا
وَفى أماليٍّ بها أنشأَ مِنْ ... مَعَالِمِ الإنشاءِ ما كان امَّحى

إلى أنْ يقولَ :

ثمّتَ بالإصلاحِ قام بعدَه ... مريدُهُ الوَارِثُ كلَّ ما حوَى
مِنْ حكمةٍ تكشفُ أَحلاكَ الدُّجى ... وغَيرةٍ تأَكَّلَتْ فيها الجُذى
وهمةٍ إنْ جُرِّدَتْ لحادِثٍ ... تُبيح أَسرَارَ تصاريفِ القَضَا
إذ تحدَّت الحسامَ المُنتضَى ... أعْيا مَضاؤُها الحسامَ المُنتَضى
وَصَدْقِ إخلاصٍ غدَا يفيضُ مِن ... جوانبِ القلبِ فيملأُ الحَشَا
مَنْ كان منهُ المقولُ الذى حكى ... والقلمُ الذى بِعلْمهِ جَرَى
تآزَرَا ليُنقذَا الأمة مِن ... فِرْعَونِها الذِى استبدّ وعَلا
تَآخَيا لِيُنْقِذَا الإسلامَ مِن ... دجَّالِهِ الذِى بِبدْعهِ غلا
قدْ وَرِثا موسى وهارُونَ بما ... تآخَيا والمُصطفى والمُرتَضى
واعتصما (بالعرْوةِ الوثقى) فذَا ... حَرَّرَ ما أملاهُ ذاكَ أو هَدَى
وَهَلْ يُتيحُ اللّهُ مثلَ (عبدِهِ) ... (محمدٍ) لها إمامًا مُقْتَدَى
واقتسما الإصلاحَ شطرَين فَذَا ... آثرَ إصلاحَ العلوم والحصا(★★)
وَذَاكَ للسياسة التى قَضَى ... بها وَاما وَطَرًا فما قَضى
كادَتْ وما كادَ لها السيّد بل ... أعرَضَ عَنْ مكرِ الجهولِ ونأَى
لاَ تَستجيبُ الحيّةُ الرقَطاءُ للـ ... ـحكمةِ لكنْ لأَخادِيعِ الرُّقى

(★) نثا الخبر حَدَّث به وأشاعه .
(★★) جمع الحصاة : العقل .

وليتها ودَّعت الشيخَ كما وَدَّعها إذْ عاذَ منها وَقَلا
ثُمَّتَ وَلَّى المُصلِحونَ شطرَهُ يَنجو به منْ كلّ فجٍّ وَرَجَا
مَا وَرَدُوا حياضَه وَصدرُوا إلاَّ يُفيضونَ عُلومًا وهُدَى
فأحيَوْا الإسلامَ فى النفس ومن واصَلهم بهجرِهِ صرْف الردَى
فعادَ آهِلاً إلى موْطِنهِ مِنْ غرْبةٍ طالَ بها عهدُ النَّوى
واستتَبعتْ غُرْبتُه المجدَ كما كانَ فعادَ الأمرُ مثلَما بدَا
ما تمَّ للإمامِ ما أرادَ مِنْ خُطَّتَىْ الإصلاحِ هدْمًا وَبِنا
ولَمْ يَفُتْهُ كلُّ ما شاءَ فقدْ خرّج مَنْ يُتمُّ كلَّ ما بَنَى
إذ استجابَ اللَّه ما بهِ دَعَا وَزَال ما حاذَرَهُ بما رَجَا
وعَلَّمَ الأَزْهرَ كيفَ يَفْقَهُ الدّينَ ويطلبُ العلُومَ واللُّغى
مِن غيرِ بحثٍ فى مَقالِ مَنْ خَلَوْا يَكثُرُ فيها الاحتمالُ والمِرا
عَلَّمهُ التوحيدَ كى يَفْقَهَهُ بعقلِهِ لا بعقولِ مَن مَضَى
علَّمهُ التفسير كيما يَهتدى بِهِ عَلى علمٍ صحيحٍ يُقْتَفى
وَعلَّمَ (أَسرارِ البلاغَةِ) التى (دلائلُ الإعجاز) منها تُبْتَغى
عَلَّمَهُ (بصائرَ المنطقِ) كى يُقيمَ ميزانَ العلوم للحِجَى
وَهلْ وَرَاءَ الدِّينِ واللِّسانِ والعقلِ إذا أَصلَحْتَهنَّ مُنْتَهى
فإنْ يَكُ الأَزهرُ لم يَصْلُحْ بها فقد نَأى عن سُبُل مَن كان مأى(★)
وَنَبَتَتْ مِن غَرْسِهِ نابتَةٌ ستلأم الصَّدْعَ وترأَبُ الثأَى
وترْفَعُ الحَجْرَ عَن المعهدِ أَو يَعودُ جُحْرِ الضَّبِّ رَحْبًا كالفَضا
حتَّى ينالَ - وهو قد أَشفى - الشِّفا مِن مرضٍ باتَ به عَلَى شَفَا
لا تُعْجِبَنَّكَ كَثْرَةٌ جاهلَةٌ فرُبما كان حصاها كالحَصَى
كَمْ فئةٍ قليلةٍ قد غَلَبَتْ كَثيرةً بالاتحادِ والنُّهى

(★) **مأى فى الأمر** : بالغ وتعمق .

وإنَّمـا الـعِـزَّةُ لـلـكـاثـرِ إنْ تَـوَحَّـدَ الكثيرُ قصـدًا واتَّقـى

وليس تَقْوَى اللَّه أنْ تَتَركَ ما تَعْجَزُ عَنه من فُجورٍ وخنا

وإنما التَّقْوى اجتنابُ كلِّ ما يُردِي وأخذُ ما استطَعْتَ مِن قُوى

والـمـالُ عُـدَّةٌ لـكـلِّ قـوَّةٍ تُنْقَضُ أَنَكاثًا بفقدِك القُوى

فَاكْتَسِبِ المالَ وَكنْ ربًّا له وَلا تكنْ عبدًا وإنْ قيلَ فتَى

مُعَبِّدُ المالِ كريمٌ يُرتَجى وعابدُ المالِ لئيمٌ يُجتَوى

فانْشُرْ به العلمَ المفيدَ للوَرَى وَاجْعَلْهُ للأمَّةِ ذُخرًا يُجْتَدى

فثَمَّ سوقٌ للفعالِ والنَّدى فيها الثناءُ والثَّوَابِ يُقْتَنَى

كَرائمٌ ما صدَّ عَن وِصالها زُهْدٌ وَلا تَوَكُّلٌ ولا تُقَى

فالكسبُ والإنفاقُ للدِّين وللزُّهدِ والاتكالُ للقلبِ حُلى

والزُّهدُ أنْ لا تعبُدَ المالَ وأنْ تُنْفِقَ مما نِلتَ فى نفعِ الوَرَى

كمْ مُملقٍ وَهوَ حريصٌ طامعٌ وَرُبَّ زهدٍ كانَ عنْ ظهرِ غنَى

وكمْ فقيرٍ تائبٍ أَوْ مهتدٍ عَلَى يدِ الإفلاسِ تابَ واهتدَى

وَهْوَ إذا أصابَ فضلَ ثروْةٍ سارَعَ فى الإثم وضلَّ وَغَوَى

وَرُبَّ ذى وَفْرٍ تراهُ تائبًا مُرْتَدِيًا برْدَىْ عفافٍ وَهُدَى

قدْ جَمعَ اللَّهُ الشتيتين لهُ صَلابَةَ الدِّينِ ونعْمةَ الغِنى

وهوَ إذَا شاءَ بفضلِ مالِه أزَلَّ رَباتِ الخدُورِ واصطْبى

والاتِّكَالُ أنْ تَرَى مِنْ خللِ الْـ أسْبَابِ مَنْ قدَّرَها ثم هَدَى

فإنْ تُقطَّعْ دونَ أمرٍ لا تَرَى سواهُ مَنْ يُدْعى لهُ ويُرتَجى

ولا تَرَى الأوهامَ أَسبابًا كمنْ يَلجأُ للطَّلْسمِ منها والرُّقى

وَمَنْ يجئْ للقبرِ أوْ يستنبئ الطيْرَ وخطَّ الرَّملِ أَوْ ضَرْبَ الحصى

فالنَّاقةَ اعْقِلْ وتَوَكَّلْ واستشرْ فإنْ عَزَمْتَ أَمضِ مِن غَيْر ونى

فإنْ توَكَّلتَ بلا عَقْلٍ وَلا عَزْمٍ فقدْ ضَللتَ هَدىَ المُصْطَفى

★ ★ ★

مناجاةُ أَخٍ لأَخيه
أَو السَّيدُ رشيدُ رضا فى مَفاضِلِهِ

لا يختلفُ اثنانِ فى أَنَّ السيد رشيد رضا هو من أعاظم رجال الإسلام فى كلِّ دَوْر سواء نسب إلى عصره أو إلى الأعصر التى تقدّمته ، وَإِنَّ الآثار التى تركها[1] ستجعلُه حيًّا فى نفوس الأنسال[2] القادمة ، حجة عند مسلمى الأدوار المستقبلة لا يزيده تعاقبُ المَلَوَين[3] إلا شهرةً ومكانةً وجلالةَ قَدْرٍ . وإنَّه سيأتى وقت يبحث الناسُ فيه عن الشاردة والفاردة[4] من كلماته ، ويدقق أهل العلم فى الحرف والحركة من أقواله . ولقد عَهْدنا كثيرًا من الأعاظم شرقًا وغربًا تكون لهم الكتاباتُ الكثيرة الأثيرة عند أصحابهم والدُّرَرُ النفائس فى خزائن مَن لهم صلة بهم ، فما داموا فى الحياة لا يُباليها الناسُ ولا يَحْرِصُون عليها مِعْشَارَ ما يحرِصون عليها بعد انصراف هؤلاء الأعلام من هذه الدنيا ، وبعد ازدياد الولوع بآثارهم بعدَهم لأَنَّ العادة هى أنْ تزدادَ آثارُهم قيمةً ونفاسةً كلَّما مرَّ الزمنُ عليها .

وأيُّ فتى لا يرغبُ اليومَ فى أنْ تكونَ عنده مكتوبات من السيد جمال الدين الأفغانىّ أو من الشيخ محمد عبده – مثلاً – ولو بذل فى اقتنائها ذهبًا مع أنه لم يمضِ على وفاة الأول أكثرُ من أربعين سنةً وعلى وفاة الثانى أكثرُ من اثنتين وثلاثين سنة . ولقد حرص السيد رشيد على جمع الكتب الخصوصيّة التى بقيت من آثار الأستاذ الإمام ، فبعثتُ إليه من الجُملة[5] ببضعة عشر كتابًا صادرة منه إلىَّ وذلك لينشرها فى الجزء الرابع الذى كان ينوى إخراجه فى تاريخ الأستاذ الإمام . ولو كان غير السيد رشيد هو الذى اقترح إرسالها ما سمحت له منها بسطر واحد من شِدَّة ضَنِّى[6] بها .

---

(1) **انظر** : إحصاء أعماله (ص : 12) .

(2) **النَّسل** : الولد والذرية ، والجمع : أَنْسَال .

(3) **المَلَوَان** : الليل والنهار ، **وأحدهما** : مَلًا ، **يقول ابن مقبل** :

ألا يا ديار الحيّ بالسَّبُعان أملَّ عليها بالبلى المَلَوَانِ

(4) **المتنحية** ، ويقصد أن الباحثين سيعكفون على أعماله بحثًا ودراسة وتأمُّلاً .

(5) المجموع . (6) حرصى عليها .

ولقد وقعت بينى وبين السيد المترجم مراسلات فى أيام الشباب تبعثرت فيما تبعثر من أوراقى بسبب كثرة أسفارى ، وإنما حفِظت من مراسلاته ما كتبه إلىَّ بعد أنْ أقمت فى أوروبا ، وكانت مدَّةُ هذه المراسلة من سنة 1921م التى اجتمعنا فيها بالمؤتمر السورىّ الفلسطينىّ فى جنيف إلى سنة 1935م التى لقى فيها رَّبه . فحفِظتها كلَّها فى ظرف خاص كما هى عادتى فى حفظ أكثر ما يرد علىَّ من الرسائل التى لها قيمة . ولما عزَمت نشرَ هذا الكتابِ أَحصيت مكتوبات السيد رشيد إلىَّ فزادت على مائتى مكتوب كلُّها بخط يده رحمه الله . وقلَّ أنْ وُجد فيها مكتوب ذو صفحة واحدة ، بل أكثرُها ذو صفحتين وثلاث ، ومنها ما يتجاوز عشر صفحات .

وهذه المكتوبات الرشيدية هى بحسَب نظرى أحسنُ ما كتب السيد رشيد فى حياته ، وإنْ كان كلام السيد كالغيث لا يُدْرى أَأَولُه خير أم آخِره .

إنَّ مَزِيَّةَ هذه المكتوبات هى أنَّها نَجِىُّ أَخٍ مع أَخيه الذى يثق به ثقتَه بنفسه ، فلا يجمجم[1] عنه شيئًا مما فى ذات صدره ولا يكتم شيئًا من عُجَرِهِ وَبُجَرِهِ[2] . بل ترى السيد رشيدًا فيها متبذِّلاً تبذُّل[3] من يقول ولا يخشى انتقادًا لا فى المعنى ولا فى المبنى ، فلهذا ترى فيها نفسَه كما هى صافية بلا رسوم ولا تكاليف ولا تحوطات كالتى اعتاد الناسُ أن يستعملوها فى كتاباتهم إلى مَن لا يركنون إليهم . وهكذا ظهرت لمن يقرأ هذه النجاوى[4] نفاسةُ تلك النفس العالية التى تساوَى فيها السرُّ والعلانيةُ فى الاستقامة والصدق والورع والطُّهر وكرم الأخلاق وحفظ الذِّمام[5] والمروءة وعلوّ الهمة . فالشيخ رشيد مع أقرب الناس إليه وأخلصِهم له ، وعندما يكون غيرَ منتظر نشر شىء من كلامه الخصوصى ، هذا هو الشيخ رشيد بعينه فى المنار وفى مقالاته إلى الجرائد وفى خطبه على الجماهير لا يختلف باطنه عن ظاهره فى شىء ، وإن كان

---

(1) **جمجم الشىء فى صدره** : أخفاه ولم يُبْده .

(2) **يقال** : أفضيت إليه بُعجرى وبُجرى أى أطلعته على معايبى وأمرى كله لثقتى به .

(3) أى تاركًا التحرز والتجمل .

(4) جمع (النجوى) **أى** : الإسرار بالحديث .

(5) العهد ، **وجمعُها** : أَذِمَّة .

ثمة اختلاف ، فيكون فى الأسلوب الذى من البديهى أنْ يكون فى المراسلات الإخوانية غيرَه فى الرسائل العمومية .

وكما كانت أخلاق الشيخ رشيد العالية هى هى فى النجوى كما فى العلن كانت بلاغته وقوته البيانية هى هى أيضًا فيهما ، فلا تجد إنشاءه فى هذه الكتب الخاصة ينزل درجةً واحدة عن إنشائه فى المنار وفى كتبه العامة لأنَّ ملكة الفصاحة لا تُفارقُ قلمَه فى عامّ ولا خاصّ ، ولا بدَّ للبحر أنْ يقذفَ الدرّ كيفما تحرّك . بل بروز السيد رشيد فى مفاضله بلا تكلفٍ ولا توقّعِ نشر جعل كلامه أوقعَ فى النفس وأبعدَ مدى فى التأثير ؛ ولذلك قلت إن هذه الرسائل الخاصة هى من أعلى ما جرى به قلم السيد رشيد فى حياته كما يتضح لكلّ ذى بصر بصناعة الكتابة .

ومن مزايا هذه المراسلات أنَّها اشتملت على آراء السيد فى جميع حوادث العالم الإسلامى والمسائل والنوازل التى أهمّت المسلمين فى هذه الحقبة الأخيرة الممتدة من نهاية الحرب العامة إلى يوم وفاة السيد . فما من خَطْبٍ ولا يابسٍ ولا رَطْبٍ[1] إلا فى هذه المكتوبات إشارة إليه وبيان رأى المترجم فيه .

وفى هذه المراسلات مباحثُ شرعية ، ولغوية واجتماعية وتاريخية وسياسية ومطارحات ومناقشات من كلّ نوع ومن كلّ لون ، وأَخْذ وَرَدٌّ معى فى كثير من الشئون التى تباينت فيها وجهة نظرى عن وجهة نظره . وهو فيها كلِّها لا يدّعى لنفسه العصمة ، ولا يستنكف أن يعترفَ بالحق إذا حصحص ، وإن كان – وهو مخطىء أو مصيب وغالب أو مغلوب – هو فى جلال قدره وفى رُوح الأستاذية التى كأنها وُلدت معه .

كنتُ فكّرت أنْ أنشر هذه المكتوبات بالزنكوغرافيا حتى لا يستطيع أحد أن يتمارى فى صحتها ولكن عاقنى عن ذلك عدة موانع :

أولًا : أن الأستاذ مع حسن خطه اضطر فى كثير منها إلى العجلة بما كان عنده من الأشغال التى لا تحصى فلم يجىء خطه الذى استعجل فيه كسائره ، وقد يتعذّر أحيانًا قراءة هذا القسم بسهولة .

---

(1) يقصد أنها تشمل أمورًا كثيرة ، إن لم تكن تصريحًا فتلميحًا .

ثانيًا : أن الأستاذ فى مناجاته هذه لأخيه هذا وَبثِّهِ إليه قُرارَةَ[1] نفسه قد يسبق قلمُه إلى كلمة ربما لم يكن يُقْدِمُ عليها لو علم أنها ستنشر فى يوم من الأيام ، أو إلى جملة كان يُفَضِّلُ أنْ يطويَها لو توقّع أنْ مَنْ تعلّقت بهم سيطلعون عليها . فَنَشْرُ كتابات كهذه بالزنكوغرافيا لا يكون موافقًا فى حال اضطرارنا إلى طىِّ كثير من هذه الجمل ورفع كثير من هذه الكلمات التى برزت بسائق التبذّل[2] .

ثالثًا : عدا أنّ الأستاذ لم يكن يظنُّ أنْ مكتوباته هذه ستنشر على الملأ كما قلنا ، وعدا أنَّها مُرْسَلَة من رُوحه إلى رُوحى رأسًا على أنْ لا تتجاوز هاتين الرُّوحين لا تخلو مِن التصريح بأسماء وبأفعال وبحقائق لو علم أنْ المكاتيب ستطبع ويطلع القُرّاء عليها لأشار حتمًا بطيّها على غرّها[3] ، وربما لم يكن تعرَّضَ إلى الموضوع من أَصله . فلذلك لا نَعُدُّ مُخلاً بأمانة النقل حذفَ هذه الأسماء التى إثباتُها قد يؤدى إلى مراء أو عتاب ، والاعتياض منها - فى بعض المواضع التى لا مندوحة عن ذكرها - بوضع نقطة أو بلفظة « فلان » أو بتلميح يغنى عن التصريح . فمن أجل هذا لم يكن ممكنًا نشرُ هذه الرسائل بالزنكوغرافيا ، وكان طبعها بالحروف المنضّدة هو الأولى . على أنَّ الأصولَ باقية ، كُلُّها عندنا بعينها ، حتى إذا حاول محاولٌ أنْ يتمارى[4] فى شىء منها أبرزنا له الأصلَ .

رابعًا : إنّ نشرَ بعض المباحث السياسية والأسرار المتعلِّقة بمسائل لا تزال معلَّقةً قد يكون له محاذيرُ لا تخفى على العاقل ، وربما أضرَّ نشرُها أضعافَ ما نفعَ ، فكان لا مَناصَ من طىّ هذا القسم أيضًا .

والخلاصة : إننا تجرأنا على السيد الإمام بطىّ كثير من كلامه إما لمحذور سياسىّ وإما لمحذور اجتماعىّ أو لاجتناب مِراء أو لتفادى عتاب ، ومنه ما ضربنا عنه صفحًا لعدمِ فائدة نشره . ولكنّنا لم نجرؤ أَنْ نزيد حرفًا واحدًا من عندنا على كلامه ولو كان

(1) **قرارة** : ما استقرّ فيها .
(2) **أى** : بسبب عدم التحرز ؛ لأنه يناجى صديقًا حميمًا ، ونجيًا مخلصًا .
(3) على حالتها وغفلتها .
(4) **تمارى فى الشىء** : شكّ فيه .

فى معناه ، إذ إن ذاك يكون مخالفًا لأمانة النقل وتبديلاً ليس لنا فيه أدنى حقّ ، ويكون مما ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ [البقرة : 181] . والله تعالى يتولاّنا بعفوه ، ويهدينا طريقَ الصواب بكرمه .



فمن هذه الكتب كتاب مؤرَّخ فى 25 جمادى الأولى سنة 1340 وَفْقَ 20 يناير سنة 1922 يُخبرنى فيه بوصول مذكراتى عما جرى فى سورية أيامَ الحرب ، وهى التى اقترح هو نشرَها فى المنار نفيًا لما كان الحُسَّاد يُذيعونه بحقّى من أنّى وافقتُ جمال باشا على أعماله فى سورية . وها نحن أولاء ننشر الكتاب بنصّه ولا نحذف منه إلا ما تعلّق بالشئون الخاصة ، وما ليس فى نشره فائدة للقرّاء ، وإليك الكتابَ :

سيدى الأخُ الكريمُ والولىُّ الحميمُ :

اليومَ وصلَ كتابُك المؤرَّخُ فى 4 يناير ومعه آخِر رسالة من ذكريات الحرب ، ووصل منذ أيام قليلة « أسبوع » ما أُرسلَ قبلَه ، وأما الكتابُ الأول المؤرَّخ فى 9 ديسمبر فقد وصل هو والبطاقة التى أُرسلت بعده مؤرَّخة فى 13 ديسمبر والبطاقة التى أُرسلت بعدَها غيرَ مؤرَّخة فى يوم واحد مع كل رسالة من الموضوع أو طائفة من الرسالة ، وما أظنّ أنّ عِلَّة التأخير محصورة فى البريد المصرى . وقد تلا وصولَ الثلاثِ ، بل وافقَها ، ما كان هنا من الاضطراب السياسىّ وانقطاع المواصلات بينى وبين البلد لاختلال الأمن فى الطرق والشوارع وامتناع الترام من السير فى جميع الخطوط لئلا يكونَ سببًا لتسهيل المظاهرات ، وكان هذا دأبَ القوم عند كل مظاهرة منذُ العام الماضى بإيعاز خفىّ . وفى هذه المرّة كان امتناعُه (يعنى الترام) بأمر صريح من السلطة العسكرية ، ولعلَّهم يُعوِّضونه عما خسِره من مال مصر ؛ إذ صرَّحوا بأنَّ جميع النفقات العسكرية وغيرها تكون من مال مصر .

أَخَّرتُ الكتاب إليك أولاً انتظارًا لفرصة أَقرأُ فيها الرسالة الطويلة وأذكر لك رأيى

فيها . ولما جاء الكتابُ الثانى كنتُ قد أشرفت[1] على إتمامها مع اختصار قليل فيها لا يُنقص من المعانى شيئًا ، وأكتفى الآن بأنْ أقول : إنْ الرسالة على طولها قد كُتِبَتْ بأُسلُوب الإطناب حتى إنَّه قلّما يوضع فيها ضمير موضِعَ مُظهر . وفيها تكرار للجزئيات وللردّ على الخصوم وما يتعلق به كذكر حياة كلّ شخص من الأشخاص الذين يُستشهد بهم ، وهذا النوع من الدفاع أو الجدل يُذَكِّرُ خالىَ الذهن بأنَّ الكلامَ عُرضة للارتيابِ[2] ، ويكفى الإشارة إلى ذلك مرّة واحدة تُذَكِّر المكابِرَ بأنَّه لا يستطيع أنْ يُمارى فى هذه الوقائع مِراءَ ظاهرًا ، فاختصارى القليل للرسالة خاصّ بما ذكرتُ فى هذه الأسطر . انتهى[★] .

هذا ، ولما زارنى فى ألمانية كما تقدّم الكلامُ عليه ، وأقام عندى أيامًا فى (برلين) ثم أراد السفر عائدًا إلى مصرَ جئتُ معه إلى ميونيخ . وكان رحمه الله قد اشترى ألبسة كثيرة من برلين وميونيخ ؛ لأن الأسعار كانت وقتئذ فى غاية الرُّخص ، فقال لى إنه اشترى ببضعة عشر جنيها ما لو اشتراه فى مصر لكلّفه دفع خمسين جنيهًا بالأقل ، ولكنّ إخراج الألبسة والأمتعة إلى الخارج عن ألمانية محظور جدًّا ، فكنتُ أخشى أن الألمان عند الحدود يبحثون فى حقائب الأستاذ ويتركون له الضرورىّ من الثياب ، ويَرُدُّون الباقى إلى ألمانية . وفارقنا من ميونيخ ونحن فى شُغُلِ بالٍ عليه ، فلما وصل إلى تريسته كتب إلىَّ بما يأتى :

من تريسته - 21 أكتوبر سنة 1921م :

صديقى الوفىّ وأميرى الحفىّ :

أحمدُ إليك اللّه عزَّ وَجَلَّ ، وأُبشرك بأنه حاطنى بعنايته وحفنى بلطفه فى حال انفرادى دون الإخوان والأعوان وانقطاعى بالسفر فى ممالك أَجهل لها كلَّ لسان

---

(1) قاربت الانتهاء منها . (2) الشّك .

(★) **أقول** : قد يكون الأستاذ على حقّ فيما يقول من جهة التّكرار وكثرة الاستشهاد ، ولكنَّ الذى بَلَوْناه (جربناه وعرفناه) من مكابرات الأعداء فى هذه المسألة دعانا إلى ذِكر كلّ حادثة بشواهدها ، وأحيانًا كنّا نَشْفَعُ (أى نضيف إليها) الشهادة بترجمة صاحبها حتى لا يَبقى مجال للمكابرة .

لتوكلى عليه وحده وتجريدى التوحيد له ، وقد كان أمرُ النظر فى ما أحمل من المتاع فى آخرِ الحدود الجرمانية أهونَ الأمور . سُئلت عما فى صناديقى ففهِمتُ بالقرينة ، فأشرتُ إلى الصندوق والسَّفطِ[1] اللذين وضعتُ فيهما الثياب ، واستطعت أنْ أُفهمهم أنَّ ما فيها للعيال وهو جديد ، وفتحتهما ، فأخذوا منى 24 ماركًا فقط ، وأَفهمتُهم أنَّ ما فى سائر الصناديق خاص بى فلم يطلبوا فتح شيء منها لأنهم علموا أننى صادق .

وبعدَ حمد اللَّه تعالى عودًا على بدء أَحمدُ لك أيها الصديقُ عنايتَك بأخيك ، وما أُرهقتَ مِنْ العسر وتكلفت من ترك العادة فى سبيله ، وما أَلقيتَ على أصدقائك من أثقاله ، على أَنّنى أرجو أنْ يكونَ لك فى ذلك فائدة أو فوائد ، وليس لى فيها فضل ، وإِنّى ما كلفتك تركَ نوم الضحى وغِشْيَانَ[2] الأسواق لأجل أنْ تستفيدَ اختبارًا يُعقب اقتصادًا بل لأستفيدَ من معرفتك للبلاد ولغتِها ما لا بدَّ لى منه ، كما أستفيد من خبرك وأدبك ما لا غنى لى عنه ، ولولاكَ لما دخلت بلاد الجرمان ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان . أنَّى؟! وإِنَّ من ذيوله المادية مسألةَ الآلة الثلجية وآلة الطباعة ومعصرة الزيت ، ومن ذيوله الأدبية المبادرة إلى ترجمة احتلال أجدادنا العرب لسويسرة وإرسالها ، وغير ذلك مما لا يتّسع هذا الوقت الضيق لشرحه ، فإنّ الباخرة تسافرُ بعد الظهر بساعة واحدة ولا بدّ لى من جولة فى البلد ، فأرجو أنْ تُبلِّغَ جميعَ الإخوان تحيتى وشكرى ، والسلام عليكم وعليهم أجمعين .

أخوك رشيد

حاشية غير أزهرية - أخصُّ الدكتور صاحب الأيادى البيضاء بالشكر والثناء . اهـ .

قلت : وهنا لا بدَّ لى من تفسير بعض ما ورد فى هذه الرسالة ، فإن السيد أوصى فى برلين على آلة للطباعة ومعصرة للزيت ليرسلها إلى بلده القلمون حيث أكثر ملكه من شجر الزيتون ، وكذلك أوصى على آلة لصنع الجَمْد[3] ، وقد كان رحمه الله

(1) **السَّفَطُ** : وعاء من الخشب توضع فيه الأشياء كالثياب وغيرها .
(2) **غَشِيَ المكان غِشيانًا** : أتاه .
(3) **الجَمْدُ** : ما جَمد من الماء فصار ثلجًا .

مُغْرمًا بالماء البارد يشربه فى ساعة معلومة بعد الظهر كما يشرب الناس الشاى ، وتجد إبريق الزجاج أمامه مملوءًا بقطع الجمد ، وله فى ذلك لطائف يعرفها إخوانه ، ولما حجّ البيت الحرام لأول استيلاء جلالة ابن السعود على الحجاز كان الملك يرسل إليه يوميًّا بمقدار كبير من الجمد . وكنا نداعبه فى هذا الأمر حتى أنى قلت فى جريدة الشورى : إننى سأضع رسالة اسمها « قطف العُسْلوج[1] فى وصف الماء المثلوج بجوار البيت المحجوج » وأهدى هذه الرسالة للسيد رشيد رضا .

وأما قضيةُ ترجمة احتلال العرب لسويسرة فقد كان هذا العاجزُ[2] أوّلَ من نشر هذا التاريخ بين العرب ، أَخذتُه عن تواريخ الفرنسيس والألمان والطَّلْيان ، ولم يكن العرب يعرفون من هذا التاريخ شيئًا حتى إنّ السيد رشيدًا بعدَ أَنْ حدَّثتُه به روى ذلك للأستاذ المرحوم أحمد زكى باشا ، فوجده مع علمه وسعة اطلاعه لا يعرف عنه شيئًا ، وقد اقترح علىَّ الأستاذ أنْ أنشرَ فى المنار خلاصة لهذا التاريخ ففعلتُ ، ثم من أربع سنوات نشرتُ كتابًا وافيًا بهذا الموضوع باسم « غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط » .

أَما الإخوان الذين أرسل إليهم السيد بالسلام فهم الذين احتفَوا به يوم كان عندى فى برلين ، وكنتُ أصلحت بينه وبين الأستاذ المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، وذلك فى النادى الشرقى الذى كنتُ أنا رئيسَه ، وكانت بينهما وحشة قديمة ومناظرات شديدة فى الجرائد ، وكان صديقنا البارون ماكس أوبنهايم الألمانى الذى اشتهر بمحبة المسلمين والشرقيين قد عرَف بوجود الأستاذ عندى فدعانا معًا إلى الطعام ، وبالغ فى الحفاوة بالسيد الأستاذ ، وكذلك صديقنا الدكتور ميخائيل بيضا الذى أشار الأستاذ إليه بقوله صاحب الأيادى البيضاء ، وقد كنتُ أَخبرتُه بأنه لا يَقْدُمُ إلى برلين قادم من أبناء العرب الكرام إلا كان مَحلَّ عناية الدكتور بيضا .

★ ★ ★

(1) **العسلوج** : ما لان واخضرَّ من قضبان الشجر والكرم أَوّلَ ما ينبت .
(2) أى الكاتب **الأمير شكيب أرسلان** .

وكتب إلىَّ الكتاب الآتى :

من القاهرة 13 جمادى الآخرة سنة 1341 و30 يناير سنة 1923 أَخى الكاملُ وأميرى النَّدْبُ[1] الحُلاحِلُ[2] .

تواصيتُ أَنا ونجيب بك (يريد نجيب بك شقير) البارحة بأنْ يكتبَ كلٌّ منا إليك كتابًا فى الحالة الحاضرة ، وقد كتب كلٌّ منا من أيام قليلة ، ولكنَّ تطوُّرَ هذه الأيام سريع ، والبرقياتُ تنذرنا فيها بقرب أجل مؤتمر لَوزان (وكل يوم هو فى شأن) ولكنْ مما يقضى بمتابعة الكتابة والأقرب إلى معقولنا أَنَّ خيبة المؤتمر واشتداد شنآن الأتراك لخصومهم الذين هم خصومنا مِن أَرجَى ما يُقرِّبهم منا ؛ إذ لا يُعقل أنْ يدَعُوا بلادنا المجاورة لهم سلاحًا فى أيدى أعدائهم يقاتلونهم به ، وهم قادرون على عكس ذلك إذا أنصفونا من أنفسهم ببناء التعاون بيننا على اعترافهم باستقلالنا كاستقلالهم ، ومن العجب أنْ يَطْمعوا بالاتصال باليمن والحجاز ومَنْ دونَهما بينما سوريا والعراق تحتلهما الدولتان الظافرتان ، فأما إذا صالحوهما ورجَّحوهما علينا فقد يقال إنّ عذرَهم الحاجةُ أو الاضطرار إلى الاستراحة من القتال والانصراف إلى تعمير بلادهم ، ويقبل منهم قولهم إنهم لا يُكَلَّفون أَنْ يُحاربوا الدولتين لأجلنا . وماذا عسى أنّ يُقال إذا خاب أملُهم فى الصلح على قاعدة ميثاقهم ، ولم يجدوا إلا سِلْمًا مُخزيًا ، واغتنام فرصة لتحريرهم وتحريرنا من الخزى والاستعباد قلّما يجود بمثلها الزمان . فهل يَليق بهم أَو يكونُ مِن مصلحتهم ترجيحُ خُنزوانة[3] المسرفين من ملاحدتهم على توثيق روابط الإخاء الدينى بيننا وبينهم . إنى لأرجو أن يكونَ لأهل الدين ولأهل الروية والعقل القول الراجح فى هذه المسألة ، ولا أقيسها على مسألة الخلافة ، على أنَّهم قد علموا - أو كادوا يعلمون - خَطَلَ[4] الغُلاةَ فيها .

إنّنى لا أكتُم عنك أنّنى ما زلت أرجّح الترك على الإفرنج كافة وإنْ ظلمونا

(1) **الندب** : السريع الخفيف عند الحاجة .

(2) **الحلاحل** : السيد فى عشيرته ، والشجاع .

(3) **الخُنزوانة** : (بضم الخاء) : الكبر ، وبفتحها القرد أو ذكر الخنزير .

(4) خُمْق .

واحتقرونا ، وَبَغَوا علينا وأعرضوا عنا ، وأسمعونا أذىً كثيرًا ولم يَعْذروا مَنْ تعلموا منهم التعصب القوميّ (أى العرب الذين تعلموا التعصب القومى من الترك) إذا قابلوا الشنآن بمثله بل بما دونه ، بعد أن ذاقوا منه الرجز الأليم ، والبادئ أظلم، بل أُرجّح ملاحدتهم الذين يناهضون لغتنا وديننا ويحتقرون سلفنا الصالح الذى نُفاخر به جميعَ الأمم فى صالحيها - أُرجّح أنْ يعودَ التركُ سائدين حاكمين لبلادنا على بقاء الإفرنج فيها بأى اسم من الأسماء أو صفة من الصفات ، ولكنّنى لا أَجد فى قومى مَنْ يوافقوننى على هذا ، ويقبلون منى أنه أهونُ الشرين ، وأنّ السلامة من أشدّ ما يتوقّعون من شره أهون من السلامة من شر الإفرنج - لهذا كله أتمنّى أنْ نجد عند عقلاء الترك إنصافًا نبنى عليه اتفاقًا ثابتًا لا يستطيع أعداؤنا نقضه . والعدلُ والمساواةُ مِلاك النظام وقِوام العالم ، وليس فوقَهما شيء إلا الأخوة والمحبة ، ودواعى الأمرين بيننا قوية . وإننى أعتقدُ منذُ عَقَلْتُ أَنْ دسائسَ المجوس هى التى فرَّقت كلمة سلفنا ودسائسَ الإفرنج هى التى فرقت كلمة مسلمى عصرنا ، وأنه ليس بيننا أسباب صحيحة تقتضى تعادينا أو تَحُولُ دون اتحادنا على إحداث أعظم انقلاب اجتماعى فى الأرض فى هذه الفرصة التى زُلزلت فيها أركانُ المدنية الفاسدة حتى صار يُخشى عليها من البلشفية[1] التى لا تزيدها إلا فسادًا .

لو عَرَف هذا الرجلُ العالى الهمة مصطفى كمال من الإسلام ما أعلمُ لأمكنه أنْ يكونَ رجلَ العالم لا رجلَ الترك فقط . فالإسلام لا يحتاج إلا إلى رجل عالى الهمة بيده شيء من القوة يعلم ما فيه من علاج فساد البشر وينهض لمعالجتهم به . وقد علم بعض هذا نابليون الشهير ، وحاول أنْ يقومَ به على ضَعْفِ علمه وانحصاره فى بعض خواصّه ، ولو أحاط به علمًا لأشربه قلبُه إيمانًا ولما استطاع أحد أنْ يقفَ فى طريقه .

(**قلت** : الحقيقة أنَّ نابليون عندما كان فى مصر انشرح صدره للإسلام وهمَّ

(1) مذهب شيوعى يرى أن من المستحيل أن تنتقل الهيئة الاجتماعية طفرة من النظام الرأسمالى إلى النظام الشيوعى دون المرور بطور يطبق فيه مذهب الجماعية ، وواضع هذا المذهب هو لينين . (معجم الماركسية النقدى : ص 280) .

بإعلانه ، وكان مُعْجَبًا بالنبى ﷺ وبعمر رضي الله عنه وبسائر رجالات العرب الذين نشروا هذا الدين فى الأرض وفتحوا الفتوحات . ولنابليون كتابات أشرنا إليها فى مجلتنا « لانسيون آراب » وترجمناها إلى بعض الصحف العربية تدل على ما كان فى نفسه من هذا الأمر ، وقد نقلناه عن المؤرِّخ « لا كاز » الذى رافقه إلى جزيرة سانت هيلانة كيف سأله : أصحيح أنّك كنتَ فى مصر عَزَمْتَ على التدين بالإسلام ؟ فأجابه : قد كان عندى هذا الفكرُ ، ولكنّى ما كنتُ لأجريه بالفعل حتى أكونَ بلغتُ نهر الفرات ، وكان جيشى موافقًا لى على ذلك . ثم أَخَذَ نابليون يذكُر للمؤرِّخ لا كاز عظيمَ رأيه فى الإسلام ورجاله ؛ وهذا المبحث يجدُه القارئ فى كتاب لا كاز عن نابليون فى سانت هيلانة) .

ثم قال السيد رشيد : وإننى أرى مصطفى كمال على كونه وُلِدَ ونشأ مسلمًا لا يعلم من أصول حكومة الإسلام ما يجب أنْ يعلَمه مثلُه ، ولهذا حاول أنْ يجعلَ منصب الخلافة مصلحة دعاية دينية لنفوذ الترك فى العالم الإسلامى ومَنْ وراء العالم الإسلامى . وأمرُ منصب الخلافة أعظمُ مِن ذلك وأعظم من شكل حكومة الجمعية الوطنية أيضًا .

لكنَّ هذا الرجل(★) الكبير لا يعلمُ ، ومن لى بأنْ يعلم ، وقد كَتب إلىَّ بعضُ زعماء الهند بمثل ما يُطالبنى صاحبٌ لى هنا من الترك ، وهو الترغيب فى الذهاب إلى أنقرة .

قد كتبتُ مقالاً طويلاً فى مسألة الخلافة نشرتُ منه إلى الآن سبعَ كراريس فى المنار ، ثم طبعتها على حدة ، وإننى مرسل بها إليك فتعلمُ أنه لم يُكتب مثلها فى الإسلام ، وإنى واثق بأنها ستترجم بعدة لغات ، وسيعلم منها إخواننا الترك أنهم لا يستطيعون السيادة على العالم الإسلامى بمنصب الخلافة إلا إذا تآخَوا مع العرب على الطريقة التى سأبينها فى تتمة هذا المقال . على أنّنى لستُ عازمًا على أنْ أكتبَ كلَّ ما عندى فى هذا الموضوع لئلا يستفيدَ منه أعداؤنا الحازمون من دوننا ، ولكنْ عقلاؤنا

(★) قد كان هذا الكتابُ قبلَ أنْ يُلغِى مصطفى كمال منصب الخلافة تمامًا من تركية ، وقبل أنْ يَظْهرَ بالمظهر القلمانى اللادينىّ الذى ظهر به ، وجعله صِبغة تركية الحاضرة .

قد يستفيدون منه مستدلين بما ذُكر على ما لم يُذكر أو يراجعون صاحبَه فيه مراجعة خاصة . وقد كتب إلىَّ بعض زعماء الهند المسجونين بعزمهم على زيارتى بعد الخروج من السجن لأجل الاتفاق على ما يجب فى هذا الشأن . وخلاصة القول أنَّ الفصلَ فى أمر الاتفاق مع القوم أرْجَى ما يُرجى مِن مثلك ، وَمَن ذا الذى يَقْدِرُ على ما تقدر عليه وله ما ملك من المكانة عندنا وعندهم ، فإنْ عَجْزتَ كان عجزُك برهانًا على سوء نيَّتهم وفساد طويتهم(★) .

ثم يقولُ لى الشيخُ رشيدٌ فى هذا الكتاب نفسِه : وصل كتابُك المطوَّل اليومَ وهذه الورقة بيدى ، وستجتمع اللجنةُ للبحث فيه . ويظهرُ أننى كنت كتبت إليه عن تشكيلات سياسية كانت أنقرة قائمة بها **فأجابنى بما يأتى** :

إنْ صحَّ المسموع عن تشكيلات أنقرة الواسعة . . . فربّما كان خيرُها أعظمَ مِن شرِّها أو مما يُقصد منه ، وإنْ كان قولك : « فانظروا إلى أين يوصِّلنا طمعُ الإنكليز والفرنسيس » يُشعر بأنّ شرَّها كبير وشررَها - إن نفذت - مستطير ، وأنا على جهلى المطلق بها أَراها خيرًا من الحال التى نحن عليها ، وأنا لا أخشى على العرب من البلشفية ولا من الترك ، وإنما أخشى إجهاز الإنكليز عليهم قبلَ أنْ تنجلىَ غمرةُ جهلهم ، ولا قوة للإنكليز عليهم إلا بهم : فإنهم لا يقاتلون جزيرة العرب بالسلاح

(★) نعم عجزتُ عن إتمام أمر كانت تحوُل دونَه المبادئ التى أراد مصطفى كمال بثَّها لا فى تركية فقط بل فى كلِّ العالمِ الإسلامى ، والتى لو نجح بها لأتى على الإسلام من قواعده . وبعد تاريخ هذا المكتوب بعدّة سنوات جَاءنى من يونُس نادى رئيس لجنة الأمور الخارجية فى أنقرة وصاحب جريدة « جمهوريت » كتابٌ يدعونى فيه إلى سياسة التآخى التى يشير إليها الشيخ رشيد ، ولكنّى كنت أعلم أن التآخى الذى يرمى إليه يونُس نادى تُريد تركية الكماليّة (أى تركيا كما يريدها كمال أتاتورك) بناءه على قواعد اللادينية وما يتفرّع منها ، وكنت بمعرفتى لأحوال تركية أكثر من غيرى عالمًا بأنّه لا سبيلَ إلى الاتفاق بين العرب والترك ما دام الترك غير مقلعين عن مباديهم هذه وما دامت الحكومة التركية هى فى يد هذه الفئة . فكتبت إلى يونُس نادى ، وقد كان زميلى فى مجلس الأمة العثمانى أقول له : إننا شاكرون لكم حُسْنَ نّيتكم بحقّ العرب ، كما أننا نحن لا نريد بالترك إلا خيرًا ، فأما استعدادُكم لمعاونتنا فى جهادنا للتخلص من حكم الإفرنج فإن العرب سَيخْلُصون من هذا الحكم ويتحرّرون بأنفسهم بدون احتيـاج إلى غيرهم ، وما جرى من الانفصال بين العرب والترك إما أَنْ يكون فاصلةَ صغرى أو فاصلة كبرى ، فأما إذا كان الذى فصل بين الأمتين هو السياسة فهذه هى فاصلة صغرى لأنه لا يوجد شىء أسرعُ تغيرًا من السياسة . وإنْ كان الفاصل ما أنتم فيه من المبادئ اللادينية ومن مظاهر التفرنُج بحذافيرها فهى الفاصلة الكبرى . هذا كان جوابى ليونُس نادى وقتئذ ، فلم يعد بعدها إلى مكاتبتى .

بل بالدراهم والإفساد . وَلَيَنْدَمَنَّ الترك نَدَامَةَ الكُسَعِيّ[1] إذا تركوهم لهم وأضاعوا هذه الفرصةَ التى يُخشى أن لا تعودَ إلى يدهم ، وقد أصبح تصافى الإنكليز والترك من ضروب المُحال : فقد زَعَبَ[2] الكماليون الأمةَ البريطانية حقدًا وضِغْنًا لا يَشْفيه إلا أشدُّ الانتقام ، وأقوى آلات الانتقام بيدها العربُ ، ولولا تعصبُها الدينىّ وحذَرُها السياسىّ من عاقبة قوتهم ووحدتهم لبادرت إليهم ، ولو كان هؤلاء الأمراء الحجازيون رجالاً لنالوا منها ما يَقْدِرُون به على تحقيق أمنية الأمة العربية(★) .

(**ثم يقول**) : فيا ليت شعرى هل يمكنُ إقناعُ الترك بهذا أم فى آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ومن بيننا وبينهم حجاب ؟ أعرض عليهم هذا فإن آمنوا به فإنَّا مؤمنون ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا

(1) هو رجل من (كُسَعَ) ، واسمه محارب بن قيس ، ومن حديثه أنه كان يرعى إبلاً بواد معشب ، فأبصر نبتة فى صخرة فتعهدها لتكون قوسًا ، وبعد أن جفت صنع منها قوسًا وأسهمًا ، وخرج ليصطاد بها أول مرة فمر به القطيع ، فرمى عيرًا منها ، فنفذت منه إلى الجبل فأورت نارًا ، وظن أن سهمه قد خاب ولم يصب شيئًا من القطيع ، وكرر ذلك مرات ، ويظن الظن نفسه ، فغضب وكسر قوسه وبات حانقًا غاضبًا حتى أصبح الصباح فوجد الحُمُر مطروحة مصرعة وأسهمه بالدم مدرَّجة ، فندم على كسره القوس ، وقطع إبهامه من شدة الندم (الأمثال للميدانى 3/ 398 – 401) .

(2) زادوهم .

(★) كان كتاب السيد رشيد هذا قبلَ استقلال العراق لأنه مؤرَّخ فى سنة 1923م ، واستقلال العراق جرى سنة 1932م والحق أنَّ الملك فيصل الذى هو أحد الأمراء الذين أشار إليهم السيد رشيد فى هذا الكتاب قد قام بنهضة كبيرة للأمة العربية ، وهو الذى بدهائه ومرونته وحزمه وبصلابة الشعب العراقى فى وجه الإنكليز تمكن من فكِّ قيد الانتداب الإنكليزى على العراق وإدخالِ ذلك القطر العربى فى دَوْرِ الاستقلال ، وكان من جملة أسباب موافقة الإنكليز على هذه السياسة خوفُهم من تمالؤ الترك مع العرب عليهم ، وربما كان هو السبب الأقوى . أما الآن فإنه وإن كانت إنكلترة لا تصفى الود لتركية باطنًا فقد حصل بينهما تقارب كثير ، وكان مصطفى كمال قد دعا المرحوم فيصل إلى زيارة أنقرة ، وكاشفه بما فى نفسه من التقرّب إلى إنكلترة مما حمله عليه خوفُه من الروسية ، فأراد الرجوع إلى سياسة تركية القديمة ، وسعى فيصل بذلك فى لندرة سعيًا مخلصًا وأسرّ إلىَّ هذه القصة ، وذلك سنة 1933م قبل وفاته بقليل ، وسألته : ماذا أجابك الإنكليز على اقتراح مصطفى كمال ؟ فقال : أنت تعلم أنَّ الإنكليز بطاء فى الغضب كما هم بطاء فى الرضى . إلا أنه جدّ اليوم بسبب القضية الصهيونية عداوة شديدة من العرب نحو الإنكليز حملت إنكلترة على التقرب من الترك ، وزال ما كان من العداوة بين الفريقين ، وإن كان كلٌّ منهما على حذر من الآخر . وغير خافٍ أنَّ مسألة الحبشة جعلت بين إيطالية وإنكلترة داعيًا قويًا للنزاع ، وربما أدّى إلى الحرب فى يوم من الأيام ، فإنكلترة بهذه المناسبة أخذت تتقرّب من تركية لتكونَ لها رِدْءًا (معينًا ونصيرًا) هى واليونان على إيطالية .

مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود : 121 ، 122] . وتفضل عليَّ بكل ما تعلم عن التشكيلات التى أشرت إليها وأنا لها حافظ أمين . وسلم على من شئت من المحبين .

أخوك رشيد

وقد أَلحق بهذا الكتابِ ملحقًا يتضمن شيئًا يتعلَّقُ بعلاقات الإسلام مع إيطالية . فإن السيد رشيدًا فى سنة 1921م كان أرسل وهو فى جنيف أوانَ انعقاد المؤتمر السوريّ الفلسطينيّ بكتاب سياسيّ إلى الحكومة الإيطالية ترجمه إلى الفرنسية أحد فضلاء المصريين ، ومآله أنّ المسلمين مستعدّون ليتخذوا من إيطالية صديقًا إن لم نقلْ حليفًا ؛ إذا كانت تسير بإزائهم سيرةً تخالفُ سيرة الدولتين الغربيتين إنكلترة وفرنسة ، وكانت سياسة السيد رشيد هذه من قبيل ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة : 251] ، وكتابه هذا من أهم ما كتب فى السياسة ، وإليك نصه :

فى 14 جمادى الآخرة 31 يناير :

(1) طالما خطر فى بالى أنْ أكتبَ إليك شيئًا فى موضوع سعينا مع الطليان على الطريقة التى كنتُ عرضتُها عليك فى جنيف ، فَعَدَدْتُها مما وراء الإمكان . وقد أخبرتُك يومَئذ أنّنى شَرَعْتُ فى السعى لهذه السياسة لدى قُنصل إيطالية فى الشام إذ كنتُ فيها فاستحسنها . ثم استأنفتُ هذا السعى مع المفوَّض السياسيّ لها هنا بعد عودتى من أوروبّة فى العام الماضى ، وإنّنى أستغنى عن إطالة الشرح لك فيه بإرسال المذكرة التى كتبتها لجناب المفوّض المشار إليه فى العام الماضى بطلب منه ، وأحبّ أنْ تُواصل هذا السعى مع القوم على هذا الأساس إذا استحسنته ، بل إذ وجدت له مجالاً إذا لا شكَّ فى استحسانك له فى نفسه ، وإذا نجحت هذه السياسة معهم فيوشك أنْ يكونَ لها تأثير حسَنٌ لدى السيد إدريس السنوسى الذى جاء مصرَ فى هذه الأيام ، وقد علمت بمبايعة زعماء برقة وطرابلس جميعًا له مذ بضعة أشهر ، وهو صديقُنا . وقد اتفقنا عند السلام عليه على اجتماع خاص أو أكثر للبحث فى مسألتنا العربية من الوجوه العامة والخاصة .

وقد كان أهم أسباب تقاعسى عن الكتابة إليك فى هذه المسألة ما أعلم من شدة ميل رجل إيطالية ورئيس وزارتها الجديد إلى الاستعمار وتشديده فى معاملة أهل طرابلس وبرقة ، ولا غَرْوَ فهذه العدوى سرت إلى هذه الدولة من حليفتيها ، وهى أحوج منهما إليها ، ولكنْ ما ندعوها إليه خير لها منها ؛ وذلك بأن العالم البشرى كلّه فى حال تطور عتيد وانقلاب اجتماعى جديد سيقضى فيه على الاستعمار ، ويعود على المستعمرين بالخِذلان والبوار ، فإذا فطنت هذه الدولة الفتاة الجامعة بين الفُتُوّةِ والفَتاء[1] إلى ذلك ، وسبقت إلى ابتكار سياسة فتية مثلها ، فإنها تَبُذُّ بها العجوزين اللتين بذّتاها فى ما قبلها . أساس هذه السياسة الجديدة أَنْ تجعلَ هذه الدولة نَفْسَها مناطَ آمال الأمة العربية فيما توجّهت إليه مِن إحياء مدنيتها فتساعدها عليه بالعلم والعمل ، وتكتفى من الجزاء بالمنافع الاقتصادية والسياسية والأدبية ، وهو ما طلبناه من غيرها أولاً(★) .

(2) أُحب أنْ تُكرِّروا على المصريين تخطئتَهم فى عُزلتهم وانفرادهم دونَ إخوانهم من الشعوب العربية المجاورة لهم ، وبيان الفوائد الكثيرة التى يجنونها من اتصالهم بهم ، وما فى غرورهم بجنسيتهم المصرية البتراء من الضعف لهم ، وتُذَكِّرُوهم بأنَّ البلادَ العربية المجاورة لهم لا تأبى إلاَّ إذا أتيح الاستقلال للجميع أنْ تكونَ تابعةً لمصر كما كانت من قبل(★★) .

(3) يَحْسُنُ أَنْ تكاشفوا مُكاتِبى (التيمس) وغيرهم بما نصحنا به مِن قبلُ بلسان أمتنا لبعض ساسة دولتهم قولاً وكتابة باستهدافهم لعداوة العالمِ الإسلامى كلِّه وللشرق

---

(1) الشباب .

(★) مَنْ تأمّل فى سياسة إيطالية اليوم بعدَ مُضى أربع عشرة سنة على هذا المكتوب قال : هذه كرامة للشيخ رشيد .

(★★) طالما كررنا على إخواننا المصريين هذا المعنى بالمشافهة والمكاتبة ، وأشرنا إليه فى مقالاتنا إلى الصحف ، ولا شكَّ فى أنَّ النزعةَ العربية فى مصر قد تقوّت أكثر مما كانت من قبل ، وصار لها أَنصار ، أشداءُ ، ولكنْ على وجه العموم لا تزال هذه الرُّوح ضعيفة فى مصر ، ومما أتذكَّره أنَّ طلبةَ العرب فى باريز قرّروا تأسيس جمعية اسمها « جمعية الثقافة العربية » ، فدخل فيها المراكشيون والجزائريون والتوانسة والسوريون والفلسطينيون والعراقيون ، ولم يدخل فيها إلا مصرى واحد مع أنَّ طلبة المصريين فى باريز كانوا يزيدون على سبعين شخصًا .

مِن ورائه إذا أصرّوا على عداوة الترك ، ولم يكفِّروا عن هذا الذنب بجعلِ الأمةِ العربية أمةً مستقلة قوية عزيزة ، على أن يكونوا أصدقاءها لا سادتها ، ولعلى أُرسل إليك فى البريد الآتى صورة مذكرتى للويد جورج سنة 1919م إذا بقيتم وبقى الجماعة فى لوزان . والسلام عليك وعلى سائر الإخوان .



ومن كُتبه إلىَّ هذا المؤرَّخ فى 25 ذى القعدة سنة 1341 :

أخى الحبيب الأمير شكيب :

ما أشدَّ شوقى إلى رؤيتك وإلى رؤية كتبك وإلى الكتاب[1] إليك ، وقد طالت فترة المكاتبة والدَّوْرُ على إذا كانت المسألةُ مسألةَ مُبادلة ، ومعاذ اللّه أنْ تكونَ مودّتُنا كالتجارة أو كضيافة الكرماء ومآدبهم : يتحرَّى كلٌّ أنْ يكونَ له الفضل . إنما نحن إخوان لا كُلفةَ بيننا ولا تَكَلُّفَ ، وإنّى ما زلت أُطالب نفسى فى كلِّ هذه الفترة بالكتاب إليك فى كلِّ وقت مِن ليل ونهار وفى كلِّ مكان من الدار والمكتبة والطريق ، ومزارُ الإخوان بأشدِّ مما سبق لى من مثل هذا من قبلُ . ولم تكنْ كثرة الشواغل العامة والخاصة وحدَها هى الصارفةَ عنه والمرجئةَ له على أنها حالت دون ضروريات كثيرة ، وإنما أنتظر فرصة واسعة أَكتب فيها شيئًا مفيدًا مما فى نفسى وموضوع سعيى ولما أَجدْها . والمحرّك الآن لكتابة هذه الكلمات الموجزة هو إلغاءُ الأحكام العُرفية التى كانت مطوِّقة لمصر وخلوصُ إدارة البلاد لحكومتها ، فهل يُرْجَى أنْ يكونَ هذا ممهدًا لإلمامكم[2] بنا أو مرجحًا لإقامتك عندنا ؟ فإذا كان البتّ فى مسألة الإقامة يتوقف على ما سيكون من أمر قانون الجنسية المصرية الذى يقرّره البرلمان المصرى ، فأىُّ مانع من زيارة مصر الآن ، واجتماع شمل الأهل فيها ، وهم فى عمَّان على مقربة منها (كانت عائلتى يومئذ مع السيدة الوالدة وأخى عادل فى مدينة عمّان شرقى الأردن) .

---

(1) أى الكتابة ، كتب يكتُب كتابة وكتابًا .

(2) **ألمّ بالقوم وعليهم** : نزل بهم أو زارهم زيارة غير طويلة .

قطعتم عنا أَخبارَ وفدكم ، وقد فضح اللّه صاحب الحجاز بالمعاهدة الجديدة شرَّ فضيحة ، فقامت عليه قيامة العالم الإسلامى ، وهاجت عليه جميعُ الجرائد (رأىُ الشيخ رشيد فى الملك حسين عفا اللّه عنهما معروف ، فلا لزوم لنقل سائر العبارات فى هذا الباب ، وإنما يقول عن إحدى قضايا الملك حسين ما يأتى : وإنها لنزعة لا يمكن أنْ يَصل أحدٌ إلى مثلها إلا بخذلان من اللّه ، كما قال الجاحظ فيما هو خير منه . ولكنّ هذا لا يثنى فلانًا وفلانًا وفلانًا عن الاستمساك بزعامته للعرب . . . إلخ) .

كتبتُ مقالاً عنوانه « خطاب مفتوح من رُوح الإسلام والجامعة العربية إلى الشعب الإنكليزى والحكومة البريطانية » يتعلّق بمسألة المعاهدة الجديدة ، قال الناس إنه مكتوب بقلم من نار ، وكان له تأثير عظيم . وبيت القصيد فيه اقتراح جعل حكومة الحجاز مقيدة بمجلس استشارى مؤلَّف من علماء مختارين من جميع الشعوب الإسلامية، وذات حرس إسلامى مؤلَّف من الحكومات الإسلامية المستقلَّة ومن الحجازيين ، وأنْ تكونَ البلاد سلميّة حيادية باعتراف جميع الدول ، فأرجو أنْ تروِّجوا هذه الفكرةَ وتنشروها ما استطعتم ، وأنْ تُكلِّموا بشأنها عصمت باشا(★) وغيره من رجال الترك ، ونحن سنكلِّف حكومَتَىْ نجد واليمن بطلب ذلك أو تأييد من يسبقُ إلى طلبه من أمراء المسلمين ، وقد كتبت إلى سلطان نجد به وإننى لم أَرَ - بعدَ التفكر الطويل - خيرًا منه لتأمين الحجِّ ووقاية الحجاز من دسائس السياسة وفتنها . . . إلخ .

أخوكم محمد رشيد رضا

قلت : كان هذا الرأى عند السيد رشيد قبلَ أنْ يستولى ابن سعود على الحجاز .



ومن المكاتيب التى وجدتُها من السيد رشيد عندى مكتوب غير مؤرَّخ ظهر لى منه أنه كتبه قبل اجتماعنا فى جنيف لأجل المؤتمر السورىّ الفلسطينى ، وهو أول مكتوب

(★) جاءنى هذا المكتوب أيام كان عصمت باشا فى مؤتمر لوزان سنة 1922م و 1923م .

جاءنى منه بعد ذهاب تلك الوحشة التى وقعت بيننا . وهذا نصه :

صديقى التليد :

أُحييك حامدًا اللّه على قُربِ المزار ورجاءِ اللقاء مبتدئًا إياك بالتحية والكتاب ، وأنت الأجدرُ بالبدء وبالاستعتاب لأنك بدأتَ بالجفوة ، بل أنت الذى جفوت وقاطعتَ ، بل زدتَ على ذلك ما علمتَ ، وما كان ذلك الخلاف فى الاجتهاد يقتضى كلَّ تلك : الظِّنَّةِ[1] والقَدْحِ باللسان والقلم . ولقد كان فى بنى عم شقيق رماح[2] ، ولكنّها لحرب الأعداء وإن لَبِسُوا لباس الأصدِقاء ، لا لحرب الأودّاء فى المصلحة المشتركة والوشائج المشتبكة ، وإنْ تقلَّدوا سلاح الأعداء . ولا أَمُنُّ عليك بأنّنى كنت لك خيرًا منك لِى ، فإننى ضننتُ بك ، ولم أسمح لأحد بأن ينالَ منك أمامى على اعتقادى بأنّك مخطىء ، بل كنتُ قبلَ الخلاف الأخير أُدافع وأذود عنك فريقًا واحدًا ، فصرتُ بعدَه أُناضل الفريقين من أبناء وطننا ، وأُبرئك بكلِّ قوة من النفاق واتباع سبل المنافع الشخصية ، لا من الخطأ والإفراط فى الحدَّة .

هذا ، وإننى قد علمتُ وأنا فى مصرَ بعزمك على الإلمام بجنيف عند وصول وفدنا إليها للاشتراك معنا فى خدمتنا الوطنية ، وقد وصلنا أمسِ الجمعةَ إلى هنا (يريد إلى جنيف) ، واستقبلنا اليازجى ونجيب شقير وصلاح القاسم فى لوزان ، فسألتُهم عنك ، فأجابوا أنك ربّما تكونُ هنا بعد أربعة أيام ، وإنى لأشْوَقُ إلى رؤيتك الآن منّى فى كلِّ زمن كنتُ أتوقَّع رؤيتكَ فيه لأنَّ شدَّة الحاجة إلى التعاون والاستفادة من التجارب قد ضاعفت جاذبية الشوق الودية والأدبية . والسلام عليك أوَّلاً وآخِرًا .

محمد رشيد



(1) التهمة .

(2) هو جزء من قول الشاعر :

جاء شَقيقٌ عارضا رُمحه إنّ بنى قومك فيهم رماح

ومن كتبه إلىّ ما هو مؤرّخ فى 9 المحرم سنة 1342 و 22 أغسطس سنة 1923 :

سيدى الأخ الأمير :

أحييك وأهنئك بالعام الجديد والتصنيف الجديد ، وإنْ كان حاشية خالفتم فيها رأى أستاذنا وأستاذكم الإمام[1] فى النهى عن الحواشى والاستغفار له من حاشية صغيرة على تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : 10] ، ولكن لكم أن تقولوا فى حاشيتكم كما قال الخضرى فى حاشيته على ابن عقيل : « فجاءت حاشية ولا كالحواشى ، أعيذها من عين كل حاسد وواشى » ولعمرى إنَّ لكم من الحُسّاد ما لم يكن له (يعنى حواشينا فى حاضر العالم الإسلامى) .

وفى هذا الكتاب كلام عن الترك فى غاية الأهمية آثرنا نقله ، فهو يقول : وأما ما ذكرتم من أخباركم مع الترك فقد كنا عرَفنا جُله منكم ومن غيركم ، فساسة الترك سَيِّئو الطَّوِيَّة راسخون فى بُغض العرب والعربية[2] ، وقد وجدوا من عمل الملك حسين وأولاده ما اتخذوه عُذرًا فى جعل غاية المساومة بينهم وبين أوروبة على العرب ومنها مصر ببيع بلادهم كلِّها للدولتين المحتلتين فيها ، وهذا العذر ليس بعلّة صحيحة ولا سبب لدوس هذه الأمة الكبيرة ، التى هى قِوام الإسلام بلغتها وبلادها على ما فيها من القوى الكامنة المتفرقة . . . أذنب حسينٌ وأولاده وشايعهم كثيرون ، ولكنَّ الإمام يحيى أحسن إليهم والإدريسى وابن سعود ما أساءا ، وكانا قادرَين على الإساءة ، وهما لم يريا من الدولة إلا شرًّا . وقد أحسن إليهم فيصلٌ ورجاله فى الشام فى منع الفرنسيس من استعمال السكة الحديدية السورية لِسَوْقِ الجيوش وحمل الذخائر لمقاتلتهم بها فى كيليكية . ثم كان العطف عليهم والميل لمساعدة حكومة أنقرة الجديدة عامًّا فى سورية ، وجُمعت لها الإعانات على شدّة العُسرة فى البلاد ، وأُرسلت إليهم الوفُود تخطب وُدَّهم ، ومن جملتها أننا أرسلنا نحن رسولاً إلى

---

(1) يقصد الأستاذ الإمام محمد عبده .

(2) هذا حكم عام ، إن صدق على كل من عاصرهم الكاتب من ساسة الترك ، فقد لا يصدق على سواهم .

رئيسهم بمذكِّرة اشترك فيها أخوكم الأمير عادل ، فلم يأذنوا له بالوصول إلى أنقرة . وكتبت أنا كتابًا طويلاً لهذا الغازى بتعظيم شأنهم وبوجوب تعضيدهم للمسألتين العربية والإسلامية وبيان مكانتهما ، فلم يسفّ من أوج كبريائه للرد عليه ، وكان هذا كلُّه قبلَ مؤتمرات مودانية ولوزان . ولم يمنعنى هذا كلُّه من كتابة ما كتبت بعد ذلك من إكبار شأنهم فى كتاب مباحث الخلافة ومطالبتهم بالقيام بزعامة الإسلام ، ولعلكم رأيتم ما كتب أحمد جودت عنه فى جريدة « إقدام » . وخلاصة القول أن هؤلاء الزعماء قد ازدادوا غرورًا ومقتًا للعرب وللإسلام ، ولا علاج لهم إلا نهضة إسلامية فى بلادهم ، وقد سدُّوا دونها المنافذَ . . . إلخ .

أخوك رشيد

حاشية غير أزهرية :

بعد ختم الكتاب فى الصباح جاءت الصحف ، فإذا فيها برقية باقتراح عقد مؤتمر إسلامى لتقرير جعل اللغة التركية لغة الإسلام التى يتخاطب بها شعوبه فى شئونهم المشتركة . . . يحتكر الإسلام من يهدمونه . . .

وهذا نص علاوة على أحد كتبه فى ذلك الوقت نرى مفيدًا إيرادها وهى :

نسيت أنْ أكتب إليك أنّنا شرعنا فى طبع كتاب « أعمال المؤتمر السورى الفلسطينى » قدَّرناه الآن بمائة ملزمة ، فأذكركم بما كنتُ اقترحتُه عليكم من قبل من كتابة مذكرة بخلاصة أعمال وفدكم ، أو تفصيل ما شئتم مما لم يُفَصَّل ولم ينشر من قبل . لأننا نُحصى كلَّ ذلك فى الكتاب إنْ شاء الله وإمضاءكم « رئيس الوفد » وإلا فنحن نذكر ذلك(★) . هذا وأخبركم بأن السلطان ابن سعود (كان هذا قبل استيلاء ابن سعود على الحجاز ومبايعة الحجازيين له ملكًا) الذى كان بِمَعْزِلٍ عن السياسة وأهلها قد عزَم على النزول فى مَيدانها ،و يرغب أنْ يكونَ له وكيل مفوَّض يدخل فى

(★) كانت اللجنة الدائمة للمؤتمر السورى الفلسطينى خاطبتنى عدة مرات بلقب « رئيس الوفد السورىّ الفلسطينىّ » فى أوربة فرفضتُ أنْ أكونَ رئيسًا ، وأشرتُ إليهم بأنْ يُخاطبونا جميعًا كأعضاء ، وذلك حتى لا أُميِّز نفسى عن رفاقى .

المؤتمرات وغيرها ، وعلاقة أخيكم معه ومع إمام اليمن قوية ، والمكاتبات متصلة ، والثقة تامَّة . وكان المرحوم الإدريسى كذلك ، ولكن لا ندرى ما تكون حالة ولده هنالك من بعده .

والإنكليز قد تساهلوا مع الإمام فى المدّة الأخيرة ، ورجعوا عن كثير مما كانوا عرضوه من قبل للاتفاق معه حتى لم يعد فيها قيود خطِرة إلا تعهدهم بحماية سواحله ، وإلا تفضيلهم على غيرهم من الأجانب فى كل مشروع اقتصادى أو غيره إذا تساوت الشروط . وكانوا من قبلُ يشترطون أن لا يعاملَ غيرهم من الأجانب إلا برضاهم وتوسطهم ، ورضوا الآن بأن يعترفوا باستقلاله التام وبأنَّ المقاطعات التى يدَّعون حمايتها تكون تابعة له بشرط أنْ يمنحَها الاستقلال الإدارى ومنها لحج وحضرموت ، ولكنّهم يستثنون عَدَنَ ، وهو يطلُبها أيضًا(★) .

(★) إن السيد على الإدريسى الذى يقول السيد رشيد إنه كان بينه وبينه صلة مودة كان داهية محنَّكًا ، فحفظ تلك الإمارة التى أسسها لنفسه فى عسير ، وبدهائه تخلَّص من الترك ومن الطليان ومن الإمام يحيى ، ولكنّه كان يعلم أنَّ الذين بعده ليست فيهم كفاية لأنَّهم قد يخسرون هذه الإمارة ، وكان أكثرُ خوفه من الإمام يحيى ، فلذلك قبل موته بمدّة مِن الزمن جعل الوصاية على أولاده للملك عبد العزيز بن سعود إذ يعلمه الملك العربىَّ الوحيدَ الذى يُمكنه أنْ يقفَ فى وجه الإمام يحيى ، فلَّما توفى السيد على الإدريسى تولى بعدَه ولدُه الإمارة تحت حماية ابن سعود ، فأساء السيرة ، ولم تكن فيه أدنى كفاية لإدارة قرية فضلاً عن بلاد ، فضجَّ الأهالى ، واضطر ابن سعود إلى أخذه من هناك وجَعْلِ عمه السيد حسن أميرًا ، ولكنّ هذا أيضًا مع كونه غيرَ سيىء السيرة عجز عن الاضطلاع بالحكم ، فالتزم ابن سعود أنْ يجعل نائبًا من قِبَلِهِ هناك ليتولى إمارة « صبيا » ، وكان الإمام يحيى يرى فى هذا الأمر اعتداء من ابن سعود على حقوقه لأنه يَعُدُّ عسيرًا من بلاد اليمن ، وإنما كان يتفادى الحرب معه ابن سعود تجنبًا لسفك الدماء ، فحدث أخيرًا سنة 1934م أن الأدارسة اختلفوا مع نواب ابن سعود فى صبيا ، فلجأوا إلى الإمام يحيى ، وصار عمال كلٍّ من الإمامين يتحرش بعضهم ببعض ، وكلٌّ يُنهى إلى مرجعه بما يثير العداوة ، كما أنه حدث أنّ الإمام يحيى ساق عسكرًا إلى نجران اليمن لإدخال أهلها الإسماعيلية فى الطاعة ، فالتجأ هؤلاء إلى الملك ابن سعود فنشأ سببٌ آخر للفتنة ، وما زالت تنقدح شراراتٌ من هنا وهناك حتى أشعلت بين الإمامين حربًا ، أغرب ما فيها أنَّها اشتعلت بدون أنْ يكون لكلٍّ من الإمامين أدنى رغبة فيها . وكان الإمامان قبلَ ذلك بسنة اختلفا على « جبل عرو » فأرسل كلٌّ منهما مندوبين لأجل تسوية المسألة باتفاق بين الفريقين ، فلم يتفقوا فأرسل الإمام يحيى إلى الإمام عبد العزيز يقول له إن اللجنة المختلطة لم تصل إلى اتفاق فأنا أجعلك حَكَمًا فى المسألة فاحكم فيها بما شئت ، فأجابه الإمام عبد العزيز : أما وقد حكمتنى فى المسألة فأنا أحكم بأنَّ جبل عرو هو لك . وهكذا كان فليتأمل القارئ كيف أنَّهما بعد سنة من هذه المعاملة الشريفة التى أعجب بها الشرق والغرب عادا فاقتتلا . فلما وقع ما وقع بينهما هال ذلك العالمَ العربىّ والإسلام أجمع ، وخيف من أنَّ استمرار القتال بين الفريقين يفضى إلى كيد أجنبى لجزيرة العرب ، فصارت تنهال على كلٍّ من الإمامين برقيات من العالم الإسلامى مآلها الرجاءُ بقَبول الصلح مع جاره ، ولكنَّ الحرب =

وله كتاب إليَّ تاريخه 8 ذى القعدة سنة 1342هـ جاءنى عندما أقمتُ بمدينة مرسين :

سيدى الأخ الكريم والولّى الحميم أمير البيان حيّاه اللَّه تعالى :

وصل الكتابانِ الكريمان المطوّلُ والمختصَرُ ، ولقد قرَّت عينى وانشرح صدرى بما كتبت من خبر وصول أهل بيتك وتلاقيكم فى يوم عيد الفطر ، وقرأتُه لوالدتى ومن حضر مِن آل بيتنا وأنا أُغالبُ الدموع وأَتكلف القراءة تكلفًا ، فأسأله تعالى أنْ يتم عليكم النعمة . وأما خبر الأمير غالب مع مولانا السيد السنوسى فقد قرأته مبتسمًا غير متلعثم ، وفقك الله تعالى لتربيته كما تُحب ، وجعله قرة عين لأهله وأمَّتِهِ (كان السيد أحمد الشريف السنوسى - قدَّس اللَّه روحه - مقيمًا بمرسين ضيفًا على الحكومة التركية ، وكانت بيننا الصداقة متينة إلى الغاية كما شرحت ذلك فى (حاضر العالمِ الإسلامى) فلما جئتُ إلى الآستانة بعد استقلال تركية ، وكنت أَبغى السُّكنى

= بقيت مستمرة ، فقرّرت اللجنة الدائمة للمؤتمر الإسلامى إيفاد رئيس المؤتمر الحاجّ أمين الحسينى مفتى القدس الشريف وهاشم بك الأتاسى رئيس الجمهورية السورية الآن ومحمد على باشا عَلوبة ناظر المعارف والأوقاف سابقًا بمصر وهذا الفقير إليه تعالى ، فذهبنا إلى الحجاز وما زلنا نعالج هذا الخلاف إلى أن منَّ الله تعالى بنهايته على أحسن وجه . وكان الفضل فى ذلك لكلٍّ من الإمامين اللذين كان كل منهما أزهدَ فى الحرب من الآخر حقنًا لدماء المسلمين ، ولا يجوز أنْ ننسى فى هذه القضية فضل الأمير الكبير العلاّمة المنقطع النظير السيد عبد الله بن الوزير أمير الحديدة وتهامة حالاً ، فقد كان بحسن سياسته أقوى عامل فى إزالة هذا الخلاف . ثم أخذنا معاهدة الصلح ، وهى معاهدة أشبه بمحالفة منها بمصالحة ، وذهبنا إلى صنعاء اليمن ، وكان الملك ابن السعود قد وقع عليها ، فليلةَ وصِولنا إلى صنعاء وقَّع عليها الإمام يحيى ، ومذ ذلك الوقت العَلاقاتُ بين الإمامين على ما يُرام ، أحسنَ اللَّه توفيقهما لخدمة الإسلام .

أما الذى انتهى عليه الصلحُ بين الإمام يحيى وإنكلترا فهو أنَّ هذه عَدَلَت عن جميع مَطامِعها الماضية التى كانت تريدُ بها أنْ تضعَ على اليمن لنفسها شبه حماية ، وقد اعترفت للإمام بالاستقلال التام ، ولم يكن لها فى اليمن أدنى مَزِيَّة على دولة أخرى . أما من جهة لحج وحضرموت والإمارات التِّسع التى كان الخلاف واقعًا عليها بين الإنكليز والإمام فقد تقرَّر بقاءُ الحال[1] على ما هى عليه الآن إلى أنْ تنحلَّ هذه المسألة بين الفريقين بصورة نهائية . فسكنت الأمور وارتفع العداء ، وقد أبدى الإمام يحيى من الحكمة والحزم فى موقفه بإزاء الإنكليز وبإزاء إيطالية ما لا يُنكره أحد . ومما لا يجوز أنْ ننساه هو لباقة القاضى محمد راغب بك ناظر خارجية الإمام الذى وإن لم يكن هو عربى المحتد فإنه يخدمُ العروبة والإسلام كأبر أبنائهما .

---

(1) الحال تذكر وتؤنث ، وهو هنا استعملها مؤنثة فقال : على ما هى عليه .

فى بلد يكون قريبًا من سورية ، جاءنى من السيد السنوسى دعوةٌ أنْ أَسكُنَ فى مرسين ليكون اللقاء بيننا متصلاً ، وقد استحسنت هذا الرأى ، واكتريت[1] بيتًا فى مرسين ، واستدعيت سيدتى الوالدة وعائلتى إلى مرسين ، فحضرن ومعهن أخى حسن ، واجتمع شملنا ، وكان ولدى غالبٌ فى السادسة من عمره ، فاستغربت منه أنه لم يكنُ يقبِّلُ يدَ أَحد من زائرينا ، وإنما كان من تِلقاء نفسهِ يُقبِّلُ يدَ السنوسى ، وكان يجلس معى ساعات طِوالاً فى حضرة السيد ، ولا يطلب الخروج إلى اللعب كما هى طبيعة الأحداث[2] ، فرويت هذه القصة للسيد رشيد) ، بل خطر لى الآن أنَّ أدعوَ له بمثل ما دعا ونجت باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان لولدى محمد شفيع عند ولادته بقوله : وأسأله تعالى أن يَفُوقَ والدَه علمًا وحكمة وثروة . فتأمل يا أَخى فى الفرق بين أفكارنا وأَفكارِ هؤلاء القوم : نحن نَغْفُلُ عن الثروة حتى فى مقام الدعاء ، وما أشدَّ حاجةَ مِثلى ومِثلك إلى الثروة للاستعانة بها على ما وَقَفْنَا أنفسَنا له من خدمة الأمة ، ونحن لا نُفكّر فيها ، ولم نتعّود السعىَ لها على ما نعانى مِن فَقْدِها ، ويا ليت شعرى متى نستدركُ فى تربية أولادنا ما فات والديْنا فى تربيتنا .

إنَّه لَيَهمُّنِى أنْ تبادرَ إلى تعليم غالب فى المدارس المصرية كما يَهُمُّنى أنْ تكونَ معى هنا لما لا حاجة إلى بسطه ولا إلى الإشارة إليه . . . إلخ .

وكان السيد كتب إلىَّ عن الشيخ عبد العزيز الثعالبى التونسى كتابة شَمَمْتُ منها رائحةَ الوحشة ، فنبهتُه إلى ما يرجى من الثعالبى من الخير للأمة ، فأجابنى عن ذلك بقوله : صديقنا الثعالبى : رأيتُك فهمتَ مما كتبت إليك عنه بعضَ ما لم أُردْه ، وهو صديق قديم زاده اللقاء الحديث تمكُّنًا فى الصداقة ، وهو على مشربنا فى المقاصد العامة ، وما دونَها فالخطب فيه سهل لا يَصِلُ عند أمثالنا إلى حد يخدش الصداقة أو يَصُدُّ عن التعاون ، وقد سافر إلى فلسطين ، وَيَسُرُّنا أنْ لقى من أفاضل أهلها ما يليق

---

(1) أَجَرتُ .

(2) جمع (حدث) ، وهو الصغير السن .

بفضله وغَيرته وإخلاصه من الحفاوة والتكريم ، أكثر اللَّه من أمثالكم وأمثاله ، وما أنتما الآن إلا كما قال الشاعر : « فمثل كثير فى الأنام قليل »[1] .

مسألة الإمامة لم أقصد بما بينته من الحقائق فيها أنْ أُكلِّفَ مسلمى اليوم إقامتها على الوجه الحقّ الذى بينته بنصب إمام يتولى أُمورَهم كافةً ، فإننى لا أعيش فى عالم الوهم والخيال فأكلِّفَ هؤلاء المساكينَ الجاهلينَ المتخاذلينَ المستعبدينَ للأجانب أو لشهواتهم - أمرًا عظيمًا أعتقد أنه منتهى الكمال الذى وقف الخلفاء الراشدون فى أوّلِ الطريق الذى أشرعه الإسلام له . . . وإنما قصدت أنْ أُعرفَ المستعدَّ للعلم والفهم الصحيح هذه الحقائقَ ، وَأُوَجِّهَ وجوههم إلى هذا النظام الكامل عسى أنْ يَسْعَوْا له سعيَه بالتعاون على وضع خُطة لإحياء الإسلام ، ذَكَّرْتُهم ببعض ما يجب مراعاتُه فيها ، وضننتُ ببعض ، بل خِفت أنْ يَغْفُلَ عنه الألباءُ وَيَفْطِنَ له قُطّاع طريقه من الأعداء .

(**المسألة المصرية العربية**) ما ذكرتَ لى وللثعالبى مِن قبلُ مِن فروع هذه المسألة مهمٌّ جدًّا ، بل هو أهمُّ فروعها وأَجدُره بالتقديم ، وقد صار أمرُ جارك السيد السند مِن هَمِّى ومِن وَطَرِى[2] ، وأعجبنى ما كتبتَ لى عنه ، فصار أكبرَ مما كان فى نفسى ، ولم يُعجبْنى ما كان نُشر عنه فى مسألة الخلافة ، وأما إيمانه بالكرامات فلا نُنكره عليه ، ونحن نُؤمن بها ، ونحمد اللَّه تعالى أنْ لم يجعلْنا بمعَزِل عنها ، وإن أعطانا فُرْقانًا نعرِف به حَقَّها من باطلها ، وكان أستاذنا الإمام[3] أعلى كعبًا فى ذلك ، كان يقول لى : إننى أقرأ (الفتوحات المكِّيَّة)[4] كما أَقرأ تاريخ ابن الأثير . ولكن يا أخى هذه مسألة خواصّ ، وقد افْتَتَنَ بها العوَام حتى قتلتهم الخرافاتُ ، وتصرّف الدَّجّالون بأموالهم وأنفسهم وأعراضهم ، بل أفسدت على الكثيرين توحيدَ اللَّه عز وجل ، ونحن نحارب الدجل الذى أفسد على الأمة أمر دينها ودنياها تحت حماية

---

(1) البيت لابن الوردى فى ديوانه .

(2) يقال : **قضى منه وطره** : أى نال منه بُغيته .

(3) يقصد **الإمام محمد عبده** .

(4) هو كتاب لابن عربى الصوفى ، فيه كثير من المبالغات ، وبعضها يعارض صريح الدين .

الكرامات والشفاعات . وأما المكاشفات فأمرُها أهونُ والافتتان بها أمر معروف . والتوسل منه حقّ وباطل ومنه إيمان وشرك . وإذا كان السيد بحاثًا فإننى أرجو إذا تلاقينا معه أنْ نكُونَ متفقين فى هذه المسائل كاتفاقنا فى المسائل المهمة الدنيويَّة التى هى موضوع سَعْينا وبحثنا . . . إلخ(★) .

(**مؤتمر الخلافة**)(★★) إننى لمَّا ينشرحْ صدرى للدخول فيه ولمَّا أجتمعْ ثانيةً مع أذكى أعضائه وأحرصهم على اشتغالى معهم ، وهو الشيخ مصطفى المراغى رئيس المحكمة الشرعية العليا ، وهو من إخواننا تلاميذ الإمام ، وبيننا موعد غيرُ محدود ، ولا أدرى هل أجدُ فى مذاكراته ما يُحدث لى أملاً فى المؤتمر أم لا ؟ ولا أعنى بالأمل أنْ يتفقَ أعضاءُ المؤتمر على نصب إمام ترضاه الشعوب الإسلامية كلُّها أو أكثرها ، بل أكبرُ الأمل عندى وَضْعُ نظام يُدْعى إليه . . . إلخ .



وله كتاب آخَرُ فى 23 المحرم 1342 و 5 سبتمبر :

أَخى وأميرى الهُمام عليه التحية والسلام :

بعدَ أَنْ كتبتُ إليك فى كتابى الماضى بشأن حاشيتك على الكتاب المترجَم ما عَلِمْتَ بَلَغنى أَنَّ الحاشيةَ مما يستنكره الجماهيرُ حتى أهلُ الأزهرِ ، لا حزب أستاذنا

(★) كلام السيد المترجَم هنا جواب على كتاب منّى إليه ذكرتُ له فيه مَشْرَبَ (مَيْلُه وهواه) السيد أحمد الشريف السنوسى الذى كنتُ أجتمع معه كلَّ يومين مرَّة طول مدة إقامتى بمرسين ، وهى نحو من سنة . وأما قول السيد المترجَم « المهمة الدنيوية » فهكذا اعتاد الناسُ أنْ يَنْسُبُوا إلى (الدنيا) مع أنَّ سيبويه يقول فى فصل النسبة من كتابه : قالوا فى دنيا دُنياوِىّ ، وإن شئت قلت دُنَيِيّ . وأما فى المخصص لابن سيده فيقول بالوجهين دنيوى ودنياوى هكذا أتذكر ، وفى المصباح يقول إن دنياوى أكثر من دنيوى والله أعلم « الكتاب لسيبويه » (3/ 353)(1) .

(★★) الذى انعقد بمصر .

---

(1) والقاعدة هى أن النسب إلى ما كانت ألفه رابعة وثانيه ساكنًا يجوز فيه :

1- حذف الألف ، مثل : حُبْلَى - حُبْلَىّ .

2- قلب الألف واوًا ، مثل : حُبْلَى - حُبْلَوِىّ ومثلها دنيوىّ .

3- قلب الألف واوًا وزيادة ألف قبل الواو ، **مثل** : (حُبْلَى) : حُبْلَوِىّ - حُبْلَاوِىّ ، **ومثلها** : دُنياوِىّ .

الإمام فقط ، لأنها بَلغت من الطول المُشَذَّبِ[1] مَبْلَغًا ترك الأصل الذى وُضعت عليه أثَرًا بعدَ عَينٍ[2] أو كهلال الشكِّ لا تُدركه كلُّ عين ، وصارت قراءةُ كلٍّ منهما مع الآخَر مَضْيعةً لكلٍّ منهما ، وقراءته وحدَه لا ترتاح إليها الأنظارُ ارتياحَها إليه لو لم يكن معه ما يَشْغَلُ عنه ، وشُبِّه لى الكتاب مع الحاشية بشرح ديوان صديقنا محمود سامى باشا البارودى رحمه الله تعالى ، ولعلَّكم رأيتموه ، فإنَّ شارحه كثيرًا ما شرَح البيت الواحد بصفحة أو بصفحات باستطرادات لا تَغْنى مَن يريد قراءة شعر البارودى ، فكان هذا الشرحُ سببًا لعدم رَواج الديوان بقدر ما كان يُنتظر لو طُبع وحدَه بغير شرح أو بشرح بعض غريب اللغة أو محاسن نُكت البلاغة .

وفاتنى أنْ أقولَ لك فى الكتاب السَّابق أَنَّنى مخالفٌ لك فى ما تظنُّ من قِلَّة الرغبة فى قراءتى هذه الحاشيةَ لو جُعِلت كتابًا مستقلاً ، بل يغلُبُ على ظنى أنَّك لو أَلَّفت كتابًا فى تاريخ الإسلام أو جعلت هذه الحاشيةَ كتابًا مستقلاً لوَجدت من الإقبال على ما تكتب فوق ما تنتظر للكتاب المترجم وحده من الرَّواج . وأرى أنْ تَضِنَّ بما بقى لديك مما كتبت وما تنوى أنْ تكتب إذا كان يُمكن أنْ يُجعلَ كتابًا مستقلاً ولو بضم بعض ما طُبع منها إليه(★) . اهـ .

---

(1) **المُشَذَّب** : أى المُفَرّق أو الموزّع .

(2) **يقال** : أصبح أَثَرًا بعد عَيْنٍ أو أصبح خبرًا بعد عَيْنٍ ، أىْ : غاب بعد أن كان حاضرًا .

(★) (**حاضر العالم الإسلامى**) للمؤرخ المدقق لوثروب ستودارد الأميركانى ، ترجمه من الإنكليزية الأستاذ عجاج نويهض ، وبعث به إلىَّ وذلك سنة 1922م ملتمسًا منّى أنْ أُبدىَ بعض ما يعِنّ لى من الملاحظات على مباحث هذا الكتاب ، وكنت يومئذٍ فى شُغُل شاغل كدت معه أَردُّ الكتابَ معتذرًا عن إجابة الطلب الذى طلبه مترجم الكتاب إلا أَنَّنى نظرت فيه بعض الشيء ، فوجدت مباحث ذات بال تهم الإسلام والمسلمين ، ورأيت المؤلِّف قد نقل مقالة لى نشرتها فى بعض الصحف الأوروبية بعد الحرب العامة لم ينسبها إلىَّ بالصراحة بل بالإشارة تأييدًا لقوله : إنّ دُول الحلفاء قد غاظت العرب بنكثها بما عاهدتهم عليه واستيلائها على كثير من بلدانهم بدلاً من الاستقلال الذى وعدتهم به . فرأيتُ هذا المؤرِّخَ منتبهًا للحركة العربية كما نُحب محيطًا منها بكل شاردة وواردة ، فأجللت مقامه ، وربأت به عن أن تكونَ فى رواياته مواطنُ ضعف ، فعلَّقت كلماتٍ قليلةً على هذه المواضع ، ولم يكن فى نيتى أَنْ أكتب حواشىَ تَزيد على سطرين أو ثلاثة بالكثير ، ولكنَّ الحديث شجون والمواضيع التى خاضها أو ناقشها المؤلف تحتاج إلى مزيد التدقيق ، فصار الكلام يتسع معى تدريجًا ، وبعد أَنْ كانت النيةُ تعليقَ كليمات أو أَسطار (جمع سطر) معدودة انتقلنا إلى حواشى (يجوز فيها حذف الياء وبقاؤها) تستغرق الصفحة والصفحتين . ثم رأينا أن الاختصار يُخلّ بالمعنى وأنّه يكون من قبيل فتح الباب لمقام شائق للقرّاء ثم صَكِّه (أىْ غَلَقَهُ) قبل أن يَشْفى لهم غليلاً ، فصارت التعليقات على الكتاب تزداد طولاً كُلَّما تقدَّمنا فى مطالعته إلى أَنْ أصبحَ المتنُ ربعَ الكتاب بالقياس إلى الحواشى التى صارت هى ثلاثة أرباعه ؛ =

وكان السيد رشيد فى تلك الآونة قد طعن فى الملك حسين بالمنار مطاعنَ لا محلَّ لها هنا ، فانبرى للرد عليه جماعة مِن بيروتَ أَوْسَعُوهُ شَتمًا ، وبينَهم أصحاب صُحف كان يَعُدّهم من أصدقائه . فشكا إليَّ فى القسم الثانى مِن هذا الكتابِ ما رآه من هذه الفئةِ التى رَثَى لحالة جهلها . وعند الله تجتمع الخصوم .



وله إليَّ كتاب مؤرَّخ فى 21 ذى الحجة 1343 و 23 تموز ومعناه وجوبُ الذهاب إلى جنيف فى أثناء الثورة السورية الكبرى ، وهو يقول إن اللجنة فى القاهرة جاءها كتاب من الأمير ميشيل لطف الله[1] رئيسها الذى كان وقتئذٍ فى أوروبة يُعَظِّمُ فيه من شأن اجتماع عُصبة الأمم فى هذا العام ، ويحث على تأليف وفد يحمل الوثائقَ اللازمةَ

= بحيث قال العلاّمة الدكتور يعقوب صروف الطيب الذكر فى مجلة (المقتطف) : إنَّ هذا الكتاب « حاضر العالم الإسلامى » أصبح بحواشيه كتاب الأمير أرسلان . ولكنَّ الناسَ رأَوا فى حواشى كاتب السطور مباحث كانت مجهولة ، وكانوا يشتاقون إلى مثلها ولا يجدون ذلك فى مؤلَّف آخَر فى هذا العصر ، فصار كثير منهم ومن هؤلاء السيد رشيد يقولون لى : ما دمت قد أردت إفاضة هذه المعلومات كلِّها فلماذا لم تجعلها فى كتاب على حدة ؟ فأجبت السيد بأنى لو جعلتُها فى كتاب مستقلٍّ لربما كان قُرّاؤُها أقلَّ عددًا من قُرائها الآن ، وقد اقترنت بكلام المؤرِّخ ستودارد على ما فى طباع الشرقيين عمومًا من الاحتفال بكلام المؤلِّف الأوروبى أو الأمريكى بنوع خاص . فالقارئ الآن يقرأ ما قاله المؤلِّف الأمريكى مشفوعًا بما قاله الكاتب العربى ، ويرى بعضه مؤيدًا لبعض ، فأجابنى السيد رشيد بهذا الجواب الذى نقلناه ، ولكنه لم يُصِب - رحمه الله - فى تشبيهه هذه الحواشىَ بحواشى شارح ديوان البارودى ، فإنه ظهر فيما بعد من رغبة الناس فى اقتناء هذا الكتاب من أجل حواشيه ما ندر أنْ يقع لكتاب آخر فى زماننا هذا ، حتى إننا أعدنا طبعه من ثلاث سنوات لنفاد نُسخه بأجمعها ، وضممنا إليه حواشى جديدة تُعادل القديمة ، فصار متن الكتاب بالقيـاس إلى حواشينا بمقدار واحد من ثمانية . وقد كان يمكن جعل هذه المعلومات كلِّها فى كتاب على حِدَة يكون أوسع من هذه الحواشى ويصير أشبه بمعلمة إسلامية تقع فى عشرة أو اثنى عشر مجلدًا ، ولكني من الأصل لم أقصد وضع كتابٍ مستقل أتأهب له على أنْ يكونَ معلمة إسلامية ، وإنما بدأت بتعليقات وجيزة أَوْسَعَتْها أهميةُ المواضيع تدريجًا كما تقدَّم الكلام عليه . والمرء فى التأليف كما فى جميع حركاته فى هذه الدنيا مسير غير مخيَّر[1] .

(1) هو ميشيل بن حبيب بن جرجس لطف اللّه (1297 - 1381هـ / 1880 - 1961م) مولده ووفاته بالقاهرة ، أنشأ مع بعض السوريين مكتبًا فى القاهرة للعمل من أجل القضية السورية ، وترأس مؤتمر جنيف (1926م) . (الأعلام : 7/ 339 ، 340) .

---

(1) هذه قضية فلسفية كبيرة خلاصتها أن الإنسان مخيّر فى بعض أموره ، فله أن يرفع يده وقتما يشاء ، فى حين أنه مسيّر فى البعض الآخر ، فهو - مثلاً - لم يختر أباه و . . . إلخ .

ويأتى إلى جنيف ، وأن هذا مطابق كما كتبناه نحن إليهم . فأَجابت اللجنة ميشال بك بأنه بلغها أنّ فى الوطن أُناسًا يجمعون وثائق ليبعثوا بها إلى الأمير شكيب لإيفاده بها إلى جنيف ، وأن الدكتور عبد الرحمن شهبندر[1] عاد من سياحته فى أمريكا ، وأنّ الظاهر من حاله أنه مستعدّ للعمل ، فإنْ تيسّرت لدى اللجنة الوسائل المادية الكافية توسلت[2] إلى تأليف الوفد منهما وممن يرغبُ فى السفر معهما، وَسَعَتْ فى جمع الوثائق اللازمة لهما ، وإن اللجنة تنتظر جواب رئيسها من أوروبا ، ومع هذا فهو يقول لى : إذا أحببتم أنْ تكتبَ لكم اللجنة توكيلاً مشتركًا بينكم وبين صاحبنا (أى ميشال بك) وتكتبَ إليه مثله نسخة واحدة فإنها تفعل . إلى غير ذلك مما يتعلق بالمجىء إلى جنيف لأجل الاحتجاج على فرنسا . وقد حضرتُ إلى جنيف فى تلك النَّوبة ، وقمتُ بواجبى مصحوبًا بالوثائق اللازمة ، ولكنّنى رأيتُ أنَّه لا يُمكننى القيامُ بمهمتى هذه إلا بالإقامة الدائمة بسويسرا ، فعند ذلك استقدمتُ عائلتى من مرسين وألقيتُ عصا التَّسْيار[3] فى هذه البلاد .

وفى هذا الكتابِ تفاصيلُ كثيرةٌ عن حركات بعض الزعماء المشتغلين بالقضية العربية وبسيرتهم فى أثناء الحرب من جهة إنجلترا . . . ثم بما ظهر منهم بعد الحرب من الآراء الغريبة التى من أفظعها « أنْ نتسامح مع الإنجليز بما ملخصه أنْ نشترى منهم سورية بالعراق » هكذا صرح به أحدُ هؤلاء للسيد رشيد نفسِه فى نجوى بينهما . ومما جاء فى هذا الكتاب من المعلومات المهمة خبرُ تأسيس حزب الاتحاد السورى ، وأنه كان فى البداية دخل فيه فلان وفلان « فكان جُلُّ مؤسسيه من حزب الإنجليز » قال رحمه الله : ولما غلبناهم على الحزب تسلّل منهم من تسلل لِواذًا[4] ، وبقى آخرون

---

(1) **هو عبد الرحمن بن صالح شهبندر** (1299 - 1359هـ / 1882 - 1940م) مولده ومماته فى دمشق ، مناضل سورى ، سجن وتنقل بين دمشق والعراق والقاهرة والآستانة والأردن كثيرًا ، عين وزيرًا للخارجية سنة 1920م . (الأعلام : 3/ 308) .

(2) **توسل إلى كذا** : رغب وتقرب .

(3) **ألقى عصا التَّسيار** : أىْ استقرّ ، وأنهى سفره .

(4) لاجئًا إليه ومحتميًا به .

يجادلوننا فى قَبول النفوذ الأجنبى بصيغ مختلفة حتى إذا يئسوا طلبوا منا التقيد بقَبول الوصاية الأميركانية ، وكان فلان وفلان من هذا الرأى فخابوا ، ولو تساهل أخوك وحدَه أَقلَّ تساهل لنجحوا . . . ولما أَرادوا توريطَ السوريين بقَبول مضمون معاهدة (سايكس بيكو) عقبَ إعلانها فى لندن وباريس بالاجتماع الذى دبّروه فى دار فلان كان من البرنامج أن يخطب فلان وفلان وفلان من حزب الإنجليز ، فلما أفسدتُ عليهم الاجتماع بردّى على الخطيب الأول لم يتجرأ أحدٌ على مخالفتى . . . إلخ . (وهذا الكتاب أيَّد لى مآله أكثر من واحد ممن حضروا تلك الاجتماعات) .

وكتب إلىَّ فى 21 ذى الحجة من تلك السنة 1342 يقول : إننا دعونا اللجنة للاجتماع مساء هذا اليوم للمذاكرة فيما كتبتَه أَنت ، والأمر مهم جدًّا ، ولنا فيه آراء ، وإن كانت اللجنة وحزب الاتحاد السورى على رأيٍ واحدٍ هو الثبات على الدعوة إلى الاستقلال المطلق ومقاومة الانتداب بأى شكل ظهر ، وأرى أن مجيئك الآن إلى هنا عاجلاً قد صار واجبًا حتمًا لا تخيير فيه ولا عذر إلا العجز . إنه لم يبقَ لدينا من أعضاء اللجنة إلاَّ نجيب شقير واليازجىّ وأسعد داغر ، وليس مثل هذا العمل الكبير - أىْ وضع نظام أساسى للبلاد - بالذى يكفى فيه هذه اللجنةُ وحدَها . . . إلخ .



وله كتاب إلىَّ تاريخه 8 صفر 1342 الموافق 19 سبتمبر 1923 :

أخى الأمير :

تعذَّر إرسالُ الكتاب الذى كتبتُه أمس ، وتأخر إلى هذا اليوم فكان ذلك لحكمة الاطلاع على كتابك الجوابى المؤرَّخ فى 9 أيلول الذى سُررتُ به جَدَّ السرور . وأما سبب تعذر إرسال الكتاب أمس فهو أنه هو اليوم الذى دخل فيه الزعيم سعد باشا القاهرة ، فكانت الأعمال فيه معطَّلة حتى الرسمية ، وانقطعت فيه مركبات الترام حذرًا من استئثار الطلبة وأمثالهم بها وتسييرها حيث شاءوا بغير أُجرة . وأنا لم أنزل من الدار . (إلى أنْ يقول) : سرّنى ما كتبتَ عن الترك والعرب فنحن - ولله الحمد متفقون فى جملة الأمر

وتفصيله . . . إلى أن يقول : وأما مسألة البطل العربى الكريم محمد بن عبد الكريم[1] فإننى حريص على كتابة شىء يرضينى ، ونفسى تطالبنى بهذا منذ سنتين ، وألحَّت علىَّ فى هذه الأيام لتجدد جهاده والحاجة إلى الحثِّ على إعانته ، ولكنْ ما أعلمه فى المسألة قليل ، ووقتى أضيق من سَمّ الخياط . وقد اتفق وصول جريدة البيان أمس فقصصت مقالتك منها لأجل نشرها ، ولا تشك فى صدقى إذا قلت لك إنّ ما ذكرته فيها من تفضيله على مصطفى كمال ، وأعدتُه فى هذا الكتاب ، قد سبق لى مثلُه بعينه فى التنويه به لبعض الإخوان ، وكنت أريدُ أنْ أُخبرك بهذا ثم فاتنى قبلَ إتمام الكتاب ، والحمد للّه على اتفاقنا فى جميع المسائل والآراء والسلام .

أخوك محمد رشيد رضا



وله كتاب آخر تاريخه 14 ربيع الآخِر 1342 و 22 نوفمبر ، وهو جواب على كتاب بعثتُ به إليه من الآستانة إذ كنتُ فيها أواخرَ سنة 1923 . قال :

سيدى الأخ الكريم والولىّ الحميم :

أَنِسْتُ مذ ثلاثٍ بكتابك المرسَل من الآستانة بقدر ما آلمنى من الوحشة بطول فترة المكاتبة ، وسرّنى ما وَعَدْتَ به فيه من كتابة مقالين للمنار ، أحدهما فى ملخَّص ما يُنكره البروتستانت على الكاثوليك ، وثانيهما فى ردّ السيد جمال الدين على رينان – ومن إرسال كتاب المرحوم أحمد مختار باشا[2] الذى طال تَشَوُّقى إليه (يريد به : سرائر القرآن فى تكوين وإفناء وإعادة الأكوان) .

---

(1) هو **محمد بن عبد الكريم الريفى الخطابى** (1299 – 1382هـ / 1882 – 1963م) ولد فى بلدة أجديرة من الريف فى بيت علم وجهاد ، اعتقل سنة 1920 ، وبعد خروجه كون جيشًا ، وانتصر على الإسبان فى معركة (أنوال) ، وقدر جيشه بمائة ألف ، أنشأ جمهورية الريف ، تآمر عليه الفرنسيون والإسبان فاستسلم مضطرًا ، ونفى إلى جزيرة (رينيون) فى بحر الهند عشرين عامًا . وأثناء نقله إلى فرنسا هرّب إلى مصر ، وتوفى بالقاهرة . (الأعلام : 6/ 217) .

(2) هو **أحمد مختار (باشا) الغازى** (1253 – 1337هـ / 1837 – 1919م) من كبار القادة العثمانيين ، تنقل فى أعمال بالحجاز واليمن وكريد وألبانيا ومصر ، وتوفى بالآستانة .

وقد سألتَ فيه عن تَتِمة مقالتك (انتداب العرب على سويسرا) ؛ فأقول إنها نُشرتْ فى الجزء الرابع ، وقد أُرسل إليك فى وقته ، وأُرسل بعده الخامس والسادس متصلين والسابع والثامن متفرِّقين ، ولما نوزعْ التاسع ، وفيه جوابك عن استشكالى قولَك إنّ العرب اكتسحوا روميَّة ، وما كتبته صحيح ، ولكنْ هل يصح أنْ يُسمَّى اكتساحًا ؟ وسيوزع هذا الجزء وهو مطبوع كلُّه مع العاشر الذى بقيت خاتمته ، وقد طال الزمن عليه وعليها ، ولم يمرّ علىَّ زمنٌ كثُر فيه العملُ كهذا العام ، ولا سيما هذه الأيام .

مقالتك فى المحاكمة بينى وبين مَن حَمَلوا علىَّ فى الجرائد السورية نُشرت فى جريدة السياسة ، وأكثرُ الذين يقرأون مقالاتكم يعرفون أنها لكم ، وإنْ عَزَوْها إلى « الكاتب الكبير » كالتصريح باسمكم ، وقد أنكرت منها كلمة واحدة وافقتم فيها أنصار فلان فى كونه زعيمًا للعرب يُرجى . . . وما أعهد هذا من رأيكم ، وقال بعض مَن قرأها : لعلَّه وافق الخصومَ فى هذه الكلمة جذبًا لهم إلى الإذعان لحُكمه بعدَ أن فنّد كلَّ ما جاؤوا به بالحُجج الناهضة التى تدفع الأوهام الباطلة . وأحمد اللَّه تعالى أنَّنى كنتُ نقلت عنهم هذا المعنى فى حكاية شبهاتهم ، ورددت عليها فى المقالة السابقة من المقالات التى نشرتُها فى (الأهرام) على ما أتذكر . ولولا ذلك لصعُب علىَّ أنْ أردَّها بعدَ ورودِها فى مقالتكم التى نصرتمونى فيها نصرًا مؤزَّرًا ، لا زلتم ناصرين للحقِّ وأهله .

جاءنا فى هذه الأثناء صديقُنا القديم الشيخ الثعالبى فَسُرِرْنا بلقائه ، وسيكون عونًا لنا إنْ شاء اللَّه على بعض أعمالنا الإسلامية التى تشغل جُلَّ أوقاتنا فى هذه الأيام ، وقد ذكرتم فى كتابكم بعض ما ترونه أهلاً له . . إلخ .

وجاءنا أيضًا رفيقُنا فى المؤتمر ثم رفيقكم فى الوفد إحسان بك ، ووافق مجيئُه انتهاءَ فصلِ الحرِّ وتجدُّد نشاط الحركة الوطنية فشرعنا فى موالاة الاجتماع ، وهو يحضر جلساتنا وينوى أنْ يُسافر إلى القدس فشرقِ الأرْدُن . وقد تحقق أيضًا قربُ مجىء الملك حسين إلى شرقىّ الأُرْدُنّ لأجل عقد مؤتمر آخرَ للتشاور مع أولاده ومع زعماء البلاد فى الطريقة التى يجب سلوكُها فى القضية الوطنية سواء عُقدت المعاهدة البريطانية العربية أم لم تُعقد . . . إلخ . أما مؤتمرُهم فقد كان مقرَّرًا لأجل وضع خُطة لتنفيذ المعاهدة بالتواطؤ مع أهل سورية وفلسطين . أما وقد

فَشِلُوا فيها وخابوا برفض أهل فلسطين لها أوّلاً ، وقيام قيامة العالم الإسلامى ثانيًا ، فقصار[1] غرض المؤتمر المذكور الاتفاق مع أهل فلسطين ثم أهل سورية على ما يمكنُ إقناعُ الإنجليز به من الجمع بين المصلحتين البريطانية والعربية .

ما كتبتموه بشأن الترك مفيد ، والجرائد هنا تلخّص جميع أخبارهم ، ولا سيما « الأهرام » و« الأخبار » ، وكنت أتوقَّع ما وقع وأكثر منه ، وإنى لأعلم أنَّ السَّوَاد الأعظم من الشعب التركى يدينون للّه تعالى بدين الإسلام ، وأنَّ بعض الملاحدة والمرتابين يرجِّح المحافظة على الرابطة الإسلامية سياسة لا دِينًا . ولكنّنى أخشى أنْ تكون كِفّة ملاحدة الطورانيين أرجحَ فى زعامة الشعب وتبوء مقاعد الحكم والاستعانة بذلك على صبغ النابتة بغير صبغة الإسلام ، فإنَّ قوة الجند فى أيديهم ، والجند فى الترك كلُّ شىء . ولولا غيرتنا على هذا الشعب الإسلامى الكبير أنْ يُفْسِدَ دينَه هؤلاء المتهوكون[2] لما بالى مثلى بما يعملون ولمَا كتبتُ فى مباحث الخلافة وغيرها بشأنهم ، فكلُّ همنا أنّ ننصرَ الشعب الإسلامى على ملاحدة المتفرنجين ، وأنَّ زعماء الكماليين منهم كزعماء الاتحاديين ، وفى مقدمتهم رئيسهم الذى قَرُبَ الوقتُ الذى تظهر فيه حقيقتُه للعالمِ الإسلامى (قد ظهرت هذه الحقيقة ولم يبق عند أحد فيها شك) الذى فُتِنَ به كما فُتن بمن كان قبله من زعماء الاتحاديين (قلت : وجه للمقايسة بين هؤلاء الاتحاديين فى هذا الموضوع) . وقد أخبرنى صاحبنا التونسى أن الإنجليز تواطأوا مع الكماليين قبلَ الصلح فى لوزان على إلغاء منصب الخلافة من تركية الجديدة .

(الدعاية) وردت فى كتاب النبى ﷺ إلى هرقل ، قال : « أدعوك بدعاية الإسلام » كما فى كتاب « بدء الوحى » من أوّل صحيح البخارى ، وهى كالدعوة الكثيرة الاستعمال فى كلِّ ما يُدعى إليه ، فأحببتُ استعمالَ الكلمة الطريفة فى الدعوة الخاصة بالمذاهب العامة من سياسية ودينية ، واتبعنى بها كثير من الكُتَّاب[★] .

---

(1) **القصار** : أخرى الأمور ، **يقال** : قصارك أن تفعل كذا أىْ : حسبُك ، وكفايتُك .

(2) **المتهوكون** : المضطربون فى آرائهم .

(★) نعم قد صار هذا الاستعمالُ تمامًا فى معنى ما يُسمّيه الإفرنج « بروباغندا » ، وقد سألت السيد رشيدًا عن مصدرها فأجابنى بهذا الجواب ، وسألت غيره من علماء الحديث مثل الأستاذ تقى الدين الهلالى المغربى السجلماسى فأيَّد كلام السيد رشيد ، وقد جاء فى « لسان العرب » خبر هذا الكتاب من النبى ﷺ إلى هرقل =

وأما « القداسة » فتسرى إلىّ من استعمال المعاصرين ، ومثلها « الإعدام(★) » بمعنى القتل لا الإفناء ، ومعناها فى أصل اللغة إفقاد الشىء إذا كانت مصدرًا للفعل المتعدى ، وقد ورد : لا أَعْدَمَنى اللَّه فضله ، والعُدم بضم فسكون الفقد ، وكثر فى فقد المال فغلب ، وأعدم اللازم بمعنى افتقر ، وقد ضاق الوقت عن التطويل ، وأرجو اتصال المكاتبة . والسلام عليك منّى وممن لدىّ أجمعين .

رشيد

★ ★ ★

وله كتاب فى 7 صفر 1343 و 18 سبتمبر 1923 ، وفيه بعض الأجوبة على ما كنتُ سألتُه عنه ، من ذلك مسألة الحُجاج اليمانيين الذين وقعت معهم معركة فى الطريق ، وهم سائرون إلى بيت الله الحرام ، فهو يقول ما يلى :

مسألة الحُجاج اليمانيين هى صحيحة ، وأنباء الحجاز تكسوها كلَّ يوم ثوبًا ، وقد قيل لى إنَّ سببها ثأر لمن قاتلهم من النجديين عندهم ، وإن عامل ابن سعود فى « أبها » نصح لهم بأنْ يَسلكوا طريقًا آخر لا يتحرَّشون فيه بهم ، وقيل بل ظنّوا أنّهم

= « أدعوك بدعاية الإسلام » أى بدعوته ، ولكنه قال بعدها : وفى رواية « بداعية الإسلام » [صحيح البخارى : كتاب بدء الوحى رقم (7)] وهو مصدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة ، واقتصر صاحب المصباح على الدّعاوة ، ولهذا تمسك بعضُهم بأنَّ دعاية قد تكون خطأ نسخ ، وأن أصلَها الدعاوة لا يجوز غيرها ، وعللوا ذلك بأن الفعل واوى وأنْ الدعاية بالياء ، والحقيقة أن نُسخ البخارى لا تُعدُّ ولا تُحصى ، فلو كانت الدِّعاية من خطأ النسخ لكان العلماء أصلحوها ، ومن المعلوم أنّ علماء اللغة فى المحدثين كحَصى البطحاء ، فليس السيد رشيد رضا وحدَه بالذى روى ذلك ، وأمّا كونُ الفعل واويًّا فلا يمنع من انقلاب الواو ياء فلذلك أمثال كثيرة ؛ جاء فى « لسان العرب » : سنت السانية تسنو سنوًا إذا استقت وسناية وسناوة ، وهو فى صيابة قومه وصوابة قومه ، والنفاوة والنفاية من كل شىء وهى النفية والنفوة ، وداهية دهواء ودهياء ، وله غنم قنوة وقنية وقنوان وقنيان ، وأهل العالية يقولون القصوى وأهل نجد يقولون القصية ، وأثوت به أثاوة وإثاية ، ورغاية اللبن ورغاوته ، وجباية الخراج وجباوته ، وهو بلوُ سفر وبِلَى سفر ، وهلم جرّا مما لا يُحصى .

(★) كنتُ دائمًا إذا وجدتُ فى كلام السيد لفظةً لا أجد لها أصلاً فى اللغة أعترض عليه فيها ، وأسأله عن الوجه الذى عنده فى هذه اللفظة ، وكان هو يفعل معى كذلك ، وسنورد جُلَّ ما وقع بيننا من المُطارحات اللغوية لأن فيها فوائد لطلاب العربية .

من جماعة ملك الحجاز . وقد كتبتُ إلى سلطان نَجْدٍ بأنْ يتلافى الأمرَ بأحسنِ ما يُزيل أثرَه السيىء ، وجاء فى الجوائب الأخيرة أنه أَرسل وفدًا إلى اليمن لأجل ذلك ، ولَّما يجئنْى منه شىء فى هذه الحادثة . وإنَّنى مرسِل إليك كتابًا جاءنى من اليمن(★) ، ومنه تَعْلَمُ سُوءَ تأثير الحادثة فيه واهتمام الإمام بتخفيف أثرِها لما كان قد بُدِئ به من مقدِّمات الولاء الذى نسعى له سَعْيَهُ .



وكتب إلىَّ فى 18 صفر 1342

سيدى الأخ الأمير :

الآن أُلقى إلىَّ كتابُك المرسَل من جنيف ، وأمس أَرسلنا كتاباً إلى الأمير ميشال بك بشأن اجتماعكما . وإننى بعد قراءة الكتاب وقبل الشروع فى الجواب قرأتُ ورقات مِن قصة (آخرِ بنى سراج) فرأَيتُنى أعثر ببعض الكلم والجمل التى عهدتُك تتحامى مثلَها ، ولولا أن هذه ترجمةٌ قديمة ألفتها لاستبدلت بها غيرها ، وإننى أذكر لك أنموذجًا منها وهو يتعلق بأذيال المعانى والبيان فى الأكثر وبأصل اللغة فى الأقل ، وبعضها له نظر إلى الدين كقولكم فى المقدمة : (وهو الزعيم بحسن المآل) فهذا صحيح باللغة ، ولكنْ صفة الزعيم لم ترد فى الكتاب ولا فى السُّنة صفةً للَّه تعالى ، وأَسماء اللَّه وصفاته توقيفية ، فأستحسن أَنْ يُستبدلَ بها لفظ المسئول . وكقولكم : (وهم فى كلِّ خمسة أيام يُقيمون فى المسجد الصلاة لأجل رجوع غرناطة إلى يد الإسلام) ، فالذى يظهر لى أنها ترجمة حرفيّة ، وأنَّ ما يُسمِّيه الإفرنج بالصلاة فى هذا المقام هو ما نُسمِّيه بالدعاء ، وهو من معانى كلمة الصلاة لغة ، ولكن غلب عليها معنى العبادة المعروفة .

وعثُر فهمى فى قولكم : (بل لم يكن عندهم خارجًا عن أبراج الحمراء ثمار طيبة

(★) أَرسل إلىَّ السيد رشيد جوابًا جاءه من الإمام يحيى يذكُر له فيه حادثة الحُجاج هذه وما كان من هياج الناس فى اليمن بسببها ، وأَنَّه بذل جهدَه فى التَّسكين تفاديًا لشرٍّ أعظم .

ولا عيون صافية) فوصف هذه الأشياء بالخروج المنفى عن أبراج الحمراء فيه غموض وخفاء .

ومما قُدِّم فيه المفعول المطلق على المفعول به بغير مسوّغ قولكم : (فإنّهم كانوا فارقوا فِراقَ الأرواح للأجساد ميدانَ ذلك الجهاد) ، ويتعين هنا العكس ، وقد وضعتُ عليها علامة التقديم والتأخير قبلَ إذنكم .

ومنه قولُكم : (شدة الحزن الذى ليس مثله فى هذه القوى الإنسانية الباطنة) فاستعمال (ليس) هذا الاستعمال الجرائدى أى بحذف اسمها أو خبرها مما لم أستطع هضمه على كثرة قراءتى له فى كلام أكثر كُتاب العصر ، وأنزّه قلمَكم البليغ عنه ، فإما أنْ تقولوا كما قال اللّه تعالى : ﴿  ﴾ [الشورى : 11] أو ما يقرُب منه ، وإما أنْ تأتوا بلا النافية للجنس التى نَسِيَها جميعُ كُتَّاب العصر حتى كأنَّها ليست من اللغة(★) . . . إلخ .

★ ★ ★

وكتب إلىَّ فى 22 شعبان 1342 :

سيدى الأخ الكريم والولّى الحميم :

أحيّيك وأُهنئك بلقاءِ الأهل والولَد ، ثم بشهر رمضانَ ربيعِ أرواح المؤمنين ، وإنى لفى وحشة ، وأىّ وحشة ، لانقطاع مكتوباتك عنِّى جزاءَ ما أعترف به من تقصيرى الذى اعتذرت عنه مِن قبلُ ، ورجوتُ أنْ لا أُؤاخذَ به وأن لا تكونَ مُكاتبتُنا كمبايعة التجّار[1] . هذا ، وإنّه لم يأتنى مكتوبٌ منك إلا وكان له مرجوع منّى (إلى أنْ

(★) كانت ترجمتنا لكتاب (آخِر بنى سراج) تأليف شاتوبريان منذ أربعين سنة ، وراعينا فيه الأصل الإفرنسى فوقعت فيه هَنَاتٌ أصاب السيد رشيد فى انتقادها ، فمنها ما كان خطأً ومنها ما لا يصلح إلا بتخريج ، فعندما أردنا تجديد طبع الكتاب قرأه السيد رشيد فنبّه إلى تلك الألفاظ والجمل ، ونحن نعترف بوجاهة كلامه ولكنْ لفظة الزعيم عن البارى تعالى ليست منفردة بل معلَّقٌ بها قولُنا (بحسن المآل) . و(الصلاة) فى كتب اللغة معناها الدعاء ، وقولنا (لم يكن عندهم خارجًا عن الحمراء) معناه لم يكن فى نظرهم إلخ . . . وقد لبينا طلب الأستاذ وصححنا فى الطبعة الثانية ما لزم تصحيحُه .

(1) يقصد أنها تكون من أحدهما مرة ومن الآخر مرة ، وهكذا .

يقول) : جاءنى منك جرائد وكتاب مختار باشا رحمه اللّه ، وكان هذا يقتضى كتاب شكر ، ولكننى لم أكن أعتقد أنك تبقَى فى الآستانة ، ولما طال العهد ورأيت ما تكتب إلى جريدة (السياسة) نويتُ أنْ أأتنف[1] الكتاب إليك لكثرة ما لدىّ من الأنباء والآراء التى أرى مِن الواجب علىَّ أنْ أُناجيك بها ، ومنها ما هو موضوع ما كتبتَ فى السياسة وما خَصَصْتَ به صديقَنا الثعالبى ، وأطلعنى عليه . وقد كنت شَرَعْتُ مرةً فى كتاب إليك لم أستطعْ إتمامه فى ذلك اليوم ، فجاء محمد شفيع ورسم فوقه رسمًا أتلفه به (يعنى به ولده محمد شفيع ، وكان وقتئذ طفلاً) ثم قال : اطلعت على كتابك الأخير إلى صديقنا الثعالبى ، وكان أطلعنى على كتاب قبله من الآستانة ، فاستحسن فيه ذهابه إلى اليمن ، وكنتُ أولى منه بما كتبتَ إليه ، فإنّه عندما جاء كان وفدى قد ذهب إلى اليمن برسالة لو رأيتها . . . وقد كان من تأثيرها فَشَلُ المفاوضة التى كتبتَ أنتَ ما كتبتَ بشأن الإنكار على ما بلغك من أمرها . ولما وصل الوفد كان الكولونل جاكوب ضيفًا عند الإمام فى الروضة من ضواحى صنعاء ، وكان والى عدن قد كتب إلى الإمام احتجاجات على تعدى رجاله على بعض البلاد المحميّة (إلى أن يقول) : وكان من فوائد الوفد توثيق المودّة بين الإمام وبين سلطان نجد ، وهو ما كنت نجحت فى إقناعهما به بالمكاتبة . (إلى أن يقولَ) : لو ذهب صاحبنا فلان ومن شاء معه لما كاشفهم الإمام بشىء من أسراره ، وهو لم يثق بأخيك إلا بعد مكاتبة 12 سنة ، كان البدء بها بعد إرسال رسول إليه أتذكر أنَّ لك علمًا بأمره ، وهو السيد محمد بن عقيل الشهير ، وكان قد جاء القاهرة لمذاكرتى فيما يجب أن يعملَ فى اليمن بعد مكاتبة بينى وبينه إذ كان فى حضرموت ، وكلفته أنْ يذهبَ مع الوفد ، وقال إنْ تذهبْ أذهبْ حتمًا وإلا حفظت لى الخيار إلى ما بعد الحجّ ، وذهب مِن هنا إلى الحجاز فمرض - وهو ممراض - واشتد عليه المرض فسافر إلى سنغافورة حيث مَحَلُّ تجارتِهِ (ثم ذهب إلى اليمن وتوفى هناك رحمه الله) . ثم ختم السيد كتابه بأخبار تتعلق بالجمعية التى أسسها لإصلاح الحجاز ، وأنه دعا الثعالبى للدخول فيها ، وأنه

(1) استأنفه ، وبدأه من جديد .

كان هو وسيد كامل المحرِّر فى جريدة السياسة من المعوِّقين للتنفيذ بسبب اقتصارهما على أمر واحد في قانونهما وهو المؤتمر الإسلامى ، وأنه وقع خلاف ، ودخل رجل فى الجمعية للتوفيق بين الآراء وهو عثمان باشا مرتضى ، وأنه سيعلن تأليف الجمعية لأنَّ السيد أقنع سعد باشا بها . . . إلخ .

★ ★ ★

وله إلىَّ كتاب مؤرَّخ فى 6 جمادى الآخِرة 1343 أوّل يناير 1925 :

سيدى الأخ الكبير :

أبطأتُ فى الكتاب[1] إليك فى هذه المرة بالنسبة إلى ما أُحب أنْ أُناجيك به لا بالنسبة إلى المبادلة في المكتوبات ، فإنه لما يأتِنى مرجوعُ كتابى الأخير إليك ، ولعلَّه لم يصلْ إليك إلا متأخرًا . . . إلخ . إلى أنْ يقولَ عن طبع (آخِر بنى سراج) ما يلى :

أَحْببتُ أنْ أقرأه كلَّه وأكتبَ إليك بما أرى أنْ تصححه حتمًا أو ترجيحًا أو استحسانًا ، فلمَّا لم أجد فراغًا لذلك شرَعنا فى الطبع ، وعملت بإِذنك فى التصحيح لما لم أرَ بُدًّا من تصحيحه بل لبعضه ، وتركت بعض الجمل أو المفردات التى يحتاج الفصل فيها إلى مراجعتك أو مراجعة الكتب ، وهى قليلة لئلا يطولَ الزمان ، ولا سيما إذا كانت تحتمل وجوهًا من التأويل ، على ما كتبتَ إلىَّ فى مثلها مما استحسنت تنقيحَه بما هو أَولى بقواعد علم المعانى منه .

(إلى أنْ يقول) : ومن أسباب تأخير الشروع فى الطبع أولاً أَنّنى كنتُ أرجو أنْ تجىء مصرَ ، وأنْ نقرأ القصة معًا ، ونتذاكر فيما يحسن تصحيحُه أو تنقيحُه منها ، وذلك أنَّ عبارتها دون ما يعرفه العلماء والأدباء من كتابتك بأنها ترجمة ، وبأنها من أول العهد بتمرُّنك على الترجمة على أنَّ أسلوبها الفتىّ هو أسلوبك الكهل فى روعته

---

(1) مصدر (كَتَبَ) **تقول** : كتب يكتُب كَتْبًا وكتابًا وكتابةً .

وجماله وبلاغته وإبداعه كثيرًا من فرائد اللغة وطرائفها ، وإنما تقف أفهام بعض أدباء العصر وأذواقهم فى بعض المفردات وبعض التراكيب ، وقد يكون منها ما هو خاص بأذواق أُدباء مصر الذين لا يُنكرون أنه صحيح ، وأنه كان مستعملاً فى كتابة البلغاء بل فى كتب الشرع ككلمة « التناكح » ، لكنّهم يستهجنون مثلَ هذه الكلمة فى الرسائل الأدبية لأن هذا اللفظ صار فى عرف بلادهم مرادفًا لأَصْرَحِ ألفاظ الوقاع . وقد كنت عازمًا على أن لا أذكُر مثالاً لئلا يثيرَ بحثًا وجدالاً نحن فى غنىً عنه ، وإنَّ إخلاصى فى مودتك وحرصى على المحافظة على صِيتك ، الذى أخذتَه بحقٍّ ، هو الذى حملَنى على ما كنتُ - لولاهما - فى غنًى عنه . . إلخ .

ثم إنّه يذكر لى مسائل متعلقة بمؤتمر الخلافة الذى كان انعقد فى مصر تلك السنة كما لا يخفى . وبعد أن لامنى على مكاتبة بعض المشتغلين فى ذلك المؤتمر على تَوَهُّم أنه من ذوى الشأن فيه قال ما يلى :

اقترحتَ علىَّ أنْ أَكَتُبَ إلى بعض معارفى فى البلاد الجاوية[1] بوجوب إرسال وفد إلى مؤتمر الخلافة ، وكنتُ قد فعلتُ ، وطلبتُ أكثر من ذلك : طلبتُ إرسال وفود من الجاويين ومن العرب المقيمين فى تلك الجزائر وأكثرهم حضارمة ، وطلبت عناوين جميع السلاطين والأمراء التابعين لهولندا وإنجلترا وهى كثيرة . ولكنَّ العربَ هنالك مختلفون ، والسادة والمتشيعون لهم من العرب والجاويين متشائمون من مؤتمر مصر ، ومنهم مَن ينوى الاحتجاج على جعل الخلافة بمصر ، وأكثر الجاويين القُحّ يودون أنْ يكونَ الخليفة بمكةَ ، فهذا أهمّ كُلّيات آرائهم بالإجمال . ولكنّ الأمر المهم أن رفاقنا أعضاء مجلس إدارة المؤتمر هنا مقصّرون فى كلِّ ما يجب عليهم من علم وعمل لهذا المشروع ، ولا أستطيع أنْ أقولَ أكثرَ مِن هذا[★] .

---

(1) نسبة إلى (جاوة) إحدى جزر المحيط الهندى .

(★) بعدَ إلغاء تركية للخلافة بادر العقلاءُ والمفكِّرون من المسلمين إلى النظر فى هذا الموضوع حتى لا يبقى الإسلام بلا خليفة ، وكان محرِّر هذه السطور ممن أشار بمعالجة هذه المسألة فى مؤتمر إسلامى عام ، فصادفت هذه الفكرة قَبولاً فى جميع الأندية الإسلامية ، وبالاختصار نقول إن مؤتمر الخلافة انعقد فى مصر سنة 1343م، وبعد أنْ تذاكروا مَليًّا فى الموضوع لم يجدوا مملكة إسلامية فى هذا الوقت تقدر أنْ تقوم بشروط =

وفى خاتمة هذا الكتاب يذكرُ لى السيد رشيد التماسَ بعضهم منه التوسطَ فى الصلح بين الملك على بن الحسين ، الذى كان محصورًا فى جُدَّةَ ، وبين ابن سعود ، وأنهم استعجلوه واقترحوا عليه أنه إذا كان يرضى أنْ يدخل فى هذه الوساطة يكتب إليهم برقية بكلمة « مقبول » ، فيستقدمه الملك إلى جدة ، فأجابهم بأنَّ الصلح إذا لم يكن مبنيًّا على أساس ثابت فلا خير فيه ، وقد بيَّن الأسباب التى يراها مانعة مِن عَقْدِ صلح متين .

ومنه كتاب مؤرَّخ فى 15 يناير سنة 1925 :

سيدى الأخ الأمير حياه اللّه تعالى :

أوّل من أمسِ أُلقى إلىَّ كتابك المرسَل من برلين مؤرَّخًا برقم واحد من هذا الشهرِ ، ولكنَّه خرج منها فى 6 منه ، ووصل كتابٌ قبلَه باسم الشقيق . . . إلخ . وهنا كلام يتعلق بطبع (آخر بنى سراج) ثم فيه يأتى : وهاك[1] الجوابَ عن أهمّ مسائل الكتاب :

(1) ما وصفت من حالك وحالى هو الواقع وهو الواجب أنْ يكون فى الوسائل كالمقاصد ، ومن صفاتنا المشتركة العامة أنّ كُلًّا منا قد حذَق[2] المناظرة والجِدال ، ولا ينبغى أنْ يقعَ ذلك بيننا ، وإنْ توخَّينا إتقاءَ المِراءِ[3] فيه والانتصار للرأى وتحرَّينا

= الخلافة سوى مصر ، ولكنَّ الاحتلال الإنجليزى وعدمَ تمتع المملكة المصرية بتمام استقلالها يومئذ جعلا سبيلاً للاعتراض على جعل الخلافة في مصر ، وكان أكثرُ المعترضين هم من مسلمى الهند والجاوى ، ولا نظن نحن الآن بعد زوال المانع المذكور أنَّ جمهور المسلمين يعترض بعدَ الآن على جعل الخلافة فى مصر ، غير أننا أشرنا فى مقالة لنا بجريدة « كوكب الشرق » نشرناها من شهرين أن الأولى بالمسلمين أنْ يتربّصوا ريثما تكون مصر نظمت جيشها البرىَّ وقوتيها البحْريّة والجوية ، ويكونُ مضى عِدةُ سنوات على الطور الجديد الذى دخلت فيه ، ويكون مَلِكُها الشابُ قد حققَّ ما تتوسّم[1] فيه الناسُ من أمائر[2] الخير .

(1) **هــاك** : اسم فعل أمر بمعنى (خذ) مسند إلى كاف الخطاب .

(2) **حَذَقَ** : أجاد .

(3) **المِراء** : المناظرة والجدال .

---

(1) تنتظره وتتوقعه .

(2) أمارات وعلامات .

الحقَّ دون الغلب . وإنما الذى يَحْسُنُ منا بيانُ كلِّ ما يجب أنْ يعرفه أخوه من رأيه بدون أسلوب الردّ كما أشرت إليه فى كتاب سابق ، فإنْ رأَى أحدُنا أنَّ قلم الآخر قد جمح به بتأثير العادة ، فدخل فى ميدان الجدل والاحتجاج ولو بغير قصد ، وصارت مجاراته فيه من قبيل المسابقة والمباراة فَلْيُمْسِكْ ، كما فعلتُ فى مسألة ما اقترحتُ تنقيحَه مِن جُمل الرواية بما هو أفصحُ منه وَأَدْخَلُ فى قواعد المعانى والبيان . فليس كلُّ ما كتبه أخى فى الموضوع كان مسلَّمًا عندى بل بعضه - وكذلك ما كتبه فى مسألة الحجاز ونجد - فرأيتُ ألاَّ أعودَ إلى الكلام فى غير المسلَّم لأنه ليس من المقاصد التى يضرُّ تركُها مبهمًا ، وليس من البديهيات التى يتم الاتفاق عليها بوجيز من القول ، ومثل هذا لا يَسْهُلُ إيضاحُه إلا بالمشافهة .

(2) معاهدة ابن سعود مع الإنجليز كان أخبرنى بها الملكُ فيصلٌ الذى نشرها فى هذه الأيام فى بعض جرائد العراق ، وأُرسلتْ نُسَخٌ منها إلى جرائد سورية ومصر ، وكنتُ أَشرتُ إليها فى بعض مكتوباتى إلى ابن سعود ، وقلت له إنهم كانوا أَحوجَ إليكم منكم إليهم ، وإنهم يَرْضَوْنَ منكم بما دون تلك القيود التى ظننتم أنها لا تضركم لأنكم تنوون أنْ يكونَ لكم علاقة ما بالدول . . . ولم يجبنى على هذا المعنى ، ولكنّنى ذكرتُ له أَنَّ المخرج منها يسهُل الآن بمخالفتها فى ما يحتاج إلى المخالفة فيه ، فتسقط بنفسها ؛ إذ لا يمكن أن يترتب على مخالفتها حربٌ ، وإنما ينحصر تأثيرها فى الاستغناء عما التزموه له إذا هو التزم الوفاء بما عاهد عليه منها . وهو قد خالفها فى أمور متعددة منها مهاجمة العراق ثم مهاجمة الحجاز أَخيرًا ، ومنها الاتفاقُ مع إمام اليمن بدون علم منهم ، والاتفاقُ قبل ذلك مع الإدريسى بما يُعَدّ معاهدة مدوَّنة(★) .

(3) إشاعةُ وَعْدِ ابن سعود للإنجليز بالإغضاء عن العقبة ومدائن صالح ومعان إنْ

(★) كان الإنجليز عقدوا مع ابن سعود وهو بعد فى نَجْدٍ معاهدة خدعوه بها ، وحمَلوه على تَعَهُّدَات تَمَسُّ فى الحقيقة استقلالَه إلا أنه عندما استولى على الحجاز تنبَّه للأمر ، وعقد معهم معاهدة بحرة التى ألغى بها المعاهدة السابقة ، وكان السيد رشيد ممن أصرَّ عليه فى نقض تلك المعاهدة الخبيثة التى تقدَّمت ، فصار بعدَ ذلك حكمُها لغوًا . . .

هم تركوه يملِك الحرمين لم أسمع بها ، وأُجزم بأنّه لا أصلَ لها(★) ، وإنما رأيت أَخانا الأمير عادلاً يخشى أنْ يكونَ عدم سبق ابن سعود إلى احتلال هذه المواقع مبنيًّا على ما ذكرتم ، والأمير عادلٌ شديدُ التشاؤم والنقدِ ، قلَّما يظنُّ غير السوء ، وأَنا لم أسمع ما ذكر إلاَّ منه . إنّ دِينَ ابن سعود وتعصُّبَ قومه يحولان دون الاتفاق مع أجنبى على حصاة من أَرض الحجاز ، أو لم يبلغْك ما كتبه إلى نورى شعلان من السماح له بالمقام فى الجوف بشرط منع الإنجليز مِن مدّ سكة حديدية تمرّ منه إلى العراق ، والأميرُ عادلٌ قد رأى هذا الكتابَ . ثم إنّ ابنَ سُعودٍ صَرَّحَ هو وابنُه فى بعض ما نَشَرَا بمنع الأجانب من الجزيرة .

(4) أما الإشاعة الثانية ، وهى وَعْدُه لهم بجدة وينبع والعقبة فهى أغرب ، ولم أَسمع بها قطُّ ، ويظهر أَنَّ الدِّعاية الحجازية لإدخال ذلك عليك تفوق الدِّعاية لِغشّ سائر العالمِ ، وحسبُك مِن افتراء القوم علىَّ أَنا بأَنّنى كتبتُ لابن سعود ما سألتنى عنه مِن انحراف الناس فى مصر عنه . . . وهو بهتان محض ، لا أصلَ له .

(5) قرَّرت لجنتنا تأجيلَ المؤتمر ، وستعرض قرارَها على مجلس إدارة الخلافة الذى يُعقد بعد غد . وقد ضاق الوقتُ الآن ، والسلام .

رشيد



وكتاب تاريخه 19 المحرم 1343 و 20 أغسطس :

أخى الكريم ووليِّى الحميم :

السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعدُ فقد أُلقى إلىَّ كتابك الكريم المؤرَّخ فى أَول أغسطس ، فبادرت إلى إيذان أعضاء اللجنة بوجوب عقد اجتماع خاص لتنفيذ

(★) نعم قد أَشاع ذلك بعضُهم ، ولعلَّها من أَوضاع الفئة الأخرى ، وإذا تبدَّل الحكم فى مملكة من الممالك كثُرت الأقاويل ، ولكنْ لم يكن لتلك الأراجيف[1] أَدنى نصيبٍ من الصِّحة .

---

(1) الشائعات ، ومفردها الإرجاف .

اقتراحك ، فتيسّر ذلك فى مساء 17 منه إذ كان نجيب بك غائبًا قبلَ ذلك (وهنا كلام يتعلّق بطبع بعض الكتب) ثم يقولُ :

كنتُ عقب فِعْلة الكماليين بخلافتهم شَرَعْتُ فى كتابة مقالات فى الأهرام للتنبيه والتذكير بما يجب أنْ يُعْمَلَ إذ رأيتُ العالمَ الإسلامى قد اهتمَّ بفعلتهم الأخيرة ما لم يهتمّ بما قبلَها لأنّه كان يحتمل التأويل مِن كتابة الجاهلين ثم قَرفت(★) مما قرأتُ وسمعت ، فتركت الكتابةَ أشهرًا كثُرت مطالبةُ الناس إياى بالعود[1] إلى ما تركتُ وإتمامِ ما بدأتُ ، فلم أجد بُدًّا من الإجابة . وفى المقالة السادسة التى نُشرت فى العدد الذى صدر صباحَ اليوم نقلتُ بعض الآراء التى كتبتَها إلىَّ فى كتابك المطوَّل ، وَبيَّنتُ فيها وجه إنكارى على الرأى الذى كتبتُ إليك أنّه أبعدُ تلك الآراء عن الصواب عندى ، ولم أُصرِّح بِعَزْوِ المنقول إلى اسمك ولا إلى بعض الألقاب التى اشتهرت بها(★★) . وفى نَشْرِ تلك الآراء حكمةٌ لا مَحَلَّ هنا لشرحها . وإنَّ فيما كتبتُ مسائلَ أُخرى قد اختلف فيها الفهم والمراد بيننا ، وأهمُّها مسألة إمكان نَصْبِ خليفة مستجمِع للشروط الشرعية ؛ والحقُّ أنَّ ذلك ممكنٌ ، وإنَّما عِلّة العِلل جهلُ العالم الإسلامىّ وتخاذلُه وعدمُ وجود هيئة تمثّل مراد الشرع من الحلّ والعقد ، أَوْ يكونُ لها نفوذ معنوىّ يحترمه العالم الإسلامىّ كاحترام أهل الحلّ والعقد ، إنّنى بيّنت حقيقة شكل الخلافة لا لأنَّ لى رجاءً قويًّا بأنْ يقومَ به المسلمون اليوم ، وقد صرحت فى كتاب الخلافة بأنه لا يَقْدِرُ على إقامتها على الوجه المؤقت ثم ما بعده إلاَّ التركُ بحكومتهم

(★) استعمل الأستاذ هنا لفظة « قَرِفْتُ » بمعنى ضجرت وسئمت ، وهو استعمال عامى لا أصلَ له فى اللغة ، فالقَرَف بالتحريك مداناة المرض ، وفى الحديث إنَّ قومًا شكوا إلى رسول اللّه ﷺ وباء بأرضهم ، فقال لهم : تحوَّلوا فإنَّ من القَرَف التلفَ . **قال ابن الأثير** : القَرَف ملابسة الداء ومداناة المرض ، والتلف الهلاك .

(1) بالعودة ، يقال عاد يعود عودًا وعودةً .

(★★) هذا الرأى كان نقل الخليفة عبد المجيد العثمانى إلى بلد إسلامى كالحجاز أو اليمن ، أَو جعل مركزه فى الموصل بين العرب والأتراك والأكراد على أنْ تبقى حكوماتُ تلك البلدان كما هى الآن ، ولكن الخليفة يكون خرج من بلاد الأجانب ، وسكن فى بلاد الإسلام ، فالأستاذ لم يستحسن هذا الرأى لأسباب ذكرها ، وإنما كنت أنا فيه متابعًا لكثير من المسلمين الذين كانوا يَرَوْنَ عارًا بقاء خليفتهم بالأمس حيرانَ تائهًا فى بلاد الأجانب لا يقدرُ أنْ يطأ بقدمه بلدَ إسلامٍ .

الجديدة لإقامة الحجّة عليهم وعلى غيرهم . . . وكما أنه لا يُرجى إقامة الإمامة الحق كما يجب لا يرجى إقامة خلافة قريبة منها يعترف بها العالمُ الإسلامى كلُّه . وسيكون المؤتمر عقيمًا إذا لم يجتمع فيه أَمْثَلُ عقلاءِ المسلمين المعتدلين من طُلاب الإصلاح الدينى المدنىّ ، وقد كان جهلُ المسلمين حقيقةَ حكومةِ الإسلامِ من أكبر المصائب ، فَسَنَحَتْ الفرصةُ لإعلامهم بها ، والعلمُ لا تُنْكَرُ فائدته ، ولم يكونوا قبلَ الآن مستعدِّين لفهم ذلك ، والمسألة طويلةُ الذيلِ ، لا يُمْكِنُ بيانُها بالكتابة مهما طالت . والسلام عليك من أخيك .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 24 ربيع الأول سنة 1343 :

سيدى الأخ الكريم :

وصل كتابك المتسم بظَفَرِنا السياسىّ والدينىّ فى الحجاز ، ثم قرأْتُ مَقَالَيْكَ فى جريدة (الأهرام) فرأيتُ فيهما ما يخالف رأيى فى بعض الآراء وما يُخالف ما عندى من العلم اليقينى فى بعض الأخبار ، وتمنيتُ لو كنتُ اطلعت على جميع ما كنتَ نشرتَه فى هذا الموضوع ، ولأنَا أَشدُّ تمنيًا لو أمكن أنْ تمرّ بنا فى طريقك إلى أوروبا[★] فأُطلِعَك على ما لا يُمكن أنْ يُكْتَبَ فى الجرائد ولا فى الرسائل البريديّة مما كتبت إلى سلطان نجد وإمام اليمن وما كتبا إلىَّ لتكونَ على معرفة وبصيرة تامة من خفايا قضيتنا الكبرى ، فيكون ما ترتأى[1] وما تقترح بفكرك المنير وقلمك الأعلى فى التحرير نتيجةَ مقدِّمات يقينّية لا خطابيّة ولا شعريّة .

بالغتَ فى مجاملة حسين وأنصاره ، فوضعت النَّدى[2] فى موضع السيف كعادة

(★) كنتُ فى مرسين وكان مرادى أن أعودَ إلى جنيف .

(1) **ارتأى الأمر** : أبصره ، ويقال ارتأى رأيا فى الأمر : رآه .

(2) **الندى** : الكرم والجود .

الشجاع الكريم فى وقت الظَّفَر ، وزكَّيتَ ولدَه عليًا بشهادات لا تدلُّ على هذه التزكية ، وإنْ فرضْنا أنَّ أصحابها عدول ، وأنا أَشهد مع الشاهدين بأنَّ آداب حسين وأولاد حسين كلِّهم مع الناس ولا سيما الغرباءُ ، الذين لا سلطانَ لهم عليهم آداب جميلة كآداب أرقى الترك فى الآستانة - وأعلم مع هذا علمًا صحيحًا أنَّ حسينًا لم يترك إيوان كسرويته ، ولم ينزل عن عرش قيصريَّته ، وهو يرجو البقاءَ فيهما بقوّته الهاشمية أو بحماية « العظمة البريطانية » إيثارًا لحقن الدماء وتنزيهًا لحرَم اللَّه تعالى أنْ يُلَطِّخه بدم العرب ، كما لطَّخه بدم الترك والعرب من قبلُ . إنّه لو كان يرجو أو يَظُنُّ أنّه يمكنه البقاءُ هنالك وافتداءُ نفسه بالألوف من الحجازيين وغيرهم لفعل ذلك ضاحكًا مسرورًا بلذَّة الظَّفَرِ ولذة التشهير بالوهابيين فى البدو والحضر . ولكنَّ كُلَّ قوته الحربية أو جُلَّها كانت فى الطائف وفى هدى وهو موضع بينه وبين عرفات بطريق مكة فى شناخيب جبال من معاقل العُصم(★) تعجز عن تسلقه المعز[1] ، وقد رُفعت إليه المدافع فى وقت السِّلم قطعًا مفكَّكة ، وهى أَحْدَثُ المدافع السريعة التى يخرج منها فى الدقيقة 25 قذيفة ، تنفجر فى الجو ، فتقتل الواحدة منها خلقًا كثيرًا ، يديرها ضباط معلَّمون وجنود يمانيون مُمرَّنون ، وفى كلتا المعركتين ظفر الوهابيون ، وغنموا ما هنالك من سلاح وعتاد بعد أن فرَّ الأمير على ملك جدة اليوم منهزمًا منها ، ثم من مكة إلى بحرة ، ومنها إلى جدة بدون قتال ، لا إيثارًا لحقن الدماء كما زعم من معه فى جدة . . . إلخ . ثم ذكر أعمالاً متعلقة بإدارة الملك علىّ رحمه اللَّه لا نجد لزومًا للكلام عنها ، لا سيما أنَّ الأستاذ كان فى الصفِّ المناوئ[2] لذلك البيت الذى أنصاره يردُّون كلام الأستاذ حقًّا كان أو باطلاً ، وإنَّنا فى نقل هذه الرسائل الخاصة مضطرون إلى حذف كثير منها مما نَشْرُهُ يُوغِرُ الصدورَ بعد أنْ مضت تلك الحوادثُ ودخلت فى التاريخ ، إلا أنَّنا مضطرون أيضًا إلى نقل العبارات المتعلِّقة بالسياسة

(★) رأيت هذه المعاقل بعينىَ رأسى ، وصعدت إلى أعلى الجبل التى هى فيه ، ويقال له جبل الهندى ، وسمعت هناك أنَّ الحامية التى كانت فيها تركتها بدون قتال .

(1) كناية عن صعوبة صعوده البالغة .

(2) المُعادى .

الإسلامية العامة وإنْ شذّبناها[1] بقدر الإمكان ، وذلك كقوله (فى هذا الكتاب نفسه) : وأوّل عمل سياسىّ له أمرُه لفلان . . . بإمضاء المعاهدة البريطانية العربية التى تجعل للإنجليز الطامعين حقوقًا قضائية وسياسية فى الحجاز ، فهل يجوز لأحد يؤمن باللَّه وبرسوله ﷺ الذى أوصى فى أمر الحجاز وسائر جزيرة العرب بما أوصى قبلَ وفاته بخمسة أيام أنْ يجعل لهؤلاء أدنى نفوذ أو سلطان فى الحجاز ، ومن مواطن الضعف أنْ يُوصفَ حسينٌ بالمخلص لقومه الجدير بأن لا يَنْسَوْا فضلَه بأنْ يرجعوا إليه إذا حَزَبْتهم[2] الخطوبُ . فإنْ صحَّ هذا الوصف بضرب من ضروب التأويلات الجدلية فأىُّ خائنٍ أو جانٍ على أمته يعجَز أنْ يتأوَّلَ لنفسه أو يتأوَّل له من شاء بمثل ذلك[★] .

---

(1) تَخَفَّفْنا من بعض ألفاظها أو عباراتها .

(2) اشتدَّت عليهم .

(★) كنت فى الصف المقاوِم للملك حسين قبلَ الحرب وأيامَ الحرب كما يعلم ذلك الجمهور منتقدًا سياسته فى الخروج على دولة الخلافة وأكثر من هذا فى ثقته بالدولة البريطانية وعهودها ، وكان الملك حسين - عفا اللَّه عنه - وأنصاره من العرب يحملون علىّ حمَلات شديدة باللسان والقلم ، وكثيرًا ما كتبتْ جريدةُ القِبلة طعنًا وقذفًا بحقّ كاتب هذه السطور يدل على ما هناك من ضِغْنٍ ، ولم يكن بينهم مَنْ هو عَف اللسان بحقى غيرَ الملك فيصل . وكنت أحبه منذ كان زميلاً لى فى مجلس الأمة بالآستانة ، وانتهت الحربُ العامة ، وتقاسمت دُول الحلفاء البلاد العربية ، وظهر ما ظهر من نكث الإنجليز بعهودهم ، وبقى الملك حسين - عفا الله عنه - مستمرًا على الوقيعة بى بالرغم من أنى عند تأسيس الحكومة المستقلة فى دمشق أعلنتُ وجوب تأييد فيصل والانضواء تحت لوائه ، وكتبتُ فى الصحف وإلى أصحابى بأنّنى كنتُ ضدَّ الملك حسين وأولاده فى خروجهم على الدولة لأسباب يعرفها الخاص والعام ، ولكنْ متى صارت المسألةُ بينَهم وبين الأجانب فلا سبيلَ للتردد فى الانتصار لهم لأنَّ القضيةَ تكونُ حينئذ بين عربىّ وأجنبىّ . فلما زحف ابن سعود على الحجاز ونَشَبَتْ الحربُ بينَه وبينَ الحسين خِفْتُ أنْ تقعَ مذابحُ ، وتنزلَ بأهل الحجاز مصائبُ ، وأنْ تسيل الدماء فى باحة المسجد الحرام فيحتقرنا الأجانب ، وَيَشْمَتُ بنا أعداءُ الإسلام فكنتُ ذلك اليومَ من دُعاة الصلح بين الحسين وابن سعود ، وإنْ كنتُ فى ذات صدرى أَميلُ إلى ابن سعود وَأُحْسِنُ رأيًا فيه منّى فى الحسين بتأثير ما كان قد سبق من العداوة بينَنا ، فكنتُ فى تلك الآونة أغلِبُ هواى وأَدعو إلى الصلح بين الملِكين لأجل حقن الدماء ، وكان السَّوَادُ الأعظم من الأمة على هذا الرأى ، وبينما نحن نترقب توسُّط المسلمين فى الصلح بينهما إذ فاجأتْ طلائعُ للوهابيين مدينةَ الطائف ، ولم يكن لابن سعود علم بحركتهم وبعملهم فدخلوا البلدة عَنْوَةً ، وذبحوا عدة مئات من أهلها المساكين ، وقُتِلَ من الجملة صديقى الشيخُ حسن الشيبى الذى كان زميلى فى مجلس الأمة فى الآستانة كما كان الأمير فيصل بن الحسين ، وقرأتُ هذا الخبر وأنا فى جنيف حيث أنا الآن فارتمضتُ[1]=

---

(1) **ارتمض من كذا** : اشتدّ عليه ، وأقلقه .

قال شيخنا فى السياسة السيدُ جمالَ الدين لشيخنا فى العلم الشيخ حسين الجسر : إننا لا نخطو خطوة إلى الأمام ما لم نُعطِ كلَّ ذى حقٍّ حقَّه ، فنُسمِّى المحسنَ محسنًا كما نُسمِّى المسىء مسيئًا ، وإنما يحسن العفو والمجاملة فى الحقوق الشخصية دونَ القوميّة والمليّة . قال لى شيخنا الأستاذ الإمام : إنّنى عفوت عن جميع من أَساء إلىَّ ، وعاشرت كثيرًا منهم وساعدتهم ، ولكنّنى لم أستطعْ أنْ أَصفحَ عن نفرٍ خانوا الوطن فى عهد الفتنة العرابية ولا أنْ أُكلمهم كفلان باشا وفلان باشا ، ولما صرتُ عضوًا فى مجلس شورى القوانين عظُم علىَّ أنْ أكونَ فى مجلس يرأسُه فلان باشا أَو يضمنى معه مكان ، فرحمنى اللّه تعالى بموته قبلَ أنْ أبتلى بذلك (إلى أن يقول الشيخ رشيد) :

كتبتُ هذا إلى أخى ووليّى فى خدمة هذه الأمة مقدِّمةً بين يَدَىْ إعلامه بأَنّنا - نحن العاملين لهذا الانقلاب - لا نُجيز إمارةَ أَحد جرّبناه (إلى أنْ يقول) : إننى لا أشك فى حسن نية أخى فيما كتب ، ولا أشك فى قدرة قلمه البليغ على إبرازه فى معارِضَ أُخرى من البيان ، ولكننى أحب أنْ يعلمَ أنَّ المسألة لم تبقَ من المسائل النظرية التى نحتاج فيها لِنستبينَ الصوابَ فنعمل به ، بل هى مسألة عملية مبنية على حُجة يقينية ،

= وأسرعت بالإبراق إلى بعض أصحابى بفلسطين ليحملوا المجلس الإسلامى الأعلى على التوسط فعلاً بين الملكين حتى يتهادنا ثم يقع الصلح ، وكان أكثر خوفى هو أنْ يدخل الوهابيون إلى مكة فيقع فيها ما وقع فى الطائف ، وتكون فظيعة شنعاء فى تاريخ الإسلام ، فبادر الحاجّ أمين الحسينى وغيره من رؤساء هذه الأمة للتدخل لدى ابن سعود فى الصلح حقنًا للدماء ، وانهالت البرقيات على جلالة سلطان نجد يومئذ بطلب منع الوهّابيين من الفتك بأهالى الحجاز ، وكان السلطان عبد العزيز قبل أن يأتيه النداء من العالم الإسلامى فى هذا الموضوع قد تقدَّم بنفسه وعجَّل بالأوامر الصارمة إلى النجديين ، فلم يتكرر شىء يُشبه حادثةَ الطائف بل دخل النجديون إلى البلد الأمين ، وطافوا بالبيت الحرام بلا سلاح ، ولم يقع أدنى حادث منكر بفضل حزامة[1] ابن سعود وصرامته .

أما السيد رشيد فكان يرى ضررًا على السياسة الإسلامية بقاءَ الحسين أو أحد مِن آله ملكًا على الحجاز ، وكان معتقِدًا ذلك لا يتزحزح عن اعتقاده هذا ، فلذلك تلقيتُ منه كتاباتٍ كثيرة تتضمن التأنيبَ لى على ما كنتُ أكتبه من قضية الوساطة فى الصلح . ومن البديهىّ أنَّ العداوةَ الماضية التى كانت بينى وبين الملك حسين ، وهو جالس على عرشه ، كانت قد زالت بسقوطه ، وحَلَّ مَحَلَّها الشعورُ الذى يَحِلُّ بكلِّ خَصم كريم الطبع إذا رأى خصمَه مصابًا . وعند الشدائد تذهب الأحقاد .

---

(1) حزُم حزامةً : كان حازمًا فهو حزيم .

فإذا استحسنها كما نرجو تعاونا معه على تنفيذها ، وإذا كانت البيّنات عنده غيرَ كافية فالمرجوُّ أنْ لا يكونَ قلمُه الصارم قوةً لخصومنا . لا أعنى بخصومنا مَن بقى فى وطننا من المغرورين بهؤلاء وهم قليل ، فنحن لم نبال بِهم حين كانوا هم الأكثرين ، وإنما خصومنا هم الأجانب الذين سَعَوْا جَدَّ السعى لإيجاد خصوم للوهابيين وأنصارٍ للفئة الأخرى ، يرتفع صوتهم فى الجرائد ليكون ذلك وسيلة لتدخل الحكومة البريطانية فى مسألة الحجاز بحُجة خدمة الإسلام والمسلمين ، فأظفرنا اللّٰه تعالى عليهم ، وأحبطْنا دسائسهم التى لم يتدنس بها كاتب مسلم معروف . أما وقد علمت هذا وما قصصناه مِن قبلُ فلا ريبَ بأنَّ صارمك البتّار لن ينبوَ بعدُ فى جهاده معنا . . . إلخ .

ثم إنَّ الأستاذ يذكر فى نهاية هذا الكتاب أنَّ أخى عادلاً وغيره حملوا أصحاب النفوذ فى العالَم الإسلامى على إقناع ابن سعود بمصالحة علىّ بن الحسين لأنهم خافوا من وضع جُدَّةَ تحت الحماية البريطانية ، فصارت ترسل البرقيات بهذا المعنى ، ولكن العالَم الإسلامى لم يُظهر الجنوح[1] إلى هذه الدِّعاية ، وإنما مال إليها الشيعة فى إيران والمحمرة لشدّة التباين بينهم وبين الوهَّابية على أنّ رجال الجامعة الإسلامية وأعداء السياسة البريطانية فى إيران يفضِّلون سيادة ابن السعود فى الحجاز والعرب على سيادة الحسين وأولاده ، كما يُعْلَمُ مما علقتْه جريدة « اتحاد إسلام » على منشور (فيصل) نجل سلطان نجد ، وستراه فى (المنار) .



وكتب إلىّ فى 8 ربيع الأول 1343 :

سيدى الأخ الكريمُ والولىّ الحميمُ :

كنتُ متوقِّعًا وصولَ كتاب منك فى هذا اليوم فوصلَ ، وكنت عازمًا على الكتاب[2] إليكم على كل حال على كثرة الأعمال وضيق الليل والنهار عن المهم منها . أمَّا ما فى الكتاب لِلَّجنة فسنجمعها لأجله ، وأما الخاصُّ بى منه فكلُّ ما ذكرتموه فيه حق

---

(1) الميل . (2) مصدر (كَتَبَ) .

ومعروف عندنا ، وقد سمعنا أكثر مما سمعتم مِنْ الآراء الشاذة الدالة على الشعور المضمَر ، وجميع رفاقنا يعرفون كُنْهَ[1] ذلك ، وقد سبق لى مكتوبات أَدليت إليك فيها بشىء منه ، وكم تحدّثنا فيما تقترحه الآن ، وكم هممنا ولم نفعل . وأما الآن فنحن على باب طَوْرٍ جديد للمسألة العربية عجِبتُ من عدم إلمامك بشىء من حديثه ، وهو بروز قوة نجد للميدان وزحفها على الحجاز ، وقد ثبت أنَّ حسينًا سقط مخلوعًا أو متنازلاً ، وأن أهالى جُدَّةَ بايعوا ولدَه عليًا بملك الحجاز وحده ، ولا بدَّ أنْ تكونوا علِمتم بذلك ، وسترون بعض التفصيل فى الجرائد المصرية - وأما الثالث الذى بينى وبينك فلا يتّسع الوقت للفكر ولا للكلام فى اللغة والأدب اللذين هما موضوعه ، فنعود إلى الطَّوْرِ الجديد فى المسألة العربية فنقول فيه كلمة وجيزة .

قبلَ الكلام فى الطَّوْر الجديد أُجيبك عن مسألة الثعالبى بأنَّ ذهابه إلى اليمن قطعىّ ، وقد كتب من عدَن إلى صديق له من المغاربة وآخر من فلسطين . ومما كتبه للأول أنه لما عرَف فلانًا تبين له أننى لم أكن مبالغًا فى شىء مما كتبتُه عنه ، ومنه أنه عرض عليه إمضاء قرار للمؤتمر الإسلامى فأبى ، وقال إنَّ المؤتمر لن يُقرِّرَ ذلك ، ومثله سليمان باشا البارونى .

ثم أجيبك عن مسألة الاحتجاج من بعض اللجان على إخراج جماعة حزب الاستقلال ، فهذا صحيح ، ولكنَّ العلة التى ذكرتموها لم تَخْطِرْ فى بال أحد منّا ، بل نحن لا نجتمع إلا إذا وردت لنا مكتوبات أو برقيات منكم ، ولم يتذكر أحد منا فيذكِّرَ اللجنةَ بهذا الاحتجاج ، والتقصير فى هذا يقع على مندوب حزب الاستقلال معنا وهو أسعد أفندى داغر . اهـ .

ثم يذكُر الأستاذ شماتة مسلمى مصر والهند بخذلان الملك حسين وما كتبت عن ذلك الجرائد ، ويقول إنه حصل انقلاب فى الرأى العام من جهة الوهابية بعد أن نشر هو مقالات فى شأنهم ، ووزع ألوفًا من « الهدية السنية والتحفة النجدية » ، وإن شيخ الأزهر قال له فى ملأ من علمائه : جزاك اللّه خيرًا بما أزلت عن الناس من الغُمة فى

---

(1) حقيقة .

أمر الوهابية . وإنه قال له أيضًا : ما زلت بملك الحجاز حتى أسقطته عن عرشه . ثم يذكر الأستاذ أن استيلاء ابن سعود على الحجاز هو المشروع الذى تتم به أُمنيتنا القديمة فى توحيد قوى الجزيرة وإصلاح أمرها . ثم يعود إلى لومى فى ما قمت به من الدعوة إلى الصلح ، فيقول : إنك أنت أنت[1] على علو مكانتك فى السياسة العامة والعربية خاصة اقترحت على المجلس الأعلى فى القدس بأنْ يسعى للصلح ، وأنا أعتقد اعتقادًا جازمًا أن هذه الفرصةَ للعرب الآن أرجى من الفرصة التى سَنَحَتْ[2] فى أولِ الحرب الكبرى ، وأَضاعها الملك حسين وأولاده . . . إلخ .

ولهذا الكتابِ ملحق تاريخه 11 ربيع الأول يقول فيه إنه قد قبل الدخول فى لجنة مؤتمر الخلافة التى ألَّفها كبارُ العلماء وبعض الوجهاء ، وإنه سَيُعْهدُ إليه بالنظر فى دعوة مندوبى الشعوب الإسلامية إلى المؤتمر ، وإنه سيعمل برأيى فى قَبول مَنْ كتب منهم إلى المؤتمر يطلب الدخول فيه ، ويقول لى إنه سيدعونى قبلَ كلِّ أحد ، ثم يقول إنه دُعى إلى لجنة هذا المؤتمر من قبلُ فلمَ يَقْبَلْ لعدم ثقته بقيامهم بأمره ، والآن يقولون إنهم عزَموا على الجِدِّ . . . إلخ .



وله كتاب فى قضية الخلافة فقدتُ أوَّلَه ، وإنما وجدتُ فيه ما يأتى :

الخِلافةُ والأهواءُ والمؤتمرُ

يا حسرةً على المسلمين ! ما كنتُ أدرى قبل هذين العامين أنَّهم وصلوا إلى هذه الهاوية من الجهل واتّباع الهوى ، وأَنا الذى سلخت 27 سنة أو أكثر وأنا أشكو من جهل علمائهم وفساد أمرائهم وغباوة دهمائهم . إنهم لا يزالون يتخبَّطون فى هذه المسألة تَخَبُّطَ المصروعين ، وقد هديناهم السبيلَ وأَنرنا لهم الدليل ، وبعدَ أَنْ ملأ علماءُ الأزهر أَرجاءَ العالَم جهلاً بما بايعوا خليفة الآستانة بالأمس ، وبما قاموا يُكَفِّرون

(1) تكرار غرضه التوكيد اللفظى .

(2) أُتيحت .

حكومة الكماليين اليوم ويدعون إلى قتالها لإرجاعها عن بَغْيها على خليفة الرسول ﷺ وإمام الأمة بزعمهم ، بعد هذا ، وبعدَ أنْ كلَّمتُ شيخَ الأزهر وسكرتير المعاهد الدينية فى هذه الفضائح ، وبعد أنْ عرَفوا هوى عابدين فى المسألة أصدروا قرارهم الرسمىّ باسم هيئة كبار العلماء ، فقالوا الحقَّ فى خلافة عبد المجيد ، والتزموا الدعوة إلى المؤتمر ، وأبعدوا موعدَ عقده فجعلوه فى مِثْلِ هذا الشهر من العام القابل ، وألَّفوا له لَجنة أكثرُ أعضائها ممن بايعوا عبد المجيد ، ثم نصروه بعد إخراجه ، فزعموا أن بيعتَه لا تزال فى أعناق المسلمين . . . وقام آخرون منهم ومن غيرهم من أَصحاب الأهواء حتى النساء يردُّون عليهم ، ويفندون قرارهم ، ويرمونهم باتباع الهوى ، وتعدّدت اللجان الداعية إلى المؤتمر . ومن مفتونى طلاب الشهرة فيها الشيخ فلان الذى دخل فى لجنة صديقنا فلان . وقد كُنّا أوّل مَن مهد السبيل لهذا العمل ، فلما رأينا تَزاحُمَ الأهواء تركنا لهم الفضاء ، ولو عُقد المؤتمر من أمثالهم لكان يكون شرَّ فضيحة وخزى على المسلمين ، يُسَجِّلُ عليهم الهَوانَ والضِّعة فى العالمين ، وإنّنى لم أسمعْ مِن أحد ولا عن أحد رأيًا صحيحًا فى هذه المسألة . ولا تَسَلْ عما كان من أهل سوريا وفِلسطين فى مبايعة الملك حسين . . . إلخ . قد كتبنا إلى إِمامى اليمن وَنَجْدٍ نسألهما عن رأيهما فى المؤتمر والاشتراك فيه . والسلامُ عليكم وعلى الشيخ الصالح السيد السنوسىّ أوّلاً وآخِرًا .

أخوكم محمد رشيد

من هذا المكتوبِ يُفهم أَنَّه جاءنى أيامَ كُنْتُ فى مدينة مرسينَ ، وكان السيد أحمد الشريف فيها ، وفى هذا المكتوب نفسه جملة أُخرى تتعلق بأحد الزعماء المعروفين فى العالم الإسلامى كنتُ نصحت للسيد رشيد بأنْ يعتمدَ عليه فأجابنى بما يلى :

أنا أعرف الشيخ . . . منذُ أكثر من ربع قرن فقد كان هناك ، وقد صحب المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى صُحْبَةَ لِزام . ولعلَّك تعلمُ أَنَّ لقب « الشيخ » موروث له عن جدٍّ له قد اشتهر بالصلاح والولاية ، وهو من ذلك العهد فصيح اللسان ، جرىء الجنان ، واسع الحرية ، وَلِعٌ بالسياسة الإسلامية ، لطيف المعاشرة ، سريع الميل

والحكم ، كثير النقد . لا أتذكر أنَّه وقع بيننا فى العِشْرة الأولى خلاف ، وقد وقع بينى وبين صديقى وصديقه المرحوم الكواكبى مناقشات شتّى بدون أدنى مغاضبة .
وقد أنكرتُ منه هذه المرة بعض الآراء ، ولم يَخْلُ لى وجهه فى فرصة واسعة لأناظره فيها ، ولم أكن راضيًا بل تألَّمت من سيرته معنا فى مسألة جمعية (السلم العام فى بلد اللّه الحرام) ، وسأعاتبه عند الخلوة ، فقد كاد يفسد علىَّ الجمعية التى أَعدُّها أساسًا من أسس الإصلاح الكبرى ، وأرمى بها إلى مصالحَ شتّى ، ثم كاد يجعلُ زِمامَها بيد غيرى ممن لم يفهم ما فهم إلا منى ، وأنا مُوقن بأنّه لم يَفْقَهْ أحدٌ ممن دعوتُهم إلى هذا الأمر كلَّ مُرادى منه ، ولا يوجد فيهم أحد يُرجى منه الثبات على الجهاد فى سبيله .
ثم لم يَكْتَفِ بما فعل مع صاحبه حتى أباح لنفسه الانفراد بإدخال بعض الناس فى الجمعية قبلَ الاتفاق على القانون وخلافًا لما تواطأنا عليه من عدم انفراد أحد بدعوة أحد ؛ حتى إنه دعا السيد عبد الحميد البكرى لقَبول الرئاسة الأولى فاستمهله ، وذكر لى ذلك . وكنتُ قد ذكرتُ له خبرها وموضوعها قبلَ مجىء صاحبك إلى مصر ، وإنَّنى كنتُ أتمنى لو يكون هو رئيسَها لولا ما كان من غلطه بالانتظام فى سلك حزب كذا . وقد استخفَّ هو صاحبَك بدعوته إياه إلى ما لا يملكُ تنفيذه . هذا ، وإننى أنا الذى عرّفت البكرى به ، واقترحتُ ضمَّه إلى جمعية الرابطة الشرقية وإلى حفاوة مجلس إدارتها به . ثم عَقَدْتُ رابطةَ المودة الخاصة بينه وبين بعض أعضائها ، وكان أحظاهم عنده وأعجبَهم إليه فلان (وذكر الأستاذ هنا تعريف فلان هذا بما لم نجد لزومًا لذكره هنا إلى أنْ قال) : وَأَصْدَقُ أصدقاء هذا الرجل هو الشيخ كذا الذى تخرَّج فى الأزهر ، ثم سافر إلى فرنسا ، فدرس فيها عدَّة سنين ، ولهم جمعية خاصة ، وكثير من الناس يتهمونهم بأنهم دُعاة إلحاد . وأمّا أنا فلم يقع بينى وبين أحد منهم نزاع ولا خصام ، بل كان بينى وبين والد الشيخ . . . مودة لأنه كان من أصدقاء الأستاذ الإمام إلا أنّى رددت عليه ردًّا شديدًا فى جريدة كذا فى الليلة التى تكلمّ فيها عن السيد جمال الدين وريننان ، ففتحت الباب لمن استاءوا منه فشَغَلوا الجرائد الكثيرة بالطعن فيه ، وقد رأيتم ردِّى عليه فى المنار ، وبلغنى أنَّه قال : إنه لم يكتب رد بعقل

غيره ، وهو أديب مهذَّب جدًّا لم يقاطعنى بسبب هذا الردّ ، ولكنَّ ذاك قاطعنى زمنًا بالإعراضِ وتَرْك السلام والكلام .

أطلتُ عليك فى شئون هذا الصاحب لأنِّى رأيتك تنوط[1] به الأمور العظيمة ، وما كنت أنوى أنْ يطول الكلام إلى هذا الحد ، وقد تذكَّرت الآن أنك وعدتنى بأن ترسلَ لى ردَّ السيد جمال الدين على رينان مترجمًا عن الفرنسية ، وقد بحث عنه الشيخ مصطفى عبد الرازق وأصحابه ولم يجدوه ، وأرجو أن تُوافينى بأهم ما سمعته منه من الآراء الإصلاحية والمسائل العلمية ، فقد قرَّرت جمعية الرابطة الشرقية أنْ تحتفل احتفالاً آخرَ بذكرى حياته فى يوم وفاته من شهر شوال الآتى ، وأنْ أكونَ أنا الذى يُلقى فيه ترجمته ، وَيُبَيِّنُ مذهبَه فى الإصلاح الدِّينىّ والسياسىّ وفلسفتَه أيضًا ؛ ذلك بأنَّ الاحتفال الأول كان خاصًا بأعضاء الجمعية ، ولم يحضره إلاَّ قليلٌ منهم . اهـ .



وله إلىَّ كتاب مؤرَّخ فى 14 جمادى الأولى سنة 1343 و 11 كانون الأول :

سيدى الأخ الكريم والولى الحميم :

وصلتْ مكتوباتُكم المختصَرُ منها والمطوَّلُ ، فأما ما أُرسل فيها إلى اللجنة فقد نُسخ ، وسيترجم وينشر إن شاء اللّه تعالى ، وأمَّا ما ذكرتم فى أحدها من الرأى فى اللجنة ووفد السنة الآتية فالكلامُ فيه الآن غيرُ مفيدٍ فيما أرى ، ورأيُنا فيه متفِق كغيره وللَّه الحمد ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق : 1] .

وَأَمَّا ما أَطَلْتُم به فى الكتاب الأخير فى مسألة الحجاز فقد كدنا ندخلُ به فيما لا يَصِحُّ دخولُنا فيه من الجدال والمراء لتصحيح بعض العبارات أو الآراء التى تعدُّ من أعراض الأمر لا من جوهره ، بل دخلنا فى ذلك فعلاً بإعادة الكلام فى المداراة[2] والمصالح السياسية وحديث أو أثر « إنا لنبشُّ فى وجوه قوم » وأمثال ذلك .

إننى أرى أنَّ ما بيننا من الاتفاق فى الرأى والسعى والقول والعمل فى مسألتنا العربية

(1) تعهد إليه بها .

(2) **دارى يدارى مداراة** : لاينه ولاطفه ليتَّقِيه .

والحجازية ومسألتنا الإسلامية وفروعهما من فضل اللّه علينا ، ونتمنى مثلَه لكلٍّ واحد من العاملين فى أمتنا . ثم إننا نحمد اللّه تعالى على ما منَّ اللّه به علينا مع ذلك من المحبة والمودة الشخصية وتمنِّى كلٍّ منَّا لأخيه ما يتمنى لنفسه من خير الدنيا والآخرة . ولكننا مع هذا قد تعوَّدنا المناظرات العلمية والأدبية والسياسية بما صادفناه من المخالفين لنا والمنكرين علينا ، ولا أحبُّ أنْ تقعَ هذه المناظراتُ بيننا ، وأعنى بها ما يدخل فى باب الجدل لتأييد كلٍّ رأىَ نفسهِ ، فهذا إنْ ألجأت إليه الضرورةُ مع المختلفين فى المقاصد فلا يَصِحُّ أنْ يكونَ بين أخوين على مثل ما أشرنا إليه من حالنا . قلت إننى أصْرَرْتُ فيما راجعتُك به من مسألة برقيتك ومقالك فى المسألة الحجازية على تخطئتك أو على حملك على الاعتراف بالخطأ ، وإننى ربما كنتُ أنا المخطئ ، وربما يكون خطئى أضرَّ من خطئك ، وَطَفِقْتَ تردُّ علىَّ ، وتقيم الحُجج على شرعية المداراة ، وإن لم يصح الحديثُ أو الأثرُ الذى أنكرتُ أنا كونه حديثًا مرفوعًا إلى آخر ما تعلم ، ولا حاجة إلى ذكره ولا إلى المناقشة فى شىء منه حتى الشرعيات كالمصالح المرسلة التى قلتُ بالاتفاق عليها ، ولو قلتُ فى كتاب مِثل هذا بغير قولك ربما فهمتَ أننى أنا من منكرى المصالح فى الشريعة كما فهمت من قولى بعدم صحة : « إنا لنبش أو نكشر » أنى أنكر المداراةَ فى الشرع والمصلحة فى السياسة .

لا أدخل فى شىء من هذا ، ولست حريصًا على تخطئتكَ ، ولا أبرئ نفسى من الخطأ ، بل يجوز على كلٍّ منا الخطأ فيما نختلف فيه وفيما نتفق عليه ، وكلُّ ما ذكرتَه من الحجج لما أبرقْتَ به وما كتبتَه فى مسألة البرقية صرَّحت لك فيه بأننى لا أنكر شيئًا مما ذكرتَ من حُسن النية وصحة القصد ، كما أنّنى لم أنكرْ عليك ولا على المجلس الإسلامى وجمعيتنا الرابطة الشرقية صيغةَ ما اقترح من حقن الدماء ، وإنما وَجِلْتُ ، وعاتبتُ رئيسَ جمعيتنا أولاً ، ثم عاتبتك ثانيًا ثم عاتبت رئيس المجلس الإسلامى فى القدس ثالثًا ، (وأحمد اللّه أن الثلاثة من أصدقائى المخلصين) بما وَجِلْتُ مِن وقوعه ، وهو أنْ تتجاوبَ بين ملوك المسلمين وزعمائهم أصواتُ الإنكار على زحف النجديين لإنقاذ الحجاز والدعوة إلى الصلح بين مَلك الحجاز وسلطان نجد فَيَحْبَطُ

العملُ الذى فتح لنا بابًا جديدًا من الرجاء فى مسألتينا الدينية والقومية ، وهو الباب الذى لا أرى أمامى غيره ، وطال الزمان على سعى له على ما أعلم من أحوال الإخوان[*] المنتقدة التى يقلُّ من يعرفها أكثر منِّى . ولم أكن غافلاً ولا ناسيًا فى ذلك المسعى مُذْ سنتين ما تجب مراعاتُه فى الحجاز من إقامة حكومة فيه من أهله ومن اتقاء الأحداث التى يستنكرها العالم الإسلامى وإقامة الأدلة الشرعية على المخرج منها ، وقد كتبتُ لابن سعود مكتوبات خاصة فى هذا الموضوع ، ونَشرتُ أهمَّ هذه المسائل فى المنار حتى ترجيح عدم جواز القتال بمكة ولو للضرورة ، وأذكر منها الآن الفتوى الطويلة فى وجوب إنقاذ الحجاز التى نُشرت فى الأهرام وفى منار ذى الحجة سنة 1341هـ ، وصرحتُ فيها بأنّ هذا المذهب هو الراجح الذى يدين به للّه سلطانُ نَجْدٍ . ثم إننى أرسلت برقية إلى سلطان نجد باسم وكيل نقابة الصحف عقب احتلال الطائف لزيادة التذكير والحمل على الجواب .

وأمّا ما ذكرتُم فى مطاوى[1] الكلام من الشئون المتعلّقة بالجامعة الإسلامية فهو حقٌّ ، والخطب فيه أعظم مما أشرتم إليه . وقد ظهر لى مما كابدناه فيه زُهاء ثلثِ قرنٍ أنَّ تيار الإلحاد لا يسهلُ صدُّه بالوسائل العلميّة التى جَرَيْنَا عليها بهذا البطء والضعف ، وإنما يُرجى النجاح السريع إذا أيَّدت الإصلاح الدينيَّ دولةٌ أو إمارةٌ مستقلة لا سلطانَ عليها للأجانب ولا للملاحدة ، وإنَّه إذا تم لنا ما نسعى إليه فى الحجاز فإننا نستطيع فى سنين قليلة أنْ نُظهرَ حقيقةَ الإسلام ونعلّقَ آمال مسلمى الشرق والغرب به ، ولا يمكنُ البحثُ فى كتاب وجيز كهذا فى وسائل هذا الأمر ومقاصده . والمشافهة فى أمثال هذه المسائل تُغنى ساعةٌ منها عن كتب كثيرة طويلة عريضة ، فعسى اللّه أنْ يجمعَ بيننا .

اقترح مجلسُ إدارة مؤتمر الخلافة تأليفَ لجنة للنظر فى مَنْ يُدعى إلى المؤتمر وَمَنْ يُقبل فيه ممن كتبوا إلينا ، وبكتابة صيغة الدعوة ، فأُلِّفت وأنا منها ، ومما أقنعت

(*) أى النجديين .

(1) جمع مِطْوَى ، وهو شىء يلف عليه الغزل ونحوه ، **والمقصود هنا** : ما ورد فى ثنايا الكلام .

أعضاءها به دعوة أعضاء المجلس الإسلامى بفلسطين ، وقد كتب إليَّ رئيسُه برغبتهم فى الاشتراك معنا ، ولكنَّ الأحداثَ الأخيرة تُوشك أنْ تحملَنا على تأجيل موعد المؤتمر ، ولمَّا نقرِّرْ ذلك . والسلام عليك من أخيك .

محمد رشيد رضا



ومما كتبه إليَّ ما تاريخه ليلةُ الجمعة 5 رجب سنة 1343 مساء 29 يناير وهو :

سيدي الأخُ الأميرُ :

إنى أُلقى إليَّ الكتابان اللذان أَرسلْت مِن سويسرا ، وأعيد فى إثرهما ما أرسلت أخيرًا من كراريس كتابك ، وأنا مشغول عن القراءة والكتابة بأمر الانتقال من الدار التى عَرَفْتَها إلى دار خير منها فى نفسها (وهنا كلام طويل عن الدار الجديدة يقول فى آخره ما يلى) : ولا أرى بأسًا بمكاشفتك بأنى كنت أتوخَّى فى الدار التى أبحث عنها أن يسهل عليك المقام فيها إذا جئتَ مصرَ براحة لا يُشْعَرُ معها بضيق ولا بمضايقة ، وقد رأيت قبلَ هذه الدار دارين أوسعَ منها ، كنتُ أرى من محاسنهما أنَّه يُمكنُكَ أنْ تجد فى قسم منها ما يكفيك إذا جئت بأهل بيتك أيضًا ، ولكنْ لم يكن فيهما مكان يصلح للمطبعة ، وأما هذه الدار فتجد لك فيها سعة إذا جئت زائرًا إنْ شاء اللّه تعالى .

وأمّا تصحيحُ أغلاط الكتب فيجبُ أنْ يُعَدَّ منها ضبطُ (الدبى) بالفتح والياء لا بالألف كما كتبتَها فى الأصل . « والبواسل » عندى أن تستبدل ببُسلاء دون (بُسَّل) لأن الجمهورَ لا يعرفون ضبط هذه إذا لم تُضبط بالشكل ، وقد كنتُ فى غنى عن الاستدلال عليها ، ولا يتيسَّر لى مراجعةُ مكانها الآن ، ولا أرى حاجةً إليه ، ولا أستبعدُ سقوطَ الكلمة من قلمى ذهولاً عن القاعدة وكون جمع فاعل على فواعل فى المذكَّر سماعيًا وألفاظه فى العاقل معدودة كفوارس ونواكس ونواكص . . . إلخ .

ولكنّنى راجعتُ مصراع « فى كلِّ شارقةٍ إلمام بائقةٍ » فإذا هو كالأصل ، فإن كان غلطًا فهو من الطبعة الأولى . وكذلك الجملة التى فى صفحة 98 هى كالأصل ، فإذا

كانت خطأ فمن سَهْوِك كما رجَّحتُ ، وما كان لى أن أُقدِّم أو أُؤخر فى مثل هذا . اهـ .

★ ★ ★

وكان الأستاذ - رحمه اللَّه - عند طبع « آخر بنى سراج » وذيله « خلاصة تاريخ الأندلس » عندما وصل إلى القصيدة النونية المشهورة فى رثاء الأندلس[1] لأبى البقاء صالح بن شريف الرَّندىّ - اعتمد على كلام بعض المؤلفين ، وظنَّها من نظم الشيخ يحيى القرطبىّ ، فأضاف إليها أبياتًا فيها ذكر سقوط غرناطة ، وقال إنَّ الشاعر استنجد بها السلطانَ سليمان العثمانىّ ، وطبعت الملزمة طبعًا نهائيًا وهى على هذا الشكل ، فلما وصل إلىَّ المطبوعُ أَكْبرتُ[2] ذلك ، فكتبتُ إليه بأنَّ القصيدة هى نظم أبى البقاء الرَّنْدىّ الذى مات قبلَ سقوط غرناطة وقبلَ السلطان سليمان العثمانى ، وإنما زاد بعض الناس فيها زيادات فيها ذكر سقوط غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذه العدوُّ بعد موت صالح بن شريف . قال المقَّرىّ[3] فى (نفح الطيب)[4] : وما اعتمدته منها نقلتُه مِن خط مَن يُوثق به ، ومَن له أدنى ذوق عَلمَ أنَّ ما يَزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها فى البلاغة . وغالبُ ظنىِّ أنَّ تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب ، فكأنَّ بعضَهم لما

---

(1) هى قصيدة مشهورة تشتمل على (42) بيتًا ، بدايتها :

لكلّ شىءٍ إذا ما تمَّ نُقصانُ ... فلا يُغرّ بطيب العيش إنسانُ
هى الأمور كما شاهدتها دُولٌ ... من سرّه زمن ساءته أزمانُ

وآخرها :

لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ ... إنْ كان فى القلب إسلام وإيمانُ

(2) **أَكْبَرَ كذا** : أَعْظَمَهُ .

(3) هو أحمد بن محمد بن أحمد المقَّرِىّ القرشى المكنى بأبى العباس والملقب بشهاب الدين ، ولد سنة 986هـ بمدينة تلمسان ، ورحل إلى فاس مع أسرته سنة 1009 ، ثم عاد إلى بلده مرة أخرى سنة 1010 ، ثم رجع إلى فاس مرة أخرى سنة 1013 ، وتعلم بها وعمل إلى أن تولى منصب الإفتاء بها سنة 1022 ، ثم غادرها سنة 1027 ، ونزل مصر سنة 1029 ، وتوفى سنة 1041 ، وأهم مؤلفاته (نفح الطيب) . (**انظر** : مقدمة نفح الطيب) .

(4) **انظر** : « نفح الطيب » : (4/ 488 ، 489) .

أَعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها بعض الزيادات ، وقد بينتُ ذلك فى (أزهار الرياض)[1] . اهـ .

والحاصل أنّى راجعت السيد رشيدًا ورجوتُه تغيير الملزمة من أصلها على نفقتى حتى لا يكون فى الكتاب مثلُ هذا الغلط التاريخىّ الفاضح ، وهكذا حصل ، وإنما كتب إلىّ وقتئذ ما يلى : بقيت معنا مسألة القصيدة النونية ، فأما نسبتها إلى الشيخ يحيى القرطبى والزيادة فيها وكونه قصد بها استنجاد السلطان العثمانى فهذا شىء ذكره صديق حسن خان نوّاب مملكة بهوبال الشهير فى كتاب له ومنه نقلنا الزيادة ، وكنا نسمع بذلك من الصغر إذ كنا نحفظ القصيدة بالتقريب . . . إلخ .



وكان فى أمريكا الشمالية كويتب[2] سخيف ، قليل العلم ، كثير الدَّعوى ، يَنْتِفُ مِن هنا وهناك بدون فَهم ، ويتجرأ على القذف بكبار العلماء بل بالصحابة أنفسهم ، ومن جملة مَن كان يقذف بهم السيد جمال الدين الأفغانى والسيد رشيد رضا وغيرهما ممن يقول بالجامعة الإسلامية ، فأرسلنا إلى السيد بعضَ قصاصاتٍ فيها من سُخافات هذا الكويتب ما رأيناه قد يكون تسلية للشيخ رشيد ، فأجابنى عن ذلك بما يلى :

فلان رأيتُ هذَيانه قبلَ تفضُّلِك بإرسال قُصاصاته ، فإذا هو يكذب علىَّ أو يقول بما يراه ببصيرته المظلمة ، وربما كتب شيئًا صديقُنا فؤاد بك سليم[★] الضابط البارع الذى هو من أفضل شبابنا . . . إلخ .



(1) **انظر** : أزهار الرياض : 1/ 47 .

(2) تصغير (كاتب) للتحقير .

(★) هو المرحوم **فؤاد بك سليم اللبنانى** مِن آل معروف كان ضابطًا ممتازًا مهتمًا بالعلم والأدب مهذبًا يَقِلُّ نظيرُه فى الضباط ، وكان بطلاً مِغوارًا ، استشهد فى مجدلَ شمس فى إحدى معارك الثورة السورية الكبرى سنة 1925م ، وكانت الرَّزِيئة (الرُّزء أو المصيبة وقد تسهل همزتها : الرَّزية) به عظيمة لا يزال الناس يشعرون بها إلى الآن .

وله إليّ كتاب فى 18 رجب 1343 :

سيدى وأخى الأمير :

كتبتُ إليك جوابًا كافيًا فى مسألة الأغلاط ، وفيه كلام وجيز فى سائر المسائل ، وقد سألتُ صديقنا أحمد زكى باشا عن (النونية) فقطع برأيه فيها ، وهو أنَّها نُظمت قبلَ سقوط غرناطة .

قد أَلَمَّ بنا فى هذه الأيام الوفدُ الهنديُّ الذى كان فى جُدَّةَ ، ومكث هنا يومين شغلنى فيهما عن كلِّ شىء ، فتركتُ المطبوعات يُلقى الكثير منها فى باب الدار . . . إلخ . وأخبار الوفد الهندى الصحيحة التى سمعناها من فم صديقنا الشيخ سُليمان النّدوِىّ وصاحبيه تؤيد أقوالَنا وآراءَنا السابقة فى أكاذيب . . . وقالوا إنه ثبت عندنا أنَّ بعضهم . . . طلب من المعتمد الإنجليزى بِجُدَّةَ الحماية الرسمية لإخراج ابن السعود منها ، فأجابه بأنَّ حكومته قد وقفت موقف الحياد فى أمر الحجاز ونَجْدٍ ، فلا يُمكنها التزحزحُ عنه . قد بلغنى ما كتبتَ إلى أَخينا مفتى القدس أخيرًا ، فأثَّر فى نفسه كتأثير كتابك الأول له ، فأرجو من غَيرتك وحسن اعتقادك بأخيك هذا أن لا تكتبَ فى هذا الموضوعِ إلا له . وعسى أنْ يستولىَ ابنُ سعود على جُدَّةَ فى هذا الأسبوع ونستريح . . . والسلام عليك من أخيك المخلص .

محمد رشيد رضا

وله كتاب تاريخه 23 شعبان 1343 :

سيدى الأخ الأمير :

أُحييك وأُهنئك بالعَودِ إلى الأهل والولد بعدَ طول الأمد . ثم أُهنئك بشهر رمضان وأَسأله تعالى أَنْ يوفقنا وإياكم لما يُرضيه فيه من صيام وقيام وتلاوة قرآن . أما بعدُ فقد أُلقى إلىّ كتابك المرسَل من الآستانة ، وهأنذا ذا أجيبك عن كل مسألة فيه :

(1) سأُرسل إليك جميع الكراريس المطبوعة ، وقد كتبتُ إليك فى كتاب سابق أنّنى رجّحتُ إعادةَ طبع الكراسة التى فيها القصيدة النونية وِفَاقًا لرأى أحمد

زكى باشا[1] ، وهو لا يعرف مؤلِّفَ كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » وسنسألُ عنه تيمور[2] باشا ونور الدين بك مصطفى[3] العضو العامل معنا فى المجمع اللغوىّ ، وهو خبير واسع الاطلاع على الكتب وفهارسها فى الخزائن المشهورة .

(2) كلَّمْتُ الوفدَ الهندىَّ فى مسألة اقتراح جمعيةِ الخلافةِ جَعْلَ حكومةِ الحجاز جمهوريّة ، وقلْتُ لهم : إننى اقترحت هذا قبلَهم للتقصِى[4] من مفاسد السلطة الشخصية فى تلك البلاد التى لم نرَ أحدًا يَعتقد أنَّ فيها غير رجل واحد يجرؤ أنْ ينطِقَ بما يعتقد إذا كان مخالفًا لهوى الأمير ، وهو صديقنا الشيخ محمد نصيف المنفى الآن من جُدَّة تحت سيطرة الحسين فى العقبة ، وقلت لهم : لكنَّنى لا أصرُّ على هذا الرأى إذا وجدت المصلحة فى غيره ، ويجب أنْ لا تُصِرَّ جمعيتُكم على ذلك ، فقال رئيسه السيد الندوى إنها لا تُصرّ ، وإنَّ غرضَها هو عَين غرضى ، ولا تَظْهر المصلحةُ إلا فى المؤتمر عندما يتيسَّرُ عقدُه .

(3) إننى موافق لك على ترشيح الشريف على حيدر لإمارة الحجاز ، ولا أعرف أحدًا أليَقَ منه لها ، ومن الجهة الشخصية أَعدُّه صديقًا لى ، ووقع بينى وبين نجله الشريف عبد المجيد مكاتبة فى مسألة ترشيحه ومساعدته ، ونَوَيْتُ أنْ أُنوه به عند سُنوح الفرصة المناسبة ، وإن لم يعجبْنى كلام نجله فى الموضوع لأنَّ رُوحه وفحواه

---

(1) هو **أحمد زكى باشا** (1284 – 1353هـ / 1867 – 1934م) شيخ العروبة ، أديب بحاثة مصرى ، من كبار الكتاب ، ولد بالإسكندرية وتخرج بمدرسة الإدارة والحقوق بالقاهرة ، وأتقن الفرنسية ، وكان يفهم الإنجليزية والإيطالية ، وله بعض المعرفة باللاتينية ، تسمى بشيخ العروبة وسمى داره : بيت العروبة ، جمع مكتبة نفيسة فى نحو عشرة آلاف كتاب ، نقلت بعد وفاته إلى دار الكتب المصرية .

(2) هو **أحمد تيمور باشا** (1288هـ – 1348هـ / 1871 – 1930م) ، عالم بالأدب ، باحث مؤرخ مصرى ، من أعضاء المجمع العلمى العربى ، مولده ووفاته بالقاهرة ، كردى الأصل ، مات أبوه وعمره ثلاثة أشهر ، وكان كريم النفس رضيًا .

(3) هو **نور الدين مصطفى** (1300 – 1346هـ / 1883 – 1928م) تركى الأصل ، مستعرب ، ولد فى مدينة (أوفرى) بمكدونية ، وتعلم فى (مناستر) ، وتخرج بالحقوق فى (الآستانة) ، وسكن مصر سنة 1903م ، وكان من أعضاء الرابطة الشرقية وجماعة التعليم الشرقى الإسلامى ، وكان عضوًا فى المجمع اللغوى ، وجمع مكتبة نفيسة ، وكان ينظم بالعربية والفارسية والتركية .

(4) الذى فى (لسان العرب) أن الفعل يتعدّى بنفسه لا بحرف جر « تقصيت الأمر واستقصيته ، واستقصى فلان فى المسألة وتقصى بمعنًى » (اللسان : قصى) .

لا يختلف عن غرور حسين وأولاده وادعائهم أنَّ المُلك هنالك حقٌّ شرعىّ وطبيعىّ لهم يجب نوطُه بهم ، ولكنَّ اتقاء شرّ هذا الغرور ممكن إذا وُجد مؤتمر إسلامىّ ذو نفوذ ، ووضع نظامًا لحكومة الحجاز يُعَسِّرُ على أميره العبثَ به ، وهو ما ستعنى به (جمعية السلم العام فى بلد اللّه الحرام) التى نرجو أنْ تقومَ بما يجب فى ليالى رمضان . وأعيد القول مع هذا بأنَّ الشريف على حيدر عندى فوق كلِّ رجل من اللائقين لهذا المنصب ، وإذا تيسّر لنا وضع مشروع لنظام حكومة الحجاز فسأعرضه عليك وعليه للتشاور فيه لأنَّ مساعدة جمعيتنا له تتوقف على قَبوله لهذا النظام .

(4) إنَّنى ما اتهمتُك ولن أتهمَك بموالاة الحسين فتحتاج إلى تبرئة نفسك من التهمة ، وإنما أُذكرك بما أراه لما تكتبه من رأى منافٍ لما أعتقدُه من المصلحة التى يتوخَّاها كلٌّ منا ، ومن ذلك الكتابان اللذان أرسلتَهما إلى مفتى القدس تشكرُ له فى أَحدهما اهتمام مجلسهم الإسلامى بالسعيِ لحقن الدماء فى الحجاز ، وأنَّ ذلك جعل للمجلس قيمة اجتماعية هو جدير بها ، وتقترح فى الثانى تكليفَ الفريقين بعقد هدنة بمناسبة قرب موسم الحج ، وقد ترجَّح لدى المفتى الشابِّ من قراءة الكتابين بقاء الملك على ملكًا على الحجاز ، مع اعترافه بأنَّك فضلت فى أولهما حيدرًا فَعليًّا[★] الذى فى مصر . . . إلخ .

(5) عُلم مما تقدَّم أنَّ مسألة ترشيح الأشخاص ما جاء وقتُها لأنَّها تأتى تبعًا للنظام الذى يجب بناؤه على أساس سُلطة الجماعة دون الفرد ، وأنَّنى لم أكتب كلمة فى ترجيح ابن سعود على غيره فى إدارة الحجاز ولا فى إطرائه بنحو مما يُطرى حزبُ حسين وأولاده عليًّا الآن كإطرائهم حسينًا بالأمس ، وإنما كررت الثناء عليه بنوطه[1] أمر الحرمين الشريفين بالعالم الإسلامى ، وهو اقتراحى منذ سنين ، والحاجة إليه من جهة أنه يَتَعَذَّرُ معه تدخلُ النفوذ الأجنبىّ ، ولقد أرسل الإنجليز المستر فيلبى إلى جُدّة ليقابلَ ابن سعود ويفاوضَه فيما يُريدون من استغلال هذه الفرصة ، فرفض ابنُ سعود

(★) أىْ الشريف على باشا أمير الحجاز السابق الذى تولى الإمارة قبلَ الحسين .

(1) **ناط الشىءَ بغيره** : عهد به إليه .

مقابلتَه على ما كان بينهما من تعارُف وما كان من إظهار فيلبى لمودته والدفاع عنه لدى حكومته وتفضيله على البيت الهاشمى ، واعتذر عن رفض المقابلة بأنَّ المسألة دينية ومفوضة إلى العالم الإسلامى لا إليه .

(6) لم يأتنى من مفتى القدس ولا عنه ما كتبت إليه بشأن الاشتراك فى المؤتمر المكىّ الذى دعا إليه ابن سعود ، فقولك إنه كان جزاؤك منى اللومَ على هذا أيضًا بدلاً من الشكر وتعقيبك على هذا بالحوقلة – هو لوم منك وعتب كان يكون حقًّا لو علمتُ أنا بما ذكرتَ لى من الاقتراح المذكور ، ولكنْ لم يبلغْنى من موضوع كتابك له إلاَّ ما ذكرتُه لك أَوَّلاً وأعدتُه هنا . فكلُّ ما كتبتُه فى الصفحة الأخيرة لا يَمَسُّنى منه شىء إلا أننى صَدَّقْتُ بلاغَ المفتى ، وما أعهد فيه ولا فى المبلِّغ عنه إلا الصدقَ والصراحة معى . ولكنْ ظهر لى الآن أنَّ الحرصَ على المنصب ومُداراةَ الأنصار وما دفع حسين من أُلوف الجنيهات لعمارة المسجد الأقصى قد جعل الحاجَّ أَمينًا مخالِفًا لنا فى ابتغاء المصلحة العامة (إلى أنْ يقولَ) : إنّنى كنتُ كتبتُ إليه إنذارًا شديدًا ، وشاورت الشيخ إسماعيل(★) فى الحملة على المجلس الأعلى فأشار علىَّ بما صرَفنى عن ذلك ، والسلام عليك ، وأدام اللّه النفعَ بك ، ولا زِلت وليًّا ونصيرًا لأخيك .

محمد رشيد رضا

وكتب إلىَّ سَلْخَ 29 رمضان 1343 و 23 أبريل :

سيدى الأخ الأمير :

فى أوَّل هذا الأسبوع أُلقى إلىَّ كتابُك المرسَل من (مرسين) بتاريخ 13 رمضان (إلى أن يقول) : أما الملحق (أى كتاب أَخبار العصر الذى أَلحقناه بتاريخ الأندلس المذيَّل به آخر بنى سراج) فقد سألت أَحمد تيمور باشا عن مؤلِّفه بعد سؤال أحمد زكى باشا ، فقال : إنه لم يكتب عليه اسم المؤلِّف ، ولا هو يُذكر أنَّه رآه فى كتاب آخرَ .

(★) هو **إسماعيل بن أحمد الأحمدى** (ت 1228هـ / 1871م) فقيه ومحدث ، ولد وتوفى بطرابلس الشام ، وتعلم فى الأزهر ، وجاور بمكة ، له رسالة فى علم الفرائض (علماء طرابلس : 254) .

كتابُكم السياسىّ البليغ للأمير علىّ(★) إنْ كان لديكم نسخة صحيحةٌ منه فأرسلوها أو أرسلوا ما بقى منه بعد الذى نُشر فى المنار ، وسأنشرُ التصحيح الذى أرسلتموه أخيرًا بشأن ما نُشر منه (إلى أَنْ يقول) : إنَّ المودةَ بينى وبين السيد أمين الحسينى فوق ما استنبطتم وما تظنون ، ولا أعرف أحدًا من إخواننا موافقًا لى فى كلٍّ آرائى فى أمر الحجاز ونجد أكثرَ منه ، وقد كان مخالفًا فى مسألة بيعته الحسين ، ولكنه غُلب على أمره ، وكان الظفر للشيخ المظفر فى هذه المسألة دونَه . وإنما كنتُ عزمتُ على مناهضة المجلس فى السياسة الحجازية إذا أصرّ على اتباع هذا الرجل فيها لا فى المسائل الوطنية ومسألة المسجد الأقصى ، فقد كنتُ - وما زلتُ - مساعدًا عليها ، وقد أخبرنى من أثق به من الهند أنهم كانوا يظنون أنَّها مسألة إنجليزية ، ولم ينتزع هذا الظنَّ ويحملهم على المساعدة إلا ما كتبه (المنار) من نشر دعوتها .

وفى آخرِ هذا المكتوبِ يقول : علىَّ اليوم واجبات كثيرة لا يُمكن تأخيرُها ، بعضُها للدار وبعضها للمطبعة وبعضها لمساعدة بعض الإخوان ، ومنها قراءَة أكثر من ثلث القرآن لإتمام الختمة الأخيرة ، وأسأَله تعالى أنْ يجعلَ هذا العيدَ مباركًا علينا وعليكم وعلى أمتنا الإسلامية . ودمتم لأخيكم المخلص .

رشيد



(★) فى أثناء الحرب العامة سنة 1916م شاع فى الشام أن الأمير على بن الحسين جاء بعد ثورتهم على الدولة بجيش من العرب إلى ماء الأزرق وذلك لقتال عسكر الدولة ، فكتبتُ إليه كتابًا طبعناه ونشرناه فى ذلك الوقت ، أقول له فيه : ماذا تصنع أيها الأمير تقاتلون العرب بالعرب ، وتَسفكون دماء العرب بأيدى العرب حتى تكون نتيجةُ ذلك استيلاءَ الأجانب على بلاد العرب وتقسيمها بين دُول الحلفاء وإعطاء فلسطين إلى اليهود إلخ ، وأنصحُ له بالرجوع عن هذه الحركات . ثم ظهر أنَّ الشريفَ عليًا الذى جاء بذلك الجيش لم يكن هو الأميرَ علىَّ بن الحسين بل كان الشريف عليًا الذى هو من أشراف وادى فاطمة ، ويقال لهم الحُرَّث ، فجعل الملك حسين - رحمه الله - هذا الغلط سببًا للرد علىَّ وإظهار افترائى بزعمه . والحال أَنَّ جوهرَ الموضوع لم يتغيَّر بكون القوة التى جاءت لقتال عسكر الدولة يقودها علىُّ بن الحسين أو علىٌّ الذى هو من الأشراف الحرث ، بل المقصود هو أنَّ حركةَ الأشراف فى قتال الدولة وقتئذٍ كنتُ أراها من جملة الحركات المساعدة على تقسيم بلاد العرب بين دول الحلفاء وعلى إعطاء فلسطين إلى اليهود . وأظنُّ أنَّ مآل كتابى هذا قد تحقق كما لا يخفى على كلِّ ذى عَينين .

ومنه كتاب مطوَّل إليَّ تاريخُه 6 ذى القعدة 1343 أكثرُه يتعلق بمباحثَ لغوية ، وهو :

صديقى الأمير :

وصلنى كتابك المؤرَّخ فى 7 شوال ، وكلُّ ما فيه أو أكثرُه مؤاخذة ببعض التعليقات على كتابكم الذى تم بحمد اللّه ، وإنما بقى الفهرس الذى وضعته ، ونسيت أنْ تبينَ أرقام موادّه ، ولا فائدةَ بدونها ، وقد وُضِعَتْ ، وأُعطى الفهرس للمطبعة . وأرسلتَ قبله جدولاً فى أغلاط الطبع ، وقد قُلْتَ إنها كثيرة أو ليست بقليلة ، ولو لم يكن فيه غيرها لكانت قليلة بالنسبة إلى أغلاط أكثر المطبوعات العربية ، ولكنْ كلُّ ما لم يذكر أو جلُّه - سواء منه ما فطنتم له وما لم تفطنوا له هو - مما يُدرك بالبداهة ولا يحتاج إلى التنبيه ، على أنَّ فيما كتبتموه من الأغلاط ما هو غلط فى الأصل (أى فى الطبعة الأولى) كتصحيحك : استلم ويستلم بتسلم ويتسلم ، وهو مكرَّر فى الكتاب ، وهو مما كنتَ وضعت عليه فى الأصل خطًّا أزرقَ اللونِ ، وسأذكر لك غيره مما فَطِنْتُ له لكونه من الأصل . ومنه ما ذكرتُه لك فى كتاب سابق عن التقديم والتأخير فى صفحة (98) الذى لو لم يكن مِن الأصل لكان أكبرَ غلطةٍ يَتَعَذَّرُ معرفَةُ سببها ، فإنَّ كثيرًا من غلط الطبع فى تقديم كلمة على أُخرى يحصُل من سقوط بعض الكلمات عند فكّ صفحات الملزمة بعد تصحيحها ووضعها فى الطوق لأجل طبعها ، فيعيدُ المُرَتِّبُ ما سقط فيخطىءُ فيه بالتقديم والتأخير فى أوائل الأسطر وأواخرها ، ويَنْدُرُ أنْ يكونَ الساقط عدَّة كلمات . ومما صححتموه وكان غلطًا فى الأصل تعدية التفتيش « بعلى » من (ص45) فجعلتموه « بعن » ، وإنما عَرَفْتَهُ لأنَّه من جملة ما كنتَ وضعت عليه علامة فى ص33 من الأصل ، ولم أغيّره لاحتمال وروده فى لغة ولو شاذة ، ولعلَّه مما أخرتُه للمراجعة ثم نسيتُه ، فَجُمع وطُبع كأصله ، ومثله « عزائمهم » بالجمع فى (ص125) وهو بالمفرد ، ومنه (نقل) فى (ص134) ، وصوابها بالفاء (أى نفل) ، ولكنَّكم كنتم صححتموها بقلمكم فى الأصل تصحيحًا طُمست فيه الفاء طمسًا فبقيت كالقاف ، ومثلها فى هذا كلمة « نجدى » فى (ص55) وصوابها (نجرى) بالراء ، ومنها كلمة « بتنا » فى (ص151) وصوابها « مبيتنا » . كلُّ هذا

مِن الغلط أو شبه الغلط فى الطبعة الأولى ، وأعنى بشبه الغلط ما صححتموه بالقلم فطُمس .

ومما أخطأتم فى تصحيحه كلمة من قصيدة فى (ص85) كانت فى الأصل « مقلاة » وطبعت « مغلاة » فصححتموها « مقلال » والصواب « مقلات » بالتاء المفتوحة ، وصاحب القصيدة اقتبس الشطر من البيت المشهور :

بُغاثُ الطَّيرِ أَكْثَرُها فِرَاخًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ(★)

وكنتُ أحفظ البيت : أكثرُها نِتاجًا ، ثم رأيته فى كتب اللغة فراخًا ، ومنه كلمتان بالهاء غير المنقوطة لأنها ضمير فنقطتموهما .

طال بى الاستطراد فى مسألة غلط الطبع فكان من فوائده تذكيرُكم بعسر تصحيح الكلام العربى والتوسل به لذكر ما كان من أمره وأمر المطبعة فى تصحيح كتابكم لتعلموا أنَّنا بذلنا فيه جهدًا لم يتيسر ما هو فوقَه فى العهد الذى طُبع فيه ، وهو عهد الاستعداد للنقلة ثم الاشتغال بأثقالها عِدَّةَ أشهر (إلى أنْ يقولَ) : إنَّ الغلطَ الذى فى الأصل نوعان :

الأوَّلُ مطبعىٌ ظاهرٌ ، ومثاله : « ذيل جررناه عن الأندلس » وصوابه « على الأندلس » ومنه « سبعة عشرة خلت » وصوابه « سبع عشرة » ومنه « عبىء جيشه » وصوابه « عبأ » ومنه « الثائرة » وصوابها « النائرة » ، ويحتمل أنْ يكونَ منه «فاقتدى فىَّ » وأنْ يكونَ من النوع الآخر لأنَّنا مَعْشرَ السوريين نُكثر من وضع (فى) موضع الباء الجارة حتى فى ما لا يشتركان فيه ولا يقع أحدهما موقع الآخر . وكذا « كادوا علىّ كيدهم » وصوابه : كادوا لى . قال تعالى : ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف : 5] . ومثلها « وشرع بالحديث » وهى تقابل ما قبل كلمة الكيد ، وَنَسِيْتُ أنْ أذكرها قبلها .

(★) البيت لكُثير ، ولسان العرب لا يقطع بذلك بل يقول لكثيّر أو غيره . وأما المِقلاتُ فهى التى لا يعيش لها ولدٌ ، وقد أَقْلَتَتْ ، وقيل هى التى تلد واحدًا ثم لا تلد بعد ذلك ، وكذلك الناقة ، ولا يقال ذلك للرجل . وقيل هو أن تلد واحدًا ثم تَقْلُتُ رَحِمُها فلا تَحْمِلُ ، وأنشد :

وَجْدِى بِهـا وَجْـدَ مِقْـلاَتٍ بِـوَاحِدِهـا وَلَـيْـسَ يَـقْـوَى مُـحِـبٌ فَـوْقَ مَـا أَجِـدُ

انظر : (لسان العرب : قلت) .

النوعُ الثانى ما هو مِن الأصل ، وسببه فى الأكثر كثرةُ استعمال المعاصرين ، وهو قسمان : أحدهما المفردات ، والثانى الجمل والأساليب .

فمن المفردات قولكم : الخطر المحيق (هذه وقعت سهوًا) والصواب فى مثله الثلاثى كقوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود : 8] . وقوله : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر : 43] . ويُعَدى حاق بالهمزة فيقال : حاق به السوء وأحاق اللّه به .

ويشبهها قولكم ضجة مهولة « وإنما يقال هاله الأمر أو الخطب وفى الأساس[1] : أمر هائل وهوَّل عندى الأمرَ جعله هائلاً ، نعم فى مجازه : مكان مهول ، أى فيه هول . اهـ . ولا يظهر مثلُه فى وصف الضجَّة ؛ وإنما صَحَّحْتُ مثلَ هذا مع علمى باحتجاجكم أو إمكانه بمثل « مكان مهول »[★] .

ومنها قولكم : (إنَّ هذا لنبأ عظيم) وهنا غيَّرتُ الموصوف فقلتُ : (لخطب عظيم) لأن النبأ خاص بالكلام ، وليس المقَامُ مَقامَ كلام بل مَقامَ وصف ابن سراج لأَرَقِهِ وذُلّه .

ومنها (ارتياد المعاشيب) والتعاشيب نَصٌّ فى مُرادكم ، فإنّها النُّبَذُ المتفرِّقة من العُشب ، وأظنُّ أنَّ هذه من غلط الطبع ، وإلاَّ فهى من سبق القلم[2] ، والأوَّلُ أَرْجَحُ فإنَّ الكلمة من الفرائد[3] غير المستعملة عند ضعفاء الكُتاب الذين جَنَوا على جهابذتهم

---

(1) **يقصد** : معجم (أساس البلاغة) للزمخشرى .

(★) كلا لم نُجِزْ لفظة مهول لأجل قولهم مكان مهول بل لورود مهول فى الكلام العربى جاء فى « لسان العرب » : وهول هائل ومهول ، وكرهها بعضهم ، وقد جاء فى الشعر الفصيح وقال :

وَمَـهُـولٍ مِـن الـمَـنَـاهِـلِ وَخْـشٍ ... ذِى عَرَاقِيـت آجِـن مِـدْفَـان

وتفسير المهول أى فيه هول ، والعرب إذا كان الشىء (هُوَلة) أخرجوه على فاعل مثل دارع ذى الدرع ، وإن كان فيه أو عليه أخرجوه على مفعول كقولك : مجنون فيه ذاك ومدبون عليه ذاك اهـ وقد قال بديع الزمان الهمذانى لأبى بكر الخوارزمى فى المناقشة التى جرت بينهما مرتجلاً :

أَرَاكَ عَـلَـى شَـفَـا خَـطَـرٍ مَـهُـولٍ ... بِمـا أَوْدَعْـتَ لَفْظَـكَ مِن فُضُـول

وبديع الزمان يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه .

(2) هذا من التلطف فى التعبير عن وقوع الخطأ .

(3) جمع فريدة ، وهى ما لا نظير له .

(إنما كتبتها تعاشيب وأردت أن أُحيى بها كلمة فصيحة مجهولة تقريبًا عند ضعفاء الكُتاب) .

ومثلها فى رُجحان كونها من تحريف الطبع (أفنائم إذًا هؤلاء الأسبانيول) جعلتُها (أفنيام)(★) .

الثانى الجمل والأساليب ، وما استنكرتُه من هذا القسم أكثر من غيره . وقد كاشفتُكم بشىء منه مِن قبلِ الشروع فى الطبع ، فعلمتم مما رَجَعْتُم إلىَّ من القول فيه أنَّ بعض ما هو قطعىّ عندى أو قريب من القطعىّ مما يترجّحُ أو يمكنُ أن يكونَ موضعَ بحث وجدال طويل عندكم ، فصححْتُ ما رجّحْتُ أو جَزَمْتُ باستحسانكم لتصحيحه إنْ لم يكُن لاعتقادكم بأنَّه خطأ أو غير فصيح فلاعتقادكم بأنَّ بَدَلَهُ صحيح فصيح ، أو أنَّه أفصح ، وأذكر بعض الأمثلة على هذا القسم غيرَ مرتبة :

(1) قولكم « وسرت الفلك بريح طيبة » استبدلت به « وجرت الفلك به بريح طيبة » ووجهه أنَّ السُّرَى خاص بما كان فى الليل ولا مَحَلَّ لهذا التخصيص ، وأنَّ ما ذكرتُه موافق لقوله تعالى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [يونس : 22] . وقد خطر ببالى أنكم أردتم استعمال أسلوب القرآن فلم تتذكروا الآية . وقد راجعت أستاذنا مرة فى كلمة كتبها فى مقالات الإسلام والنصرانية مخالفة لاستعمال القرآن وهى صواب فى نفسها ، وكانت المراجعة كتابيّةً ، فكتب إلىَّ بأنْ أُصححَها أو أُغيِّرَها ، وعلّل ذلك بأنَّه لا يُحب مخالفة أُسلوب القرآن « ولو إلى صواب » ، والكلمة المذكورة « نصح له » أو « وهب له » لا أتذكّر أيهما الآن .

(★) أما كون (أفنائم) من غلط الطبع وصوابه (أفنائمون أو أفنيام) فهو ظاهر . ويظهر أنَّ الأستاذ كان يجيز قولنا « هؤلاء الأسبانيول » بخلاف العلاَّمة اللغوى الشهير الأب أَنستاس الكرملى فقد انتقد فى كتاب خاص إلينا قولنا « الأسبانيول والفرنسيس » وما أشبه ذلك ، ونحن أجبناه بأننا نراه جائزًا حملاً على غيره من أمثاله ، قال سيبويه فى الجزء الثانى من الكتاب صفحة 27 ما يلى : « وأما قولهم اليهود والمجوس فإنما أدخلوا الألف واللام هنا كما أدخلوها فى المجوسى واليهودى لأنهمّ أرادوا اليهوديين والمجوسيين ، ولكنَّهم حذفوا ياءى الإضافة ، وشبهوا ذلك بقولهم زنجىّ وزنج إذا أدخلوا الألف واللام على هذا فكأنك أدخلتها على يهوديين ومجوسيين ، وحذفوا ياءى الإضافة وأشباه ذلك ، فإنْ أخرجت اللام والألف من المجوس صار نكرة ، كما أنك لو أخرجتها من المجوسيين صار نكرة .

(2) مثل « وما هو ذلك القصر » وهذا مما يكثُر فى كلام المعاصرين ، وهو مأخوذ من اصطلاح المناطقة فى السؤال عن ماهية الشىء ، وكلمة الماهية مشتقة منه ، هو من اصطلاحهم ، وقلَّدهم كثيرون ، والضمير فيه (هو) لا حاجة إليه ولا مرجع له ، والمدقِّقون مِن الكُتَّاب ومصححى الإنشاء فى وزارة المعارف يتحامونه ويرمجون[1] الضمير مما يُصحِّحون ، وفى الكتاب العزيز : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : 23][*] .

(1) رمج ما كتب : أفسد .

(★) لا شكَّ أنَّ القاعدة هى ما قال ، ولكن ليس بخطأ أن يقال : « ما هو ذلك القصر » وما فى ضربه . وقد ورد كثيرًا فى كلامهم ، وذكر سيبويه أنَّ هذه الضمائرَ : أنت وأنا ونحن وهو وهى وهم وهن وأنتن وهما وأنتما وأنتم تأتى وصفًا للمضمر المجرور والمنصوب والمرفوع ، وذلك قولك مررت بك أنت ورأيتك أنت وانطلقت أنت ، وليس وصفًا بمنزلة (الطويل) إذا قلت (مررت بزيد الطويل) ، ولكنه بمنزلة نفسه إذا قلت مررت به نفسه وأتانى هو نفسه ورأيته هو نفسه ، وإنما تريد بهن ما تريد بالنفس إذا قلت مررت به هو (إلى أنْ يقول) : واعلم أنَّ هذا المضمر يجوز أنْ يكون بدلاً من المظهر ، وليس بمنزلته فى أنْ يكونَ وصفًا له لأنَّ الوصف تابع للاسم مثل قولك رأيت عبد اللّه أبا زيد ، فأمَّا البدلُ فمنفرد كأنك قلت زيدًا رأيت أو رأيت زيدًا ثم قلت إياه رأيتُ ، وكذا أنت وهو وأخواتُهما فى الرفع . وأورد سيبويه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ [آل عمران : 180] . وقال : صارت « هو » ههنا بمنزلة ما إذا كانت لغوًا فى أنها لا تُغير ما بعدَها عن حاله قبلَ أنْ تُذكر ، واعلمْ أنها تكونُ فى (إنَّ) وأخواتها فصلاً وفى الابتداء ولكن ما بعدها مرفوع لأنه مرفوع قبل أنْ تذكرَ الفصلَ (قال) : واعلم أنَّ « هو » لا يحسُن أنْ تكون فصلاً حتى يكونَ ما بعدها معرفة أو ما أشبه المعرفة مما طال ولم تدخله الألف واللام ، (قال) : وقد جعل ناس كثير من العرب « هو » وأخواتها فى هذا الباب اسمًا مبتدأ وما بعدَه مبنى عليه ، فمن ذلك أنَّه بلغنا أنَّ رؤبة كان يقول أظن زيدًا هو خير منك ، وناس كثير من العرب يقولون : (وما ظلمناهم ولكن هم كانوا الظالمون) وكان أبو عمرو يقول : إنْ كان لهو العاقل . ثم يقول سيبويه إن « هو وأخواتها » يكون بمنزلة اسم مبتدأ وذلك قولك ما أظنُّ أحد خير منك وما أجعل رجلاً هو أكرم منك ، فلم يجعلوه فصلاً وقبله نكرة كما أنَّه لا يكون وصفًا ولا بدلاً لنكرة ، وكما أنَّ كُلَّهم وأجمعين لا يُكرَّرَان على نكرة فاستثقلوا أنْ يجعلوهاً فصلاً فى النكرة كما جعلوها فى المعرفة لأنها معرفة فلم تصر فصلاً إذًا لمعرفة كما لم تكن وصفًا ولا بدلاً إلا لمعرفة اهـ .

وقد جاء فى مغنى اللبيب (2/ 296 – 300) لابن هشام أنَّ « ما » نكرة متضمِّنة معنى الحرف وأن « ما » الاستفهامية معناها : أىُّ شىء نحو ما هى ؟ ما لونها ؟ وما تلك بيمينك ؟ قال موسى : ما جئتم به السحر وذلك على قراءة أبى عمرو آلسحر بمدِّ الألف ، فما مبتدأ والجملة بعدها خبر ، وآلسحر إما بدل من ما ولها قرن بالاستفهام ، وكأنه قيل آلسحر جِئتم به ، وأما تقدير أهو السحر أو السحر هو ، ويقويه قراءة عبد الله : ما جئتم به سحر . إذًا لو قيل ما هو السحر مثلاً « فما » مبتدأ والجملة بعدها خبر والسحر بدل من ما . وقد سألتُ عن هذا الاعتراض العلاَّمةَ السيد تقى الدين الهلالى السجلماسى ، فاستغرب وقال لا أظن أنَّ السيد رشيدًا يمنع جوازه ، كما أنَّه لم يتبين لى أنَّ الجملةَ منافية للبلاغة ، وقال : ما هو ذلك القصر . الضمير يعود على القصر =

(3) قولك « ولذلك فإنَّ بقايا آبائه » وفيه أنَّ ما بعد الفاء لا يَعمل فيما قبلها ، وأنَّ الجمع بين لام التعليل وفاء السببية لا حاجةَ إليه فى أكثر هذه الاستعمالات التى كثُرت جدًا فى أسلوب المعاصرين غير المدقِّقين ، والوجهُ فى الجمع بينهما تقديم الفاء كأنْ يقالَ : فلذلك كان كذا(★) .

(4) كلمة «فضلاً عن كذا » فى مقام الإثبات ، وقد تكرَّر فى كلامكم لأنه صار من الاستعمال المألوف عند العلماء منذُ قرون ، ولكنَّ المتقدمين قلَّما كانوا يستعملونه إلا بعد النفى لما لهم من التخريج النحوىّ له مع تصريح بعضهم بأنَّه ليس من كلام العرب . فتقدير الكلام فى « فلان لا يملك درهمًا فضلاً عن دينار » أنه فَقَدَ مِلْكَ دِرْهَم فقدًا فاضلاً وزائدًا عَنْ فَقْدِ مِلْكِ دينارٍ . . . إلخ . ولا بُدَّ أنْ تكونوا قد اطلعتم على هذا ونَسيتمُوه ولا سيما عند الاستعمال ، فجَرَيْتُم فيه على ما تقرأون دائمًا فى الكتب والجرائد ، وكم

= وإن كان متقدِّمًا لفظًا فهو متأخر رتبة لأن « ذلك » مبتدأ والقصر بدل وجملة « ما هو » خبر ووجب تقديمُها من أجل ما الاستفهامية[1] .

(★) إنَّ هذا الاستعمالَ وارد من القديم حتى فى كلام سيبويه نفسِه ففى (الكتاب صفحة 390 من الجزء الأول) يقول : فعلى هذا فأجْرِ ذا البابَ . وفى الجزء الأول أيضًا صفحة 189 : فعلى هذا فقسْ المعرفة . وفى الجزء الثانى صفحة 97 : فكذلك فقس هذه الأشياء . وفى صفحة 167 : فعلى هذا فقس هذا النحو . ومثله ما لا يُحصى فى كلام أئمة اللغة قديمًا وحديثًا ، وابن هشام - وهو مَنْ هو فى النحو - يقول فى الصفحة الخامسة من الجزء الثانى من (مغنى اللبيب) الذى عليه حاشية الأمير : وعلى هذا فلا يَصحُّ استئنافُ ما . . . إلخ . وقال فى الآية الكريمة ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : 53] . الأرجح أنَّها موصولة وأنَّ الفاء داخلة على الخبر لا شرطية والفاء داخلة على الجواب اهـ . . وقال اللَّه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ [محمد : 8] .

---

(1) تقدَّم الأستاذ العلامة على النجدى ناصف عضو المجمع اللغوى القاهرى ومجمع البحوث الإسلامية بمذكرة أجاز - على أساسها - المجمع اللغوى القاهرى مثل هذا الأسلوب . واستدل على ذلك بأدلة ، هى :

1- هذا الاستخدام ورد فى القرآن الكريم ، وهو أعلى درجات الفصاحة ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ [مريم : 75] ، وورد فى قول المعرى يُلغز فى (كاد) :

أنحوى هذا العصر ما هى لفظةٌ ... جرت فى لسانَى جرهم وثمود

إذا استُعملت فى صورة الجَحد أثبتت ... وإنْ ثبتت قامت مَقامَ جحودِ

والمعرى ، وإن لم يكن مما يستشهد بشعره ، من الفصحاء .

2- هذا الضمير لا يحتاج إلى مرجع لأنه ضمير فصل .

3- هذا الضمير مبتدأ يفسره خبره المفرد بعده . (**انظر** : كتاب الألفاظ والأساليب 2/ 182 - 187) .

وقعتُ أنا وغيرى فى مثل هذا . ومنه قولكم فى كون المسلمين أحوجَ من النصارى إلى الماء « لأنه فضلاً عن الشراب يلزمهم لأجل الوضوء » فيمَ تنصب كلمة فضلاً هنا ؟ واستعمال (يلزمهم) هنا بمعنى يحتاجون إليه مما لا أعرف له أصلاً فى اللغة ، وإنما هو عصريٌّ حديث ، ولكن لا أدرى متى كان استعماله ، ولعلَّكم تعرفون له أصلاً ، فإنّنى لم أراجعْ عنه باستقصاء . ومنه قولكم فى وصف غناء أدماء : « وتجود بكلِّ نغمة يترنح لها الجلمود فضلاً عن كون الموسيقى الإسبانية فى طبيعتها ما اشتملت عليه من كذا وكذا تفعل كذا وكذا » فيجوز أنْ تكونوا اطلعتم على تخريج يُرضيكم لمثل هذا الاستعمال ، ويجوز أيضًا أنْ تكونوا قد اطلعتم على نصٍّ فيه لم نطلع عليه نحن ولا مثل أبى حيان الأندلسى الذى بحث ما لم نبحث . ولكنْ ما أظنُّ أنَّه يُسخطكم تغييرُ هذا الاستعمال أنا وأمثالى بما لا تُنكرونه بدليل أنَّكم قرأتموه ولم تَعُدُّوه خطأ . على أنَّنى لا أتذكرُ أنِّى غيرت هذا الاستعمالَ فى كلِّ مكان ، وإنما عرفتَ هذين الموضعين لأنَّهما مما كنتُ وضعت عليه علامات الاستنكار(★) .

(★) إنَّ استعمال (فضلاً عن كذا) بمعنى زيادة عن كذا مُستفيضٌ فى كلام المؤلفين والكُتَّاب من زمن قديم كما يعلمُه كلُّ مَن تَتَبَّعَ كلام القوم ، وإنْ كُنا لم نعرفْ متى بدأ هذا الاستعمال ؟ وَقول أبى حيان الأندلسى إنه ليس من كلام العرب لا يدلّ على عدم جوازه لأننا لو نفضنا كلام المؤلفين من بعد الإسلام إلى اليوم لوجدنا فيه ما لا يُحصى من الاستعمالات التى لم يكن يعرفها العربُ ليس فى الأمور العلمية والفنية والمواضيع الفلسفية فحسب بل فى الأمور المعتادة الاجتماعية أيضًا : فقد استعمل العرب بعد الإسلام جُملاً وألفاظًا لا يأخذها الإحصاء ، لو نُشِرَ عربُ الجاهلية وألقيت على أسماعهم لم يفهموها ولا عرَفوا المراد منها ، حتى إنهم قالوا إنَّ بدويًا سُئِل عن القلم فلم يفهم معناه ، فقيل له : ماذا تتصوّر من كلمة القلم فقال : أتصوّر أنَّه شىء يُقطع أو يُقلم ولا أقدرُ أنْ أفهم شيئًا وراء ذلك . وبقى العرب بعد الإسلام بكثير يتحامون (تحاماه : تجنّبه) كثيرًا من الاصطلاحات ، قال سيبويه فى باب الجموع : اعلم أنَّه ليس كلُّ مصدر يجمع كالأشغال والعقول والحلوم والألباب ألا ترى أنك لا تجمع الفكر والعلم والنظر . اهـ . فتأملْ الآن لغة عربية لا يجوز فيها جمع العلم والفكر والنظر . . . والحال أنه لا يكاد الكاتب يُنَمِّقُ بضعة أسطار حتى يُضطر إلى ذكر العلوم والأفكار والأنظار ، وهى مستفيضة فى النظم والنثر ، فقولهم (فضلاً عن هذا) زيادة على هذا لأن الفضل هو زيادة ، وقد رأيت فى بعض كتب المتقدمين قوله : فضلاً عن كذا وزائدًا على كذا . نعم إنَّ أكثر استعمال فضلاً عن كذا يجىء بعد نفى ، ولكنَّ قولهم إن ذلك فى الأكثر صريح بأنه قد يجىء أيضًا بعد إيجاب . والسيد رشيد – رحمه الله – قبلَ أنْ يكتبَ إلينا هذا الاعتراضَ قرأ ما جاء فى « المصباح » فإنَّه يقول : لا يملك درهمًا فضلاً عن دينار وشِبْهِه ، معناه : لا يملك درهمًا ولا دينارًا ، وعَدَمُ مُلكه للدِّينار أولى بالانتفاء ، وكأنَّه قال لا يملِك درهمًا فكيف يملك دينارًا ، وانتصابه على المصدر ، والتقدير : فقد ملك درهم فقْدًا بفضلٍ عن فقد دينار . وقال قطب الدين الشيرازى فى شرح المفتاح : اعلم أنَّ فضلاً يستعمل فى موضع يُستبعد فيه الأدنى ويُراد به =

(5) يقرُب من هذا الاستعمال مثالُ قولكم : (ولكنْ كأنّى بهذا الطريقِ بدلاً عن أنْ يَزدادَ بهم حركةً وأنسًا ازداد وحشةً وَوَحْدَةً) وقولكم (ولكنْ واأسفاه بدلاً من قرع الطبول لم يكنْ حولَ ابن حامد إلاَّ السكوت التام) فيقف الذهن هنا فى (بدلاً) المنصوبة حتى يجىء ما بعدها فيلتمس لها ناصبًا بالتقدير فى الكلام . وبتأخيرها مع ما يتعلّق بها يزول هذا التعقيد . ومن الخطأ فى الجملة الأولى وضع (عن) مكان (من) والمنقول (بدلٌ منه) كما فى الجملة الثانية ، وربما كانت الأولى من غلط الطبع ، والمعاصرون يستعملونها .

(6) ومثله فيما قُدِّمَ وحقُّهُ التأخيرُ قولُكم (وأسلحته تَزيد رَوْنقًا وجلالاً صباحة وجهه) (فصباحة وجهه) مفعول أول ورونقًا مفعول ثانٍ ، وتقديمه خلاف الأصل ، فلا ينبغى إلا لضرورة شعر أو نُكْتة[1] من نكت المعانى . وأنا أعتقد أنّك إذا

= استحالة ما فوقه ولهذا يقع بين كلامين متغايرى المعنى ، وأكثر استعماله أنْ يجىء بعد نفى . وقال شيخنا أبو حيان الأندلسى نزيل مصر المحروسة أبقاه اللّه تعالى : ولم أظفر بنص على أن هذا التركيب من كلام العرب ، وَبَسَطَ القولَ فى هذه المسألة ، وهو قريب مما تقدَّم اهـ .

وقد نقل الزَّبيدىُّ[1] فى شرح القاموس ما ورد فى المصباح عن قضية (فضلاً عنه) أما سؤال الأستاذ عن إعراب فضلاً فى قولى (لأنه فضلاً عن الشراب يلزمهم لأجل الوضوء) فأجيب بأنه منصوب على المصدر مثل قولهم لا يملك درهمًا فضلا عن دينار ، وتخريجه أنَّ الماء يلزم المسلمين لأجل الوضوء لزومًا فاضلاً عن لزومه للشرب . أما استعمال (يلزمه) (ويلزم له) فهو أيضًا مستفيض أكثر من استفاضة الأول ، ومعنى لزم ثبت ودام ، وكأنهم لحظوا أنَّ ما يحتاج إليه الإنسان بصورة دائمة يعد من الأمور اللازمة ، أى التى يحتاج إليها الإنسان لزامًا ، فصار هذا الاصطلاح يفيد معنى الاحتياج ولو لم يكن كذلك فى الأصل . وقد سألت العلاَّمة السيد تقى الدين الهلالى المتقدِّم الذِّكر عن جملة « لأنَّه فضلاً عن الشراب يلزمهم لأجل الوضوء » فأجاب : الذى يظهر لى أنَّ هذا جائز ، وأنَّ نصبه على المفعولية المطلقة كما ذكرتم سائغ (قال) : وبدا لى وجه آخر فى نصبه وهو أنْ يكونَ حالاً بمعنى فاضلاً من فاعل يلزم وتقديم الحال جائز قال ابن مالك :

والحال إن ينصب لفعل صرفا ... أو صفة أشبهت المصرّفا

فجائز تقديمه وهو هنا كذلك فإنَّ (يلزم) فعل متصرف ، وأما كون المصدر حالاً فكثير قال ابن مالك :

ومصدر منكرٍ حالاً يقع ... بكثرة كبغتةٍ زيد طلع

وفى ذلك خلاف معروف .

(1) مسألة دقيقة أخرجت بدقة نظرٍ .

---

(1) هو **محمد المرتضى الزَّبيدى** ، نسبه إلى مدينة (زبيد) باليمن (1145 – 1205هـ) ومات بالقاهرة ، ومن أهم مؤلفاته معجم (تاج العروس) ، أما الزُّبَيْدى – بضم الزاى – فهو أبو بكر محمد بن الحسن (314 – 379هـ) صاحب (طبقات النحويين واللغويين) .

لم توافقنى الآن على هذا فعلَّتُهُ أَنَّك أَلِفْتَ قراءة هذه الرواية لأنها من أوائل ترجمتك ، بل أعتقد أنَّك لولا هذه الأُلفةُ لَصَحَّحْتَ منها عند قراءتها الأخيرة أَلفاظًا وجملاً كثيرة مما لا نراك تستعمله الآن . وأعيد التذكير بأنَّ المراد تصحيح ما ينافى الفصاحة والبلاغة لا ما ينافى قواعد الإعراب ومفردات اللغة فقط .

(7) قولك : (ثم تحفَّزا وتواثبا الواحد على الآخر) ، ولا يغرُب عنك أنَّ معنى تواثبا : وثب أحدهما على الآخر ، فلا حاجةَ معها إلى قولك : الواحد على الآخر .

(8) ومثله (وصاروا يتظاهرون بعضهم على بعض) وهو ما يُسَمُّونَه لغة البراغيث[1] والفصيح : يتظاهر بعضهم على بعض .

(9) وأبعد منها عن الفصاحة بل عن الصواب قولك : (وبقيت سرايا الفريقين تتردد إلى غزو بعضها بعضًا) ، فإنَّه من عدوى الجرائد وأمثالها من مكتوبات المعاصرين التى لا تقبلها لغة البراغيث ، ويتجنبها مَن دونك مِن الكُتَّاب المتأنقين .

(10) وأتذكر أنَّ مما تكرّر وهو لا يُرضيك الآن مثل (نحو ثلاثمائة) بإضافة نحو إلى العدد ، والمنقول عن الفصحاء (نحو من كذا) ، فإن وُجِدَ نَقْلٌ للأول فلا أذكره ولا أجد وقتًا للمراجعة الطويلة ، وحسبى من القصيرة اقتصار (أساس البلاغة) على قوله : وعنده نحو من مائة رجل[★] .

---

(1) هى لغة (أكلونى البراغيث) والشاهد فيها هو دخول علامات التثنية والجمع على الفعل ، ومن ثم قالوا : (أكلونى) ولم يقولوا : (أكلتنى) ، وهو غير الشائع عن العرب ، إذ إنهم يلزمون الفعل حالة الإفراد .

(★) متفَق على أنَّ الأفصح أنْ يقال (نحو من كذا) ولكن ليس بغلط إنْ قيل نحو كذا ، وقد رأيتُ هذا الاستعمال فى كتاب سيبويه ، وليس مرة واحدة ، فقد جاء فى الجزء الثانى صفحة 235 من طبعة الكتاب فى باريس ما يلى : « وقالوا نظير كما قالوا وسيم فَبَنَوْهُ بناء ما هو نحوه فى المعنى . وجاء فى صفحة 236 من الجزء الثانى : وما كان من الصغر والكبر فهو نحو من هذا . وجاء فى صفحة 335 : وقالوا ضخم ولم يقولوا ضخيم كما قالوا عظيم ، ثم قال فى الصفحة التى تليها : وقد يبنون الاسم على فَعْل وذلك نحو ضخم وفخم وعبل وجهم اهـ . ثم يقول : فهذا يدلُّك على أنَّه نحو الطويل والقصير . إذًا يجوز الوجهان ووضع (من) بعد (نحو) هو أولى . وسألت صاحبنا السيد الهلالى ، وهو الغاية البعيدة فى النحو واللغة ، عن هذه المسألة فقال لى : نعم الأفصح العربى الخالص (نحو من ثلاثمائة) . وأما المؤلِّفون من عهد سيبويه إلى الآن والشعراء فإنهم أكثروا من ذلك . والنحو من معانيه المثل كما هنا فلا إشكال فى جوازه . اهـ[1] . =

---

(1) لـ (نحو) معان منها : (مثل) وهذه الأنسب معها ألا تدخل بعدها (من) الجارة يقال : هذا ونحوه يُعدّ كذا . ومنه (حوالى) وهذه الأنسب معها والأفصح أن تدخل بعدها (مِن) الجارة . (انظر : المعجم الوسيط : نحو) .

(11) قولك : (وكانت المقبرة عبارة عن روضة معروشة مِن النارنج والسرو والنخيل) . كلمة (عبارة) خاصة بالكلام واستعملها كثير من علمائنا فى تفسير بعض الكلم أو تعريف بعض الاصطلاحات اللفظية ، وأنكر هذا بعض إخواننا من نُظَّار المدارس فى إحدى جلسات المجمع اللغوى ، فصوَّبت كلامه فى مثل هذا الاستعمالِ الذى يكثُر فى الجرائد وأمثالها فقط . وفى العبارة أيضًا أنَّ المعروش من الشجر والنجم ما كان كالدوالى وغير المعروش ما كان كالسرو والنخيل ، وهو ما حققناه فى تفسير : ﴿ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ [الأنعام : 141] .

(12) قولك : أنْ يصلح ذاتَ البينِ بينَ الفرسان . الوجهُ أن يُقالَ : (ذات بين الفرسان) بالإضافة فقط كما قال تعالى : ﴿ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال : 1] .

(13) قولك فى حثّ البغال وزجرها « بأنَّ يُنادِيَها تارة يا جيدة يا سريعة أو أنْ يَزْجُرَها طورًا بقوله : عدس » لا حاجةَ هنا (لأو) ولا (لأن) ، فالمقَام مَقام الواو وحدَها .

هذا بعض ما بذْلتُ من الاجتهاد فى تصحيح كتابِ أجلِّ أصدقائى فضلاً وأدبًا ووطنية وخدمة للأمة من طريقَىْ المساعى السياسية ونفثات اليَرَاعِ[1] ، لم أذكره إلاَّ شفيعًا بين يَدَىْ اعتذارى عما ذكرنى وعاتبنى عليه من تعليق بعض الحواشى بعبارة تُشعر بأنى لم أتَّقِ فى بعضها ما يُخل بمقامه العلمى والأدبى ، فأقول أوّلاً إنَّنى لا أنكر أنّى تعوّدت التعليقَ على بعض ما يُنشر فى (المنار) لا على كلِّه . ثانيًا : لا أُنكر أنَّ

= وسألته أيضًا عن بقية اعتراضات السيد رشيد - رحمه اللّه - فقال : « بدلاً من قرع الطبول إلخ » يظهر لى أنَّ السيد إنّما اعترض هنا من جهة البلاغة وكان يدقق فيها كثيرًا ، وأما الجواز فلا أراه يُنكره ، وأمر ذلك سهل إذ لا يخلو إنسان أن يوجدَ فى كلامه خلافُ الأَوْلى من جهة البلاغة . (قال) : وأسلحته تزيد رونقًا وجلالاً صباحة وجهه » هذا الاعتراض أيضًا من جهة البلاغة بلا شك ، ويظهر لى أنَّ الصواب فيه مع السيد رشيد لأنَّ ركاكته بادية ، ولست أمنعه ، وما أجبتم به فيه أنَّ استجلاب الفكر لصباحة الوجه أهمّ وأولى . (قال) : « وبقيت سرايا الفريقين تتردد إلى غزو بعضها بعضًا » جائز ، وليس هو من لغة الجرائد لأن لغة الجرائد ولغة عامة مصر أن يقال مثلاً : « وبقيت السرايا تتردد على غزو بعضها » نعم لا تخلو تلك العبارة من ركاكة ولو قيل : « وبقيت السرايا يغزو بعضها بعضًا » كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [الكهف : 99] . لكان أولى . اهـ .

تقدَّم لنا كلام فى أننا ترجمنا هذا الكلام ترجمةً عن الأفرنسية من أربعين سنة ورَاعينا فيه الترجمة الحرفية.

(1) **يقصد** : أنه خدم الأمة من طريقين ، هما : المساعى السياسية الإصلاحية ، الكتابات التى خطها بقلمه وأبدعها بلُبّه .

بعض ما أعلّقه – وكذا ما أكتبه ابتداءً – قد يكون خطأً . فأما إنكارك ما أقول فيه : لعلّ أصله كذا وهو من غلط الطبع الظاهر فى المتن – فلا أراه صوابًا لأن وُجْهة نظرى فيه أنَّ نَقْلَه بنصِّه أمانة ، وأنَّ قولى : لعلّ أصله كذا أقصد به أنّنى أُرجّح أنَّ أصلَ الكاتب صحيح وأنَّ الخطأ من الطبع إنْ كان مطبوعًا ومن النَّسْخ إنْ كان مخطوطًا ، ولا أتذكّر أنّى تعمّدتُ إظهارَ التخطئة إلا فى مقام المناظرة ، فإنْ وقع منى ما يدلُّ على خلاف ذلك دلالة قطعية فلا شك عندى أنّه من سوء التعبير لا من سوء النية . والتعليق على المطبوعات من مصححى المطابع معهودٌ مألوف .

وأمّا حواشى (ابن سراج) خاصةً فأكثرُها قد وضعتُه بحكم العادة ، ولم أَفطِن لكَون الكتاب لغيرى إلا فى آخِره وفى ذيله الذى طبع أكثرُه قَبلَ وُرود كتابكم هذا(★) . هذا ما أقولُه فى جُملتها ، وأمَّا التفصيلُ فأقولُ فيه ما يأتى :

(1) مِصراع بيت أبى تمام قصدتُ به أنَّ هذا ربما كان روايةً وكان يجبُ أنْ أُصرِّحَ بذلك وَأَعْزُوَهُ إلى مصحح الطبع كما فعلت أخيرًا ولكن لم أفطِن لذلك ، وأنا فيه

(★) كان من عادة الأستاذ إذا جاءته كتابة فنشرها فى المنار أنْ يضعَ عليها تعليقاتٍ من عنده فى ما يراه خطأً فى المتن ، ولما طبعنا « آخر بنى سراج » تحت إشرافه فعل ذلك معنا كما كانت عادته إلا أنه كان لنا على الكتاب تعليقات من قلمنا ، فنظرًا لكون الأستاذ لم يضع إشارة تفرق بين تعليقاته هو وتعليقاتنا نحن اختلط الحابل بالنابل ، فنبهناه إلى ذلك ، فعاد وصار يضع إشارة تفيد أنَّ التعليق منه لا منّا ، والتزمنا أنْ نضع تنبيهًا فى أول الكتاب هو هذا :

إنه لما كانَ هذا الكتاب قد انطبع بمطبعة المنار بمصر ، وكنا نحن بمكان والمطبعة بمكان ، رجونا حضرة الأستاذ العلاَّمة صاحب المنار أنْ يُشرفَ على طبع الكتاب ، ويتولى تصحيحَ مسوَّداته – وهل يُفْتَى ومالك فى المدينة – فعلَّق الأستاذ أثناء تصحيح المسوَّدات بعض ملاحظات عنَّت له ، ومنها ما هو شبه اعتراض على المتن ، ولما كان بعض هذه الملاحظات غيرَ معلَّم عليها بإمضائه وخشيت أنْ يختلطَ الحابلُ بالنابل وجب التنبيه على الحواشى التى علَّقها الأستاذ . فهى الواردة فى صفحات 8 ، 27 ، 63 ، 65 ، 113 ، 116 ، 117 ، 119 ، 190، 347 والحاشية الثانية من ص73 والأولى من ص375 وسائر حواشيه معزوة إلى مصحح الطبع ، وما بقى من الحواشى فهو من قلم مؤلِّف الكتاب شكيب أرسلان .

فكتب الأستاذ تحت هذا التنبيه اعتذارًا قال فيه : إننا لم نقصِد الاعتراض بما ذُكر على أمير البيان بل جرى به القلم كعادته لزيادة الفائدة ، كمطلع سينية أبى تمام ذكرنا نصَّ الديوان المطبوع ، ولا نجزم بأنه الصواب لكثرة غلط الديوان ، وكالاستدراك فى مسألة الجوهرى والبرامكة فما فى المتن لا يُنافيه ، وكذلك حاشية القدر فى ص361 ، وأما حاشية ص367 ففيها حَمْلُ كلام المتن على أصل بليغ مع مخالفة ظاهره لمورد الحديث .

رشيد رضا

مخطئٌ . وكان خَطَرَ فى بالى بعدَ أنْ فَطِنْتُ لتعدُّدِ هذا أنْ أشاوِرَكم فى التنبيه والتصريح به فى آخِرِ الكتاب ، فسبقتم إلى ذلك ، فتلقيتُه بالقَبول ، وديوان أبى تمام كثير الغلط .

(2) الاستدراك على مسألة أخذ اللغة عن الجوهرى لا يُشْعِرُ أنَّه مما يخفى على مثلكم ، وهو مما يعرفه من نُعظِّمُهم إنْ قلنا إنَّهم دونَكم . وإنّما الاستدراكُ زيادة فائدة كاستدراك الحاكم على صحيحى البخارى ومسلم وهو دونَهما باتفاق علماء الحديث وسبب استدراكى أنَّنى أنا وسائر محبى العرب والعربية يتألَّمون مِن الدعوى الباطلة التى أذيعت بأنَّ أكثرَ رجال العلم العربى من الأعاجم حتى اللغةِ نفسِها ، فجعلتُ الاستدراك شفاءً لألم مَن يقرأُ هذا الكتاب . ووالله لم يخطرْ ببالى أنّه ربّما يكونُ من لوازمه اتهامُك بأنَّك لا تعرفُ مَنْ كَتَبَ قبلَه من العرب كالخليل وبعدَه وهم كثيرون ، فكيف تقول إنّنى جعلتك « ظانًّا أنَّ اللغة كلَّها أخذت عن (صَحَاح) الجوهرى ، ومما لا أجهلُه أنَّ اللغة كلَّها ليست فيه » . ومثلها مسألة البرامكة .

(3) لم يبقَ بعدَ هذه المسائل إلا كلمة « لعلَّه فخلفه » فى تصحيح فخلف ، وأتذكَّر أنَّ سببَ تَوَقُّفِى فى عَدِّها من أغلاط الطبع هو أنَّنى رأيتُها فى وقتٍ ضيِّقٍ بعملٍ كثيرٍ ، فأردتُ أنْ أعود إلى التأمل فيها فلم يتفق لى ذلك .

فثبت بكل ما تقدَّم جميعه أو مجموعه أنَّنى لم أكن لِأَحْرِصَ كلَّ هذا الحرص على تصحيح كتابكم مِن كلِّ غلطٍ مطبعىّ وغير مطبعىّ ، ثم أعمِدُ إلى موضعين أو ثلاثة مواضع مِن غلط الطبع فأعلّقُ تصحيحَه بحاشية أقصِد بها إيهامَ قارئيه أنَّها خطأ أصلى ، وأتعمَّد تعليقَ حاشيتين أو ثلاثٍ استدراكًا على عبارات فيه لمثل هذه الإيهام !!

لو ثبتَ هذا علىَّ لكنتُ مجرَّدًا من أفضل حسنة أرجو بها الزُّلفى عند الله تعالى بعد الإيمان ، وهى حُسن النية والإخلاص فى كلِّ قول وعمل ، ومن أفضل حسنة أرجو بها ثبات مودة الإخوان الذين تجمعنى بهم صلة العلم والأدب والعمل للملة والأمة ، وأنت عندى فى الذُّروة من الجامِعين لهما . وإن اتهامى بذلك اتهام بضدِّ ما أنا عليه لا بما أنا برىء منه فقط ، فوالله لم أقصِدْ بإضاعة وقتى - الذى هو أضيق من سَمِّ الخياط

على عملى - إلا الحرصَ على سُمعتك الحالية فى علم الأدب - التى نلتَها بحقٍّ - أنْ يتناولها المدقِّقون فى تحرّى صحيح اللغة وفصيحها فى هذه الأيام ، فيضعوها فى ميزان النقد بهفَوات وقعت منك فى أَوَّل عهدك بالإنشاء والترجمة أيامَ كان أكثرُ ما يُستعمل فى الكتب ، وهو غير مخالف للقواعد النحوية والصرفية ، مقبولاً عند الجمهور ، وهم اليوم يُخَطِّئُون أشهرَ العلماء المتقدِّمين فى مسائلَ كثيرة .

وما جَرَيْتُ معك فى هذا إلا على الطريقة التى اسْتَقَمْتُ عليها فى معاملة شيخنا الأستاذ الإمام فى عهده وبعد عهده ، فقد كنتُ أُراجِعُهُ فى حالة القُرْبِ بما أرى أنْ يحتاجَ إلى إصلاح لفظىّ أو معنوى من كلامه فَيُسَرُّ بذلك جِدَّ السرور ، ويعمل به ، وكنت أُصحح فى حالة البعد ما أقطع بأنَّ تغييره أوْلَى ، وقد علَّقْتُ على رسالة التوحيد حواشىَ لا تخلو من تخطئة للأصل ، وقد أَذِنَ لى بتصحيح خطابه الذى ألقاه فى تونُس بعدَ أنْ طُبع فيها[1] مصحَّحًا بقلمه ، ولم يُبالِ أنْ يرى علماءُ تونُس وأدباؤها أنَّ ما طُبع فى المنار أَصحُّ مما طُبع عندهم ، فقد كانت هذه المعاملةُ من أُستاذنا الأكبر فى الإنشاء وعلوم البلاغة سببًا فى تمكّن تلك العادة التى أشار إليها سيدى الأمير ، واعترفنا له مع ذلك بالحق فيما انتقده منها . وأرجو أن يكونَ لانتقادنا تأثير عملى يقف بالتساهل فيها عند حَدٍّ فأتقى أنْ أُعَدَّ مسيئًا فيما أردتُ به الإحسانَ ، كما وقع لى معه فى مسائلَ أخرى حرَصت فيها على إيذانه بما عندى فيها من رأى ورواية وخُبر وخَبر لنكونَ متفقَين فيها وسواءً فى معرفة قوادمها وخوافيها[2] ، فاتهمنى فيها بأنّنى اتهمتُه بما اضطُررت بعدَ طول الجدال أنْ أُقسم له يمينًا مؤكَّدة بأنّنى لم أقصِد اتهامَه ، ولا ظننتُ ذلك فيه ، بل أَعتقدُ أنّه على خلافه .

إلى أنْ يقول : هذا ، وإذا كنتُ أقصد بهذا الكتاب « تصفية حساب » تلك المجادلات التى أكرهُها وأتحاماها مع الإخوان ، وقد وقعتُ فيها على توقُّع لها ، فإننى لا بُدَّ من ذِكر كلمة فى المسألتين اللتين ذكرتَ أنّنى أَخطأتُ فيهما الحقَّ فى حواشى

---

(1) **يقصد** : بعد أن طبع فى تونُس بخطئه طبعه الشيخ رشيد فى المنار مُصَحَّحًا .
(2) أى سواء فى معرفة واضحها وغامضها .

المنار ، لا لأُبرِّئَ نفسى من الخطأ بل لأُريك أنَّ جزمك هذا فيه نظر ومجال للبحث فى الأولى ، وأنَّك أقربُ إلى الخطأ فى الأخرى ، بل أنا المصيب فيهما جميعًا .

الأولى : مسألة (ارتيابى فى افتتاح العرب لروميَّة واكتساحها) الكسح والاكتساح هو الكنس والثانى أَبلغُ من الأول ، ويستعملان مجازًا فيما استعملتم فيه الاكتساح ، ولا أَزال أرى استعمالكم له فى غير مَحَلِّهِ ، وأَرى تعليقى عليه فى مَحَلِّهِ . ومما أجبتم به عنه هو حُجة لى عليكم لا لكم علىَّ ، على أَنَّنى لم أَجزمْ بتخطئتكم فى تلك الحاشية ، وإنما وقفتُ معكم موقفَ السائل لكم المعترفِ لكم بأنّكم أَعلمُ منه بالتاريخ ، وذكرُكم للمسألة فى سياق مكتوبكم الأخير يُسلكها فى الحواشى التى أدل بها وأَظهر تجهيل الناس بها على كونى مخطئًا فيها . قال فى شرح (القاموس) وبعض قوله من المتن : ومن المجاز أغاروا عليهم فاكتسحوهم أى أخذوا ما لَهم كلَّه ، ويُقال أتينا على بنى فلان فاكتسحنا ما لهم ، أىْ لم نُبق لهم شيئًا اهـ . فهو يقول يا سيدى إن ما كتبته فى الجواب ونشرناه فى (ج 9 م 24) نصٌّ فى أنَّ العربَ فتحوا رُوميَّة واكتسحوها ؟ إنَّك صرَّحتَ بأنّك لم تَدع أنهم فتحوها ولكنك لم تُثبت أنهم اكتسحوها ، فما ذكرت عنهم ليس اكتساحًا ، فإنْ أصررت بعدَ هذا على أنه يُسمّى اكتساحًا فإننا نحكِّم فى المسألة أشهر علماء اللغة والتاريخ بمصر ، ونرضى بحكمهم (كأحمد تيمور باشا وأحمد زكى باشا) .

المسألة الثانية : قولك إنَّ كلمة الفَيْلَق « وردت بالتذكير أيضًا فى فقه اللغة للثعالبى عند تقسيمه درجات الجيوش » تعنى أَنَّنى أخطأتُ فى جعلها مؤنثةً لأنّها وردت بالوجهين ، وقد راجعتُ (فقه اللغة) فلم أرَ فيه وصفها بالتذكير ولا بالتأنيث ، وإنما ذكرها مع الألفاظ المرادِفة للجيش ، والألفاظ المتفقة فى المعنى لا يجب أن تكونَ كلُّها مذكرة أو مؤنثة ، ولو وجب هذا لكان حُكمًا منها بتذكيرها فقط ومخالفته لجميع رواة اللغة الذين نُقلت أقوالهم فى المعاجم والمخصَّص ، على أنَّ جعلَه إياها بمعنى الجيش والجحفل وهو قوله : من ألف إلى أربعة آلاف ودون الكتيبة مخالفٌ لأقوال بعض أئمة اللغة ككثير من حدوده . ففى (المخصَّص) بعد ذكر المِقْنَب والاختلاف

فى أنه ألف ومئة أو مئتان أو أكثر ما نصُّه : فإذا كثُروا فهى الفيلق . ابن دريد : الفيلق الكثيرة السلاح أو هى الشديدة . أبو عبيد الفيلق اسم للكتيبة اهـ . ويُؤخذ من لسان العرب وغيره تأنيثُ الفيلق لأنه اسم للكتيبة أىْ على رواية أبى عبيد – أو لأنه وصف للداهية الشديدة ، فقد نقل أنَّهم قالوا كتيبة فيلق أىْ شديدة ، وأنه تشبيه لها بالداهية كما قالوا امرأة فيلق ، وفى (مستدرَك التاج) : والفيلق كصَيْقَل الداهية والأمر العَجَب ، ورماهم بفيلق شهباء أىْ كتيبة منكَرة ، وبلى فلان بامرأة فيلقٍ أىْ داهية منكِرة صخّابة . وجملُة القول أنّ كلمة فيلق قد اتفقوا على تأنيثها ، واختلفوا فى تحديد معناها لأن العرب لم تكن تحدد مثل هذه الألفاظ بالعدد . وتفسير بعضهم لها بالجيش ، وهو العسكر الكثير ، لا يتضمَّن جواز تذكيرها لأنهم أوردوا لها شاهدًا من كلام العرب ذُكرت فيه مؤنثة . وَهَبْ بعدَ هذا أنه جائز وأننا عثرنا على رواية شاذّة تؤيد الجواز أَيُعَدُّ هذا مَخْرَجًا لمن أطلق قول الجمهور من كونه مُحقًّا ، والمَقام مَقام ما يستعمله فُصحاء الكُتّاب لا مقام تحرير ما ورد من الروايات فى الكلمة ؟

بعدَ هذا كلِّه أعترف تَكْرَارًا بأنَّنى أخْطِئ كثيرًا فيما أكتب ، وأنَّ بعض ما أخطىء فيه عن جهل ، وبعضه عن ذهول ونسيان لما أنتقده على عِلْمٍ ، وبعضه من سَبْق القلمِ ، ولم أقرأْ لأحد من كُتّاب هذا العصر حتى المشهورين منهم بالتدقيق والنقدِ كاليازجى كلامًا كثيرًا سالمًا مِن الغلط . وإنَّ مِن حسن حظ الإنسان أنْ يوجد له إخوان ينصحون له ببيان ما يَرَوْنَه خطأً من كلامه . وقد سُررت جِدَّ السرور لمّا كتبتم إليَّ تلك الكلماتِ التى قُلتم إنّكم تجدونَها أو وجدتموها فى كلامى ، وهى مما تتجنبون استعماله « كالواسطة » « والخزينة » ، وأجيبكم بما أراه صوابًا منهن كالخزينة وما جاريت فيه العلماء كالواسطة – وقد رأيتُها فى كلامكم أيضًا – وما لا أعرف له أصلاً ولا استعمالاً للعلماء المتقدِّمين ، ولا أتذكّر الآن ما هو ، وأستحسن أنْ يتكرَّر هذا بيننا بمثل ما بدا من الإنصاف فى العلم وعدم اتهام أحدٍ منّا لأخيه بالحطِّ من قَدْرِه والانتصابِ للمدافعة عن نفسه ولو بالتأويل والاحتمال ، والتماس المخرج ولو بشواذِّ الأقوال ، وهو ما

وقعنا فيه أخيرًا حتى إنك أخذتَ تمارينى[1] فى حديث مما اشْتُهر على الألسنة ، ذكرتُ لك القولَ الفصل فيه وفى بعض المسائل الدينية كما يوصف اللّٰه تعالى به وما لا يوصف ، وفى استعمال لفظ الصلاة بمعنى الدعاء كما يستعملها النصارى - فسكتُّ عن تفصيل القول فيه لكراهتى لمثل ذلك ولا سيما مع الإخوان ، كما ذكرتُ فى هذا الكتاب وفى غيره من قبلُ ، ولأنَّ الشرح فيه يطول ، ولا يستحقُّ أنْ يُضاعَ فيه الوقت وهو ضارٌّ غيرُ نافع ، وما كتبتُ هذا الآن إلا لما ذكرتُ من تصفية الحساب فيما رأيتُك فيه تعيد الماضى كمسألة اكتساح العرب لرُومِيَّةَ التى أقْرَرْتُ لك فى المنار بفضل بيانها بعدَ أنْ صرحت عند إيرادها بأنَّك أعلم منى بالتاريخ ، وإنما أشرتُ بلطف خفى إلى أنَّ جوابك لى لم يظهر منه أنَّ ما أوردتَه يصحّ أنْ يُسمَّى اكتساحًا فلم تكتفِ بذلك .

وأَخْتِمُ هذا البحثَ بأنَّ لك الحقَّ كُلَّ الحقِّ فى انتقادك وضعَ الحواشى على كتاب « هو لك لا لى » ، وبأنَّنى لا أعود إلى مثل ذلك فيما هو لى إذا تفضَّلت علىَّ بكتابة شىء فيه ، وهو المنار الذى أرجو أنْ يكونَ دائمًا مَوْضِعَ عطفك ومساعدتك ومَظْهَرَ علمِك وأدبِك ، وأرجو أنْ أكونَ أحسنَ حظًّا فى هذا الكتابِ على ثقْله وجدله وطوله منِّى فى غيره ، فأنالَ به ما أطلُبه من حفظ المودة وثباتها ونمائها بالإخلاص التام ، لا بمجردِّ المجاملة التى تقتضيها المظاهرُ كما هو شأنُ أكثرِ الناس .

يا حُبَّ لَيلَى لا تَغَيَّر وَازْدَدْ وَانْمُ كما يَنْمِى[2] الخضابُ فى اليدِ

إلى أنْ يقولَ :

التعريف بكتاب أخبار العصر وبالمراسيم السلطانية الأربعة

لما أرسلتُم هذين الأثرين التاريخيّين أرسلتُم معهما مقدمة لهما للتعريف بهما ، فوضعتُها معهما ، ولم أقرأها لضيق الوقت عن قراءة شىء قبل الحاجة إليه ، فلما حان وقتُ طبعها لم أرَ معها شيئًا ، وكنتُ نَسيت المقدمة فطبعا بدونها ، وفى أثناء

(1) تجادلنى . (2) **نما يَنْمِى نماءً** : شاع ، **انظر** : اللسان : نما ، والبيت لقيس بن معاذ .

طبعهما ورد كتابك فتذكرتُ المقدمة وَاضْطُرْرنا إلى جعلها خاتمةً ، ولولا ذلك النسيان لما وضعت سطر التنبيه فى آخر ديباجة[1] الكتاب . وكنت عازمًا على إرسالهما إليك قبل جمع حروف الفهرس وتصحيح الخطأ لتفهرسهما وتصححَهما ، ثم رأيتُ أنَّ هذا يقتضى تأخير إصدار الكتاب بدون فائدة ، والفهرسة لها سهلة ، وتصحيح غلط الطبع إنما يكون بمقابلة الأصل وهو عندنا ، وما كان فيهما من غلط أصلى بالعربية فقد ترك على حاله لأن النقل أمانة ، وقد تأخَّر جمع حروف الفهرس وجدول التصحيح لأن الأرقام التى فى المطبعة كانت مشغولة بفهرس آخر للمنار ، وكان لدينا فهرس ثالث وجدول تصحيح لكتاب من كتب ابن سعود تمَّ طبعه من عهد بعيد فأخَّرناهما .

وأذكرُ على سبيل الاستطراد أنَّك تكتب كلمة (فِهْرِسْت) الفارسية مع ورود كلمة فهرس فى معاجمنا ، واشتقاقهم منها فهرَس الكتابَ يُفهرِسه ، وتصريح بعضهم بأنَّها معرَّب (فِهْرِسْت) .

بدأت بهذا الكتابِ منذُ أيام ، فطال فوقَ ما كنتُ قَدَّرْتُ ، وجاء فى هذه المدة كتابان منك لى وآخران للسيد عاصم ، وقد سُرِرْتُ بوجود الآلة النفيسة الرخيصة ، وكتبت إلى وكيل الرجل المحتاج إليها بأنْ يُبْلِغَه خبرَها .

وكتابك الأخير للسيد عاصم تتمنّى فيه لو يَكْذِبُ ظَنُّ مَنْ أساء الظنَّ بأُناس قد بَلَوْنا[2] بأنفسنا منهم مثلَ ما ظَنَّه . ونحن موقنون لا ظانُّون ، ومع هذا نتمنَى مثلَك لو يَكْذِبُ ظنُّه لما فى كذِبه من الفائدة والمنفعة لمن نُحبُّهما لهم ومِن توبة بعض المسيئين وصلاح حالهم . وإنما ذكرتُ هذا لأكاشفك بما وقع فى نفسى عندما قرأ السيد عاصم تمنيك هذا قلت فى نفسى : سبحان اللّه إنَّ هذا الصديقَ يُغلِّبُ حسنَ الظنِّ على سوئه فيمَن لا يَعْرِفُ من الناس ، ويتأوَّل لهم أو يدافع عنهم ، ويناضل دونَهم إنْ أمكن ؛ ثم هو يُسيئ الظنَّ فى أخلصِ النَّاس له وأعرفِهم بقدْره وأحرصِهم على رفعة ذكره ، وبهذه المكاشفة قد انتهى العتابُ . وأسألُ اللّه تعالى أنْ لا يقعَ بيننا بعد هذا ما يُثير ظِنَّةً

---

(1) **ديباجة الكتاب** : فاتحته ومقدمته . (2) **بلاه** : اختبره .

أو يُحدِث ريبًا فى حسن النية ، وإنْ اختلف الرأى فى بعض المسائل ، على أنَّه لن يكونَ إنْ شاء اللَّه تعالى إلا فى الوسائل ، وقد اعتاد كلٌّ منا احترامَ آراء المستقلّين حتى فيمن نُخالفهم فى السياسة والأدب والدِّين ، وأنْ يوفِّقَنا دائمًا للتعاون على البر والتقوى وخدمة أمتنا البائسة المسكينة ، ويقرَّ أَعيُننا برؤية ثمرة خدمتنا ، وأنْ يَهَبَ لنا من أزواجنا وذريَّاتنا قُرة أعيُن ، ويجعلَنا للمتقين إمامًا .

محمد رشيد رضا



وله إلىَّ كتابٌ تاريخُه 9 صفر 1344 و 18 أغسطس :

سيدى الأخُ الأميرُ :

وصلتْ مكتوباتُ: مِن مختصَرٍ ومطوَّلٍ وَأَطْوَلَ ، وآخِرُها ما كُتب قبلَ سفرك بساعتين ، وهو مبنى على بلاغ كاذب وصل إليك مِن مصر بشأن لجنة المؤتمر السورىّ الفلسطينىّ ، وكنتُ أنتظر إتمام ما شرعْنا فيه من خِدمتك وتنفيذ رغَباتك فى كتاب (حاضر العالم الإسلامى) ومجموع الكتب الأندلسية من الرواية وذيولها وأذنابها الطاوُوسيّة (إلى أنْ يقول) :

وأما لجنةُ المؤتمر السورىّ الفلسطينىّ فقد كانت قليلةً وَادِعَةَ الحركة ضعيفةَ النشاطِ إلى يوم الأربعاء الماضى ، فقد ظهر فى الجلسة التى عُقدت فى مسائه حركة جديدة ، ذكر فيها وجوب إرسال وفد إلى جنيف ، وكان المنتظَرُ قبله الاكتفاءَ بإرسال مذكرة أو نداء إلى جمعية الأمم ، وكنتُ أرجو أنْ أُوفَّقَ لإقناع اللجنة بإرسال ذلك إليك . وكان سببُ هذه الحركة الجديدة أنباء البلاد الأخيرة ووصول تعليمات تفصيلية عن حالة البلاد العامة ، أرسلها حزبُ الشعب من دمشق لِتُودَعَ فى مذكرة اللجنة أو ندائها كما كان الحزب قد وعد . وقد ظهر تلك الليلةَ من الأمير ميشيل الميلُ إلى السفر ، ولم يكن ذلك منتظَرًا لأن أخويه كليهما مسافران ، وقد قرب مَوْسِمُ القطن ، ويُلِحُّ علىَّ

رفاقنا بأنْ أُسافر معه لِأَجْلِ التوفيق بينكما وخشيةَ حدوث ما لا يُحمد منكما لما كان فى العام الماضى . . . ولكنَّ شُغْلى فى هذا العام لا تُبيح لى كثرتُه مفارقةَ القاهرة يومًا أو يومين إلى الإسكندرية أو بور سعيد أو رأس البر .

وإنى لا أستطيع أن أفتح على نفسى بابَ بحث آخَر معكم فى هذا الكتاب ، إلاَّ أنى أتعجب مما بقى لفلان وأولاده عندكم من المكانة ، ولا أزيد فى هذا على قولى إن بيننا خلافًا فى حال البلاد العربية ومستقبلها ، وإن كان ليس بيننا أدنى خلاف فيما نحبه ونتمناه ، ولا يَسْهُلُ علىَّ بيانُ رأيى مفصلاً إلا إذا أذن اللّه تعالى بأن نتلاقى ، وفرصة التلاقى سانحة ، ولكنَّ الموانعَ قويةٌ ، والأمر بيد اللّه . والسلام عليكم أولاً وآخِرًا من أخيكم المخلص .

رشيد

وفى ذَيل هذا الكتاب حاشية بقلم رصاص ، هذا نصها :

نَشَرَ سلطانُ نجد بلاغًا رسميًا للعالم الإسلامى ، صرَّح فيه بأنه لن يكونَ لأجنبى أقلُّ نفوذ فى الحجاز ، وامتنع من التصديق على إلحاق خط العقبة ومعانٍ بشرق الأردن ، فطفق الإنجليز يُشاكسونه[1] بالدّعاية وبمساعدة خَصمه ، وقد أذِنوا للحكومة المصرية بتسليم الذخائر الحربية التى حجزتها فى السويس سابقًا للشريف علىّ .

وله كتاب مؤرَّخ فى 20 ربيع الأنور من تلك السنة نفسها :

سيدى الأخ الأميرُ :

كتبتُ إليك قبلَ هذا كتابًا وجيزًا كنتُ أريد أنْ أَصِلَهُ بغيره عند انتهاء بعض الأمور التى كنا بصدد الاشتغال بها ، فلم تنتهِ إلا وقد انتهى مُكْثُكَ فى سويسرا أو شغلك فيها ، ولم نعلم أين تنتوى بعدَها حتى جاء كتابُك أوَّلَ من أمس[2] إلى ولدنا السيد عاصم ، وليس

---

(1) **شاكسه** : غاضبه وعاسره .

(2) اليوم الذى قبل أمس .

فيه إلا سؤالك إياه عن الحكيم أجمل خان(★) فأنا أعرفه من زُهاء ربع قرن إذ كان ألمَّ[1] بالقاهرة فى عودة له من أوروبا إلى الهند ، ثم لقيته فى بلدة دهلى ، وكرَّمنى هناك تكريمًا . ولما زار القاهرة فى هذه المرة جدَّدنا المودةَ ودعوته مع كبار العلماء وحضرتُ دعواتهم له ، ولما غادرها إلى سوريا ولبنان لم أكن أتممت مباحثى معه فى المسائل الأربع التى كانت موضوع البحث ، فكتبتُ إليه أنْ يعودَ إلى القاهرة قبل سفره إلى الهند ، فكتب إلىَّ يقترح أنْ ألقاه فى بور سعيد إنْ أمكن حتى لا يَشْغَلَنا عن البحث شاغل ، فكتبت إليه : إنّه لا يتيّسر لى ترك القاهرة فى هذه الأيام ، ولا بدَّ من عودته هو ، ففعل .

أما المسائل الأربع فهى :

(1) مقاومةُ تيار الإلحاد الذى يَغْرَقُ فيه الألوف من المسلمين فى هذا العصر .

(2) مقاومةُ العصبية الجنسية المُضْعِفَةِ للرابطة الإسلامية .

(3) الوحدةُ الإسلامية وإزالة ما يُضْعِفُها من عصبية المذاهب .

(4) الخلافةُ والمؤتمرات الإسلامية وحفظ جزيرة العرب من النفوذ الأجنبى - أو يَعُدُّون هاتين مسألتين وما قبلهما مسألة واحدة - وقد أجبته عن كل واحدة بما أقنعه وعدَّه فصلَ الخطاب ، ووعد بعرض السِّرِّىِّ منه على إخوانه الزعماءِ فقط ، وكذلك كان شأنى مع الدكتور أنصارى صاحبه .

الحكيم أجمل خان من أكبر زعماء الهند - إن لم يكن أكبرهم - قَدْرًا وعقلاً وعلمًا وإخلاصًا ، وهو من بيت قديم من سُلالة « مُلا على القارى » المحدِّث الفقيه الحنفى

(★) الحكيم أجمل خان من زعماء مسلمى الهند الذين اتفقت كلمة الخلق على وصفهم بالعلم والفضل والنزاهة والإخلاص ، ولم تُسعف الأقدارُ بأنْ يكونَ بيننا وبينه تعارف شخصى إلا أنه جاءَنى من رشيد بك طليع بمكانه يومئذ فى القدس كتاب يقول لى فيه : إن الحكيم أجمل خان الزعيم المسلم الهندى يوصيك بفلان من رجالات الهند الوطنيين أن تقابله وتعتمد عليه . فجاء الهندى المذكور وقابلته فى منزلى بلوزان ، وكان موضوع المقابلة مسألة سياسية لا مَحَلَّ لذكرها هنا ، وإنما هى فى مصلحة المسلمين . فأردت أن أستزيد معلومات عن الحكيم أجمل خان بسؤال الشيخ رشيد رضا ، فأجابنى بالتفصيل كما يرى القارئ . وقد توفى الحكيم أجمل خان وأَبَّنَهُ الشيخُ رشيد فى المنار فى نفس الجزء الذى أبَّن فيه أخى نسيبًا وأمين الرافعى - رحم الله الجميع - وهو الجزء العاشر من المجلد الثامن والعشرين .

(1) **ألَمَّ بالقوم وعليهم** : نزل بهم ، وزارهم زيارة غير طويلة .

المشهور ، وهو طبيب واسع العلم بالطب العربى اليونانى مع الإلمام بالطب الحديث ، وفى أجداده عدة أطباء مثله ، وعنده خزانة كتب وآثار موروثة فيها من نفائس كتب الطب والعلوم المختلفة المخطوطة بأجمل الخطوط على أجمل الورق المصنوع بعضه من الحرير . وهو يُحسن اللغة العربية فلا يحتاج مثلُنا معه إلى ترجمان ، وقد انتخب مرة لرئاسة المؤتمر الهندىّ العام المؤلَّف من جمعية الخلافة وجمعيات العلماء وغيرهم من الهندوس ، وتولّى قبلَ الآن رئاسةَ جمعية الخلافة ، وقد انتُخب للرئاسة ثانيةً قبلَ أنْ يَبْرَحَ مصر فى الشهر الماضى ، وقد ذكرتك له فى أثناء الكلام مرارًا .

الآن عند كتابة هذه الكلمة تذكّرتُ ما كتبتَ إلىّ مِن قبلُ انتقادًا على اقتراحِ زعماءِ الهندِ جَعْلَ حكومة الحجاز جمهورية ، وأظنُّ أنّنى كتبتُ إليك : إنى ما أراهم يُصرُّون على هذا الاقتراح إذا ظهر لهم أنَّ المصلحة فى غيره . وقد قلتُ للحكيم : إن حكومة الخلافة الإسلامية أقرب إلى شكل الجمهورية منها إلى سائر أشكال الحُكم المعروف فى أصول القوانين العصرية ، ولكنَّ لفظ الجمهورية يُنَفِّرُ أكثرَ المسلمين ، ولا سيما بعد أنْ بنى عليه الترك إلغاء الخلافة والفصل بين الدين والدولة . والغرض الأوّلُ من معنى الخلافة ومن معنى الجمهورية منعُ الاستبداد وتَحَكُّمِ السلطة الشخصية المطلقة ، ويُمكننا السعىُ لهذا مع اتقاء الإيهام الضارّ والبعدِ عن الألفاظ التقليدية . . . فوافقنى على قولى هذا وعلى تخطئة الذين لا يزالون يُصرّون على جعل الخليفة تركيًا .

وجملة القول أنه فى الذُّروة من زعماء الهند ، وكان كذلك قبلَ أنَّ تعرِف الهندُ صديقيه محمد على وشوكت على اللذين ما ظهرا واشتهرا إلا باضطهاد حكومة الهند لهما بعدَ الحرب . وقد سرّنى أنه كتب ، إليك ويَسرُّنى أنْ تكونا صديقين(★) ، ويسوءُنى جدًّا إن

(★) لم يكتب إلىّ الحكيم أجمل خان رأسًا ، وإنما كلَّف المرحوم رشيد بك طليع أنْ يكتب إلىّ توصية بحقّ أحد رجالات الهند الوطنيين كما تقدَّم الكلام عليه ، فدل بهذا على ما كان عنده من حسن الاعتقاد بحقّنا ، ومضى رحمه الله إلى ربه ولم تُقيض[1] لى مشاهدته ، وكنتُ سألتُ عنه المحسنَ الشهير الشيخَ قاسم آل إبراهيم المقيم فى بمباى لما زارنى فى لوزان سنة 1927م فزكّاه أحسنَ تزكية ونوّه بفضله . وأما الدكتور أنصارى فكان قد حضر عمدًا إلى لوزان لمواجهتى ، فقيل له إننى انتقلت إلى جنيف ولم يخبروه بعنوانى فيها فقفل إلى=

(1) قيّض الله له كذا : قدّره له وهيأه .

وقع ما أرجو أن لا يقع منك من الكتابة له باستحسان الصلح بين الشريف على ، وابن سعود . وأرجو أنْ تنتظر رأى أخيك فى هذا مفصّلاً بعضَ التفصيل فى مقال طويل نَشرت جريدةُ الأخبار الفصلَ الأول منه ، وستنشرُ باقيه ، وسأرسله إليك . إنَّ زعماء الهند السياسيين الذين يعرفون الحقائق مجمعون على رأى ابن سعود ، وقد أحدث الإنكليز فتنة كبيرة فى الهند وغيرها بَنَوْهَا على الدّعاية الهاشمية ، ومقالى الأخير فى هذه الفتنة والباعث عليها . وأما ما كنتُ وعدتُ به هنا من شئوننا السورية فقد علمتَ أننى وفقتُ لإنجازه ، ولله الحمد . والسلام عليك أولاً وآخِرًا من أخيك .

رشيد



وله إلىّ كتاب مؤرَّخ فى 11 ربيع الآخر 1344 و 29 أكتوبر :

سيدى الأخُ المجاهدُ فى سبيل اللّه :

لقد كنتُ فى غنى عن إطالة كتابك الأخير بإقامة الحُجج على وجوب اشتغال المسلمين بالعلوم الطبيعية والكيماوية والآلية بمثل ما ذكرتَه فى كتاب وجيز سابق من أنَّ مثل هذا يقال لغيرى ، وفى غنى عن الاعتذار أو الإدلاء بالحجج فى مسألة طلب الصلح أو عدمه ، ولا سيما بعد الذى كتبته إلى أخينا الشيخ إبراهيم بن معمر .

قد سُررتُ جدًّا من كتابك له ، فهو أهمُّ ما عرض لنا من وسائل النجاح ، ولكن فى مطالب الترك مشكلة عظيمة ، وهى الاعتراف لهم بأهم موقع من العراق وسورية(★) ، ومن يعترف لهم بما يطمعون فيه يُعَرِّض نفسه لعداوة أهل القطرين جميعًا بحقّ ، فإذا أمكنَ السكوتُ عن مسائل الحدود فلا عاقبةَ فيما أرى تحول دونَ نجاح السعى ، وإن لم

= باريز ، وأخبر بذلك الأخ حسين رءُوف بك رئيس وزراء تركية سابقًا ، فكتب إلىّ من باريز بذلك وأن الدكتور أنصارى سيزورنى مرة أخرى بعد أن يعرف عنوانى ، إلا أنه لم يَعُدْ إلى أوروبا ، وبلغنى نعيُه فى السنة الماضية رحمه الله .

(★) كنت ذكَّرت السيدَ رشيدًا بعضَ محادثاتٍ كانت جرت لى مع الترك وأنهم كانوا يشترطون للاتفاق مع العرب التخلى لهم عن الموصل وإسكندرونة ، وأننا أوضحنا لهم استحالة قَبول العرب بهذه الشروط .

يمكن السكوت وأمكن التصريحُ بعبارة مجملة سلبية كعدم منازعة أحد للآخر فى حدوده المقرَّرة عنده من غير ذكر لشىء منها - يهون الأمر ، فما قولك وما رأيك فى هذه المشكلة ؟ والكتاب أرسل إلى ذى الشأن ، وسيسافر بعض إخواننا بعد يومين إن لم يعرض له مانع ، وقد زوَّدته أنا وصاحب الكتاب بما يجب من النصح وما عندنا من الرأى فى فروع القضية .

إنَّ أخوف ما نخافه فى هذه الأيام على عبد العزيز أنْ يتفق مع مَن يفاوضه الآن على شىء ما ، ونسأل الله تعالى أنْ تفشلَ المفاوضة وتنتهى بالتأجيل ، فإنَّ كلَّ اتفاق مع الخصم الطامع ضارٌّ غيرُ نافع ، فإن وُجِدَ فيه ما صورتُه النفعُ فلا يكونُ نفعًا صحيحًا من قِبَلِه ، أعنى أنَّه يكونُ مما يمكن نيلُه بدون الاتفاق معه ، فإنْ سَلِمَ من هذه هان غيرُها ، ورَجِيِّى[1] أنْ يكونَ المستقبَلُ خيرًا من الماضى . ومن المشكلات الجديدة المهمة عندنا أنَّ صاحب اليمن قد تصدّى فى هذه الأيام للتدخل فى مسألة الحجاز ، ولا ندرى بأى نية ولا بأى محرِّك ، وسأكتب إليه اليوم إن شاء الله .

وبقى من أخبار الجزيرة المهمة نبأ الوفد المصرى ، إنه ذهب للسعى والتوسط بالصلح ، ولم أرَ أحدًا من المسلمين يُحسن الظن به ولا يُبرئه من الدسائس الأجنبية ، وزاد فى سوءِ الظن فيه تنويهُ (المقطم) وحده به وتصريحُه بغرضه ، وأنه السعى للصلح ، وإنما زاد الكثيرون على ما قاله (المقطم) مسألةَ الخلافة ، ومنهم من كان يرى أنَّ هذه هى المقصودة بالذات ، وكانت النتيجةُ كما قال (المقطم) أنَّ رئيس الوفد أمكنه أنْ يأخذَ من السلطان تفويضًا لجلالة ملك مصر بأنْ يتولى هو تأليفَ لجنة من المصريين ، ويدعوَ حكومتَى إيران والأفغان إلى الاشتراك فيها ، ويسمحَ أيضًا لجمعيات الهند الثلاث بثلاثة مندوبين ينتظمون فى سلك اللجنة ، وتكونَ وظيفةُ اللجنة استفتاءَ أهل الحجاز فيمن يختارونه من أنفسهم ليكون ملكًا عليهم من غير بيت الحسين ، ثم وَضْعَ نظام لحكومة الحجاز . . . إلخ ، ولا ندرى أأقنعَ رئيسُ الوفد المصرى سلطانَ نجد بهذا إقناعًا كما يقول أم كان كُلٌّ منهما مخادِعًا للآخَر ؟ وسنعلم

---

(1) ما أَرْجُوه أو ما أتمناه .

هذا . ولعلّكم علمتم من أخبار الجرائد أن وفدًا من الهند قد سافر إلى الحجاز ، وهو لا علاقة له بهذا الاتفاق ، ولا يتّسعُ وقتى اليوم لأكثر مما كتبتُ فى هذه المسألة .

المسألة السوريّة :

وصلت برقياتُك وكلُّنا مهتمون بالعمل من جميع وجوه السياسية والمالية كما تُحبُّ ، فلجنةُ المؤتمر السورىّ الفلسطينىّ حَرَّرَت نداء وجهته إلى جمعية الأمم وخارجيات الدول الكبرى ومنها الولايات المتحدة وكذا الجرائد الشهيرة فى هذه الممالك ومنها ألمانيا . وهذه جمعيةُ الرابطة الشرقية عقدت جلسة أوَّلَ من أمس بحثنا فيها فى نكبة سورية ، فكان منتهى شَوْطِنا[1] برقيةً وجيزة لعُصبة الأمم وللأمة الفرنسية وبعض جرائدها الشهيرة ، وفتحَ باب الاكتتاب للإعانة ، فلم يبلغ ما تبرع الحاضرون من أعضاء مجلس الإدارة مائة جنيه ، بل كان 90 جنيهًا على ما أتذكّر ، وألَّفنا لجنةً للدعوة ، وَنَشَرنا استصراخًا للناس . ودعت لجنةُ التُّجار التى أُلفت لإعانة الجرحى أشهرَ وُجهاء السوريين إلى اجتماعٍ عُقد مساء الخميس الماضى بل ليلة السبت للبحث فيما يَجِبُ ، فحضر جمهور لا بأسَ به ، ووُضِعَ نداء لجمعية الأمم وكبرى الدول ، وافق عليه الحاضرون بعد البحث والتنقيح ، وتألَّفت لجنة لإرساله بعد ترجمته إلى سفراء الدول ، وتقرَّر تأليفُ لجنةٍ لجمع الإعانات للمنكوبين غير لجنة التجار المؤلفة لإعانة الجرحى ، وسأكلّم اليوم شيخَ الأزهر أو السكرتير العام للمعاهد الدينية فى وجوب كتابة شيء ونشره باسم كبار العلماء ، على أنَّ هؤلاء لا يدخلون فى باب الأعمال العامة وإن لم تكن سياسية إلا إذا عَلِموا بارتياح البلاط لها ، وهل يَعُدُّون من ذلك الدعوةَ إلى إعانة المنكوبين أم لا ؟ سنرى .

كتاب (حاضر العالم الإسلامى) :

لقد كان توقُّعُكَ أو تصوُّرُكَ أننى امتنعت من تقريظ هذا الكتاب عمدًا مثارًا لأشدّ

(1) الشوط : العَدْوُ مرةً إلى الغاية أو الهدف .

العجب فى نفسى ، وأنت أنت الذى يغلُب عليك حسنُ الظنّ بالناس لأقلِّ معرفة على القرب أو البعد . ومما يجب أنْ يكونَ معلومًا عندك بالضرورة أنَّ هذا الكتابَ من أهمّ الكتب عندى ، وأنَّ تعليقاتِك عليه أهمُّ منه ، وأنَّ كونها لكَ يزيد قيمتَها عندى ، وهذا مما يُوْقِنُ به كلُّ مَن يعرفنى ويعرف الكتاب معرفةً دونَ معرفتك ، دع ما كتبتُه إليك فى شأنه - فكيف خطر فى بالك إمكانُ وجود مانع يمنعنى من تقريظه ؟؟ إننى قرظته منذُ وصل إلى يدى وقبلَ أنْ أتمكَّن من مطالعته للاستفادة منه ، فاكتفيتُ بقراءة ما يبيح لى أنْ أكتبَ على علم وبمراجعة الفهرس ، وقد نُشر التقريظُ فى الجزء الثالث المؤرَّخ فى سَلْخِ[1] ذى الحجة سنة 1343 ، ولكنَّ الإدارة أخَّرت نشرَ هذا الجزء ، فنشرتْه مع الجزء الرابع ، وقد سألت السيد عاصمًا هل أرسلَ إليك الجزأين ؛ فقال نعم ، وإذ علمتُ من كتابك الأخير أنهما لم يصلا إليك فسأرسل جميع ما وُزِّعَ من أجزاء المجلد 26 إليك وهى خمسة ، وسَيُوَزَّعُ السادسُ فى الأسبوع الآتى إن شاء اللّه ، فإذا زاد عندك بعضُ الأجزاء لتكرار إرسالها لك أنْ تُعيدَها ولك أن تهبها أو تُرسلها لمن يُرجى أنْ يشترك بل لمن شئت مطلقًا .

وقد كتب إلينا أخونا الأميرُ عادل منذُ أسبوع يقول إنه كتب إلى صاحب مكتبة المعارف بأنْ يُعطينا بقيّةَ النُّسخ الباقية لك من الكتاب . والسلام عليكم أولاً وآخرًا .

من أخيكم رشيد



وكتب إلىَّ فى 25 ربيع الآخر 1344 و 12 تشرين الثانى الكتاب الآتى :

سيدى الأخُ الأميرُ :

كتبتُ إليك جوابَ كتابِك ، وأنا أنتظر مرجوعه ، وبرقياتك كلُّها وصلت ، وكان لها من العناية ما يُرضيك ، والمهم عندى من مخاطبتك بهذا الكتاب ثلاث :

(**أولها**) إعلامك بأنَّ رسولاً سافر إلى الحجاز حملته من التفصيل فى جميع

---

(1) آخر ذى الحجة .

المسائل ما تُسَرُّ به ولا سيما إذا نجحنا فيه ، ومنه ما يتعلق بسعيك وجهادك العام والخاص فى المسألة الأخيرة التى لا يَحْسنُ التصريحُ بها فى كلِّ كتاب ، وقد كتبتُ إلى صاحبنا أنَّ الإشكالَ فيها من جهة واحدة يسعى لإقناع الطرف الآخر بالسكوت عنها ، وهى التى يثير اعترافُه بها سخَطَ أصحاب المصلحة فيها . وإذا دخلت المسألةُ فى طَوْرٍ جِدِّى فقد اقترحتُ أنْ تكون أنت المعتمدَ فيه .

(**ثانيها**) أن السلطان ابن السعود قد كتب فعلاً إلى بعض الملوك والأمراء ورؤساء الجماعات الإسلامية كتبًا يدعوهم فيها إلى إرسال وفود التعاون معه على حلِّ مسألة الحجاز ، على أنْ تكونَ حكومة الحجاز للحجازيين بشروط منها : أنْ تكونَ البلاد تحتَ إشراف العالم الإسلامى ، وأن لا يكونَ لها حقٌّ فى إعلان حرب ، وأن لا تُعاملَ دولةً غيرَ إسلامية مطلقًا لا فى اتفاق سياسىّ ولا اقتصادىّ ، وأن ينتخب الحجازيون حاكمهم تحت إشراف لجنة وفود العالم الإسلامى ، وهذه اللجنة هى التى تضع النظام لحكومة الحجاز وتبيّنُ شكلها وحدودها . . . إلخ . ووعد فى كتبه بأن بلاد الحجاز التى هى أمانة فى يده يُسلمها للحاكم المنتخب بالشروط التى ذكرها ، وأنَّ انتخابه يكون حُرًّا تحت إشراف اللجنة[*] بشرط أنْ لا يكونَ من بيت حسين بن على وأولاده – أترى أنَّ صديقنا الشريف حيدرًا يرضى أنْ يرشح نفسه لإمارة الحجاز بهذه الشروط لنتخذ الوسائل لمساعدته ؛ هذا ما كنتُ أتوقعه وأنتظره فى نهاية هذه المسألة ، ولم أحبّ أنْ أُصرِّحَ بأنَّ لى ضلعًا مع أحد قبل وقته . اكْتُبْ إليه إنْ شئت ، ويجوزُ أنْ أكتبَ أنا أيضًا .

(**ثالثها**) أن مسألة سوريا ربما تدخل فى طور المفاوضة فى البلاد وفى خارجها ، وربما تؤدى الوسائل بذلك إلى الفشل من قبيل من يتصدَّون للوساطة ، وقد بدأ سماسرةُ العروش وطلابُ التيجان أثمانًا للشعوب والأوطان يُلْقُون دِلاءهم ، بل يفتاتون[1] على أُولى الشأن فى بلادهم وشعوبهم لأنهم جعلوا أشخاصَهم أولى منهم فى أنفُسهم . (إلى أنْ يقول) :

(★) هذا شىء جرى العدول عنه فيما بعد لتعذُّر تحقيقه .

(1) **افتأت برأيه** : انفرد به واستبدّ ، وقد تسهل الهمزة (افتات) .

ثم الواجب مع هذا أنْ تَسعى لجمع كلمة العاملين من رجال الثورة وغيرهم لئلا يَعْرِضَ لهم التخاذلُ والفشلُ بما قد يُعرض عليهم من الشروط أو المنافع وأنْ تُحصر المفاوضة فى جهة واحدة على قاعدة الاستقلال الصحيح . ومسألة المعاهدة على قاعدة العراق يَدَّعِى فيصلٌ أنَّه هو ابتكرها وأقنع الفرنسيس بها ، والصواب أنَّها تُكُلِّم بها قبله ، وأنا كلَّمت سفير فرنسا هنا كلامًا جِديًا طويلاً صرّحت له فيه بأنه لم يبقَ لفرنسا طريقٌ إلى مرضاة سورية والتفصى[1] من الخسائر المالية والأدبية التى لا نهاية لها إذا أصرتْ على سياستها إلا استقلالَ البلاد ومساعدة فرنسا لها على الطريقة التى سارت عليها فى مساعدة محمد على باشا الكبير بمصر . . . فأعجبه هذا الرأى ولكنّه ادّعى أنَّ اختلاف الطوائف والأديان فى سوريا يحول دون اتفاق أهلها على حاكم واحد ونظام واحد . فأقنعتُه بأنَّ هذا الرأى غيرُ صحيح ، وأن الاختلاف والتفرقَ أولاً وآخِرًا لم يكن إلا منهم وممن على شاكِلَتهم من الأجانب - لا من طِبيعة الأهالى ولا من الترك - وأنَّ المسلمين برهنوا على حسن نيّتهم للنصارى والتعاون معهم فى أثناء الحرب الكبرى[★] . وأما النصارى فهم لضعفهم لا يَعْتَدُونَ على المسلمين إلاَّ بإغراء فرنسا أو غيرها من الدول لو كانت فى محلها ، فلم يُكابرْ فى ذلك . نحن نُفكّر فى إرسال وفد إلى أوروبا يعمل معك ، ويشتغل معنا فى اللجنة الآن بعض المهاجرة كشكرى بك القوتلى وفوزى بك البكرى وبعض تجار دمشق وبعض النصارى المقيمين هنا كوَطَنِيَّيْنا نسيم أفندى صيبعة وسليم باشا الموصلى . فَيَحْسُنُ أنْ يَنحصر كلُّ سعى ومفاوضة سياسية فى خارج البلاد فى هذه الهيئة وفيك مع من سيُضم إليك إذا تيسَّر إرسال الوفد كما نرجو قريبًا .

فاتنى أنْ أذكر لك أنَّ السفيرَ أرسل ما قلته إلى دولته بالتلغراف محبِّذًا له كما علمت من الثقة وكما وعد . أرجو أن تُسرعَ هذه المرةَ فى الكتاب إلىَّ ولو بالاختصار ، وإنْ كنتَ أرسلتَ قبلَ وصول هذا الكتاب مرجوعَ ما قبله فلا يكن إرسالُه مانعًا أو مؤخِّرًا لإرسال مرجوع هذا فيما هو خاص به . والسلامُ عليك أولاً وآخِرًا .

محمد رشيد رضا

---

(1) **تفصى من الشىء وعنه** : تخلّص منه .

(★) هذه حقيقة لا يُنكرها ولا يقدر أنْ يُنكرها أحدٌ .

حاشية :

أُبشرك بأنَّ الجنرال كليتن لم ينجح فيما حاوله مع ابن سعود من الاتفاق على الحدود بين نجد وشرق الأردن والعراق الذى كان مرادُه به ضمَّ الجوف إلى شرق الأردن . وأما حدود الحجاز فابن السعود لا يبيح لنفسه المفاوضةَ فيه لأنه فوَّضه أولاً وآخِرًا إلى المؤتمر الإسلامى . نجيب بك يُسلِّم عليك معى تسليمًا .



وكتب إلىَّ من مصر فى 15 جمادى الآخِرة 1344 و 31 ديسمبر 1925 :

سيدى الأخ الأميرُ :

أُلقى إلىَّ أمس كتابُك المرسَلُ من برلين ، وفيه كتاب الشريف حيدر الذى أرسله إليك جوابًا عن سؤالك إياه عن رأيه فيما يُقرر المؤتمر الإسلامىّ على قواعد سلطان نجد التى بيَّنها فى دعوته إلى المؤتمر ، وقد حفظته لك . وأما ما كتبته لى ولنجيب بك فى أَثَرَةِ[1] اللجنة وهَضْمِها لحقّك فقد أثار عجبنا إذ لم يخطِر هذا فى بالنا ، ولا نعلم أنَّه خطر ببال أحد ممن كان معنا من أعضاء اللجنة ولا من غيرها . وإنما اجتمع هؤلاء مِرارًا وكانوا زُهاء 20 رجلاً ، ووضعوا المذكرة التى قدَّمها وفدهم إلى المندوب الجديد[★] ، وكان وَضْعُها قبلَ وصول مذكرتكم التى قدمتموها له فى باريس ، ولما

(1) **الأثرة :** تفضيل الذات على الغير ، وفى الحديث الشريف « سترون بعدى أثرة » . (صحيح البخارى ، كتاب الفتن) .

(★) كان المسيو هنرى دى جوفنيل عند تعيينه مندوبًا ساميًا لفرنسا فى سورية أراد أنْ يتصلَ بالوطنيين السوريين ويعدلَ بفرنسا عن سياسة عدم الاعتراف بوجودهم كما كان جاريًا مِن قبلُ . فأولُ ما فكَّر فيه الدخولُ فى محادثة معى ، وأنفذ إلىَّ من باريس إلى لوزان السيد نجيب الأرمنازى فلم يجدنى فيها إذ كنتُ ذهبتُ إلى برلين ، فكتب إلىَّ بأنَّ المندوب السامى الجديد يرغب فى ملاقاتى ، فأجبته بأنى لا أذهب إلى باريس إلا بدعوة رسمية . فجاءتنى برقية من المسيو جوفنيل يدعونى فيها إلى باريس لمواجهته ، فذهبت وقابلته ، وقدمت له لائحة بمطالبنا ، ووافق عليها غيرَ أنه اقترح فيها سياسة المراحل أىْ التدريج ، فأنا لم أوافق على التدريج . ثم دعانى أن أذهب معه إلى سوريا لأجل السعى فى الاتفاق ، فاعتذرت بأنى لا أقدر أن أذهب إلى سورية إلا إذا وافقت فرنسا على الاتفاق وتقرّر فى جمعية الأمم . وقد وقع هذا فى سنة 1925م فى أثناء الثورة السورية =

وصلت رأَوا أنَّ فيها تساهلاً[*] كما ذكرتُ لكم فى كتاب سابق . وأمَّا الكتابُ الذى قَفَوْا[1] به على المذكرة وذكروا فيه استعدادَهم لسعى لدى الثُّوَار والزُّعماء . . . إذا قبلت مطالبهم بشرطها الذى ذكروه . . . فلو كان قبله وانفردوا بالعمل دونكم لكان لكم أنْ تقولوا ما قلتموه فى كتابيكم ، ولكنه عجل فى الإجابة عنه بما علمتم من الشدة والتهمة وفتح باب المطاعن فيها لأنصار فرنسا المتعصبين ولبعض الأغبياء من غيرهم ، فما هذا الأمر الذى استبدت به اللجنة واستأثرت به دونكم وحَصَرَتْ فيه الزعامة فى نفسها ؟ لا شىء . . بل الذى عمل هنا على نزاهته لم تكن اللجنة التنفيذية فيه إلا أقلية مع السوريين الذين اشتركوا فيه .

هذا ، وإنَّ الجماعة اتفقوا قبلَ مجىء المندوب على السعى لأخذ تفويض من أهل المكانة فى البلاد السورية لأفراد من العاملين والمجاهدين لعقد مؤتمر يقرر فيه مطالب البلاد ، وينتخب من يحضر فيه تفويض المندوب أو الحكومة الفرنسية نفسها فى أمر البلاد ، وإنهاء حالة البلاد ، فأرسلوا رسلاً حملوا مِن دمشق وحلب وغيرها أوراقَ تفويض للذين اقترحهم الرُّسل فى مقدمتهم أنتم وشقيقكم ورشيد بك طليع . وكانت الآراء متفقة على أنَّ المفاوضة فى داخل البلاد لا تكون حُرة وبمَنْجَاة من تأثير الدسائس ونفاق طلاب الوظائف ، وأن الأوْلَى أنْ تكونَ فى مصر أو فى أوروبا ، ثم كان ما علمتم ولم يحتج إلى جمع المؤتمر .

لا تُبالغْ يا أخى فى تأثير سوء الظن بالرجل الذى وقع بينك وبينه ما وقع من التغاير

= الكبرى أىْ قبل المعاهدة الإفرنسية السورية التى تقرر فيها استقلال سورية بإحدى عشرة سنة . وكانت هذه المعاهدةُ الأخيرةُ فى أُسسها إلا قليلاً هى نَفْسَ اللائحة التى كنتُ قدمتها للمسيو جوفنيل ، وأيضًا غير خارجة عن المعاهدة التى كنا أوشكنا أنْ نتفق فيها مع المسيو جوفنيل سنة 1926م أنا وزميلاى ميشيل بك لطف اللّه وإحسان بك الجابرى ؛ بحيث إن المسيو لوسيان هوبر من كبار مجلس الشيوخ ووزراء فرنسا السابقين اعترف لى مؤخرًا بأنَّ تأخير عقد الاتفاق الذى كنا بدأنا به مع جوفنيل أضرَّ كثيرًا بفرنسا وبسورية معًا .

(*) لو كان فيها تساهل كما زعموا لما كان رفضها المسيو بوانكاره فى ذلك الوقت وعزل جوفنيل من أَجلها ، ولما كانت مضت 11 سنة عليها وفرنسا تأبى قَبول شروطها ، وتتحمل إنفاق المليارات ، وتبذل الدماء الغزيرة حتى تفوزَ بمعاهدة أوفقَ لها منها .

(1) أتبعوا المذكرة به .

والتدابر ، إنَّ لك هنا مَن يدافع عن حقك وجهادك بقوة تغنيك عن الدفاع عن نفسك . وإننا نرى دفاعك عنها بما كتبتَ دونَ قدرك ، فأنت أجلُّ مقامًا وأعلى مكانة ، بل أنت فى هذا المقام مقام خدمة الوطن والجهاد فى سبيله فى الذُّروة التى لا يطمع أحدٌ فى مُساماتها[1] ، وما كتبتَه دون هذه الذروة ، وما كان أَغناك عن التصريح بعدم طمعك فى مكافأة من منصب[*] ولا غيره . إننا نعلم أنك أَجلُّ من أَنْ تطمعَ ، ولكنّك أنت أجدر من جميع أهل الوطن بأنْ تكونَ رئيس الحكومة المستقلة ، إنْ يسرها الله لنا ، مهما يكن اسمها ورَسْمها ونوعها . صَرَّحْتُ بهذا لبعض الأفراد ولو وجدتُ فائدة فى التصريح بها لغيرهم أو لكلِّ أحد لفعلت .

وأما ما كتبتْه اللجنةُ إلى إحسان بك فهو جواب له عما كتبه إليها واقترحه عليها ، وكنا اقترحنا فى الجلسة أنْ يُكتب إليه أيضًا بأنك ستعود إلى جنيف للعمل فى الموضوع .

كتبتُ إليك قبلَ هذا ثلاثَ مرات ، جُلُّ[2] الأخير منها فى مسألة الحجاز . فالحمد للَّه قد انتهت كما نحب ، وكان السلطانُ موفَّقًا وصحيحَ النظر حتى فى الأرجاء التى أثارت الظنون فى ضعفه ، وكان مَحَلَّ لَوْمِنَا نحن أيضًا . والرأى العام المصرى مُشايع له كالرأى العام فى مُسلمِى الهند ، ولكنَّ أنصاره فى الهند أقوى وأقدر على مساعدته .

أُرسل إليك فى الأسبوع الماضى جواب السلطان الذى حمله إلى هنا طبيبُه الدكتور محمود حمدى الدمشقى ، وهو مجمل كعادته فى كتبه الرسمية ، وقد كتب قبل الاستيلاء على المدينة وجُدّة .

واعلم يا أخى أنَّ ما تعلمه عن الحجاز ونجد قليل لم يكن كافيًا للحكم فيما ينبغى أنْ تكونَ عليه البلاد بالتفصيل ، وقد أَشرت فى بعض مكتوباتى السابقة إلى ذلك ، بل أذكر أَنّنى صرَّحتُ بأَنَّ الكتابة لا تكفى لتمحيص الكلام فى هذه المسألة ، بل لا بدَّ فيها من

---

(1) محاولة الوصول إليها .

(*) لما عرض علىّ جوفنيل الذهاب معه إلى سوريا ورفضتُه إلا أن يتفق مع الوطنيين السوريين – قال : فإذا اتفقنا معكم فهل تذهب وتسعى فى إزالة آثار الماضى ؟ قلت : نعم لكن على شرط أن لا أُدعى إلى قبول منصب فى الحكومة .

(2) مُعْظمه أو أغلبه .

المشافهة . وقد جاء وقت العمل فى الحجاز للإسلام وللعرب ، فهذه فرصة لم يَسمح بمثلها الزمانُ ، وأوَّل ما يجبُ عملُه وَضْعُ نظام للمؤتمر ومشروع نظم أخرى للبلاد لتعرض عليها، وإيجاد رجال إخصائيين لإدارة الأعمال بالتدريج . وفى البلاد أسلحة وذخائر كثيرة منها القديم الذى تركه الترك ومنها الجديد ، وإنَّ بعض ما ابتاعه علىّ من المدافع والذخائر لا يزال فى صناديقه . ومسألة المال أهم المهمات . والذى نعلمه منذُ سنينَ – وازددنا علمًا فى هذه الأيام – أنَّ ما وُجِدَ فى بلاد العرب – بعد صدر الإسلام – من يقدر على حفظ الأمن فى الحجاز ونجد مثل هذا السلطان[★] .

فعسى أنْ تستطيعَ المجىء إلى الحجاز فى أقرب فرصة فتقيم بقية فصل الشتاء بمكة المكرمة ثم تكون فى فصل الصيف فى الطائف ، نعم إن هذا مما تتروَّى[1] فيه الآن ، ولكنَّنى أرجو أن يكونَ قريبًا . والسلام عليك من أخيك .

رشيد

★ ★ ★

وكتب إلىّ فى 21 جمادى الثانية من السنة نفسها و 7 يناير سنة 1926 ما يأتى :

سيدى الأخُ الأميرُ :

وصل فى هذا الأسبوع كتابك المسجَّل المؤرَّخ فى 28 ديسمبر ، وتلاه الكتابُ غيرُ المسجل المرسَل قبلَه ، فأما مذكرتُك الفرنسية فقد ذكرتَ لى خلاصتها فى الجلسة التى رُؤيت فيها عقبَ وصولها بالإجمال ، وكتبتُ إليك ما كتبتُ فى ذلك ، ثم ترجمها كلٌّ من نجيب واليازجى بالدقة ولكنْ قولاً لا كتابة ، وكتبتُ إليك ثانيةً ما كتبتُ . ثم كتبتُ إليك فى الكتاب الذى قبلَ هذا ردًّا على ما اتهمتَ به اللجنةَ ، وأخبرنى نجيب بك بأنه كتب إليك أيضًا . ولم يكن حُسْنُ نيتك وملاحظاتك فى المذكرة من مواضع التُّهمة . هذا ، وإن اللجنة لما وضَعَتْ البيان العام عن الحالة الأخيرة المتعلقة بالثورة

(★) هذه حقيقة لا يقدر أنْ يتمارى بها أحدٌ ولا من أعداء ابن سعود .

(1) **تروّى فى الأمر** : نظر فيه وتفكّر .

وبالمندوب الجديد ذكرتْ فيها مساعيك فى باريس بعضها بقلم نجيب أفندى الأرمنازى وبعضها نقلاً عما كتبتُه إليك ، ومنه ما طلبتَه للبلاد من الاستقلال وما يتعلق به بالتفصيل ، ولكنَّها أجملتْ ما ذكرت فى المذكرة أنّ البلاد السورية تعطيه لفرنسا ، كان الرأى الغالب أنّ عدم نشر ذلك التفصيل خير للمصلحة العامة ولكرامتك الخاصة ومكانتك فى مصرَ وغيرها . وقد جاءت مكتوباتُك التى تُنْحِى[1] فيها باللائمة على اللجنة لى ولنجيب بك ثم للأمير جورج قبل نشر هذا البيانِ ، وأعَدْنا النظرَ فيه ، وطلبت أنا أنْ يحضرَ الأمير جورج جلسةً عقدناها للنظر فيه قبل تقريره النهائىّ - وكان خاطبنى بالتليفون بأنه يجب أنْ يرانى ليُذَاكِرَنى فى كتاب جاءه منك - فلما حضر وسمع البيان وطلبنا رأيه فيه قال : يجبُ أنْ ننشرَ مذكرتك أىْ ترجمتها كما هى ، فإنَّ هذا أرضى لك لأنَّ لك ملاحظات فى عبارتها تدفع ما عساه يُعترض به عليها ، ووافقه أخوه ونجيب بك ، وخالفت أنا واليازجى وكذا أسعد داغر على ما أتذكّر .

وجملةُ القول أنَّه لم يَحْصُلْ فى اللجنة شىء يَصِحُّ به اتهامُها أو اتهامُ أحد من أفرادها بهضم حقك وإنكار جهادك ولا اتهامها بالأثرة ، ولم تعمل عملاً إيجابيًّا فى هذا الطور الأخير منفردة به أو باسمها وحدَها - وأعنى بالإيجاب هنا المنطقىّ المقابل للسلبىّ - وإنما انفردت بعمل واحد باسمها وهو الرد على المسيو جوفنيل فيما اتهمها به وهو فى معنى السلبى . وما أراك إلا بالغت فى الإنكار عليها واتهامها والسخط عليها كما ذكرتُ لك هذا فى الكتاب الذى قبلَ هذا ، فليس عندنا مسألة خلافية تقتضى كثرة القيل والقال .

وقد سألتَ عن الأرمنازى لتكتب إليه فأخبرُك أنه جاء منه كتاب من بيروت ذكر فيه أنه سيعود إلى مصر من طريق فلسطين ، فأرسل ما تكتبه إليه بعنواننا .

وأما الأخير عادل فقد ذهب إلى الجبل[*] وهو يتولى تدبير الشئون مع سلطان باشا ، وقد علمت أنه غير راضٍ هنالك عن سياسة فلان ، وبُلِّغْتُ عنه أنْ أكتبَ إليك باستحسانه أمر مجيئك إلى بيروت ، ولعله يريد أنْ أَستحسن أنا ذلك أيضًا ، ولكنَّ

---

(1) **أنحى عليه باللوم** : عَرَضَ له به .

(*) الجبل الدرزىّ .

رأيي مخالف لرأيه هذا ، فإنَّ المطالب التى ترضاها ويرضاها الثوّار لا تزال بعيدة عما يرضاه موسيو جوفنيل بُعدًا شاسعًا . والمرجوّ أنْ يرجعَ عن غُلوه هذا بعدَ أنْ يبدوَ له ما لم يكن يحتسب ، ويعلم أنَّ الذين وَثِقَ بهم واعتمد على رأيهم قد غشُّوه كما غشوا مَن قبلَه . نعم إذا أمكن أنْ تجيء إلى مصر فتكون على مقربة من البلاد وتعلم كلّ ما يتجدد فى وقته فذلك أولى ، وسنتشاور مع الأرمنازى فى ذلك ، ونزدادُ بصيرةً بما يَرِدُ أو يتجدَّدُ من أنباء الجنوب والشمال والخفية ، ورب خفى أقوى من جلىّ .

مسألة الحجاز :

أشرتُ فى بعض مكتوباتى السابقة المتعددة إلى أنَّ معلوماتك عن حال الحجاز - وكذا معلوماتك عن نجد - قليلة لا تكفى للجزم برأى صحيح ، وصرَّحت لك فى بعضها بأنَّ هذه المكتوبات التى تدور بيننا لا يمكن فيها تمحيص المسألة والاتفاق فيها . ولهذا أنكرتُ عليك بعض ما كتبتَ سابقًا فى المسألة مما رأيته ينافى المصلحة مع الجزم بصدوره عن حُسن النية ، وأرى الآن أنَّ اقتراحك أنْ يُعَجِّلَ السلطانُ بطلب الشريف حيدر ويُولِّيه أمرَ الحجاز من قَبِيل ما ذكرتُ آنفًا . والذى أعتقده أنَّ هذا ليس من مصلحة البلاد ولا من مصلحة الشريف حيدر ، وأنَّه لا يسهُل الحُكم فى هذه المسألة إلا فى أثناء عقد المؤتمر وبحثه فى مالية الحجاز وحكومته وحفظ الأمن فيه . ولعلَّه صار يسهُل عليك أنْ تُصَدِّقَ أنه ليس لأحد من شرفاء الحجاز عصبية قوية ولا نفوذ يُمَكِّنُ من حفظ الأمن فيه وإدارة شئونه لو كان هنالك مال كاف للقيام بذلك ، فكيف والمال مفقود ؟! ولقد كان الشريف حسين أقدر هذه الطائفة على ما ذُكِرَ ، ولم يقدر على تأمين طرق المدينة المنورة وتمكين الزوار من الوصول إليها ، فكيف يكون حال غيره ؟!

وأما قدرتُه الممتازة فقد كانت بأسباب : (**أوّلها**) تولّيه على البلاد فى عهد الدولة العثمانية واعتيادُ البلاد رؤيةَ أمير فيها . (**ثانيها**) استكبارُ البدو والحَضَرِ لقتاله للدولة وتمكُّنه من الاستقلال . (**ثالثها**) ما كان لديه من الثروة العظيمة . (**رابعها**) ما كان معروفًا به من الشجاعة والشدّة والحزم .

فلهذه المعلومات التى أجملتُها كنتُ - وما زلتُ - أرجئ أمرَ مساعدتنا لصديقنا الشريف حيدر إلى الوقت المناسب له بعد انتهاء أمر الشريف على ، وسترى مما يصل إليك من جريدة أم القرى كيف انتهت ، ومنها تعلم فضيحة الأكاذيب الأخيرة عن شروط تسليم جُدة . والسلام عليكم أولاً وآخرًا .

من أخيكم

محمد رشيد رضا

وعلى ذيل هذا الكتاب هذه الحاشية :

(**حاشية**) بلغنى أنّ كثيرًا من بنى معروف قد اتخذوا ملجأ لهم فى الجوف .



وله إلىّ الكتاب الآتى المؤرَّخ فى 25 جمادى الأولى 1344 و 11 ديسمبر :

سيدى الأخ الأعزُّ :

وصل كتاباك المرسلانِ من باريز[1] بعد المذكرة الفرنسية (إلى أنْ يقول) :

أما المذكرةُ فلو علِمتَ ما فيها لما عرضتها على اللجنة الحافلة بمن ينضوى[2] إليها فى هذه الأيام من مُهاجرة الشام وغيرهم ؛ لما فيها من التسامح الذى لم يقبل أحد من المجتمعين بشىء من مثاله فيما قررنا تقديمه للمندوب الجديد ، بل تشاحنوا بلفظ « ما عساه يكون من المصالح الاقتصادية والسياسية لفرنسا » ، فنكَّروا كلمة السياسية ثم اتفقوا على حذف العبارة بِرُمَّتها . ولعلَّ بعضَهم أساء ترجمة بعض العبارات ، فاقترحت حفظ المذكِّرة وعدم نشرها بالترجمة ، ثم رأيت ما حمله حِلمى باشا من تلخيص المطالب بخطك ، فرأيته أهونَ مما قيل إنه ترجمة حرفية لما فى المذكِّرة الفرنسية(★) ، ولكن بعضه كثير ولا حاجة إليه لجعل لغتهم رسمية إجبارية

(1) باريس . (2) يميل .

(★) إن بعضهم تعمدوا ترجمة لائحتى بغير الواقع بحيث إنى اضطُررت أن أنشرها بالعربى مرتين فى الجرائد ، وأتحدى المتعنتين أجمع أن يُقنعوا فرنسا بمثلها .

عامة[★1] . . . والباعث لك عليها بل على التساهل مطلقًا معروف عندنا ، وكان من فائدته أنَّه أرضى موسيو جوفنيل فى باريس ، والظاهر أنَّه لا يُرضيه فى سورية إلا إذا اشتدت الثورةُ ، واقتنع بأنه لا يُمكنه إخمادُها بالسهولة التى زيَّنها له المندوب العسكريُّ الذى أرسله حزبه من بيروتَ لاستقباله بمصر ، وسمع أقوال المسيحيين المتعصبين[★2] فى القطرين ، فبهذا يكون حجة عليهم .

قد علمت من هذه الكلمة الأخيرة وقوع ما توقَّعت من هؤلاء وأنهم ملأوا قلبه بما نفثوه من سمومهم ، وهذا أمر لم يكن منه بُدٌّ ولم يكن فى استطاعتنا ولا فى استطاعة غيرنا أنْ يحولَ دونه ، فكان من الحكمة احتراسنا وتشدّدنا كما كان من الحكمة تساهلك[★3] ، وقد كان أحسن استقبالَنا ، وأرضاه كلامُنا ، وتصفَّح مذكرتنا ، ورأى فيها مطالبنا ، ولم يُنكر علينا منها شيئًا فى الجلسة التى كانت لوفدنا معه ، ولكنَّ رأيه تغيَّر فى المساء بعدَ تقديم الكتاب الآخَر الذى ليس فيه زيادة إلا مطالبتَه بالتصريح بقَبول المطالب إذا شاء أنْ تسعى اللجنة فى العمل ، ولا بدَّ أنْ تكونوا رأيتم تفصيل ذلك فى الجرائد المصرية ، وهو طويل لا يمكن نسخه .

وقد تكلمت أنا فى مسألتين : المسألة العربية ، ورأيُنا فيها واحد ، أىْ رأيى ورأيك ، والمسألة الدينية أىْ الشقاق الدينى فى سورية ، ورأينا فيها واحد أيضًا ، وأنا قلتُ له كما قلتُ قبله لسفيرهم هنا ، وهو أننا نحن نعلم من أنفسنا أننا إذا اتحدنا فى الحكومة المستقبلَة لا نظلمهم (أىْ النصارى) بل نُعطيهم أكثر من حقوقهم ، واستشهدت بما كان منا فى زمن الحرب الكبرى فى الحكومة السورية التى هدموها[★4] ، وذكرت من الوقائع معى أنَّ

(★1) وهذا أيضًا من الأوهام التى دخلت على الشيخ رشيد لأنى فى لائحتى لم أجعل الإفرنسية لغة رسمية مع العربية ، وإنما جعلت تعليمها إجباريًا فى المدارس العالية ، وهو أمر ليس بجديد . توخيتُ فى مذكِّرتى إلى جوفنيل أنْ أتشدَّدَ فى الموادّ الأساسية المتعلقة باستقلال البلاد ، وأنْ أسترضى الفرنسيس فى المواد الثانوية التى لا تمسُّ الاستقلال .

(★2) (أل) للعهد ، أى المسيحيين المعروفين بمعارضة رفع سيطرة فرنسا خلافًا للمسيحيين الذين هم مع المسلمين سواء فى طلب الاستقلال .

(★3) عاد رحمه اللّه فاعترف بأنى كنت على صراط مستقيم فى هذه المسألة ، وأنَّ الذى عملتُه كان عَيْنَ المصلحة .

(★4) أىْ الفرنسيس .

أعضاء المؤتمر من المسيحيين لم تُرْضِهِمْ المادةُ التى كانت وُضعت فى القانون الأساسى للمحاكم الشرعية والبطريركيات ، فامتنعتُ مِن طرحها للتصويب ، وذهبتُ مع بعض الأعضاء إلى بطرك الروم فى دار البطريركية ، واتفقت معه على النص الذى يُرضى النصارى وهو الذى تقرَّر ، وقلت له بعد ذلك : وأما النصارى فلا يعتدون علينا إلا بالاعتماد عليكم وإغرائكم . . . فإذا أنت كَفَلْتَ لنا إرضاءهم أو عدمَ تعدِّيهم - ولا يَقْدِرُ على ذلك غيرُكم - فأنا أكفُل لك المسلمين والدُّروز . .

(**إلى أنْ يقولَ**) : لم يأتنا من الجنوب شىء جديد فى الموضوعات المعلومة عندكم ، والأرمنازى لا يُنكر عليكم ما ذكرتم فى الرجل ، ولكنه يرى أنه ممن ينتفع بهم فى دائرة مخصوصة لا ينبغى تجاوزها . وقد سافر أمس إلى بيروت ليتصل بالمندوب . وكنتُ تركتُ هذا الكتابَ لِشُغْلٍ عرض للدار ، وسآخذه الآن لأدرك به بريد الظهر . والسلامُ من أخيكم .

رشيد



وكتب إلىَّ فى غُرَّة جمادى الآخرة 1344 و 7 ديسمبر :

سيدى الأخُ الكريم والولى الحميمُ :

أرسلت إليك قبلَ ظهر الجمعة الماضية كتابًا لا أدرى أأَدرك بريد أوروبا البحرىّ يومئذ أم لا ؟ وأهم ما حدث بعدَ ذلك أنَّنى علمت علمَ اليقين أنّ صاحبِى يُعَضِّدُنا فى خَطْبِنا الحاضر بكلّ ما يراه ونراه من المصلحة لنا وله ، وقد شرع فعلاً فى بعض الوسائل ، وسنقترح غيرها مما صار ممكنًا اليوم ولم يكن ممكنًا بالأمس ، وكتابك المهم وصل إليه ، وهو مستعد لموادة من يخطُبُ وُدَّه بشرط أساسىّ هو أنْ لا يجعلَ له حقوقًا فيما وَلِىَ أمرَه ، ولا بأسَ بمبادلة الحقوق فيما وراء ذلك من تعاون تجارى وغيره ، وسنُصرِّح فى فرصة أُخرى لك بما نقف عليه من التفصيل فى هذا وفيما قبله ، وهو أهم من الآن .

وصل منذُ يومين إلى مصرَ الشيخ حافظ وهبة المصريّ[1] من جماعة السلطان ابن سعود والدكتور محمود حمدى الدمشقى طبيبه الخاص ورئيس مصلحة الصحة فى مكة المكرمة . وأول ما فعله الأول تكذيبُ خبر (المقطم) عن الاتفاق الذى وقع فى « بحرة » ، وكذَّبت الحكومة البريطانية مسألة دفع المال للسلطان ومسألة الاتفاق على حدود الحجاز . وكانت جريدة (أم القرى) ذكَرت أنها لم تقع فى المذاكرة ، وكذَّبت جريدةُ العراق الرسمية خبرَ (المقطم) كلَّه مِن أصله ؛ إذ كانت نشرته جريدةُ الاستقلال العراقية .

(**إلى أنْ يقول**) : تضافرت الأخبارُ على قرب تسليم جُدّة ، ومنها أنَّ الشَّريفَ كتب إلى السلطان عبد العزيز يطلب بعض الشروط للتسليم ، وقد صدَّق هذا الخبرَ الشيخُ فؤاد الخطيب[2] الذى وصل إلى مصر فى الباخرة التى حملت الشيخَ حافظَ وهبة والدكتور حمدى من رابغ . ولكنه قال إنه لم يقفِ على الشروط أو المطالب التى طلبها الملك علىّ ، ومما قاله للدكتور فى الباخرة أنه قد استقال من خدمة علىّ ، ولكنْ ظهرَ فى المقطم أنه يحمل كتابًا من مَلكه إلى ملك مصر .

(**إلى أن يقول**) : ولا شكَّ أنَّ جوفنيل قد انتفخ من الغرور الذى طغى به كلُّ سلف له ، وهو يَسْلُكُ كلَّ سبلهم فى التفريق والإفساد ، ولكنَّ العلاقة بينه وبين الأرمنازى لا تزالُ حسنةً . وقد سافر الأرمنازى إلى بيروتَ ، وبعدَ سفره بيوم جاءه كتابٌ منه يطلبه فيه لمقابلته ، فأَعذْنا إليه الكتاب ، وننتظر غدًا وصول كتاب منه .

---

(1) **حافظ وهبة** (1307 - 1387 هـ / 1889 - 1967 م) ، مصرى المولد والمنشأ ، تعلم مدة قصيرة بالأزهر وبمدرسة القضاء الشرعى ، سافر إلى الآستانة والهند والكويت ، وراسل الملك عبد العزيز بن سعود ، فدعاه إلى الرياض ، وترقّى إلى أن صار وزيرًا مفوضًا بلندن ثم سفيرًا 1938م ، وتوفى بروما 1967م . (الأعلام : 2/160) .

(2) هو **فؤاد بن حسن بن يوسف الخطيب** (1296 - 1376 هـ) (1879 - 1957 م) ولد فى إحدى قرى بيروت ، عين وكيلاً للخارجية للملك حسين بن على ، وعين مستشارًا للملك عبد اللّه بن الحسين فى الأردن ، واستقدمه الملك عبد العزيز بن سعود إلى الرياض وعينه وزيرًا مفوّضًا ثم سفيرًا فى (كابول) ، وبها توفى ، ودفن فى بلده حسب وصيته . (مجلة المجمع العلمى العربى : 32 / 542 - 544) .

كتبتُه ليلاً ، والسلام عليك من الشيخ إبراهيم بن معمر الحاضر معى الآن ومن أخيك .

رشيد

★ ★ ★

وكتب إلىَّ فى 29 جمادى الآخرة 1344 و 14 يناير 1926 ما يلى :

سيدى الأخُ الأميرُ

وصل منذُ ثلاثٍ كتابُك الوجيزُ وما معه من كتاب الأمانة ، وكنتُ أودُّ لو كان هذا الكتاب لصاحب الشأن نفسه لا لمندوبه الذى لم يثبت عندنا بعدُ أنّه يُفَوَّضُ إليه النظر فى أمثال هذه المسائل ، بل هنالك شُبهاتٌ أو أَمارات تشير إلى خلاف ذلك .

وقد سرنى من الكتاب ما فى أوله من الرجاء فى التلاقى مع صاحبنا فى زمن غير بعيد ، وهو عين ما كتبتُه إليك واقترحتُه عليك فى كتاب سابق ؛ لعله وصل إليك بعدَ إرسال الكتاب الذى نتكلم عنه .

وأما مكتوباتُك السابقة فقد أجبتُ عنها كلِّها بما رأيتُه كافيًا ، وإن كان بعضه موجزًا ، ومنه مسائل مهمة فى شأن الحجاز لعلّها تُسوِّغُ لديك ما علمتَه – ولا بُدَّ – من أنباء البرقيات العامة من لندن من أَنَّ أهلَ الحجاز بايعوا سلطانَ نجد بمُلك الحجاز ، وأقنعوه بأنْ يقبلَ ، فَقبِلَ على أن تكونَ إدارةُ الحجاز مستقلةً دون إدارة نجد ، وهذا لا يمنعُ عرضَ مسألة الحجاز ونظمَها على المؤتمر الحجازىّ الذى دعا إليه السلطانُ . ولعلَّ جمعيَّتَنا هنا تضعُ المشروعاتِ لهذه النظم ، وقد نقَّحتُ[1] بعض ما اقتضت الحالةُ تغييرَه من موادِّها ، وأرسلتُها إليه ليكتب إلىَّ برأيه فيها قبلَ الشروع فى التنفيذ . وأنتظر أنْ يجىء جوابه فى البريد الذى يخرج من جدة فى مساء 9 يناير ، ويصلُ غدًا أو بعدَ غدٍ ، فإن لم يُدركه فلا بدَّ أنْ يرسلَ فى تاريخ 19 ويصل فى آخر أسبوع من الشهر ، ولعلَّه الأرجحُ لأنَّ الجواب المنتظر سيكون مشتملاً على مسائل

---

(1) **نقَّح الكلام أو الكتاب** : صححه وهذّبه .

أخرى مهمة لا يُمكنه أنْ يُجيبَ عنها إلا بعد تفكُّرٍ وتدبُّر . والإخوان هنا وفى الحجاز يرون من الضرورىّ أنْ أُسافرَ أنا إلى الحجاز عاجلاً ، ومنهم الشيخ حافظ وهبة والشيخ إبراهيم بن معمر ، وأنا لا أرى العَجَلة ضربة لازبة[1] ، وأنه يمكننا أنْ نعملَ هنا الآن ما لا يمكن عمله فى مكة . وأنا مقيَّد بأعمال كثيرة لا يقوم بها غيرى ، فلو ذهبتُ لكان ذهابى مؤقتًا وعودتى ضروريةً ، وإن كان لا بُدَّ من ذهابى مرة ثانية فى موسم الحج وأيام المؤتمر الذى لا بُدَّ أنْ يكونَ فى أيام الحج وعسى أنْ نجتمعَ هنالك ! حقق اللّه الآمال .

ما بلغك من امتناع الأمير ميشال من إرسال نقود الإعانة إلى جبل الدُّروز والغُوطة وإصراره على إرسالها إلى لجنة الصليب الأحمر التى ببيروت - إنما بلغك على غير وجهه ، فَطِبْ نفسًا وقر عينًا ، فليس الرجل كما بلغك ، وليست الجمعيةُ آلةً بيده . والذى وقع أنَّ الجمعيةَ كانت قرَّرت السعى لتأليف لجان فى الجهات المنكوبة ترسل إليها النقود ، وتكون مسئولة عن توزيعها على المستحقين ، وقد اتُّخِذَتْ الوسائلُ الكتابية لذلك ، ومن غرائب الخلل فى البلاد أنه لم يأتنا نبأ بتأليف لجنة ، فأما دمشقُ وحَمَاه[2] فيقرب أن تكونَ المكتوبات إليها قد اخْتُزِلَت دونَ المرسَلَةِ إليهم . ولكنْ لا عذرَ لجبل الدروز فى التقصير ، وقد كتبتُ أنا إلى أخينا سميى المدير البارع[★] ، وجاءَنى منه جواب يعتذر فيه عن تأليف لجنة فى السويد بعذرٍ غريب ، أنْ يصدرَ عن مثله . وفرنسا تتهم الجمعية بأنها كلجنة المؤتمر تساعدُ الثُّوار ، واحتجت على الحكومة المصرية بذلك . وقد اتصلنا هنا بمندوب أو معتمد جمعية الصليب الدولية ، وأراد أن يساعدَنا فى كلِّ عمل ، فحال دون نجاحه مساعى فرنسا فى جمعية جنيف ، فقرَّرنا أنْ نكلّفه بسؤال لجنة بيروت : هل تأخذ على عاتقها إيصالَ الإعانات إلى المنكوبين فى جبل الدروز والغوطة وأمثالهما ، ولم نأخذ جوابًا ، وسنجتهد فى

---

(1) **صار الأمر ضربة لازب** : أىْ ثابتًا لازمًا .

(2) مدينة على نهر العاصى فى شمال غربى سورية .

(★) المرحوم رشيد بك طليع .

إيصالها بكل ما نقدر عليه ، وقد أرسلت إعانة صالحة للمستشفيات التى فى الجبل .

والسلام من أخيكم .

رشيد

★ ★ ★

وله إلىَّ هذا الكتاب المؤرَّخ فى 14 رجب 1344 و 28/ 1/ 1926 :

سيدى الأخُ الأميرُ

وصلت مكتوباتُك الثلاثُ تترى[1] فلا عَدِمْتُها ، وإن طولَها لأشهى إلىَّ من طول أعناق الغِيْدِ عند العاشق الولْهَان وطول المُرَّان[2] فى أيدى الشُّجعان ، وإنى لمجيبك عنها بإيجاز يُغنى عن التفصيل ، ولا يقال لقليله قليل .

فأما ما ذكرتَ فى ملاحدة الترك من وصف ورأى فأنا موافق لك فيه من كل وجه ، ولعلَّك لم تزدْنى فيه علمًا إلا ببعض الروايات القليلة مما رأيْتَ بعينَيك وسمعْتَ بأذنيك ، وأنا أَطلقتُ على هؤلاء المتفرنجين من الترك لفظة (الملاحدة) منذ كنتُ فى الآستانة ، وكان يُردِّده معى الشيخ إسماعيل حقى المناسترلى[3] العالم المفسِّر إذا خلونا فى داره . وقد حكيتُ عنه ذلك فى (المنار) بعدَ وفاته . وأنا أعلمُ مِن قبلُ تَهَتُّك[4] فلان فى سعيه ومجاهرته بإكراه الترك على الارتداد عن الإسلام أنه مرتدٌّ يَكْرَهُ الإسلام ويسعى لانملاص[5] قومه منه ، وتأكَّد ذلك عندى كما تأكَّد شدّةُ بغضه للعرب وحقده عليهم بكتاب طويل كتبتُه إليه عقب انتصاره وقبل إحداث ما أحدثه ، نصحتُ له فيه أنْ يَجِدَّ ما شاء فى تقوية الترك مع المحافظة على الجامعة الإسلامية والتعاون مع الجامعة العربية لأنَّ ضَياعَ العرب ، ولو فى سوريا والعراق وحدهما ،

---

(1) تتوالى مسرعة .

(2) **المُرَّان** : الرماح الصُّلبة اللَّدنة ومفردها (مُرَّانة) .

(3) متصوف مفسر ، تركى مستعرب ، ولدى فى آيدوس وسط القسطنطينية ، له كتب عربية وتركية ، منها (روح البيان فى تفسير القرآن) 4 أجزاء ، توفى فى بروسة 1127هـ / 1715م . (الأعلام : 1/ 313) .

(4) **تهتُّك** : مجاهرته فى ارتكاب الخطأ .

(5) أى تركُهم له ، وانفلاتُهم منه .

خطرٌ على الترك . . . (وهو من الكتب التاريخية المهمة ، وسيأتى يومٌ يُنْشَرُ فيه كلُّه أو بعضه) . وقد أرسلتُه إليه مع ضابط سورىّ كان من أركان حربه ، وأرسلنا معه مُذَكِّرة أخرى باسم الجمعيات العربية كان أخونا الأميرُ عادل ممن اشترك فيها ، وهى بمعنى كتابى إلا أنه ليس فيها مسألة الجامعة الإسلامية . وقد أعطاهما الضابطُ الذى حمَلهما إلى مرسين لمدير المخابرات التركى ، وهو أرسلهما إلى أنقرة ، واستأذن للضابط بالسفر إليها ، فجاءَه الأمر بِرَدِّه وعدمِ الإذن له بالسفر إلى أنقرة . . . ثم كان من أعماله ما كان من أنواع الأعمال الهادمة للإسلام التى أنكرناها كلَّها فى (المنار) بالمناسبات . وقد صرّحت أخيرًا فى الجزأين الخامس والسادس فى فتوى من سورية تتعلق بلبس البرنيطة وتفسير فى الجزأين السابع والثامن بتفصيل طويل .

وطالما فكَّرتُ فى مسألة طمع الترك فى سورية والعراق وتوسُّلِهم إلى ذلك بجعل مِفْتاحَىْ القُطرين وأهمِّ بقاعهما الموصل[1] وإسكندرونة[2] من الوطن التركى المحض[★1] ، وطالما خطر فى بالى من التفاؤل أنَّ احتلال الدولتين الطامعتين للقُطرين ربما كانت حِكمتُه إنقاذَهما من شرّ الترك وطمعهم إلى أنْ يتمّ لنا تأليفُ دولة عربية قوية[★2] ، إذا كان اللَّه تعالى يريدُ أنْ نحيا من حيث لا يشعر خصومنا من الفريقين ، ولا شك عندى فى كون تَسَلُّطِ الترك علينا فى هذا الطور شرًّا من تسلُّط الإفرنج ، وأنه كما قلتم[★3] .

أردتُ الاختصارَ والإيجازَ فاضطُررتُ إلى الإسهاب الإضافى - لا الحقيقى - فأقول بمناسبة ما ذكرتم فى لقب « بطل الإسلام » إننى دخلتُ ليلةً على أمين بك الرافعى فى إدارة الأخبار فأَلْفَيْتُهُ يُصحح مقالةً له وَضَعَ هذا اللقبَ عنوانًا لها ، وكَتَبَهُ

---

(1) **المَوْصِل** : مدينة فى شمالى العراق ، فتحها المسلمون سنة 636 م .

(2) **الإسكندرونة** : مدينة فى شمال سوريا على البحر الأبيض المتوسط ، أسسها الإسكندر المقدونى .

(★1) أيّدت الحوادث كلام السيد رشيد بعد 11 سنة من تاريخ هذا المكتوب .

(★2) وَتَكَهُّنُهُ هذا قد تحقق أيضًا فإنَّ العرب اليوم مجمعون على أنه لا أمل لهم بحفظ بلادهم سواء من الترك أو من الإفرنج إلا باتحاد عربى عام .

(★3) بعد أن رأيتُ ما رأيتُ من هدم أنقرة للإسلام اقتنعت بأنَّ خطرَ الإفرنج على العرب أصبح أهونَ من خطر ملاحدة الترك .

بحروف كبيرة (ثُلُث) ، فقلتُ من هذا الذى تُسميه بطل الإسلام ؟ قال بملء فيه[1] : مصطفى كمال . قلت : إنه ليس ببطل الإسلام ولا بمسلم ، بل عدو الإسلام . قال من بطل الإسلام إذًا ؟ الملك حُسين ؟ فقلت له : أيُّنا أشدّ على الملك حسين أنا أم أنت ؟ قال أنت . قلت : كيف تقول لى هذا ؟ أنا أعلم عن مصطفى كمال ما لا تعلم أنت ولا قومك . إنَّ من إخواننا السوريين من تربَّى وتعلَّم وحارب معه . . . إلخ . نحن ننصر الترك على الإفرنج ، ولكنْ يجبُ أنْ نَحفظ خَطَّ الرجعة فيما نكتب ، وكفانا ما جربنا من الاتحاديين وغيرهم . . .

لأجل هذا نقلتُ فيما كتبتُه بعد ذلك تحت عنوان : « الانقلاب الدينىّ السياسىّ فى الجمهورية التركية » منذ سنتين بعضَ ما كتبه الرافعى والشيخ شاويش والشيخ شاكر فى تكفير الكماليين وزعيمهم ، أىْ لِما كان من سابق غلو الثلاثة(★) فى الانتصار لهم ، وصرّحت فى ذلك السياق بأنَّ الكماليين يريدون بعملهم سلَّ الشعب التركى كلِّه من الإسلام ، فهل نَسيتَ هذا حتى قلت إننى قصرت فيهم ؟

(**إلى أنْ يقولَ**) :

شرفاءُ الحجاز وحالتُه الآن :

ليس الآن لفلان ولا لآل فلان ولا غيرهم عصبية فى الحجاز ، ولا يستطيع أحد منهم أنْ يحفظَ الأمن ويقومَ بشئون البلاد ، وليس لأحد من هذه العشيرة ذكرٌ فى هذه القرون الكثيرة . . . وما ألحوا على سلطان نجد بقَبول الولاية عليهم باسم ملك الحجاز إلا خوفًا أنْ يتركهم إلى مؤتمر يُنَصِّبُ عليهم أحد الشرفاء ، وهو لم يقبل دعوتهم إلا بعد أن عززهم فيها أهلُ نجد تعزيزًا لا يخلو من تهديد للسلطان .

ولعلَّك علمتَ أنَّ البيعة وقعت على أنْ تكونَ إدارةُ الحجاز منفصلةً عن إدارة نجد ، وهذا ما يُبقى باب الأمل مفتوحًا أمامنا لمساعدة صديقنا الشريف حيدر ليكونَ

---

(1) فمه .

(★) لم يكن فى الإسلام أشدَّ انتصارًا للترك من الأستاذ الشيخ شاكر والمرحومين الشيخ شاويش وأمين الرافعى ، فلما ظهر من أنقرة ما ظهر كانوا أشدَّ المسلمين عليها .

رئيسَ حكومة الحجاز مِن قِبَلِ مَلكها مكانَ نَجْلِهِ الذى عُيِّن مؤقتًا ، لا لِأنَّ من المتوقع سرعةَ تجدُّد عصبيَّتهم بقبائل حرب وغيرهم كما ذكرتَ . فلو صح هذا لكان مانعًا عندى وعند ابن السعود وعندك - إذا فكَّرت قليلاً - من تأميره ، بل لأنه لا يخشى أنْ يُجدِّد عصبيته لعجزه لا لعقله . والواجبُ الذى يُتوقع من ابن السعود أنْ يُميت عصبيّات القبائل الجاهلية من الحجاز كما أماتها فى نجد ، وأنْ يَستبدلَ بها[1] عصبيةَ الدين وحدَه ، وهذا من الإصلاح الذى لا يُرجى من غيره .

وكلُّ ما كتبتَه غيرَ هذا فى مسألة الحجاز ونجد والعرب صوابٌ لا غبارَ عليه . وأما كتابُك الذى أرسلته إلىَّ مفتوحًا فقد قرأتُه وأرسلته إلى السلطان الملك مع ابن معمر ، وهو قد سافر من هنا ، وسافر بعدَه الشيخُ حافظ بيومين ، وقد اكتشف الأولُ هنا ما يؤيِّد رأىَ الرجل الذى صادفتَه ، وأفضى إليك بما أودعتَه إلىَّ أو أودعتنى إياه على أن يكونَ سرًّا عميقًا ، ورأى من باب الاحتياط ما وافقته عليه وهو ما علمت آنفًا . ولا بُدَّ أنْ يكونَ وصل إليك كتابى الذى كتبتُه إليك بشأن تلك المسائلِ الخطيرة ، ولمحتَ منه ما يشير إلى هذا الاحتياط مِن تمنى لو كنتَ كتبتَها لصاحب الشأن مباشرةً . وقد بلغت ما بلغت منها ، والحمد للّه .

لم يصل إلينا شىء جديد عن التفاهم بين الأميرِ عادل والدكتور ، وعسى أنْ يكونَ ما عرض مِن قبلُ قد زال . وأحبّ لك أنْ تترفَّع أنت عن الدفاع عن نفسك بأنك لا تطلب فى البلاد وظيفة ولا منصبًا ، فأنت فوق التُّهَمِ وأهلِها . وأما مجيئك إلى هنا فسأطرق له بابًا جديدًا من السعى خطر فى بالى عندما كتبتُ ما كتبتُ فيه .

مسألة البيِّنة والشهادة :

الأصلُ المتَّفقُ عليه المعمولُ به أنَّ الجنايةَ تَثْبُتُ بالإقرار أو بشهادة عَدْلَيْنِ ،

---

(1) الأصل أن تدخل الباء على المتروك ، قال تعالى : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة : 61] ، عاب اللّه على بنى إسرائيل تركهم الأفضل رضًا بما هو دونه ، ولكن أجاز المجمع اللغوى القاهرى دخول الباء على غير المتروك مستدلاً بقول طفيل لما أسلم : (وبدّل طالعى نحسى بسعد) يريد أن السعد حل محل النحس ، واستشهد كذلك بنقول من بعض المعاجم .

(**انظر** : كتاب الألفاظ والأساليب : 1/37) .

وهنالك مسائلُ مختلفٌ فيها بين الفقهاء كالحكم بالنكول وما يثبت به - والنكول امتناع المنكر من حلف اليمين - والحكم بالتواتر والحكم بالخط[1] والقِيافة[2] وبالقَسَامة[3] ، والتحقيقُ ما فصَّله ابنُ القيم فى (أعلام الموقِّعين) من أنَّ البيّنة التى هى الركنُ الأولُ للحكم ليست الشهادة ، وإنما هى كلُّ ما يَتبين به الحقُّ . هذا ما تدل عليه اللغة واستعمال القرآن نفسه ، وقد نشرتُ كلامه فى إحدى مجلدات (المنار) . والسلام عليكم أولاً وآخِرًا من أخيكم .

رشيد



وكتبَ إلىَّ فى 27 رجب 1344 و 11 فبراير 1926 :

أخى الأميرُ النِّحرير :

وَصَلَ أَوَّلَ من أمس كتابان لى منك أحدُهما مستقلٌّ والآخَرُ مع كتابك إلى الملك وما معه من التقارير المطبوعة ، وإنما وصلا فى يوم واحد مع اختلاف تاريخهما لأنَّ المكتوباتِ المسجلة تتأخر عن العادية دائمًا .

وقد بادرتُ أمس إلى إرسال كتابِ الملك السلطان وما معه وكتابٍ آخرَ منِّى فى بريد الوكالة الحجازية النجدية مسجَّلاً مختومًا بختمها ، وإنما لم أترجم التقارير كما عهدتَ إلىَّ لأننى أعلم أنَّ فى الحجاز مَن يعرف اللغة الفرنسية ، ومنهم الدكتور محمود حمدى الدمشقى طبيب الملك الخاص ، فلم أَرَ تأخيرَها لترجمتها هنا ، واتفق أن كان أمسِ موعدَ إرسال البريد وبينَه وبينَ الذى يليه عشرةُ أيام فى الغالب ، وقد أعجبنى الكتاب وما معه ، وعززتُ رأيك فى كتابى ، بل هو عينُ رأيى الذى

---

(1) **الخط** نوع من الكهانة ؛ حيث يخط الكاهن خطوطًا دون عدد ، ثم يمحوها على عجل خطين خطين ، فإن بقى منها خط واحد فهذا علامة الخيبة ، وإن بقى منها خطان فهذا علامة النُّجح . (لسان العرب : خطط) .

(2) **القيافة** : معرفة الأثر .

(3) **القسامة** أى اليمين أو القسم ، وهو أن يقسم خمسون من أولياء الدم على استحقاقهم دمَ صاحبهم إذا وجدوه قتيلاً بين قوم ولم يعرف قاتله ، فإن لم يكونوا خمسين أقسم الموجودون خمسين يمينًا بشرط أن لا يكون فيهم امرأة ولا صبى ولا عبد ولا مجنون ، أو يقسم المتَّهمون بنفى القتل عنهم . فإن حلف المدَّعون استحقوا الدية ، وإن حلف المتهمون لم تلزمهم الدية .

أدليت به إليه مرارًا فى مكتوباتى إليه وإلى بعض رجاله وبتوصية أناس سافروا من هنا أَوّلُهم خالدٌ وأوسطهم شكرى بك القوتلى بعد ابن معمر ، وآخِرُهم حجازى سافر فى أول فبراير هذا . (**إلى أن يقولَ**) :

هذا ، وإن الأميرَ ميشيل مضطربٌ فى مسألة الإعانة بين أمرين تهمة الفرنسيس وسَخَطِ متعصبى النصارى ، فيخصّ سعى الجمعية لجمع المال بالمنكوبين ، ويقول إنه يجب أنْ يكونَ سعيًا إنسانيًا عامًّا لكلِّ الطوائف ، وقد أطلعناه على ما كُتب فى بعض الجرائد من وصول أربعة آلاف جنيه لنصارى حاصبيا وراشيا من أمريكا وحدها ، دَعْ إعانَةَ أهل لبنان لهم ومساعدةَ الحكومة . وقد جرى فى جمعيتنا جدال كثير فى عدّة جلسات غضِبتُ فيها ورفعت صوتى . والحاصل أننا لم نُوَفَّقْ لا فى جمع الإعانات ولا فى توزيعها ، وإننى كنتُ أرجو غير ذلك ، ومذْ شعرت بالخيبة كتبتُ إلى الهند بأن لا يُرسلوا إلى جمعيتنا شيئًا ، وأن يُفضلوا جمعية القدس عليها ، وذكرتُ هذا فى بعض الجلسات .

وأما مسألةُ محمود سلمان عزام ونجيب بك شقير فلم أسمع بها هنا ، وسأسأل الثاني عنها عند لقائه ، وما أظن أنه كان يريد أنْ يأخذ إعانة زكى باشا لجمعية المنكوبين التى يَرْأَسُها لطف اللّه ، ولعلّه أراد إعطاءها لِلَجْنة جَرْحَى الدُّروز التى يَرأسها الحاجّ أديب خير التاجر الدمشقى الفاضل .

وإنى لَيؤلمنى كثرةُ الكلام فى هذه المسألة ، ولكنّنى لا أقصّر فيما أراه واجبًا أو مستحبًّا ، وعسى أنْ أُوفَّق إلى سعى آخَر على كثرة شغلى .

وأما مسألةُ انتقادِ مذكرتك وترجمتِها فقد سبق أنْ كتبتُ لك فيها ما أراه كافيًا ، ولا يوجد أحد شكَّ فى صدق وطنيتك مِن منتقد ولا غير منتقد ، ولا أنت فى حاجة إلى الدفاع عن نفسك كما قلت سابقًا . والسلام عليك أولاً وآخِرًا ورحمة اللّه وبركاته من أخيك المخلص .

رشيد

حاشية :

جاءَنى كتاب من الإمام يحيى كذَّب فيه ما كان أَذاعه (المقطم) من عزمه على

التصدّى لمسألة الحجاز انتصارًا لعلىّ ، وأكّد لى ما أعلم من حرصه على مودة ابن السعود ، وذكر لى أنك كتبتَ إليه فى ذلك(★) وأجابك ، وأرسل كتابه إليك عامله فى الحديدة ، وقد أرسل إلى جوابه عن دعوة ابن السعود ، فأرسلتُها إليه أى بشأن المؤتمر . أرجو إرسال عنوان صاحبنا زكى كرام .

★ ★ ★

والكتاب التالى المؤرَّخ فى 25 رمضان 1344 و 8 أبريل :

أخى الأميرُ الكبير :

أُحييك وأُهنئُك بعيد الفطر السعيد ، أعاده اللّه علينا جميعًا . . . إلخ (إلى أنْ يقولَ) :

(1) سأُرسل غدًا وبعد غد ما أمرتم بإرساله إلى الحجاز ، وبريده يُرْسلُ من هنا فى 10 أبريل ومن السويس فى 11 منه ، وإننى عازم على السفر بنفسى لمقابلة صاحبنا فى أقرب فرصة (ولعلّى لا أتأخرُ عن أول باخرة تسافر بعد العيد) وسنرى ثَمَّ[1] ما يجب .

(2) كان سكرتير مؤتمر الخلافة أخبرنى أنه أرسل إليك الدعوة ، وقد قرأتُ له اليوم أكثر ما كتبتَ لى فى موضوع المؤتمر ، ومنه العبارة التى تدل على عدم وصول الدعوة إليك ، فتعجّب وسأل الكاتب الذى تولّى الإرسال فأكّد خبره .

(3) الظاهر أنَّ الكتاب الذى وصل إليك من الإمام هو الذى عناه بما كتبه إلىَّ ، وسيجيبك عما كتبت بعده إن لم يكن قد فعل .

(4) إننى أعمل للاتفاق بين الإمامين منذ سنين كما تعلم ، وإنْ كانت أخبار ظلم الزيدية للشافعية لا يمكن المِراء[2] فيها ، وَأَقْبَحُها أنَّ جيش الإمام يحتل بيوت الأهالى فى تِهامة ، ولا يكتفى بضيافة الأكل والشرب بل . . . . . والإمام لم يظفر إلى الآن

(★) أظن أنى كتبتُ إلى الإمام يَحيى فى قضية المحالفة بينه وبين ابن سعود ، وكتبت إلى الملك عبد العزيز فى قضية المحالفة بينه وبين الإمام يحيى أكثر من خمسين مرة ، والاثنان شاهدان على ذلك . كما أنى كتبتُ إلى المرحوم الملك فيصل يقدر ذلك فى أمر اتفاقه معهما ، وعندى منه مكتوب يقول فيه : « أشهد أنك أولُ من تكلم معى فى قضية الوحدة العربية » .

(1) ثَمَّ ، قد تدخل عليها التاء (ثمة) ، أىْ هناك . (2) الشَّكّ .

بإزالة إمارة الإدريسى على ما انتابها[1] من الضعف والانحلال بعد وفاة مؤسِّسها ، فكيف يطمع بالظفر بابن السعود ؟ ولكنَّ المشكل أنّه يَعُدّ تِهامة وعسيرًا من بلاده . وسندرُس المسألة فى مكة - إن شاء اللّه - ونجتهد فى إقناع الملك السلطان بالاتفاق الممكن ، وأولُه أن لا يغزو الإمام لانتزاع ما فى يده ولا لأجل مذهبه ، ومن غير الممكن إقناعه بترك ما بيده من بلاد عسير ، وبين هذا وذاكِ حمايتُهُ للإدريسى ، وهى مَوْضِعُ الدرس الدقيق .

(5) علمتُ بخبر الشريف حيدر ، ورأيتُ أخاه هنا ، وأفطر عندى مع جمهور من كبار المصريين وباشواتهم .

(6) الخلافة واجبة قطعًا ، وأما الخليفةُ فأحسنُ ما قيل فيه ما نقله ألمانى كان فى جدة عن ابن السعود ، وهو أنهم أرادوا مبايعتَه بالخلافة فامتنع ، وقال : إن هذا حقّ للعالم الإسلامى يتوقف إنفاذُه على ظهور رجل يُثبت له بالفعل أنه هو الزعيمُ القادرُ على تنفيذ الشرع والنهوض بالمسلمين فى هذا العصر . والسلام عليك وعلى إحسان بك .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىّ من مكةَ المكرمة فى 5 ذى القعدة 1344 :

سيدى الأخ الصديقُ :

سلامٌ عليك ، وصل إلىّ كتابك أمسِ مع كتاب من السيد عاصم ، فعلمتُ منه أنَّ شعوركما فى مسألة الخلاف بين مصر والحجاز واحدٌ . ونحمَد اللّه تعالى أنّه لم يقع خلاف حقيقىّ ، وإنما أراد المرجفون[2] ذلك فخاب سعيُهم . وَسْوَسَ قُنْصُلُ العجم (غيرة الملك) فى أذن بعض رجال الحكومة المصرية وفى آذان أخرى من مُحرِّرى

(1) أصابها .

(2) **أرجف القومُ** : خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن .

الجرائد أعداءِ الإسلام عَقِبَ عودته من مكة بأن الملك ابن السعود سيفعل كذا وكذا ، فاستعلمت الحكومةُ عن ذلك ، وطلبت بيانًا خَطيًا من الملك ، فأجابها بما أرضاها ، وانتهى الأمر ، ولله الحمد . ولعلّكم علمتم ذلك أو تعلمونه من الجرائد المصرية قبلَ وصول هذا إليكم ، وقد كنتُ كتبتُ إلى الملك قبل سفرى بما بلغنى كتابًا قلتُ فيه ما مُؤَدّاه : إذا لم يكن لديكم مانعٌ من إجابة طلب الحكومة المصرية بما يُرضيها فذلك ما نبغى ، وإن كان ثَمَّ مانعٌ فأرجو أن لا تردوا طلبَها وأجِّلُوه إلى أنْ أحضر . . . ولكنَّ الرجل حكيم .

وأما مسألةُ العجم فقد كنتُ سعَيت لعقد المودة بينه وبينهم حينَ ثاروا ثورتهم وهاجت بلادهم ونوابهم لبهتان فلان فى مسألة ضرب القبة النبوية . . . فإنَّ حكومتَهم يومئذ أمرتْ سفيرَها بمصر وقنصلها فى سورية بأنْ يُسافرا إلى الحجاز ليكشفا الحقيقة ، فأعطيتُ السفيرَ عند سفره كتاب توصية لابن السعود ، وأظهرت فيه ما أَراه من المصلحة الإسلامية فى الموادَّة[1] مع دولة إيران . . . وكنتُ قبل هذا أطلتُ الكلام مع السفير فى ذلك فأظهر الارتياح لكلامى والاقتناع به ، وعاد من مكة راضيًا عن ابن السعود ، وحمل إلىَّ كتابًا منه وكتبًا أخرى منه للدعوة إلى مؤتمر الحجاز . والظاهر الآن أنَّ حكومته وحكومة أُخرى كانتا تَريَان أو تَبْغيان أنْ يُقَرِّرَ المؤتمرُ خروجَه من الحجاز ، فلما بايعه أهلُه أظهر العجمُ سَخَطَهُمْ ، وطَفِقُوا يكيدون له مع الكائدين من حزب الشرفاء . والسلامُ عليكم وعلى ولدِكم وإحسانِ بك ، ولا زلتم سالمين موفَّقين ، وستسمعون ما يَسُرُّكم إنْ شاء اللَّه .

رشيد



وكتب إلىَّ أيضًا من مكةَ المكرمة فى 8 ذى الحجة 1344 و 19 يونيو :

أخى الأمير

أكتب إليك هذه الكلمات يوم التروية الذى نصعد فيه إلى عرفات ، وقد سبقنا إليها

(1) مصدر (واذه) أى حابه .

أكثرُ الحجاج ، وأسأله تعالى أنْ يُعيد هذا الموسم عليك وعلينا وعلى أمتنا والإسلام يعلو والعرب تسمو ، وأبُشرك بأنَّ صاحبنا الإمام(*) قد تبرَّع لمنكوبى بلادنا بأربعة آلاف جنيه بعدَ أنْ طلبتُ منه نصفها ، وأَقْسَمَ باللَّه إنه فى خجل من هذا المبلغ القليل الذى سببه قلة ماله بسبب الحرب ، حتى كثُرت ديونه مع كثرة النفقات فى هذا العام ، ونحن نعلم أنَّ ضيوفَه الآن بمكة يُعَدُّون بالمئات ، وجميع نفقاتهم عليه من بُيوت وأطعمة متنوعة تُقَدَّم إليهم وركائب . . . إلخ . وقد قَدِمَ منذُ أيام مِمن قَدِمَ من نجد بقيةُ أسرة آل سعود مع آل الرشيد وآل عايض ضيوفهم الذين يعاملهم الإمام كأولاده وإخوته فى كل شىء ، وهم مع أتباعهم ألفان . دَعْ وفودَ المؤتمر وأعضاءَه ، ومِنْ هؤلاء الضيوف مَن يُعْطَوْنَ نُقودًا ، ومنهم من يَطلب هذا ، وإنه فى اليوم التالى لليلة التبريح أوعز إلينا بأن لا نُذيع خبره .

أما استعدادُه العقلىّ والفطرىّ وذكاؤه فقد رأيتُها فوق ما كنتُ أتصور . وهو يقدِّر كل ما نطلبه منه من الإصلاح قَدْرَه ، ولكنّه شديدُ الحذر والرَّويَّة لا يحب أنْ يتعجل بشىء قبل أوانه وإعداد العدة له ، وسأذكرُ لكم شيئًا من التفصيل فى هذا الباب ، وموعدى معه فى الإسهاب فى المذاكرة انقضاءُ موسم الحج وانفضاضُ المؤتمر الذى تأجلت جلساتُه إلى ما بعد إتمام النُّسك .

لولا شوكت علىّ وأخوه لسار المؤتمر على الطريقة المُثلى التى ترضى جميعَ المسلمين ، ولكنَّ الرجلين كانا مصيبة ، ولولا أننا أجْمعنا على مُداراتهما خشيةَ الفشل لوقع فى المؤتمر شِقاق أدى إلى انسحابهما منه ، فمن ذلك المعارضة فى تسمية ابن السعود مَلِكًا ، زاعمين أنّ الملك لا يليق بشأن الحجاز والإسلام بل الجمهورية كما فعل الترك!! ومن أكبر أسباب سَخطهما هدمُ قِباب القبور المعبودة الذى يؤيِّده أهلُ الحديث وغيرهم من علماء الهند وسائر أهل السُّنة ، وسأذكر لك عُذر ابن السعود فى هدمها فى كتاب آخر . . . وقد هيأنا احتجاجًا شديدًا على فظائع سورية سنعرضه على المؤتمر .

(*) **يعنى بالإمام الملك عبد العزيز بن سعود** ، وهذا لقبه فى نجد .

الحجُّ فى هذا العام عظيم ، فإن كان الذين جاءوا من طريق جدة لم يبلغوا ستين ألفًا فإن الذين جاءوا من جزيرة العرب لا يَقِلّون عنهم ، وأكثرهم من نجد .

وصل وفدُ الإمام يحيى يحمل إلى الملك هدايا متنوعة ، معى هنا وفد القدس المفتى والحافظ الشيخ إسماعيل وعجاج ، وانضم إلينا حسن بك الحكيم والحاج أديب خير ، والجميع يسلّمون معى عليك تسليمًا .

رشيد رضا

وكتب إلىّ أيضًا من مكةَ المكرمة فى 27 ذى الحجة 1344 أو 8 يوليو :

سيدى الأخ الأميرُ

كتبتُ إليك قبلَ الذهاب إلى عرفة كتابًا لم يمكن إرساله من مكةَ لانتقال البريد إلى مِنى ، فأرسلناه مِن منى بعدَ يوم العيد أىْ ثانى أيام منى أو ثالثه ، فلعلّه وصل ، واليومَ أكتب إليكَ بما لعلَّ خبرَه وصل إليك فى بعض الجرائد ، وهو انتخابُنا إياك فى المؤتمر الإسلامى العام كاتبًا عامًّا (سكرتير) للّجنةِ التنفيذيةِ المنوطِ بها تنفيذُ قراراته والاستعدادُ للمؤتمر الثانى(★) .

لم نرَ فى مكةَ رجالاً أهلاً لأن يكونوا أعضاء للجنة التنفيذية ، فاقترح شوكت علىّ أن ينتخبوا من أهل الكفاية الممتازين فى أخلاقهم وفنونهم ، وأن يُؤَجّل تأليفُ اللجنة ثلاثَة أشهر لتتمكن الوفود من اختيارهم من البلاد المختلفة ، وذكر أيضًا ما يجب مراعاته فى الكاتب العام ، وضرب المثل بك وبالشيخ شاويش ، وثَنَّيْتُ أنا على اقتراحه - كما يقولون - وتكلمتُ فى طريقة تنفيذه ، وأيّدنا أخونا أمين الحسينى ، ثم أُلِّفت لجنة منا ومن آخرين لوضع طريقة للتنفيذ ، وبعدَ بيان تكلمنا فى الكاتب العام فقلت لهم : إننا نوافق الأخ شوكت علىّ فى قوله إن سكرتير اللجنة (وسيكون سكرتير المؤتمر عند انعقاده) مثل فلان وفلان فى الاستعداد والمكانة ، واقترح أن

(★) قد اعتذرت عن قَبول هذا المنصب إلا إذا رضوا منى بالإقامة فى الحجاز أربعة أشهر لا غيرَ ، وهى أشهر الشتاء .

نختار فلانًا ، ونعرض ذلك على المؤتمر ، وبعد موافقته أتولى أنا عرض ذلك عليه وإقناعه به ، فقبلوا ذلك بالإجماع مع الارتياح ، كما قَبِلَهُ المؤتمرُ بعدُ ، فأنا الآن أكتب إليك راجيًا قَبول هذه الخدمة الشريفة بصفة رسميّة . ولا أراك تخالفنى فى أنّ اختيارك لها بإجماع أعضاء المؤتمر يُعد أعظمَ شهادة بمكانتك الرفيعة واستعدادك الكامل فى العلم والكتابة والعقل لخدمة المِلّة والعالمِ الإسلامى ، وأنا قصدت باقتراحى تسجيلَ هذه الشهادة لك فى التاريخ ، وإنْ كنتُ أشك كغيرى فى قَبولك إياها ، وأرجو ما لا يرجو غيرى من إقناعك بها . وما كان ذِكْرُ شوكت علىّ لك إلا من قَبيل ذكره لسعد باشا زغلول ومصطفى كمال باشا عند ذكر مَنْ يَصْلُحون لرئاسة المؤتمر تعظيمًا لشأنه وشأن مقرَّراته .

قالوا إنّ الأمير شكيب عاش عمرَه كلَّه متنقلاً بين البلاد المعتدلة والباردة ، فلا يستطيع الإقامة فى الحجاز ، وقد سبقَ لنا مكاتبةٌ وجيزة فى هذا الموضوع ، وأعود الآن فأقول بعد أنْ اختبرتُ مكة فى هذه الأشهر الثلاثة ، وعلمتُ من أمر جوّها ما لم أكن أعلم : إن إقامتك فى الحجاز مع أهل بيتك ممكنة بدون احتمال مشقة كالمشقة التى يحتملها الإنجليز فى الإقامة فى السودان والهند والأقطار التى هى أشدُّ منها حرارةً ، ولا سيما بعدَ تعبيد الطريق بين مكة والطائف وهو ما لا بدّ منه . والمَرْجُوُّ أنْ يتم قبلَ الصيف الآتى ، وأنت تعلم أنَّ هواءَ الطائف أقلُّ حرارة فى الصيف من مثل الشويفات(★) ولا يقدر الناس على النوم فيه بدون غِطاء ، ويلبَسون الأكسية[1] الصوفية .

وأما فى هذا العام فسيكون قُدُومكَ إلى مكةَ فى فصل الخريف لأنَّ المؤتمر آخر

(★) **قصبة الشويفات** من غرب لبنان هى مركز الأرسلانيين ومَسقط رأسى ، بناها جَدُّنا الأمير مسعود ابن الأمير أرسلان ابن الأمير مالك المنذرى اللمى المتوفى ليلةَ السبت ثالث عشر محرَّم الحرام سنةَ ثلاثٍ وعشرين ومائتين وعمره ثمانٍ وسبعون سنة . قال العباس بن الوليد بن مزيد العذرى قاضى بيروت – وكان من مشاهير المحدثين – : « وحضرت جنازته ودفن فى الشويفات بجانب الحصن الذى بناه بها » والسيد رشيد يعلم أنَّ الشويفات لكونها فى آخر الجبل يشتد حَرُّها فى الصيف ، ولكنّى فى حياتى ما قضيت صيفًا فى الشويفات ، وإنما كنتُ أقيظ[1] فى الصرود عين صوفر ونحوها .

(1) جمع كساء ، وهو ما يُستتر به .

---

(1) **قاظ القومُ بالمكان** : أقاموا به أيام الحرّ .

عقد اللجنة التنفيذية ثلاثة أشهر ، فإذا أخذنا لك بيتًا فى ضواحى مكةَ من جهة المعلى حيث يسكن الملك أو فى جهة الشهداء (حيث الطريق إلى جدة) يُمكنك أنْ تكونَ مُرتاحًا ؛ فإن الهواء فى الضواحى أعدلُ بل أشدُّ اعتدالاً من مكةَ إنْ صحَّ أنْ نُشايع أهلها فنقول إنّ الهواء يعتدل فى الخريف عندهم بالمعنى المألوف عندنا - والحقُّ أنَّ الاعتدال نسبى عندنا وعندهم - ولكنّى أذكر لك أننى فى الأيام التى كنتُ أتألم من هواء الليل فى مكة أشدَّ التألم بِتُّ ليلة فى الشهداء(★) فى مكان خلوى فندمت لأننى لم أطلب غطاء ، وكنتُ أنتقل من المكان المكشوف إلى ما وراء الجدار من حركة الهواء الذى كنت أشكو سكونَه فى مكة ، وجملةُ القول أن المرجوَّ أنْ يكونَ الخريف خيرًا من هذه الأيام التى تهبط فيها الحرارة ليلاً إلى 27 بل إلى 25 أو 24 ليلاً ، وقلما تزيد نهارًا عن 37، والعادةُ أن تكونَ أشدَّ من ذلك ، ولا بدَّ أنْ تشتدَّ . وأما وجودُك هنا بقرب صاحبنا ففائدتُه أكبر من فائدة خدمة المؤتمر ، وسنعود إليه ، وسأسافر بعد ثلاثة أيام إلى مصر إن شاء اللّه ، والسلام على مَن معك من أخيك .

رشيد



وكتب إلىّ من القاهرة فى 16 صفر 1345 و 25 أغسطس :

أخى الأميرُ :

عدتُ من الحجاز منذُ ثلاثةِ أسابيعَ وأيامٍ فوجدتُ كتابًا مطوَّلاً منك ينتظرنى ليس فيه إشارة إلى وصول آخِر كتاب أرسلتُه إليك من مكةَ فى شأن اختيارنا إياك سكرتيرًا للجنة المؤتمر الإسلامى التنفيذية لأنه كُتب قبل ذلك ، وقد أرسل إليك رئيسُ المؤتمر بعده برقيةً ، ولكنك ذكرتَ فى كتابك أنك علمت بذلك من الجرائد ، وفى كتابى كلام فى المسألة لا بُدَّ أن تذكرَ لى رأيك فيه إذا كان الكتاب قد وصل إليك كما أرجوه .

(★) هذا صحيح فإنّ الإنسان الذى لا يَقْدِر أنْ يذوق طعم الكَرَى فى مكةَ من شدة حرّها فى الصيف يقدرُ أن يبيت فى الزاهر أى الشهداء بكل راحة وأنْ يَقْبَلَ الغطاء بل يُضطر إليه ؛ وذلك لأن الشهداء سهلٌ أفيح تحيط به بعض الآكام ، وليس عن بُعْدٍ كمكةَ التى تحصُرها تلك الجبالُ الصخريةُ من كلِّ جانب .

كتابك المطوَّلُ أرسلتُه إلى مكة ، وجاءنى اليومَ كتابٌ ممن أمره الملك أن يُجيبنى عنه ، وأنه سيجيبُ ، ويُرسل جوابه فى البريد الأول بعدَ البريد الذى حمل كتابه إذ الوقتُ بعدَ أمْرِ الملك لم يتسع للجواب . وكنتُ كتبتُ مذكرة بالمسائل التى فيه لأجيبك عنها بما عندى من العلم وهى 11 مسألة فلم أجد فرصةً لذلك ، وأَكْتُبُ الآن هذه الكلماتِ بعدَ الظُّهر لأن رياض بك الصلح[1] أخبرنى بالتليفون أنه سيزورنى بعدَ قليل ، وسيسافر الساعة 3 بعدَ الظهر إلى الإسكندرية ليُبحر منها إلى أوروبا حيث يلاقيكم فيها ، ومتى جاءَ اشتغل بالكلام معه ، وإنما فرصة الكتابة هذه الدقائق التى أنتظر مجيئه فيها ، فأقول بالإيجاز :

(1) مسألة الفنيين فى الأسلحة موجودون ، وعُمْدَتُهم . . . الذى رأيتَه . . .

(2) المحالفة مع اليمن قد عرضها الملكُ على مندوب الإمام عرضًا مع إعلامه بأنّ الإمام أحوجُ إليها منه ، وقد كان مندوبُ الإمام الذى أرسله إلى مكةَ راضيًا قبلَ سفره عن الملك تمامَ الرِّضا ، ولكنّه كما قال غير مفوَّض بَعَقْدِ مُحالفة ، وكان جُلُّ ما يسعى إليه لدى الملك تخليه عن الإدريسى ، وقد حضر بعضَ مذاكرتى معه ومذاكرتِه مع الملك محمودُ نديم بك(★) وكان راضيًا عن الملك ، وقد تكلمتُ مع المندوب فى مسألة التعويض أو الدِّية عن قتلى اليمانيين ، وهو لم يذكرها للملك على ما أعلم ، وإنما ذكرناها بيننا وقلت له سأذَكِّر الملكَ بها بعدَ أشهر عندما تنتظم ماليتُه وتقلّ نفقاته ، وقد سبق وعدُه بالتعويض فلن يُخلفه . . .

(3، 4) إنَّ مسألتى عُصبةِ الأمم والتمثيل الخارجىّ لا يُغنى فيهما الاختصارُ والإيجازُ ، والذى علِمتُه أنَّ النظرَ فى هذه المشروعات سيكون بعد تنظيم الحكومة ولا سيما الماليةُ ، وتنظيمُها متوقِّفٌ على اختيار الرجال ، وليس عند الملك أحدٌ منهم ، وقد اخترنا له بعضًا ، ولا نزال نبحث عن غيرهم مما سأفصِّله لك فى كتاب آخَر .

---

(1) هو **رياض بن رضا بن أحمد باشا بن محمد الصلح** (1310 - 1370 هـ / 1893 - 1951 م) ولد فى صور ، وحصل على إجازة الحقوق فى الآستانة ، تولى الوزارة عدة مرات ، كان عضوًا فى جمعية (العربية الفتاة) ، قتل أثناء عودته من عمّان إلى بيروت ، ودفن فى بيروت .

(★) الذى كان واليًا لليمن من قِبل الدولة العثمانية .

(5، 6) قنصل إيطاليا يتودَّد ، وقد جرى بينَه وبينَ صاحِبنا حديثٌ فى مسألة عودة السيد أحمد السنوسىّ إلى بلاده كتبه صاحبُنا إلى السنوسى ، فأجابه هذا بأنَّه سينظر فيه عند اللقاء بعد عودته إلى مكة . . . ولكنّ إيطاليا لا تعترف بالحكومة الحجازية رسميًا(★) كما عَلِمْتَ ، وسأكتب إليك بما يَجيئنى فى البريد الآتى .

(7) ما أُظنُّ أنَّ التركَ يقدرون على شىء مما نخشاه منهم . وقد تبيَّن لى أننى كنتُ (غيدارًا)(★★) حين كنتُ أقول بمكة إن مندوبى الترك للمؤتمر يتعمَّدون إرجاءَ مجيئهم إلى ما بعد موسم الحج وانتهاء المؤتمر ، وإنهم لا يريدون من إرسال الوفد باسم المؤتمر إلا موادة ابن السعود ، وقد سمعنا منهم ما يدلُّ على صحة هذا الرأى ، وسأذكر لك شيئًا من خبرهم فى كتاب آخر .

(8) متصرفية الجوف مهمة ، وتتوقف على تنظيم الحكومة العليا ، وعسى أنْ يكون قريبًا ، وسنرى ما يجىء من رأى الملك فيه .

(إلى أنْ يقولَ) :

(11) كذلك نَسِيتُ تفصيلَ ما اعتذرتَ به عن قَبول سكرتارية المؤتمر ، وقد كنتُ بيَّنت لك فى كتابى الذى أرسلتُه من مكة ما يتعلق بمانع حرِّ مكة ، وأنتظر جوابه .

أهمُّ مسائل سياسة ابن السعود وإدارته أنْ يُقْبَلَ كلُّ إصلاح علمىّ وفنىّ وعملىّ وسياسىّ وحربىّ واقتصادىّ بشرط عدم إخلالها بالدين و « بالشيمة العربية » ، وعدمِ استلزامها تَدَخُّل الأجانب فى شئون البلاد ، ولا يقبل من العمال عنده إلا متدينًا حسنَ

(★) ترددت إيطاليا مُدةً فى الاعتراف بالحكومة السعودية فى الحجاز ، وذلك على أمل عقد معاهدة معها تتضمن بعض شروط لم يجد ابن سعود لها داعيًا ، فجاءنى مُعْتَمد يومئذ من قِبل إيطاليا يلتمس وساطتى فى الموضوع ، وكنتُ علمتُ حقيقةَ الموانع التى حالت دونَ المعاهدة ، فأقنعتُ الطليان بأنه لا لزوم لكتابة الصيغة التى اقترحوها ، ولكنَّ إيطاليا بقيت مدة متوقِّفةً عن هذه المعاهدة بسبب مداخلات وقعت من الجهة المناوِئة لابن سعود ، وما عقدتْها إلا فيما بعدُ ، وعلى الصيغة التى أرادها الملكُ ابن سعود ، وأقنعنا نحن إيطاليا بعدم إمكان غيرها .

(★★) الغيدار الذى يُسيئُ الظنَّ فيصيبُ .

الأخلاق قادرًا على العمل ، ويُراعى التدريج ، ولم أختلف معه فى شىء جوهرىّ ، وحسبى هذا الآن ، وأُقبِّلُكَ ونجلَك غالبًا بفم الضمير ، والسلام .

رشيد

★ ★ ★

وكتب من القاهرة فى 9 ربيع الأول 1345 و 16 سبتمبر 1926 :

سيدى الأخ الصديق :

إنِّى أُلقى إلىَّ كتابُك الأول بعد عودتى من الحجاز ، وكان وقتُ وصوله موعدَ سفرِ بريد الحجاز ، وكنتُ كتبتُ إلى جلالة الملك وإلى غيره ، فبادرتُ إلى إرساله بعدَ قراءته مع ما كتبتُه ، وإنِّى أُجيبك عن مسألتين من مسائله بعد أنْ أذكرَ لك ما كتبه إلىَّ الملك بشأن كتابك الذى قبلَه ، وقد أخبرتُك أننى كنتُ أرسلتُه إليه ، قال : « كتاب الأمير شكيب أطلعنا عليه وأعجبنا ما جاء فيه من آراء وأفكار ، وأنتم تعلمون آراءنا ومساعينا فى أكثر الأمور التى ذكرها ، ولا بدَّ لنا من التريض (كذا) قليلاً فى السير لنعرف موقفنا الخارجىَّ بصورة ثابتة . إن الذى نستطيعه من الأمور لن ندّخر وسعًا فى إجرائه فى هذه الساعة ، وما لا نقدر عليه نتريث فى أمره حتى يأتىَ الوقتُ الذى نتمكن فيه منه » اهـ . ومقابل أكثر الأمور التى قال إننى أعلمها أمران لا أتذكر غيرهما : مسألة عُصبة الأمم ، ومسألة المتصرفية الجديدة التى اقترحتموها ، وسائر الأمور تذاكرنا فيها .

وأما المسألتان اللتان وعدتُ بالإجابة عنهما هنا فأولاهما قولك : إنَّ الملك يأبى إنشاءَ الشركات(★) ، ولا أدرى من أين بلغك هذا ، وقد صرَّح لى وحدى أولاً ، وصرَّح لى مع وفد من المؤتمر ثانيًا ، أنه لا يأبى الشركات مطلقًا ، وإنما يأبى الشركات الأجنبية ، والتى يمكن أنْ تكونَ سببًا لتدخُّل الأجانب فى شئون البلاد ، ولعلَّك وقفتَ على ما قرَّره المؤتمرُ

(★) كان شاع أنَّ الملك السعودى يأبى قبول الشركات فى بلاده ولو كانت إسلامية ، فاستعلمنا عن ذلك ، وقلنا إن الشركات لأجل إصلاح أحوال المملكة من الجهة الاقتصادية ، وإنما الاحتياط لها بأن لا يكون فيها أجانب هو عين المصلحة ، فجاء الجواب من السيد رشيد بنفى خبر رفض الشركات ولو كانت إسلامية .

بعدُ فى هذه المسألة . (والثانية) وهى الأهم عندى لعدم جواز تأخيرها مسألةُ مجيئك إلى مكة وتسلُّمك أعمال المؤتمر ، لم يكن فى الوقت سعة عند إرسال كتابك الأخير مع كتاب لى فى البريد أكتب فيه شيئًا لصاحبنا ، وسأكتب فى البريد الآتى ، ورأيى أنْ يُرسل هو نفقة السفر(★) ، ولا حاجةَ إلى توصيته بالقيام بما يلزم مدة إقامتك فى مكة ، ولا حرج فى هذا ، فقد كان جميعُ أعضاء المؤتمر ضيوفَه ، وقد انتهت الثلاثة الأشهر التى ضربها المؤتمر لانتخاب أعضاء اللجنة التنفيذية من مصر وسوريا مع فلسطين والهند والحجاز ونجد ، ولم نسمعْ أنَّ أحدًا انتخب واللجنة المؤقتة لم تعمل شيئًا بل لم تجتمع كما أعتقده ، ومحاضر الجلسات كان يراد طبعها ، فقلت للملك ولرئيس المؤتمر وللسكرتير إنه لا يمكن طبعُها كما كُتِبَتْ لكثرة أغلاطها العربية ، فلا بُدَّ من تصحيحها أولاً ، ولم يبلغنى أنّهم صححوها ، وكانوا يريدون طبعها عندى ، فإذا ذهبتَ أنت إلى مكة يمكنُك العملُ مع اللجنة المؤقتة إلى أن تجىء اللجنة الثابتة إنْ كانت ستجىء ، وقد فاتنى أن أُذاكر[1] الملك فى شأن المؤتمر الآتى ، وسأكتب فى البريد الآتى كلَّ ما آراه واجبًا ، وأُكلِّف الشيخَ محمد بهجة البيطار بيانَ ما لا يكتب ، فهو يسافرُ بعدَ خمسة أيام مع الأمير سعود . أسلم على رفيقك وأُقبِّل نجلَك بالغيب تقبيلاً ، ودُمت لأخيك .

رشيد



وكتب من القاهرة فى 30 ربيع الأول 1345 و 7 تشرين الأول سنة 1926 :

سيدى الأخ الأميرُ :

وصل أول من أمس كتابك المختصر لى . . . إلخ . (إلى أن يقول) :

(★) وفى ذلك الوقت بلغ سموَّ الخديوى السابق أنى انتُدبتُ لأكون السكرتيرَ العام للمؤتمر الإسلامى فى مكة ، وكان فى الآستانة ، فأمر مستشارةَ عبد الله بك البشرى بأنْ يكتبَ إلىَّ بأن لا أُسافر إلى مكة قَبل أنْ يعودَ الخديوى إلى سويسرا ويقابلنى ويهيئ أسباب راحتى فى سفرى . . . وكان هو المتعرِّضَ لذلك من نفسه ، كما فعل فى أوقات أخرى ، وهو مشكور على البرّ بدون طلب ، ولكنَّ المنّ بعد ذلك يصيرُ فى غير مَحَلِّهِ .

(1) **ذاكره فى الأمر** : كالمه فيه . (المعجم العربى الأساسى : ذكر) ، والمعجم الوسيط لم يذكره .

قد علمتم أن وظيفة أو مهمة الأمير فيصل سعود شكرُ الدُّول التى اعترفت بحكومة والده فى الحجاز ، وإيطاليا ليست منهن . وإنما أتمنى لو يزور سويسرا ويلقاكم فيها وإن لم يزر إيطاليا ، على أنه يمكنه الإلمامُ بها بصفة غير رسمية ، فإن استحسن هو هذا فالمصلحة أن تكون زيارتُها بعد زيارتكم ، وأستحسنُ أنْ تدعوه أنت إلى زيارة سويسرا ، وسأسأل الليلة عن عُنوانه فى لندن ، فإنْ عرفتُه كتبتُ إليه ، بل تذكَّرت الآن أنّ الجرائد المصرية ذكرت أن ما بقى من مدته فى لندن لا تكفى لوصول كتابى إليه .

ظهر من محمد علىّ وشوكت علىّ بعد عودتهما إلى الهند أضعافُ ما رأيناه منهما بمكة ، وكانا يتوهمان فى مشايعتهما لابن السعود على الملك حسين أنهما سيكونان مسيرين له كما يريدان ، ويكون لهما النفوذ الأعلى فى الحجاز ونجد من كل وجه ، وقد أحدثا شِقاقًا جديدًا فى مسلمِى الهند ، هذا ما عنّ لى . وأنا مشغول جدًّا وعازم على إصدار جريدة أسبوعية ، سأطلب امتيازها من الحكومة ، والسلامُ عليك وعلى من معك من أخيك .

رشيد



وكتب إلىَّ فى 6 جمادى الأولى سنة 1345 و 11 نوفمبر 1926 :

سيدى الأخ الأميرُ :

إنى أُلقى إلىَّ كتابك الكريم رقم 30 أكتوبر منذ ثلاث فأرجأت الجوابَ عنه إلى مساء الخميس كالعادة . . . إلخ . (إلى أن يقول) :

أما المؤتمر الإسلامى فى الحجاز فسيعود ويعقد ، فقد عقد مسلمو جاوه مؤتمرًا مثلثًا فيه جمعياتهم كلُّها إلاَّ جمعيةَ العلماء الجامدين ، فزادت الجمعيات التى أرسلت إليه مندوبيها على أربعين ، وقرروا تأييد ملك الحجاز بعد ثناء عليه عظيم فى الجلسات ، وقرّروا جمعَ المال اللازم لمندوبى مؤتمر الحجاز ، وقد وعد بمثل ذلك الوفدُ الروسى ، وهو أصدقُ الوفود وأعلمُها ، وكان مؤيدًا للملك ، وكان رئيسه من أقدم أصدقائى . والظاهر أن الحكومة المصرية تواصل اشتراكها فيه ، وسأعود إلى الكلام مع سعد باشا

وثروت باشا فى ذلك ، وسيجيئنى فى الأسبوع الآتى أو الذى بعده ما يقرره مؤتمر الخلافة الهندى كما وعدت ، وموعد اجتماعه هذه الأيام بل الأسبوع الأول من نوفمبر ، وسترى تتمة الكلام عن الوفود فى المنار (جـ8) ، ولا بُدَّ أنْ تكون رأيتَ فى الجرائد المصرية فَشَلَ مؤتمرى لكهنو وبمبى اللذين عُقدا بسعى زعماء الشيعة .

لو كنتَ قرأتَ مقالاتى السابقة فى الوهابية والحجاز وغيرها من المقالات والفتاوى فى بدع القبور بمثل الدقة المعهودة منك فى قراءة كتب التاريخ والسياسة والاجتماع لاستغنيت بها عن بعض ما تسألُ عنه الآن ، ولما كتبتَ مقالتك المؤثِّرة المبكية التى نُشرت فى (كوكب الشرق) أخيرًا . ومن الغريب أن تنخدعَ أنت أنت أيها المؤرِّخ العظيم بالظواهر ، فتقولُ إن بناءَ القباب على القبور وتعليقَ القناديل عليها قد وقع منذ 13 قرنًا بمشهد من علماء الإسلام ولم يُنكروه ، مع أن هذه الشبهةَ قد أوردها بعضُ أئمة العلم فى رسالة له وأجاب عنها ، والرسالة طُبعت مِرارًا لروَاجها ، وسأُرسل إليك نسخةً منها ، وإن كانت نُشرت فى المنار مع رسائلَ أُخرى تعطيك عِلمًا تفصيليًا بهذه المسألة . ومن الضرورى أن تقفَ على العلم التفصيلىّ فيها لأنها دخلت فى طَورٍ عملىٍّ له شأن فى سياسة المِلة الإسلامية والأمة العربية ، وأنت مقتصد لنشر الاقتراحات فيها لا للمناقشات الخاصة فقط .

وأما الفرق بين قُبّة قبر النبى ﷺ وسائر القِباب المبنية على قُبور بعض الصحابة وآل البيت وغيرهم من الصالحين فقد بيَّناه فى المنار أيضًا ، ولا أُحيلك عليه بل أكتفى بأنْ أقول فى الفرق إن هذه القبة وإن كانت من ابتداع ملوك الأعاجم فى القرون الوسطى كغيرها إلا أنها لا تدخل فى وعيد قولِ ما قاله ﷺ بحقِّ اليهود والنصارى الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يحذر ما صنعوا - كما قالت عائشةُ رضى اللّه عنها راويةُ الحديث[1] ، فقبرُه - عليه صلوات الله وسلامه - لا يزال محجوبًا فى حجرته قَلّ أنْ يراه أحد أو يصلى إليه ويتمسح به ويطوف حوله ، والتحريم ليس منوطًا بالقباب لشكلها بل لجعل القبور معبودة وجعلها مساجد ومعابد لها ، والطَّوافُ عبادة ولكنها

---

(1) صحيح مسلم رقم : (529) .

خاصة ببيت اللّه ، فإذا جعلت لغيره كانت عبادة فاسدة لغير اللّه تعالى ، وستجد فى الرسائل التى أُرسلها إليك ما يغنيك عن الإطالة فى هذه المسألة .

وأما مسألةُ البيت الذى وُلد فيه صلوات اللّه وسلامه عليه وغيره من البيوت الأثرية التى ليس فيها مقابر وقد اتخذت معابد فهى أهون من مسائل المساجد التى على القبور . وقد رأيتُ البيت الذى يقولون إنه بيت المولد فرأيت مدخله مهدومًا بحيث يعسر الدخول إليه ، وباقيه لا يزال كما كان حتى قبته . وإننى على تأييدى لهدم مساجد القبور التى هى أضر من مسجد الضرار الذى نزل بشأنه القرآنُ قد قلت للملك بعد وصولى إلى مكة بأيام وقبل وصول محمد على وشوكت على اللذين أثارا مسألة القبور وغيرها - قلت له إننى لا أرى بأسًا بجعل بيت المولد وبيت خديجة (رضى اللّهُ عنها) مدرستين لتخريج المحدثين والدعاة إلى الإسلام ، وجعل زيارة الناس لهما مَنُوطَةً بإذن رسمىّ لا يُعطى إلا لمن يَعْرِفُ ، أو يُعَرَّفُ ، أَنَّ الدين الإسلامى لا يبيح لمسلم أنْ يطلبَ نفعًا ولا كشف ضرّ وراء الأسباب العادية إلا من اللّه تعالى وحدَه ، ويعد مَن يؤمن بأنَّ هذه البيوت أو غيرها تنفع أو تضرُّ مشركًا باللّه تعالى ، ولم يشرع لنا تعظيم بيت غير بيت اللّه ولا حجر غير الحجر الأسود . وإننا مع ذلك نعتقد أنهما لا ينفعان ولا يضرَّان أحدًا كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه عندما قبّل الحجر الأسود رافعًا صوته : إننى أعلم أنك حجرٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ ، ولولا أنّنى رأيتُ رسول اللّه ﷺ يُقبِّلك لما قبلتُك ، كما رواه عنه البخارى ومسلم وغيرُهما ورواه غيرُهما مرفوعًا إلى النبى ﷺ . . . إلخ . والمنى أنَّ تقبيلَه لمحض الاتباع .

فقال لا يمكننا ذلك بدون فتنة كبيرة إلا إذا أقنعنا به علماء نجد فاكتب إلىَّ ما ذكرتَ لأرسله إلى فلان وفلان وفلان منهم ، وأرجو أن أقنعهم بالموافقة فكتبتُه له ، وفى أثناء ذلك جاءت وفود الهند ، وملأ الأخوان المعلومان مكةَ بالقيل والقال فى مسألة القبور وهذه البيوت ، ونظمها فى سلك واحد ، وجعلها كأركان الإسلام والإيمان مع أنه لم يُؤْثر عن الصحابة ولا أئمة السلف شىء فى ذلك ، عند ذلك قال : إن هذه البيوت كالقبور ذرائع فتنة فى الدين لا يجوز أنْ تأخذَنا هوادةٌ فى منعها ولن تمنع الفتنة

إلا بمنع سببها . وتعليم الملايين من الحجاج وغيرهم حقيقة التوحيد وفروع الشرك لا تتم إلا فى دهر طويل ، على أننى لما أيأس منه .

وأما ما ذكرتَ من ترجيحك لسبب غضب الإمام يحيى وامتناعه عن عقد المحالفة مع ابن السعود ، وأنه ناشىء عن غضب قومه لهدم هذه الأماكن ، وأنّها أهمُّ عنده من مسألة القتلى اليمانيين ومن الطمع فى توسيع حدوده فى الشمال - فأنا مخالف لك فيه كلَّ المخالفة لأن يحيى عالم فقيه يعلم أنّ هذه المساجد على القبور بدع منكرة فى الإسلام ، وأنَّ قومه الزيدية ليسوا كالشيعة الإمامية فى هذه المسألة ، فهى ليست عنده أمرًا ذا بال يفضّله على مصالحه الحقيقية كضم تهامة اليمن إليه وكديات القتلى (أو التعويض على أهلهم كما يقال فى لغة محاكم مصر) ، والذى نعلمه علمًا صحيحًا أنّ الإمام يحيى ليس له أُمنيةٌ فى الدنيا أكبرَ من ضمِّ جميع بلاد اليمن وملحقاتها إلى ما بيده منها . وقد كنتُ كتبتُ له تقريرًا طويلاً فيما أراه من إدارة بلاد اليمن ومعاملة النواحى المستقلة منها والمحمية ومن التوسل لاعتراف أهل السُّنة له بالخلافة الذى يُرجى به إحياءُ منصبها . . . إلخ .

(إلى أن يقول) :

وأما قولك قبل هذا وذاك فى مسألة السُّنة والشيعة(★) من الجهة العامة فلا مجالَ معى ، بل لا وقتَ للبحث فيه ، وقد سعينا لتلافى هذا بالعمل لا بالقول فقط . ولكن لا يجوز دينًا ولا سياسة أن ينتصرَ الرفضُ الابتداعىّ على السُّنة فى الحرمين الشريفين . والسلام عليك وعلى نجلك النجيب ورفيقك فى الجهاد ، ولا زلت وليًّا ونصيرًا لأمتك وملتك ولأخيك المخلص .

محمد رشيد رضا



(★) كتبتُ إليه مرارًا بأنْ يَتَّئِدَ فى مسألة الشيعة تجنبًا لازدياد الشقاق ، ولكنه لم يكن يسكت عن بيان ما يعتقد .

وكتب إلىَّ فى 5 جمادى الآخرة 1345 و 10 ديسمبر 1926 :

سيدى الأخ الأميرُ

(1) إنى أُلقى إلىَّ فى أوائل هذا الشهر الشمسى كتابك رقم 25 نوفمبر ، وأهم ما فيه نبأ سفرك إلى أمريكا وطلبُك جوازَ سفر من الحجاز لك ولرفيقك الكريم إحسان بك ، ورغبتُك إلى أخيك هذا أن يكتب إلى الحجاز بطلب الجواز ، وقد أحسنتَ بما كتبتَ قبله إلى الدكتور محمود ، فعسى أنْ يكونَ كتابك إليه قد وصل بإدراكه البريدَ الذى يسافر من السويس إلى جُدة فى أول ديسمبر هذا ، فإن البريد يرسل من مصر إلى الحجاز 3 مرات فى الشهر ، وتبحر البواخر الخديوية التى تحمله فى 1 و 11 و 21 من السويس ، وهذا اليوم هو موعد أول بريد يرسل من القاهرة بعد وصول كتابك إلىَّ ، وسأكتبُ اليومَ مذكِّرًا بطلبك ومستنجِزًا له ، وعسى أنْ يصلَ إليك قبلَ أول يناير الآتى . وقد نَسِيْتُ ما كان خطر ببالى من طلب الجواز لكما من الوكالة الحجازية النجدية هنا ، ولعلِّى أذاكرها فيه غدًا .

وكان صديقنا الحاجُ أديب خير قد أخبرنى قبلَ وصول كتابك إلىَّ بما كتبتَ إليه فى شأن سفرك وعلاقته بطلبك لمؤتمر الحجاز ، وكلفتُه أنْ يكتب إليك بأن سفرك إلى أمريكا ضرورى جدًّا ، وأنه لا يعارض سفرك إلى الحجاز قبل موعد اجتماع المؤتمر الثانى ، ولا بد أنْ يكونَ كَتَبَ إليك بذلك ، وأنْ يكونَ كتابُه قد وصل . ومن الضرورى أن نعرف عنوانك فى أمريكا ، فإن لم يجئنا بيان له فسأكتب إليك بوساطة جريدة البيان إن شاء اللّه تعَالى .

(2) رأيتُ صديقَنا نسيم أفندى صيبعة راغبًا فى السفر إلى أمريكا ، وكنا من قبل تذاكرنا فى إرسال وفد من قِبل جمعية الإعانة السورية ، وكلفناه أنْ يكون من أعضائه فاعتذر مع استحسان إرسال وفد لأن الجمعية كان ثقيلاً عليها بذلُ النفقةِ للوفد ، أما وقد كتب إليه من قِبل جماعة المؤتمر الذى سيعقد فى مشيغن بالدعوة وكون النفقة عليهم فقد زال أكبرُ مانع ، على أنَّ فى ذهابه ، والحال ما ذكرنا ، تضحيةً وطنية كما

يقال فى عرف العصر لأن والدته العجوز تشكو أمراض الشيخوخة وآلامها ، ويخشى أنْ يكونَ قد اقترب أجلها . . .

(3) الذى أعلمه أن ابن السعود يحذر من النفوذ الأجنبى ما تحذر وأشد مما تحذر ، وهو من أطماع الدول أحذر ، ولكن عقد الاتفاق مع الدولة الجشعة لا يتفق مع هذا الحذر . وما أرى الإمام يحيى إلا قد فتح على نفسه باب الخطر ، ولم أكن موافقًا لرأيك كله فيما ناقشت به الكاتب العربى من هذه الجهة(★) ، ولا مجال الآن للخوض فى هذه المسألة ، وأما قولك إنك تحب أن يكون ابن السعود على وئام مع جميع الدول - فقد صرح هو بمثله لمراسل جريدة ألمانية ، وزاد فى الصراحة عند الكلام فى مسألة اليمن ما لم أكن أتوقعه منه ، ولعله قد عرض مقتضٍ له .

(4) أهم ما كتبت فى مسألة الرجل وحكومته بشدة الحاجة إلى أن يكون عنده بعض الإخصائيين فى السياسة . . . وليس هذا بالأمر السهل فقد كان كلفنى أن أختار له اثنين من الهند ، وكتبت بذلك إلى الحكيم محمد أجمل خان ، ولما يجبنى ، كما طلب منى أن اختار له سكرتيرًا عربيًّا لشخصه ، ولما أجد . وهو ليس كغيره يقبل كل من يواتيه من مؤمن وكافر وبر وفاجر . . . ويا ليتك ترغب فيما تنصلت منه فى الكتاب ، وهو الغرض الأول من السعى إلى وجودك فى الحجاز . والسلام عليك وعلى رفيقك .

رشيد رضا



وكتب إلىّ فى 25 جمادى الآخرة 1345 و 30 كانون الأول سنة 1926 :

سيدى الأخ الأميرُ

لدىَّ كتابان منك موضوعُهما واحدٌ ، وهو ثلاثُ مسائلَ :

(★) كان كاتب عربى انتقد عقد الإمام يحيى معاهدة مع إيطاليا ، فأجبته : إننا حيرنا ملوكنا : إن لم يعقدوا معاهدات مع الدول تعترف هذه فيها باستقلالهم قلنا : هؤلاء يريدون أن يلبثوا مشايخ قبائل مبتعدين عن المدنية . وإن عقدوا معاهدات مع الدول قلنا : هذه المعاهدات مع الأجانب عاقبتها دائمًا خطرة . فماذا تريدون أن يصنعوا ؟!

(1) الحجاز واليمن والإمامان ، ورأينا فيهما واحد يعرفه الإمامان .

(2) مسألة اللجنة التنفيذية والمفاوضة ، وما كتبتَه يدل على أنها وصلت مصورة بغير صورتها وملونة بغير لونها ، وإنّ لدينا فى مصر وسورية أفرادًا تجمعهم رابطةٌ معروفة يطعنون فى هذه اللجنةِ ويتمنَّوْن هدمها بغضًا للأمير ميشيل لطف اللّه ، وكراهة له وحده دون سائر أعضائها فيما أعلم . وحقيقةُ المسألة الأخيرة أنَّ زميلنا نجيب بك جاءنى واستشارنى فى إرسال برقية أو خطاب إلى موسيو بونسو يذكر فيه أنَّ اللجنةَ التنفيذيةَ كانت ، وما زالت ، تعملُ لإقرار الأمن والعِمران فى سورية ونيل حقوقها القومية (أو ما هذا مؤداه وحاصله ، وهو تمهيد) وأنها بناء على هذا خاطبت موسيو جوفنيل بما خاطبته به . ثم دخل وفدها فى أوروبا فى المفاوضات التى دارت فى باريس ، ثم وقفت ، وعهد إليه هو درس المسألة السورية . . . فإذا كان يرى أنه قد آن الوقت لاستئناف تلك المفاوضات على أساس السيادة القومية السورية ومصالح فرنسا الحقيقية فاللجنة مستعدة لذلك . هذا ما أتذكره من ملخص الاقتراح الذى استشارنى فيه نجيب بك . قلت له : إننى أرى أنَّ مسيو بونسو لا يُجيب اللجنةَ ولا يدخل معها فى مفاوضة ، فما فائدة الكتاب إليه ؟ قال فائدته تبرئة اللجنة مما يرمونها به من أنها هى المحركة للثورة والقائمة بنفقاتها عداءً لفرنسا ، وأنها هى تعارض فى الصلح . وأقلُّ فائدته أنه احتجاجٌ عليهم ببراءتها مما يتهمونها به ، حتى حملَهم ذلك على الكتابة إلى وزارة الخارجية المصرية بوجوب نفى أعضائها السوريين أو منعهم من أعمالهم الإفسادية . وقد كان بلغنى هذا الخبرُ الأخير من قبل وخبر مخاطبة فرنسا للمندوب السامى البريطانى بمثل ذلك . قلت : هذا التعليلُ الأخيرُ مقبولٌ . ثم اجتمعت اللجنةُ وقرَّرت صورة ما يكتب بعدَ بحث ومناقشة ، وخالف أسعدُ أفندى داغر فى ذلك وطلب تأجيلَ إرسال الكتاب لزيادة المناقشة فيه ، وبعد خروجه أرسل برقية بأنه يَعُدُّ نفسَه مستعفيًا إذا أُرسل قبل العود إلى المناقشة فيه . فطلَبتْه اللجنةُ وسألته عن السبب ؟ قال : إنه لا حقَّ للجنة فى طلب المفاوضة ، وما كان من مفاوضة جوفنيل أو عرض المطالب عليه ، ثم ما كان فى باريس هذا العام لم يكن

باسم اللجنة . . . فقلنا له : إنَّ اللجنةَ لها الحقُّ فى المفاوضة وفى كل سعى سياسى لأنها سياسية ، ولكنْ ليس لها الحقُّ فى إبرام أىّ اتفاق يخالف قواعد مؤتمر جنيف ، ونحن إذا فرضنا أنَّ الرجل فاوضنا ، وهو ما لا نظنه ، فإننا نبلّغ ما تنتهى إليه المفاوضةُ إلى زعماء البلاد . . . أَو نطلب عقد مؤتمر له ، ولا نبرم باسم اللجنة شيئًا لأنه لا حقَّ لنا فيه ولا نضمن رضاء البلاد به . . . فرضى بذلك ، ولكنَّه أخبرنا أنه كان كتب إلى لجنة حزبه(★) بما وقع منه وطلب رأيها فيه ، ولم يأته منها شىء ، وسيكتب إليها ثانية بما حصل .

فأنت ترى أنَّ اللجنةَ التنفيذيةَ لم تَفْتَئِتْ على أحد من الزعماء ، ولم تهضِم حقَّ حزب من الأحزاب ، ولم تقصد الاستئثارَ بسياسة البلاد ، وأسعد أفندى قال إنَّه لم يتكلم بما حصل أمام أحد من الناس ، ولم يُطلع على كتابه للجنتيهم فى سورية أحدًا غيرَنا . ولكنّنا رأينا اللغط فى مسألته كثيرًا . وكتب السيد جمال الحسينى إلى لجنة مصر كتابًا يسألها فيه عن الشقاق الذى وقع والمخالفة لمؤتمر جنيف المقدَّس ؛ كتب هذا باسم لجنة فلسطين التنفيذية ، وكتبتَ أنت ما تعلم . ولو شئتُ أنْ أكتبَ إليك ما أعلم من حال الذين يُثيرون أمثال هذا اللغط والسَّخَط وحال حزبهم لأضعتُ وقتًا ثمينًا يجدّد جدالاً أو بحثًا يأكل وقتًا أطول من الأول بدون فائدة ، ولا شىء أثقلَ على نفسى من الكتابة فى الأمور الشخصية وكذا الحزبية، ولا سيما أحوالُ أشخاص هم من أصدقائى وحزب هو حزبى .

(3) كتاب المرحوم مختار باشا ، ما أظنُّ أنك أحرصُ منى على ترجمته ونشره بالعربية ، فإذا كان الحرص القلبى واحدًا ، فالعمل من جنس عملى الذى وقفتُ عليه حياتى . وأنت تعلم أنّنى طلبتُه من محمود باشا مختار عندما التقينا به فى ميونيخ ، فوعدنى بأن يُرسله إلىَّ من الآستانة متى عاد إليها . . . ثم علمتُ أنه قد سبقنى إلى أخذ الإذن الرسمى منه بترجمته بالعربية عبدالغنى سنى بك الذى كان هنا ، وهو الآن قنصل جمهوريتهم فى بيروت ، هو أخبرنى بذلك ، وعرضتُ عليه ثلاثين جنيهًا أجرة

(★) كان أسعد أفندى داغر يمثل فى اللجنة التنفيذية حزب الاستقلال العربى فيما أتذكر .

الترجمة فلم يقبل إذ كان يريد ترجمتَه وطبعَه على نفقته . ثم كلمت الدكتور شرف الدين بك التركى المشهور فى إقناعه ، فسافر قبلَ أنْ يتم ذلك ، ولعلى أنْ أكلم الدكتور أنْ يكتبَ إليه يسألُه ماذا فعل بالكتاب هل ترجمه أم لا ؟ وماذا يريد أنْ يفعلَ ؟ فإنْ كان صرف همَّه عنه فإنَّنى أطلبُ من محمود باشا مختار إذنًا آخر بترجمته لئلا نكلّفَ أحدًا ترجمتَه ونطبعُه ، فيقيم علينا عبد الغنى سنى بك قضيةً إذ نحن لم نأخذ إذنًا رسميًّا من صاحب الشأن بذلك .

هذا ، وما أظنُّ أنَّ مُحبَّ الدين أفندى يقدِر على ترجمته لأنّه لم يدرُس شيئًا من العلوم الرياضية والفلكية ، ومعرفتُه بالتركية لا ترتقى إلى ترجمة هذه الكتب الفنية كما أظن ، ومتى صار لنا الحق فى ترجمته ونشره ننظر فى ذلك .

أرجو أن تبلغوا تحيتى لصاحب جريدة البيان المفيدة ، وتسألوه ما فعل بمطبوعاتنا التى أرسلناها إليه ؟ ولا زلتم سالمين موفَّقين لخدمة الأمة والملة .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 9 ذى الحجة الحرام 1345 و 9 حزيران سنة 1927 :

صديقى الأمير الكبيرُ

أُحييك تحية مشتاق عاتب ، وأُهنئك بعيد النحر المبارك ، وأسأله تعالى فى هذا اليوم الشريف يوم عرفةَ أنْ يُقرّ عينَك بنجلك ، ويقرَّ عينَ أمتك بجهادك ، ويجعلَه خيرَ خلف لك ، ولنا مثل ذلك ، وأنْ يعفو عن هذه الأمة العربية ، ويغفرَ لها إسرافَها فى أمرها ، ويَعْجَلَ بإتمام عقوبتها بأنْ يلهمَها التوبةَ والإنابة ، فإنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرتفع إلا بتوبة ، كما قال العباس ﵁ ، وذنوب هذه الأمة كثيرة ، ومِن شرِّها الأثرةُ والتخاذلُ والجنون بحبّ الرياسة(★) .

(★) وهذا من أعظم الحِكَم التى قالها السيد رشيد فقد كان يعرف أمراض الأمة العربية ، ويعرفُ أنَّ أَقْتَلَها (أشدها فتكًا) الحسد والنفاسة والجنون بالرئاسة .

أُلقى إلىَّ كتابُك الأولُ بعدَ سفرك إلى أمريكا وعودتك إلى أوروبا ، وكنتُ أتنسّم أخبارَك مِن صاحب جريدة الشورى ، وآنسَ بما يُنشر عنك فى جريدة البيان ، وطالما مَنَّيْتُ نفسى بكتاب يَذهب بالوحشة كلِّها وأعرف منه أهَمَّ ما يَهُمنى من حال الجالية العربية المحمدية ، وهو قَدْرُ ما يُرجى من تغذية القضية السورية وكُنْهُ ما يُنتظر من تأييد الوحدة العربية . وقد علمتُ من كتابك أنَّ أُمنيتى هذه كانت تجولُ فى نفسك وتحوم حول عزمك ، ولكنْ كان نصيبُها الإرجاءَ لا الإهمالَ ، ولولا الطورُ الجديد للمسألة السورية فى باريس لكانت موضوعَ الكتاب الأول الذى هو أمامى الآنَ .

قرأتُ شرحَك للمسألة ، والأمرُ الجديدُ فيها تَدَخُّلُ أَخَوَىّ(★) الأمير ميشيل لطف اللّه[1] فيها بالصفة التى ذكرتم . والذنب فى تفاقمه على أخوينا إحسان بك ورياض بك ، فقد تحمَّلا من الأثقال ما تحمَّلا عِدَّةَ أشهرٍ ، ولم يكتبا إلى اللجنة بشىء من ذلك . ثم بلغنا أخيرًا أنَّهما كتبا بعض مكتوبات خاصة يتذمّران فيها ، وجاءَنى الأمير أَمين(★★) فقرأَ علىَّ مكتوبًا منهما خصنى به (ثم قرأه لكثيرين) فقلت له : إنْ كان سببُ حاجة أخوينا إلى المساعدة على النفقة فهذا أمر هيّن يمكننا أنْ نقومَ به بسهولة ، وذكرت ذلك للحاجّ أمين الحسينى عندما جاء لحضور حفلات شوقى ، فقال : وأنا أُساعدكم على ذلك . وفى أثناء ذلك جاء كتاب من الأمير جورج إلى أخيه ذكر فيه أنه قدم كذا

(★) عندما قَفلتُ من أمريكا وصلت الباخرةُ بنا إلى مرسى شر بورغ من فرنسا فإذا بالأخوين إحسان بك الجابرى ورياض بك الصلح ينزلان إلى الباخرة ويُريداننى على النزول منها والذهاب إلى باريس ، فقلتُ لهما : لا أقدِر أنْ أذهبَ إلى باريس بلا إذن الحكومة الفرنسية ، فقالا الآن يأتيك الإذن ، ثم حضر مأمور وأعلم (وضع علامة) على تذكرة جوازى ، فذهبتُ وزميلىّ إلى باريس ، ووجدت الخلاف واقعًا بين الزميلين وأخَوَىّ الأمير ميشيل لطف اللّه اللذين كانا يتدخلان دائمًا فى مسألة سورية حتى اعتقد كثيرٌ من ساسة الفرنسيس أنه لولا آلُ لطف اللّه لم يكن شىء اسمه القضية السورية ، وحتى صرَّح بوانكاره نفسه بذلك . فمن أجل هذه الحالة وقع الخُلْف (الخلاف) بين الوفد السورىّ الفلسطينىّ وآلِ لطف اللّه وآلَ إلى شقاق بعيد بين السوريين الوطنيين ، وكان ذلك مؤسفًا .

(1) هو **ميشيل بن حبيب بن جرجس لطف اللّه** (1297 – 1381 هـ / 1880 – 1961 م) وجيه كان له نشاط سياسى أيام الثورة السورية (1925م) ، ولد بالقاهرة وبها توفى ، كان والده تاجرًا ، واشترى قصرًا كان يملكه الخديوى إسماعيل ، أنشأ مكتبًا فى القاهرة للعمل للقضية السورية ، وترأس مؤتمر جنيف سنة (1926) ، وقد أعرض المجاهدون عنه لما علموا أنه يسعى لإمارة سورية . (السوريون فى مصر : 12 ، 17) .

(★★) ابن عمى الأمير أمين المصطفى أرسلان .

وكذا ، وهى الأصول أو القواعد التى كان الأمير ميشيل يذكر لنا أنها هى التى يمكن إرضاء فرنسا بها مع إيضاحات لها من إحسان بك ، فاستأنا ، وكنتُ أنا أشدَّ استياء من غيرى ، ولكنّنا رأينا الأمير ميشيل غيرَ مستاء بل رأيناه مستحسنًا للمطالب والقواعد ، وإنما جارانا فى استيائنا فى أمر واحد ، وهو تقديم ما قدمه بدون استشارة اللجنة التنفيذية . ونحن انتقدنا فوق ذلك أننا لم نعلم بما أَقدَم عليه مُفتاتًا[1] علينا إلا ممن هو غريب عن الوفد وعن اللجنة أى ليس منها ، وهو الأمير جورج ، وانتقدنا من الموضوع أنه اعترف فيه بلبنان الكبير بُرمَّته ، وأنّ هذا عين ما يتهمون أولاد لطف اللّه بالسعى له لهوى لهم فيه[*] وانتقدنا منه أنّ فيه افتياتًا على زعماء الثورة بأنهم يقبلون العفو المقيَّد باستثناء ثلاثة منهم ، واقترح الأكثرون إرسالَ ردّ شديد اللهجة كما يقال . وطلب الأمير ميشيل المناقشة فى المطالب أو القواعد محاولاً إقناعنا بها كلِّها أو بما دون استثناء ثلاثة من زعماء الثوَّار من العفو فيما يظهر . وربما كان هو وآخرون يظنّون أنَّ أولئك الزعماءَ أنفسهم يرضون بالاستثناء المؤقت لضعفهم وعدم إمكان تجديد نشاط الثورة لقلّةِ المال وتكافلِ الإنجليز مع الفرنسيس فى مطاردتهم . فأَوَّلُ ما تناقشنا فيه مسألةُ الوحدة وتأليفُها من سوريا ولبنان الكبير مع التحفظ باستثناء ملحقات لبنان . . . إلخ ، فعارضتُ أنا والأمير أمينُ فَرَجَحَ رأيُنا . . . وما أرى إلا أنكم علمتم بكل ما جرى ، وإنما ذكرتُ لكم هذه المسألة لتعلموا أنَّ الأمير ميشيل ليس صاحبَ الرأى الراجح دائمًا فى مسائل الخلاف ، وأنّ هذه المسألةَ التى غُلب فيها كان قد ذكرها واحتجّ بكلّ ما فى قدرته لإقناعنا بها فى جلسات كثيرة لا يسهل علىَّ تقديرُ عددِها . ومما علمتموه أن الذى وضع صيغة برقية الرد والاحتجاج على الوفد هو ابن عمكم ، وأن أبعدَ الأعضاء عن لطف اللّه هم الذين اقترحوا زيادةَ التشديد فى الإنكار على الوفد ، فقد أخبرنى الأمير أمين أنه بلَّغكم ذلك ، وأزيدكم أنَّنى لم أُوافق على تشديد الإنكار .

وجملةُ القول أنَّ الوفدَ أو أَخَوَيْنا إحسان بك ورياض بك كانا ضعيفين أمام آل لطف

---

(1) **افتأت عليهم برأيه** : انفرد به واستبدّ ، وقد تسهل الهمزة (افتات) .

(★) فإنه فيما بعدُ سعى الأمير جورج لطف اللّه فى أنْ يكونَ رئيسًا لجمهورية لبنان كما يعلم ذلك الجميع .

اللَّه ، ولم يكونا يُراجعان اللجنةَ ، ولعلَّهما كانا يظنان أنَّ اللجنةَ لا تَنصرهما فى شكواهما أو لا تُشْكِيهما[1] لأنّ موقفَهما مع رئيسها كموقفهما مع أخويه . وليس الأمرُ كذلك ، وها هى ذى قد أَبْرَقَتْ إليهما(★) بأنهما هما النائبان عنها دون غيرهما ، وأنَّ رئيسَها صرَّح بأنه ليس لأخويه صفة رسمية فى اللجنة ، ولا الوفد ، وإنما ساعدا الوفدَ مساعدةً خارجية بصفتهما الوطنية . وصرّح له الأميرُ جورج بأنه يعد سعيه قد انتهى . تقولون : نعم قيل هذا ، وأبرقت اللجنةُ للوفد بما تقدَّم ، ولكنَّ الواقعَ أنَّ أخوى لطف اللَّه لم يتركا ، ولن يتركا ، سعيَهما لأنه سعى شخصى أو « عائلى » ، ونحن نقول : إنه ليس لِلّجنة سلطان عليهما ولا على الحزب المتفرنس وغيره من المخالفين ، ولا يُطلب منها أنْ تَنصر الوفدَ عليهما بأكثر من إعطاء الحجّة الصريحة بأنه هو النائب عنها وحدَه ، وما طلب الوفد بعدَ عودتكم من المطالب فى برقيته المعلومة(★★) لم يوافق عليه أحدٌ من الهيئة الأخيرة الكبيرة وأكثر أعضائها أقرب إليكم من آل لطف اللَّه قطعًا لأنه شديد جدًّا مع عدم الحاجة إليه ، ومما يقضى إلى شقاق بما فيه من الإهانة للرئيس بلا مقتضٍ ولا مبيح ، ولأنَّ هذا الشِّقاقَ أنفعُ لجميع خصوم قضيتنا ويسعَون له سعيَه .

وأما مسألة حَصْرِ العمل فى اللجنة التنفيذية أو توحيده فيها وفى الوفد « وهو منها لم تنكر ذلك قط » فقد رأيتُك يا سيدى مبالغًا فى أول الأمر فى استكبارها واستنكارها ، ثم علمت من كتابك ما لم أكن أعلم من سبب ذلك ، وهو عمل أولاد لطف اللَّه المبنيّ على أنّهم يعدُّون اللجنة آلة بيدهم ، أو يعدُّون جعلَها مناطَ الوحدة للمساعى السياسية يقتضى أن تكونَ رياسَة ذلك لهم . وهذا الأخير هو الوجيه وحدَه ، ولكنه لا يُقاوَمُ بتلك البرقيات التى أُرسلت إلى اللجنة وإلى بعض الأفراد وأنا منهم .

---

(1) أى : تزيل شكواهما .

(★) أى : إلى إحسان بك ورياض بك .

(★★) بعد وُصولى أنا من أمريكا إلى باريس اجتهدت فى التأليف بين زميليَّ المشارِ إليهما وبين أخوَى الأمير ميشيل ، فتعذر ذلك بسبب إصرار هذين على التدخل ، وعندها انضممتُ إلى زميلى وأبرقنا بشدّة إلى اللجنة بمصر طالبين تنحى رئيسها الأمير ميشيل .

مركز الوحدة للأعمال السياسية ضرورىّ كالأعمال الحربية وغيرها ، إذ لا يُمكن الرجوعُ عن العمل إلى جهات مختلفة ، بل هذه القضيةُ لاتحتاج إلى تعليل ولا إثبات . واللجنة قد صارت موضعَ ثقة الأحزاب والهيئات الجديدة حتى رجال الثورة والحزب الوطنى الكبير الذى فى أمريكا فإنه قد أعطى توفيق(★) توكيلاً رسميًا بأن ينوبَ عنه فى اللجنة ، وقد بلغك ، ولا بد ، ما أَرسله زعماءُ الثورة كلُّهم من توكيل أعضاء اللجنة التنفيذية مع آخرين كثيرين ممن فى مصر وغيرها ، وأنّ اللجنة لم تحفُل بذلك بل اقترحت على الذين فى مصر أنْ يختاروا أربعةً منهم تضمهم اللجنةُ إليها بشرط أنْ يأتوا بتفويض آخرَ خاصٍّ بهم ، ففعلوا إلى آخر ما تعلمه . ويقول الثقات من أصدقائنا الذين يعرفو رجال الثورة وقابلوهم فى هاتين السنتين مرارًا إنَّ أخذ التوكيلات منهم سهلٌ جدًّا ، ومنهم الحاج أديب خير الذى قال هذا بعدَ قراءَة كتابك عليه ، وعند اللجنة توكيل قديم من سلطان باشا .

ليس هذا كلُّه بالذى يحتاج إلى البحث فيه ، ولكنَّ المهم الذى توجهتْ كلُّ العناية إليه أن لا يكونَ الفصلُ فى الخلاف والوفاق بين فرنسا وسورية بيد الأمير لطف اللّه ولا بيد هيئة تتولى المفاوضاتِ والفصلَ برياسته . وأما هدمُ اللجنة التنفيذية فليس من غرضكم ، وإذا كان الأمر كما ذكرت فهو ممكن بدون هذه البرقيات التى هاجمتم بها لطفَ اللّه واللجنةَ معًا : اللجنةُ فوّضت إليكم أمر السعى والمفاوضة لحلِّ عقدة القضية ، ولم تشترط إلا مشاورتَها فى الشروط الأساسية ليكونَ التكافلُ على علم وبصيرة ، فإذا تيسّر لكم الاتفاقُ مع فرنسا على ما ترضَونه ، ورأيتم أنه لا ينفذ إلا باتفاق اللجنة عليه فاللجنةُ يمكن أن تُقرّر ما تراه من قَبول وغيره بدون اشتراط دخول لطف اللّه فى المفاوضة رئيسًا ولا مرءوسًا ، وإذا رأيتم أنّه يُمكن تنفيذُه بدون مواطأة اللجنة لكم عليه فلكم حينئذ أن تُبرموه بدون إعلامها به إذا كنتم لا تَنطقون فيه باسمها ولا تعملون بالنيابة عنها ، وإذا أحببتم فى هذه الحالة إعلامَها به وطلبَ رأيها من باب المجاملة فإبعاد لطف اللّه عن الرياسة فى ذلك يكون بيدكم شاءت اللجنة أو أبت .

(★) أى اليازجى الذى كان ذهب إلى أمريكا عندما كنا فيها أنا ونسيم أفندى صُبيعة .

ولا أقصدُ بهذا الكلام الحجاج ، وإنما جرى القلم بما جرى به من غير تفكّر ، وإنما المهم الذى هو فصلُ الخطاب أنَّ منعَ الأمير ميشيل من رياسة المفاوضات وبتَّ أمرِ الصلح فى مسألة سورية ممكنٌ . وهذه المهاجمة العلنية له ولأخويه قد تكون مُعَسِّرة لذلك لا ميسِّرة ، بل تكون على الأقل سببًا لِشقاق ضارٍّ لا نافعٍ ، ونحن نعلم أنَّ خصومنا الوطنيين والأجانب يسعَون له سعيَه ، وهو غيرُ لائق بالرجال أيضًا إلا عند الضرورة ، ولم نصل إليها .

إننى أشكُّ بل أُرجِّحُ أنَّ فرنسا لا تَبنى البتَّ فى مسألة سورية على مفاوضات بينها وبين اللجنة ووفدها ، وأن كلَّ ما تستطيعون من الخدمة فى فرنسا هو إقناعُ بعض الرجال أولى النفوذ بما هو خير لسوريا ولسوادها الأعظم ، فإنْ فرَضْنا ضدَّ ما أُرجّحه واقتضت الحالُ أنْ ترسلَ اللجنةُ أعضاءً آخرين لمشاركتكم فى المفاوضات فإنَّ من السهل علينا أنْ نختارَ هؤلاء الأعضاء ممن يكونون على رأى جماعتكم فى انتخاب الرئيس ، ولطف اللّه لا يُسافر مع هؤلاء الأعضاء إلا إذا كان مُوقنًا بأن الرياسة تكون له .

وخلاصةُ الخلاصة أنَّ رأى أخيك أن لا تجعلوا للأمير جورج والأمير حبيب أدنى شَرِكة[1] لكم فى العمل ، وأن تُفهموا رجال فرنسا ذلك ، ولكنْ بدون إهانة ولا شِقاق . وإذا جاورُونا فاعتقدْ أننا لا يعبث بنا أحد . ويمكننا أنْ نقومَ بنفقة من نختار ، وإن احتيج فى الأمر إلى إرسال أحد حتى لا يكونوا تحت تأثير أحد فهوِّنْ عليك الأمر ورجحْ الرفقَ على العنف ، ففى الحديث الشريف : « ما كان الرفق فى شىء إلا زانه »[2] . وأرجو أنْ تتفضل علىّ بما عندك فى المسألة العربية . والسلام عليك وعلى رفيقك ونجلك النجيب من أخيك المخلص .

محمد رشيد رضا

---

(1) مشاركة .

(2) **انظر** : مسند الإمام أحمد : (6/ 206) ، وإتحاف فضلاء البشر : (8/ 48) .

حاشية :

بلغنى ما أبرقت به للدكتور شهبندر[1] فتعجبت من ذلك كغيرى والدكتور أقربُ إلى لطف الله منك[★] ، ونحن هنا قد عقدنا ميثاقًا حضره هو وَمَن كان بينه وبينهم شِقاقٌ بعيد ، وهو يسعى هنا لأخذ إذنِ من الحكومة المصرية بالعودة إلى مصر متى شاء أنْ يرجع من أوروبا ، ولعلّه إذا لم يتم له ذلك يذهب إلى أمريكا لجمع الإعانات .



وكتب إليَّ من القاهرة فى غُرَّة المحرم 1346 و 30 حزيران 1927 :

سيدى الأخ الأميرُ

بارك اللّه لنا ولك فى هذا العامِ الجديد ، ووفقنا فيه لخير مما وفقنا له فيما قبلَه ، وقد وصل أولَ من أمس كتابُك المرسَلُ من لوزان ، وهو مرجوع كتابى وبطاقتى الجوابيين ، وقد رأيتُ فى هذا الكتاب من شدّة حِدّتك ما لم أَرَهُ فى كتاب قبلَه حتى إنك لخصت كتابى وبطاقتى بما لم أَرْوِه ولم يخطر ببالى . فإنْ كان كلامى يدلّ عليه فلا شكّ أنّنى كتبتُ ما لم أفهم ، وقد بدأتُ بكتابة هذا الرد وكتابك ليس عندى ، فإننى أعطيتُه فى جلسة البارحة فى اللجنة للأخ خير الدين أفندى الزركلى[2] ، وعهدتُ إليه أنْ يجيئنى مساءَ اليومِ بعدَ خروجه من مطبعته لنكتب إليك كتابًا مشتركًا نُبين فيه رأى جمهور الإخوان هنا فى اللجنة وفى لطف اللّه وفى الحال الحاضرة .

وإنّنى أسبق فأقول من قِبَلِ نفسى إنّنى كتبتُ إليك أننى لا أرى أن بيننا خلافًا فى

---

(1) **عبد الرحمن بن صالح شهبندر** (1269 – 1359 هـ / 1882 – 1940 م) طبيب ، من أهل دمشق ، دخل جمعية (الاتحاد والترقى) ثم تركها ، عين وزيرًا للخارجية السورية 1920م ، فرّ من الفرنسيين إلى جبل الدروز ثم إلى الأردن ومنها إلى القاهرة 1927م ، عاد إلى دمشق وقتل فى (عيادته) سنة 1940م . (الأعلام : 3/ 308) .

(★) كان الإبراق لا منى بل من الوفد السورى الفلسطينى وأنا منه .

(2) هو صاحب معجم (الأعلام) (1310 – 1396 / 1893 – 1976 م) ولد فى بيروت ، وتوفى بالقاهرة ، عضو فى مجامع دمشق والعراق ومصر ، وعمل وزيرًا مفوضًا للسعودية ، ومندوبًا دائمًا فى جامعة الدول العربية . (الأعلام : 8/ 267 – 270) .

« المقاصد » الوطنية ، ولم أنفِ الخلافَ فى الوسائل ، ورأيتُك لم تقبل هذا القولَ ، بل جزمت بأنَّ الخلافَ عظيم بناء على ما استنبطتَه من كتابى وبطاقتى فى تلخيصك الذى ذكرتُه آنفًا . وذكرتُ أنه لم يخطر ببالى على الوجه الذى ذكرتَه أنتَ وعلَّلته بما علّلته به ، وهو من قَبيل ما يُسميه علماء المنطق : اللازمُ غيرُ البيِّن . والمعتمد عند علماء الأصول أنَّ لازمَ المذهب ليس بمذهب ، فإن أَصْررتَ على أَنَّ تلك اللوازمَ مذهبٌ لى وأن الخلاف بيننا فى المقاصد واقع ما له من دافع فلك حكمُك فيه ، ومن ذا الذى يستطيعُ ردَّ الواقع ولا سيما عند غيره ؟

أما جوابى عن كلامك فى اللجنة التنفيذية فهى أنها شىء ، وليست كلَّ شىء ، وحرصُها على توحيد العمل السياسىّ للقضية الوطنية فيها مع اعتبار أن الوفدَ منها هو عين المصلحة . ولا يستلزم أنْ يكونَ زعماءُ الثورة ليسوا بشىء ، ولا أنْ يكونَ الحزب الوطنى ، ذو الفروع الكثيرة فى الولايات المتحدة ، ليس بشىء ، ولا أنْ يكونَ وُجهاء الوطن فى بيروت وطرابلس وغيرهما ليس بشىء . إن هؤلاء أشياءُ ، ولكنّهم لم يعملوا فى الماضى ولا يُرجى أنْ يعملوا الآن ما عملتَ وما تعملُ اللجنةُ التنفيذيةُ .

لِلّجنة التنفيذية نادٍ ومكتب فيه جميع المستندات السياسية المتعلِّقة بالقضية السورية مرتبةً منظمةً ، وفيها كُتّاب ومترجمون وآلات كاتبة ، وكانت ، ولا تزال ، مصدرَ الدِّعاية السياسية السورية الوحيد ، وتقاريرُ عُصبة الأمم تشهد لها بهذا . وثَمَّ شهادة أُخرى لا تُنْكَرُ قيمتُها وهى تبرُّم فرنسا بها وطعنُها وطعنُ جرائدها فيها منذ أُنشئت إلى عهد هذه الهدنة التى ربما حان انقضاء أجلها .

وإننا يا سيدى لم نستغن عن هذه اللجنةِ ولا نحن بقادرين على أنْ نستبدلَ بها مثلَها فى نظام مكتبها ومستنداته ، ولا أَعُدُّ مكتبَ الاستعلامات الذى حقّرت أمرَه من أكبر أعمالها ، بل هو أهونُها .

إن الطريقَ القانونى الوحيدَ لحلِّها وانتخاب لجنة أُخرى هو جمعُ مؤتمر سورىّ يملك ذلك بقرار مؤتمر جنيف ، وقد فكّرنا فى هذا ، وتكلّمنا فيه مِرارًا ، ولم نستطع

إليه سبيلاً . وقد كدنا نظنُّ من عهد قريب أننا وجدناه على طرف الثُّمام بعد أنْ جاء الدكتور شهبندر ، فإنه جمعَ جماعة أسَّسوا حديثًا حزبًا جديدًا أسمَوْه حزبَ الشعب وأفرادًا من غيرهم ، وقرّروا برأيه أنْ يطلبوا من اللجنة تعيينَ مَن يمثلهم فيها باسم هذا الحزب وحزب العهد الذى كان أُسس فى الآستانة من الضباط واسم التجار كما قبلت أربعة أعضاء يمثلون زعماء الثورة ، ولما كانت هذه الأحزاب غيرَ معروفة لدى اللجنة - ولا غيرها - وكان ردُّ طلبهم كقَبوله ليس من المصلحة اقترح بعضنا أنْ يجتمعَ جميعُ المنتمين إلى هذه الأحزاب من قِبل المقترحين ، ويدعى معهم جميع من فى القاهرة من وُجهاء السوريين للبحث فى المسألة ، ففى هذه الحالة تكلمتُ أنا وأسعد أفندى داغر بأنْ نقترحَ تسمية هذا الاجتماع مؤتمرًا سوريًا عامًّا ، يقترح عليه حل اللجنة التنفيذية وانتخاب لجنة أخرى يحدد المؤتمر وظائفها ، ولكنّ المحركين لذلك وعلى رأسهم الدكتور شهبندر عرض لهم ما صرفهم عن غرضهم ، ولم يتيّسر لأحد جَمْعُ ذلك العدد الكثير الذى يزيد أفراده على 120 رجلاً .

على أنّ اللجنة نفسَها قد سبق لها السعىّ لعقد مؤتمر جديد يقرر انتهاء وظيفتها التى ناطها بها المؤتمرُ الأولُ ، ويقرّر ما يراه فى المسألة السورية ، وكتبتَ تطلب إرسالَ مندوبين من كلّ حزب وكلّ بلد ، فلم تُجَبْ إلى ذلك . فمن العجائب أنْ تظنَّ أنَّ عقد المؤتمر أمرٌ سهل تقدِر عليه اللجنةُ ، وأنه لا يمنعها من عقده على شدّة الحاجة إليه إلا أنه يغيظ لطفَ اللَّه ، أنا لم يخطر فى بالى هذا ، ولا أعتقد أنّ لطف اللَّه يغيظه عقدُ مؤتمر جديد ، وسبب ذلك أنَّهُ لا يعتقد أنّ المؤتمرَ الجديدَ يكون عليه ضدًا وله خصْمًا .

وأما قولُك لا سبيلَ إلى أنْ تكتب اللجنة إلى الحكومة الفرنسية بكذا[★] . . لأنّه يغيظُ لطف اللَّه ، ولا سبيل إلى تخلى لطف اللَّه عن الرئاسة لأنه لا يجرؤ أحد فى

(★) كنت اقترحتُ على اللجنة أنْ تكتب إلى الحكومة الفرنسية بأنَّ ظنَّها كونَ لطف اللَّه هو مَبْعَثَ القضية السورية ظنٌّ فى غير مَحَلّه ، فالقضيةُ السورية مُنبعثة من الشعب السورىّ المطالب بحقّه فى الاستقلال لا يتزحزح عنه .

اللجنة أن يطلبَ هذا الطلبَ ، فكلاهما فى غير مَحَلِّه وهو طعنٌ فى اللجنة بغير حقّ .
والصوابُ أنَّ اللجنة لا تعتقد أنّ حلَّها مصلحةٌ للوطن بل لعدو الوطن ، ولم يوجد سببٌ يُقنع اللجنةَ بأنْ تكتبَ للحكومة الفرنسية ما ذكرت .

عود على بدء مساء 8 المحرم - 7 يوليو

كتبتُ ما تقدَّم ولم يجئنى خيرُ الدين أفندى فى الموعد ، ثم اجتمع عندى يومَ الأحد هو وأسعد بك حيدر وأسعد أفندى داغر ، وهم أبعد أعضاء اللجنة عن لطف اللَّه ، وقَرَأنا كتابك هذا والذى قبله ، وقد اتفقوا على أنه لا سبيلَ إلى شىء من الأمور الثلاثة ، وأنا أعلم علمَ اليقين أنه لا يَهُمّ واحدًا منهم أمرُ غيظ لطف اللَّه ولا رضاه ، بل هم إلى ما يَغيظه أقربُ ، وهم يتمنَّون لو يستقيل من اللجنة .

ولكنّنى قلتُ لهم إن الممكنَ من اقتراحات الأمير شكيب شىء واحد ، وهو إعلان اللجنة أنها لا يوجد أحدٌ فيها له مَطْمَعٌ شخصىٌّ من وراء أعمالها ، بل كلُّهم (رئيسُها وأعضاؤها) يعملون لمصلحة الوطن ، ولا يُقرّون أحدًا يتوصل بالخدمة الوطنية إلى مطمع شخصى ، وقلت إننى سأقترح هذا البيانَ فى أول جلسة ، ولكنْ لا بُدَّ من التماس مناسبة له ، وكذلك كان .

عُقدت اللجنة مساء يوم الثلاثاء الماضى ولم يحضر جلستَها أحدٌ من الثلاثة ، والأمير أمين غائب فى الإسكندرية ، فكان بقيّةُ الأعضاء السكرتير العام والسكرتير الثانى والمساعد (اليازجى) وهما أشدُّ الأعضاء موالاةً للرئيس ، والحاجّ أديب خير ، وهو معتدل ومسالم بطبعه ، وحضر الجلسةَ من غير الأعضاء الدكتور شهبندر وحسن بك الحكيم ، ووجدت المناسبة لاقتراحى بطبعها ، وهو ما كُتب فى بعض جرائد بيروت ومقطم ذلك المساء من اتهام أولاد لطف اللَّه بطلب المُلك والرياسة ، فقدَّمت الاقتراحَ فَقُبِلَ ، وكتبه اليازجى ، ونقحته اللجنةُ ، ونُشر .

واتفق الجميع على السعى والتعاون على درء جميع أسباب الخلاف والشقاق بين الوطنيين ، كل واحد من ناحيته وناحية أصحابه ، فإنه لا ثقةَ لأحد منا بإنصاف فرنسا ولو بالقدر الذى تتفاءلون به . وإنما كتبت اللجنةُ بيانَها العامَّ لهيِّن القولِ تتميمًا

للسياسة الأخيرة التى سلكها الوفدُ فى أوروبا مبتدئًا بجمعية الأمم وتمهيدًا لما تقتضيه الحال فى المستقبل القريب .

وجملةُ القول أن كتابك الأخير آلمنى، وأرى أنك كتبتَه فى حال انفعال شديد ، والمؤاخذاتُ فيه كثيرة ، ولا يَحسُنُ بأمثالنا المناقشةُ فيها ، ومن الغريب اعتزازُك فيه بزعماء الثورة بعدَ أنْ شردوا ، ونحمد اللَّه أنهم حافظوا فى ذلك على شرفهم وعزة أنفسهم ، وقد أرسلتُ التوصية اللازمة بهم إلى أم القرى . هذا ما أمكن كتابتُه بعد المغرب يومَ الخميس . والسلام عليك وعلى ولدك ورفيقك ، لا زلتم موفقين .

رشيد

★ ★ ★

وكتب إلىَّ فى 27 المحرم 1346 و 26 تموز 1927 :

سيدى الأخ الأميرُ

لقد أُلقى إلىَّ أمسِ كتابُك المرسَلُ من لوزان فى 17 تموز ، وهو مرجوع كتابى المرسَل فى أول المحرم ، وظهر لى منه أنَّ ما وقع بيننا من اختلاف الفهم فى اللجنة التنفيذية لا يزالُ فى مَوْضِعِهِ ، وأرجو أنْ أستطيعَ الآنَ أنْ أستريحَ وأُريح ببيان ما تفهمه وما أردْناه ونُريده منها .

قلتُ فيما سبق إنّ اللجنة شىء ، وليست كلَّ شىء ، وإنّ إثباتَ كونها شيئًا لا ينفى وجودَ غيرها من ثوّار وجمعيات وأحزاب وأفراد ، ولا يَغْمِطُ[1] فضل أحد فى عمله . وأزيد على ذلك الآن أنّه لا يقتضى تفضيلَها على الثوّار ولا على ممديهم بالمال لأن المفاضلة بين الشيئين إنما تكونُ فى العمل المشترك بينهما ، كما قال الغزالى فى تخطئة مَن يفاضل بينَ الخبز والماء ، فإنّ الخبز أفضلُ للجائع ، والماءُ أفضلُ للظمآن ، ولا يُشرك أحدهما الآخر فى خاصيته فيفضل عليه فيها ، فاللجنة خِدمتها سياسية لا يُشاركها فيها سلطان باشا الأطرش وغيرُه من زعماء الثورة ، وهى لا تُشاركهم فى عملهم .

---

(1) **غمط فلانًا** : استصغره واحتقره .

وكذلك يُقال فى الحزب الوطنى الأمريكى الذى كان أعظمَ مُمِدٍّ للثورة . واللجنةُ لم تشترك فى الإعانة كما أنها لم تشترك فى الثورة ، وإنما اشترك بعض أعضائها فى الإعانة بصفتهم الشخصية أو بدخولهم فى لجنةِ إعانة المنكوبين .

ولا تَدّعى اللجنةُ أنَّ تمثيلَها للأحزاب عبارةٌ عن مبايعة منهم(★) قد سلبتهم حريةَ العمل لوطنهم من طريق آخَرَ أو حريةَ نقض البيعة على تقدير وقوعها ، وما أظنّ أنَّ هذا المعنى خطرَ ببال أحد من أعضائها ولا من رئيسها لأنه من الجنون المطبق[1] .

وأما الوفدُ السورى فى أوروبا فاللجنةُ ترى أنَّ عمله السياسىّ مبنى على نيابة عنها لأن كلَّ ما قدَّمه سابقًا إلى جمعية الأمم كان باسمها ، والثوار وجمعيات الإعانة ليس من خصائصهم الاحتجاجات السياسية ، فلأجل توحيد العمل السياسىّ ينبغى أنْ يبقى الوفدُ على صِبغته الأُولى . ولكن لا تفكر أنه قد عرض منذُ بضعةِ أشهرٍ ما يقتضى أنْ يكونَ لزعماءِ الثوار رأىٌ فيه ، وهو ما كان ينتظر من مفاوضات الحكومة الفرنسية لبعض الهيئات السورية الوطنية فى الصلح والاتفاق على شىء يَرضى به الفريقان . وفى هذه الحالةِ أرسلت اللجنةُ وفدًا إلى الأزرق لعرض المسألة على زعماء الثورة وأخْذِ تفويض لها ولمن شاءوا ضمَّه إليها لأجل المفاوضة . . . . وعاد الوفدُ يحمل تفويضًا لأعضائها ولأناس آخرين كثيرين ومتفرقين فى البلاد السورية وفى سائر الأقطار ، فلم تقبله اللجنةُ لكثرة المفوضين وتفرقهم ، فإنّ ذلك يمنع توحيد العمل وإمكانه . وأخيرًا اقترح جمهورُ وُجهاء السوريين من المفوضين الموجودين بمصر أن تقبلَ اللجنةُ منهم أن يختاروا أربعةً منهم لمشاركتها فى كلِّ عمل تعمله فى هذا الطور الجديد للقضية على شرط أنْ يأتوا بعد هذا بتفويض جديد من زعماء الثورة خاصٍّ بهم ، فقبلت اللجنةُ ذلك كما تعلمون . والظاهرُ أنَّ هؤلاء المنضمين كانوا يخشون أنْ يقعَ اتفاقٌ بين اللجنة وفرنسا يغلُب فيه رأىُ أفراد قليلين أو رأىُ لطف اللّه كما

(★) كانت اللجنة ولا سيما الرئيسُ ومن يُواليه يعترضون على تكلُّم الوفد السورىّ الفلسطينى فى أوروبا بلسان الأحزاب الوطنية كلِّها فى الوطن والمَهْجَرِ ، بل لم تكن تعرف للوفد صفةً سوى أنَّه ممثلٌ لها وحدَها . فكان الوفدُ لا يُذْعن لهذا الحصر .

(1) **أطبق الشىءُ الشىء** : غطاه .

تخشون ، فاستراحوا لقَبولهم فى اللجنة بعد تردّد منها وإباء ، ولعلى كنتُ المرجِّحَ لقَبولهم ، وأما تكليفُ الحزب الوطنى فى أمريكا لتوفيق أفندى اليازجى أنْ يكونَ ممثلاً له فى اللجنة فلم يكن بسعى منها ، ولم نسأل توفيق أفندى أكان هو المقترِحَ ذلك على الحزب أم هم الذين كلَّفوه إياه من تِلقاء أنفسِهم وكتبوا بذلك لِلّجنة .

وجملةُ القول أن اللجنةَ ممثِّلَةٌ لمؤتمر جنيف الذى ادّعى فى ندائه تمثيل جميع الهيئات والأحزاب الاستقلالية ، وإمضاؤك فيه لا تزال على هذه الدعوى مع أن عدَد الممثلين فيها قد زادوا ، فهى لم تَدَّع شيئًا جديدًا ، ولم تُصَبْ بالجنون فتقول إن هذه الدعوى التى قامت بها فى عملها السياسى هى مبايعة من الأمة السورية سلبت أحزابها وزعماءها حريّتهم فى سياسة وطنهم ، ولكنَّها تقولُ إن الطريقة القانونية لإنهاء خدمتها وجواز تركها هى بحسب قرار مؤتمر جنيف موكولة إلى مؤتمر آخَر ، وهذا لا يمنع زعماءَ البلاد أنْ يعملوا لبلادهم ما شاءوا مما يستطيعون عملَه بدونِ أنْ يشاركوها فيه فِعلاً أو رأيًا .

والوفدُ السوريّ له هذا الحقّ كغيره من زعماء البلاد ووُجهائها إذا رأى المصلحةَ فى ذلك وإن لم تره اللجنة . ولكنْ يجب فى هذه الحالة أن يُعلن انفصاله عنها . وما دام يرى المصلحةَ فى العمل معها فالواجبُ عليه أنْ يطلعَها على ما يعمله ويستشيرها فى الأمر الجديد الذى يعرض له مخالفًا لما كان مقرَّرًا من قَبْلُ لأن المسئولية مشتركة فيه . وهو قد قصر فى ذلك فى المدة الأخيرة فهضم حقها من حيث لم تهضم حقَّه ، فإنها أعلنت أنه هو المفوّضُ الذى يَحِقُّ له الكلامُ باسمها دون غيره أىْ كأخَوَىْ رئيسها . ولما نشرت بيانَها الأخير فى القضية العامة نشرت فيه شيئًا عن الوفد ولم تحذفْ منه قوله إنه مندوبُها ومندوبُ هيئات أُخرى على كونها لا تَستحسنُ هذه الزيادةَ . فالوفدُ اتهمها بأنها تدّعى أنها كلُّ شىء على كونه يُشاركها فى ذلك إن صَحّ لأنه منها . فلا تكون هذه الدعوى هضمًا لحقّه ، ولكنّه هو جعلها « لا شىء » فلم يَعُدْ يُراجعُها فى شىءٍ ما ، وإنما ملأ الجوَّ بالطعن فيها .

لا تزالُ – حفظك اللّهُ – تُقيم البيناتِ والحُجج بإسهابك الذى يعجز عنه غيرُك فى مناقب الثوار الذين استنبطتَ بطريق اللزومِ غيرِ البيّن أنّ اللجنةَ هضمتهم حقَّهم بما

تقتضيه دعواها أنها كلُّ شيء !! ووالله لا أعلم أنَّ هذا خطر ببال أحد من أعضاء اللجنة ، بل كل فرد منهم يفتخر بهم ، ويُصرِّح بأنهم الذين رفعوا رؤوس السوريين التى كانت ناكسة فى كلّ مكان ، لا أنا وحدى الذى أكثرت من هذا اللفظ نفسه كثيرًا ، وإنه ليسوءنى جدًّا أنْ يُكَرَّرَ القولُ لى ذلك فى كلّ كتاب خاص بى فى هذه المسألة . فإنْ كنتُ أنا ممن يحتاج إلى إقناع بمكانة زعماء الثورة وبتأثير الثورة بمثل هذا التكرار فى كلّ كتاب فأنا أشهد على نفسى بأننى لا قيمة له فى هذه الهيئة الاجتماعية . والله ثم والله إن قولَك فى كتابك الأخير : فليسمح لى الأستاذ أن أقول له إنه لولا سلطانُ باشا ورفاقه . . . إلخ . لأشَدُّ علىَّ من طعن جريدة السياسة ، وهذا التألم هو الذى استنزل قلمى بتلك الكلمة التى آلمتك بحقّ كما آلمتنى أنا ، ولولا أنّ إتمامَ ذلك الكتاب كان بعجلة وأُرسل ليلاً إلى البريد لأعدت فتحه ورمَّجتها[1] منه ، وأرجو أن ترمجها أنت إذا كان الكتاب محفوظًا عندك ، وإننى لتألمى من هذه العثرة ذكرتُها لبعض إخواننا حتى الحاج أديب خير ونجيب بك (أيضًا) دَعْ السيد عاصم والرافعى . وكان خطر فى بالى أنْ أُقفِّى على الكتاب بآخرَ لا أذكرُ فيه إلا الاعتذار عنها . ثم قلت : إنَّ تأخيرَ الاعتذار لا يُخرجه عن كونه اعتذارًا أشدَّ على النفس من عقاب غيرها لها .

سبحان الله ! إننى أكره التكرار حتى فى المطربات ، وقد ابتليتُ به فى تهمة أنا برىء منها ، ولكنها من الأخ العزيز الكريم الذى لا يُمكننى الإعراض عن كلامه وعدمُ إجابته عنه ، وهى سُوءُ فهم ، لا سوءَ قصد . إن هذه الصفحاتِ السبعَ التى تألَّف منها هذا الكتابُ الأخير كان يغنى عنها صفحة واحدة بالإيجاز وصفحتان بالإطناب .

وجملةُ القول فى مسألة اللَّجنة أنها هى الهيئةُ السياسية الوحيدة التى نظمت الدعاية السياسية والاحتجاج على الغاصب فى بضع سنين ، وقد تكرر كلام بعض الإخوان معى فى استبدال لجنة أُخرى بها ، ولكنّهم ليسوا أهلاً لذلك ، فسواء كان عملُها السياسىُّ حقيرًا فى نفسه أو بالنسبة إلى أعمال أُخرى كالثورة أو لم يكن فهو عمل لا بُدَّ منه ، وإنّ هدَمها قُرة عين للخَصم السياسى الذى لم يُظهر التبرُّم[2] من عمل سياسى

---

(1) محوتُها أو طمستها .

(2) سئم وضَجِر به .

غير عملها . ولا أرى إلى الآن فيه أدنى مصلحة للوطن ، وكون لطف اللّه يتلذذ برياسته لها لا يضرّنا ولا يمكن له أنْ يتخذَها مطية لعمل ضارّ . ونحن فيها إن كان يريده . وقد صرحت اللجنة فى آخر بيان رسمىّ لها أنه ليس فيها أحد يستثمر القضيةَ الوطنية لمنفعة شخصية ، ولا تقرّ من يفعلُ ذلك ، فنحن إذًا لا نهدم ما بنيناه بأيدينا ، ولا نزال نعتقد أننا محتاجون إليه . قلت هذا واضطررت إلى إعادته مع شىء آخر : وهو أننى ليس لى أمل بإنصاف فرنسا لنا ، وأن الجهاد السياسى لا بُدَّ من دوامه .

أما ما تقوله يا سيدى من أنَّ بقاءَ اللجنة وبقاءَه رئيسًا لها يُخّولُه أنْ يقول لفرنسا إنه ليس فى سورية غيرُه « وأن الجميع أعوان له ومستخدَمون عنده . فعند ذلك تضع يدها فى يد الذى أثبت أنه هو رئيس الجميع » وما فى معنى هذا مما هو أبلغ منه وأكبر مبالغة - فليس من المعقول عندى ، فأنا لا أعتقدُ أنَّ فرنسا تجهلُ حقيقةَ اللجنة وحقيقةَ لطف اللّه إلى هذا الحدّ ، بل أعتقد أنها تعرف الحقيقتين ، وأن قصارى قوة اللجنة مع رئيسها المشاغَبةُ والدعاية السياسية ، وأنها لا تُمثل الثورةَ ولا رجالَها بمعنى أنَّ ما يُرضى لطف اللّه يُرضى الثوّار وغيرهم من الزعماء وطلاب الوحدة إلخ . وأنَّ الاتفاق الأخير مع سورية يكون معه . ولو ظلت الثورة قائمة على ساقها كاشفةً عنها ورأينا فرنسا محتاجة إلى هيئة سورية تمثلها مع سائر الأحزاب واللجنة التنفيذية لرأيتم اللجنةَ معضَّدة بوفدكم بضم اثنين أو ثلاثة منها إليه على الوجه الذى ذكرتُه لك فى كتاب سابق ، ولم يكن لطف اللّه هو الذى يعقدُ الاتفاق معها - ولكننى أرى مع الأسف والامتعاض أنَّ هذه الفرصةَ قد فاتت ، وزال السببُ الذى لو لم يَزُلْ لكان لك الحق فى كل هذه المبالغة فى نزع الرياسة من لطف اللّه ، ولا سيما بعدَ أنْ ثبت عندك السعىُ لاستثمار القضية الوطنية .

وأما ما تقوله من أننى لو تغاضيت عن اللجنة ولم أحضر جلساتها لتعرقل سيرُها وعادت عَدَمًا ، واضطر أولاد لطف اللّه أن يُصلحوا أمرهم - فهو مما يختلف فيه فهمنا أيضًا . لا أعنى بهذا أنّنى أجهلُ قيمة وُجودى فى اللجنة وثقة الكثيرين من زعماء بلادنا بها لوجودى فيها ، لا أجهل هذا ، وكثير من رجال بلادنا ذكروه لى مرارًا . وإنما أعنى

أنَّ تركى لحضور جلساتها مع بقاء انتسابى إليها لا يُعرقل شيئًا من عملها ، ولكنّ ربما يجعله أو يجعل بعضه على غير ما أحب أنا ومَن يتفقُ رأيُه واعتقادُه مع رأيى واعتقادى فى المسائل الوطنية ، وإن استقالتى منها لا يمنع من انتخابها عضوًا آخر يُمثل حزب الاتحاد السورى على حسب قرار مؤتمر جنيف ، وتظل أعمالها العادية على حالها وإنْ قَلَّتْ ثقة الكثيرين بها ، وتبقى فرنسا مهتمة بدعايتها كما كانت مهتمة بحزب الاتحاد السورى أيام كانت جرائدها وأعوانها يقولون إن الحزب مؤلَّف من لطف اللّه وسكرتيره سليم سركيس فقط . وإذا صارت اللجنة بتركى لها ضعيفة أو عدمًا كما قلتَ فهل تكون فائدتنا من ذلك إصلاح أولاد لطف اللّه . . . ؟ أنا لا أفهم هذا وإنما رأيى فى إماتة اللجنة ما ذكرته من قبل وفى آخِر الورقة التى قبل هذه . ثم إننى على هذا لم أقتنع بأنّ أولاد لطف اللّه يُمكنهم أنْ يضرُّوا سورية من طريق اللجنة التنفيذية التى يُوهمون بعض الفرنسيين أنها فى قبضة يدهم ، وأكثرُ رجال فرنسا لا يصدِّقون ذلك ، تنحصرُ المسألة فى أطماع أشعبية[1] مضحكة يصوِّرها طغيانُ الغنى قريبةَ المنال . وقد ذكرتم الطمع فى إمارة الشام ! فهل يصِحّ لعاقل أنْ يأبه[2] لمثل هذا ؟

الأمر الجوهرى فى كلّ هذه المسألة عندى هو مسألة اعتماد فرنسا على هيئة سورية تتفق معها على مستقبل البلاد ووضْع النظام لحاضرها وما يكون لها من المنفعة فيها ، إذا وصلنا إلى هذا ، فأنا موافق ومساعد على كلّ خُطة تحول دون جعل هذه الهيئة تحت رئاسة لطف اللّه أو يكون النفوذ الغالب فيها لآل لطف اللّه .

إننى مع إخلاص المودة والإجلال لأخى الأمير الذى أعدُّه أقوى ركن علمىّ سياسىّ أدبىّ لى فى خدمة الإسلام والعرب - أستأذنه بأنْ أُكاشفَه برأيى فى مبالغته بل إغراقه وغلوه فى هذه المسألة ، وهو أنك كبَّرت أمرَ هؤلاء تكبيرًا كبيرًا ، فجعلتهم أضعاف ما هم عليه ، ومن أغرب ذلك التكبير العلاوة التى كتبتَها حاشية بعد إمضاء الكتاب ، وهو عندى خطأ مبين لا يحتمل الصوابَ ، فلئن عُقد المؤتمر فلن يكون أعضاؤه المعتمدين على اللجنة الحاضرة ، وهذه اللجنة ليس أكثرُ أعضائها أنصارًا

(1) نسبة إلى (أشعب) المشهور بطمعه الشديد . (2) يهتم .

« للعائلة المالكة » بل لا يعرفون عائلة مالكة . ولئن عُقد المؤتمر فلن يكون لنفوذ اللجنة تأثير فى انتخاب رئيسه فيما أعتقد . وأغرب منه قولك : « وبالاختصار ليس همنا تحرير سورية من نِير[1] فرنسا فقط بل تحريرها من نير كذا وجعل دماءنا تذهب سدى تقريبًا » !! ما هذا يا سيدى الأمير ؟ هذا قول عظيم من مثلك وإن كنتَ سياسيًا وصاحبَ خيال شعرىّ واسع فى الوصف ! من أين جاء هؤلاء بهذا النير ، ومتى كان لهم هذا التأثير ؟ هذا شىء لا نعرفه ولا نعقله . فإن كان وصفًا شعريًا سياسيًا فهو كثير لا ينبغى أن يتخاطب به الإخوة المتعاونون على المصلحة العامة فيما بينهم ، وإن كنتَ تراه حقيقيًا فأقنعنا بما تعلم من هذا الخطر لنهب هبة واحدة ظاهرة لمقاومته . الطامعون فى الإمارة والملك والرياسة كثيرون حتى فى سورية المسكينة ولبنان جبهة الحرب الاستعمارية ، ولكنّنا نسألُ عن الخطر الفعلى وعن أدلته ؟

سيدى إن أعمالى كثيرة جدًّا ، ولم أتم هذا الكتابَ إلا يوم الخميس ، وسأرسله مساءَه ، وآخرُ كلمة لى فى موضوع اللجنة أننى أستحسنُ أنْ تبقى عَلاقتكم بها كما كانت ، وهى لا تشترط إلا ما ذكرتُه سابقًا من المكاتبة والتشاور فى كلّ أمر جديد ، ولا يمنع من ذلك زيادة ذكر الأحزاب الأخرى فى أعضاء الوفد إذا أصررتم عليه – فهذا فيما أظنّ خيرٌ من الشقاق وانفراد كلٍّ من اللجنة والوفد بالعمل السياسى لدى عُصبة الأمم . وقد تنشىء اللجنة فى جنيف مكتبًا سياسيًا . وقرأتُ اليوم فى بعض الجرائد أنَّ بعض السوريين أنشأوا مكتبًا فيها ، ولكن لم أعلم – من هم وما موضوعه ، هذا إذا كانت الحال كما أعلم ، فإن كان هنالك مفاوضةٌ . . . فقد بينت رأيى فيها ، وإن كان فى أمر . . . خطر لا نعرفُه كما ذكرتُ آنفًا فعجِّلوا ببيانه ، ولكم الفضلُ . والسلام عليكم أولاً وآخِرًا .

أخوكم رشيد



(1) الخشبة التى توضع فوق عنق الثور أو الثورين المقرونين لجر المحراث ، وهو تعبير يدل هنا على : تحرير سوريا من قبضة الاستعمار الفرنسى .

وكتب فى 3 صفر 1346 وأول أغسطس 1927 :

سيدى الأخ الأميرُ

أرسلت إليك مساء الخميس الماضى كتابًا مطوّلاً ، وكان قد صدر بيان موسيو بونسو ، ولكن لم يكن وصل إلينا نصُّه كلُّه بل ملخصٌ منه بالبرقيات ، ثم جاءَ بنصِّه ، فإذا هو الخزىُ الذى كنتُ أنتظره .

وأظنّ أننى لم أكتب شيئًا فى ذلك الكتاب على طوله فى مسألة ما نشرته جريدةُ (المعرض) عن لسان الأمير ميشيل لطف اللَّه ، وأشكّ فى ذلك لأننى كنتُ متذكّرًا لها فى أثناء الكتابة وعازمًا على كتابة كلمة فيها .

وجملةُ ما كنتُ أريد أنْ أذكره ، وأشكُّ فى ذكره ، أنّنى لم أرَ جريدة المعرض ، وإنما رأيتُ ملخصًا منها فى بعض الجرائد ، فأنكرتُه عليه ، وقلتُ له : كان يجبُ أنْ تفرِّقَ فى كلامك بين ما تقوله عن رأيك الشخصى وما تقوله عن اللجنة بالنص أو الفحوى ، وإذا لم تفعلْ فالواجبُ أنْ تصححَ ذلك . . . فقال إننا ننتظر مجىء جريدة المعرض نفسها لنرى نصَّ الحديث ، فإنَّ ما نُشر منه ملخصًا غيرُ مطابق للواقع . وكلَّمه نجيبُ بك فى ذلك فوافق . ثم لما احتاجت اللجنةُ إلى نشر بيانها ضمنته ما يصلح أنْ يكونَ ردًّا على ما لا يوافق مبادئها من ذلك الحديث . ورأينا جريدةَ العهد التى أثارت المسألة احتجَّتْ بهذا الردِّ ، ولم نعدْ نرى (المعرض) وما قالت . والسلام .

أخوكم رشيد

★ ★ ★

وكتب إلىَّ فى 20 صفر 1346 و 18 أغسطس 1927 :

سيدى الأخ الأميرُ

لدىَّ كتابك الأخير منذ بضعة أيام ، ولم أتمكن مِن الردّ عليه لأننى أردت أن أُرسل مع الردّ حِوالة مالية بما بقى لك على مكتبة المنار بعد تسديد حساب المطبعة ، وقد استخرجت الحسابَ من المكتبة ، ولكنّنى لم أتمكن من الخروج إلى بنك مصر لأخذ

التحويل إلا فى هذا اليوم قبل الظهر بنصف ساعة مع تركى لبعض الأعمال الضرورية ، وقد كنتُ قبلَ هذا الأسبوع منحرفَ الصحة ، كما يقال فى عرفنا ، وسافر السيدُ عاصمٌ بأهل بيته وأولادى إلى طرابلسَ للاصطياف فى القلمون ، فوالده عمّى كبير أسرتنا لم يرَ أولادَه ولا أولادى قبلَ هذا الصيفِ ، والحرُّ مع الرطوبة شديدان عندنا فى هذا العام، فأنا منهما فى ضَجَرٍ ما .

وفى هذا الأسبوع فُجعنا بوفاة زميلنا الوطنى المجاهد نجيب بك شقير تُوفى فجأةً فى طريقه إلى بيته بالقرب من منتصف الليل ، فشعرنا بفراغ واسع حدث فى لجنتنا لأنه هو العامل المجدُّ القائم بأعظم شئونها ، وأسفنا على فقده ، وحزننا مصابه من جهة المودّة الشخصية حُزنًا يقتضيه منا لطف عشرته وأدبه فيها ، ولا شك عندى فى تأثير حياته الزوجية المعلومة عندكم فى موته كمدًا ، فذلك الإسرافُ الزائدُ لا يزال فى ازدياد على نسبة نقص الموارد المالية أو نُضوبها ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

وفى هذه المدّة انتشر بيان بونسو ، فكان كما كنتُ أتوقع ، وقد رَدَدْنا عليه باسم اللجنة التنفيذية ردًا حسنًا تَرَوْنَهُ فى الجرائد ، وفى أثنائها جاءت من الأخ إحسان بك الجابرى مكتوبات للأمير أمين وللدكتور شهبندر مصرحة بخيبة آماله . وقد ناشد فيها الأمير والدكتور بمراجعة اللجنة التنفيذية ، وجمع كلمتها مع كلمة الوفد فى استئناف الجهاد جزاه اللّه خير الجزاء ، ولن تنسى الأمةُ له ولكم هذا الجهادَ ، ولكلّ مجتهد أجرٌ إنْ أخطأ وأجران إنْ أصابَ[1] .

أعود إلى كتابكم الأخير فأقولُ إن جُلَّ ما فيه بمعنى المكتوبات التى قبله ، وقد كنتُ عند قراءته وضعتُ خطًا أحمرَ على مسألة مكتوب نجيب بك لجورج ومكتوبه للوفد لأكتبَ شيئًا فى موضوعهما ، وأكتفى بعدَ أنْ حصلَ ما حصلَ بأنْ أقولَ إنَّ الأولَ صريحٌ فى إمارة آل لطف اللّه أو مبايعتهم ، كما كنتم تعبرُون مما لا وجودَ له فى

---

(1) يقصد أن من أخطأ له أجر معيَّن ، ومن أصاب له أجر آخر معين ؛ لأن الحديث عن النبى ﷺ يقرر المصيب له أجران ، والشيخ رشيد يعرف الحديث قطعًا ، روى مسلم بسنده عن النبى ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » . (صحيح مسلم : كتاب الأقضية) .

اللجنة التنفيذية ولا فى الدوائر الوطنية ، وإنّ مَن يدّعى أنّ وجودَه وحدَه معهم يكفيهم كلَّ أمر إما دهان[1] لهم وإما غرورٌ منه . وأمّا الثانى فلا أذكرُ أنّه كان إنذارًا من ذى سلطان ، وإنّما كان بيانًا لنظرية اللجنة التى شرحتها مرارًا على أننى لا أتذكّر نصَّ هذا الكتابِ ، ولولا وفاةُ الرجل لطلبتُه منه . وقد صرّحتُ لكم برأيى فى مسألة ما تذكرون من تمثيل الوفد للجنة ولغيرها ، وإنّ اللجنة لا تملك منعكم من ذلك ، فكيف أكون مع هذا متهمًا عندكم بالموافقة على ذلك الإنذار الذى ذكرتموه ؟ وكيف تعود إلى تكرار الشكوى من أثرة اللجنة وإثارتها للشقاق .

كذلك كنتُ وضعتُ خطًّا آخرَ على ما كتبتم عن مسيو برتلو وإحسان بك ، ولم يبق من حاجة لكتابة شىء فى ذلك ، إنّنى كنتُ أعتقدُ أنَّ كلَّ ما سمعتم وسمع إحسان بك من وعود فى باريس رياء ، وأن من أكبر مقاصد هؤلاء الذين يكلمونكم إيقاع الشقاق بين الوفد واللجنة لأنّ العملَ السياسى محصور فيهما ، لا يُشاركهما فيه الثوارُ ولا غيرهم من الوطنيين والمهاجرين ، وقد كتبتُ هذا لكم المرةَ بعد المرة ، فظننتم أنّنى أغمط به فضل الثوار ومَن يجمعون المال . فَلْنصرف النظرَ عن الماضى ونحصره فى الحاضر والمستقبل . إننا نرى هنا أنه يجب السعىُ أولاً أو قبل كلّ شىء لأمرين (**أحدهما**) توحيدُ عمل الجبهة السياسية كما يقال ، وذلك بالاتفاق بين اللجنة والوفد كما اقترح إحسان بك ، وهو ما كنتُ أسعى إليه من قبل ، (**وثانيهما**) إزالةُ ما طرأ من الشقاق بين رجال الثورة الباقين فى فلسطين وعُمان ، وهو شقاق قبيح خطير . وقرّرت اللجنةُ أولَ من أمسِ إرسالَ الدكتور شهبندر بصفته وفدًا إلى أوروبا ليكون أولَ عمله الاتفاقُ معكم ، وهو يخبرُكم بسعينا فى المسألة الثانية . وقد كان مرادُ الأمير ميشيل أنْ يذهبَ هو والدكتور والمرحوم نجيب بك إلى أوروبا وأنْ يُؤسسوا هنالك المكتبَ ، ويكونَ نجيبُ هو المديرَ له ، وقبلَ أن يعرض ذلك على اللجنة كتب به إلى أخويه يستشيرهما ، فكتب إليه الأمير حبيب بأنه لا يجوز أنْ يوجدَ للجنة فى جنيف وفدٌ غيرُ الوفد الموجود فيها لأنَّ ذلك مَدْعاةُ الشّقاق الضارّ جدًّا ، وإنما يجوز أنْ

(1) **داهن دِهانًا ومداهنة** : داراه ولاينه .

تُرسل اللجنةُ إلى الوفد مَن يتَّحدُ معه أو ما هذا معناه . وقد استحسنا هذا جَدَّ الاستحسان من الأمير حبيب ، وعَدَدْناه فوق المنتظَر منه . والسلام عليكم وعلى نجلكم ومَن لديكم .

محمد رشيد رضا

★ ★ ★

وكتب إلىَّ فى 19 ربيع الأول 1346 و 15 أيلول 1927 :

سيدى الأخ الأميرُ

قد أُلقى إلىَّ كتابك الكريم المؤرَّخ فى 30 أغسطس ، وأخَّرت كتابةَ مرجوعه لأننا بصدد أمور جديدة كنتُ أنتظر جلاءها فأخبرُك بشىء مفيد ، ولمَّا تَنْجَلِ . إنّه لم يبقَ فى لجنتنا بعدَ نجيب بك من أعضائها القانونيين غيرى وغيرُ أسعد أفندى داغر الممثل لحزب الاستقلال العربى ، وتوفيق اليازجى وكيلٌ لحزب لم يكن ممثَّلاً فى المؤتمر ، والأمير ميشيل ليس عضوًا ، وإنما جعلناه رئيسًا من غير الأعضاء للأسباب المعلومة . وأما الأعضاءُ المضمونون فليس منهم فى مصر غيرُ خير الدين أفندى الزركلى ، والآن يحيط بالأمير ميشيل الدكتور شهبندر ، وهو يدعوه لحضور جميع الجلسات ، ونحن نتساهل فى قَبوله حبًّا فى الوِفاق ، وقد تعيَّن حسنُ بك الحكيم الذى هو مِن أنصار الدكتور مديرًا لمكتب اللَّجنة وقلم الاستعلامات - لا سكرتيرَ اللجنة كما فَهِم بعضُهم - وهو موظَّف فى دائرة لطف اللَّه كما بلغنى ، فهو يحضُر الجلسات أيضًا بالتساهل ، وقد اجتهد الدكتور فى تجديد حزبه حزب الشعب ، فجمع حولَه بعض الأفراد الذين ليس لهم مركز ، وكان غرضُهم أنْ تقرِّرَ اللجنةُ قَبول مَن يُمثلهم فيها لاعتقادهم ارتياحَ الأمير ميشيل لذلك وموافقة نجيب بك له . . . فخاب أملُهم .

قد رأيتَ أنّنى لم أُعارضْكَ فى شىء مما كتبتَ إلىَّ المرةَ بعد المرةِ من ثقتك بالدكتور المذكور ، وحبِّك له واحترامِك إياه ، ورغبتِك فى العمل معه إذا جاء أوروبا دون الأمير ميشيل . . . . إنما لم أُعارضْك لرغبتى الصحيحة فى استمالةِ الدكتور

والعملِ معه – على شدّة كراهتى للطعن فى الأشخاص ولو للمصلحة التى يُبيح الطعنَ فيها أئمةُ الجَرْحِ والتعديل من حُفَّاظ السُّنة – وإذا اضطررتُ إلى ذلك أُفضِّل الإشارةَ والتعريضَ على الصراحة والتكشيف ، كما هى عادة الإمام البخارى – رحمه اللّٰه تعالى – فى مثل قوله : فلان لا يُكتب حديثُه ، فلان تركوه . . . وإننى قد صرتُ مضطرًّا الآن إلى التصريح بأنّنى بعدَ أنْ سمعتُ من فلان كلامًا يدلُّ على عدم استطاعته إخفاءَ ما فى قلبه مما لا يحتملُ التأويلَ – ثبت به عندى أنَّ اشتراكه بالعمل مع مَن يَشْنُوءه[1] ، وأنَّ بقاءَه مُتمتّعًا بحقّ حضور جلسات اللجنة ، منافٍ للمصلحة .

★ ★ ★

فى 10 ربيع الآخر 1346 و 6 تشرين الأول 1927 :

سيدى الأخ الأميرُ

كنتُ شرعتُ فى كتابته لك فى 19 ربيع الأول (15 سبتمبر) أُودعه فصلَ الخطاب فى موضوع اللجنة والوفد ، ولكنْ عرض ما حال دونَ بيانِ الفصل ، وهو أنَّ بعض الإخوان العاملين فى قضيتنا الوطنية فى جميع أطوارها ، ولا سيما الحديثةُ ، قد جاءوا مصرَ على نية العمل لتلافى الشِّقاق أو مضاره ، منهم الأستاذ الشيخ كامل القصاب مدير المعارف فى الحجاز ، وشكرى بك القوتلى[2] ، ونبيه بك العظمة وكان فى قريات الملح ، وخالد بك الحكيم وكان فى دمشق . وكان الثانى والثالث قد بذلا جَهدًا حَسنًا فى تدارُك مضارّ الشّغَب الذى حدث . وقد ثبت أنّ فلانًا وصِهْرَه وصديقَهما فلانًا الذى كنّا نظن أنّه « معتدلٌ على الحياد » يُوالُون الكتابة إلى فلسطين وسورية ، يَحُضُّون نارَ الشّقاق حيثُ وُجدَت ، ويُوقدونها إنْ استطاعوا حيث لا وجودَ لها ، ويزعمون أنهّم بذلك يؤيّدون لجنتنا التنفيذية وأنها هى تؤيّدهم ،

---

(1) يَبغضه .

(2) هو **شكرى بن محمود بن عبد الغنى القوتلى** (1308 – 1387 هـ / 1891 – 1967 م) دمشقى المولد ، تخرج بالمدرسة الملكية بالآستانة ، تولّى وزارة المالية ، ورئيس الجمهورية السورية مرتين بالانتخاب ، عمل على توحد مصر وسوريا تحت مسمّى (الجمهورية العربية المتحدة 1958م) . (الأعلام : 3/ 173) .

ويستعينون على ذلك بما علمتم من تعيين فلان مديرًا للمكتب ومقيمًا فيه ، ويساعده فى أعماله فلان الذى جعلناه كاتبًا للجنة الإعانة . . . . ويعتقد الإخوانُ أن . . . .[1] يساعدُهم بالمال وأنّ . . . كان ألم فى هذه الأثناء بفلسطين إلمامة خفيفةً حمل بها مبلغًا من الدراهم لهذا الغرضِ و . . . . يُنكر بالطبع بذلَ المال فى هذا السبيل .

فى أثناء مجىء الإخوان واشتغالهم بما سأذكرُه بالإيجاز وصل كتابُك المطوَّلُ رقم 23 سبتمبر وهو بخطّ الأخ رياض بك وبعض الجمل بين السطور ، فكان مصدِّقًا لما قاله لى صاحبُ الشورى مِن خبر وعك ألمّ بكم ، وكنتُ أحبّ أنْ أعرف ما هو ، والراجح أنه تعب فى العينين بدليل مواصلتكم لمراسلة الجرائد والإخوان ، وعسى أنْ يكونَ قد زال - فأطلعت عليه الشيخ كامل وشكرى بك وخالد بك الحكيم ، وهم على اتفاقهم معك ومعى فى المقصد لا يُسلِّمون كلَّ هذه المقدِّمات التى شرحتها فى الكتاب - وأهم ما أحبوا أنْ يَعْمَلُوه هنا جمعُ الكلمةِ ، كما جمعوا بين جماعة المجاهدين الذين فى النبك من الجنوبيين وبين الشماليين الذين كانوا متفرقين فى شرق الأردن وفلسطين تعبث بهم أهواءُ المشاقّين[2] .

اجتمع عندى معهم زُهاء عشرين رجلاً من خيار السوريين ، فلخص لهم الأخ شكرى كلَّ ما جرى فى المدة الأخيرة : كلُّ ما جرى من أنباء أُوِىّ[3] المجاهدين إلى قريات الملح ، مقدماته ونهايته إلى الآن ، وتلافى الشِّقاق الذى أحدثه . . . تقرُّبًا إلى الفرنسيس ، ومسألة الإعانة وحصر التصرف فى الإعانات فى سلطان باشا الذى تَرِدُ باسمه الآن ، واستمالة مَن أمكنَ استمالتُهم من مجاهدى الغوطة أو الشماليين كما يعبِّرون عنهم ، وإرسالهم إلى ملجأ المرابطة كما أُسميه أنا . . . إلخ ، فاستحسنا بيانه ، وأثنيت عليه بما وافقنى عليه الجمهورُ ، واقترحتُ عدةَ أُمور ، كلُّها حَسَنٌ ، تقرّر بعضُها ، وأُجّل بعضٌ .

ثم إن الأستاذ الشيخَ كاملَ ذكر للإخوان سعيه لاستمالة الدكتور . . . وضمّه إليهم

---

(1) هذا النقط يفيد أن الاسم غير مذكور لغاية قصدها الأمير شكيب .

(2) المخالفين . (3) **الأُوِىّ** : النزول والمكث .

للتعاون فى العمل الذى توجهت همتُهم إليه لما فى التفرق والشقاق من الضرر الذى يستغله الخصمُ ، وذكر لهم أنَّه وُفِّقَ فى سعيه ، وكذا خالد بك الحكيم الذى كان سبقه إلى ذلك ، فَسُرُّوا وارتاحوا ، وتقرّر بالاتفاق بينهم تأليفُ لجنة من شكرى والزركلى عن حزب الاستقلال ، ومن الدكتور شهبندر وحسن الحكيم من الطرف الأخير ، ومن الشيخ كامل ورشيد رضا وخالد الحكيم ممن على الحياد ليكونوا حكمًا ، وعيَّنُوا موعدًا اجتمعوا فيه عندى ، وكان معهم الدكتور سعيد عودة ، وهو على الحياد أيضًا وصديق شهبندر - اجتمعوا ، وكان القوتلى منحرف الصحة حتى إننا أذنّا له كلُّنا بالاضطجاع على أريكة ففعل ، ثم دار الحديث بعقل وأدب مدةً لم يستطعْ أحدُ الحاضرين الثباتَ عليهما ، فذكر ما يُنكره وَيَنْقِمه[1] من حزب الاستقلال ، وقفَّى[2] عليه بالقدح فيه وفى شخص الأمير عادل من رجاله خاصةً ، ثم رفع صوته واستشاط فشتم فلانًا ، ورفع عصاه وهجم عليه يريد ضربه ، فقام الآخرُ على تعبه ليقاومَه ، فَحُلنا بينهما . . . إلخ . (إلى أنْ يقول) :

وقد علمنا مما صرّح به أنه لا يُرضيه أنْ يكونَ لفلان ولا لغيره من حزب الاستقلال أدنى دخل فى قبض أموال الإعانة ولا فى صرفها ، وأنه يجب أن تُؤلَّف لها لجنةٌ فى مصر تتولى القبضَ والإنفاقَ بالعدل على الدروز وغيرهم . . . وذلك أنَّ كل الشغب الذى أحدثوه فى فلسطين إنما هو لأجل اقتسام المال بين المرابطين على الحدود (كما أُسميهم أنا) وبين القاعدين فى الأمصار العامرة يتمتعون بالشهوات حتى المحرّمةِ منها . ونحن قد أجمعنا قبلَ ذلك بأنَّه لا حقَّ لأحد فى قرش واحد من غير المرابطين . ولما بالغ فلان فى الطعن فى حزب الاستقلال قال له الدكتور . . . إنّ هذا الحزب لم يستأثر بالأعمال إلا لأنه لم يوجد غيرُه يزاحمُه فيشاركُه أو يَزْحَمُهُ فيخرجُه من الميدان لأنه أصلحُ منه ، وقد كتبتُ لك مرارًا أسألك رأيك فى هذا الأمر فلم تجبنى ، والآن أَسألك : أَىُّ الأمرين أرجحُ إذا لم يوجد غير الأمير عادل يَحُلّ محلَّه فى عمله وغيرُ هذا الحزبِ يَحُلّ محله ، فهل تختارُ فشلَ الحركة والثورة

---

(1) **نقَم** : عاقب .	(2) **قفى عليه** : أتبعه .

والقضاءَ النهائى عليها بتنحى هؤلاء عن العمل أم بقاء الحركة والعمل مع السعى لتقويم ما نراه معوجًّا منه - أو ما هذا معناه - فأجاب بأنه يختار الفشلَ وتركَ العمل على تولى الأمير عادل أو غيره من حزب الاستقلال له . . . إلخ . وقد اجتمع الإخوان بعدَ ذلك عندى ، ولمّا علموا بما وقع أجمعوا على ما كان يعتقده بعضُهم مِن استحالة الاتفاق ، وألّفوا لجنةً وطنية للاستمرار فى السعى لما يقصدون من تأمينِ راحة المرابطين وجمعِ كلمة السياسيين وغيرِ ذلك . وقد حاول محمد أفندى الطاهر أنْ يتوسطَ ثانية بالصلح ، وكذلك الأمير ميشيل لطف اللّه فلم يُمكن .

طال الحديثُ ، وإنّى أعلم أنكم قد علمتم بما حصل هنا إجمالاً أو تفصيلاً - فهذا الدكتور . . . الذى كتبتَ إلىّ المرةَ بعدَ المرةِ بأنك تحبُّه وتحترمه وتودّ العملَ معه إذا جاء أوروبا ، وبلغنى أنك كنت حمزت[1] شقيقك المجاهد بل أفضل المجاهدين حمزًا شديدًا فى التثريب على مجافاة الدكتور(★) .

أعود إلى اللجنة التنفيذية : كنتُ أخبرتُ الأمير ميشيل بما كتبتُ فى البراءة بحقّ من عداوتهم وما عملت فى سبيل مودّتهم(★★) وما تنكر الآن من السعى إلى الإمارة وجعل اللجنة آلة لذلك - ولكن بعبارة لطيفة - وقلت له إنّ الاتفاقَ معكم ممكن ، وإنه لا بُدَّ لنا من جلسة طويلة لحلّ هذه العقدة فتواعدنا - ووعدته أيضًا باستمالة حزب الاستقلال وسائر العاملين لتأييد اللجنة . ولما جاءَ الإخوانُ - وكان شهبندر وحسن الحكيم وتيسير ظبيان أقنعوه بأنَّ حزبَ الاستقلال ضدّ عليه ، وأنّه يسعى لعقد مؤتمر وطنى فى بيروتَ ظاهرُه بيانُ موقف الوطنيين تجاه خُطة موسيو بونسو وباطنُه إسقاطُ اللجنة التنفيذية - قلتُ له إنّنى كلّمْتُ الإخوانَ الذين حضروا مِن البلاد ومن الحجاز بوجوب تأييد اللجنة التنفيذية ، فقبِلوا كلامى كما كنتُ أخبرتُك ، وإننا سنكلّف لجنة

---

(1) حمزه : لذعه واشتد عليه .

(★) وهذا أعظم شهادة بكونى تفاديتُ الشقاقَ بكلّ وسيلة ، وجُزتُ على أخى نفسه من أجل ذلك لا خوفًا من أحد بل خوفًا على القضية السورية من عواقب الخلاف ، ومع هذا لم أستفدْ شيئًا .

(★★) كنتُ كتبتُ إلى السيد عما كنتُ أعْضُدُ آل لطف اللّه فى كل موقف وكم أطربتهم فى افتتاح المؤتمر العربى بديترويت مشيغن فى أمريكا أمام أُلوف الناس مما يدل على أنه ليس لى أدنى غرض شخصى فى استنكار بعض الحركات ، وأنَّ رائدى الوحيد إنما هو المصلحة الوطنية .

مؤتمر فلسطين بإرسال عضوها المحفوظ لها فى اللجنة ، وسيدفع عضُوها وعضو حزب الاستقلال ما يَخُصُّهما مِن نفقات اللجنة كسائر الأحزاب ، وكان متشائمًا جدًّا من اجتماعهم عندى عدَّةَ مرات مع عدد كثير من الوُجهاء المقيمين هنا من السوريين وتأليفهم لجنة وطنية جديدة ، وبحثهم عن مكان يجعلونه ناديًا لها ، وأخيرًا دعا أشهرهم إلى العشاء ، وظللنا نبحث فى المسألة إلى نصف الليل ، وتقرّر أنهم يسعون للتأليف بين اللجنة والوفد على قاعدة وجوب استشارة الوفد للجنة فى كلّ ما يريد أنْ يُقدمه إلى فرنسا أو إلى لجنة عصبة الأمم فى القضية السورية . وذكر فى هذه الجلسة ما يستنكره من الوفد ، وذكرنا له ما استنكره الوفدُ وغيرُ الوفد منه ومن إخوته ، ومن ذلك حديثُه مع صاحب (المعرض) بما هو ضدُّ إجماع البلاد . وذكرنا أيضًا مخالفةَ ما أُرسل أخيرًا إلى عُصبة الأمم بالفرنسية لما نشرت من قرار اللجنة بالعربية ، فاعتذر عن هذه بأنَّ بعض السياسيين الأجانب نصح له بأنَّ شدّة العبارة بالعربية تستنكره عصبة الأمم ويكون ضارًا . . . فقال له الزركلى : كان يجب إذًا أنْ تَجمع اللجنةَ وتعرضَ عليها ذلك التغيير برأيها ، فاعترف بذلك . وإنما ضمنوا له رضاء الوفد بما ذكر لأن اللجنة بيدنا . وصل مساء أمس جمال بك الحسينى منتخبًا من لجنة مؤتمرهم عضوًا للجنة مصر ، فهو عضو أصلى معنا ، وكنتُ عهدتُ إلى بعض الإخوان أنْ يكتبَ إليك بأنْ تكتب إلى طعان بك عماد(★) لتنتخب جمعيتُهم أو حزبُهم عضوًا بدلاً من نجيب بك يكون مع إخواننا الذين نثق بهم . ومِن رأيى أنْ نضع لائحة داخلية للجنة يكون من موادّها أنْ تنتخبَ اللجنةُ لكلّ جلسة رئيسًا ، فلا تكونُ الرياسةُ محتكرةً لصاحبنا ، ولا يكونُ محرومًا منها البتة ، وعسى أنْ يرضيَكم هذا . وربما ننتخب سكرتيرًا ، وتقرر أنْ تُنشر القراراتُ بإمضائه ، وقد قلتُ للإخوان إن الأمير شكيب ليس له إلا شرط واحد ضرورىّ ، وهو ألا يكون لطف اللّه هو الرئيسَ للجنة ، وكلهم يرجُون أنْ تقبلوا اقتراحى ، واللجنة كلُّها بيدنا ، وبهذا نتلافى شرَّ شقاق جديد ، ونقضى عليه . والسلام عليك وعلى من لديك .

رشيد

(★) فى الأرجنتين .

وكتب إلىّ فى 29 ربيع الآخر 1346 و 25 أكتوبر 1927 :

سيدى الأخ الأميرُ

وصل كتابُكم بعد أنْ علمتم من البرقيات أننا انفصلنا من ميشيل وانفصل منا(★) ، وأرسل إليكم صديقُنا شكرى بك كتابًا أو كتابين فصَّل فيهما ما وقع ، وذكر ما يطلبه الإخوان منكم ، وجاءت برقيةُ التأييد منكم باسم الوفد وبرقيةٌ لى ناطقةٌ بمبادرتكم إلى إجابة ما اقترح عليكم ، ولا بدَّ أنْ يكونَ (المقطم) الذى نَشر محضر جلستنا التاريخية التى ألغينا فيها الرياسة قد وصل إليكم ، وكذلك (كوكب الشرق) ، فهذا كلُّه قد وفَّر علىَّ الوقت الذى كان يجب علىَّ أنْ أشرح لكم فيه كلَّ ما وقع ، على أننى لا أعلم كلَّ ما كُتب إليكم فقد يكون بعض ما أكتبه منه ، وقد يكون مما يُستغنى عنه .

أقولُ قبلَ كلِّ شىء إنَّ من خُلُقى ورأيى أن لا أتصل بأحد بصداقة أو عمل ثم يكون الانفصال من قِبلى وحدى أو لأدنى سبب من الآخر ، وإن من خُلُقى وطبعى كراهةَ الاختلاف والتفرُّقِ والشقاق والمِراء ، وقد تركت جلسات المؤتمر الإسلامى العام فى الحجاز المرةَ بعد المرةِ عندما اشتدَّ فيه الاختلافُ والمراءُ الذى كان يُثيره وفد الخلافة الهندى ؛ فلهذين السببين الطبيعيين ولما أعلم من طبع ميشيل لطف اللّه وهواه فى سياسته ومسالكه فيها كنتُ أُجيبك عن اقتراحك تركَ اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى بعدَ أنْ علمتم من محاولته جعلَها ذريعةً لنيل إمارة لبنان – بما لا يُرضيك من الأجوبة . وأما اقتراحُك أن أكون أنا رئيس اللجنة فكان أبعد عن طبعى من الاقتراح الأول لأننى أمقُت هذه الرياسات والألقاب التى يتنافس الناس فيها منذ أدركتُ ، وأنا تلميذ فى طرابلس ، من تيارات التنافس الضارّ بين المفتونين بها . . . ولى كتاب فى هذا المعنى كتبتُه لشاب عرفته فى بيروت ، فأعجبنى حتى حسِبته صديقًا لى ، وقد نشر هذا الكتاب فى السنة الأولى للمنار ، دَعْ ما يترتب دائمًا على التفرّق والشقاق من سوء القدوة وسوء الأحدوثة[1] ، وغير ذلك من الضرر .

(★) لا تخلو معركة سياسية فى الدنيا من مثل هذه الاختلافات .

(1) **الأُحدُوثة** : ما يُتحدث به .

كنتُ أحب أن أجد وسيلة لجمع الكلمة بينكم ، معشر أعضاء الوفد السورى ، وبين الأمير ميشيل على قاعدة حديث « لا ضررَ ولا ضرار »[1] ، وكنتُ أفكّر فيما يَعقبه تركُنا له من الضرر ومن محاولته الانتقامَ وبذلَ الجهد والمال فى هذه السبيل[2] مع العلم بأنه يجد من السوريين مؤثرى المنفعة الشخصية على المصلحة الوطنية والقومية أعوانًا وأنصارًا ، وأعلم مع هذا أنَّ كثيرًا من الناس لا يميزون بين حقّنا وباطلهم ، وأنَّ كثيرًا منهم يعذلوننا ويعذلونهم ، وتضعُف ثقتُهم بنا وبهم .

فى 30 ربيع الآخر 1346 و 26 أكتوبر 1927 :

أضف إلى هذا أنَّ رأى إخواننا من أعضاء اللجنة كان موافِقًا لرأيى فى أنَّ المحافظة على مودّةِ الرجل والعملِ معه أنفعُ وأصلحُ وأرجحُ من تركه ، وأنه لا يُمكن أو لا يَسْهُلُ أنْ يَستَخدمَ اللجنةَ لتقرير ما يُنافى مصلحةَ الوطن أو يتّخذنا سُلَّمًا لمطمع شخصى ، وكان مع مواتاة السكرتير العام (نجيب بك) له وكون السكرتير (توفيق أفندى اليازجى) أطوعَ له - كان على هذا غير واثق بأنه يَقْدِرُ أن يتصرّف فى اللجنة كما يشاء أو فى أى شىء جوهرى لا يُمكنه إقناعى به لأنه لم يكن يغرُب عن فكره أنَّ لمواتاة المرحوم نجيب بك حدًّا تقف عنده ، وأن أسعد أفندى داغر أدنى إلى مخالفته من كلّ أحد . فما بالك وقد انضم إلينا الزركلى وهو أحرى بمخالفته ومحادّته[3] عند الخلاف من أسعد والأمير أمين أرسلان وهو مَن هو ، وكان أرجى المنضمين إلى اللجنة عنده فوزى بك البكرى ، ولكنّه لم يلبث أنْ سافر كما سافر سعيد بك حيدر الذى كان وَسَطًا بين الخوف والرجاء عنده .

لهذه الأسباب انقضى فصلُ الصيف ولم يُقْدِمْ الأمير على إحداث شىء يقاوِمُ به خلافَ الوفد له وإعراضَه عن اللجنة التنفيذية لأجلِه ، فلا استطاع أنْ يتَّخذَ قرارًا يكونُ ضدًّا على الوفد ، ولا أنْ يُرسلَ وفدًا آخرَ أو يُسافرَ به ، ولا أنْ يُنَفِّذَ ما كان اقترحه عليه نجيب بك من إنشاء مكتب سياسى فى جنيف ، والظاهرُ أنَّ نجيبًا كان يريد أن

---

(1) سنن ابن ماجه رقم : (2340 ، 2341) ، وصحيح الحاكم : (2/ 58) .

(2) **السبيل** : الطريق ، يُذكَّر ويُؤنث . (3) **حادّ فلان فلانًا** : غاضبه وعصاه .

يكونَ هو مديرَ هذا المكتبِ لأنه سئم الحياةَ فى مصر ، وما كان يحمله من التعب الشديد مع شدّة الحرّ فى هذا العام ، وقد ضاق ذرعًا بعد موت نجيب بك لأنه كان مُتَنَفّسَ همّه وحلّال مشكلاته ، فاتسع المجالُ لعبث فلان واتخاذه إياه ذريعةً للانتقام من أعدائه الاستقلاليين الذين ظهر لى أخيرًا أنَّ حضرة . . . أشدُّ مقتًا لهم وحقدًا عليهم من . . . فإذًا قد التقى الصديقان على هوى واحدٍ بل على أهواء متّحدة تُظهر لنا آنًا بعدَ آن ما لم نكن نعلم .

اليومَ قد ظهر لنا أخيرًا أنَّ فلانًا وفلانًا متفقان مع فلان على إحداث الشقاق ، وهم متفقون بالطبع على كل ما يتعلق بهذا الشقاق ، وخاصةً ما يتعلق بالثورة والثوار منه وما يتعلق بالتزلف إلى فرنسا ، فقد أعلنوا كلُّهم تأييدَ . . . فى عملهم الجديد ، ونشروا ذلك فى الجرائد ، وإننى لم أُقاطع . . . . إلاَّ بعد أن عقدت معه عدة جلسات سرّية للمذاكرة فى الاتفاق ، كان يكتُم عنّى بقدر ما كنتُ أُصارحه فيها ، ولكنّنى أحرجتُه فى الأخيرة منها حتى احتدَّ وغضِبَ ، فصرحَ بحقده على الاستقلاليين ، وإنْ كَتَمَهُ بعضَ سنين حتى امتلأ من أسفله إلى أعلاه ، وبأنه لما كان لا يُمكنه أنْ يبارزهم العداء بشخصه استخدم . . . . وحزبه ، فضرب بعضَهم ببعض ، فقلتُ له إنك أويتَ إلى ركن غيرِ شديد ، وعرَّضت نفسك للإهانة ، وكان الجميعُ متفقين على تكريمك ولو بالسكوت عن الطعن فيك ، وأحدثتَ تفريقًا جديدًا بين الوطنيين تعدّى إلى لجنتنا التنفيذية التى كان الجميع متفقين على تكريمها أيضًا ، فأكثرُ أعضائها خصوم لمن آويتَهم إلى مكتبها ، وجعلته وقفًا عليهم حتى تعدّى ذلك إلى شخصى ، وكان صديقًا لهم كلِّهم ولا سيما . . . . ، وسمحتَ بأنْ يكونَ مديرَ المكتب بكلّ ارتياح ، كما رضيت أنْ يحضُرَ الدكتور . . . . جلساتِ اللجنة بدون قرار . . .

قال بل كانوا يطعنون فىَّ وفى اللجنة ، وذكر لى أشياء من ذلك بَلَغته حينئذٍ ، قلت له : ما لنا وللكلام السرىّ الذى لا يُعرف إلا بطريق التجسس ، وهل تظن أنت أنَّ الناسَ لا ينقلُون لهم ولغيرهم عنك شيئًا ؟ إنهم ينقلون عنك أشياءَ لا تُحتمل كطعنك للإفرنج فى الإسلام والمسلمين ورميهم بالتعصب ، وبغضِ النصارى ، وتقرُّبك

إليهم وإلى رجال فرنسا خاصة بأنك لا تشتغل معنا إلا لكظم تعصُّبنا ، أو ما هو بمعنى هذا الكلام .

ثم قلت له يجب أنْ يكونَ لنا فى إخواننا المصريين عبرةٌ – وكان قال إنه لا يُبالى بأحد ولا بحزب ولا . . . ولا . . . . – فإن سعد باشا وصل فى هذه البلاد إلى مقام من الزعامة الإجماعية لا نَعرف له نظيرًا فى التاريخ ، ولما لم يبالِ بجماعة الحزب الحرّ طعنوا فيه وأهانوه حتى صار من يقرأ جرائدهم خارجَ مصر يظنُّ أنّه لم تبقَ له قيمة ، ولم يَقْدِرْ فى هذه الحال أنْ يعملَ عملاً ، ولما اتفق معهم أخيرًا أجمعوا على زعامته مع غيرهم ، ولم يبقَ له منازع فى زعامة هذا الشعب ، فهل أنت أعظم منه ؟ فالصواب إذًا أنْ نقتدىَ بالمصريين ، ونَنْبِذَ الضغائنَ القديمة ، ونكونَ كلُّنا يدًا واحدة ، وإذا أنت وافقتَنا على نشر كلمة تَحترمُ فيها الوحدةَ السورية ، وتُصرّحُ بأنَّ هذا التفريقَ الذى فعلته فرنسا بصدعها وجعلها دويلات ظلمت فيها سورية أشدَّ مما ظلمت غيرها بسلب جميع ثغورها البحرية منها . . . فإن الوفد السورى يرضى بذلك ويرجعُ إلى التكافل مع اللجنة التنفيذية ، كلُّ هذا لم يُفِدْ معه ، ولم يجبنى إلى طلبٍ ما ، فأنذرتُه الانفصالَ ، فانفصلت .

في 10 جمادى الأولى :

إنَّ يوم 19 أكتوبر الذى عقدنا فى أصيله[1] جلسةَ اللجنة ، وقررنا فيها إلغاءَ الرياسة مع ذلك البيان التمهيدى للقرار – كان موعدَ سفر جمال بك الحسينى وإحسان بك الجابرى من هنا إلى القدس ، وكان من المنتظر أنْ يحضر الجلسة إحسان ، ولكنّه لم يفعل بل جاء بعد نزول الأعضاء من عندى ، وكان قد أزِف وقتُ القطار الذى يسافر فيه ، فسألنى فأخبرتُه بقرار اللجنة بالاختصار ، ونزل إلى المحطة ، وبعدَ ساعة جاءَنى زكى باشا ومعه الدكتور شهبندر ، وأخبرانى أنَّهما كانا فى المحطة لوداع الجابرى ومعهما الأمير ميشيل ، فأخبرهما الجابرى أننا عزلناه ، فأخبرتُهما بما وقع

(1) **الأصيل** : الوقت ما بين اصفرار الشمس وزوالها .

فاستحسنا إلغاءَ الرياسة دون عزله ، وقالا إنهما يفضلان السعى للصلح والتأليف إذا كنتُ أُوافق . . . فوافقتُ فذهبا إلى ميشيل ، وكان ينتظرهما ، فذهبا إليه ، واجتمعا فى اليوم التالى عند زكى باشا اجتماعًا طويلاً لم يُنْتِجْ شيئًا ، ثم ظهر أنَّ لطف اللَّه وشهبندر يُراوداننى لأجل تأجيلِ نشر قرارنا إلى أن يكونوا قد اتخذوا قرارًا يجعلوننا فيه مدافعين عن أنفسنا . . .

هذا ملخص تاريخى ، والآن يجب الأخذ بالحزم ، وليكن مِن أهم عملكم استمالة الشبان السوريين الذين فى أوروبا .

فاتنى أنْ أذكُر لكم أنَّ الجابرى كلَّمنى من القدس بالتليفون بأن لا أنشرَ قرار اللجنة ، فتعجبتُ من ذلك ، وقد علمتُ مساءَ اليوم أنّه سيعود الليلةَ إلى مصر مع مفتى القدس الحسينى للسعى بالصلح . . . وقد جاء مصر أمس الأميرُ أمين ابن عمكم ، وعلمت بمجيئه بعدَ المغرب اليومَ ، فاجتمعنا به ، وطلبنا منه كلُّنا أنْ نعقد جلسة تحت رئاسته ، فتنصّل[1] ، وقال إنه على الحياد وما هذا معناه . . . ثم علّق رأيه الأخير على مقابلة الحاج أمين الحسينى والجابرى فرضينا ، ونحن الآن معه عند شكرى بك حيث أتم هذا الكتاب ، وقد قرأتُ كتابك لشكرى من برلين فَسُرّ به ، وكذلك برقيتك للجنة ، وأسرُّ ما سرَّنى من الكتاب كونُه بخطك ، فعسى أنْ يكونَ اللَّه تعالى قد أتمَّ لك الشفاءَ والعافية . والسلام عليك ، وكان الله معك .

أخوك رشيد

★ ★ ★

وكتب إلىّ فى 12 رجب 1346 و 5 يناير 1928 :

سيدى الصديق الأميرُ

أُحييك تحية مباركة طيبة ، وأدعو لك بالصحة والعافية وبالتوفيق لخدمة الملة والأمة ، فأحمدُ اللَّه أنْ أرى مكتوباتك ورسائلك تسير مسير الشمس فى كل قطر ،

---

(1) تنصّل من الشىء : تبرأ منه .

وتهبُّ هبوبَ الريح فى البّر والبحر ، وتُبيِّضُ صفحاتِ الجرائد والمجلات بسواد مِدادها المشبه لسواد القلوب والأحداق فى كونهما مستودَع نور البصائر والأبصار ، وإنْ كنتُ أغبِط جميعَ تلك الصحفِ باستئثارها بتلك الرسائل دونَ (المنار) ، وما كنتُ بالذى يقترحُ عليك شيئًا ، ولقد كنتُ مشفقًا على صحتك من كثرة النَّصَبِ فى الكتابة مِن قبل أنْ يَعْرِضَ لك من ضيق الصدر ما عرض ، حتى صرتُ حقيقًا أغبِطُ الأفراد على المكتوبات الخاصة أيضًا ، حتى إنك لم تكتب إلىَّ مرجوعة كتابى الأخير المطوّل الذى كتبتُه إليك بعدَ أنْ قمتُ بما قمتُ به مع إخوانى من إلغاء رياسة لطف اللّه الذى قامت به قيامتُه ، وكنتُ منتظرًا منك ذلك قبلَ سفرك ثم بعد عودتك ، ولا سيما بعد أنْ حدث من سعى زميلك إحسان بك مع صديقك وصديقينا مفتى القدس وأحمد زكى باشا للصلح والاتفاق مع لطف اللّه على أساس العودة لرياسة اللجنة .

أبرقتَ إلىّ بأن الجابرى سيمرّ ببور سعيد . . . فظننتُ أنه ذاهب إلى الحجاز أو إلى قطر أبعدَ ، وأنَّ المراد من البرقية لقاؤه فى بور سعيد بالباخرة عندما تصل إليها ، فسافرتُ إلى بور سعيد معطِّلاً جميعَ أعمالى ، وطفِقتُ طولَ النهار أبحثُ عن البواخر القادمة من أوروبا بسؤال شركاتها وإدارة الجمرك لأنك سهوت عن ذكر اسم الباخرة التى يُبحر بها أو لم تعرفه ، ولما لم يجئ فى ذلك اليوم المقدَّرِ لوصوله رجعتُ أدراجى ، ثم جاء هو فى اليوم التالى إلى بور سعيد ثم إلى مصر ، وفى أثناء وجودِه حدث ما حدث مما فصلتُه لك من قبلُ ، وقد كان جِدُّه واجتهاده واهتمامه فى سبيل الصلح يستغرقُ عامة ليله ونهاره ، وكان يصرّح بأنَّ هذا الصلحَ من الضروريات ، وأنَّ عدم النجاح فيه وبقاءَ الخلاف بيننا وبينَ لطف اللّه وشهبندر من أكبر المصائب والنوائب والأخطار على قضيتنا السورية . وكنتُ أسأله المرةَ بعد المرةِ : هل أنت على يقين من رضاء الأمير شكيب بهذا الصلح الذى اقترحتَ والشرائط التى ارتضيتَ ؟ فيقولُ نعم . نعم . وتراءَى لى أنَّ المكاتباتِ بينَكما متصلة ، وتزاحمت علىَّ الأعمال ، وتعدد عقدُ الاجتماعات ، وإحسان بك يكتب فى مذكراته كلَّ ما مر

به أو عرض له حتى الذرة وإذن الجرة[1] ، ومكتوباتك له متصلة أطلعنى من أواخرها على ما جاءَه بعنوانى وتلقّاه بيده من عندى ، فأطلعنى عليه كما أمرتَ . ثم ذكر لى كتابين آخرين منك، ووعدنى باطّلاعى عليهما ، ولم يفعل على تعدد استنجازى إياه الوعدَ إذ يقول إننى نَسيت ذلك فى البيت ، ولكنّنى زُرته فى البيت الذى يسكن فيه بعدَ أنْ ظهر حبوطُ كلّ عمل للصلح ، وهنالك طالبتُه باطلاعى على الكتابين اللذين كان أخبرنى بهما فلم يطلعنى عليهما . ثم جاءنى مساءَ هذا اليوم مودّعًا قُبيل ذهابه إلى المحطة للسفر إلى فلسطين ، فلم يتّسع الوقتُ للكلام ، ولكنه قال إنه لم يطْلِعْ أحدًا على كتابك الأخير المتعلّق بشئون الصلح حذرًا من تأثيره الذى يظهر أنه لا يُرضيه . فلم أسأله عما فيه لضيق الوقت الذى هو عذر له لا يُردّ ، ولعلّه لم يتأخّر فى وداعى إلا لأجل ذلك ، ولئلا أناقشَه فى البيان الذى أصدره هو وزميلُه أحمد زكى باشا إذ لم يصرحا فيه بكلّ الحقّ ولا بأكثره ، على أن ما كتباه أرضى جماعتنا بعضَ الرضا وأسخط الآخرين ، وسترونه مطبوعًا (ولم أجد وقتًا لإتمام الكتاب فأرجأته) ، والمودة بينى وبين إحسان بك كانت ، وما زالت ، تامة .

في 13 رجب 6 يناير :

قلتُ إننى كنتُ أظنُّ أنَّ إحسان بك يكتب إليكم فى كلِّ بريد ، وقد ذكرتُ له هذا أخيرًا بمناسبة فشله فى السعى للصلح والبرقيات الأخيرة ، فأخبرنى أنّه لم يكن يكتبُ إليكم شيئًا ، فعجبت أشدَّ العجب من ذلك ، وذكرتُ ذلك لشكرى بك ، فقال الأخ إنه لم يكاتبكم فى هذه المدّة أيضًا ، فما هذا الصارف الذى صرف الكلّ عن ذلك ؟ ووعدنى شكرى بك بأنْ يكتبَ إليكم بالتفصيل الذى لا أجدُ أنا وقتًا له .

جاء فى هذه المدّة ملكُ الأفغان فَسُرَّت مصرُ بزيارته لها لسببين ، **الأول** : أنه ملك مسلم مستقلٌّ استقلالاً مطلقًا دون الإنجليز خصوم مصر ، وأنّه على رأس نهضة مدنية عسكرية . . . **والثانى** : مما للسيد جمال الدين - رحمه اللّه - من التأثير الخالد فى مصر ، وقد ذكر به النابتة قول جميع الجرائد التى أبنت سعدًا إنه تلميذ السيد جمال

(1) **أى** : حتى أقلّ الأشياء أهمية .

الدين . وسَرَّ المدنيين منه تواضُعُهُ أو ما يعبِّرون عنه بديمقراطيته ، وساء الدِّينيين منه لُبْسُهُ للبرنيطة حتى اضطرَّ إلى الدفاع عنها بأنها قديمة فى بلاده ، وليس هو مقلِّدًا فيها للإفرنج . وهذا غير صحيح فإنه لم يَلْبَسْها قبلَه إلا والدُه بعد عودته من أوروبا ، ولكنْ فى بعض أوقات الصيد أو السفر فى الشمس ، ومع أنَّ الجمهورَ صدَّقه بقى العلماء وجميعُ المتدينين ساخطين ، وقد علم هذا فصرَّح يوم سفره من الإسكندرية إلى أوروبا تصريحًا فى شأنها ، وفى معنى الدين لا يرفع السَّخَط ، وقد يزيد اللوم . وذهب والجرائدُ راضيةٌ عنه أكثرَ من الجمهور .

زرتُه مع هيئة إدارة الرابطة الشرقية ، وقدّمتُ له فى هذه الزيارة رسالةَ التوحيد وخلاصةَ السيرة المحمدية وكتابَ الوحدة الإسلامية وكتابَ الخلافة مجلَّدةً بالحرير الأخضر ، وكنتُ جلَّدت له أجزاء تفسيرى الثمانية ومنشآت الأستاذ الإمام ، فأعطيتها لغلام جيلانى خان سفيره فى أنقرة ، وكنت عرَفته بمكة إذ جاءها مندوبًا لحضور المؤتمر الإسلامى ، وكان فيه كالظل التابع للمندوب التركى ، ووعدنى بأخذ موعد لمقابلة الملك مقابلةً خاصة إذا وجد وقتًا ، ولكنّه لم يفعل ، وقد ظهر لى منه ومن رئيس مجلس الشورى عندهم ومن سلطان أحمد سفيرهم السابق لدى الترك الذى قابلتُه من قبلُ أنّ كلَّ حاشية هذا الملك مصابون بعدوى الإلحاد الكمالىّ[1] ، ورأيتُ مَلِكَهم ومَلِكَتَهم مفتونين بالتفرنج[★] ولكنَّ حالةَ مَلِكِ مصرَ ومَلِكتِها حالت دون إظهارهما كلَّ ما كانا يُريدان إظهاره من التفرنج . وقد كتبتُ للملك كتابًا ذكرتُ له فيه ضرورةَ المحافظة على الدين وكونَ الكتب التى كتبتُها إليه تساعدُه على ذلك ، ورجوتُه بأنْ يأمرَ بترجمة السيرة المحمدية ومقدمة كتاب الخلافة وخاتمته ثم ما شاء من فصوله ، وأن يختارَ بعض أذكياء علماء بلده لقراءَة التفسير لأنه هو الذى يُقنعهم من طريق الدين بكلّ ما تحتاج إليه البلادُ من النظام المالى والعسكرى والفنون التى تنمى الثروة . . . إلخ ، وحذّرتُه فيه من كلّ ما ينافى الدين ومن الغرور بالترك

---

(1) يقصد أنهم مؤمنون بمبادئ كمال أتاتورك .

(★) وقد كان هذا هو السببَ الوحيدَ فى فقد أمان اللَّه عرش الأفغان .

الكماليين وغيرهم ، وقد ذهبتُ إلى محطة مصر ساعة وداعه فودّعته مع المودعين القليلين ، وأكثرهم من رجال الحكومة وسفراء الدول ، وأعطيت الكتاب لغلام جيلانى سفيره المذكور فى المحطة . وبعد ذلك رأيت صهره محمود طرزى خان وزير الخارجية فسلَّمتُ عليه سلام الوداع ، وذكرتُ له من حرصى على رؤيته بمصر وسؤالى عنه المرة بعد المرة وعدم تيسّر لقائه لى ، وذكرتُ له ما كتبتُ لجلالة الملك ، ورجوتُه أنْ يترجمه له ، ثم يترجم له عند الفرص بعض المسائل المهمة من الكتب التى أهديتها إلى جلالته . . . فأحسن الردّ (وقال إنه سمع بى كثيرًا) متأسِّفًا لعدم التوفيق للتلاقى ، ثم كتبتُ إليه كتابًا أرسلتُه إلى الإسكندرية مؤكدًا الرجاء بما ذكرته له مع توسع فى النصيحة الدينية .

وبعدَ رجوعى من المحطة بساعة بل بساعتين وإرسال كتابى إلى الطرزى خان بالبريد المستعجَل جاءنى رسول من عند مهدى بك رفيع مشكى الإيرانى يحمل أجزاء التفسير الثمانية ومنشآت الأستاذ الإمام ورسالة خديجة أُم المؤمنين ، ومعه كتاب من مهدى قال فيه : إن غلام جيلانى كلَّفه أن يعيد إليَّ هذه الكتبَ لأنه لم يجد وقتًا لتقديمها إلى جلالة الملك ، وأنه يتأسَّف لذلك . . فغلب على ظنى أنه تعمَّد عدمَ تقديمها لأن ثلاثة أيام ليست بالوقت الذى يضيق عن تقديم هذه الكتبِ ، وزاد الظنَّ قوة ما رأيتُه من غلام جيلانى من الإعجاب الشديد بالترك الكماليين . . . فكتبتُ لدولة محمود طرزى خان كتابًا آخرَ ذكرتُ له فيه إرجاعَ غلام جيلانى خان سفيرهم للكتب ، وخوفى أنْ يكونَ أمسك كتابى الخطى عنده فلم يقدمه لجلالة الملك ، وأن هذا إن وقع منه يكون خيانةً جلية ، ومحاولة حجر على ملكه أنْ يَطَّلع على ما لا يُحب هو أنْ يَطَّلع عليه ، ورجوتُه أن يجيبنى على خطابى هذا له لأكونَ على بصيرة فيما سأكتبه عن رحلة جلالة الملك أمان اللّٰه خان . وقد سافروا ولم يجئنى من الطرزى شىء(★) .

وقد فاتنى أنْ أذكر لك أننى ذكرتُ له فى كتابى الأول له أننى سمعتُ منك ثناءً عليه ،

(★) وذلك لأن الشيخ رشيدًا فى واد وهم فى واد .

فكان هو سببَ رغبتى فى رؤيته ومذاكرته فى إصلاح بلادهم(★) . وذكرتُ له أيضًا أنّنى أعُدّ نفسى من أحرص الناس على نهضة بلادهم ونصيحة ملكهم لسببين ، **أحدهما** : أنّنى أعُدَّ هذا فريضةً دينيةً ، **وثانيهما** : أنه دَيْنٌ علينا لأستاذ نهضتنا الأكبر السيد جمال الدين الأفغانى . . . وصرَّحت له بأنّنى لا أبغى على الهدية ولا النصيحة جزاءً ولا شكورًا ، كما ذكرتُ فى كتابى للملك أمان اللّه خان أن بعض فضلاء الهند عرَض علىَّ أنْ أنقطعَ لإتمام التفسير ، فلا أعمل عملاً إلا بعد أنْ يَتِمَّ ، وأنه يكفل نفقاتى ونفقات الطبع لاعتقاده أنّ هذا التفسير وحدَه هو الذى يُرجى به قيامُ المسلمين بالنهضة التى نُصلح بها أُمورَ دينهم ودنياهم معًا فى هذا العصر - أو ما هذا معناه - وذكرتُ له أنّنى لم أقبل هذا الاقتراحَ لأننى لا أقبل مِنَّةَ أحد ، وغرضى من هذا وراء الشهادة للتفسير بما تحتاج إليه بلاد الأفغان من المحافظة على الإسلام مع النهضة المدنية - هو أننى لا أبغى بإهداء هذا التفسير له مساعدةً ولا جائزةً ولا وسامًا . وجملة القول أن وجود ملك الأفغان ومَن معه مِن بطانته هنا قد زادنى خوفًا على خوف سابق وسوءَ ظنٍّ بالنهضة الأفغانية التى تنتهى إلى ما انتهت إليه المساعى التركية .

في 7 يناير :

بلغنى نبأ صديقنا المخلص داود أفندى مجاعص فى نجاحه المالى وفى أول زكاة زكاه بها(★★) فَسُرِرْتُ بالخبرين سرورًا عظيمًا ، وأرجو أنْ تُبلِّغَ هذا الوطنى المخلص

(★) نعم قد كان هذا قبلَ أنْ رأيتُ ما رأيتُ من تقليد هؤلاء للأنقريين ، وقد كنت عازمًا عند قدوم جلالة أمان اللّه إلى أوروبا أنْ أكون أولَ وافدٍ عليه ، فلما برز ما برز منه فى مصر من التفرنج عدلتُ عن كلِّ علاقة معه . وجاء إلى سويسرا وإلى نفس لوزان حيثُ كنتُ ساكنًا ، ولم أسلّم عليه . وكتب إلىَّ السيد رشيد بأن أُواجهه وأخبره بقضية إرجاعهم كتبَه إليه فأجبتُه بأنى لا أريد التلاقى معه . نعم بعدَ أنْ فقد عرشَه وسكن فى أوروبا جاء إلى مونترو ، وتلفن لى أحدُ مستشاريه بأنه يرتاح إلى مواجهتى ، فذهبتُ وسلّمت عليه ، ودعوته إلى تناول الطعام عندى ، وتلطّف وقَبِل دعوتى بمنزلى فى لوزان ، وجرت بيننا أحاديثُ طويلة صرّحت له فيها بكلّ ما أعتقد من أخطائه ، فاعترف ببعضها ، واعتذر عن بعضها ، ونفى صحة كثير مما عُزى إليه ، ثم ذهب بعدَ ذلك بقليل إلى الحجّ ، فكتبتُ إلى جلالة ابن السعود فى أمر الاحتفاء به ، وابن سعود غيرُ محتاج إلى توصية أحد فى إكرامه لضيوفه لا سيما من كان منهم من ملوك الإسلام ، فلقى منه أمان اللّه كلَّ ما يُطيِّب خاطره من الإعزاز والإجلال . ولعل أمان اللّه قد ندِم على قَبول نصيحة أولئك الذين نصحوا له بالتفرنج ، وكانوا السببَ فى فقدِه مُلْكَه الذى لا يُنْكَرُ أنّه حافظ فيه على الاستقلال التام .

(★★) ساعد منكوبى الثورة الذين فى صحراء النبك بمئات من الأغطية .

المصفَّى تحيتى وتهنئتى له ودعائى.بأن يَزيده اللَّه نعمًا ويَزيده شكرًا ، كما أدعو بهذا لنفسى ولصفوة أهلى وأصدقائى .

هذا ، وإننى فى أثناء كتابتى لهذا الكتاب قرأتُ فى جريدة الكوكب مقالك الذى ذكرتَ فيه خبر العالمين العاقلين(★) البصيرين اللذين لقيتهما فى موسكو فَسُرِرْتُ به ، ولم أَعُدّه غريبًا ، فإننى أعلم أنّ فى مسلمى روسيا كثيرًا من هؤلاء الفضلاء الذين على مَشْربنا ، أكثرهم فى ولاية قزان وأُوفا . وقد لقيت فى مكةَ أعضاءَ الوفد الروسى فى المؤتمر الإسلامى ، فإذا هم من خيارهم ، ورئيسهم الشيخ الكبير الذى خدم الإسلام أجلَّ خدمة إذ كان قاضى القضاة والمفتى فى أُوفا ، وكان كثيرًا ما يُرسل إلى المنار بمشكلات المسائل فننشرها فى باب الفتوى مع الأجوبة عنها . ولما رآنى بكى ، ثم حمد اللَّه تعالى ، وأثنى عليه أنْ يَسَّر لنا هذا اللقاءَ فى حرمه . . . وقد ذكرتُ فى مجلسى مع هذا الوفد وغيره أننى لما كنتُ أكتب دروس الأمالى الدينية فى الجزء الثانى وما بعده من المنار - أى من زهاء ثلاثين سنة - كتب سبعون طالبًا من طلبة المدرسة المحمدية فى قازان إلى مدير المدرسة بأننا لا نقبلُ بعدَ الآن أنْ تقرأ لنا العقائد على الطريقة التفتازانية والفلسفة اليونانية ، وإنما نطلب أنْ تُقرأ علينا على طريقة المنار . . . فقال أحد أعضاء الوفد وهو من أفاضل علمائهم الأتقياء العصريين : إننى كنتُ من أولئك الطلبة الذين كتبوا تلك العريضةَ للمدرسة ، وقد كان هذا الوفدُ كلُّه من مؤيدى ابن سعود ومتعجبين من أهواء وفد الخلافة الهندى .

وقد كان وما زال طلابُ العلم بمصر من هؤلاء التتار أذكى طلاب الأقطار ذهنًا ، وأشدَّهم نشاطًا ، وأهداهم فى الطلب سبيلاً ، وكان عندى فى مدرسة الدعوة والإرشاد أفراد منهم ، وكان بعضهم يتلقى عنى بعض الدروس قبل إنشاء المدرسة فى بيتى وفى مسجد قريب منه ، وأهم الكتب التى قرأتُها لهم رسالةُ التوحيد لأستاذنا الإمام رحمه اللَّه تعالى . ولا يَبْعُد أنْ يكونَ صاحباك فى موسكو من المطلعين على

(★) فى موسكو مسجدان كبيران ، إمامُ أحدهما الأستاذ عبد الودود والآخرُ الأستاذ عبد الله ، وكلاهما من العلماء الفضلاء ، وهما يعرفان العربية كعلمائها ، وقد صَلّيْتُ فى كلٍّ من المسجدين جمعةً ، وابتهجت جدًا بما رأيتُ عليه جماعات المؤمنين هناك من عبادة وخشوع وأدب وحسن سمت وزىّ وإتقان للقراءة حتى كان قُراؤهم من أجود قُراء العرب ، وكذلك أُعجبت بنسق الخطبة . وفى كلا المسجدين على كبرهما رأيتُ الازدحامَ شديدًا .

المنار(★) فقد كان له قبل الحرب كثير من المشتركين ، وكانوا أحسنَ مشتركى الأقطار الإسلامية وفاءً .

قد تمَّ فى الشهر الماضى طبعُ الجزء الأول من تفسير القرآن الحكيم الذى كنتُ طبعتُ تفسير الفاتحة منه منذ عشرين سنة أو أكثر ، وكاد يتم تفسير الجزء التاسع بعده قبلَ أنْ يتمَّ هنا لولا أنْ مَنَّ اللَّه تعالى ببذل الهمة فى الشهرين الماضيين بإنجازه ، وأرسلت إليك فى البريد الماضى نسخة منه ونسخة من كتاب (الوحدة الإسلامية) الذى طُبع أخيرًا ، وستجد فى هذا الجزء من التفسير ما سمعتَ من صاحبك العالم الروسى(★★) فى موسكو فى تفسير ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : 29] وفى بحث إعجاز القرآن ، وقد سبق ذكرُ هذه المسائل فى المنار من قبلُ . والسلام عليك وعلى نجلك الكريم ، وعسى أنْ يحفظَ خلاصة السيرة المحمدية - وعلى صديقِنا العالم العامل فؤاد بك سليم[1] وصديقِنا الوطنى السياسى رياض بك ، ولا زلتم سالمين لأخيكم المخلص .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 2 شعبان 1346 و 26 يناير 1928 :

سيدى الأخ الأميرُ

تلقيت كتابيك الكافيين الشافيين اللذين هما فى موضوع مسألتنا الوطنية خير وأوفى من كافية[2] النحو ، وفى موضوع المسألة الإسلامية الأفغانية أشفى من الشافية[3]

(★) نعم أتذكر ذلك . (★★) الأستاذ عبد الودود أحد الإمامين .

(1) هو **فؤاد بن يوسف بن حسن سليم** (1311 - 1344 هـ / 1893 - 1925م) قائد عبقرى ، ولد فى إحدى قرى لبنان ، كان من ضباط الجيش العربى بدمشق ، وقاتل الفرنسيين يوم (ميسلون) وثبت حتى كاد يؤسر ، وقصد شرقى الأردن فأحسن تنظيم جيشها ، استشهد فى (مجدل شمس) بإحدى قنابل الفرنسيين . (الأعلام : 5/ 162) .

(2) **الكافية** : هى تلخيص مشهور فى النحو ، ألَّفه ابن الحاجب (ت : 1248م) ، طبع فى روما - أوّل ما طُبع - سنة 1592 ، وعليه شروح .

(3) **الشافية** : تلخيص مشهور فى التصريف ، ألفها ابن الحاجب ، وعليه شروح .

الصرفية ، ولا سيما إذا ضممنا إلى المسألة الوطنية كتابيك إلى الأخ شكرى بك والوثيقةَ التى مع أحدهما ، وقد كان يجب أن تَكتبَ تلك التفصيلات كلَّها أو أكثرَها فى مقالة تنشر فى الصحف ، ولعلَّ بعض الإخوان يفعل ذلك ، وقد قرّرنا أنْ نكتبَ إلى أمريكا والأرجنتين بما عندنا من بيان ، ولعلّه يُرسل غدًا ، وقد ذكَّرتُ الإخوانَ فى جلسة أول من أمسٍ أنّنى قلتُ لهم عَقِبَ موت نجيب بك : يجبُ أنْ يكتبَ خيرُ الدين أو شكرى إلى الأمير شكيب بأنْ يقترح على جمعية الأرجنتين أو على طعان بك بأن يُعَيِّنوا واحدًا منا مكانَ نجيب ، وأكَّدت عليهم ذلك عندما قَوِيت بوادرُ الخصام بيننا وبين . . . فاعترفوا بالتقصير والإهمال ، ولكنَّ تنفيذ هذا الأمر بعزل . . . وتعيين آخر من الوطنيين الصادقين بدلاً منه له من الوقع والنصر المبين ما يجعل تأخرَه إلى الآن خيرًا من تقدُّمه فى الزمان .

ويلى هذا تأييدُنا من جماعات الطلبة فى باريس وجنيف وبرلين ، ومتى ساعد الزمان على تأليف مؤتمر جديد يكون له القول الفصل فى هذه المسألة ، ويرى إخواننا أنه يتعذّر الآن ، وسنخبرك بكلّ عمل للجنة هنا إن شاء اللّه تعالى .

أمّا ما كنتَ كتبتَه فى « الأخبار »(★) مما يتعلَّق بالمسائل الشرعية الأصولية كالمصالح المُرْسَلة[1] وغيرها فلم يكن كلُّ تفصيل فيه صوابًا ، كما أن الذين ردُّوا عليه حتى من العلماء لم يكن ردُّهم كلُّه صوابًا(★★) ، وكنتُ تمنيتُ لو أرسلتَ مثل هذا الموضوع إليَّ لأنشره فى المنار أو فى الأخبار أو فيهما وإذًا لجعلتُه بحيث يكون مَن يرد عليه مستهدفًا للتجهيل ، على أنَّ هؤلاء العلماءَ إذا علموا أنه نُشر فى المنار لا يتجرؤون على الردّ عليه حتى فيما يظهر لهم أنه خطأ . وأتذكّر أننى كنتُ قصصت مقالتك من الجريدة ، ثم

(★) جريدة المرحوم أمين الرافعى الذى كان من أعزّ أصدقائى ومن خِيرة رجالات الإسلام .

(1) **المصالح المرسلة** : هى ما لا يشهد له أصل من الشارع ، لا بالاعتبار ولا بالإلغاء ، وهى أعم من الضروريات لأنها تشمل الضروريات والحاجيات والتحسينات . (معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية : 3/ 296) .

(★★) كنتُ كتبتُ شيئًا معناه أنَّ الشريعةَ عبادات ومعاملات ، فالعبادات هى التى لا يجوز فيها الاجتهادُ ، وأما المعاملات فيجوز فيها الاجتهاد اتباعًا للمصلحة . فردَّ عليَّ أُناس من الفقهاء لكن بحسن نية ، وطلبوا منى الإيضاح ، فأجبتُ بما حضرنى يومئذٍ ، والأستاذ يرى أنى لا أنا ولا الذين ناظرونى كنا على صواب فى كلِّ شىء ، وهو أدرى .

قصصت الردَّ عليها ، ولما لم أتمكن من ذلك فى وقته صار عثورى على تلك القُصاصات يتوقف على زمن أبحث عنها فيه ، وأنَّى لى بهذا الزمن ؟ فإذا كان المقالُ والردُّ عليه محفوظًا عندك ، وتيسّر لك تلخيصُها فى سؤال تستفتى فيه المنار رجوتُ أنْ أكتب فى الجواب ما هو مفيد ، وأنشره فى جريدة الأخبار .

أظنُّ أنك قلت فيه إن تحكيم المصلحة أو القول بالمصالح المرسلة مجمع عليه - والمعروف فى كتب الأصول أنَّ فى مذهب مالك خلافًا ، وضعَّف أدلتَه بعضُ الأصوليين . ومع هذا نجد بعضهم فسّر المصالح تفسيرًا قال إنه لا خلافَ فيه ، ومتى رأيتُ الأصلَ يكون لى فيه ما أنصرك فيه على كل حال ، وأعذرك إذا لم تكن عبارتُك موافقةً للاصطلاح الأصولى فيما أنت فيه من مكان وزمان . واعمل فحسبُك أن يكون غرضُك صحيحًا شرعًا . . . والسلام .

رشيد

حاشية :

أُسلِّم على ولدنا الأعز الأمير غالب ، وأدعو له اللّٰه تعالى بأن يفوقَ والده علمًا وإيمانًا وحكمةً وأدبًا وسياسةً وثروةً ووطنية وأدعو بهذا لأولادى أيضًا .



وكتب إلىَّ فى 7 شعبان 1346 و 31 يناير 1928 :

سيدى

إننى حضرتُ بعدَ كتابة ما كتبتُ يوم الجمعة 2 شعبان جلسةً رأيتُ فيها كتابًا آخر منك للأخ شكرى بك اقتضى أن نعقد لأجله جلسة أخرى ، فأخرتُ إرسالَ الكتاب لعلِّى أحتاجُ إلى زيادة عليه ، وبعد الجلسة الأخرى أىْ بعدَ انتهائها علمت من الأخ الحاجّ أديب أنَّ البرقية التى كتبتُها فى تعزيتكم يوم نُعى إلينا الأمير نسيب - رحمه اللّٰه تعالى - لم تُرسل إليكم بل إلى الأمير أمين فقط ، فساءَنى ذلك من الإخوان ، وقد كانوا مجتمعين عندى يومئذ ، وكلَّفتهم ترجمتها وإرسالها على الحساب لأنهم اتفقوا

على التوقيع عليها . وقد كنتُ كتبتُ كتابًا فى التعزية لينشر فى المجلة ، وقد تأخّر صدورُها ، فرأيتُ إرسالَ صورته إلى الشورى والأخبار ، وهذه صورة منه بيدك الآن(★) .

كتبتُ إلى الملك كتابًا مشتركًا بينى وبين الأستاذ الشيخ كامل وكتابًا آخرَ منى إلى والده أستنجده بعبارة مؤثرة ليأمر ولده بإغاثة ضيوفه(★★) ، وهذا أهم ما رجوتُه به . وقد كتب الإخوان إليك بما قَرّرنا فى مسألة مكتوباتك .

رشيد



وكتب إلىَّ فى 8 رمضان 1346 وأول مارس 1928 :

سيدى الأخ الأميرُ

أُحييك تحية مباركة طيبة وأسأله تعالى أن يوفقَنا وإياك لما يرضيه فى هذا الشهر من صيام نهاره وقيام ليله وتلاوة كتابه فيهما . وما خصّ اللّه تعالى بعض الأوقات بأنواع من العبادات مع استواء الأزمنة فى نفسها إلا لتنشيط عباده ورفع المشقة عنهم وكذلك الأمكنة كالمساجد ومعاهد النسك : الحج والعمرة . وكان فى نفسى أنْ أكتبَ إليك مهنئًا برمضان ومذكّرًا(★★★) بإفراده بشىء من العبادة فيه (ولا سيما تلاوة القرآن) قُبيل دخول الشهر أو فى أوّله ، وما أَخّرتُ لكثرة الشواغل بل لأننى كنتُ منتظرًا فى كلّ يوم من هذه المدة من رمضان مرجوع كتابى الأخير إليك فإن فيه ما يقتضى الجوابَ منك ليكون كتابى هذا جوابًا عنه أيضًا ، ولما ورد الردُّ على كتاب الرافعى مدير إدارتنا أمس دون كتابى الذى أتذكر أنه أُرسلَ قبلَه ، بادرْتُ بهذا الاحتمالِ أنْ يكونَ قد فُقد من البريد أو تأخَّر خطأً من التوزيع عندكم ، والذى يقتضى الجوابَ

(★) سبق ذكرُ تعزية السيد لى بفقد أخى نسيب وجوابى عنها .

(★★) المجاهدين الذين لجأوا إلى وادى السرحان من أرض ابن سعود .

(★★★) كان – رحمه اللّه – يهتم بى دنيا وأخرى ، ويعلم أننى لا أُقلّد غيرَه من فقهاء العصر . وكتب فى المنار عن أخيه هذا فيما أتذكر : أنه لا يَلَذُّ له شىء مثلُ الصلاة بإمامتنا . وهذا صحيح .

منك فيه هو سؤالى إياك عن المسائل الدينية والشرعية التى ضمنتها بعض مقالاتك التى نُشرت فى جريدة الأخبار ، وأنكرها بعضُ المشايخ هنا ، فقد ذكرتُ لك فى الكتاب أنى كنتُ قصصت الأصل والردَّ عند قراءتهما لأعود إليهما وأكتبَ شيئًا فى موضوعهما أنصرك فيه لأن كلامك فى جملته والمرادِ منه صوابٌ ، وإنما يوجد بعض الخطأ فى بعض العبارات الاصطلاحية كمسألة المصالح المشتركة - ولكن كثرة هذه القصاصات من الجرائد عندى وكثرة عملى لم يمكنانى من البحث عن مقالتك والردّ عليها ، ورغبتُ إليك أنْ تلخص لى ما قلتَ ورُد عليك به لأُجيب عنه .

وأقول الآن : لك أن تضع هذه المسألةَ بصيغة استفتاء منك أو من سائل آخر معيّن أو غير معين ، ولك أن تعيِّن لى الموضوعَ لأكتب فيه من تِلقاء نفسى ، وإذا رأيتَ أن الأسهل عليك والأولى أنْ تذكر لنا تاريخَ العددين أو الأعداد التى نشر فيها ما ذكر فافعل ، ونحن نراجعه فى مجموعات الجريدة فى المكتبة المصرية الكبرى (دار الكتب الرسمية) ، وأنا كلَّفتُ الرافعىَ أنْ يرتِّبَ لى ما عندى من قصاصات الجرائد - كلفته ذلك من قبلِ دُخول شهر رمضان علينا ، فوعد أخيرًا بأن يبدأ بذلك فى الأسبوع الآتى (بعد غد) إذ يكون انتهى الشغلُ الضرورى الذى اعتذر به أولاً .

أعتذر عن إرسال كتاب التعزية إليك مطبوعًا - إنْ كان وصل - بأنّنى كنتُ كتبتُ له مسوَّدة على خلاف عادتى لأنّنى عازم على نشره ، فلا بُدَّ أن أُبقى صورتَه عندى للنشر ، فكتبتُ المسوَّدة ، ولم يتيسّر لى تبيضُها عقبَ كتابتها فأعطيتها للمطبعة ، وبقيَتْ فيها أيامًا ثم رَمَوْها بعدَ جمع حروفها للطبع ، وطبعوا عدة نسخ منها ، وكان قد تأخَّر الوقتُ المناسب للتعزية ، فعزمتُ على الاكتفاء بطبعها فى المنار أولاً ، فلما تأخَّر أرسلتُها لبعض الجرائدِ ، وكنتُ قد كتبتُ إليك الكتابَ الأخير من عدّة أيام ، ولما أردت إرساله وضعتُ فيه نسخةً مطبوعة من التعزية حتى لا يتأخرَ لأجل تبييضها . إنّ كثرةَ شغلى وضيقَ أوقاتى عنها تقتضى أكثرَ من هذا التقصير ، إنّ هيئة علمّية من شيكاغو كتبت إلىَّ من العام الماضى أسئلة تتعلق بترجمتى وعملى فى الإصلاح الإسلامى وأملى فيه ، ولمَّا أُجبْها إلى الآن ، فكتبتْ ثانيةً من عدة أشهر تُلحّ فى الطلب . . . عسى أنْ يكونَ الأميرُ غالبٌ مغبوطًا بصيام رمضان كأولادنا هنا ،

وعسى أن يكونَ أستاذه المصرى يُعلّمه توحيد القرآن[1] . والسلام عليك وعليه ورحمة اللّه تعالى من أخيكم .

رشيد

حاشية :

أحبُّ أنْ تقرأ ما يُنشر فى المنار من التفسير ، ولا سيما تفسيرُ سورة الانفطار الذى يُنشر فى هذا الشهر ، وأن تقرأ الجزء الأول المشترك بينى وبين أستاذنا المرحوم[2] ، فقد تَقْضِى الحالُ أنْ تَكتبَ تقريظًا له مع تقاريظَ أُخرى فى كتاب مستقلّ إنْ شاء اللّه .



وكتب إلىّ فى 22 ربيع الأول سنة 1347 و 6 سبتمبر :

سيدى الأخ الأميرُ

منذ أول أمس أُلقى إلىّ كتابك فسُررت برؤيته وبضخامته ، فلما قرأته امتعضتُ ، وساورنى الغمَّ لِما ذكرتَ من نبأ صحتك ومضاعفة المرض القديم بآلام نُزول الحَصيات ، ولحاجتك إلى الراحة سنةً كاملةً تُحرم فيها الأمة ثمرات علمك واختبارك التى هى أينعُ ثمار العقول الراجحة ، ولا سيما إذا تجلت فى معارض بيانك وأساليب بلاغتك ، ولاضطرارك إلى الاستقالة من الوفد السورىّ ، أىْ لهدم بناء الوفد السورى ثم جعله عُرضةً لنزوان[3] أدعياء الوطنية على منبره ، كما ورد فى نزوان أُغيلمة[4] بنى مروان على منبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ، ولِمَ لا تجعلُ هذه الاستقالةَ إجازةَ مَرَضيةً ، وتُوكِلُ بها عنك من ترضاه ممن يلم بتلك البلادِ (سويسرا) من الوطنيين ليبقى البابُ مقفلاً فى وُجوه تُجار الوطنية وأدعيائها .

(1) يقصد توحيد اللّه - عز وجل - كما ورد فى القرآن الكريم ، دون تفريعات كثيرة قد تَبعُدُ بنا عن جوهر التوحيد .

(2) يقصد الأستاذ الإمام محمد عبده .

(3) **النزوان** : الحدّة والوثبة .

(4) **أُغيلمة** : تصغير (أغلمة) جمع (غلام) ، وقد صغر هذا الجمع رغم عدم شهرته لأنه جمع قلة ، ولم يصغر (غلمان) رغم شهرته لأنه جمع كثرة ، وجمع الكثرة لا يُصغر ، لأن التصغير يُنافى الكثرة .

وأما قولُك عن الحالة الاجتماعية والأخلاقية سبب آخرُ للقنوط فهو حقٌّ إذا أردتَ به القنوط من مسلمى البلاد . وأنا على هذا الرأى منذ خبرت البلاد سنة 1920م التى عقدنا فيها المؤتمر السورى العام وأعلنا الاستقلال ، ولكنَّ القنوطَ منهم لا يُبيح القنوطَ من رحمة ربنا ، فيجبُ أنْ نَثْبُتَ على جهادنا ، ولكنْ مع مراعاة صحتنا . وحالى فيها مثلُ حالك فى الاحتياج إلى الراحة . فأنا أكتب هذا مستلقيًا على سريرى ، وقد طالعت قبلَ كتابته بعض ما فى الجرائد والمجلات التى وردت مع بريد الصباح ، فزادت حرارتى نصفَ درجةٍ فى ساعة واحدة ، وقد أجمع الأطباءُ الذين تواردوا علىَّ فى هذا المرض على توقف شفائه السريع على الراحة التامة بترك القراءة والكتابة والتفكير المحزن ، وقد اعتزلتُ دخول مكتبى لأجل طاعتهم من مدة خمسة أسابيع ، ولكنّنى لا أستطيع أن لا أنظرَ فى كلِّ يوم ما يتجدّد من الأنباء الخاصة بشأن أُمتنا العربية . وقد أَرقت[1] جُلَّ ليلة أمس تفكيرًا فى تحفُّظات انجلترا فى ميثاق إبطال الحرب . . . ومعاهدة شرق الأردن التى تجعل قلب البلاد العربية مركزًا حربيًّا لهذه الدولة . . . ومسألة العراق ونجد . .

ما كان أشدَّ سرورى بدعوتك السابقة لى إلى تغيير الهواء لديكم فى لوزان حيث أتمتع بالمحاورات والمسامرات معك ومع الصديق العالم العاقل فؤاد بك[★] ، وإنما كان سرورًا بأمنيّة يتعذَّر علىَّ تحقيقُها لدوام الحمَّى علىَّ ، ومرض شقيقتى بعدَ وفاة أختها ، ووصولها إلى حد اليأس ، وهى لا تزال حِلْسَ[2] الفراش ، وقد أرسلناها مع زوجها السيد عاصم إلى الإسكندرية ، ولسبب ثالث وهو عسرةٌ مالية عرضَت لنا منذ عروض هذه المصائب لهذا لم أقدرْ أنْ أكتبَ إليك شيئًا فى الشكر على تلك الدعوة والتحدث معك بأمنيتها العذبة .

كانت العسرة المالية ونتائجها من أسباب طول هذه الحمى ، وقد زالت ، وكذلك

---

(1) **أرق** : امتنع عليه النوم ليلاً .

(★) الأخ فؤاد بك سليم الحجازى المصرى سفير تركيا فى سويسرا سابقًا .

(2) **الحِلْس** : كل ما يبسط فى البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع ، والمقصود أنها ملازمة للفراش .

كان مرضُ الشقيقة ، وقد حَسُنَ حالُها ، وقد غيَّر لى الدكتور النطامى المعالج لى الآن (وهو فى الذروة من أطبائنا) العلاجَ ، ووسَّع لى شيئًا فى غذاء الحمية ، وقدر للشفاء عشْرة أيام ، وأنا أرجو أنْ تكونَ خمسةَ أيام ، فعسى اللَّه أنْ يصرفَ عنّى فيها المكدِّرات وما علمت من مرضكم ، فواللَّه إنَّ صحتكم لثمينة عندى كما تعلمون من حالكم معى ، فعسى أنْ تبشرونى قريبًا بما يَسرُّنى . وأُوصيكم وإياى بالراحة التامة عسى أنْ تعودَ الصحةُ التامةُ فى مُدّة أقربَ مما قَدّر الأطباء ، والواجبُ تركُ الإفراط السابق فى التعب على كلٍّ منا . وأُحيِّى سعادةَ صديقِنا النابغة فؤادَ بك سليم ، وأَوَدُّ لو يُتحفُ المنارَ بشىء من تحقيقات مباحثه . وأُقبِّل نجلَكم النجيبَ الأمير غالبًا بالغيب ، وأسأله تعالى أنْ يجعلَه قُرَّة عين لكم وللأمة ، ويجعلَ أولادَنا كذلك . والسلام من أخيك .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 18 رمضان 1347 و 28 شباط 1929 :

سيدى الأخ الأميرُ أطال اللَّهُ بقاءَه وأنسأ[1] فى أجله

أُحييك تحية مباركة طيبة ، وأُهنئك بشهر الصيام المبارك وليلةِ قَدْرِهِ وعيدِ فطره ، وأسأل اللَّه تعالى أنْ يُوفِّقنا وإياك لما يحب ويرضى من صيام وقيام وتلاوة مع القصد والاعتدال فى الجهاد الدينىّ والسياسىّ . ثم إننى أكاشفك بما فى نفسى من أسًى وامتعاض من أخبار صحتك ومن كثرة تحدُّثك بتحديد عمرك واستقبالك لشيخوختك[★] وبما هو آلم من ذلك مما يُشبه نعىَ نفسِك ، وأستغربُ منك مع

---

(1) **أنسأ** : أخّر .

(★) كان كرّم اللَّه مثواه يَضيق صدرُه ببعض ما يَرِدُ فى نظمى ونثرى مما يُشبه أنْ يكونَ نعيًا للنفس . وكان قد نبّهنى إلى ذلك ، ولا سيما عندما قلت فى رثائى للمرحوم الشيخ شاويش :

أتظنّ أنْ تمضى وأبقى وَافرًا ... هيهاتَ قد صار البقاءُ قليلا
إنى أحِنّ إلى اجتماع الشمل فى الـ ... أُخرى كأنّا فى الحياة الأولى

هذا إصرارَك على ما تعوَّدتَ من إسراف فى القراءة والكتابة غيرَ مشفق على عينيك من كَلال ولا تعب ولا وجع ، ولا على صدرك من ضيق ولا شَجَى ، فَارفُق بنفسك فإنّ حقَّها عليك مقدَّم على جميع الحقوق ، ثم إن لبدنك عليك لحقًا ، وإن لأهلك وولدك لحقًا ، وإنك لن تستطيعَ أداء حقوق الملة والأمة والوطن إذا أنت فرَّطت فى حقوق نفسك وبدنك ، فاتَّق اللَّه تعالى ، وعليك بالرفق والأَناة ، وخَفِّفْ من حُزنك وهمك والتصدى لمقاومة كلِّ خطب والردِّ على كلِّ مخطىء ، وإن كان مثل . . . . وادَّخر علمَك وخبرك ولسانك وقلمك للعظائم . وأَشْهَدُ باللَّه أنَّ من أعظمها مفسدةَ الكماليين وجنايتَهم على الإسلام والمسلمين وسريانَ عدواها إلى شاهَىّ الأفغان وإيران وملاحدة المتفرنجين فى مصر والعراق وسورية ولبنان ، وقد كنتَ ، وما زلتَ ، فى جهادهم فارسَ الميدان وأميرَ البيان وحامل لواء البرهان . بَيْدَ أنى أرى أنَّ من الواجب عليك أنْ تجيبَ « ابن المدينة » إلى ما اقترحه عليك فى هذا الأسبوع بمقال له فى جريدة (العهد الجديد) البيروتية من بيان القول الفصل فى الخُطة التى يجب على العرب ترجيحُها فى سياستهم وتجديد حضارتهم وسيادتهم ، وقد ذكر خُطتين عزا إحداهما إلى الأستاذ الإمام ، وذكر أنَّ صاحب المنار يؤيّدها ، ولما ذكر الخُطة المقابلة لها وهى التى يرجِّحُها هو : قَيَّدها بما يجعلها عين الأولى إن لم يكن تحديدًا فتقريبًا ؛ إذ قيّدها بالمحافظة على دين الإسلام ، ولكن ذكر من أصولها حريةَ الدين والمعتقد والفكر والقول . . . فتعارض كلامُه ، ويَظهر مما فصله : التباينُ بين الخُطتين ، ونحن قرَّرنا بما نشرنا للأستاذ الإمام ولنا أنّ الإسلام هو الذى قرّر حريةَ الدين والاعتقاد ، ومنع الإكراه على الدين واضطهادَ أحد لعقيدته ، ولكنّه لا يُبيحُ لأهله الطعنَ فيه ، أى فيما هو قطعى منه ، وإنما يُعْذَرُ المخالفُ للنصوص متأوِّلاً .

وأتمنى أنْ تتفضَّلَ علىّ بما تكتبُه فى هذه المسألة ، وتبيحَ لى حقَّ إبداء الرأى لك فيما عسى أنْ أَجِدَه محتاجًا إلى زيادة أو حذف أو استدراك ، وأعنى إبداءَ الرأى لك قبلَ النشر إنْ كان ما يُكتب يحتاج إلى ذلك لأننا مشتركون فى هذه الخُطة ، وأنت الأجدرُ ببيان الخُطة ببلاغتك ومعارفك ، ولكنَّك قد تحتاج إلى شىء من معلومات أخيك

الخاصة بنصوص الكتاب والسُّنة ، وأخيرًا ننشر المقال فى المنار وكوكب الشرق ، ونرسلُه أيضًا إلى جريدة العهد الجديد ، وأظنُّ أنَّ الجرائد الإسلامية فى الشرق والغرب تنشره أيضًا .

أُسلِّم على نجلك النجيب ، وأشتاق إلى أخباره ، وأُسلِّم على صديقنا العالم الكامل فؤاد بك سليم وعلى الصديقين الوطنيّين إحسان بك ورياض بك ، وعسى أنْ يكونَ قد سلَّمكم جميعًا من أذى برد هذا الشتاء الشاذّ ، والأخوان عاصم والرافعى يُسَلِّمان معى تسليمًا .

أخوكم رشيد



وكتب إلىّ فى غُرة ذى القعدة 1347 و 11 نيسان 1929 :

إلى أخى وولىّ الحميم أبى غالب آل أرسلان ، أنسأ اللّه تعالى فى أجله للعرب والإسلام . .

أُلقىَ إلىّ كتابك الأخير أولَ من أمسِ ، فتلقيتُه كما يتلقَّى الثدْىَ طفلٌ بعيدُ عهدِ الرَّضاع ، كما قال فى معشوقه الشاعر المصرى « الشبراوى » ، ولو اتّسع وقتى الآنَ لحوَّلت هذا التشبيهَ إلى ما هو أَعجبُ إلى العشاق وأرضى لأديبنا المرحوم « الفارياق » ، فإنه شفى بعض ما فى النفس من الألم الدخيل والامتعاض العميق اللذين يَغوصان ويَرْسُبانِ فى أعماق قلبى من كثرةِ نعيك لنفسك وتَكرارِ ذكر عمرك واستكثارِك لسنِّ الستين قبلَ إتمام عشرها ، وهو العَشْرُ الأوّلُ من النصف الثانى للعمر الطبيعىّ الذى يتجاوزه كثير من الناس(★) . وقد عُرِفَ فى هذه الأيامِ رجلٌ أتمّ الخمسين بعد المائة ، وأما الذين يبلغون العَشر الأخير من المائة ويتمونه أو يتجاوزونه فكثيرون فى بلادنا وغيرها ، ومنذ شهر مات أبو قاسم العرب فى الشياح عن 93، وكتب إلىّ ابنُ أخيه نورُ العرب أنَّه كان إلى عهد قريب يعملُ كلَّ عمل كان يعمله فى

(★) يُريد أنْ يقول إنَّ الستين هى العشرُ الأولُ من النصف الثانى من العمر الطبيعى للإنسان ، فكأنما جعل العمر الطبيعى مائة سنة ، وهو منتهى التفاؤل .

الشباب كركب الخيل الصعبة ، وكان ينزل إلى بيروتَ لصلاة الجمعة ، ويعود ماشيًا ، ويقرأ بدون نظارات ، وأنَّ كثيرًا من نساء بيت العرب ورجالهم أدركوا هذا السنَّ[★1] ، ويوجد عندنا فى القلمون مَنْ أدركوا أو تجاوزوا المائةَ من بيوت مختلفة . وأنا أَسنُّ منك يقينًا[★2] وأضعف بنيةً فيما أظنُّ ، ويغلُب على ظنى أنْ أَعيش طويلاً بفضل اللّه تعالى ، وليس للتشاؤم سلطانٌ علىَّ إلا أننى كنتُ فى السنتين الماضيتين متثاقلاً وخائفًا على صحتى من عاقبة السِّمن فى البطن ، فداوانى ربى عَزَّ وَجلَّ بحمّى معوّية أَرْدَمَتْ[★3] علىَّ بضعةَ أشهر لم يكن لها علاجٌ بالتجربة واتفاق الأطباء إلا الحِمْية[1] الطويلة بالتغذى بالسائلات غير الدسمة كماء الخُضر والسُّلت[★4] والفول النابت بالنَّقع ، فكنا نَغلى هذه الأشياء وأتغذّى بمائها عدةَ أشهر ، وقد أذِن لى بعضهم باللبن الحليب والرائب ، ثم نهانى عنه أحذقُهم . . وبهذه الحميةِ نقَص وزنى 20 كيلو ، وقد خرجتُ من فصل الشتاء الذى تركتُ الحِمية قبله بأكثرَ من شهر ووزنى ينقُص عما كان قبل المرض 15 كيلو ، وكلُّ ما يجب علىَّ من العناية بصحتى من هذه الناحية أنْ ينقُص عن هذا القدرِ فى الصيف أو أن لا يزيدَ ، والأولُ أفضل .

استرحتُ لما كتبتَ إلىَّ فى هذه المسألة ، ولكنّنى ازددتُ همًّا بما كتبتَ فى شأن كثرة ما تكتبُ ، فيجب عليك الإقلالُ منه[★5] وعدمُ المبالاة بما يكلِّفُكَ الثقلاءُ ،

(★1) الشيخُ محمد العرب والدُ هذه العائلة ناهز المائة ، وكان من أقوى الرجال بنيةً ، وأصبرِهم على العبادة والتهجد ، وكان صائمًا الدهرَ مثلاً مضروبًا فى الاستقامة ، تُجلُّه جميعُ الطوائف ، وقد أدركته رحمةُ اللّه ، وأولادهُ ورثوا منه التقوى وطولَ العمر .

(★2) كان السيدُ أكبرَ منى بأربع سنوات حسبما لحظتُ من كلامه وما قرأتُ فى التراجم التى له ، وعلى كل حال فَسِنُّ السبعين التى توفى بها ليست بتلك الدرجة من العلو لا سيما بالقياس إلى أعمار العلماء والمؤلفين سواءً فى الشرق أو الغرب . ولقد قرأتُ كتبَ التراجم عند العرب ، وتتبعت أسنان أصحاب الأقلام ، فوجدت الثُلُثين منهم يتجاوزون الثمانين . ومثل ذلك عند الإفرنج . وقد ذكرتُ لبعض أصحابى أنى إن اتسع معى الوقت أؤلف كتابًا أسميه « العِقد الثمين فيمن من العلماء تجاوزَ عقد الثمانين » .

(★3) أردمت الحمى : دامت .

(1) الحِمْيةُ : الإقلال من الطعام .

(★4) نوع من الشعير .

(★5) حالتى الراهنةُ الآنَ من جهة الكتابة هى أنى أكتب فى الحول 1700 إلى 1800 مكتوب خصوصى ونحوًا من 250 مقالة فى الصحف ، عدا التآليف المطبوعة التى تبلغ بالأقل ألفين إلى 2500 صفحة فى السنة ، وهذا المبلغ هو أكثر مما كنتُ يوم كتب إلىَّ السيدُ رشيد ينهانى عن هذا الإسراف فى الجهد .

ومما يَفيدك فى هذه المسألة تركُ ما تعوَّدت من الإسهاب حتى فى المراسلات الشخصية ، فعليك بالإيجاز والاختصار ولو تكلُّفًا .

وإننى لأستحسن نشرَ جلِّ كتابك هذا فى المنار ، ولا بُدَّ أنْ تنقله الشورى والجامعة العربية عنه مع تعليقى عليه بما معناه : أن الأمير يرى أن المنار أولى من غيره بمقالاته ، ولا سيما الإسلاميةُ ، وإننا مع هذا لا نكلِّفه شيئًا مراعاةً لصحته .

مقالاتُك فى مسألة الحروف العربية حفِظتُها لأجل نشرها ، ونُشرت مقالةٌ رأيتُها فى « البيان » بغير عزو ولا إمضاء اعتقدتُ أنها منك وأنك توخيتَ أن لا يُعرف كاتبُها ، وقد نُشرت المقالة الأولى المترجمة ، وسننشر الثانيةَ ، ولا نعدم من يترجم ثالثة أو أكثر . أرسل الكتاب وديوان المرحوم مع بيان ما تُريد طبعَه منه عددًا ووصفًا .

إن من كتابك الأخير ما سرَّنى ومنه ما أبكانى ، وأسرُّ ما سرَنى الرجاءُ بأن يُؤذنَ لك بالإلمام بمصر فى طريقك إلى الحجاز ومكثك أيامًا فى دارك الجديدة مع أخيك بالروح والعقل والرأى ، فقد اشترينا - ولله الحمد - دارًا صحيَّة جميلة فى شارع الإنشاء تجاهَ وزارة المعارف ، فأسأل الله تعالى أنْ يحققَ الرجاءَ ، فوالله إنها لأُمنية من أعذب أمانى الحياة ، وكنتُ سمعتُ من الأخ رياض بك ما يُضعف الأمل بالإذن ، وعزَمت على سؤالك أنْ تخبرنى بموعد وصولك إلى بور سعيد وباسم الباخرة التى تسافر فيها لأوافيك فيها ، وأَعُدّ هذا ضروريًّا جدًّا . . أُقبِّل طرّةَ الأمير غالب وغرّته ، وأحيّى بلسانك الفصيح الأصدقاء الأوفياء داود(★) وإميل(★★) وبيضا(★★★) بما بنيتى باغتباطى بودهم وحفظى لعهدهم ، والسلام .

محمد رشيد رضا



(★) الأديب الخطيب المفوّه الأستاذ داود مجاعص .

(★★) الكاتب البليغ والسياسى الشهير الأستاذ إميل الخورى أبو صعب .

(★★★) الأريحى الفاضل الدكتور ميشيل بيضا .

وكتب إلىَّ فى 8 ذى القعدة 1347 و 18 أبريل 1929 :

سيدى الأخ الأميرُ أطال اللَّه بقاءه ، وقرّب لنا لقاءه

أرسلتُ إليك فى البريد الماضى مرجوعَ كتابك المرسل من برلين ، وفاتنى أنْ أقترح فيه عليك أنْ تتفضّلَ علىَّ بإرسال برقية باسم الباخرة التى تسافر فيها من ميناء السفر أو من البحر لأجل أنْ أُقابلك بالإسكندرية إذا كان السفر إليها مباشرة كما ذكرتَ فى كتابك ، ولا أدرى أكتبتَ ذلك عن اتفاق مع شركة من شركات البواخر أم عن رأى وتقدير ؟ وقد ذكرتَ أنَّ موعدَ السفر بل الوصول إلى الإسكندرية سيكون أوَّل شهر مايو ، وهو يوافق 21 ذى القعدة ، فيمكنُك أنْ تقيمَ فى مصر عَشْرَةَ أيام كاملة أو أكثر ، فإن بواخر البريد الخديوية تُسافر من السويس إلى جُدَّةَ فى أول كلِّ شهر إفرنجى وفى 11 و 21 منه ، ويوجد بواخر طليانية تُسافر فى مواعيدَ أُخرى ، فإذا رجَّحت السفر فى الخديوية وكان وصولك إلى الإسكندرية فى أول مايو تكونُ مدةُ إقامتك فى البلاد المصرية عشرةَ أيام ، وفى القاهرة نفسها تسعةَ أيام ؛ لأنه يمكنُك أنْ تسافر فى اليوم العاشر إلى السويس فى قطار الساعة 6 مساء ، وإذا رجَّحت السفر فى إحدى البواخر ، وهى أسرع ، فيمكنُك أنْ تقيم فى القاهرة أكثر من عشرة أيام فى الغالب ، ولا أدرى الآن مواعيدَ سفرها من السويس . وأما المسافةُ من السويس إلى جُدَّة فهى أربعة أيام ، وربما تكون فى الخديوية خمسة أيام لأنها تمرّ بجميع الثغور الحجازية إذا لم تكن من بواخر الحجاج المتفقة مع الحكومة على نقلهم ، وقد علمتُ أنَّ آخر مواعيد هذه 29 أبريل . ومن الضرورى أنْ تكونَ بمكة قبلَ اليوم الثامن من ذى الحجة وهو يوم التروية الذى يخرج فيه أكثر الحُجَّاج منها إلى عرفات ، فالسفر من السويس فى 11 مايو فى الأولى ، بل لا ينبغى التأخير عنه إذ يجب أنْ تجتمع بجلالة الملك قبلَ الخروج إلى عرفات ، وأن تلقى غيره من آله ومن أصدقائك .

أقول هذا بِناء على قوة الرجاء بالإذن لك بدخول القاهرة والمكث فيها ، وإلا فإن تلاقينا فى الإسكندرية يكون ضروريًا لا كماليًا من كماليات الحفاوة الواجبة لك ، فإننى فى هذه الحالة لا بُدَّ أنْ أُسافر معك من الإسكندرية إلى السويس سواء أكان

السفر برًّا أم بحرًا ، فيجب أنْ يكونَ فى البرقية إشارة إلى التفرقة بين الأمرين ، فإذا كنتَ مأذونًا بالإقامة فى القاهرة يمكنُك أنْ تقولَ فيها : نصل إلى القاهرة مساء أول مايو ، وإلا قلتَ نصل الإسكندرية فى أول مايو بباخرة كذا ، هذا إذا لم تكن البرقية من الباخرة نفسها .

هذا ، وإننى مرسِلٌ إليك نسخةً من مناسك الحج لتطالعها فى البحر ، ثم تسألنى عند اللقاء عما ترى حاجة إلى السؤال عنه . والسلام عليك وعلى نجلك النجيب منّى وممن هنا من الأهل والولد والصَّحْبِ عامةً والسيد عاصم والسيد جميل خاصة ، ودمتَ لأخيك .

محمد رشيد رضا



وكتب فى غرة ذى الحجة 1347 :

سيدى الأخ الأميرُ

ما حَزَنتنى إضاعةُ الفرص يومًا كما حَزَنتنى أمس إذ فُوجئتُ بإيجاب الحكومة المصرية لسفرك فيه ، فقد كنتُ مدّخِرًا لآراء كثيرة أريد البحث معك فيها ، ولم أجد لها فى بور سعيد فرصةً نخلُص بها نجيًا بعدَ أن فاتنا صبيحةُ أمسِ ، فعسى أنْ يُقَدِّرَ اللَّه لنا اجتماعًا قريبًا فى مصر أو فى فلسطين .

من تلك الآراء ما يتعلق بمسألة الدعوة إلى الإسلام التى كنتُ أسست لها جماعةً ومدرسة خاصة ، وحدثت أو عرضت مناسبة للحديث فيها بتبرُّعك لها . . . إلى أن يقولَ : وكذلك جمعية الشبان المسلمين لما تصر أهلاً للاضطلاع بأمثال هذه العظائم ، بل لا تزال قائمةً بهمَّة عبد الحميد بك سعيد لا بقوة الاجتماع فيها . وإيضَاحُ هذه المسألة بل هاتين المسألتين لا بُدَّ له من جلسة طويلة أو جلسات ، وإنما ذكرتُهما على سبيل المثال ولأقول لك إن مسألة الدِّعاية لا تزال نُصْبَ عينىّ والشاغلة لقلبى وعقلى ، وموضوع حديثى هنا مع الرجال الذين يهتمّون بها ، وطالما تحدّثنا بإعادة (جماعة الدعوة والإرشاد) أو إنشاء جمعية مثلِها ، وإننى مرجىء هذا

للاستقرار فى الدار واختيار ناموس[1] غيور قدير موظف ، وقد أشرتُ إلى هذا الرجاء فى بعض مكتوباتى لجلالة الإمام(★) .

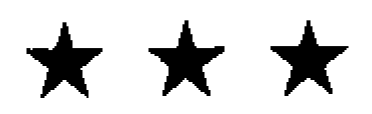
إننى عدتُ من السويس اليومَ ، وأكتبُ هذه الكلماتِ بعدَ العصر ، وقد قرُب موعدُ فتح صندوق البريد الذى أُريد وضعه فيه بجوارنا ، ولولا ذلك لأطلت فيه ، وسأكتبُ إليك بعدَ أداء الفريضة ، فإنك ستكون فى أثناء أداء النسك فى شغل شاغل ، أرجو أن لا يُنسيك الدعاءَ لى ولولدى ، ولا سيما فى مساء عرفة .

وأُحيّى الصديق البارعَ فؤاد بك حمزة ، وأُهنئه بك ، ولو اتّسع الوقتُ لكتبتُ إليه ، وكنتُ شرعتُ فى هذا الكتاب فى القطار فإذا بالقلم الأمريكانى قد جف حبرُه بعدَ كتابة أسطر قليلة . وأُسَلِّمُ أيضًا على كلٍّ من يسألك عنى من الإخوان والمحبين ، ولا سيما الأساتذة الشيخُ بهجت البيطار وإخوانُه والدكاترة محمود حمدى بك وإخوانُه .

وأرجو أنْ تذكُرَ جميل أفندى الرافعى برقعة من رقاع الشكر التى ترسلُها إلى أصحاب البرقيات والمكتوبات فى تحيتك عند وصول بور سعيد ، فقد كان كتب كتابًا ، وكنت أحمِلُه مع كتاب سليم بك عز الدين فَفُقد منى .

وأسأل اللّه تعالى أنْ يمدك بالصحة والعافية والتوفيق وإتمام المناسك على ما يُحب ويرضى ، وأنتظر البشارةَ منك بذلك ، ودُمت لأخيك .

محمد رشيد رضا



وكتب فى 22 ذى الحجة 1347 و 31 مايو :

إلى أخى فى اللّه - عز وجل - أميرِ البيان ومِذْرَهِ[2] بنى مَعْدٍ وعدنان وسائر بنى قحطان الأمير شكيب أرسلان . . .

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته . أما بعد فإننى أُهنئك بأداء فريضة الحج ثم

---

(1) **الناموس** : صاحب السر أو (السكرتير) . (★) أى الإمام ابن سعود .

(2) **المِذْرَهُ** : زعم القوم وخطيبهم المتكلم عنهم ، وفى حديث شدّاد بن أوس : « إذ أقبل شيخ من بنى عامر ، هو مِذْرَهُ قومه » . (المعجم الوسيط : دره) .

بلقاء ملك العرب وإمام المسلمين ومناط رجاء الفريقين ، وقد هنأتُ جلالته بلقائك ، وإننى أنتظر كتابًا منك فى أول بريد يأتى من الحجاز أقرأ فيه ما أستشرفُ له من أخبار سفرك ونُسكك ولقائك للإمام ، أيده اللّه تعالى بك وبسائر المؤمنين الصادقين كما أيّد رسوله - صلواتُ اللّه وسلامه عليه - بالمهاجرين والأنصار ، وأقترح عليك إنشاءَ مقال خاص فى وصف رؤية المشاعر وأداء المناسك فى نفسك المؤمنة العلية ليُنشرَ فى المنار ، فيكون مرغِّبًا فى أداء هذه الفريضة الرُّوحية الاجتماعية وشدِّ الرحال إلى المسجدَين من جميع الطبقات الإسلامية التى قَصَّرَ بعضُها فيها أقبحَ تقصير .

هذا ، وإنه قد جرى حديث طويل بينى وبين صديقنا عبد الحميد بك سعيد فى شأن منعكم من الإلمام بمصر ، وكان قد جاء السويس للتمتع برؤيتكم وحديثكم ، وتأسَّف لإلجائكم إلى السفر ، وذكَّرنا أنّه يمكن السعى للإذن لكم بالإقامة فى مصر ، فذكرتُ له الأمنية التى طالما تمنيتُها ، وهو وجود جريدة يومية هنا تُناط بكم رئاسةُ تحريرها ، وقلت له : يُمكن أنْ نشتركَ نحن الثلاثة فى إصدارها فَسُرَّ بهذه الفكرة ، وقدَّرها حقَّ قدرها ، وسأعود إلى الكلام معه فى مسألة السعى وأُخبركم بما سيكون إن شاء اللّه تعالى .

بلِّغوا جلالة مولانا الإمام سلامى ودعائى الخالص فى الأسحار وفى كلِّ وقت أدعو فيه لنفسى ووالدَىّ وأولادى ، ثم سلِّموا على سائر الإخوان وفى مقدمتهم فؤاد بك والدكاترة ومن تَلْقَونَ من المحبين ، ولا زلتم سالمين لأخيكم المخلص .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 3 المحرم 1348 و 10 حزيران :

صديقى وأخى أمير البيان حفظه اللّه تعالى :

أُحيّيك تحية مباركة طيبة وأُهنئك بالعام الهجرىّ الجديد داعيًا لك ولولَدِك بما أدعو به لنفسى وولدِى ولإمامنا أعزَّه اللّه تعالى ، ثم أشكو من طول الانتظار لمرجوع

ما كتبتُ إليك ، والظاهر أن الذنبَ على البريد ليس عليك . قد بلغنى أنْ قدَّمت ضابطنا(★) الباسلَ الذكىّ ، فعرّفتَ الإمام بِمَزِيَّتِهِ فجعلَه من رجال حاشيته ، فسررتُ بذلك ، فهو ممن يُرجى الانتفاعُ بخدمتهم عملاً ورأيًا .

وأما حالُنا نحن فحسنةٌ وللّه الحمد ، وقد أصابتنى سخونةٌ قليلة بعدَ فراقك ليلةَ مبيتى بالسويس ، فعالجتها بالحِمية ثلاثةَ أيام فزالت ، وقد زادت نفقات العِمارة والإصلاح فى الدار فاقترضت من البنك مائتى جنيه أُخرى بعد الثلاثمائة التى علمتَ ، وكلُّها إلى مدة سنة بغير ربح ، ولكن يُحسب لها ربحٌ بعد انتهاء السنة إذا عجزنا عن الوفاء ، والرجاءُ بفضل اللّه أنْ يُقدِّرنا على وفائها ووفاء قسط الدار للبنك الآخرَ ، وأما نفقةُ العمارة فعرضتُ على المقاول أنْ نجعلها له أقساطًا ، ولا مندوحةَ له عن القَبول .

وجملةُ القول أن الدَّينَ الواجبَ علىّ أداؤه فى هذا العام لبنك مصر والبنك المرهونة له الدار تِسْعمائة جنيه مصرى ، والإيرادُ الرسمىُ الثابتُ المُعَدُّ لذلك هو مطبوعات جلالة الملك ، وفى الحقيقة إنه يجب علينا السعىُ لغيرها أيضًا . وقد تذكَّرت بهذه المناسبة ديوانَ المرحومِ شقيقكم ، فهل حملتموه معكم أم فى الدار بسويسرا ؟

أُسلِّم على جميع من لديكم من إخواننا وفى مقدمتهم فؤاد بك ، وسأُرسلُ إليه بقيَّة أجزاء تفسير ابن كثير من طريق الوكالة هنا ، وأُحب أنْ تسألوا عن صديقنا الشيخ يوسف ياسين الذى كان فى بطانة جلالة الملك بنجد ، فقد مرَّت عدةُ أشهرٍ لم يأتنى منه شىء ، ولا سمعت عنه خبرًا ، حتى قَلِقْتُ من ذلك ، ولا تنسَ فوزى بك والشيخَ بهجةَ البيطار ، والسيّدُ عاصمٌ يُسلِّمُ عليك تسليمًا .

أخوك رشيد



(★) فوزى بك القاوقجى .

وكتب فى 23 المحرم 1348 وحزيران 1929 :

سيدى الأخ الأميرُ

أحمد اللّه تعالى أنْ أنعمَ عليك بالشفاء العاجل من وعكتك الحجازيّة المكفِّرة المكمِّلة لمثوبة النُسك ، ثم أحمدُه أننا لم نعلم بها إلا مع العلم بزوالها[★] ، وعسى أنْ تكونَ صحتُك الغاليةُ قد عادت كما كانت ، ونسألُه تعالى أنْ تكونَ خيرًا مما كانت ، وأن يُديم نعمتها عليك وعلينا . وقد وصل منك كتاب بعد كتاب ، وعجِبتُ مما نقلتَ إلىّ مِن كلمة مولانا الإمام - أعزّه اللّه تعالى وأيّده - فى أخيك : « إنه لا يموت وفينا أحد حى » لولا أنها كلمة بمعنى الفداء بالنفس والعشيرة مناسبة لطباع بلادهم فى النجدة والحماية ، وإلا فلستُ مهددًا باعتداء أحدٍ على نفسى ولا على مالى .

هذا ، وإننى قد أَلِمْتُ[1] من كَلِمتك فى الكراهة للإقامة فى مصر ، وكنتُ فتحتُ حديثًا مع شيخ الأزهر فى سعيه لاسترضاء جلالة ملك مصر عنك لتكون مساعدًا على الإصلاح فى الأزهر فى تحرير قسم من مجلته كالقسم التاريخى وفى قراءة التاريخ فى بعض كليات الأزهر الجديدة ، وأجَّلْنا الحديثَ التفصيلىَّ فى ذلك إلى هذا الأسبوع ، وإنّنى فى انتظار أخبارك وما استقرَّ عليه رأيك فى السفر . والسلام عليك وعلى الأخ فوزى بك ، واسلم لأخيك .

رشيد

★ ★ ★

وكتب فى 13 صفر 1348 و 20 تمّوز 1929 :

سيدى الأخ الأميرُ

وصل كتابك رقم 27 المحرم ، وهو الثالثُ من مكتوباتك لا الرابعُ كما ذكرتَ فى

(★) حَصَلَتْ لى وعكة شديدة فى مكة من شدّة الحرّ أشرفَتْ بى على الخطر ، فأصعدونى إلى الطائف ، وما مضى أسبوعان حتى زال كلُّ أثر للعلة .

(1) أَلِمَ أَلِمًا : وَجِع .

آخره ، والأول كان بخط الأخ فوزى فى 3 المحرم والثانى لا أذكرُ تاريخَه الآن ، ولا هو بين يدى ، والوقت يضيق عن المراجعة .

سُرِرْتُ وانشرح صدرى لعودة الصحة إليكم ، وأسأله تعالى كمالَها ودوامَها لنا ولكم ، ولخبر تشرفكم بدخول بيت اللّٰه الحرام والدعاء لنا فيه ، ويعلم اللّٰه أننا نذكُركم دائمًا فى أدعيتنا بالأسحار ، كما سُررت بأخباركم عن الهُمام(★) . وقد جاءنى كتابٌ من جلالته ذكرَ فيه سرورَه واغتباطَه بلقائكم مع وصفكم بقوله « صديقكم وصديقنا » ، وذكَر أنّه وجدكم كما كتبتُ إليه علمًا وغيرةً وإخلاصًا . . . إلخ .

وكتب أيضًا أنه أمر القُصيبى بأنْ ينظرَ حسابَ مطبوعاته عند خادمه وكيل المالية ، ويأخذَ لى منه الباقى لى منه أى من الحساب ، وأنه أعطاه أيضًا كتابَ (الأدب) لابن مُفلح ومجموعةَ رسائل نجدية لأجل طبعها ، فهذه القرينة فَسَّرت كلمتَكم عن فؤاد بك حمزة بأن القصيبى « سيجرى الحساب مع الأستاذ ويدفع له دفعة مهمة » إنه يحملُ إلىّ جميعَ المتأخِّر أو المستحَق لى من الحساب مع دفعة أو قسط على حساب الكتابين الجديدين حسَب العادة فى جميع المطابع ، فيكون الجميع دفعة يصح أن توصف بالمهمة .

وأرجو أن يصلَ إلىّ فى أول بريد كتاب منكم بخبر سفركم . والسلام .

أخوك رشيد



وكتب فى 26 ربيع الأول 1348 و 31 أغسطس 1929 :

سيدى الأخ الأميرُ

أرسلت إليك فى البريد الماضى مرجوعَ كتابك الأخير إلى الطائف مسجَّلاً لأن فيه كتابًا لى من الأخ الأمير عادل أحببت أنْ أطمئنَ بوصوله إليك ، وكنتُ أنتظر وصول

(★) إشارة إلى الملك لأنه من جملة معانى « الهمام » الملك العظيم الهمة .

برقية منكم أمس بسفركم من جُدَّة لولا أننى رأيتُ فى جريدة الشورى برقيةً منكم بإرجاء السفر عشرةَ أيام أُخرى ، فعلمت أنَّه يصل إليكم ما أكتبه اليوم ، وعسى أن تكونوا فى صحة وعافية . (إلى أن يقول) :

وقد تم طبع الجزء الثامن من المغنى مع الشرح الكبير ، ونرسلُ فى بريد اليوم نُسختين مجلدتين منه إلى سمو الأمير فيصل مع كتاب عتاب أعلمتُه فيه بأنَّ المستحَقَّ للمطبعة بلَغ بهذا الجزء 794 جنيهًا مصريًّا وكسورًا ، وأنَّ لنا أنْ نطلب فوقها 200 جنيه للاستعانة بها على طبع الجزء التاسع حسَب الاتفاق بيننا . وقد اشترينا بعضَ ورق هذا الجزء بالدَّين ، ورجوتُه حلَّ المشكلة بما يراه لو بإرسال حِوالة ببعض المبلغ إلى أنْ يأتى أمر جلالة الملك ، فقد كتبتُ إليه ، ولا بُدَّ أنْ يكونوا هم قد كتبوا إليه إنْ كان عندهم عمل معقول . وقد كنتُ كتبتُ إلى جلالته بأنَّ الرجلَ الوحيد الذى يُقدِّرُ الأمور قَدْرَها فى حكومته هو فؤاد بك حمزة ، ولكنْ خاب أملى فيه فى الأمر الوحيد الذى رجوتُه فيه ، فهو مثلُهم لم يجبنى بشىء .

الأمر الأهم الأعظم فى مسألتنا العربية ، وكذا الإسلامية ، هو مسألة الثورةِ فى فلسطين ، وستجدون من أخبارها فى الجرائد العربية التى تصل مع هذا الكتاب إلى الأمير وإلى جريدة أُم القرى ما هو دون الواقع ، ومما يَسُرُّ أنَّ بلادَ سورية قامت بالواجب من إظهار السَّخط والاحتجاج ، واشترك النصارى مع المسلمين فى المواكب ببيروت والشام . . . والواجب الأهمُّ الأنفعُ أنْ يُسْمَعَ صوتُ الحجاز فى ذلك من جانب الشعب ومن جريدة أُم القرى ، وأخشى أنْ تجبُنَ هذه الجريدةُ أو تمنعها الحكومة عن رفع صوتها بالاستنكار والاحتجاج والوعيد لليهود مراعاة للدولة الإنجليزية ، فإن لم نَفُزْ بإقناع مَن تخشى منهم هذا بأنه خطأ وضعف ، وأن هذه خير فرصة لإظهار قيمة الحجاز ومكانته فى هذا العصر لكلٍّ من الإنجليز والعرب والمسلمين ، وأنها تُقوى مركزَ حكومته ومُلْكه أعظم تقوية ، ولا تخشى من ورائها أقلَّ تَبِعةٍ - إن لم يمكن هذا وهو ما يُحزننا فأَقَلُّ الواجبِ أنْ تنشر الجريدة (أُم القرى) عدة مقالات شديدة اللهجة بأسماء بعض الكتَّاب يُظهرون فيها استياءَ الشعب العربى

كلِّه وعدَم إمكان وقوفه موقفَ المتفرِّج إذا امتدت الفتنةُ وكان المرادُ منها استيلاءَ اليهود على عرب فلسطين وعلى المسجد الأقصى . . . أنت أنت أيها الأمير الذى لا أحتاج إلى إطالة القول معه فيما يجب ، ولا سيما إذا رأَيتُ فى البرقيات العامة أنَّ الإنجليز لا يمكنُهم الأخذُ بالحزم المطلوب فى المسألة إلا بعد العلم بموقف ابن السعود ودرجة ولائه لهم . . . وأنت أنت الذى يُمكنك أنْ تفعلَ فى هذه المسألةِ ما لا يُمْكِنُ غيرك . والسلامُ .

أخوك رشيد



وكتب فى 14 جمادى الأولى 1348 و 17 أكتوبر 1929 :

سيدى الأخ الأميرُ

منذُ ثلاث أطلّ علىَّ كتابك المنتظرُ كما يُطِلُّ البدرُ فى ليالى هذه الأيام فَسُرِرْتُ بوصولك إلى دارِك ولقاءِ أهلك وولدك ، وقرّت أَعينُكم جميعًا بهذا اللقاء الميمون بعدَ السفر الطويل الشريف ، ولكنْ كان السرورُ مشوبًا بالتألم لألمك من علّة الرمل القديمة ، وعسى أن لا تَنسى شعر الذُّرة الصفراء يُغلى ويُحَلّى ويُشرب ، والسيد عاصم مواظب عليه بعد أنْ جرَّبه وجرّب غيره للمغص الكلوى من الرمل ، وهذه أيامه فيحسُن أنْ تَدَّخر منه طائفةً تجففها وتحفظها فهو مفيدٌ للوقاية من عودة المغص بعدَ ذهابه ، ولا تَسَلْ عن سرورى بالقطعة التى أرسلتَها للنشر فى المنار للمستشرق السويسرى !!

وصفتَ ببلاغتك أيامَ تلاقينا ولياليَها ما بين البحرين فى غُدوِّك للنُّسك ورواحك ، فكأنك نطقتَ بلسانى وكتبت بقلمى ما أعجزُ عن كتابة مثله فى بلاغته على إيجازه فى مقام يحتملُ التطويلَ إلا قولكَ إن ملازمتى لك كانت لطفًا منّى وعطفًا ، فصوابُه أنّها كانت حقًّا واجبًا لك ، وحظِّى فيها من الأنس والغِبطة والفائدة لم يكن دونَ حظّك إلا ما أشرتَ إليه مِن تحرير بعضِ المسائل الشرعيةِ الاجتماعية ، على أنَّ حظَّنا من بيانها واستبانتها واحدٌ وهو خدمةُ الإسلام بها ، ولقد كان من استيلاء تلك الغبطة علىَّ

وإحاطتها بجميع جوانب شعورى أننى لم أستطعْ معها قراءة ولا كتابة إلا ما كتبناه معًا إلى مكة ، فنسأله تعالى أنْ يَمُنَّ علينا بالتلاقى الدائم فى بلد واحد نتعاون فيه على خدمة الملَّة والأمة .

هذا ، وإنَّ وكيل مالية الحجاز قد أرسل إلينا فى أول أكتوبر حِوالة برقية بمبلغ 716 ، وهو المستحَقُّ الذى كان مستحَقًّا لنا عنده إلى نهاية طبع الجزء السابع من المغنى لأن الثامن لم يكن أُرسل إلى مكة لقلّة الدراهم ، وقد أُرسل بعد مجيئها ، والباقى لنا إلى نهاية طبع الجزء التاسع زهاء 400 بيّناها له فى كتاب خاص . وجاءَنا فى البريد الأخير كتابان من الملك ومن نائبه ونجله وفى كلٍّ منهما أنهما استاءَا من تأخيره الدراهم ، وأكّدا له الأمر بإرسال جميع المستحَقّ والسير على النظام السابق فى الباقى . وأمر الملك بطبع 2000 نسخة من كتابَىْ الأدب ومجموعة الرسائل المُرْسَلَيْنِ أو اللذين أرسلهما قبل سفره إلى نجد مع القُصيبى ، وذكر أنه أمر وكيل المالية بإرسال مبلغ مناسب للاستعانة به على طبعها ، وسأكتب إلى الوكيل بذلك .

هذا ، وإننى فى شوق لرؤية صديقنا فؤاد بك سليم ولا يزال فى الإسكندرية على ما أعلم ، وقد عاد إلى مصر صديقُه طلعت بك حرب[1] ، وذهبتُ أمسِ للسلام عليه وسؤاله عنه فى البنك ، فعلمتُ أنّه كان فى لجنة معقودة للمذاكرة فى شئون البنك فأرجأتُ مقابلته . قَبِّل عنى طُرة[2] النجل النجيب . والسلام عليك ، وأسأله تعالى كمال الشفاء لك ولأخيك .

محمد رشيد رضا



---

(1) **هو محمد طلعت بن حسن بن محمد حرب** (1293 - 1360 هـ / 1876 - 1941 م) زعيم مصر الاقتصادى ، ولد وتوفى بالقاهرة ، تخرج بمدرسة الحقوق 1889م ، أنشأ بنك مصر ، وألحق به فروعًا وشركات ضخمة ، ولم تحسن مكافأته فى آخر أيامه . (الأعلام : 6/ 175) .

(2) **الطُّرَّةُ** : طرف كل شىء ، وما ينزل من الشعر على الجبهة .

وكتب فى 15 جمادى الآخرة 1348 و 16 نوفمبر 1929 :

سيدى الأخ الأميرُ

إنى أُلقى إلىّ كتابك (رقم 5 نوفمبر) فاستنبطت من عدم ذكر صحتك فيه أنّك عوفيتَ إنْ شاء اللّه تعالى من المغص الكُلوى ، وأما مطلوب المطبعة من وكيل المالية فقد عاد هو إلى مكاتبتنا فيه بعد أنْ ورد أمرُ الملك له بذلك ، وأرسل صورة مفصلة للحساب فيها شيء من الاختلاف عَنِ الذى أرسلتْه إليه الإدارة ، واتفقنا نهائيًا على بقيّة مطلوبنا منه عن الماضى والمستقبل ، أىْ ما شرعنا فيه من بقية المغنى وما سنشرع فيه بعد وصول المطلوب للاستعانة به على طبعه ، وهو كتاب الأدب لابن مُفلح ، فقد كتب إلينا يسألُنا عن نفقته وما نطلب منها سَلفًا كما أمره جلالة الملك فى كتاب خاص ، وكتب إلينا بذلك ، والمأمولُ أنْ يُرسلَ المطلوبَ الأخير كلَّه أو جُلَّه . ولكنَّ أفكارنا مشغولةٌ بما تنشره الجرائدُ من أخبار وتفاقم خطب فيصل الدويش[1] ، وننتظر أخبارًا قطعيَّة من نجد نفسِها تَنْقُضُها وتُبشّر بانتهاء الفتنة أو قُرب انتهائها .

وأما الأسئلة فقد رأيتُ الواجبَ أنْ أُثبتَ جوابها هنا :

(1) الجمع بين حَرْفَى عطف ممنوع عقلاً - لا بل[2] نقلاً وعقلاً - ولكنْ ورد فى كلام العرب وكلام كبار علماء العربية الجمعُ بين لا وبل ، ولم يَعدُّوه من الشواذ ولا من المقصور على السماع ، بل قالوا إنَّ العطفَ فيه ببل و « لا » لردّ ما قبله ونفيه[★] . ولك أنْ تقول إنَّ النفى لما قبله قد يكون لإبطاله كقولهم : جاء زيدٌ لا بل

---

(1) هو **فيصل بن سلطان بن فيصل بن نايف الدويش** ، آخر شيوخ (مُطير) ومن كبار أصحاب الثورات فى نجد ، كان به شراسة ودهاء ، ومطير خليط من القبائل تناسبت وتحالفت وجمعتها عصبية واحدة ، تمتدّ منازلها من غربى الإحساء إلى أطراف الحجاز ، استعمله ابن سعود فى إخماد ثورات بعض النجديين فنجح ، ثم ثار على ابن سعود وحاربه سنة 1929 ، وجرح الدويش ، وعفا عنه ابن سعود ، فانقلب عليه مرة أخرى فحاربه ابن سعود ، ففر إلى الكويت محتميًا بالبريطانيين ، ثم حمل إلى سجون ابن سعود حتى مات بعد سبعة أشهر أمضاه فى سجنه .

(2) هنا حرص الشيخ رشيد على أن يستعمل الأداتين معًا فى موطن الاستشهاد وعلى جواز اجتماعهما .

(★) ورد الإضراب « بلا بل » فى كتاب سيبويه ومفصّل الزمخشرى وغيرهما ، فالسيدُ رشيد على بيِّنة مما يقول .

عمرو ، وقد يكون لردّ الاقتصار عليه وحدَه كما يوهمه الكلام السابق كعبارتك .

(2) قولك : « فهنا عاطى وناول مُصَرَّحٌ بكلٍّ منهما » جائز ، وهو الأصل فى التعبير فى مثل هذه الجملة ، وقوله يجب أنْ يقال « مصرحًا بكلٍّ منهما » مثل ﴿ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ ﴾ [هود : 72] خطأ ، فإنه جائز غير واجب . وهو خلاف الأصل فى قواعد الإعراب لأنَّ الحال لا تجئ فى الأصل من المبتدأ الجامد إلا إذا أوِّلَ بمشتق . والبصريون يقولون : إن العامل فيها هنا ما فى (هذا) من معنى الإشارة أو التنبيه ، كأنها تقولُ أشير إليه حال كونه شيخًا . والكوفيون يقولون إن « هذا » تَعْمَلُ هنا عملَ « كان » و« شيخًا » خبرُها . وقد قرأ ابن مسعود والأعمش (وهذا بعلى شيخ) بالرفع ، وأعربوه بأنه خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره هو شيخ ، أو خبر بعد خبر . ومنهم من قال هو خبرُ المبتدأ أىْ : هو هذا ، و « بعلى » بدل من اسم الإشارة أو بيان له .

(3) إضافة الشيء إلى نفسه – أو إلى ما اتحد به فى المعنى وهو أعم – معروف فى كلام العرب كما قلتَ ، لا يستطيع أحد أنْ يُنكره ، ولكنَّ جمهورَ البصريين أو مذهبهم أنه سماعى يجب تأويله ولا يقاس عليه ، وإجازة الكوفيين بلا تأويل بشرط اختلاف اللفظين كقولهم : بر قمح ، وحبة الحمقاء . وقال ابن مالك فى الجمع بين الاسم واللقب :

وإن يكونا مفردين فأضفْ ... حتمًا وإلا أتبع الذى رَدِف

وظاهره أنه قياسى . ثم قال فى باب الإضافة :

ولا يضاف اسم لما به اتحد ... معنى وأوّل موهما إذا ورد

وهو يحتمل الوجهين ، ولكنّه أقربُ إلى قول البصريين إنه سماعى يجب تأويل ما ورد منه عن العرب ، ولا يُقاس عليه .

(4) ما الشرطية قد تكون ظرفيةً زمانيةً ، قال فى (المغنى) عند ذكرها : أثبتَ ذلك (أبو على) الفارسى وأبو البقاء وأبو شامة وابن برى وابن مالك ، وهو ظاهر فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ ﴾ [التوبة : 7] أى مدّةَ استقامتهم لكم اهـ . وذكر أمثلة أُخرى محتملة لغير الظرفية . ولكنّهم قالوا فى (وما دام) من الأفعال الناقصة إنّ « ما » فيها مصدرية ظرفية فقط ، ويَعنون أنّها مع صلتها تتأولُ

بالزمان مع المصدر ، لا أنَّها هى ظرف زمان بنفسها ، بل هى حرف مصدرى ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم : 31] معناه مدة دوامى حيًّا . فحذف الظرف وخلفته ما وصلتها .

وعبارة المنتقِد التى ذكرتَها ليستَ واضحة فى إنكار استعمالها للشرط ، وإنَّما يُفهم من الجملة التى زعم أنَّها الصواب بأنَّ عبارتَه تدلُّ على الحصر بتعريف جزأَيها المسند والمسند إليه . ولا أدرى لماذا ترك فيها قولك « فلماذا لا يقولون » واستبدل به قوله : « يقولون كذا » ، ولو ذكر عبارتك لكان له وجهٌ لأنَّ الاستفهامَ له صدر الكلام فيصح أنْ يقال : فلماذا لا يقولون كذا ما داموا يقولون كذا ، ويصح فى حال ترك الاستفهام : فليقولوا كذا ما داموا يقولون كذا ، ويظهر أنَّ الاستفهام فى أصل كلامك مقصود بالذات . ولك أنْ تقولَ فيه مع عدم استعمال (ما) للشرط وعدم الاستفهام أقوالاً أخرى .

وإن لى فى جملتك انتقادًا آخَر ، وهو جعل « دارك » الخطر أو الخطأ بمعنى (تداركه) ، وهذا ما لا أعلم فيه نصًّا فى كتب اللغة ولا استعمالاً لمن يُحتج بعربيته ، وإنَّما يقوله بعضُ المتأخرين ، والمعروف فى اللغة : دارك الطعن ، أىْ تابعه ، وطعنٌ دراك : متتابع كما فى الأساس[1] . وقالوا إن تدارك الخطأ ونحوه استدركه . فإذا لم يكن عندك نصٌّ فى ورود (دارك) بمعنى تَدَارَك واستدرِكْ فيحُسن أنْ نذكُرَ فى ردِّك على المنتقِد هذا مما قصَّر فيه ، فالاعترافُ من العلماء بما يظهر لهم من الخطأ يزيد مقامَهم فى العلم علوًّا وارتفاعًا ، وناهيك به فى مقام تخطئة المنتقِد بأكثر مما انتقدَه .

هذا ما ظهر بادئ الرأى[2] فى المسائل الأربع ، وإننى لبعيد العهد بالنحو وأحكامه إلا ما يَعْرِضُ لى أحيانًا فى التفكير[★] .

---

(1) يقصد معجم (أساس البلاغة) للزمخشرى .

(2) **يقال** : بادى الرأى أو بادئ الرأى ، **أى** : ما يبدو قبل إنعام النظر .

(★) هذا كان من السيد جوابًا على أسئلة أخذتُ فيها رأيه على إثر انتقادٍ أورده أحدُ المدقِّقين على بعض العبارات الواردة فى كلامنا . وأما « دارك الخطر » فلا جدال فى أنه خطأ صدر عن سهو منا ، ولسنا ممن يُكابر فى خطأ ، وأما سائر الاعتراضات التى أوردها الصديق المدقِّق فلا نظنُّه أصاب فيها .

فى 16 ج 2[1] و 17 نوفمبر :

تأخرت فى خَتْمِ هذا الكتاب وإرسالِه إلى هذا اليوم ، وقد جاءَنى فيه كتابٌ من جلالة الإمام الملك عبد العزيز من نجد كُتب فى 3 جمادى الآخرة ، وأُرسل إلى وكيل المالية فى الحجاز أىْ من طريقه ، وفيه دليل على اتصال البريد بين مكة ونجد ؛ فإنه وصل إلى مكة فى أسبوع واحد ، وقد بشَّرنى فيه بما نصه : « وبعد فإننا للّه الحمد والمنة بنعمة منه وفضل ، وقد أتمَّ اللّه نعمتَه بهدوء الأحوال فى داخلية نجد إذ صارت خيرًا مما كانت عليه أضعافًا مضاعفة ، وقد أبطل اللّه كيدَ جميع الكائدين . ولم يبق إلا فلولٌ للأشرار فى أطراف الحدود يحتاجون للنظر فى أمرهم ومجازاة المجرم منهم ، وقد عَزَمْنا على المسير ، وقريبًا تصلُكم الأخبار السارّة إنْ شاء اللّه تعالى » .

هذا ، وإن صديقَنا فؤاد بك سليم جاء القاهرةَ من زُهاء أسبوعين ، وقد كنتُ أسألُ عنه كلَّ يوم فى الدار التى نزل فيها بالتليفون ، ولم أتمكن من الكلام معه ، ولكنّه زارنى يومَ عودته إلى الإسكندرية ، وكنتُ عازمًا منذ قَدِمَ على دعوته إلى الطعام ، فلما أخبرنى بعزمه على السفر وعلى العودة بعدَ أسبوع لم أذكرْ له ذلك . وقد مرّ الأسبوعُ ولم يَعُدْ . وهو مستاء مِن حال مصر وما فيها من قِلَّة الدِّين وفسادِ الآداب وتهتك النساء ، وقد تواعدنا على المذاكرة فى الإصلاح فى اللقاء الآتى ، ولعلَّه يكون قريبًا . أُقبِّل طُرة غالب وغرَّته ، وأدعو اللّه أنْ يجعلَه قرةَ عين لك وللأمة . والسلام عليك وعليه من أخيكم المخلص . (كُتب بغاية العجلة ولم أتمكن من قراءَته) .

محمد رشيد رضا



(1) **كتبها الشيخ هكذا** : ج2 ، **ويقصد بها** : جمادى الثانى ، ولعل السبب هو عجلته ، وكون هذا الخطاب لم يبيِّض ، كما ذكر فى آخره .

وكتب فى 23 شعبان 1348 و 23 يناير 1930 :

سيدى الأخ الأميرُ

وصلت مكتوباتُك النافعة متتابعةً وما فيها من المقالات النافعة ، وكان من حقٍّ شكرِها المبادرةُ إلى كتابة مرجوع كلٍّ منها فى وقته ، ولم تكن كثرةُ الأعمال وحدَها وضيقُ زمنى عن المهم منها هى التى قضت علىّ بالإرجاء والتسويف كما يسوف العصاة بالتوبة من الذنوب . بل كان أولَ الأسباب لذلك أنْ أقومَ بما كلَّفتنى من مراجعة مَجلتَىْ العرفان والمجمع اللغوى ثم من الكلام مع أبى الحسن فيما هو خاصٌّ به ، ولم يتيسّر لى الأمر الأول إلى الآن لأن أجزاء جميع المجلات أخذت من مكتبتى إلى مكتبة (المنار) لأجل فرزها وإرسالها إلى المجلِّد . وأما أبو الحسن فقد كلّمتُه أولاً بالتليفون ، فأظهرَ قَبول النصيحة بالجملة مع الوعد بزيارتى للكلام فى المسألة قبل الجواب عن الكتاب ، ثم مررت عليه ودعوتُه إلى الغداء مع الأمير عادل عندنا مع إعلامه بأن أحمد زكى باشا سيكون معنا فَقَبِلَ واجمًا مُمتعضًا ، وَعَهِدْتُ إليه أنْ يُبَكِّرَ فى المجىء لأجل الكلام فى المسألة واطلاعه على كتابك ، ولكنّه لم يجئ قبلَ موعد الغداء ولا فيه ولا بعده(★) .

وأما الجملُ والكلماتُ التى سألتَ عنها فأقولُ بالاختصار إنَّ جملة « ما داموا يقولون كذا » . . . إلخ يمكن أن يُلتمس لها وجهٌ من الإعراب ، وإن جاءت على خلاف الأصل ، وهو أنَّ ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها ، وهو أنْ يقال إنهم يَتَوَسّعون فى الظروف ما لا يَتَوَسَّعون فى غيرها ، وما كان وقوفى فى هذه الجملة إلا من هذا الباب كما جرى بيننا فى بور سعيد ، وإنما ذكرتُ مسألة الاستفهام وما له من صدر الكلام فى اعتراض المعترِض عليك ، ووقوعُه جوابًا للشرط لا يُعارِضُ القاعدةَ فيه ، فإنَّ موضع جواب الشرط أنْ يكونَ بعدَ فعل الشرط وإن كان استفهامًا . وأما « لو »

(★) كانت وقعت وحشة بين الأخ المرحوم أحمد زكى باشا والأخ السيد محمد على الطاهر صاحب جريدة الشورى ، واشتدّ الجفاءُ بينَهما ، فكتبنا كثيرًا إليهما فى أمر التصافى ورجونا السيد الفقيدَ أيضًا أنْ يَدْخُلَ فى الوساطة .

فالأصل فيها الشرط وهى بمعنى « إنْ » ، ولم تذكرْ لى على أىِّ شىء بنى المعترضُ اعتراضَه فيها .

وأما جمعُ مكتوب على مكاتيب[★] فلا يثبُت إلا بالسماع ، ولا أعرف فيه سماعًا ، فأجمعه على مكتوبات لأنه قياسى ، وكان الشنقيطى الكبير انتقد على رفيق بك العظم تسمية تاريخه (أشهر مشاهير الإسلام) بهذه العلة ، وهى أن مفعولاً لا يجمع على مفاعيل قياسًا[1] . ولكن لفظ مشاهير استعمله المتقدِّمون ومنهم صاحب القاموس فى غير مادته . . . بدأت بهذا الكتابَ فى مساء أمس (الخميس) فجاءنى من شغلنى عن إتمامه فأتممتُه وقتَ الغروب من يوم الجمعة بالعَجَلِ لأنّنى سأصلى المغرب وأذهب إلى دار صديقنا نسيم صبيعة لشرب الشاى مع الأخ الأمير عادل . فالسلامُ عليك وعلى نجلك النجيب الحبيب من أخيك .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 27 رمضان ليلاً سنة 1348 و 6 فبراير 1930 :

سيدى الأخ الأميرُ

أُهنئك بعيد الفطر وبالاستراحة مِن ألمِ الحَصيات ، وأسألُ اللّه تعالى لى ولك أتمَّ الشفاء وأكملَ العافيةِ وأدومَها ، وأشكره تعالى على ذلك وعلى سائر نعمه الظاهرة والباطنة، وقد تلقيتُ كتابَك الأخير بالسرور وتهنئتَك فيه بالقَبول ، وما ذكرتَه فيه من

(★) تقدّم لنا هذا البحثُ واختلافُ الناس فيه ، والذى يظهرُ لى أنَّ أكبر علماء اللغة أجازوه ، فالشنقيطى الكبير كان يخطىء جمع « مشهور » على « مشاهير » ، ولكن ابن سيده الأندلسى المرسى صاحب « المخصص » أعظم كتاب فى اللغة جمع مشهورًا على مشاهير مرارًا ، ففى الجزء السادس الصفحة 193 من (المخصص) طبعة بولاق الأميرية عنوان فصل هو هذا « مشاهير فحول الخيل فى الجاهلية والإسلام » وفى الصفحة 28 من الجزء نفسه « أسماء مشاهير سيوف العرب » وهلمّ جَرّا .

وقد روى السيد رشيد عن الفيروزآبادى صاحب (القاموس) أنه جمع مشهورًا على مشاهير .

(1) قد فصل مجمع اللغة العربية القاهرى ومؤتمره فصلاً نهائيًا فى هذه المسألة حيث أجاز قياسية جمعه ، وأصدر قرارًا ، نصه : (يجمع مفعول على مفاعيل مطلقًا) . (مجلة مجمع اللغة العربية : 26/ 224) .

علمك بأنَّ المنتقد عليك هو مصطفى جواد[★] وقد رأيتُ انتقادَه للجزء التاسع من تفسير المنار ، وكان سبب انتقاده ما فيه من المخالفة للشيعة حتى فيما ليس له به من علم ، ولا يبلغه ما أُوتيه من فهم كمسائل العقائد وعلم الكلام ، وأشدّ ما آذاه منه إنكار المهدى المنتظر والجزم بأنَّ أَحاديثه كلَّها من وضع دعاة الشيعة[1] ، وإنما استنكر هذا واستكبره لذاته ، وذكر ما أنكره من الكلم والتعبير فيه انتقامًا له ، وهو رأيه الذى يمارسه (إلى أن قال) : ولا أذكرُ الآن مما أنكره وجزم بعدم جوازه من اللغة إلا تكرارَ الإضافة ، وهو متَّفقٌ على جوازه خلافًا لما زعمه . وقد نُصَّ عليه فى أشهر كتب البلاغة كمطوَّل السعد ومختصره ، وفى القرآن شيء منه ، وربما أرجعُ إلى انتقاده إذا وجدتُ فراغًا .

هذا ، وإننى أجيب بالاختصار على ما سألتنى عنه ، وأنا أكتب هذا فى غرفة النوم بالقرب من منتصف الليل ، وقد أردت أنْ أكتب فى النهار على مكتبى فلم أجد دقيقة تَزيد على النظر فى الضروريات ، وقد رأيتُ منها فى الصفحة الأخيرة من جزء المنار السابع بضعةَ أغلاط مطبعية إذ طُبعت الملزمة قبلَ أنْ أراها ، وقال مُصحح المطبعة إنه لم يرها أيضًا ، فغضبتُ ووبَّخت ، وَسَيُرْسَلُ إليك نسختان منه ، وفيه تعليقٌ مهم على ما كتبتَ فى مسألة الوحى . وهذا ما يمكننى أنْ أكتبَه الآن فى المسائل ما عدا « لو » الشرطية ، فقد تكلَّمتُ عليها فى كتابى الذى قبلَ هذا ، وهى فى المغنى[2] .

(1) قولهم « وعليه فيجبُ أنْ نقول أو نعمل كذا » استعمالٌ مولَّد ما أظنُّ أنّ له

(★) الشاب النابغة المحقق الأستاذ **مصطفى جواد العراقى** من سلاطين الأذكياء وأساطين اللغة فى هذا العصر سبق له أنْ انتقدنى وانتقد السيد رشيدًا ، وخطأ كثيرين من الكُتاب مما يدل على طول باع وحدة ذهن ، وقد كان فى اعتراضاته هذه يُخْطِئُ كما كان يُصيب . وما أحسن قول من قال :

وَمَـن ظَـن مـمـن يُـلاقـى الـحـرو ... بَ أن لا يُـصـابَ فَـقـدْ ظَـنَّ عَـجـزا

(1) صحيح الألبانى : « منا الذى يصلى عيسى ابن مريم خلفه » (السلسلة الصحيحة : 2293) ، وروى أبو داود بسنده عن سعيد بن المسيب عن أم سلمة ، قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : (المهدى من عترتى من ولد فاطمة) . سنن أبى داود ، كتاب المهدى .

وروى أيضًا بسنده عن أبى سعيد الخدرى : قال رسول اللَّه ﷺ : « المهدى منى أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت جور أو ظلمًا ، يملك سبع سنين » . (سنن أبى داود ، كتاب المهدى) .

(2) **انظر** : (مغنى اللبيب) : 1/ 255 0 272 .

أصلاً من كلام العرب ، والفاء فيه زائدة لا معنى لها ؛ إذ المتبادر أنْ يقالَ : وعليه يجبُ أو فعليه يجب . . . إلخ ، ومثله : وبالجملة فالواجب كذا . وما انفرد به قدماء المولَّدين من أساطين علماء اللغة وأدبائها لا يُحتجُّ به إذا خالف القواعدَ القياسيةَ ، فما القولُ فى المتأخرين من أهل القرون الوسطى(*) إلى اليوم ، وإنِّى لأجِدُ من الغلط فى كلام الفخر الرازى (الذى ينصرف إليه لقبُ الإمام إذا أطلق فى كتب الكلام والأصول والفلسفة) ما أعجب من كثرته ، ولم أهتدِ إلى سببه ، كما أعلم أنَّ سببَ أغلاط بعض المدققين وواسعى الإطلاع فى العربية مِن أهل عصرنا هو كثرةُ قراءتهم للجرائد والكتب التى أَلَّفها أو ترجمها الضعفاءُ فى النحو والصرف ومتن اللغة وكذا علم المعانى والبيان .

(2) إذا كان جمعُ مفعول على مفاعيل سماعيًا لا قياسيًا فسواء أقلَّ المسموع منه أم

(*) تقدَّم لنا الكلامُ على هذه الفاء وورودها فى مثل هذا الموقع مرارًا فى كلام سيبويه إمام النحاة ، وحسبنا به شاهدًا ، وقد ذكرنا عدةَ عبارات له من هذا النمط ، وعَيَّنَّا الصفحاتِ التى جاءت فيها ، وليس سيبويه بالذى لا يُؤبه له ، بل القول ما قالت حذام . وكذلك ابن هشام صاحب « مغنى اللبيب » ولو تأخر فى الزمن كان من أئمة اللغة الذين يُستشهد بآرائهم فى النحو . ولقد استطلعتُ رأى الأستاذ تقى الدين الهلالى فى قضية هذه الفاء فى هذا الموضع ، وذكرتُ له الجمل التى جاءت فيه من كلام سيبويه فكتب إلىَّ ما يلى :

ما ذكرتُم فى مسألة عمل الفاء فيما قبلَها ونقلتم فهو الصواب ، والعرب تتساهلُ وتتوسع فى مثل هذه الفاء . وقد قال بعض النحاة بمثل قول السيد (أى السيد رشيد) وأما استشهادُكم بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ [محمد : 8] على أن ما بعد الفاء قد عمل فيما قبلها فلم يتبين لى لأن المشهور أنَّ المبتدأ مرفوع بالابتداء والخبر مرفوع بالمبتدأ ، « فالذين » مبتدأ وما بعد الفاء خبر . نَعَمْ هناك قول بأن المبتدأ والخبر يترافعان ، أىْ كلٌّ منهما يرفعُ صاحبه ، وعلى هذا الوجه الدقيق يكون ما بعد الفاء قد عمل فيما قبلها . وأنا أظنُّ أنَّ الفاء هنا آتية فى جواب الشرط المفهوم من « الذين » على حدِّ قولهم « الذى يأتينى فله كذا وكذا درهمًا » وهو صحيح واضح[1] ، وقد بدا لى أنَّ الفاء واقعة فى جواب « أمّا » مقدَّرة ، أىْ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ [محمد : 8] لأنه ذكر حال الذين آمنوا قبل ذلك . وهذا خطرَ لى الآن فقط ووجه دخول الفاء على خبر الذى هو أن « ما » تكون شرطية فتجب لها الفاء فى جوابها ، وتكون موصولةً فتأتى الفاء قبلَ خبرها أيضًا لما بقى فيها من رائحة الشرط ، ثم أدخلوا الفاء على خبر الذى لأنه بمعنى « ما » الموصولة ولأن فيه عمومًا أشبه الشرط . اهـ .

أقول بعد رجع النظر إنَّ الفاء فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ [محمد : 8] هى فى جواب الذين ، فكما أنَّ الفاء تأتى فى جواب « ما » الموصولة فهى تأتى فى جواب الذى لأنَّ معناهما واحدٌ .

---

(1) **هذا يُسميه ابن هشام** : شِبه الشرط وشِبه الجواب « كما تربط الفاء الجواب بشرطه كذلك تربط شبه الجواب بشبه الشرط ، وذلك فى نحو : (الذى يأتينى فله درهم) ، وبدخولها فُهم ما أراده المتكلم من ترتب لزوم الدرهم على الإتيان » . المغنى : (1/ 165) .

كثرُ لا يُستعمل منه إلا ما سُمع ، ولم أرَ فى كتب اللغة ولا فى استعمال الفصحاء مِن المتقدِّمين استعمالَ كلمة مكاتيب جمعًا لمكتوب ، فلهذا أستعملُ الجمع القياسى « مكتوبات » .

(3) لم يرد فى مسألة الصلْب حديث مرفوعٌ إلى النبى ﷺ لا صحيحٌ ولا غيرُ صحيح فيما أعلم .

(4) المفسِّرون المعروفون من الطبرى إلى الآلوسى متفقون على أنَّ المسيحَ عليه السلام نفسَه لم يُصلب ولم يُقتل ، وإنما صُلب رجلٌ آخَر أُلقى شبهه عليه(★) فلا فائدةَ لك من نقل عباراتهم ، ولو كان لأحد منهم قول موافق للرأى الذى تذكره لنقلتُه إليك بل لنقلته فى تفسيرى من قبلُ ، فإنْ كنتَ تريد بعض عباراتهم مطلقًا لتذكرها فى بحثك فحسبُك منها عبارات بعض المحقِّقين فى التعبير المختصر المفيد كالزمخشرى والبيضاوى ، فننسخُها لك إنْ شئتَ ، واخترْ منها كلِّها ، واجمعْ لكلّ ما يتعلّق بالمسألة ما كتبتُه فى تفسير المنار ، ومنه القولُ الذى تُريد بسطَ القول فيه ، فقد ذكرتُه نقلاً عن بعض كتبهم ، والظاهرُ أنك لم تطلع عليه ، وهو قد طُبع مستقلاً ، فأنا أرسل إليك الآن الرسالةَ التى طُبع فيها ذلك ، وطبع معه بحث جليل فى الموضوع للمرحوم محمد توفيق صدقى فيه نُقولٌ مُهمَّة عن الكتب ودوائر المعارف الإنجليزية العامة والخاصة بالكتب المقدَّسة ، فإنْ رأيتَ بعد مطالعتها حاجةً إلى نقل شىء من كتب التفسير المأثور كابن جرير والدُّرِّ المنثور للسيوطى أو غيرهما كالكشاف والبيضاوى والرازى فاطلبْ ما شئتَ يُنْسَخْ ويُرْسَلْ إليك إنْ شاء اللَّه تعالى .

(5) مسألة الربا ستجدُ رأينا فيها مجملاً فى الجزء السابع الذى يُرسل اليومَ ، وترى فيه الوعدَ بالتفصيل ، فالأَولى أَنْ يؤَخّر بيانُ رأيك فيه إلى أنْ تقرأه على ما كتبتَه يصحّ أنْ يكونَ تنويهًا بما فى الجزء السابع قبلَ أن تراه ، ولكنّنى أنتظرُ رأيك فى نشره بعد الاطلاع على السابع .

(★) دخلنا فى هذا البحث فى (حاضر العالم الإسلامى) بمناسبة كلام (درمنغهيم) المؤلف الفرنسى الذى حاول التوفيقَ بين الإسلام والمسيحية .

هذا ما تيسَّر لى كتابتُه ، والسيد عاصم يُسَلِّم معى عليك وعلى نجلك النجيب تسليمًا .

أخوك محمد رشيد رضا

أرجو أن تُبلِّغوا الصديقَ الجابرى سلامى عند لقائه .



وكتب إلىَّ فى 26 شوال سنة 1348 و 27 مارس 1930 :

سيدى الأخ الأميرُ النحريرُ

إنى أُلقى إلىَّ كتابك المحرّر فى 18 مارس ، وأنا مدين لك بكتاب قبلَه ، أرجأت رجعه انتظارًا لفائدة أردت أن أودِعها فيه ، فتأخرتُ أكثرَ مما كنتُ أظنُّ ، وهى مسألة أخذ إذن من محمود مختار باشا بترجمة كتاب والده (سرائر القرآن) كما اقترحتُ . كنتُ رأيتُ الباشا مصادفةً فى رمضان قبلَ وصول كتابك إذ التقينا فى مَحَلِّ عمر أفندى التجارى المشهور ، فتبادلنا تحية المودة القديمة ، واعتذرتُ له عن أداء ما يجب علىَّ من زيارته بالصيام ، وهو يقيم فى ضاحية المرج التى فى آخِر خطِّ المطرية الحديدى ، فقال تفضَّل على الإفطار . . . (والذهاب فى المساء والرجوع فى الليل أشقّ) ، فزرتُه ثانى يوم عيد الفطر ، وتكلَّمنا كثيرًا فى أمر الترك ومصطفى كمال ، ثم طلبتُ منه الإذن بترجمة كتاب والده ، فأجاب إلى ذلك مرتاحًا ، وقال : أُكْتُبْ عن لسانى ما شئتَ وأنا أُمضيه لك . ثم ذكرَ لى ما كان قاله لنا فى مونيخ من أنّه انتقدَ على والده بعضَ المسائل الفلكية ، وزاد على ذلك أن انتقاده مكتوب عنده ، وأنه يعطينى إياه إذا أَحببتُ أنْ أضيفَه إلى الكتاب فاستحسنتُ ذلك ، ووعد بالبحث فى أوراقه عن ذلك النقد بعد أيام ، ورغب إلىَّ أن أَعودَ إليه ، فأحببتُ أنْ أذهبَ أنا والأخُ الأميرُ عادل ، وعرضتُ عليه ذلك فقبِل ، ولم يتيسَّر لنا ذلك . وكنتُ مستعدًّا بل عازمًا على الذهاب يومَ الجمعة الماضى ومُوَطِّنًا نفسى على دعوته إلى الغداء معى والذهاب بعدَ العصر ، واتفق أنْ دعانا الشيخ فوزانُ إلى الغداء عنده ، فالتقينا فى دار الوكالة ، وعرضتُ عليه الذهابَ إلى المرج ، فحال دون ذلك عزمه على الذهاب إلى

الإسكندرية لوَداع وفد فلسطين ، وقدْ فَعل . ثم عزمتُ على دعوته إلى مثل ذلك غدًا (الجمعة) ، فاتفق أنْ دعانا الشيخُ عليٌّ سرور الزنكلونى إلى الغداء عنده ، فإذا وافقنى فإنَّنا نذهب إلى المرج بعد الغداء ، ولكنَّنى أُرسل إليك هذه الليلةَ أو صباحَ غدٍ فى البريد الجوى إن شاء اللَّه تعالى ، وأخبرك فى بريد آخرَ بما سيكون بيننا وبين الباشا إنْ لَقيناه .

« كتابك إلى داغر » أطلعنى عليه ، ولا يزال عندى ، ولا أرى حاجة إلى التشاور فى ذلك الموضوع لأنه غيرُ مرجوٍّ مطلقًا ، فيما أرى ، لأنَّ فرنسا لن ترضى به بحال من الأحوال إلا حالَ الإكراه إن قدرنا عليه . وأما صاحبُ الشورى فلم يطلعنى على شيء منكم ، ولا أخبرنى بشيء عنك أو منك .

« فوزى » لم يعدْ إلى هنا على ما أعلم ، ولو عاد لما خفى علىَّ ، وسأسألُ عنه هنا وهناك فيما سأكتب إلى الحجاز بعدَ يومين إنْ شاء اللَّه تعالى .

« عقيدة الصلب والفداء » يحسُن أنْ يُطبع منها ما شرحناه فى الجزء التاسع من التفسير فى بشائر العهد القديم والعهد الجديد بالنبى ﷺ، وذلك فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : 157] فراجعْه إنْ كنتَ لم تقرأْه ، وهو فى (ص 230 إلى 300 جـ 9) .

ولى من التلاميذ فى جاوه والهند من يُحسن ترجمة البحثين . أما فى جاوه فالذى اقترحَ عليك الموضوعَ الذى وعدتَ بإجابته إليه(★) . وأما فى الهند فالشاب الذى يراسل جريدتَىْ المقطم والبلاغ ، وهو سياسىّ وطنىّ إسلامىّ شديدُ التحمُّس ، وقد ترجم بعضَ رسائل ابن تيمية بالأوردو ، وترجم للعربية كتاب الصحة لغاندى الذى نشرناه فى المنار وطبعناه على حِدَة .

(محاضرتى فى موضوع التجدد والتجديد والمجددين) أظنُّ أنَّك تُسَرُّ بها كإعجابك

(★) هو الفاضل **الشيخ بسيونى عمران** الذى ألقى علينا أسئلة فى موضوع تأخُّر المسلمين فى الأعصر الأخيرة ، فأجبناه عنها برسالة : « لماذا تأخر المسلمون وتقدَّم غيرُهم ؟ » واشتُهرت هذه الرسالةُ ، وتُرجمت إلى عدة لغات ، وطُبعت أكثرَ من مرَّة .

بموضوع المسألة النسائية ، وهى طويلة لم يتيسّر لى إلقاؤها كلِّها فى قاعة الجمعية الجغرافية ، بل لم يكن ذلك مُمكنًا . وقد كان لها تأثير أقوى من تأثير المناظرة فى المسألة النسائية ، ولا سيما فى أنفس طلبة المدارس العليا وعقولهم ، واقترحوا علىّ نشرَها فى رسالة مستقلة ، وسأنشرها قبلَ ذلك فى المنار إنْ شاء اللّه تعالى .

(الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام) تيسَّر لنا قبلَ رمضان ما لم يتيسر منذ سنين من فكّ إضبارات[1] المطبوعات الزائدة والمجهولة المعبَّر عنها بالدشت[2] (ولعلَّ كلمة الأمشاج تحل محلَّ هذه الكلمة) لتعلم ما عسى أنْ يكون فيها مما طبعناه من هذا الجزء منذُ أكثرَ من عشرين سنةً لأجل أنْ نُتمه ، وكنتُ أمرت بهذا منذُ ثلاثِ سنين فلم يتيسَّر . وقد ظهر لنا أنَّ أكثرَ ما طبعناه قد فُقد وأن الباقى قد تلف بعضه ، فأعدنا طبعه من أوّله . وكان المطبوع منه قد انتهى بالملزمة 29 ، وهى أواخر ما كتبناه فى رأيه وقوله وكتابته فى الثورة العرابية ، ونُتِمّ هذا البحثَ فى الأسبوع الذى نستقبله بمذكرات له وجيزة فى المسألة إنْ شاء اللّه ، وحينئذ أُرسل إليك كلَّ ما طُبع . وأخبرُكَ الآن أنّنى بعدَ المسألة العُرابية سأكتب فصلاً فى حاله - رحمه اللّه - فى منفاه فى بيروت ثم فى غيرها ، وكنت كلفت أخانا المرحومَ عبد الباسط فتح اللّه أنْ يكتبَ إلىّ بما يعلمه من حاله فى بيروتَ ففعل ، وسأبحث عما كتبه عند الوصول إليه بعدَ يومين أو ثلاثة . وأرجو أنْ تكتبَ إلىّ أنت بما تعلمه من ذلك أيضًا ، ثم تستنسخَ لى ما عندك من مكتوباته التى يصحُّ نشرُها والاستنباطُ منها عند المناسبة لذلك[*] .

(حالتُنا الصحية) بشّرتنى فى مكتوبك الأخير أجملَ بشارة ، وقعت من نفسى كموقع الماء المثلوج من ذى الغُلّة الصادى[3] فى مكة المكرمة ، وهى أنّك « رجَعت

(1) **الإضبارة** : الحزمة من الصحف ، ضُم بعضها إلى بعض .

(2) **الدَّشت** : جملة الورق غير المرتب أو المهمل .

(★) قد أرسلتُ إلى السيد بضعة عشر مكتوبًا من كتب الأستاذ الإمام إلىّ ، وكلُّها بخطه ، وكان ينوى نشرَها فى الجزء الرابع من تاريخ الشيخ محمد عبده .

(3) **الغُلّة** : شدة العطش ، **والصادى** : شديد العطش ، وكان الشيخ رشيد يحب الماء المثلوج ، وقد كان الملك عبد العزيز بن سعود يوفرّه له أثناء حجه ، وقد سبق كلامه عن هذا .

شابًا » ، فالحمد للّه ثم الحمد للّه ، وعسى أنْ لا نقرأ ولا نسمعَ عنك ولا منك كلمةً فى كِبَرِ السنّ واستطالة العمر . . . . وجزاؤك على هذه البشارةِ إنما هو بشارةٌ مثلُها عن أخيك هذا ، وهو أننى أشعر باستكمال أركان الشباب الثلاثة فوق ما كنتُ أشعر من عشرين سنةً وأكثر ، إلا أنَّ لى أربعةَ أسنان صناعية ، وليست المسألةُ مسألةَ شعور فقط ، بل اختبر الدكتورُ نهادُ بك رشاد دمِّى منذ أسبوعين فبشَّرنى بأنَّ مقاس الضغط 15 وأنه كضغط دم شابٍّ فى سنّ الثلاثين ، وقد كان اشتدَّ ضغطُ الدّم علىَّ فى أواخر الصيف وأوّلِ الخريف الماضى فبلغ 18 وربما 19 ، ولأجله كنتُ محتميًا عندما التقينا فى السويس وبور سعيد ، وإنّما تساهلت فى الحِمية معك ثم عُدت إليها ، ولستُ الآن مُحْتميًا ولكنّنى معتدل فى الطعام وغيره . وإنما حاسبنى أخونا فؤاد بك على ما كنتُ حدَّثته به عن حِميتى ثم عن تعديل أغذيتى كمًّا وكيفًا ، ومن الضرورى أنْ يزيدا فى الضيافات ، وذلك لا يُنافى الاعتدالَ فى عامة الأوقات . والسلام عليك وعلى نجلك النجيب ، حفظه لك ، وحفظك له ولأخيك .

رشيد



وكتب فى 6 ذى الحجة الحرام 1348 و 5 مايو 1930 :

سيدى الأخ الأميرُ

أُحيّيك تحية مباركة طيبة ، وأُهنئك بعيد الأضحى السعيد ، أعاده اللّه تعالى عليك وعلى ولدك وآلك وعلينا نحن قريرو العين بشرف ملتنا ، وتقدم أُمتنا ، وسبقها فى ميدان الاستقلال والعلوم والأعمال أو ميادينها الكثيرة ، وهى وراء غيرهم فيها .

ثم أشكو إليك من هذه الفترة الطويلة من مكتوباتك السارّة المفيدة مع توفر الدواعى على الكتابة ، ومنها ما طلبتُه منك بشأن تاريخ أستاذنا الإمام من عمله فى بيروتَ (أو سورية) ومن مكتوباته لك ومن صورته الجميلة التى أعطاك صديقُ الجميع فؤادُ بك سليم نُسخًا منها – وآخِر هذه الدواعى لقاؤك للشقيق الأمير عادل . ومن الغريب أنه هو لم يكتب إلىَّ شيئًا أيضًا ، وكان وعدَنى بأنْ يكتبَ إلىَّ تقريرًا طويلاً عن نجلكم النجيب

كما اقترحتُ عليه ، ولم أجد وسيلةً أعرف بها شيئًا عن الأمير عادل إلا صاحب الشورى : سألتُه فأخبرنى أنّه أقام عندك أسبوعًا واحدًا ثم سافر إلى الولايات المتحدة .

أنا فى هذه المدّة أتوقع فى كلِّ يوم تَلَقِّى كتاب منك ، ولم يتجدّد عندى شىء أكتبه إليك ، إلا أننى زُرت محمود باشا مختار يومَ الجمعة الماضى ، وأخذت منه خطًّا بالإذن لى بترجمة كتاب والده الغازى (سرائر القرآن) بالعربية وطَبْعِهِ ونَشْرِهِ ، ولم يبقَ إلا العثورُ على من يُحسن ترجمتَه . وقد سألتُ أحمد شفيق باشا عن ذلك فذكر لى رجلين ، أحدهما أرجى من الآخَر ، وهو الذى كان يُعلِّم بناتَ السلطان حسين كامل اللغةَ التركية ، ووعدنى بالبحث عنه ، وسأسألُ صديقنا فؤاد بك سليم أيضًا ، ولعلَّه يجىءُ مصرَ فى أيام العيد كما جاء فى فرصة عيد الفطر ، وعسى أنْ تُغنينا عن كلِّ هؤلاء بنفسك أو برأيك .

وقد خطر فى بالى أيضًا أنْ أكتبَ إلى صديقنا السيد محمد نصيف أنْ يسأل السيد عبد الغنى سنى عن ترجمته لهذا الكتاب من تِلقاء نفسه ، وأنْ يشتريها منه إذا اعترف بها ، ورضى بيعَها بثمن معتدل لا يتجاوز عشرين جنيهًا ، وإننى أتذكر أننى كنتُ عرضتُ عليه عندما كان هنا ثلاثين جنيهًا فلم يقبل لأنه كان صاحبَ الحقِّ فى طبع الكتاب ، وهو الآن لا يتجرّأ على طبعه باسمه كما قلتم(★) . ولو كان يتجرأ لأعلمناه بأنَّ الإذنَ لنا به نَسَخَ الإذنَ له . أُقبّل طُرّة الأمير غالب وغرّته بالغيب ، وأدعو لكم وله بما أدعو لنفسى ولولدى . والسلام .

من أخيكم

محمد رشيد رضا



(★) لأن عبد الغنى سنى بك يعد ترجمة هذا الكتاب - الذى فيه تأييد القرآن للنظريات الحديثة فى أمر تكوين الأكوان وتأييد النظريات الحديثة التى أجمع عليها علماءُ الطبيعة لِمَا جاءَ فى القرآن - قد استخدمتْه حكومةُ أنقرة سفيرًا لها فى جُدة ، فصار يتجنّب نشر شىء يُغضب الحكومة التى هو مستخدَم عندها ، والتى يَهُمُّها أن لا يكونَ القرآنُ مطابقًا للنظريات العلمية الحديثة .

وكتب إلىّ فى غرّة المحرم 1349 و 29 مايو 1930 :

سيدى الأخ الأميرُ

أُهنئك بالعام الهجرى الجديد ، وأدعو اللّه تعالى أنْ يُبقيَك إلى أمثاله عشرات كثيرةً من الأعوام مُوَفَّقًا لخدمة العرب والإسلام ، ويسرّنى أنْ تكونَ أوّل مَن أكتب له فى هذا العام .

وَافتنى منذُ ثلاثٍ أو أربعٍ رسالتُك فى شيخنا - رحمه اللّه تعالى - ووعدتَ بتالية لها ، فأشكرُ لك أولاً ما كتبتَ فأجدْتَ وأحسنْتَ ، وما كنتَ إلا مجيدًا ومحسنًا ، وأربيتَ عن الفائدة على ما كتبه أخونا المرحوم السيد عبد الباسط رحمه اللّه تعالى . ثم أُذكِّرك بأن لا تتكلَّفَ فيما تكتب فى هذا الموضوع غير ما يتعلَّق بسيرة الإمام فى سورية ، فإنَّ سائر شئونه وآرائه مبسوطة فى الكتاب (الجزء الأول من تاريخه) ، فإننى رأيتُك فى النُّبذة الأولى ذكرتَ رأيه فى علماء الأزهر والتعليم ، ولهذا موضع آخَر من مقاصد الترجمة .

وإننى عجبتُ لما كتبتَ فى ذيل الرسالة من قولك : وصل كتابك الأخير - فأىّ كتاب تعنى ؟ الظاهرُ أنّك تعنى الكتابَ الذى اقترحتُ فيه عليك ما اقترحتُ ، وهو ليس بالأخير ، بل الأخير ، الذى قبلَ هذا الذى أكتبه الآن ، هو الذى كتبتُه فى أوائل ذى الحجة مُهنِّئًا لك بعيد الأضحى ، ومعاتبًا على إطالة الفترة على كتبك ، ومذكِّرًا بما أرسلتَه مع الأخ الأمير عادل من التهنئة بلقائه ومن كراريس ترجمة الأستاذ الإمام ، ومتعجّبًا من عدم تفضُّلك بعلم وصوله ووصول ما معه وعدم تفضله هو بكتابة شىء . وقد كنت رَجَوْتُه عند التوديع بأنْ يكتب إلىّ بيانًا مطوَّلاً عن أحوال نجلك النجيب ، فوعد ولم يَفِ ، بل لم أطمئن بخبر وصوله وتلاقيكما ثم بخبر سفره إلا من صديقنا أبى الحسن ، ولكنْ بعد سؤالى إياه . ومما طلبتُه منك كتابةً ، ورجوتُ الأمير عادلاً بأنْ يَذْكُرَه لك طلبُ نسخة من صُور المرحوم الأستاذ الإمام التى أعطاك صديقُنا فؤاد بك سليم .

بل كان أهمُّ شيء ذكرتُه لك فى الكتاب الأخير أخذَ الإذن الخطىّ من دَولة[1] مختار باشا بترجمة كتاب والده بالعربية وطبعه ، واستشرتُك فى مسألة الترجمة . وذكرتُ لك فيه أو فى غيره أنّنى أرسلتُ رسالةَ الصَّلْبِ والفداء إلى أَنْبهِ تلاميذِى فى الهند وفى جاوه لأجل ترجمتها باللغتين الأوردية والملاوية كما اقترحتُ . . . فيا ليت شعرى[2] هل فقد شىء مما كتبتُ إليك أم أنستك الشواغلُ الجديدةُ كلَّ هذه المسائلِ المفيدة فلم تُرجع إلىَّ قولاً فى شىء منها ؟ وأذكر هنا أنه جاءَنى فى بريد جاوه الأخير أنَّ الشيخَ محمد بسيونى عِمران قد شرع فى ترجمة رسالة (الصَّلْبِ والفداء) بالملاوية ، وهو الذى كان اقترح عليك الكتابةَ فى موضوع مفيد ، فوعدتنى بأَنْ ستجيبه إلى اقتراحه ، ولا أتقاضاك هذا ، وإنّما أرجو أن لا يكونَ فُقِدَ شىء مما كتبتُ إليك ، وما أريدُ أنْ أشقَّ عليك فى شىء ، بل أدعو أن يُعينك اللّه على ما أنت فيه . والسلام عليك وعلى نجلك ورفيقك الجابرى من أخيكم .

محمد رشيد رضا

وكتب إلىَّ فى 19 المحرم 1349 :

سيدى الأخ الأميرُ

وصل كتابك الأخير الذى أودعت فيه مكتوبات الأستاذ الإمام ، ووصلت قبلَه بقليل بقيةُ الترجمة . فأما ما يتعلق من الترجمة بما كان من شأنه وعمله فى سورية أثناء النفى فهو الذى يُذْكَرُ فى المقصد الثانى من الفصل الخامس الذى موضوعُه : عملُه فى المنفى . وأما سائر الفوائد فستذكر إن شاء اللّه تعالى فى مواضعها اللائقة بها . وأما المكتوبات فسأنظر فى تواريخها ؛ فإن كان فيها شىء فى مدّة النفى فربما أذكره فى هذا الفصلِ ، وأما ما فيها من الحِكم والنصائح الأدبية العامة فله موضع آخرُ من التاريخ أو الذيل .

كنتُ أمسكتُ عن المضى فى كتابة التاريخ باشتغال المطبعة بشغْل آخر ، وقد عدتُ إليه فى هذه الأيام المكتظة بالشواغل التى منها دخول المنار فى سنته الجديدة

---

(1) **دولة** : لقب **مثل** : سعادة وقداسة . . . إلخ .

(2) ياليتنى أعلم .

(31) وما تقتضيه مِن عمل فهارسَ للجزء الماضى بل المجلدِ الماضى وغير ذلك ، وقد تراءى لى التوسعُ فى عمل الأستاذ مع السيد[1] فى أوروبا للجامعة[★] المصرية والرابطة الشرقية والمسألتين المصرية والسودانية ، وكنتُ عازمًا على اختصار ذلك مِن قبلُ . وقد كان مِن وصفى لتأثير « العروة الوثقى » أنْ ذكرتُ بيتين من قصيدتك الميمية فى السيد وبيتين من قصيدتك الكافية فى الشيخ ، أىْ فى وصف كلامِهما ، وهذه الأبياتُ عَلِقَتْ بذهنى مع أبياتٍ أُخَرَ من باكورتك ؛ إذ رأيتُها فى طرابلسَ فى أيام طلبى للعلم فيها ، فهل لديك نسخة منها تكونُ نعمةً تمنُّها علىَّ أم تعلم أين توجد ؟[★★] .

عندما يتيسّر لى قراءةُ المكتوبات ألخص منها ما يحسُن نشرُه مع بيان مصادره ، وإن شئتَ أنْ أعيدَها إليك لتتولى ذلك ، وأنت أعلم وأولى بالحكم فيما يحسُن نشرُه وما لا يحسن ، أعدتُها فى كتاب مسجَّل .

ما كتبه إليك الأخ الأمير عادل عن أكلى وحِمْيَتِى كان دُعابةً ومِزاحًا بالطبع ، وقد بلغنى أنه أعطاه لرفيقه بندك فنشره فى جريدته ، فساءَنى ذلك جدًّا . وإنى عاتب على الأمير عادل لجَوْرِه علىَّ وإخلافِهِ ما وعدنى به من المكتبة من أوروبا وغيرها ، وأهمُّ ما وعدنى به إجابةً لطلبى كتابةُ تقرير عن النجل الحبيب غالب . لعلَّه أعجبك ما نشرناه فى التفسير آخِرًا كما أعجبك ما قبله . والسلام عليك وعلى الأخ الصديق الرفيق إحسان بك ، أحسنَ اللَّهُ إليكما وأعانكما ، وأُقبِّل غالبًا تقبيلاً ، وأدعو له وأتمنى لو يُرْسَلُ إلى مصر ليتلقى العلم بالعربية ، حفظه اللَّه لك ، وحفظكما للأمة ولأخيك المخلص .

رشيد

---

(1) الأستاذ هو محمد عبده ، والسيد هو جمال الدين الأفغانى .

(★) ليس معنى الجامعة المصرية هنا المدرسة الجامعة بل هى بمعنى الرابطة .

(★★) ديوانى الباكورة الذى نشرته وأنا فى السابعة عشرة من العمر كانت نُسَخُه قد أصبحت نادرة جدًّا إلا أننى عثرت أخيرًا على نسخة منه ، وألحقت أكثر قصائدى التى فيه بديوانى الذى نشرتُه فى العام الماضى ، وكان الأستاذ - رحمه اللَّه - هو المشرف على طبعه ، ومضى إلى ربه قبل إتمام الطبع .

وكتب فى 22 جمادى الآخرة 1349 و 13 نوفمبر 1930 مساءَ الخميس :

سيدى الأخ الأميرُ

وصلت رسالتُك(*) منذ أسبوع ، ثم وصل الاستدراكُ ، وسيوضع فى موضعه الذى أشرتَ إليه ، واستحسنتُ رأيَك فى طبع الرسالة وحدَها ونَشْرِها قبلَ طبعِها فى المنار كلِّها أو بعضِها ، وإنْ كانت النفقةُ فى هذا أكثرَ . وخطرَ فى بالى (لما قرأتُ كتابَ الأخ الأمير عادل فى سوء حال جماعة النبك وما يَصْدَعُه مِن همِّهم وسؤاله إياى عن إمكان جمع خمسين جنيهًا لهم بمساعدة صديقنا عبد الحميد بك سعيد) خطَر فى بالى أنّه ربّما يسهُل بيعُ ألف نسخةٍ من هذه الرسالة باسم هذه الإعانة بمساعدة جمعية الشبان المسلمين وجمعية مكارم الأخلاق ، وأما جمع إعانة بالتبرع فهو يكاد يكون مُحالاً لأنَّ العُسرةَ الحاضرة قد ضيَّقت الخناقَ على جميع الطبقات ؛ حتى إنَّ ناظرَ وَقْفِ المنشاوى باشا ودائرته التى يبلغ دخلُها السنوى زُهاء مائة ألف جنيه يشكو من العُسرة ، كما قال لى أول من أمسِ ، وحظُّنا من هذه العسرة عظيمٌ فلا أحدَ يدفع قيمةَ الاشتراك فى المنار ، ولا أحدَ يشترى من كتبه ما له قيمة تُذكر . وأجرة المطبوعات لا تكاد تكفى المطبعةَ ، وإنما رِبْحُنَا منها ما نطبعه لنفسنا(1) ، وهو لا يُباع فى هذه الأيام ، وإننى مدين بأكثرَ من ألف جنيه . . . . وقد سافر السيدُ عاصم ، إلى طرابلس والقلمون على مَحلِّ موسم الزيتون .

قرأتُ الرسالةَ فى ليلة الجمعة الماضية ويومها فألفيتُها فى الدرجة الثالثة ، وهى العليا من درجات الاستحسان عند المرحوم أستاذنا الإمام . فالأولى ما كان يُعبِّر عنه بكلمة « موش بطال » وللمويلحى(2) نكتة فى هذه الكلمة أذكرها لك فى وقت آخر إن كانت لم تبلُغك ، فهى خيال غريب لم يَلُحْ فى غير ذلك المخِّ الغريب . والثانيةُ ما كان يُعبّر عنه بكلمة « طيبة » . والثالثةُ ما كان يُعبِّر عنه بكلمة « جيد جدًّا جدًّا » وربما كرَّرها ، ولم

(*) هى رسالة « لماذا تأخر المسلمون ؟ » التى تَقدَّم الكلام عليها .

(1) جُمع الضمير ، ولم تجمع كلمة (نفس) ، والأولى جمعهما (لأنفسنا) .

(2) **محمد بن إبراهيم المُوَيْلحى** أديب اشتهر بكتابه « عيسى بن هشام » توفى سنة 1930م . **انظر** : (الأعلام : 5/ 305) .

أسمعها منه إلا مرةً واحدة . فالرسالة أحسن ما قرأتُ لكم فى الاستدلال والتأثير لا فى التأنق فى التعبير . وهى من إملاء العلم والإيمان الغالب على الشعور والوجدان ، لا من إملاء التخيُّلِ الشعرىّ فى البيان ، ولكنَّها قد كُتبتْ بسرعة ، وفيها مباحث دينيةٌ كثيرة ، فهى لا تخلو مِن عبارات أُحبّ أنْ أُراجعَكم فيها ، منها ما يتعلَّق باللفظ ، ومنها ما هو استدراك على بعض المسائل ، ولعلى أُوفَّق غدًا (الجمعة) لكتابة ذلك ، فقلَّما أفْرُغ لمثل هذا إلا فى بعض أيام الجمع ، وإنى منتظر جوابًا على بعض ما ذكرتُه فى مكتوباتى السابقة ، وهى خمسة على ما أتذكَّرُ . والسلام عليكم وعلى صِنْوِكم الكريم ونجلكم النجيب وزميلكم السياسىّ وعلى مَن تكاتبون فى باريس كَوَلَدِنا بلا فريج(★) وصديقنا الشيخ إميل(★★) ، ولا زلتم سالمين لأمتكم ولأخيكم المخلص .

محمد رشيد رضا



ومما كتبه إلىَّ من القدس فى أثناء انعقاد المؤتمر الإسلامى الكبير (وهذا الكتاب بلا تاريخ) :

أخى الأميرُ المجاهد الكبير الأستاذ النحرير[1]

وصل إلىَّ تقريظُك البليغُ لتاريخ شيخِنا الأستاذ الإمام محوَّلاً من مصرَ ، ثم وصل كتابٌ آخرُ فيه حِوالة بمائة فرنك سويسرى سأقبضها فى مصر بعد غد إن شاء اللَّه تعالى .

فأما التقريظُ فلا أُحصى ثناء على ما أطربتنى فيه ، ولا أُعاتبك على شىء من انتقادك الكلام فى الأستاذ الشيخ عبد الكريم - رحمه اللَّه تعالى - إلا على قولك إنّنى

(★) **السيدُ أحمدُ بلا فريج** صاحبُ مدرسة « محمد جسّوس » التى هى المدرسة الوطنية الراقية الوحيدة فى السلطنة المغربية ، وهو مِن مفاخر ذلك القُطر عِلمًا وعملاً وأخلاقًا وذكاءً - حفظه اللَّه - لوطنه . وقد كان السيدُ بلا فريج زار مصرَ وتعارف مع الأستاذ فقدَّره قَدْرَه .

(★★) **الشيخ إميل الخورى** أبو صعب مِن أذكى أذكياء الشرق وأكملِهم ثقافةً وأعرفِهم بالسياسة ، تولَّى مدةَ سنواتٍ إدارةَ الأهرام أكبر جريدة عربية ، وكان السيدُ الأستاذُ يوده ويُعجب به كثيرًا ، كما أنَّ الشيخَ إميل كان مِن أصْدَق أصدقاءِ الأستاذ ، وما حزِن على فقده أحدٌ أكثرَ منه .

(1) **النحرير** : العالم الحاذق فى علمه .

جعلتُك كأبى نواس ، وقولكِ إننى كنتُ أحمل حفيظةً على المرحوم ، أو ما هذا معناه . والتقريظُ ليس معى الآن ، وقد أعطيتُه لصاحب جريدة (الجامعة العربية) فَنَشَرَتهُ ، ولم أُعلِّق عليه ، وإنما ادّخرتُ التعليقَ للمنار ، وأرجو أنْ يكونَ مقبولاً عندك . وسأقول كلمةً فى علم الشيخ عبد الكريم أيضًا ، وقد عاتبنى على ما كتبتُ فى هذه المسألة محمد فتح اللّه باشا بركات ، وسأذكر فى التعليق على كتابك - بل تقريظك - خلاصة ما أجبتُه به من غير ذكر لإنكاره .

وأما الكتابُ فأذكرُ لك هنا من موضوعه أنّنى وُفِّقْتُ لإرسال جميع ما كان هيَّأه السيدُ عاصم من رسالتك ورِحلتك إلى أمريكا وغيرها ، وحالت العسرةُ دون إرساله هو له ، وأرجو أنْ يكونَ المرسَلُ إليهم قد كتبوا إليك بذلك . وسأرسلُ إليك ما طلبتَ من أصول رسالة « لماذا » بعدَ العودة إلى مصر ، فقد أمرتُ المطبعةَ بحفظها كلِّها ، وإنّنى عازم على السفر غدًا كما أشرتُ إلى ذلك فى صدر هذا الكتاب .

كان تأثيرُ هذا المؤتمر أضعافَ ما قَدَّر المتفائلون ، وقد خاب ما كاده له الدسّاسون ، وقد خُتمت جلساتُه البارحَة ، وسَتُروى سائرُ أخباره فى الجرائد ، ولا أدرى أَكَتَبَ لك بعض الأصدقاء شيئًا من أخبار الدسائس ورجالها وما كان من عاقبة أمرهم أم لا ؟. إنَّ رجلين من أكبر أصدقاء السيد أمين الحسينى الذين سبقَ لهم الاهتمامُ بأمر هذا المؤتمر قد خرجا منه مغبونين ، وهما مولانا شوكت على وعبد الحميد بك سعيد ، فالأولُ اتُّهِمَ فى مصر ثم فى القدس بأنّه من أنصار الإنجليز الغلاة فى المسألة الهندية وغيرها ، وأنَّه يحاولُ فى المؤتمر منعَ التشنيع عليهم وعلى الفرنسيس والطليان المستعمِرين . وظهر منه هذا فى المؤتمر فتحاملَ عليه الوطنيّون بعضَ التحامل ، وفنَّدوا بعض آرائه واقتراحاته على ما كان من إدلاله وآماله ، ولكنَّ المؤتمرَ اختاره مع سائر رِفاقه من مُسلِمى الهند أعضاءً فى اللجنة التنفيذية للمؤتمر ، وكان رفاقه قد سافروا قبلَه فصرَّح فى جلسة المؤتمر الأخيرة عقبَ الانتخاب بأنَّه لا يَقبل الانتظامَ فى اللجنة ، فعقدَ الأعضاءُ الذين انتخبوا اللجنةَ جلسةً خاصة فى حُجرة خاصة - وأنا منهم - وبالغنا فى استعتابه واسترضائه ، فأصرّ على رأيه مُكرِّرًا قوله بأنّه يعملُ فى خدمة المؤتمر عمل جندى . . . إلخ .

وأما عبدُ الحميد بك سعيد فإنّه من أظهر حزب الحكومة والسراى المظاهرين لدولة إسماعيل باشا صدقى . فلمّا هبّ الأزهرُ للطعن فى عقد المؤتمر ورميه بالتهم ، واستغلَّ ذلك خصومُ السيد أمين الحسينى فى وطنه ، وفى مُقدمتهم راغب بك النشاشيبى وحزبه والشيخ الشُّقَيرى وغيرُه بالطعن والتنفير والتشهير - حضر الحسينى إلى مصرَ للسعى فى تلافى فتنة الأزهر ، وكان حضورُه برأى عبد الحميد بك ومَن كان يَشتغِل معهم ، ومنهم التفتازانى وسليمان فوزى صاحب الكشكول والثغر وكلاهما من أعوان الحكومة - وبرأيي أنا أيضًا ، ولكن من حيث لم أعلم من أمر غيرى شيئًا . وقد تلقَّاه عبد الحميد بك سعيد عند وصوله وجمعه بإسماعيل باشا صدقى ، واتفقا على ما نُشر فى الجرائد ، وكان يسعى لمقابلة جلالة الملك فؤاد له والعطف على المؤتمر ومساعدته ، كما قال لى هو والتفتازانى ، فحال دونَ هذا أنْ أجاب الحسينى دعوةَ مصطفى باشا النحاس وفتح اللّه باشا بركات ونجله بهى الدين بركات إلى طعام ودعوةَ مكرم عبيد سكرتير الوفد إلى الشاى . ثم ذهب عبد الحميد بك سعيد إلى القدس للسعى للتأليف بين الحسينى وخصومه ، وسافر أيضًا إلى القدس سليمان أفندى فوزى ، واجتمعوا مِرارًا بالمعارضين ، وسأكتبُ إليك ببقية القصة إن لم تكن بلغتْك ، فقد شغلنى الزائرون ليلاً فلم أُتمَّ الكتابَ ، والآن أذهبُ إلى المحطة . والسلام .

أخوك محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 4 جمادى الأولى سنة 1349 و26 سبتمبر 1930 :

سيدى الأخ الأميرُ

حيّاك اللّه وبارك لك فى سفرك وإقامتك وغُدُوِّك ورَواحك وصباحك ومسائك ، وبارك لأمتك ومِلّتك فى عمرك ، وجعل فى سبيله ما تَبْذُلُهُ لهما من عملك وما تخطُّه بقلمك الذى بَذَّ[1] جميعَ الأقلام وكنتَ به أميرَ البيان ، وإننى لم أكن فى وقت من

---

(1) فاق .

الأوقات أشوقَ إليك وأحرصَ على القرب منك منى فى هذه الأيام التى رحلتَ فيها إلى الأندلس حيث آثارُ أُمتنا التى نُفاخر بها جميعَ الأمم . ولكنّنى لم أكن فى وقت من الأوقات أعجزَ على السفر منى فى هذا الصيفِ لقلّة المال وسفر أكثر العيال إلى رَمْل الإسكندرية للاصطياف ، ومعهم السيد عاصمُ ، وهذا اليومُ موعدُ عودتهم لأنَّ المدارسَ الابتدائية تفتح فى نهار غدٍ ، ولكنَّ إجارة الدار التى يَسْكنونها تنتهى فى آخِر سبتمبر ، ويُحْتَمَلُ أنْ يَبقى بعضهم فيها أربعةَ أيام أُخرى ، ومتى جاء السيد عاصم رَجَوْنا أنْ نظفرَ بكتاب (السفر إلى المؤتمر)(★) بتوصية الورّاقين الذين يشترون الكتبَ القديمةَ من التَّركات ، وأمّا رحلة البتانونى(★★) فهى موجودة فى السوق ، ويمكننى إرسال مَن يشتريها فى كلِّ وقت ، ولكننى أنتظر العثورَ على الكتاب الآخَر ، وكنتُ أظنُّ أنه يوجد عندى نسخة منه ، وقد بحثتُ عنها فلم أجدْها . وقد عاد أحمد زكى باشا من فلسطين فى هذا الأسبوع وزرتُه مساء أمس راجيًا أنْ أجدَ مناسبةً أطلب فيها الكتابَ منه فلم أجدْها ، ففضَّلتُ الانتظارَ ريثما نيأسُ من وجوده عند باعة الكتب القديمة ، وبمناسبة ذكره أقولُ إنَّ صاحبَ الشورى كان قد كفَّ عنه إرضاءً لك ، ثم ثبت له ذنب جديدٌ هاجه فلم يستطع علاجه .

وصل إليَّ ثلاثةُ كتب منك ، أولها من أول بلاد الأندلس(★★★) على ما أتذكّر ، وفيه أنَّ عُنوانك الثابت « مكتب البريد فى مدريد » ، وليس فيه ما يقتضى الجواب إلا أنك سألتَ عن وصول مكتوباتك الأخيرة من لوزان ولا سيما المكتوبُ الذى فيه مكتوباتُ الأستاذ الإمام ، وكنتُ أخبرتُك بوصولها ، وعلمتُ أنّ المكتوباتِ تُحَوَّلُ إليك حيث كنتَ ، والأخيران وصلا فى بريد واحد مع الكتاب الذى أرسلتُه إلى

(★) السفرُ إلى المؤتمر رحلةٌ للأستاذ المرحوم خادم العلم طولَ حياته الملقَّب كان بشيخ العروبة ، وقد ذكر فيه أيامَه بالأندلس ، وكتب أشياء عنها نقلناها إلى كتابنا الذى ظهر مؤخَّرًا « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » .

(★★) هى رحلة لبيب بك البتانونى الكاتب المؤرِّخ المشهور .

(★★★) أتذكّر أنى كتبتُ كتابًا إلى السيد رشيد من سرقسطة التى كان العرب يقولون لها « الثغر الأعلى » ، وكانت قاعدةَ مُلكهم فى شمالى الأندلس .

صديقنا عبد الحميد بك سعيد . وكنا شرعنا فى القيام بالواجب فى مسألة البربر وأصدرنا النداء الذى أمضاه معنا كثير من الفضلاء وأكثره من إملائى ، وفهمتُ أنك بعد هذين الكتابين لا تلبث أنْ تعودَ فأَخَّرتُ الكتابَ إليك راجيًا أنْ يصل بوصولك إلى لوزان أو بعدَه بقليل ، وأنْ يرسل معه الكتابان .

إذًا لم يكن مقتضى لكتابتى لك فى هذه المدّة إلا حنينى وأمنيتى التى أشرتُ إليها فى أول الكتاب ومناجاتُك بالشعور المشترك الذى سبقتَ إلى ذكره ، وصدقتَ فى أنَّه لا يوجد من إخوانك من يُساهمك فيه مثلى . وأنَّى لى أنْ أفْرُغَ للتعبير عن هذا الوجدان وأنا غارق فى بحر لجّى من كثرة الأعمال ، حتى إنّنى أشتغل بتصحيح المطبوعات فى ناشئة الليل ، وأتمه فى السحر أو بعد صلاة الصبح ، وكثيرًا ما كنتُ أُهوّم[1] فيقع القلمُ من يدى ، وشواهد ذلك لا تَزال فى بعض ثيابى ، وقد كتبتُ هذا فى ضَحوة يوم الجمعة ، وعسى أنْ أُدرك البريدَ الجوى . والسلامُ عليك وعلى ولدك النجيب ، سَلَّمكما اللّه لأخيكم المخلص .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىّ فى 24 جمادى الأولى سنة 1349 و 16 أكتوبر 1930 :

سيدى الأخ الأميرُ

كتبتُ إليك منذُ ثلاثةِ أسابيعَ كتابًا باركتُ لك فيه بالدعاء المناسب فى شأن رحلتك وعودتك ، وأشرتُ فيه إلى شعورى وأُمنيتى الموافقَيْنِ لشعورك وأُمنيتك فى الصُّحبة ، وذكرتُ فيه ما وصل من مكتوباتك الثلاثة فى أثناء السفر وعذرى فى ترك الكتابة إليك فى مدّة السفر ، ووعدتُ فيه بالبحث عن كتاب السفر إلى المؤتمر ، وكنتُ أوصيتُ وسألتُ عنه بعضَ باعة الكتب القديمة ، وقد أرسلت الكتاب فى البريد الجوى ، وبعدَ إرساله ذهبتُ بنفسى إلى جهة الأزهر للبحث عن الكتاب ، فوجدتُ

(1) هَوّم : نام نومًا خفيفًا .

نسخة منه أرسلناها مع رحلة البتانونى إلى لوزان ، ولم تتفضَّل علىَّ بكتاب بعد عودتك المباركة تبشّرنى فيها بسلامتك وصحتك ولا بمرجوع كتابى الجوِّىّ ، ولكنّنى أرى أخبار مكاتباتك لغيرى وأقرأ مقالاتك المفيدة فى الشورى وفى الجرائد التى خَلَفَتْ الكوكبَ ، وقد أُتيح لى ما لم أُوفق له قبلُ من قراءَة مقالاتك عن بلاد الأندلس لأنّها كانت تأتى وأنا غارقٌ فى العمل الذى لا يُمكن تركُه ولا الجمعُ بينه وبين غيره . قرأتُ أكثرَها فى جَلسة واحدة فى يوم لم أنزل فيه إلى مكتبى ، ثم أتممتُ الباقى فى جلسة أخرى ، فكان لى عند قراءَة بعضها من إرسال الدموع الحارَّة ما وددت لو شاركتُك فيه هنالك .

أَوْحَشَتْ قلبى فترةُ انقطاع مكتوباتك فى هذه المدّة فوق الوحشة المعتادة لأننى - على حرمانى من التمتع ببلاغتها وفوائدها والأنس بها - أخشى أنْ تكونَ متعمِّدًا لعقابى على تقصيرى ، وإنْ كنتَ وعدتَ فى كتاب سابق بأن لا تؤاخذنى فى مثل هذا التقصير ، ولا تتقاضانى حقَّك فى الجواب عن كلِّ كتاب .

أكتبُ هذا بعدَ الظهر وقبلَ الغداء ، وأنا مُعْيًى من كلال الذهن وتعب اليد لا من الجوع . وكنتُ أكتب الرسائل الشخصية فى الغالب بعد العصر ، ولكنّنى سأذهبُ اليومَ فى هذا الوقت إلى سفارة أفغانستان لحضور الاحتفال بعيد الملك محمد نادر خان وفَّقه اللّه تعالى . وقد جاءَنى اليومَ كتاب من الأخ الأمير عادل يُنَبئنى فيه بعودته إلى لوزان ، ويَعِدُ بالمجىء إلى مصر فى الخريف ، ولكنّه لم يذكر فيه عنك سلامًا ولا كلامًا . فأنا أشكر له ذكراه إياى بكتابه ، وأوافقه على كلمته الوجيزة . . . وسيرى فى الجزء الثالث من المنار ما يدلُّ على اتفاق الرأى وما يسرّك ويسرُّه إنْ شاء اللّه تعالى ، وأعتذر إليه عن كتاب خاصّ الآن ، ولكنّنى أُرسلُ إليكما كتابًا من محمد باشا عزّ الدين فى أنبائهم الأخيرة ، وكان قد جاء مصر ، ومكث مدةً يستأذن فى السفر إلى الحجاز فلم يُؤذن له . والسلامُ عليك وعلى أخيك الأمير عادل ونجلك الأمير غالب ، وأَدام اللّه نفعكم وجهادكم لهذه الأمة ، ودُمتم لأخيكم المخلص .

محمد رشيد رضا

وكتب إلىَّ فى 26 جمادى الأولى سنة 1349 و 18 أكتوبر 1930 :

سيدى الأخ أمير البيان

كتبتُ إليك أولَ من أمسِ (يومَ الخميس) كتابًا . . . « إلى أنْ يقولَ » : وإنه ليسرُّك أنْ تعلمَ أنَّ أحدَ علماء الصين قد ترجم رسالة « الصلب والفداء » باللغة الصينية ونشرها فى جريدة له يُصدرها مع بعض إخوانه وتلاميذه ، ترجمها للرد على المبشرين الذين كثروا فى بلادهم ، ونَشِطُوا للدَّعاية ، وأكثروا من الطعن فى الإسلام ، فلما نشر هذه الرسالةَ قطعت أَلسِنَتَهم ، وكسرتْ أقلامَهم فكفُّوا عن الطعن فى الإسلام ، ولكنَّ هذا العالم الصينى قد وصف لى مسلمى الصين وصفًا مُخزيًا يَسوء كلَّ مسلم من جهلهم بالإسلام وافتتان رجالهم ونسائهم بالتفرنج كغيرهم ، وقد أرسل إلىَّ أخيرًا أسئلةً سأُفتيه فيها ، فتراها فى المنار .

هذا ، وإننى قرأتُ فى بكرة أمس (الجمعة) آخرَ مقالاتك عن رحلتك فى جريدة (الوطن) التى تَصدُر الآن فى إدارة (كوكب الشرق) بعد تعطيل الحكومة للمؤيد الجديد ، فتذكّرتُ شيئًا آخرَ كنتُ نَسيتُ أنْ أذكَره لك ، وهو أنّنى كتبتُ للملك صديقِنا ملخصَ قضية البربر ، وأنه سيصل إليه نداء من مصر فى شأنها ، وأنه يجب أنْ يهتمَّ بهذا الأمرِ ويشتدَّ فى إنكاره . فكتبَ إلىَّ يَعِدُنى بذلك ، ثم كتبتُ إليه صورة كتاب أستحسنُ أنْ يُرسلَه إلى رئيس جمهورية فرنسا ، فجاءنى منه كتاب بتاريخ 17 جمادى الأولى ، قال فيه : « وإن ما ذكرتموه من الأمور الأخرى فى كتابكم هو موضوع على البال ، وإنْ شاء اللّه ، إنَّ اللّه يوفق فى شأنه ما فيه الخير والسداد » . وسأكتبُ بعدَ غد كتابًا أذكر له فيه أنه لو كان بادر إلى مخاطبته فى المسألة لكان يُرْجَى أنْ يكونَ أشدَّ عنايةً بما ينفع المسلمين أو يدفعُ الشرَّ عنهم ، ولاعْتقدَ العالمُ الإسلامى أن كتابته له هى السببُ لسفره ولعنايته . . . إلخ . ولعلّك كتبتَ أنت إليه شيئًا فى ذلك . وأرى أنه يجب علينا أنْ نفكِّر فى شىء عملى مما أشرنا إليه فى النداء العام لكيلا نسجلَ على جميع المسلمين أنْ ليس عندهم إلا كثرةُ الكلام والأمانى والأوهام .

وتذكَّرتُ أيضًا أنْ أُشير إلى ما اخترتَه من مقالات الأندلس للنشر فى المنار مع القصيدة ، وإنما عارضنا فيه كثرةَ المواد فى مسألة البربر ومسألة المؤتمر الإفخارستى(*) ولما نشرع فى هذه . والسلام عليكم وعلى الشقيق المجاهد والنجل النجيب ، وأطال بقاءكم لأمتكم ولأخيكم المخلص .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 27 جمادى الآخرة 1349 و 18 نوفمبر 1930 (الثلاثاء) :

سيدى الأخ الأميرُ

كتبتُ يوم الخميس الماضى كتابًا أرسلتُه إليك ، ووعدتُ فيه بكتابة استدراك على رسالة « لماذا تأخَّر المسلمون ؟ » ، ولم أجدْ يوم الجمعة الفراغَ الذى كنتُ أرجوه ، ولكتنى أخذتُ أوراقًا من كراس مدرسى للأولاد كتبتُ فيه ليلاً ما عنّ لى ، وأنا فى حجرة السرير ، فاستكثرتُه ، ولا أَرانى أجدُ وقتًا لاختصاره وتبييضه إلا أنْ يكونَ فى يوم جمعة آخر . وقد وصل فى مساء أمس كتابك (رقم 9 نوفمبر) ، وهو مرجوع مكتوباتى السابقةِ ، فإذا فيه مسائلُ مهمةٌ لا يجوز إرجاءُ البحثِ معك فيها ولا سيما مسألةُ الحجاز ، وقد كنتُ أنوى أنْ أكتبَ شيئًا عنها فى كتابى الأخير ، وقد كتبتُه بعد ذهاب العمال مساءً ، فاضْطُرِرْتُ إلى ختمه قبلَ الصعودِ من المكتب لصلاة المغرب لئلا يتأخَّرَ يومًا آخر أو أيامًا ، وأرى أنْ أتركَ فى هذا الضحى عملَ المطبعة لكتابة ما أراه ضروريًا فى هذه المسألة وغيرها مما فى الكتاب ، وأبدأ بما بدأتَ به فأقولُ :

(1) إذا جعل اللّه لنا مع هذه العُسرة يسرين كما تُشير إليه سورة « ألم نشرح » فأرجو أنْ أوفَّقَ لصُحبتك فى رحلة الأندلس فى الخريف القابل ، وقد ذكرتُ فى كتابى الماضى كلمةً فى هذه العُسرة ، ورأيتُ مثلَها فى كتابك الذى أمامى ، وإن أهمَّ

(*) الذى انعقد فى تونس ، وساء وقعه لدى المسلمين ، وإنْ كان عمَلُ لوسيان سان المقيم العام فى المغرب فى قضية إلغاء المحاكم الشرعية ببلاد البربر أسوأ وقعًا .

ما يهمنى فيها أنَّ علىَّ قسطًا من ثمن الدار يُسْتَحَقُّ فى أولِ يناير سنةَ 1931م ، وهو زُهاء 400 جنيه ، ويليه أقساطٌ لديون تُجّار الورق منجَّمةً على الأشهر ، وفضل اللّه عظيم لا رجاءَ فى غيره ، حتى إنَّ السيدَ عاصمًا يشكُّ فى أخذ القسط السنوىّ من مستأجِر بستان لى فى القلمون ، وهو زهاء خمسة آلاف قرش ، والكتاب الذى نطبعه لجلالة الملك الآن قد أخذنا نفقتَه سَلفًا ، ولدينا كتابٌ آخَر من عنده لا يُمكننا أخذ قسط مِن نفقته إلا بعد إتمام الذى عندنا ، وقد أبطأت المطبعةُ فيه لتقليل العمال ولاشتغالها فى الشهرين الماضيين بتاريخ الأستاذ الإمام ، ثم أرجأنا إتمامَه لأن رواجه لا يُرجى فى هذه العُسرة إنْ أمكن نشرُه فى هذه الأزمة السياسية وما فيها من الضغط والأهواء المتناوحة[1] وهذا مما أرتاب فيه .

(2) ما ذكرتَه فى مسألة . . . مؤثّر ، وأكثرُ ما ذكرتُموه فيها وفى ذُيولها معروفٌ عندنا بالجملة والتفصيل ، وهو جدير بالنشر لحاجة الجمهور إليه ، ولعلّى أُلخصه لحافظ بك عوض .

(3) زارنى فى الشهر الماضى مصطفى بك عز الدين المثرى الطرابلسى ، فعرضتُ له بما يجب عليه من بذل شىء لخدمة الإسلام ، فأظهر ارتياحًا لعمل شىء فى الحجاز ، ورغّبتُه فى الحجِّ لولا الحرُّ الذى لا يُطيقه . وبهذه المناسبة ذكرنا فكرةَ الأمير وغيره فى إنشاء فندق فى ضواحى مكة يكون حاويًا لجميع ما يَعتاده المسافرون المترفون من أسباب الراحة والنظافة ، وأنّه يُقال إنّ أصحاب البيوت بمكة يَكرهون ذلك لما يترتب عليه من كساد بيوتهم ، وأنَّ الملك يُراعيهم فى ذلك ، فقال : إنه يُمكن جعلُ الفندق شركةَ مُسَاهمةٍ ، يأخذون ما شاءوا من سُهومها ، وإذا دفع بعضُ الأغنياء مثلى شيئًا من المال فى تأسيسها يجعله حسبة يُصرف ربحُه فى بعض وجوه البرِّ هنالك ، وذكَر مسألة سكة حديد تتصل بالمدينة المنورة . ورَغِبَ إلىَّ أنْ أكتبَ إلى جلالة الملك بذلك ، وقال إنه يرغب أنْ يذهبَ معى إلى مكة فى رمضان نعتمر ونَزُور مسجدَ الرسول ﷺ وقبرَه ، ونكلِّم الملكَ فى هذه المصالح . وذكرتُ له فى

(1) المتعارضة .

سياق حديث البرِّ وخدمة الإسلام مسألةَ المبشِّرين . وقد سافر فى إثر ذلك إلى سورية مع لجنة بنك مصرَ لفتح فرع دِمشْقَ للبنك ، ويُنْتَظَرُ أنْ يعودَ إلى مصرَ بعد عودة اللجنة ، فنعودُ إلى الحديث معه لعلَّ اللّه تعالى يوفِّقه لشىء ، فهو غنى كبير منهمك ، وقد كَبِرَت سِنُّه ، وترك العملَ الآن لولده .

(4) من هنا ننتقلُ إلى مسألة جمع المال لأمثال هذه الأعمال ، فأقولُ إنه يجب السعى لدى كبراء الأغنياء بمصرَ وغيرِها قبل كلِّ شىء ، ثم يجب وضعُ نظام لجمع المال القليل من العدد الكثير من غير الأغنياء ، فإنَّ التبرعَ المؤقت بالتأثير فى الاجتماعات لإلقاء الخطب والمحاضرات قلَّما يأتى بشىء فيه غِناء فى مثل هذا الوقت الذى عمَّت العسرةُ فيه جميع الطبقات . وأنا على موعد مع الأخ الهُمام عبد الحميد بك(★) للاجتماع عندى فى مساء هذا اليوم ثم الذهاب إلى جمعية الشبان لعقد مجلس الإدارة والمذاكرة فيه بالتمهيد لمقاطعة البضائع . . . . وكنتُ سألتُه عما سألتُك عنه من جمعية الترك التى كانت فى برلين فألفيتُه على علم بها ، ويقول إنَّ عنده شيئًا مكتوبًا فى نظامها ، ووعدنى بالبحث عنه .

إلى أنْ يقولَ :

(7) أنتقل من هذا البحث والتذكير إلى ذكر ما أُفكِّر فيه كثيرًا من أمرى وأمرك ، وما أحب أنْ نختم به أعمال شيخوختنا من التعاون على خدمة أُمتنا وملتنا بما آتانا اللّه من علم وبيان واختبار ، وطالما فَكَّرتُ فى أمر اجتماعنا للتعاون وكنتُ أَوَدُّ لو يكونُ لنا أنْ نقيمَ بِقُرْبٍ . . . فنشتغلَ بالكِتابة ، ونُسدى النصيحةَ التى أشرتُ إليها آنفًا . ولكنَّ هذا أمرٌ عسير ، ولا أزال أَسعى وأُمهِّد السبيلَ لإقامتك فى مصر ، وأمسِ اجتمعتُ بأخينا عبد الحميد بك ، وقرأتُ له ثناءَك عليه فى الكتاب الأخير ، وذكرتُ له ما لا يَجهل ولا يُنكر من فوائد وجودك هنا ، كما كنتُ كلَّمتُه بهذا فى العام الماضى ،

(★) ما يتمارى أحد فى خدمة عبد الحميد بك سعيد للإسلام وكونها خدمةً نصوحًا مستمرة لا تشوبها شائبةٌ ولا يطرأ عليها فُتور ، أقول هذا وإنْ كنتُ غيرَ راضٍ عنه بما تسرّع به من تصديق كلام المفسدين عن المؤتمر الإسلامىّ الأوروبىّ الذى انعقد فى جنيف من سنتين تحت رئاستى ، وكان المقترحَ لعقده محمودُ سالم بك العرفاتى المصرى ، والمساعدَ له فيه عبدُ الباقى بك العمرى الفاروقى ، وهما اللذان أقنعانى بقَبول الرئاسة .

وأَلْحَحْتُ عليه بما لا حاجةَ إلى تفصيله ، ولكنَّنى أقولُ فى أصل هذه المسألة : إنَّ أهمَّ ما أُفكِّر فيه من التعاون أنْ نؤلِّفَ كتابًا فى تاريخ الإسلام(★) ، يرجى باجتماعنا على تأليفه أنْ يكونَ على مَقْربة مما كان ينويه شيخُنا الأستاذ الإمام ، فأنت أعلمُ منى بالمادة التاريخية له ، وأنا أعلم منك بالمادة الدينيّة ، وإنما كان يَفُوقنا أستاذُنا - قدَّس اللَّه روحه - فى هذا الموضوع فى رُوحه وحكمته لا فى مادته . ولعلَّنا باجتماعنا وتعاوننا نكونُ كما كان يُحب . وكم قال عنى إنَّنى أكتبُ فى المواضيع أو الموضوعات التى لا يجدُ فراغًا لكتابتها كما كان يُريدُ أنْ يكتبَ ، وقد جدَّد كتابُك الأخيرُ هذه الأمنيةَ فى نفسى ، وما كنتُ ناسيًا فَأُذَكَّرَ لكنَّ لوعةً تتضاعفُ ، وقد قال صديقُنا إنه تكلَّم فى العام الماضى مع مَن تعلم ، فقال إنه لا مانعَ عنده . . . قلت له هذا لا يكفى ، بل يجب إقناعهُ بأنَّ وجودك هنا يُدخل النهضةَ الإصلاحيةَ الإسلامية فى الطَّوْرِ الجديد الذى يُحبُّهُ ، ويجبُ أنْ يكونَ أقوى ساعدٍ وعَضُدٍ ومَرْفقٍ له ، فقال صديقُنا إنه سيسعى لذلك قريبًا .

(8) اقترحتُ البارحةَ على مجلس إدارة جمعية الشبان المسلمين التمهيدَ مع التجار الوطنيين لمقاطعة البضائع . . . بنظام يُرجى نجاحُه ، بل اقترحتُ أيضًا تنظيمَ الجمعية بمثل النظام العسكرى فى رؤساء العشرات والمئات والألوف . . . إلخ ، فقَبل المجلسُ هذا وذاك .

(9) طبع رحلة الحجاز ، كلَّمتُ أبا الحسن فيها ، واتفقْنا على أنَّ الرأى أنْ تقرأ الأصولَ كلَّها أولاً وتُصَحِّحَ ، وتَزيدَ فيها ما شئتَ ، وتُرسلها تامةً ، وعند ذلك يُمكن تقديرُ ملازمها ونفقتها إذا بيَّنت العدَد الذى تُريد أنْ يطبعَ . وأما البدءُ بطبعها وإرسالُ الملازم إلى لوزان بعد جمعها فى المطبعة وقبلَ طبعها فهو متعذِّر لأنه يقتضى تعطيل الحروف زمنًا طويلاً .

(★) كتب إلىَّ أيضًا فى تأليف تاريخ للإسلام يُقرأُ فى مدارس العالم الإسلامى - ابن عمى الأميرُ أمين مجيد أرسلان سفير تركية السابق فى بلاد الأرجنتين وصاحب مجلة الاستقلال التى تَصْدُرُ فى بونس آيرس ، وهو من سعة العلم وأصالة الرأى بالمقام الأول ، وقد اتفق رأيُه فى هذه المسألة مع رأى السيد الإمام ، ولكنَّنى قبلَ أن أكمل كتابى عن الأندلس الذى سيكون عدَّة مجلدات وإكمالِ كتبٍ أُخرى كنتُ بدأت بها - لا أَقْدِرُ على مباشرة هذا التأليفِ المدرسىّ فى تاريخ الإسلام ، ولكنْ قد يكونُ ذلكَ إذا أنسأَ اللَّه فى الأجل .

(10) القصيدة الأندلسية حفظتُها لأجل نشرها فى المنار ، وفطِنت لشدة الحاجة إلى تعليقك عليها بما ذكرت فى الكتاب ، ولم أشأ أنْ أقترح ذلك عليك ، فإنّنى غير راضٍ عن إجهاد نفسَك : فى الكتابة إلى هذا الحدّ الذى أعرفُه ، وأنت أعَرفُ بضرره .

(11) وأنتقد كذلك أشدَّ الانتقاد هذه النفقاتِ على مجلتكم(★) الإفرنسية وهى فوقَ طاقتكم ، والأمة التى تخدمونها والوطنُ الذى تخصُّونه بخدمة هذه المجلة كنود[1] لا يستحقُّ أهلُه تضحية مثلكم فى كلِّ هذا ، وثَمَّ ما هو خيرٌ له ولكم مما يدوم نفعُه .

(12) أحبّ أنْ تكتبَ إلىَّ عناوين ما تعلم من الجمعيات الإسلامية فى أقطار العالم مما أشرتَ إلى بعضه فى هذا الكتاب ، وكذلك عناوينَ بعض الرجال الذين يهتمُّون بأمر العالم الإسلامى وبالإسلام لأُرسلَ إليهم المنارَ ومثلَ رسالةِ الصَّلب والفداء وخلاصةِ السيرة المحمديّة هديَّةً .

(13) مكتوباتُ الأستاذ الإمام ربّما لا نحتاجُ إلى نشر ما ينبغى نشرُه منها إلا فى الجزء الرابع المُتَمِّم لهذا التاريخ الذى يُنشر فيه بعضُ القصائد التى مُدح بها ومكتوبات الأدباء والعظماء له وبعض وثائق الجزء الأول فى ترجمته ، وقد يُنشر بعض ما فيها فى الكلام على أصحابه ومريديه فى فصل الأمور العامة من الجزء الأول ، وعندما نصل إليها أخبرك بذلك . وقد ارجأت بعض ما أرسلته إلىَّ لينشر فى هذا الفصل . صار وقت المغرب فأختم الكتاب بالسلام عليك وعلى صنوك الحبيب

(★) هى مجلتنا « لاناسيون أراب » التى نشرناها أنا وزميلى إحسان بك الجابرى من سنة 1930 ، فأقبل الناسُ من المسلمين والأجانب على مطالعتها لأنهم رأوا فيها لسان حال العُروبة والإسلام فى أوروبا ، وكانت تظهر لنا علامات اهتمام الدُّولِ الأوروبية بها بما كان يُكتب إلينا من تلك الدول فى السؤال عن أعدادها والإلحاح فى إرسال ما يفقدونه منها ، ولما كنا نعلم أهميةَ وجود مجلة فى أوروبا تتكلم بلسان الإسلام وتدافع عن حقوقه وحقائقه ، وهى محرَّرة بأشهر لغة أوروبية كنا ملتزمين إصدارَها لفائدتها السياسية والأدبية ، ولم تكن بدلاتُ الاشتراك بها توازى نفقاتِها عليها ، كما هو معلوم من تقصير المسلمين فى تأدية بدلات الاشتراك فى الصحف ، وهذا مما كان يعلمه صاحبُ المنار أكثرَ من غيره ، فقد ضاع له عند المشتركين بالمنار أموالٌ لا تُحصى ، كما أنّنا من سبع سنوات نُنفق أنا وزميلى من صلب مالنا الخاصّ على مجلتنا (لاناسيون آراب) ، لا سيما بعدَ أنْ منعت الحكومةُ الفرنسية دخولها إلى شمالى إفريقية وإلى سورية ، ومنعت الحكومةُ الإنجليزية دخولَها إلى فلسطين ، وقد كانت قبلَ هذا المنع لا تقوم بنفقاتها فكيف مِن بعدِه ؟ .

(1) جَحُودٌ .

ونجلك النجيب(*) ، وسأعاتبك فى كتاب آخر على ما أنتقدُهُ من لينك معه ، وسلمكم اللّه لأخيكم .

محمد رشيد رضا

★ ★ ★

ومما كتبه إلىَّ عندما طبعتُ عنده رسالتى « لماذا تأخّر المسلمون ؟ » :

تصحيحٌ واستدراكٌ على رسالة (لماذا تأخّر المسلمون ؟) . . .

(1) سرّنى أنى لم أرَ غلطًا فى الآيات الكثيرة فى هذه الرسالة إلا فى ثلاث آيات ، وأذكرُ أنّنى كنتُ أمرُّ بغلط كثير فى الآيات القليلة التى أراها فى المذكِّرات والخواطر التى تَنْشُرها لكم جريدةُ الشورى ، وإنما كان يقعُ عليها نظرى فى وقت العمل ، فلم أتمكَّن من كتابتها لطلبِ تصحيحها ، فهذه الأغلاطُ قد صححتُها فى أثناء القراءة .

(2) فى غير الآيات أغلاط كثيرةٌ عليكم قليلة على غيركم ، منها ما هو قطعىٌّ ومنها ما له وجهٌ قوى أو ضعيف ، (فمنها) قولُك فى خونة الغرب ثم الشرق « خزاهم اللّه » والمعروف فى القرآن وغيره : خُزِىَ فلان خزيًا وأَخزاه اللّه ولولا أنْ تكررت هذه الكلمةُ لجزَمت بأنَّها من سهو القلم ، بل هى منه وإن تكررت لأنّها ليست من الخطأ المشهور(**) ، (ومنها) قولُك : حطام فانية ، والحطام مفردٌ . (ومنها) قولُك : لا نُسَلِّمُ بكذا ، والتسليم يتعدّى بنفسه ، وهذا الاستعمال من اصطلاح علماء المنطق والمناظرة ، ومنه القضايا المسلَّمات التى تستعمل فى الأقيسة الجدلية ، يقولون سلَّمنا كذا لا نُسَلِّم كذا . (ومنها) ضبطُك للجَبَرَى(***) بفتح الباء كأنك ترى إسكانَها خطأً ، وهو الأصل القياسىّ لأنه نسبة إلى الجبر ، ولكنَّهم

(*) لا يكادُ يمرُّ مكتوب من مكتوبات السيدِ رحمه اللّه من دون ذكر ولدى غالب ووجوب الاعتناء بتربيته وتنشئته ، وهذا دليل من أدلة لا تُحصى على ما كان عليه السيد الإمام من مكارم الأخلاق وحسن العهد وكمال المروءة ، وهكذا فَلْيَكُنْ العلماءُ المرشدون ، وهكذا فليكن الأصحابُ المخلصون .

(**) إن هذا لكما قال .

(***) أضبطها بفتح الباء لأنّها هكذا عند علماء اللغة ، وقال أبو تمام :

قواطع لا يَتْرُكْنَ ذا جَبَرِيَّة ... سليمًا ولا يحربن مَن لم يحارِبِ

فلو كانت بسكون الباء لم يستقم وزنُ الشطر الأول .

قالوا : إذا قيل جبرية وقدرية جاز فتح الباء للازدواج ، فهو خِلاف الأصل .
(ومنها) قولُك : الرجوع للقرآن ، والقرآنُ يُعَدِّى هذا الفعلَ بإلى ، وهو مكرّر فيه كثيرًا ، فيجبُ جعلُ الرجوع إليه بلغته . وقد راجعت شيخَنا مرة فى كلمة فعل « نصح » استعمله فى مقال له متعدّيا بنفسه فقلت له : ورد فى اللغة نصحه ونصح له ، والثانى هو استعمال القرآن ، فكيف ترى ؟ قال صَحِّحها فإنّنى لا أُخالف القرآن ولو إلى صواب ، (ومثله) فى التعدية « حدثوا أنفسهم فى تنصير البربر » والتحديث يتعدى بالباء ، وقد يجتمع مع الظرفية إذا كان المقام يقتضيهما . (ومنها) قولك : « لم تكن خيانة هؤلاء المعمَّمِين فى قضية دينية رأسًا »(★) وهذا الاستعمال مألوفٌ عندَ الناسِ ، وأنا لا أعرفُ له أصلاً ، ولعلَّ عندكَ فيه ما ليس عندى ، فإنك أكثرُ منى بحثًا فى أصلِ أمثالِ هذا الاستعمال ، ويقرُب منه استعمالُ « طيلة » بمعنى مُدَّة ، وقد استُعمل عند العرب بمعنى العمر فهو قريب .

الاستدراك :

أستحسن أنْ يُزادَ فى بعض المواضيع من شواهد آيات القرآن وغيرها ما هو قوىّ جدًّا فيها ولا نظير له فى الرسالة ، ومنها ما هو أقوى فى الموضوع مما أوردتموه .

(1) فمن الأول ، ما يُناسب المعركةَ العجيبة ، الذى ذكرتُموه فى موضوع حرب طرابلس الغرب إذ غَلَبَ المسلمون جيشًا من الطَّليان يفوقُهم عشرين ضعفًا ، وقتلوا منه عشرةَ أضعاف عددهم ، فيحسُن أنْ نذكرَ فى آخر الخبر آيتى سورة الأنفال فى غلب المؤمنين لعشرة أضعافهم فى حال القوة والعزيمة وَلِضِعْفَيْهِمْ فى حال الضعف والرخصة ، راجع سورة الأنفال (65 و 66) ، وتجد تفسيرهما فى الجزء الثامن من المجلد 29 من المنار .

(2) ومنه فى الردّ على زعم جول سيكار أنَّ العلم فى القرآن لا يُراد به إلا علمَ الدين : يحسُن أنْ يُذْكَرَ فى الرد عليه مثلُ قوله تعالى فى سورة فاطر (35) : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ

(★) أصاب الأستاذ فإنى لم أجد هذا الاستعمالَ فى الكتابات القديمة ، وإنما « الرأس » هنا بمعنى « الابتداء » ، وعليه فالوجه فيه ظاهر . وكذلك « الطيلة » هى العمر واستعمالها للمدة ممكنٌ .

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر : 27 ، 28] فَذِكْرُ العلم فى هذا السياقِ فى عجائب المخلوقات يُراد به العلم بها وبالسنن الحكيمة فى هذه المواليد كلِّها ، وأمثالُها كثير ، بل الآيات فى أسرار المخلوقات والإرشاد إلى معرفتها والانتفاع بها أكثر من الآيات الواردة فى الأحكام الشرعية (راجع ص573 من جزء التفسير التاسع) .

(3) ومن النوع الثانى قولُه تعالى فى الشواهد على العمل فى الأرض لاستخراج غَلَّاتها وكنوزِها ومعادنِها والانتفاع بها قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : 29] وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ ﴾ [الجاثية : 13]ولعلَّك تجدُ وقتًا لمراجعة تفسير الأولى فى (ص246 – 251 من جزء التفسير الأول) فتجدُ فيه من الشواهد التى يحسُن إيرادها هنا قوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعراف : 32] .

(4) ومن قوله الشواهد على أنَّ ما أصاب المسلمين من الضعف إنما كان من تقصيرهم فى العمل قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] . وقوله : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ ﴾ [آل عمران : 165] . والمرادُ بهذه المصيبةِ ظهورُ المشركين على الصحابة فى غزوة أحد ، وفيها شُجَّ رأسه ﷺ وكُسرتْ رُباعيتُه . .

وهنالك عباراتٌ لا خِلافَ فى مفرداتها ولا فى جُملها ، ولكنَّها قد تُوهم غيرَ مُراد الكاتب كقولِ الأميرِ أيّد اللَّه به العربية فى لغتها وتاريخها وسياستها : « ولولا الخلافُ الذى عَاد فدبَّ بينهم فى أواخر خلافة عثمان وفى خلافة على – رضى الله عنهما – لكانوا أكملوا فتحَ العالم » . فهذا التعبير يُوهم أنَّ الذى كان المانعَ من فتح العالم هو الخلافُ الذى دبَّ بينهم فى زمن الخليفتين فقط ، وهو غيرُ مرادٍ . وأظنُّ أنّه لو قيل : منذ أواخر خلافة عثمان لزال هذا الإيهامُ ، وإنه أولى ، وإنْ كان تأويل الأول مُمكنًا . فالمرجوُّ بيانُ ما تُقرِّونه فى هذه المسائلِ من غير استدلال ، فوقتُ كلٍّ منا لا ينبغى أنْ يَضيع شىء منه فى هذه المباحثِ اللفظية .

هذا ، وأمّا ما أنتقدُه أو أستدرك عليه من جهة المعنى فأهمُّه جوابُكم لمن يقولون : إنَّ النهضةَ لا ينبغى أنْ تكونَ دينيةً بل وطنيةً قوميةً - فإنه صريحٌ فى أنَّ النهضة الدينية غير مقصودة لكم فى نفسها ، وإنما المقصود هو العلم الدنيوىّ مهما تكن وسيلتُه ، وأنكم لم تَذْكروا دعوةَ القرآن إلا بسبب سلبىٍّ فى المعنى ، وهو اتقاءُ الإباحة والإلحاد وعبادة الأبدان واتباع الشهوات ، وإنَّ هذا من قَبيل اختيار أخفِّ الضَّرَرَيْنِ لقولكم عقبَ ذلك « مما ضررُه يَفُوتُ نفعَه » ومفهومه أنَّ الإباحَة والإلحادَ وعبادةَ الشهوات فيها نفعٌ وضررٌ ولكنَّ ضررَها يُفوتُ نفعَها أىْ يَسبقه . وما أعتقد أنَّ هذه عقيدتكم(*) وما هو بالذى يصلُح جوابًا عن سؤال مسلم يَطلبُ بيانَ ما يرتقى به المسلمون فى دنياهم مع المحافظة على دينهم ، والدينُ عنده هو المقصودُ بالذات لسعادة الآخِرة والدنيا ، وإنما يُريد الدنيا لأنها سياج له ولأنه دين مُلك وسيادة . . . . وأرى أنَّ هذا القصورَ فى هذه المسألة - وأرجو العفوَ عن هذه الكلمةِ - لم يكن له من سبب إلا مجيئَها فى آخِر الرسالة وشعورَكم بأنها صارت طويلةً فوقَ ما قدَّرتُم لها ، وإنْ كانت (هذه المسألة) أولى بالإطالة من غيرها ، وقد سردتم من الآيات الكريمة فى العمل ما استغرق صفحةً كاملة يكفى فى المقصود منها نصفُها أو رُبعها لأن السائل وغيرَه ممن يُخاطَبون بهذه الرسالةِ ليسوا من الجبرية[1] فى شىء . . . وليس من الجامدين ولا من المزهدين فى الدنيا ، بل هو يفهم هذه المسائل كلَّها فهمًا صحيحًا لأنه من تلاميذ أخيكم ، هذا كان فى مدرسة الدعوة والإرشاد ، ويقرأُ المنار وتفسيرَه ، ولكنه لا يستغنى هو وأستاذُه عما فى الرسالة من الشواهد والعبر التاريخية والسياسية ، ولأجلها اقترح عليكم ما اقترح ، وهو هو الذى ترجم رسالة (الصَّلب والفداء) باللغة الملاوية .

(*) لست ممن يقول بأنَّ الدين ضرورى لمجرّد منعِه اتباعَ الشهوات ، بل الدينُ واجبٌ من الجهة العقلية أيضًا ، غير أنّنا استَعْجَلنا النظرَ إلى هذه النقطة لأنها محسوسةٌ لا مجالَ للمكابرة فيها .

(1) **الجبرية** : فرقة نفوا قدرة العبد على الفعل ونفوا الاختيار له . ويعتقدون أن الله - تعالى - خالق أفعال العباد ، وأول من قال بهذا الجعد بن درهم ، أخذها عن بيان بن سمعة اليهودى عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم زوج ابنته عن يهودى باليمن ، وأول من أظهرها الجهم بن صفوان بمدينة (ترمذ) فى أوائل المئة الثانية للهجرة . (الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب : 2/ 1045) .

ثم إنَّ هذه المسألة أهمُّ مباحث هذه الرسالة ، وهى هى التى كان وَجَّهها أحدُ الكتاب فى جريدة العهد الجديد إذ قال إنَّ بعض المسلمين يدعون فى هذا العصر إلى الترقى من طريق الدِّين ، ويرون أنه يجب عليهم أخذُ ما يوافقه من علوم أوروبا ومدنيّتها وتركُ ما يخالفه ، وذكر أنها طريقة الشيخ محمد عبده والمنار ، وبعضهم يَرون أنه يجب أخذُ مدنية أوروبا بحذافيرها لأنها لا تتجزأ ، ووجَّه إليكم السؤال : أىُّ الطريقتين أقْوَمُ ؟ وقد كاتبتُكم يومئذ فى المسألة ولكنَّكم امتنعتُم من الجواب عن سؤاله لأنكم لم تعرفوه(★) .

فأرى أنه يجب الآن أنْ تُعيدوا النظر فى الجواب ، وتَبْسُطوا بَسْطًا كافيًا شافيًا ولو مختصرًا ، والتطويل أَوْلَى ، وأُذكِّرُكم فيه بالنقط الآتية :

(1) إن الكلام فى نهضة المسلمين عن حجج القرآن أقوى مقنع لهم بالقيام بها ، وأعظم مؤثر فى أنفسهم على اختلاف أقوامهم .

(2) إن إقناعهم بالنهضة من طريق الدين لا ينافى قيام كل منهم بما يرقى أنفسهم وأوطانهم ، وإن كان فيها من لا يدين بدينهم ممن قد سبقوهم فى النهضة الدُّنيويّة كِما تقدَّم بسطُه ، فكان سببُ تخلُّفِ المسلمين عنهم جهلَهم بأنَّ دينَهم يَدعوهم إلى أنْ يكونوا السابِقينَ لغيرهم .

(3) إنهم يربحون بالجمع بين النهضتين الدينيّة والدنيويّة بهداية الإسلام بقاءَ تعاطف شعوبهم وأقوامهم الكثيرة وتوادِّهم وتعاونَهم ، وفى ذلك من القوة الروحيَّة والاجتماعية والسياسية ما لا يَخْفى ، وأعظم شعوبهم ربحًا من هذه الخُطة الشعب العربى(★★) .

(★) أتذكَّر أنّى أجبتُه بأنَّ الحريةَ التامة غيرُ موجودة فى الدنيا ، وأنّ الحريات كلَّها نسبيّة ، وأنّ سويسرا أعرقُ بلاد فى الحرية ، والحال أنَّ قانونَها يُقيّد الحرية الدينية بقوله : إنها مطلقة إلا إذا خِيف منها على الأمن والنظام .

(★★) هذا قد ذكرناه مرارًا ، وآخِرُ مرةٍ فى السنة الماضية إذ قلنا إن الجامعةَ الإسلامية ليست بخطر على غير المسلمين من العرب ، بل هى عَضُدٌ للشعب العربى بأسره ، فلماذا يعطف مثلاً مسلمو الهند والجاوى والفرس والترك والبشناق والأرناؤوط على فلسطين ؟ الجواب : لأنها مسلمة لا لأنّها عربية . واستشهدنا بقول المسيو بريان للمسيو هريو فى البرلمان الفرنسى : لا نقدر أنْ نقطعَ علاقاتنا بالفاتيكان لأنَّ استعطافَ الكَثْلَكَةِ من أهمّ المصالح لفرنسا ، أفلا ترى أن 25 مليون كاثوليكى فى الولايات المتحدة الأمريكية أجمعوا على مطالبة حكومتهم بترك ديونها التى على فرنسا . . . إلخ .

(4) ما فى الإسلام من الوقاية من مفاسد الحضارة الماديّة وأخطار النزعات البُلْشُفِيَّة وغيرها .

(5) فوائدُ الدِّين الأخرى التى ذكرتُموها ، وهى صيانةُ الأمة مِن الإلحاد وإباحة المنكر والفساد . . إلخ ، وأرانى قد أطلتُ أكثر مما قَدَّرْتُ ، فأقتصرُ على هذا مما كان خطر ببالى عند قراءة الرسالة ، وغرضى التذكيرُ بما يجعلُها أتمَّ فائدةً ، والرأى لكم ، وإننى منتظرٌ جوابَكم . على أننى سأبدأ فى هذا الأسبوع عقبَ وصول الجواب ، ولا يَصُدُّنى عن ذلك قبولُكم بسط المسألة الأخيرة لأنَّ موضعها فى آخر الرسالة .



وكتب إلىَّ فى 9 رجب 1349 و 30 نوفمبر 1930 :

سيدى الأخ الأميرُ

وصل كتابك المؤرَّخ فى 20 نوفمبر يوم الأربعاء الماضى ، ولعلَّ كتابى المطوَّل الذى أرسلتُه مسجَّلاً وأودعتُه ملاحظاتى على الرسالة قد وصل إليك فى يوم الأربعاء الذى وصل فيه إلىَّ كتابُك هذا أو فى يوم الخميس بعدَه .

(إلى أنْ يقولَ) :

والذى أرى فى أمر انتفاعك المالى بقلمك أنْ تعجَلَ بإتمام الجزء الأول من (الحُلَّة السندسية فى الرِّحلة الأندلُسية) ، وتعقدَ له اشتراكًا تُوَزَّعُ وصولاتُه على الجمعيات والأصدقاء فى الأقطار المختلفة ، ويُجْعَلُ الثمنُ له عشرين قرشًا للمشترك الذى يدفع الاشتراك سلفًا ، ثم يكون الثمن بعدَ الطبع 30 قرشًا ، ثم نفعلُ مثلَ هذا فى الجزء الثانى فعجِّل به ما استطعتَ ، ويمكن مثلُ هذا فى رحلة الحجاز إن وَافَقْتَ .

أردُت أنْ أكتبَ إليك مرجوعَ كتابك الأخير عقبَ وصوله ، ولكننى رأيتُ أنْ أبدأ قبلَ الكتابة فى السعى لما مهَّدتُ له من قبلُ ، وأخبرتك به ، وهو مسألة الإذن لك بالمجىء إلى مصر ، فذهبتُ إلى صاحبنا عبد الحميد بك ، فعلمتُ أنه سافر ، وبلغنى أنَّ صديقَنا كُلّنا فؤاد بك سليم فى القاهرة ، فسعَيتُ للقائه ، فالتقينا فى دار

المنار ، وسألنى عن أخبارك قبلَ أنْ أخبره بشيء ، فأخبرتُه خبرَ العُسرة وموسمِ الزيت عندكم فى المواسم الثلاثة ومسألةِ الصحيفة الفرنسية وخسارتها والعزمَ على إرسال الأسرة إلى بيروتَ ، وأنَّ الواجبَ علينا قبلَ كلِّ شيء السعى ليدخل صديقُنا مصرَ بأسرته ، وذكرتُ له ما دار بينى وبين عبد الحميد بك سعيد فى ذلك وما سيتّخذُه من الوسيلة . . . فرأيتُه لا يرجو أنْ يفعلَ شيئًا ، وقال إنّه يظنُّ أنّ جلَّ المنع وأصعبه من جهة الإنجليز ، وأنه سَيخْتَبِرُ ويخبرُنى ، ثم اجتمعنا ثانيةً فقال إنَّ رأيه كان فى مَحلّه ، وإنّه سيقابل صاحبَ الشأن فى ذلك منهم ، وهو يعرفه . . . ثم عدتُ إلى عبد الحميد بك مساء السبت فأخبرنى بأنه سيبدأ بالسعى غدًا .

فى 10 رجب 1349 :

بدأتُ بالكتاب مساءَ أمس (الأحد) وشُغلتُ عن المضى فيه بما لا مَرَدَّ له ، وخرجتُ من بُكرة هذا اليوم لأداءِ دراهمَ لِمصرفَيْنِ من المصارف المالية مستحقَّةٍ بموجِب كمبيالات ، واقتضى خروجى أعمالاً أُخرى ، فلم أَعُدْ إلا بعد الظهر بأكثر من ساعة ، ولم أدخل المكتبَ إلا بعدَ العصر ، وأنا أُتم هذا الكتابَ بعد العشاء ، وسأُرسلُه فى الليل غالبًا . (إلى أنْ يقولَ) :

نَسيتُ أنْ أكتبَ إليكَ فى الكتاب المطوَّل الماضى أنّنى أرى من المناسب أنْ أكتبَ لرسالتك مقدِّمة مختصرةً أبدؤها بالبسملة ، وأذكر صفة السائل لك وما حمله على السؤال فقط ، فهل ترى هذا مناسبًا ، وتأذنُ به ، وهو حقُّ السائل على المنار ؟

أخَّرتُ ختمَ الكتاب لأذكرَ فيه ما عملَه عبدُ الحميد بك سعيد ، فسألتُ عنه بالتليفون مرارًا ، فكنتُ أجاب بأنّه خرجَ ، ووعد بالعودة إلى الجمعية ولمّا يَعُدْ ، وسأخبُرك فى كتاب آخَر بما يكون منه ومن سعى فؤاد بك من الطريق الآخَر . سألنى فؤادُ بك عن الأخ الأمير عادل فأخبرتُه أنه عنده ، وهو يسلِّم معى عليكما ، وأطال اللّه بقاءَكما ونَفْعَكما لأمتكما ووُدَّكما لأخيكما .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىّ فى 17 رجب 1349 و 8 ديسمبر 1930 :

سيدى الأخ الأميرُ

بعدَ إرسال كتابى السابق - وجُلُّ ما فيه وأهمُّه الكلامُ فى العُسرة المالية - جاءت الصحفُ التى كتبتَها فى هفوَات الرسالة والإذن بالطبع ، وكان فى أيدى العمال جريدتان لا بدَّ لهم من إتمامهما فى وقت صُدورِهما ، وكنتُ أعطيتُهم أُصولَ التفسير لجزء المنار الخامس ، فأمرتُهم بالشروع فى جمع الرسالة بعد إتمام الجريدتين وتأخيرِ المنار ، وإنْ كان قد تأخَّر موعدُه شهرًا قبلَ هذا . ولما شرَعْتُ فى قراءتها لوضع ما وافقتُ عليه من تصحيح واستدراكات عثرتُ بهفوات أخرى فى الآيات وفى غير الآيات ، وذلك أنّ ما كتبتُه أولاً كان بعد مطالعتها كلِّها من غير مراجعة ، فاقتصرتُ على ما تذكَّرتُ وقتَ الكتابة . وأنشأتُ أكتبُ فيما ظهر لى بعدْ كتابتها ، ثم لم أُتمه لأنَّك مستعجل فى طبع الرسالةِ ، فأبطلتُ ما كتبتُ منذُ يومين ، ولم يُتَحْ لى إتمامُه وتقديمُه ، ورأيتُ أنْ أُصحّحَ ما أقطعُ برضاك بتصحيحه قياسًا على ما أذِنْتَ به . ومن سوء الحظّ أنْ تكتبَ هذه الرسالةَ النفيسةَ بعجَل ، وتُطبعَ على عجل ، ولكنَّ فيها جملةً لم أفهمْها عند قراءتها أولَ مرَّة ولا ثانى مرّة ، ثم منها ما لا يَتبادر إلى فهم كلِّ قارئ ، فوضعتُ لها حاشيةً فسَّرتُها بها .

وقد تذكَّرتُ عند قراءة الاستدراكِ المنقولِ عن جريدة (الطان) ما كنتُ فكرت فيه عند قراءتها ، ونَسِيتُ أنْ أكتُبه إليك ، وهو مبالغتك فى تبرئة الديانة النصرانية من التأثير فى إضعاف مدنية اليونان والرومان والقضاء عليهما بمثل ما برَّأتَ به الديانة الإسلامية . والذى نعتقدُه أنَّ ما فى الأناجيل وسائرِ كتب العهد العتيق من المبالغةِ فى التزهيد فى الدنيا وحرمانِ الأغنياء من دخول ملكوت السموات والخضوع لكلِّ ذى سلطان والخنوعِ والاستكانةِ لكلِّ ذى قُوَى كان له تأثير عظَيمٌ فى القضاء على تلك المدنية ، وكذلك سيرة الأحبار من باباوات وبطاركة وفهمهم للدين كان له تأثير آخَر فى ذلك .

ويلى هذا ويتصلُ به اللينُ فى الردّ على مَن يُنكر أنّه كان للإسلام حضارة ،

والاكتفاءُ فيه بأنَّ الإسلامَ قد أفاد الحضارة الشرقية وأيّدها . . . والواقُع أنَّ الحضارةَ الشرقيةَ كانت عند ظهور الإسلام فى طور الانحلال والزوال ، وأنَّ المسلمين لم يلبثوا بعدَ تمكّن مُلكهم أنْ أحيوا العلوم والفنونَ الميِّتة ، ونقحوها ، وأوجدوا حضارةً جديدة إسلامية . . . وأنت أعلم منا بهذا وبمن صرَّح به من علماء الإفرنج ومؤرِّخيهم المُنْصفين كغوستاف لوبون وسدييو و . . . . و . . . . حتى أنَّ غوستاف لوبون قال فى كتابه « تطور الأمم » : إنَّ مَلَكة الفنون لم يتمّ نُشُؤها والاستقلالُ فيها لأمة من الأمم فى أقلِّ من ثلاثة قرون إلا للعرب وحدَهم ، فإنَّ مَلكة الفنون قد استحكمت لهم فى قرن واحد(★) . . .

وقد كتب لعبد الغنى سنى التركى رُقعة قال له فيها إنّنى أَلَّفت مُصَنَّفًا كبيرًا فى مدنية العرب والإسلام لأُثبتَ به لقومنا أنَّ العربَ أساتذتنا فى علومنا وحضارتنا ، ولكنَّ التربية الإكليريكية الكاثوليكية العامة حالت دونَ اقتناعهم بذلك . . . وفى الرسالة تصريحٌ كافٍ بأنَّ مدنيَّة العرب نبعت من القرآن ومن محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنَّما كان اللينُ وإيهامُ التساوى فى سياق الردّ على الطاعنين فى مدنيّة الإسلام ؛ لهذا رأيتُ أنْ أُعيدَ إليك الورقات التى فيها هذا الردُّ راجيًا أنْ تُنقّحها بما تنفُخ فى الردِّ من رُوحك القوية التى تتجلّى فى الرسالة من أولها إلى هنا ، بما يليق من التفرقة بين الإسلام والنصرانية الحقيقية والبابوية ، وهذا لا يُؤخِّر طبعَ الرسالة فإنه يقعُ فى الكراسة الأخيرة منها ، فمتى وصلَ الورقُ مِن عندك يُمكننا جمعُ هذه الكراسةِ وطبعُها فى يوم واحد أو يومين ، فأرسلْ معَه كتاب التوصية لعبد الحميد بك سعيد ولمن شئتَ من أصحابك الذين تعهد إليهم بتوزيع النسخ وإرسال ثمنها إليك ، ونحن نعطيهم من المطبعة ما يطلبون .

فى 19 رجب 1349 و 10 ديسمبر 1930 :

بعدَ كتابة الورقة الأولى أردتُ أنْ أرى صديقَنا عبدَ الحميد بكِ سعيد لأعلمَ منه ماذا

(★) عُذنا فَقَوَّينا الجملَ التى تشيرُ إلى أنَّ الإسلام أثّل (بنى) مدنية باهرة منطبعة بطابَعه الخاص .

فعل فى المسألة التى كلَّفتُه إياها . فأخبرَنى أنّه كلَّم رجالَ البطانة بما أقنعهم به ، ووعدوه عن اقتناع ورغبة فى إقامتك بمصرَ واشتغالك فيها بخدمة الإسلام ، وأنهم سيتكلّمون ويخبرونه بالنتيجة التى يرجون نجاحها قبلَ الكلام ، وَسَيُقَفِّى هو على آثارهم وَيُمَهِّد لذلك من طريق مَن بيدهم تنفيذُ ذلك ، وسألتُ بالتليفون صديقَنا فؤاد بك عما فعل فى هذا السبيل ، فقال إنه لمَّا يفعلْ شيئًا ، وإنَّه ملازم لدار صهره لزكمة عرَضت له .

وقد عرض لنا فى هذه الأيام أنَّ أُمَّ الأولاد قد ألحَّ أهلُها بِطَلَبِها إلى طرابلسَ لرؤية والدِها الذى يخشَون أنْ يقضى عليه مرضُه العضال ، فاضطررت إلى تجهيزها وإرسالها ، وبذلك زادت مشاغلُنا ، والعسرةُ لا تزال ضاربةً أطنابَها ، وقد طلبتُ من الحجاز 200 جنيه سلفة للاستعانة بها على طبع آخر كتاب لهم عندنا ولما يُجَبْ طلبُنا ، والأمرُ للّه تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : 5 – 6] ، ونحن مكلفون فى هذه الأيام من قبل محافظة مصر أن نعمل فى المطبعة أعمالاً تطلبها مصلحة المطافئ احتياطًا لوقوع الحريق ولما نتمها ، ولها ذيول ولها نفقات ، وليس فى صدرى أدنى حرج ولا ضيق من ذلك ، ولله الحمد .

العبارة الغامضة التى أشرت إليها فى الورقة الأولى هذا نصها :

« ولا شك أن المسلمين الذين يبلغون هذه الدركات من الانحطاط وتركهم الأمة الإسلامية ، وشأنهم يلعبون بحقوقها يستحقون للإسلام التمحيص الذى هو فيه ، وإنما سمح اللّه بأن يستولى الأجانب على بلاد المسلمين . . . إلخ » .

فالغموض فى قولكم : « يستحقون للإسلام التمحيص الذى هو فيه » وقد فسَّرته بما تراه فى الصفحة المرسلة مع هذا .

هذا ، وإننى أرسلت لكم نسخة من (الإسلام والنصرانية) لأستاذنا لتذكيركم بمشربنا ومشربه فى هذه المسألة ، وما ترسلونه منقحًا أو غير منقح فإننى أنشره كما هو بدون مراجعة . والسلام من أخيكم المخلص .

محمد رشيد رضا

كتب إلىَّ فى 10 رمضان 1349 و 29 يناير 1931 :

سيدى الأخ الأميرُ

أُحييك تحية مباركة ، وأُهنئك بشهر الصيام المبارك ، وأسأله أن يوفقنا جميعًا لإكمال عدته وما يرضيه من قيامه وتلاوته ، وقد أرسلت إليك نسخًا من الرسالة المباركة ، ووزعت نسخًا منها على مَن كلمتهم ، وكنت أرجو أن آخذ ثمنها منهم كلهم أو بعضهم فلا أرسل إليك كتابًا إلا أن يكون فيه تحويل بمبلغ من الجنيهات ، ولمَّا تيسر لى قبض شىء ما .

أرسلت إلى جمعية الشبان المسلمين 500 نسخة بعد أن كلفت رئيسها بالاجتهاد فى توزيع ألف نسخة ، وعقدت للرسالة محاضرة فى نادى الجمعية لتكون إعلانًا للترغيب فيها ، وأخذت لحافظ بك عوض 100 نسخة فلم أجده فوضعتها فى إدارة الكوكب ، وقد أخبرنى بالتليفون بوصولها وشروعه فى توزيعها ، وسألته عن الثمن فقال إنه مستعد لدفعه عند التلاقى ، وسأذهب إليه ليلاً فى أول فرصة ، وأخذت 100 نسخة لإسماعيل بك شيرين مدير المطبوعات و 25 لسليم بك عز الدين فوعد بتوزيعها وطلب غيرها ، وأرسلت 100 نسخة إلى فؤاد بك سليم فى رمل الإسكندرية ، وينتظر أن يزور مصر فى هذا الأسبوع ، وأرسلت أكثر نسخ الهدايا إلى الذين كتبت لى أسماءهم من أهل هذه البلاد ، وكتبت إلى عبد الرحمن بك عزام أسأله أين أرسل إليه النسخ التى وعدنى بأخذها ولمَّا يُجب . وأما نسخ الهدايا الخاصة بأهل المغرب فلما أرسلها للعلم بأنها لا تصل إليهم فى هذه الأيام ، فما رأيك فى ذلك ؟

وأهديت عبد الحميد بك سعيد نسخة ، وقد كان سافر إلى القدس لحضور جنازة محمد على الهندىّ وعاد . وقد وصل أمس شوكت على ، ونزل ضيفًا عنده ، فإذا حضرا فى الليلة الآتية إلى الجمعية فإنَّنى أزورهما فيها ، وأُهدى شوكت على الرسالةَ بالنيابة عنك ، وقد بالغَ الناسُ فى تشييع جنازة المرحوم محمد على من بور سعيد إلى القدس وفى دفنه وتأبينه وإكرام أخيه وأهله ، وفى ذلك فائدةٌ بل فوائدُ ظاهرةٌ .

وصل كتابُك الثانى المرسَلُ مِن برلين ، وقد سُررتُ بالتوفيق لرهن الدار التى لك

هناك . والقِسطُ الذى على دارنا هنا قد استدنتُه من بنك مصر ودفعتُه ، وصار يجيئنا فى هذا الشهرِ ما يكفى لنفقات الدار والمطبعة من أثمان الورق وهو يناهز 500 جنيه . وقد تمَّ طبعُ الجزء العاشر من التفسير ، وبقى جمعُ الفهرس له وطَبعه ، وهو (أى التفسيرُ) أروجُ كتبنا ، ومتى أتممنا طبعَ الكتاب الذى شرعنا فيه للملك عبد العزيز فسأعتنى بإتمام طبع تاريخ الأستاذ الإمام ، وهو مما يُرجى رواجُه بالرغم من العُسرة الحاضرة ، وهذا الكتابُ من مطبوعات جلالته هو آخِر ما عندنا منها ، وما عند اللّه خير وأبقى .

ما ذكرتَه فى كتابك الأخير فى شأن أحمد زكى باشا هو من أدلة وفائك وصفاء سريرتك ، ولعلّى أَتوخّى لقاءَه لإطلاعه عليه وإظهار رغبتى فى مصالحته مع أبى الحسن الذى رفع عليه قضيةً فى هذه الأيام ، وأظنُّ أنَّ هذا صار يَقْبَلُ الصّلحَ على شدَّته .

طال علينا أمدُ مجىء الأخ الحبيب الأمير عادل ، وقد كان وعَد بأنْ يعودَ فى الخريف ، فمرّ الخريفُ وكاد يمرُّ الشتاءُ الذى هو خير الفصول فى مصر فعسى أنْ يكونَ بخير وعافية . والسلام عليك وعليه وعلى الأمير غالب ، وأدامكم اللّه لأخيكم المخلص .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 26 رمضان 1349 و 14 فبراير 1931 :

سيدى الأخ الأميرُ

أُحييك وأُهنئك بعيد الفطر أعاده اللّه عليك وعلى آلك وأنتم على خير ما تحبون لأنفسكم ولأمتكم ، وقد أُلقى كتابك المرسلُ من لوزان فى 16 رمضان ، فعجبتُ من أمرك فى شدّة شَغفك بالعلم ، كيف شَغَلْتَ نفسَك فى هذه العُسرة الخانقة بتصوير أسفار الكتب القديمة كالإكليل . . . وقد بادرتُ بعد وصوله إلى لقاء الأخ عبد الحميد بك سعيد ، وأطلعته على الكتاب ، وسألتُه عما تجدد فى سعيه ، فقال إنه منذ يومين قابل صدقى باشا ، وذكر له المسألة كما اقترح مَن ذكرتُهم لك من قبل ، فاقتنع من غير حاجة إلى التطويل فى الاستدلال ، ووعد بأنّه سيكلِّم المرجعَ الأعلى فيها . . . قلت ومتى يُمكنُنا أنْ نعلمَ النتيجةَ ؟ قال : بعدَ العيد . قلتُ : بل يجب عليك المراجعةُ فى هذا الأسبوع . قال : سأفعل إنْ شاء اللّه تعالى . وأنوى أنا أنْ أُقابلَه فى الجمعية فى الليلة القابلة ، وأعيد الإلحاح عليه ، وسيلقى فى هذه الليلة صديقُنا الثعالبى محاضرتَه الثالثة فى نادى الجمعية ، وأنوى أنْ أقترح عليه التنويهَ بالرسالة للترغيب فى شرائها من الجمعية ، وسأتكلَّم أنا فى ذلك إن شاء اللّه ، وأقترح على عبد الحميد بك أنْ يتكلَّم ، فإنهم قد قصَّروا فى الإعلان عنها ، فلم يبيعوا إلا نُسخًا قليلة منها ، وقد قلتُ لعبد الحميد بك إنه يجب عليه الاهتمام بتوزيع النسخ . أُسلمُ على الأميرين عادل وغالب لا زلتم سالمين لأخيكم .

رشيد



وكتب إلىَّ فى 8 شوال 1349 :

سيدى الأخ الأمير حيَّاه اللّه وأيَّده

اليوم وصل كتابك الذى كتبتَ فى 2 شوال ، ووصل قبله كتاب فى آخِر رمضان وكتاب فى ثالث شوال ، ولعلَّ كتابى الذى أَرسلتُه إليك فى أواخر رمضان وصل بعد

إيداع كتابك الأخير فى البريد . وأبدأ الآن بالجواب عن الكتاب الأخير لأجعل بقيَّة الوقت فى مسألة أمان اللَّه خان فأقول :

(1) النُّسخُ التى أمرتُم بإرسالها إلى الحاج عبد السلام بنونة قد أُرسلتْ إليه فى اليوم الذى أرسلتُ فيه كتابى الأخير إليك ، وأذكر أننى قلتُ فيه إنها تُرسل فى ذلك اليوم ، ولكنَّ أخاه هنا يرتاب فى وصولها ، وله مع شبان المغاربة الذين هنا أخبار فى مراقبة البُرُد[1] لا محلَّ لذكْرها .

(2) كتاب مختار باشا ، سأل الشيخ محمد نصيف عبد الغنى سنى عَنْ ترجمته له ، فأخبرَه أنّه كان أعطاها لنور الدين بك مصطفى المشهور الذى تُوفى ، وأنه سيكتبُ لولده بأنْ يعطيَنى إياها لطبعها ، وأنه لا يَطلب شيئًا من الدراهم ، وإنّما يطلب بعض النسخ المطبوعة ليُهديَها إلى بعض أصحابه ، وأنا كلَّفت إسماعيل بك شيرين أنْ يطلبها من ولده ، بل هو انتدب لذلك لأنه عنده كولده ، وقد أخبرنى اليومَ بعدَ إعلامه بكتابك هذا أنَّ آخرَ موعد يضربه[2] لى لإحضار النسخة يوم السبت الآتى (بعد غد) ، فإن لم يُحضرْها أُرسل إليك الأصلَ التركىَّ مع التعليق الذى كتبه ولد المؤلِّف محمود مختار باشا ، أو أُرسل الترجمة مع الأصل لِتُصحح عربيَّتَها على الأقل ، ويبقى علينا عملُ الرسوم بأخذها عن الأصل فَنُرجئها إلى أنْ تُعيدوا الكتاب مع الترجمة . والسلامُ عليك وعلى شقيقك ونَجْلِك ، حفظكم اللَّه ، والسيد عاصم يسلِّم عليكم تسليمًا .

أخوك رشيد



وكتب إلىَّ فى 22 شوال 1349 و 12 مارس سنة 1931 :

سيدى الأخ الأميرُ

سرّنى من كتابك السّرّى الخاص أنْ رأيتُك اتبعتَ فيه مذهبنا - أهل الحديثِ - فى الجرح والتعديل بعد أنْ كنتَ فى عامة أحوالك على مذهب الصوفية الذين يُغلّبون حسنَ

---

(1) البُرُد : جمع بريد ، وهو الرسائل .
(2) يُحَدِّدُه ويُعيّنُه .

الظن بكلِّ الناس ، ولا ينظرون إلا إلى محاسنهم خلافًا لشقيقك الأمير عادل . بل رأيتُك فيه تدعونى إلى ما هو مذهبى الذى شهدتَ لى فى الحجاز بتمسكى به واتباعه فى المنار بمناسبة ما كتبتُه عنك إثر تلاقينا فى بور سعيد ، وهو مذهب المحدِّثين . فلا تخفْ علىَّ أيها العزيزُ أنْ آخذ كلامَ المنتقدين لحكومة الحجاز بالقَبول على عِلاتِه ، فالقاعدةُ عندنا أنَّ الجرح لا يُقبل إلا ببيان ، وأنْ نُمحِّصَ الأقوالَ فنتروَّى فى جرح المشددين كابن معين فى المتقدمين والذهبى فى المتأخرين وفى تعديل المتساهلين كالحاكم وابن حيّان والترمذى . وإننى فى هذه المسألة قد وقفتُ على أخبار شفويّة وكتابية من كثيرين منهم النجدى والحجازى والمصرى والسورى والمغربى ، وأكثرهم مُخْلِصُون لهذه الحكومة ولملِكها ، لا مراءَ فى إخلاصهم . وقد كتبتُ إلى . . . فى ذلك وجاءنى منه كتاب مطوّلٌ فى الموضوع عهد إلىَّ فيه أنْ يكونَ سرًّا بيننا ، وكنتُ أحبّ أنْ يطولَ البحثُ فيه بينى وبين . . . بعد شفائه وقد جلسنا جلسة واحدةً لم تتسعْ لذكر كلِّ المسائل المُهمة ولا لأكثرِها ، وقد رأيتُ جوابَه على انتقادات إخواننا السوريين عينَ انتقاد زميله الذى كتبه إلىَّ ، وملخَّصه أنَّهم ينتقدون بالكلام ولا يعملون « إذ لا يصبرون كما صبرنا » ، ولما ذكرتُ لفلان رأيى فى جلالة الملك قال إنه على اختصاره قد صوّره كما هو ، لم يَنْقُصْهُ من حقّه شيئًا ، ولم يعطه أكثر منه .

(إلى أنْ يقول السيد) : وستكون مطبعتُك بعد أُسبوع خالية من المطبوعات الخارجية ليس فيها دراهم ، ونسأله تعالى أنْ يجعلَ بعد عُسر يسرًا ، ويرزقَنا جميعًا من حيث لا نحتسب . والسلام عليك وعلى شقيقك ونجلك من أخيكم .

محمد رشيد رضا



وكتب فى 6 ذى القعدة 1349 و 25 مارس سنة 1931 :

سيدى الأخ الأمير حيّاه اللّه تعالى

وصل كتابك الأخير منذ أسبوع وأردتُ أنْ أُرجئ رجعَه يومين للوقوف على ما أُحبّ أن أُوْدِعَهُ إياه ، فاقتضت الحالُ امتدادَ الإرجاء كلَّ هذه المدّة ، وقد أخذتُ يوم

السبت الماضى ترجمة كتاب « سرائر القرآن » من إسماعيل بك شيرين ، فَألفَيْتُ فيه غلطًا كثيرًا يتعذَّر علىَّ إصلاحُ بعضه دونَ بعض ، والذى يتعذَّر علىَّ منه هو الذى يتوقّف إصلاحُه على فهم الأصل التركىّ ، وسأرسلُه إليك لترى هل يمكنُك إصلاحه بالمقابلة على أصله أم ترى استئنافَ ترجمته أسهل ؟ وعلى كلِّ حال أقولُ : لا حاجةَ إلى الإسراع فيما تختاره ، بل أنتَ فى أناةٍ وريْثٍ[1] ما شئت ، وأحبّ أوَّلاً أنْ تُترجم لى خطابَ محمود مختار باشا فى الإذن لى بترجمته ونشره ، فقد قال لى إسماعيل بك شيرين إنه يَطلبه منى ، ولا أدرى سببَ هذا ، ولعلَّه ظنَّ أنّ طبعَنا لترجمة عبد الغنى سنى بالاتفاق معه يُعارض هذا الخطابَ ، وتواعدتُ مع إسماعيل بك على زيارته بعد مجىء فؤاد بك سليم من الإسكندرية ، فإنَّ الباشا يُحبّه ويسألُ عنه . وقد جاء فؤاد بك منذُ ثلاثٍ أو أربعٍ ، ولمّا يَزُرنى ، ولا بدَّ أنْ نَلتقىَ قريبًا إنْ شاء اللَّه تعالى .

وأهمُّ أنبائى لك أننى كنتُ أطلعتَ عبدَ الحميد بك على مكتوبيك اللذين فَصَّلت فيهما شئون أبى سعيد . . . إلخ . (إلى أنْ يقول) :

أما ما سألتنى عنه من تقدير نفقة « رحلة الحجاز » فجوابُه الدقيقُ يتوقَّفُ على نوع الورق وعدد المطبوع ، وأقول بالإجمال إن طبعَ ألفى نسخةٍ على أَجْودِ الورَق يبلغُ 34 جنيهًا أو 35 ، وعلى ورق دونَه يبلغُ 30 جنيهًا فقط أو ما يقرب من ذلك ، وقد رخص سعرُ الورق قليلاً فى هذه الأيام ، ويمكننا الاستعانة على طبعها بالاشتراك إن شئت ، وبما عسى أنْ نجمَعه من ثمن الرسالة الأولى بعد الحصول على نفقة طبعها . وكنتُ أحب تأخير هذا ، ولكنَّ العسرةَ لا تَزال آخذةً بالخناق ، وقد تمَّ طبعُ الجزء العاشر من تفسيره ، وسأرسلُ إليك نسخةً منه أحبّ أنْ تقرأَها كلَّها بنظام ، ثم تقرظَ التفسير بما لا أطالبك بحقٍّ فى نشر سواه ، وإنما يسهُل عليك هذا إذا جعلتَ لمطالعة الجزء وقتًا معينًا كساعة من الليل أو النهار أو أكثر . والسَلام عليك وعلى الصِّنوِ الكريم الأمير عادل والفرعِ النجيب الأمير غالب ، وأسأل اللَّه أن يجمعَ شملنا بكم عن قريب .

محمد رشيد رضا

---

(1) راث ريثا : أبطأ وتمهل .

وكتب إلىّ فى 3 ذى الحجة 1349 :

سيدى الأخ الأمير حيّاه اللّه وأمتعَ به

أُحييك وأُهنئك بعيد النحر السعيد أَعادك اللّه إلى أمثاله عشرات السنين قريرَ العين بأمتك وولدك ، وقد وَصَلَتْ أُصول رحلتك المطبوعة والمخطوطة متصلةً ، وما وصل اليوم منها فيه مكتوب شخصىّ لى يُبَشِّرُ بقدوم الأخ الأمير عادل ، ولم أكتب إليك فى هذه المدة لأننى أنتظر شيئًا مفيدًا أُنبئك به ، ولمّا أجدْ وقتًا أقرأ فيه شيئًا من الرحلة إلا أنّنى رأيتُ بالمصادفة كلمة (أجاوب) بمعنى أجيب ، وهذا مما اعتاده قلمُك ولسانك ، وقد غيَّرته من الرسالة التى طبعناها لأن المجاوبة بمعنى المحاورة ، ولا يستقيم وضعها فى مكانٍ يقصد به رفع اعتراض وإزالة إبهام . ولم نتفق اتفاقًا صريحًا على جعل المطبوع من الرحلة ألفَى نسخة ، بل أذكر أنَّنى عملتُ لك حسابًا تقريبيًا لهذا القدر من النسخ ، ونَسيتُ هل هو بقطع المنار أو بقطع رسالة « لماذا »[1] . وذكرتُ أنّك حسبتَ أنَّ النفقةَ تكون أكثرَ مما ذكرتُ لك ، وإننى بالطبع أحسب عليك أقلَّ مُمكنٍ من أُجرة الطبع دون أدنى حساب للتصحيح . (إلى أنْ يقول) :

وسأكتب لك فى فُرصة قريبة إن شاء اللّه كتابًا مفصَّلاً . والسلام .

رشيد



وكتب إلىّ فى 18 ذى الحجة 1349 و 6 مايو 1931 :

سيدى الأخ الأمير بارك اللّه فى عمره وبارك للأمة فى قلَمِه وعلمِه وعملِهِ سلامٌ عليك . وصل أمسِ كتابك رقم 29 إبريل فَسُررت كلَّ السرور بما ذكرتَ فيه من تأثير الرسالة فى إرجاع بعض الشبان المتفرنجين[*] الملحدين فى بلاد المغرب المختلفة إلى الإسلام ، وتذكّرتُ مراجعتى لك فى وجوب بسط المسألة الإسلامية المعلومة من

---

(1) يقصد رسالة (لماذا تأخر المسلمون ؟) للأمير شكيب أرسلان .

(★) كانت أتتنى رسائلُ من الجزائر وغيرها فى هذا المعنى .

مباحثها لأجل هذه الغاية ، وترى مع هذا كشفًا بما أرسل من نُسخها إلى الأقطار ، ولمّا يجئنا من أثمانها شيء ، وذكرتُ لك قبلُ ما وَزَّعنا من النُّسخ هنا وما وصَل مِن ثمنها .

وأما الرحلةُ فقد كنتُ قبلَ العيد أعطيتُ عمالَ المطبعة نُسخًا مما نُشر فى الشورى لجمعها ، ولكنَّنى وجدتُ أولها : خبرُ السفر من السويس ، فعجِبتُ كيف عُنِيْت بإتمامها ، وكنتَ تُرسل كلَّ ما تكتبه فى الأسبوع مرتين أو أكثر مسجَّلاً مع عدم الحاجة إليه إذ لا يُمكن طبُعه ولا طبعُ شىء من الرحلة قبل مُقَدمتها ، ثم وصلت المقدمةُ فى أيام العيد ، ولا عملَ فيها فأعطيتُها للمطبعة بعدَه فى أول هذا الأسبوع ، وقد جُمع منها أربعُ كراسات ، وسيبدأ بالطبع غدًا ، ويتمُّ إن شاء اللَّه فى مدّة قليلة ، ونرسلُ إليك ما يُطبع كراسة بعدَ أخرى أو أكثر .

مُصَحِّحُو المطبعة يُصححون ما يُجمع بمقابلته بالأصل ، ثم أقرؤه أنا ، ثم أقابل المثال الأخير على تصحيحى ، وإذا اشتبهتُ فى شىء طلبت الأصل . وأما تصحيحُ الأصل فمنه ، وهو أهمّه ، ما هو دينىّ كتصحيح آية أو حديث أو حكم شرعى ، وهذا قليل فى الرسالة ، ومنه حديث « الخلق عيال اللَّه »[1] . . . إلخ . وفى أصلك المطبوع « الفقراء عيال اللَّه » وهو المشهور على الألسنة ، ومنه صيغة التلبية ذكرتَ فى آخرها كلمة « لبيك » وهى ليست من المروى فى الصحيح . ومن الأحكام قولُك فى الهرولة فى وادى محسر إنها مما جرت بها العادةُ ، فصححتُها بأنَّها مما خُصت به السُّنةُ . ومنه ما هو غيرُ دينىّ مَحْضٍ ولكنّه يُوهم عند علماء الدين غيرَ المراد منه كقولك فى المقدمة « المبعوث بالتوحيد والعدل » ، وكلمة « التوحيد والعدل » شعارُ مذهب المعتزلة ، ويَعْنُون به لازمه من نفى صفات اللَّه تعالى لأنه يقتضى القدمَ المنافى للتوحيد . . . إلخ ، فَصَحَّحْتُ العبارة هكذا : « المبعوث لإقامة الحق والعدل وإتمام مكارم الأخلاق » . وأما ما هو خاصّ باللغة فسأبينه فى كتاب[2] آخر .

بدأتُ بهذا الكتاب مساء أمسِ (الأربعاء) ، وكنتُ متعبًا ضيِّق الصدر ، فلم أتمّه ، ونزلتُ صباح اليوم إلى محافظة مصر ، وعدتُ بعد الظهر ، وأنا أتمّمُ هذا

---

(1) **انظر** : كشف الخفاء : 1/ 458 ، ومجمع الزوائد : 8/ 191 .

(2) كتاب يقصد به – هنا – رسالة أخرى أو خطاب آخر .

الكتابَ بعدَ العصر ، وقد قابلتُ تصحيحَ الملزمة الأولى من الرحلة ، وسأخرج بعد قليل وأذهب إلى جهة سراى القبة لأننى مدعو إلى العشاء عند فضيلة مفتى الديار المصرية ، وأهمُّ ما أقوله إننى رأيت آخرَ ما نشر فى جريدة الشورى لا يظهر اتصاله بأول ما بعدَها من المخطوط بالقلم ، وسأعيد النظرَ فيه ، وأخشى إذا كان الأمر كما ظهر لى بادئَ الرأى أنْ نؤخِّرَ الاستمرارَ فى الطبع لأجل مراجعتك فى وصل الكلام ، وعسى أنْ لا نحتاجَ إلى ذلك .

راجعتُ عبدَ الحميد بك بعدَ العيد فى المسألة المعلومة[1] ، فقال إنه أُجيب من قِبَلِ البطانة بأنّه لم يبقَ عند مولانا مانعٌ ، وأنّه لم يبقَ إلا الأمرُ الرسمى ، ولعلّه قريبٌ ، وسأطلعه على ما يتعلّق بالمسألة فى الكتاب الأخير وألحُّ عليه بالإنجاز ، وعسى ألا يكونَ جهادُك الأخير فى سبيل اللّه مانعًا جديدًا . والسلام .

أخوك رشيد



وكتب إلىَّ فى 2 المحرم 1350 :

سيدى الأخ الأميرُ المجاهد

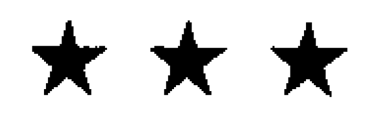
أُحييك مهنئًا بالعام الهجرى الجديد الذى انتصف به القرنُ الرابع عشر ، وأسأله تعالى أَنْ يجعلَنى وإياكَ من المجدِّدين فيه لمجد الإسلام ، وأنْ يُقرَّ أَعينَنا بالظفر فى جهادنا فى سبيله ، وقد وصل أمسِ كتابُك الذى تستعجل به توزيعَ رسالتك (لماذا) متبرِّمًا من بطئنا . . ولعلَّه قد وصل إليك بعد إرساله بيوم أو يومين كتابى المتضمِّن لكشف التوزيع ، وعلمتَ أننا أرسلنا جميع النسخ التى أمرتَ بإرسالها إلى الأقطار ، وإنَّنا وعيشِك لم نجتهد فى تصريف شىء من مطبوعاتنا عُشر اجتهادنا فى نَشر هذه الرسالة لأجل موضوعها ، ولأجلك أولاً ، ولأجل حاجتنا إلى ما أَنفقناه على طبعها سلفًا والاستعانة على طبع الرحلة . ولكنْ ليست العبرة بالتوزيع وسرعته ، وإنما

(1) يقصد محاولة أخذ الإذن للأمير شكيب أن ينزل أرض مصر للعمل والمعيشة .

العبرةُ بتحصيل ثمن ما يُوزَّع . وقد علمتَ أنه لمَّا يصل إلينا شيء ممن أَرسلنا إليهم بضع مئين مِن النُّسخ ، وقد أَرسلنا نُسخًا أخرى إلى بعض المكاتب التى تُعاملنا فى بيروتَ وتونُسَ وجاوه ، وأصحابُها يُعاملوننا بمبادلة الكتب أو بالحساب الجارى . وقد أخبرتُك بما وصل إلىَّ من أصحابنا وأصحابك فى هذا القُطر ، ومنهم مَنْ أخذتُ لهم النُّسخَ بنفسى فى سيارة أو مركبة أخرى ومَنْ زُرتُهم مرارًا . وسأعيدُ النسخَ التى أَعطيتُها لجمعية الشبان المسلمين ولم يصل إلىَّ منها إلا مائة وخمسون قرشًا ، وسأُعيد مطالبةَ حافظ بك وإسماعيل بك شيرين .

سبب انهماكى فى الشغل أن المنارَ تأخَّر عن موعده أكثرَ من شهرين لِما لا حاجةَ إلى شرحه ، فأنا منهمك فى تحريره مع الأعمال الأخرى ؛ ولهذا لم أجد وقتًا أكتب إليك فيه شيئًا عن الرحلة ، وقد أرسلتُ إلى البريد أمس ما طُبع من الملازم بعد ما أرسلتُه أولاً . وقد جاءنى من مَلِك الحجاز ونجد كتابٌ يشكر لى فيه نصائحى بشأن الإصلاح الذى اقترحتُه عليه ، ووعد بتفصيل البحث بعدَ مَوسم الحج ، ولعلِّى أُرسلُ مع الأمير عادل بعض التفصيل الذى نُقرِّره بالاشتراك مع أخينا فؤاد بك سليم . والسلام عليك وعلى نجلك النجيب .

أخوك رشيد



وكتب إلىَّ فى 3 المحرم 1350 و 21 مايو 1931 :

سيدى الأخ أَمير الكُتَّاب والمجاهدين

أرسلتُ إليك أمس كتابًا وجيزًا ، وقد أَلقى إلىَّ اليومَ كتابك فى 14 مايو فرأيتُك أطلتَ فيه الكلامَ عن .... و.... ولا يَستحقَّانِ هذه الإطالةَ ، وقد حَجَرت الحكومةُ المصريةُ على الأول منذُ وصل إلى أرض مصر عائدًا من الحجاز ، ووضعتْه تحتَ المراقبة ، لا يُكلِّمُ أحدًا ولا يكلمه أحد إلا على مَرأى ومَسْمَعٍ من بوليسها . وأما الآخر فقد قطعنا آمالَ الذين سعَوا إلى ما يُسمونه الصلحَ مع مَنْ ختم اللّه على قلبه ، فلا يُرجى منه صلاح ، ولا حاجةَ لتضييع الوقت بكتابة أكثر من هذا فى شأنه .

وكنتُ أرسلتُ إليك ترجمة كتاب مختار باشا والجزءَ العاشر من تفسير المنار فلم تذكر أنهما وصلا إليك ، ولولا أنّنى أمرتُ المكتبة بإرسالهما مسجّلَين لخشيتُ أنْ يكونا فُقدا . وكذلك أرسلتُ إليك فى العام الماضى الجزءَ الأول من (تاريخ النجوم الزاهرة) ولم يأتنى منك خبرٌ بوصوله .

سببُ تغيير جملة أو كلمة (العدل والتوحيد) أنه عزَّ علىَّ أنْ يُسىء الظنَّ فيك أهلُ السُّنة ولا سيما السّلفيون ، ولا يلتفتون إلى الحاشية أو يَرون أنها تأويل منِّى ، ولم أحبّ أيضًا أن أستدرك على أول صفحة من المقدمة كما فهمتَ . وكلمة الحق والعدل التى استبدلتُها بها أجمعُ ، فإنّ الحقَّ يَشمل جميعَ العقائد والأخبار الإلهية كما ورد فى تفسير ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : 115] ، صدقًا فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام .

ولم أجدْ وقتًا لبيان ملاحظاتى اللغوية ، ولكنْ يجب أنْ تعلم أننى لا أُغيِّر لك كلمة إلا بخير منها إنْ كان لها وجه من الصحة ، كالوجه الذى كررتَ ذكره فى مكتوباتك الأخيرة فى المجاوبة ، وإننى ما غيرتها فى رسالة « لماذا » إلا بعد أنْ راجعتُ جميعَ ما عندى من كتبِ اللغة فى مادتها . وإننى بعدَ ذلك وبعدَ ما كتبتَه فى كتابك الذى بين يدىّ وفى كتب أخرى قبلَهَ - لا أزال أرى أنَّ المجاوبة ليست نصًّا فى الإجابة عن الأسئلة والإيرادات الاعتراضية العامة والمفروضة ، وإنما هى المحاورة بين شخصين أو أشخاص فى موضوع ما ، فإنْ كان يَدخل فى عُمومها ما قد يختلف فيه المتجاوبان ويسألُ فيه أحدُهما الآخرَ أو يعترضُ عليه أو يَسمع جوابه فهذه الجزئية من مفردات أو أفراد مدلول العام تُسمّى جوابًا ، أعنى التى يَرُدّ بها المسئول على السائل ، وإنما المجاوبةُ هى المراجعة بينهما ، أفليس تغييرُ أجاوب بأجيب أفصح وأوضح إن لم يكن أصحّ ؟ بلى . ولكنْ من خسارة الوقت أنْ تدورَ المكاتباتُ والمحاوراتُ والمجاوباتُ بيننا فى كلِّ كلمة من هذا القبيل فى مثل هذا الوقت ، حتى ما جرى فيه استعمالُ العلماء والكُتّاب فى كلّ عصر من قولهم : سُئل وأجيب وَاعْتُرِضَ وأجيب . بل هو ما ورد فى كتاب اللّه عزَّ وجلَّ ﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : 65] . ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ [المائدة : 109] . إنى لأعلمُ يا أخى سَعَةَ اطلاعك فى اللغة وكثرةَ مراجعتك لكُتبها فى مَظَنّةِ الخطأ ، بل أقولُ إنَّك كنتَ

أولَ مَن نبَّهنى إلى مراجعتها عند الكتابة فى أول عهدى بمعرفتك ؛ إذ كنتُ قد زرتُ بيروت فى أول عهدى بطلب العلم - وأنت سبقتنى فى الطلب - فاجتمعتُ بك فى فندق كوكب الشرق ، ورأيتُ معك فى حجرتك لسان العرب ، ولم أكن رأيتُه من قبلُ ، ورأيتُك تُراجع فيه وأنت تكتب بعضَ المكتوبات .

فى 4 محرم سنة 1350 :

كتبتُ ما تقدَّم قبلَ المغرب من نهار أمسِ ، وحال دونَ إتمامه فى الليل مجىءُ جماعة يختلفون إلىَّ بعدَ المغرب من يوم الخميس الأول والخميس الثالث من كلّ شهر قمرىّ لمذاكرة العلم والسؤال عن المشكلات ، وظلُّوا عندى إلى الساعة 9 مساء ، وأنا أكتب هذه التَّتِمَّةَ بعدَ عصر الجمعة ، ووقتُ الكتابة قصير ، وكنتُ شرعتُ فى كتابة بحث فى الأغلاط اللغوية على ورقة غير هذه ، ولما رأيتُ أنَّ الوقتَ الباقى لا يتسع لإتمامها ألقيتُها ، وأرجو أنْ أجدَ وقتًا آخرَ لهذا البحث .

وقد ظهر لى اليومَ أمرٌ ساءنى جدًّا ، وهو أنَّ المطبعَة شرعت فى طبع المخطوط مِن الرحلة قبلَ إتمام المطبوع فى الشورى ، وسبب هذا أننى رأيتُ فى بعض مكتوباتك أنّ عددَ ما أرسلتَه مِن نسخ الشورى 17 ، وأخبرتُ المطبعة بذلك ، فشرَع العمّالُ فى طبع المخطوط بعدَ إتمام طبع ما فى تلك النسخ ، ثم رأيت اليومَ باقى نسخ الشورى ، وسأعطيه للمطبعة غدًا لأجل جمعه ووصله بما قبلَه ، وربما يقتضى هذا تعطيلَ ملزمةٍ واحدةٍ ، وأما تصحيحُ أرقام الصحائف فيما بعد ذلك فيمكن بآلة الرقم .

زارنى فى صباح هذا اليوم أسعد أفندى داغر[1] ، وبَقِىَ عندى إلى الساعة 2 بعد الظهر يقصُّ علىَّ ما رأى وما سمع وما علم فى زيارته لبغدادَ ومكثِه فيها مدةَ أسبوعين ، وقد اجتمع هنالك بالملك فيصل وأَخَوَيْهِ علىّ وزيد وبالوزراء وزعماء المعارضة ، وكان يعرف أكثرهم من الشام ، كما اجتمع بكثير من الشبان المتعلّمين ، وقد دعاه الملكُ والوزراءُ والكبراءُ إلى طعامهم ، والأخبار فى جُملتها وتفصيلها لا

---

(1) هو **أسعد بن خليل داغر** (ت 1353هـ / 1935 م) ، أديب لبنانى ، ولد فى لبنان وتوفى بالقاهرة ، عمل فى تحرير (المقطم) ، وعمل فى وكالة حكومة السودان . (الأعلام : 1/ 300) .

تَسُرُّ . وقد وافاه هنالك الحاجُّ أديب خير ، وعاد إلى الشام قبل عودته إلى مصر . والسلامُ عليك وعلى نجلك النجيب . والأخ الأمير عادل يبخل علىَّ بزيارته ، فعاتبْه إن شئتَ ، وحفظكم اللّه لأخيكم .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 9 المحرم 1350 و 27 مايو 1931 :

سيدى الأخ المجاهد فى سبيل اللّه حيّاه اللّه ونصرَه

اليوم وصل كتابك الذى كتبتَ بعدَ وصول الملازم المطبوعة ، فسرَّنى رضاك عن الطبع والتصحيح وثناؤُك البليغُ على أخيك وعلى مطبعتك . البارحة وصلت برقيتُك بعدَ العشاء ، والظاهرُ أنَّ سببَ أمرك بوقف الطبع حتى يأتى كتاب منك بشأنه هو وصول كتابى الذى ذكرتُ لك فيه أننا كُنّا نَسينا بعضَ ما نُشر فى أعداد الشورى الأخيرة وطبعنا طائفة من المخطوط ، ومحلَّه بعد أعداد الشورى . وما أدرى ما كتبتُ فى هذا الشأنِ ، ومهما يكن فلا فائدة منه لأن استعجالكَ إيانا بطبع الرحلة حملَنا على تأخير المنار وكلِّ شىء فى المطبعة لأجل الإسراع فى إتمامها . وقد تمَّ جمعُها كلِّها بالفعل ، ولكنْ بقى بعضُ الملازم فى أيدى المصحّحين ، ومتى تمّ تصحيحُها تَعيَّنَ إنجازُ طبعِها . وقد بلغت صفحاتُ ما جُمع من الشورى كلِّه 125 صفحة ، فيكون الغلطُ فى أرقام الملازم التى بعده ، واخترتُ أنّ نُصححه بالآلة التى تُطبع بها الأرقام للدفاتر وقسائم تحصيل الدراهم ، فهو خيرٌ من التنبيه عليه فى جدول ما يقع من غلط الطبع وتصحيحه ، وإن كان فيه مشقّة .

وقد بلغت ملازمُ الرحلة المجموعة 35 ملزمةً ، يُزاد عليها ملزمةٌ للفهرس ، ولا أدرى هل وُضِعَتْ أو تريد أنّ تضعَ لها مقدمةَ تصدير كما ذكرتَ فى بعض كتبك أم لا ؟ وهل يكون هذا التصديرُ طويلاً أم قصيرًا ؟ ونفقةُ المجموع الآن مع فهرسه وما يُضاف إليه من الغلاف والخياطة يبلغ ستة آلاف وثمانمائة قرش لألفى نسخة ،

فيكونُ ثمنُ النسخة ثلاثةَ قروش وأقل من نصف القرش ، وهذا القدرُ من العدد هو الذى ذكرتُ لك تقديرَ حسابه الإجمالى فى كتاب سابق ، ولم تقترحْ زيادةً عليه ، ولا يُنتظر أن تروجَ الرحلةُ رَوَاجَ رسالة (لماذا) ، ولئن أمكن تصريفُ نُسَخِها الألفين فى سنتين لأعددتها كرامةً لك ، أو بدء حياة جديدة فى مساعدة قُرّاء العربية للمجاهد فى سبيل أمتهم ، ونُعيد طبعَ الرحلة إنْ شاء اللّه تعالى . (إلى أنْ يقول) :

ولولا شدّةُ العسرة لكان الأحبَّ إلىَّ ألا نأخذَ عمولةً على كُتب أمير الإخوان ومجاهدهم الأكبر ، وأرى أنَّ مالى ومالك واحدٌ ، وقاعدتى التى كتبتُ بها إلى المرحوم السيد الزهراوى أنَّ أحقَّ الإخوان الصادقين فى المال هو أحوجهم إليه ، فإن تساوت الحاجةُ وجبَ أنْ يبقى المالُ فى يد حائزه منهم ، ونحن الآن متساويان فى الحاجة ، وما ذكرتُه أقربُ إلى الاعتدال فى القِسمة .

هذا ، وإننى بعدَ كتابة ما تقدَّم أمسِ أخذتُ أُصحِّحُ بعضَ ملازم الرحلة ، فوجدت فيها بحثًا يحتاج إلى حواشى دينية ، وهو بحث طبقات الصخور وعمر الأرض ، وفيه تخطئةٌ للتفسير المأثور فى آية ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ [الدخان : 10] ، فإنْ وُجِدَ مثلُ هذا فى الملازم الأخرى فربَّما يَزيد عددُ الملازم عما ذكرنا آنفًا .

وأرجو أنْ تُعَجِّلَ بكتابة مقدمة التصدير إذا كنتَ عازمًا عليها ، وربما أكتبُ أنا كلمة فى بيان مزاياها أيضًا ، وهذه زيادة . ويحسُن أنْ يكون ثمنُ النسخة عشرةَ قروش إذا استحسنتُم .

وما ذكرتُ فى الكتاب الأخير من استبدال كلمة (عثلوج) بعسلوج فهو من تحريف المطبعة لا من تصحيحها ولا من تصحيحى ، وسأكتب لك ما وعدتُ به من بيان أنواع الغلط اللغوى .

وقد بلغنى أولَ مِن أمسِ أنَّ الأمير عادلاً تعبت مَعِدَتُهُ وأمعاؤه بقَبول دعوة بعض المنافقين ، وسأزوره وإنْ علمتُ أنَّه كان من عهدٍ قريب عند قنصل العراق ، وهو قريب مِنّا ولم يزرْنا ، ونحن لا حسابَ بيننا فى مثل هذا . والسلامُ من أخيك .

محمد رشيد رضا

وكتب إلىَّ فى 24 المحرم 1350 و 10 يونيو 1931 :

سيدى الأخ الأمير

إنى أُلقى إلىَّ أمسِ ثلاثُ مكتوباتٍ منك فى بعضها زيادات تُريد وضعَها فى مواضعَ من الارتسامات ، ولكنَّ الارتسامات قد تمَّ طبعُها إلا الملزمةَ التى فيها خاتمتُها ، فهى لم تطبع لأنها ناقصة ، فأمرتُ بوضع ما أَرسلتَ من بيان قبل الحجاز فيها ، ولم أستحسنْ أنْ يكونَ ذلك براعةَ المقطع وحسنَ الختام ، بل جعلتُ الخاتمة بيانَ عظمة موقع الطائف ، وما يجب على الأمة العربية فيه . وإننى أُرسل إليك هذه الخاتمةَ والملزمةَ قبلَ طبعها لترى رأيك فيها ، وهل تُريد أنْ تستدركَ الزيادات بعدَها أو بعدَ الفهرس لخفائه على القراء كالعسلوج .

وإننى لما وضعت الفهرس لها أولَ من أمسِ تجلَّتْ لى فوائدُها مجتمعةً مجملةً ، فكتبتُ مقدِّمة لتصديرها ونَشْرِها ، تجلَّت علىَّ فيها رُوحُ همِّتك وسرعةُ قلمك ، فأَتممتُها فى ذلك اليوم بعدَ إتمام الفهرس مع النظر فى أعمالٍ أخرى من ضروريات الإدارة ، وهى مرسلة إليك قبلَ طبعها مستقلةً لترى رأيك بإجازتها برُمَّتها أو حذفِ شىء منها ، وفيما ذكرتَه من الوقفة فى اقتراحك التضييقَ على فُقراء الحُجَّاج لِيَقِلَّ حجُّ غير المستطيع منهم ، ولعلَّ هذا وغيرَه مما تراه فى المقدمة والحواشى لَيَقْتَضِى عندك كتابة مقدمة أُخرى كما كنتُ فهمتُ من بعض مكتوباتك السابقة .

وأراك ارتبتَ فى عزوى بيت « برداها برداها » إلى ابن الفارض ، واقترحتَ علىَّ التثبتَ فيه بمراجعة الديوان ، وقد راجعتُه كما أَحببتَ فلم أزْدَدْ إلا يقينًا بما أحفظه منه من الصغر ، حتى إننى كنتُ أردتُ أنْ أنشرَ أبياتَه هذه كلَّها فى الحاشية ، وهى أربعة .

فقبل بيت الشاهد المذكور فى الرحلة :

جلِّق جَنَّةُ مَنْ تَاهَ وبَاهَى ورُباها مُنْيَتى لولا وباها

وبعده :

وطنى مِصْرُ وفيـها وَطَرِى   وَلِعَيْنِى مُشْتَهاها مُشْتهاها[*]

وَلِنْفسِى غَيْرَها إنْ سَكَنَتَ   يا خَلِيْلىَّ سلاها ما سلاها[1]

وأما مسألةُ الأغلاط فقد كنتُ أكتب على ظهر بعض المُثل التى أُصحح طبعَها كلماتٍ منها ثم تُرمى فلا أجدُها ، وإنَّ شواغلى فى هذه الأيام كثيرةٌ ، ولكنّنى سأذكرُ لك أنواع ما أنتقده لأجل التروِّى فيه والمراجعةِ له ، وإننى فى هذه الأيام لا أكادُ أكتبُ إلا فى أضيق الأوقات ، وربما أستطيعُ أنْ أكتبَ لهذا ملحقًا قبلَ إرساله . والسلام .

رشيد



وكتب إلىَّ فى 9 صفر 1350 و 25 يونية 1931 :

سيدى الأخ الأميرُ

وصل كتابك مع الملازم المطبوعة ، وسرَّنى أنَّ أغلاطَ المطبعة فيها قليلةٌ بالنسبة إلى المعتاد فى أدقّ المطابع تصحيحًا ، ولم يسرَّنى ما قلتَ فى مقدمة التصدير لأخيك مِن أنّها ذهبتَ بكذا وكذا من محاسن الارتسامات ولطائفها ، ولا هو بصواب أيضًا ، وكلُّ ما فى المقدِّمة مِن الحُسن والصواب إنما إجمالٌ لما فى الرحلة من الفوائد والمحاسن حتى أننى لو لم أكن طبعتُها وأردتُ أن أُقرظها فى المنار لَقرظتُها بمثل هذا ، وسُررت من تنبيهك لجعل كلمة وُديان « أودية » ، وقد فعلتُ ، على أنّنى راجعتُ شرح القاموس فألفيته يذكرُ فى أواخر ما استدركه على الأصل والوادى يجمع على وُديان بالضم أيضًا .

وأنت قد كرّرتَ هذا التصحيحَ ، وجزمتَ بالخطأ عند مراجعته ، وأمرتَ بالمراجعة . .

وحسبى أنَّ كلمة أودية هى استعمال القرآن ، وإن زعم الجوهرىّ أنّه جمعٌ غيرُ قياسىّ[2] . وقولك إنها سَرَتْ إلىَّ مِن استعمال العامة صحيحٌ ، وأنا أرى ما ترى فى

(★) مشتهى اسم مكان بمصر (حاشية بالأصل) .

(1) هى مقطوعة من أربعة أبيات ، **انظر** : ديوان ابن الفارض : ص211 .

(2) وزن أفعلة جمع قياسى لكلّ مفرد يكون اسما ، لا وصفًا ، مذكرًا رباعيا ، قبل آخره حرف مدّ . (**انظر** : شرح التصريح : 2/ 299 ، والنحو الوافى : 4/ 636 ، مجلة مجمع اللغة العربية : ع 28) .

مفردات أكثر عرب الأمصار لا البوادى فقط ، أنْ ما لا يُعرف له أصل مأخوذٌ عن الشعوب الأعجمية التى خالطتهم فهو عربى الأصل ، وكان الدكتور صروف يرى هذا الرأىَ أيضًا ، ولكنَّنى لا أعتمدُ على هذا فى الكتابة (إلى أن يقول) :

سرّنى لقاؤك لنورى باشا السعيد[1] ، وهو أذكى رجال الملك فيصل ، وكذا لقاؤك للشيخ حافظ وهبة ، وهو أعقلُ رجال ابن سعود ، ويمكنُك أنْ تعرفَ من نورى باشا عن ابن سعود ورجاله ما لا تعلم من غيره ، فإذا أخبرك بما علم وبما رأى تعلمُ أنَّ أخاك عادلاً عادلٌ فيما حدَّثك به . وأما فيصل فهو السياسى الوحيد فى هؤلاء الملوك والأمراء الذين ظهروا فى العرب فى عصرنا ، وأسوأُ ما يسؤُنى منه أنَّ سياسته لا دينّية وأنه . . . لا يكاد . . . مع أحد . (إلى أن يقول) :

وعبد الحميد بك أخبرنى أمسِ أنّه لا يَزال يُراجع رئيسَ الوزارة فى مسألتك[2] ، ولعلَّه فرغ الآن لمثلها . والسلام عليك وعلى مَن لديك .

أخوك رشيد



وكتب إلىَّ فى 29 صفر 1350 و 15 يوليو 1931 :

سيدى الأخ الأميرُ حفظه اللّه تعالى

وصل فى هذا الأسبوعِ كتابان منك ، فى الأخير منهما حِوالة بعشرة جنيهات إنجليزية ، وقد وصل أمسِ (الثلاثاء) ، وجاءنا يوم السبت قبلَه حوالة من سعادة أحمد حلمى باشا بمبلغ ثلاثين جنيهًا إنجليزيًّا ، فانحلَّ بذلك شىء من شدّة العُسرة فى النفقات اليومية الضرورية لنا وللعمال الذين صرَفنا أكثرهم ، وليس عند الباقين شغلٌ فى كلِّ يوم . (إلى أن يقولَ) :

---

(1) هو **نورى بن سعيد بن صالح ابن الملا طه** (1306 - 1377 هـ / 1888 - 1958 م) ولد ببغداد ، آمن بالثورة الحجازية ، فلحق بها ، فكان من قادة الملك فيصل بن الحسين فى زحفه على سوريا ، آمن بسياسة الإنجليز ، وجاهر بهذا ، تولّى رئاسة الوزارة فى العراق مرات كثيرة ، قتلته الثورة فى بغداد كما قتلت فيصلا . (تاريخ مقدرات بغداد : 1/ 380) .

(2) يقصد أخذ إذن من الحكومة المصرية بالسماح للأمير شكيب بالمجىء إلى مصر والعمل فيها .

وأما الرحلةُ فقد أمرْنا بجمعها وتهيئتها للتجليد ، وسنبدأ بتجليد نُسختين مُذَهَّبتين لإرسالهما إلى جلالة الملك ابن السعود وسمو نائبه فى الحجاز ، (والملك قد سافر إلى نجد كعادته) ، ورأيتُك تقولُ أخيرًا إنّ الرحلة مؤلفة باسم جلالته ، ولم تذكر فيها شيئًا بهذا المعنى ، ولا أمرتَ أنْ نكتبَ ذلك فى ديباجتها كالعادة ، ولا أنْ نضعَ فيها رَسْمَهُ[1] ولا رَسْمَكَ ، وقد تذكرتُ كلَّ هذا حين قرأتُ كلمتَك الأخيرة ، وتذكرتُ أيضًا أنّه ليس عندى رَسْمٌ لك ، وأنا أَولى الناس به . فإذا أحببتَ أنْ تكتبَ ما يُسَمَّى تَقْدِمَةَ الكتاب لجلالة الملك فيمكن أنْ يُكتب ، أىْ يطبعُ ذلك فى ورقة مستقلة ، توضع فى أول كلِّ نسخة مع صورة الملك أو بدونها أو مع صورتك أيضًا . وعليك أيضًا أنْ ترسلَ عند وصول هذا الكتاب إليك برقيةً بلفظ « انتظروا البريد » أو « انتظروا » فقط ، فإن لم تجئ هذه البرقية فإننا نجلِّد نسختَىْ الملك والأمير ، ونرسلهما فى البريد الذى يُرسل من مصر إلى الحجاز فى آخر يوليو الحالى . وليس قبلَه بريدٌ إلا ما يُرسل فى 20 يونيو ، وهذا لا نُدركه قطعًا ، وسنرسلُ إليك نسخةً بغلاف كغلاف الرسالة ونسخةً مجلَّدة بقماش ، ونذكر لك نفقةَ كلٍّ منها لتختار ما تشاءُ لجميع النسخ أو لبعضها دون بعض . هذا ، وإن الأخ الأمير عادلاً قد سافر إلى الحجاز وَحَمَّلْتُهُ كتابًا إلى جلالة الملك ، وجاءَ بعدَ وصوله بريد بعدَ بريدٍ ، ولم يجئنى منه شىء ، فعسى أنْ يكونَ قد كتب إليك ما تطمئنُّ به على صحته . وقد سافر بعدَه الشيخُ بهجة البيطار صديق الجميع ، وجاءَنى منه اليوم كتاب يخبرُنى فيه بثناء الملك ورضاه ومودته . والسلام على غالب وعلى أبى غالب ، لا زال غالبًا لكلِّ مخالف ومحارب ، وأطال اللّه بقاءَه لأمته ولأخيه .

محمد رشيد رضا



(1) **الرَّسمُ** : تمثيل شىء أو شخص بالقلم ونحوه .

وكتب إلىّ فى 9 ربيع الأول سنة 1350 و 24 يوليو سنة 1931 :

سيدى الأخ الأميرُ حيّاه اللّه تعالى

وصل كتابك المؤرَّخ فى يوليو ، وكُلُّ ما فيه من أمر الحوالات والرسالة والرحلة قد تقدّم فيما كتبنا إليك فى الأسبوع الماضى مفصَّلاً تفصيلاً ، فعسى أنْ يكونَ قد وصل إليك أمسِ أو اليومَ ، وأما ما فيه من عُثورك على استعمال بعض المولَّدين لكلمة « جاوب » فكنتُ أظنُّ أنَّ ما تقدَّم من مجاوبتنا أو تجاوبنا فى هذه الكلمة يُغنى عن رجوعك إليها وذكرِ هذا الاستعمال الذى لا يُعَدُّ حجةً عند علماء اللغة . وقد ذكَّرنى باستعمالٍ مثله لكلمة (فيلق) كتبتَه إلىَّ تخطئةً لقولى فى زمنٍ مضى ، لا أتذكّره ، إنها مؤنثة ، ولم أشأْ أنْ أكتب إليك فى مرجوع كتابك أنَّ استعمال ذلك الشاعر أو الأديب(★) ليس بحُجة لاتفاق علماء اللغة على أنَّ المولَّدين لا يُحتج بعربيتهم ، فلا يُجعل شاهدًا . وأنا عندما أكتبُ لمثلك أنَّ كلمة (الفيلق) مؤنثة مثلاً فإنما أعنى بذلك الاستعمالَ الحرَّ الفصيحَ الثابتَ عن العرب الذى أحبّ أنْ تختارَه فى كتابك من غير أن أبحثَ عن الشذوذ المحتمَل فيه وعن استعمال المولَّدين له . فأصل كلمة (الفيلق) فى اللغة معناه الداهية ، ولما وصفوا به الجيشَ جعله نقلةُ اللغة وصفًا لكتيبة منه يُعتبر فيها هذا الوصف . ومِن هنا يمكن أنْ يقالَ : إنَّ هذا اللفظَ صار من أسماء الجيش وهى كثيرة . فيصحُّ أنْ نذكَره بإرادة الجيش مع صرف النظر عن الأصل ، بل ربّما تساهلَ بعض علماء اللغة أنفسِهم فقالوا مثل هذا ، ولكنّ الأصلَ الصحيحَ هو ما ذكرتُ من غير مراجعة لشىء من كتب اللغة ، بل أنا أكتب هذا بجانب

(★) قال الحافظ اللغوىّ الشهير ابن الأبّار القضاعى البلنسى فى سينيته المشهورة التى يُحث فيها أبا زكريا يحيى الحفصى صاحبَ تونُس على استنقاذ الأندلس :

وأوطىء الفيلقَ الجرار أرضَهم ... حتى يُطأطِىءَ رأسًا كلُّ مَنْ رأسا

ولامِراء فى أنَّ المولدين ليسوا بحُجة فى اللغة لكنَّ الاستظهار[1] بكلامهم ممكن فيما يقعُ فيه الخلافُ .

---

(1) ليس المقام مقام استظهار ولا استئناس – كما سيذكر الشيخ رشيد عما قريب – ولكنّ المقام مقام التذكير بالكلام العربى الفصيح .

حجرة المائدة قبل الغَداء لا فى المكتب . وقُصارى ما أبغى من تأنيث (الفيلق) ووضع (الإجابة) موضعَ (المجاوبة) حيث لا مُراجعة بين اثنين فأكثر فى الموضوع ، إن هذا هو الاستعمال الحرّ الأصلى فى اللغة أو الفصيح أو الأفصح – على الأقل كما يُقال – الذى أحبه لك ولنفسى . ولو أردتُ أنْ أكتبَ شرحًا للقاموس لما اقتصرتُ على هذا ، وإنَّنى أجدُ فى كلامك كثيرًا من هذه الألفاظ المخالفة فى اعتقادى للصحيح أو للفصيح فلا أُغيِّرها ولا أذكرها لك لأنَّنى أعلم أنَّ ذكرَها يفتح بابًا للمناقشة لا أجد له فراغًا من وقتى ، وإنْ كان لا يخلو من فائدة . ومنه ما أُغيِّره فتقرأُ أنتَ التغيير ولا تشعر به لأن ما أُغيِّره به لا تَشكُّ فى صحته وفى كونه مما تستعمله ، وإن الذى غيرتُه أىْ تركتُه لم يجرِ به قلمُك إلا بتأثير قراءَتك له فى الصحف أو كتب المتأخرين . وإننى على ضيق الوقت أذكر لك ما علق بذهنى من أنواع الغلط أو مخالفة الفصيح فى الارتسامات ، وأرتقب الفرصةَ لمراجعة الأصول الباقية لاستخراج الشواهد منها ، وقد طلبتُها من المطبعة الآن . وَذِكْرُ الأنواع الكلية أَدْعَى إلى التنبه لما ينبغى تركُه أو مراجعتُه من الجزئيات لها عند الكتابة أو عند تصحيحها ، فإن الفئةَ الراقيةَ من كُتّاب مصر وأُدبائها فى هذه السنين أرقى فى النقد اللغوى ممن قبلَهم من كبار كُتَّاب هذا العصر وأُدبائه . بل لم يوجدْ النقدُ الدقيق إلا فى هذا العهدِ من عصرنا . وغرضى أنْ تنتقدَ نفسَك فى الحُلَّة السُّندسية قبل تمثيلها للطبع . وإننا ننتظر الآن ما أرسلناه مِن نُسخ الارتسامات إلى المجلِّد لنرسلَها إليك ونستشيرك فيها ، وأما أنواعُ الانتقاد اللغوى فأكتبها فى ورقة مستقلة . والسلامُ من أخيك المخلص .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 5 ربيع الآخر 1350 و 19 أغسطس سنة 1931 :

سيدى الأخ الأميرُ

أمس وصل كتابك المؤرَّخ فى 19 أغسطس ، وكلُّه أو جُلُّه جِدال فى مسألة أو كلمة

أو كلمتين فَرَغْنا منها . واليومَ وصل كتابٌ آخرُ مؤرَّخ فى 27 ربيع أول وهو يوافق 11 أغسطس ، وقد سُررت بتاريخه العربى الهجرى . ليس لدىّ وقتٌ ما للبحث فى شىء ما ، وقد اعتذرتُ لك مِرارًا عن هذه المباحث اللغوية راجيًا إرجاءها إلى خروجى من المأزق الذى أوجبَ تأخيرَ الجزءِ العاشر من المنار عن موعده (وهو آخِر ذى الحجة) إلى الأسبوع الأول من ربيع الآخر ، أى أكثر من ثلاثة أشهر ، وقد اتفق أنَّ هذا جزءُ آخِر السنة ، وعلىّ أنْ أجمعَ فهرس المجلدِ كلِّه ، وذلك يتوقّف على تصفُّحِ جميع أوراقِه واستخراج الموادّ المهمة وترتيبها على حروف المعجم ، وقد تم اليومَ ، وللَّه الحمد ، وسيَصدر الجزءُ قبلَ طبع الفهرس قريبًا .

واتفقَ أنْ تمَّت فيه سورة براءَة (التوبة) وعلى أنْ أُراجعه كلَّه لأستخرج منه مسائل السورة الكلية من أُصول وفروع وغيرها . وهذا أشقُّ عمل فى التفسير لم أُسبقْ إلى مثله ، وعلىّ مع هذا أنْ أُبادرَ إلى ختم تاريخ شيخنا رحمه اللَّه ، وقد طبع منه 95 ملزمة منذُ عشرة أيام ، ونفد الورقُ والدراهم ، والتُّجار الذين يَبيعوننا بالدَّين ليس عندهم الآن من جنس هذا الورق ، وسننتظرُ .

مع هذا كلِّه لا بدَّ لى هنا من ذِكر كلمات أو كليمات أرجو الوقوفَ عندها الآن ، فإنَّ تَكْرارَ المراجعة والتجاوبَ بالعبارات المختصرة كاد يكونُ مراءً ضارًّا أو سوءَ فهم مع اعتقاد كلٍّ منا حُسْنَ النية فى الآخَر وإجلالِه له وعرفانِه بقدر عِلْمِه فى الموضوع .

(1) إنَّنى واللَّه لم يخطر فى بالى أنَّ مثلَك أو مَن لا يدنو أنْ يكونَ مثلَك فى علم العربية يجهلُ أنَّ كلامَ المولَّدين ليس بحُجّة فى اللغة ، ولهذا عجِبتُ لقول شاعر مولَّد فى تخطئة قولى إن كلمةَ الفيلق مؤنثة . وأنا قد ذكرتُ لك تخريجًا لاستعماله هذا لكى أَقْفِلَ البابَ ، لا لأنَّنى أراه مِن الصواب فلم يُمكن إقفالُه . فلم يكن عندى ما أقولُه فى احتجاجك علىّ بهذا الشعرِ إلا تذكيرَك بأنَّ كلامَ المولَّدين ليس بحُجة ، والآن عدتَ تقولُ بعد الإطناب غيرِ المحتاج إليه فى علمك بالمسألة أنَّ كلام أمثال هؤلاء الكبار من المولَّدين يُفيد الاستئناس . . . وأىُّ حاجة إلى ذكر الاستئناس فى هذا المقامِ مقامِ التذكير بالكلام العربى الصحيح الفصيح لاستعماله ؟

(2) إننى أعترفُ بأنّه يقعُ فيما أكتب كثيرٌ من الغلط ، ولا سيما فى المكتوبات الشخصية ، ومن هذا الغلط ما أعرف أنه غلط ، ويسبق إليه قلمى لكثرة استعماله فى الكلام العادى ولكثرة قِراءَة مثله فى الجرائد وغيرِها ، ولكنَّ هذا الغلط يكون قليلاً أو نادرًا فيما أتحرَّى تصحيحه ، ولا سيما عند طَبْعِهِ ، وقد قرأتَ أنت مقدمتى للارتسامات ، ولم تُخطِّئنى إلا فى كلمة وُديان ، وهى صواب ، ولما أرسلتُها إليك لم أكن قرأتُها للتصحيح الأخير ، فلما قرأتُها صَحّحْتُ فيها عدةَ كلماتٍ ، أذكرُ منها الآن تعديَة التبرُّم بمن ، وهو إنما يتعدّى بالباء .

(3) إنك لم تُنكر علىَّ فى كتابك الأخير شيئًا إلا وقد وقفتَ فى مثله ، وقد خطأتَنى فى كلمة (المستلم) وأنا أعرفها من عشرات السنين كما قلتُ فى مسألة كلام المولَّدين ، وكنتُ أكتبها (المتسلم) حتى فى وصولات الاشتراك ، فلما تركتُ الإدارة عادوا يكتبون المألوفَ (المستلم) ، وأظنُّ أنَّ الذى كتب لك الكلمة السيد عاصم ، ولا أُبَرِّئُ نفسى منها ومِن مثلها ، ومن هذا القبيل نقلُك لى فى هذا الكتاب ما قاله (لسان العرب) فى المجاوبة والجواب ، وإنَّ هذا لشىء عجاب ، وكذا ذِكْرُ قول جحدر : (وأُجاوبك) على طريقتك بأن لسان العرب يُوجد عندى ، وقد راجعتُه عندما كتبتَ إلىَّ أولَ مرةٍ ، وراجعتُ غيرَه ، وكتبتُ إليك برأيى الممحَّص فى الكلمة ، ولا أزال عليه . وأما قصيدةُ جحدر فإننى أحفظها منذُ أربعين سنةً إذ رأيتُها فى حاشية الأمير على المغنى ، وأولُها :

تأوَّبنى فبتُّ لها كنيعًا   هموم لا تفارقنى خوانِ

أستغفر اللّه ! أَيليق بمثلي ومثلك أنْ نتبارى بمثل هذا الكلام ؟. لا واللّه .

(4) إذا نحن وجدنا فراغًا للمذاكرة فيما ينتقدُ المدقِّقون بمصر استعمالَه فى هذا العهد لنتحرَّى استعمالَ ما لا يُنتقد ، وكان مما نتذاكر فيه مسائلُ علم المعانى التى أشرتُ إليها فى كتابى السابق ، وكانت المذاكرة فيها على هذه الطريقة من تأويل التعدية الواردة بغير الواردة فى اللغة بمثل ما ذكرتَ فى : صدر منه وصدر عنه ، ومن الاحتجاج بالاستئناس أو دُخوله فى باب المذاكرة بصفة غير التأويل ، والاستئناس من صفات الاحتمال ، فهل يمكنُ أنْ نَتفق على شىء ؟

(5) القول الأخير : إن مُرادى مما ذكرتُه ومما يمكن أنْ أذكره فى هذا البابِ التنبيهُ والتذكيرُ لأجل تحرِّى الصحيحِ الفصيحِ أو الأفصحِ لا الجدالُ والمناظرةُ أو المباراةُ والمناقشةُ ، فإنْ قُبِلَ هذا وإلا فلا حاجةَ إليه ، ووالله ثم والله لولا أنْ يَعِزَّ علىَّ أن يكون فى كلامك موضعٌ لانتقاد مَن أعرف هنا من المتنطعين لما فتحتُ هذا البابَ . وأرى أنْ نجعلَ ما مضى منه كأن لم يكن ، وأما المستقبلُ فما يعجبُك منه فخذه وما لا يُعجبُك فدعْه . ولا أحبّ أنْ يُذكر فى ذلك مسائلُ الاحتمال والتأويل ، بل نقتصر على ما يصح بالنقل الواضح وبالقواعد المعروفة فقط .

كُتب هذا قُبَيْلَ المغرب وبعدَه ، وما كنتُ أريد أنْ أزيدَ على خمسة أسطر .

مسألةُ الكَرْمِ والخمر فجوابك فيها صحيح من الجهة الشرعية بقطع النظر عن تعليله(★) ، وربما أكتبُ لك جوابًا مفصَّلاً فى كتاب آخَر . والآن ينتظرنى زائرٌ من أذكياء علماء الأزهر ، والمهمّ الآن المبادرةُ إلى إعادة طبع رسالة « لماذا » ، فإذا كان لك رأى فى تصحيحٍ أو زيادة فيها فَعَجِّلْ به ، واذكرْ عددَ ما يُطبع ، فمتى جاءَت الدارهمُ باشرْنا بإعادة الطبع .

وصلَ ليلةَ أَولِ من أمسِ برقيتُك فى شأن الأمير عادل ، وهو فى الإسكندرية ، وقد رجوتُه قبلَ سفره إليها أنْ يكتبَ إلىَّ بمكانه وبما يحصل معه فلم يفعل كعادته . وقد بلَّغ معنى البرقية صديقُنا سليم بك عزَّ الدين بالتليفون إلى عباس المصفى ليبلغه معنى البرقية ، وهو متصل به دائمًا . والسلام عليك أولاً وآخِرًا .

رشيد



(★) كان قد وردنى كتابٌ من الجزائر يقول فيه صاحبه : إننا نُؤَجِّرُ كروم العنب ، فيصنعُ منها المستأجرون خمرًا ، فهل نأثم فى ذلك ؟ فأجبتهم بأنى لستُ من علماء الشرع فى الواقع ، ولكنِّى أظنُّكم تأثمون فيما إذا صنعتم أنتم الخمر لا فيما يصنعه غيركم ، ولو كان مستأجِرًا منكم . وبعثتُ إلى الشيخ رشيد بالسؤال المذكور فأجابنى بما ذكر .

وكتب إلىَّ فى 19 ربيع الآخر 1350 و 2 سبتمبر 1931 :

سيدى الأخ الأميرُ حيّاه اللّه تعالى .

قبل ظُهْرِ هذا اليوم أُلقى إلىَّ كتابان منك ، تاريخ أحدهما 14 ربيع الأول ، ومعه أوراقٌ فى الزيادة التى شَرَعْتَ فى كتابتها لرسالة « لماذا » ، فوضعتُها فى ظرف كبير خاصٍّ بها وبما سيأتى بعدها ، والثانى تاريخه 13 ربيع الثانى (والصواب الآخِر)[★]!! إلا أنه يجوز التوسُع فيه لأنه ثانٍ بالفعل ، وهذا الكتاب خاصٌّ ببحث اللغة الذى كثُر تجاوُبنا أو تجادلُنا فيه ، ولم يتمكن أحدٌ منا تمحيصَه لأننا نكتب فى أوقات ضيقة تتنازَعُنا فيها الشواغلُ الكثيرةُ فيأتى فى كلام كلٍّ منا ما لا يقبله الآخرَ وما له لوازمُ ربما لا تكونُ مرادةً للكاتب ، فَيُضْطَرُّ الآخرُ إلى نفيها ككون ذكرِ مسألة من المسائل قد يلزَم منه التعريضُ بأنَّ الآخَرَ لا يعرفها ، وَكَنَفَيكَ[1] فى أَوَّلِ هذا الكتابِ وجودَ أدنى مَوْجِدَةٍ[2] فى نفسك من التنبيه ، ولو اتهمتُك بالموجدة لما كتبتُ إليك كلمة فى ذلك . وقد ظهرَ لى من الكتاب الأخير أنَّ بيننا خلافًا فى الرأى دلَّ عليه ما قبلَه دلالةً غيرَ قطعية ، وهو أنك ترى مِن السَّعة والسماحة فى مخالفة المنقول فى المعاجم ومخالفة بعض القواعد ما لا أراه أنا على إطلاقه إلا أنْ يُقرِّرَ مجمعٌ علمى لغوى شيئًا منه ، فيكون قاعدة تَحُولُ دونَ الفوضى فى اللغة كتعدية الأفعال ولزومِها والتضمينِ ووراء ذلك ما هو أوسعُ منه ، ولا يمكن تحديدُه ، وهو الرُّخَص .

وفى هذا البحثِ من كتابك ما استغربتُه جدًّا ، وهو إنكارك على مَن يُخالفون رأيَك هذا أنَّهم لا يُجَوِّزُونَ « إلا كلام البادية قبلَ الإسلام » ، فهذا ما لا أعلم أحدًا يقول به . وأما قولُك إنَّ كثرةَ شغلى لا تَدَعُنِى أفكِّرَ فى أن فى اللغة الشاذَّ واللغات الضعيفة كما تظنّ ، فأذكرُك بأنَّ أكثرَ شغلى وأعظمَه تفسيرُ القرآن ، وهو يُذكِّرنى بهذا إنْ كان مما يُنسى . وأنت قد ذكَرتَ فى سياق هذا التنبيه ما وجدتَ فى كتاب اللّه مما لم ينطق به الجمهور ، ثم ذكرتَ بعد ثلاث ورقات شاهدًا على هذا ، وهو قوله تعالى ﴿ قَتَلَ

(★) هذا الانتقاد صحيح .

(1) **كَنَفَا الرجل** : حِضناه عن يمينه وشماله .

(2) **وَجَدَ مَوْجِدَةً** : غضب .

﴿ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام : 137] ، ولم تتذكّر أنّنى مفسِّر ، وقد فسَّرت هذه الآية وغيرها مما زعم بعض المخالفين كاليازجى أنّه لحن(★) . وسأذكرُ لك ما جَرَيْتُ عليه وما كان يراه أُستاذنا فى هذا النوعِ أو أحيلُك على موضعه من التفسير .

ومن الغريب جدًّا احتجاجُك بالاصطلاحات الشرعية الواردة فى الكتاب والسُّنة على أصحاب هذا المذهب الذى لا وجودَ له ولا لأحد من أهله ، وهو مذهب أن اللغة ما صحَّ عن بدو الجاهلية ، ثم باصطلاحات العلوم والفنون التى وُضعت فى صدر الإسلام . ثم تخاطبنى أنا بقولك بعدَ شواهد كثيرة فى مسألتين :

(1) مسألة استعمال « احترم »(★★) بمعنى وقَّر ، وقلتَ إنك لم تجدْها إلا فى متن (أساس البلاغة) من متون اللغة ، وقلت لى بعده « أفترى استعمالَها خطأ » . . إلخ . سبحان اللّه! أأنا لا أحتجُّ بأساس البلاغة ؟ إلا أننى أخبرُك بأنَّ الاحتجاج به عندى فوق الاحتجاج بالقاموس المحيط ولسان العرب ، وهو أدق منهما وأصح نقلاً ، ولا أعرفُ أحدًا ممن تُسميهم المتنطعين لا يحتج به . على أننى لم أجد الكلمة فيه ، وأما استعمالُ البوصيرى لها فى البردة أو غير البردة فلا قيمةَ له البتةَ ، وأعلمُ منه الفقهاءُ ، وهم يستعملونها .

(2) مسألة ﴿ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام : 137] . وهذا أرجو أنْ تُراجِعَ ما قلتُه فى تفسيرها فى صفحة 124 - 126 من الجزء الثالث من تفسير المنار ، وتُراجع أيضًا ص16 وص184 منه .

(★) لا جرمَ أنَّ فى القرآن استعمالاتٍ هى مما يَدْخُلُ فى اللغات الضعيفةِ ومما يخالفه المشهورُ . ولكنِّى لم أجدْ فى القرآن لغةً إلا وجدتُ من العرب الجاهليين من نطق بمثلها . وأنا على مذهب أنَّ اللغات المرجُوحة لا يجوز هجرُها ، وأنها تُؤتى التعبير سَعَةً هى عينُ المصلحةِ لها . وكما أنّه فى الشرع « يحب اللّه أنْ تُؤْتَى رخصه كما يحبُّ أن تُؤْتَى عزائمه »[1] كذلك فى اللغة يحسُن أنْ نأتى باللغات الضعيفة فى الأحايين لنثبت أنها موجودة ، وإنْ كان المشهورُ خلافَها .

(★★) لم أجد « احترم » بمعنى وقر وتهيب فى كتب اللغة إلا قولَ الفيومى فى المصباح المنير « والحرمة المهابة ، وهذه اسم من الاحترام مثل الفرقة من الافتراق » وقد ورد فى « أقرب الموارد » للشرتونى هذا الفعلُ وورد معه مثل « لا تحترمْ فتحترمَ » أى لا تهبْ فلا تنال . ولا أعلم عمن نقلَ الشرتونى ذلك ، غيرَ أنى أتذكر أنه قال لى فى أحد مجالسه الكثيرة معى إنه رأى هذه اللفظة فى كلام الزمخشرى ! ومن هنا جاءَنى الظنُّ بأنْ يكونَ الزمخشرى أوردها فى « أساس البلاغة » ، والحال أنها غير واردة فيه فى مادة حرم كما قال السيد رشيد .

---

(1) **انظر** : صحيح ابن خزيمة : 950 ، ورواه الطبرانى فى الكبير : 11/ 323 .

من الشواهد أو المثل التى ذكرتَ وجوب التوسع فيها بالخروج فى صفة مسمياتها عن أصل اللغة كلمة « بيت » ، وقلت إن أصله بيت الشعر ، والصحيح أنَّ العرب استعملته فى الجاهلية والإسلام فى بيت الحَجَرِ وغيره ، ومنه بيت اللّه ومنه ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 33] . و(بيوت النبى) كانت من الحجر ، فإنْ قلتَ إنَّ الأصلَ الأول فى استعماله لبيت الشَّعر(★) لأن البداوةَ مُقدَّمةٌ على الحضارة (قلتُ) إن مثلَ هذا الأصل فى تاريخ اللغة لا مدخل له فى الموضوع ، فإنَّ استعمال العرب له فى هذا ، وهذا يكون به كلٌّ منهما من صميم اللغة السماعية ، لا يصحُّ شاهدًا ولا مثالاً على التسامح والتوسع ، ولكنَّ أصل القاعدة التى فرَّعت عليها هذا صحيحٌ ، وهو أنَّ الاسمَ الموضوع لمعنى من أجناس الأشياء لا يُشترط فى صحة استعماله فى أنواع الجنس ولا فى جزئياته أنْ تكونَ بالصفة التى كان عليها المسمَّى عند وضع اللغة ، وهذا لا خلافَ فى صحته ، ومثلُه فى قواعد أُصول الشرع الأحكام الواردة فى أجناس الأشياء ، لا يشترط فى صحتها أنْ يكونَ ذلك الجنسُ فى مادته أو صفته مثلَ الذى كان فى زمن الشارع ، ومثالُه المسح على الخفين والجوربين فى الوضوء وعلى العَمامة أيضًا لا يُشترط فيه أنْ تكونَ هذه الأجناسُ مثلَ التى كانت فى زمن الشارع ككون النسيج قطنًا أو صوفًا . . . إلخ .

وجملة القول أننا انتهينا من هذه المسألةِ بأنَّنا على خلافٍ مذهبىٍّ فيها ، فكثيرٌ من الاستعمال جائز على مذهبك بوجه من الوجوه التى ذكرتَها ، وهو غير جائز على مذهبى ، ويقول الفقهاءُ إنه لا يُعترض بمذهب على مذهب ، ولكنْ يَصِحُّ الاعتراضُ على أصول المذهب وأدلته ، وحسبُنا مِن هذا ما أشرْنا إليه . وأخبرُكَ بأنَّ هذه المسائلَ كلَّها قد كانت موضوعَ مناقشات طويلة عندنا فى المجمعين اللغوّيين اللذين ألفناهما

(★) نعم جاء تعريفُ البيت فى كتب اللغة بأنه البيت من الشَّعر ، قال فى لسان العرب : البيت من الشَّعر ما زاد على طريقة واحدة يقع على الصغير والكبير اهـ . ثم قال بعد ذلك : « وقد يُقال للمبنى من غير الأبنية التى هى الأخبية : بيتٌ ، والخِباء بيتٌ صغير من صوف أو شَعر ، فإذا كان أكبر من الخِباء فهو بيتٌ ثم مظلة إذا كبرت عن البيت » وقد ورد هذا التعريفُ نفسُه فى القاموس المحيط ، ولكنَّ الزبيدى نقل فى الشرح عن ابن الكلبى أنَّ بيوت العرب ستة : قُبَّة من أدم ، ومظلة من شعر ، وخباء من صوف ، وبجاد من وبر ، وخيمة من شجر ، وقُنَّة من حجر ، وسوط من شعر وهو أصغرها . وقال البغدادى : الخباء بيت يُعمل مِن وبر أو صوف أو شعر ، ويكون على عمودين أو ثلاثة ، والبيت يكون على ستة أعمدة إلى تسعة . اهـ .

هنا ، ولا سيما الأوّلُ فقد كان من المتشدّدين فى المحافظة على النقل والقواعد حفنى بك ناصيف والشيخ أحمد الإسكندرى ومن الواقِفين على الطرف المقابلِ الدكتور صروف وغيره ، وكنتُ أنا والشيخُ أحمد إبراهيم فى الوسط . وليس من موضوع الخلاف فى القواعد مسألة أسماء الفاعل والمفعول بضوابطها المعروفة . وأما الشىء الذى لا أعرفُه من خواصّ الكُتاب تركُ الفصيح الذى لا خِلافَ فيه إلى الشاذِّ أو غير الفصيح أو ما لا يصحُّ إلا بِضَرْبٍ من التوسع أو التأويل من غير حاجة إلى ذلك .

(المسائل) مسألة الإذن للسيد على باعبود بترجمة « لماذا » إنْ كان يُترجم ويَطبع فلا مجالَ للتوقف فى الإذن له ، وإنْ كان لا يَطبُع ولا يَكْفُلُ مَن يَطبُع الترجمةَ فالأولى أنْ نستشيرَ الشيخ محمد بسيونى عِمران ، فإنّه أولى بالترجمة إنْ كان يُريدها ، وهو الذى ترجَم رسالةَ (الصَّلب والفداء) ، وهو الذى اقترح عليك كتابة « لماذا » .

(مسألة تاريخ الإمام الأوزاعىّ) لم أرَ هذا التاريخَ فأحكم بجدارته بالطبع ، ولكن من ذا الذى يريد طبعه ونحن عاجزون عن طبع كتبنا ؟[*] .

(*) كنتُ اطلعتُ على هذا الكتابِ فى مكتبة برلين الملُوكية فَنَسَخْتُهُ بالفوتوغرافية ثم طبعتُه فى مصرَ بمطبعة البابى الحلبى ، وجعلْت له مقدمةً ووضعتُ فيه تراجمَ الإمام أبى عمرو الأوزاعى ، وعلّقتُ حواشىَ عليه فى تراجم الأعلام الذين ورَد ذكرُهم فيه ، وهم كثيرون ، وقد قمتُ بهذا خدمةً لذكرى الأوزاعى الذى كان يُقال له إمامُ أهل الشام ، وكان العملُ بمذهبه فى الشام وفى الأندلس ، وكان إمامًا لأجدادنا وبجوار مقامه مدفونٌ كثيرٌ منهم . ولكنْ لم أعثر فى النسخة التى عثرتُ عليها ببرلين على اسم مؤلفه ، بعد أنَّ طبعتُ الكتابَ جاءنى من الأستاذ السيد محمد علال الفاسى أنّه اطلع فى فهرس دار الكتب المصرية على نسبة هذا الكتاب ، وأنه تأليفُ الحافظ الكبير شهابِ الدين أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمد المعروفِ بابن حجر الكنانىّ العسقلانىّ الشافعىّ المتوفَّى فى شهر ذى الحجة سنةَ 852 ، فرغَ من تأليفه فى اليوم الخامس عشر مِن شهر اللّه المحرّم افتتاحَ سنة 850 ، وأنه نسخة من مجلد مخطوط بقلم معتاد بخط عبد الغنى بن عبد الرحمن البنداق ، فرغ من كتابتها فى اليوم الثانى عشر من شهر رمضان سنة 1293هـ .

قال لى السيد علال حفظه اللّه : وقد تعجبت كثيرًا من هذه النسبة لأن الكتاب من الوجهة الحديثية ليس فى مقام الحافظ ، وراجعت بعض من ترجم لابن حجر فلم أرَ من نسب له كتابًا بهذا الاسم ، ورغم كونى أعلم ما نقله السخاوى من أنه سمع ابن حجر يقول : لست راضيًا عن شىء من تصانيفى لأنى عملتها فى ابتداء الأمر ، ثم لم يتهيأ لى من تحريرها سوى شرح البخارى ومقدمته والمشتبه والتهذيب ولسان الميزان . . إلخ . فلم أطمئن إلى هذه النسبة من حيث كونها تدل على أن هذا الكتاب فرغ منه قبل وفاته بسنتين ، وهو إذ ذاك قد بلغ غايته فى العلم والتحرير ، وأيًّا ما كان فيجب التثبت من هذه النسبة والتحفظ فيها على ما يظهر لى واللّه أعلم . اهـ .

أما اسم ناسخ الكتاب عبد الغنى البنداق فهو معروف عندنا ، وآل البنداق عائلة من أشراف بيروت .

(مسألة الكرم والخمرة) ما قلته أنت فيها حسن بالإجمال ، ولكنَّ الذى ينبغى نشره بالتفصيل يتوقف على مراجعة كتب الفقه ، وسأراجع إن شاء اللّه قريبًا لأمر يتعلق بغير المسلمين فى المسالة . وأما مسألة 95 فإنما وقفنى فيها خاصة بقولك « فكانت كأن لم يكن من جهة نفوذ الهواء » فهذه عبارة لم أفهم معناها ، ولا عرفت وجه إعرابها فهى معقدة بحسب فهمى[*] . والسلام عليك وعلى نجلك النجيب .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 28 جمادى الأولى سنة 1350 :

سيدى الأخ الأمير المجاهد الكبير

اليوم أتنفس الصَّعَداء ، وأُلقى عن كاهلى عبء حمل أَئِطُّ[1] من ثقله منذ ربع قرن ونيف ، وهو تاريخ شيخنا الأستاذ الإمام - قدَّس اللّه روحه - فقد تم تحرير آخر ملازمه وتصحيحها أمس ، وتطبع مقدمة التصدير اليوم والخاتمة غدًا - إن شاء اللّه تعالى - ويتلوهما الفهرس أو الفهارس ، ويبلغ المجموع زهاء 140 ملزمة ، وهو يزيد أو يبلغ ضعفى ما كنا نقدره عند البدء به ، وبقىَ لدىَّ كثير مما كان يجب أن يكتب أرجأته إلى الذيل[2] .

واليوم أُخرج نفسى من الحبس الذى حبستها عليه منذ أشهر ، وهو أن لا أكتب شيئًا قبل إتمام هذا التاريخ ، فأبدأ ببشارتك بإتمام العمل الذى يسرك والاعتذار لك عن ترك الكتاب إليك على كثرة حقوقك ، وسأقرأ غدًا - إن شاء اللّه تعالى - ما أرسلته إلىَّ من القصاصات التى بينت فيها رأيك فى مسائل اللغة التى تجاوبنا

(*) **على الحكاية أى** : فكانت كالشىء الذى يقال فيه : كأن لم يكن .

(1) **أطّت الإبل من تعب أو ثقل** : أَنَّت .

(2) يبلغ هذا الجزء وحده أى الجزء الأول 1134 صفحة ، ولكن لك أن تقول إنه تاريخ الحركة الفكرية فى مصر والحركة السياسية مدة خمسين السنة الأخيرة إلى وفاة الأستاذ الإمام .

وتجادلنا فيها ، فقد جاءت فى زمن الحبس الذى انتهى ولِلّه الحمد . وربما يتيسر لنا تجليد بعض نُسخ التاريخ فى الأسبوع الآتى بعد طبع الرسوم الشمسية له ، وقد اقترح علينا اليوم أن نزيد عليها رسوم مكتوبات سعد باشا للشيخ الإمام التى عندنا ، وليس فيما طبع إلا واحد منها . هذا ، وإنى منتظر كتابًا منك فى المسألة السورية(★) التى بث دعايتها الملك فيصل ورجاله فى الإسكندرية وسورية وكان وفدكم من أركان سعيه فيها ، وعسى أن يصل ما تتفضل به علىَّ قبل وصول فارس بك الخورى إلى هنا . والسلام عليك وعلى نجلك النجيب .

أخوك رشيد



وكتب إلىَّ فى 16 جمادى الآخِرة 1350 و 28 أكتوبر 1931 :

سيدى الأخُ الأميرُ والمجاهدُ الكبيرُ أيَّد اللّه به السياسةَ والأدب ولغةَ العرب

تحيةً وسلامًا . أما بعدُ فقد أُلقى إلىَّ أمسِ كتابُك الكريمُ وعلاوته السياسية التى هى أكبر منه (أو ملحاقه كما يكتب النجديون) ومِن حُسن الحظّ أنْ كان السيد عاصم عازمًا على السفر اليومَ فأخَّرتُه فوق تأخُرِه إلى الآن ، وهو يكتب لك الآن كشفًا بما وُزِّعَ من

(★) هذه القصة طويلة خلاصتها أننا نحن – أعضاء الوفد السورى الفلسطينى – كنا نتذاكر مع المرحوم فيصل فى المسألة السورية فكان يريدنا على مساعدة أخيه الملك على أن يكون ملكًا على الشام ، فقلنا له : إن هذا لا يتأتى منا لأنه يكون مخالفًا لقرار إخواننا رجال الكتلة الوطنية الذين قرروا أن تكون حكومة سورية حكومة جمهورية ، وأنت نفسك إذا مضيت فى هذه السياسة تقع فى مشكل بين أخيك وبين الوطنيين السوريين ، وبعد أخذ ورد قلنا له : إن كان يمكنك أن تقنع الدولتين إنجلترا وفرنسا بعدم الاعتراض على توحيد العراق وسورية فى مملكة واحدة ذات قطرين كما كانت النمسا والمجر فلا شك أن السوريين يعدلون عن الجمهورية ويبايعونك أنت ملكًا على سوريا كما أنت ملك على العراق . ولكن فى هذه الحالة يجب على العراق وسوريا عقد محالفة مع المملكة العربية السعودية تعترف أنت فيها بالأمر الواقع فى الحجاز . فهذا هو البرنامج الذى كنا نحن الواضعين له لا الملك فيصل . وكان مرادنا به وضع الحجر الأول لبناء الوحدة العربية . فوقع لنا من المعاكسات ما وقع ، وقيل إننا نعمل لأجل فيصل شخصيًا ، وانبرى أُناس كثيرون من العرب لمعارضة هذا المشروع الذى كان الترك والإفرنج يحسبون له ألف حساب ، فكانت هذه المعارضة من أعجب العجب . ولكن لم يمض على هذا أكثر من خمس أو ست سنوات حتى رجع الجميع إلى القول بوجوب تحقيق الوحدة العربية وعقد ملك الدولة السعودية المحالفة التى عقدها مع الدولة العراقية ، وظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

الرسالة ، وهى على وشك النفاد وبالرحلة والذى وُزِّع منها قليلٌ بسبب العُسرةِ الملقيةِ الخناقَ ، الشديدَ الوثاقِ ، وبلوغها حدًّا ما لا يُطاق - وبخلاصة الحساب .

فأمّا بيانُك فى المسألة السورية فَيُغنينى عن إطالة رأيى فيه الاعترافُ باتباع أمير البيان ، فنظرياتُك فيه كلُّها صحيحة ، وآراؤك فيه راجحةٌ غيرُ مرجوحة والمصالح السياسية ليس فيها عَداوةٌ ولا محاباةُ شخصيةٌ ، ولكنَّ الأخبار فيها يحتاجُ بعضُها إلى تحقيق وتمحيص ، فإصرارُ فرنسا على إبقاء سواحل البلاد كلِّها بيدها وجعلِ سياستها فى العلويين شرًّا من سياستها فى البربر لا تَدُلُّ على جُنوحها لجعل سوريا كالعراق . ثم إنَّ المفهومَ من جعل فيصل ملكًا للعراق وسوريا معًا لا يَدُلُّ على توحيد المملكتين بتوحيد مَلِكها ، فمن أين جاء هذا الحكمُ الذى كثُر التعبيرُ به ؟

إلى أن يقول : وأما ما كتبتَ فى المسألةَ اللغوية بجريدة الأخبار(★) فمنه ما هو قطعى لا مِراءَ فيه ككون معاجِمها المعروفةِ لم تُحْصِ مفرداتها السماعيةَ فضلاً عن القياسية ، وكونِ ما صحَّ عن النبى ﷺ وأصحابه يُعَدُّ من صميم اللغة نُقِلَ فى المعاجم أو لم يُنْقَلْ . ومنه ما فيه بحث وتفصيل كالمنقول عن فصحاء المقلِّدين ولا سيما المتقدمين منهم ، فهو على كونه لا يُحتجُّ به على عربية ما انفردوا به قسمان : (**أحدُهما**) ما خالف القياسَ فهذا لا يُمكن قَبولُه على عِلاَّته ، وَعدُّه من اللغة بغير سماع يؤيِّد صحةَ أصله على الشذوذ عند العرب ، إلا أنْ ينعقد مجمعٌ لغوىٌّ يُقَرِّرُ بعضَ ذلك بأنْ يجعلَ بعضَ أوزانِ الأفعال أو جموعِ التكسير أو التضمين قياسيًّا بقيود يُقَرِّرُها أو إطلاق فى بعضها . (**وثانيهما**) ما لا يُخالف قياسًا مُقَرَّرًا بل غايتُه أنَّه لم يُسمع « كتقلَّق » ، فالراجح فى هذا عندى أنه من أصل اللغة المسموع الذى لم تَنْقُلْهُ هذه المعاجمُ وربَّما نقله غيرُها ، بل أنا أعتقدُ أنَّ كلَّ ما يَنطق به عوامُّ العرب إلى هذا العهد مما لم يَسْرِ إليهم من الأعاجم من المفردات فهو مما تناقلوه عن العرب الأوَّلين

(★) كنتُ كتبتُ فى جريدة (الأخبار) مقالةً فى اللغة جئتُ بعدها بمقالة ثانية ثم بمقالة ثالثة فى مجلة المجمع العلمى العربى ، مآلُ ذلك كلِّه أنْ ليس للغة قاموس محيط بها كلَّ الإحاطة ، وأنه قد وُجد ألفاظٌ عربيةٌ صحيحةٌ فصيحةٌ ثَبَتَتْ فى الآثار وفى الشعر الجاهلى ولا تزال نادَّة عن كتب اللغة ، فمِن هنا لا يجوزُ أنْ نَنْفِيَ من اللغة كلَّ لفظة لا نجدُها فى المعاجم التى فى أيدينا .

على تحريف أو تصحيف فى بعضه أو أكثره .

ومن العجيب أنْ رأيتُك ذكرتَ من الكَلِمِ الذى عثَرتَ عليه فى كلام الفصحاء ، وهو مما فات المعاجم ، « تصاغرت » و« استركبه » و« هاجروا وإلا تهجَّروا » و« خطب الناس » أو القوم . وكلٌّ هذه موجودة فى (أساس البلاغة) .

فى 17 جمادى الآخِرة سنة 1350 :

وأما ما يُذْكَرُ فى مثل (تاج العروس) فى تفسير كلام المصنف أو غيره فهو دون ما يُؤثَر عن بلغاء المولَّدين المتقدمين كأبى نواس والمتنبى ، فإنَّ هؤلاء وكثيرًا من العلماء الذين قبلَهم يستعملون ما راج فى عصورهم من الكلام العرفىّ المستمَدِّ من العامية ، فالإمامُ الرازىُّ الذى ألّف فى علم البلاغة ولم يقتصر على العلوم العقلية والتفسير أكثرُ خطأً فى لغته من الكتّاب المجيدين فى عصرنا وكذا ممن دونَهم ، وكثر غلطُه فى الأسلوب وتركيب الكلام . ومن المعلوم أنَّ العلماءَ قد استحدثوا فى العلوم والفنون الشرعية والعقلية واللغوية كَلِمًا واصطلاحاتٍ وتراكيبَ غيرَ عربية الأصل ، والأصل فيها أنْ تقصر على ما وُضعت له ولا يُفَسَّرُ بها الكلامُ العربى الصميم ككلام اللّه ورسوله والعرب الخُلَّص ، فمن اصطلاح المنطق (قد يكون وقد لا يكون) ، و(قد) لا تدخل على النفى ، فيجبُ أنْ يقفوا فيها عند ما اضطروا إليه من جعلها سورًا جزئيًا للقضية الشرطية السابقة . ومنها السؤال عن حقيقة الماهية بما هو كذا ؟ والتفرقة بينه وبين أىّ شىء هو كذا ؟ وهذا التخصيص ليس بعربى ولكنَّهم حكَّموه أحيانًا فى تفسير كلام اللّه تعالى كقول فرعون لموسى عليه السلام ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : 23] ، فوقعوا فى تحريف القرآن . وقد نبهتُ على هذا فى التفسير مِرارًا ، وخطأتُ الرّازى فى مواضعَ منها تفسيرِه كلمة (إله) بمعنى لفظ الجلالة (اللّه) أو بمعنى كلمة (الرَّب) .

ومن استعمالِ علماء المعقول المخالفِ للقياس النّسبةُ إلى الطبيعة بلفظ (طبيعىّ) ، وقد خطَّأهم فيه المدقِّقون من متأخرى عصرنا ، وتركوه للقاعدة فى النسبة إلى فَعيلة بفَعَلىّ . ولكنَّ الأولَ هو الأصلُ الأصيلُ فى القياس ، والثانى خروج

عنه بالسماع من العرب لكثرة شذوذهم فى باب النِّسبة ، ولكنْ سُمع منهم سليقىّ(★) ، فلعلَّ علماءَ المعقول ، ومنهم أشدُّ علماء الفنون العربية تدقيقًا (كالسعد التفتازانى والسيد الجرجانى والشيرازى وأمثالهم) - قام عندهم الدليلُ على استثناء النسبة إلى الغرائز ؛ فإنَّ الطبيعة كالسليقة . وغرضى من ذكر هذا أنَّ الاقتداء بكبار العلماء فى الخروج عن القياس المقرَّر فى كتب اللغة وفنونها لا يَصِحُّ أنْ تُطْلِقَ الرخصةَ فيه تجنُّبًا لوقوع الفوضى فى اللغة المفضى إلى إضاعتها ، وإنَّما يجبُ أنْ يُناطَ تقريرُ ما يَصِحُّ منه وما لا يَصِحُّ بمجمع لغوى يكون مُنضبطًا يَرجع فيه إلى أصلٍ .

هذا ، وإنه قد حان موعدُ خروجى لأمر ضرورى ، وإنى لآسف لأنّنى لم أستطع الكتابة فى هذا الموضوع فى وقت واسع . وقد علمتُ من السيد عاصم أنه حرّر لك حسابَ الرسالة والكتاب . والسلامُ عليك أوّلاً وآخِرًا وعلى نجلك النجيبِ ومن تَلْقَى من المحبين .

أخوك محمد رشيد رضا

وكتب إلىَّ فى 8 رجب 1350 و 18 نوفمبر 1931 :

سيدى الأخ الأميرُ والمجاهدُ الكبير

أُحييك تحيةً مباركة طيبة ، ولو قلتُ فى هذه التحية سلامًا لما كان قولى إلا مقتبسًا من قول اللّه عز وجل فى أهل الجنة ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [يونس : 10] . وقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة : 25 - 26] ، وأنت أَجَلُّ وأكرمُ ممن يخاطبون بسلام المتاركة مِن أَحَدٍ يَعْرِفُ الفضلَ لأهله ، فكيف بأعرفِهم بفضلك وأبلغِهم تنويهًا بحمدك وشكرك . وقد أُلقى إلىَّ كتابك الاقتصادى فَسررتُ جدّ السرور بخُطتك العملية فى القصد فى المعيشة الذى توجبه العسرةُ الحاضرةُ ، وقد سبقتُك إلى مثلها من كلِّ وجه . وحسابُ الإدارة عندك لا يخطرُ فى

(★) وَلَسْتُ بِنَحْوِىٍّ يَلُوكُ لِسَانَهُ ⁂ وَلَكِنْ سَلِيقِىٌّ أَقُولُ فَأُعْرِبُ

انظر : شرح الأشمونى : 3/ 732 ، وشرح التصريح : 2/ 331 ، وهو بلا نسبة .

بالى اتهامُك بالتقصير فيه ، بل لم أُفكرْ فيه قطُّ ، ولم أطلع على تفصيل ما كتبه إليك السيد عاصم إلا أنه قال لى قبلَ سفره إنه لم يبقَ فى المطبعة إلا زُهاء 150 نسخةً من رسالة (لماذا) ، وسأعيد الإحصاء ومراجعةَ ما وُزِّعَ منها . ومِن المؤسِف أنَّ بعضَ الطرود التى جهَّزها لمَّا يُرْسَلْ لعدم الدراهم ولموت التاجر الذى كان يتولى الشَّحنَ فى البحر من السويس وبور سعيد وتَوَقُّفِ مَحلِّهِ ، وقد خابرنا غيره ممن يَتَوَلَّوْنَ ذلك ، فكان هذا مما زادنى شغلاً لم أتعوده على أشغالى ، وقد زادت حكومتُنا أُجورَ البريد كلِّها . وقد أرسل إلىَّ أبو الطيب العقبى من الجزائر خمسمائة فرنك أمكننى بيعُها بخمسمائة قرش ، وهى ثمن الخمسين التى أُرسِلَتْ إليه من رسالة « لماذا » كما يقول ، وإنّما هى الثمنُ الكامل لمائة نسخة ، فما فُقِدَ مما أرسلناه إليه حين كان فى بسكرة قد عُوِّضَ مضاعفًا .

هذا ، وإن ما تتفضَّلُ به من تقريظ تاريخ أستاذنا كلِّنا سأنشرُه فى جريدة الجهاد قبلَ المنار ، فالمرجوُّ أن لا يكونَ مشوبا بالمسألة اللغوية ولا السياسية . والسلامُ عليك أوّلاً وآخِرًا من أخيك المخلص .

محمد رشيد رضا

(حاشية) : الدَّينُ الذى علىَّ يَزيد على ألف ومائتى جنيه(★) ، وهو مقسَّط على

(★) قد أثبتنا فى هذا المجموعِ كثيرًا من كتابات الأستاذ المتعلِّقة بأزمته المالية وذاك عمدًا منّا حتى يعلمَ الناسُ أنَّ رجلاً هو فى مقدمة خادِمى الإسلام فى هذا العصر وفى كلِّ عصر ، بعدَ أربعين سنة من جهاده المتواصل كان مدينًا ، وكان بيتُه مرهونًا ، وكان فى ضَنْكٍ شديد من جهة معيشته ، لا سيما أنه كان مبسوطَ اليد معتادًا من صغره الإنفاقَ وإكرامَ الضيوف ، وما زال الأستاذ فى هذا الضنك إلى أنْ توفاه اللّه إلى رحمته ، فَوُجِدَ عليه بعد موته من الديون ما يَزيد على أَلْفَىْ جنيه ، ولا يزال البيتُ مرهونًا ، ولا تزال العائلةُ تسعى ، ونحن نساعدُهم لأجل بيع خِزانة الكتب الخصوصيّة لعلَّهم يُوَفُّونَ بثمنها أحدَ الأقساطِ المستحَقَّةِ على البيت ، وقد بلغ بهم الخناق أنْ طرحوا للبيع الأملاكَ المتروكة عن السيد فى بلدته القلَمون . فتأمّلوا يا أُولى الألباب فى مآلِ هذا الرجل الذى خدم الإسلامَ تلك الخدمةَ الجُلّى التى قلَّما وُفِّقَ إليها أحدٌ فى العالم الإسلامى ، وتأمّلوا فى بهتان أولئك الذين كانوا يتقوَّلون عليه أنواعَ الأقاويل ، ويتهمونه بالطّمع فى المال وبقبض الأموال الطائلة من ابن سعود وغيره . وهذا فى الغالب عند أبناء هذه الأمة جزاءُ العاملين[1] .

---

(1) عانى الأمير شكيب أرسلان أيضًا من عسرة مالية شديدة ، اضطرّته إلى مراسلة بعض أصدقائه ليقرضوه . (**انظر** : من أمير البيان : ص60) .

أشهر متقاربة بكمبيالات ، وأهمُّ منها زُهاءَ أربعمِائة جنيه قسطُ الدار السنوىّ ، يُسْتَحَقُّ فى أول يناير ، وليس أمامَنا الآن موردٌ إلا تاريخُ شيخنا إذا سخَّر اللَّه لنا مَن يساعدُنا على توزيع مقدار كبير منه كما وعدنا بعضُهم . وسأرسل ما تأخَّر من المطلوب إلى مرسيليه . وأما ما طلبتَ لنفسك فقد أُرسلَ ، ولعلَّه وصل .

★ ★ ★

وكتب إلىّ فى 14 شعبان 1350 و 24 ديسمبر 1931 :

سيدى الأخ الأميرُ

عدتُ من القدس فوجدتُ أكثرَ من فى الدار مصابين بالنزلةِ الوافِدةِ ، ووجدتُ نُذُرَ الكمبيالات المتعدّدة مُتوعِّدَةً مُهَدِّدَةً . (إلى أن يقول) :

كتب إلىّ الشيخُ محمد بسيونى عِمران أنَّ ترجمةَ رسالةِ « لماذا » وطبعَها قد نبّه الحكومةَ الهولندية إلى مصادرتها والبحث عما يتعلَّقُ بها ، وهو خائف على نفسه من عاقبة ذلك . وقد وصل إلىّ فى القدس برقيةٌ من حضرتك وحضرة الأخ إحسان بك بالتعزية عن الوالدة ، فعلمتُ منها أنّكم لم تعلموا بوفاتها إلا من جزء المنار ، وإننى على شكرى واغتباطى بأخوتِكما وعطفِكما أقولُ إنَّ البرقيةَ كانت من نوافل العناية ، أطال اللَّه لى وللأمة بقاءكما . والسلامُ .

أخوكم رشيد

(**حاشية**) متى خَفَّ الحِمل عنى بعودة السيد عاصم أجمعُ لك أوراقَ رسالة « لماذا » وأُرسلُها إليك إنْ شاء اللَّه تعالى . وقد قرأتُ مقالَتك التى نُشرتْ فى الجهاد ردًّا على . . . . وإنه لردٌّ مُحَكَمٌ مُلْزِمٌ مُلْجِمٌ مُفْحِمٌ كأمثاله من بَيِّناتك .

★ ★ ★

وكتب إلىّ فى 13 رمضان 1350 و 21 يناير 1932 :

سيدى الأخ الأميرُ

أُحييك وأُحيى زميلَك الجابرى ، وأهنئكما بشهر الصيام . وقد وصلتْ أولَ من

أمسِ برقيتُكما ، وتلاها وصولُ كتابك أمسِ ، وأُعَجِّلُ بهذه الكلمة الوجيزة ، وستجيئنى بعد نصف ساعة سيارةٌ تحملُنا إلى الجيزة للإفطار عند أحد الأصدقاء ، فلا وقتَ للتطويل ، والتفصيلُ فيه موقوفٌ على اجتماعٍ مع بعض إخواننا السوريين ، منهم الدكتور قدرى قنصل العراق للمذاكرة فى المسألة المفصَّلَة فى الكتاب ، والمُمَهِّدِ لها بالمقالات الكثيرة ، وقد كتبتُ قبل هذا كتابًا مطوَّلاً فيها للأخ نبيه بك العظمة ، وهو فى القدس ، ويُراسلُ إخوانَنا فى دمشقَ وبيروتَ . وأنا كتبتُ إليك قبلَ سفرى إلى القدس وبعدَه بأننى موافقٌ على الاتحاد الذى تدعو إليه ، وإنما كتبتُ أولاً أنَّنى لا أَعْقِلُ أنْ تكونَ فرنسا راضيةً به(★) وقلتُ آخِرًا ، ولا أزال أقول ، إن السعىَ المرجوَّ له غيرُ واضح ، وهو ما سنبحثُ فيه هنا ، والدكتورُ شهبندر موافق لنا على العود إلى السياسة السلبية ، ولكنَّ حريّته هنا أضعفُ من حريتنا ، وفرنسا مُتفقة مع الحكومة المحَلّية هنا . وأما الأمير ميشيل فلا يشتغل فى المسألة ، وأنت تفهمُ تعليلَ ذلك . وقد أخذ أسعد أفندى داغر برقيتكما لِيُطْلِعَ الدكتورَ عليها ، ويذاكره فيما ينبغى أنْ نعملَ معه بالتعاون بعدَ الصلح بينى وبينه ويعود إلىَّ .

أُعيدتْ إلينا النُسَخُ التى أَرسلناها إلى جيبوتى لمنع فرنسا لها من كلِّ بلادها ، وعلى كلٍّ منها غرامةٌ للبريد . والسيد عاصم يُعيد كتابة حسابٍ مفصَّلٍ لك ، وهو يُسلِّمُ عليك تسليمًا .

رشيد



وكتب فى 11 شوال سنة 1350 :

سيدى الأخُ الأميرُ والمجاهدُ الكبيرُ

إنى أُلقى إلى كتابك فأثَّرت فى قلبى تهنئتُك إياى بالعيد ودعاؤك لى فيه بالعمر

(★) لو كانت الأمة العربية أجمعت عليه لكانت فرنسا على الأرجح قد رضيت به واختارت سياسةَ تقوية العرب فى وجه الترك الذين لا تجهل فرنسا أطماعهم فى سورية ، ولكنْ ظهر من العرب مع الأسف مَن عارضوا هذا الاتحادَ السوريَّ العراقيَّ أشدَّ المعارضة ، بل أشدَّ من معارضة الترك والأوروبيين ، فلم يبقَ داعٍ أنْ تكونَ فرنسا عربيَّة أكثرَ من العرب أنفسِهم .

المديد الرغيد ، ذلك كلُّه من قلبك الطاهر الممتلئ بالحبّ الصادق والإخلاص والإكبار لأخيك ، كأنك تراه بأكبر الآلات المكبِّرة ، فترى بَرْغُوثَهُ فيلاً كبيرًا وحُبَاحِبَهُ[1] قمرًا منيرًا ، فأسألُ اللَّه تعالى أنْ ينفعه بحبك ودعائك وولايتك وإخائك ، وأنْ يُطيلَ له وللأمة فى عمرك وينفعَهما بعلمك وعملك ، ويديمَ علينا نِعَمَ الصحةِ فى الجسم والعقل والقوةِ فى العلم والدين والغنى عن الناس والتعاونِ على البر والتقوى . ووصل أولَ من أمسِ كتابُك الوفديُّ الموقَّعُ بإمضائك وإمضاء الأخ الجابرى إلى أسعد أفندى سكرتير لجنتنا ، فأعجبتنى الكلمةُ الأخيرةُ منه فى حال إخواننا رجال « الكتلة الوطنية » ، وكلُّ ما فيه حَسَنٌ يُعْجِبُ إلا أنَّ هذه الكلمةَ بيَّنت كُنْهَ[2] حالهم فى خلافهم ووفاقهم ونطقِهم وسكوتِهم ، وما يَحْسُنُ مِن الحكمة فى معاملتهم والسلوكِ معهم ، وهو ما تقترحان على لجنتنا ، ووفدُكم أحقّ به وأولى ، وأنتَ أنتَ أولُ من يطالب نفسَه بهذه الحكمة فى لهجة مقالاته التى فهم بعضُهم منها الدعاية الخاصة[★] التى سبقت الإشارةُ إليها بما كان من تكرارها والإنحاء على مخالفيها ، وقد أحسنتَ فى كتابك إلىَّ إذ قلتَ إنك تُوصَفُ بالتَّكرار ، وصدقتَ فى قولك إنَّ التكرارَ ضرورى فى سبيل الدّعاية ، فإنَّ فى كتاب اللَّه المعجز للبشر ولغيرهم من التَّكرار لمسائل التوحيد والبعث وما دونَها مِن مُهِمَّات الدِّين ما ليس له نظير فى كثرته مع بلاغته واختلاف أساليبه وحلاوتها المثبتة لقولهم : « التكرار أحلى » ، ولكنَّ كلامَ البشر يُمَلُّ بكثرة التَّكرار مهما يكن بليغًا فى مثل موضوعنا ،

---

(1) ذباب يطير بالليل يضىء ذَنَبُهُ .

(2) حقيقة .

(★) أىْ الدعاية لشخص فيصل فى قضية ظاهرُها الاتحادُ السياسىُ بين سوريا والعراق (سبحانك هذا بهتان عظيم) ، إننا ما قصدنا إلا تقويةَ الأمة العربية بالاتحاد ، ولم نجعلْه قاصرًا على سورية والعراق ، بل كانَ برنامجنا من البداية أنْ يكونَ ابن سعود داخلاً فيه بصورة محالفة عسكرية اقتصادية سياسية ، وعلى شرط اعتراف فيصل بالأمر الواقع فى الحجاز ، وأنْ يشمل هذا الاتحادُ العربىُ اليمن أيضًا ، وفيما بعد سائر إمارات الجزيرة . فكان جزاؤنا على هذا المشروع ما كان مما لا نُفيض الآن بذكره . ولكنَّ اللَّه انتقم بعد زمن قصير ، وأَظهرَ الحقَّ ، وأشعرَ العربَ أجمعين أنَّ اتحادَهم هو الواقى الوحيد من مصيرهم نَهْبًا مقسَّمًا بين الدُّوَلِ الفاغراتِ أفواهَهن من كلِّ جانب .

وناهيك به إذا أسيء تأويلُه ، وَاشْتَبَهَ على بعض الناس دليلُه ، وقَبُحَ مِن بعض دُعاته تصويره وتمثيلُه .

إنَّ صديقنا الدكتور قدرى قنصل العراق متَّفق مع الدكتور شهبندر ، وهو من حزب الملك فيصل ، ومع أسعد داغر وهو على اعتداله وديد[1] لفيصل . على أنَّه ليس من المصلحة الآن الدّعاية لتوحيد القطرين والوطنين على ما نعلم ، وهذا الدكتور هو الذى يسعى منذُ بضعة أشهر إلى الصلح بينى وبين الدكتور شهبندر . وقد سافر قدرى قبلَ العيد إلى سورية فالعراق ، وسيعود قريبًا فيخبرُنا بِكُنْهِ الحال فى كلٍّ من القطرين . ثم إنّ إخواننا الوطنيين يَسْعَونَ ويُمهّدون السبيلَ لعقد مؤتمر عربى فى الربيع الآتى ، ولمَّا يتمَّ الاتفاقُ على الموضِع الذى يُجْتَمَعُ فيه ، وسيكون أحسنَ الفرص لتمحيص مسائلنا هذه كلِّها ، ومنها مسألةُ الخديو ، وقد ظهرت . ولكنَّ حسنَ خالد لم يُتقنْ تمثيلَ فصله فيها إلى الآن بحسَب ما بلغنى من أخباره ، فهو قد كلَّم أولاً نبيه بك العظمة لِيَجْمَعَهُ بالخديو فى القدس ، فلمَّا صارَحه هذا بأنه هو وإخوانهُ لا يُعْنَوْنَ بأمر التيجان والعروش ، وإنما يُعْنَوْنَ بأمر وطنهم ومَن يساعدُهم على تحريره من الاستعمار بسعيه ومالِه ونفوذِه . . . . ترك الجمعَ بينهما . وقد شاع فى آخِر رمضانَ وأيام العيد أنَّ الخديو يسعى ليكونَ ملكًا لفلسطينَ مضمومةً إلى شرق الأردن(★) ، وقيل إن الإنجليز راضون بذلك ، وشاع أنَّ سفرَ رئيس الوزارة المصرية

---

(1) مُحِبٌّ .

(★) المتواتر حتى عن لسان سمو الخديوى نفسِه أنَّه لم يكن يطمح قطّ إلى عرش سوريا لولا دعوةُ مصطفى كمال إياه إلى أنقرة ووعدُه له بمساعدة فعالة لدى فرنسا فى جعلـه ملكًا على سوريا ، وقد كان هذا بعد أنْ سمع مصطفى كمال بمشروع اتحاد القطرين الذى قامت له أنقرة وقعدت ، ففكر رجالها بأنه لا يوجد من هو قدير بماله وحركاته على إحباط مشروع اتحاد القطرين أكثر من عباس حلمى ، فَاسْتَدْعَوْهُ إلى أنقرةَ على حين كانت بينَهم وبينَه وحشةٌ وانقطاع ، وأطمعوه فى عرش الشام ، وأيقن هو أنَّه حائزُه . ولكنَّ فرنسا بالرغم من إصرار تركية بقيت متردِّدةً فى قَبوله ملكًا على سوريا ، وجاءت معارضةُ الملك فؤاد فى ذلك الوقت بشدة زائدة لهذا المشروع حائلاً دونَ تحقيقه . وجَرَتْ مناقشةٌ بين الخديوى السابقِ والحكومةِ المصرية من أجل ترشيح الخديوى نَفْسَهُ مَلِكًا على الشام بعدَ أنْ وقعَ الصلحُ بينه وبين الملك فؤادٍ على أنَّ الخديوى يترك السياسة بتاتًا . فكان الملك يحتجّ على الخديوى بأنَّ ترشيحَه لنفسه مَلِكًا على سورية مخالف لتعهده بترك السياسة . وكان الخديوى يجيبُ بأنَّه إنَّما تعهد فى مقابلة الثلاثين ألف جنيه التى تقرَّرت له من قِبَلِ الحكومة المصرية أن يتركَ السياسةَ فى مصر دونَ غيرها ، فكان جوابُ الحكومة المصرية للخديوى بلسان صدقى باشا : إنَّ هذا الكلامَ =

إلى القدس وسوريا لأجل المسألتين . وقد كنتُ عازمًا على شرح هذه المسائل ، فعرض لى موانعُ ، فاكتفيتُ بهذا الآن . والسلام .

رشيد

★ ★ ★

وكتب إلىَّ فى 17 ذى القعدة 1350 و 24 مارس سنة 1932 :

سيدى الأخ الأمير

حاقت بنا كوارثُ العُسرة فى هذا الشهرِ الشمسى والاضطراب فى المسألة السورية ، وأصدرتُ فيه الجزء الثانى من المنار فلم أُفْرِغْ بالاً للتجاوب معك بالكتاب ، وقد بدأتُ بهذا بعدَ صلاة العصر ، وإذا بالأستاذ الثعالبى وسعيد بك شامل مع آخرين وصلوا زائرين وباحثين فى مسألة لجنة المؤتمر التنفيذية فرأيتُ أنْ ألقاهم قبلَ إتمام الكتاب . .

لقيت الجماعة فوجدتُ معهم حسن حسنى عبد الوهاب من رجال العلم والفنِّ والمالِ والحكومةِ فى تونُسَ ، فتكلَّمنا فى موضوع المؤتمر قليلاً وفى حالة تونس والمغرب كثيرًا . ثم بدا لى أنْ أُرجئ الكتابَ إلى هذا اليوم (السبت 19 ق)[1] ليكونَ بعدَ جلسة اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى وما عسى أن يكونَ فيها مما يجبُ أنْ يُودعَ فى الكتاب ، وموعدها بعد العشاء من ليلة السبت كلَّ أسبوع ، وقد أصبحت المسائلُ التى يجب الكلامُ فيها كثيرةً ، ولا مندوحةَ لى عن الإجمال والإيجاز فيها :

(1) لجنةُ الخديو أو جمعيتُه الجديدةُ المسماة بالرابطة الإسلامية عَجِبْتُ أنَّك لم

= غيرُ وارد لأنَّ سوريا هى أقربُ الأقطار إلى مصر ، والعلاقات بين القطرين لا تحتاج إلى بيان . وما زالوا فى الجدال معه إلى أنْ عَلِمَ كَونَ تركية لا تَقدر على جعله ملكًا على سورية بدون رضا أهلِها ومع وجود معارضة مَلِكِ مصرَ الشديدة . وقيل إنه بعدَ ذلك زَيَّنَ بعضُهم له السعىَ فى عرش فلسطين مضمومًا إليها شرقُ الأردن . ولا نعلم مبلغَ هذا الخبر من الصحة ، وإن كان له أساس فقد نجَّاه اللَّه من ذلك لأنه قد كان يُتَّهمُ بممالأة اليهود ، فكان العرب لا بدَّ لهم من أن يثوروا عليه ، وهو فى غنًى عن هذا كلِّه .

(1) أى : 9 ذى القعدة .

تكتبْ إليَّ شيئًا فى شأنها ، وأنت السَّبَّاق لمعرفة أمثال هذه الأمور ، بَعُدَتْ أَو قَرُبَتْ ، وهذه بين يديك فى جنيف ، ومن مقاصده فيها كما يقول بعضُ المطَّلعين على شئونه خدمةُ مصطفى كمال فى الحيلولة بين المسلمين وبين تجديد الخلافة الإسلامية ، ويدخل فى ذلك غيظُ الملك فؤاد . ويقال إن الملك أَرسل إليه مَن عاتبه فى أنقرة أو الآستانة عندما كان فيها على سعيه لعرش سوريا ، وأنه منافٍ للاتفاق معه ، فأجاب بأنَّ الاتفاقَ خاصٌّ بمسألة مصر ، وهو حرٌّ فيما سواها . ومِن الأخبار الصحيحة التى وقفنا عليها أنَّ الخديو استمال الأميرَ عبدَاللَّه للعمل معه ، والمراسلاتُ مُتصلةٌ بينَهما ، وهو يُطلعه على أسرار . . . بل أعطاه أوراقًا سرّية فى هذا الموضوعِ .

ومن مساعى هذه الرابطة أنَّ سكرتيرَها هو السيد الطباطبائى الذى اختارته لجنةُ المؤتمر الإسلامى التنفيذية سكرتيرًا لها ، وقد كان متردِّدًا فى قَبول العمل فى لجنتنا ، وتوقف عملُ مكتبها على تردُّدِه وغيبته فى أوروبا ، وكان الرئيسُ الحسينى يقول إنّه لا بدَّ أنْ يَجىء حتى إذا ما زار الشابُّ الحازمُ رياضُ بك صلح القدسَ ألجأه إلى إرسال برقية إليه خالصةَ الردِّ ، فجاءَ جوابُها يُرجئ بيانَ رأيه إلى كتابٍ يُرسلُه فى البريد . ومنذُ أيام كتب إليَّ أحدُ إخواننا المطَّلعين أنَّ جوابَه جاءَ بأنَّه سيحضرُ فى آخِرِ شهرِ مارسَ هذا ، ولكنْ يجبُ أنْ يكونَ خبرُه مكتومًا ، والحسينى لم يخبرنى ولا الثعالبى بخبره هذا . ونحن أكثرُ مَن يُكاتبه وأخلصُ أصدقائه . وقد كتبتُ إلى نبيه بك العظمة ، وهو عضوٌ لمكتب اللجنة باختيارها له وليس عضوًا فى اللجنة نفسِها ، بأنْ يخبرَه عن لسانى بأنَّه ليس له أنْ يقبلَ إسنادَ أعمال السكرتارية إليه بدون استشارة أعضاء اللجنة إلا أنْ يترك لجنةَ الخديو . . ولا نَدرى ما سيكون فى هذه القضيةِ ولا هوى الحسينى فيها(★) .

(★) كانت للسيد ضياء الدِّين الطباطبائى رئيسِ حكومة إيران سابقًا معرفةٌ بالخديوى السابق ، فلمَّا تقرّر انعقادُ المؤتمر الإسلامى العام فى القدس جاءت إلى الطباطبائى دعوةٌ من لجنة المؤتمر ، فأَطْلَعَ عليها الخديوى ، فاهتمَّ جدًّا بهذا الأمر نظيرَ اهتمامه بتعيينى ناموسًا عامًّا للمؤتمر الإسلامى الذى كان انعقد فى مكةَ المكرمة ، وأخذ الخديوى فى مذاكرة الطباطبائى عما يُناسب له أنْ يعملَه ليكونَ له كلمة ومكانة فى المؤتمر . ولما كان الطباطبـائى من رجالات الإسلام الذين جَمَعوا إلى الحَمِيَّةِ الإسلامية والنزعةِ الوطنية رجاحةَ العقل ومزيدَ =

(2) فلانٌ وأخواه بعضُهم لبعض عَدُوٌّ ، هذا يَبْغَضُ هذا لأنه يَزْعُمُ أنه سلب منه ملْكًا . . . وذاكَ يَبْغَضُهُ لأنَّه يرى أنَّه ينازِعُه فى ملك . . . والمكاتباتُ متصلة بينَهما فى الكيد له .

(3) مسألةُ اتحادِ القُطرين مُجْمَعٌ عليها بين الوطنيين فى سوريا ولَدَى جميع الذين اشتغلوا بالقضية العربية فى العراق ، ومنهم كبارُ المعارضين كياسين باشا وحزبه ، وقد يُعارِضُ فيها مثل . . . واللجنة التنفيذية تُمهّد السبيلَ وتُعِدُّ الوسائلَ للدعوة إليها على وجهٍ يُرجى قَبولُه فى القطرين وغيرهما . وقد كتبتُ فى هذين اليومين إلى أعلى المراجع فى العراق وغيره . وأرى أنْ تَكفُّوا الآن عن تَكرار الكتابة فيها وفى تعظيم شأن استقلال العراق ، وأن لا تَطْمَعُوا فى هذه الأيامِ فى إقناع الوطنيين المصريين بشىءٍ ما يدل على أنَّ الدولةَ الإنجليزية تعملُ عملاً ما أو تَتَّصفُ بصفة ما تصحُّ أنْ تُحمد عليها . فقد اشتدّ عليهم خِناقُ حكومتِهم بتأْيِيدها ، وحَمِىَ الوطيسُ[1] فما يُكتبُ مخالفًا لشعورِهم الحاضرِ مما لا يُعقل ، وإنْ عُقِلَ فلا يُقْبَلُ ، ألم ترَ كيف فعلوا بشوكت على ، ولولا أنَّ لك مكانةً رفيعةً عند الوطنيين المصريين كافةً ، ومحمد

= الخبرة السياسية نَصَحَ للخديوى بأنْ يقومَ للإسلام بخدمة عامة تنالُ رِضاءَ العالم الإسلامى ، وتكونُ ميسورة للخديوى لأنه لا يعجزُ عنها . فسأله الخديوى عن نوع هذه الخدمةِ فأشار عليه بأنْ يؤسس مكتبًا للدعاية الإسلامية فى جنيف ينفق عليه من ماله . فطلب الخديوى من الطباطبائى تحرير برنامج لهذا المشروع فحرَّره له ، وقد أتيح لى الاطلاع على هذا البرنامج ، وهو من خير ما فكَّر به عاقل مسلم ، فوعده الخديوى بتنفيذ هذا المشروع ، وذهب الطباطبائى إلى القدس ، وبشَّر به المسلمين ، إلاَّ أنه على تفيئة[1] ذلك وقعَ استدعاءُ مصطفى كامل للخديوى لأجل قضية عرش سورية ، فعدل الخديوى حالاً عن مشروع مكتب الدعاية الإسلامية فى جنيف ، وجاء الخديوى إلى فلسطين فتلاقى مع الطباطبائى ، فكان السيد ضياء الدين يستنجزهُ وعدَه الذى كان قد أعلنه عن لسانه ، وكان الخديوى يُجيبه بأنَّ أعمالاً كهذه تُخالف مَشْرَبَ مصطفى كمال الذى وعدَه بعرش سوريا . فاجتهدَ الطباطبائى بإقناعه بأنَّ عرشَ سورية لا يُوخذ من أنقرةَ بل من نفس الشام . ويقول الطباطبائى إنَّ المرحومَ حسن خالد الصيادى مستشار الخديوى كان موافقًا للطباطبائى على رأيه ، وكان يُعَزِّزُ كلامَه من جهة مكتب الدّعاية ، ولكن الخديوى لم يقتنع بكلامهما ، وقد هب مشروع مكتب الدعاية الإسلامية فى أوروبا أدراجَ الرياح مع أنه من أشدِّ المشروعات ضرورة للإسلام ، وفى الوقت نفسه لم يَحْصُلْ سموُّ الجناب العالى على الشىء الذى أهدِرَ هذا المشروعُ من أجلِه .

(1) **الوطيس** : اشتداد الحرب .

---

(1) **تفيأ فلان الخبر** : التمسه .

توفيق دياب لا يَشِذُ عنهم فى ذلك ، لأصرَّ على عدم نشر مقالتك فى مسألة العراق(★) كما قرَّر أولاً ، ثم لما وقفَ عند ذلك الحدِّ فى عدم الإقرار لها . وقد أَطلعتُ الأخ سامى على كتابك الذى ذكرتَ فيه المسألةَ ، وكتبتُ إليك بتفصيل الخبر ، وإنى بمناسبة ذكرِ المسألة الهندية أخبرُكِ بأنَّ بعضَ حُجَّاج الهند الذين زارونى فى الأسبوع الماضى أخبرونى أنَّ أكثرَ مسلمى الهند صاروا أمْيَلَ إلى الاتفاق مع الوثنيين على الإنجليز ، والبرقيات الأخيرة تؤيد خبرَهم .

(★) من المعلوم أنَّ سياستى كانت ، ولا تزال ، سياسةً إيجابيةً محضةً أتوخَّى فيها الجِدَّ والفائدةَ العمليةَ غيرَ مبالٍ بالتهويش والإكثار من الجلَبة ليقول العوامُ إن فلانًا من الوطنيين الذين لا يَقبلون أقلَّ تسامح مع الأجانب ، ولو لم يكن نيلُ الحقوق بحذافيرها تحت الاستطاعة ، فبالرغم من شدَّة حمَلاتى على الإنجليز واستمرارى من خمسين سنة على بيان مضارِّهم بالعالمِ الإسلامى عندما رضيت إنجلترا باستقلال العراق ولو منقوصًا من إحدى جهاته كنتُ راضيًا عن ذلك العملِ عارفًا بأنَّ العراقَ لم يكن لِينالَ أكثرَ من ذلك فى ذلك الوقتِ . وقد أوضحتُ أسبابَ رضا إنجلترا بعقد المعاهدة الإنجليزية العراقية ، وقلتُ : إنه كيف كانت الأسباب فهى خطوة عظيمة فى طريق الاستقلال ، لا للعراق وحدَه بل لجميع العرب . فقام يومئذ أناس كثيرون يَتَّهموننى بتأييد سياسة الإنجليز ، ويجعلون هذه المعاهدةَ العراقية الإنجليزية مِن المصائب العظيمة على العراق ، واندفعوا فى تيار هذه الأقاويل سواء فى مصر أو فى العراق بشكل يَضْحَكُ منه كلُّ عاقل . وما مضت إلا مدةٌ قصيرة حتى صارت مصر وسوريا وفلسطين تَغْبِطُ العراقَ على ما نال ، وتتمنى لو كانت مثله . وأدلُّ دليل على ذلك اغتباطُ المصريين بمعاهدتهم الأخيرة مع إنجلترا ، وهى حتمًا ليست أحسنَ من معاهدة العراق مع هذه الدولة ، وكذلك اغتباطُ السوريين بمعاهدتهم مع فرنسا ، وهى أيضًا من النَّمط نفسِه . فالذى كان مذمومًا من قبلُ أصبح محمودًا من بعدُ . . . وأغربُ من هذا أنّنى بعدَ أنْ كنتُ أُزَنُّ[1] فلانًا بكذا : بتأييد سياسة إنجلترا ! لرضاى عن معاهدة العراق عاد الأشخاص الذين اتَّهمونى بذلك يَطْعنون بى من أجل تفاهمى مع زعيم حكومة إيطاليا الذى سار سِيرةً جديدة بإزاء مسلمى طرابلس ، وبناء على نصيحتى أَرْجَعَ الثمانين ألف عربى الذين كان الجنرال غرازيانى نقلهم من الجبل الأخضر إلى الصحراء حيث مات كثيرٌ منهم جوعًا وعطشًا ، ووزَّع موسولينى عليهم الإعانات ، وضمَّد كثيرًا من الجروح ، فنسى أولئك الحسّادُ المفترون ما كانوا قد زَعموه مِن خدمتى للسياسة الإنجليزية ، وزعموا فيما بعدُ كونى أَبُثُّ الدعايةَ للسياسة الإيطالية ! مع علم الناس استحالةَ جمعِ هذين السيفين فى غِمْدٍ واحد لا سيما فى هذه الحِقبة . وما كنتُ فى التفاهم الذى وقع بينى وبين زعيم إيطاليا إلا متوخِّيًا للسياسة العملية التى لا يُوجد أمام العاقل غيرُها عند فقد أسباب المقاومة بالقوة الحربية . ثم نسى الحسَّادُ المفترون كونَهم اتهمونى أولَ مرة بترويج غرض إنجلترا ، واتهمونى ثانى مرّة بترويج غرض إيطاليا ! وزعموا أنّى فى رضاى عن المعاهدة السورية الفرنسية إنما قصدتُ أيضًا ترويجَ غرض فرنسا ! ومعلومٌ عند الجميع أنَّ سياسةَ هذه الدول مختلفةٌ كلَّ الاختلافِ بعضها مع بعض ، فلا يُمكن لرجل واحد أنْ يجمعَ بينَها أبدًا إذ لو حَطَبَ فى حبل الواحدة منهنّ انقطع فى يدِه حبلُ الأخرى ، قال اللّه تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب : 4] . ولكنَّ الحسادَ يَهُونُ عليهم أنْ يجعلوا للرجل عدةَ قلوب فى جوفه ، ولو كان ذلك غيرَ معقول ولا مقبول . وإنى أحمدُ اللّه على أنّهم لم يَخْرِقُوا[2] أكذوبةً إلا كان الوقتُ بعدَ قليل زعيمًا بفضيحتها .

---

(1) **أَزَنَّ فلانًا بكذا** : اتهمه به . (2) يفتروا .

(4) أرسلتُ إليكم دعوةَ المؤتمر العربى وإلى الأمير عادل وإحسان بك ، وقد بالغت اللجنةُ التنفيذيةُ الداعيةُ إليه فى المقترحات التى أرسلتها معه بما يقيم حجَّتَكم عليهم بالسكوت عن أقرب الوسائل إلى الوَحدة العربية والبحث فى أبعدها ، وإن أدرى أكتبتم إلى اللجنة رأيَكم فى تحديد الزمان واختيار المكان أم لا ؟ أحبُّ أنْ أعرِف هذا . وقد اجتمع أكثرُ الذين خُوطبوا بهذا فى مصر عندى للبحث فى المسألة ، فزارنا من عطَّل الجلسةَ علينا ، فأجَّلناها إلى يوم الإثنين فى 21 ذى القعدة (28 مارس) وكان الأستاذ الثعالبى استحسن عقدَه فى صنعاء . ولكن هذا يَشُقُّ على أكثر المدعُوين ، ويحتاج إلى نفقات يُهَوِّنُ الثعالبى أمرَها بمساعدة الإمام التى يجزم بها . ولا يُنتظر أنْ تأذنَ الحكومةُ المصرية به إذا أخبرتْ بموضوعه كما هو . وأنتم لا يُمكنُكم حضورُه فى مصر ولا فى القدس إنْ تيسَّر عقدُه فى أحدهما وتيسَّر لكم حضورُه . وسأخبرُكم بما نُقَرِّره هنا فى زمانه ومكانه وموضوعاته البعيدةِ التى اقترحتْها اللجنةُ والقريبة التى سنقترحُها هنا .

قد رأيتُم فى المنار ما عَلَّقْتُهُ على تقريظكم فى مسألة المرحوم الشيخ عبد الكريم ، ويقول الذين يعرفونه إننا أعطيناه أضعافَ حقّه . والسلامُ عليكم وعلى ولدكم وإخوانكم .

أخوك رشيد

وكتب إلىَّ فى 22 ذى القعدة 1350 و29 مارس سنة 1932 :

سيدى الأخُ الكبيرُ أَمير البيان عليه السلامُ

بعدَ إرسال كتابى المطوَّل وبيانى المفصل زارنى سعادةُ وزير الأفغان المفوَّض الأستاذ المجددى ، فاقترحتُ خَلْوَةً معه ، فذكرتُ له المسألة ، فقال إن الذى وقع هو أنه سأله أديب خان هل تعرفُ الأمير شكيب ؟ قال فقلتُ له إننى لا أعرفه شخصيًّا ولكنَّنى أسمعُ عنه لشهرته بالدفاع عن الإسلام ، وسأله أمان اللّه خان هل كتب إليك الأمير شكيبُ بأنْ تكتبَ إلى جلالة الملك بالعفو عن ولى خان ؟ فأجابه أنه ليس بينى وبين الأمير شكيب مكاتبةٌ ، ولم يُكَلِّفنى ذلك ، فقال له أمان اللّه : أنا أرجوك أنْ تكتبَ إلى جلالة الملك

بالعفو عنه قال هذا الذى حَصَلَ ، وأنا أعلمُ أنَّ الأميرَ يَجِلُّ أنْ يكونَ مخبرًا ، وأنه لا يكتبُ إلا لمصلحة الإسلام ، فالظاهرُ أنّهم أرادوا أنْ يَتسقَّطُوكَ[1] لظنٍّ ظنُّوه فيك ، وما كان المجددىّ فى تَدَيُّنِه وشرفه لِيُسَفِّهَ نفسَه بما نقلوه عنه[★] .

إلى أنْ يقولَ :

هذا ، وإننى أَزيدُك على ما كتبتُ فى كتابى المطوَّلِ ومُلَحَقِهِ أنَّ أسعدَ داغر وسامى السراج سافرا اليوم فى الطيارة إلى بغداد لحضور مَعْرِضِها عن جريدتيهما . وكان الأولُ كتب إلى جلالة الملكِ فيصلٍ باسم اللجنة كتابًا فيما عزمت عليه من الرجوع فى المسألة العربية إلى طَوْرِها الأولِ الذى قامت لأجله الثورة ، وهو استقلال الأمة العربية كلِّها ، والبدءُ بوَحدة القطرين الشقيقين وما يتعلق بذلك ، وطلب وعدَه الكتابىَّ بتأييدها وعطفَه وعطفَ حكومته وشعبه والمساعدةَ المادية والأدبية . وكتب قبلَه الدكتور قدرى إلى وزير الخارجية كتابةً رسمية بهذا المعنى ، ذكر فيه سوءَ تأثير ما يُنْقَلُ عن الملك على والأمير عبد اللّه من الكلام فى مسألة سورية ، كأنَّ البيتَ الهاشمىَّ جَعَلَ سورية سلعة للمساومة . . . وعلى أثر ذلك نُشِرَ فى جريدة العراق

---

(1) **تَسَقَّطَهُ فلانا** : طلب سقطه .

(★) كان أمان اللّه خان فى مقابلته لى مع أديب خان الدمشقىّ خالِ زوجته يومَ زارنى فى لوزان قد شكا إلىَّ المظالمَ الواقعةَ عليه وعلى حزبه فى أيام خَلَفِهِ نادر خان ، وذكر قَصَصًا كثيرةً . فقلتُ له : إنى لا أريدُ أنْ أدخُلَ فى قضية النزاع على العرش نفسِه إلا أنه إنْ شاء اللّه أنْ أَتَوَسَّطَ فى قضية المظالم التى تكلَّم عنها فإنى أجد إلى ذلك سبيلاً ، فقال إنه لا يعتقدُ فائدةَ التوسط ، فقلتُ : بلى قد يمكن تخفيفُ الشرّ . ثم كتبتُ إلى السيد رشيد لِيُحَدِّثَ الأستاذَ المجددى سفير الأفغان بمصر بما أخبرنى به الملك أمان اللّه وينصحَ له بوجوبِ الاعتدالِ ورفع الانتقام عن حزب جلالته ، فورد علىَّ كتابٌ مِن المجددى يَنفى فيه ما ذكره لى أمان اللّه خان . ثم جاءنى كتابٌ من أديب خان بوقوع مظالم جديدة بحقِّ جماعة الملك السابق ، فبعثتُ بالكتاب إلى المجددى راجيًا منه أنْ يَقرأه ثم يردَّه لى ، وبأنْ يكتبَ إلى كابول فى معنى النصيحة بالاعتدال ، فأجاب المجددى كالجواب السابق ، ثم ردّ لى مكتوبَ أديب خان ، ثم ذهب أمان اللّه وفى صُحبته أديب إلى الحج كما تقدَّم الكلامُ عليه ، فذهب المجددى أيضًا إلى الحجاز وتلاقى معهما ، وسمعتُ أنه قال لهما إنّه كان مطلعًا على ما دار بينى وبينَهما كأنه جعلنى مُخبرًا له ! فلمّا بلغنى ذلك كتبتُ إلى السيد رشيد ليسألَه عن هذا الأمر الذى بلغنى عنه ، وأقول له : إنى قد أطلعتُه على شكايات جلالة أمان اللّه إلىَّ ما يُعانيه حزبه هناك ، وذلك لينصحَ للمَلِكِ الخَلَفِ بالاعتدال إنْ كان ما يُقال صحيحًا ، لا لأتزلَّفَ له فى شىء . فسأله السيد رشيد عن القصة فأجابه كما هو فى هذا المكتوب ، ثم عاد المجددى فكتب إلىَّ رأسًا بالمآل نَفْسِهِ .

لسان حال الحكومة بيانٌ رسميٌ من ديوان جلالة الملك فى تبرئة البيت الهاشمىّ من هذه التهم . . . وعطف جميع أفرادِه واحترامِهم للسوريين ، وكونِ الحقّ لهم وحدَهم فى شكل حكومةٍ بلادهم . ونشرت الجريدةُ بهذه المناسبةِ مقالة خاصة بوجوب سعى الأمة العربية كلِّها إلى الاستقلال وإعادة مجد العرب . . . إلخ . ولم يكن أحدٌ فى العراق يقول ولا يكتب كلمة فى العرب ، وأنهم أُمةٌ واحدةٌ لا تُفَرِّقُ بينهم أسماءُ البلاد والأقاليم ، بل كانوا كالمصريين لا ينطقون إلا باسم العراق والعراقيين ، فهذا شىء جديد ظهر مؤيَّدا بمَسْحَةٍ رسميّة .

وأرسلتُ أمسِ برقيةً إلى الأخوين الزركلى ونويهض بأنْ يذهبا إلى صفد لمقابلة أسعد والسراج فى طريقهما لأجل التلقين الشفوى لما قررناه فى مسألة وَحْدَةِ القطرين ومسألة المؤتمر العربى . وقد كانت اللجنةُ كتبتْ إلى بعض رجال حكومة العراق وشعبِها المرتبطين من قبلُ بالعمل للقضية العربية ومنهم ياسين باشا . وسفرُ أسعد إلى بغداد يُنهى كلَّ شىء إن شاء اللّه تعالى ، وحينئذ يُجَرِّدُ الأميرُ حسامٌ قلَمه مرَّة أُخرى فى تأييد الدعاية عودًا على ما بدأه هو وحدَه .

نشرتُ فى الجزء (3) من المنار الذى لم يتمّ نظامَ جماعةِ (الرابطة الإسلامية الدولية) أو الخديوية كما نُشر فى جريدة صوت الشعب الفلسطينية، وعلّقتُ عليه تعليقًا طويلاً بينتُ فيه الريبَ والظنونَ التى تُحَوِّمُ حولَ هذا المشروع الكبير فى نفسه الذى لا يكفى للقيام به ما كان يَنْقُصُ(★) المصلحين من المال والقوة ، وإنّما يَنْقُصُهُ الرجالُ المصلحون وذكرتُك فى التعليق ، ولعلِّى أُرسلُ إليك صورَته قبلَ إتمام المنار لأنَّ تلخيصَه فى الكتاب متعذِّرٌ .

لم يحضر الإخوانُ أمسِ لعقد لجنة التشاور فى مسألة المؤتمر العربى ، وقد

(★) **مراده أن يقول** : يعوز المصلحين من المال والقوة لأن كلمة (ينقص) تفيد عكس المعنى المراد . ولقد وردت هذه الجملة فى كلام المولدين فقالوا مثلاً : فلان ينقصه العلم وفلان تنقصه التجربة . . . إلخ . والحال أن العلم والتجربة لا ينقصان أحدًا بل يكملانه . وقد ورد هذا الاستعمال فى كلامى أيضًا فأخذه علىّ فى كتاب خاص الأستاذ مصطفى جواد ، ووجدته مصيبًا فى تنبيهه إلا أنى **قلت له** : المراد هو أن التجربة تنقص فيه فجرى حذف الحرف « فى » وعدى الفعل مباشرة من باب الحذف والإيصال ، وله نظائر .

فَوّضنى فيه أسعد والسراج بأمر السفر إلى بغداد ، فشرعا بما ينبغى له من الاستعداد ، والسيد أمين الحسينى مُوافِقٌ لنا على مسألة وحدة القطرين ، وكتب إلىّ بذلك ، وهو لا يستطيع الشذوذَ عن جماعتنا فى فلسطين وعمان وسورية لكنَّه يَربِط كلَّ شىء بمجىء الطباطبائى ، وسنرى ما يكون من أمر مجيئه وعدمه ، ولا يكون إلا ما نُريده إنْ شاء اللّه تعالى . والسلام عليكم وعلى من لديكم .

من أخيكم محمد رشيد رضا



وكتب إلىّ فى 9 ذى الحجة الحرام 1350 و 15 أبريل :

سيدى الأخ الأميرُ المجاهدُ الكبيرُ حيّاه اللّه تعالى ، وأعزَّ نصره

أُحييك وأُهنئك بعيد الأضحى المبارك داعيًا لك ولنجلك النجيب ما أدعو به لنفسى من سعادة الدَّارين . وقد وصل كتابُك الخاصُّ بمسألة سفير الأفغان ، وفيما كتبتُه إليك فى شأنه فى كتابى المطوّل ما يغنى عن كتابة شىء بشأنه . ثم وصل كتابك الذى فيه الجوابُ عن بعض ما فى كتابى المطوّل وهو مسألةُ الرابطة الإسلامية . وقد وصل قبلَه الطباطبائى إلى القدس ، والظاهر أنه غيرُ مرتبط برابطة الخديو(★) ، وقد كتب السيد الحسينى إلى محمد على باشا يُخبره بمجيئه وعزمه على العمل فى المكتب ، ويدعوه إلى القدس فى فرصة عيد النَّحر ، وكان الباشا متردِّدًا فى الذهاب فأقنعتُه بوجوبه ، وذكرتُ له خلاصة ما فى كتابك من خبر رابطة الخديو ، وقرأتُ له منه العبارةَ الخاصَّةَ بما يتهدّد المؤتمرَ من أعدائه . وكان قد دعا الأستاذَ الثعالبى لمقابلته ظُهر أمس لأنه عضو فى مكتب اللجنة التنفيذية مثلُه لِيذاكرَه فى المسألة ، ودعانى لحضور اجتماعهما ، ولكنْ صرفنى عنه صارفٌ بعد أنْ نزلتُ من الدار ووصلتُ إلى محطة الترام والسيارات ، فلم أعلمْ ما اتفقا عليه ، وسأسألُ عن ذلك .

(★) بعد أن عَدَلَ الخديو عن المشروع الإسلامى المتقدِّم ذكرُه الذى كان أقنعه به الطباطبائى .

ذهبَ إلى بغداد سكرتيرُ لجنتنا التنفيذية ، وعاد بعد حضوره مَعْرِضَها الوطنىَّ باسم جريدة الأهرام . وكانت اللجنةُ عَهِدَتْ إليه بمخاطبة جلالةِ الملكِ وكبارِ الزعماءِ من أركان الوَحدة العربية على اختلاف مشاربهم وأحزابهم المحليَّة الأخيرة فى الموضوع الذى كتبتُه إلى الملك وإلى بعضهم باسم اللجنة من استئناف الجهاد القديم للوحدة العربية والبدءِ بتوحيدِ القُطرين الشقيقين كما علمتُم - وقد عاد موفَّقًا فى سعيه مُفلحًا فى عمله إذ اتفق الزعماءُ على تأليف لجنة للعمل معنا ومع إخواننا فى سورية وفلسطين ، وفى مقدمة رجالها ياسين باشا أكبر زعماء معارضة الحكومة ونورى باشا رئيس وزراء الحكومة وكذا رئيس مجلس نوابها ، ولكن لم يَتَّسِعْ له الوقتُ لحضور النظام التفصيلىّ لهذه اللجنة . وسيزورُ ياسين باشا سوريا وفلسطين ، ويَلْقَى فيها إخوانَنا الوطنيين ، وهم إخوانه وأصدقاؤه ، ويُذاكرهم فى الموضوع . وسأخبركم بكلِّ ما يتجدَّد فى وقته إنْ شاء اللّه تعالى ؛ ولهذا التمهيدِ الذى شرعنا فيه اقترحتُ عليكم مِن قبلُ الإمساكَ عن الكتابة فى المسألة وفى أطرافها وحواشيها . ومما أخبرنى به الأخُ أسعدُ أفندى أنه حضر عند ياسين باشا اجتماعًا كبيرًا لرجال حزبه ، فذكرَ بعضُهم أنَّ الأميرَ شكيب كتب فى مقالة له فى (فتى العرب) أو غيرِها عرَّض فيها بالطعن عليهم(★) . فأجاب أسعد بأنه لم يرَ هذه المقالةَ ، ولا يعتقدُ أنَّ الأميرَ يَطعن عليهم ، ولئنْ وُجد فيها شىء من ذلك فلا يكونُ إلا عن حُسْنِ نيَّة . واقترح أسعد أنْ أكتبَ أنا وأنتَ إلى الملك فيصل نشكر له وعدَه بالمساعدة ، وسأفعلُ .

أقصدُ بإخبارك بهذا إبداءَ رأى لى فى مقالاتك ، وهو أنْ تتوخَّى فيها ألا تكونَ ردًّا على فرد من الأفراد ولا على جماعة أو حزب من المخالفين لك فى الرأى . وذلك بأنْ تقيمَ الحجّةَ أو الحججَ على ما تراه وتعتقدُه ثم على بطلان ما يخالفه من غير أنْ تُشير إلى المخالفِ ، وتُوَجِّهَ التخطئة إليه ولو مفروضًا وجوده فرضًا ، فإنَّ كلامك مؤثِّر يجرحُ قلبَ مَن يَرُدُّ عليه ويُفنِّده ، فيجعلُه خَصمًا أو عدوًّا . والواجب أنْ تكونَ

(★) ليس هذا الزعم بصحيح .

فى جهادك فوق ذلك ، إنك لأنتَ كاتبُ هذه الأمة وأميرُ السياسة والديمقراطىُّ لها ، فينبغى أنْ تكونَ للأحزاب والجماعات كلِّها ، إن لم أقلْ فوقَها . والسلامُ عليك وعلى نجلك وأخيك وزميلك .

محمد رشيد رضا



وكتب فى 23 ذى الحجة 1350 و 29 أبريل 1932 :

سيدى الأخُ الكبيرُ والأميرُ المجاهدُ أيَّده اللَّه برُوح منه

كتبتُ إليك كتابًا أرسلتُه فى يوم عرفة ، ذكرتُ لك الطورَ الجديدَ الذى وُفِّقْنَا له فى قضيتنا العربية ، وهو تأليفُ لجنة من كبار رجال العراق لاستئناف السعى لوَحدة الأمة واستقلالها ، على أنْ يكونَ البدءُ باتحاد القطرين الشقيقين العراق وسوريا الكبرى ، ومن الضرورىّ الذى ذُكر فى بغدادَ عند المذاكرة فى الموضوع أنَّ من الضرورى وجودَ بعض رجال سوريا العاملين المجاهدين فى مركز العمل الجديد يكونُ رابطةَ الوصل ، وقد فكَّرنا هنا فى المسألة فرأينا أنه يجب أنْ يكونَ لمن يَرحل للإقامة هنالك عمَلٌ ظاهرٌ يَصْرِفُ عنهم أبصارَ المنقِّبين عن المتهمين بالسياسة ، ويُدِرُّ عليهم ربحًا أو رزقًا ينبو بهم عن جعلهم عالةً على غيرِهم ، ويُبيحُ لهم طلبَ المساعدة على عملهم ، وارتأى أسعدُ ، ووافقتُه ، أنْ يكونَ هذا العملُ إنشاءَ صحيفة عربية ، تكون شَرِكَةً بين جماعة معيّنة أو غير معيّنة من الوطنيين الموثوقِ بهم ، وهنا تعترضنا العقبةُ الكؤد فى طريق كلِّ عمل فى كلِّ مَحَلَّةٍ عامّةٍ لهذه الأمة المسكينة التى لا تزال فى طفولية الحياة القومية ألا وهى المال ؛ وناهيك بطلب المال فى هذه الحال والعُسرةِ التى جلَّلت الآفاقَ ، وَطَرَحَت الأوهاقَ[1] فى جميع الأعناق ، والأخ أسعد مستعدٌّ للهجرة والشروع فى هذه الحرفة ، وهو يستطيعُ أنْ يَلْقَى مساعدةً أُخرى أو مساعداتٍ خفيّةً من أعلى المصادر

(1) **الوهق** : الحبل فى أحد طرفيه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة والإنسان حتى يؤخذ ، **وجمعه** : (أوهاق) .

وأوسطها . فما رأيك فى هذه المسألة ، وهل تَمْلِكُ شيئًا من السعى لها فى أمريكا أو غيرها ؟ هذا ما دعانى إلى الكتابة إليك اليومَ ، على حين أرتقبُ وصولَ كتاب منك رَجْعًا لكتابى الأخير ولبقيّة المسائل فيما قبله ما وعدتَ بالجواب عنه .

وَثَمَّ مسألةٌ أُخرى : ربّما يَصِلُ إليك كتابٌ من سكرتير لجنتنا ، وبه عزمُ اللجنة على نَشْرِ برقيّة فى يوم اجتماع مجلس النواب السورى الجديد ، تُعلن بها انتصابَها للمعارضة له فى جُمْلَتِهِ وإمهالَ مَن فيه مِن إخواننا الوطنيين إلى أنْ تَظْهرَ خُطَّتُهُم فيها ، فَتَحْكُمُ عليهم وعليها بما يوحيه الحقُّ ويُمليه العدلُ ، وترجو اللجنةُ أنْ يوافقَها وفدُكم الكريمُ فى ذلك موافقةَ تَعَاوُنٍ عمليّ جَهْرِيّ . هذا ، وإننا منذُ أشهر لم نسمع عن أخينا الأميرِ عادلِ الحبيبِ شيئًا ، ولا ندرى مكانَه ، وقد ذُكر هنا وفى بغداد ، وأنهُ يوشِكُ أنْ يجىءَ الوقتُ المناسبُ لطلبه إلى هناك . والسلام .

من أخيكم المخلص رشيد



وكتب إلىّ فى 14 المحرم 1351 و2 مايو 1932 :

سيدى الأخ الأميرُ

إنى أُلقى إلىّ أولَ من أمس كتابُك (رقم 7 المحرم) بعدَ طول الانتظار غيرِ المعتاد فى مثل ما نحن فيه .

إلى أنْ يقولَ :

وأمَّا مسائلُنا السياسيةُ فأنا أذكر لك ما عندنا فيما جاء فى كتابك بالإيجاز غير المُخِلِّ بالمراد إنْ شاء اللّه تعالى :

(1) مسألةُ اتحاد القُطرين بالتبع للوَحدة العربية دخلت بتوفيق اللّه تعالى فى طَوْرِ العمل ، فهى لا تَتَوَقَّفُ على المؤتمر إذ هى أمرٌ واقعٌ . ولا أقولُ إنها أمرٌ واقع لأنَّ لجنةً أُلِّفَتْ لها فى بغداد من الحكوميين والمعارضين جميعًا ، فكم من لجنة أُلِّفَتْ وما

وُفِّقَتْ لعمل ، وهذه اللجنةُ لا يَتِمُّ استعدادُها للعمل إلا بأمور أخرى . وإنما أكبر الرجاء فى صيرورتها أمرًا واقعًا أنَّ سكرتيرها كتب إلى سكرتير لجنتنا هنا أنه قابل جلالةَ الملكِ مع جميل باشا بعدَ عودته من إيران ، فأخبرهما أنه جاءته مكتوباتٌ من رجال العرب العاملين تشكرُ له عنايتَه بالموضوع ، وذكر كتابى وكتاب الدكتور شهبندر . فالظاهرُ أنَّك لم تكن كتبتَ إليه كما اقترحتُ عليك ، وأنَّه مسرور من هذه المكتوبات ، وقد زادته اهتمامًا بالمشروع ، وقال لهما إنَّه سيطلب نورى باشا وياسين باشا ويكلمهما بوجوب العناية والشروع فى العمل . وياسين باشا من أرجى العاملين للوَحدة العربية ، ولا يُعْقَلُ البدءُ بها إلا بتوحيد القُطرين ، وإنما كان يُخْشَى أنْ يُثبّطه قلةُ ثقتِهِ بالملك وثقة الملك به ، أو منع المعارضة له أنْ يَعْمَلَ بالاتفاق معه ومع رجال حكومته ، ويُقال إن الملكَ يتّهمه بالميل إلى الجمهورية ، وما أرى هذا يَصِحُّ عن جلالة الملك ولا عنه ، ولكنه صرح لأسعد بأنَّ من المصلحة العربية أنْ يكونَ الملِكُ طامعًا فى توسيع مُلكه بضمٍّ سورية إليه لأجل أنْ نَضْمَنَ مساعدتَه عليه ، وهذا يدلُّ على أنَّه يتمنّى نجاحَ المشروع بمساعدة جلالته . أضفْ إلى هذا خبرَ عزم الملِك على طلبه لِحَفْزِ همَّته .

(2) مجىء ياسين باشا إلى سورية وفلسطين تأخَّر عن موعده الذى فهمه أسعدُ منه . وقد أخبرتُك أنّنا كَتبْنا كلُّنا إلى إخواننا فى الشامِ والقدسِ وحلبَ بالعناية به وتكبيرِ أمله فى الموضوع وإقناعه برياسة اللجنة ، وجاءتنا الأجوبةُ بالاستعداد التام لذلك .

إلى أنْ يقولَ :

(4) قولك : « يجبُ عقدُ مؤتمر فى بغدادَ لطرح قضية الوَحدة العربية عليه » يدلُّ على نسيانك لدعوة المؤتمر العربى العام التى أرسلتها إليك لجنتُه من القدس ، فالمؤتمرُ العربى مقرَّرٌ من قبل تأليف اللجنة الجديدة فى بغدادَ ، وتأليفُها هو الذى رجَّح عندنا عقدَه فى بغدادَ . وقد كتب إلىَّ عجّاجُ أفندى أنه جاءه كتابٌ من ياسين الهاشمى يرجّح فيه عقدَ المؤتمر فى بغداد إذا وافق الإخوانُ المدعُوُّون ، وأنْ يكونَ

فى الخريف الآتى ، وهذا عينُ ما كنتُ كتبتُه له أنا ، فإن لم تكنْ أنت وإحسانُ بك قد كتبتُم إلى القدس جوابًا عن دعوة المؤتمر التى أُرسلتْ إليكما فيحسُن أنْ تُعَجِّلا بكتابته ، وتقترحا ما ذكرتَ فى مكان المؤتمر وزمانه .

وأما موضوعاتُه التى ذَكرتْ لجنةُ القدس فى كتابها المكتوب 25 منها أكثرَها من الكماليات الخيالية ، فقد قرَّرنا هنا عدمَ البحث مع اللجنة فيها ، واقتصرْنا على خمسة مقترحات :

(أ) مسألةُ الوَحدة العربية على قاعدة البدء بتوحيد سورية الطبيعية مع العراق .

(ب) السعى لعقد الحِلْفِ بين الحكومات العربية المستقلة .

(ج) السعى لتوحيد نظام التربية والتعليم والثقافة العربية العامة ، ويدخلُ فيها تأليفُ لجنةٍ أو لجانٍ لتأليف كتبِ المدارس والكتبِ التى تُنشر للعامة والقَصصِ والأناشيدِ والأغانى القوميَّةِ .

(د) وضعُ نظام مالىّ للمؤتمر العام وللجانه الفرعية .

(هـ) التعارفُ بين الأحزاب والجمعيات العربية . والأول والثانى من هذه الخمس مما اشتمل عليه كتابُكم ، والباقيات مما لا مَحَلَّ للاختلاف فيها ، وقد تَزيدان عليها ما نُوافق عليها ، ولكنَّ الاختصارَ أَوْلَى .

(5) مسألة افتراص[1] الحالة النيابية فى فرنسا من الضروريّات فى كلِّ ما ذكرتموه ، وذكرت الجرائدُ أنَّ الوطنيين فى سورية فكَّروا فى وجوب إرسال وفد إلى باريس ، وسَنَطْرَحُ هذه المسألةَ للمذاكرة فى جلسة لجنتنا التى تعقد فى الليلة الآتية ، وقد عزمتُ عند كتابة هذا البحث على تأخير إرسال كتابى فى هذا الصَّدَدِ لأخبركم فيه ما يتقرّر فيها .

فى 15 المحرم :

اجتمعنا البارحةَ ورأيتُ الإخوانَ متفقين على رأيك قبلَ أنْ أقرأه عليهم ، وقد قَرّروا أنْ يكتبَ كلٌّ منا إلى اثنين أو ثلاثة من كبار الوطنيين فى دمشقَ وحلبَ وطرابلسَ

---

(1) افترص الفُرصة : اغتنمها .

وبيروتَ بوجوب إرسالِ وفدٍ للمطالبة والسعى لاستقلال سوريا بِرُمَّتِهَا مع وَحدتها كما كانت فى عهد الدولة العثمانية ، وأن يختاروا مِن الأعضاء مَن يقدرُ على الإنفاق على نفسه ، ونحن نسعى لجمع مبلغ لنفقة الدّعاية .

(6) مسألة إنشاء جريدة فى بغداد ليس المرادُ منها بثَّ الدعاية ، فإنَّ الدعاية تُبَثُّ فى كثير من الجرائد العربية فى كلِّ قُطرٍ ، وقد كُتِبَ فى جرائدِ بغدادَ عدةُ مقالات تمهيديّة لها . وإنما المرادُ منها أنْ تكونَ إدارتها مركزًا لمن تقتضى الحالُ إقامتَه فى بغداد من إخواننا السوريين الذين يعملون هنالك مع إخوانهم ، فذلك أشرفُ لهم وأحفظُ لكرامتهم أنْ يكونوا كلًّا على أحدٍ أو تكونَ مساعدةُ مَن يساعدُهم شخصيَّة يَحْمِلُونَ بها مِنَّةَ المساعِد أيًّا كان . وإذا راجت الجريدةُ وصار منها رِبحٌ للمشروع والعاملين له فيوشك أنْ يقبل مثل الأمير عادل أنْ يكونَ مديرًا لها ، إن لم يُوجدَ مانع آخَرُ يمنعه . هذا ما عندى الآن فى الموضوع العام . والسلامُ عليك وعلى مَن لديك من أخيكم .

محمد رشيد رضا



وكتب فى 16 صفر 1351 و 30 يونيه 1932 :

سيدى الأخُ الأميرُ حفظه اللّه تعالى

أحمدُ اللّه إليك مبشِّرًا بأنَّ أَلَمَ الرَّثْيَة[1] التى ألمَّت بركبتى اليسرى منذُ أشهرٍ قد خَفَّ بعد معالجته 3 أسابيع ، وكان العلاج بعدَ اشتدادِ الألم والجزم بأنه مرض الرَّثْيَةِ . وكنتُ أظنُّ عند خِفَّتِهِ أنّه عارضٌ لسبب آخرَ لا حاجةَ إلى شرحه ، وصرتُ أقدرُ على السجود على الأرض بدون ألم شديد وعلى النزول إلى المكتب بدون ألم يُذكَرُ ، ولكنَّ نزولى قليل .

---

(1) **الرَّثْيَةُ** : وجع المفاصل أو الرُّكب أو الأطراف .

مسألة مكتوباتك إلى الخديو(★) لا تَستحِقُّ أدنى اهتمام فالذى حَمَلَهَا أطلع عليها فلانًا .

(★) فى سنة 1922م كان سمو الخديوى السابق[1] مِن كرم أخلاقه تَعَرَّضَ لى إذ أنا فى جنيف بواسطة بعض الأصحاب مجتهدًا أنْ تكونَ لى به علاقةٌ ، ولكنّى بَقيتُ مدَّة أشهر أتردَّد فى الدخول معه فى علاقات ، وأتجنّبُ أنْ أزورَه ، إلى أنْ غلب علىَّ الحياءُ أخيرًا مِن كثرة مراجعة الأصحاب فى هذا الموضوعِ ، فذهبتُ معهم وزرناه فى فندق سافوى فى لوزان ، وكان شديدَ السرور بذلك . ثم لم تمضِ مدةٌ حتى جاءَنى زميلى وصديقى سليمان بك كنعان اللبنانى ، وقال لى : إنَّ الجنابَ الخديوىَّ يعلم النفقاتِ التى تتحمَّلُها أنت فى غُربتك من أجل القضية السورية والقضية العربية عامة ، ولا يرى من العدل فى شيء أنْ تَتَجَشَّم ذلك أنت وحدَكَ لأنها قضية عامة لا تخصُّك وحدَك ، فلهذا يُريد أنْ يساعدَك براتب 30 جنيهًا فى الشهر ، فالرجاءُ منك أن لا ترفضَ هذا المرتب الذى فيه بعضُ المساعدة لك على نفقاتك فى أوروبا . فاعتذرتُ فى البداية عن قَبول الراتب المذكور ، ورويتُ لسليمانَ كنعان كيف أنَّ الخديوى أراد تَكَرُّمًا منه أن يساعدنى بمبلغ من المال عندما مررتُ بمصر ذاهبًا إلى جهاد طرابلس الغرب ، وأنه أبدى إذ ذاك وأعاد كثيرًا ، وبقيت مُصِرًّا على الرفض ، فلا أقبل الآن ما كنتُ رفضتُه من قبلُ . فقال : تلك أيام مضت ، وأنتَ الآن فى جهاد طويل لا تَقْدِرُ على القيام به منفردًا ، وليس فى قَبول هذه المساعدة لقضية عمومية أنت واقفٌ نَفْسَك عليها أدنى شيء يَشِينُكَ (يَعيبك) فقلتُ له : أخشى أنَّ الخديوى يُكَلِّفنى أُمورًا تَمَسُّ مهمتى التى هى عضوية الوفد السورى الفلسطينى ، فأنا أشترط أنْ أكونَ بإزائه حرًّا فى كلِّ شيء . فقال : إن شيئًا من تَقييد حُرّيتك لا يخطرُ بباله ، وتعالَ معى الآن لنشكره على صنيعه . فذهبنا إلى فندق سافوى وقابلناه ، وقلنا له : إنما قبلنا هذا البرَّ من سُموك التزامًا للأدب معك لا غير . فقال : إنَّ هذه إنما هى مساعدة ضئيلة لا تفى بعظيم حقِّك ، وأنا لا أتقاضاك بمقابلتها أدنى عملٍ خاصّ بى . وقد كان هذا منه فضلاً فى بداية الأمر إلى أنْ طرأت بعضُ عوارض حملتنى على التباعد عن سُموّه والاستعفاءِ من قَبول الراتب . فأصرَّ على إبقائه لى ، وكان يُرسِلُ إلىَّ الحوالة وأنا فى حال الانقطاع عنه ، ولم يكن الخديو يُحَدِّثُ الوفد السورى الفلسطينى بشيء مما يتعلَّقُ بعرش سورية لمعرفته بالشروط التى وضعناها لأجل الدخول معه فى علاقة . غايةُ ما كان يتطلب بواسطة مستشار أرمنى كان عنده اسمه أنطون بك أنْ نكتبَ إليه فى الأحايين لإثبات اتصالنا به . ثم شَرَعَ أنطون بك هذا الذى كان فى الماضى مِن جواسيس السلطان عبد الحميد ، وكانت له شهرةٌ فى الآستانة بهذا الأمر - يُغرى الخديوى بأمور مخالفة للشروط التى كانت بيننا ، فصرنا نجد من سُموه أطوارًا لم تكن من قبلُ . وصادف أنَّ بعضَ الحسَّاد المعلومين غمز بنا فى إحدى الجرائد الفلسطينية زاعمًا أنَّنا بعنا سورية من الخديوى السابق بثلاثين جنيهًا فى الشهر ، وما أشبه ذلك من الأقوال السافلة ، فَرَدَدْنَا عليها فى جريدة « الشورى » قائلين ما معناه : إنَّ شكيبَ أرسلان لم يطلب أدنى رِفْدٍ[2] من الخديوى ، وإن كان الخديوى أجرى هذا الراتبَ فيكونُ كَرَمَ خُلُقٍ منه ، ولا عيبَ فى قَبول شكيب أرسلان مساعدة من خديوى مصر السابق حفيد محمد على . على أنه ما سعى شكيبُ أرسلان ولا أحدٌ من زملائه أعضاءِ الوفد السورى الفلسطينى أقلَّ سعى ليكونَ الخديوى مَلِكًا على سورية ، لا لأنه غيرُ لائق لعرش سورية بل لأنَّ مهمة الوفد السورى منحصرة فى السعى بالحصول على استقلال سورية لا غيرُ . وقضيةُ العرش هى خارجة عن اختصاصه بل عائدة للأمة السورية » . فالذين هم أنفسُهم نَشَرُوا أننا بعنا سورية من الخديوى السابق أرسلوا كتابتَنا هذه إليه لأجل أنْ يغتاظَ منا . فأرسل إلينا عتابًا على هذه الكتابة بواسطة أنطون الأرمنى مستشارِه ، فأجبناه بأنَّنا لم =

(1) **هو الخديوى عباس حلمى** ، وكان أول راتب يحصل عليه **الأمير شكيب أرسلان** سنة 1923م ، وقدره (30) جنيهًا إنكليزيًا ، (**انظر** : من أمير البيان : 248) ، تأليف : نجيب البعينى ، دار المناهل 1998م .

(2) **الرِّفد** : العطاء والصلة .

إلى أنْ يقولَ :

ونحن بالمرصاد لما عسى أنْ يَظْهَرَ ، فلا يكن فى صدرِك حرجٌ ، ولا تُضِعْ شيئًا من وقتك فى هذه المسألةِ .

= نخرجُ فى هذا عن الشرط المعلوم ، وهو أننا لا نتعاطى سوى ما يتعلقُ باستقلال سورية ، فلم يُعجبْه هذا الجوابُ ، وَوَجَدَ (غضب) علينا من أجله . وصادف مرةً أنَّ لجنةَ الانتدابات كانت انعقدت فى رومة للبحث فى مسألة سورية والثورة الكبرى فى إبان اشتعالها ، وكنا مُضطرّينَ للذهاب إلى رومة لأجل تقديم شكاياتنا المتعلقة بالثورة إلى لجنة الانتدابات المشار إليها . وكان علينا القيامُ بنفقات غير قليلة على المطبوعات والدّعاية وما أشْبَهَها ، فقال لى زميلى إحسانُ بك الجابرى : إنّ الخديوى لا يَزال يذكرُ اهتمامَه بقضايانا الوطنية أفلا تكتبُ إليه فى أنْ يساعدَ الوفد فى هذه الرحلة إلى روما ؟ فكتبتُ إليه فى هذا الموضوع بالأسلوب الذى أعلمُه يُؤثّر فيه ، فلم يَفْعَلْ شيئًا . ولكنه بقى يتطلّبُ ويقترحُ أشياءَ نعتقد أنَّ مستشارَه أنطون كان هو المغرِىَ له بها . وكان الخديوى لا يَقْدِرُ أنْ يدخلَ إلى لندره (لندن) وهو يسعى سعيًا حثيثًا فى ذلك ، فقيل لنا فى أحد الأيام إنَّه تمكّن من هذا الأمر بواسطة بعض ذوى النفوذ من اليهود ، وإنّ الإنجليز بعدَ ذلك قد ساعدوه فى قضية أملاكه التى بمصر ، وقد كانت الحكومة المصرية باعتها بثمن بَخْسٍ مما حمَله على إقامة دعوى عليها . فلما توسَّط الإنجليز فى الأمر رتبت الحكومةُ المصرية من باب التعويض على الخديوى ثلاثين ألف جنيه كلَّ سنة ، فعند ذلك شرع الخديوى فى التقرب من الإنجليز ، ونشر بالإنجليزية كتابًا طبعه ، وجعل فيه توقيعه وصورته ، وذلك فى معنى النصح للمصريين بعدم مطالبة إنجلترا فى شىء ، فلا حاجة إلى جيش يحمى مصرَ لأن إنجلترا هى حامية لمصر من كلِّ اعتداء خارجىّ ، ولا حاجةَ لمصرَ بالمطالبة بالسودان لأن إنجلترا تَحْفَظُ النيلَ لمصر ، إلى غير ذلك من الآراء التى تضمَّنها هذا الكتابُ المطبوع المنشور الذى عندنا منه نسخة ، ولا يقدر سمو الخديوى أنْ يُؤاخذنا على ذكر هذا الكتابِ لأنه ما نشره ووضع عليه توقيعَه وصورتَه لِيَكْتُمَهُ ونحن دُهشنا فى الحقيقة لنشره كتابًا كهذا لكنّنا لم نتكلمْ معه بشأنه ، أولاً لما نعلمه من استقلاله بفكره ، وثانيًا لأن الكتابَ كان قد انتشر قبلَ علمنا به وقُضِىَ الأمرُ . غيرَ أنَّ الخديوى لم يقتصر على التقرب من الإنجليز بل رأى من واجباته مكافأة على حسن الصنيع أنْ يُصلح بين العرب واليهود وألحّ كثيرًا علىّ وعلى زميلى الجابرى فى هذه القضية ، وبَديهىٌ أنَّ هذا كان بتحريك اليهود أنفسهم الذين بذلوا لدينا كلَّ مجهود حتى نرضى بالدخول معهم فى موضوع كهذا ، وكرَّروا هذه المساعى من 15 سنة فخابت آمالهم . فيظهرُ أنَّهم قد استغاثوا بسمو الخديوى على أمل أنه يَقْدِرُ بنفوذ كلمته على إقناعنا ، فكنا نُدافعه ونعتذرُ لديه عن عدم إمكان تدخلنا فى هذا الأمر . وأخيرًا جاءَنى وحدَه بمنزلى فى لوزان وألحّ فى قضية اليهود إلحاحًا زائدًا ، فقلتُ له : يا أفندينا لستُ قادرًا على إطاعة أمرك فى هذا الموضوع لأن عربَ فلسطين يَرون كلَّ صلح مع اليهود مُجحفًا بهم . فقال : إنه يجب عليكم أنْ تنصحوا لهم أنتم الزعماء ، فإنّه يستحيل أنْ يقدرَ العربُ على مقاومة اليهود . فقلتُ له : كلُّ مَن يتكلم فى صلح بين العرب واليهود يَعتقدُ العربُ أنَّ اليهودَ قد اشترَوه ، فأنا لا أقدر على هذا ، ثم يا أفندينا هذا الصلحُ الذى أنت تطلبُه غيرُ قابل الإجراءَ لأن اليهود يريدون فلسطين أنّ تكونَ لهم ، فأين يذهبُ عربُ فلسطين ؟ فأجاب : إلى شرق الأردن ، فعندما سمعتُ هذا الكلامَ لم أملك نفسى ، وأخذتنى الحِدَّةُ فقلتُ له : ما الذى يحملك يا أفندينا وأنت أمير مسلم من أعظم أُمراء الإسلام أنْ تتفوّه بكلمات إذا نُقلت عنك تضرُّ بسمعتك ، فظهَر الغيظُ على وجهه ، وما عتَّم (ما لبث) أنْ نهضَ وانصرف ، وبعد أيام قطع الراتب المعهودَ ثم جاءَنى من بطانته عبدُ اللّه بك البشرى زائرًا ، وقال إنه يعتقدُ أنَّ هذه الوحشةَ سحابةُ صيفٍ زائلة ، إلخ . . . فرجوتُه =

سألتنى فى كتاب سابقٍ عن كلمة (دعاية) ، وقد خطرت فى بالى الآنَ فذكرتُها هنا بغير مناسبة لئلا أنساها بعدُ كما نَسِيْتُها من قبلُ ، فأقول إنها وردت فى أصحّ الروايات

= أنْ يَعرضَ لسموّ الجناب العالى كلَّ ما تَحَمّلْتُه من عداوة الملك فؤاد وغيره ومن كلام الناس من جرّاء هذا المرتب الضئيل الذى أشقُّ ما عليّ فيه أنى لم أكن مستعدًا أنْ أقبلَه منه ، وإنى ما رضيتُ بقبضه إلا حياءً وتأدُّبًا . فلذلك لا أريد أنْ يُحَدِّثَ الخديوى نفسَه بإعادته ، وأنا مع هذا شاكرٌ له عما مضى . ثم لقيتُ عبد اللّه بك البشرى فى أحد المقاهى فأعدتُ عليه الكلامَ نفسه . ومضى على ذلك بُرهة فصرتُ أسمع عن لسان الخديو شيئًا أشبهَ بالمنّ ، فكتبتُ إليه بغاية الأدب كما هو الواجب ، وذكرتُ له شكرى على كرم أخلاقه الماضى ، ولكنّى استحلفتُه قائلاً له : أنا أرضى بقولك ، أفأنا سعيتُ لديك رأسًا أو بالواسطة حتى تُجرَى عليَّ هذا الراتبَ أم أنت استعملتَ كلَّ وسيلة حتى أقبله ؟ وذكَّرتُه بما مضى من امتناعى عن قَبول أية معاونة منه لمَّا استأذنتُه فى الذهاب إلى طرابلس الغرب . ثم ذكَرتُ له العداواتِ الشديدةَ التى تَعرَّضْتُ لها والمكارِه التى رأيتُها بسببِ هذا الراتبِ ، وختمتُ الكلامَ قائلاً له : قد ارتكبتُ خطأً قَبول رِفْدِك (عطائك) بما سمعتُ من كلام بعض أصحابى مثل سليمان كنعان وغيره ، ولكنّى لن أرتكبَ هذه الغلطَة مرةً أخرى . فيظهرُ أنه لما قُطِعَ أملُه من رجوعى إليه صمَّم على الانتقام ، وذلك بإبراز المكاتيب التى كان سبق أنْ كتبتُها إليه ، وأكثر ذلك بإلحاح سليمان كنعان وأنطون الأرمنى ، وظهرت حكمةُ اقتضاء المراسلة معه بما ثبت من جمعه لهذه المكاتيب وحرصِه عليها إلى حدٍّ أنه كان يضعُها فى البنك بلوسرن فى الصندوق الذى فيه الجواهرِ الكريمة . والخلاصةُ أنه استدعى من عاونه على إفراز هذه المكاتيبِ ، وراجعوا كلَّ حرف فيها ، فلم يجدوا شيئًا يثلم شرفى ليتسلَّوا بنشره ، وإنما وجدوا المكتوبَ الذى أقول له فيه : إننا ذاهبون إلى روما نظرًا لانعقاد لجنة الانتدابات فيها ، وإن زميلى يقول إنه يجدُر بسموه أن يساعِدَنا على نفقات المصلحة العامة التى نحن ذاهبون من أجلها . وكتابى هذا صريح بأنَّ طلبَ المساعدة إنما هو للقضية التى نحن فى صددها لا لأشخاصنا . فظنُّوا أنَّهم يَشفُونَ غلِيلَهم بنشر هذا المكتوبِ ومكاتيبَ أُخرى يَفهم منها القارئ بأنّى كنتُ أَقبِضُ راتبًا من الخديوى - الأمر الذى ما أنكرتُه قطُّ بل أعلنتُه فى جريدة الشورى - ونقلوا بضعَة مكاتيبَ منها بالزنكغرافيا ، واستدعَوا شابًا سوريًّا معروفًا بما هو معروف به مما نُمسكُ عن الخوض فيه ، وسلَّموه هذه المكاتيبَ ، وأدَّوا إليه أجرته ليذهب إلى مصر ويُسَلِّمَ المكاتيبَ إلى شخص اشْتُهِرَ بعَداوتنا - وبدون سبب - ليفعلَ بها ما يشاءُ ، فهذه هى المكتوباتُ التى يُشير إليها السيد رشيد ، ويقول لنا بأن لا نبالى أمرها . فبقيتْ هذه المكاتيبُ مدةً فى يد العدو - بلا سبب - من سنة 1931م إلى سنة 1935م، وهو يترصَّدُ فرصةً لنشرها بإحدى المناسبات إلى أن لاحت له أخيرًا الفرصةُ الآتية :

فى سنة 1935م خطر ببال بعض السفلة من عرب فلسطين الذين قضوا 15 سنة فى خدمة اليهود والإنجليز أنْ يُقلِّدُوا خَطَّنا ويَضَعوا عن لساننا مكتوبًا منا إلى الحاجِّ أمين الحسينى بزعمهم ندعوه فيه إلى بثِّ الدعاية الإيطالية فى بلاد العرب !! وكان المقصودُ من هذه الدسيسة إسقاطنا وإسقاطَ الحاجِّ أمين الحسينى تَشَفِّيًا شخصيًّا منا وخدمةً لليهود والإنجليز . فهذا المكتوبُ بخطه وإملائه وإنشائه ومناقضاته الكثيرة للوقائع ظهر فى يوم نشره أنّه مزوَّر لا أصلَ له ، وملأ خبرُ تزويره الآفاقَ برغم كلّ ما بذل الأعداءُ من مال اليهود لإثباته . ولكنْ مَن صارع الحقَّ صرعه الحقّ ، وكبَّه على أُم رأسه﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ [طه : 61] ، فسقط فى أيدى عصابة التزوير ، وتحيَّروا فى أمرهم ، كيف يفعلون لتلافى هذه الفضيحة التى افتضحوها ، ولما كانوا على صلة بذلك العدو - بلا سببٍ - دفع إليهم هذا المكتوبَ الذى استنجدنا فيه الخديو يومَ ذهبنا إلى روما سنة 1935م حيثُ انعقدت لجنةُ الانتدابات ، وظنُّوا أنهم بنشره يَعوِّضون من فشلهم الفظيع فى التزويرة المعهودة ، إلا أنَّ الذين تأمَّلوا هذا المكتوبَ بعين الإنصاف لم يجدوا فيه شيئًا يَثْلِمُ من شرفنا لأنه لا يُعاب وفدٌ سياسيٌ ذاهبٌ لأجل=

فى كُتب النبى ﷺ إلى الملوك كما تراه فى البخارى وغيره ، وأنا الذى زَوَّجْتُها فى الاستعمال ، فهى من شواهد حُجَّتِكَ على الذين يُنكرون كلَّ ما لم يَرِدْ فى كُتب المعاجم المتداوَلة . ونقلَ رواةُ الصحاح من الحديث أوثقُ مِن رُواة اللغة ، وقد ورد دَعاوَة بالفتح فى دعوةِ النَّسَبِ ، وقلبِ الواو فى الكسر ياءٌ لمناسبة الكسرة ، وهذا القلبُ جائزٌ لا واجبٌ ، كما ورد فى القِوَام والقيام .

سُرِرْنا جدًّا بما دار بينَكم وبينَ مسيو جوفنيل(★) ، ولعلَّه يكون وسيلةً لإقناع وزارةِ فرنسا الحاضرة بما فيه خيرٌ لفرنسا على نُدرة ما يُرجى من خير . . . وما يُدرينا ما تواطأ عليه بونسو مع حكومته السورية الجديدة . وقد بلغنا أنَّ الملكَ فيصل قد تألَّم من هذا الخزىِّ الذى ارتكست[1] فيه سوريا ، وضعف أمله فيها ، أو زاد ضعفًا على ضَعْفٍ يجبُ أنْ نتلافاه ، وإن لم يكن عندنا فى سوريا رجال يُعتمد عليهم ، إلا أنَّ

= الدفاع عن استقلال أمة شرقيةٍ أعضاءُ الوفد منها هم ثلاثةُ أشخاص من ملايين إذا استمدُّوا أحدَ كبار أُمراء الشرقيين وموسريهم ممن طالما تحَكَّكَ بهم وعرض عليهم المددَ أنْ يعونهم فى نفقات هذه الرحلة . ولم تجرِ العادةُ أنَّ الوفود السياسية تُنفق على القضايا العامة من جيوب أصحابها ؛ فهذا الوفد المصرى تحت رئاسة زغلول باشا لمَّا ذهب إلى أوروبا سنة 1919م جمع له المصريون 400 ألف جنيه . وهذا الوفد الفلسطينى الذى ذهب إلى لندن للدفاع عن عرب فلسطين أنفق جميعَ نفقاته من الأموال المجموعة من بلاده . وهذه الوفود العراقية التى تذهب إلى أوروبا لا تُنفق إلا من الخزينة العراقية . فلا نَفهم لماذا جاز هذا كلُّه لوفود مصر وفلسطين والعراق ولم يَجُزْ للوفد السورى الذى يجبُ عليه أنْ يقضىَ 15 سنة فى أوروبا مدافعًا عن الوطن والأمة ولا يستمدّ أميرًا شرقيًا موسرًا ولا غيرَه ، بل أنْ تكونَ نفقاتُه كلُّها من جيوب أصحابه ؟ ففى أى شرع أو فى أى عرف وُجد هذا ؟ وأغرب من هذا أنَّ هذا المكتوبَ إلى الخديوى الذى فيه هذا الاستمدادُ قد وقع فيه التزوير أيضًا فإنَّهم نَشروه ناقصًا على حدِّ ﴿ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النساء : 43] ، لمن حذف ﴿ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء : 43] ، فرفعوا منه التاريخَ والديباجةَ والأسطرَ التى يُعرف منها أنَّ استمدادَ الوفد السورى لم يكن شخصيًّا بل لأجلِ المصلحة العامة . وبالرغم من هذا الحذفِ كلِّه لم يخف عن أحدٍ أنَّ هذا المكتوبَ ليس فيه ما يَشفى غليلاً لا لناقلِه بالزنكوغرافيا ولا لناشرِه ولا للذين حاولوا به تخفيفَ فضيحتِهم فى هذه التزويرةِ التى وَصَمَتْهم بالعار أبدَ الدهر .

أطلنا الكلام على القارئ فى قصة مكاتيبنا هذه إلى الخديو لأنه قلَّما وُجد فى الشرق من لم يَسمعْ بها ولأنَّ المتشدقين تشدَّقوا بها كثيرًا كما لا يَخفى ، فأحببنا نقلَها من أولها إلى آخرها بدون احتجان (حَجْبِ) شىء منها . ولو أردنا المقابلةَ بالمثل لَوَجَدْنَا فى قمطرنا مكاتيبَ فيها ما فيها . . . ولكن ربأنا بنفسنا عن المقابلة بالمثل فى عمل نترك الحكم فيه للقراء .

(★) هذه مقابلةٌ وقعت لنا معه فى جنيف سنة 1932م .

(1) **ارتكس فى أمر** : وقع ولم ينجُ .

الذين فى فلسطين قد جدَّدوا فى هذه الأيام حزبَ الاستقلال العربى بتأليف لجنة له غيرِ لجنة المؤتمر ، وهذه اللجنة هى التى استقبلت ياسين باشا الهاشمى فى هذا الأسبوعِ بِحَفَاوَةٍ عظيمة ، فرأى منهم هيئةً عاملةً قوَّت أملَه بلجنة بغدادَ التى كان أعرض عنها ، ورُوى أنّه استقال منها ، وقد وَعدهم بأخذها باليمين . وكنتُ كتبتُ لهم قُبيلَ وصوله وبعدَه بما ينبغى لهم معه مِن تقوية عزمه وأمله بزعامة الأمة العربية ، وبأنَّ السعى للوحدة العامة ولتوحيد القُطرين لا بُدَّ منه على كلِّ حال ، وأنّه لا يُمكن بدون طلب عطف الملك والعملِ مع نورى باشا .

إنّنى مخالفٌ لك وموافق لرأى إحسان بك فى مساعدة لجنتنا على مقاومة برلمان سوريا وحكومتها ، فعسى أنْ توافقَنى كما اعتدنا فى أمورِنا العامة ، وآخر أخبار الحجاز أنَّ جلالةَ الملكِ يرجو أنْ ينالَ القرضَ الذى يسعى إليه مضطرًا إليه من خديو مصر السابق(★) . والسلام عليك وعلى الشقيق والنجل النجيب .

رشيد



وكتب فى 16 ربيع الأول سنة 1351 و 20 تموز 1932 :

سيدى الأخُ الكريمُ والولىُّ الحميم أيّده اللّه وأيَّد به العلمَ والدين

كنتُ أمسِ صائمًا ، وقد بلغت الحرارةُ درجةَ الأربعين أو زادت من حيثُ بلغت العُسرة درجة 100 ، وجاءنا فى بريد الصباح إيذانٌ مِن بنكين باستحقاق كمبيالتين على إيذان من بنك مصر بالتذكير بكمبيالة سابقة بعد مطالبتى له بتأجيل كمبيالة استُحقت فى هذا الشهرِ . ثم جاءنى بعدَ العصر عاملٌ من مَحلّ تجارة نكامولى يحمل ثلاثَ كمبيالاتٍ قديمة لم تُدفع لتغييرها بكمبيالات جديدة مؤجَّلة تُستحق أُولاها بعدَ شهرين فأمضيتُ الجديدةَ واستعدتُ القديمةَ . وإن ما يُطلب منا اليومَ لا نملك عُشرَه ولا

(★) كان هذا الوعدُ قد وقع على أثر حادثة خيف من عاقبتها ثم لم ينجز من الوعد شىء .

نصفَ عشره . وفى ظُهر أمس طلبتُ الشيخَ فوزانَ[1] ، وجلسنا ساعة أو أكثر نبحث فى مسألة فوزى القاوقجى ، وقد ثبتت الروايةُ بإرسال الملك إياه من الحجاز إلى الرياض مكبَّلاً بالحديد . وإخوانُنا فى مصر وفلسطين والشام مُضطربون متململون متَّفقون على السعى لإنقاذه ، وقد أقنعتُ الشيخَ فوزانَ بإرسال برقية إلى جلالته بأنَّ أصدقاء فوزى كلَّهم من أنصار جلالته ، ويرون هذا التنكيل بفوزى منافيًا لمصلحته ، ويَرجون العفوَ عنه والسماحَ له بالسفر إلى حيثُ يشاء ، واثقين بأنّه لنْ يقولَ ولنْ يفعلَ شيئًا فى البلد الذى يُقيم فيه مما يسوءُ جلالته . .

كذلك كان صباحُ أَمسِنا وظهرُه ومساؤه ، وإنا لصابرون حتى مَنَّ اللَّه علينا قبلَ الغروب بكتابك الكريم فكان خيرَ خاتمة له شرحت الصدر بما افتتح به من عناية الأخ بأخيه « وإن كانت مسائلُه وموضوعاتُه لا تَسُرُّ » فقرأتُه وقمتُ إلى مائدة الإفطار مرتاحًا ، وكان الحرُّ قد خفَّت وطأتُه والهواء يلطف رويدًا رويدًا كعادته حتى كان الليل مِن ألطف ليالى الصيف المعتادة فى القاهرة ، وهكذا يجعلُ اللَّه بعد عُسر يسرًا .

أما فعلة . . . فَشِنْشِنَةُ أَخْزَم[2] عصبىِّ المِزاج ، وقد لمز السيد فلانًا فى كتابه هذا على عنايته بالدفاع عنه ، وقد انفصمت عُرى المودة بينه وبين فلان على ما كان من غُلُوِّه فيه ، ولكنَّ هذا تَجهَّم فى وجهه مرارًا ، وعسى أنْ تبقى الجفوةُ بينَهما خَفيَّةً لا يُكتب فيها شىءُ ، وقد زارنى ليلاً وأهدى إلىَّ كتابه ، وأخبرنى بسفره ، فدعوتُه إلى غداء اليوم الذى زارنى فى ليلته ، وكنتُ رأيتُ كتابه فى الليل ، فسألنى عنه فى النهار فلم أنتقدْ ولم أقرِّظْ .

وأمّا فلان وفلان فقد سرّنى مما كتبتَ أنك رجعتَ إلى رأيى القديم فيهما ، وقلّما تُقْنَعُ بسوء سيرة أحد ، وطالما قلتُ ليتَ الأميرين الشقيقين يقتسمان حُسْنَ الظنِّ وسوءَه ، فيكونَ بينهما شِقُّ الأبلمة[3] .

---

(1) هو **فوزان بن سابق بن فوزان آل عثمان النجدى** (1275 - 1373هـ / 1858 - 1954م) من فقهاء الحنابلة ، ساعد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود مؤسس الدولة السعودية الثانية ، وعُيّن معتمدًا له فى دمشق وفى القاهرة . (الأعلام : 5/ 162) .

(2) **الشِّنْشَنَة** : العادة الغالبة ، أَخْزَم : علم من أعلام العرب ، وفى المثل : (شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم) .

(3) **الأبلمة** : خوصة النخيل وغيره ، يُقال : الأمر بيننا شقُّ الأبلمة : على السواء (**انظر** : لسان العرب : بلم) .

وأما المنتقدُ اللغوى فقد ذهب به الإدلال بنظرياته إلى الجرأة على ما نقول فى الحديث النبوى ، فلفظُ الدعاية ثابت فى رواية البخارى وفى أصح الروايات ، وهو مقيس ، ومثله الشكاية من شكا يشكو ، وهو أيضًا منقول فى لسان العرب ومستدرك الزبيدى على القاموس(★) . . . ولا يَتّسع وقتى لذكر شىءٍ آخرَ من كلماته ، على أننى لا أستعمل منها إلا الموضوعات فيما أتذكر .

(★) جاءَ فى مخصص ابن سيده صفحة 19 من الجزء الرابع عشر ما يلى : « وأرى كيف تدخل الياء على الواو والواو على الياء من غير علّة إما لمعاقبة عند القبيلة الواحدة من العرب ، وإما لافتراق القبيلتين فى اللغتين . فأما ما دخلت فيه الواو على الياء والياء على الواو لعلّة فلا حاجةَ بنا إلى ذكره فى هذا الكتاب لأنه قانون من قوانين التصريف . قال الأصمعى : سألتُ المفضّلَ عن **قول الأعشى** :

لعَمْرى لمَن أمسى مِن القومِ شاخِصًا لقد نال خَيْصًا مِن عَفيرةِ خائصا

فقلت : ما معنى خيصًا خائصًا ؟ فقال : أراه مِن قولهم فلان يُخَوّصُ العطاءَ فى بنى فلان أىْ يقلّله ، فكأنَّ خيصًا شىء يسير ، ثم بالغ بقوله خائصًا ، كما قالوا : موت مائت . قلت له : فقد كان يجبُ أنْ يقولَ : لقد نال خوصًا إذ هو من قولهم : هو مخوّص العطاء . فقال : هو على المعاقبة ، وهى لغة لأهل الحجاز ، وليست بمطردة فى لغتهم . وأنا أذكرُ منها بحسب ما يحضرنى إن شاء اللّه ، قال ابن السكيت : أهل الحجاز يُسمُّون الصَّواغ الصيّاغ . قال : ويقولون : الميائر والمواثر والمواثق والمياثق (وأخذ يُورد من الأمثال) : المتأوّب والمتأيّب ، وشيّطه وشوّطه ، وقد دوَّخوا الرجل وديخوه ، وقد فاد يفود ويفيد فى الموت ، وعار يعور ويعير إذا ذهب ههنا وهِهنا ، وغارنى الرجل يغيرنى ويغورنى إذا أعطاك الدِّية ، وقد تحيزتُ وتحوزتُ ، وتوّهتُ الرجل وتيّهته ، وطوّحته وطيّحته ، وماهت الرَّكِيَّة (البئر لم تُطْوَ) تموه ، وقد قيل تميه وتماه ، ويقال طالِ طولَك وطالِ طيلَك ، وضارَه يَضيره . وزعم الكسائى أنّه سمع بعض أهل العالية يقول : لا ينفعنى ذلك ولا يضُورنى ، وإنَّ فلانًا لسريع الأوبة ، وقوم يحولون الواو ياء فيقولون سريع الأيبة ، وقوم يقولون : لاته يليته ، ولغة أخرى يلوته .

إلى أنْ يقولَ :

تبوَّغ الدمُ بصاحبه غلبه ، وفى الحديث : « إذا تبيّغ الدم بصاحبه فليحتجم » وما أعيج من كلامه بشىء ، وبنو أسد يقولون : ما أعوج بكلامه . ويقال : هو من صيابة قومه وصوّابة قومه ، وثور وثِورة وثِيرة . وقد تصيح البقل إذا هاج ، وتصوّح ، وتصيّع وتصوّع ، وأقاوم وأقايم ، وتهيّر الجرف وتهوّر ، وفاحت ريحه تفيح فيحًا وفاحت ريحه فوحًا ، والطوّع والطيع . ويقول بعضهم : حكوت عنه الكلام أى حكيت ، وطما الماء يطمى ويطمو ، وكذلك ينمى وينمو ، ومقا الطست أىْ جلاها يمقوها ويمقيها ، وقد نثوت الحديث ونثيته وفليت رأسه بالسيف وفلوت ، وفأيت وفأوت ، وداهية دهياء ودهواء ، وغنم قنوة وقنية ، والنقاوة من كلّ شىء خياره والنقاية ، والنفاية والنفاوة ، وعزيته إلى أبيه وبنو أسد يقولون عزوته إلى أبيه ، وحثيت عليه التراب وحثوته ، وما كان مُرْضِيًا ومُرْضُوًا ، وأهل العالية يقولون القصوى ، وأهل نجد يقولون القُصيا ، وحكى الفرّاء عن الكسائى : سناها الغيث يسنوها فهى مسنوّة ومسنيّة ، وسحوت الطين عن الأرض وسحيته ، وقد أتوت به وأتيت إتاية وإتاوة ، ورثوته ورثيته ، ورغاية اللبن ورغاوته ، ومحوت أمحو ومحيت أمحى ، وجبوت الخراج وجبيته جباوة وجباية ، وطغوت يا رجلُ وطغيت ، وهذوت وهذيت ، ولحوت العصا ولحيتها ، وطهيت اللحم وطهوته ، وقد صغوت وصغيت ، ولغوت ولغيت ، وعلوت وعليت ، وسلوت وسليت » ، اهـ باختصار .

ولم يذكر الفيروزآبادى إلا الدعاوة بالواو ، ولكنّه ذكر أنَّ « دعيت لغة فى دعوت » ، وذكر الزبيدى فيما استدركه على القاموس « دِعاية الإسلام » بكسر أوله ، وهى دَعْوَتُهُ .

هذا ، وإننى لم أذكُر لك أنَّ لفظ (الدّعاوة) قد وَرَدَ فى اللغة إلاَّ لبيان أنَّ كونَ أصل المادة واويةٌ لا يمنع قلبَ الواو ياء لمناسبة كسرِ أولِ الكلمة . وجملة القول أن لفظ (الدعاية) وردت بأصحِّ الروايات وهى مَقيسةٌ .

وأما المسألةُ السورية فهى تتحوّل بالتدريج السريع ، ولولا بذلُ المال للجرائد . . . لكان التحولُ أسرعَ ، وأظنُّ أنّنى كتبتُ إليك أننا كنا قبلَ الانتخابِ التكميليِّ الذى وقع فى الشام - بل تذكرتُ - أنّنا سعينا لتأليف وفد سورى يذهبُ إلى أوروبا للسعى لاستقلال سورية ووحدتها ، وأنا الذى توليتُ يومَئذ الكتابةَ إلى هاشم بك الإتاسى ، فأجاب بالاستحسان والإرجاء . . . ومنذ أسبوعٍ جاءنى منه كتابٌ آخرُ يقول فيه إنه كَلَّفَ الجابرى أنْ يُكَلِّمَ هنانو فى ذلك ، فاستحسن هنانو أنْ يذهبَ هو والإتاسى وفارس الخورى من سوريا وشهبندر وأسعد داغر من مصر ، وينضم إليهم شكيب وإحسان من جنيف . ولما بحثنا مع الإخوان هنا فى المسألة اتفقنا على أنَّ هذه اللجنةَ إنْ تيسَّرَ اجتماعُها فى أوروبا فلا يُرجى أنْ يكونَ لسعيها تأثيرٌ مع وجود وفد حكومة سوريا الرسمىّ . واقترحتُ أنا أنْ نَسعى لدى العراق بأن يتألَّفَ وفدٌ يشترك فيه العراقيون والسوريون ، ويكونَ سعيه فى جنيف وفرنسا وإنجلترا لتوحيد القُطرين . فقُبل هذا الاقتراحُ ، وكتب الدكتور بشأنه كتابًا إلى جلالة الملك وأسعد إلى الهاشمى وجودت ، وسأُخبركم بما يأتى من الجواب .

وما ذكرتُ من كتاب الملك إلى إحسان بك جاء شىء بمعناه إلى الدكتور قدرى . والمرجوُّ أن يكونَ اجتماعُ جلالته بالهاشمى بعد عودته من سوريا وفلسطين قد جدّد له أملا يَقوى بما كتبه الشهبندر أخيرًا ، وكذا أسعد كتب إلى جلالته ، ولا بُدَّ أنْ يكونَ الدكتور قدرى أيّدهما ، وهو الآن فى الإسكندرية ، وقد كتب إليه أسعد بكلِّ شىء .

ثم إن حزبَ الاستقلال الذى يُعنى الآن بتجديد جهاده سيبثُّ الدعايةَ لمسألة الوحدة ولمقاومة حكومة الجمهورية الجديدة ، وقد حضر فى هذا الأسبوع الحاجّ أديب خير ، وأخبرنا بأنَّ الاستعدادَ فى الشام عظيمٌ لا ينقصه إلا قيامُ زعيم قوىِّ الإرادة يَظهر بالمعارضة .

هذا ، وإنَّ ابن رفادة[1] الثائر على الحجاز قد نهضت الدلائلُ وصحَّت الأخبار بأنَّ كلَّ نفقاته تُرسل إليه من مصر بحرًا ، وأنَّ المحركَ له فلان بالاتفاق مع فلان . وأخبرنى اليومَ عبد الغنى الرافعى أنّه جاءه كتاب من اليمن أو عدن بأنَّ قبائل عَسير قتلت رجالَ ابن سعود إلا واحدًا أو اثنين فرًّا هاربين ، وقال إنّه سينشرُ هذا لأنه مُوقن بِصحَّته . والسلام عليك وعلى الصديقين الكريمين الأمير عادل وإحسان بك ، وأُقبّل طرةَ غالب وغرّته داعيًا ، ومع هذا كتابٌ من الإمام يحيى للأميرِ عادلِ ، حفظكم اللَّه أجمعين .

رشيد

★★★

وكتب فى 2 ربيع الآخرِ 1351 :

سيدى الأخُ الأميرُ حفظه اللَّه ، ودام توفيقُه

إنى أُلقى إلىَّ كتابك رقم 22 ربيع الأول أولَ من أمسِ .

إلى أن يقولَ :

وجدنا من التجار من أعطانا ورقًا بالدَّينِ فَطَبَعْنا منه رسالةَ النساء التى أرسلتُها إليك وإلى الأخ الأمير عادل ، وطَبعنا جزأين من المنار شرعنا فى توزيعِهما اليومَ ، وبدأتُ بطبع رسالة أُخرى فى مسألة الوحى المحمدى والقرآن لم يُكتب مثلها فى الإسلام ، وهى من مباحث التفسير ، وفيها إقامة الحُجَّة على أهل الكتاب ، ولا سيما النصارى وعلى الماديين المنكرين لعالم الغيب ، الذين يقولُ أمثلُهم طريقةً وأعلَمُهم بالسيرة المحمدية : إن محمدًا كان صادقًا ، ولكنَّ الوحى من نفسه العالية لا من السماء ،

---

(1) **هو حامد بن سالم بن رفادة** (ت 1351هـ / 1932م) من قبيلة (بلى) جنح إلى العصيان على الملك عبد العزيز بن سعود سنة 1347 / 1928م ، وفرَّ إلى القاهرة ثم سافر إلى عمّان ثم عاد إلى القاهرة ، واتصل بملكها أحمد فؤاد ، وكان بينه وبين ابن سعود قطيعة توقف على إثرها الحج ، فعاونه ، وجاءه مدد من عمّان ، وخاض حربًا على جيش ابن سعود فى سهل جبل (شار) ، وقتل هو وجيشه إلا قليلاً ، وجزت رأسه ، ولعب بها الأطفال ، وعلقت فى سوقها . (الأعلام : 2/ 161) .

ومنهم « مونته » و« درمنغام »(★) . وسترى أولَ هذا الفصلِ فى المنار فى تفسير : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس : 2] . إلخ . وسنُعيد طبعَ رسالة « لماذا » فى هذا الشهرِ إنْ شاء اللّه تعالى ، وألزمتُ السيدَ عاصمًا أنْ يكتبَ لك تحريرَ الحساب ، ويطلعَنى عليه قبلَ إرساله .

كان الدكتور فلان متألمًا أشدَّ التألم من كتابة أبى الحسن الجديدة بسبب تصدير كتابه بصورتك وكتابك لا بمجرَّد الطعنِ ، فقد قال إننا تعوَّدنا هذا منه ومن غيره .

إلى أنْ يقول :

فلما أطلعته على كتابك سُرَّ به ،.وقال لو أنّ الأمير نفسَه نَشر شيئًا يُصرِّحُ فيه بعدم رضاه عما نشر لأجل التصافى الذى حصل وخدمة الوطن المشتركة – يكونُ ذلك أَولى وأنفعَ من كتابة . . . على أنه لا يفعلُ لأنه عصبىّ المِزاج يَشُقُّ عليه تخطئةُ نفسه . وأنا أرى رأى الدكتور ، ويسهلُ عليك أنْ تتقىَ إيلامَ أبى الحسن فيما تَكتبه(★★) .

مقالتك التى نُشرت فى جريدة الجامعة العربية جاءَت مخالفةً للكُتَّابِ المِصريين وغيرِ الكتاب منهم ومن السوريين والفلسطينيين فى تبرئة الإنجليز من ثورة ابن رفادة ، وقد كانت استطرادًا فى ردٍّ على مَن زعموا أنَّ للإنجليز دسائسَ فى سورية . . . ولولا أنّك تعوّدت الإحاطة بالمسائل من جميع أكنافها وأطرافها لم يكن للدفاع عن الإنجليز فى هذه المسألةِ مُقْتَضٍ ، وهو مما يسوءُ مُبْغِضِيهم من المِصريين والفلسطينيين وغيرهم(★★★) .

على أنَّ الدلائلَ التى تدلُّ على ما لهم من الهوى والسياسة فيها كثيرة ، منها أقوال

(★) كلاهما فرنسى ، ومونته ترجم القرآن إلى الفرنسية ، وكتب عن محمد ﷺ وأنصف ، وكان أستاذًا فى جامعة جنيف .

(★★) قد عملنا برأى الأستاذ ورأى صاحبه ، ونشرنا مقالةً فى « الجامعة العربية » تحتَ عُنوان « لا نسر حسوًا فى ارتغاء » واستحسنها الأستاذ كثيرًا وغيرُه ، ولم يُفدِ ذلك شيئًا .

(★★★) لا أقدِرُ أنْ أقول إلا ما أعتقدُ . وكنتُ أعلمُ مصدرَ حركة ابن رفادة وأعلمُ أنَّ الإنجليز كانوا أجانبَ عنها ، وأن دسائسهم أعظمُ جدًّا من هذه الدسيسة الصغيرة . ولم أكنْ فى حاجة إلى مثلها لأجل إثبات ضَرَرِهم بالعرب والإسلام ، فالأدلة على هذا أكثرُ من أنْ تُحصى . أما « أبو حنيك » هذا فهو دسَّاس عادىّ لا يُؤبه له ، وليس بخارجية إنجلترا ، وأما الاستعدادُ العسكرى الذى أحدثوه على حدود شرق الأردن فهذا شأنُهم فى كلِّ مكان تَحْدُثُ فيه ثورةٌ هم على مَقْرُبَةٍ منها .

كبريات جرائدهم فى تعظيم أمرِ هذه الحركةِ ومؤيدِيها وذمٍّ ابن السعود ، وادعاءِ أنَّ أهلَ الحجاز وسائرَ المسلمين كارهون لوجوده فى الحجاز ، ويسرُّهم خروجُه منه ، (ومنها) تصريحات مستر كلوب (أبو حنيك) التى نشرت فى الجرائد ، وهو المنظِّم لقوة الدفاع على حدود شرق الأردن الحجازية والنجدية ، (ومنها) الاستعداد العسكرى الذى أحدثوه على هذه الحدود فى هذا الوقت ، (ومنها) أنه لم يكن من الممكن أنْ يَخْرُجَ ابن رفادة من مصر إلى سيناء « وحاميتها تحت سلطة الإنجليز » إلى العقبة ويدخلَ فى أرض الحجاز بدون علمِهم ، ثم تُرسل إليه المؤونةُ والذخائر من السويس وتصل إليه ، وأنْ يساعدَه قائمقام العقبة فى كلِّ ما أراده - ولكنَّ هذا قد عزل الآن من العقبة كما هى العادة فى كلِّ الخونة الذين يستعملون سرًّا فى أمثال هذه الأعمال - وأما مسألة . . . فلا حاجة إلى كتابة شىء فيها ، وإنما أقولُ لك خاصةً أنَّه جاءنى كتابٌ فى أولِ ذى القعدة من الحجاز يخبرنى مُرسلُه ، وهو صديقى وأعلمُ أهل الحجاز بالأمور العامة ، أنه قد علم أنَّ بين . . . و . . . تواطؤا على إحداثِ فتنةٍ فى الحجاز بعد مَوْسم الحجِّ ، وأن . . . تعلم هذا وتساعدُ عليه ، وأنَّ بعض جواسيسها فى الحجاز قد اعترف بذلك أو شىء منه بقصد التعمية . . . إلخ . وسترى رأيى فى حظِّ الإنجليز من هذه الفتنة فى المنار ، ولا أعتقد أنَّ الإنجليز هم الذين دبّروها ، وإنما أعتقدُ أنَّهم أرادوا أنْ يستفيدوا منها إنْ نجحت من حيثُ لا يُؤخذ عليهم عملٌ رسميٌّ إذا فَشِلَتْ ، فإنهم أولُ مَن أخبرَ ابنَ السعود خبرَها ، أما وقد قُضِيَ على الثورة فى معركة واحدة فسيعلمُ ابن سعود من خبرها أكثرَ مما كان يعلمُه ، وإنا لمنتظرون ما يبدو منها . والسلامُ عليكم وعلى الأخوين الكريمين والنجل النجيب .

رشيد

وكتب إلىَّ فى 9 جمادى الأولى 1351 و 10 سبتمبر 1932 :

أخى أمير البيان المجاهدُ فى سبيل اللَّه بالقلم واللسان ، أدام اللَّه توفيقَه

ما أشدَّ سرورى وابتهاجى بخبر زيارتك لإخواننا الكرام مُسلمِى بُوسنة وهرسك فى ديارهم ، وما كانت غبطتُك بهم وغبطتُهم بك ومعرفتُهم لقدرك ورفعُهم لذكرك

وتنافسُهم فى ضيافتك وإحيائهم للشعور الإسلامى فى قومهم بالحفاوة بك ، فيالها من بشارةٍ عظيمةٍ استمساك هؤلاء المسلمين الأخيار بعُروة دِينهم الوثقى وإعلائهم لكلمة اللَّه تعالى فى تلك البلاد وإقامتهم لشعائر الإسلام فيها ، وإنك على حقٍّ وصواب فى استحسانك وتمنيك لتعاهد مسلمى البلاد العربية لهم بالزيارة والتعارفِ بينهم ، ولكنَّك نَسِيتَ أنَّ أكثرَ القادرين على الأسفار من مُسلمى مصر والشام والعراق هم الأغنياء الفاسقون الذين نحمد اللَّه تعالى على غفلتهم عنهم وعدم وُجدانهم الباعثَ على الإلمام ببلادهم ، فإنَّهم قدوةُ سوءٍ يَحْزُنُ أولئك المسلمينَ الأخيارَ وجودُهم بينهم ، ولا أعرِفُ أحدًا من القادرين على هذه الزيارة بباعث الإسلام من إخواننا المصريين إلا محمودَ بك سالم الذى يُقيم فى باريس ، وقد سافر من هنا منذُ أشهر إلى فلسطين فسوريا (وكان قد حضر المؤتمر الإسلامى فى القدس) عازمًا على الطواف فى بلاد الترك والبلقان ويوغوسلافيا للوقوف على أحوال المسلمين وترغيبهم فى عقد مؤتمر إسلامى خاصّ بهم ، ووعدنى عندما ودَّعنى بأن سيكتب إلىَّ من كل قطر ، ولمّا يَفِ بوعده ، وهو قليل الكتابة كثير الكلام والاهتمام بالمسائل الإسلامية العامة .

والعبرةُ فى هذه الرحلةِ من وجهين : « **أحدهما** » أنَّ الشعور الدينى فى هذه البلاد أقوى منه فى بلاد مصر وسوريا والعراق وبلاد الترك ، وأظنّ أنَّ مثلها بلاد إيران ، ولكنّه ليس أقوى من بلاد الهند ، ولعلَّ مِن أهم أسبابه فَقْدَ الحكم الإسلامى أو الامتعاض من حُكم غير المسلمين ، فإنَّ الحفاوة التى رأيتُها فى بلاد الهند(★) لا تقلُّ عما وجدت فى البوسنة والهرسك . و« **ثانيهما** » أنَّ زعامة العلم والدين والأدب أعظم وأعزُّ من زعامة المال والجاه الدنيوىّ ، فإن كان خديو مصر السابق ، وهو من أكبر الأغنياء وحملة لقب يلى لقب الملك ، لم يُعن به أحد فى تلك البلاد عشر معشار ما عُنى بأمير البيان وخادم الإسلام ، فإنه قد مات فى هذا الصيف حافظ إبراهيم[1]

(★) السيد رشيد زار الهندَ قبلَ الحرب العامة .

(1) هو **محمد حافظ بن إبراهيم فهمى المهندس** (1287 – 1351هـ / 1871 – 1932م) شاعر مصر القومى ، شاعر النيل ، عمل محاميًا ، وضابطًا ، ورئيسًا للقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية ، (الأعلام : 6/ 76) .

الشاعر الأديب ومات بعده أكبرُ أمير من أمراء البيت المالك هنا ، ولم يحفلْ الشعبُ كتابُه وأدباؤه بموت هذا الأمير معشارَ ما حفلوا بموت الأديب الفقير ، فهم لا يزالون يَرثُونه ويُؤبنونه ، وقد شاركهم فى هذا أُدباءُ العرب فى جميع الأقطار العربية شرقيها وغربيها ، ولم يحفل أحد من هذه الأقطار بموت الأمير المصرى نسيبِ مَلِك مصر ، وأقربِ الأمراء إليه وأحظاهم عنده .

رسالةُ حقوق النِّساءِ فى الإسلام :

هذه الرسالةُ لا بُدَّ من اختصارها لأجل ترجمة المختصر فى اللغات الأوروبية وغيرها لأجل نشرها فى المولد النبوىّ القابلِ مِن قِبَلِ جمعيةِ الهند ، فأحبُّ أنْ تعيدَ النظرَ فيها عند سُنوح الفرصة ، وتذكرَ لى ما يحسُن حذفُه منها عند الاختصار ، وهو ما يُرجى أنْ يكونَ له تأثيرٌ كبيرٌ فى نظر الإفرنج ولا سيما نساؤهم ؛ لأن الغرضَ من ترجمتها إقناعُهن قبلَ كلِّ أحدٍ بفضل الإسلام والإصلاح المحمدىّ العام . وأنا أرى أنَّ مما يُحذف أو يُختصر أكثرُ ممَّا ذكرناه من سيرة أزواج النبى ﷺ وسببِ زواج كلٍّ مِنْهُنَّ ، فيكتفى فيه بالإجمال ، ورأيُك أصحُّ لأنك تعلم مِن ذوقِ الإفرنج ما لا أعلمُ ، وقد شاورتُ فى هذه المسألةِ صديقى الذى ترجم لى بالإنجليزية « خلاصة السيرة المحمدية » ولمَّا يَبْدُ لى رأيُه ، وهو فى الإسكندرية .

رسالة لماذا[1] :

قد تمَّ طبعُ الرسالة ، ووَضَعْنا بعضَ النّسخ منها فى الصندوق الذى سَيُرسل إلى مَن أمرتَ بإرساله إليه فى يوغوسلافيا متضمِّنًا لنُسخ الارتسامات ، وقد كتب لك السيدُ عاصمٌ كشفًا بحساب الطبعة الأولى من رسالة « لماذا » وحدَه لنفاد نُسخها ، وسيضيفُ حسابَ الطبعة الثانية إلى حساب الرحلة « الارتسامات » من الجهة المالية ، ويتحدُّ الحسابُ فيما بعدُ .

« مسألتنا السياسية » ألَّف إخوانُنا فى القدس أو جدّدوا تأليفَ حزب الاستقلال العربى بقانون جديد ، وطفِقوا يُنْشئون له فروعًا فى سوريا كلِّها ، وقد اقتنعوا كلُّهم

---

(1) يقصد رسالة (لماذا تأخر المسلمون ؟) تأليف الأمير شكيب أرسلان .

بمسألة توحيد القُطرين حتى نبيه بك العظمة الذى كان أولَ المعترضين عليك ، ولكنْ بِقَىَ من مشهوريهم الشيخُ كاملُ القصّاب ، وهو قد اعتزل السياسةَ بعدَ عودته من الحجاز . وقد أصدرتْ لجنتنا التنفيذية بيانًا جديدًا صرَّحَتْ فيه بوجوب الوَحدة بعدَ أنْ مهَّدت لها السبيلَ فى العراق وسوريا وفلسطين ، وإنى مرسلٌ إليك اليومَ نسخةً منه لتنشروه عندكم . ويسافرُ اليوم إلى القدس سكرتيرنا أسعد أفندى داغر ليجتمع بإخواننا مؤسسى الحزب على ما يعرضونه على جلالة الملك فيصل فى موضوع الوحدة ، ثم يُسافر منها إلى عمَّان للقاء جلالته على موعد جاءَت الإشارة به من بغداد ، وموعد وصول جلالته إلى عمَّان اليومَ أو غدًا .

وقد حَدَثَ شىءٌ جديدٌ مُكَدِّرٌ يَجتهد أسعدُ أفندى فى السعى لتلافى شرِّه ، ويَحمل كتابًا منى إلى الإخوان بشأنه ، وهاك خلاصةَ خبره : جاء منذُ أيام كتابٌ إلى الدكتور قدرى من أخيه المرافق لجلالة الملك فيصل يقول فيه إن الملكَ عليًّا لما عاد من عمان إلى بغدادَ أخيرًا أخبر جلالةَ أخيه الملك فيصلاً أن فلانًا أفضى إليه بالطعن على حزب الاستقلال العربى الذى أُلف فى فلسطين ، ووصفه بأنه ينصر مَلِكَ الحجاز ونجد عليهم . . . أو ما هذا معناه ، وأنَّ الملكَ استاء استياءً شديدًا من الخلاف والشقاق بين الإخوان العاملين وبين المفتى الجليل الكبير . وجاءنى أمس كتابٌ من نبيه بك ذَكَرَ فيه أنّه جاءَه كتاب من ياسين باشا الهاشمىّ بأنْ يمهد السبيلَ فى بغداد لأجل عقد المؤتمر العربى ، وأنّه حدث ما سَخِط منه جلالةُ الملك واستاء جدّ الاستياء ، وهو وقوع الشقاقُ بين الإخوان « مؤسسى الحزب ودعاة المؤتمر » والمفتى الحسينى . وجاءنى كتابٌ فى معناه من الحزب باسم أسعد أفندى داغر . وقد عَدَّ الإخوانُ هذا الاستياء من الملكِ فيصل تدخّلاً منه فى أمر المؤتمر العربى يُعَدُّ مانعًا من حريته ، ويُوجب الامتناعَ من عقده فى بغدادَ ، وهذا خطأ منهم فإنَّ الاستياء من الشقاق أمرٌ طبيعىٌ ، فإنَّ كلَّ مخلصٍ للأمة يسوءُه كلُّ شقاق وخلاف يقع بين رجالها ، ولذلك رأيتُ أولَ ما يجب أنْ نُعنى به فى هذه الحادثةِ المؤسفةِ السعىَ لإصلاح ذاتِ البين قبل مقابلة جلالةِ الملك فيصلٍ لأنَّ فَشَلَ عقد المؤتمر فى بغداد بهذا السبب يُؤثّر فى مسألة الوحدة التى آن أوانُ السعى العملىّ لها .

وأمَّا رأيى فى أمر فلان فهو أنه رجل له مزايا لم تُوجد فى غيره من أهل بلدِه ولا بلادهِ كلِّها ، وأنه أمكنَ له أنْ يؤسسَ لنفسه مركزًا وصِيتًا طائرًا فى العالم الإسلامى كلِّه ، فلا يجوزُ لرجل مخلص لأمته ووطنه أنْ يسعى لإسقاطِ أو هدمِ صِيْتِهِ ، وإنَّما يجبُ العنايةُ بالانتفاع به بقدر الإمكان ، فلمَّا تألَّف هذا الحزب ، وقامت قبلَ تأليفه الدعوةُ إلى عقد مؤتمر عربى عام بدون رأيهِ ولا مشاركتِه ، وحضر زعيمُ العراق الهاشميّ إلى القدس للمفاوضةِ مع دعاة المؤتمر ، فلم يجدْ له قولاً ولا فعلاً معهم ، كبر ذلك عليه . فلمَّا وصلت المسألة إلى هذا الحدِّ كتبتُ إليهم ولقّنتُ أسعدَ أفندى ما يجب من السعى لإصلاح ذاتِ البين على قاعدتى فى خطر السعى لهدمه وإسقاطه ووجوبِ إقناعه بأنّهم يحترمونه ويُجلون مَقامه ، ويتعاونون معه على كلِّ ما فيه نفعٌ للأمة مع استقلالهم فى عملهم واستقلاله فى عمله ، فإن لم يقبلْ فَلْيَدَعُوهُ وشأنه مع اجتناب أىِّ عملٍ عدائىٍّ له يكونون به حجّةً عند عقلاء الأمة العربية وسائرِ المسلمين ، على أنَّ أكبر داء من أدواء العرب التى لا يقوم لهم معه قائمةٌ هذا الشقاقُ والتحاسدُ فى الباطل . . كتبتُ إلى نبيه بك بأنْ يجمَع أسعدَ أفندى بالأستاذ الجليل العاقل المصلح الشيخ إسماعيل الحافظ ليستعينَ به على إقناع الحسينى بالصلح ، فإن لم يَقتنعْ فيُرجى أنْ يُقنعَه الملكُ فيصلٌ بعدَ الوقوف على حقيقة الأمر ، فإن اقتنع سرًّا وجهرًا فهو خيرٌ له .

مسألةُ العقبةِ وفتنة ابن رفادة[1]

حدث هذا الخطبُ الأكبرُ والفتنةُ فى أثناء رحلتهم هذه ، فتعذَّرَ علينا مخاطبتُكم بشأنها والاستعانة برأيكم فيها ، وأظن أنّكم علمتم بشىء كثير من حوادثها فى أثناء السفر وبعدَ العودة إلى جنيف ، وقد أخذ جلالةُ الملك السعودى بالحزم التام ، وجَمَعَ من الجنود النجدية على حدود العقبة وحدود شرق الأردن ما يكفى لمقاومة أضعاف أضعاف فتنة ابن رفادة ، بل ما يكفى للاستيلاء على شرقىّ الأردن كلِّه ، وبطش بابن رفادة فقضى على فتنته فى معركة واحدة ، وهى لم تكن تحتاجُ إلى عُشْرِ هذه القوّة .

وكان المُنْتَظَرُ من حزمه ، ومما عُلِمَ من قيام العالم العربى والإسلامى فى الانتصار

(1) سبق التعريف به .

له والطعن على الإنجليز والتشنيع عليهم بأنّهم يَبْغُونَ الاعتداءَ على الحجاز نفسه ، ومما كان هياج أهل نجد كلِّهم بدوِهم وحضرهم ومطالبتهم إياه بأنْ يأذَنَ لهم بالجهاد الواجب عليهم - كان المنتظر من حزمه والحالة هذه أنْ يَسعى لحلِّ مسألة العقبة وإعادتِها إلى الحجاز معتذرًا للإنجليز بهياج شعبه ، وبأنَّ إعادةَ العقبة إلى الحجاز فرضٌ دينىّ عليه ، لا يَسمح له اعتقادُه ووجدانُه بالسكوت عليه ، ولكنّه لم يفعلْ ، وإنما كان يُطالبهم كما قيل بتأديب . . . المحرِّكِ والمنفِّذِ لهذه الفتنة ، وقد اغتنم الإنجليزُ الفرصةَ ، فأنشأوا يُحَصِّنُونَ خليجَ العقبة بأحدثِ الأساليب بل الأعمالِ الفنيةِ الحديثِةِ . . . إلخ . وقد كُتب إلى جلالته من جهات كثيرة بالأخذِ بالحزم ، ولكنَّ قائدَ جيشه المرابط تجاهَ العقبة شكرَ قائدَ الحامية الإنجليزية الأردنية فى العقبة على مساعدته ومودته لملك الحجاز ، وانصرف بجيشه فائزًا بردِّ القائد الإنجليزى عليه الشكرَ بمثله.

وقد أُشيع بعدَ ذلك أنَّ العقبةَ ستسلخُ من شرق الأردن وتجعلَ تابعةً لفلسطين ، فإنْ صحَّ هذا - لا سمح اللّه - فيكون . . .

إلى أنْ قال :

وعندى أنه يجب عليك وعلىَّ وعلى كلِّ مسلم إزعاجُ الملك ابن السعود بالحُجج المقنعة بأنْ يعودَ إلى المطالبة بإعادة العقبة إلى الحجاز ، ولى مقالة فى هذا لمَّا تُنْشَرْ ، وفيها أننى أعتقدُ أنَّ أمرَ العقبة إذا رُفع إلى عصبة الأمم فإنَّ ابنَ السعود يجدُ له أنصارًا فيها من الدول ، وسترى هذا ، وأنتَ أعلمُ به . وقد تعبتُ من الكتابة ، وغرَبت الشمسُ ، فالسلامُ عليك وعلى الأميرين عادل وغالب والأخ إحسان سلَّمكم اللّه لأخيكم المخلص .

رشيد

وكتب فى 27 جمادى الآخرة 1351 و 27 أكتوبر 1932 :

سيدى الأخُ الأميرُ أطال اللّه حياتَه

السلامُ عليك ورحمةُ اللّه وبركاته . أمَّا بعدُ فإنَّنى أرسلتُ إليك كتابًا فى السياسة

مطوّلاً كمطوّل السَّعد[1] فى البلاغة ومعه كتاب من السيد عاصم فى الحسابِ النهائىّ المفصَّلِ لرسالة « لماذا » ، وكان ذلك فى 9 جمادى الأولى 10 سبتمبر ، وفيه إخبارٌ بانتهاء الطبعة الثانية للرسالة . (إلى أنْ يقولَ) :

حدثَ لنا فى هذين الشهرين حَدَثٌ يَسوء كلَّ مُسلم ، كتب الشيخُ يوسف الدجوى مقالةً فى الجزء الذى صدر فى غُرّة جمادى الأولى من مجلة مشيخة الأزهر يَرمينى ويَتّهمنى فيها بأفظع البهائت[2] من تكفير وتجهيل وتَهَكُّم وسبٍّ وشَتْم : منه أننى أفتيتُ طلبةَ المدارسِ التبشيريةِ من المسلمين بالصلاةِ مع النصارى فى كنائسهم لأجلِ أنْ يَتَرَبَّوا على النصرانية ، وأنّنى كَذَبْتُ اللَّهَ ورسولَهَ ، وخالفتُ الإجماعَ . . . إلخ إلخ . فكتبتُ إلى المجلة مقالاً أحتجُّ عليها ، وأُطالبها بقَبول ما أردُّ به على افترائه وبُهتانه دونَ سبابه وتكفيره ، فَسَعَت المشيخةُ إلى الصلح بزعمها ، ولم تَنْشُر الردَّ ، ثم صدرَ الجزءُ الذى بعدَه مِن غُرّة هذا الشهرِ فإذا فيه مقالةٌ أخرى فى معنى التى قبلها ، وزعم الشيخُ محمدُ الخضرِ[3] رئيسُ تحريرها بأن المقالةَ الثانيةَ كانت قد طُبِعَتْ قبلَ الشروع فى السعى إلى الصُّلح . وعُقد الصلح أولاً فى دار مفتى الديار فنقضَه الدِّجْوِىُّ بنشر رسالة فيها المقالتان وغيرهما مع إشعار يُخاطبنى فيه بلقب الكلب والخنزير . ثم عُقد صلحٌ آخرُ فى المشيخة نقضه أيضًا . وقد شَرَعْتُ فى هذه الأيام فى كتابة ما حدث فى الجرائد ، وسنرسلُها إليك أو نطبعها فى المنار . والسلام على الأخوين عادل وإحسان وعلى النجل غالب ، ودمتم لأخيكم .

رشيد



(1) **هو سعد الدين التفتازانى .**

(2) **البهائت** : جمع بهيتة وهى البهتان ، **أى الكذب المفترى .**

(3) **هو محمد الخضر بن الحسين بن على بن عمر الحسنى التونسى** (1293 - 1377 / 1876 - 1958م) ، عالم ، أديب ، تولى مشيخة الأزهر 1371 ، ولد بتونس ودفن بالقاهرة ، قاوم الاستعمار ، وتولى رئاسة تحرير كثير من المجلات ذات الشأن ، وكان عضو هيئة كبار العلماء . (الأعلام : 6/ 113) .

وكتب فى 13 رجب 1351 و 12 ت2[1] سنة 1932 :

سيدى الأخُ الأميرُ حفظه اللّه موفَّقًا لخدمة الأمة

قد أُلقى إلىَّ كتابُك أولَ من أمسِ فرأيتُ من الواجب أنْ أُعَجِّلَ إليك فى جوابه بالأمور الآتية :

(1) إنَّ الضرورىَّ الذى يجبُ عليكَ أنْ تُراعيَه قبلَ الأجوبة عن المكتوبات وعن المصنفات وعن السياسات هو أمرُ صحتك العامة ووقاية عينيك خاصةً ، فداهما اللّه بألوف العيون من الأكابر والأصاغر وبعيون المِهَى والجَآذر من نعمان إلى حاجر .

(2) أنْ تَتْرُكَ عادةَ الإسهاب والتطويل فى كلِّ ما تكتبُ إلى الإيجاز تارةً والتوسطِ تارةً أو تارات ، فكثيرٌ ما تكتب فى بسط المسائل ما هو معروف عند مَن تكتب له أو لهم ، وقد يكون معروفًا مما كتبتَ من قبلُ ، والكتاب المختصَر المعجَّل خير من المطوَّل المؤجَّل(★) .

(3) عندما نرى أنك مضطرٌّ إلى إرجاء الجواب عن كتاب مُهِمٍّ لصديق اعتاد منك المبادرةَ إلى جوابه يحسنُ أنْ تُخبرَه بوصول كتابه واضطرارك إلى تأجيل الكتابة إليه بتفصيل للمسائل التى فيه ، ويكفى فى هذا رُقعة بريد مكشوفة يَطمئن بها القلبُ .

(4) كان يَكفينى من الجواب عن كتابى المطوَّل نتيجةُ ما دار بينك وبين الهُمام وخلاصةُ رأيك فى المسائل الأخرى .

(5) الشيخُ فلان لا قيمةَ لعلمِه ولا لكتابته عندى ، وقد تَحَكَّكَ مِن قبلُ بالردِّ علىَّ ، فلم أرَه أهلاً لأنْ يُردَّ عليه ، ولا لأنْ يُذكر اسمُه فى المنار ، وإن كان من أشهر علماء الأزهر أو أشهر كُتَّابِهم الذين اعتادوا أنْ يَكتبوا فى المسائل العامة ، ولكنَّ طعنَه الأخيرَ وجبَ الاهتمامُ به لأنه نُشر فى مجلة الأزهر التى يُقَدِّرُها العَوامُّ والمقلِّدون فوقَ قَدْرِها ، وقد تكون قيمتُها فى غيرِ مصرَ أكبرَ من قيمتها فيها ، والشيخ . . . شرٌّ من

---

(1) أى : تشرين الثانى .

(★) هذا عينُ الصواب ، وليتنى جعلتُ رأى الأستاذ حنديرة[1] عينى .

---

(1) الحنديرة أو الحندورة : حَدَقة العين ، يقال : هو على حنديرة عينى ، أى موضع اهتمامى .

الشيخ . . . لأنه عدوٌ للإصلاح مُبْينٌ وظهيرٌ للخُرافات قديمٌ ، ثم إن . . . لم يكتفِ بنشر بُهتانه وجهله فى مجلة المشيخة بل تعدَّاها إلى النشر فى الجرائد ، ولهذا قابلتُ المشيخةَ بالحلم ، وواتيتُها على ما سعت إليه من الصلح حتى لا يقالَ إنّنى معتدٍ على الأزهر ، وأراد إسقاطَ قيمتهِ الدينيّة . . . وشرعتُ بعدَ علم الناس كلِّهم بأنَّهم هم المعتدون فى الرد المطوَّل عليهم الذى يفضح عُدوانَهم وبُهتانهم ، وقد ردّ عليهم كتَّاب أزهريون فيما يُؤيدنى عليهم ، ولم يوجد أحدٌ يُؤيِّدُهم .

سيصلُ بعدَ ثلاثٍ إلى مصرَ الشيخُ كامل قَصَّاب والخير الزركلى ، وهما الوفْد الذى سيسافرُ إلى نجد قبلَ إخواننا أعضاءِ المؤتمر العربى ، وسيتفقان معى على ما ينبغى أنْ يتقرّر فى نجد ، ولو كنتَ كتبتَ إلىَّ خلاصةَ ما دار بينك وبين الهُمام فى المسألة لكان مِن أهمِّ ما يُفيدنا فيما نُقرّره ، وأنا قد كتبتُ إلى الهُمام كتابًا مطوَّلاً صريحًا فى جميع فروع المسألة العربية .

★ ★ ★

وكتب إلىَّ فى 15 رجب 1351 و 14 ت 2[1] سنة 1932 :

سيدى الأخُ الأميرُ

سافر السيدُ عاصمٌ مساءَ أمس إلى طرابلسَ بطريق بيروتَ ، وأعطانى قبلَ سفره كتابًا لكم منه يُرَسلُ مسجَّلاً ، وكنتُ أرسلتُ إليكم أولَ من أمسِ كتابًا رَجْعًا لكتابكم الأخير لى . وهاكَ جوابى عن الكلمات :

فأمَّا كلمةُ (مشاكلَ) فقد ذكرَها الزبيدى فى التاج بلفظ : فلانٌ يَفُكُّ المشاكلَ ، وهى الأمور الملتبسة على ما أتذكَّر فى لفظ الجملة[★] ، وأنا أكتبُ هذا فى حجرةِ النوم ، وأما الكلمةُ فهى فى التاج قطعًا بهذا المعنى ، وتعلمون أنَّ جمعَ التكسير يكثُر فيه الشذوذُ ، ومنها (مساتير) جمع مستور ، وهى الكلمة الثانية التى سألتم عنها ، وسبق لنا معكم بحثٌ فى مثلها . والكلمتان قد استعملهما شيخُنا فى بعض مقالات

(1) أى : تشرين الثانى .

(★) نَعَم ذَكَرَ هذه الجملة صاحب التاج كما قالها السيد رشيد .

العروة الوثقى ، وعنها أخذت الأولى (مشاكل) ، ووجدتُ لها نقلاً ، وأما كلمة (مشاهير) التى أنكرَها الشنقيطئ لمخالفتها للقياس فأذكُر أنَّنى رأيتُها للفيروزآبادى فى القاموس فى غير مادتها من استعماله ، وهو غير حجّة منه ، وإنما العبرةُ بنقله ، والذى أراه أنْ يُقتصرَ على السماع إلا أنْ يُقرّرَ مجمعٌ لغوى جعلَها قياسية فيما استعمل فيه اسم المفعول عَلمًا أو كالعلم ، وهو ما ألمحه فى مشاهير ومساتير[1] .

وأمّا مادةُ (احترم ومحترم) فيستعملُها الفقهاءُ ، وقال الفيومىّ فى (المصباح) : والحرمةُ بالضّم ما لا يَحِلُّ انتهاكُه ، والحرمةُ المهابةُ ، وهذا اسم من الاحترام مثل الفرق من الافتراق ، والجمعُ حرمات مثل غرفة وغرفات اهـ – فأنت ترى أنه ذكر الاحترام عَرَضًا ، وهو أدق من صاحب القاموس فى النقل والاستعمال ، والعبرة بنقله والظاهر أنه هنا ناقل فالمادةُ صحيحة ، وكم أهملوا مثلَها من المستعمل فى الفصيح[2] .

وأمّا (اكتشف)[★] فأذكر أننى قلتُ لك فى السويس أو بور سعيد إنَّها استُعملتْ فى كلام العرب متعديةً باللام فى مبالغة المرأة فى كشف ما لا يَحِلُّ كشفُه لغير زوجها .

أخبار فلان الفلانى مؤسفةٌ ، وإنا لنعلمُ أكثر كُلياتها . إذا لم تجد وقتًا لقراءَة رسالتى « نداء للجنس اللطيف » وإبداء رأيك فيما ينبغى حذفُه منها عند ترجمتها باللغات الأوروبية فكلِّف أخانا الأمير عادلاً بذلك عند عودته بالسلامة إليك .

أخوك رشيد

---

(1) سبق أن أثبتنا أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة أثبت قياسية هذا الجمع .

(2) أقرها المعجم الوسيط (من إصدارات مجمع اللغة العربية) ، القاهرة ، (**انظر** : حرم) .

(★) لم ترد « اكتشف » بمعنى « كشف » إلا فيما ذكر السيد هنا . ولا أعلم من أين أخذ الشرتونى هذه اللفظةَ بالمعنى الذى تُستعمل فيه الآن أى بمعنى « كشف »[1] ، ولعلَّه نقلَها عن البستانى صاحب « محيط المحيط » ، وقد كان بعضُهم استغرب ورودَها فى سجل نَسب عائلتنا الإثبات الأول الذى عليه توقيع محسن ابن حسين بن زيد الطائى متولى فصلِ الدعاوى بين المسلمين نيابةً عن أمير المؤمنين فى مدينة المعرة ، والذى تاريخه ثانى شعبان سنة مائة وإحدى وأربعين ، إذ فيه « لاكتشاف أمر يوقنه صاحب حلب » ، والحقيقة أنها ليست « اكتشاف » وإنما هى « اكتناه » ، وهو بلوغ كُنهِ الشىء ، وهو قَدْرُه وغايتُه ومنتهاه ، وقد وقع خطأ فى قراءتها .

---

(1) أقر المعجم الوسيط (من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة) هذا الاستعمال بهذا المعنى (**انظر** : المعجم الوسيط : كشف) .

وكتب إلىَّ فى 11 شعبان 1351 و 9 ديسمبر 1932 :

سيدى الأخُ الأميرُ أطال اللّه حياته وأمتع الأمة به

أُلقى إلىَّ أولَ من أمسِ كتابك المؤرِّخ فى 30 رجب وما فيه ، وأنا مشغول من أول هذا الأسبوعَ باحتفالات تأبين صديقك المرحوم أحمد شوقى ، وكان آخرُها مساءَ أمسِ « الخميس » حضرتُ مع ضيوفِ مصرَ من سورية « ولبنان » وفلسطين تلبيةً لدعوة محافظ مصر إلى حفلة شاى بداره فى شارع الأهرام ، وسيسافر اليوم أكثر من بقى منهم ، ولو أنك أرسلت إلىَّ مَرْثِيَّتَكَ من أول الأمر لأنشدتها لك فى الحفلة الأولى إذ كنتُ عضوَ لجنتها .

لقد كنتَ فى غنى عن استحلافى لكتمان كتابك للهُمام[1] بكلمة واحدة ، بل هو مما لا حاجةَ إلى التوصية بكتمانه ، وربما أكون أحوجَ إلى التوصية بإطلاع مَن يحسن إطلاعه على بعض المكتوبات الأخرى لأن مِن عادتى الكتمان وقلة الكلام فى المسائل الخاصة ، وكذا العامة لغير أهلها ، على أننى كنتُ قلتُ فى لجنتنا إن الأمير كاشفَ الهمام برأيه الصريح فى مسألة الوحدة ، وأنه يرى أنها لمصلحته الخاصة فى ضمن المصلحة العامة ، وقد سافر الشيخُ كاملُ القصاب فى الأسبوع الماضى إلى الحجاز ، وسيذهب منها إلى نجد مُوفدًا مِن قِبَلِ الإخوان بعدَ مكاتبات وبرقيات بينهم وبين جلالة الملك السعودى فى مسألة المؤتمر العربى ، وقد حمل الشيخُ كامل كتابًا مطوَّلاً منى إلى جلالته فى معنى كتابٍ سابقٍ أطولَ منه فيه من الصراحة والحجج أكثر مما فى كتابك . والشيخُ كاملٌ كان مخالفًا لرأينا فى الوَحدة ، وكان الإخوان غيرَ مطمئنين إلى انحصار الوفد الذى وعدوا الملكَ به فى شخصه إذ تعذَّر ذهابُ غيره ، ولكنّنى أقنعتُه برأينا فاقتنع به اقتناعًا تامًّا . ولكنَّ الملك الآن فى شغل شاغل بثورة عَسير ، وقد ظهر أنها أكبرُ مما كان يُظَنُّ ، وقد سافر منذ 3 أسابيع الشيخ حافظ وهبة . وقد كتبتُ إلى جلالته بأن فتنةَ الجنوب « عسير » كانت قد دُبِّرت مع فتنة الشمال « ابن رفادة » ،

---

(1) يقصد الملك عبد العزيز بن سعود .

وكان يظن أنّ القضاء على الأولى يمنع ظهورَ الثانية ، وهو يرجو القضاء عليها كما عوده اللَّه تعالى بتوكله عليه . . . فكتبتُ إليه فيما كتبتُ أنَّ هذا التوكلَّ غيرُ شرعى ، وإنما التوكّلُ الصحيحُ ما كان بعدَ الأخذ بكلِّ ما يُستطاع من الأسباب ، ومنها المشاورةُ كما قال تعالى لسيد المتوكِّلين وأكملهم ﷺ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [آل عمران : 159] . وكان هذا فى غزوة أُحد ، ولما قَصَّرَ المسلمون فى أثنائها بما كان من مخالفة الرماة لأمر القائد العام ﷺ بملازمة الحماية لظهور المقاتلة غُلب المسلمون وشُجَّ رأس النبى ﷺ وكسرت سِنُّهُ . . . وأنزل اللَّه تعالى : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران : 165] .

إلى أنْ يقولَ :

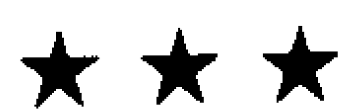
(2) أخبار بونسو فى جنيف نُقلت بالبرق ، فكانت كما أعتقدُ أنا وسائرُ أعضاء لجنتنا . وفى برقيات الأهرام اليومَ من سورية أنَّ وصولَ هذه البرقيات إليها هاجت البلادَ ، وطفِقت الجرائدُ تردُّ عليها ، وتصرِّح بأنَّ أربع مدائن فقيرة محصورة لا يمكن أنْ تُكوِّنَ دولةً . وأنا أقول معكم إنّ سورية – وإنْ اتحدت – لا يُمكن أنْ تَكونَ دولة غنيةً قوية يمكنُها أنْ تحمى نفسَها ، وعلى هذا الأصل وما هو معلوم من ثروة العراق لزم بَثُّ الدعاية للوَحدة . وقد حضر فى هذا الأسبوع أخونا ياسين باشا إلى هنا ، واتفقنا معه على خُطة المؤتمر وغيرها ، وسافر ليلةَ الأربعاء إلى القدس لمقابلة إخواننا والاتفاق معهم ، وسيذهب منها إلى بيروتَ ودمشق لإتمام الاتفاق .

(3) إنَّنى لأُسَرُّ بأنْ يكون لى صلةُ صداقة بعزيز عزّة باشا الذى تغدَّينا معه فى سويسرا كما تَذْكُره ، وكان منذُ عامين حدَّثه صديقُه الحميم وصديقُنا فؤاد بك سليم بأننا نريد أنْ نجعلَ لنا ناديًا إصلاحيًا فى دار المنار ، نَفْرِشُهُ لأجلِ أنْ يجتمعَ فيه أصحاب العلم والرأى الذين تَهُمُّهُم المسائلُ الإسلاميةُ العامةُ ، فَسُرَّ بذلك ووعَده بالاشتراك فيه . ولكنْ كان مصطفى بك عزّ الدين الطرابلسى المثرى هنا ووعدَنا بأنه يبذلُ زُهاء مائة جنيه لتجديد البهو المنفصل عن دار المنار عند مدخلها وفرشه ، فظننا

أنَّ موعدَ تنفيذ هذه الأمنية قد قرُب ، وكان فؤاد بك مُطَّلِعًا على ذلك ولأجله أخبر عزيز باشا ، ثم إنَّ مصطفى عز الدين أخلَف وعده .

(4) سأرسلُ إلى دار الكتب مَن يبحث لك عن مقالاتك وقصائدك وينسخها ومن يطالب محبَّ الدين أفندى بما ذكرتَ . ولو أرسلتَ إليَّ عُنوان داود أفندى مجاعص لأرسلتُ إليه رسالة (نداء للجنس اللطيف) ، وأمَّا الطرْدُ الذى أمرتَ بإرساله إلى الجزائر فقد هيَّأه السيدُ عاصمٌ قبلَ سفره وتركَه فى المكتبة ، ولمَّا تملكْ المكتبةُ أُجرةَ إرساله ، وهو زهاء 125 قرشًا ، ولعلَّنا نجدُها فنرسلَه . والسلام .

رشيد



وكتب فى 18 شعبان 1351 و 16 ديسمبر 1932 (صباح الجمعة) :

سيدى الأخُ الأميرُ

أرسلتُ إليك رجعَ كتابك المسجَّل بكتاب مثله أَعدتُ فيه صورة كتابك إلى الهمام ، ثم أُلقى إليَّ أولَ من أمسِ (الأربعاء) كتابُك المؤرَّخ فى 7 شعبان ، وأبدأ فى الجواب بالمسألتين العلميّتين . فأمَّا مسألةُ العقل والنقل فالمشهورُ فيها عن المتكلمين ما ذكرتُم ، وهو الذى يُطلق القول فيه جمهورُ الأشاعرة ، وكان شيخنا الأستاذ الإمام يقرّره ويكرّره ، وقد نقلتُه عنه فى تفسير قصة آدم من تفسير سورة البقرة « فى جزء التفسير الأول » ، واستدركتُ عليه بأنَّ التحقيقَ فى المسألة بأنَّ فى كلٍّ من الدلالتين العقلية والنقلية ما هو قطعىّ وظنىّ ، فإنْ تعارض القطعىُّ مع الظنىِّ رجح القطعىّ مطلقًا سواء كانا عقليين أو نقليين أو مشتركين ، وفى حالة ترجيح العقلىّ القطعىّ على النقلىّ الظنىّ يُؤوّلُ الثانى ليوافقَ الأول . وأما تعارض القطعيين فغيرُ ممكن سواء أكانا من نوع واحد أم كانا من النوعين ؛ لأنَّ التعارضَ يقتضى أنْ يكونَ أحدُهما غيرَ صحيحَ ، وكيف يكون قطعيًّا غيرُ صحيح ، ولم أرَ ذكرَ امتناع تعارض القطعيين اللذين أحدُهما عقلىٌّ وآخرُ نقلىٌّ إلا لشيخ الإسلام ابن تيمية . وفى المسألة

تفصيلٌ لم أذكره فى التفسير ، وهو أنَّ القطعىَّ من المنقول قسمان : قطعى الرواية وقطعى الدلالة ، والقرآنُ كلُّه قطعى الرواية بناء على أنَّ القراءات غيرَ المتواترة لا تُعَدُّ قرآنًا - ومثله الأحاديث المتواترة وهى قليلة جدًا فى الأقوال ، وإنما أكثر السُّنَّةِ المتواترةِ هى العملية كصفة الصلاة والمناسك . ثم إن دلالةَ آيات القرآن على معانيها منها قطعىّ لا يَحتمل التأويلَ وهو قليل ، وأكثرها ظنىّ يحتمل التأويلَ ، وكذلك الأدلة العقلية النظرية منها ومنها ، والقطعىُّ قليل ، ألم ترَ أنَّ العلمَ العملىّ قد أثبت لنا أُمورًا كثيرة ما كان يَشُكُّ أحدٌ بمجرَّد تصورِها فى كونها مُحالاً فى نظر العقل ؟ وقد أوَّل الأشاعرةُ أكثر النصوص من الآيات والأحاديث فى صفات اللَّه وأفعاله وشئون عالَم الغيب بناءً على مخالفة نصوصها أو ظواهرها للأدلة العقلية النظرية التى كانوا يَجزمون بها ، وما هى بأدلة قطعية بل نظريات كانت مسلَّمَةً كتأويلهم لعلوِّ اللَّه تعالى على خلقه واستوائه على عرشه بناء على استلزامها الجهةَ ، واستلزام الجهة للتحيز الذى هو من خصائص الأجسام . وهذه نظريات كانت مسلَّمة عندهم ، وهى فى نفسِها ليست بشىء حتى إنَّ الفيلسوفَ الأكبر ابن رشد ردَّ عليهم فيها ، وأثبت من جهة العقل ما كان عليه السلف من القول بعلوّ اللَّه تعالى . وأنا رددتُ عليهم فى التفسير مرارًا من الناحيتين العقلية والعملية العصرية ، وكون الجهة التى يهرب منها مثلُ الإمام الرازى[1] ما هى إلا نظرية نسبية اعتبارية ، ولا مَحلَّ لتفصيل هذا هنا .

وأما سجودُ الشمس فهو ظاهرٌ لا يحتاج إلى تأويل بالمعنى المستعمل فى القرآن من سجود كلِّ مخلوق لِلَّه تعالى ، بمعنى خضوعه لإرادته التكوينية كقوله : ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6] . وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النحل : 49] الآية . وأما حديث سجود الشمس فى حديث أبى ذر الذى اعترض علىَّ به الدجوىُّ الجاهلُ المتحاملُ بالباطل فالإشكال فيه اقتضاءُ لفظه

(1) **الإمام الرازى** صاحب (مفاتح الغيب) . روى البخارى بسنده عن أبى ذرّ رضي الله عنه قال النبى ﷺ لأبى ذرّ حين غربت الشمس : « أتدرى أين تذهب ؟ قلت اللَّه ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، يقال لها : ارجعى من حيث جئتى ، فتطلع من مغربها » (صحيح البخارى ، باب بدء الخلق) .

لكون الشمس بعدَ غروبها تغيب عن الأرض كلِّها ، وتصعدُ إلى العرش فتسجدُ تحتَه ، ولا تَطْلُعُ بعدَ ذلك على الأرض إلا بإذن جديد . وقد فصَّلت فيه الردَّ على جهله بما أُرسله إليك فأستغنى عن الإطالة فيه بالكتابة هنا . إلا أننى أقول من ناحية الوضع اللغوى إنَّ السجودَ ورد بمعناه العام وهو التطامن والخضوع فى كلٍّ ما يقبل التأثير والانقياد بالإرادة وغيرِ الإرادة ، حتى وردَ سجدت السفينةُ للريح إذا مالت بتأثيرها ، وهكذا استعمل فى القرآن بمعنى سجود العبادة من العقلاء ، وكذا التحية كسجود يعقوبَ وامرأتِه وبنيه ليوسفَ « عليه السلام » وسجود التسخير كقوله : ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6] . والزمخشرى يَعُدُّ النوعَ الثانى مجازًا على طريقته التى أُخالفه فيها ، فإنَّنى أرى أنَّ الاستعمالَ اللغوى فى الأمور المادية الفطرية هو الأصل فى الحقيقة اللغوية والاستعمالَ فى الأمور المعنوية الطارئة بالترقى الدينى والعلمى هو المجاز .

مساء الأربعاء 23 شعبان – 21 ديسمبر

كتبتُ ما تقدَّم صباح الجمعة ، ثم نزلتُ من الدار فذهبتُ إلى دار الكتب لأسأل عن مجلدات الأهرام هل توجد كلُّها فيها لأجل تكليف مَن يَنْسَخُ لك مَرادَك منها ، فقيل لى إنها موجودة ، وذهبتُ منها إلى بيت محبّ الدين أفندى الخطيب لأطلبَ منه بنفسى كتابَ الإكليل وأزورَه ؛ فإننى منذُ زمن طويل لم أرَه فلم أجدْه . وفى أثناء نزولى أو غيبتى عن الدار جاءَنى أسعد أفندى فلم يجدْنى . ثم جاء يومَ السبت وأَطلعنى على كتابك له ، وأطلعتُه على كتابك لى ، وقد أعجبتُ بما كتبتَه له عن . . . فإنه غايةٌ فى التمحيص والنقد الذى يُسَمُّونَهُ فى هذه الأيام بالتحليلىّ ، وأما ما كتبتَه له فى شأن ياسين باشا الهاشمى وعَلاقته بالملك فيصل وما بنيتَه على ذلك من الرأى فى المؤتمر فليس مثلَ الكلام فى . . . لأنك عَرَفْتَ فيصلاً ولم تعرفْ ياسين حقَّ المعرفة . وقد كنتُ أُضرب عن إتمام هذا الكتاب للاطلاع على كتابك إلى أسعد كما اقترحتَ ، ثم عرضت لى الشواغلُ الشاغلة وأهمُها الماليةُ ، وأنا أُضْطَرُّ فى أكثر الأيام إلى النزول والخروج والغيبة عن الدار عدَّةَ ساعات تذهب بها بركةُ النهار كلِّه .

وقد وصل اليومَ كتابُك المؤرَّخُ فى 14 شعبانَ ، وأخبرك قبل إتمامَ الكلام فى ياسين والمؤتمر أنَّ جميعَ ما اقترحتَ إرسالَه إلى الخارج من كُتبك قد أُرسلَ ، وآخرُهُ نُسَخُ (الارتسامات) إلى السيد محمد الداود فى تطوان ، أُرسلت بعدَ سفر عاصم ، وعندما كتبتُ إليك الكتابَ المسجَّل لم تكن أُرْسِلَتْ ، وصندوق البوستة كان تأخَّر مدةً عند المقاول لعدم علمه بالميناء الأقرب ، ولكنّه أخبرنا من مدة بأنه أُرْسِلَ . وَسَيُنْسَخُ لك ما أمرتَ بنسخه قريبًا . وقد وصل منذ أيام إلى مصر عزيز باشا ، وأرسلتُ إليه منذُ يومين الجزء التاسع من المنار الذى أرسلتُه إليك مع بعض ملازم الردِّ على الدجوى ، وأرجو أنْ أتمكنَ من زيارته قبلَ دخول شهر رمضانَ ، وأبلغه ما كتبتَ لى عنه من تحية وثناء . ومن الغريب أنَّ صديقَه فؤاد بك سليم وصديقنا جميعًا لم يزرنى منذُ زمن طويل ، والمنتظر أنْ يكونَ قد سكن فى الدار التى قيل لى إنه استأجرَها فى « المعادى » بطريق حُلوان .

ياسين باشا جاء مصر بعدَ وعدٍ سابق لِيُذَاكِرَنا فى مسألة المؤتمر العربى ، وبعدَ الوقوف على رأى مَن هنا سافر إلى القدس ثم إلى بيروت ودمشق لهذه الغاية . ومسألةُ الوحدة العربية الكلية العامة وتوحيدُ سورية والعراق خاصةً من مقاصده الثابتة التى لا يتحوَّل عنها ، وهو يَعُدُّ من نعم اللّه تعالى وآيات توفيقه اقتناع الملك فيصل بها لأنَّ هذا الاقتناعَ أقوى وسائل النجاح . بل يرى أنه لو لم يكن له طمعٌ ولا غرضٌ فى ذلك لوجب علينا أنْ تُوجد له هذا الطمعَ والغرضَ . ووقوفه موقفَ المعارضة فى سياسة العراق وإدارته له فيه اجتهاد يعتقد أنه ضرورى لمصلحة البلاد ، وأنه إذا لم توجد معارضة قوية نزيهة تكون حكومة العراق شخصية استبدادية ، ولكنَّ هذه المعارضة لا تتعدَّى المصلحةَ بل تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا ، فهو فى المسألة العربية يتَّفق مع الملك ومع نورى باشا وسائر مَن تعرف مِن الضباط ورجال العراق المشهورين ولا سيما الذين كانوا فى سورية عقب الحرب ، وشاركونا فى إعلان استقلال سورية واستقلال العراق ، فلا يكنْ فى صدرك حرج من هذه الجهة ، وهو يرى - كما يرى أكثرُ إخواننا هنا وفى فلسطين وسوريا - أنَّ الدعايةَ العلنيةَ فى الجرائد للاتحاد بين القطرين قد ظهرت قبلَ التمهيد اللازم لها .

وأما الشيخُ كامل فرأيُه فى فيصلٍ كما تعلمون ، ولما اضْطُرَّ جماعة فلسطين بالاتفاق مع جماعةِ الشام وبيروتَ إلى إرسال وفد إلى الهمام اختاروا أنْ يذهبَ هو مع شكرى بك القوتلى وآخرين ، فلم يستجبْ لهم غيرُه بعدَ أنْ كان معتزلاً لهم وللسياسة كلِّها . ولمَّا لم يبقَ غيرُه كانوا على حَذَرٍ ، ولكنَّنى أنا أقنعتُه تمامَ الإقناع بأنَّ سورية لا يُمكن أن تستقلَّ ولا تعيش وحدَها ، وأنَّ كلَّ ما يمكن أن يُفرض من المحذورات والدسائس المانعة من هذه الوَحدة فلا يمكن أن ترجح على المصالح التى فيها ، فاقتنع كلَّ الاقتناع ، ومثلك لا يحتاج إلى بيان الدلائل التى أقنعتُه بها ، وقد بينتُ له آراء الهمام ، وأنَّ غرضَنا أنْ نُقنعَه بأنَّ هذا الأمرَ الذى لا بُدَّ لنا منه نجتهد أنْ يكونَ موافقًا لمصلحته(★) وأنْ تُكَوَّنَ اللجنةُ التنفيذيةُ للمؤتمر من إخواننا الموادِّين له والمخلصين للأمة التى لا يُمكن العبثُ بها . والسلام .

أخوك رشيد

(**حاشية**) : أهنئك بشهر رمضان داعيًا وطالبًا لدعائك فى صيامه وقيامه ، أطال اللّه بقاءَك ، وأمتع ولدَك وأمتك بجهادك .



وكتب فى 7 شوال 1351 و 2 فبراير 1933 :

سيدى الأخُ الأميرُ المجاهدُ ، حفظه اللّه تعالى :

كنتُ منتظِرًا وقوعَ ما يُجَلِّى لنا بعض الأمور التى يجب إطلاعك عليها قبلَ الكتاب إليك حتى ورد مساءَ أمس كتابك الوجيز الذى تستعجلُ به إعادة كتابك إلى الهمام ، وها هو ذا يُلْقَى مع هذا فى يدك ، وهاك أهمَّ ما سألتَ عنه فى مكتوباتك التى قبله :

(1) الشيخُ فلان عاد إلينا راضيًا عن الملك وحكومته ورجاله وقومه وبلاده رضاء لا

(★) ثبت من هنا أنَّ السيد رشيدًا كان هو أيضًا ممن لا يتردّد فى وجوب اتحاد القطرين الشقيقين ، وممن يرى المصلحة العامة فيه أرجح من أن يتردّد فيها لأجل ملاحظات أخرى لا طائل تحتها . وكان يعتقد أيضًا - وهو أخلصُ الناس للملك السعودى - أنَّ هذا الاتحاد يُمكن تأليفُه مع مصلحته .

شَيْنَ فيه ، وقد حمل معه جوابًا من جلالته إلى لجنة المؤتمر مفتوحًا ، وعهد إليه أن يُطلعنى عليه ، ويبلِّغنى رأيه الشخصىَّ فى المؤتمر وفى ثورة عَسير وغير ذلك . وكان جاءَنى من جلالته فى البريد جوابُ كتابى الذى حمله إليه الشيخُ ، وذكر لى فيه أنه اختصر فيه الكلامَ اكتفاء بما سيبسطُه الشيخُ بالتفصيل والتطويل ، فأما ما ذكره الملكُ فى كتابه إلىَّ وكتابه إلى اللجنة بشأن المؤتمر فهو أنه يَسُرُّه ويُرضيه كلُّ عمل للأمة العربية ، وأنه يثق بإخلاص الإخوان الداعين إلى المؤتمر ، ومستعدٌّ للمساعدة على عمل عام تمكنه المساعدة عليه . . . وأما ما نقله الأستاذ من رأى جلالته الشخصى فهو أنّه لا ينبغى أنْ يُعقدَ المؤتمرُ فى بلد فيه نفوذٌ خاصٌّ لحكومة خاصةٍ يكونُ مَظَنَّة تأثيرِها فيه ، وتفسيرُه الصريح أنه لا ينبغى أنْ يُعقدَ فى بغداد . أفضى الأستاذ بهذا إلىَّ وإلى أسعد أفندى مجتمعين عندى بدار المنار . فقلنا له وأين تُرجّح ، أو يُرجّح جَلالتُه ، أنْ يعقدَ ، وهو متعذّرٌ فى مصر مِن قِبَلِ حكومتها ، وكذا فى القُدس وسورية ، ومتعذّرٌ فى أوروبا لما يقتضيه من كثرة النفقة ، فلم يذكر مكانًا آخرَ غيرَ بغدادَ ، ولا يرضى ببغدادَ ! ولكنّه صرح بأنَّ رأيه الشخصىَّ أنْ هذا المؤتمرَ لا يُرجى منه أقلُّ فائدة ، ولكنْ يُخشى ضررُه ، وحَمل عن جماعة الملك الذين فى مكةَ رأيا مكتوبًا ، خلاصتُه أنّه لا يجوزُ عقدُ هذا المؤتمر إلا بعدَ تمهيد له بوفود إلى ملوك العرب تتفقُ معهم على ما سيقرر فيه . . . وإن هذا يقتضى تأجيلَه سنتين أو ثلاثَ سنين !! قلتُ له إنَّ التأجيلَ بعدَ ما كان من الدعوة والكلام فى الصحفِ لا يجوز مطلقًا « وبينتُ أسبابَ هذا » ، وإنّنا نحن نعتقدُ أنَّه مفيدٌ ، وإنّنا نجتهدُ فى تحقيقِ اعتقادنا واتقاءِ الضرر الذى يَخافه . . . وإنَّ أهمَّ ما يجبُ البحثُ فيه اختيارُ أعضاء اللجنة التنفيذية التى أخبرْنا جلالةَ ابن السعود بأنّنا نجتهدُ فى جعلها من المخلصين الذين لا يعملون إلا للمصلحة العامة ، ثم فى مسألة المال الذى يُنفق منه على عقد المؤتمر والنظام المالى الذى يناط باللجنة التنفيذية من بعدُ ، وتفارقْنا على أنْ نعودَ إلى الاجتماع مرةً أخرى لنتّفقَ نحنُ الثلاثة على تفصيل نَكْتُبُه للجنة القدس التحضيرية ، ورجوتُ الأستاذ أنْ يعودَ فى المساء للإفطار معى والاجتماع الخاصّ لأجل المذاكرة

الخاصة بيننا وحدَنا وتبليغِ ما حمله إليَّ من أخبار نجد الخاصة بى ، فقال إنه لا يُقيِّدُ نفسَه بالإفطار لأنَّ له شواغلَ خاصةً مِن شراء كتبٍ وتجليدِ بعضها . قلتُ هذا لا يمَنع ، فإنَّ الليلَ ليس فيه عملٌ من هذا ولا سيما وقتُ الفطور ، وهو غيرُ مقصود لذاته لِما تعوَّدْناه من البراءَة من التكلف والتكليف ، ولكنَّ الأستاذَ ذهبَ قبلَ الظهر ، وأقام فى القاهرة يومين آخرين ، ولم يَعُدْ إليَّ ليلاً ولا نهارًا ، مع أنَّ عادتَه عندما يكون فى مصر أنْ يزورَنى كلَّ يوم ، وأنْ يأكلَ معى صباحًا ، ثم فى أىّ وقت حضر فيه الطعامُ من ليل أو نهار . . . وقد كنتُ أتوقَّعُ عودتَه هذه المرَّة فى الليل والنهار ، وَعَهِدْتُ إلى أسعدَ أفندى فى البحث عنه والاجتماعِ به ، فتعذَّر عليه ذلك .

فلَّما علمتُ بسفره منه فى الليلةِ التى سافرَ فيها كتبتُ إليه كتابًا ذكرتُ له فيه أنّه قال عن بعض باشوات العرب (وهو ياسين باشا) إنه لغزٌ من الألغاز لا يَعرف أحدٌ باطنَه ولا مُرادَه ، وأنّه فى سفره هذا لغزٌ أشدُّ خفاءً وإبهامًا من ذلك اللغز(★) . . . إلخ .

فكتب إليَّ بعدَ أيامٍ قليلة كتابًا يعتذرُ فيه عن عدمِ العودة بتعبِ السفر والصيامِ وشغلِ الكتب . . . ويَذْكُرُ فيه تألُّمه لأنَّنى لم أُوافقْه على رأيه ، وأنه سافر بعدَ وصوله إلى حيفا إلى بيروتَ بعدَ أنْ كتب إلى أصحابه شكرى بك ومحمد النحاس وخالد بك الحكيم ليوافُوه فيها ، فاجتمعوا وقرَّروا مع رياض بك الصلحَ والاجتماعَ عنده فى حيفا مع أعضاء لجنة القدس للبحث فى مسألة المؤتمر ، وقال إنّ من الضرورىّ أنْ أسافر أنا وأسعد أفندى للقائهم يومَ الأحد رابعَ شوال . . . فأرسلتُ إليه بطاقةً قلتُ فيها إنَّ عذرَه غيرُ معقول ، ويؤكِّدُ ذلك سفرُه إلى بيروتَ ، وأنه لا يمكننى المجىءُ إلى حيفا بسبب العُسرة المالية ، وكتبتُ إلى الإخوان فى القدس بما حصل ، وبأننى تألمتُ من الأخ الأستاذ وبرأيه فى الموضوع ، ورأينا نحن . . .

ثم جاء كتابٌ من اللجنة إلى أسعد أفندى بأنَّ الاجتماعَ سيكون فى حيفا يوم الخميس (وهو يومُنا هذا) ، وكلَّم شكرى بك القوتلى أمس أسعدَ أفندى بالتليفون

(★) هذه مداعبةٌ داعبه بها ، والحقيقةُ التى لا مِراء فيها هو أنَّ هذا الرجلَ الذى يتكلَّمُ عنه السيد رشيد هو من أفضل من نعرفُ مِن رجالات الأمة العربية .

من حيفا ، فأخبرَه بمجيئهم ، وطلب منه الحضورَ وتبليغى أنا أنْ أَحْضُرَ أيضًا ، كأنَّهم يَرون أننا موظَّفون عندهم ، ولكنَّ أسعد أفندى كلَّمه بشدّة تَعَجَّبَ منها ، ونحن ننتظرُ غدًا أو بعدَ غدٍ أنّ يجيئَنا من اللجنة ما حصل ، والظاهرُ أنَّ الأستاذ يُريد من هذا الاجتماعِ إما تحويلَهم عن عقد المؤتمر باسمِ التأجيل ، فإن لم يُمكن فبعقدِه فى غيرِ بغدادَ بل غيرِ العراق . . . (إلى أنْ يقول السيد) : وسيجعلُ اللّه بعدَ عسر يسرًا .

أخوكم محمد رشيد رضا

وكتب فى 2 ذى الحجة 1351 و 28 مارس سنة 1933 :

سيدى الأخُ الأميرُ

أُحييك وأُهنئك بعيد الأضحى السعيد ، أعاده اللّه تعالى عليك عشراتٍ مكررةً من السنين وأنت مُمَتَّعٌ بالصحة والعافية والنعم الضافية وقرةِ العين بالأهل والولد وبالتوفيق فى خدمة الأمة والملة . وقد أرسلتُ إليك الكراسة الأولى مما نَسخه الناسخ من آثارك القلمية فى الصحف القديمة ، فعسى أن تكونَ وصلتْ وأعجبك خطُّها . وقد وضعتُ فيها ورقة كالمذكِّرة بالمسائل التى كان ينبغى أنْ أَبسُطها لك فلم يتّسع الوقتُ لها أو لبسطها يومَ أُرسِلَتْ وفيها خبر وجيز عن السيد فلان ، ثم وقفتُ على أهمِّ أخباره التى علمتُ منها حقيقةَ حاله ، واجتمعتُ به قبلَ سفره مَرتين . وخلاصةُ ما علمتُ من أمره مما سمعتُه منه وعنه ومما نشرتْه الجرائدُ من أخباره أنّه . . مفتونٌ بحبّ الشهرة والمدح وتحرّى إرضاء كلِّ مَن يجتمع به ولا سيما إن كان له شأن .

ذكرتُ لك فى المذكّرة أنَّ أحمد زكى باشا دعاه عقبَ وصوله إلى مصر إلى شرب الشاى عنده ، فأجابه مشترطًا أو مقترحًا عليه أنْ يَدْعُونى ويَدعُوَ التفتازانى إلى شرب الشاى معه عنده ، فأجبتُ الدعوة ، ولما التقينا أثنى لى على المنار وعلى تفسيره وما فيهما من خدمة الإسلام . قلتُ وهل أنت راضٍ عن هذه الخدمة ؟ قال كيف لا ولا سيما حملاتُك على الملحدين والمبشرين وحملتُك على الظهير البربرى ! قلتُ : أحمدُ اللّه تعالى على رضاكم بذلك . وكان زكى باشا يَشْغلُنا كلَّنا برؤية المسجد الذى

يبنيه ليدفنَ هو وزوجه فيه . . . . ولم يَطُل مُكثُنا عند الباشا لأننى كنتُ مدعوًّا إلى حفلة شاى أُخرى فى فندق الكونتيننتال ، وعند الوداع ذكرنا ما نرجو من تَكرار اللقاء .

وذكرتُ لك أننى كنتُ عازمًا على زيارته وإنْ كانت العادةُ هنا ، وفى أكثر الأمصار الكبيرة ، أنَّ المسافر هو الذى يزورُ ، ولكنّنى لما علمتُ أنه زار بعض أصحاب الصحف امتنعتُ عن بدئه بالزيارة .

ثم دعانى الشيخ حامد الفقى الأزهرى[1] الذى كان أصدرَ مجلةَ الإصلاح الرسمية بمكة المكرمة إلى الغداء مع الشيخ المذكور مع بعض الشبان من مشايخ الأزهر ، والشيخ حامد من الذين يتردّدون علىَّ كثيرًا ، ويَعُدُّ نفسَه من أولادنا السلفيين ، وكان ملازمًا للمذكور أو كثيرَ الصحبة له ، فأجبتُه ، واحتال علىَّ فجعلنى أذهبُ بعدَ الظهر إلى فندق الكلوب المصرى حيث هو مقيم ، وشهد لى بأنه صرَّح له ولغيره مرارًا بعزمه على زيارتى ، وأنَّ الناسَ شغلوه عنها . . . إلخ ، فذهبتُ وجلستُ معه ساعةً شكا لى فيها من ضغط فرنسا على المغرب ومنعها عنه جميعَ الصحف إلا الأهرام . . . وذكر أيضًا ما استغربه مِن اتهامى إياه بالرضاء بالظهير البربرى ، وأنَّ هذا يتضمن القولَ بكفره . . . قلتُ له : إنه قد جاءَنى من المكتوبات والمقالات فى مسألة الظهير المذكور شىء كثيرٌ جدًّا لا يزال أكثرهُ محفوظًا فلخّصتُ المهمَّ منه ، وعلّقتُ عليه بما فُتح علىَّ به ، ولم أفطن لذكرك فيما كتبتُ . ولو أنَّ أخى الأميرَ شكيب نقل لى عنك لكنتُ كغير العالم به(★) . . . وأما كونُه يتضمّن أو يستلزم التكفيرَ فيُشترطُ فى صحته عدمُ التأول ، وأنا لا أستبعدُ أنْ يكونَ مثلُك يتأوَّل ما نُقل عنه من اعتقاد كفر البرابر بعدم صحة إسلامهم ، وقد نُقل مثلُ هذا عن بعض الوهابية . وأنا أحفظُ عن بعض علماء الأزهر مثلَ هذا من قِبَلِ طلبى للعلم ؛ ذلك بأنه كان عندنا فى دارنا بالقلمون جماعةٌ من هؤلاء العلماء عقبَ الثورة العرابية وما أعقبتْه من احتلال الإنجليز

---

(1) هو **محمد حامد الفقى** رئيس جماعة (أنصار السنة المحمدية) ، وكان يصف نفسه بأنه تلميذ حكيم الإسلام **السيد رشيد رضا** .

(★) كان السيد المشار إليه شكا إلىَّ ما اتهمه به **السيدُ رشيدٌ** فى المنار ، فكتبتُ أنا إلى المرحوم أوصيه بأنْ يتلاقى معه ويسمعَ ما يقوله فى قضية الظهير البربرى مما لا يخرج عن رأى **السيد رشيد** وآرائنا جميعًا .

لمصر ، فسئلوا عن رأيهم فى هذا الاحتلال ، فقال شيخ من كبارهم : إنَّ الإنجليز أهل كتاب ، وحكامنا من الترك كالخديو ووزرائه مرتدّون ، والمرتدُّ أسوأ حالاً فى الكفر من الكتابىّ . . . فأنا لا أَنسى طول عمرى شدَة ألمى من هذا الجواب ، وهو فى معنى ما نقل عنكم .

ثم ذكرتُ له أنَّ السيد الزهراوىَّ قال لى مرة : ما بالى أراك تحملُ همَّ مسلمى الجزائر وأمثالهم ، وهم غير مسلمين بالمعنى الذى تفهم به الإسلام وتدعو إليه وتدافع عنه . . . فقلتُ له : لو غيرُكِ قالها يا عبدَ الحميد ؟ إنَّ أجهل الجاهلين من مسلمى الجزائر من الذين يرتكبون من البدعِ والضلالِ ما هو كفرٌ وشركٌ ، بحسَب أصول عقائد الإسلام ، إنما يفعلون ذلك لاعتقادهم أنه من الإسلام فهم مَعْذُورون بجهلهم لأنهم لم تبلغهم دعوةُ الإسلام الصحيحة ، ولكنَّهم يؤمنون بأصل الإسلام الأصيل ، وهو أنَّ القرآن كلام اللَّه ، وكلَّ ما فيه حقٌّ ، وأن محمدًا رسولُ اللَّه ، وكلَّ ما بلَّغه عن اللَّه تعالى حقٌّ ، فإذا عَلِمُوا مع هذا أنَّ بعض ما يرتكبونه أو يعتقدونه مخالف للقرآن وللسُّنة الصحيحة فإنَّهم يتركونه قطعًا . وإننا نرى الإفرنج يبذلون الملايين فى سبيل جذب الناس إلى دينهم بالتربية والتعليم والمعالجة وغير ذلك . . . إلخ ، فأعجبه هذا الكلامُ .

ثم زارنى المذكورُ فى الدار فكان مما قُلْتُه له : إنك لو زُرتنى من أولِ الأمر لنصحتُ لك نصحًا تتقى به كثيرًا مما يقوله الناسُ ومما كتبوه فى الجرائد نقلاً عنك وطعنًا فيك ، فإنَّ النصحَ خُلُقٌ لى أبذله لكلِّ أحد ، وأنت فى علمك ونسبك أحقُّ الناس بنصحى ، فاعتذرَ ثانيةً عن تأخيره زيارَتى ، وقال إن الناسَ كذِبوا عليه حتى فيما كتبوه عنه من مدح إدارة بلاده وحكومتها . . . ومِن مَدْحِ مَلِك مصرَ وتفضيله على جميع مُلوك المسلمين ، وهو لا يجهل أنَّ هذا يسوء سلطانَه ، وكذا تفضيله بالعلم ، وإنَّما العلم عنده علمُ الدين ، وملك مصر ليس من أهله . . . وذكرتُ له مطاعنَ أهل بلاده فى سيرته السياسية والشخصية وعدَّهم إياه خَصمًا للمشتغلين بالسياسة منهم ، فأجاب عن هذا بأنَّ هؤلاء الشبان المشتغلين بالسياسة المغربية ملاحدة ، وهو إنما

يُنكر عليهم خُطتهم الإلحادية التى يقتدون فيها بملاحدة مصر . . . وكان بلغنى عنه من الثقات أنه يطعن على الوهابية عامةً وعلى مَلِكهم خاصةً . فذكر لى أنه إنَّما ينتقدُ خُطَة ابن سعود فى تنفيره المسلمين من جهة السياسة الإسلامية ، وإلا فهو على مذهب أهل الحديث فى بدع القبور . . . فأجبتُه عند ذلك بما أقمتُ به عليه الحجَّة . . .

إلى أنْ يقولَ :

هذا ، وإنَّ ما استقر عليه الرأىُ هنا فى مسألة المؤتمر العربى أنَّ لجنتنا كتبت إلى لجنة القدس بموافقة لجنة بغدادَ والزعيم الهاشمىّ على جعل المؤتمر الأول خاصًا بعرب آسيا ، وأنْ يكونَ فى بغدادَ فى أوائل الخريف الآتى ، فإنْ وافقتنا قرَّرْنا البدءَ بالدعوة وإلا تولَّينا ذلك مع إخواننا فى بغدادَ . وموعدُنا فى البتّ بهذا جلسةُ ليلة الثلاثاء الآتيةُ إنْ شاء اللّه تعالى ، وسأخبرُكم بما يتمُّ . والسلامُ عليكم وعلى نجلكم وزميلكم إحسان بك ، وأطال اللّه بقاءَكم لأمتكم ولأخيكم .

محمد رشيد رضا

وكتب إلىّ فى 16 المحرم 1352 و 11 مايو 1933 :

سيدى الأخُ الأميرُ حيّاه اللّه تعالى

كنتُ منتظرًا وصولَ ما وعدتَ من إرسال ترجمة الإمام الأوزاعىّ لأكتبَ إليك ، فوصلتْ نهارَ أمسِ مع الصحف التى تفضَّلتَ بكتابتها فى كتاب (حاضر العالم الإسلامى) ، وهى تجِلُّ عن الشكر . وقد عجبتُ من خوفك أنْ يضيعَ ما أرسلتَ من الترجمة عندى ، وأكادُ أقول إنه لا يكاد يضيعُ عندى شىء ، ولكنَّ ما يكثر عندى من نوع واحد كمكتوباتك العادية قد يشُقّ علىّ وجودُ واحد بعينه منها فى وقتِ تَزَاحُم الأعمال . وهذه الترجمةُ وأمثالها من أصول ما يُحفظ للطبع لا يَضِلُّ شىء منه إنْ شاء اللّه .

رأيتُك بالغتَ فى استقصاء ترجمة الإمام الأوزاعىّ وتاريخه حتى لا يُعَدّ ترجمة

ولا تاريخًا مما يجعل فى مقدمات التصدير ، كالذى ذُكِر فى بعض الكُتب عن مذهبه فى المغرب والأندلس ، والذى ذكَره ابنُ القيم عنه فى مسألة صفة العُلو ، وتركتَ أهمَّ ترجمة له على الإطلاق فى رأيي ، وهى ترجمةُ الحافظ الذهبى له فى (تذكرة الحُفَّاظ) ، وهى ورقةٌ أو تَزيد ، ولا شكَّ أنك لم تَطّلِع عليها ، وأنّك تَأْذَنُ فى زيادتها . وإن شئتَ كتابة مثل عبارة ابن القيم عنه فى مسألة العُلو ، ففى كُتب الخلاف وفقه الحديث وشروح كتبه ما هو أهمُّ منها عنه كنقل الإمام الشافعى عن أبى يوسُف اعتراضَه على الأوزاعى فى بعض المسائل وتخطئةِ الشافعى لأبى يوسف وتصويبه للأوزاعى ، وهو فى كتاب (السير) من الأمّ[1] ، وغير ذلك .

ومهما يكن مِن كثرة شُغلى فإنَّ مساعدتَك عندى من أهمّه ، فسأطالعُ ما أرسلتَ وما تُرسلُ مطالعةً وتصحيحًا بعدَ أنْ اطلعتُ على ما وصل أمسِ تصفُّحًا إجماليًا ، ثم أعرضه على مَن ذكرتَ للمذاكرة فى طبعه له على نفقته أو أبلغك رأيه .

وأما الكراسةُ التى نُسخت من آثارك من المؤيّد والأهرام فقد كنا كتبنا سؤالاً رسميًا عنها لمكتب الاستعلامات فى إدارة البريد العامة هنا ، فأجابتنا فى أول هذا الأسبوع بأنّها لم تُوجد فعلِمنا بالعقل أنَّ أحدَ عمال البريد سرقَها ، وعَهِدْتُ إلى ناسخها أنْ يُعيدَ نَسْخَها ، وسيفعل ، وكان موعوكًا فشفى ، وسيُرسل كلَّ ما ينسخُ مسجَّلاً إنْ شاء اللّه تعالى . وكان إرسال الكراسة الأولى بفعل ابن أخى (عبد الغنى رضا) هنا ، ولم أكن أعلم أنه يحتاج إلى التوصية بتسجيله ، وقد علم وعلمنا بما يُفيدنا مرةً أخرى . هذا ، وإنَّ مسألة العُسرة المالية قد بلغت النهايةَ إذ بلَّغتنا شركةُ الرهنِ العقارى منذ أيام بِأنها عهِدت إلى المحكمة المختلطة .

إلى أنْ يقولَ :

وأما ديون التجار فقد وفينا منها مئات من الجنيهات ، ووضعنا بالباقى كمبيالات جديدة مقسطة أقساطًا يسهُل أداؤها إن شاء اللّه تعالى بدون دفع أقساط كبيرة . ويبقى

---

(1) هو من أهمّ كُتُب الشافعى رضي الله عنه .

ديون الأصدقاء ، وهى لا ربح لها ولا إرهاق فى تقاضيها ، فتؤدى بالتدريج إن شاء اللّه تعالى . هذا هو تفصيل ما سألت عنه فى الكتاب السابق .

هذا ، وإن سعادة عزيز باشا قد تبرع للإدارة بثلاثين جنيهًا للمساعدة على نشر الكتاب الذى ننشره فى مسألة الوحى ، وقد سافر قبل أن أتمكّن مِن خلوة به أستأذنُه فيها بإعلان هذا التبرعِ والشكرِ العلنىّ عليه ، وهو قد أَرسل المبلغَ بصفة أدبية تليقُ بلطفه وذوقه الدقيق ، أرسلها فى ظرف مختوم مع سائق مركبته ، فأرجو أنْ تُبلغه اغتباطى بمودته وشكرى إياك عليها إذ كنتَ المُرَغِّبَ فيها ، وأنْ تقفَ لى على رأيه فى إعلانْ الشكر على التبرع ليكونَ قدوةً فى المساعدة على نشر الدين . والسلامُ عليك وعليه وعلى نجلك وصِنوك فى السياسة من أخيكم .

محمد رشيد رضا

وكتب فى غُرّة صفر 1352 و 25 مايو 1933 :

سيدى الأخُ الأميرُ دام محفوظًا موفقًا

أرسلتُ إليك المكتبةُ ما طلبتَ من كتبك ، وفيه الكراسة الثانية المخطوطة من آثارك القديمة فى المؤيّد والأهرام ، ولم أرَها لضيق الوقتِ ، أرسلت خالصةَ الأجرة لئلا تكلَّفَ دفعَها مضاعفةً فى جنيف بمقتضى نظام البريد العام . وأما الكراسةُ الأولى فكنا سألنا عنها مكتبَ الاستعلامات « فى إدارة بريد مصر » رسميًا ، ودفعنا له الأجرةَ المعتادةَ ، فردَّ علينا بعدَ مدة طويلة بأنه لم يوجد للكراسة أثرٌ فى « المهملات » ، فأمرتُ الناسخ أنْ يُعيدَ نَسْخَها كما كتبتُ إليك فى المكتوب السابق .

وقد طلب أبو الحسن منى ما أرسلتَه من مقدمة ترجمة الإمام الأوزاعىّ فأعطيتُه إياه ليساومَ الحلبىَّ[1] عليه . وذكرتُ له ترجمةَ الإمام فى كتاب (طبقات الحفاظ) للذهبى ، وقلتُ له : إنَّ من الضرورى نسخَها وإلحاقَها بالمقدمة ، وإننى مستعدٌّ لتصحيح ملازم الطبع إذا أُرسلتْ إلىَّ لا يَصُدُّنى عن خدمة أخى الأميرِ كثرةُ الشُّغل .

---

(1) أسرة الحلبى الشهيرة المعروفة بدورها التاريخى فى نشر وإحياء كتب التراث الإسلامى فى مصر .

وأنا ذكرتُ لك ترجمةَ الحافظ الذهبى للإمام وأنها أهمُّ من كلِّ ما جمعتَه من الكلام عنه .

وأما حديث « إن اللّه تعالى زوى لى الأرض »[1] فهو فى صحيح مسلم وغيره من حديث ثوبان ﷺ ، وتجدُ نصَّه مع هذا فى ورقة خاصة مع أحد أسانيد مسلم له ، وتجدُه أيضًا فى (الجزء السابع من تفسير المنار) .

وقد قرأتُ الملحقَ الذى فى مكتوبك الأخير بشأن أخلاق أبى سعيد[★] العجيبة ، وهو سيزداد علمًا بالخطأ الذى اقترفه معك ، ولكنْ لا يَعتبر لأنَّ غريزة الربوبية فى أعصاب المفتونين بعظمة الإمارة والمُلك تُطفئ نورَ العقل ونورَ الفطرة فى كلِّ ما يعارضُها . . . إلخ . وأنا قد أرسلتُ لأبى سعيد كتابًا عندما زار القدس عقب انعقاد المؤتمر الإسلامى ، ذكرتُ له فيه مسألة التاريخ المعلومة وكونَ بيان الحقِّ الواقع فيه واجبًا شرعيًا وعرفيًا ، وما تلطفت فيه بشأنه وما قرنتُه به من مدحه فيما ليس من موضوع التاريخ ، فلم يجبْنى ، ولكنه كلَّفَ حافظًا بأنْ يُبَلِّغنى سلاَمه ، ويقول كلُّنا نخدم الإسلام . وكتبتُ إليه فى آخرِ العهد بزيارته الأخيرة كتابًا أظهرتُ فيه أسفى لما وقع من الأسباب التى قضت بما عاملتْه به البلادُ ، وأنه كان من الممكن أنْ تجمعَ على حُسن مقابلته والحفاوة به . . . ولم يُجبنى عنه أيضًا ، وإنما قصدتُ تثبيتَ النصح لا الجوابَ .

ذكرتُ لك فى الكتاب الذى قبلَ هذا خلاصةَ موقفنا فى العسرة ، وقد تجدّد بعدَه أنه تيسَّر لنا أنْ نتفق مع شركة الرهن العقارى على وقف تنفيذ الإعلان عن بيع الدار بدفع 200 جنيه لها ، وجعلِ الباقى مع فائدته 3 أقساط إلى مدة سنة ، كلُّ قسط 150 جنيهًا ، ويُسْتَحَقُّ فى أثناء ذلك القسطُ الأول من الباقى للبائع علينا وهو 300 جنيه . وعسى اللّه أنْ يُهيِّئ لنا دفع كلِّ قسط فى وقته بفضله ورحمته . هذه جملة ما عندى فى

---

(1) أخرجه مسلم (2889) .

(★) هى كناية مأخوذة من قول القائل :

كلَّ يومٍ تُبْدِى صروفُ الليالى ... خُلُقًا مِن أبى سعيدٍ عجيبًا

شأن مكتوباتنا الأخيرة . ولدىَّ مسألتان جديدتان من مسائل السياسة العربية ، ومسألة أهم منها فى الإصلاح الإسلامى : « المسألة العربية الأولى » زار مصرَ فى هذا الأسبوع الشيخُ يوسف ياسين ، وصل ظهرَ يوم الإثنين ، وسافر فى مساء أمسِ (الأربعاء) إلى القدس ، وينوى أنْ يُقيمَ فيها يومين ، يبحث فيهما مع المجلس الإسلامى الأعلى فى مسألة أوقاف الحرمين فى فلسطين ، ولو كان الحاجّ أمين رئيسُ المجلس هناك لأقام مدةً أطولَ ، وسيسافرُ من القدس إلى حيفا فدمشق فبلده (اللاذقية) لقضاء بقية إجازته فيها ، وإنما مدتها 30 يومًا تَبتدئ بيوم خروجِه من جُدَّةَ وتنتهى يومَ عودته إليها . وأهمُّ ما عَلِمْتُه من أخباره التى أفضى بها إلىَّ فى سمر ليلة استمرَّ إلى ما بعدَ نصف الليل أنَّ مسألة العقبة ومعان لا تزال معلقةً إلى مفاوضة خاصة . وسأكتبُ إليك كتابًا خاصًا فى رأيى فيها وما يجب أنْ نَعُدَّه نحن لهذه المفاوضة ، وما كنتُ كتبتُه بشأنها فى أيام ثورة ابن رفادة ولم أنشره لفوات الفرصة التى كانت سانحةً ، وانتهت بما ساءنى يومئذ أشدَّ الاستياء ، وكتبتُ إلى الملك فيها كتابةً شديدةً ، ولكنَّ يوسفَ كشف لى العذرَ الصحيحَ الذى ما كان ينبغى أنْ يُكتبَ ، وأخبرنى أيضًا بما كنتُ أحبّ أنْ أعرف حقيقتَه عن الدولة العربية السعودية الماضية والحاضرة ، وأهمُّها قربُ الاتفاق النهائى التام مع الإمام فى بقية المسائل المعلقة ووضع نظام جديد للإصلاح المالىّ سيُمكّن الحكومةَ من غيره عند وجود المال . ومنها الاهتمام الأكبر بمسألة الوحدة بين سورية والعراق ، ومن فروعها المؤتمر العربى ، وهم يخالفون رأيك فيها بأشدِّ مما علمتَ من المكاتبات فيها معهم .

« المسألة العربية الثانية » ، وهى متصلةٌ بآخر الأولى ، مسألة سورية ، وقد ظهر للشعب كلِّه صحةُ رأى لجنتنا ورأى وفدكم فيها ، وقد علمتم أنَّ الناس قد كتبوا فى الشام توكيلاً لجلالة الملك فيصل يَرجونه فيه بذلَ نفوذه لدى الدولة الفرنسية لإقناعها بما يَطلبه الشعبُ من الوَحدة والاستقلال . . . وقد أمضى نُسَخَهُ كثيرون فى جميع البلاد ، ولعلَّ نصَّه وصل إليكم . وأما مشروعُ المؤتمر العربى فقد عرض له من الركود والرقود ما لعلَّه قد بلغكم مجملاً . وأهمُّ أسبابه سوءُ تَصَرُّفِ لجنة القدس بما

نَفَّرَ الهاشمى باشا ، وظنَّ أنه هو الذى حمله على الاستقالة من لجنة بغداد ، وانتهاء ذلك بتصدِّى لجنة أخرى للعمل ، أعضاؤها من حزب المعارضة ، وليسوا ممن أُشربتْ قلوبُهم القضية العربية مِن قَبْلُ كالأولى . وعجَزتْ لجنتُنا عن فهم كُنْهِ الحال هنالك ، وسينجلى لنا كلُّ شىء نُريده بمجىء الملك فيصل إلى عمَّان ومقابلتِه إخوانَنا أو بعضَهم هنالك ثم مرورِه بمصر ومقابلتنا له ، والذى نُريد أنْ نَعْلَمَهُ هو : هل يكونُ المؤتمرُ مؤتمرَ دعايةٍ عربيةٍ عامّةٍ للناطقين بالضاد كما وضَّح الساسةُ الأُولُ فى القدس أم مؤتمرَ تمهيدٍ للعمل الخاصّ بعرب آسيا ولا سيما سوريةُ والعراق ؟.

« المسألة الدينية » هى أنَّنى أتممتُ كتابى الجديدَ الذى وضعتُه فى الوحى وإثبات نبوءة محمد ﷺ، وقد ختمتُه بتحدّى العالم المدنىّ الحاضر ، ولا سيما علماءُ الإفرنج وأحرارُهم ، ودعوتُهم إلى الإسلام لإصلاح البشر وتقرير السِّلم العام فيه بتعاليم القرآن الجامعة بين العلم والإذعان الدينىّ ، فاقْرَأْ الخاتمة فى جزء المنار الذى يصلُ إليك فى البريد الآتى قراءَةً دقيقة ، ثم اكتبْ لى كشفًا بأسماء أشهر علماء أوروبا الأحرار ولا سيما المستشرقين لأُرسلَ إليهم الكتابَ عند تصديره ، وَاذْكُرْ لى قبل ذلك كلَّ رأى لك فيه . والسلامُ عليك وعلى نجلك وزميلك والسيد الطباطبائى إن كان باقيًا عندكم . ومسألةُ سفرى إلى الهند للعمل مع لجنة المؤتمر لا أصلَ لها ، ولم أعلم سببها .

أخوك رشيد



وكتب فى 13 ربيع الأول 1352 :

سيدى الأخُ الأميرُ ، أيّده اللّه ، ودام توفيقُه

قد طال الأمد على الكتاب لعدم تجدّد باعث قوى يرجُح على الشواغل الكثيرة . ومما فَرَغْنا منه فى هذا الأسبوع إتمامُ الطبعة الثانية للجزء الثانى من التفسير ، وقد زِدتُهُ تنقيحًا ، وأضفت إليه فوائدَ ومسائلَ كثيرةً ، ومنها كتاب (الوحى المحمدى) الجديد ، وقد تحرّيتُ إصداره فى يوم ذكرى المولد النبوى « أمس » ، وإننى أرسل

إليك اليومَ بنسخة منه ونسخة من كتاب آخرَ طُبع عندنا باسم « نقض مطاعن فى القرآن الكريم » لعالم من شبان الأزهر الأدباء قرّاء المنار . وقد كتبتُ له مقدمةً تعجبُك إنْ شاء اللّه تعالى . ومنها مقدمةُ كتاب « المنار والأزهر » ، وهى مهمَّة ، ولكنَّنى لم أُصدر الكتابَ لأنه بدا لى أنْ أُطيلَ خاتمتَه .

إننى لما طبعتُ مقدمةَ كتاب (الوحى المحمّدى) تنفستُ الصُّعَدَاءَ لأننى لم أتعبْ فى شىء كتبتُه كتعبى به ، وندِمتُ أنْ كنتُ تركتُ لمقدمته ملزمةً مفردة إذ لم أكنْ عند البدء به أقصِد أنْ يَطُوْلَ ، وأنْ أجعله تحديًا لعلماء العصر من الإفرنج ودعوةً لهم إلى الإسلام ، وهو ما وضعتُ خاتمتَه للتصريح بها . وإننى أرجو أنْ تقرأه كلَّه فى وقت تَخُصُّهُ به من الصباح أو المساء ، وتُعلّقَ لى عليه ما تراه من نقد يُفيدنى عند إعادة طبعه التى ربما كانت قريبةً لأنّنا لم نطبعْ منه غيرَ ألفى نُسخة بسبب عجزنا عن شراء الورق ، وأهمُّ ما أقترحه من النقد ما يتعلّقُ بتأثير الكلام عند علماء الإفرنج وما يجبُ أنْ يُزادَ عليه أو يُحذفَ منه . ولا تنسَ ما طلبتُه من قبلُ من عناوينِ العلماء المستشرقين والمجلات الأوروبية التى يُرجى أنْ تَكْتُبَ عنه وتنقده ، وسأرسل لسعادة عزة باشا نُسخةً مجلَّدة ونسخًا أخرى .

وقد أُلقى إلىَّ منذ ثلاث الجزءان الأول والثانى من كتاب (حاضر العالم الإسلامى) فلم أفرُغْ للنظر فيه إلا بعدَ الظهر من هذا اليوم عند إرادة القيلولة ، فكان أنْ طردَ النومَ عن عينىَّ ، وشغلنى بمقدمته وفصوله الأولى إلى أواخر الساعة الثالثة ، فهببتُ إلى إدراك صلاة الظهر ، وتمنيتُ لو كنتُ اطّلعتُ على ما فيه من أقوال علماء أوروبا فى الإسلام ونبوة محمد ﷺ قبلَ كتابة بحثى فى الوحى ، ولا سيما كلامُ درمنغام الذى نقلتَ منه ما تراه عن جريدة السياسة وَرَدَدْتَ عليه .

ولكنَّ من فوائد جهلى بأقوال علماء الإفرنج أنّنى كتبتُ ما كتبتُ مستمِدًّا كلَّ علمى من القرآن ومن السُّنة الصحيحة ، وسأعود إلى درس هذه الفصول قبلَ الشروع فى إعادة طبع الكتاب لأحصى ما أراه من انتقادات هؤلاء العلماء وأردُّ عليها . ونظرتُ نظرةً إجمالية فيما كتبتَه عن ترجمة القرآن ، وعجبتُ لك كيف عُنِيتَ بكتابة رأى الشيخ

المراغى والشيخ بخيت دونَ رأى أخيك ، وقد أخطأ صديقُنا المراغى فيما كتبه فى هذا الموضوع من جهاتٍ لا من جهةٍ واحدة أو ثنتين . وكنتُ شرعتُ فى كتابة مقالات فى المسألة غير ما كتبتُه من قبل ، فلما رأيت متبعى الأهواء من علماء الأزهر تصدّوا للردّ عليه اكتفيتُ بمقالة واحدة .

وقد شُغل الذى كان يبحث عن آثارك فى الجرائد بعملٍ أنفعَ له ، فَعَيَّنا آخرَ مكانه ولمَّا يظفرْ إلا بمقالة لك فى الشعراء وقصيدة « نداء الهلاليين للعثمانيين » فَنَسَخَها ، وهو يبحث عن غيرهما . هذا مما تيسَّر لى أنْ أكتبه بعدَ العصر ، وأنا صائم ، واليوم حار . والسلام .

محمد رشيد رضا



وكتب إلىَّ فى 5 ربيع الآخر 1352 و 26 يوليو 1933 :

سيدى الأخ الأميرُ المجاهدُ ، نصره اللّه ، وأعزَّه ، وأطال عُمُرَه كَهلاً قويًا

افتتحتَ كتابك الأخير (رقم 21 ربيع 1)بنغمة من نغماتك السابقة فى الشيخوخة واستطالة عمرك وعمرى بارك اللّه فيهما . وقد كنتُ عَذَلْتُكَ[1] على تلك النغْمات حتى ظننتُ أنك قد تبتَ وأنبتَ حتى نَسيتَ تلك النغْماتِ ، على أنك بشَّرتنى فى آخِر كتاب ذكرتَ فيه هذه المسألة أنَّ أكثرَ المصنفين من المعمَّرِين ، فعلينا أنْ نُعنى بزيادة التصنيف ، ولكنَّنى أَستثنى أوقاتَ العبادة من قيام وتلاوة وذِكْرٍ ، فهى لا بُدَّ منها ، وإنْ كان التصنيفُ فى خدمة الإسلام أفضلَ من نوافلها .

لقد آسفنى أنْ رأيتُ كتابك النفيسَ فى بيان أحوال المسلمين فى العصر الحاضر طُبع ثانيةً مع كتاب (حاضر العالم الإسلامى) المترجَم ، وإنْ كانت نصيحتى السابقة لك وتخطئتُك على هذه الفِعلة لم تُثمِر ، وإنك لا تزالُ فى غاية البُعد عن معرفة شئون

---

(1) **عذل** : لام .

الكَسْبِ الدنيوىّ . إنّنى موقنٌ بأنَّ ضمَّ كتابك إلى ذلك الكتاب قد نقص من قيمة كتابك العلمية كثيرًا أو قليلاً ، ولكنْ ما نقص من حظِّك المالىّ منه أعظمُ .

إلى أنْ يقولَ :

إنَّ فلانًا شابٌّ مهذَّبٌ عامل يستحِقّ المساعدَة ، ولكنَّ هذه إضاعةٌ لا مساعدةٌ ، وقد ورد فى الحديث « المغبون لا محمود ولا مأجور »[1] رواه الخطيب والطبرانى وأبو يعلى عن على والحسن والحسين عليهم السلام على هذا الترتيب .

« جمع المصدر » إذا استعمل المصدر بالمعنى المصدرى المحض فلا معنى لجمعه عقلاً ، وأما جمعُه إذا أُريد به أنواع الحاصل بالمصدر فقد صرَّحوا به . وما كان نوعًا واحدًا فى القديم وصار أنواعًا فى الحديث فهو يدخل فى عموم تصريحهم كالجهود يُراد أنواعها[★] ، وأما جمع اللفظ بالألف والتاء فهو مقيس فى مواضع :

(1) ذى التاء مذكَّرًا كان أو مؤنثًا كطلحة . (2) ذى الألف المقصورة والممدودة .

(3) العلم المؤنث كزينب الرباب ، حذامِ عند من بناه . (4) المصغر كدُرَيْهِمَات .

(5) وصف المذكر غير العاقل كأيام معدودات ومعلومات[2] ، وما عداه سماعى كحمات وثيِّبات وسِجلات . هذا هو المشهور فى كتب النحو كما تذكُر ، ولكنّنا نرى العلماءَ والكُتاب قد أكثروا منه للحاجة ، فالظاهرُ أنهم يرونه قياسيًا ، وسأعود إلى الكتابة إليكم فى هذا فى فرصة أُخرى .

رأيتُ فى كتابكم النفيس المظلوم بحثًا فى الشيعة سأعود إلى استقصائه لأجل الإحاطة بما فيه من خَبركم وخُبركم ، وأعجل لكم الآن بكلمة فى نشاط شيعة العراق الأخير فى بثِّ دعايتهم ومؤلفاتهم الجديدة فى الطعن على أهل السُّنة وتفضيل مذهبهم ، وقد علمتَ ما كان من شيعة سورية وجبل عامل من نشر مصنفات ومن رَدِّى عليهم وتصدّى أحدِهم السيد عبد الحسين نور الدين لطلب المناظرة وتصريحِه

---

(1) **انظر** : مجمع الزوائد (4/ 75) . (★) رأيتُ أمثلة فى جمع المصدر فى كتاب سيبويه .

(2) يُضاف إلى ما ذكره الشيخ رشيد : 1- كل خماسى لم يسمع له جمع تكسير ، **مثل** : سرادق وسرادقات . 2- ما صُدر بذى من أسماء ما لا يعقل ، يُقال فى (ذى القعدة) : ذوات القعدة .

فيما كتبه إلىّ بأنَّ كُلًّا من الفريقين يعتقدُ أنَّ الآخرَ غيرُ مُتَّبِعٍ سبيلَ المؤمنين . . . إلخ .

وقد نشروا من عهد قريب كتابين ، أحدُهما لأشهرهم فى الاعتدال والميل للاتفاق مع أهل السُّنة الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ، طُبع فى مطبعة العرفان بصيدا ، وهو على كونه يَمْتَنُّ على المسلمين كلِّهم بميله إلى الاتفاق وأنه لولا ذلك لـ . . يقولُ متمثِّلاً فى علىّ كرَّم اللَّه وجهه :

ألا إنّما الإسلامُ لولا حُسَامُهُ لَعَفْطَةُ[1] عَنزٍ أو قُلامة ظافرِ[★]

ويقولُ إنّ أولَ من وَضع بَذرة التشيع فى حقل الإسلام هو صاحبُ الشريعة الإسلامية ؛ يعنى أنَّ بذرة التشيع وُضعت مع بذرة الإسلام جنبًا إلى جنب وسواء بسواء . . . إلخ !! وزعم أن الشيعةَ هم واضعو علوم التفسير والحديث . . . إلخ .

والثانى تأليف « السيد محمد صادق السيد محمد حسين الصدر » وطُبع فى بغداد من عهد قريب ، وهذا قد جاوز الحدَّ فى الطعن على أهل السُّنة وتكذيب البخارى وغيره من المُحدِّثين الأعلام ، بل تكذيب أشهر رواة الحديث من الصحابة ، ولا سيما أبى هريرة ﷺ ، وترجيح مذهب الشيعة فى كلِّ مذاهب الخلاف . . . إلخ .

ليس هذا هو المهمَّ فهذه شنشنتهم[2] كلَّما سمح لهم الوقتُ ، ولكنَّ المهمَّ أن حكومةَ العراق لم تسمح لأحد من أهل السَّنة بالردِّ عليهم ، ولم تُصادر هذين الكتابين

---

(1) **عَفْطَةُ عنز** : ما تنثره العنز من أنفها ، والمقصود : أنه لولا سيف علىّ ﷺ لما كان للإسلام قدر إلا قدر ما تنثره العنز من أنفها أو قلامة الظُّفر ، ولا يخفى ما فى هذا من خطأ ومبالغة .

(★) العلامة المجتهد الكبير السيد **محمد حسين كاشف** الغطاء هو من أعظم علماء المسلمين رغبة فى الاتحاد الإسلامى ، وله كتاب فى أصول الشيعة من أحسن ما كتب الناسُ فى هذا الموضوع ، وهو يُصرّح بأنَّ سيدنا عليًا اعترف بخلافة أبى بكر ثم بخلافة عمر رضى اللَّه عنهم جميعًا بسبب أنه رآهما قاما حقَّ القيام بأمر الإسلام ، وهو الأمر الذى كان يَهُمُّهُ دونَ سواه إذ لم يكنْ علىّ - كرَّم اللَّه وجهه - طامعًا فى الخلافة لأجل أسباب دنيوية كان أبعدَ الناس عنها ، ولقد أهدانى السيدُ **كاشفُ الغطاء** تأليفَه هذا ، فأعجبنى كلُّ ما فيه مما أتذكَّر إلا استشهاده بهذا البيت الذى انتقدَه **السيدُ رشيد**[1] ، وكتبتُ إليه برأيى فيه .

(2) **الشنشنة** : العادة الغالبة .

---

(1) انتقد أيضًا السيد رشيد بعد هذا البيت - كما هو مذكور فى المتن - رأى **السيد محمد حسين كاشف الغطاء** فى أنّ واضع بذرة التشيع هو صاحب الرسالة ﷺ ، وأنها وضعت مع الإسلام جنبًا إلى جنب .

كما صادرت كَتابًا طَعَنَ عليهم لكاتبٍ الظاهر أنّه متفرنج ، ولم أرَ كتابه ، وأهمُّ من هذا أنَّ بعض العلماء كتب إليَّ من بغدادَ أنَّ المحقَّقَ الذى لا ريبَ فيه أنَّ حكومة فيصل تُريد مساعدتَهم على جعل العراق كلِّه شيعيًا فى مقابلة سُنية أهل نجد لتكونَ العداوةُ بين الفريقين دينيّةً فلا يطمعُ ابن السعود بنشر مذهبه فى العراق . . . هذا خبر يجب التروِّى فيه بالهدوء والحكمة . وقد اجتمعتُ منذ أيام بسائح عربى أقام فى العراق عدةَ أشهر من العام الماضى يُحب الملك فيصلاً ، ويمدحه ، ولكنَّه يقول إن الشيعة يجتهدون أشدَّ الاجتهاد فى نشر مذهبهم فى بقية قبائل العراق الباقين على السُّنة فضلاً عن المدن ، وإنَّ نفوذَهم هو الذى يشتدُّ ، يجبُ أنْ تعلمَ هذا وتفكِّرَ فيه .

هذا ، وإنك قد علمتَ أنَّنى فى هذه المرّةِ قد قابلتُ جلالةَ الملكِ فيصلٍ فى مطار عين شمس الإنجليزى عند وصوله من فلسطين ، ثم قابلتُه مع الدكتور شهبندر والدكتور حسينْ أحمد مقابلةً خاصة - وقد عانقنى عند اللقاء ، وأنشد : وقد يجمع اللَّه الشتيتين[1] . . . وعلمتُ أنه يُريد السعىَ فى إنجلترا لضمِّ شرق الأردن إلى العراق[★] . . . واقترحتُ عليه أنْ يلقى فى أذن ملك الإنجليز إذا سَمَحت الفرصةُ كلمةً يَعْلَمُ بها عظمةَ شأن مركز العقبة ومعانٍ فى العالم الإسلامى من حيثُ كونُه من الحجاز الخاصّ بالمسلمين ، وأنَّ إمكان المودة بينهم وبين الإنجليز التى يسعى لها هو « فيصل » قد تقفُ فى سبيلها هذه العقدةُ ، ولكنَّ الوقتَ كان ضيِّقًا كما ضاق هذا الكتابُ فلم يَفْقَهْ مُرادى تمامَ الفهمِ ، وكتبتُ إليه فكانت الكتابةُ كالمشافهة ، وأحببتُ أنْ تعلم ذلك . والسلام .

رشيد

★ ★ ★

---

(1) هو من قول مجنون ليلى ، والبيت في ديوانه : ص243 :

قد يجمع اللّه الشتيتين بعدما   يَظُنّان كلَّ الظنِّ ألا تلاقيا

(★) وقد كان الملكُ فيصلٌ كاشفنى أنا أيضًا بذلك ، وفَرِحْتُ حتى قال - رحمه اللّه - لزميلى الجابرى : لا ينام شكيبٌ هذه الليلةَ من الفرح بهذا الخبر . . والحقيقةُ أنَّ فرحى كان مشوبًا بضعف الأمل فى تحقيق هذا المشروع من وُجوه كثيرة .

وكتب إلىّ :

بسم اللّه الرحمن الرحيم

القاهرة فى 19 ربيع الآخر 1352 و 10 أغسطس 1933 :

سيدى الأخُ الأميرُ المجاهدُ الكبيرُ

شفاك اللّه شفاءً لا يُغادر ألَمًا ولا سقمًا ، وحفظك لأمتك وقومك ولآلك فى النسب وفى العلم والأدب ، وقد أُلقى إلىّ كتاب منك كُتب قبل وصول كتابى الأخير إليك ، فانتظرتُ رجعَه فوصل أمس .

(1) وأول ما أجيب عنهما الشكر على دعوتك إياى إلى الاصطياف عندك فى جنيف ، ولو أوتيتُ سعةً من المال أنفقها فى هذه السبيلِ لأجبتُ دعوة أولادى إياى إلى الذهاب به إلى بلدنا بعدَ أنْ نجحَ شفيعٌ فى امتحان شهادة القسم الأول الثانوى « الكفاءة » والمعتصمُ فى امتحان الشهادة الابتدائية لأن هذا من حقِّهما وحقّ سائر آلِ البيت علىّ ، وإنْ كنت أستفيدُ من العلم والاختبار فى قُربك ومعك فى سويسرا ما لا أستفيدُه فى سورية ، ولو كان المالُ حاضرًا لأمكننى إرسالُهما إلى القلمون والمجىءُ بنفسى إلى سويسرا .

(2) ثم إنَّ ما أقترحه عليك فى كتابك عن العالم الإسلامى أنْ تجعلَه عدةَ كتب مستقلة بأسماء مختلفة ، أولها « دعاة النصرانية – المبشِّرون » فيجبُ أنْ تبدأ فى أول فرصة بعد إبلالك[1] وعودةِ قُوتك إليك بنشر كراسة أو دفتر تبيّنُ فيه مواضعَ هذه المباحثِ من الكتابِ المطبوعِ بأرقامِ صحائفها من الأجزاء ، وتُرتِّبُها عند جمعها فى كتاب مستقلٍّ مع علامات للمواضيع التى تُريد زيادتَها عليها بحيثُ يسُهل جمعُها وطبعُها مرتَّبةً مبوّبةً مفصَّلةً ، وهذا الكتاب يروج فى هذه الأيام جدًّا إذا أمكن طبُعه .

ويليها كتابٌ آخرُ فى جمع ما كتبه علماءُ الإفرنج فى الإسلام والنبىّ عليه أفضل الصلاة والسلام ، ويجبُ الاستعدادُ له بمثل ما ذكرتُ فيما قبلَه ، ولا تنسَ ما تريدُ

(1) أبلَّ المريضُ : بَرَأَ .

زيادَته فيه وَوَضْعَ الأرقامِ على ما تُحب أنْ تُعَلِّقَه على تلك النقولِ من استدراكٍ أو ردٍّ بقلمك أو ما تختار أنْ يعلِّقَه أخوك هذا عليها .

وعلى هذين فقسْ سائرَ المباحث التاريخية والتراجم التى يجمعُها أمرٌ كليٌّ ، وسأبيِّنُ فيها رأيى أيضًا عندما أُراجعُ المجلدَ الأولَ ، وقد أخذه السيدُ عاصمٌ منى لِيَطَّلِعَ عليه ، ويُطلعَ غيرَه ، وعندما يجيئنى المجلدُ الثانى ، ومن عادة الحلبى أن لا يرسلَ الثانى لأصحاب الصحف إلا بعد تقريظِهم الأولَ لأجل إعادة التقريظ .

إلى أنْ يقول :

(5) أفلم يأنِ لهذه الدولةِ على ذكائها أنْ تعلمَ أنَّه لا يمكنُها أنْ تُؤَسِّسَ فى سورية شعوبًا تتغلبُ بهم على الأمة العربية الإسلامية مع اتصال سوريا بالعراق ونجد والحجاز ، وأنَّ العرب إذا عجَزوا عن تأليف دولة عربية متحدة بأنفسهم فإنَّ سورية ستكون لإنجلترا من دونهم ؟ وهم يَرون مَرْفأ حَيفا أعظمَ من مرفأ مرسيليا ، وأنه حربىّ وتجارىّ ، وأنّ بجانبه حظيرةً للطيران الحربىّ من أعظم الحظائر ، ومن ورائها حظيرةٌ شرقىَّ الأردن وحظيرةُ العراق ، ولا يَعلم إلا اللّه ما سيكون فى خليج العقبة . . . إلخ .

(6) مسألةُ المؤتمر الإسلامىّ الأوروبىّ قد أحسنتم بكفالته ، فإنَّ أخانا محمود بك سالم متردِّدُ الرأى ، وقد أطلعتُ أخانا فؤاد بك على كتابكم فقال إن الصوابَ أنْ لا تدعوا حكومة الترك إلى هذا المؤتمر ، ولا معنى أيضًا لدعوة مفتى أدرنة من دونِ حكومته ، وأراه مُصيبًا .

(7) الصوابُ أنْ تكتبَ أو تنشرَ ما تكتبُ فى تقريظ كتاب « الوحى المحمدى » فى جريدة (الجهاد) لأنها أكثرُ انتشارًا ، ويجوز أنْ ينقلَه (الفتحُ) ولا عكس . هذا ، وإننى أخبرك أنَّ فلانًا يُخالفك كلَّ المخالفة فى سياستك السابقة فى الدولة العثمانية ، وقد نشر لك ما كتبتَه فى ذلك محاباةً لك ، ولكنّه لا يستطيع أنْ يكتبَ كلمة واحدة فى استحسان هذه السياسة أو الإقرار بأنك معذورٌ فيها .

« أخبار البلاد العربية » مرَّ الملكُ فيصل بمصرَ منذُ عشرة أيام متنكِّرًا ومعه نورى باشا ، فقابلهما أسعدُ داغر ، وعلم منهما أنَّ الملك جازم بأنه سيعودُ إلى سويسرا

بالطيارة بعد أسبوع . ولكن ظهرَ أنَّ مسألة الأشوريين فوق ما كان يُقَدِّرُ . وقد اصطدموا بالجيش العراقىّ ، وجرى القتال بينَهما ، ولمَّا تَنْتَهِ المسألةُ بعدُ ، ولكنْ لا خطرَ على العراق منهم ، وإنما البلاءُ الأكبرُ والخطرُ الأظهر اشتدادُ الشقاق بين الإمام والملك السعودى ، فاقرأ جوابَه فى برقيات الأهرام ، وعجِّل فى نصيحة الإمام محذِّرًا إياه من سوء الخاتمة التى تصدَّى لها . والسلام .

أخوك رشيد



وكتب فى 11 جمادى الأولى سنة 1352 وأول سبتمبر « أيلول » سنة 1933 :

سيدى الأخ الأميرُ

أبطأتَ علىَّ برجع كتابى الأخير إليك ، ولم أدرِ ما فعلتَ مع أبى الحسن بشأن كتاب « حاضر العالم الإسلامى » فإنه لم يزرْنى فى هذه المدّة ، وكنتُ قرأتُ فى بعض الجرائد أنك غادرتَ « جنيف » للتَّجْوَالِ فى بعض البلاد ، ثم جاء الأستاذ القاياتى فأخبرنى أنه تركك فيها ، ولم يلبثْ أنْ طلع علينا مقالُك فى مسألة الخلاف بين الإمامَين العربيين منشور اللواء فى جريدة (الجهاد) ، فرأيتُك فيه قد خالفتَ الخُطة التى التزمها جميعُ الذين كتبوا فى هذه المسألةِ ، ووافقتَ الشيخ التفتازانى وحدَه ، وهو الذى نصَّب نفسَه للدعوة إلى العلويين وآلِ البيت والقُبوريِّين والدفاعِ عنهم والنيلِ من ابن السعود وقومِهِ ، وإن كان غرضُك أنزَه من غرضه ، ومقصدُك أشرفَ من مقصده ، وأما الجمهورُ من الجماعات والأحزاب واللجان وأصحاب الصحف والأفراد الذين كتبوا فى الجرائد والذين أرسلوا البرقيات إلى الإمامين فقد اجتنبوا كلُّهم إظهارَ أدنى تحيّز(★) إلى إمام من الإمامَين أو فئة من الفئتين ، ولقد كنتَ أحقَّ منهم بذلك ، فما بالك صرَّحتَ بما صرَّحتَ به من ترجيح اليمن على الحجاز

(★) ذكرتُ فى ذلك المقال أنه لو ترك الإمام يحيى إمارةَ الإدريسى لابن سعود فصداقةُ ابن سعود خيرٌ له من هذه الإمارة . وكذلك لو تركها ابن سعود لليمن فالتحالفُ مع الإمام يحيى أحسنُ له منها ، وهى لم تكن له فى الأصل ، وأشرتُ بقسمتها فيما بينَهما على أنْ يَتحالفا .

فى مَحَلِّ النزاع ، وهو مسألة عَسيرِ فى هذا الوقت العسير ، ومن الطعن فى رجال الملك ابن سعود بما يدلُّ على أنك ترى أنهم يُزَيِّنون له ما يخالفُ مصلحتَه ومصلحةَ الأمة ، وهذا تأييدٌ للحكم عليه فى مَحَلِّ النزاع أيضًا ، فإن كان صحيحًا فى نفسه - فرضًا - فالتصريحُ به فى الجرائد جاء فى غير وقته ، والقوانينُ تحرِّم على الجرائد أنْ تكتب فى القضايا المرفوعة إلى المحاكم ما يقوِّى حُجَّة الخَصمين على الآخر ، ثم ما كان أغناك - مع هذا - أن تختارَ المحكَّمين أو مَن يصلحون للحكم فى هذه القضية وتقترحَهم فى مقال ينشرُ ؟ نعم إنك طعنتَ على رجال الإمام أيضًا ، ولكنَّ هذا الطعنَ لا يتضمَّنُ إضعاف حُجّته أو طمعه فى عسير الذى هو محلُّ النزاع ، ولا تنسَ ما سبقَ لك من الطعن فى جماعة الملك وتأثيرَه الآن .

كلُّ أولئك مما لم أكنْ أُحبّه لك على ما أعتقد من حسن نيتك فيه ، وما كلُّ ما تحسُن النيةُ فيه يَحْسُنُ الفعلُ ، وهو يَسوءُ الملكَ السعوديَّ ورجالَه بما يُبعدِهم عن قَبولِ كلامك فى غير هذا إلا فيه وحدَه ، فما الفائدةُ منه إذًا ؟ ثم إنَّنى اجتمعتُ فى هذا الصيفِ بالشيخ يوسف ياسين ، وكان مما أخبرنى به أنَّ جلالتَه باذلٌ قُصارى جَهْدِهِ فى عقد المحالفة بينه وبين الإمام ، وأنَّ الرجاءَ فيها قريبٌ . ثم لقيتُ بعدَ سفره فؤاد بك حمزَةَ فأخبرَنى بمثل ذلك ، وأنهم كلَّهم متّفقون عليه ، وأنَّ الوفدَ الذى فى صنعاءَ مُوْصًى آكَدَ الوصايا بالتساهل التامِّ فى سبيل النجاح ، وقد حدثت هذه الحركةُ بعدَ عودة الوفد من صنعاءَ خائبًا . والمشهورُ أنَّ الذى بثَّ الخبرَ فى فلسطين وسورية فؤادُ بك حمزة ، وهو فى مصطافه من وطنه « لبنان » ، وقد عاد إلى مصر منذُ يومين ، ولكنّنى لم أرَه ، ولم أعلمْ به إلا اليوم .

إنَّ مثلَك يا أخى فى علمك الواسع بسياسة الأمة ومصالحها وجهادِك الطويل وسنِّك ونسبِك ومركزِك يجبُ أنْ تكونَ موضعَ اتفاق عند ملوك الأمة وسُوقتها وخاصّتها وعامتّها وزعمائها وجماعاتها وأحزابها حتى لا يكونَ لأحدٍ ممن ذُكر صارفٌ عن الانتفاع باختبارك ، ولكنَّ هذا الاتفاقَ لا يُنال تامًّا ولا ناقصًا قليلاً إلا باتقاءِ المُنَفِّراتِ الصادعة والصراحةِ المريبة ، وبمراعاةِ الاستعدادِ للكلام ، وانتهازِ فرصِ الشعورِ بالحاجةِ إليه ، فما كان معقولاً عندك ربّما لا يكونُ معقولاً عند غيرك إلا بعدَ درس طويل واختبار عميق .

إنك أنت الذى فتحتَ باب الدعوة للوَحدة بين سورية والعراق ، وكان ذلك فى وقت غيرِ مناسب ، وأهلُ سوريا غيرُ مستعدِّين للاقتناع بقَبول هذه الدعوة ، فكثر خصومُها وخصومُك لأجلها[★] . ولولا وجودُ إخوان لك دافعوا عنك لَكَثُرَ الطاعنون فيك يومئذ ، وكانت تلك الحججُ الطويلة التى أدليتَ بها غيرَ مقبولة ، فكانت الدعوة سببًا لما علمتَ من الإعراض عن الملك فيصل وعن وُزرائه عند مُرورهم بالشام . . . إلخ . ولا تزالُ تلك الصراحةُ والمبالغةُ فى الاحتجاج مثارَ الظِّنَّةِ[1] ، وكان الراسخون فى العمل لفيصل حتى الدكتور قدرى والدكتور شهبندر يَرون أنَّ التصريحَ بالدعوة ضارٌّ فى ذلك الوقت ، وجنحوا لها فى هذا العام لانقلاب الأفكار مع التحفُّظ . . .

وصرحتَ فى السياسة العراقية تصريحًا آخرَ أغضب أكثرَ زعمائها وأكثرَ المشتغلين بسياستها ، ولمّا يَزُلْ سوءُ تأثيرها من أنفسهم كما تعلمُ . . . أريدُ بهذا وذاك ضربَ المثل ، وأرجو ألا يكونَ موضعَ بحث ولا جدل ، والسياسةُ ليست كالعلم والدِّين يكفى فيها تأليفُ الحجج والبراهين ، يبرأُ به العالم من إثم الكتمان ، ويؤدى ما عليه من واجب البيان ، بل هى المصلحةُ .

هذا ، وإننى قد تذكَّرتُ باقتراحك تحكيم الثلاثَة الملوك أمرًا يجب أنْ تعرَفه ، وكنتُ ناسيًا لكتابته لك ، وهو أنَّ صديقَنا الأستاذ محمد تقى الدين الهلالى سافر فى فُرصة مدرسة دار العلوم الصيفية من الهند إلى أفغانستان للوقوف على حال الإسلام والمسلمين فيها ، فعاد كئيبًا حزينًا : وجد أنَّ رجالَ حكومة نادر خان هم رجالُ حكومة أمان اللَّه خان ، لا دِينَ ولا إيمان ، ولكنْ إعجابٌ بمصطفى كمال لا يُقبل معه كلمة انتقاد ، وعلماء جامدون جاهلون ، ومشايخ طُرُقٍ خَرِفِيُّون[2] معظَّمون ،

(★) لا تزالُ مع الأسف الأهواءُ الشخصيةُ دونَ المصالح العامة هى مدارَ السياسة فى الأمة العربية . والحالُ أنَّ هذه الأمةَ أصبحت غيرَ قادرة على الجمع بين الأهواء الشخصية والأمراض التى هى مصابة بها . ورحِم اللَّه مَن قال :

أَنْـفُـوا الـمُـؤَذِّنَ مِـن بـلادِكـمُ ... إنْ كـان يُـنْـفَـى كُـلُّ مَـن صَـدَقـا

والسيد رشيد لا ينقدُنى هنا من جهة الرأى فى حدِّ ذاته بل مِن جهةِ عدمِ استعدادِ الناسِ له ، ولكنَّ الوقت بدأ يُجلِّى الحقائق ، ولِلَّه الحمد .

(1) **الظِّنَّةُ** : التُّهمة .

(2) **خَرِفَ** : فسد عقله من الكبر .

ولكنَّ الملكَ نفسَه يُعنى بإقامة الشعائر الشرعية وغير الشرعية كالموالد . وقد مَنَعَ تَهَتُّكَ النساء وما أشبهه من الظهور بالمفاسد . وهم أسوأ الناس ظَنًّا أو اعتقادًا بالوهابية يُصرِّحون بكفرهم ، ويَدينون بشدّة بُغضهم ، فالمتديِّنُ الخرافيُّ يَبغضهم تديُّنًا ، والمتفرنجُ الإلحاديُّ يَبغضهم لأنهم عربٌ . . . فإذا تألَّف وفد منهم ومن شيعة إيران ومن الأزهريين الظواهريين الدجويين أو من رجال السياسة المعروفين للحكم بين حكومة الزيدية وحكومة الوهابيين فما ظنُّك بحكمهم يا سيدى الأخ الكريم ؟ يتردَّدُ الهلالى فى بيان حال الأفغانيين فى الجرائد ، واستشارنى فأشرتُ عليه بأنْ يصبرَ ، فإنْ ضاق صدرُه بالكتمان فليكتبْ ناصحًا لا منتقدًا مشهِّرًا ، وَلْيُرْسِلْ إلىَّ ما يكتبه أولاً ، ويأذنُ لى بتنقيح ما أرى المصلحةَ فى تنقيحه .

وأختمُ هذا الكتابَ الذى يُؤسفنى أنْ يَسوءَك بخبر يسرُّك ، وهو أنَّ مدير مجلة الإسلام الإنجليزية التى يُصدرها فى لندن دعاةُ الإسلام الهنود قد كتب إلىَّ بأنه سيترجمُ كتاب « الوحى المحمَّدى » بالإنجليزية ، وينشره ، وقد شرع بعضُ متقنى الإنجليزية هنا بترجمة فصلين منه بطلب جمعية الدفاع عن الإسلام لتنظرَ الجمعيةُ هل يُحسنها فيتمَّها أم لا ؟ واستأذننى عالمٌ عصرى صينىٌّ فى الهند بترجمته بلغة بلاده لنشره فيها ، وأَذِنْتُ لمصرى تركىِّ الأصل بترجمته بالتركية اللاتينية إذ كتبَ إلىَّ أنَّ التركَ أحوجُ إليه مِن غيرهم . وسيترجَم باللغتين الأوردية والملاوية ، يترجمه بها تلميذان لى فى بلادهما ، وقد ذكرتُ الآن أنْ أُخبرَك بأنه لما أعلن صديقُنا الملكُ السعودى ضمَّ العسير الإدريسية إلى مملكته كتبتُ إليه بأننى كنتُ أرى أنَّ المصلحةَ إبقاؤها تحت الحماية ، وجعلُها فاصلاً بينه وبين اليمن ، ولكنَّ الأمر كان قد انتهى ، وتسليمُه الآن إياها لليمن بهذا الشكلِ الذى ظهر به سيفُ الإسلام وبعد احتلال نجرانَ خُطّةُ خَسْفٍ لا يرضى بها إلا عاجز أو خزيان . ونسأل اللّه التوفيقَ لما فيه الخير للعرب والإسلام . والسلام من أخيك المخلص .

رشيد



وكتب فى 4 جمادى الآخرة 1352 و 24 سبتمبر 1933 :

سيدى الأخُ الأميرُ ، أطال اللّه بقاءه ، وأحسن عزاءه

إنَّ مُصاب القضية بالملك فيصل لعظيمٌ ، وإن نصيبَك منه لعظيمٌ من وجوه آخرُها ما كان من خاتمته . ولا مَحَلَّ للإشارة إلى شىء منه ، فأحسنَ اللّه عزاءنا وعزاءك ، وأطال لنا وللأمة بقاءك ، وجعل لك من العبرة بما تعلمُ من مناقبه حظًّا عظيمًا من حلمه وسعة صدره ، وإن كنتُ لأعلم أنَّ مواجهتَك لهذا الرُّزْءِ[1] الكبير وشهودَك إياه هو الذى أبطأ بك عن الكتابة إلىَّ وعما وعدتَ به من تقريظ كتاب (الوحى المحمدى) بمقال يُنشر فى الجهاد ، وعن إعلامى برأيك فى وقعه عند مَن تعرف من المستشرقين وغيرهم من الإفرنج لأكونَ على بصيرة فيما ينبغى أنْ أُراعيَه فى طبعته الثانية التى أستعدُّ لها . ولعله بلغك ما نُشر فى الصحف من العزم على دعوة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية إلى عقد مؤتمر دينىّ عام للبحث فى معالجة أدواء الحضارة المادية بالأدوية الروحية الدينية . فهذا يُوجب علينا الاستعدادَ لما يُقَدِّمُه المسلمون لهذا المؤتمرِ من حقيقة الإسلام ، وأرى أهل الرأى من عُقلاء المسلمين موافقين لى على أنَّ كتاب (الوحى المحمدى) أفضلُ ما يوجد فى هذا الموضوع ، وأنا أرى أنه يجب علىَّ العنايةُ بجعل الطبعة الثانية القريبة أتمَّ وأنفعَ من الطبعة الأولى ، التى كُتبتْ بما تعلم من العجلة والاضطراب الذى بينتُه فى المقدمة . لهذا أنتظر ما أشرتَ إليه آنفًا من رأيك الخاص فى ذلك ورأىَ الأوروبيين . . . ولمَّا يردْ إلىَّ شىء ممن أهديتُ إليهم الكتاب من المستشرقين إلا الأستاذ هرتمن الألمانى ، فقد جاءنى منه كتابُ شُكْرٍ فيه كلمةٌ وجيزة عما يراه من وَقْعِ هذا الكتابِ كأمثاله عند أهل العلم .

ولقد كنتُ أفكّر منذ أسبوع أو أكثر فى الكتاب إليك بالتعزية وبعض المسائل الحاضرة ، وإنما أخَّرنى انتظارُ ما يكون لسعينا فى تصريف نسخك من كتاب (حاضر العالم الإسلامى) لنخبرَك به أو نُرسِلَ إليك مبلغًا من المال ، ولكنْ عرضت لنا

---

(1) الرُّزْء : المصيبة .

الدسائسُ التى انتهت أمسِ بوصول برقيتك من جنيف . وَسَيُفَصِّلُ لك السيدُ عاصم الخبر ، فهو الذى كان يسعى على رجليه لخدمتك كلَّ يوم فى هذه المسألةِ ، ولما وَصَلَت البرقيةُ مساءَ أمسِ (السبت) قلتُ له يجب أنْ يكتبَ كلٌّ منا إلى الأمير بما عنده ، وأن لا ننتظرَ كتابًا منه .

وأمّا كتابُك الجدلىُّ فإنّنى على علمى برأيك وشَنْشَنَتِكَ[1] فى المجادلات والمناظرات لم أكنْ أتوقَّعُ أنْ تكتبَ كلمةً منه فى هذا الوقتِ ولا فى غيره من أوقات الفراغ وخلوِّ البال لأنَّ ما أنكرتُه عليك فى كتابى الذى تردُّ عليه فيه لم أقصدِ فيه البحثَ فى المسائل العربية التى تجادلُنى فيها لأجل تحرير خلاف بيننا فيها ، وإنما كان الغرضُ منه بيانَ رأيى فيما يحسُن منك نشرُه فى الصحف من الآراء والنصائح للملوك والأمراء وما يجب أنْ يكونَ سرِّيًا بينَك وبينهم . وكذلك ما يخصُّ الأحزابَ والجماعاتِ ورجالَ الحكومات ليكونَ كلامُك جديرًا بأنْ يُنتفعَ به ، ومقامُك فى الأمة العربية جديرًا بالإجماع عليه بقدر الإمكان لما امتزتَ به من سِعَة العلم وطول الاختبار ، - وقد صرَّحت لك فى الكتاب على ما أتذكر بأنه لم يكتب لأجل البحث فيه .

لهذا كان من المستغرب عندى أنْ كان الكتابُ كلُّه جدلاً فى غير مَحلّه كما يقعُ بين رجال الأحزاب السياسية المختلفين فى مقاصدهم ومرامى أغراضهم أو أغراض سهامهم ، وما كنا كذلك فى شىء مما فيه . ولكنَّ كتابى جاءك وأنت ضَيِّقُ الصدرِ ، وكتبتَ الردَّ عليه وأنت أضيقُ صدرًا ، فلم يكن شىء منه فى مَحلّه ، ولا مما يُخاطِبُ فيه مثلُك مثلى فى اتحادِنا وإخائنا و. . . . و. . . و. . .

لم أرَ لك كتابًا ليس فيه كلمةٌ فى مَحلّها ويصحُّ أنْ توجَّه إلىَّ إلا هذا الكتاب :

أَيَصِحُّ أنْ يقولَ شكيبٌ لرشيدٍ : (1) « إذا كنَّا نُريدُ أنْ نَنفعَ ابنَ السُّعود . . . فلا يكونُ بأنْ نُحَسِّنَ له جميعَ أعماله ، وأنْ نُقنعَه بأنه مُحِقٌّ فى كلِّ شىء ؟؟ » .

(2) « ونحن بدلاً من أنْ نَنصحَه ونُبَيِّنَ له أنَّ عسيرًا واسعةٌ جدًّا وأنه . . . وأنه كان يُمكنُه أنْ يَحكمَ للإمام بما يُرضيه - قمنا نؤيدُ حجَّته ، ونجعلُ الحقَّ كلَّه له ، وهكذا

---

(1) **الشَّنْشنة** : العادة الغالبة .

نَجُرُّه إلى الحرب التى تفعلُ . . . وتفعل وتُضَيِّعُ عسيرًا أو اليمنَ كلَّها » . مَن ذا الذى فعلَ هذا ؟ أنا لم أقلْ ولم أفعلْ شيئًا مِن هذا . وما علمتُ أنَّ أحدًا قال أو فعل شيئًا من هذا . . . إلخ .

ليس فيما وَجَّهْتَهُ إلىَّ فى هذا الكتابِ كلمةٌ واحدةٌ كان يَصِحُّ أنْ توجَّه إلىَّ وتُجعلَ حُجّة علىَّ فى عمل عملتُه ، وليس فيها ما يصحُّ أنْ يُجعلَ ردًّا على غرضى من كتابى إليك ، وهو أنْ تكونَ نصائحُك الجهريةُ والسريّةُ كلٌّ منها بالأسلوب الجدير بالقَبول البعيد من مثار الظِّنَّة أو إثارة الحفيظة . وقد كان من الغريب قولُك إنك فضّلت أنْ يَستاء ابنُ سعود من مقالتك فى الجهاد على أنْ تكونَ ممن يُهَيِّجون على الحرب . فمتى كانت هذه القضيةُ شرطية مانعة الخُلُوِّ فى عُرف المنطق حتى تكونَ معذولاً فى اختيار هذا الطرف منها ؟ كلا إنه كان لك مندوحةٌ عن تَعَمُّدِ استياء أحد الخصمين وعن التَّهييج على الحرب معًا ، وهذا أرجى لجعل نُصحك مقبولاً أو محترمًا على الأقل .

ومثلُ هذا فى الغرابة قولُك إنَّك لم تقلْ إلا الواقعَ ، فهل كان مقالُك فى الجهاد مقالَ دعوة إلى صلح ؟ أم حكمًا قضائيًا فى جناية ؟ أم جرحًا لرواة حديثٍ ضعيفٍ أو موضوعٍ لا بُدَّ من بيانه لئلا يغترَّ الناسُ بالحديث فى أمرٍ من أمور دينهم ؟

وقولُك قبلَ هذا فى الردِّ على قولى إن الجرائد كلَّها مع ابن سعود : «إننا لسنا فى قضيةِ جرائد ، بل قضيةِ حربٍ ذاتِ خطر خطير على العرب ، نُريد أنْ نتفاداه بأىّ وجه كان » - يقال فيه أولاً إنَّ ما كتبتَه فى إغضاب أحد الخصمين يُنافى هذا المرادَ كما تقدَّم . وثانيًا إنَّ الجرائد لم تكن مع ابن سعود فى إعطائه الحقَّ فى موضوع النزاع ، بل فيما أجابَ به كلَّ من أبرقَ إليه بأنّه لن يَعتدى ولن يُثيرَ حربًا ، وأنه يَقبل تحكيم الشرع ، فكلامُ الجرائد كلِّها وكلامُ الذين كاتبوا الإمامين كلِّهم كان كله موجهًا إلى القصد الذى نطلبه من تلافى الحرب مع عدم تحيّز إلى أحد الإمامين فى موضوع النزاع ، فكان كلُّه أقربَ إلى مرادك من كلامك . وقبل أنْ أتركَ موضوعَ ابن سعود أذْكُرُ لك أو أُذَكِّرُكَ بأنه قد قرأ فى الجرائد المختلفة كثيرًا من النقد والطعن عليه فى مسألة الإمام الإدريسى وغيرها خلافًا لما أطلقتَه فى كتابك هذا مرّتين . وأما خُطتى

معه فأنت تعلُمها بالإجمال ، وهو أننى أنصح له فى كلِّ ما أراه فى حدود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمصالح العربية الإسلامية . وقد ذكرتُ خُطتى هذه معه فى (المنار) مرارًا وفى (المقطم) فى هذا العام . وقد علمتُ من يوسفَ ياسين مِرارًا أنه لم يكتبْ له أحدٌ فى الانتقاد الشديد عليه قريبًا مما كتبتُ إليه ، ومن ذلك أننى خطأتُه فى الاستيلاء على عسير فى وقته . وأما سعيى للاتفاق بينه وبين الإمام يحيى فلم يسبقنى إليه أحدٌ قط ، وكان مَبْدَؤه قبلَ الحرب العامة ، وزِدُته تأكيدًا عقبَ حادثة الحُجّاج المعروفة ، وما زلتُ أُلحُ عليه فى وجوب عقد المحالفة بينهما فى موسم الحجِّ وعهدِ المؤتمر الإسلامى العام سنة 1344 حتى أَقسم لى أغلظَ الأيمان ، ونحن سامرون على سطح قصره ، بأنَّه لن يَعتدىَ عليه ، وأنه ليس بينه وبين عقد المحالفة الهجومية والدفاعية معه إلا أنْ يرضى ، وأذِنَ لى أنْ أُخبر السيد حسين عبد القادر وكيله فى المؤتمر بذلك ، وأنْ أكتبَ للإمام أيضًا ، ففعلتُ ، وأعطيتُ الكتابَ للسيد حسين عبد القادر ، ولكنَّ الإمام لم يُجبْنى عن هذا الكتاب .

على أنَّ ابن سعود كلَّم السيد حسين عبد القادر فسعى للاتفاق والاتحاد بين الإمامين أَقْدَمَ مِن سَعْى أخى الأمير وصديقه شيخ العروبة(★) ، ولكنى لم أعلنه فى الجرائد ، وفى هذه النازلة الجديدة كتبتُ إليه فى مسألة التحكيم ولا حاجةَ إلى التطويل .

وأختمُ هذه المراجعةَ التى كتبتُها كارهًا لها مُضطرًا إليها بأنَّ أغربَ ما انتقدَه علىَّ أخى ، بل أَوْغَلَهُ أو أَشدَّهُ إيغالاً فى الغرابة ، هو قولك : « أما قولك إن كتابتى عن اتحاد سورية والعراق كانت ضدَّ أفكار الأكثرين فهذا مُسَغْرَبٌ جدًّا ومستغرَبٌ منك بزيادة لأنك من جملة المؤيّدين لمشروع اتحاد القطرين » . . . إلخ .

الغرابةُ الشديدةُ فى استغرابك هذا أنه مبنى على كونى مؤيِّدًا للمشروع كأنَّ كلمتى أو روايتى لكونه كان عند إبرازك له ضدَّ أفكار الأكثرين تدلُّ على رجوعى عن تأييده ، وما ذلك إلا أنَّ سيدى الأمير ذهل عن كون الرواية فى كتابى كانت مثلاً لما يكتبه أحيانًا غيرَ مراعٍ

(★) المرحوم **أحمد زكى باشا** ، وكنتُ منذُ عشر سنوات فأكثر رجوتُه أنْ يذهبَ ويزورَ الإمامين ، ويسعى فى التأليف بينَهما ، ففعل .

فيه أفكارَ الجمهور ولا الأحزاب ولا الجماعات ، وإن كان صوابًا فى نفسه وتمنّى أنْ يَتحرَّى فى أسلوبه ومراعاة الاستعداد له ما يتفقُ مع المصلحة السياسية والقومية من جِهة ومع مَقامه مِن الزَّعامة والإمامة السياسية من جِهة أخرى ، ولم تكن للانتقاد أو للإنكار عليه فى أصل المشروع بعد اتفاق الناس عليه . وأُذَكِّرُه هنا بأنَّ علماءَ المناظرة قالوا إنَّ البحثَ فى المثال ليس من شأن المحققين . وكان أستاذنا الجسر (ر . ح)[1] يقول : إنَّ بعضَ علماء الأزهر كان يُعَبِّرُ عن هذا المعنى بقوله : الذى صار مثلاً : « البحثُ فى المثل ليس من شأن الفحل » وجملةُ القول أنَّ كتابى لم يكن إلا نصيحةً أَخَوِيَّةً ، سببُها شِدّةُ حرصى على مقامه فى كلِّ الأوساط ذاتِ المقام فى أُمته لأجل ما أحب من الانتفاع بعلمه وخبره وإجلال مقامه ، وما أطلتُ فى الردِّ على ردِّه إلا أنه بُنى على ضدِّ ما بُنى عليه ، وقد وقعتُ قبلَ هذا فى إثارة مثلَ هذا الجدال ، وندمتُ ، وعسى ألا أعودَ ثالثةً . والسلامُ عليه[2] وعلى صِنْوِهِ ونجلِهِ الكريمين ، أطالَ اللّه بقاءَ الجميع .

أخوكم رشيد



وكتب فى 4 شعبان 1352 :

سيدى الأخُ الأميرُ ، أمتعنا اللّه والأمة بطول حياته وحسن جهاده

نَفَدَتْ نُسَخُ كتاب « الوحى المحمدّى » إلا نسخًا قليلةً أمسكناها لِما يطرأُ من الحاجة إليها قبلَ التمكن من إعادة طبعه ، فبدأتُ بإعادة قراءته لتنقيحه والزيادة فيه كما وعدتُ ، فاشتدت الحاجةُ إلى بيان ما سألتُك عنه مرارًا من رأيك فيه ، وتذكَّرتُ ما كنتُ عزمتُ عليه من كتابة فصل خاصٍّ أُبَسِّطُ به ما أشرت إليه بالإجمال من وجود آيات كثيرة فى القرآن وَافَقتْها أو فسَّرتها علومُ هذا العصرِ ووجوب الاستمداد فى هذا

---

(1) أى : رحمه اللّه .

(2) لاحظ كثرة استخدام ضمير الغيبة فى هذا المكتوب برغم أنه يخاطب الأمير شكيب ، ولعل السبب راجع إلى حياء الشيخ رشيد – طيب الله ثراه – من قسوة اللوم وعلوّ لهجة الحوار مع أخيه ورفيق عمره الأمير شكيب .

من كتاب المرحوم أحمد مختار باشا ، فأرجو أنْ تتفضّل بإعادة الترجمة العربية والأصل التركىّ معًا فى أول بريد ، فإنَّ الترجمة العربية وحدها لا تُغنى ، فَنراجع ما خفى علينا فهمُه منها أحدَ البارعين فى التركية مع صديقنا فؤاد بك سليم ، صديقنا الدكتور يحيى الدردير يُعيد قراءة كتاب الوحى ، ويُعلِّق عليه ما يرى اقتراحَه من زيادة فيه من نقل عن علماء الإفرنج الذى تطمئن إليه نابتة[1] هذا العصرِ ، وسأجدُ شيئًا كثيرًا من مدح هؤلاء العلماء ومن انتقاد غيرهم فى كتابك « حاضر العالم الإسلامى » ، ولعلَّ تقريظَ المنار له قد أرضاك ، ولمّا يُرسِلْ الحلبىُّ إلىَّ المجلدَ الثانى منه ، وقد رأيتُه فذكَّرتُه ، فوعدَ ولمَّا يفِ ، ولكنه لا بدَّ أنْ يَفِىَ .

هذا ، وقد علمتُ من الجرائد المصرية ومما كتبَه إليك أحمدُ زكى باشا - كما أخبرنى أمسِ - أنَّ مسألةَ الجمعية الإسلامية الأسبانية قد جُدِّدت الدعوةُ إليها من قِبَلِ المندوب الجديد الاقتصادىّ الذى حملته المكتوبات ، ولكنّنا نرى شبانَ الريف الذين هنا قد ازدادوا إساءةَ ظنٍّ فى أسبانية ، والاجتماع الذى عُقد للدعوة إلى تأليف لجنة للجمعية فى مصر قد صادف معارضةً شديدة . ولعلَّ سوءَ الظنِّ يَزداد بعدَ العلم بفوز الحزب الملكىّ الأسبانى فى الانتخابات الأخيرة ، وأرجو أنْ تكتبَ إلىَّ بخلاصة رأيك فى تأليف اللجنة هنا ، فإنه لم يجتمعْ أحدٌ من أعضاء اللجنة التحضيرية التى اقترحتَ ودُعى إليها إلا خمسةَ نَفرٍ ، ولا يَمْنعنَّك من كتابة خلاصة رأيك ما عسى أنْ تكتبهُ من التفصيل لأحمد زكى باشا ، فربّما لا ألقاه إلا بعد زمن طويل ، واسلمْ لأمَّتك ولأخيك .

محمد رشيد رضا



وكتب فى 11 شعبان 1352 و 29 نوفمبر 1933 :

سيدى الأخُ الأميرُ

إنى أُلقى إلىَّ كتابك المؤرَّخ فى 27 رجب الذى أَطلْتَ فيه ثانية فى مسألة كتاب

---

(1) **النابتة** : الغلام والجارية جاوزا حدّ الصغر ولم يجربا الأمور .

(حاضر العالم الإسلامى) ، وأمرتَ فى آخِره بإرسال نسخة من كتاب (الوحى المحمديّ) ونسخة من كتاب (نداء للجنس اللطيف) إلى كمفمير المستشرق الألمانى ، فأرسلنا فى الحال ، وسألتنى عن رأيى فى التحكيم بين الإمامين ، وأرسلتَ إليَّ صورة ما كتبتَه إلى الإمام يحيى ، وذكرتَ أنَّك أرسلتَ صورتَه إلى الملك عبد العزيز ، كما أرسلتَ صورةَ ما كتبتَه للملك إلى الإمام ، قد أحسنتَ بهذا جِدّ الإحسان ، ومسألةُ التحكيم يتحدّث بها الناسُ فى جميع البلاد العربية ، ومنهم مَن كتب إلى الإمامين باقتراحها ، ولقد كان جلالةُ ملك مصر أجدرَ الناس بها لولا أنه لم يعترف هو ولا حكومتُه بالحكومة السعودية رسميًا ، ولم يكن بِمُوادٍّ لها ، بل الأمر بالضدِّ ، ولهذا لم أرَ أحدًا هنا قال برأيك هذا ولا ذكره . وقد جاء فى برقيات أمس أنَّ ملك العراق أظهر ميلَه إلى السعى للتحكيم كما سبق للمرحوم والده . وقد حدثتُ بعضَ الكبراء هنا بأنه يحسُن أن يجتمعَ كبراءُ مصر غيرُ الرسميين كرؤساء الأحزاب غيرِ الحكومية - وهم الوفد والدستوريون والوطنيون - والأمير عمر والأستاذ المراغى ومن شاءوا معهم ، ويكتبوا إلى الإمامين فى الموضوعِ .

وقد سبق لى أنْ كتبتُ إلى كلٍّ منهما برأيى ، وهو الصلح بعقد المعاهدة على الاعتراف بالحدود الحاضرة فى عسير ونجران ، التى كانت مستقلة واستولى عليها الإمام بالقوة إلا أنْ يكونَ فى حدودها مع نجد ما يقتضى مفاوضةً وديَّةً إنْ أفادت فيها ، وإلا كان التحكيمُ على هذه الحدودِ ، وإذا اقتضى إرسال لجنة تحكيم فيجبُ أنْ يكونَ فى أعضائها بعضُ العارفين بالجغرافية والفنون العسكرية . وقد أعجبنى فى كتابك إلى الإمام ما ذكرته فى مسألة حدود عَسير ، كما ساءَنى ما كتبتَه مِن قبلُ فى الحكم بأنها لليمن أو ما فى معناه ، فإن تغييرَ الأمر الواقِع بعدَ الخلاف الذى وقع أَعْسَرُ من كلِّ عسير ، ولم يُعجبْنى إدخالُ مسألة الحجَّاج فى التحكيم ، فإنَّ المعاهدةَ إذا عُقدت وزال الشّقاقُ فإنه يسهُل إرضاءُ اليمن بمبلغ من المال عندما يوجد المال ، وإثبات إدانة النجديين فى هذه المسألة يتوقفُ على تحقيق لا يتيسَّر للجنة التحكيم كما عُلم مما اعتذرتْ به الحكومةُ السعودية عنها ، وأرجو أنْ لا نجعلَها موضوعَ جدال .

وقد كتبتُ إلى الإمام أنه إذا أعجبه رأيى فإنَّنى تحتَ أمره فى كل ما يستحسنه من

السعى له ولو بتحكيم ، ولعلَّه يجيئنى فى البريد الآتى جوابٌ من الإمامين فى الموضوع ، وقد كان جاءنى من الإمام كتابان جوابيان ومن الملك عدةُ كُتب ، يُؤكِّدان فيها اختيارَ السلام والوئام ، ويقول الملكُ إنه إنّما أرسلَ الجيش إلى الحدود لأنه يرجّحُ أنه أجدرُ بإقناع الإمام يحيى الذى لم يفعلْ جَهْرًا ما فعل بنجرانَ سرًّا مع الأدارسة وغيرِ ذلك إلا لاعتقاده بضعفه .

أرسلتُ إليك قبلَ هذا كتابًا رجوتُك فيه أنْ تُرسلَ إلىّ كتاب المرحوم مختار باشا الأصلىّ والمترجم ، وتُبيِّنَ لى رأيك فى كتاب (الوحى المحمدىّ) من ناحية الفكر الأوروبىّ ، وإنَّنا قد شرَعْنا فى إعادة طبعه ، ووصلَ اليومَ ما أرسلتَ فى مسألة الألمان وتنقيحهم لعقيدتهم ، وهو ينفعُنا . والسلامُ من أخيك .

رشيد



وكتب فى 21 ذى القعدة 1352 و 7 مارس 1934 :

سيدى الأخُ الأميرُ

أُحيّيك تحيةَ مشتاق بَرَّحتْ[1] به الأشواقُ ، واشتدت وحشتُه لطول هذه الفترةِ[2] من كتبك المؤنسة الممتعة ، وكنتُ أظنُّ أنك تُتحفنى بشىء من مكتوباتك الإسلامية المُفيدة فى أيام رمضان التى تصومها فى وَسَطٍ إسلامىّ حىّ ، ثم كنتُ أُمنِّى النفسَ بعد رمضان بقرُب عودتك إلى جنيف والكتابة منها ، وما كنتُ أظنُّ أنْ تطولَ هذه الغيبةُ عنها التى تُعَدَّ بالأشهر ثم لا تتفضَّلُ بها على أخيك بشىء من خبرك ، وهو لا يَسُرُّه شىءٌ يَرِدُ عليه من الآفاق كالذى يَرِدُ عليه منك ، وقلَّما يَشُقُّ على الإنسان انتظارُ محبوب يَرجوه كالذى ينتظره كلَّ يوم ولا يدرى كيف السبيل إلى استعجاله أو معرفة سبب تأخيره ، وعسى أنْ يكونَ خيرًا وما علمتُ بخبر عودتك إلى جنيف إلا مما نشر فى الأهرامِ أولَ من أمسِ .

---

(1) **برّح به الشىء** : اشتدّ عليه .　　(2) مدة الانقطاع .

لم يكن عندى من شئونى الخاصّة شىءٌ أَسُرُّكَ به فى هذه المدّةِ الطويلة العريضة لو كانت المكاتبةُ متصلةً ، ولم يتيسّر لى الشروعُ فى إعادة طبع كتاب (الوحى المحمدىّ) إلا فى أواخر شهر شوال ، والآن تُطْبَعُ الكراسةُ أو الملزمةُ العاشرة مزدوجةً ، وهى تُتم 160 صفحة ، ولكنّها تبلغُ الصفحة 85 من الطبعة الأولى ، فالزيادةُ زُهاءَ النصف منها فاتحةُ الكتاب وفصلٌ فى مباحثِ النّبوة عندنا مع فروق بين ما عندنا وعند أهل الكتاب ، والباقى زيادات فى المباحث خالفت فيها ما وعدت به فى الفاتحة من جَعْلِ جُلِّ الزيادات فى ملحقاتٍ للكتاب لئلا يَشُقَّ على الذين تَرجموه فى الهند والصين أو الذين لم يُتموا ترجمته إدخالُ الزيادات فى أثنائه على تراجمهم . ولما رأيتُه كبرُ حجمًا ورأيتُنى مُضْطرًا إلى إصداره قبلَ انتهاء السَّنة عزمتُ عزمًا قويًّا على إصداره فى يوم عرفة مع الوعد بكتاب جزءٍ ثانٍ له أضع فيه ما وعدتُ به من الفصول (1) فى أخبار القرآن العلمية الموافقةِ لعلوم هذا العصر ، وهو ما كنتُ أخبرتُك به ، و(2) أخبار الغيب ، و(3) السنن الاجتماعية ، و(4) أسرار العبادات ، و(5) فى المنافع الصحية . وهذا الجزء لا يمكن البدايةُ به إلا بعد شهرين على الأقل لأنّنى مضطرٌ فى هذين الشهرين إلى إتمام مجلة المنار ، وسيصل إليك فى أول بريد الجزء الثامن من م 33، وهو متأخر حتى إنه لمّا يُوزَّعْ كلُّه بسبب العسرة ، وبقى الجزءان التاسعُ والعاشرُ ، وأنا أُحرّرهما مع الاشتغال بتصحيح كتاب الوحى والزيادة فيه وإتقان طبعه بشكل الآيات القرآنية ، وهذا يستغرق وقتًا طويلاً . ثم إنّنى أتممت فى الأسبوع الماضى تفسيرَ الجزء الحادى عشر من التفسير ، ولكنْ بقى منه الخلاصةُ العامة لسورة يونس التى هى آخرُه ، وأنا مُضطرٌ إلى إتمامه فى هذين الشهرين أيضًا ، والمرجوُّ أنْ يجيئنا منه دراهم ، وكذا كتابُ الوحى .

كنتَ وعدتَ بكتابة تقريظ لكتاب (الوحى) ، ولما كنتُ عازمًا على نشر بعض التقاريظ فى آخر الجزء ، وأولُها تقريظ إمام اليمن ، فأكتفى منك إذا كنتَ لا تزالُ عازمًا على كتابة شىء ، وكان يسهُل عليك ، أن تُدركَ به المطبعةَ بعد أسبوعين – بأنْ تجعله مختصرًا أو أنْ تَبنيه على ما كنتَ كتبتَه فى زوائد الطبعة الثانية لكتاب (حاضر العالم الإسلامى) من وجوب دعوة العالم المدنىّ الإفرنجىّ إلى الإسلام ببيان حقيقته على

الوجه الصحيح المعقول الحقيق بالقبول عندهم ، فإننى رأيتُك فى هذا الموضوع قد صرَّحت بأنه لا يُوجد عندنا كتبٌ إسلامية تصلُح لهذه الدعوة . فأحسن ما تكتبه وأنفعُه أنْ تراجعَ عبارتك هذه فى أوائل الجزء الأول وتذكرها فى التقريظ ، وتشهد لهذا الكتاب بأنه وفَّى بهذا الغرضِ إذا كنتَ تراه جديرًا بهذه الشهادة كما أعتقد ، وسترى الطبعةَ الثانية منه أوفى بذلك من الأولى إن شاء اللّه تعالى . وكلُّ ما عسى أنْ تَزيدَه على ذلك فهو من فيض بِرِّك وكرمك ، ولا حاجةَ فى هذا التقريظ إلى اقتراح شىء يُزاد فيه ولا إلى ذكر ما علمتَ مما سيزاد فيه إلا إن كان على سبيل الإشارة المختصرَة .

والغرضُ الآن كتابةُ شىء مختصَرٍ مُفيد جوهرىّ كالذى قلتُه ليُدرك الطبعةَ الأولى ، ولعلَّه لا يُدركها إلا إذا أُرسل فى البريد الجوىّ الذى أُرْسِلُ فيه كتابى هذا . والسلامُ عليك وعلى نجلك النجيب ، وأدامك اللّه لأمتك ولأخيك المخلص .

منشئ المنار

محمد رشيد رضا



وكتب فى 23 ذى الحجة 1352 و 18 أبريل سنة 1934 :

سيدى الأخُ الأميرُ وفّقه اللّه تعالى

إنى أُلقى إلىَّ فى الساعة الثانية عشرة من هذا اليوم كتابُك الكريم فسرَّنى وحزّننى : سرّنى أنْ ذهب بالوحشة الشديدة التى شكوتُ منها فى كتابى السابق ، وبَقيت فى حيرة منها - أعنى وحشة طول الفترة على مكتوباتك - وحزننى بما بسطه من وصف عُسرتك المالية وإصرارك على ظلم نفسك بالإسراف فى النفقة والإسراف فى المكاتبات الشخصية والمقالات الكثيرة المتصلة إلى جرائد الأقطار المختلفة ، وإنه لَظلم لا يُبيحه العقلُ ولا النقلُ ولا خدمةُ المصلحة العامة لقوم لم أرَك عرمتهم[1] وعرفتهم بأصح مما قلتهَ فى هذا الكتاب :

---

(1) عَرَمَ الشىء : خَالَطَهُ .

« أجدُ الناسَ لا يَرحمون ولا يُشفقون ولا يَحسبون حسابًا لحالة جسمنا ولا تَقَدُّمِ سِنّنا ولا لضنك معيشتنا » . . . إلخ . وتأمل ما كتبتُه أنا فى مشتركى المنار منهم فى آخِر الجزء التاسع من هذا العام الذى أُرسلَ إليك أخيرًا ، واعلمْ أنَّ الذين أشرتُ إليهم فى آخره من أصناف المستجيبين لنا لا يَبلغون عُشر الظالمين الذين أصرُّوا على هضم الحقِّ غيرَ مبالين باستبراء ولا انتظار ولا صلح على بعض المطلوب ، وربَّما كانوا من . . .

يجب عليك شرعًا وعقلاً وصحةً واقتصادًا أنْ تتركَ جميعَ النوافل من المكتوبات الشخصية والمقالات الصحفية إلا ما عسى أنْ تجدَ وقتًا بعدَ أداء الواجبات الأربعة ، ولعلَّه لا يبلغُ العُشرَ مما ذكرتَ من العدد السنوىّ ، ثم يجبُ الإقلالُ فى الكَيْفِ كالإقلال فى الكَمِّ ، وَيَتْبَعُ ذلك الإقلالُ فى المالِ ، فلتكُنِ ميزانيةُ البريد فى هذه السنةِ خمسةَ جنيهات على الأكثر ، ولعلَّ أكثرَها ينالُها غيرُ مستحقِّها .

ويجبُ أنْ تعجلَ بتبييض (الحُلل السندسية) ، وأنْ تَقتصرَ فيها على المسائل التاريخية والعلمية ومنها الأدبيةُ ، وأنْ تُرجِئَ التراجمَ فتجعلُها ذيلا لها أو تخصُّ بها الجزأين الأخيرين منها كما قلت ، وأنْ تجعلَ أجزاءها صغيرة لِيُمْكِنَ طبعُها والانتفاعُ منها فى مدّة قصيرة ، وأنا لما رأيتَ الطبعةَ الثانية من (الوحى المحمدى) قد طالت عَزَمْتُ على جعل كلِّ ما كنتُ وعدتُ به من العِلاوات الملحَقة فى جزء مستقلٍّ كما ترى ذلك فى تصديرها ، وقد أُرسلتْ إليك .

وأمّا مسألةُ الحرب بين الإمامين فالذى فَهِمناه من أمرها غيرُ الذى ذكرتَه فى هذا الكتاب ، ولقد كان هذا ما ظننتُه من قبلُ وكتبتُ إلى الإمام يحيى أنّنى مستعدٌّ للتوسط بإقناع الملك به ولو بالسفر إلى نجد ، فسُرّ بما كتبتُه إليه ، ودعانى إلى زيارته فى اليمن بدلاً من الذهاب إلى ابن سعود ليطلعنى عَلى ما يُقنعنى بأنه صاحبُ الحقِّ وحَسَنُ النية ، ولو ظهر للملك من الإمام حسنُ النية لكان إقناعُه بترك نجرانَ له ممكنا مطلقًا أو بتعديل فى الحدود ، ولكنْ ظهر له ثم لنا مِن مُطْلِهِ وتسويفِه أنه يُريد إطالةَ الوقت لإعداد جميع قُواه للحرب بعدَ الصلح مع الإنجليز والتسليمِ لهم بما علمتَ ، وهو لم يكن يخطرُ لأحد منهم ولا من غيرِهم ببال .

إلى أنْ يقولَ :

ظهرَ للمَلك السعوديّ ذلك على سبيل القطع فى مؤتمر « أبها » إذ كان اجتماعُه مبنيًا على الاتفاق على مسألة عسير بإقرار الحالة الحاضرة فيها وعلى مسألة الأدارسة وإرجاء مسألة نجران وحدَها للمؤتمر ، فلما اجتمع المؤتمرُ أراد مندوبا الإمام أنْ تكونَ المفاوضةُ فى المسائل كلِّها كأنَّ ما كان قد تمَّ الاتفاقُ عليه لم يكن شيئًا مذكورًا .

من أخلاق الملك عبد العزيز التروِّى فى المسائل المهمة والصبرُ إلى أنْ تمتلئ الكأسُ إلى أصبارها[1] ، فحينئذٍ يأخذُ بالعزم ، ويمضى فيه بالحزم ، وكلُّ ما يَرِدُ فى هذه الأيام من برقيات الإمامين جوابًا للذين تصدَّوا للوساطة صريحة فيما ذكرته من خُطة كلٍّ منهما .

سبق أخونا السيدُ أمينُ الحسينى فأبرق إلى كلٍّ منهما يَقترح الهدنةَ وتركَ القتال إلى أنْ يُرسلَ هو وفدًا باسم المؤتمر الإسلامى العام يسعى للصلح والتوفيق بينهما ، وكتب برقياتٍ لى وللأمير عمرَ وآخرين من الوُجهاء فى مصر وغيرها ، يقترحُ فيها تأييده بإرسال البرقيات ، وعلِمنا أنه كتب إليك يقترحُ أنْ تكونَ عضوًا فى الوفد الذى يرجو هو أنْ يُسافرَ فى أَقرب وقت حتى قيل إنَّ موعدَه 10 أبريل أىْ بعدَ غدٍ ، وإنه سيجتمعُ فى السويس ، وقيل إنه سيسافر إلى الحجاز فى طيارة ، وأنت أعلم بما كتب إليك وبما أجبتَه به .

ونهض آخرون للتصدِّى للأمر والسعى لإرسال وفد من مصر ، وسبق إلى ذلك حزب جديد سَمَّى نفسَه حزبَ الاتحاد العربى ، جميعُ أعضائه من جمعية الماسون بل من صغارِهم ، والمعروف أنَّه مؤلَّف من قِبَلِ يهود ليستعملوه فى مطامعهم الصهيونية وغيرها ، وتلاه عبد الحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين ، فعقد اجتماعًا كنتُ من حاضريه ، وقد كان كلُّ ما قيل فيه موجَّهًا إلى شىء واحد وهو الإسراع بتأليف وفد رئيسىّ إسلامى يتفق مع حزب الاتحاد العربى ، ويَضمُّ إليه من شاء ، ويُسافر إلى

(1) **يقال** : ملأ الكأس إلى أصبارها : إلى رأسها ، وأخذ الشىء بأصباره ، أى تامًا .

الحجاز للقيام بهذه المُهِمَّةِ ، وكان مما ادّعاه خطباؤه أنه يُمثل العالَمَ الإسلاميَّ كلَّه . . . . وظهر أنّ أهمَّ ما يقصده سبقُ وفد المؤتمر الإسلاميّ إما لإحباطه أو لجعله تابعًا له ، ولما رأيتُهم مصرِّين على انتخاب هذا الوفدِ فى تلك الجلسة بالاقتراح العلنىّ ، وأهمُّ ما فيه رياسةُ عبد الحميد سعيد ، وأنه متفق مع حزب الاتحاد العربى الماسونىّ الصهيونىّ ، وأنهم لا يَقبلون البدء بتأليف لجنة للبحث فى الأمر - خرجتُ من الجلسة قبلَ إعطاء الرأى فى الانتخاب لأنَّنى لا أقبل على نفسى أنْ تكونَ غُثاء فى هذا السيل ، ولا أنْ أُعارضَ فيه صديقى عبد الحميد سعيد ، وكان من أمرهم أخيرًا أنهم قرَّروا تأليفَ الوفد والرئاسة ، وألَّفوا لجنةً أحمدُ اللّه أنَّهم لم يَعُدُّونى من أعضائها كما اقترح أو مقترَح لها ، وقد اجتمعوا مرّتين بعدَ تلك الجلسة آخرُها الليلةَ الماضية .

وقد كتبتُ أمسِ إلى السيد أمين الحسينى بأنَّنى لم أُرسل إلى الإمامين تأييدًا للمفاوضة لأننى أيقنتُ أنها فى مصلحة مَن يريد . . . لاكتساب الوقت إلى أن يتمَّ التدبيرُ السرّى الذى علمتُه من مصادرَ يمانيةٍ وحجازيةٍ وأوروبيةٍ . . . إلخ . وينتظر أنْ يجيئنا يومَ الثلاثاء (بعد غدٍ) تفصيلاتٌ من الحجاز نكونُ بها على بصيرة تامة ، فإن لم تحضُرْ أنت إجابةً للحسينى كما قيل فإنّنى سأكتبُ إليك بكلٍّ ما يتجدّد ، وإلا رجوتُ أنْ أراك فى السويس إنْ صحَّ الخبرُ بمجيئك . والسلام عليك أولاً وآخِرًا .

من أخيك

محمد رشيد رضا



وكتب فى 4 المحرم 1353 و 18 أبريل (نيسان) 1934 :

سيدى الأخُ الأميرُ أميرَ البيان ، حفظه اللّه تعالى

السلامُ عليكم ورحمة اللّه وبركاته . أما بعدُ فقد أُلقى إلىَّ كتابك المرسَل من جنيف فى 22 ذى الحجة 7 أبريل ، فكتبتُ إليك جوابَه عقبَ قراءته ، وأودعتُه فى البريد ليُرسَل فى البريد الجوىّ إلى أوروبا فى 9 أبريل ، وقد صادف يوم شمّ النسيم

هنا ، وهو يوم تعطيل ، ولم ألبَث أنْ تلقيتُ برقيتَك من أثينا فى 10 أبريل ، فعلمتُ أنَّ كتابى لم يبلغْك قبلَ السفر بالطيارة ، وكنتُ حسبتُ لهذا السفر العاجل حسابَه ، فأمرتُ ابن أخى أن ينسخَ صورة من كتابى لأعطيك إياها عندما نلتقى بمصر ، فَنَسخها فى دفتر ينسخُ فيه صُورَ بعض المكتوبات المهمة ، لا فى ورقٍ مستقلٍّ كما كنتُ أريدُ ، وقد حملت الدفترَ لأطلعَك عليه عند التلاقى الذى كنتُ أتوقّعه ، فكان ما كان مما لم نتوقعْه من الإسراف فى الحَجر . . . وربّما كان لَجاجُ أحد المحبين وإلحاحُهم وإسرافُهم فى التحويم عليك وإعنات الجلاوزة[1] أو الشحنة الموكَّلين بك سببًا فى إسرافهم ، ولهذا الاعتقاد تركْنا الجلوسَ تجاهك فى الفندق بالسويس ظَنًّا أنهم يتركونك فيه ، ولكنَّ ذلك المُعنتَ لم يَقْتَدِ بنا ، فبهذا حُرِمْنا مِن التمتع برؤيتك فى تلك الدقائقِ القليلة ، فندمنا ، وسترى فى كتابى بيانًا لرأيى فى كلّ ما كتبتَ إلىَّ ، وأوله ما هو بمعنى الفتوى بتحريم ما تَجنيه على نفسك وصحتك وأهلك ومالك بكثرة المكتوبات الشخصية والرسائل إلى الصحف ، ويليه الرأى فيما يجب فى تأليف (الحلل السندسية) . . . إلخ .

أما محمدُ على لقمان فقد كتب إليه السيدُ عاصم بأنْ يُرسلَ إلينا بقيّةَ ما عنده من الكتب بعنواننا فى مصر ، وقد وصل منه فى بريد أمس كتاب مؤمَّن عليه فيه خمسةُ جنيهات إسترلينية (لا مصرية) ، فحفظتُها بعينها ، وأمرت السيدَ عاصمًا أنْ يُحَرِّرَ لك حسابَ الكتب التى باعتها مكتبةُ المنار ، ويضيفَ إليه حساب لقمان هذا بعد وصول ما يُرسلُه وما تُنفق عليه المكتبة ، ويبلغك الفذلكةَ[2] حيثُ تكونُ .

وأما مسألةُ التنازعِ والتقاتلِ بينَ الإمامين فقد بينتُ لك خلاصةَ الحقيقة فى كتابى الذى أرسلتُه إلى جنيف ، وقد عرَفتُ الآن كلَّ شىء بالتفصيل بالوثائق الرسمية من ينبُوعها ، وقد شرحتُ لإخوانك أعضاء الوفد فى السويس الحقيقة ، وبيّنت لهم مصلحةَ الأمة العربية ومصلحةَ العالم الإسلامىّ فيها ، ومَن عرَف المصلحتين حقَّ

(1) **الجلاوزة** جمع (جِلِّوْز) وهو الشرطى .

(2) **فذلك الحساب** : أنهاه وفرغ منه ، وهى منحوتة من قوله إذا أجمل الحساب : فذلك كذا وكذا .

المعرفة تبينَ له أنَّ من الخطأ الكبير أنْ ينظرَ فى النزاع وما ينبغى من السعى إلى الصلح كما ينظرُ فى قضية أخوين متنازعين فى إرث مال أو عقّار يُبَيِّنُ الحَكَمُ فيها قِسمتَه بينَهما مناصفةً أو إلزام أغناهما أنْ يَسمحَ ببعض ما هو حقٌّ له للآخر . نعم إنَّ العدلَ هو أساسُ جميع الأحكام ، ولا يجوز الخروجُ عنه إلا بالتراضى بين من يُراد الصلحُ بينَهما ، وإنما الأمر العسير تحديدُ الحقِّ فى أمثال هذه الدعاوى السياسية وتحديدُ المصلحة العامة فيها ، وهى الأصل الذى يجب تقديمُه فيها ، ثم تحديد العدل فيها ، وكلّ هذا يُرجى من وفدكم الكريم بعد الوقوف على الحقائق وملاحظة ما يُكاد للمسلمين وللعرب ومَن يَقدر على حِفْظِ حرمهم المهدّد . والسلامُ .

رشيد



وكتب فى 3 ربيع الآخر 1353 :

سيدى الأخُ الحبيبُ الأميرُ المجاهدُ ، أدام اللّه توفيقَه

أُحييك مهنئًا بعودتك من سفرك الشاقّ فى الهواء والماء والأغوار والأنجاد مجاهدًا فى سبيل اللّه وخدمة الإسلام وقوم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ثم أُهنئك تهنئةً خاصة بلقاء السيدة الوالدة التى تَفْضلُ بنفسها وولدها جميعَ الأمهات ، وأُهنئُها برؤيتك معافىً عزيزًا كريمًا عظيمًا تُقاومك كبرى دول الأرض مقاومةَ مَنْ تخشى من الرجال ، ويشفعُ أعظمُ ملوك الإسلام لدى أعظم ملوك الغرب أو الأرض لك ولها بهذا التلاقى بما عظُم قيمتُه الروحيةُ بهذه القيمة السياسية ، وأرجو أنْ تبلِّغَها هذه التهنئةَ عنِّى المقرونةَ بالدعاء لك ولها ، وتُقَبِّلَ يدَها عنِّى ، وتطلبَ منها الدعاء الخاصَّ لى .

هذا ، وإننى كنتُ أرجو أنْ تتفضّل علىّ بكتاب من الحجاز أو من اليمن تُفيدنى به ما لا أرجو مثلَه من غيرك فى هذه الأحوال ، وخشيتُ أن يكونَ المانعُ شيئًا لا أحبُّه ، فعسى أنْ تبشِّرنى بما أحب العلم به .

وقد نقل عنك مُراسِلُ البلاغ من صنعاء حديثًا طويلاً أنكره جميع الإخوان والمحبين هنا ، ورآه الأخُ هاشم بك من الأباطيل التى لا تُصدَّق مستدلاً بأنّكم ما تفارقتم هنالك . ومُرْسِلُ الحديث غيرُ ثقة بل هو من رواة المنكرات والموضوعات بسوء النية ، فإن كان موضوعًا أو محرفًا فالمرجوُّ التعجيلُ بكتابة شيء يُنشر فى تكذيبه أو تفنيده . ويا ليتنى كنتُ قادرًا على زيارتك والإقامة بجانبك إلى آخر هذا الأسبوع الممنوح لك من غير أنْ أُزاحم السيدة الوالدة بأكثر من ساعة أو ساعتين من كلِّ نهار .

هاشم بك أجاب دعوتَنا ودعوةَ مُضيفيه وغيرهم ، وعزَم على إقامة مدة فى مصر يُمكنه فيها مشاهدةُ عِمرانها ، وهو حريص على لقاء الصديق إحسان بك ، ونرجو كلُّنا أنْ يكونَ هنا ، كما كتبتُ إلى إحسان بك . والسلام عليه وعليك وعلى سائر من تَلْقى من المحبين .

أخوك رشيد



وكتب فى 12 ربيع الآخر 1353 :

سيدى الأخ الحبيبُ أمير البيان شكيب أرسلان ، عليه السلامُ

أُهنئك مرةً ثانية أفضلَ التهانى وأهنأها بالتلاقى مع السيدة الوالدة ، وحظوتِك بتقبيل يديها الكريمتين وحظوتها بتقبيل وجنتيك المُنيرتين ، وبضمِّك إلى صدرها البرِّ الرحيم شيخًا كبيرًا وأميرًا وقورًا ، كما كانت تضمُّك طفلاً صغيرًا ، وسماعك لترحيبها ودعائها المستجاب إن شاء اللّه تعالى ، ورؤية كلٍّ منكما لدموع السرورِ تَتَرَقْرَقُ فى مآقيكما ، وهى ألذُّ وأشهى وأبهى من كلِّ ما يُرى فى هذه الدنيا من آيات الحبّ الخالص المخلص ، الذى لا يعلوه فى هذه الحياة ولا فى الآخرة إلا حبُّ اللّه تعالى ، وقد رجوتُ فى تهنئتى الأولى منك أنْ تبلّغَها تهنئتى مقبِّلاً ليديها عنى ومطالبًا لها بأنْ تُشركنى بشيء من دعائها لك جزاءً على إخلاصى فى حبّك وإخلاصك فى

حُبّى الذى به تُعَدّ والدةً لى بالرُّوح ، فإننى لأشعر بذلك فى صميم قلبى ، ولو رأتنى الآن لرأت شاهدى على صدق قولى فى دموع عينى كلتيهما تلمعان وتجريان بما هو أفصحُ من شهادتَى القلم واللسان ، ثم أُهنئُك فى المرتبة الثانية بجهادك بمالك ونفسِك فى سبيل اللّه وخدمة أُمتك ومِلَّتِكَ .

ولقد رأيتُنى ليلةَ الخميس سابعَ هذا الشهرِ معكما فى القدس أو بالقرب منكما ، وأنَّ السيدةَ وافقتنى فيما تُحدثُنى به نفسى من كتابة كتاب للمندوب السامى بطلب السماح لك ببقائك بجانبها أسبوعًا آخرَ . . . ثم رأيتُ فى الصحف ما صدَّق هذه الرؤيا(★) . ثم إنه قد تمّ تأويلُها ، وأعودُ فأقولُ كما قلتُ فى كتابى الأول يا ليتنى قادرٌ على المجىء إلى القدس . . . وأرضى من السيدة بمزاحمتها عليك ساعةً واحدةً من كلِّ نهار .

طالت فترةُ الوحشة من المكاتبة فلم تكتبْ إلىَّ رجعَ ما أرسلتُه إليك ، ولا مبتدئًا بالفضل كما تعوّدتُ منك ، وإنك لا تُقصر إلا بعذر . وقد بلغنا أمسِ نبأٌ غريب أرجو أنْ يكونَ صحيحًا وأنْ تكونَ غايتُه خيرًا من بدايته ، وهو أنك دُعيت إلى الغداء أنتَ والأخ إحسان بك مع المندوب السامى فى القدس على مائدته ، وأنَّ جريدةَ (البلاغ) المصرية تنشرُ مقالا فى هذا الموضوع فى مساء هذا اليوم(★★) . أما وقد اتَّسع لك الوقتُ ، وحُسنت الصحةُ ، فأرجو أن تختلسَ من السيدة الوالدة ومن الإخوان المرحِّبين والمحتفلين ساعةً من ليل أو نهار تكتب إلىَّ أهمَّ ما يَهُمّنى من أخبار شئونك

(★) نعم كان صَدَرَ لى الإذنُ من الحكومة الإنجليزية بالمرور بفلسطين لمشاهدة سيدتى الوالدة على إثر كتاب من جلالة الإمام يحيى إلى جلالة ملك الإنجليز رأسًا مما أوجب صدورَ أمر الملك بإسعاف الطلب ، فجاءتنى برقيةٌ من المندوب السامى البريطانى فى فلسطين ، إذ أنا مريض فى « أسمره » راجعًا من اليمن بأنه يسمح لى بأنْ أمرَّ بالقدس لأجل مشاهدة والدتى فيها ، وأنْ أَلْبَثَ فيها أسبوعًا على أن لا أتعاطى السياسةَ مدةَ إقامتى هناك ، فأجبتُه بقَبول الشرط ، وجئت إلى القدس ، ووافتنى الوالدةُ من جبل لبنان ، وأذِنَ لنا المندوبُ السامى بالبقاء أسبوعين بدلاً من أسبوع واحد ، لكنَّه أَلحَّ أخيرًا بلزوم السفر معتذرًا بإلحاح الفرنسيس .

(★★) الصحيحُ أننا شربنا عنده الشاى .

الشخصية وما يسمح به الوقتُ من المسائل العامة الأخيرةِ ، وإنَّ لديكم الآن خلاصة إخواننا السوريين والفلسطينيين . ولا تنسَ أنْ تكتبَ لى كلمة فى السياسة الإيطالية الجديدة بعد تلاقيك وإحسان بك برجالها وزعيمها الأكبر موسولينى(★) .

فى (أهرام) هذا اليوم برقيات فى تلخيص مقالة للتيمس[1] صرَّحتَ فيها بالخطر القريب على فلسطين تصريحًا لم نعهده منها قبلُ ، وإنا لنعلم أنَّ الأمرَ أعظمُ والخطرَ أقربُ ، ورأيى فيه اليومَ هو رأيى من أول يوم ، يعرفه السيد أمين وأسعد أفندى داغر ، فاسألهما عنه .

لم يحدثنى أحدٌ من إخوانكم أعضاء الوفد عن مودّتك وحسن ظنك إلا محمد على باشا عَلوبة[2] ، ولا سيما بعد أنْ اجتمعنا بدولة صديقنا المخلص الأتاسى ، وقد علمتُ من حديث الأتاسى ومن حديث مردم بك قبله ما ربما تأتى له مناسبة بعدُ . ومردم بك أذكى جماعة دمشق وأكثرُ الأذكياء من حزبه ، ولا يُضاهيه من إخواننا فى

(★) سبق للأستاذ من سنة 1921م سعى لدى إيطالية فى أنْ يكون بينها وبين المسلمين توادٌ هو من مصلحة الفريقين ، وكأنَّ الأستاذ نظرَ فى ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : 251] . ونحن ما تفاهمنا مع **موسولينى** إلا بعد أنْ رأينا أنه لم يبق سبيل إلى المقاومة بالسلاح ، وأنَّ بقاء الحالة على ما كانت عليه آيل إلى انقراض الإسلام من القطر الطرابلسى ، فرجَّحنا طريقةَ المسالمة على شرطِ إعادةِ المشرَّدين من العرب ، وإرجاع الأوقاف والأراضى المضبوطة ، والعفو عن المحكوم عليهم والمسجونين بسبب الجهاد السابق ، وإشراكِ الأهالى فى إدارة البلاد ، ومنع الدعاية الدينية المسيحية بين المسلمين وتسهيلِ رجوع المهاجرين إلى أوطانهم ، وغيرِ ذلك مما شرحناه فى الصحف مرارًا ، وقد تم أكثره والباقى هو فى طريق الإنجاز . ولا نعلم سببًا يمنع من مُسالمة العدو لأجل مصلحة الإسلام ، والنبى ﷺ صالحَ المشركين فى الحديبية والخلفاء الملوك الذين تولَّوا أمورَ الإسلام من ألف وثلاثمائة سنة لم يزالوا يحاربون أعداءَ الإسلام ويُصالحونهم إذا تبينت لهم المصلحةُ فى الصلح ، وفى السنين الأخيرة تعاهدت العراقُ مع إنجلترا ثم تعاهدت مصرُ معها ثم تعاهدت سورية مع فرنسا ، ولم يجدْ أحدٌ من عقلاء الإسلام هذه المعاهداتِ مما لا يجوز شرعًا ولا عُرفًا ، وإننا نقدر أنْ نصرِّحَ ، وضميرُنا مستريحٌ ، بأنَّ الذى نلناه بحسن التفاهم مع موسولينى ، سواء فى معاملة إيطاليا للطرابلسيين أو لمسلمى الحبشة ، لم ينله أحدٌ قبلَنا من الشرقيين من دولة أوروبية ، فأما التشدُّقُ بالمحال والقذف بالباطل فليس مما يغيرُ حقيقةً ولا مما يُعمِى بصيرةً صادقةً ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد : 17] .

(1) هى مجلة .

(2) هو **محمد على علوبة باشا** (1292 – 1375 هـ / 1875 – 1956 م) عالم بالحقوق ، ولد بأسيوط وتوفى بالقاهرة . انتخب نقيبًا للمحامين ، وتولى وزارة الأوقاف والمعارف ووزارة الدولة للشئون البرلمانية ، وعين سفيرًا فى باكستان ، وكان يشارك فى المؤتمرات الإسلامية الهامة . (الأعلام : 6/ 307) .

ذكائه وتصرفه إلا رياض بك(★) ، وهذا ما سمح به الوقت . والسلامُ عليك وعلى مَن لديك من أخيك .

رشيد

وكتب فى 17 جمادى الأولى سنة 1353 و 27 أغسطس 1934 :

سيدى الأخُ الأميرُ ، أدام اللّه توفيقَه ، وأَطال حياته

أبطأتُ بالكتابة إليك بعد عودتك إلى أوروبا إذ كان جاءَنى كتاب من الأخ إحسان بك بأنه سيسافرُ معك عن طريق (بور سعيد) ، ويحبُّ أنْ ألقاكما فيه بالباخرة التى تحملُكما ، وأنَّه سَيُرسِلُ إلىّ كتابًا آخرَ يذكر فيه يومَ وصول الباخرة ومدةَ مُكثها فى ذلك الثّغر . وجاء بعده كتابُك الأخيرُ من القدس ، وفيه خبرُ سفرك وما حدث من بعض الوطنيين ، فكان سببًا لتدخل فرنسا فى مُكثك ، وما أفضى إليه من تعيين الحكومة ليوم السفر ، ولم تذكرْ فيه شيئًا عن إحسان بك . وتلا ذلك سفرُك وبقاؤه فى القدس . ثم بلغنى من الدكتور شهبندر أنَّ إحسان بك يوشك أن يُلم بمصر منصرفَه من القدس ، فعزمتُ على أنْ أُحمِّله الجزء الذى عندى لك من الإكليل مأخوذًا بالعكس الشمسى من برلين ، وتوفير أجرته مسجَّلاً بالبريد ، وهو ما يثقل علينا فى هذه الأيام ، وكذا ما دونَه . ولكنَّ إحسان ، أحسن اللّهُ إلينا وإليه ، سافر عن طريق الإسكندرية ، ونزل فيها ، ولم يخبرنى قبلَ ذلك لألقاه فيها .

لقد صرتُ أكرهُ وأستثقلُ أنْ أُزعجك بأخبار عُسرتى فى كلِّ كتاب ، وكنتُ أنتظر فى هذه الأيام يُسْرًا ما يغنينى عن ذكرها فلم يَزْدَدْ إلا شدةً حتى إنَّ عمال المطبعة تركوا العملَ فى هذين الأسبوعين ، وصرتُ أفكر فى إبطال إصدار المنار ، وإنَّ ذكرَ هذه الكلمة فى هذه الفكرة أثقلُ على نفسى من الجبل إذا انقضَّ علىَّ .

إلى أنْ يقول :

واعلم يا أخى أنَّ ثقتى باللّه تعالى ورجائى بفضله وتوكُّلى عليه كما تعلم مِن قبلُ .

(★) لا جِدالَ فى ذكاء هذين الزعيمين بل فى تفوقهما بالذكاء .

وأعودُ إلى الكلام فيما خُلِقْتَ له من أمور الإسلام والمسلمين ، الذين يكذِب الكثيرون منهم على اللّه بدعوى الإسلام ، أو يكذبُ الحكام والجغرافيون بتسميتهم مسلمين فأقول : ما فعل مؤتمرُ مسلمى أوروبا الذى عهد إليكم به ؟ أنا أعتقد اعتقادًا إجماليًا أنهم خير من مسلمى مصر وسورية والعراق وسائر الأمصار الشرقية من صلابة العقيدة بقدر علمهم القليل، وإنَّ خيرَ ما يجب أنْ يُرْشَدُوا إليه تَعَلُّمُ العربية وتسهيلُه عليهم ، ثم إمدادُهم بالكتب الإصلاحية الدينية ككتاب (الوحى المحمدى) وخلاصة السيرة المحمدية وتفسير المنار .

إلى أنْ يقولَ :

ذكرتَ لى فى الكتاب الأخير أنَّك كتبتَ إلى الحلبىّ أن يُعطينى نسخةً من كتابك الجديد « غزوات العرب » ، وما كنتُ سمعتُ باسمه ولا بصدوره ، ولمَّا يَصِلْ إلىَّ الكتاب من قِبلك ولا من قِبل الناشر ، وهو وأولاد عمِّه لا يُهدون كتبهم إلى الصحف ، وعبد العزيز أفندى مسافر . والسلامُ عليك ورحمة اللّه وبركاته من أخيك .

رشيد



وكتب فى 12 رجب 1353 و21 أكتوبر 1934 :

سيدى الأخُ الأميرُ ، حيّاه اللّه تعالى

فى هذه الساعة ، وهى الحادية عشرة من يوم الأحد ، أُلقى إلىَّ جوابُك عن كتابى « رقم 17 جمادى الأولى » مؤرَّخًا فى 6 رجب ، وعجبتُ من قولك فيه إنَّ فى كتابى تأخيرًا كثيرًا ، وتعليلك ذلك باحتمال نسيانه مدةً قبلَ وضعه فى البريد ، فإنْ صحَّ هذا التعليلُ فالنسيانُ من السيد عاصم ، فإنى أعطيه ما أكتبه ليرسلَه فى وقته ، وتارةً أعطيه للمكتبة إنْ كتبتُ عنوانه ، ولكن هو الذى يكتب عنوانَك دائمًا ، والخطب سهل ، والحمد للّه على وصول الكتاب ووصول جوابه ، وإنْ أبطأ ، وقد سررتُ بأخباره كلِّها . وأسألُ اللّه تعالى أن يزيدكم عافيةً وقوةً وتوفيقًا ويُسرًا .

وأُبشرُك بأنَّ صحتى فى هذا الخريف خيرٌ مما كانت فى الصيف ، وقد كان الصيف خيرًا مما قبلَه . ومن أنفعِ الأسباب لهذه الصحة تركُ أكل الطعام فى العشاء والاقتصار على الفاكهة أو زُبادة قليل من اللبن الحليب أو الرائب ، ولا أنسى فضلَ الدكتور شهبندر بإرشاده ووصفِهِ لى علاجًا ذهبَ باستعماله بعض أعراض الرثية[1] وضغط الدم .

وعملى الآن تضاعفَ فى غير إرهاق ولا شططٍ ، وقد تنبهتُ لغفلتى عن إضاعة كثير من عمرى وأكثرِه فى غير الأنفع لى فى رزقى والأنفعِ للمسلمين فى دينهم أو الأنفعِ للبشر فى بيان الإسلام ، وهو كتابةُ تفسيرٍ مختصَرٍ للقرآن العظيم يفهمه كلُّ قارئ ، ويُرجى أنْ يُعتبرَ به ، وهو ما يُطالبنى به الكثيرون من العلماء ومَن دونَهم ، وكنتُ أُسوِّف فى وعدِهم غافلاً عن الشيخوخة وقربِ الأجل أو العجزِ الذى سبقتَ إلى تذكيرنا به ، فأكثَرت حتى عذلتُك .

فالآن قد شرعتُ فى اختصار الأجزاء التى طُبعت من التفسير بما أرى أنه أنفعُ لجماهير القُرَّاء ، فبلغتُ النصفَ الثانى من الجزء الرابع ، وأرجو أنْ أشرعَ فى الطبع بعد إتمام اختصار الجزء الخامس ، إذ عزمتُ على جعل المختصَر ثلاثة أجزاء ، فى كلِّ واحد منها ثلثُ القرآن الكريم ، وقد طبعت من الثلث الثانى تفسيرَ جزء ونصف جزء ؛ إذ بدأتُ باختصاره من أوّل الجزء الحادى عشر الذى تم طبعه مطوَّلا فى المحرم من هذا العام ، وإذا وُفِّقْنا لطبع الثُّلُث الأول بعدَ بضعة أشهر وصدرَ فالمرجوُّ أنْ يكونَ رواجُه عظيمًا جِدًّا لأنَّ جميعَ الطبقات من القُراء يرغبون فيه ؛ إذ لا يوجد فى العالم الإسلامىّ تفسيرٌ مختصر محرَّر خالٍ من الاصطلاحات الفنية العربية والشرعية والجدلية والروايات الخرافية .

ولكنْ علىَّ أنْ أُتَمِّمَ قبلَ البدءِ بطبعه ثلاثةَ كتب ، منها ما طُبع بعضُه ، وهو كتاب « الربا والمعاملات المالية فى الإسلام » الذى أُبيِّن فيه أنَّ أكثرَ ما كتبه الفقهاء من جميع المذاهب فى هذا الموضوع ليس من الدِّين ، ولا يجب على المسلمين اتباعُهم

---

(1) الرَّثْيَة : الضَّعف والفتور . انظر : الوسيط (رثى) .

فيه . . . وكتاب « المنار والأزهر » وقد طُبع أكثرُه . وثالثُها الجزء الثانى من كتاب « الوحى المحمدى » الذى وعدتُ به فى تصدير الطبعة الثانية منه . وقد شرعنا فى هذا الشهر بإعادة طبع تفسير الفاتحة ، وسنطبع معه تفسيرَ سورة الإخلاص للأستاذ الإمام - رحمه اللّه تعالى - ومقالاتِه الثلاثَ فى المسائل المشكلة فى التفسير .

ولا يُمكننى المضىُ والإسراعُ فى إتمام هذه الكتب والتفرغُ للتفسير المختصَر إلا بترك إصدار المنار فى السنة القابلة ، فالمنارُ يغتالُ معظمَ السنة فى تحريره وتصحيحه وإصداره ومكاتبة المشتركين والمستفتين ، وهو منذ عهد الحرب الكبرى لا يأتى بنفقاته ، وقد استحلَّ أكثرُ المشتركين ما عوَّدناهم عليه بسوء إدارتنا من عَدِّهم إياه مجانيًا ، وقد بالغنا منذ اشتدّت العسرةُ فى هذه الأعوام الأخيرة فى استعطافِهم بل استجدائهم بدفع ما تيسَّر لهم من المستحَق عليهم ، فلم يرجع أكثرُهم لنا قولاً ولا اعتذارًا ، فعزمتُ على أنْ أعلن فى آخِر هذا المجلد وهو الـ34 طلبَ إجازة سنة من القرّاء لأجل التفسير المختصر .

ولكنَّ أكبر العوائق عن طبع الكتب الثلاثة والتفسير المختصر مع الاستمرار على كتابة المطوّل وطبعِه هو فقدُ الدراهم ، فإنَّ جميعَ نفقتها علينا ، وليس لنا موردٌ مالىٌّ إلا من مطبوعاتنا ، وهو لا يكفى لنفقات الدار والمطبعة والديون المقسَّطة ، والمالُ يجذبُ المالَ . فلو أمكننا أنْ نبدأَ بطبع الثُّلُثِ الأول من التفسير المختصر أولاً لكان لنا من رواجه المنتظرِ ما يساعدُنا على غيره . ولكنّنا نحتاجُ إلى 400 أو 500 رزمة من الورق له لأننى أقدّر أنْ يكونَ بين « 80 إلى 100 ملزمة » ، والذى سيُطبع منه أولاً خمسة آلاف نُسخة .

وفى يدى الآن كتابٌ ثالث هو ضرورىٌّ أيضًا ، وهو عقيدة فى بيان حقيقة الإيمان والإسلام لأجل الخواصّ والعوام ، ومن العجائب أنه ليس عند المسلمين كتاب وافٍ بهذا الغرضِ يفهمه كلُّ مَن قرأه أو سمعه . وقد كنتُ كتبتُ هذه العقيدةَ من زُهاء ربع قرن ولم أتمَّه ، ولما بدا لى أنْ أطبعَه فى هذه الأيام وجدتُ من الضرورى أنْ أبدأ فيه وأفصل ما ذكرتُه فى أوله من معنى الإيمان والإسلام بما يُعْرَفُ به حال من يَدَّعونهما

اليوم ، والملايين منهم غيرُ مسلمين ولا مؤمنين . هل يوجد الإيمان بدون إسلام والإسلام بدون إيمان ؟ وكونُ الإيمان الصحيح يقتضى العملَ بالضرورة والجهادَ فى سبيل اللّه بالمال والنفس ، وفيه بيانُ حكم مَنْ يَعتقدون صحةَ نبوة محمد ﷺ ولا يتَّبعونه من غير مَن يُسَمَّونَ مسلمين ، ومنهم غاندى الشهير .

فى 13 رجب 1353 الموافق 22 أكتوبر 1934 :

هذه العقيدة كُتِبَتْ بأسلوب السؤال والجواب ، وفى أثناء كتابتها من سنين قد شرعتُ فى كتابة عقيدة أخرى للمتعلِّمين فى المدارس بأسلوب المحاورة بين عالم دينىّ وولد له تعلَّم التعليم العصرىّ وأخٍ له وأمّ لهما . وأَطلعتُ شيخنا - رحمه اللّه - على بعضِه فَسُرَّ به سُرورًا عظيمًا ، ثم لم أكتب منه إلا بعض قسم الإلهيات ، وإنْ فرغتَ يومًا لمراجعة تفسير آية الكرسى من جزء التفسير الثالث تَجدْ فيه جملةً من هذه العقيدة فى تفسير « الحى القيوم » ، وكان غرضى أنْ أُتبعَ هاتين العقيدتين بكتابة رسالة فى العبادات أجعلُ أصلها بيانَ ما أجمع عليه المسلمون فى كل عبادة ، وأذكرُ فى أدنى ذلك أو حاشيتهِ أشهرَ ما اختلفوا فيه مما ورد فى الأحاديث دون اجتهاد الرأى ، فإن التحقيقَ أنَّ الرأى والقياس لا يثبُت به شىء من العبادات . وهذه الرسالةُ لما كاشفتُ شيخَنا - رحمه اللّه - بها ألحّ علىَّ إلحاحًا شديدًا بالتعجيل بها ، وكذلك زميله المرحوم حسن عاصم باشا ، كما فصلتُ ذلك فى الجزء الأول من التاريخ ، ومنه رسم بعضُ ما كتبا إلىَّ فى ذلك بخطهما ، وكان مرادُهما تدريسَ هذه الرسالةِ فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وتُوفِّيا قبلَ أنْ أُحَقِّقَ لنفسى ولهما هذه الأمنية .

وإذا أُتيح لى بَسْطُ القولِ لك فى موضوع هذه الرسائلِ لعلمى بأنه يَهُمُّكَ ويعنيك أذكرُ لك بالإجمال الموجز الأساس الأعظم للإصلاح الإسلامىّ الذى لا أعلم أحدًا سبقنى إلى التفكير فيه فضلاً عن البيانِ لبسطه والاهتمامِ لتنفيذه ، وهو جمع كلمة المسلمين على أنْ يكونَ الدِّينُ الجامعُ لهم الذى يُلَقَّنُهُ كلُّ أحدٍ منهم هو ما أجمع عليه أهلُ الصدر الأول ، وأنْ يكونَ ما اختلف فيه أئمة المذاهب وغيرهم من العلماء متروكًا إلى المُطَّلع على أدلتهم من الأفراد . فمن اقتنع بدليل منها عَمِلَ به من غيرِ

دعوة إليه وجَعْلِهِ مذهبًا يتعصَّب له طوائفُ من المسلمين ينفردون به دون الجماعة ، وبهذا تبطلُ عصبياتُ المذاهب ، ثم يكونُ البحثُ فى اختلاف علمائها كالبحث فى مسائل العلوم والفنون اللغوية والعقلية والكونية . . . هذا المعنى بيَّنتُه مِرارًا ربَّما تتجاوز المئاتِ ، لعلَّ أولها بحثُ الوحدةِ الإسلامية فى مقالات المصلح والمقلِّد التى نشرت فى السنتين الثالثة والرابعة من المنار ، وطبعت على حِدَتها مرّتين ، ولم يستنكرها ولا ردَّ عليها أحدٌ من العلماء . ومنتهى حظى من الإصلاح الإسلامىّ الذى أنفقتُ حياتى كلَّها فى الدعوة له أنْ أُنفِّذَه ، ولمَّا أجد أحدًا من أصحاب الهمم العالية يساعدُنى على تنفيذه . وإنى أذكرُ لك أهمَّ أعذارى فى التسويف فى كتابة الرسالة التى بالغ شيخنا فى مطالبتى بها ، ثم ما عزمتُ عليه الآن فى سنِّ الشيخوخة ، ويا أسفًا على غفلة الشباب وآماله وطول حبلها ، وقد فجأتنى فى الكهولة الحياةُ الزوجيةُ والعيال والاضطرار إلى الكسب من طبع الكتب التى كان منها المطبوعات السعودية المشترط فيها تصحيحى لأصولها ، فقد كانت من غير شعور منى تغتالُ من عمرى ، ولو أتممتُ فيها التفسيرَ وغيرَه من كتبى الإصلاحية لكان ربحُها أكبرَ ، فإنَّ ما يَسْلَمُ لى من طبع الكتب قليلٌ .

أبدأ قبلَ إتمامِ الكلام فى الإصلاح ببيان حالنا المالية ليتضحَ العذرُ فى تأخير التنفيذ ، ولا يطولَ الكلام فى موضع واحد .

وكان الربحُ العظيمُ والغُنْمُ من هذه المطبوعاتِ أنها جرأتنى على شراء الدار بالتقسيط لتكون مستقرًّا للعيال إذا جاء الأجل وهم صغار ، وكان القسط السنوى بعد دفع المقدم من الثمن زُهاءَ أربعمائة جنيه فى السنة على مدة ست سنين . ولكنْ كان القسطُ الشهرىُّ من نفقة مطبوعات جلالة الملك مائتى جنيه فلا خوفَ من العجز لو ظلَّت المطبوعاتُ متصلةً ، ومَنْ يعلم ما خبَّأه القدر للبشر ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعراف : 188] . فجاءتنا العسرةُ ، وانقطعت عنا مطبوعاتُ الملك وغيرها إذ كان قد اشتُهر أنَّ مطبعةَ المنار لا تَطبع غيرَ مطبوعاته ومطبوعاتها الخاصة ، وركِبتْنا ديونٌ فوقَ أقساط الدار التى صارت تَزيد كلَّ سنة بما

يُضاف إليها من فوائد التأخير وغيرها من أنواع (المصاريف) التى لا تخطُر لمن لم يُبتلَ بمعاملة المرابين ببال ، ومنها نفقات النذور والمحامين الذين يكلَّفون المطالبةَ ورفعَ الدعوى وتنفيذَ شروط الرَّهن ببيع المرهون بالمزاد ، وقد تكرّر هذا ، وكنا نُرضى شركة الرهن كلَّ مرة بدفع مبلغ من المستحَقِّ لتأخير التنفيذ ، إلى أنْ سددْنا حسابها فى أوائل هذه السنةِ الميلادية برهن جديد للدار على ألف ومائتى جنيه بفائدة 9 فى المائة لمدة ستّ سنين ، يُسْتَحَقُّ القسطُ الأول منها فى مايو سنة 1935م ، وهو مائتا جنيه تُضاف إليه فائدةُ السنة 108 جنِيهات ، وخسِرنا فى نفقة هذا الرهن الجديد زُهاء مائة جنيه أيضًا ، ولو كان معنا 300 جنيه لكنا فى غنى عنه .

(إلى أنْ يقولَ) :

كان السيد الحسينى أخبرنى عن الشيخ يوسف ياسين أنَّ جلالةَ الملك قرّر شراءَ نُسخ من (الوحى المحمدى) و(تفسير المنار) بمبلغ ثلاثمائة جنيه ، ثم كتب إلىَّ الشيخ يوسف بعد انتهاء الحرب أنَّ النفقات على جلالته فى تسريح الجيوش أكثرُ من أيام الحرب لأن من عادته أنْ يعطى جميع أفراد الجيش وقوادَهم عند الرجوع إلى أهليهم مبلغًا من المال يُوَسِّعُ به عليهم ، وكتب أيضًا قبلَ ذلك أنه سيبدأ بالإصلاح الحكومىّ الذى يَعِدُنا به دائمًا فى أوائل السنة الآتية .

العائق لى عن العمل التفصيلىّ للإصلاح الإجمالىّ

فى المسائلِ المجمَع عليها خلافٌ كثير، وللحُفَّاظِ فيها مصنَّفاتٌ لا يُوجد عندنا منها شىء إلا أنْ يكونَ فى بعض المجاميعِ المجهول ما فيها بدار الكتب أو فى بعض المكاتب الخاصة ، وجميع العلماء المحدثين يَنْقُلُون عن كتاب أو كتابين لابن المنذر يُوجد أحدهما فى مخطوطات خزائن الآستانة ، ولابن حزم كتابٌ آخرُ استدرك عليه ابنُ تيمية بكتاب خطَّأه فيه بدعوى الإجماع فى مسائل كثيرة . وقد ظفرتُ بهذا الكتاب مخطوطًا ، وما زلتُ أبحث عن أصله لابن حزم حتى علمتُ بوجود نسخة منه فى الآستانة ، وبأنه تَنْقُصُ منه ورقةٌ من آخره ، وقد سافر فى الصيف إلى الآستانة حسن

بك عديل فؤاد بك سليم صديقنا الذى يقيم معه فؤاد بك فى داره ، فَكَلَّفَهُ أنْ يسعى لأخذ صورة عكسية منه . فإن فعل فإننى أطبعُه مع كتاب ابن تيمية فيكون أكملَ كتاب لنا فى بابه ، وأضعُ له مقدمة فى بيان ما هو دينىّ وما هو غير دينىّ من مسائل الإجماع ، ويكون حجةً لى وسندًا فى سائر كتبى الإصلاحية ، ويكون وضعُ رسائلِ العبادات والمحرّمات القطعية سهلاً ، ويبقى الصَّعْبُ تعميمَ الدعوة للإصلاح ونشرَ ما يُكتب ويُطبع من أصوله وفروعه ، ويتوقف هذا على وُجود أعوانٍ من المسلمين أصحابِ العزائم فى كلِّ قُطر ، وعلى وجود مركز وحدة عام وعلى نفقات وعلى نظام عام ، وهذا ما أُفكر فيه منذُ سنين .

مركز الوَحدة العامّ للإصلاح الإسلامىّ

المركز الطبيعىّ المعقول لهذا العملِ هو الحجازُ ، ولكن لا نعرفُ أحدًا فى الحجاز يَصِحُّ أنْ يكونَ عضوًا فى هذا المركز إلا صديقَنا الشيخَ محمد نصيف . ويُمكن أنْ يكونَ من العاملين فيه الشيخُ محمد عبد الظاهر إمامُ الحرم وخطيبه(★) والشيخ محمد حمزة المدرس فيه وفى دار الحديث الجديدة ، وهما من تلاميذى ، وقد يُوجد غيرُهم ولكن لا يَصلحون لإدارة المركز العام وبثِّ الدعوة ، فالحجاز فى هذا العصرِ هو مكةُ والمدينة وعبد العزيز الفيصل الملك .

ويلى الحجازَ مركزُ مصرَ ، ففيها كثيرون يَفهمون وينطقون ويكتبون ، ولكن ليس فيها أحد من أصحاب العزائم والشجاعة المؤهِّلة لهم لهذا الجهاد ، ولا يكاد أحد من عقلائها يثقُ بأحد يَرتبطُ به ويصلُح للعمل معه ، والرُّوحُ المستحوِذُ على جميع حُكَّامها وكبراء الدنيا والدِّين فيها هو التمتع بالشهوات واللذات ، وقد فضحت حكومتَها وزارةُ . . . . بجرأتها على تزوير مجلس نواب ومجلس شيوخ وحكومة مستبِدَّة سلاّبة نهَّابة أفسدت كلَّ شىء حتى القضاء ، وأذلَّت الوفدَ المصرىَّ الذى

(★) نِعْمَ الشهمُ الفاضلُ الغِطْرِيفُ (السيد الكريم) المسارعُ فى الخيرات الشيخ محمد نصيف . ونِعْمَ الشهمُ العلامةُ الكاملُ الشيخُ عبد الظاهر أبو السمح خطيبُ الحرم المكىّ وإمامُه ، فقد أسعدنا الحظ بصداقة كلٍّ منهما ، ولا نرى السيدَ يُخطىء فى انتقاء الأصحاب .

يخضع له السوادُ الأعظمُ من الشعب ، فاقتنع الإنجليز بأنَّ ثورتَه كانت ثورةَ أطفال ، وجاءت وزارةٌ بعدَ إسقاط السراى لوزارة . . . أمكنها على ضعفها المحافظة على استبداده واستعباد الأمة بالتبع لها لرجل واحد من السراى ، فآل ذلك إلى شروع الإنجليز فى وضع سيطرتهم على الحكومة والسراى معًا ، وهو ما نرى تفصيلهَ أو تفصيلَ ظواهرِهِ فى الجرائد المصرية .

كنتُ كلَّفتُ السيدَ أمينَ الحسينى عند سفره إلى الشرق لأجل المؤتمر الإسلامىّ أنْ يكتبَ لى كشفًا بأسماء وعناوين أعلى مَن يرى مِن الرجال فى سياحته همةً وغيرةً وعَزْمًا فى كل البلاد التى يطوفُها ، فكَتب ، ولما عاد من جزيرة العرب قال إنّ خيرَ من رآه فيها السيد عبد اللّه الوزير(★) ، وإنه ذكَرنى له تمهيدًا للمكاتبة . والسلام .

أخوك رشيد



وكتب فى 24 رمضان 1353 و 31 ديسمبر 1934 :

سيدى الأخُ الكريمُ والولىُّ الحميمُ

أُهنئك بإكمالِ عدة الصيام واستقبالِ عيد الفطر وبانقضاء العام الشمسىّ الميلادىّ عليك وأنتَ ماضٍ فى جهادك منصورٌ فى جلادِكَ ، أعاد اللّه عليك هذه المواسم الدينية والأعوام السياسية متمتعًا بكمال الصحة والعافية والنِّعم الضافية على خير ما تُحبّ لنفسك وولدك وقومك وأُمتك ومِلّتك فى عمر طويل .

إلى أنْ يقولَ :

وأمّا الاستجابة الأولى للدعاء والتسخير الذى لم يكن يُحتسب ولا يَخطر ببال فهو قد كان قُبَيْلَ رمضان أيضًا من سنة 1351 : خلا الوِطَابُ[1] ، ونفد ما فى الجراب ،

(★) ولا يُوافقُ السيدَ أمينَ الحسينى أحدٌ قِبَلَنَا على هذا .

(1) **الوِطَابُ** : جمع وطب وهو سقاء اللبن ، **والمقصود** : نفد الزادُ .

وكثرُ الطِّلاب فلم أشعرْ إلا بظرف الكتاب يُرْفَعُ إليَّ فى حُجرة السرير ، وأنا موعوك ، فيه أكثرُ من ثمانين جنيهًا لم أعلمْ من أين هو ، ثم بَلَّغنى عاملُ المكتبة ، وكان عاصم مسافرًا على عادته ، أنَّ هذا المبلغَ من كتبى فى الجزائر راجع حسابَه فوجد هذا المبلغ متأخِّرًا عنده فدفعَه وهو عائد من الآستانة إلى الجزائر . . . ثم تبيّن أنَّه كان غالطًا فى الحساب ، وإنما عليه ثمانية جنيهات ، وبعدَ عودة السيد عاصم راجعَه فى الحساب وسدّد له المبلغ أقساطًا .

إنما أخَّرت الكتابَ إليك لأجدَ وقتًا واسعًا أكتبُ فيه ما أراه مُفيدًا فى موضوع كتابك ، فإذا بهذه المسألة تَلْقَفُ جُلَّ الوقت الذى خصصتُه له ، وقد تضاعف العملُ فيه ، وهو فى كلِّ يوم يَزداد ، وأنا مُضطرٌّ فى الأيام الخمسة الباقية من رمضانَ إلى تصدير جزء المنار السادس وإتمام طبعه فى الأسبوع الماضى ، وإلى إتمام طبع تفسير سورة الفاتحة والعصر ، الذى زِدْتُ عليه فى هذه الأيامِ تفسيرَ السُّورِ الخواتيم التى يقرأُها أكثرُ المسلمين فى الصلاة ، وهى العصر والكوثر والكافرون والإخلاص والمُعوِّذَتان ، وسيُرسل إليك فى البريد الآتى إنْ شاء اللّه تعالى ، وقد أرسلتُ إليك قبلَ هذا كتاب « المنار والأزهر » الذى صدر فى أواخر شعبانَ ، وأرسلتُ إلى عجّاج أفندى كتابَ الإكليل مسجَّلاً .

ثم وصل نهارَ أمس « الأحد » كتابُك الثانى ، فرأيتُك تطلبُ منِّى فيه أنْ أرسلَ إليك نُسخَة ديوانك الأول (الباكورة) ظنًّا منك أنه عندى ، لعلَّك فهمتَ هذا من ذكر بعض أبياته فى مدح شيخنا الأستاذ الإمام رحمه اللّه تعالى ، وإنما كان أَطْلعَنى عليه فى طرابلسَ ، وأنا تلميذ فيها ، المرحومُ محمودُ أفندى الكحيل ، فحفِظت بعضَ أبياته بغير تعمّد ، وكان هو أولَ ما حبَّبَك إليَّ ، ولعلَّه يُوجد عند بعضِ الأدباء فى بيروت أو طرابلس . وتطلبُ ديوانَ عبد اللّه باشا فكرى[1] وديوان محمود باشا سامى[2] ،

(1) هو **عبد اللّه فكرى ابن محمد بليغ بن عبد اللّه بن محمد** ، ولد بمكة ، وتعلم فى الأزهر ، وكان وكيلاً لوزارة المعارف ثم ناظرًا لها سنة 1299م . كان رئيس الوفد العلمى المصرى فى مؤتمر استوكهلم ، وتوفى بالقاهرة (الأعلام : 4/ 113) .

(2) هو ربّ السيف والقلم ، الضابط الشاعر الكبير **محمود سامى البارودى** . وقد سبقت ترجمته .

وسأسألُ لك عنهما بعد رمضانَ إنْ شاء اللَّه تعالى . وأما مَجلة الزهور فكان يُصدرها أنطون بك جميل[1] رئيس تحرير الأهرام اليومَ ، وسأسألهُ إنْ شاء اللَّه تعالى عن قصائدك والسبيلِ إلى نَسخها .

الإمام يحيى أرسل إلىَّ كتابًا ذكر فيه أنه كان أرسلَ من مدة طويلة كتابًا أخبرنى فيه بوصول كتاب (الوحى المحمدى) وفيه حوالة ، وطلب فيه إرسالَ تفسيرى الكبير الشهير إليه ، ولما طال الأمد ولم ترد الإفادة كتب هذا (استعلامًا واستنجازًا وتجديدًا للعهد) ، فالظاهرُ أنَّ عُماله لم يُرسلوا الكتابَ ، وقد أرسلتُ إليه أجزاء التفسير وكتابًا مسجَّلاً ، وما ذكرتموه من كتابتى فى أيام الحرب كان رأيًا مَفعولاً[2] ، وسأبيّن الحقيقة فى هذا فى كتاب آخَر . والسلام .

أخوكم رشيد



وكتب فى 5 شوال 1353 الموافق 10 يناير 1935 :

سيدى الأخُ الأميرُ ، حفظه اللَّه ، وأمتعَ به ، ونَفَعَ بعلمه وقلمه ، وخَذَلَ عَدُوَّه

السلامُ عليكم ورحمة اللَّه تعالى . وصل أمس « الأربعاء » كتابك الثانى الخاص بمسألة الطعن فى الجرائد ، وقد وصل الأول فى يوم العيد « الأحد » .

وقد زارنى فيه صباحًا أبو الحسن ، وتكلَّمنا قليلاً فى المسألة لكثرة الناس ، ووعد بالعودة ، ورأيتُ مقالته ، وكان أخبرنى بها . ثم زارنى فى المساء الدكتورُ حسنى أحمد وهو حُرّ الفكر متديّن صدوق ، فكلَّمته فى المسألة ووجوبِ التعاون معه على تلافيها ، ورأيته لا علمَ له بأنَّ الدكتور أحدث شيئًا من كتابة ولا إغراءٍ ، وإن كان مستنكِرًا مساعدة الطليان والتنويهَ بهم ، وإنه هو أيضًا مستنكر لمقالتكم فى صحيفتكم الفرنسية ، وقد

(1) هو **أنطون بن جميّل بن أنطون** (1305 - 1367 هـ / 1887 - 1948 م) ، كاتب متأنّق ، ولد فى بيروت ، واشترك مع أمين تقى الدين فى إصدار مجلة (الزهور) ، تولى رئاسة تحرير (الأهرام) وكان من أعضاء مجلس الشيوخ المصرى ، والمجمع العلمى والمجمع اللغوى (الأعلام : 2/ 27) .

(2) خرج فى حالة انفعال وتأثُّر .

رآها ، وقال إن أسعدَ أفندى قال – وهو صديق الأمير ومِن حزبه – إنها لا تليقُ به فى مركزه من الزعامة وماضيه فى حَملاته على الطليان ، وإنْ كانت فى نفسها مما يُكتب ولا يُنكر(★) . . . إلخ . ووعدنى الدكتور حسنى بأنْ يجيئنى لعقد جلسة سرِّيَّة بيننا للبحث فى المسألة والاتفاق على ما يجبُ لأجل المصلحة الوطنية وما ينبغى لكلِّ مُخلص أنْ ينصحَ لأصدقائه فيها ، ثم تكلَّمتُ مع الأستاذ الزركلى[1] فيها ، فقال إنه لم يثبُت عندَه أنَّ الدكتور شهبندر كتب أو أغرى المليجى بالكتابة ، وهو يرجو أنْ يعرفَ الحقيقة من صديقه المازنىّ المحرّر فى (البلاغ) مع المليجىّ ويُخبرنى ما يقفُ عليه . ولمَّا وصلَ

(★) الجوابُ على هذا مختصر فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة : 8] .

مررنا بمصوع ، وصعدنا إلى « أسمرة » ، فجاء للسلام علينا أعيانُ المسلمين هناك من حجازيين ويمانيين ومصريين وأحباش ، فسألناهم سرًّا وعلنًا ومنفردين ومجتمعين عن أحوالهم ، فأجابونا عن كلِّ شيء تفصيلاً ، ولم نسمع منهم شيئًا يَسوء المسلمَ سماعُه . فرَوينا ما سمعناه بحرفه ، ولم نَزد عليه كلمةً ، ولم نُنقص منه كلمةً حتى تعلمَ دولُ الاستعمار أنّنا ننشر حسناتها كما ننشرُ سيئاتها ، وأننا نزنُ بالقسطاس المستقيم ولا نَبْخَسُ أحدًا حقَّه فَتَرْغَبُ فى العدلِ والنِّصْفَةِ (الإنصاف) وتحسن معاملة المسلمين وتكف عن عسفهم لأنّ الأمم التى تستوى عندها الحسناتُ والسيئاتُ هى جديرة بأنْ لا تنالَ وَطَرًا ، وبأنْ تفقدَ مكانتَها فى نَظَرِ النَّاس . فكان مِن نَشرنا تلك الأقوالَ التى سمعناها من أفواه مسلمى الأريتره أنْ قام كثيرون يزنوننا[1] بممالأة إيطالية ، ويُشَنِّعونَ علينا فى نقل ما سمعناه بحرفه بِحُجّة أنّه ، ولو كان حقًّا ، لا يجوزُ لنا أنْ نعترفَ لدولة من دُول الاستعمار بحسنة ، ولا أنْ نَنسى إرهاقها للمسلمين عُسرًا . والحالُ أننا لم نكن فى شيء من موضوع الاستعمار العام ولا فى حالة المسلمين الذين تحتَ حُكمهم على إطلاقها ، وإنّما هى ذِكْرُ حالة معينة فى قُطر من الأقطار المستعمَرة أردنا أن نَشهرها حتى تعلمَ دُول الاستعمار أنّنا لسنا بُكْمًا ولا عُميًا ولا صُمًّا ، وأنّنا نَصِفُ الجميلَ كما نصف القبيحَ ، وأنّنا نعملُ بقول كتابنا : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة : 147] . فلقد روى لنا مسلمو الإريتره ، فيما رَوَوْا ، أنّهم متمتّعون بحريتهم الدينية التامة ، وأنَّ التبشيرَ المسيحىَّ ممنوعٌ بتاتًا عندهم بين المسلمين ، وأنَّ مبشرًا تعرض للمسلمين فحبسته الحكومةُ الإيطالية ، وأنذرتْه بأن لا يعودَ ، وأطلقت سبيلَه ، فإذا به رجع إلى شأنه الأول فعند ذلك طردتْه من البلاد .

أفترى كان يكونُ أحسنَ لو أنَّ إيطاليا سمحت للمبشرين بالدعاية الدينية المسيحية بين الإسلام وأيّدتْها ونصرتها بنفوذها السياسىّ كما يفعلُ الإنجليزُ فى السودان والأوغاندة ؟ أفلو كانت إيطاليا أرادت أنْ تفعلَ هذا أكُنّا قادرين على منعها ؟ لقد نَصَّر الكردينالُ لافيجرى ورهبانُه أُلوفًا من المسلمين فى جزائر الغرب ، فهل قَدَرَ أحدٌ من المسلمين أنْ يمنعَ هذا الأمر ؟ وتَنَصَّرَ فى بلاد الجاوى مئاتُ ألوف من المسلمين على أيدى الجمعيات التبشيرية التى تمدُّها الحكومةُ الهولاندية . فمن قدر من المسلمين أنْ يحتجَّ على ذلك فضلاً عن أنْ يمنعَه ؟ أفنكونُ كَفَرْنا إذا قلنا لإيطاليا : شكرًا لك على منعِك لتنصير المسلمين ؟ إن هذا لعَجَبٌ عُجابٌ .

(1) هو **خير الدين الزركلى** صاحب (الأعلام) .

---

(1) **أزنَّ فلانًا بخير أو شرّ** : اتهمه به .

كتابُك الثانى أمسِ ، وكنتُ مَدْعُوًّا إلى حفلة أبى الحسن لشرب الشاى فى حديقة الحيوانات مع جماعة كبيرة من الأصدقاء احتفالاً بجماعة من أصحابه الفلسطينيين - ذهبتُ فى المساء ، وأخبر كلٌّ منا الآخَر بكتابك الجديد ، وقال إنه سيزورُنى فى دار المنار ، ثم جلستُ منفردًا مع أسعد داغر ، فألفيتُه مستبعِدًا أنْ يكونَ الشهبندرُ فعل شيئًا ، قلتُ ومن أين له هذه المعلوماتِ التى نُشرت ، قال يجوز أنْ تكونَ من غيره ، وقال إنَّ شهبندر ليس له علاقةٌ بجريدة الشعب السورية أيضًا ، وأما مسألةُ صُور مكتوباتكم إلى الخديو فيعرفُها كثيرون فى الشام وقليلون فى مصر ، وهو قد رآها ، وقال إنه قد استاء من مقالةٍ لكم جديدةٍ فى صحيفتكم تَنصرون بها إيطاليا على الحبش ، وتعظمون شأن موسولينى ، وهذا كثيرٌ جِدًّا على شخص الأمير شكيب والوفد السورىّ ، وإنه كتب بهذا كتابًا إلى الأخ إحسان بك . هذه جملةُ ما وقع لى مع الإخوان فى المسألة ، وسأعودُ معهم كلِّهم إلى تمحيصها وأُخبرُكم بما يَتِمُّ .

ذكرتُ لكم فى كتابى المسجَّلِ ما عَزَمْتُ عليه لموافاتكم بمطالبكم الأدبية ، وقد كلَّفت أسعد داغر فكلَّم أنطون بك جميل فى قصائدكم المنشورة فى مجلة الزهور ، فوعده بأنْ يُعطيه مُجلَّدات المجلة ، ووعدنى أسعد باستنساخ ما يجدُه فيها ، وكلَّفت آخرَ بأنْ يسألَ الكُتَبيّة عن ديوان عبد اللّه باشا فكرى ، فإنه لا يُوجد إلا لُقَطَةً من التركاتِ ، وعن ثمن ديوان البارودى ، وسأشتريهما إنْ شاء اللّه . والسلامُ عليكم وعلى نجلِكم ورفيقكِم إحسان بك ، وأدام اللّه توفيقَكم .

رشيد

وكتب فى 19 شوال 1353 الموافق 24 يناير 1935 :

سيدى الأخُ المجاهدُ فى سبيل مِلَّته وأُمَّته ووطنه ، نصره اللّه ، وأطال عمره موفقًا مؤيدًا

السلامُ عليكم ورحمةُ اللّه وبركاته ، أما بعدُ فقد أُلقى إلىَّ أمسِ كتابان منك وأوّل من أمسِ كتابٌ ، والمُهمّ منهما هو الأخير بما فيه من مسألة مسلمى الحبش ، وأما مسألةُ إيطاليا وما كتبتموه عنها فى مجلتكم وما نُشر هنا فلعلَّه انتهى بما كتبه أبو الحسن

قبلَ ثلاثٍ ، فلم يُبْقِ ولم يَذَر مِن تصريح وتعريض ، وهو يَصِلُ إليكم منشورًا فى الجهاد قبلَ هذا ، وأسعدُ أفندى أمرُه سَهْلٌ فهو صديق لا خَصم ، وإقناعه ببعض ما كتبتم قريب ، وقد قال قَبْلُ لمن كلَّمه من المستنكرين لِمَا نشرتُم فى مجلتكم إنَّه فى نفسه غيرُ مُنْكرٍ(★) ، ولكنه غيرُ لائق بمقامكم(★★) فى وقوفكم الدفاعىّ وجهادِكم

(★) **أسعد أفندى داغر** هو أعقلُ وأدرَى بالسياسة من أنْ يَدَّعى وجودَ ما يُستنكر فى كلامنا عن هذه المسألة .

(★★) أىْ بحسَب القاعدة الجارية التى معناها أنَّ الزعيمَ الوطنىَّ لا يجوز له بحال من الأحوال أنْ يعترفَ للعدُوّ بعمل صالح ، وأنَّه إنْ عرَف ذلك فى ذات صدره فلا يجوز له أنْ يُعلنَه ، بل يُحَتَّمُ عليه أنْ يتجاهلَه حتى لا يقولَ الناسُ إنه تسامحَ مع الاستعمار فى كُلِّىّ ولا جزئىّ . وهذه القاعدةُ السلبيَّةُ الصِّرْفَةُ التى معناها أنْ نُخفى ما نعلمه حقًّا لئلا يقالَ إنّنا لسنا فى الذُّروة العليا من الوطنية لسنا منها فى كثيرٍ ولا قليل ، نحن الذين آلينا على أنفُسِنا أنْ نخدُمَ هذه الأمة بما ينفعُ الناسَ ويمكثُ فى الأرض ، لا بما يَذهب جُفاءً ، ونحن أُولاء لم نجدْ فى هذا العصرِ – بصرف النظر عن الماضى – زعيمًا وطنيًّا كبيرًا كانت سياستُه بإزاء دُول الاستعمار سلبيةً صِرْفَةً ترفضُ أنْ تَقبلَ الحقَّ إن لم يكنْ تامًّا بزِرِّهِ وعُروتِه[1] ، فلا سعدَ زغلول ولا النحاسَ ولا ابنَ سُعود ولا فيصلَ بن الحسين ولا الإمام يحيى ولا أحدَ من أقطاب الشرق أو الإسلام ولا مصطفى كمال أتاتورك نفسه أبى أنْ يَقبضَ مائته إلا مائة تامة لا تَنقص شيئًا ، بل طالما رَضُوا بقبض المائة تسعينَ وسبعينَ وستينَ ، وكانوا بذلك مفتخرين لا جهلاً بحقوق بُلدانهم ، ولا ميلاً إلى التساهل مع الأجانب ، بل ذِهابًا مع الممكن ، وفِرَارًا من الجعجعة بلا طِحْنٍ[2] ، وأملاً بإكمال النواقص فى المستقبل ، وخوفًا مِن الحرمان التام ، واختيارًا لأهونِ الشَّرَّيْنِ . وإن كان قد انتقدهم الناسُ فى خُططهم السياسية هذه فلم ينتقدْهم إلا جاهلٌ أو متجاهلٌ متحاملٌ . إنهم أرادُوا أنْ يخدُموا بُلدَانَهم بسياسة عملية إيجابية متعلِّقة بالممكن غيرَ معوِّل فيها على مجرد الضوضاء والتظاهر بعدم الهوادة فى أقلِّ شىء سبيلَ من لا يَهُمُّهُ على أىِّ جنبيه وقع الأمر ، ومَنْ جُلّ أربه أنْ يقولَ عنه العوام ومن لا يُدركون حقائق الأمور : هذا هو الوطنىّ القُحّ الذى لا يتساهلُ ولا يتسامحُ ولا يتزحزحُ عن مطالبه . وما أسهلَ الوطنيةَ إنْ كان صاحبُها لا يَهُمُّه إلا الصراخُ : أوَصَلَ به إلى نتيجة أم لا ؟ أما قضية الحبشة فكلُّ مَن يقول إننا سوَّغنا استيلاءَ إيطاليا على الحبشة بتصريح أو بتلميح يكونُ مخطئًا أو ذا غرض فى نفْسه ، بل كلامُنا فى هذه المسألةِ صريحٌ سواء بالعربى أو بالإفرنسى ، وهو أنَّنا لا نرضى باستيلاء أُمة على أُمة أية كانت ، ولكننا لا نَعترضُ فى ذلك على إيطاليا وحدَها بينما يكون 250 مليونًا أو أكثر من المسلمين راسفين[3] فى قيود أجنبية ، وبينما تكون الحبشةُ هذه – المظلومة المقهورة الشهيدة – قد أخنت[4] على استقلال سبع إمارات إسلامية كان لها ذِكرٌ فى التاريخ ، فطوتها طىَّ السجلِ للكتابِ واحدةً بعد أخرى ، وكان آخرُها سلطنةَ هرر الصومالية وسلطنةَ جمة جفار التى استلحقها النجاشى طفرى هذا من سنتين ظلمًا وعُدوانًا ، ولقد سبق لنا كلامٌ عن قصة الحبشة هذه فى مكانٍ آخرَ . ويا حبذا لو كان المسلمون الذين أقاموا تلك القيامةَ للحبشة تذكَّروا حالَ إخوانهم مسلمى الحبشة الذين لم تَعرْف أُمةٌ من الظلم ما عَرفوه ، فلم يصحّ فيهم قوله تعالى : ﴿ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا ﴾ [التوبة : 37] .

(1) يقصد كاملاً ، **وفى المثل** : ألزم من زِرٍّ لعُروة .

(2) **أىْ** : كلام بلا فائدة عملية واضحة . **وفى المثل** : نسمع جعجعة ولا نرى طِحنًا .

(3) **رسف فى القيد رسفا** : مشى فيه رويدًا .

(4) **خنَّ الجذع** : قطعه ، **والمقصود** أنها قضت على استقلال هذه الإمارات السبع .

للمستعمرين ، وقد ذكرتُ له أمسِ بالتليفون مَضمونَ ما كتبتم لى فى مسألة مسلمى الحبشة ، وهو لا يعلم منها شيئًا(★) ولا يُنكر عليكم ولا يَلُومكم فى مراعاتهم والدفاع عنهم طبعًا . وسألتُه عما عهِدتُه إليه من استنساخ قصائدكم فى مجلة (الزهور) ، فقال إن أنطون بك الجُمَيِّل لمَّا يفِ له بوعده فى إحضار مجموعات المجلة له وَسَيَسْتَنْجِزُهُ الوعدَ ، وإنه ربّما يزورُنى اليوم قبلَ الظهر أو غدًا ، وأنا أكتب هذا فى الساعة الثانية عشرة قبلَ الظُّهر ولم يجئ . وقد أحضر عاملُ المكتبة لكم ديوانَ عبد اللَّه باشا فكرى والجزءَ الأول المطبوع من ديوان البارودى ، وكان فى دائرة المرحوم رجلٌ أديب يقرأ له وينسخ ، فكُلِّف بعدَ وفاته بتقديم ديوانه للطبع بإشرافه وتصحيحه ، فافترص[1] هذا لإظهار علمه وأدبه بشرحه وطبعه مع الشرح ، فأسرف فيه وأطال ، ولم يُتمَّ طبعَه .

وأما رأيى فيما تُجيبون به الصافى الذى كتب إليكم من أديس أبابا فيما ينبغى عملُه لمسلمى الحبش والصومال فى هذا الطورِ الجديدِ من مَيل حكومة الحبش إلى استمالتهم ووجودِ رجلٍ من الخيار تثقُ به وهو الحاجّ عبد اللَّه شريف - فجوابى التفصيلىُّ عنه يدخل فى المشروع الكبير الذى ذكرتُه لكم فى كتاب سابق من تنظيم السعى لوَحدة الشعوب الإسلامية وتبليغهم الدِّينَ الصحيحَ ، وقد كتب إلىّ جلالةُ الملك باستحسانه له وموافقتِه على تأليف مركز فى مكة المكرمة واستعدادِه للمساعدة عليه ، وكلُّ ما فيه تعميمُ دعوة الإسلامِ الحقِّ . وأشير عليكم الآن أنْ تَكتبوا إلى الرجل بأنَّ أهمَّ ما يجب عليه هو إحصاءُ المتعلمين المخلصين لدِينهم فى البلاد بقدر الإمكان ، وإيجادُ مراكزَ فيها لهم لأجل التعارف ونشر الرسائل والكتب التى يعرفون بها حقيقة الإسلام معرفةً مُقنعة مؤثِّرة ، لا يُخشى على مَنْ عرَفها أنْ يَضِلَّ بدعِاية

(★) ولو كان أسعدُ أفندى داغر اطَّلع على ما عندى من رسائل مسلمى الحبشة لعرف حقيقةَ ما هنالك وَلَعلم أنى لم أكنْ داعيةً لإيطاليا فيما أتقاضاه من مساواة مسلمى الحبشة بنصاراها فى الحقوق ، بل كنتُ فى هذا داعيةً لنفس الحبشة التى كان أعظمَ سبب فى سقوطها حقدُ المسلمين على الحكومة الحبشية من أجل إرهاقها إياهم منذُ قرون .

(1) افترص الفرصة : اغتنمها .

المضلين من دعاة النصرانية(*) ولا من دُعاة السياسة المحاربين للإسلام ولأجل أنْ يكتبوا للمركز العام فى الحبشة والصومال بكلٍّ ما يَطرأ عليهم من إضلال أو ظلم . وهذا المركزُ يُبَلِّغُ ذلك للمراكز التى تدافعُ عن الإسلام والمسلمين فى أوروبا ومصر ، وأعنى بها الآن مركز الوفد السورى عندكم ودار المنار هنا ، وبهذه المناسبة أطلب منكم أنْ تَكتبوا لى عناوين جميع ما تعرفون من الأندية والجمعيات الإسلامية فى الأقطار كلِّها وعناوينَ مَن تثقون به من عُقلاء المسلمين المخلصين ، وسأرسل الآن إلى أديس أبابا « الوحى المحمدى » ، و« تفسير الفاتحة » وما معها « الإسلام والنصرانية » . . . إلخ .

هذا ، وإنى أسألكم رأيكم فى مسألةٍ كنتُ أنوى أنْ أكتب إليكم بها من أواخر شعبان ، وهى مسألةُ مِنطقة العقبة ومعان التى تعلمون مركزَها المهمَّ بل الأهم فى السياسة العربية والإسلامية ، وقد علمتُ أنَّ الإنجليز تريد الفصل فيها بمفاوضة تدور فى هذا الشهر « يناير » ، وقد كاد يَتم ، وجلالةُ الملك ورجالهُ المختصُّون بهذا لا يَزالون فى الأرض ، وقد علمتُ أنَّ للإنجليز مسألةً أخرى معه خاصَّةً بحدود (نجدٍ) الشرقية مع جيرانها فى الخليج الفارسى التى تَدَّعى إنجلترا حمايتَهم ، وأنهم أرادوا الفصل فيها فى أثناء حرب الجزيرة للمساومَة بها على العقبة ، وهذا أخوفُ ما كنتُ أخافه من غوائل تلك الحرب ، وانتهت ولله الحمدُ بخير . ولما مرَّ بنا فؤاد بك حمزة(1) منصرَفه من لبنان إلى الحجاز فنجدٍ خلوتُ به فى جلسة طويلة فى 20 شعبان 28 نوفمبر ، وتكلَّمنا فى المسألتين فرأيتُه يعتقدُ وينقُل عن جلالة الملك أنَّه يرى أيضًا

(*) من جملة ما كانَ يئنُّ منه مسلمو الحبشة انتشارُ المبشرين الأجانب حتى فى أصغرِ القرى الإسلامية ، وحيث لا يُوجد مسيحى واحد . وأما فى (هرر) فكلُّ الذين يقرأون الجرائدَ علِموا بأنَّ إيطالية كانت قد قرَّرت نفىَ مطران إفرنس لأجل دِعايته لحكومة الحبشة ، وذكرت ذلك الصحفُ الفرنسية ، وتوسطتْ فرنسا لمنع نفيه . وما كان السببُ فى تعصب هذا المطران للنجاشى طفرى سوى أنَّه كان يُساعده فى حركته لتنصير المسلمين ، وقد جاءت رسالةٌ فى جريدة « الطان » من مراسل لها كان فى (هرر) أنَّه شاهد هذا المطرانَ وأخبرَه بأنه تنصَّر على يده عدةُ مئات من المسلمين ، وأنهم بعدَ تنصُّرهم كانوا من أعظم أعوانه على نشر الدِّعاية المسيحية بين المسلمين ، فلا عجَب إنْ كان مسلمو الحبشة والصومال يفرحون بسقوط طفرى وأمثالِه .

(1) **هو فؤاد بن أمين بن على حمزة** (1317 - 1371 هـ / 1899 - 1951 م) ولد بلبنان ، عين مترجمًا خاصًا للملك عبد العزيز بن سعود ، ثم وكيلاً للشئون الخارجية ، ثم وزيرًا مفوضًا ثم مستشارًا ، ومنح لقب سفير ثم وزير دولة ، وله مؤلفات وكتابات ، وتوفى فى بيروت . (الأعلام : 5/ 159) .

مسألةَ حدودِ نجدٍ أهمَّ من مسألة العقبة ، فقلتُ له إنَّ مسألةَ العقبة لا أهمَّ منها ، وأنَّ مسألةَ حدود نجدٍ الشرقية ليست بحيث تقولُ وبحيث تَدَّعى إنجلترا أو تُظهر للمساومة ، فإنَّ القطيفَ وقَطَرَ وكذا الكويتُ والبحرين وعُمَان ليست من بلاد الإنجليز ولا شَعْبها من الإنجليز ، وكلُّ ما تَدَّعيه الإنجليز من حقِّ الحماية عليها فهو عُدوان منها على أهلِها لا حَقُّ دُوليٌّ . والذى يجب أنْ يعرِفَه جلالةُ الملك أنَّ هذه الدولةَ يستحيل أنْ يَسمح لها برلمانُها باعتمادٍ ماليٍّ لمحاربته على الخلاف فى هذه الحدود إذا سلك فيه مسلك المفاوضات الوُدّية التى لا يُمكن أنْ تُعَدّ إهانةً ولا تحرشًا بها . وأما مركزُ العقبة فهو خَطَر على الحجاز ونجدٍ كما أنه خطر على سورية والعراق بل فلسطين وشرقيِّ الأردن ، وهما بريطانيتان فى نظرها .

ثم إنَّ مركزَ العقبة مركز إسلاميٌّ له شأن عظيم فى اعتقاد جميع المسلمين ، ويمكن تهييجُهم به على الإنجليز ، ويمكن لملك العربية[1] أنْ يَحتجَّ به على الإنجليز بأنه لا يُمكنه أنْ يَبْلُغَ فى مودَّتهم مخالفةَ عقيدتهِ وعقيدةِ شعبِه وأهلِ مِلّته بإقرار إلحاق جزء من الحجاز إلى بلاد يَعُدُّوْنَها تحت سيطرتهم باسم الانتداب ، وأنَّ إلحاق على وعبد اللَّه إياه بشرق الأردن غيرُ جائز فى الشريعة الإسلامية التى يُسمَّى على ملكًا خاضعًا لها ولا فى عرف القوانين الدولية العامة ، فإنَّه لا يجوز فى أصول القانون الدوليّ العام أنْ يَهَبَ ملكٌ بعض أرض مملكته لمملكة أُخرى أو لحاكمها . . .

ومِنْ جهةٍ ثالثة إن هذا المركزَ لا ترضى تركيا ولا إيرانُ ولا إيطاليا ولا فرنسا ولا غيرُهما من الدُّول البحرية بجعله بريطانيًا لأنَّ البحرَ الأحمر يكون به كلّه بحيرةً بريطانيةً ، تستطيع دَولتُها منعَ أيِّ دولة أخرى من المرور فيه إنْ شاءت بسبب حرب أو خلافٍ . وسألتُ فؤادًا هلْ تكلَّم مع السنيور موسولينى فى هذه المسألةِ عند اجتماعه به فى روما فقال : لا . قلتُ : قد كان هذا واجبًا ، ويجب استدراكُ هذا الواجبِ مع وكلاء هذه الدولةِ فى جُدَّةَ(★) . .

---

(1) يقصد الملك ابن سعود .

(★) من أهمِّ المسائل التى أهمَّت إيطالية مسألةُ العقبةِ هذه ، وكم ظَهَر مِن السيد فى هذه المسألة من بُعدِ النَّظر وصِمَّةِ (شجاعة) الفكر فى قوله إن استيلاء إنجلترا على العقبة لا يضرُّ الأمة العربية فقط بل يَضُرُّ بالدول جميعًا .

ثم ألمَّ بنا الأستاذ الشيخُ حافظ وهبة فى رمضان ، وتكلّمنا فى المسألة فذكرتُ له خلاصةَ ما قلتُه لفؤاد بك حمزة ، وفهِمت منه أنَّ رأيَهما كان واحدًا قبلَ هذا الحديثِ . ووَعدَنى بجلسة أُخرى خاصة لإتمامه ، فسافر إلى العراق ولم يَفِ ، ولكنّه قال ، كما قال زميلُه فى السياسة ، إنّه سَيَذْكُرُ لجلالة الملك كلَّ ما قلتُه مفصَّلاً . وقد كتبتُ إلى جلالته وإلى أمين سرّه بخلاصة الحديث مع كلٍّ منهما ، وبعد وصول الأول إلى الرياض جاءنى جواب من جلالة الملك بأنَّ فؤادًا أفضى إليه بحديثى معه وأنه سيكتب إلىَّ (أى فؤاد) بما استقرَّ عليه الرأى فى المسألة ، وأنه عندما يصل حافظ وهبه سَيُجَدِّدُ الحديثَ معه ، وكنتُ أنتظر أنْ يصلَ إلىَّ فى هذا الأسبوع الكتابُ من فؤاد بك ، وأبنى عليه ما كنتُ عازمًا على استشارتِك فيه من فروع المسألة ولا سيما رأيك فى عرضها على عُصبة الأمم(★) ، وقد وصل البريدُ يومَ الإثنين كالمعتاد ، وليس فيه شىء ، فبادرت إلى كتابة هذا ، فعسى أنْ تدرُس المسألةَ مع الأخ إحسان بك ومَن تثقون بمعارفه القانونية والسياسية الدولية من الإفرنج ، وتكتبَ إلىَّ بما تراه من هذين الوجهين وغيرهما .

هذا ، وإنَّنى نَسيت أنْ أذكرَ لك أنَّ الأستاذَ الثعالبىَّ قال لى إنّ ما ذكرتَه فى مقالتك التى نُشرت فى مسألة إيطالية فى برقة وطرابلس ليس كلُّه صحيحًا ، وأنه هو سألَ عن ذلك مَن يعرف من أهالى البلاد المنفيِّين أو الهاربين فى الإسكندرية فأخبره بذلك ، وأنا لا أثقُ بهذا الخبرِ(★★) ، وسأكتب إلى السيد السنوسىّ ، وهو فى الحمّام ، فأسأله عمّا يعلمُ وأخبرُك به .

(★) ولقد كان المركيز تيودولى رئيسُ لجنة الانتدابات هو نفسه طلب منا أنْ نُعطيه المعلوماتِ التى عندنا عن مسألة العقبة ، وهل قام الإنجليز هناك بتحصينات وأعمال عسكرية أم لا ؟

(★★) الذى قال للشيخ الثعالبى ما رواه عنه قد كذبه القول فإنَّ كلَّ ما ذكرناه فى مقالتنا تلك عن إرجاع عرب برقةَ إلى برقة بعد تشريدهم فى الصحارى ، وعن إغاثتهم وتوزيع الأقوات عليهم وشراء المواشى لهم ، وعن إطلاق سبيل عدة مئات من الطرابلسيين كان محكومًا عليهم بالحبس 20 سنة أو 30 سنة ، وعن إعادة أوقاف المسلمين للمسلمين وغير ذلك - كان صحيحًا . وما نَشرناه إلا بعدَ أن جاءتنا بلاغاتُ إيطالية الرسميةُ به ، وجاءنا من الطرف الآخر أجوبةٌ من أشدِّ الطرابلسيين عداوةً لإيطالية تؤيد البلاغات المذكورة . ولم تَخْفَ صحةُ ما ذكرناه فى مقالتنا على ذكاء السيد رشيد وسَعة خبرته إلا أنه ذكر فى مقالةٍ نشرَها بمناسبة المكتوب الذى جرى تزويرُه علينا ، ولامنا على شدة اهتمامنا به : أنَّ الأميرَ شكيب صرَّح بما تمَّ على يده من المصالح العائدة إلى مسلمى طرابلس بواسطة تفاهمه مع موسولينى مما لم يستطعْ أحد أنْ يُكَذِّبَ منه شيئًا .

ومما كان قال لى أسعدُ أفندى بُعيدَ العيد فى حديثه الذى ذكرتُه لك : إنْ كان إظهارُ ترجيح سياسة إيطاليا على الحبش مبنيًّا على وَعْدٍ منها موثوق به على خدمتها للعرب - وما هذا معناه - يكون فى مَحَلِّهِ ، وإلا كان فوقَ ما نَستحِقُّه منكم(★) .

وقد تذكرتُ الآن مسألةً فى كتابك المطوَّل نويتُ أنْ أجيبك عنها إذ قرأتُها فيه ، وهى قولك فى رأيى الخاص بدعوة المسلمين كافةً إلى معرفة المسائل الإجماعية . . . إلخ : إنها لا يُرجى قَبولُها ، وأكثرُ المسلمين متعصبون كلٌّ منهم لمذهبه . وجوابى عن هذا أننى لا أقول لأحد منهم أُتْرُكْ مذهبَك ، ولكنْ يجبُ عليك أنْ تعرفَ المسائل الإجماعية قبلَ المسائل التى يختلفُ فيها المذهبُ مع غيره . ثم لك الخيارُ فى مسائل الخلاف . . . هذا ما تيسّر ، وإنى لمرسلٌ الكتابَ ، ولا أجدُ وقتًا لقراءته ، والسيد عاصم لا يزالُ غائبًا . والسلامُ عليك وعلى نجلك ورفيقك من أخيكم .

محمد رشيد رضا



وكتب فى غُرَّة ذى القعدة 1353 الموافق 24 يناير 1935 :

سيدى الأخُ المجاهدُ ، نصره اللّه

أرسلتُ إليك فى 19 شوال جوابَ مكتوباتك الأخيرة ، ووضعتُ فيه المكتوبَ الذى جاءك من الحبشة لإطْلاعى عليه وسؤالى عن رأيى فيه ، وذكرتُ لك رأيى فيه مع مسائلَ أُخرى مهمةٍ فى الإصلاح الإسلامىّ والعربىّ ، وزارنى أسعدُ أفندى فى اليوم التالى

(★) لا شكّ فى أننا ما قَبِلْنَا فى حياتنا ولن نقبلَ التفاهمَ مع دولة أجنبية إلا على شرط معاونتها للأمة العربية ، ولا يكونُ وُدُّنا لها إلا بمقدار هذه المعاونة . والذى من العرب يظنُّ أنَّنا نَقْدِرُ أنْ نُعادىَ الدولَ بأَسْرِها ونُوسِعَها طعنًا وقذفًا ، وأنَّنا نسترجعُ بالرغم من هذه العداوةِ الشاملة جميعَ الحقوق الضائعة للعرب ، فيكونُ إما جاهلاً لا يوجَّه إلى مثله خطابٌ أو مُرائيًا يعرفُ الحقَّ ويتظاهرُ بجهله . قال حكيم العرب زُهير بن أبى سلمى[1] :

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فى أمورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّسْ بأنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ

(1) **انظر** : ديوان زهير بن أبى سلمى : ص87 .

لإرساله ، وقرأتُ له بعضَ ما جاء فى كتابك الأخير ، ولمَّا أكتبْ شيئًا إلى صاحبِك فى الحبشة ولا للسيد السنوسى الذى فى الحمَّام لكثرة الشغل ، ولمَّا يَعُدْ السيدُ عاصمٌ .

وأُبشِّرُك بأنه جاءنى يومَ الإثنين 23 شوال جوابٌ لطيف من الإمام يحيى يبين سُرورَه بأجزاء تفسير المنار التى أرسلتُها إليه امتثالاً لأمره ، ويمدح التفسيرَ ، ويَحُثُّنى على بذل العناية لإتمامه . . . وبوصول كتاب (المنار والأزهر) وبإرسال حِوالة بمائة جنيه بدلاً من الحوالة التى كان أمر بإرسالها عقبَ وصول كتاب (الوحى المحمدى) ولم يتيسَّر إرسالُها ، وتلا ذلك وصولُ كتابٍ مِن مَحَلٍّ تجارىّ فى الإسكندرية يُنْبِئُ بوصول كتابٍ من مَحَلِّهم بعدَن وشيكٍ بمبلغ مائة جنيه إنجليزى وطلبِ وصلٍ بإمضائى لإرسالهما فأرسلتُه ، وأرسلَ صاحبُ المحلّ الشيكَ والكتابَ ، فإذا هو من السيد عبد اللَّه الوزير الذى أمره الإمامُ بإرسال المبلغ ، وسرَّه ، كما سرَّنى ، أنْ كان هذا فَتْحًا لباب التواصل بينَنا ، وسأكتبُ له ولجلالة الإمام بعدَ هذا ، واتفق أنْ وصل التحويلُ الإمامىّ فى اليوم الذى صرفتُ فيه آخرَ جُنيه من حِوالة المستر كراين ، وأخبرتُك بها !! فللَّه الحمدُ .

وصل فى يوم الأربعاء 25 شوال - 30 يناير كتاب من فؤاد بك حمزة من مكة يُخبرنى فيه بأنه عرَض على جلالة الملك فى الرياض ما حدَّثتُه به وعهِدته إليه فى مصر بشأن مسألة الحدود ، وأن جلالتَه وافق على كلِّ ما نَرجو ونُحبُّ فى الموضوع ، وعبَّر عن ذلك قبلَ تفصيله بأنَّ نتيجةَ الحديث الذى فصَّلتُه له ثم لزميله الشيخ حافظ وهبة ، الذى وصل بعده ، على أنَّ هذا الجوابَ السارَّ لا يَصْدِفُ[1] بنا عن مواصلة درس ما تواصينا به فى المسألة العامة الإسلامية العربية من طُرقها القانونية والدُّولية - فوق ما نعلم من وُجهتها الإسلامية .

ثم أُبشرُك أيضًا بأنَّ بنك مصر رجعَ عن رفع القضية علىّ بطلب دفع الكمبيالتين وعاد إلى قَبول دفع الأقساط ، وكان هذا من تأثير الكتاب الذى أرسلتُه إلى طلعت باشا حرب يوم العيد . هذا ما تجدَّد من أخبارى التى تُحبُّ أنْ تعرفَها . والسلامُ عليك

---

(1) صدفه عن كذا : مال به عنه وأعرض .

وعلى نجلك الكريم وصِنوك الحميم ورحمةُ اللّه وبركاته .

أخوك محمد رشيد رضا

وكتب فى 11 ذى القعدة 1353 الموافق 14 فبراير 1935 :

سيدى الأخُ الأميرُ المجاهدُ ، أيّده اللّه وحفظه

وصلَ اليومَ كتابُك المؤرَّخ فى 30 شوال فرأيتُه أبطأ فى هذه المرَّةِ عمَّا عهِدتُ فيما قبلَه ، ولعلَّ كتابى الذى أرسلتُه إليك فى أول ذى القعدة قد وصل إليك اليومَ أو يَصِلُ غدًا ، ومنه تعلمُ أنّه لا حاجةَ إلى الكتابة بشأن العقبة إلى جلالة الملك العربى ، ولكنْ يجبُ درسُ المسألةِ مما نحتاج إليه من الجهة القانونية والدُّولية وعُصبة الأمم ، فالمسألة لا بدَّ لها من اليوم ، وإنْ كان الملكُ لا يُمكنُ أنْ يُقِرَّ الإنجليزَ على أىِّ عملٍ رسمىٍّ ولا على إحداثِ عمل حربىٍّ هنالك . وإنى لأَعْجَبُ لحِدَّتك فى كلّ ما تعتقدُ أنَّ فيه المصلحةَ مع كلِّ أحدٍ فى سِنِّ الحكم والأناة . وأنا لا أنكرُ مثلَ هذا من نفسى ، ولكنْ بدونِ شدّتك فى الغالب . وإنّى قبلَ أنْ أُجيبك عمَّا فى هذا الكتابِ الأخير أُذَكِّرُكَ بأنْ تكتبَ لى ما وعدتنى من خبر التقائك بقيصر الألمان الأخير ، فإنَّ أخبارَه وآراءَه لها موقعٌ من نفسى ، وأعجبُ ما بلغنى منها ما سمعتُه منك عنه مما سمعتَه أنتَ من شيخ الإسلام موسى الكاظم فى القرآن ومن طلعت باشا فى نساء الترك(★) .

(1) كنتُ أظنُّ أننى كتبتُ إليك ما دار بينى وبين المليجى فى المعنى الذى كتبه هو إليك بعد أنْ أرسلتَ إليه عنوانك عقبَ حديثه معى ، ولكنْ شكَّكنى فلانٌ فى براءته مما كتب فى جريدة الشعب . وقد كتبتُ إليك فى كتابى الأخير أنَّ ما كُتب ونُشر فى هذه المسألةِ كافٍ ، فالطاعنون لم يَنالوا ، ولن يَنالوا ، منك نيلاً . ثم أخبرنى سليمُ بك عزّ الدين أنَّ فلانًا أُعطى ابنَ أخيه أو أُخته(★★) ، الذى يشتغلُ الآن فى تحرير (المقطَّم) معه ، شيئًا من الطّعن ، قال إنه جاءَه من العراق ليقرأه فرماه وداسه

(★) ولقد كنتُ نَشرتُ عن ذلك مقالةً مفصَّلةً ، لا حاجةَ إلى إعادتها هنا .

(★★) هو **فريدُ مصطفى بك عزّ الدين** ابنُ عم سعادة سليم بك عزّ الدين ، وكان محرِّرًا بالمقطم .

برجله ، وقال له هكذا يجبُ أنْ يُفعلَ بما يُكتب فى الأميرِ شكيبٍ . وسأنصحُ هذا الرجلَ فى هذه المسألة ، ورأيت جُميّلا وعباس حافظ المحرر فى جريدة الكوكب يقولان إنه جاءهم شىء فى هذا الموضوع فألْقَوْهُ فى سَلَّة المهملات بعد تمزيقه ، وسألنى الأستاذ عباسُ حافظ لماذا لم يكتبْ الأمير إلى (الكوكب) شيئًا فى هذه الأيام وصاحبُها أقدمُ أنصاره ؟ وقد تغدَّى عندى يومَ الجمعة الماضى الدكتور حسنى أحمد مع بدر الدين الصينى ، الذى جاء حديثًا فأطلعتُه على كتابك الأخير الطويل ، وقلتُ له : أَتُنْكِرُ من هذا شيئًا أم تقولُ إنَّ الأميرَ قَصَّر فى التحرِّى والتثبُّت ؟ قال : لا . وقال : إنه يعتقدُ أو يُرجِّحُ أنَّ الدكتور لا يكتبُ ولم يكتبْ فى هذه المسألة ، ولا يُحرِّضُ ، وليس هو رئيسَ لجنة النشر ، ومعه أمين سعيد والمليجى (كما قال لى ....) وغايةُ الأمر - كما يعتقد - أنه لا يكره ما يكتب بل يسرّه لسوء ظنه القديم ، وتكلَّمنا فى هذا كلامًا تحليليًا كما يُقال فى عصرنا .

إلى أنْ يقولَ :

(4) وصل أولَ من أمس إلى مصرَ أخونا المغربى وزميلُه الأستاذ إسكندر المعلوف لحضور جلسات مجمع اللغة العربية الملكىّ ، وزارنى فوجدَ عندى الأخ الداودىّ(★) وكتابك فى التوصية به - وكان الداودىّ قد زارنى قبلَ هذه المرة - وأخبرنى الأستاذ المغربىّ أنّك أرسلتَ إليه ديوان المرحوم أخيك لطبعه فى الشام ، فإن لم يكنْ فعندى . وعَجِبْتُ لمَ لمْ تُرسلْه إلىّ أوّلاً لِيُطبع فى مطبعة المنار ، وهى مطبعتُك ، والظاهر أنه لم يَشْرَعْ فى طبعه بعدُ ، وسيعودُ فأسأله ، وسيعودُ الداودى أيضًا ، وأكتب له ما يُحبُّ من التوصية كما تُحبُّ . وطلب منِّى صورة كما أنه صوَّرنى مرة مع الأستاذين المغربىِّ والمعلوف ، وصوَّرنى رفيقُه معه أيضًا ، وطلب منِّى وصيةً لِيَضُمَّها إلى الوصايا التى يجمعُها لِيَطْبَعَها فى رحلته . وقد أخبرنى فى الزيارة الأولى بوفاة الزعيم الكريم عبد السلام بنونة ، تغمده اللّه برحمته ، فسبقتنى الدموعُ حتى صَعُبَ علىَّ أنْ أكلّمَه فى

(★) الأستاذ السيد **محمد داود** من أعيان تطوان .

الموضوع ، وإنْ كنتُ لم أرَ المرحومَ ، ولم أكاتبه ولم يكاتبنى ، ثم قرأتُ مراثيك المؤثِّرة له .

لا تنسَ ما طلبتُه منك من العناوين ، ولمَّا أرسل إلى الحبشة شيئًا ، وعفا اللَّه عن السيد عاصم فإنَّ إقامته فى القلمون وطرابلسَ فى هذه الأيام أضاعت علىَّ ثلاثةَ أرباع عملى فيها ، وهى أيام النشاط . والسلام .

أخوك رشيد

وكتب فى 6 المحرم 1353 :

سيدى الأميرُ

سلامٌ عليك ، وبارك عليك ولك فى هذا العام الجديد ، وأسبغَ نعمَه عليك وعلينا فى جميع الأعوام ، وقد تواترت كتُبك علىَّ فى خاتمة العام الماضى وفاتحة الجديد ، وأنا واقفٌ أمامَها وِقْفَةَ العاجز المنتظر لما لا تعلمُ فتعذرَ ، ولكنّى أرسلتُ إليك جوابًا واحدًا فى مطاوى[1] عدد أو عددين من جريدة (أم القرى) فيهما ملزمةٌ من تفسيرى « المختصر المفيد » ظهر لى من كتابيك الأخيرين ، الذى وصل اليومَ ثانيهما ، أنك لم ترَ الكتابَ إما لأنَّ الجرائدَ لم تصلْ إليك ، وإما لأنه وضع فى ملزمة التفسير المختصَر ولم تفتحْها فبقىَ فيها . وفيه أنه فى اليوم الرابع بعدَ العيد عرض لى بعضُ أعراض ضغط الدَّم ، فأمرنى الأطباء بِحِمْيَةٍ شديدةٍ ، أتغذَّى مدةَ أُسبوع بلبن الحليب وحدَه مع دواء مليّن ، ثم بماء الخُضَر ، ثم بالخضر المسلوق - وحرَّموا علىَّ مدة هذه الحِمية الكتابةَ والقراءةَ والتصحيحَ وكلَّ ما يُتعب العقلَ - مع استعمال دواء لتخفيف الضغط .

إلى أنْ يقولَ :

وفى ذلك الكتاب أنّنى كنتُ أَنتظرُ - فى الشروع بطبع الديوان - لقاءَ أبى الحسن الذى قيّدتْنى به ، وإنه لم يزرْنى فى العيد حتى بحثتُ عنه بعدَه فوعدَ بزيارتى قبلَ سفره

---

(1) جمع مِطْوَى ، وهو الشيء الذى يلف عليه غيره ، **ويقصد هنا** أنه وضع الجواب ضمنَ عدد أو عددين من الجريدة .

إلى فلسطين ، ولكنْ لم يفعلْ ، وهو إلى الآن لم يَعُدْ ، وفيه كلام بشأن طبع الديوان وترتيبه ، وإننا عَمِلْنا طابعًا « كليشه » باسم الدِّين كما أمرتم .

هذا ، وإننى كنتُ مستاءً مِن طبع هذه القصائد المرسلَة فى الكراريس الخمس بدون طبع قصائدِ الباكورة التى غرست محبَّتك وتقديرَك فى قلبى ، وهذه القصائدُ فى نظرى أعلى نظمًا ولغةً وموضوعًا من كلِّ ما فى الكراريس من المدائح والمراثى ، حتى جاءتنى مكتوباتُك الأخيرةُ تُبشّرنى بالظفَر بالباكورة وشروعِك فى اختيار ما تُريد طبعَه منها ، فلم يعجبْنى هذا الاختيارُ لأنّنى أَوَدُّ أنْ تُطبعَ كلُّها ، ولكنَّك تقول فى كتابك الذى وصل اليومَ إنك لم تجدْ مانعًا من نشر قصائد بُرمتها وقصائدَ أخرى مع حذف كثير منها ، فإنْ كان ما تحذفُه من المدائح الشخصية فلا بأس ، فإنّنى كنتُ أحبُّ المدائحَ الشخصية فى يوم من الأيام ، إلا أنك تقول أيضًا إنك تَنشرُ مدائحَ السلطانِ عبد الحميد ، وأنا لا أذكرُ من مدائح الباكورة إلا القصيدةَ الرائيةَ فى مدحه كما أظنُّ ، وهى التى ما زلتُ أتمثلُ بأبياتٍ منها ، وأحملُ عليه قولك – وما أدرى مَن تَعنى به – فى غزلك المؤنث :

لا أَزَالَ الإلَـهُ دَوْلَـتَـهُ الـغـرَّا   وإنْ كـان قـد طَـغَـى وَتَـجَـبَّـرَ

وليتك أرسلت لى الباكورة برُمتها بعدَ وضع علامات على ما تختار حذفَه منها لنتشاور فيه . وأما مدح الأستاذ الإمام وحكيم الإسلام فهو فى نظرى ونظرك من الشعر الإصلاحى لا من المدح الشخصى ، ولا أحفظ من الباكورة غيرَه إلا ما يَشترك معه من قصائدِ العلم والتاريخ ، وقد جاء اليومَ بعضُه .

أقولُ الآن إنَّ قصائدَ الكراسات الخمس يجبُ تغييرُ ترتيبِها ولو بنشر المراثى بحسَب ترتيب زمانها ، فليس من المناسب جعلُ رثاء أمين باشا فكرى قبلَ رثاء والده ، ولا بتقديم ما نُشر منذُ أشهر كرثاء فقيد بنونة[1] رحمه اللَّه مقدَّمًا على ما نُظم قبلَ أعوام .

ثم إنَّ فى هذه الكراريس تعريفًا ببعض القصائد وأسبابِ نظمها مبدوءًا بالعطف حيثُ لا معطوفَ عليه كقولك : وفى أثناء الحرب العامة جاء وفد تركى . . . إلخ . ثم قولك : ولما استرجعت الدولةُ العثمانية مدينةَ أدرنة . . . إلخ . هذا ، وإنْ كان قبلَه ما

---

(1) يقصد الأستاذ **عبد السلام بنونه** رحمه اللَّه .

يَصِحُّ عطفُه عليه فالعطفُ غيرُ مقصود إذ لا مقام له بقصدية العطف ، وإنْ كان له وجهٌ .

وقد يحسنُ أنْ يُجمعَ كلُّ ما يختصّ بالمرحوم البارودى وحدَه ويُختمَ برثائه ، ثم ما يَختصُّ بشوقى بك مثلُه . وسأنتهز أولَ فرصة فأعرضُ عليك ترتيبًا مكتوبًا ، فإننى الآن فى حشكة[1] من شواغل آخِر سنة المنار للمجلد 34 والشروع فى المجلد الخامس والثلاثين ، وقد اضْطُرِرْتُ لتأخيرِ الموعدِ ، فدخل المحرم وأنا لم أُتمَّ الجزءَ التاسعَ من المجلد الذى كان يجبُ أنْ يَتِمَّ العاشرُ منه فى ذى الحجة ، ولذلك أسباب كادت تحملُنى على تعطيل إصدار المنار فى هذا العام . ثم صعب علىَّ هذا وإنْ كان تسعة أعشار المشتركين ما عادوا يدفعون لنا شيئًا ، والعشرُ العاشر أكثرُه مماطِلٌ ، وناهيك بغيبة عاصم الحمقاءِ خمسةَ أشهرٍ ، وقد دخل فى السادس ، ولمَّا أوفقْ لإيجاد مَن يقومُ مَقامَه ، وهو الواجب ، والمكتوباتُ تَزدحم علىَّ بالعشرات فى الشهر أو الأسبوع فلا أستطيعُ مراجعتَها .

وجملةُ القول أنه متى عادَ أبو الحسن أبينْ له الترتيب الذى أراه فى قسم الديوان الذى فى الكراسات بعد موافقتك عليه فنقطعُ ورقها ونُرتبه بالأرقام ، ومن رأيى أنْ يُطبعَ ألفا نسخة على الأقل . وقد ذكرتُ لك فى كتابى السابق أنَّ ألفَ نسخةٍ قليل ، ثم أكلِّفه إحضار المقدمة التى وعدَ بها خليل بك مطران ، فالشروعُ فى الطبع يتوقفُ على ذلك . ومتى كمل الديوانُ ورُتِّب وتقرَّر العددُ المطبوعُ والنفقةُ فالعمل فى المطبعة يكونُ سريعًا إنْ شاء اللَّه تعَالى ، فلا تَهتمَّ له .

وأما رسالةُ البلاشفة فلا أدرى أين هى ؟ وأنا مستعدٌّ لتصحيح أصلها متى جاءنى ، وسأكلِّفُ السيد عبد الغنى ابن أخى أنْ يسألَ عنها مطبعةَ الجهاد ومطبعةَ الحلبى ، ويُبَلِّغَ مَن هى عندهم ما أمرتَ به . وكذلك الكتابُ الخاصّ بشوقى ، وهو يُنشر تباعًا فى الجهاد ، ومن الأسف أننى لا أجدُ وقتًا لقراءته ، ولكنّنى رأيُت اسمى بالمصادفة فى آخر عدد من الجهاد . وإنَّك تنقُل عنى فى شوقى غير ما أراه فيه .

وقد تذكّرتُ الآن ، وأنا أريدُ خَتمَ الكتابِ ، مقالتَك عن قيصر ألمانيا التى نُشرت

---

(1) **الحشكة** : الجماعة .

كما قلتَ فى العدد الخاص بالعيد الكبير الأخير من جريدة الجامعة الإسلامية ، فأخبرُك أنَّ هذه الجريدةَ قد قطعوا إرسالَها إلىَّ ، فأنا منذُ بضعة أشهر لم أرَها ، على أنَّ إدارتها كانت كلَّفتْنى أنْ أكتبَ لها مقالةً خاصّة بها لأجل العدد الخاص بالعيد ، فتأمَّل هذا الخللَ والأثَرة عند أصحاب هذه الجرائد !!

لمَّا يَجئْنى شىءٌ جديد بعدَ الحجّ من جلالة ملك العربية ولا من أمين سرِّه الشيخ يوسفَ ولا للوكالة العربية ، والمُنْتَظَرُ أنْ يجيئَنى ذلك قريبًا إنْ شاء اللّه تعالى . ورأيتُ فى بعض الجرائد ما يدلُّ على عودة الأخ إحسان بك إلى جنيف فَسَلِّمْ عليه ، وأرجو إرسالَ عُنوان **الدكتور زكى على المصرى** المشهور(★) . والسلامُ على الجميع .

أخوك رشيد



وكتب فى 6 صفر 1354 :

سيدى الأخُ الأميرُ المجاهدُ فى سبيل الإسلام والعرب ، وفَّقه اللّه وأيَّده

أُلقى إلىَّ أمسِ كتابُك المؤرَّخ فى 19 المحرم ، وأَوَّلُ ما أَكتبُه إليك فى جوابه أنَّك بالغتَ فى كشفِ تَزوير الكتاب الذى نَشَرَتْه جريدةُ الجامعة الإسلامية(★★) بيانًا من بعض الوجوه ، وأحمدُ اللّه أنْ ظهرَ لك بهذه الفتنةِ شىءٌ من غرورِك ببعض الناس الذين كنتَ تغلو فى إطرائهم ، لا فى حُسْنِ الظنِّ بهم فقط . وما كنتُ أستطيعُ أنْ أنبهَك إلى هذا لسببين ، أحدهما طبعُك الذى وَقَفْتَ به مع شقيقِك الأميرِ عادلٍ على طَرَفَىْ نقيضٍ كما يُقال ؛ فكنتَ مبالغًا فيما يُسمِّيه أهلُ الحديث تعديلَ الرواة وَقبول رواية من لا تَصِحّ روايتُه ولا تقرُب من الصحة ، وهو مبالغ فى الجرح وسوء الظنِّ كما كتبتُ إليك مِن قبلُ . والسببُ الثانى أنك لا تقبلُ فيمن تُحْسِنُ الظَّنَّ فيهم – بادئَ

(★) وهو نعم الشابُّ الفاضلُ المجاهدُ فى سبيل الإسلام .

(★★) ولقد رجعت فى هذه السنة تنشر مقالاتى ، وتنوِّه بذكرى تكفيرًا عمَّا مضى ، وفى عيد الأضحى سنة 1355هـ المنصرمة نشرتْ ثلاثَ صُور لى ، **إحداها** إذ كنتُ فى الرابعة عشرة من عمرى ، **والثانيةُ** إذ كنتُ فى العشرين ، **والثالثة** إذ بلغتُ الستينَ .

الرأى – قولَ مخالف إلا إذا جاءك بدلائل وبراهينَ كعلماء النظر ، وزاد على ذلك ردَّ الشبهات التى أَحسنتَ بسببها الظنَّ ، فإنَّنى جرَّبتُ الانتقادَ عليك فى رجلين ليس لى أدنى هوًى شخصىّ ففتحتَ علىَّ أبوابًا من الجدَلِ والمناظرِة فيهما لا أسمحُ لنفسى دخولهما . ولقد سُرِرْتُ الآن أنْ جعلتَنى موضعًا للاختبار والسؤال فى هذه الفتنة ، وإن سررتَ بكلمة كتبتُها عنك هى قليلة ، فأنت عندى فى جهادك وإخلاصك وصدقك فوق هذا وذاك .

وإنى قد صَرَفْتُ العمالَ قبلَ المغرب من يوم الخميس ، ولستُ مُضطرًّا إلى تهيئة ولا كتابة شىء لصباح غد « الجمعة » . أكتب إليك ، وأنا تعب ، ما أراه أهمَّ المهمات فى هذه المسألة ثم فى غيرها مما يهمُّك ، وهو موضوع المكاتبة بيننا .

(1) إنّنى أنا لم أرَ الكتابَ المزوَّر الذى نشرتْه جريدةُ (الجامعة الإسلامية) لأنها انقطعت عنِّى من عهد طويل لمَّا كتبتُ إليك بمناسبة ما كتبتَه فيها عن قيصر الألمان ، ولكنْ جاءنى اليومَ منها العددان الأخيران ، كأنَّ إدارتَها تُريد إعادةَ المبادلة .

فأنا ما رأيتُ النصَّ الذى زعموا أنّه بخطِّك ، بل رأيتُ ما نُشر عنه فى الجرائد ، وعلمتُ بالعقل وبعبارته العربية الضعيفة وبموضوعه أنّه مزوَّر عليك ، وأعنى بالعقل : مثلُ هذا الاقتراح على السيد أمين الحسينى لا يَصْدُرُ عنك . . .

(2) سألتُ أسعد أفندى داغر : هل رأيتَ النصَّ الذى نشرتْه (الجامعةُ الإسلامية) وزعمتْ أنَّه مأخوذ من عكس كتاب خط الأمير شكيب ؟ قال : نعم . قلتُ : وما رأيك فيه ؟ قال : لا شكَّ فى أنّه مزوَّر . قلتُ : ومَن زوَّره ؟ قال : كما هو المشهور أنَّه ف . ن(★) . وسألتُ منذ يومين محبَّ الدين أفندى الخطيب[1] أيضًا عنه ، وقد رأيتُه فى جمعية

(★) الاسمُ موجودٌ اقتصرنا منه على أوّلِ حرف من اسم الشخص وأولِ حرف من اسم عائلته ، لا حرمةَ له وقد فعل ما فعل ، وارتكب الإثم الذى عَرّفه النبى ﷺ أنه إحدى الثلاث التى هى أكبرُ الكبائر ، وهى الشرك باللّه ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وردد ﷺ قوله وشهادة الزور مرارًا ، ولكنَّنا لم نشأْ أنْ ننقلَ هذا القولَ الصريح بحقِّه عن المعزوِّ إليه هذا القولُ مراعاةً للراوى فقط .

(1) هو **محب الدين بن أبى الفتح محمد بن عبد القادر بن صالح الخطيب** (1303 – 1389 هـ / 1886 – 1969 م) ولد فى دمشق ، تنقل فى عمله بين الآستانة ودمشق والقاهرة والبصرة ومكة ، وكان من مؤسسى جمعية (الشبان المسلمين) ، وتولى رئاسة تحرير عدد من المجلات ، وأنشأ **المطبعة السلفية** ، وترك مكتبة بها نحو عشرين ألف مجلد . (الأعلام : 5/ 282) .

الشبان المسلمين ، فقال : لا شكَّ فى أنَّ الكتابَ مزوَّر ، ولكن معناه وموضوعه موافق لرأى الأمير شكيب ، وهو مخطىء فيه قطعًا ، وبَالَغَ فى هذا منفعِلاً ، وقال إنَّ الذى كتبتُموه فى مجلتكم الفرنسية صريحٌ فى ذلك ، ولو قُطعتْ أصابعُه لفضَّل قطعَها على كتابته . . . إلخ . فهو أشدُّ فى هذا من أسعد الذى أخبرتُكم عنه من قبلُ أنه قال إن الذى كتبتُموه فى مجلتكم لا شىء فيه فى نفسه ، ويصحّ هو أنْ يكتبه لا أنتم ، وقلتُ لكم أيضًا إنَّ هذا لا يَهُمُّهُ أمرُ مسلمى الحبشة ولا الصومال مطلقًا ، ولكنَّ محبَّ الدين لا يصحُّ أنْ يكونَ مثلَه لأنَّ جريدته إسلامية ، بل تكاد تدَّعى احتكارَ الدفاع عن الإسلام والمسلمين .

هذا ملخَّص رأى هذين الرجلين اللذين ذكرتُهما لى .

(3) وأما مسألةُ الشِّقاق بينَ الطَّليان والحبش فجميعُ الشرقيِّين ولا سيما المسلمين ضِلعُهم مع الحبش ، ولا يعذرون بل لا يَعقِلون أنْ يوجدَ فيهم أحدٌ له أدنى وقوفٍ على حال الاستعمار الأوروبى للشرق يَنصر إيطالية عليهم أو يكره خذلانها فى عدوانها عليهم ، ولعلَّه لا يوجد فيهم أحد يعرف شيئًا مما تعرف من سوء معاملة الحبشة لمسلمى بلادها ، ولا يمكن أنْ يقنعَ بأن استيلاء إيطاليا على بلاد الحبش خير للمسلمين من بقائها مستقلة(★) ، وأنا الذى آمنتُ وصدَّقتُ بأخبارك أتمنَّى أنْ تبوءَ إيطاليا مخذولةً مقهورة ، فمن سوء الحظّ إثارةُ اتهامك بما جاء فى الكتاب المزوَّر فى هذا الوقت . وقد كان عندى أمس صديقُك وصديقى فؤاد بك سليم فرأيتُه مستاء أشد الاستياء من هذه المسألةِ ومما كتبه فيها زميلُك إحسان بك ، ولم أرَه مخطِّئًا لكما فى هذه السياسةِ ، فالرأى الآنَ أنْ تقتصرَ على تفنيد الكتاب المزوَّر وتبرئة نفسِك من الدعاية لإيطاليا بالإجمال ، وتكُفَّ عن ذكرِ ما تعتقدُ من إحسانها لمسلمى برقة وطرابلس والصومال أو كفِّ الأذى عنهم .

(4) وههنا أذْكُر لك خُلقًا من أخلاق العلماء البُعداءِ عن السياسة وأهلِها ، وهى التصريحُ بكلّ ما تعتقدُ أنه صوابٌ وإقامةُ الأدلة والحُجَج عليه ، ومحاولةُ إقناع كلِّ مخالف لك فيه . وقد ذكَّرتُك بهذا الخُلق من قبلُ فى أثناء وقائعَ خالفتَ فيها من خالفتَ

(★) ما قلنا قَطُّ إننا نفضِّلُ استيلاءَ دولة أوروبية على الحبشة على بقائها مستقلة .

فى المسألة العربية ، ولا تراعى فى ذلك أصنافَ المخالفين ولا تَلينُ فى القول للمحبّين منهم فضلاً عن غيرهم . ومن شِدَّتك واحتجاجك فى هذا الباب ما لم أعلمه إلا منك ، فأحبُّ أنْ تذكُرَ هذا فيما نحن فيه الآن ، ولا تجادلْنى فيه ، ولا تَنْسَ أنَّ كثرةَ الحُجج قد تكون مثارَ التُّهم ، فينحصرُ فهمُ الناس فى الباعث عليها دونَ صحتها إنْ كانت صحيحةً . وغرضى من هذا تأكيد الوصية السابقة ، وهى الإمساك عن كلِّ كلمة مدح أو دفاع عن إيطاليا أو ذمٍّ للحبشة(★) وتنفيرٍ منها الآن . وقد رأينا فى برقيات رُومية اليومَ أنَّ مسألة الاستعمار الأوروبىِّ للشرق تنحصر معركتُها فى إفريقية أو ما هذا مؤداه .

(5) لمَّا يرسلْ إلىَّ صاحبُ الجهاد رسالةَ البولشفيك كما وَعد مرارًا ، وقد أرسلتُ إليه البارحةَ بعدَ كتابة الورقة الأولى من هذا الكتاب خادمى يُطالبه بما وعدنى به منذ أسبوع لأنَّنى أريد أن أكتب لك وأخبرَك بإنجازه ، فقيل له تعال غدًا الساعة 11 صباحًا ، فذهبَ فقيلَ له إنها لم تَتمَّ ، وكانوا يقولون منذُ أسابيع إنها مجموعةٌ فى المطبعة ومعدَّة للطبع ، فالظاهرُ أنَّ للتأخير سببًا غيرَ ما نَعْهَدُ من الخَلل فى الإدارة ، وَلْنَصْبِرْ .

(6) أعودُ فأختمُ القولَ فى المسألة فأقولُ إنَّك بالغتَ فى إقامة الحُججِ وإرسالِ الرسائل للجرائد ، وإثباتُ تزويرِ الرسالةِ لا يحتاجُ إلى كلِّ هذا ، فإنّى أرى كلَّ الناس مُقتنعين بتزويرها ، والجرائدُ كلُّها فى مصر وسورية وفلسطين والعراق مُصرِّحةٌ بهذا ومنكرةٌ على المزوِّرين ، وأرى أنَّ خيرَ ما تصنعُ ما أوصيتُك به آنفًا . والسلامُ .

أخوك رشيد فى 7 صفر



وكتب فى 22 سنة 1354 يومَ السبت (وليس فيه اسمُ الشهر ، لعلَّه صفر[1]) :

(★) قد أصاب الأستاذ فى هذه النصيحة ، فإنّه ليس يجوزُ أنْ يُقالَ الحقُّ إذا كان الرأىُ العامّ يُخالفُه[1] .

(1) هو يقينًا فى شهر (صفر) بدليل ما ورد فى نص الخطاب نفسه من قوله : (التقيت يوم الخميس 13 صفر بحبيب أفندى الجاماتى) ، وقوله بعدَه : (وتم له ذلك بعد تذكيرى إياه به فى يوم الخميس الماضى) أىْ الموافق 20 صفر ، وقوله : (وصححتها يومَ الجمعة أمسِ) أى الموافق 21 صفر ؛ لأن الخطاب مؤرَّخ يوم السبت الموافق 22 .

---

(1) لعلَّ الأمير شكيب يقصد أن الاصطدام بالرأى العام عن طريق المكاشفة بالمخالفة غير مفيد ، وأن في غيره من التحسُّب والتدبير فائدة أكبر .

سيدى الأخُ الأميرُ المجاهدُ فى سبيل الإسلام والعرب ، أيَّده اللَّه

حدَث بعد كتابى الأخير إليك أنْ التقيتُ يومَ الخميس 13 صفر بحبيب أفندى الجاماتى بالقطار الذى حملَنا وآخرين إلى بور سعيد لتحية الأمير سُعود ، ووعدنى بأنْ يجتهدَ بأخذ رسالة البولشفيك وإرسالِها أو حَملها إلىَّ ، وتمّ له ذلك بعدَ تذكيرى إياه به فى يوم الخميس الماضى ، وصححتُها يومَ الجمعة أمسِ وأعطيتُها لابن أخى ليحملَها إليه لئلا تضيعَ إذا أرسلناها إلى إدارة الجهاد وهى غيرُ كاملة ، وكتبتُ عليها أنه يجبُ أنْ يكونَ لها مقدمةٌ وجيزة من الناشر (وقد يكون صاحبَ الجهاد أو إدارةَ الجهاد) ، يَذْكُرُ فيها سببَ كتابتها ونشرِها فى الجهاد وتجريدِها وطبعِها مستقلَّةً لتعميم نفعِها .

هذا ، وإننى أعيدُ عليك ما كتبتُه قبلُ من كونك قد بالغتَ فى الاهتمام بالكتاب المزوَّر والردِّ عليه بإضعاف ما قدَّرت من سوء تأثيره ، فإننى لم أجدْ ولم أسمعْ أنَّ أحدًا من الناس صدقه ، وقد بيَّنتُ رأيى فيه وفيما قُصِدَ به من النَّيْلِ من زعامة الحسينىّ وزعامتِك ومِن مكانة هذه الزعامةِ فى فِلسطين وفى الأمة العربية وفى العالم الإسلامى - وهذا واجبٌ لكما علىَّ - بمقالة للمنار ختمتُها بالدعوة إلى الصلح بأن يعترفَ راغب بك النشاشيبى وحزبُه والشيخُ الفاروقى بأنَّ الكتابَ مزوَّر مستنكَر . . . إلخ . ولما اقتضت الحالُ تأخيرَ إصدار المنار أرسلتُ المقالةَ إلى بعض جرائد مصر فَنُشِرَتْ فى (الجهاد) و(الكوكب) وإلى الجامعتين العربية والإسلامية . وأرسلتُ كتابًا إلى الحاجِّ أمين الحسينى بغرضى منها واستحسانى أنْ يأمرَ منيف أفندى بنشرها فى الجامعة العربية ، فإنْ استجابَ لى الخصمان - النشاشيبى والفاروقى - فذاك خيرٌ للوطن من استمرار القيل والقال والسبِّ والطعن والقضايا أيضًا ، وإلا كان من فائدة المقالة إقامةُ الحجّة لكما عليهما ، وإظهارُ ما يجب علينا من نصرِكما ، وسأرى غدًا أو بعدَ غدٍ ما تفعلُ الجامعتان عندما تصلان إلىَّ .

هذا ، وإننى كنتُ كلَّمتُ معالى عزيز باشا بوجوب تجديد السعى لدى محمد توفيق باشا نَسيم لأنْ تأذنَ الوزارةُ لك بالإقامة فى مصر ، فطلبَ منى - وكان عندى

فى دار المنار – أنْ أكتبَ له مذكّرة بذلك ، فأرسلتُها إليه مع ابن أخى المصاحبِ له ، ولم أذكرْ لك ذلك فى كتابىَّ السابقَينِ انتظارًا لما يكونُ مِن تأثير السعى ، ولكنّنى رأيتُ أمسِ فى رسالة البولشفيك أنك انصرفتَ عن هذه المسألة حتى إنك لو أُذن لك أو دُعيتَ إلى الإقامة بمصر لأبيتَ القَبول ، والرأىُ إذا نجحَ السعىُ أنْ تَرجعَ عن هذا الرأى . والسلامُ عليك وعلى مَن شئتَ من أخيك .

رشيد



وكتب فى 4 ربيع الأول 1354 و 5 يونيو 1935 :

سيدى الأخُ الأميرُ المجاهدُ ، أيَّده اللَّه تعالى

وصل أمسِ كتابُك رقم 27 صفر ، وفيه حِوالة بمائة فرنك سويسرى لحساب طبع الديوان ، وكنتُ أولَ من أمسِ قبضتُ قيمةَ الحوالة التى أرسلتَها فى 19 شوال سنة 1353 .

إلى أنْ يقولَ :

إننى لما قرأتُ كتابك أمسِ شَرَعْتُ فى الترتيب الذى أراه للقصائد فجعلتُ الكرّاسَ الأول المنقولَ عن الزهور هو القسمَ الأول ، وانتزعتُ المراثىَ من مواضعها فى الكراريس الأخرى ، وجعلتُها قسمًا مستقلاً لعلَّه يكون الأخير فى الديوان الأول ، أىْ قبلَ قسم الباكورة التى جزمتَ أنت بجعلِه الأخيرَ ، وإنْ كان هو الأولَ فى التاريخ . ولكنْ أتعبنى أنَّ بعض المراثى مختلطٌ بقصائدَ أُخرى فى النَّسْخِ ، فنسخت بعضَه لقلته ، وتركتُ الباقى لألحقه بما يُناسبه عند الطبع ، وقرَّرتُ أنْ تكونَ مقدمتُك المرسَلة فى الكرّاس الأول ومقدمةُ مَطران بك التى يرى بحق أنْ يكتبَها بعدَ الاطّلاع على الديوان مطبوعًا – كلتاهما مما يُطبع بعدَ إتمام طبع الديوان ، ويُوضع فى أوّله كما اعْتِيدَ فى أكثر مقدمات الكتب العصرية ، ولولا أنَّ مقدمتَك تحتاجُ إلى زيادة يُذكَر فيها ما اخترتَه من شعر الباكورة لكان طبعُها الآن أحسن . وإنى أُرسلُها إليك الآن لترى ما تَزيدُه أو لتغيّرها كلَّها . ويَحْسنُ إذنْ أنْ تذكرَ أسماءَ مَنْ رَثَيْتَهم بترتيب تاريخ وفاتهم

كما فعلتُ أنا فى جَمْعِ مراثيهم ، وأقدمُهم الشيخ أحمد فارس وعبد اللّه باشا فكرى فنجله أمين باشا « لا بك » فكرى . . . إلخ .

ولولا أنَّ طبعَ الديوان متوقِّفٌ على ترتيبى له وتفريقِ أوراقه قِطعًا قِطعًا وجمعِ بعض ما فى الورقة الواحدة فى قِسم منه وحفظِ باقيها لِيُجْمَعَ لقسم آخرَ ، وعلى تصحيحى له - لأعطيتُه لإحدى المطابع المتقِنة لأننى ، وقد اشتدَّ الحرُّ ، فى حَشَكَةٍ[1] من الشواغل المطبعية والإدارية لم يَسبقْ لها نظيرٌ فى وقتٍ آخرَ مما مضى ، (منها) أنّنى فى خاتمة سنة للمنار وما تقتضيه مما ستعلم بعضَه من الجزء الأخير من المجلد 34 الذى تمَّ ، ومنها تجديدُ الإدارة كلِّها (ومنها) انتهاءُ الجزء 12 من تفسير المنار وما لا بُدَّ له كالمنار من الفهارس (ومنها) إنجازُ الطبعة الثالثة من كتاب (الوحى المحمدىّ) ، وقد نَجَزَت اليومَ الملزمة الأخيرة منه وبقى التقاريظُ ، وفيها زيادة ونقصان ، وهذا مقدَّم على الجميع الآن ، وسأُقدِّمُ بعدَه الديوانَ على المنار الجديد وغيره ، فهاك مقدمتَك فجدِّدْها ، وهاك اسمَ الدِّيوان فإنْ رجَّحت الاكتفاءَ بتسميته « ديوان الأمير شكيب أرسلان » فاحذفْ منها « الصوت الغريضى . . . » فنحن قد جعلناها 3 قِطَع . وقد وصل من دائرة الأمير عمر كتابُ الحبشة ، وهو محفوظ عندى . والسلامُ من أخيك .

رشيد

★ ★ ★

وكتب فى 4 ربيع الآخر 1354 :

سيدى الأخُ الأميرُ المجاهدُ ، أيّده اللّه

وصل كتابك رقم ربيع الأول[2] ، وسرَّنى منه أنّه بخطِّك ، فأمَّا ديوانُك فشرَعنا فى طبعه ، طبعنا الكراسةَ الأولى بالحرف الألمانى الجديد ، فاستغرقت القسمَ الأولَ الخاصَّ بالمراسلات السامية ، وزادت صفحةً ، وجمعنا الكراسةَ الثانيةَ ، وقد جعلتُها فى المداعبات والمراسلات الشخصية وما تُلِىَ فى حفلات الشعراء : شوقى وحافظ

(1) **الحَشَكَةُ** : الجماعة . (2) يُسند **الشيخ رشيد رضا** الرقم - كثيرًا - إلى اسم الشهر .

ومطران والرافعي ، وهذا القسم الثاني ومنه قصيدة لصبرى باشا وقصيدة الحسناء العاملة عند محمد بك راسم ، وقد تعبتُ فى جَمْعِ هذا القسم ، وكان مخلوطًا بينَ المراثى التى جعلتُها قسمًا رابعًا وبين القصائدِ السياسية التى جعلتُها قِسمًا ثالثًا . واضْطُرِرْتُ أنْ أُتَمِّمَ بعضَ القصائد بخطى لأن فى الورقة ما هو مِن قسمين أو ثلاثة ، ولا أزالُ فى تعبٍ من تقسيمها(★) ، وربّما أُعطى العمالَ ورقةً لجمع بعضها ثم آخذُها لأعطيهم إياها لجمعها فى قِسم آخر ، كُلُّ هذا لكراهتى خلطَ بعضها ببعض ، ويدخلُ فى القسم السياسىّ كلُّ ما يتعلَّق بالدولة العثمانية وسلطانها وحرب طرابلس والخديو . . . إلخ .

هذا ، وإننى أشتبه ببعض الألفاظ من خطِّ الناسخ لها لتقديم النقط وتأخيرها ، وكذلك الشَّكْلُ لبعضها ، واحتمالُ بعضِ الكلم لمعنيين أو خفاءُ معناه لما فى القصائد من غريب اللغة الذى لم يَشتهر استعمالُه ، وإننى أرسل إليك الكراسة التى طُبعت لتراها وتُصحح ما عسى أنْ يكونَ فيها من غلط ، وترى أننا لم نَطبع لها الديباجة باسم الديوان لأننى استحسنتُ أنْ أُضيفَ إلى الاسم « ديوان الأمير شكيب أرسلان » زيادة (المشتهر بلقب « أمير البيان ») بطابع آخر بالخط الفارسى ، وقيل لى لعلَّ الأمير لا يَستحسنه لئلا يُقالَ إنه منه . فقلتُ إننى أَزيد فى الديباجة « وقف على طبعه وتصحيحه ونشره محمد رشيد رضا » فَيُعلم أنَّ اللقبَ منِّى . وقد تكون الديباجةُ لِمَلْزمة المقدِّمة التى سيكتبها خليل بك مَطران وما ربَّما أكتبه أنا إنْ وَجَدْتُ له مناسبةً . وأما الباكورة وهى الشعر فنجعلُها خاتمة الديوان كما استحسنتم .

عاد أبو الحسن واجتمْعنا مراتٍ ، وزرتُ وإياه الأستاذَ توفيق دياب ، وزارنى وأعقبَ هاتين الزيارتين قرب إنجاز رسالة البلاشفة ، وسيتلوها قربُ إنجاز رسالة ألمانيا . أما الأولى فقد أُرسلت إلى ما جمع منها مطبعة سكر أول من أمس « الأربعاء » وأنا أنام دائمًا بعد الظهر ، وبعد عصر ذلك اليوم حضرْنا الاحتفالَ العظيم الذى أقامه الأزهر لشيخه الأكبر بحقِّ صديقنا المراغى ، واستمرَّ إلى ما بعد

(★) ليتأمّل القارئ برَّ هذا الرجل بإخوانه لا سيما أخيه هذا وتَكَرُّمَهُ بنسخ كثير من شعرى بخطِّ يده الكريمة مع أنه أشغلُ من ذاتِ النِّحْيَيْنِ(1) ؛ إنَّ هذا لعَمرى منتهى التواضع وكرم الأخلاق . وكلُّ عظيم لا يُحب التعظما .

---

(1) هذا مثل يُقال لمن كثُرت عليه أشغاله ، وقد سبق ذكرُ مضربه وتخريجه .

المغرب ، وقد استغرق تصحيحُ ما أرسل إليّ « وأكثره مما صححتُه أولَ مرة » قِطْعًا من الليل ، وأتممتُه من أول النهار إلى الساعة العاشرة من يوم الخميس ، وأتعبنى بتصحيحها أنه ليس لها أصلٌ أرجع إليه فيما يَشتبه وما لا يُفهم من المجموع ، وبقى منها بقيةٌ معها الأصل المطبوع بجريدة الجهاد ، وهو غيرُ مطابِق للأصل المرسَل منك ، فهكذا يكون التصحيحُ غيرَ تام، ولكنَّه يكونُ خيرًا من المطبوع فى الجهاد .

وجمع لى أبو الحسن من الجهاد جميعَ الأعداد التى نَشرت زيارة ألمانيا لأصححها ، ثم أتولَّى تصحيحَها وطبعَها عندى كما استحسنَ الأستاذ دياب . وَالْمُشْكِلُ الآن أنَّ عملى الشخصى كثير ومضاعف ، ومنه تجديد أعمال المنار وإتقانه كما تراه فى جـ1 م35 ، والأطباء يُحَرِّمُون علىَّ كثرةَ الشغل العقلى خوفًا من احتقان الدماغ ، فلهذا أكون معذورًا بعدمِ الإسراعِ بهذه الرسائلِ مع الديوان(★) .

هذا ، وإننى كنتُ كتبتُ إليك أنّه يجبُ أنْ يكونَ لرسالة البلاشفة مقدمةٌ يُذْكَرُ فيها سببُ كتابتها ، وما فيها مِن الفائدة للقُرّاء ، وإنْ ذَكَر سببَ الكتابة عَرَضًا فإنه لا يَحْسُن أنْ تبدأَ بهذا التمهيدِ وحدَه ، بل يجب أنْ يُذْكَرَ التمهيدُ فى المقدمة أيضًا ، وأنا كتبتُ على أول ورقة فى التصحيح الأول هذا ، وكلمت به الجاماتى ، ويحسُن أنْ تكونَ المقدمةُ من الذى يتولَّى طبعَ الرسالة ونشرَها ، وكنتُ فهمتُ أنَّه صاحبُ الجهاد أو إدارة الجهاد التى نشرت الرسالةَ أوَّلاً - وإلا فصاحبُ الرسالة .

وأقولُ منذُ اليومَ إنه يجبُ مثلُ هذا فى رسالة زيارة ألمانيا لتكونوا على بصيرة .

هذا ، وإنَّ دائرة الأمير عمر[1] أرسلت إلىَّ مكتوبات الحبشة ، وهى(★★) محفوظة لا يضيع منها شىءٌ ، وسأرسلها مُسَجَّلَةً مع غيرها مما سأرسله إليك توفيرًا للإرسال .

(★) كتبتُ إليه جوابًا عن هذا بأنْ يقدِّم صحتَه على كلِّ مُهِمّ .

(1) هو **عمر بن طوسون بن محمد بن سعيد بن محمد على** (1289 - 1363 هـ / 1872 - 1944 م) مؤرخ باحث من الأمراء السابقين بمصر ، ولد وتوفى بالإسكندرية ، تعلم فى سويسرا ، وقام بسياحات كثيرة ، له مؤلفات كثيرة ، وكان يخرج على عادة أسرته حيث اختلط بالجماهير ، وساعد أصحاب الثورات . (الأعلام : 5/ 48) .

(★★) إنى من عشر سنوات أتلقَّى رسائل من مسلمى الحبشة ، وأتألَّم لما يُعانونه من إرهاق وعَسْفٍ وظلم فى ظلِّ الحكومة الحبشية التى تعاملُهم معاملةَ غرباء بالرغم من كونهم نصفَ أهالى تلك المملكة . وقد كنتُ =

وما ذكرتَه فى الكتاب عما قاله أسعدُ أفندى لإحسان بك ليس على وجهِه ، فإنَّ الدكتورَ لا يُمكن أنْ تُحدِّثَه نفسُه بحمل اللجنة ، وأنا فيها ، على شىء لا يُرضينى ، وإنَّما كان النشاشيبى اقترحَ هذا على الدكتور أو كلَّمه به ليعمل ما يُريد عملَه هو فى جمعيته ظانًّا أنه يُمكنه هذا .

كنتُ أَوَدُّ أنْ يكونَ لى وقتٌ واسعٌ أُطيلُ الكتابةَ إليك به ، ولكنْ علىَّ شغل للمنار والتفسير فى هذا المساء والليل ، ولكنِّى أخبرُك بأنه نُشِر فى مجلة (الضياء العربية)

= كتبتُ عن أحوالهم المؤلمة فى « حاضر العالم الإسلامى » من اثنتى عشرة سنة أىْ قبلَ الحرب الإيطالية - الحبشية بزمن طويل ، بل كنتُ أحملُ على الحكومة الحبشية فى أثناء ما كنتُ أحمل على إيطاليا من أجل ما كانت هذه تُرهق به مسلمى طرابلس الغرب . وما زلتُ أتلقَّى رسائلَ عن حالة الضنك التى كان عليها مسلمو الحبشة ، وذلك من بعض علمائهم وبعض أُدباء العرب الذين فى أديس أبابا حتى تجمَّع عندى ما يُساوى مجلدًا من هذه الكتابات ، وكان آخرَها عهدًا مكاتيبُ تذكر لى كيف أنَّ هذا النجاشى طفرى أخنى[1] على سلطنة جمة جفار الإسلامية ، وألحقها ببلاده على إثر وفاة سلطانها الأخير . وهذا بعدَ القضاء على سلطنة هرر الإسلامية من 50 سنة . وبعد محو الأحباش من قبلِهما سبعَ إمارات إسلامية . وكنت سنة 1928م أرسلت إلى النجاشى هذا مع بعض معارفَ له من الألمان أنصحُ له أنْ يعتدلَ فى معاملة المسلمين ، ويُعلنَ المساواةَ بينهم وبين رعاياه المسيحيين ، وأُنذره بسوء مصير مملكته إن لم يفعلْ ذلك ، فأصمَّ عن نصحِى لشدة شنآنه وشنآن قومه للإسلام . ثم لمَّا بدأت الحربُ بينَه وبين إيطاليا أعلنَّا فى مجلتنا المحرَّرة بالفرنسية « لا ناسيون آراب » وفى الصحف العربية التى نكتب فيها أنَّنا لا نُوافق على استلحاق إيطاليا للحبشة لأنَّ ذلك خلافُ مبدأ الاستقلال الذى هو محورُ عملنا ومدارُ دِعايتنا طولَ حياتنا ، ولكنَّنا كما نُطالِب باستقلال الحبشة نُطالِب بمساواة المسلمين للنصارى فى تلك المملكة وبإعادة استقلال مملكتَىْ هَرر وجَمة جفار الإسلاميتين ، وإلا فإننا نُنذرُ المملكةَ الحبشية بالبوار . وبينا نحن ندعو بهذه الدِعاية إذا بالدعاية الإنجليزية من جِهة والدعاية البلشفية من أُخرى ، كلٌّ منهما لغرض غير غرض الثانية ، قد ملأتا العالمَ الإسلامىَّ وأقامتا المسلمين وأقعدتاهم لأجل الحبشة ، واندفعوا فى قضية الانتصار للحبشة بأشدِّ مما انتصروا لممالكَ إسلاميةٍ متعدِّدة استولت عليها أوروبا ، ولم ينتطحْ فيها عنزانِ ، بل اندفعوا فى الصُّراخ والإصراخ للحبشة بلا قَيدٍ ولا شرطٍ ، ونَسُوْا ما سبقَ للحبشة من إرهاق وتعذيب للمسلمين استمرَّا مدةَ أعصر ، وكيف أنَّ يوحنا ملكَ الحبشة أكره جميعَ المسلمين سنة 1882م على التنصُّر قاطبةً أو يَرحلوا من البلاد . وقد وصلت هذه الأخبار إلى مسلمى الحبشة فكتب إلينا نفر منهم قائلين : إننا لا نُريد أنْ يَستولىَ الأوروبيون على بلادنا ، ولكنَّا لا نَرضى بأنَّ المسلمين يتركوننا لاستبداد الأحباش النصارى بنا كما هُم فاعلون الآن ، فنحن أرسلْنا هذه المكاتيبَ بعينها إلى الأمير عمر طوسون ثم إلى السيد رشيد رضا ليعلما حقيقةَ أحوال الحبشة وحقيقةَ أمانى المسلمين فيها ، ويعرفا أنَّنا لسنا مهتمِّين إلا بغرض الإسلام ، ثم إنَّ الأستاذ المؤرِّخَ الآثارىَّ الشيخَ يوسفَ أحمد نشر تاريخ الإسلام فى الحبشة ، وأتى فيه بخلاصة أخبار المظالم والاعتداءات التى كانت تقع على المسلمين فى دينهم وأعراضهم ودمائهم وأموالهم، وظهر الحقُّ وزهق الباطل .

---

(1) قضى عليها .

التى تصدُر فى الهند حديثٌ عن لجنة المناظرات فى مدرسة دار العلوم فى لكنوه أو مناظرة فى أعظم رجل فى العالم الإسلامى الآن ، فذكر بعضُهم مصطفى كمال ، وقال آخرون إنه خرج من الإسلام . وذكروا بعضَ رجال الهند وبطل الريف ورشيد رضا . وكان أكثرُ الأصوات للأمير شكيب أرسلان(★) .

(★) كانت مَجلة « الضياء » الهندية التى تُصدرها ندوةُ العلماء فى « لكنوه » بالهند بإشراف علاَّمة الهند الكبير مولانا السيد سليمان الندوىّ قد نشرت خبرَ مجمع انعقد للمذاكرة فى أىِّ الرجال فى الإسلام يستحقُّ أنْ يوصفَ بأنه أعظمُ رجل فى العالم الإسلامى اليوم ؟ فحضر هذا الاجتماع عددٌ من كبار الأدباء والخطباء مثلُ السادة لطيف الدين وعبد الكافى وعبد اللطيف ومحمود خير الدين الدمشقى صاحب جريدة « وفاء العرب » ومحمد الهلالى ومسعود الندوى وأبى الحسن على الحسن الندوى وغيرهم ، فخطب كلُّ واحد منهم بما يؤيِّد رأيهَ فيمن هو اليوم الأرجح ميزانًا بين رجال الإسلام . فأناسٌ رجَّحوا على الجميع الغازى مصطفى كمال مع ذكرهم بين الذين يستحِقّون الذكر رضا شاه البهلوى والإمام أبا الكلام والدكتور إقبال والسيد رشيد رضا وهذا العاجز الفقير إليه تعالى . وكان هذا رأى عبد اللطيف ولطيف الدين وعبد الكافى . وذهب آخرون مثل إعجاز أحمد والملك على حسين إلى أنَّ أكبر رجل فى الإسلام اليوم هو الإمام أبو الكلام الدهلوى . وقال السيد مظفر حسن الكشميرى إنَّ أعظمَ مسلم فى هذا العصر هو السيد سليمان الندوى . وخطب العلامة السيد محمد الهلالى فأطال ، وانتهى بذكر اثنين أحدُهما الأمير محمد بن عبد الكريم الريفىّ والآخرُ شكيب أرسلان . ثم تكلَّم الأستاذ مسعود عالم الندوى فقال : إنَّ الأستاذ محمد تقى الدين الهلالى وفَّى الموضوعَ حقَّه ، ووافق رأيُه رأيَنا ، وإن السيد سليمان الندوىّ لا يُوازيه أحد اليوم فى التاريخ والقرآن والحديث لكنَّ عظمتَه منحصرةٌ فى العلم . وإن السيد أبا الكلام قد يُعَدُّ أكبر رجل فى الهند لكنْ لم تتسعْ دائرةُ أعماله ، وما تجاوزت حدودَ الهند ، فليس هو ذلك الرجلَ الذى نحن بصَدَدِهِ . ثم قال : أما مصطفى كمال فإنى أشكُّ فى إسلامه ، وأقول قولى هذا عن علم وبصيرة ، ولستُ من الجامدين الرجعيّين . وما رأيُكم فيمَن طمسَ الإسلامَ ، وأتى على بنيانه من القواعد . لا أُنكر أنَّ الأمة التركية مسلمةٌ لكنَّها مغلوبةٌ على أمرها . (إلى أنْ قال) : إنه عندما يتأمَّلُ عظماءُ الأمة الإسلامية لا يملك نفسَه مِن أنْ يتذكَّرَ السيد أحمد الشريف السنوسى الذى قال عنه شكيب أرسلان : إنه لو كان فى عصر الصحابة لكان من كبارهم ؛ وأنْ يتذكَّر مولانا محمد على (أخا شوكت على) ، واستخلص من مبحثه أنَّ الذين يُرجِّحُهم هو فى هذا الموضوع اثنان ، أحدهما الأمير عبد الكريم ، والثانى شكيب أرسلان . وذكر فيما نثاه(1) عن شكيب أرسلان أنه يدافعُ عن حقوق المسلمين أجمعين من غير فرق بين وطن ووطن ، وأنَّ هذه هى المَزِيَّة التى تُميزه بين جميع رجال المسلمين فى العصر الحاضر . ثم قام السيد محمود خير الدين الدمشقى وقال : إنى قضيتُ فى تركيا نصيبًا من عمرى ، فأنا خبير بجميع أحوالها ، ولا شك فى أنَّ مصطفى كمال رجل عظيم لكنْ قد أتى على الإسلام من قواعدِهِ . . . إلخ . ثم جعل النتيجةَ أنَّه اختار فى هذا الموضوع شكيبَ أرسلان قائلاً إنه هو الذى ضاقت به أرض الاستعمار فلا تُقِلُّه ، وأنه . . . وأنه . . . إلخ . ثم خطَب الأستاذ على الحسنى الندوى رئيسُ الحفلة فذكر مَن سبق الكلامُ عنهم ، وضمَّ إليهم الشيخَ حسين أحمد المهندى وسيف الرحمن وعبيد اللّه السندى ، ونوَّه بالسيد رشيد رضا ، وقال : هؤلاء هم سلوانا وقُرَّةُ أعيننا وبَرْدُ أكبادنا بعدَ ذهاب الأندلس وطرابلس وإفريقية وآسيا . وقال : إن من مصطفى كمال =

---

(1) نثا الحديث نَثْوًا : بَثَّه .

وقد استحسنتُ المناظرة ، وسأرسلها للجهاد مع أبى الحسن لِتُنْشَر فيه ، وعسى أنْ يكونَ غالبٌ كما أُحِبُّ نشوءًا وتربيةً ، وقد نجح ابنى شفيعٌ فى هذه السنة فى امتحان شهادة البكالوريا ، ويرغب الدخولَ فى مدرسة الهندسة لِعَجْزِنا عن إرساله إلى أوروبا . والسلامُ من أخيك .

محمد رشيد رضا



وكتب فى غُرَّة جمادى الأولى سنة 1354 الموافق 31 يوليو 1935 ، وهو آخرُ كتبه إلىَّ ، قدَّس اللَّه رُوحَه ؛ لأنه توفى فى 23 جمادى الأولى :

سيدى الأخُ الأمير أمير الأدب والنَّسب

جاهد أبو الحسن جهادًا طويلاً ساعدتُه فى بعضه حتى أمكنه تخليص أُصولِ رسالة البلشفيك من مطبعة السكر ومن إدارة الجهاد ، وقد سهر عندى البارحةَ حتى كادت

= فى قلوبنا جروحًا دامية ، وإلى اللَّه المشتكى . ثم جلس وسكت ، ولما ألحُّوا عليه أنْ يُسَمِّى رجلاً بعينه يُفَضِّلُه على الجميع ، قال إنه شكيب أرسلان . فوافقه المجلس بتصفيق حادٍّ . (ملخصًا عن مجلة الضياء الهندية) .

فلما بلغ المرحومُ السيد رشيد رضا ما كتبتْه مَجلةُ (الضياء) هذه بلغ من برِّه بأخيه هذا أنْ كتب إلىَّ يخبرُنى بذلك ، وأنى نِلْتُ فى تلك الحفلة أكثريةَ الأصوات . وأنا لم أُشِرْ إلى هذه القصة اغترارًا بنفسى أو اعتقادًا أنَّى على شىء مما تفضَّل به بحقى هؤلاء الأعلام ، بل إنى لا أرانى أهلاً لمجرَّد الذكر مع واحد من هؤلاء أجمع فضلاً عن أنْ أكونَ فى مقدمتهم ، أعوذ باللَّه من الغرور ومن أنْ أظنَّ فى نفسى عُشر معشار هذه المكانة التى نَحَلونى فضلَها تكرُّمًا منهم ، وتركونى من ذلك فى خَجل ، وأىّ خجل ، أمامَ الناسِ وأمام نفسى التى هى أعلمُ بقصورها من كلِّ أحدٍ . وما ذكرتُ هذه الحكايةَ على وجه التلخيص ، وحذفتُ منها ما حذفتُ مما يتعلَّق بى إلا لِنُدُورها وطرافتها وإثباتِ علوّ نَفْسِ هذا الغطريف السيد رشيد رضا الذى كان يُسَرُّ لأخيه بأكثرَ مما يُسَرُّ لنفسه . والحالُ أنه هو أعظمُ رجال العالَم الإسلامى من جهة القلم ، وأن محمد بن عبد الكريم[1] كان أعظمَ رجل فيه من جهة السيف ، وأن السيد أحمد الشريف السنوسى كان أعظمَ مجاهد مسلم فى هذا العصرِ ، وأن سعد زغلول كان أكبر زعيم وطنى فى الشرق ، وعلى كلِّ حال فهذه طبقةٌ لسنا منها فى مقدِّمة ولا ساقة ، لقد آتى اللَّه هذه الطبقةَ العليا ما لم يُؤتِ أمثالَنا ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء : 70] .

---

(1) **هو محمد بن عبد الكريم الريفى الخطابى** (1299 - 1382 هـ / 1882 - 1963 م) زعيم الثورة الريفية المعروفة باسمه فى شمال المغرب ، ولد فى بلدة أجدير قرب الحسيمة ، هزم الإسبان فى معركة (أنوال) 1921م ، بلغ قوام جيشه مائة ألف ، وانتصر فى حروب كثيرة ، أنشأ جمهورية الريف ، وتوفى بالقاهرة . (الأعلام : 6/216) .

الساعةُ الحادية عشرة تَتِمُّ ، ولا عملَ لنا إلا ترتيبُ ما كان جُمع فى مطبعة السكر ، وذهبت أُصوله وما بقى منها ، ويفصل لكم أبو الحسن خبرَ هذا الجهاد الشاقِّ .

وقد أعطانى أبو الحسن ملزمةَ الديوان الأُولى المطبوعة التى كنتُ أرسلتُها إليك فأعدتَها إليه مصحّحَةً بخطك ليوصِّلها إلىَّ ، وقد ظهر لى أنه ليس فيها شىء من الغلط إلا كلمة (تجدونى) سقطت منها الواو ، وأما الكلمتانِ المحرَّفتان بل الثلاثُ فقد عجبتُ مِن تحريفها ، وعَدَدْتُها على فهمى كالأصلِ المرسَلِ من عندك ، وما كان لى أنْ أُغيِّرَ شيئًا فيه ، وإن لم يظهرْ لى صوابُه أو حسنُه (الأولى) « ايساد » فى الأصل والطبع ، وقد كتبتُ فى تصحيحها (اللفظة إسآد ، ولا أعلم لماذا جعلها الأستاذ ايساد ؟) . (الثانية) « ويغز » هى هكذا بالزاى فى الأصل الذى يظهرُ أنه مصحّح بخطِّك ، وقد كنتُ صححتُها « يغر » بالراء ، فأعادها إلىَّ مصحّحا المطبعة بالمقابلة ، وقالا إنَّ الأصلَ بالزاى فأمرتُ بإبقائها لاحتمال أنْ يكونَ لها معنى مناسب لا أعرفه ، فأمرتُ بإعادتها بالزاى على القاعدة المقرَّرة ، وهى عدمُ التصرُّف فى الأصل . (الثالثة) « دعاء » قلتم إنَّ أصلَها (رغاء) ولكنَّها فى الأصل المرسَل منكم « دعاء » ، وسأعيدُ الأصلَ لتراه . . . وأُرسلُ إليك ملزمتين أخيرتين طُبعتا لترى كيف رتَّبنا الديوانَ ، وسيكون بعدَ قسم المراثى القسمُ السياسىُّ والقسمُ التاريخىُّ ، ومنه قصيدة صلاح الدين وقصيدة الأندلس ، ويجوزُ أنْ يُجعلَ هذان قسمًا واحدًا . تعبتُ فى فرز هذه الأقسام تعبًا شديدًا لأن القصائدَ مخلوطةٌ والصحائفَ مكتوبةٌ من الوجهين .

وطريقةُ التصحيحِ أنْ يَقْرَأَ مُصَحِّحَا المطبعة مثلَ الطبعِ بالمقابلة على الأصل ، ثم أقرأُها أنا وحدى بلا مقابلة فى الليل غالبًا إذْ أكون فى حجرة النوم أو فى طارمة[1] بجانبها ، فإذا اشتبهتُ فى شىء أمرتُهما بمراجعته على الأصل أو طلبتُ الأصل وراجعتُه ، وقلَّما أجدُ وقتًا أُراجعُ فيه كتبَ اللغة ، وليس عندى منها فى حجرة النوم إلا المصباح والأساس . وأنا الآن فى الدار وحدى ، فقد سافر عيالى وعيال السيد

(1) قبة مصنوعة من الخشب ، تعريب (طارَم) بالفارسية .

عاصم إلى القلمون ونواحيها للاصطياف ، وشغلى كثيرٌ جدًا ، ولكنَّ صحتى الآن أحسنُ مما كنتُ منذُ شهرين لأنَّ أكثرَ طعامى الفاكهة .

قرأتُ أمسِ أنَّ الأميرَ سعودَ سافر ومعه فؤاد بك حمزة إلى باريس فسويسرا ، فأُهنئك بلقائهما ومحادثتهما . وإذا وصل كتابى هذا وكانا فى جنيف فَسلِّم عليهما . وأظنُّ أنَّنى أخبرتُك بأنَّ جلالةَ الملك أنجز وعدَه الذى كان وَعَدَ به إذ كنتم فى حضرته ، وأخبرنى به السيد أمين الحسينى ، فأرسلَ لى مع فؤاد بك ما وَفَّيْتُ به القسطَ السنوىَّ من رَهنية الدار ، وزاد نفقةَ شهر كامل ، وكتبتُ إلى جلالته أستأذنُه فى إفشاء ذلك وشكره عليه فى المجلة وغيرها ، فكتب إلىَّ أنه يَعُدُّنى من الأسرة السعودية ، وشيءٌ حقيرٌ مثلُ هذا يقعُ فى الأسرة لا يجوز ذكرُه . وسَلِّمْ على ولدنا غالب(★) ، وأعِذْ علىَّ مِن خبره ، ودمتَ له ولأخيك .

رشيد

★ ★ ★

ثم بعدَ ارتحال السيد إلى رحمة ربه جاءنى من ابن عمِّه الفاضل الأديبِ الحسيب النسيب السيد عبد الرحمن(★★) عاصم الكتابُ الآتى ، وتاريخُه 5 جمادى الثانية 1354 .

سيدى الأميرُ الجليلُ

أطال اللّه بقاءَكم بالخير والعافيةِ موفَّقِين إلى ما أنتم بصدده من إصلاح على عجل ،

(★) مَن قرأ هذه المراسلات وتأمَّل كيف كان السيد – رحمه اللّه – لا يُهمل فى كلِّ واحدة منها تقريبًا أنْ يَسألَ عن ولدى غالب وعن كيفية تربيته وتنشئته ، وكيف أنّه سألَ أخى عادلاً مرارًا أن يكتبَ له رأيَه فى استعداد غالب – عَلِمَ مقدارَ بِرِّ هذا الرجلِ بإخوانه وعطفةَ عليهم وشدَّة اهتمامه بحُسن تربية ناشئة المسلمين .

(★★) **السيد عبد الرحمن عاصم** هو ابنُ عمِّ السيد الإمام وزوجُ أُخته وشريكُه وتلميذُه ورفيقُه فى أكثر حياته الذى لم يكن يُفارقه ، وهو من السّراة الفضلاء البلغاء الذين قرأوا العلومَ على السيد وغيرِه ، وقد كان والدُه السيد محمد كامل مِن قَبْلِهِ من أهل العلم والفضل والصلاح ، وهو منقطعٌ للعبادة من زمن طويل ، ولا يَزال فى الحياة ، وقد ذَرَّفَ[1] على الثمانين ، نفعنا اللّه ببركة دعائه . هذا ، ومن بقى من أبناء البيت الرضوىِّ الكريم من الأعيان السيدان عبد الغنى ومحيى الدين رضا ابنا أخوى السيد ، وكلاهما من أهل الفضل وأرباب الأقلام ، والسيد محيى الدين من كُتَّاب جريدة (المقطم) .

---

(1) **ذَرَّفَ على الثمانين** : زاد عليها .

ومَن بَقى يدعو إليه بإخلاص على بصيرة وعِلْم غيرُكم ؟ سيدى : **أعادنى إلى مصر** ذلك النبأ العظيم : نبأ وفاة السيد الفجائىّ أثناء عودته من توديع الأمير سُعود فى السويس فى السيارة قبلَ وصولِه إلى مصر الجديدة فى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر الخميس 23 جمادى الأولى و 22 أغسطس ، وقد أتعب ذهنَه وجسمَه ؛ أتعب ذهنَه بإجهاده بالنصائح والوصايا لولىّ العهد - شأنَه مع كل من يتوسَّم فيه خيرًا - وأتعب جسمَه بركوب السيارة إلى السويس ذهابًا وإيابًا ، وطريقُها ليست سهلةً ، وسَهِرَ أكثرَ الليلِ يُفكِّر ويُراجع ، وأبى - رحمه اللّه ورضى عنه - أنْ ينتظرَ فى السويس إلى المساء يستريحُ ، وقال لمن رَجاه ذلك : لا ! سأستريحُ فى بيتى ! .

وكان يُرافقه فى السيارة إبراهيم أدهم بك أصلُه تركىٌّ وشائب وزوج حماة الأمير فيصل والأمير زكى محمد ثنيان شقيقُ حرَم الأمير فيصل ، الأولُ لسانه ثقيل باللغة العربية والثانى يافعٌ . وحدَّثا بأنَّ السيد انصرف إلى قراءة القرآن الكريم ، وما زال يقرأُ حتى أصابه دُوار من ارتجاج السيارة كعادته ، وتقيَّأ ، ثم عاد إلى القرآن يقرؤُه ، وطلب منهما أنْ يُفسحا له ليستريح فى اتكائه على ظهره ، ولم يشعرا إلا وفاضت رُوحه الزَّكية الطاهرة إلى ربِّها راضيةً مرضيَّةً .

ورأى ابن أخيه أدهم أنْ يذهبَ بالسيارة إلى مركز الإسعاف فى مصر الجديدة ، وعبثًا حاولوا الإسعاف ، وبقى فى دار المنار إلى الساعة العاشرة قبل ظهر يوم الجمعة ، وحدَّثنى من رآه فى تلك الساعات الكثيرة أنَّه كان كالنائم المستريح فى نومه العادى ، يعلو وجهه نورٌ ووضاءَة ، ولم يفارقْه لونُه الطبيعى ولا ابتسامته اللطيفة إلا قليلاً ، ولم يَصْفَرَّ اصفرار الأموات ، وهو مَن تعلم فى سَمْنه وتشحمه ، ولم يُشَمّ منه إلا طيبٌ . إنه رأى مقعدَه فى الجنة ، وعلم برضاء اللّه عنه فاستبشرَ وَفَرِحَ . ولكنّه خلَّف لأهله وعارفى فَضلِه الحسرةَ والارتباكَ ، فإنا لِلّه وإنا إليه راجعون . ودفن فى قرافة[1] المجاورين فى قبر جديد بجوار الأستاذ الإمام ، رحمهما اللّه تعالى .

وللسيد مؤلفاتٌ عدّة ما أتمَّها تأليفًا وطبعًا ، وهى :

---

(1) **القرافة** : المقبرة ، وهو اسم قبيلة يمنيّة جاورت المقابر بمصر ، فغلب اسمها على كلِّ مقبرة .

عدد الملازم المطبوعة :

7	الربا ، ولم يَنْقُصْهُ إلا الخاتمة .
3	الجزء الثانى من كتاب السُّنة والشيعة ، وأُوقف إتمامُه من مدَّة .
4	مساواةُ المرأة بالرجل ، وأصل هذه الرسالة مناظرة له مع آخر فى الجامعة المصرية .
3	التفسيرُ المطوَّل الجزء الـ 13 .
17	التفسير المختصر (10) ملازم اختصر بها الجزء 11 و 12 وبعض 13 .
	التفسير المختصر (7) ملازم اختصر بها الجزء 1 و 2 .
	الشرق والشرقيِّين .
	الغزالى وتاريخُه .

وعزم السيدُ على جمع الفتاوى وطبعها مستقلةً عن المنار ، وكلَّف أحدَ الإخوان وضعَ فهرس لها فى مجلَّدات المنار ، وقد فعل . وماذا ترونَ فى هذه الكتبِ هل نُصدِرُها كما تركها مؤلِّفها أم ماذا ؟

هذا ، وآخِرُ ما فَسَّرَ السيدُ من سورة يوسف قولُه تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : 101] . وسأل اللَّه عزَّ وجلَّ أنْ يتوفَّاه مُسلمًا ويُلحقَه بالصالحين ، وأرجو أنْ يكونَ استُجيب دُعاؤه جميعُه .

بينا كنتُ أُرتِّبُ أوراقى القديمةَ وجدت مكتوبًا إلىَّ منكم فى سنة 1928م ، تدعون به السيد للاصطياف معكم فى لوزان ، وتؤكدون عليه بذلك استجمامًا لصحته ، وتُرَغِّبونه أيضًا بوجود فؤاد بك سليم فى لوزان ، وأثنيتم كثيرًا على فؤاد بك ، وقد أطلعتُه على كتابكم أمسِ ، فأثنى هو أيضًا وشكرَ لكم حُسْنَ ظنِّكم . . .

انشرح صدرى يا سيدى الأمير بوعدكم بكتابة سيرةِ السيد ، ومَن أوفى وأَعرَف بنفسيّة السيد ، ومن أقدَرَ وأتْقَنَ لكتابة سيرة السيد من وليِّه وصديقه الحميم أمير البيان

وسيدِ الكاتبين . وأظنُّ مرجِّحًا أنْ أَجْمَعَ الكتب لسيرة السيد **الجزءُ الأول من تاريخ** الأستاذ الإمام وكتاب (المنار والأزهر) ومجلَّدات المنار البالغة 34 مجلدًا ، وقد درس هذه المجلداتِ مستشرقٌ لاهوتيٌ يُدْعى تشارلس آدمس وألَّف كتابًا بالإنجليزية تقدَّم به لجامعة شيكاغو ، ونال الدكتوراة فى الفلسفة ، وتُرجم أخيرًا ونشرته لجنةُ ترجمة دائرة المعارف الإسلامية واسمه « الإسلام والتجديد فى مصر » ، وأكثر من ثلث هذا الكتاب فى السيد ، وأكثرُ الثلثين فى الأستاذ الإمام والسيد الأفغانى .
وأحكى على سبيل الاستطراد أنَّ المستر آدمس زار السيد منذُ عامين أثناء انعقاد المؤتمر الاقتصادىّ بلندن ، وقال له : قد عرفتُك جيّدًا وعرَفتُ الأستاذين الجليلين المصرىّ والأفغانىّ من آثارك ، وألَّفت فيكم كتابًا ، ولكنْ بقيت أشياء عنكم لم أظفر بها فى مجلَّدات المنار والتاريخ ، وهى معرفةُ نشأتكم الأولى ، وكيف تلقيتم العلم ، ومن أساتذتكم وأحوالهم ، وأىّ الكتب التى استفدتم منها كثيرًا ولها تأثير عظيم فى نفسكم ؟ فذكَر السيدُ له ما سأل عنه ، وأنَّ كتابَ (الإحياء) للغزالى هو الذى كوّن أخلاقه ، واستفاد منه كثيرًا ، ولا يَزال يَستفيد منه . ولما انتهى اللاهوتىّ المبشر من أسئلته استأذنه السيد فى أنْ يسأله سؤالاً وهو : أنتم أعلم منى بما وصل إليه الناس من الرُّقىّ المادىّ من سهولة المواصلات والمخاطبة . . . إلخ . فهل هذا الرقى صَيَّرَ الناسَ فى هناء وقرَّبهم من السعادة أم أنهم فى هذه الأيام ازدادوا شقاءً وتعاسةً ؟ قال : بل ازداد الناسُ شقاءً . قال السيد إذن ما الدواءُ لذلك ؟ قال الدكتور تشارلس : الدِّينُ ، وقال السيد مبتسمًا : كلانا لاهوتىٌ يقول إنَّ الدواء هو الدين ، ولكنْ قُلْ لى هل يوجد فى الإنجيل ما نستطيعُ أنْ نُقنعَ به أولئك المؤتمرين بلندن أنه دواء للحالة الاقتصادية ؟ الإنجيلُ يقول : اعطِ ما لقيصرَ لقيصرَ وما لِلَّه للَّه ، وفى دعاء الصلاة : رِزقنا كفافنا . . . إلخ ، وفى الإنجيل ما فيه من التزهيد بالمال والتبغيض به . وقال السيد له : إنْ كان فيه غيرُ هذا فعلِّمنى . ثم قال السيد : أما فى القرآن ففيه ثناءٌ على المال وأمرٌ باستغلالِه ومنعه عن السفهاء ، وجَعَلَ ثواب الإنفاق منه فى سبيل اللَّه ومصالح المسلمين مضاعفًا أضعافًا . . . إلخ . ثم أخذ السيد يسألُ المبشِّرَ هل فى

الإنجيل كذا ؟ وأما فى القرآن ففيه كذا ، وعدَّ مقاصدَ القرآن الكريم العشرة التى فصّلها فى كتاب الوحى المحمدى . . . إلخ . أجذُنى أطلتُ فى سَرْدِ تلك القصةِ ، وما كنتُ أقصد أنْ أُفصِّلَها تفصيلاً ، فمعذرةً سيدى .

ثم إنْ السيد - رضي الله عنه - لم يُفَصِّلْ فى كتابِ التاريخ والمنار والأزهر سيرتَه السياسيةَ ، ومَن لهذا التفصيل بالتأليف غيرُ أَعْرَفِ الناس به الأميرُ شكيبٌ ؟ وعندى من مكتوبات السيد العددُ العديدُ ، كان يتفضَّلُ بإرسالها إلىَّ مُفَصِّلةً آراءه وما يلقاه فى أسفاره فى الحجاز وأوروبا والشام ، وحينما أسافر من مصرَ إلى بلاد الشام فى رحلتى الشتويّة كان يتفضّل أيضًا بإتحافى برسائله ، ويخبرنى بما يجدُ فى دار المنار ومصر . وفى هذه الرسائل فوائدُ كثيرة أقدِّمها لسيدى الأميرِ مؤلِّفِ تاريخ السيد الإمام عليه الرحمة والرضوان .

السيد الإمام كان متوجِّهًا بِكُلّيَّتِهِ إلى ما أعدَّه اللَّه له من بيانِ أسرار دينه وحِكَمِهِ ، وقد فاق الأقرانَ بذلك ، ولكنَّه فى شئونه المالية قليلٌ الاختبار[1] ، ولم يُوَفَّقْ لأحدٍ مالىٍّ يُحْسِنُ القيامَ على إدارة المنار ، ساعده أفرادٌ من أهله يُماثلونه بقلّة الخبرة ورُوح المسامحة ، وكان آخرَون من الغرباء يطمعون بماله .

وقد خلَّف السيد تركةً مُثْقَلَةً بالديون التى تبلغ نحو ألفى جنيه يجبُ أنْ تُؤدَّى . ولنا ديون كثيرة أيضًا لم يستطعْ السيدُ أنْ يُؤَثِّرَ فى نفوس مشتركى المنار ويحملَهم على الوفاء ، وهم معدُودون من أرقى المسلمين وأحسنِهم دينًا ووفاء ومعرفةً . . .

للسيد ولدان محمدُ شفيع رضا دخل فى السنة 21 من عُمره ، وقدَّمنا له طلبًا ليلتحق بمدرسة الهندسة ، وعنده استعدادٌ طيّب لدروسها ، والمعتصَم رضا وعُمره 14 سنة وفى السنة الثالثة من الدراسة الثانوية ، وأختُهما نُعمى رضا نالت الشهادة الابتدائيةَ قبلَهما .

هذا حالُنا وما وصل العلمُ إليه ، وكُلُّ حال تُحَوَّلُ .

أخوكم عبد الرحمن عاصم

---

(1) التجربة .

وجاءنى من **السيد عبد الرحمن عاصم** بتاريخ 7 رجب 1355 و 24 أيلول سنة 1936 الكتاب التالى :

سيدى الأميرُ المجاهدُ الجليلُ

السلامُ عليكم ورحمة اللَّه تعالى وبركاته ، وبعدُ فإنَّ رسائلَ عطوفةِ الأمير حلَّت عندى مَحَلَّ رسائل مولاى السيد الإمام ، أستفيد منها ، وأُسَرُّ وأفخر بها ، وقد طال انتظارى وشوقى إليها .

إننى اليوم فى سُرورٍ ومَرَح لتوقُّعى قربَ اللقاء ، وقد جاءت البشائرُ تسبقُ الوفدَ السوريَّ المفاوِضَ بأنَّ الحريةَ عادت إلى الأحرار المجاهدين بالعودة إلى وطنهم .

ذكرتُ لرياض بك الصُّلحِ[1] يومَ سفره إلى أوروبا كَلِمَتَكُم التى تَتمنَّون بها المعيشَة الهادئةَ فى الوطن بين المحابر والكتب للتأليف والتحبير بمناسبة عودتى إلى القلمون ، وإنى ذكرتُ هذا لموظفٍ موثوقٍ به عند الفرنسيين ، فقال الموظف : من السهل النجاحُ بالسعى لتحقيق هذه الأمنية ، وأردت أنْ أستشيرَكم ، ولكنَّ رياض بك أشار بالانتظار لعلَّ العودةَ تكون من نتائج المفاوضة فى الاستقلال ، وقد تحقق رأيُه والحمدُ لِلَّه .

وجدتُ فى مذكرات السيد الإمام - رحمه اللَّه ورضى عنه - مذكرةً استحسنتُ نقلها إليكم ، وهى هذه : بتاريخ 13 رجب سنة 1353 و 23 أكتوبر سنة 1934 أرسلتُ كتابًا جوابيًا إلى الأمير شكيب فى خمس ورقات ، بَيَّنتُ له فيه ما أنا متوجّه إليه من الإصلاح الإسلامى وما بيدى من المؤلفات ، ومن أهمِّها كتاب « الربا والمعاملات المالية فى الإسلام » وعزمى على الشروع فى التفسير المختصر ، وما يَعوقُنى من العسرة المالية وما علىَّ من الدين ليكون على بصيرة منه لأنه المؤرِّخ الإسلامى الوحيد فى هذا العصر » . رحم اللَّه السيدَ ، وأطال بقاءَ الأمير فى خير وعافية منافِحًا[2] عن الإسلام مؤيَّدًا برُوح منه تعالى . وتفضَّلوا بقَبول وافر الاحترام .

عبد الرحمن عاصم

---

(1) **هو رياض بن رضا بن أحمد باشا بن محمد الصلح** (1310 - 1370هـ / 1893 - 1951م) ولد فى صور ، وحصل على إجازة الحقوق فى الآستانة ، وحكم عليه بالنفى فى ديوان عالية ، رحل إلى مصر وإلى أوروبا ، وتولىّ رئاسة الوزارة عدّة مرات فى لبنان ، جاهد الاستعمار طويلا ، وقتل وهو فى طريقه إلى بيروت ، ودفن بجوار قبر الأوزاعى . (الأعلام : 3/ 38) .

(2) مدافعًا .

ثم جاءنى من السيد عبد الرحمن عاصِم كتابٌ آخرُ بتاريخ 10 شعبان سنة 1355 و 27 تشرين أول سنة 1936 أخذت منه ما يلى :

سيدى الأخُ الأميرُ المجاهدُ الجليلُ

تَشرَّفْتُ بكتابكم المؤرَّخ فى الـ 29 من رجب الفردِ ، وشكرتُ لكم إحسانَكم المتكرِّرَ . ومن مدةٍ كتبتُ إلى أخلص المخلصين من المصريين فى محبّة مولاى السيد الإمام - عبد الله أفندى أمين - أنَّ أحسنَ الناس وفاء وأكثرَهم ثمرةً لإخوانى أبناءِ السيد بعدَ وفاته - رحمه اللَّه - سعادة الأمير شكيب بإيثارهم على نفسه ، وذكرتُ له فضلَكم السابقَ واللاحقَ . أطال اللَّه بقاءَكم فى الخير والعافية ، وأدام النفعَ بكم . كان علوبة باشا قَرَّرَ بتوصية الحاجّ أمين أفندى الحسينى شراءَ كتبٍ بمائتى جنيه ثم أهملَتْ القرارَ وزارةُ الوفدِ ، واليوم وصل إلىَّ أنَّه تقرَّر شراءُ كتب بنحو 70 جنيهًا . وكانت الجامعةُ المصرية راغبةً بشراء المكتبة الخُصوصية ، والراجحُ أنَّ رئيسها لطفى باشا السيد صرَف النظرَ عن ذلك .

نَعَمْ كان عندنا نَسَبٌ محرَّرٌ مسجَّلٌ ، وفقدناه فيما فقدنا من آثار الأجداد بظلم الحكَّام السابقين إذ كانوا يُصادرون فى بعض الأحيان كلَّ ما فى الدار من كُتب وأثاث فى زمن الثورة المصرية وبعدها ، وآخرُ العهد بذلك فى أيام السلطان عبد الحميد ، وكانت الحكومةُ تُرسل عساكرَها من وقت لآخر للبحث عن المنار أو رسائل صاحبه ، وتجمع ما تجدُ فى المنزل من كتب وورق وتحملُه إلى طرابلسَ ولا تُعيد منه شيئًا ، والراجحُ أنها كانت تَحْرِقُهُ ، وقد يكون فى تلك الكتب نُسَخٌ مِن القرآن الكريم وبعض البراءات السلطانية بهبات للأجداد ، وبقى عندى بعضُها ، فإنْ استحسنتم فإنى أُرسلُها إليكم .

إلى أنْ يقولَ :

لستُ أدرى هل أنا رقيقُ القلب إلى درجة الضعف أم أنَّ كلام سيدى الأمير يُؤَثِّرُ فى نفسى ذلك التأثيرَ العميقَ الذى صيَّرنى لا أستطيعُ أنْ أملك دمع عينى فى المرّات التى

حاولتُ فيها قراءةَ كلمتِكم التى تمثلتُم بها السيد أمام عيونكم والدموع تجول فى المآقى ، وهو يعاتِب على ترك أُسرته من بعدِه . . . ويُقيمُكم مقامَ العمِّ لهم . وأنتم والحمد للّه خيرُ الأعمام والأخوال فى مساعدتكم وإيثاركم على نفسكم .

عاصم

وقد وَقَفَ بنا القلمُ عند هذا الحدِّ بعدَ الاشتغالِ بهذا التأليفِ مدةَ شهرين ونصفِ شهرٍ واصلينَ فيه الليلَ بالنهار ، فنسألُ اللّه أنْ يتقبَّل عملَنا هذا الذى لم نَقصد به رئاءَ[1] ولا سُمعةً ، وإنما قصدنا القيامَ بواجب معرفة الفضل العظيم الذى كان للمترجَم السيد رشيد رضا على العالم الإسلامى وبخاصة على هذا الفقير إليه تعالى ، بالغين فى كتابنا هذا منتهى الطاقة من التدقيق والتحرِّى ، وكان الفراغُ من تأليفه فى التاسع من صفر الخير سنة 1356 الموافق 21 من شهر أبريل سنة 1937 ، وذلك فى مدينة جنيف فى سويسرا ، والحمدُ لِلّه أولاً وآخرًا .



(1) **راءاه مراءاة ورئاءً ورياءً** : أراه أنه متصف بالخير والصلاح على خلاف ما هو عليه .

ملحق

كُنَّا سألنا الأخَ السيدَ عبدَ الرحمنِ عاصم ابنَ عمِّ الفقيدِ – قدّس اللَّه رُوحه – عما إذا كان عندهم شجرةُ نسب تُثبت تحدُّرهم من العِترة الشريفة النبوية نظرًا لتوارثِ كونِهم مِن الأشراف الحُسينية ، فأجابنى أنه لا يَزال عندهم سِجّلاتٌ ووثائقُ تُثبت نسبتَهم هذه ، ولكنَّ الشجرةَ مفقودةٌ بما توالى عليهم فى زمن السلطان عبد الحميد من الاضطهادِ وكبسِ[1] البيوت وأخذِ الأوراقِ ، فعندما تَلَقَّينا هذا الجوابَ اكتفينا بما ذكره الأستاذ الفقيدُ عن نسبهم ، وأنه معروفٌ بالتواتر ؛ ولكنَّنا فى هذه الأيام الأخيرة تلاقينا مع السيد أحمد الحسينى وزيرِ الأشغال النافعة فى لبنان الكبير ، وبينما نتحدثُ – والحديثُ شُجُونٌ – وصلْنا إلى موضوعِ نسبِ السادةِ الحُسينية أئمةِ الشيعة فى جبل لبنان ، وهم الذين منهم السيد أحمد المشار إليه ، وكان منهم عمُّه السيد على الحسينى قاضى مذهب الشيعة فى الجبل ، ومسكنُهم القريةُ التى يُقال لها مَزرعة السيّاد فى شمالىّ كِسروان إلى الشرق ، فسألتُ السيدَ أحمدَ عن نَسبِهم وتاريخ وجودِهم فى لبنان ، وهو مِن صدقِ اللهجة والنَّبالة بالمقام الذى لا يَخفى ، وقد اتفقت الكلمةُ على تزكيته وتوثيقهِ ، فقال لى إنَّهم فى الأصل من الحجاز كسائر الأشراف ، ثُمَّ انتقلوا إلى العراق ، ونزلوا النجفَ ، ثم جاءوا من العراق إلى الشام ونزلوا بكرك نوح ، وهى قرية تجاور معلقة زحلة ورد ذكرها فى معجم البلدان ، يقول ياقوت الحمويّ إنَّها فى أصل جبل لبنان . قال السيدُ أحمدُ الحسينى حفظه اللَّه : ثم انتقل أسلافُه إلى قرية قمهز من لبنان ، ثم إلى قرية أخرى يُقال لها كفر حيال ، ثم إلى مزرعة السياد التى هم فيها الآن ، ولكنَّ فرعًا من عِتْرَتِهم هذه بدلاً من أن ينزلوا مع أولاد عمهم فى مزرعة السياد ذهبوا فقطنوا قرية القلمون على سيف البحر بقرب طرابلس الشام ، قال : ومنهم آلُ رضا الذين منهم السيدُ رشيد وعائلته .

فسألتُ السيد أحمد الحسينى : هل هذا معروف عندهم من القديم ؟ فأجابنى

(1) أى دخول جند السلطان إليها دون إذن أهلها .

نعم ، ولما كان المذكور ثقةً صدوقًا ، وكان يدرى ما يقول ، وَجدتُ من الضرورىّ نقل كلامه هذا فى ترجمة السيد رشيد لأنَّ الناسَ مأمونون على أنسابهم ، ولأنَّ السادةَ الحُسينية المذكورين صحة نَسبهم إلى آل البيت تغنى عن التعريف ، وهم أعلم بمن هو منهم وبمن هو ليس منهم .

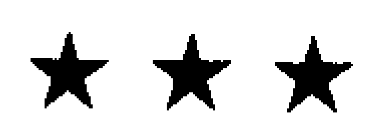
وقد أَطْلَعْنا الشيخَ عبدَ الرحمن عاصم ابنَ عمِّ السيد محمد رشيد على ما ذُكر أعلاه فكتب إلينا ما يلى :

وصل كتابُكم ومعه كلمتُكم الطيبة فى نَسب مولاى السيد ، وعرضتُها على سيدى الوالد فأقرَّها ، وهو يُسَلِّمُ عليكم . وجَدُّنا الأعلى الذى اتخذ فى القلمون مسكنَه وبنى فيها مسجدَه اسمه : منلا على خليفة البغدادى ، ونسبتُه إلى بغداد تؤيِّد روايةَ حضرة (ابن العمِّ) السيد أحمد الحسينى - الوزير اللبنانى - وكان المرحومُ السيد محمد رشيد نفسُه كلَّف نور أفندى العرب أنْ يَطلب صورةَ النسب من سيد من السادات الحُسينية أئمةِ الشيعة الساكنين فى جِهة برج البراجنة ، وكان مولاى السيد يُكلِّفنى بتذكير نور أفندى بالطلب ، وذاك السيدُ يَعِدُ ، وكان مُسِنًّا ، تُوفِّى رحمه اللّه ؛ وإنما طلب السيدُ رشيدٌ ذلك النَّسب لعلمِه بأنه موافقٌ للنسب الذى كان محفوظًا عندنا .

وسلسلةُ نسب أجداد السيد الإمام الذين جاءوا من العراق إلى ماردين ثم إلى القلمون هكذا : السيد محمد رشيد بن السيد على رضا بن السيد محمد شمس الدين بن السيد محمد بهاء الدين (وأخوه السيد أحمد هو الذى خطب ابنة مصطفى آغا بربر حاكم طرابلس فَزَوَّجه إياها بعدَ التهديد) ابن السيد منلا على خليفة البغدادى .

إلى أنْ يقول : فحيَّا اللّه سيدى الأمير وبيَّاه ، وجزاه خيرَ ما يجزى محسنًا على إحسانه ، فما أوفى بيانَكم لمكانة السيد السياسية وإصابةَ رأيه بإحداثها من قَبْلِ وقوعها . . . ونجاحه فى التوجيه إلى أغراضها ، وإنه كان موضعَ ثقة الملوك والأمراء والزعماء ، وما أحسنَ دفعَكم لاعتراض المعترضين على كتابة السيد تاريخَ نفسِه بكلام مفيدٍ مُقنعٍ لا يَدَعُ مجالاً لمنصف أنْ يَنْبِسَ بِبِنْتِ شفة معترِضًا . وما ألطفَ تلك الحواشىَ المؤيدة لكلام السيد أو المبيّنة له وما فيها من لطائفَ مستملَحةٍ ، وأحسنَ اللّه إليكم إذ بينتم أنَّه كان الأولى والأصَحُّ فى تسمية سيدتى الوالدة ذلفاء لا زلفى . . . إلخ .

فهرس الكتاب



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 1605 / 2006م

الترقيم الدولى : 7 - 269 - 297 - 977